السيرة النبوية

أ.د.راغب السرجاني



نسخة غير رسمية

السيرة النبوية

أ.د.راغب السرجاني

"نسخة غير رسمية"

مقـدمةهـامة

ما بين أيديكم من الصفحات هو سيرة خيرة البشر السيرة النبوية والتي هي عبارة عن التفريغ النصي لمحاضرات "السيرة النبوية" والتي ألقاها ا.د.راغب السرجاني (حفظه الله) في 46 محاضرة مسجلة ومتوفرة على العديد من المواقع على الإنترنت واشهرها موقع اسلام ويب islamweb.net والذي تم نقل النص الكتابي عنه ثم قمنا بإجراء مراجعة للنص مع المحاضرات الصوتية والتأكد من سلامة النص كلمة بكلمة ليتطابق النص الكتابي مع النص المسموع قدر الإمكان.

كان من دافع الطباعة هو وجود صورة مطبوعة تحوي كل المعلومات التي سمعناها في المحاضرات الصوتية حتى يتسنى لنا مذاكرتها ومراجعتها مراراً فنحن نحب رسول الله ونأنس بسيرته وتطيب الحياة بذكره ونشتاق لمرافقته ﷺ.

لم تتم مراجعة هذه النسخة من قبل الدكتور راغب السرجاني لعدم تيسر ذلك لذا وجب التنبه أنه مجهود شخصي وإجتهاد قد يشوبه العور لكن أخذاً بحديث نبينا ﷺ "سددوا وقاربوا" فقد حاولنا المقاربة لأفضل إخراج حتى تتوفر بين أيدينا نسخة كتابية في أحسن صورة استطعنا لها سبيلا.

أخيراً بلغوا سنة النبي لأهل الأرض ولا تبخلوا بالصلاة والسلام عليه... **فصلوا عليه وسلموا تسليما.**

د . راغب السرجاني

طبيب ومفكر مصري؛ ولد عام 1964م بمحافظة الغربية بمصر وتخرج من كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز، مع مرتبة الشرف عام 1988م، ثم نال درجة الماجستير عام 1992م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز ، ثم نال الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر و أمريكا عام 1998م "في جراحة المسالك البولية و الكلى).

أتم حفظ القرآن الكريم سنة 1991م.

على مدار أكثر من عشرين عاما كانت و لا تزال له اسهامات علمية و دعوية ، ما بين محاضرات و كتب و مقالات و تحليلات، ... و قد حصل الدكتور راغب السرجاني على المركز الأول في جائزة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة لعام 2007. صدر للدكتور راغب السرجاني الكثير من الكتب و الأبحاث في التاريخ و الفكر الاسلامي وله المئات من المحاضرات و التسجيلات الاسلامية المسموعة والمصورة ، وما بين أيدكم اللآن هو نتاج أحد تلك السلاسل المسموعة. بارك الله في علمه ووقته وجعل أعماله في ميزان حسناته.

فهرس السيرة النبوية

العهــد المكي

5 . الــدعوة ســراً

6 . الــدعوة جهــراً 115

7 . تــربية الثبــات 135

8.هجرة الحبشة الأولى 161

9 . هجـرة الحبشـة الثـانية 183

10 . إسـلام عـمـر 203

11 .عام الحزن 225

12 . بيعة العقبـة الأولى 249

13 . بيعة العقبة الثانية 275

14 . الهجرة إلى المدينة 297

العهــد المــدني

18 اليهود والــدولة الإســلامية 381

19 . الطـريق إلى بـــدر 405

20 . أهل بـــدر 433

21 .يوم بـــدر 454

22 . نصر بدر 484

23 . ما بعد بدر 502

24 . الطريق إلى أحـد 536

25 . يوم أحـد 552

26 . الخروج من مصيبة أحـد 578

27 . الطريق إلى الأحزاب 611

28 . الأحزاب 633

29 . المسلمون بعد الأحزاب 659

30 الطريق إلى الحديبية 687

31 . صلح الحديبية 711

32 . ما بعد الحديبية 735

33 . عالمية الإسلام 759

34 . فتح خيبر 789

35 قوة الإسلام 815

36 . نصر مؤتة 847

37 الطريق إلى مكة 871

38 . فتح مكة 907

39 . إسلام مكة 935

44 . مـا بعـد تبوك 1087

45 . حجة الوداع 1115

46. خاتمة السيرة 1141

1

السيرة وبناء الأمة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فها نحن اليوم مع موضوع من أهم الموضوعات في حياة المسلمين، بل في حياة الأرض بأكملها، نحن مع سيرة رجل هو أعظم رجل خلقه الله عز وجل منذ خلق آدم وإلى يوم القيامة.

الناس عادة يتفوقون في مجال ويتأخرون في آخر، لكن هذا الرجل تفوق في كل مجال، تفوق في عبادته، في معاملاته، في شجاعته، في كرمه، في حلمه، في زهده، في حكمته، في ذكائه، في تواضعه، في كل شيء، إن هذا الرجل بحق قد سبق غيره! فمع سيرة الإنسان الذي خاطبه الله عز وجل وقال له: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4]. بل قد أقسم الله جل وعلا بحياة هذا الرجل فقال: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر:72]. مع سيرة الرجل الذي لن يحاسب الله عز وجل الخلائق يوم القيامة إلا عندما يشفع لهم، وكل نبي في الموقف لن يشفع حتى لأتباعه المؤمنين به إلا بعد أن يشفع هذا الرجل.

مع سيرة الرجل الذي لن ندخل الجنة إلا خلفه، ولن نروى يوم القيامة إلا من حوضه وكوثره، وهذا متوقف على معرفتنا بسيرته ونهجه، واتباعنا له فيهما، فإن صنعنا ذلك كانت لنا النجاة في الدنيا والآخرة، وإن جهلنا طريقته أو خالفناها قيل لنا: سحقاً سحقاً.

نحن أمام سيرة رسول الله ﷺ، الماحي الذي محا الله عز وجل به الكفر، وأول من يبعث من الخلائق يوم القيامة، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وصاحب المقام المحمود والحوض المورود ﷺ. أمام سيرة الرجل الذي فتحت له أبواب السماء ليخترقها بجسده إلى ما بعدها، لما صعد رسول الله ﷺ مع جبريل في رحلة المعراج إلى السماء وطرق الباب أجاب الملك فقال: (من)؟ قال: (جبريل). قال: (ومن معك؟) قال: (محمد). قال: (أو أرسل إليه؟) قال: (نعم) ففتح باب السماء، ودخل رسول الله ﷺ إلى مكان لم يدخله بشر قبل ذلك وهو حي. نعم، هذا هو الرجل الذي وصل إلى مكان لم يصل إليه بشر، ولم يتجاوزه حتى جبريل الملك العظيم، ويصل إليه رسول الله ﷺ.إنه الرجل الذي شاهد الجنة والنار بعينه لا بعقله.

ونحن هنا لا نقارن عظمة هذا الرجل ﷺ بعظمة بوذا وكونفوشيوس وهتلر ولينين وستالين كما فعل صاحب كتاب الخالدون المائة، وإن كان قد جعل أعظمهم محمداً، والعجيب أنك تجد الناس فرحين بذلك الكتاب. إن مقام هذا الرجل لا يسمح إلا بأن نضعه في مصافِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ في رتبة أعلى من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكل أنبياء الله عز وجل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، في مقام ضخم جداً نقارنه بالملائكة أجمعين، بملك الأرزاق، بملك البحار، بملك الجبال، بحملة العرش، بل وبجبريل عليه السلام، جبريل لما وصل إلى سدرة المنتهى لم يستطع أن يتقدم، وقال لرسول الله ﷺ: (لو تقدمت خطوة لاحترقت)، ولكن الرسول ﷺ مكنه الله عز وجل أن يتقدم، فتقدم للقاء الله عز وجل.

إن عظم مقام هذا الرجل جعل له ذكراً خالداً، وعلى قدر هذه العظمة يجب أن يكون اهتمامنا بسيرته وحياته، وبكل دقيقة مرت من حياته الشريفة ﷺ.

حال أمة الإسلام في الوقت الحاضر

إخواني في الله؛ إن دراسة السيرة النبوية مهمة في كل زمان، وهي ولا شك في زماننا أهم، فحال الأمة وما أصيبت به من تصدع وتفكك وإنهيار في أجزاء، وإنحلال في أجزاء أخرى، ما هو إلا أزمة خطيرة تمر بها أمة الإسلام، ونجد تبايناً كبيراً بين ما وصف الله عز وجل به هذه الأمة في كتابه الكريم وبين حال الأمة الواقع الذي نراه بأعيننا، فالله عز وجل يقول في كتابه مثلاً: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:110]. ويقول: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:143].

ثم تأتي بعد ذلك لتنظر إلى واقع المسلمين وحالهم، فتجد التأخر في كل المجالات التي يجب أن تنافس أمتنا غيرها فيه، فمثلاً على الصعيد العسكري انظر إلى أي دولة إسلامية، وضع في الحسبان أن على مساحة الأمة الإسلامية أكثر من ستين دولة، تجد أن معظم الدول الإسلامية تسليحها أقل من تسليح الدول المحاربة لها. ولأول مرة في التاريخ نسمع عن دولة تؤمر بتدمير أسلحتها بنفسها وإلا عوقبت، والدول المحيطة من دول العرب والمسلمين اعتقدت أن هذا هو الطريق الأمثل للنجاة، ثم تتتابع إليها الخطابات الحادة، والكلمات اللاذعة: ما زال هناك سلاح لم يدمر، ما زال هناك سلاح مداه طويل، ما زال هناك سلاح عند عدوك مثله ويصبح الأصل أن تدمر الدولة أسلحتها بنفسها، وإلا عوقبت.

لأول مرة في التاريخ نسمع عن دول توقع على نفسها أنها لا تنتج سلاحاً يمتلكه عدوها، بل ونفتخر بهذا الأمر، ويعلن بصيغة الفخر، وأننا نشارك في هذه المعاهدات، مع أن معظم دول

الأرض عندها نفس السلاح، وتصبح منتهى أحلام المسلمين أن ينزع السلاح من إسرائيل فقط، مع أنهم يعلمون أن فرنسا وإنجلترا وأمريكا وروسيا وحتى كوريا تمتلك نفس السلاح، لكن لا ينزع السلاح من هؤلاء.وما هذا في الحقيقة إلا تأخر عسكري رهيب لم يسبق في تاريخ المسلمين.

أما الجانب الاقتصادي فإن التأخر فيه غير مفهوم مع إمكانيات الأمة الضخمة، فأمة الإسلام مشتهرة بالبترول والمعادن والكميات الهائلة من منتجات المواد الخام، ومن سيطرتها على ممرات بحرية، ولا أحد يعرف ما سبب هذا التخلف الضخم مع كل هذه الأمور؟!

كذلك يوجد تأخر علمي، بل فجوة هائلة بيننا وبين غيرنا تقدر بمئات السنين، لا أقول بعشرات السنين أو بآحاد السنين.

تأخر حتى في الوحدة، فلا تجد دولتين مسلمتين إلا وبينهما صراع ونزاع على الحدود. وهذا أمر يشق كثيراً على النفس.

حتى في المجال الأخلاقي، نحن دائماً نقول: إن الحضارة ليست هي الأشياء المادية فقط، ليست السلاح أو المعمار أو الأموال، بل الحضارة أشياء كثيرة مجتمعة مع بعضها، ومن أهمها الأخلاق، ثم انظر إلى الأمور الأخلاقية في العالم الإسلامي، لا تسأل عن كيفية التعامل بين الجيران في البلاد الإسلامية، أو كيف يعامل الموظفون الجمهور، أو ما هي أخبار الرشوة والفساد، وأخبار الإعلام وشاشات الأفلام، والإباحية المفرطة في الأغاني والإعلانات والشوارع وفي كل مكان، حتى في أماكن العلم كالجامعات والمدارس نرى أموراً كنا نتخيل أنها لا توجد إلا في ملهى ليلي، ثم وجدناها في الجامعة، في مكان العلم، في المكان الذي يفترض أن تركز الناس فيه أكثر تركيز على رفعة هذه الأمة.

عوامل بناء الأمة وتحقيق النصر

من المؤكد أن القرآن حق لا باطل فيه، وصدق لا كذب فيه، فالقرآن يقول: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:110]، ويقول: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:143].

فإذا كان القرآن صادقاً وحقاً، فالخلل والعيب فينا نحن عندما لم نطبق تعاليمه، ولم نطبق سنة نبينا ﷺ جيداً، لذلك حصل فينا ما حصل.

وأنا مع هذا كله لا أدعوكم إلى الإحباط، ولكن أدعوكم إلى إعادة بناء الأمة الإسلامية، وترميم الصدع الكبير الذي حدث، فيها، وأقول لكم: هناك أمل كبير في إعادة البناء، بل هناك يقين في إعادة البناء، ووالله لسوف تقوم الأمة من جديد وتنهض؛ لأن هذا ما وعد الله عز وجل به، والله لا يخلف الميعاد، إن الله عز وجل يقول في كتابه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر:51]، ليس فقط يوم القيامة، بل في الحياة الدنيا أيضاً. يقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف: (إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها) فسيبلغ ملك أمة المسلمين حتماً مشارق الأرض ومغاربها، فهذا وعد ملك الملوك على لسان الصادق المصدوق ﷺ.

لكن في مسألة اليقين لا بد من الحديث عن نقطتين عليهما محور هذه المسألة.

اليقين الجازم بوعد الله بالنصر

النقطة الأولى: أننا نريد يقيناً مثل يقين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين خاصة في غزوة الأحزاب، والأحزاب متجمعة حول المدينة المنورة في عشرة آلاف رجل، وهذا رقم ضخم جداً في زمان الجزيرة العربية وقت رسول الله ﷺ ضائقة شديدة جداً، والرسول ﷺ في وسط هذه الضائقة يضرب الحجر الضخم الذي استعصى على الصحابة ويقول: (الله أكبر؛ أعطيت

مفاتيح الشام، والله؛ إني لأرى قصورها الحمراء الساعة، ثم ضرب الثانية وقال: الله أكبر؛أعطيت مفاتيح فارس، والله؛ إني لأرى قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله! إني لأرى قصور صنعاء من مكاني).

تخيل حال الصحابة وهم يسمعون بشرى رسول الله ﷺ بفتح فارس والشام واليمن وهم في هذه الضائقة ماذا كان حالهم؟! أما المؤمنون فقد قالوا كما حكى الله عز وجل عنهم في كتابه الكريم: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب:22]. في هذه الضائقة علموا أن نصر الله عز وجل قريب؛ لأن نصر الله عز وجل يأتي بعد اشتداد الأزمات، لكن المنافقون لما شاهدوا الفجوة الواسعة بين إمكانيات المسلمين في المدينة المنورة، وبين إمكانيات الأحزاب، قالوا كما حكى الله عز وجل عنهم في كتابه الكريم: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب:12]، هكذا قال المنافقون لما اعتمدوا في تقييمهم على رؤية الفجوة الواسعة الضخمة بين حال المؤمنين في هذه اللحظة وبين حال الكافرين، لم يقدروا قدر الله عز وجل، لم يقدروا عظمة الله عز وجل، لم يقدروا قوة الله عز وجل، ولما كان المنافقون لا يؤمنون كان هذا هو التقييم اللائق بهم، أما المؤمنون الصادقون الذين يعلمون قدر الله عز وجل وعظمته فقد علموا أن النصر قريب؛ لأن الأزمة اشتدت. وها هي الأزمة قد اشتدت على الأمة الإسلامية واستحكمت حلقاتها، وسيأتي النصر إن شاء الله رب العالمين.

الدور المنوط بكل فرد وجماعة في بناء الأمة وفق المنهج الشرعي

النقطة الثانية: ما هو دورك في بناء هذه الأمة الإسلامية؟ نحن دائماً ننتظر أناساً من الخارج تأتي لتعيد بناء الأمة الإسلامية من جديد، لكن أين الدور الذي كلفك الله عز وجل به لإعادة إعمار الأمة الإسلامية، أو لإعادة ترميم الأمة الإسلامية لكي تعود إلى الصدارة كما وصفها الله عز

وجل بقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:110] {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر:38] {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام:164]. إن قصر كل الناس في أعمالهم فلن يحاسبك الله عز وجل إلا على تقصيرك أنت فقط، وهذا من عدل الله عز وجل. كل واحد منا يريد أن يعيد بناء الأمة على طريقته، وعلى منهجه، فهناك من يقول: إن كنا نريد أن نعيد بناء الأمة الإسلامية لا بد وأن نأخذ المنهج الاشتراكي، ورغم ما استفاض من أنه منهج خطأ، إلا أن بعض الدول ما زالت مستمرة في النفاح عنه، مع أن الدول التي اخترعته قد تخلت عنه. ثم جماعة أخرى تقول: نأخذ المنهج الرأسمالي. وأخرى تقول: نجرب القانون الفرنسي، وأخرى الإنجليزي، وأخرى الإيطالي وهكذا نلملم من الشرق ومن الغرب، ونختلف ونتصارع ونتشاحن؛ لأننا مختلفون على المناهج، فعندما يأتي وقت الاختلاف من نحكم؟ اسمع لنصيحة رسول الله ﷺ في مثل هذا الموقف، يقول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وصححه عن العرباض بن سارية رضي الله عنه وأرضاه، قال: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)، وهذه هي المشكلة التي نحن واقعون فيها الآن، يا ترى بمنهج من نأخذ؟ نأخذ بمنهج الشرق أو الغرب!! ثم قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة). من هنا كانت دراسة حياة رسول الله ﷺ، ودراسة حياة الخلفاء الراشدين المهديين أمراً حتمياً لمن أراد أن يهتدي إلى الطريق الصحيح لبناء الأمة الإسلامية، ولن ينفع أن نبنيها على غير منهج رسول الله ﷺ.

سبب الاقتصار على ذكر بعض جوانب العهد المكي في حياة النبي ﷺ

في هذه المجموعة من الدروس نتحدث عن جانب من حياة رسول الله ﷺ، وهو العهد المكي من السيرة النبوية، وليس الغرض من وراء هذا المجموعة استقصاء كل واقعة حدثت في حياة رسول الله ﷺ في مكة، فهذا أمر يطول شرحه، ويعجز البيان عن وصفه لأمور:

كثرة الوقائع والتفاصيل المسجلة في حياته عليه الصلاة والسلام

الأمر الأول: أن الفترة المكية قد سجلت كل وقائعها بدقة، وبالذات منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى أن مات، كل لحظة في حياة رسول الله ﷺ منذ أن بعث وإلى أن مات سجلت، ولم تسجل حياة إنسان على وجه الأرض بهذه الدقة، حتى دخل التسجيل إلى أدق تفاصيل حياة الرسول ﷺ، ولعل من حِكَمِ زواجه ﷺ من عدد كبير من النساء: أن ينقلن الحكمة التي تعلمنها من حياة رسول الله ﷺ الشخصية الداخلية التي لا يراها غيرهن، وما هذا التسجيل الضخم الدقيق إلا لأنه ﷺ قدوة كاملة، وليس بعده نبي إلى يوم القيامة، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21]. إذاً: نحن مطالبون باتباع رسول الله ﷺ في كل خطوة من خطوات حياتنا، في رضاه وغضبه ﷺ، في حزنه وسروره، وفي حله وترحاله، إذا رضي فهذا هو الموضع الذي يجب أن نرضى فيه، وإذا غضب فهذا هو الموضع الذي يجب أن نغضب فيه.

التنوع في حياته عليه الصلاة والسلام

الأمر الثاني الذي جعل إحصاء كل أمر في حياة الرسول ﷺ أمر صعب: التنوع العجيب في حياة رسول الله ﷺ، فتارة يكون مطارداً معرضاً للأذى والاضطهاد كما في حادث الهجرة، يخرج الرسول ﷺ هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه فارين من أهل مكة ورسول الله

ﷺ في ذلك مطلوب الرأس، وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، إلى أن يصلا إلى المدينة المنورة بعد أيام من الفرار، وفي نفس سيرة هذا الرجل العظيم ﷺ تجد أنه ممكنّ في الأرض، يرسل الرسائل إلى كل عظماء الأرض:

من محمد ﷺ إلى كسرى عظيم فارس.

من محمد ﷺ إلى قيصر عظيم الروم.

إلى المقوقس عظيم مصر.

انظروا الفرق الضخم الهائل بين حالة كان يعيشها ﷺ، وبين حالة أخرى عاشها ذاته، تارة تجد أنه ﷺ يعاهد قوماً، وتارة يحاربهم، تارة يكون فقيراً معدماً يربط على بطنه حجرين من الجوع، ولا يوقد في بيته النار ثلاثة أهلة في شهرين، وفي وقت آخر من السيرة تجد أن هذا الرجل ذاته قد أصبح غنياً تأتيه الأموال من كل بقاع الجزيرة العربية، وينفق الأموال في سبيل الله إنفاقاً غير مسبوق، يعطي هذا مائة من الإبل، وهذا مائة من الإبل، وهذا أكثر، وهذا أقل ينفق إنفاقاً عجيباً! هذا هو نفس الرجل الذي كان يتعامل مع المشركين واليهود والنصارى والمنافقين والمؤمنين، فتارة ينتصر عليهم، وتارة يهزم. كل تنوع ممكن يحصل في حياة أمة قد حدث في حياة رسول الله ﷺ.

هذا أمر يجعل إحصاء كل مواقف السيرة أمر صعب جداً، خصوصاً وأنت تريد أن تلاحظ كل هذه المتغيرات في حياة رسول الله ﷺ ضمن مجموعة واحدة من الدروس.

أثره ﷺ في بناء الجيل الفريد الذي غير مجرى التاريخ

الأمر الثالث: أن هناك جيلاً رائعاً عظيماً عاش مع رسول الله ﷺ، هذا الجيل العظيم خلق أحداثاً لا نهاية لها، تعجز عشرات المجلدات عن حملها. وهكذا الإنسان العظيم إذا عاش في

مجتمع من الناس ليست لهم قيمة يضيع بينهم، لكن الرجل العظيم هو من يعيش في وسط عظماء يتفاعلون معه بصورة إيجابية في كل لحظة من لحظات الحياة، يتحركون بحمية، يفكرون بجدية، يتناقشون بفهم ووعي وإدراك، يفكرون بذكاء، وكل واحد من هؤلاء الصحابة قصة ضخمة في حد ذاته، فهذا أبو بكر مثلاً يحتاج إلى عشرات المجلدات لوصف مواقفه مع رسول الله ﷺ، كذلك عمر وعثمان وعلي وعائشة وحفصة وصفية، وكل المهاجرين والأنصار، آلاف من الكتب والمراجع كتبت عن هؤلاء الصحابة، وكل هذا في النهاية هو جزء من سيرة رسول الله ﷺ.

حياة النبي ﷺ كلها أحداث عظيمة

الأمر الرابع: الأحداث العظيمة التي تحدث في حياة الناس، كلما عظم الحدث احتاج إلى دراسة وتحليل ووصف وشرح، أحياناً تمر على حياة الناس عشرات السنين دون حدث عظيم يؤثر في حياة مجموع البشر، لكن الأحداث المؤثرة تحتاج إلى تفصيل ودراسة، ممكن تجد دولة تعيش عشرات السنين دون أن تجد في حياتها حدثاً ضخماً مؤثراً.

فمثلاً عندما حدث في مصر حرب رمضان المباركة، نسأل الله عز وجل أن يعيد للمسلمين أمثالها، كم جرى لها من تحليل ودراسة رغم أنها وقعت من عقود، وإلى الآن نكتب عنها، وسيظل يكتب عنها المحللون والمؤرخون؛ لأنها حدث كبير.

كيف وحياة الرسول ﷺ كلها أحداث ووقائع؟ ففي سنة 2 هـ حدثت موقعة حربية ضخمة هي غزوة بدر، وفي 3هـ غزوة أحد وبنو قينقاع، وفي 4هـ بنو النضير، وفي 5هـ الأحزاب وبنو قريظة وبنو المصطلق وهكذا هي حياة رسول الله ﷺ، وانظر كم نحتاج إلى تحاليل ودراسات.

السيرة معين لا ينضب، وفي كل زمن ينظر المفكرون في هذه السيرة يستخرجون منها الجديد، مع أن الحدث نفسه قد فكر فيه من قبل آلاف من المفكرين والمحللين، إلا أن هناك أثراً ملحوظاً من أحداث السيرة النبوية، وهدفاً كبيراً نحن نفكر فيه، وهو إعادة بناء الأمة الإسلامية بدراسة السيرة النبوية المطهرة المشرفة، وأي دراسة للسيرة سنخرج منها بفوائد، لكن نحن نريد أن نضع بعض القواعد التي لو جعلناها نصب أعيننا أثناء دراسة كل حدث سنستفيد استفادة أكبر وأعمق، وسنضع لهذا الأمر أربع قواعد، فكل حدث حاول أن تلاحظ فيه هذه القواعد، وكل موقف يمر عليك جرب أن تطبق عليه هذه القواعد.

1 .السيرة النبوية المصدر الثاني للتشريع في دين الإسلام

القاعدة الأولى: أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع في الدين الإسلامي؛ إذ المصدر الأول بلا جدال هو القرآن الكريم، والمصدر الثاني هو السنة المطهرة.

والسنة: هي كل قول أو فعل أو تقرير لرسول الله ﷺ... بمعنى: أن أي فعل فعله أحد الصحابة وأقره عليه رسول الله ﷺ بأن سكت عنه أو استحسنه فهو من السنة المطهرة، وليس من الممكن أن تعرف السنة من غير دراسة السيرة النبوية.

مصادر التشريع الرئيسية هي القرآن والسنة، وهناك مصادر أخرى كثيرة، مثل: الإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب والعرف إلى مصادر كثيرة اختلف الفقهاء في ترتيبها، لكن لم يختلف أحد في أن القرآن هو المصدر الأول والسنة هي المصدر الثاني، وليس عنهما بديل. السنة في غاية الأهمية في التشريع الإسلامي، وكذلك السيرة لا بد منها لفهم السنة في التشريع الإسلامي، يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل:44]، من غير السيرة ومن غير السنة لن تستطيع أن تفهم القرآن الكريم.

عندما نمر على حدث من أحداث حياة رسول الله ﷺ، فنحن نمر على أمر من الأمور التشريعية في الدين الإسلامي لحياة المسلمين؛ لأننا ندرس في السيرة الدين، فليست دراسة السيرة مجرد شيء لطيف نقرؤه، أو نتسلى بقراءته، أو مجرد سيرة رجل عظيم، هذا هو دينك، هذا هو الذي ستقابل به الله سبحانه وتعالى وسيسألك عنه، ولو فهمت السيرة بشكل صحيح وطبقتها ستقابل ربك بوجه حسن، وبعمل صالح. ثم احذركم من طائفة بعضهم من المسلمين تشك في أمر السيرة النبوية، وتزعم أنها تكتفي بالقرآن الكريم، وقد تنبأ الرسول ﷺ بهذه الطائفة في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي، يقول رسول الله ﷺ: (يوشك رجل منكم متكئ على أريكته يُحدث بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل الذي حرم الله).ونحن أيضاً نقول لهم: استمعوا إلى كلام الله عز وجل في القرآن الكريم الذي تؤمنون به، يقول الله عز وجل في كتابه: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ} [النساء:80]. ويقول: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ} [النساء:65] أي: يحكموك أنت يا محمد {فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:65]. ويقول سبحانه وتعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:7]. والصحابة رضي الله عنهم ما كانوا يفرقون بين قرآن وسنة، أما لو كان أحد لا يؤمن بالقرآن أصلاً وبأوامر القرآن فلا داعي للكلام معه، إذ الأمر معه منقطع.

كل حدث في سيرة الرسول ﷺ قد يكون أمراً تشريعياً، حتى وإن كان جزئياً من الدين، لا بد أن تنتبه له لكي تطبقه، وإذا لم تطبقه فلعلك أن تضل وتبعد، ثم يقال لك: سحقاً سحقاً.

2. التعرف الصحيح على شخصية النبي ﷺ

القاعدة الثانية: هي التعرف على شخصية رسول الله ﷺ، نريد أن نعرف من هو رسول الله ﷺ؟ هو خير البشر أجمعين، وخاتم المرسلين، وسيد الأولين والآخرين هو أعظم شخصية سارت على هذه الأرض منذ بدء الخلق وإلى يوم القيامة، فهو شخصية جديرة بالدراسة، وهناك أشياء كثيرة نريد أن نعرفها عن شخصية رسول الله ﷺ، ونضعها في أذهاننا بوضوح عند كل موقف من مواقفه ﷺ. أهم شيء في حياة رسول الله ﷺ: هو أنه رسول من عند رب العالمين. لقد شاء الله عز وجل ألا يكلم عباده في الدنيا كفاحاً، وأبقى ذلك نعيماً لمن دخل الجنة، وشاء كذلك أن يخاطب عباده عن طريق رسول من البشر، ومن كل الخلق اختار محمداً ﷺ ليبلغ الناس الرسالة العالمية عنه سبحانه وتعالى.

رسول الله ﷺ في حقيقته ما هو إلا ناقل عن رب العزة سبحانه وتعالى، {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:3 - 4]، وعلى هذا القدر من الأهمية يجب أن يؤخذ حديث رسول الله ﷺ، وعلى هذا القدر من العظمة يجب أن تؤخذ سيرة رسول الله ﷺ، هذه السيرة هي النموذج العملي التطبيقي الذي رسمه الله عز وجل لخلقه كي يقتدوا به ويقلدوه. والسيرة هي المنهج الذي نمشي عليه، وهي الدليل في الصحراء، ومن غير الدليل سوف نهلك لا محالة.فلو ثبت أن رسول الله ﷺ فعل فعلاً ما، فهو ما أراده الله عز وجل منا، حتى لو كان هذا الفعل من النوافل، فهي ليست من اختراع الرسول ﷺ، فهناك من يظن أن الظهر فرضه ربنا سبحانه وتعالى علينا أربع ركعات، ثم اجتهد الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: أربع ركعات قبلها وأربع ركعات بعدها، الأمر ليس كذلك، فالله عز وجل قد شرع للفرائض رواتب من السنن جاءت قبله وبعده، وجعل هذه فرضاً وجعل هذه نافلة، وكل شيء في الأخير مرده إلى الله سبحانه وتعالى. حتى لو اختار رسول الله ﷺ في أمر ما خلاف الأولى،

حيث كان من المفروض أن يختار كذا، ولكنه اختار رأياً آخر أقل منه درجة، فإن الوحي يأتي ليعدل المسار ويختار لرسول الله ﷺ الاختيار الأكمل، الذي يصلح لهذه الأمة في زمانه وإلى يوم القيامة.

دراسة السيرة من هذا المنظور تعطي لها قدراً عظيماً جداً من الأهمية، نحن لا ندرس أي شخصية، نحن ندرس شخصية رسول من رب العالمين، وليس فقط أي رسول؛ بل خير الرسل وخاتم النبيين.

هذه القاعدة الثانية من القواعد التي من المفروض أن نضعها في أذهاننا عند كل حدث من أحداث السيرة النبوية؛ لأننا نتعامل مع وحي من رب العالمين.

3. كيفية محبة الرسول ﷺ

القاعدة الثالثة: هي أن نتعلم كيف نحب الرسول ﷺ؟ حب الرسول ﷺ يجب أن يفوق كل حب، إن لم يحدث هذا الحب فهناك خلل في الإيمان، يقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما). ويقول: (لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)، رواه البخاري ومسلم.

وكلنا نحفظ الحوار اللطيف الذي دار بين رسول الله ﷺ وبين عمر بن الخطاب، فقد جاء في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب قال: (يا رسول الله؛ لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي)، كلنا يحب نفسه، ولكن انتبه وقف وقفة صادقة مثلما وقف عمر مع نفسه، وراجع نفسك: هل أنت تقدم أحكام رسول الله ﷺ في كل شأن من شئون حياتك، أم أن حبك حب سطحي، تقدم حب أشياء كثيرة فوق حب رسول الله ﷺ؟ إن كان سيدنا عمر قال: (يا رسول الله؛ أنا أقدم حبك على كل شيء إلا نفسي)، فقال له ﷺ: (لا والذي نفسي بيده، حتى أكون

أحب إليك من نفسك)، فقال عمر: (فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي)، فقال ﷺ: (الآن يا عمر) يعني: الآن اكتمل الإيمان، الآن اكتمل الصدق مع الله عز وجل، لن تكون صادقاً مع الله عز وجل في اتباعه وفي محبته إلا باتباع رسوله ﷺ، {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران:31].

إن دراسة السيرة تعين على حب رسول الله ﷺ.

وحب رسول الله ﷺ قضية محورية في إيمان العبد، والتعرف السطحي على شخصية ما لا يتولد عنه عميق حب، إنما التعرف على دقائق الحياة، واكتشاف مواطن العظمة المختلفة في الشخصية هي التي تولد الحب في قلب الإنسان، ولا أحسب إنساناً صاحب فطرة سليمة يقرأ أو يسمع عن رسول الله ﷺ ولا يحبه، وكلما عرفته أكثر كلما أحببته أكثر، وكلما أحببته أكثر زاد إيمانك، إنها علاقة تفاعلية في غاية الأهمية في حياة المؤمنين.

اقرأ عن أي موقف من مواقف السيرة، ضع إصبعك بصورة عشوائية على أي موقف من مواقف رسول الله ﷺ في حياته، منذ ولد وإلى أن مات ﷺ، اقرأ في حياته كلها عن معاملاته: كيف كان يتعامل في بيته مع زوجته، مع بناته؟ كيف كان يتعامل مع أصحابه؟ كيف كان يتعامل مع أعدائه؟ اقرأ عن جهاده، عن أي غزوة قادها ﷺ، عن صدقه، عن أمانته، عن شجاعته، عن تقواه، عن عبادته، عن قضائه، عن سياسته، عن المعاهدات التي عقدها ﷺ كالحديبية مثلاً. اقرأ عن الهجرة، عن بدر، عن أحد، عن فتح مكة، عن أي موقف وستحب رسول الله ﷺ حباً عميقاً.

لقد عدَّ الله عز وجل محمداً ﷺ نعمة ومنة منه على الخلق، قال الله عز وجل في كتابه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران:164].

من القواعد الهامة جداً التي تضعها في تفكيرك وأنت تدرس السيرة: أنك تحب رسـول الله ﷺ بقدر ما تستطيع، ركز في كل حدث من سيرته ﷺ أن تزرع هذا الحب في قلبك وإلا لن تنجـو، قال الله عز وجل في كتابه الكـريم: {قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُـمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِـنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّـى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ} [التوبة:24]، المسألة ليست فقط ارتفاعاً في قدر الإيمان، بل المسألة مسألة تهديد بأن تكون مـن الفاسقين، كما قال الله عز وجل: {وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المائدة:108].

4. تعلم الحكمة في التعامل من خلال دراسة سيرة النبي ﷺ

القاعدة الرابعة والأخيرة التي نضعها في عقولنا أثناء دراسـة هـذه السـيرة الشريـفة: أن نـتعلم الحكمة من خلال دراستنا لجزئيات حياة رسول الله ﷺ بكيفية وضـع الأمـر في نصـابه، كيـف تفضل رأياً على رأي آخر؟ حياة رسول الله ﷺ هي الحكمة بعينها، إذا اختار رأياً ما، فهـذا هـو الرأي الحكيم، إذا فعل فعلاً ما، فهذا هو الفعل الحكيم، هكذا دراسة السيرة تعلمنا الحكمـة في أرقى صورها. مثلاً: حكمته ﷺ في فن امتلاك القلوب، كيف كان الرسول ﷺ يكسب قلـوب الذين يتعامل معهم؟ فهو ﷺ لم يكن يمتلك قلوب أصـدقائه فقـط، بـل كـان يمتلـك قلـوب أعدائه أيضاً، وهذه حكمة جديرة بالتأمل، والوقوف معها طويلاً.

حكمة أخرى في منتهى الأهمية، وهي حكمة المرحلية، والاعتراف بما يسمى بفقه الواقـع؛ فـإن الرسول ﷺ كان في فترة من فترات حياته يطوف بالكعبة، فما رفع معوله ليـكسر صـنماً، وكـان بها ثلاثمائة وستون صنماً، ثم يأتي وقت آخر على الرسول عليـه الصـلاة والسـلام لا يقبـل فيـه بوجود صنم واحد في جزيرة العرب، وعندما يفتح مكة يبعث خالداً إلى الطائف لكي يكـسر الأصنام التي هناك، فهذا وضع وهذا وضع، فلا يصح أن تقول: إن الرسول ﷺ عمل كـذا في

يوم كذا أو في سنة كذا دون دراسة الملابسات والظروف التي كانت حول الموقف الذي عمله رسول الله ﷺ، والكلام هذا لن يستقيم إلا عن طريق دراسة السيرة.

وعاش الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة وفيها الرايات الحمر المعلقة على خيام الزانيات، فهناك من تعلن عن نفسها أنها تزني، والرسول عليه الصلاة والسلام كان يعيش بينهم، ولم يحطم خيمة من خيام الرايات الحمر في وقت من الأوقات، ولكن يأتي ظرف آخر لا يتنازل رسول الله ﷺ فيه عن إقامة الحد على امرأة واحدة زنت، فإن الغامدية لما زنت أقام الرسول ﷺ الحد عليها؛ لأنها زنت، فهذا وقت وهذا وقت.

وكان الرسول ﷺ في زمن يعاهد اليهود، وفي زمن آخر يحاربهم، فلا يصح أن تقول: أنا أعاهد اليهود كما عاهدهم، من غير دراسة الظروف والملابسات التي كانت حول تلك المعاهدات في زمان رسول الله ﷺ، لم يأت هذا وقت الحرب، ولا يجوز أن أحارب في وقت معاهدة، لن نعرف هذا إلا عن طريق دراسة السيرة.

كذلك الحكمة في اختيار القرار المناسب في الوقت المناسب، فقد كان الرسول ﷺ يكف يده يوماً عن القتال، ويوماً يقاتل من قاتله، ويوماً يقاتل كل الكفار. كان يمر الرسول ﷺ على آل ياسر – ياسر وسمية وعمار – وهم يعذبون تعذيباً أليماً شديداً أدى إلى قتل ياسر وسمية رضي الله عنهما، يمر عليهم وهم يعذبون فيكتفي ﷺ بقوله لهم: (صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة) لم يرفع ﷺ سيفاً ليدفع به أبا جهل الذي كان يعذبهما، ولم يأمر أحداً من شبابه أو من أتباعه الأقوياء كـ الزبير بن العوام أو سعد بن أبي وقاص أو فرسان الصحابة الأشداء في ذلك الزمن لقتل أبي جهل، أو أبي سفيان، أو أبي لهب، وعنده مبررات كثيرة تدفعه لذلك، كأن يقول: من أجل أن تسير الدعوة في مكة، ولكن لم يفعل ﷺ، لكن في يوم آخر من أيام رسول الله ﷺ سير جيشاً كاملاً لحرب اليهود في بني قينقاع لقتلهم رجلاً مسلماً، بعد كشف عورة امرأة مسلمة

واحدة من قبل يهودي، تخيل الفرق الضخم بين الموقفين. وسير الرسول ﷺ جيشاً لحرب الروم، وهي دولة في منتهى الضخامة في ذلك الزمان؛ لأنهم قتلوا رجلين من المسلمين، لكن هذا زمن وزمن مكة آخر. أول العهد في المدينة غير آخر العهد في المدينة، غزوة بدر غير غزوة أحد. انتبه وأنت تدرس كل موقف إلى الظروف المحيطة بذلك الموقف، فإنك لو فعلت ذلك ستستطيع أن تفهم ما يسمى بفقه الواقع، أو بحكمة المرحلية في حياة رسول الله ﷺ.

حكمة أخرى أيضاً في غاية الأهمية في حياة الرسول ﷺ، هي التدرج في التربية، والتدرج في تغيير المنكر، مثل: تحريم الخمر حرم بالتدرج، وليس مرة مُنع الناس عن الخمر، كذلك التدرج في تحريم الربا، وفي أمر الناس بالجهاد في سبيل الله، كل هذا أخذ مراحل ومراحل طويلة، وكل مرحلة نصل إليها نبني عليها مرحلة أخرى.

وهناك حكمة أخرى رائعة في حياة رسول الله ﷺ، هي حكمة الوسطية، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:143]، لا إفراط ولا تفريط.

ما هو تعريف الإفراط؟ وما هو تعريف التفريط؟ في كل جزئية من جزئيات الحياة أنت لك تعريف، وأنا لي تعريف، وذلك له تعريف ثالث، فما هو المقياس؟

المقياس هو سيرة الرسول ﷺ، فمثلاً: الرسول ﷺ يأمر بالزواج ويحض عليه ويتزوج ﷺ، ومع ذلك لا يلهي الزواج عن الجهاد في سبيل الله، وعن النفقة في سبيل الله، وعن الدعوة إلى الله عز وجل، هذا التوازن نتعلمه من سيرة رسول الله ﷺ.

والعمل في أعمال الدنيا العامة، تعمل دكتوراً أو مهندساً أو عاملاً أو فلاحاً، فهذا يأمر به ﷺ، ويبارك اليد الخشنة من كثرة العمل، ولكن دون إفراط في العمل حتى لا يضيع حق الله عز وجل، وحق العباد، وحق الأهل، وحق الأمة، هناك توازن في حياة الرسول ﷺ.

كذلك الطعام، كان لا يوقد في بيته النار ثلاثة أهلّة في شهرين، لكن إذا حضر الطعام أكل من أطيبه ﷺ. والصلاة، كان يصلي وينام. والصيام، كان يصوم ويفطر، وهكذا الوسطية كمنهج عملي واقعي للأمة تراها واضحة تماماً في سيرة رسول الله ﷺ، لا إفراط ولا تفريط.

دراسة السيرة النبوية أمر من أهم الأمور في حياة المسلمين، ونحن ندرس كل موقف من مواقف السيرة النبوية علينا أن نضع هذه القواعد الأربع في أذهاننا.

أولاً: نفهم أن هذا الموقف ممكن أن يكون موقفاً تشريعياً، والعلماء لهم دور كبير في استنباط الأحكام من مواقف السيرة النبوية.

ثانياً: ندرك أنه رسول لا يخطو خطوة إلا بوحي أو بتعديل من الوحي.

ثالثاً: أن نتعلم كيف نحب الرسول ﷺ من كل موقف من مواقف حياته.

رابعاً: أن نأخذ الحكمة ونعرف كيف نضع الأمور في نصابها بدون إفراط أو تفريط.

بعض مراجع السيرة النبوية

مما ينبغي أن يعلم أن السيرة النبوية تؤخذ من عدة كتب، وكثير من الناس يغفلون عن دراسة السيرة من خلالها، وهي كتب الأحاديث وشروح الأحاديث، مثل كتاب البخاري رحمه الله، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري لـ ابن حجر العسقلاني رحمهما الله.

كذلك صحيح مسلم وشرح النووي لصحيح مسلم.

كذلك الترمذي وأبو داود والنسائي

وابن ماجة ومسند الإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله جميعاً.

ومن كتب السيرة الهامة:

سيرة ابن هشام، فقد نقل معظم سيرته عن ابن إسحاق، وسيرة ابن إسحاق رحمه الله ليست موجودة، فالذي بقي وهو كتاب سيرة ابن هشام، ولكن هناك أحداث كثيرة غير موثقة في كتاب سيرة ابن هشام، لذلك لا بد أن تدرس كتاباً محققاً، هناك كتاب اسمه صحيح سيرة ابن هشام، للأستاذ مجدي فتحي السيد وهو كتاب طيب.

أيضاً كتاب صحيح السيرة النبوية لـ إبراهيم العلي.

وكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد للعلامة ابن القيم رحمه الله.

وكتاب السيرة النبوية لـ ابن كثير رحمه الله.

والرحيق المختوم للمباركفوري. والسيرة النبوية للصلابي،

والأساس في السنة لـ سعيد حوى، هو كتاب كبير يقع في أربع مجلدات. وفقه السيرة للبوطي.

وفقه السيرة للغزالي.والمنهج الحركي للسنة النبوية لـ منير الغضبان.

والسيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعي، وهو كتاب صغير لكنه يحتوي على معلومات هامة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

2

من الظلمات إلى النور

حال العالم قبل البعثة النبوية

في هذا الدرس نتحدث عن الوضع في العالم قبل بعثة رسول الله ﷺ.

ولسائل أن يسأل: لماذا الحديث عن الفترة السابقة للإسلام؟ بمعنى: أننا في هذه الدروس نتحدث عن قواعد بناء الأمة الإسلامية، فما الذي يدفعنا للحديث عن فترة سابقة لفترة الإسلام؟ أقول: لن تدرك قيمة النور إلا إذا عرفت الظلام، ويكفي لبيان ذلك ذكر حديث رسول الله ﷺ في صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه، فإنه عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث وضح حال الأرض قبل بعثته ﷺ، فقال: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب)، وصل حال الأرض إلى حالة من التردي والضياع الشديد، إلى الدرجة التي يمقتهم فيها الله عز وجل، والمقت هو شدة الكراهية، وكلمة (بقايا) توحي بأنهم مجرد آثار، وليس ثمة أثر مباشر لهم في واقع الناس، وهذه البقايا لم تكن مجتمعات، أي: ما كانت مثلاً مجتمعاً صالحاً في مكان ما على الأرض، بل كانوا أفراداً معدودين، رجل في مدينة، ورجل في مدينة أخرى يبتعد عنه مئات أو آلاف الأميال، وهكذا.

تعالوا نخترق الزمان والمكان، نخترق الزمان بالوصول إلى ما قبل بعثة رسول الله ﷺ، ونخترق المكان بالوصول إلى كل بقعة على الأرض كانت تعاصر رسول الله ﷺ، ونتجول بين

الشرق والغرب. تعالوا نرى حال الناس، والملوك، والأخلاق، والطباع، ونرى ما يسمى بالحضارات في ذلك الزمان.

حال الدولة الرومانية قبل البعثة النبوية

أول شيء يلفت الأنظار في ذلك الزمن دولة ضخمة جداً تمتلك نصف الأرض تقريباً وهي الدولة الرومانية، ومن ضخامتها سمى الله عز وجل سورة من سور القرآن الكريم بسورة الروم، ذكر فيها قصة الروم مع الفرس، قال الله: {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ} [الروم:2 – 4] إلى آخر الآيات، ولكن ما هي الدولة الرومانية؟ كانت الدولة الرومانية ضخمة جداً، مساحتها ممتدة على ثلاثة أرباع أوروبا مقسمة إلى قسمين رئيسيين، دولة رومانية شرقية وعاصمتها القسطنطينية، كان يحكمها القيصر هرقل في زمن رسول الله ﷺ، وقيصر هذا لقب للملك الذي يحكم الدولة الرومانية.

وأما الدولة الرومانية الغربية فكانت عاصمتها روما، وهذه سقطت قبل البعثة النبوية ولم تبق إلا الدولة الرومانية الشرقية. كانت هناك خلافات عقائدية عقيمة بين طوائف النصارى في أطراف الدولة الرومانية الشاسعة، فالدولة الشرقية أرثوذكسية، والغربية كاثوليكية، ودارت بينهما حروب فني فيها الآلاف والآلاف على مدار السنين، وظلت هذه الحروب مشتعلة حتى العهد القريب، وإلى الآن هناك خلافات عقائدية ضخمة، وحروب بين الطوائف المختلفة من النصارى.

أما الجوانب الأخلاقية فقد كانت في انحدار شديد في هذه الدولة، مثل تأخر سن الزواج، أو بمعنى أصح اختفى الزواج، وفضل الجميع العزوبة على الزواج؛ لأن تكاليف الزواج كانت غالية والناس كلها فقراء، الأموال كثيرة جداً في الدولة، ولكنها مجموعة في أيدي قلة قليلة من

رجال الدولة الرومانية الواسعة، فأدى ذلك إلى انحلال رهيب بين أوساط الناس، وانتشر الزنا في كل مكان، واختلطت الأنساب. وأصبحت الرشوة أصلاً في التعامل مع موظفي الدولة، فأي مصلحة تريد أن تقضيها لابد أن تقدم بين يديها رشوة. والضرائب ضخمة باهظة على كل سكان البلاد، وهي على الفقراء أكثر منهم على الأغنياء.

الوحشية الشديدة في الطباع؛ فمن وسائل التسلية التي كانت في الدولة الرومانية الشرقية: وسيلة صراع العبيد مع الوحوش المفترسة في أقفاص مغلقة، والوزراء والأمراء ينظرون من الخارج، ويستمتعون برؤية الأسد أو النمر وهو يأكل العبد بعد قتال يدوم قليلاً أو كثيراً.

نحن نتعجب من هذه الصورة، ونقول: هذه كانت عادة مجتمعات مظلمة، ولكننا نرى أيضاً في إسبانيا صراع الرجال مع الثيران، وكيف يدمر الثور أو يقتل الرجل والناس تشاهد وتصفق وتهلل، وهي صورة كما يسمونها من صور الحضارة.

أيضاً هناك حروب بربرية همجية وحشية، على سبيل المثال: في عهد اسفسيانوس أحد قياصرة الرومان، حاصر اليهود في أورشليم (القدس) سنة 70 م خمسة أشهر كاملة، انتهت في سبتمبر سنة 70 م ثم سقطت المدينة بعد هزيمة مهينة عرفها التاريخ، لماذا نقول: هزيمة مهينة؟ لأن الرومان قتلوا أبناء اليهود ونساءهم بأيديهم، أي: يجبر كل يهودي أن يمسك بزوجته وأولاده ويقتلهم بنفسه، هكذا أتى الأمر الروماني إلى دولة اليهود المحاصرة داخل مدينة القدس، الغريب أن اليهود أطاعوا ووافقوا على ذلك، وقاموا به من شدة الرعب، وطمعاً منهم في النجاة، وهم أحرص الناس على حياة، وخرجوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بسيوفهم، ثم خرجوا للرومان الذين بدءوا بعمل قرعة بين كل اثنين من اليهود، أيهما يقتل أخاه إلى أن صفوا كل اليهود الموجودين في القدس ولم ينج منهم إلا الشريد، أو أولئك الذين كانوا يسكنون في أماكن بعيدة.

هذه كانت صورة من صور الحرب الرومانية التي كانت تتميز بالشراسة وأشد أنواع الهمجية المتخيلة.

كان العبيد في المجتمع الروماني ثلاثة أضعاف الأحرار، ومعاملة العبيد كانت في منتهى القسوة، لدرجة أن أفلاطون الفيلسوف صاحب فكرة المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) التي ألفها وتخيلها في عقله، هذه المدينة الخيالية المثالية يقول فيها: إنه لا يجب أن يعطى فيها العبيد حق المواطنة. مع أنهم من أهل البلد، لكن ليست لهم أي قيمة في بلاد الرومان.

كانت هذه لقطات سريعة من حال الدولة الرومانية في العهد السابق لبعثة رسول الله ﷺ.

حال الدولة الفارسية قبل البعثة النبوية

ننتقل إلى جهة الشرق لنرى الدولة الفارسية التي كانت تمتلك نصف العالم الآخر في ذلك الزمن، وكانت تمثل مأساة حضارية بكل المقاييس؛ انهيار شديد في الأخلاق بلغ إلى ما يسمى بزواج المحارم، وهذا شيء رغم بشاعته إلا أنه كان منتشراً في الدولة الفارسية، فقد كان الرجل يتزوج من ابنته أو أخته أو أمه، كبار القوم وصغارهم في ذلك سواء، فكسرى يمكن أن يتزوج أي واحدة في المجتمع كله، وقد وقع من يزدجرد الثاني كسرى فارس أنه تزوج من ابنته ثم قتلها.

كذلك بهرام جوبين وهو أحد الأكاسرة كان متزوجاً من أخته، وبعضهم كان يتزوج أمه، وهذا الأمر كان مستنكراً في كل بقاع الأرض، وكل الشعوب تعيب على أهل فارس أنهم يتزوجون بالمحارم، ولم يقولوا: إن هذا متعارف عليه في المجتمعات؟ لا، بل كان هذا شيئاً منكراً ضد الفطرة، ولكنهم كانوا يفعلونه.

وسبب ذلك: أنه في عهد قباذ -وهو أحد الأكاسرة الكبار في تاريخ الفرس- ظهر رجل اسمه مزدك، وهناك من يضعه في طائفة الفلاسفة والمفكرين، قال مزدك: إن الناس سواسية في كل شيء، وكانت كلمته ظاهرها جيد، لكن هل هم سواسية في الحقوق، والمعاملة؟ لا، لم يرد هذا فقط، بل أراد سواسية حتى في المال والنساء، فلا يوجد احترام لأي ملكية في البلد، كل شيء مباح للناس كلها، كل شيء مشاع، يمكن لأي أحد أن يدخل إلى بيت الآخر ويأخذ من ماله ونسائه، فبالتبعية استفاد الأقوياء من هذا القانون على حساب الضعفاء، وكان الرجل القوي يدخل على الضعيف يغلبه على ماله وزوجته فلا يستطيع الضعيف أن يتكلم، بينما الضعيف لا يستطيع أن يدخل على القوي، ولا أن يعترض أو يرفع شكواه؛ لأن هذا أصبح جزءاً من الدين في بلاد فارس. ثم عمت البلاد المشاكل؛ لأن كل الناس لا تريد أن تعمل؛ لأن كل من يعمل لا يملك شيئاً، فلماذا يعمل؟ وعمت السرقات كل مكان، وباركها كسرى قباذ؛ لأن هذا عنده من الدين الذي وضعه مزدك، وفسد الناس كلهم أجمعون. قارن هذا بالذي سيأتي ويقول: (والذي نفس محمد بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها) صلى الله عليك وسلم يا رسول الله.

وتقديس الأكاسرة في بلاد فارس كان أمراً عظيماً جداً عند عامة الناس، فالناس كانت تعتقد أن في دم كسرى هذا دماً إلهياً، وأنهم فوق البشر وفوق القانون، كان الرجل إذا دخل على كسرى ارتمى ساجداً على الأرض، فلا يقوم حتى يؤذن له، وأقرب الناس إلى كسرى وهم طبقة الكهان والأمراء والوزراء كانوا يقفون على بعد 5 أمتار، ومن أدنى منهم درجة على بعد 10 أمتار، والرسل كانوا يقفون على مسافة 15 متراً من كسرى، من أراد أن يدخل على كسرى ليضع على فمه قطعة من القماش الأبيض الرقيق، حتى لا تلوث أنفاسه الحضرة الملكية لكسرى، بينما رسول الله ﷺ كان إذا استقبله رجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون

الرجل الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه، ولم ير رسول الله ﷺ مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له، أي: يتواضع لجليسه حتى إنه لا يمد رجله أمام الجليس، كما روى ذلك الترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه وأرضاه.

كانت هناك طبقية شديدة فيها مهانة كبيرة جداً للإنسانية، فقد قسموا شعب فارس من أوله إلى آخره سبع طبقات:

الأولى: طبقة الأكاسرة فوق الجميع.

الثانية: طبقة الأشراف وهؤلاء سبع عائلات، ولا يمكن أن يوجد شريف خارج هذه العائلات السبع.

الثالثة: طبقة رجال الدين.

الرابعة: طبقة رجال الحرب وقواد الجيوش.

الخامسة: طبقة المثقفين، ورجال العلم، والكتاب، والأطباء، والشعراء.

السادسة: طبقة الدهاقين، وهم رؤساء القرى، وجامعو الضرائب.

الطبقة السابعة: وهي طبقة الشعب، وهم أكثر من ٩٠٪ من مجموع سكان فارس، وهم: العمال، والفلاحون، والتجار، والجنود، والعبيد. وهذه الطبقة ليس لها حقوق تذكر. كانوا يربطون بالسلاسل في المعارك، كما حدث في موقعة الأبلة، وهي أول موقعة إسلامية في فتح فارس، كانت بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، كان الفرس يربطون ستين ألفاً من الجنود بالسلاسل، كل عشرة في سلسلة، حتى إن الموقعة سميت بعد ذلك في التاريخ بذات السلاسل، ولك أن تتصور كيف يستطيع هؤلاء المقيدون في السلاسل أن يحاربوا قوماً وصفهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بقوله في

رسالته إلى زعيم الأبلة في نفس الموقعة: جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

شيء آخر أيضاً في منتهى البشاعة، كان في بلاد فارس عبادة النار، ظهر رجل اسمه زرادشت في بلاد فارس، يعتبرونه من كبار الفلاسفة ليس فقط لأهل فارس بل للعالم بأسره، حتى إن صاحب (الخالدون المائة) وأعظمهم محمد ﷺ، عدّه من ضمن الخالدين، وجعل رقمه 89؛ لأن ديانته محلية ، بينما ديانة الرسول صلى الله عليه وسلم وديانة المسيح عليه السلام عالمية، فهو يقول: من أجل هذا أخرته، وهذا أسلوب قبيح في التشبيه بين الأنبياء وبين هذا الرجل. هذا الرجل هو الذي دعا إلى تقديس النار، وقال: إن نور الله عز وجل يسطع في كل ما هو مشرق وملتهب، ومن ثم حرم الأعمال التي تتطلب النار، واكتفت الناس بالزراعة والتجارة. والنار لا توحي لعبادها بشريعة ولا تضع لهم منهجاً، فشرع الناس لأنفسهم حسبما تريد أهواءهم، وعم الفساد في بلاد فارس.

هذا هو وضع الدولة الضخمة الأخرى المشاركة للدولة الرومانية في حكم الأرض في ذلك الزمن.

حال أوروبا الشمالية قبل البعثة النبوية

أوروبا الشمالية، وهي: إنجلترا، والدول الإسكندنافية السويد والدنمارك وفنلندا وألمانيا.

هذه المناطق الشمالية من أوروبا كانت خارج حدود الدولة الرومانية، يقول عنها المؤرخ الفرنسي رينو -وشهد شاهد من أهلها-: (طفحت أوروبا في ذلك الزمن بالعيوب والآثام، وهربت من النظافة والعناية بالإنسان والمكان، وزخرت بالجهل والفوضى والتأخر وشيوع الظلم والاضطهاد، فشت فيها الأمية، للدرجة التي كان الأمراء يفتخرون بأنهم لا يستطيعون

أن يقرءوا، والعلماء كانوا في مهانة شديدة في هذه البلاد، هذا إن وجدوا). قارن هذا بدين كانت أول كلماته {اقْرَأْ} [العلق:1] كما قال الله عز وجل.

ثم قال: (كانت أوروبا مسرحاً للحروب والأعمال الوحشية). ويقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب يصف وضع أوروبا: (لم يجدوا في أوروبا بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد). وهذا موافق للقرن الرابع والخامس الهجري.

ثم يقول جوستاف لوبون: (وذلك حين ظهر فيهم أناس أرادوا أن يرفعوا أكفان الجهل، فولوا وجوههم شطر المسلمين الذين كانوا أئمة عصرهم). وهذا الكلام كان بعد أربعة أو خمسة قرون من نزول الوحي على رسول الله ﷺ بكلمة (اقرأ).

كيف كان الوضع قبل هذا؟ كتب مؤرخ أندلسي اسمه صاعد كتاباً اسمه طبقات الأمم وهو كتاب رائع، يصف فيه حال البلاد في زمانه، وقد توفي في القرن الخامس الهجري سنة 462هـ في طليطلة، يحكي حال البلاد الشمالية في القرن الخامس الهجري فيقول: (كانوا قوماً أشبه بالبهائم، وقد يكون ذلك من إفراط بعد الشمس عن رءوسهم فصارت بذلك أمزجتهم باردة، وأخلاقهم فجة رديئة، وقد انسدلت شعورهم على وجوههم، وعدموا دقة الأفهام، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشت فيهم الغباوة).

وهذا الرحالة الأندلسي إبراهيم الطرطوش يصف أهل جِلِيقِّية الذين كانوا يعيشون في شمال إسبانيا، قال: (هم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، لا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوهم من عرقهم تصح به أبدانهم).

قارن بين هذا وبين دين يأمر بالوضوء خمس مرات في اليوم، والاغتسال من الجنابة، ويوم الجمعة، وفي الأعياد، ويأمر باجتناب صلاة الجماعة -وهي من أشرف العبادات- لمن أكل ثوماً أو بصلاً. انظر إلى احترام الإنسان للإنسان، ومدى تكريم الله عز وجل لعباده المؤمنين.

يروي ابن فضلان الرحالة المسلم في القرن الرابع الهجري ما شاهده بنفسه من موت أحد السادة في أوروبا، فجاءوا بجارية له كي تموت معه، فشربت الخمر ورقصت وقامت بطقوس معينة، ثم قيدوها بالحبال من رقبتها، ثم أقبلت امرأة عجوز يسمونها ملك الموت وبيدها خنجر كبير، ثم أخذت تطعنها في صدرها بين الضلوع في أكثر من موضع، والرجال يخنقونها بالحبل حتى ماتت، ثم أحرقوها ووضعوها مع سيدها الميت، وهم بهذا يحترمون إنسانية السيد كما يظنون. قارن هذا بما جاء به الإسلام وتعجب من أجل أن تعرف دينك، جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن الرسول ﷺ قال: (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه) سواء كان هذا العتق على سبيل الوجوب أو الاستحباب. فهذه نظرة الإسلام لمعاملة الرقيق.

حال مصر قبل البعثة النبوية

كانت مصر محتلة من قبل الرومان منذ هزيمة كليوباترا على يد أوكتافيوس في سنة 31 قبل الميلاد، أكثر من 5 قرون من الاحتلال الروماني لمصر، حتى سقط في سنة 476م لما سقطت الدولة الرومانية الغربية، لكن الدولة الرومانية الشرقية سرعان ما استولت على مصر قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي 100 سنة.

والدولة الرومانية سواء كانت شرقية أو غربية كانوا يتخذون من مصر مخزناً يمد الإمبراطورية الرومانية باحتياجاتها من الغذاء، وحصل تدهور شديد في الاقتصاد المصري، وتدهور شديد

أيضاً في الحالة العلمية والاجتماعية، وفقد المصريون السلطة بكاملها في بلادهم، لكن الرومان حرصوا على أن يتركوا بعض الرموز من أجل أن تبقى صورة من المصريين موجودة في السلطة، فيتجنبوا ثورة الشعوب، لكن الواقع أن كل الحكم والإدارة كانت في يد الرومان. فرضوا الضرائب الباهظة على الشعب الفقير المعدم، ضرائب عامة على الأفراد والصناعات والأراضي والماشية، وحتى على المبيعات. وضرائب على المارة، إذا أردت أن تذهب من مكان إلى مكان أو من مدينة إلى مدينة تدفع ضريبة، وضرائب حتى على زوجات الجنود، الجندي يدفع روحه من أجل البلد وامرأته وهو غائب تدفع ضريبة، وضرائب على أثاث المنزل، بل تجاوزت ضرائب الأحياء إلى الأموات، فقد كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد أن تدفع ضريبة معينة تشبه ضريبة التركات، ولم يكتفوا بمصيبة الموت فأضافوا إليها ضريبة.

فوق كل هذا كان هناك التعذيب لأجل المخالفة في المعتقد الديني، فالكل لابد أن يكون تحت مظلة النصرانية الأرثوذكسية.

حال الصين قبل البعثة النبوية وبعدها

أما وضع الصين أيام رسول الله ﷺ، فقد كان فيها ثلاث ديانات: الأولى: لرجل اسمه لاوتسوا وله ديانة نظرية غير عملية، فيها بعد كامل عن النساء، وزهد كامل في الدنيا، وانعزال كامل عن المجتمع.

الثانية: لـ كنفوشيوس، ويعتبرونه من كبار الفلاسفة الصينيين، وهو صاحب مادية بحتة، وهي ديانة تعنى بقوانين وقواعد وتجارب، وتشير إلى أن الحياة بصفة عامة شيء بائس، ومن ناحية العبادة أنت حر، اعبد ما أردت: شجرة أو نهراً، أو إلخ، فهذا أمر لا يعني كنفوشيوس.

الثالثة: لـ بوذا، وهي تعاليم أخلاقية معينة، ولكن فيها أيضاً الكثير من الانعزال عن المجتمع، والزهد في الحياة، وبعد قليل تحول بوذا من مجرد مشرع إلى معبود رسمي، صنعت له التماثيل، وظل يعبد على مدار السنين.

وإلى الآن هؤلاء الثلاثة موجودون، حتى إن صاحب كتاب الخالدون المائة وأعظمهم محمد ﷺ، وضعهم في الخالدين، بوذا الخامس وكنفوشيوس السادس. بل إن مؤلف الكتاب لم يتردد أن يقول في وقاحة شديدة: إن بوذا يستحق أن يتصدر قائمة الخالدين ويسبق محمداً ﷺ وعيسى عليه السلام لولا أن أتباع بوذا الآن أقل من أتباع الرسول ﷺ وأتباع عيسى عليه السلام، من أجل هذا أخر بوذا إلى المرتبة الخامسة، وهذا يضمر لنا إلى أي حد أصبحت المقاييس مختلة عند أمثال هؤلاء.

حال الهند قبل البعثة النبوية وبعدها

أما الهند فأعجوبة الأعاجيب؛ حيث كثرت فيها المعبودات بشكل مريع، فأي شيء في الهند يعبد، تماثيل لكل شيء، يعبدون الأشخاص والجبال والأنهار، مثل: نهر الكنج فهو مقدس عندهم، حتى المعادن، وأشهر المعادن التي كانت تعبد الذهب والفضة. وعبدوا آلات الحرب من سيف أو درع، وآلات الكتابة من قلم أو كراسة. كذلك الأجرام الفلكية تعبد من دون الله عز وجل، والحيوانات، وأكثر حيوان يعبد في بلاد الهند هو البقرة، وللأسف ما زالت تعبد إلى الآن من قبل علماء كمبيوتر وعلماء ذرة وأطباء ومهندسين، وليس فقط البقرة، بل كل الحيوانات عبدت في بلاد الهند، لدرجة أنهم عبدوا الفئران، وحصلت مجاعة ضخمة في بلاد الهند كان سببها ترك الفئران فأكلت كل المزروعات الهندية. الشهوة الجنسية الجامحة عمت بلاد الهند، الكهان يرتكبون أبشع الفواحش في المعابد، ويعتبرون ذلك من الدين، ويتقربون بذلك إلى الآلهة.

الطبقية البشعة في بلاد الهند قسمت الناس إلى أربع طبقات:

طبقة البراهمة الكهنة والحكام.

طبقة شتري وهؤلاء رجال الحرب.

وطبقة ويش وهي طبقة التجار والأغنياء.

طبقة شودر، وهذه طبقة منبوذة، ومعنى كلمة (شودر) المنبوذين، وهذه الطبقة هي أحط عندهم من البهائم، وأذل من الكلاب، حتى إن القانون عندهم ينص: من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة من دون أن يكون لهم أجر.

قارن هذا بما رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه). ليس لطبقة شودر أن يقتنوا مالاً؛ لأن هذا يؤذي البراهمة، فلا يصح أن تكون عندك ملكية لأي جزء ولو القليل من المال.

وإذا همّ شودري أن يضرب برهمي قطعت يده، وإذا هم بالجلوس إليه كوي استه بالنار، ونفي خارج البلاد، وإذا سبه اقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه شيئاً سقي زيتاً مغلياً. يقول القانون الهندي: إن كفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والبومة سواء بسواء مثل كفارة قتل الشودر.

هذا هو وضع بلاد الهند التي يكتب عنها في الكتب عبارة: حضارة، وأنها كذا وكذا.

المرأة في المجتمع الهندي أحياناً يكون لها أكثر من زوج، وهي في منزلة مثل منزلة الأمة، حتى ولو كانت زوجة لشريف. أحياناً في بلاد الهند يلعب الرجل القمار ويخسر، ثم لا يجد إلا أن يقامر على زوجته، وممكن أن يخسرها في القمار. قارن هذا بكلام الرسول ﷺ: (استوصوا بالنساء خيراً) (النساء شقائق الرجال) (خيركم خيركم لأهله) وغير ذلك من الأحاديث.

موقع اليهود على خارطة الأحداث قبل وبعد البعثة النبوية

في هذه الصورة البشعة للأرض أين كان اليهود؟ عاش اليهود مضطهدين في آسيا وأوروبا وإفريقيا وفي كل بقعة وفي كل زمن، وليس هناك طاقة لأحد من البشر بمعاشرة اليهود، فهم في لحظات الضعف خنوع ونفاق ودس وكيد وكذب، وفي لحظات القوة تجبر وتكبر وظلم ووحشية وربا وفتن ومؤامرات.

اليهود في ذلك الزمن تركزوا في منطقة الشام، وفي سنة 610 ميلادية، بعد حوالي ثلاث سنوات أو سنتين من بعثة الرسول ﷺ حصلت المعركة الضخمة ما بين الفرس والروم، التي ذكرت في كتاب الله عز وجل: {غُلِبَتِ الرُّومُ} [الروم:2]، وانتصر الفرس على الرومان، واليهود كانوا في بلاد الشام التي تتبع الدولة الرومانية، فلما غلبت الدولة الرومانية تحول اليهود من رعايا الدولة الرومانية إلى قتلة وسفاكي دماء لكل رهبان النصارى الموجودين في بلاد الشام، وصارت لهم شوكة فترة من الزمان، ثم دارت الأيام وانتصر الرومان على الفرس {وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم:3]، فجمع اليهود أنفسهم وذهبوا إلى هرقل وقدموا له القرابين وتذللوا له، وأظهروا له الانصياع الكامل والتبعية لحكومته، فقبل منهم هرقل ذلك، وأعطاهم العهد بالأمان، لكن أتى رهبان الشام بعد ذلك فذكروا لـ هرقل ما فعله اليهود في وقت هزيمة الرومان، فغضب وأراد أن يعاقب اليهود، ولكن منعه العهد الذي أعطاه إليهم، فجاء إليه الرهبان النصارى وقالوا لـ هرقل: لا عليك من العهد، اقتلهم وسنصوم عنك جمعة كل سنة أبد الدهر، فقبل كلام هرقل وعذبهم عذاباً شديداً، ولم يفلت إلا الذي هرب من الشام. ومن حينها اشتد العداء بين النصارى واليهود، علماً بأن النصارى يكرهون اليهود لادعائهم بأنهم قتلوا المسيح عليه السلام، {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء:157]، حتى إن النصارى في عهد سيدنا عمر بن الخطاب لما فتح القدس سنة 16

هجرية اشترطوا ألا يعيش في القدس يهودي، وألا يبقى فيها يوماً وليلة إلا المرور، وأعطاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه العهد بذلك، لكن الآن نرى اتفاق اليهود مع الأمريكان والإنجليز والفرنسيين وغيرهم؛ لأن معركتهم واحدة هي المعركة ضد الإسلام.

اليهود في زمن الرسول ﷺ كانوا يتمركزون في شمال المدينة المنورة في خيبر، وكانوا كعادتهم قوماً غلاظ الطباع، قساة القلوب، منحرفي الأخلاق، يعيشون على الربا، وإشعال الفتن والحروب والتكسب من بيع السلاح، وإيقاع السادة في الفضائح الأخلاقية وتهديدهم بها، والسيطرة على الجهال بكتبهم المحرفة وأفكارهم الضالة.

حال الحبشة قبل البعثة النبوية وبعدها

كانت الحبشة -أثيوبيا حالياً- على النصرانية المحرفة، وكانوا يتبعون الكرسي الإسكندري في الدين، أي: مثل الديانة المصرية، ويعتقدون أن المسيح هو الله أو ابن الله، وليس له طبيعة بشرية، كانت حياتهم بدائية إلى حد كبير، وإن كان لهم قوة وجيش وسلاح، لكن في زمن الرسول ﷺ وبعد البعثة كان يحكمهم رجل لا يظلم عنده أحد، وهو النجاشي أصحمة، والنجاشي لقب وليس اسماً، مثل ملك فارس لقبه كسرى، وملك الروم لقبه قيصر، كذلك ملك الحبشة لقبه النجاشي. هذا وضع بلاد الحبشة ذكرناه لأهميته في السيرة كما سيأتي بعد ذلك.

حال الأمريكيتين قبل البعثة النبوية

أما الأمريكتان فقد كانتا تعيشان في ذلك الوقت في مرحلة طفولة حضارية، في حياة بدائية تماماً، وقد رأيت آثار السكان الأصليين لأمريكا (الهنود الحمر) وهي آثار في غاية البدائية، وما كان لهم أي دور في حركة الأرض في ذلك الزمن.

حال الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية

كان هذا هو الوضع في بلاد العالم المختلفة في زمان رسول الله ﷺ وقبل بعثته، أما عن الجزيرة العربية فقد كانت تعيش حالة من الوثنية المفرطة، مع إيمان هؤلاء الناس بالله عز وجل، إلا أنهم اتخذوا إليه شفعاء ووسطاء، كما قال الله عنهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر:3]، ومضت الأيام وأصبحوا يعتقدون أن هؤلاء الشفعاء -أي: الأصنام- تملك قدرة ذاتية على أن تنفع أو تضر، فأصبحوا يتوجهون إليها مباشرة بالعبادة، وكان لكل قبيلة صنم، فمكة مثلاً كان أعظم أصنامها: هبل، والطائف أعظم أصنامها: اللات وهكذا.

وأحياناً لكل بيت صنم، وكان هناك تجار للأصنام وصناع للأصنام، تجد من يبيع آلهة في داخل البيت الحرام، بل كانت الكعبة نفسها حولها 360 صنماً، وهي أشرف بقعة على الأرض، ومما يذكر كمثال على أن لكل بيت صنماً أن عمرو بن الجموح رضي الله عنه كان في جاهليته يعبد صنماً من الخشب صنعه بيده.

أما الأجواء الأخلاقية في جزيرة العرب كانت شنيعة، كان شرب الخمر متفشياً تفشياً كبيراً، حتى كتبت فيه أشعار عظيمة، ووصفت مجالسه بأدق التفاصيل، مع أنه كان يؤدي إلى كثير من النزاع بين الناس. وكان الميسر أيضاً متفشياً، وكثيراً ما أورث البغضاء والشحناء بين الناس، من أجل هذا قال الله سبحانه وتعالى عنه في القرآن: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} [المائدة:91]. وكان الربا من المعاملات الأساسية في جزيرة العرب، وكانوا يقولون كما أخبر الله عنهم: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} [البقرة:275].

أما الزنا فكانت له صور بشعة في المجتمعات العربية قبل الإسلام، وتصف السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها -كما جاء في صحيح البخاري - (أنواع النكاح في الجاهلية:

النوع الأول: هو النوع المعروف الذي عليه نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها)، وهذا الزواج الطبيعي كان أحد صور الزواج.

النوع الثاني: تقول السيدة عائشة: (كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها) -أي: من الحيض- (اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها) -أي: من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، أي: يبعث امرأته من أجل أن يجامعها رجل من أشراف مكة، وما يمس امرأته إلى أن يتأكد أنها حملت من الرجل الغريب- (فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد). هذا النكاح كان يسمى بنكاح الاستبضاع، أين مروءته وغيرته؟! تنعدم إلى درجة أنه يبعث امرأته إلى هذا الفعل الشنيع، وهذا قانون يوافق أهواء الأسياد. كانوا يحيون على هذه المفاسد، لذا لما أتى الإسلام وحرم عليهم هذه الأمور، كان العداء بينهم وبين الإسلام؛ لأنه يحرم عليهم هذه الشهوات وهذه المفاسد.

النوع الثالث: تقول السيدة عائشة: (هو النكاح الذي يجتمع فيه الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، وتختار واحداً من الناس فتلحقه به، ولا يستطيع أن يمتنع الرجل).

النوع الرابع والأخير في أيام الجاهلية كما تقول السيدة عائشة: (يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها) -وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، وهي مشهورة في التاريخ بالرايات الحمر، فمن أرادهن دخل عليهن- (فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها اجتمعوا لها، ودعوا لها القافة) -وهم الرجال الذين يستطيعون تمييز الوالد

والولد عن طريق الشبه- (ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به)، أي: التصق به ودعي على أنه ابنه، ولا يمتنع من ذلك. تقول السيدة عائشة: (فلما بعث الرسول ﷺ هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم).

كانت هناك عادة أخرى من أبشع العادات في جزيرة العرب: وهي وأد البنات، وهو دفن البنت وهي حية، وكان يفعل ذلك لأسباب كثيرة أهمها خشية الفقر، كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [الإسراء:31] أي: خشية الفقر. وأحياناً خوف العار، وأحياناً لعيوب خلقية أو من أجل اللون. ومنها: ادعاء أن الملائكة بنات الله، سبحانه عما يقولون. فيقولون: ألحقوا البنات به فهو أحق بهن، تعالى الله عن ذلك، يقول الله عز وجل عنهم في كتابه الكريم: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير:8 - 9]. كذلك العصبية القبيلة والحروب المستمرة بين القبائل كانت أمراً طبيعياً، والإغار

قصة إسلام سلمان وبحثه عن نور الهداية قبل البعثة وبعدها

لم يكن على الحق إلا النادر القليل قبل البعثة، ويوضح ذلك حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه كما جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهو يحكي قصة إسلامه.

هذا الحديث يحكي فيه سلمان الفارسي رضي الله عنه قصته مع الإيمان، وكيف أنه كان مجوسياً يعبد النار، بل ويعمل خادماً لها، يوقدها حتى لا تخبو، ثم لما سمع بصلاة من صلوات النصارى أعجب بها، فسأل عن أصل هذا الدين وهرب من بلده في قصة طويلة نذكرها مختصرة.

هرب من بلده أصبهان إلى بلاد الشام حيث يوجد النصارى، وهناك سأل عن أفضل أهل هذا الدين، فدله الناس على أسقف الكنيسة، فذهب إليه وعاش معه فترة، ولكنه اكتشف أنه رجل

سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزها لنفسه، حتى جمع من ذلك سبع قلال من الذهب والفضة.

يقول سلمان: (فأبغضته بغضاً شديداً)؛ لأنه جاء من بلاد فارس من أجل هذا الرجل، ثم وجد أنه بهذا السوء، ثم مات الرجل وكشف سلمان رضي الله عنه أمره للناس وأخرج لهم القلال، فغضب الناس على الأسقف وصلبوه وهو ميت ورجموه بالحجارة، ثم استخلفوا بعده رجلاً آخر، وكان عظيماً تقياً ورعاً فأحبه سلمان حباً شديداً وعاش إلى جواره فترة، ثم حضرت هذا الأسقف الوفاة، فقال له سلمان: (قد حضرك ما ترى من أمر الله عز وجل، فإلى من توصي بي،) قال: (أي بني؛ والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه، لقد غير الناس وبدلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل). أي: من كل أهل الأرض لا يعرف إلا واحداً صالحاً فقط في الموصل في أرض العراق، وفي كل الشام ليس هناك رجل على الحق، فذهب إليه سلمان ومكث عنده فترة وكان رجلاً طيباً كصاحبه، ثم اقتربت وفاته، فقال له سلمان: (إلى من توصي بي؟) قال: (والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين، وهو فلان فالحق به، فلما مات ذهب سلمان إلى نصيبين).

بقي حياة طويلة من الكفاح والبحث عن الحق رضي الله عنه وأرضاه، ونحن نكسل عن البحث في المكتبة عن كتاب -وهو داخل البيت- من أجل معلومة معينة، انظر لـ سلمان الفارسي من بلد إلى بلد من أجل أن يعبد الله عز وجل حق العبادة.

عاش سلمان في نصيبين مع الرجل فترة، وكان رجلاً صالحاً، ثم ما لبث أن حضرته الوفاة، فقال له سلمان: (إلى من توصي بي؟) قال: (أي بني؛ والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا إلا رجلاً بعمورية) -تركيا حالياً- (فالحق به)، يقول سلمان: (فلحقت بصاحب عمورية، وكان الرجل على هدي أصحابه، فاكتسبت من التجارة حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم حضرت الرجل

الوفاة)، فقال له سلمان: (إلى من توصي بي؟) فقال الرجل: (أي بني؛ والله ما أعلم أن أحداً قد أصبح على ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، بها علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل)، قال سلمان: (ثم مات الرجل).

ثم مكث سلمان رضي الله عنه فترة في عمورية وهو يبحث عن طريقة يصل بها إلى أرض العرب، حتى مر به مجموعة من التجار، فقال لهم: (تحملونني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي)، قالوا: (نعم)، يريد أن يضحي بكل الذي امتلكه من أجل أن يصل إلى هذا الدين، يقول: (فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا قدموا به وادي القرى في شمال المدينة المنورة ظلموني، فباعوني إلى رجل من يهود عبداً)، ثم مرت الأيام وسلمان الفارسي عبد وقد كان ابناً لأحد رؤساء القرى في بلاد فارس.

يقول سلمان: (فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث الله رسوله فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة ﷺ فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي) -أي: أعلى النخلة- (أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس إذا أقبل ابن عم له حتى وقف عليه) فقال: (قاتل الله بني قيلة) -الأوس والخزرج-، (والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي)، يقول سلمان: (فلما سمعتها أخذتني العرواء) -رعشة شديدة في جسده- (حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب

سيدي فلكمني لكمة شديدة)، ثم قال: (ما لك ولهذا، أقبل على عملك)، فقلت: (لا شيء لا شيء، إنما أردت أن أستثبت عما قال).

ثم كانت له قصة إسلام لطيفة مع رسول الله ﷺ ليس الآن مجال ذكرها.

الشاهد من القصة أن بقاع النور في الأرض كانت محدودة، لم تكن مدناً ولا قرى، بل كانوا أفراداً بعينهم، سلمان رضي الله عنه وأرضاه يقطع المسافات والمسافات بحثاً عن رجل واحد من أصبهان إلى الشام، إلى الموصل، إلى نصيبين إلى عمورية، إلى الرق في وادي القرى، ثم إلى المدينة، إلى أن جاء الرسول ﷺ. ولو رضي سلمان بحاله في بلاد فارس لظل إلى آخر حياته جليساً للنار، يشعلها كلما خبت، فأي وقت كان سيضيع وأي عمر كان سيهدر. لما أسلم سلمان أصبح من أعظم رجال الأرض، بل ارتفع به رسول الله ﷺ إلى أعلى الدرجات فقال في حقه: (سلمان منا آل البيت).

هذا كان الوضع في بلاد العالم بصفة عامة.

حال مكة قبل البعثة النبوية

أما الوضع في مكة نفسها فما كان يختلف عن ذلك كثيراً، لم يكن هناك على الدين الصحيح إلا القليل مثل: زيد بن عمرو بن نفيل أبو سيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه وأرضاه صاحب رسول الله ﷺ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل حنيفاً على ملة إبراهيم عليه السلام.

كذلك كان ورقة بن نوفل قد تنصر.

أهمية بعثة النبي ﷺ إلى الأرض وضرورة الدعوة إلى دين الإسلام في وقتنا الحاضر

كانت الأرض على اتساعها قبل البعثة النبوية تعيش الانهيار الشديد في الأخلاق والقيم والعادات والعلاقات والعقيدة، ظلمات بعضها فوق بعض، من هنا ندرك فعلاً قيمة النور الذي أنزله الله عز وجل على الأرض ببعثة الرسول الحبيب محمد ﷺ، {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة:15 – 16].

كان من الواضح أن الأرض تحتاج في هذا التوقيت إلى الإسلام، إلى وحي السماء، إلى الهداية إلى الطريق المستقيم، في زمان تشعبت فيه طرق الضلال حتى استحال حصرها، كان ذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، فماذا عن حالنا الآن، هل الأرض تحتاج إلى الإسلام كما كانت تحتاج إليه قبل بعثة رسول الله ﷺ؟ هل حال الأمم المختلفة في الأرض الآن لا يحتاج إلى تقويم إلهي وتعديل رباني وهداية سماوية وشريعة إسلامية؟ إن الناظر إلى حال الأرض في زماننا يرى الأوضاع شديدة الشبه بما كانت عليه قبل رسول الله ﷺ، يرى الجرائم الأخلاقية، والانحراف في السلوك وصل إلى درجات شنيعة، تجد شعوباً كاملة غارقة تماماً في الجنس والإباحية والشذوذ، فمعدل الزنا في أمريكا تحت 18 سنة مراهقين وصل إلى 55٪، في إنجلترا 65٪، في العالم الإسلامي معدلات الزنا في ارتفاع رهيب، لكن الحمد لله ما زال المجتمع المسلم لا يسمح بالمجاهرة بمثل هذه الفواحش وإن كانت موجودة، والكل يلاحظ الإباحية التي تنتشر بلا حدود في وسائل الإعلام والشوارع والجامعات والأندية، ناهيك عن الشواطئ وحمامات السباحة.

العنف في الأرض في ازدياد ملحوظ، جرائم القتل والاغتصاب والسرقة بالإكراه والخطف منتشرة بشكل بشع، نوعيات الجرائم البشعة والتعذيب في السجون، والقتل الجماعي تنتشر

بأشكال رهيبة في الأرض، الحروب الظالمة وأكل أموال الشعوب أصبح ظاهرة في كل بلاد الأرض، وللأسف العالم الإسلامي من أكثر المناطق تعرضاً لهذه الحروب ولهذا الظلم، وأحياناً الظلم يأتي من الأقربين، ولا يلزم أن يكون من محتل شعره أصفر وعينه زرقاء، لا، الظالم قد يكون من نفس بلد المظلوم، وتأمل حال إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية فهي تعيش دكتاتورية وقهراً وبطشاً في كل مكان من أمريكا وأوروبا، وإن كانت بلاداً ديمقراطية إلا أنها ما زالت استعمارية، نعم تغيرت أشكال الاستعمار لكنها ما زالت استعمارية، فحروب الفرس والرومان القديمة لم تكن تحمل وحشية حروب أمريكا وإنجلترا وفرنسا وروسيا والصرب وغيرهم، فأمريكا قتلت في هيروشيما وناجازاكي أكثر من مائتي ألف مدني، في 6 أغسطس 1945م، وفي 19 مارس من نفس السنة قتلت أمريكا ثمانين ألف ياباني مدني بقنابل النابالم المحرمة، رمتها طائرات البي 29 على طوكيو، وهذا لم يشتهر؛ لأن موضوع القنبلة النووية غطى على كل شيء. وقتلت أمريكا مليون ونصف كوري وصيني من العسكريين، ومليون مدني في حرب كوريا سنة 1950م أرقام مهولة، وقتلت أمريكا من ثلاثة إلى أربعة ملايين فيتنامي في الحرب الفيتنامية من سنة 1963م - 1975م أعنف حرب إبادة في التاريخ، ناهيك عما رأيناه في العراق وأفغانستان وغيرهما، ما سمعنا عن شيء مثل هذا في أيام الجاهلية الأولى.

كذلك حروب الصرب وروسيا والهند حروب رهيبة، وللأسف القتلى كلهم من المسلمين، حتى أمريكا والغرب لما ضربوا الصرب في كوسوفا رموا عليها آلاف الأطنان من القنابل المخصبة باليورانيوم المشع، والتي سيبقى أثرها في أراضي كوسوفا آلاف السنين، هذا إن كان في عمر الأرض بقية. فالوثنية في العالم باتت بشعة؛ لأن الغالب الأعم من أهل الأرض وثنيون، لو قسمت العالم إلى مسلمين ونصارى ويهود ووثنيين، فإن نسبة الوثنيين أعلى نسبة؛ ألف مليون في الهند يعبدون البقر والشجر والفئران الخ، مليار وثلاثمائة مليون في الصين

ينكرون وجود الإله شيوعية ملحدة تماماً. روسيا ليست بعيدة عن الاعتقاد هذا، وإن كانت الشيوعية انتهت إلا أن معظم الشعب لا يزال ملحداً.

البوذية منتشرة في جنوب شرق آسيا واليابان.

إفريقيا فيها قبائل كثير جداً وثنية تماماً، يعبدون أصناماً وأشجاراً ونجوماً.

في بلاد أوروبا وأمريكا كثير من المحسوبين على النصارى أصبحوا ملحدين، ففرنسا تقول: أنا علمانية بحتة، وأمريكا كذلك علمانية بحتة، وألمانيا كذلك، وتركيا وتونس وغيرهما من بلاد المسلمين يقولون: نحن علمانيون.

رأينا في بلاد مسلمة من يعبد الشيطان مع أن الرسول ﷺ يقول: (إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي منكم بما تحقرون) لكن في هذا الوقت بعض شباب وشابات المسلمين أعطوا الشيطان الذي كان قد يئس منه أمر لا يتخيله عقل.

بعد كل هذا ألا تشعرون أن العالم بأسره وليس العالم الإسلامي فقط يتجه إلى هاوية سحيقة؟!

ألا تشعرون أن المسلمين بحاجة إلى الإسلام؟!

بلى ألا تشعرون أن غير المسلمين بحاجة إلى الإسلام؟!

ألا تشعرون أن أمريكا وآسيا وأوربا بحاجة إلى هذا الدين؟! لقد وصلت الأرض لحالة من التردي والضياع قبل البعثة النبوية الشريفة حتى عبر رسول الله ﷺ عنها بأن الله قد نظر إلى أهل الأرض فمقتهم جميعاً عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.... أخشى أخواني في الله أن تكون الأرض من جديد قد وصلت إلى حالة من التردي والضياع حتى يمقتها ربها إلا بقايا من المؤمنين. نحن نحتاج إلى بعثة جديدة كما كانت تحتاج الأرض قبل رسول الله ﷺ لكن ليس

هناك نبي بعد رسول الله ﷺ وليس هناك دين بعد الإسلام فمن يحمل الراية إن لم نكن نحن؟ ومن يعلم الناس ما لم نكن نحن؟

لقد فقه ربعي بن عامر رضي الله عنه وأرضاه هذه الوظيفه جيداً فعبّر عنها في بساطة ولكن بعمق شديد حين قال (لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد) وانتبه لكلمة ابتعثنا فنحن لنا مهمة الأنبياء و كذلك كلمة العباد مقصود بها كل العباد وليس من في بلاد المسلمين فقط؛ كل العباد في روسيا وأمريكا وأوروبا وأستراليا وكل بقعه على الأرض. إذا كنا نحن الجيل الذي يفقه حقيقة هذه الوظيفة الكريمة الشريفة ويسير في خطوات الرسول الخاتم ﷺ في بناء أمته وفي دعوة الأمم إلى الدين النقي الخالص إذا كنا نحن هذا الجيل فسوف نصل إن شاء الله وسوف نستفيد من دراسة حياة الرسول أعظم استفادة، أما إن لم نكن نحن هذا الجيل فلنحذر الترهيب الإلهي الشديد {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} [محمد:38].

بهذه النظرة المدركة لقيمة هذه الدين في حياة الأرض كلها سنبدأ في فقه سيرة الحبيب محمد ﷺ

3

من هنا بدأ الإسلام

الحكمة من إرسال محمد ﷺ في جزيرة العرب

هناك سؤال قد يستغربه البعض: لماذا ينزل الوحي في مكة؟ لماذا تحدث قصة رسول الله ﷺ في الجزيرة العربية؟ لماذا لم يبعث الرسول ﷺ في فارس أو الروم، أو في فلسطين مثل بقية الأنبياء، أو في مصر مثل سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام؟ إخواني؛ لا توجد نقطة واحدة في حياة رسول الله ﷺ عشوائية؛ إذ كل شيء بحساب، كل شيء مقصود؛ لأن الرسول ﷺ سيكون قدوة لكل المسلمين إلى يوم القيامة، فلابد أن تكون كل خطوة في هذه الشخصية محسوبة تماماً.

كان الوضع في جزيرة العرب هو الوضع المناسب لقيام الدعوة الإسلامية يتضح ذلك من آثار التجربة الإسلامية الأولى، فقد كانت تجربة ناجحة تماماً، والبيئة التي نشأت فيها الرسالة كانت بيئة صالحة، فقد رأينا الإسلام ينتشر بسرعة في الأرض، ففي غضون سنوات قليلة لا تحسب في التاريخ بشيء وصل الإسلام من أقصى الأرض إلى أقصاها، بل ودخل الناس في دين الله أفواجاً، راغبين غير مكرهين.

نحن نسأل هذا السؤال ونهدف من ورائه لمعرفة المقومات التي أنجحت رسالة الإسلام. من المعلوم أن الرسالة من الممكن أن تحقق نجاحاً ذاتياً في أي مكان تقوم به؛ لأن الرسالة في ذاتها عظيمة تصلح لكل زمان ومكان، لكن من منظور هذه المجموعة من الدروس نحن نقول:

كيف نبني أمة؟ فأول البناء هو وضع الأساس، ونحن نريد أن نعرف لماذا ربنا سبحانه وتعالى اختار هذا المكان بالذات لوضع الأساس لهذا المشروع العظيم، مشروع الإسلام.

ما هي مواصفات هذا المكان؟ ما هي ظروفه؟ ما هي طبيعته؟ لو استطعنا أن نعرف هذه المواصفات لسوف نستخرج قواعد في غاية الأهمية لإعادة بناء الأمة الإسلامية على أساس صحيح، وسوف نعلم ما هي البيئة التي يمكن أن تكون أصلح لنشأة الدعوة الإسلامية، ولنشأة هذا الدين وتمكينه. أما الحكمة الكامنة وراء ذلك الأمر فلا يعلمها إلا الله عز وجل، لكن نحن نحاول أن نبحث على قدر الاستطاعة، ونسأل الله عز وجل التوفيق.

المحافظة على نقاء الرسالة ووحدة المصدر

أول حكمة تتبدى في ذلك الأمر: أن هذه المنطقة ليس لها تاريخ ثقافي يذكر، ولا فلسفات سابقة، أو تشريعات مركبة، أو قوانين مفصلة، بل حياة بسيطة إلى أبعد درجات البساطة، الحضارات المعاصرة لها كانت لها أفكار مرتبة وفلسفات خاصة وتاريخ طويل، فالدولة الرومانية الغربية والشرقية كانت فيها قوانين كثيرة، وتشريعات في معظم المجالات، وكان بها ظلم وقهر وبطش.

فاليونان كانت جزءاً من الدولة الرومانية الشرقية، وكانت فيها فلسفات كثيرة قوية، وظهر فيها فلاسفة كبار، أمثال: أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم.

والدولة الفارسية ظهر فيها مزدك صاحب الشيوعية وزواج المحارم، وظهر فيها زرادشت صاحب النار.

والهند كان فيها حكماء كثيرون جداً كما يقال.

والصين ظهر فيها بوذا وكونفوشيوس ولاوتسو.

ومصـــر كان فيها الفراعنة وتاريخهم طويل وقديم وقوي، وعندهم أيضاً قوانين وتشـــريعات وأحكام، ومع كل هذا نزلت الرسـالة في مكان يعتبر تقريباً بلا تاريخ ثقافي، اللهم الشعر، لكن حتى الشعر لم يكن له دور فعال في بناء الأمة الإسلامية، ولم يكن ذا أهمية خاصة في إنشاء الأمة الإسـلامية على الأقــــل في البداية، بل إن الرسـول ﷺ كان لا يعرف نظم الشـعر على بلاغته وفصاحته ﷺ، وقد كان أبلغ البشـــر أجمعين، ومع ذلك لم يكن يقول الشعر، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس:69] أي: لا يصح أن يقول شـعراً، ومـــــا ينبغي له ذلك؛ لئلا يختلط على الناس الأمر، ويعتقد الناس أن القرآن نوع جديد من الشعر ســاقه رسول الله ﷺ، فالله عز وجل أراد ألا يختلط القرآن بأي شيء من كلام البشر، حتى لو كان من كلام رسول الله ﷺ.

كل هذا من أجل نقاء الرسالة، وحتى لا تختلط بأفكار سابقة، ثم يقال: إن الإسلام مجرد تطور للمعتقدات السـابقة!!!. فــــ كونفوشـيوس أو بوذا أو سـقراط أو غيرهم من الفلاسـفة لهم معتقدات معينة، وقواعد خاصة وضعوها منذ مئات السنين، بعضها قد يحض على معنى معين حض عليه الإسلام أيضاً، ولكن سيكون بشــيء من الاختلاف أو التغيير، فقد يحض بعضهم مثلاً على الصدق، أو الزهد في الدنيا، أو الأمانة، فإذا جاءت هذه الأفكار في الإسلام قد يعتقد البعض أنها مجرد تطور لأفكار ســقراط أو بوذا أو غيرهما، وهذا ما قاله بعض المتطاولين على الإسـلام، مع أن الرسـول ﷺ كان بعيداً عن هؤلاء الفلاسـفة، وما كان يقرأ ﷺ، فما بالكم لو كان الرسول ﷺ نشأ في بيئة مليئة بالفلاسفة وبالثقافات القديمة، ماذا سيقال عنه؟ ثم أيضاً قد تتسرب بعض هذه الأفكار إلى الإسلام دون دراية المسلمين بذلك، فقليلاً قليلاً يختلط الصواب بالخطأ، ويختلط الحق بالباطل، فإن قواعد الجاهلية التي كانت مترسخة في الناس أخذت مجهوداً ضـخماً من الإسـلام؛ لكي يلغيها من أذهان الناس، فمثلاً: عادة التبني، لكي يلغيها الإسـلام

حصلت القصة المشهورة من طلاق زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه للسيدة زينب بنت جحش، ثم زواج الرسول ﷺ منها. كل هذا أحدث هزة كبيرة جداً في المجتمع المسلم، والناس كلها تنتبه إلى أن هذه العادة ليست من الإسلام.

وتخيل لو أن هذا البلد مليء بتشريعات وقوانين وفلسفات، كيف سيصبح الوضع؟ فربنا سبحانه وتعالى يريد للرسالة أن تكون نقية تماماً، ليس فيها أي خلط بأي أفكار أخرى، وربما من أجل هذا أيضاً ما نزلت الرسالة في فلسطين، فلو نزلت فيها الرسالة فستبقى مجرد امتداد لليهودية أو النصرانية، نعم، أصول التوحيد واحدة، لكن الإسلام أتى بتشريع كامل متكامل يحكم الدنيا والدين.

إن الله سبحانه وتعالى أراد للرسالة الخاتمة أن تنزل على رسول الله ﷺ في مكة؛ حتى لا يدعي بعض المدعين على الرسول عليه الصلاة والسلام أنه أخذ التوراة والإنجيل وحرف فيهما قليلاً، واستخرج منهما الإسلام، ادعى أهل مكة أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتلقى هذه الآيات من غلام نصراني، فكيف لو نزلت الرسالة في بلد مملوء بأهل التوراة والإنجيل مثل فلسطين؟ لذلك نزلت هذه الرسالة في مكان ليست فيه بالفعل أي نوع من الثقافات السابقة أو القوانين أو التشريعات، كل هذا من أجل أن يبقى الدين في النهاية نقياً خالصاً: {أَلا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر:3]. ونحن رأينا بأعيننا بعد ذلك آثار اختلاط الإسلام بالأفكار الغريبة عنه، ومدى الخطورة على الإسلام لو أدخلنا عليه أي أفكار، حتى ولو كانت من أفكار الفلاسفة وكبار الحكماء كما يقولون.

مثال ذلك: دخول المناهج الفلسفية اليونانية إلى الإسلام، عندما ترجمت كتب الفلاسفة اليونانية إلى العربية - سقراط وأرسطو وأفلاطون - ظهرت فرق شنيعة في الإسلام مثل: المعتزلة والمعطلة والجهمية.. وغيرهما من الفرق التي ظهرت بسبب تطبيق هذه الأفكار

الفلسفية على الإسلام، وظهرت تفريعات كثيرة جداً في العقيدة جعلت من العقيدة شيئاً غير مفهوم، وفتحت أبواب مسائل ما فتحها رسول الله ﷺ نفسه، وفتن المسلمون بفتن ضخمة مثل: فتنة القول بخلق القرآن، أو أين الجنة؟ وغيرها من المسائل.

كل هذه الأمور ضيعت على المؤمنين وقتاً طويلاً جداً، وشغلت المسلمين بأنفسهم، وحدث الصراع والجدال والقتال بين المؤمنين، وعطل الجهاد، وأضعفت شوكة المسلمين، بل أخرجت بعض المتكلمين من دين الإسلام أصلاً.

كل ما حدث كان نتيجة اختلاط أصول الرسالة بغيرها، فضاع نقاء الرسالة، ونزول الرسالة في مكة كان يوفر عليهم كل هذا الخلط، وبالذات وهي لا زالت في أول الطريق في المهد، والدرس واضح للمسلمين: حافظوا على نقاء رسالتكم. نحن لسنا محتاجين غير القرآن والسنة إلى أي شيء آخر يتخذ معهما كأصل من أصول التشريع: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسنتي). لو ألقيت نظرة على المفاهيم التي دخلت على دين الإسلام كيف غيرت اعتقادات وأفكار وأخلاق الناس ستستغرب، وتقول: هل يمكن لدولة إسلامية أن يكون فيها هذا؟!

على سبيل المثال: اختلاط أفكار الناس بأفكار الغرب أو الشرق في قضية اللباس، انظر إلى ملابس الفتيات، اختلطت المفاهيم وضاع نقاء الرسالة، أصبح هناك تعريف جديد للاحتشام، وضاع المقياس الإسلامي، وتتعجب كيف خرجت هذه الفتاة بهذا اللباس أمام أبيها أو أخيها أو زوجها؟ لكن المشكلة أن لا أحد يعلم أن هناك مشكلة، أو يشعر بوجودها، بل قد يمدحون ويبدون إعجابهم ويقولون: الحمد لله، هم أحسن من غيرهم بكثير؛ لأن المقياس هو أن يقيس نفسه على جاره أو صاحبه أو دولة غربية أو دولة شرقية.

من المسلمين من يحتفل بـــ(الكريسمس) عيد رأس السنة الميلادية، أكثر من احتفاله بعيد الفطر أو الأضحى!

من المسلمين من يعتقد أن من الصواب أن يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!

من المسلمين من يعتمد في تفسيره للتاريخ الإسلامي على اليهود والنصارى!

من المسلمين من ينكر الشفاعة ويرد المتواتر من الحديث، ويستهين بصحيح البخاري وصحيح مسلم!

من المسلمين من يقول: الحج شيء جميل، لكن الزحام شديد، وأقترح أن يكون في كل سنة في مكان ما، أو نوسع المكان أو يكون على مدار السنة، بدلاً من تمركزه في وقت واحد في مكان واحد!!! هذا لأنه رأى أساتذته من اليهود والنصارى يغيرون ما يريدون في دينهم. كل ذلك بسبب اختلاط المفاهيم واضطراب المقاييس.

فنزول الرسالة في مكة يعتبر عزلة نسبية عن الأفكار الفلسفية والقوانين المادية والعقائد النظرية الغربية، وحافظ على نقاء الرسالة، وعلى تكوين الصحابة تكويناً إسلامياً خالصاً، وعلى الجيل الذي سيأخذ الأمانة الإسلامية أن يوحد من مصدره، وأن يجعل القرآن والسنة هو الأول والآخر، لا يخلطه بأفكار الأرض شرقية كانت أو غربية.

أيضاً نزول الرسالة في بلد ليس له تاريخ تشريعي يذكر ويظهر المعجزة الإلهية في التشريع الإسلامي، فهذه المعجزة مهولة بكل المقاييس، سواء بمقاييس الماضي أو الحاضر أو المستقبل كله، من المستحيل فعلاً أن تفهم كيف خرج هذا التشريع المتكامل الشامل المفصل في هذه البيئة البدوية البسيطة منعدمة التاريخ، إلا إذا كانت هناك قوة فوق قوة البشر هي التي فعلت ذلك، تلك هي قوة الله عز وجل.

التشـريع الإسلامي فعلاً تشريع عجيب، يعالج كل جزئية -مهما صغرت- من جزئيات الحياة وعمارة الأرض وسـيادة الدنيا، فهو يحتوي على قوانين متكاملة في السـياسـة والقضـاء، والمعاملات، والتجارة والاقتصـاد، وإدارة البيت وتربية الأولاد، كيف تحارب، وتسـالم، وتتزوج، وتشتغل، وتترفه، وهكذا الدخول في أدق التفاصيل بلا خطأ ولا ثغرة ولا عيب ولا قصـور. فنزول الرسـالة في مكة بهذا التكامل العجيب كان إعجازاً لا ينكر، ودليلاً قاطعاً على إلهية هذا التشريع وربانية هذا المنهج.

نزول الرسالة في مكان ليس فيه تشريعات كثيرة معقدة كان سبباً في نقاء التكوين عند الصحابة، وصحة الطريق بلا ضلال أو غموض، فقد كان يحمي الإسلام من الانحراف أو التخبط، وفي ذات الوقت كان دليلاً معجزاً على أن هذا التشريع من عند الله عز وجل.

فالحكمة الأولى من نزول التشـريع الإسلامي في هذه البيئة البدوية البسيطة: المحافظة على نقاء الرسالة ووحدة المصدر. ولو أردنا أن نرجع أمة الإسلام لوضعها الذي كانت عليه أيام السيادة والتمكين فلابد من عدم خلط القرآن والسنة بأي مصـدر آخر، وهذا ليس على وجه الاختيار، بل لزاماً علينا، يقول الله سبحانه وتعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَـى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا} [الأحزاب:36].

إدراك حقيقة أن النصر بيد الله وأن القلة المؤمنة تغلب الكثرة المشركة

الحكـمة الثانية من نزول الرسالة في جزيرة العرب: أن هـذه المنطقة ليس لها تاريخ أو واقع عسكري ملموس، لم يكن هناك ما يعرف بالجيوش العربية، بل كانوا قبائل متفرقة متشـرذمة، لا يعرفون إلا حرب الإغارات والسطو على بعضـهم البعض، وأعدادهم قليلة، وسـلاحهم

قـــــديم، وخططهم بدائية، فلما جاء الإسـلام إلى هذه البقعة من الأرض حصـل انقلاب هائل بمعنى الكلمة، إذا بالرجال البدو البسـطاء الذين كانوا يعيشـون في هذا المكان يصـبحون قادة عسـكريين على أعلى المسـتويات، لا مثيل لهم في التاريخ كله، وإذا بالقبائل المتفرقة تكون جيشـاً واحداً مترابطاً، وإذا بالبدو الرحل يحاورون ويناورون ويفاوضـون، ويفتحون البلاد، ويدعون العبـــاد إلى عبادة رب العباد، اقرءوا تاريخ الفتوح الإسـلامية الإعجازية، راجعوا التاريخ من أول نزول آدم وإلى الآن لا تجد لهم نظير، ولا للفتوحات الإسلامية مثيل.

في غضون سنوات قلائل تسقط فارس الدولة الرهيبة العظيمة.

في غضـون ثلاث عشـــرة سنة بعد وفاة الرسـول ﷺ، تسـقط فارس، التي هي إيران والعراق وأوزبكسـتان وتركمانسـتان وطاجكسـتان وكازاخسـتان وأفغانسـتان وباكسـتان، نصـف الأرض تقريباً تسقط في ثلاث عشرة سنة على أيدي هؤلاء البدو الرحل.

كـــذلك في نفس الوقت على الجهة الغربية من العالم تسقط معظم ممتلكات الدولة الرومانية في آسيا وإفريقيا، معجزة عسكرية هائلة بكل المقاييس، من المستحيل أن تكون من فعل البشر.

ماذا كان موقف العرب من كسـرى فارس قبل الإسلام؟ كان العرب مثل أصغر دولة نامية في الأرض في هـــذا الوقت بالنسـبة لأعظم قوة في الأرض في زمانهم دولة فارس ودولة الروم، والعربي إذا أتى إيوان كسـرى يقف على بعد خمسة عشـر متراً منه، وكان يعتبر ذلك فخراً أبد الدهر فـــالمغيرة بن شـعبة رضي الله عنه وأرضـاه من صـحابة رسـول الله ﷺ، كان في جاهليته يفخر على غيره بأنه دخل إيوان كســـرى، فهذا يشـبه عندما تأتي بشـاب من دولة نامية ليقابل رئيس دولة عظمى، وكان الفرس يتصدقون على العرب بالقمح من شدة المجاعات التي كانت تقع في أرض العرب؛ لذا لما ذهبت الجيوش الإسلامية لفتح فارس تعجب كسـرى من العرب،

كيف أتوا كي يفتحوا بلاده بينما هو يـــرى أنه من مضيعة الوقت أن يحاربهم؟ وقال: أنا أعرض عليكم عرضاً مغرياً جداً -في نظره- سأعطي ثوباً لكل جندي ودرهم.

هذا العرض الذي عرضـه كســـــرى فارس على الجيوش الإسـلامية، وأما القائد الإسـلامي فسيغريه جداً ويعطيه ثوبين ومائة درهم كان هذا الرقم مهولاً جداً، وهذه كانت نظرة كسرـى فـــارس ودولة فارس كلها للعرب، وهذه النظرة كانت واقعية بالنسبة لتاريخ العرب وتاريخ فارس، وتذكروا معي مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضـاه لما جيء به من غزوة أحد ليدفن لم يجدوا ما يغطونه به، فعلاً كان الصحابة بسطاء جداً؛ لذا فإن كســـرى فارس يقول: أعطيكم ثوباً لكل جندي، وهو يرى أنه يســترهم به. وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه وأرضــاه لما ذهب ليأتي بخبر القوم في الأحزاب كان عليه ملابس زوجته؛ لأن الجو كان بارداً.

هـــــذا كان وضـع الصـحابة الذين فتحوا بلاد فارس الرهيبة وبلاد الروم الهائلة. والعرب لما كشروا عن أنيابهم في الأحزاب بالكاد جمعوا عشرة آلاف، وهذا كان رقماً مهولاً عندهم، فكيف يمكن لهؤلاء أن يفكروا في غزو بلاد فـارس، مع علمهم أن جيش فـارس لا يقـل عن اثنين مليون جندي! فجوة هائلة في التسليح والإعداد، بالإضافة إلى أن الحرب في عقر دار الفارسيين في وسط بلاد الفرس في العراق وإيران وغيرهما من البلاد على بعد مئات الأميال من المدد. حقاً إنهـــا معجزة عسكرية بكل المقاييس!! أين كان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح والقعقاع بن عمرو التميمي والبراء بن مـــالك وأبو موسـى الأشـعري والزبير بن العوام ومحمد بن مســـــلمة والمقداد بن عمرو؟ الكوادر العظام في الإسـلام أين كـــانوا قبل الإســلام؟ أين كان هؤلاء العباقرة العســكريون قبل إســلامهم؟ خالد بن الوليد في أُحد أمام خمسـين من الرمـــــاة وهو في ثلاثة آلاف لم يحرك سـاكناً، لولا خطأ الرماة بترك الجبل فيما بعد وخـــالفوا أمر رسول الله ﷺ ونزلوا من فوق الجبل، هذا هو خالد، ما الذي جعله يدخل بلاد

فارس بثمانية عشر ألف جندي مسلم ويكسر بهم مائة وعشرين ألفاً ولا يغلب في موقعة؟ كيف ينتصر المسلمون باثنين وثلاثين ألفاً في القادسية على ربع مليون فارسي؟ كيف ينتصر المسلمون بتسعة وثلاثين ألفاً على مائتي ألف رومي في اليرموك؟ كيف فتحوا بلاد الأندلس باثني عشر ألفاً وأمامهم مائة ألف إسباني صليبي في عقر دار الأسبان؟ ألغاز لا يمكن أن تفهم إلا بحقيقة واحدة لا ثاني لها: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال:17].

لو نزلت الرسالة في بلد له تاريخ عسكري طويل وعظيم ومنظم لاعتقد الناس أن الفتوح كانت بسبب قوة الجيوش وأعدادها وتسليحها وخططها، ما الإعجاز في أن تفتح جيوش فارس الدنيا بأسرها؟ ما الإعجاز في أن تفعل ذلك جيوش الرومان الهائلة؟ لكن أن تنزل الرسالة في مكة فيحدث هذا الانقلاب الهائل في العالم، وتتغير خارطة الأرض تغيراً جذرياً في سنوات معدودة، هذا هو الإعجاز بعينه.

القاعدة التي نأخذها من هذا الكلام: أن الله عز وجل دائماً ينصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة. ونحن هنا لا ندعو المسلمين إلى تقليل أعدادهم، أو إضعاف قوتهم، بل على العكس هم مطالبون بإعداد ما استطاعوا من قوة، ونقول: إن من سنن الله عز وجل أن يجعل أهل الباطل دائماً كثرة: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام:116]، ثم هو ينصر المسلمين الثابتين على دينه المتمسكين بشرعه على الكثرة المشركة فتظهر المعجزة، ويوقن الجميع أن النصر من عند الله عز وجل وليس لسبب آخر.

نخرج بقاعدة هامة، وهي: أن الجيل الذي يحمل الأمانة لا بد أن يدرك أن النصر بيد الله عز وجل، وأن القلة المؤمنة تغلب الكثرة المشركة بإذن الله عز وجل، وتذكروا قوله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:249].

الاستفادة من تعدد موازين القوى وعدم وجود حكم مركزي أو دكتاتوري في مكة

الحكـــــمة الثالثة من وراء نزول الرســالة في أرض مكة وجزيرة العرب: نظام الحكم في أرض مكة.

لم يكن الحكم في مكة حكماً مركزياً، ولم يكن في مكة ثمة حــاكم معين، بل مجلس يضم عشــرة أشــخاص يمثلون عشـــــر قبائل، حكم ائتلافي يشــبه الحكم الديمقراطي، وقد أفادت كثرة موازين القوى في مكة الدعوة، ووجدت إضافة إلى ذلك بعض القوانين الوضعية في أرض مكة استفاد منها رسول الله ﷺ، دون أن يتنازل عن شيء من دينه ولا من عقيدته، ليعلمنا أن المسلم الذكي الواعي الفاهم يستطيع أن يستفيد من هذه القوانين طالما يحافظ على دينه.

وهذا يرد على كثير من غير الفاهمين لسـنة الرسـول ﷺ، ويقولون: إننا لا نحتكم مطلقاً لقانون وضــعي، لكن هذا الكلام ليس بصــحيح على إطلاقه، فنحن لا نحتكم إلى قانون وضــعي إذا تعارض مع شرع الله عز وجل، ونستفيد مما ليس له تعارض بالشرع.

فقــانون الجوار كان في مكة، ولو كان الحكم مركزياً مثل فارس أو الروم ما تمت هذه الإجارة، والرســول عليه الصــلاة والســلام اســتفاد من هذا القانون، ودخل في جوار المطعم بن عدي المشــــرك؛ لكي يحميه من أهل مكة، ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جوار ابن الدُغنّة المشرك، ودخل عثمان بن مظعون رضي الله عنه في جوار الوليد بن المغيرة المشرك.

هكذا استفادوا من قانون الجوار الوضعي في مكة، لكن بدون تفريط في العقيدة أو الدين.

كذلك هناك قانون قبلي أيضــاً كان في مكة اسـتفاد منه رسـول الله ﷺ، وهو حماية بني هاشـم له، وبالذات في أثناء حياة أبي طالب مع كون معظمهم على الشرك، أبو طالب بالذات كان مشــركاً، وبقي إلى آخر لحظة من لحظات حياته مشــركاً، ومع ذلك الرسول ﷺ قبل حمايته.

كـــذلك قانون الأحلاف، قبِل رسول الله ﷺ بفكرة الأحلاف مع المشــــركين، إذا كان الحلف يهدف إلى أمر نبيل ولا يتعارض مع الدين الإسـلامي، يقول الرسـول عليه الصـلاة والسـلام: (شـهدت وأنــــا غلام -أي: قبل البعثة- حلفاً مع عمومتي المطيبين) كان حلفاً بين بني هاشـم وبني تيم وزهرة على نصرـة المظلوم. يقول: (فما أحب أن لي به حمر النعم وأني نكثته، ولو دعيت به اليوم في الإسلام لأجبت).

وأكثر من هذا ما كان في صلح الحديبية، فقد حالف رسول الله ﷺ قبيلة خزاعة وكانت مشركة. وكان للمسـلمين دولة وكيان معروف وقوي. ووقع ﷺ معــــاهدة مع قريش، وبهذه المعاهدة حالف خزاعة ووضـع يده في يدها، وما تنازل عن أي قانون إسـلامي أو أي عرف إسـلامي، لكنه تعاون مع خزاعة ضد قريش.

الرسـول ﷺ اسـتفاد مــــن تعدد موازين القوى، ومن قوانين المجتمع الوضـعية ما دامت لا تتعارض مع الدين والشرع والعقيدة.

وهـــــذه الحكمة ما كانت لتظهر لو نزلت الرسـالة في بلد فيه حكم ديكتاتوري مثل: فارس أو الروم أو غيرهما من الممالك الموجودة في ذلك الوقت.

إتقان أهل الجزيرة العربية والدعاة للغة العربية لغة القرآن

الحكمة الرابعة من نزول الرســالة في جزيرة العرب: أن النبي ﷺ كان يتحدث اللغة العربية، وهي أشرف اللغـات، وبهـا نزل القرآن الكريم، وهي لغـة أهـل الجنـة، والقرآن كلام الله عز وجــــل، ولم ينزله الله عز وجل بهذه اللغة لأهل الجزيرة فقط، بل للعالم كله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:107] في زمان رسول الله ﷺ وبعد زمانه وإلى يوم القيامة.

وقـــد نزل القرآن بهذه اللغة في وقت كانت فيه لغات كثيرة موجودة في الأرض، واستحدث غـــيرها من اللغات على مر التاريخ، وستكون لغات أخرى إلى يوم القيامة، ومع ذلك أراد الله عز وجل لهذا القرآن وهذا المنهج أن يكون باللغة العربية؛ لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

وهو سبحانه وتعالى يعلم أن اللغة العربية قد تكون أقل انتشاراً من غيرها من اللغات في زمان من الأزمان، مثل زماننا هذا فإن اللغة العربية أقل انتشـــاراً من الإنجليزية أو الصـــينية أو الفرنسية، ومع علم الله عـــز وجل بذلك الأمر إلا أنه أنزل القرآن باللغة العربية، لحكمة كاملة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وأنا في اعتقادي أن سبب ذلك هو أن اللغة العربية أثرى لغة، فالشـــيء الواحد له أكثر من اسم في هذه اللغة العظيمة، فلك أن تعبر عنه بعشـــرات الكلمات، فمثلاً: العســـل له ثمانين اسماً، والثعلب له مائتا اسم، والأسـد له خمسـمائة، والجمل له ألف، والسيف له ألف، والداهية لما توصف واحداً بأنه داهية في أربع أو ثلاث كلمات تفســـــر معنى الداهية، شيء مهول لا يتخيله عقل، هذه هي اللغة العربية.

وأيضـاً الكلمة الواحدة في اللغة العربية تكون بنفس الحروف، إلا أن تغيير حركات التشـكيل يعطيها أكثر من معنى، كـــل هذا أعطى اللغة إمكانيات هائلة، تنزل الآية بكلمات قليلة محدودة ومع ذلك تحمل من المعاني ما يصعب حصره.

كلما نظر المفســر في الآية استخرج منها معاني جديدة مختلفة عن التي استخرجها غيره، قد ينظر المفسر الواحد في الآية أكثر من مرة، وفي كل مرة يخرج بمعنى جديد، وتمر الأزمان والأزمان ثم يأتي مفسرون آخرون ليستخرجوا معاني جديدة.

وصـــدق علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضـــاه عندما وصـــف القرآن بأنه لا يخلق من كثرة الرد، أي: لا يبلى من كثرة الترديد والقراءة.

أيضاً كلمات الرسول ﷺ كـــانت باللغة العربية، وآتاه الله عز وجل جوامع الكلم، كان يقول الحديث في كلمات قليلة جداً، فإذا به يحوي أحكاماً لا تنتهي.

فـــإذا كان ربنا سبحـــانه وتعالى اختار أن القرآن ينزل باللغة العربية فيلزم الناس أن يتكلموا العـــربية، بل ووصلوا فيها إلى أعظم درجات الإعجاز البشـــري، إتقان عجيب جداً للغة، يتصرفون فيها كما يريدون، وأصبحت ألسنتهم سهلة لينة طيعة بها.

وكان أمر الشعر عند العرب عجيباً، فالمعلقات الهائلة التي كانت تعلق على الكعبة من الشعر، فالشعر يقال في كل الظروف، الفرحان يقول الشعر، والحزين يقول الشعر، ويقال في السلم، وفي الحرب، حتى قبل الموت والسـيف على رقبة الشـخص وهو يقول الشـعر؛ لأنه كان على لسانه مثل الكلام عندنا.

كذلك المعارضة بالشعر تأليف فوري، واحد يقول بيت شعر والثاني يرد عليه ببيت على نفس الوزن والقافية وفي نفس اللحظة، ولا يفكر كثيراً، هذه كانت كفاءتهم بالنسبة للغة العربية.

من عـــوامل نجاح الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية، إتقان أهل هذه البقاع اللغة العربية، لماذا إتقان اللغة العربية كان سبباً في نجاح الدعوة؟ أولاً: كان أدعى لإيمان الناس بكلام الله عز وجل وبإدراك الإعجاز الإلهي في كل آية وفي كل سورة، يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:198 – 199].

العرب المتقنون للغة أدركوا منذ أول لحظة سـمعوا فيها القرآن أن هذا الكلام معجز، لذا لم ينتقدوا آية واحدة من آيات القرآن الكريم، ولم يعارضـوا القرآن بمثله أبداً، وما اجتمعوا لكي يعارضوا القرآن الكريم، لم يجتمع شعراؤهم وأدباؤهم وحكماؤهم ليؤلفوا آية واحدة مع تحدي القرآن لهم.

فالقرآن يتحداهم أن يأتوا بسورة أو عشـر سور أو بمثل القرآن كله وهم لا يستطيعون، كرجل تقـــول له: اذهب وخذ هذا البيت، وهو يذهب أصـلاً ولا يحاول؛ لأن هذا شيء بالنسـبة له معجزة، نعم، أنا قوي وأقدر على أخذ كذا أو كذا أو كذا، لكن ذلك البيت مستحيل، هم كانوا هكذا بالضـبط، يعلمون أن القرآن الكريم، وهذه الكلمات والآيات والسـور من المسـتحيل أن تعارض. فمعرفة العربية كانت أدعى لفهم الإعجاز العجيب في كتاب الله عز وجل.

وهـــذا الأمر ليس مقصوراً فقط على الإعجاز اللغوي، بل حتى أي نوع من أنواع الإعجاز في القرآن الكريم يحتاج إلى فهم دقيق للغة، بل حتى الإعجاز العلمي الذي نسـتخرجه من القرآن الـــكريم لابد له من فقه للغة، ومعرفة معنى الكلمات، ومعنى الآيات، والمقصود من وراء كل كلمة.

وجود بقايا من ملة إبراهيم في الجزيرة

الحكمة الخامسة من وراء نزول الرسالة في جزيرة العرب: أن أهل هذه البقعة من الأرض كانوا يؤمنون بـالله سـبحـانـه وتعـالى، ويعلمون أنـه الخـالق، ولكنهم حكموا غيرهم في حيـاتهم، واتخذوهم إليه شـفعاء، قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف:87]. {وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف:9]. ويقول: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر:3].

الذي يؤمن بالله ولكن عنده اضـطراب في فهمه وقصـور في إدراكه أقرب من الذي يؤمن بإله آخر، أو لا يؤمن بوجود إله أصـلاً، ما كان في وقت البعثة النبوية على الأرض من يفقـــه هذه الحقائق إلا القليل، كـــان هناك على ظهر الأرض من يعبد النار وبوذا، والمسيح عليه السلام،

وبقرة أو شجرة أو فأراً أو إلخ، كما هو واقع في الهند، لكن ربنا سبحانه وتعالى يعلمنا أن ندعو الأقرب فالأقرب، ندعو الذي يؤمن بوجود الله عز وجل قبل الذي ينكر وجوده، ندعو الذي يعظم الله عز وجل قبل الذي لا يعظمه، ندعو الذي يحب الدين ولكن لا يتبعه قبل الذي لا يحبه أصلاً.

ولست ضد دعوة اليهود والنصارى وأهل الأرض أجمعين، بل بالعكس، ولكن نبدأ بالأقرب فالأقرب، أي لا تترك جارك في السكن أو العمل أو النادي أو غيره دون دعوة وهو مسلم، وتتجه إلى دعوة غيره من غير المسلمين، لكن لو انتهيت من الدائرة التي حولك انتقل إلى الدائرة التي تليها، ولما تنتقل إلى المدائرة التي تليها ابحث عمن يحبون الإسلام، فهؤلاء أقرب إلى الدعوة من المعادين لدين الله عز وجل.

صفات خلقية أهلت العرب لحمل رسالة الإسلام

الحكمة السادسة من نزول الرسالة في جزيرة العرب مع كل ما سبق من أجواء أخلاقية وأمراض اجتماعية في جزيرة العرب إلا أن المجتمع كان يتصف بصفات أصلية في فطرة ساكني هذه المنطقة، تساعد على حمل الدعوة ونشر الإسلام، نعم، كان عندهم ظلم وقهر لكن، كان عندهم صفات جُبِلوا عليها، وهذه الصفات لا بد أن تكون في كل داعية، ولولا هذه الصفات لما استطاعوا حمل رسالة الإسلام.

من هذه الصفات على سبيل المثال: **الصدق**، وهي أهم صفة مميزة للداعية، فالرسول ﷺ أهم صفة كانت مميزة له الصدق، فهو الصادق الأمين ﷺ، وأكثر من ساعد الرسول ﷺ في دعوته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، اسمه: الصديق، فصفة الصدق صفة أساسية في الذي يحمل هم هذا الدين. وتفكر معي ماذا لو أنزلت الرسالة في بيئة من البيئات الكذب منتشر

فيها؟ انظروا إلى فعل اليهود والنصارى بدينهم، يقول الله عنهم: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:78] والإسلام يحول الكذاب إلى صادق، لكن ليس بالصورة التي فطر فيها الإنسان على الصدق.

فقد كان العرب يأنفون من الكذب، فيأتي الإسلام بعد ذلك ليحسن ويجمل ويعظم قيمة الصدق عند هؤلاء الصادقين، فيربط الأمر بالجنة، والصديقية عند الله سبحانه وتعالى. فهذا أبو سفيان لما كان يتحدث مع هرقل عن أمر رسول الله ﷺ، وكان هذا بعد صلح الحديبية، وكان لا يزال مشركاً يحارب الرسول ﷺ، ومع ذلك قال أبو سفيان: (كنت أنا أقربهم نسباً إلى رسول الله ﷺ، فقال هرقل: أدنوه مني -أي قربوه- ثم قال: قربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن النبي فإن كذبني فكذبوه،) وبدأ يسأله ووضع أصحاب أبي سفيان وراءه، قال أبو سفيان:(فوالله لولا الحياء أن يؤثروا علي كذباً لكذبت عمداً). هو يكرهه جداً، لكن يستحي أن يكذب؛ لأنه رذيلة.

وفي لفظ آخر يقول: (فوالله لو كذبت ما ردوا علي -لأنه سيد القوم- ولكني كنت امرأً أتكرم عن الكذب).

وكان الحوار الذي دار بينه وبين هرقل حواراً عجيباً، كأنه داعية يتكلم عن الإسلام، ويدعو إليه.

يقول له هرقل: (كيف نسبه فيكم؟) يقول: (هو فينا ذو نسب).

فيقول له: (فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط؟) قلت: (لا)، قال: (فهل كان من آبائه من ملك؟) قلت: (لا)، قال: (فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟) قلت: (بل ضعفاؤهم)،

قال: (أيزيدون أم ينقصون؟) قـــلت: (بل يزيدون)، قال: (فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بـــعد أن يدخل فيه؟) قلت: (لا)، قال: (فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟) قلت: (لا)، قــال هرقل: (فهل يغدر؟) قلت: (لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها)، قال أبو سفيان: (ولم تمكني كلمة أدخــــل فيها شيئاً غير هذه الكلمة)، يعني: قوله: نحن في مدة لا نـــدري مـــا هو فاعل فيها، لاحتمال أن يغدر بنا، لكن هو قال: لم يغدر قبل ذلك، قال: (فهل قــاتلتموه؟) قلت: (نعم)، قال: (فكيف كان قتالكم إياه؟) قلت: (الحرب بيننا وبينه ســجال، ينال منا -مثل بدر- وننال منه -مثل أحد-).

قـــال: (بماذا يأمركم؟) قال: يقول: (اعبدوا الله وحده ولا تشـــركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبـــاؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة). لم يكذب، وكل الذي قاله الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته لخصه لـ هرقل؛ لأنه يكره الكذب.

فلما تنزل الرســالة على أناس بهذا التكريم لصــفة الصــدق ســوف يتحركون بالرســالة بأمانة ويقولونها للناس مثلما نزلت عليهم بالضبط.

هذه كانت صفة هامة في أهل الجزيرة العربية، ولم تكن موجودة في أهل الأرض في ذلك الزمن.

الصــفة الثانية العظيمة في العرب لما نزلت فيهم الرســالة: صــفة الكرم، وهي صــفة أصــيلة في العرب، كان حاتم الطائي يُضـــرب به المثل في الكرم، وكان يعتق العبد إذا جاءه بضيف؛ لأنه يحـــب الكرم. ومن العرب من لم تكن له إلا ناقة واحدة فيأتي له ضـيف فيذبحها له كرماً منه، لـــدرجة أن العرب سموا العنب: كرماً؛ لأنهم يصنعون منه الخمر، ولما يشـــرب الرجل منهم الخمر ينفق بلا حســاب، فمن حبهم الكرم ســموا الخمر التي تؤدي إلى الإنفاق بدون حســاب: كرماً. فجاء الإســلام ليهذب هذه الصــفة النبيلة، فلا يصــل الأمر إلى حد الإسراف والســفه،

وأيضاً لا يصل إلى حب الخمر؛ لأنها تدفع إلى الكرم، لكن حرم الله عز وجل الخمر، ونهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب بالكرم، وقال: (إنما الكرم المؤمن).

تخيل أن الإسلام نزل ليقنن الكرم ويدخله في حدود المعقول. وفي ماذا نحتاج نحن الكرم في إنشاء الأمة الإسلامية؟ إن الله سبحانه وتعالى لما تكلم عن الناس التي ستأخذ هذه المسئولية نص على الجهاد بالمال، فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة:20]، فجعل المال نصف الجهاد، وكثير من آيات القرآن الكريم جاءت على هذا المنوال، يقدم الله عز وجل الجهاد بالمال حتى على الجهاد بالنفس، وهذا أمر تحتاج الناس كلها إليه. فهذا أبو بكر الصديق الكريم رضي الله عنه وأرضاه أنفق الأموال الكثيرة في إعتاق العبيد، وتجهيز الجيوش، والإنفاق على الهجرة.وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه جهز جيش تبوك كله، واشترى بئر رومة، وقام بتوسعة المسجد النبوي. وفي زمن القحط تصدق عبد الرحمن بن عوف بقافلة تجارية كاملة أكثر من سبعمائة ناقة داخل المدينة المنورة في سبيل الله. وطلحة بن عبيد الله أنفق سبعمائة ألف درهم في يوم واحد على الفقراء. وما كان ليتحقق لو كان المسلمون فيهم بخل.

الكرم شيء هام جداً لبناء الأمة الإسلامية، والرجل الذي يتصف بالبخل من الصعب أن يصل إلى هذه الدرجات من الإنفاق، فبناء الأمم يحتاج إلى كرم وبذل وإنفاق.

صفة ثالثة كانت موجودة في العرب: الشجاعة، كان العرب قبل الإسلام يفتخرون بالموت قتلاً، ويستهينون بالحياة تماماً، ليس عنده أي مانع أنه يفقد حياته كلها وفاء لكلمته، أو دفاعاً عن صديقه، أو حماية لجواره.قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: (إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفاً على الفراش، ولكن قطعاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف).

إذا كنا قد ذكرنا منذ قليل أن نصف الجهاد بالمال فالنصف الآخر بالروح وهذا أشق؛ لأن بناء الأمم كما يحتاج إلى أموال وكرم يحتاج إلى أرواح وهمم، والجبان قد يقتنع بقضية المال ولكنه لا يقوى قلبه أبداً على الإقدام عليه.أما العرب فقد كانت شجاعتهم فطرية، وهذا ساعد الأمة الإسلامية أن تنشأ وتنمو بسرعة في هذه البيئة، فخالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه كان يبدأ المعارك بنفسه، ويقول: إذا رأيتموني حملت على العدو فاحملوا، أول علامة وأول إشارة للقتال أن يبدأ القائد بالتحرك، مع أنه يمكنه أن يقف وراءهم، لكنه لا يخاف الموت.والبراء بن مالك رضي الله عنه وأرضاه ألقاه جيش المسلمين في موقعة اليمامة داخل حديقة الموت، التي كان فيها مسيلمة الكذاب ومعه أربعون ألفاً من المرتدين؛ حتى يفتح لهم الباب من الداخل، لم ير لقضية الحياة أهمية، فقد جاء الإسلام ليحسن ويجمل من هذه الصفة ويجعلها في سبيل الله، تموت لتدخل الجنة، لتصير شهيداً في سبيل الله، لكن الجبان يصعب عليك أن تزرع فيه هذه المعاني. صفة الشجاعة كانت صفة في غاية الأهمية لبناء الأمة الإسلامية.

صفة أخرى كانت موجودة أيضاً في العرب: وهي صفة العزة؛ فالعربي بفطرته يأبى أن يعيش ذليلاً، يأنف من الذل، يرفض الضيق، يعشق الحرية، فهذا عنترة –وقد مات كافراً قبل الإسلام– يقول:

لا تسقني مـــاء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحــــياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطـــيب منزل

أي: لا أريد أن أعيش أبد الآبدين ذليلاً، لكن أشرب الحنظل وأموت عزيزاً. ثم يقول:

ماء الحــــياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطـــيب منزل

لم يكن عنترة يؤمن بجهنم؛ لأنه لا يعلم بالبعث أصلاً، فقد كان كافراً قبل الرسالة، لكن يقصد بجهنم النار الشديدة، يعني، أموت وسط النار الشديدة مرفوع الرأس أحب إلي من أن أعيش ذليلاً خـــارجها. هذا كان موقف العرب من العزة، والعزة شيء تحتاجه الأمة الإسلامية أشد الاحتياج، ولا شك أن الأمة التي تنشأ على هذه الروح وهذه العزة لا بد أن تسود وأن تقود. يـــأتي الدين الإسلامي ليوجه هذه العزة لله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر:10] ولهذا كان قبول المسلمين في فترة مكة لفكرة عدم القتال، وعـــدم رفع الظلم الذي وقع عليهم، أصعب وأشق من قبول فكرة الجهاد في سبيل الله، وبذل الروح بعد ذلك لما ذهبوا إلى المدينة المنورة؛ لأنهم تعودوا على رفع الرأس. وهذه صفة لا تنفك عن أولئك الذين يحملون أمانة إقامة هذه الأمة.

صفة أخرى أيضاً في العرب: وهي الصبر وقوة التحمل. اكتسب العرب هذه الصفة من طبيعة البلاد التي يعيشون فيها، فهم يعيشون في بلاد جافة، وظروف المعيشة عندهم صعبة قاسية، كانوا بصفة عامة أبعد الناس عن الترف، فكانت هذه الصفة من الصفات العظيمة التي كفلت للدعوة النجاح، كان لا بد من الصبر لتحمل مشاق الرسالة الضخمة، صبر على الفقر ولمدة طويلة، صبر على الجوع؛ لأن الجهاد يحتاج لذلك، يقيم الواحد صلبه بتمرات قليلة، صبر على المشقة والحر والتعب والسفر الطويل والحصار الأطول، صبر على القتال والنزال والجهاد، صبر حتى على تأخر النصر، لا يستعجل، لا يمل، لا يضجر، من كانت هذه صفته وكان بعيداً عن الترف كان دعامة راسخة للأمة الإسلامية.

كانت هناك حكمة عظيمة جداً في اختيار هذا المكان دون غيره حتى تنزل فيه الرسالة وتنشأ فيه الأمة.

هناك صفات خاصة جداً تمتع بها هذا المكان، وصفات تمتع بها ساكني هذا المكان، ولو تكررت هذه الصـفات في زمن من الأزمان، فسـتقوم الأمة من جديد بنفس الطريقة وبنفس النجاح إن شاء الله.

هذا تلخيص القواعد الهامة لبناء الأمة الإسلامية، وهي عشر قواعد:

القاعدة الأولى: لابد أن تحافظ الأمة على نقاء رسـالتها ووحدة مصـدرها، وعدم خلط القرآن والسنة بالمناهج الأخرى.

القاعدة الثانية: اعتقاد أن النصـر من عند الله عز وجل، وقد جرت سنة الله عز وجل أن ينصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة.

القاعدة الثالثة: على المسـلمين أن يستفيدوا من كل قانون موضـوع، ما لم يكن هناك تعارض مع الشرع والعقيدة الصحيحة، فإن حدث التعارض يقدم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

القاعدة الرابعة: الجيل الذي يسـتطيع أن يبني هذه الأمة هو جيل يتقن اللغة العربية ويعظمها ويتعلم اللغات الأخرى، ولكن لا يقدمها على لغة القرآن.

القاعدة الخامسـة: ابدأ بدعوة الأقرب فالأقرب، وأقرب الناس إلى الاسـتجابة هم المسـلمون أنفسهم، جيرانك، أصحابك فابدأ بهم.

القاعدة السادسة: لا تقوم الأمم إلا على أكتاف الصادقين.

القاعدة السابعة: ابدأ بالكريم فإنه أقدر على حمل الدعوة.

القاعدة الثامنة: الجبان قد يقتنع بقضـية المال ولكن قلبه لا يقوى على الدفاع عنه، فعليك بالشجاع.

القاعدة التاســعة: لا يحرص على قيام الأمة إلا عزيز النفس، ومن كان يرضى بالذل قَبِلَ أن يكون في ذيل الأمم.

القاعدة العــاشرة: الترف مهلكة، والمعتمد على المترفين كالذي يبني قصراً من الرمال، فابحث عمن كان الصبر صفته، وعمن كانت المجاهدة حياته.

كانت هذه هي القاعدة الأخيرة المستخرجة، وتلك عشر كاملة.

4

بــدء الوحي

منظور هذه المجموعة من الدروس: هو دراسة كيف نعيد بناء أمة الإسلام على نهج رسول الله ﷺ؟ دراسة السيرة من هذا المنطلق تعطيك أبعاداً مختلفة عن دراسة السيرة بالطريقة العادية التي ألفها الناس، تقرأ قصته من أول الميلاد إلى آخر لحظة من لحظات رسول الله ﷺ، ليس هذا هو المقصود من هذه المجموعة، فنحن أمام مشروع ضخم هو كيف نبني أمة؟

أنت عندما تريد أن تبني مبنىً كبيراً تعمل ما يسمى بدراسة الجدوى، تدرس طبيعة المكان، ومن الذي سيشتغل معك؟ ما هي التكاليف التي ستدفعها؟ ما هي المعوقات التي تقف أمامك؟

هذا الكلام أيضاً ينطبق على أمة الإسلام، لكن تخيل الفارق بين دراسة الجدوى لبناء مبنى ضخم، وبين دراسة الجدوى لبناء أمة كاملة، لابد في دراسة السيرة لهذا الموضوع أن نبحث في كل نقطة من زوايا السيرة، لماذا فعل ذلك؟ ومتى فعل؟ وما هي الظروف الموجودة حول

الرسول ﷺ التي اختار هذا الرأي لأجلها؟ وما هي الحكمة من وراء اختيار هذا الرأي، هذا الذي يجعلنا نبني الأمة كما بناها الرسول ﷺ.

يعرف الناس السيرة من أولها إلى آخرها، يعرفون متى ولد الرسول ﷺ؟ وكيف ولد؟ وكيف عاش الفترة التي نزل فيها الوحي عليه، وكيف بدأت الدعوة في مكة إلى أن هاجر من مكة، ثم موقعة بدر وأحد وهكذا كل الغزوات لدينا تفاصيل كثيرة جداً عنها، لكن نحن لا نبحث عن هذه الأشياء، نحن نبحث عن أشياء أخرى فيما وراء الأحداث؛

لماذا بدأ بفلان وفلان وفلان ولم يبدأ بغيرهم؟ لماذا دعا أبا بكر أولاً؟ لماذا تحدث إلى السيدة خديجة وزيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب مع وجود أناس كثير؟ لماذا بدأ أبو بكر بدعوة هذا وهذا وترك الآخرين؟ لماذا جهر الرسول ﷺ بالدعوة بعد مضي ثلاث سنين من نزول الوحي عليه؟ وماذا حصل بعد الجهر بالدعوة في مكة؟ هل حاربت الناس الدعوة لأنها ليست مقنعة أم أن الدعوة مقنعة، وإنما وقفوا أمامها لأسباب أخرى منعت الناس من دخول الدعوة؟ وهل هذه الأسباب تتكرر أم لا؟ ثم كيف وقف الرسول ﷺ أمام هذه الأسباب؟ كيف عالجها؟ كيف آمنت مكة؟ لماذا اختار الرسول ﷺ لهجرة أصحابه الحبشة، ولم يأمرهم بالذهاب إلى اليمن أو الشام أو مصر أو العراق؟ ولما فكر بعد ذلك في الذهاب إلى المدينة المنورة بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه يعلم الناس، لماذا اختار مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه من بين الصحابة؟ لماذا لم يبعث أبا بكر أو عمر أو عثمان أو علياً أو غيرهم من الناس؟ لما خرج من مكة وذهب إلى الطائف لماذا لم يذهب إلى أي بلاد أخرى؟

كل هذه الأسئلة عندما نجيب عليها، ونفكر ونتدبر في هذه الأحداث سنخرج بقواعد في غاية الأهمية، هذا هو المقصود من هذه المجموعة: كيف نبني أمة؟

ولا يمكن أن نقيم بنياناً قوياً إلا إذا قلدنا الرسول ﷺ في كل موقف من مواقفه، لكن لابد من مراعاة الظروف التي اختار الرسول ﷺ فيها هذا الرأي أو ذاك؛ لتكتمل لنا متابعة الرسول ﷺ.

قصة نزول الوحي وأهميته

سنبتدئ القصة من الآن، لكنها بداية غير تقليدية، لن نبتدئ من ميلاد رسول الله ﷺ، ولكن من نقطة نزول الوحي، وليس هذا تقليلاً من أهمية الأربعين سنة من حياته ﷺ التي سبقت الوحي، لكن منظور هذه المجموعة هو كيف نبني أمة؟ نحن لن نحكي حكاية الرسول ﷺ من الميلاد إلى الممات، لكن سوف نستخرج نقاطاً هامة تفيد في بناء الأمة الإسلامية. الإسلام كدين وكشرع وطريقة بدأ على الأرض منذ لحظة نزول الوحي، ولذلك سنبدأ بالحديث من هذه النقطة، فهذا لا يمنع من أننا نرجع لتحليل بعض النقاط في حياة رسول ﷺ قبل البعثة إذا كان لها علاقة في التمهيد للبعثة، لكن هذا لن يكون بالترتيب المألوف.

كانت لحظة نزول الوحي على رسول ﷺ في غار حراء لحظة عظيمة في تاريخ البشرية، بل إنها أعظم لحظة مرت في تاريخ الأرض ككل إلى يوم القيامة، كثيراً ما نسمع عن هذا الحدث المهيب، لكن القليل منا من يعطي لهذا الحدث قدره، فالله سبحانه وتعالى أرسل رسولاً إلى الإنسان، ما رأيك لو أنك تلقيت رسالة من زعيم دولة عظمى ووصلت إلى بيتك، يقول لك فيها: أنا أحبك، وخائف عليك، ومهتم بك، وعندي لك خير كثير. ما موقفك لو تلقيت رسالة بهذا الوعد من هذا الملك العظيم، ولله المثل الأعلى؟! يا ترى كيف سيكون اهتمامك بالرسالة؟ إن الله سبحانه وتعالى بعظمته وجبروته وقدرته وقوته أرسل رسولاً إلى هذا الإنسان البسيط الضعيف الذي يعيش على ظهر كرة معلقة في الفضاء، لا تكاد ترى في الكون الفسيح، هذا حجم الأرض بالنسبة لحجم الكون، فكيف سيكون حجم الإنسان بالنسبة

لحجم الأرض؟ حجم الإنسان بالنسبة لحجم الكون شيء لا يتخيل، كذلك حجم الإنسان بالنسبة للملائكة. إن الناس لا يقدرون لهذا الحدث قدره؛ لأنها لا تعطي لله عز وجل قدره.

إن الله جل وعلا لا يحتاج إلينا ولا لغيرنا، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، ومع ذلك من رحمته بنا وحبه لنا أرسل إلينا رسالة هداية وبشرى وإنذار، وهذه الرسالة نزل بها أشرف الملائكة جبريل عليه السلام، على أشرف الخلق محمد ﷺ، بأشرف الكلام القرآن الكريم.

في لحظة الوحي هذه نزل الكلام الذي سيظل دستوراً في الأرض إلى يوم القيامة، هذا الحدث فيه تكريم للإنسان، كما قال ربنا: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء:70]، ومن أعظم صور التكريم أن أنزل له الوحي، ونزلت له الهداية من رب العالمين سبحانه وتعالى.

أحياناً لا يقدر الإنسان قيمته كإنسان، والله يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء:70]، وأرسل له رسولاً من السماء إلى الأرض، وأتى معه بدستور كامل يوضح له كل نقطة في حياته، لكن الإنسان لا يقدر قيمته كإنسان، فأحياناً يقضي حياته في ترف وملذات وشهوات وأوقات ضائعة وطموحات تافهة، وأحياناً يظلم غيره ويؤذيه ويعذبه، هو لا يدري أنه إنسان مكرم يظلم إنساناً مكرماً، بل إن قيمة الإنسانية تنحدر إلى درجات هي أقل بكثير من درجات الحيوانية، لكن التفكر في لحظة الوحي يغير كثيراً من مفهوم الإنسان عن نفسه، وإخوانه من البشر، والأرض التي يعيش عليها. الوحي عبارة عن رسالة من رب العالمين إلى الإنسان، رسالة لك ولي ولكل واحد على وجه الأرض، افعل ولا تفعل. الوحي هداية ونور ودليل ليس مجرد تكاليف وقيود أبداً. الوحي نعمة ورحمة من ربنا سبحانه وتعالى، الله عز وجل المطلع على كل شيء، العالم بكل شيء، الذي يدرك الماضي والحاضر والمستقبل يقول لك: من مصلحتك في هذه النقطة أن تفعل كذا، وإياك إياك أن تفعل كذا، فاتباعك للوحي فيه سعادة الدنيا والآخرة، ومخالفتك للوحي فيه شقاء الدنيا والآخرة.

تخيل نفسك تائهاً في الصحراء ولا تدري أين الطريق، وأنت على مشارف الموت، وفجأة وجدت دليلاً ليس فقط يأخذك لمكان فيه أكل أو شرب، لا، بل لأحسن مكان في الكون ولا يريد منك أي شيء، كل هذا من أجل مصلحتك، فهذا هو الوحي في وسط التيه الكبير الذي تعيشه البشرية يأتي ليأخذ بأيدي الناس إلى السعادة في الدنيا، والسعادة في الآخرة في الجنة.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي} [طه:123 – 124] أي: من يعيش في التيه الذي اختاره بنفسه، {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه:124 – 126] أي: أتاك الوحي فنسيته، وسمعت به ولم ترض أن تتبعه، {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه:126]، تداعيات ضخمة تحدث للإنسان بحسب فقهه لقيمة الوحي، الذي يتبع الوحي لا يضل ولا يشقى في الدنيا والآخرة، والذي يعرض عن الوحي يعيش حياة الضنك، ويحشر يوم القيامة أعمى.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك)، -هذا دعاء لرسول الله ﷺ- ثم بدأ يضرب له مثلاً يوضح له حاله وحال أمته، وحال الجنة وحال الدنيا بصفة عامة، يقول: (إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها).

وفي رواية البخاري يقول: (فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله).

وفي رواية أحمد : (فمن اتبعه دخل الجنة، ومن لم يتبعه عذب عذاباً شديداً)، يعني: الوحي يدعونا إلى الجنة، ودخول بيت الرحمن، والأكل من مائدته سبحانه وتعالى في الجنة، فلو اتبعنا الوحي سندخل الجنة، وإن لم نتبعه فسنعذب عذاباً شديداً. كل الناس يعلمون هذا، لكنهم لا يعطون للوحي قدره؛ لأنهم للأسف الشديد لا يعطون لله عز وجل قدره {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر:67]، لو أن الناس عظموا ربنا سبحانه وتعالى وقدروه حق قدره لما عصوه، لكنهم ينسون، وهذا النسيان يقود إلى مهالك ضخمة في الدنيا والآخرة.

الوحي رسالة من رب العالمين سبحانه وتعالى، ونحن نريد أن نفهم قصة الرسول ﷺ كلها على أساس أن حياة الرسول كلها من أولها إلى آخرها وحي: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:3-4].

حتى النوافل في حياة النبي ﷺ وحي، كما أن صيام رمضان وحي فإن صيام الإثنين والخميس والأيام البيض وحي، لكن الوحي قال: هذا فرض، وقال: هذا نافلة، كل نقطة في حياة رسول الله ﷺ وحي، حتى فيما يختاره الرسول ﷺ إن كان مخالفاً لما أراد الله عز وجل من البشر، ينزل الوحي ليوضح مراد الله عز وجل، لتكون حياة الرسول من أولها إلى آخرها قدوة وأسوة للمسلمين: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21].

نتعلم سيرة الرسول ﷺ لخير الإنسان، ولخير المجتمعات، ولخير الأرض جميعاً، ولخير الآخرة.

مقدمات نزول الوحي

جاء في صحيح البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وعائشة وإن لم تكن معاصرة لأحداث نزول الوحي، لكنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ، أو من الصحابة، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

كانت هناك مقدمات للوحي قبل أن ينزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ في غار حراء، من هذه المقدمات: الرؤيا الصالحة، فقد كانت تأتي مثل فلق الصبح، كان يرى الرؤيا فتقع تماماً كما رآها ﷺ، فكان هذا نوعاً من إنباء بالغيب، وهذا أمر غريب، فهو وإن لم يكن تصريحاً بالرسالة، لكنه شيء لافت للنظر، وتمهيد لأمر عظيم. وهل هذه هي المقدمة الأولى التي حدثت لرسول ﷺ قبل نزول الوحي أم أن هناك مقدمات أخرى؟ الحقيقة لم يكن هذا هو التمهيد الأول، بل وجدت أشياء أخرى، فقد سبقت هذا بعض الأحداث العجيبة جداً في مكة، أحياناً كان يراها ﷺ وحده، وأحياناً أخرى يراها معه غيره، مثل: سلام الحجر عليه، يقول الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)، وهذا قبل البعثة وقبل نزول الوحي، ومؤكد أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف تفسير هذا الأمر؛ لأنه ﷺ تفاجأ بأمر الوحي، ولم يكن يعرف أنه سيكون رسول الله إلى الناس.

وأغرب من سلام الحجر حادثة شق الصدر، فقد ثبت في صحيح مسلم ومسند أحمد وصحيح ابن حبان (أن جبريل شق صدر رسول ﷺ وهو غلام، واستخرج قلبه واستخرج منه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل قلبه في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأم صدر رسول الله ﷺ). وأخبر أنس بن مالك رضي الله عنه وأرضاه أنه رأى أثر المخيط في صدره ﷺ.

وللعلم فهناك ممن لا يؤمن بالغيبيات ولا بقدرة الله عز وجل تنكر لهذه القصة، وهم في الحقيقة لا يؤمنون أن الله عز وجل قادر على هذا الأمر، ويقولون: لِمَ لمْ ينزع الله منه هذا الحظ من دون حاجة إلى ذلك؟ هذه حجتهم، وإلا فهم في الحقيقة ينكرون القدرة الإلهية، وإنما يقولون هذا حياءً، وقد التقيت مع أحد العلمانيين وتكلمت معه طويلاً في هذا الأمر، وهو ينكره تماماً، فقلت له: هذا في صحيح مسلم، فقال: لعله نقله بالخطأ. فهو ينكر أن يكون شق صدره في هذا العمق من التاريخ.

هذا نوع من الإعداد والتربية والتهيئة لرسول الله ﷺ، كأنه يقول له: أنت إنسان مختلف، تحدث لك أمور غريبة، وكل هذا من باب التمهيد، حتى إذا ما أتت الرسالة يكون لديه شبه تهيؤ لها، وأنها سبب تلك الأشياء الغريبة التي كانت تقع له، والآن هذا تفسير كل شيء: أنت رسول من عند رب العالمين سبحانه وتعالى. وهذا نوع من الإعداد أيضاً لأهل مكة، ولأهل جزيرة العرب لما تعلم بهذه القصة تضع هذا الإنسان في وضعية تختلف عن كل الناس في جزيرة العرب، بل عن كل الناس التي خلقت قبل هذا.

الأهم من كل هذا أن هذا اختبار لإيمان المسلمين بقدرة الله عز وجل، المسألة مسألة إيمان، إذا كنت ستصدق بأن ملكاً يمكن أن ينزل من السماء إلى الأرض ثم يعود في لمح البصر، وأن الملائكة تحارب مع المسلمين، وتنزع قرى وجبالاً بأكملها، أو توزع الأرزاق على أهل الأرض في كل لحظة، إذا كنت تؤمن بكل هذه الأمور، وبكل هذه القدرات للملائكة، فلا بد أنك تؤمن بهذا الأمر البسيط بالمقارنة إلى غيره، فعملية جراحية ليست كرفع قرية كاملة أو جبل أو هذه الإمكانيات الهائلة للملائكة، مع العلم أن الملائكة لا تعمل هذه الأشياء بقدرة ذاتية فيها، أبداً؛ لكن لأن الله عز وجل يريد وهو قادر على تحقيق ما يريد، أما من في قلبه شك فيصعب عليه أن يصدق هذه القصة أو غيرها، مثل: الإسراء والمعراج، وشق القمر أو غير ذلك من

الأحداث التي حدثت في زمان رسول الله ﷺ، ومنها: معجزة القرآن الكبرى، فهو دليل لا يقاوم على إمكانية وقدرات الله سبحانه وتعالى.

ثم تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (ثم حُبِّب إليه الخلاء)، أي: أن الله عز وجل هو الذي دفعه لذلك، كان يصعد ﷺ كل سنة فترة معينة من الزمن -لعله شهر رمضان- يختلي بنفسه في غار حراء، يتفكر في خالق هذا الكون، كيف يمكن أن نعبد هذا الإله، والعرب بصفة عامة كانوا يعرفون أن الله عز وجل هو الذي خلق هذا الكون، وهو الذي خلقهم: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [لقمان:25]، لكن العرب كانوا يسجدون للأصنام، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله عز وجل، لكن الفطرة السليمة تأبى هذه الطريقة في العبادة، كيف يمكن للإنسان أن يسجد لحجر، أو يعتقد أي نفع أو ضر من وراء هذا الحجر؟ لذا فإن الرسول ﷺ ما سجد لصنم في حياته قط، وكان يعرف أن لهذا الكون إلهاً وخالقاً ورازقاً، ولكن لا يعلم كيف يعبده: (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) [الضحى:7]، (ضالاً) بمعنى أنه لم يكن يعرف الطريق المناسبة لعبادة هذا الإله القدير الذي خلق السماوات والأرض والبشر وكل شيء. مر الرسول ﷺ بمراحل مختلفة من التهيئة والإعداد قبل الرسالة، مثل: سلام الحجر عليه، وشق الصدر، وأمور أخرى حدثت في طفولته ﷺ، وحب الخلاء، ثم الرؤيا الصالحة التي استمرت حوالي ستة أشهر، وبعد ذلك جاءه جبريل في غار حراء.

الحكمة الإلهية من طول المدة الزمنية لإعداد النبي ﷺ قبل البعثة

كانت هذه التهيئة الطويلة مدة أربعين سنة من الإعداد والترتيب والتهيئة النفسية لحمل الأمانة الثقيلة، مع أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعده لذلك في لحظة واحدة، ويثبت قلبه فلا يخاف ولا يتردد، لكن الحكمة من وراء هذا الإعداد الطويل أن ربنا سبحانه وتعالى يعلمنا التأني في التربية، والتدرج في حمل الناس على ما نريد، وحتى لو كان سيحمل رسولاً رسالة؛ فإنه يحمله

إياها بالتدريج، والتدرج سنة من سنن الله عز وجل في التغيير والإصلاح، فالتربية تحتاج إلى تدرج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج أيضاً إلى تدرج. فحياة الرسول ﷺ كلها 63 سنة، منها 40 سنة هي سنوات إعداد له ليكون رسولاً، وليتلقى الرسالة، ومنها ثلاثة وعشرون سنة فقط نبوة، وكل ما يريده ربنا منه جعله في 23 سنة، فكل المتغيرات التي يمكن أن تحصل في حياة الناس، وكل الثوابت التي لا يفرط فيها كانت في 23 سنة، لكن لابد أن تعرف أنك محتاج إلى وقت ومجهود وتربية وإعداد لمن سيحمل هم الأمة الإسلامية، ولا تستعجل، فهذا الرسول ﷺ يتربى 40 سنة؛ من أجل أن يحمل هم الدعوة، فإذا كان هذا يحصل مع الرسول ﷺ، فلا يوجد أي معنى للاستعجال في حياتنا، ولا بد أن نفهم هذا الدرس جيداً: التأني في التربية.

أهمية نزول جبريل بالوحي على النبي ﷺ في غار حراء

بعد 40 سنة من الحياة في مكة جاء اليوم الذي ينزل فيه جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وهو في خلوته في غار حراء، فمجيء جبريل عليه السلام لحظة خالدة، لحظة غير متكررة في تاريخ الأرض، هذا الموقف لم يحصل في الأرض منذ 600 سنة، وهي الفترة بين الرسول وبين عيسى عليه السلام، فقد بعث الرسول على فترة من الرسل، وعندما يموت الرسول ﷺ فإن هذا الموقف لن يتكرر حدث فريد فعلاً!

دخل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وهو في الغار في هيئة رجل، ودخوله على هذه الهيئة في الجبل ليس مفزعاً في حد ذاته، نعم، الرجل غريب، والرسول ﷺ لا يعرفه، لكن ما سبب خوف الرسول ﷺ من رؤية جبريل عليه السلام أول مرة؟ يقول ﷺ: (دخل عليّ جبريل فقال: اقرأ)، هكذا بدون مقدمات، لم يعرف بنفسه، لم يسأل الرسول ﷺ عن نفسه، وإنما خاطبه وكأنه يعرفه، يقول له: اقرأ، والرسول لا يدري أي شيء يقرأ؛ لأنه أمي لا يعرف

القراءة والكتابة، فقال له الرسول ﷺ بأدبه الجم: (ما أنا بقارئ)، أي: أنا لا أستطيع أن أقرأ، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يمكنه أن يقول له: من أنت؟ لكن الرسول ﷺ بهت بدخول الرجل عليه فجأة بذلك السؤال، ثم إن هذا الرجل احتضنه بشدة، يقول الرسول ﷺ: (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد)، والرسول ﷺ ليس بالضعيف، بل قوي البنية، معنى ذلك أن هذا الرجل قوته هائلة، ثم أرسله وتركه، وقال له: (اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني)، كل هذا العنف في تبليغ الأمر، حتى يعلم أنه في حقيقة وليس في حلم، ثم قال له بعدما أطلقه في المرة الثالثة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:1 - 5]،

ثم اختفى بعدما قال له هذه الكلمات، فالرسول ﷺ أبلغ العرب مطلقاً وأفصحهم، وبالتأكيد أنه عرف منذ اللحظة الأولى أن هذا ليس من كلام البشر، {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق:1 - 2]، هذه أول مرة ينزل فيها قرآن على الأرض. أيضاً هذا الرجل الذي جاءه كان يتحدث عن الإله الذي يبحث عنه رسول الله ﷺ منذ زمن، يتحدث عن الإله الذي يخلق ويتكرم ويعلم. كما أن الرجل لم يخبره عن أي شيء يريده منه، لم يخبره أنه سيصبح رسولاً، بل فقط قرأ عليه هذه الآيات التي لم تسمع من قبل على وجه الأرض ثم اختفى، وكان يغطه في كل مرة بشدة حتى يبلغ منه الجهد، حتى إنه قال من شدة الضمة: (يا خديجة لقد خشيت على نفسي). كل هذه الأمور مجتمعة أدت إلى خوف الرسول ﷺ، ثم ذهب يجري إلى بيته قاطعاً اعتكافه باحثاً عن الأمان، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها تصف هذا الموقف: (رجع بها رسول الله ﷺ -أي: بهذه الآيات الخمس- يرجف فؤاده)، لماذا يحدث هذا الرعب الشديد والهلع الكبير لرسول الله ﷺ؟

أولاً: لإثبات بشرية رسول الله ﷺ، فنفس هذا الموقف حصل مع سيدنا موسى عليه السلام، فقد خاف وجرى، فهو بشر له أحاسيس البشر.

ثانياً: إثبات عدم انتظار رسول الله ﷺ لأمر النبوة، لكنه خاف لما جاءه جبريل عليه السلام، ثم هي التهيئة والإعداد والتشويق للأمر العظيم الذي سيأتي، وبالفعل الرسول بعد هذا الأمر كان يخرج مراراً إلى الجبال لعله يقابل ذلك الرجل الذي جاءه في الغار، بعدما كان خائفاً أصبح مشتاقاً إلى قدوم جبريل عليه السلام.

موقف خديجة رضي الله عنها من الوحي

رجع الرسول ﷺ إلى الزوجة الحنون العاقلة الكاملة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، وفؤاده يرجف حين نزل عليه جبريل بالوحي، وكانت السيدة خديجة تحب رسول الله ﷺ حباً لا يوصف، عاشت مع رسول الله ﷺ خمس عشر سنة كاملة قبل البعثة لم تر منه إلا كل خلق حميد، والرسول ﷺ لم ير منها إلا كل خير وحب، لا تذكر كتب السيرة مشاحنة واحدة بين الرسول ﷺ وبين السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، ثم عشر سنين بعد البعثة، ليس فيها لحظات غضب أو شقاق أبداً، حياة زوجية مثالية إلى أبعد درجة.حكى الرسول ﷺ لـ خديجة ما حصل معه في الغار، وكان يظهر منه الرعب والهلع، وقال لها الكلمات التي نزلت عليه، ثم قال: (يا خديجة لقد خشيت على نفسي).

وأغرب من كل ما سبق ردة فعلها رضي الله عنها، وهي بحاجة منا إلى وقفة طويلة؛ إذ من المتوقع والطبيعي أنها تخاف كعادة النساء، أو كعادة البشر بصفة عامة، أو على الأقل تتعجب، لكن الغريب أنها كانت على العكس من ذلك، فقد نظرت إلى الموضوع بمنتهى البساطة، وكأن الرسول ﷺ يقص عليها أمراً عادياً، ليس هذا فقط بل قامت تقول له في يقين: (كلا والله لا

يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرئ الضيف، وتعين على نوائب الحق)، بعد كل هذه الأشياء كيف يمكن أن يضرك الله سبحانه وتعالى بشيء؟!

استنبطت السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها أن هذا الرجل صاحب الأخلاق الحميدة، وصاحب الآداب الرفيعة، لا يمكن أبداً أن يخزيه ربنا سبحانه وتعالى. يلاحظ أن الذي لفت نظر السيدة خديجة هي معاملات رسول الله ﷺ مع البشر، لم تشر إلى تعبده واعتكافه وتفكره، بل إلى علاقاته مع الناس، فهي المحك الحقيقي لتقييم الإنسان، وتكاد تكون هذه المعاملات الطيبة هي السبب في اقتناع الناس بمصداقية رسول الله ﷺ، وهذا درس مهم أيضاً.

كل نقطة وحركة وموقف في السيرة ليس فقط فيه درس، بل المئات من الدروس. هذا هو المقياس الذي ينبغي للبشر كلهم أن يقيسوا عليه حياتهم، لابد من أخذ القدوة والأسوة من حياة الرسول ﷺ؛ لتكون حياتنا كحياته مليئة بالروعة والجمال.

(كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرئ الضيف، وتعين على نوائب الحق)، صلى الله عليك وسلم، فهدأت نفسه ﷺ بعدما سمع كلام السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، وهذا هو دور الزوجة الصالحة، أنها في المقام الأول سكن لزوجها، ليست مصدر إزعاج أبداً، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم:21]. أول مهمة وأعظم مهمة للزوجة: أنها سكن وطمأنينة وهدوء وابتسام، ورفع للروح المعنوية للزوج، وتسكين لفزعه، وتخفيف لآلامه، هذه هي الزوجة المسلمة {لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم:21]، فهي نعمة من الله عز وجل، وآية من آياته سبحانه وتعالى. لما سكن الرسول ﷺ واطمأن لم تشأ السيدة خديجة أن تترك نفسها وزوجها للأوهام، بل قالت له: دعنا نذهب إلى ورقة بن نوفل ابن عمها، تعال نذهب إلى أهل العلم لنرى رأي الدين في هذا الأمر.

ذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ولم تذهب لأي شخص آخر في جزيرة العرب، لم تذهب لكاهن، أو لخادم للأصنام، أو لحكيم من حكماء قريش، بل اختارت رجلاً كان قد تنصر، عنده علم من دين السابقين. هذه كلمة لكل شاب مسلم: اختيار الزوجة الصالحة نقطة محورية في حياة الفرد المسلم، لا تتسرع، فهذه نقطة مهمة في بناء الأمة، لابد أن تكون زوجتك من نوعية خديجة، انتبه لا تسع خلف المال أو الجمال أو الوضع الاجتماعي وتنس الدين، لا تقل: أنا سأعلمها الدين، تذكر رسول الله ﷺ: (اظفر بذات الدين تربت يداك).

بشارة ورقة للنبي ﷺ بالرسالة

ذهب الرسول ﷺ هو وزوجته خديجة إلى ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان ورقة بن نوفل يعلم أن نبياً سيظهر في هذا الزمان، وكان ينتظره. ويدل على مدى الجرم الذي كان عليه أهل الكتاب، أنهم كانوا يعرفون من كتبهم أن الرسول ﷺ حق، وليس فقط من كلام الرسول ﷺ، ولكن لم يؤمنوا، لكن ورقة بن نوفل رحمه الله كان رجلاً صالحاً ورعاً، يعلم محمداً ﷺ تاريخه وحياته وأخلاقه وصفاته، فلما سمع من رسول الله ﷺ هذه القصة العجيبة التي حدثت في غار حراء، قال مباشرة ودون تردد: (هذا الناموس -يقصد: جبريل عليه السلام- الذي أنزله الله عز وجل على موسى عليه السلام). هنا يصرح ورقة بن نوفل بأمر خطير: أن هذا جبريل الذي كان ينزل على موسى عليه السلام، وجبريل لا ينزل إلا على الأنبياء.

إذن محمد ﷺ رسول من الله؛ أريد منك أن تتصور معي الموقف: كم من الأحاسيس والمشاعر التي كانت تتداخل في صدر رسول الله ﷺ وهو يسمع هذا الكلام؟ هل هذا حلم أم حقيقة؟ حق أم باطل؟ النبوة ليست مقاماً يصل إليه أحد بالاجتهاد في العبادة، أو بالطريقة الفلانية، النبوة اختيار من رب العالمين سبحانه وتعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}

[الحج:75]. تأمل معي موقف الرسول ﷺ وهو يسمع هذا الكلام من ورقة، أيكون الله عز وجل قد اختاره من بين كل الخلق ليكون نبي آخر الزمان؟! لكن المشكلة: أن الرجل الذي جاءه في الغار لم يخبره بذلك، لم يقل له: إنه رسول، لكن على الناحية الأخرى ورقة يتكلم بيقين وثقة وتأكيد. ثم قال له ورقة: (يا ليتني فيها جذعاً -أي: شاباً- إذ يخرجك قومك، فقال له رسول ﷺ متعجباً: أو مخرجي هم؟! لم يكن الرسول ﷺ، يعرف أي شيء عن الأمم السابقة وقصص الأنبياء ومعجزاتهم؛ لأن تفصيلات الأمم الماضية لا يمكن أن تعرف إلا عن طريق الوحي. يقول الله: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود:49].

لم يكن يعرف قصص الأنبياء، وقصص التكذيب والمعاناة الشديدة التي عاشها الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه مع أقوامهم، من أجل ذلك قال الرسول ﷺ: أو مخرجي هم؟، لكن ورقة الحكيم العالم بقصص الأنبياء والمرسلين السابقين قال في يقين: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي). وهذه قاعدة تخرج من فم ورقة بن نوفل رحمه الله قاعدة أصيلة لكل داعية: ما حمل داعية هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ إلا عودي، سنة من سنن الله عز وجل: تدافع الحق والباطل، صراع بين الدين وأعداء الدين، سنة باقية إلى يوم القيامة.

ثم يقول ورقة: (وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)، وورقة بن نوفل لم يدرك ذلك اليوم مع رسول الله ﷺ، فقد مات بسرعة، وإن كان قد صدق برسول الله ﷺ حتى قبل التصريح بالرسالة، والرسول ﷺ كما جاء في صحيح الحاكم بإسناد جيد يقول: (رأيت له جنة أو جنتين) أي: أنه من أهل الجنة إن شاء الله. مات ورقة بن نوفل بعد أن سطر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من بعده إلى يوم القيامة قاعدة أصيلة: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)، فهذه رسالة إلى كل الدعاة، هذا هو الطريق.

فترة انقطاع الوحي

أراد الرسول ﷺ أن يتيقن من النبوة؛ لذا أحب أن يأتي إليه جبريل مرة أخرى ليؤكد له أمر الرسالة، ويقول له ماذا يعمل، لكن حدث أمر غريب سبب قلقلاً كبيراً لرسول الله ﷺ، لقد فتر الوحي وتأخر، وقد اختلف المؤرخون في الفترة التي فتر فيها الوحي، لكن أغلب الظن أنها كانت ما بين ثلاثة أيام إلى أربعين يوماً. فمثل ذلك الانقطاع صدمة للرسول الله ﷺ، فهو لم يتيقن بعد، ويريد أن يزيل عنه الشك، فقد كان يتوقع أنه عندما يرجع إلى الغار سيجد جبريل مرة أخرى، أو يأتي له في أي مكان آخر، لكن تأخر جبريل، وكان رسول الله ﷺ يخرج مراراً إلى الجبال لعله يلتقي جبريل عليه السلام، وازداد شوق رسول الله ﷺ إلى الرسالة التي يقول الله عنها: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل:5]. إن لم يكن الحامل لهذه الرسالة متشوقاً إليها فحملها سيكون صعباً جداً، بل لعله مستحيل، فارق كبير بين أن تبحث الدعوة عن رجل ليحملها، وبين أن يبحث الرجل عن الدعوة ليحملها. عندما كان الرسول ﷺ يبلغ به الحزن مبلغه يأتيه جبريل عليه السلام فيقول له: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن رسول الله ﷺ، ثم يختفي وهكذا إلى مجيء اليوم الذي سيبتدئ فيه الرسول ﷺ رحلة النبوة والتبليغ والتبشير والإنذار.

بدء الرسالة والأمر بالتبليغ

يقول النبي ﷺ: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، ثم نوديت، فرفعت بصري إلى السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه حتى هويت على الأرض، فرجعت حتى أتيت خديجة فقلت: زملوني زملوني، دثروني دثروني) يعني: غطوني، بعد هذا الحدث مباشرة نزل قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}

[المدثر:1] أي: المتغطي بثيابه: {قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر:2]، هذا أمر واضح بالرسالة والتبليغ والإنذار، حينها علم الرسول ﷺ أنه رسول، عندها تغيرت حالة الرسول ﷺ النفسية تماماً، وتحول من حالة الشك والحزن والاكتئاب التي كان يعيش فيها إلى حالة اليقين والعزيمة والإصرار والنشاط. وكانت السيدة خديجة تطلب منه أحياناً أن يستريح ولو قليلاً، فيقول: (مضى وقت النوم يا خديجة)، الآن الرسول ﷺ عرف كل شيء، عرف تفسير كل الأشياء الغريبة التي مرت به في حياته، من سلام الحجر عليه، وشق الصدر، والرؤيا الصادقة، والرجل الذي جاءه في غار حراء، وبدأ الرحلة الطويلة، رحلة الدعوة إلى الله عز وجل، رحلة النبوة، رحلة البشارة والإنذار، فقام الرسول ﷺ بعد هذه الآيات ولم يقعد إلى أن مات، قام وما ترك صغيراً ولا كبيراً، ولا سيداً ولا عبداً، ولا فرداً ولا قبيلة، إلا ودعاهم إلى الإسلام (مضى عهد النوم يا خديجة).

منهج الرسول ﷺ في اختيار من يبدأ بدعوتهم

أراد الرسول ﷺ أن يصل بدعوته إلى كل إنسان على وجه الأرض، فبمن يبدأ؟

لكي نفهم منهج رسول الله ﷺ في اختيار الناس الذين يبدأ بهم في الدعوة، لا بد أولاً أن نسأل هذا السؤال؛ هل يؤمن الإنسان بقلبه أولاً، أم بعقله؟ إذا أردت أن تقنع إنساناً بفكرة ما هل من الأفضل أن يحبك أولاً بقلبه قبل أن يسمع الفكرة؟ بمعنى آخر: الحب أولاً أم الحجة؟ كلا الاثنين مهم، القلب والعقل مطلوبان.

من الصعب جداً على الإنسان أن يقبل فكرة ما من إنسان يكرهه أو لا يحبه، غالباً ما يدخل معه في جدل عقيم وحوار طويل، ومناقشة قد لا تنتهي بخير، بينما على الناحية الأخرى هو يتقبل الكثير من الأفكار ممن يحب، مع أن هذه الأفكار قد تكون غريبة، وهذا واقع ملموس في

حياتنا، لذا إذا كنت تريد من الناس أن تسمع كلامك لابد أن تجعلهم يحبونك أولاً. إن فكرة الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ صحيحة ومقنعة، إذا فكر فيها أي عقل سليم، ومع ذلك فالفكرة غريبة على أهل مكة، فقد مرت 600 سنة ليس فيها نبي، وجاء الرسول ﷺ على فترة من الرسل، لذا استغرب الناس فكرة التوحيد على بساطتها ووضوحها، واستبعدوا فكرة أن يوجد رسول من البشر، كما في الحديث: (بدأ الإسلام غريباً). فأراد الرسول ﷺ أن يخاطب بدعوته كل أهل مكة، بل كل أهل الأرض أجمعين، فبدأ بأكثر الناس احتمالاً وقبولاً للفكرة دون تردد؛ من أجل أن يكونوا قاعدة قوية للدعوة نفسها، وحتى يساعدوه في أمر الدعوة، فأكثر الناس قبولاً لفكرته هم أكثر الناس حباً له، فكان هؤلاء هم الذين سيبدأ بهم الرسول ﷺ، ولا يوجد شيء بالصدفة، كل شيء محسوب وعلى أساس ومنهج، وهذا المنهج لأهل الأرض أجمعين. إذاً: الحب هو أول مرحلة من مراحل الدعوة.

ذهب الرسول ﷺ برسالته أولاً إلى زوجته الصالحة خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من آمن على ظهر الأرض، وكانت الوحيدة المتابعة لكل أحداث الوحي بكل تفاصيله منذ نزل جبريل في المرة الأولى بقول الله: {قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر:2]، بل نستطيع أن نقول: إنها آمنت قبل التصريح بالرسالة، قبل: {قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر:2]، قالت: (كلا، والله لا يخزيك الله أبداً). فالسيدة خديجة أحبت رسول الله ﷺ حباً لا يوصف، فكان هذا الحب هو الطريق لتصديق العقل. أيضاً الحب وحده لا يكفي، لابد أن يقتنع العقل، قالت: (إنك لتصل الرحم وتحمل الكل) إلى آخر الصفات، وهذه الصفات لا يمكن أن تكون في كذاب أو منافق، كذلك لا يمكن أن ربنا سبحانه وتعالى يخزي مثل هذا، ثم الكلام الذي قاله الملك ليس من كلام العرب ولا من كلام البشر، مع أن الحروف عربية. هناك طاقة فوق إمكانيات البشر، وهذه الطاقة لابد أن تكون لله عز وجل، كل هذا دار في ذهن السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، لكن لا

أعتقد أبداً أنه كان سيدور بهذه السلاسة وهذه السرعة لو كان بينها وبين الرسول ﷺ مشاكل وكراهية مستحكمة. الحب أولاً ثم الحجة ثانياً.

ثم ذهب الرسول ﷺ إلى أحب الرجال إلى قلبه، لو كانت السيدة خديجة هي أحب النساء إلى قلبه فإن أبا بكر الصديق هو أحب الرجال إلى رسول ﷺ، كما صرح هو بذلك لما سئل عن أحب الرجال إليه؟ فقال: أبو بكر بدون تردد، وسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه لم يخيب ظن الرسول ﷺ، فقد نور الله عز وجل قلبه، وفي ذلك يقول ﷺ: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة -أي: تردد ونظر- إلا أبا بكر ما إن ذكرته له حتى آمن وما تردد فيه)، لم يفعل أحد من البشر مثل هذا الفعل إلا هو والسيدة خديجة رضي الله عنها ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين. فسرعة إيمان أبي بكر يحتاج إلى دراسة، نقول: إن الصديق رضي الله عنه وأرضاه كان أقرب الناس إلى أخلاق رسول الله ﷺ، فكثيراً ما يختار من الآراء ما يختاره الرسول ﷺ حتى في غياب أحدهما عن الآخر، ولم يمش على الأرض من هو خير من الصديق إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

كان بين الصديق رضي الله عنه وأرضاه وبين الرسول ﷺ توافق عجيب في أمور كثيرة من أمور الأخلاق، أشهرها: الصدق، فالرسول ﷺ هو الصادق الأمين، وأبو بكر هو الصديق رضي الله عنه وأرضاه، كذلك المروءة وخدمة الناس والتواضع والكرم والعفة، والبعد عن أماكن الفساد، كل هذه الأشياء أدت إلى سرعة إيمان الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

دعا رسول الله ﷺ بعد ذلك مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، وكان بينهما حب كبير لدرجة أن زيد بن حارثة من بين كل صحابة رسول الله ﷺ عرف بحب رسول الله ﷺ، كأنه ابنه، وكان معروفاً بين الناس بـ زيد بن محمد وزيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه كان يحب الرسول ﷺ حباً شديداً، بل فضله على أبيه وعمه، وكان لهذا قصة هي: أن زيد بن حارثة

خُطف من أبيه من قبيلة بعيدة عن مكة وبيع في سوق الرقيق، واشتراه حكيم بن حزام رضي الله عنه وأرضاه، ابن أخي السيدة خديجة رضي الله عنها ثم أهداه لها، ولما تزوجت الرسول ﷺ أهدته زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، وأصبح زيد مولى رسول الله ﷺ. ومرت الأيام وعلم حارثة بن شرحبيل أن ابنه في مكة، فجاء إليها هو وعم زيد، وقالا للرسول ﷺ: (خذ ما شئت من المال نظير أن ترد زيداً إلينا)، فقال لهما: (وهل لكما فيما هو خير من الفداء؟) فقالا: (وما هو؟) قال: (أدعوه لكما فخيراه بيني وبينكما، فإن اختاركما فهو لكما بغير مال، وإن اختارني فما أنا بالذي يرغب عمن يختاره)، هذه الأخلاق كلها كانت قبل البعثة، صنع على عين الله عز وجل، صنع ليكون نبياً ﷺ، عندها قال الرجلان: (لقد أنصفت وبالغت في الإنصاف)، فجيء بـ زيد وقيل له: (من هذان؟) قال: (هذا أبي حارثة بن شرحبيل وهذا عمي كعب)، فقال ﷺ: (قد خيرتك إن شئت مضيت معهماوإن شئت أقمت معي)، فاندفع زيد دون تردد وقال: (بل أقيم معك).

كانت مفاجأة مذهلة لوالد زيد وعمه، فقال حارثة والد زيد وهو يصرخ: (ويحك يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك؟!) فقال زيد بهدوء: (إني رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي يفارقه أبداً) أي: هذا الرجل ليس ككل الناس، وصدق زيد ، فلا يوجد أحد كرسول الله ﷺ. فأخذ رسول الله ﷺ بيد زيد وذهب به إلى البيت الحرام، وقال أمام أبيه وعمه والناس جميعاً: (يا معشر قريش؛ اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه)، وعادة التبني كانت سائدة في الجاهلية، وأصبح زيد يعرف في مكة بـزيد بن محمد ﷺ.

ولما نزل الوحي كان زيد بن حارثة رضي الله عنه عمره ثلاثون سنة، والرسول أخبره عن الإسلام، وأريدكم أن تتخيلوا رجل يحمل هذا الكم من الحب لرسول الله ﷺ كيف ستكون ردة فعله؟ آمن زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، لكن لابد أن يعلم أن ترك الدين

والدخول في دين آخر ليس بالأمر السهل، لابد أنه فكر وسأل نفسه: هل هذا الرجل الذي لم أجرب عليه كذباً قط، ولم يكذب على الناس هل يكذب على الله عز وجل؟ أنا أرى بعيني أن محمداً ﷺ يعين الناس جميعاً وبدون مقابل، هل سيطلب لنفسه مصلحة ذاتية بعد أن بلغ عمره هذا المبلغ؟ هذا الرجل العظيم العفيف البعيد عن كل الموبقات والمعاصي والشهوات في فترة شبابه هل سيلعب بدين الناس وبعقيدتهم؟ وأيضاً دعوته ستجد معارضة ومحاربة، ولو كان يريد سيادة وشرفاً وظهوراً أكان يسلك هذا الطريق، أم أنه من الأسهل له أن يسلك الطريق التقليدي في مكة؟ طريق اللات والعزى وأشباههما، ما الشيء الذي يجعله يأتي بما يضع أمامه العقبات وتقوم عليه الدنيا؟

لابد أن كل هذه الأفكار جالت بذهن زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، ولا بد أن كل الإجابات كانت تفضي إلى نتيجة واحدة: وهي أن هذا الرجل صادق فيما يقول، وأنه رسول حقاً، ولا بد من الإيمان به دون تردد، فآمن زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه بقلبه أولاً وآمن بعقله أيضاً.

آمنت خديجة رضي الله عنه وأرضاها، وآمن أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وآمن زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، بقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

وقفات مع إسلام علي بن أبي طالب وإسلام بناته ﷺ

لنا وقفات مع إسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقصة إسلامه في منتهى الغرابة. آمن هذا الطفل الصغير وعمره عشر سنوات، ووجه الغرابة أنه طفل يؤمن في هذه المرحلة الخطيرة من الدعوة، حيث بدأ الرسول ﷺ دعوته سراً في مكة، ثم يسر بهذا الأمر الخطير لطفل، وكيف لهذا الطفل أن يفهم هذه القضية الكبرى التي خفيت على بعض العقول التي كانوا يعتبرونها

حكيمة في مكة؟! كان علي بن أبي طالب كإبن الرسول ﷺ تماماً، بنفس منزلة زيد، وكان يعيش مع الرسول ﷺ في بيته، لوجود أزمة اقتصادية في مكة في وقت ما، وأصبح صعباً على أبي طالب أن يرعى كل أولاده، فاقترح الرسول ﷺ على العباس رضي الله عنه وأرضاه أن كل واحد منهما يأخذ طفلاً من أطفال أبي طالب ويقوم بكفالته، وكان من سعادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أن يعيش مع رسول الله ﷺ في داره.

تأثر علي بن أبي طالب رضي الله عنه برسول الله ﷺ كأي طفل يتأثر بأبيه، فكيف لو كان الأب هو رسول الله ﷺ الذي كان يمثل لـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه كل شيء، كان علي بن أبي طالب يعتقد الصواب في كل كلمة يقولها الأب الحنون ﷺ، كأي طفل يعتقد أن الصواب الكامل في أبيه، وأن كل مشاكل الدنيا حلها عند أبيه، وهذا ليس كالآباء، فهو أعظم أب في الدنيا.

أول شيء: هو حب كبير في قلب علي لرسول الله ﷺ، حب الطفل لأبيه الحنون. ثانياً: أن الرسول ﷺ شاهد نبوغاً مبكراً وعبقرية ظاهرة في علي بن أبي طالب تطمئن الرسول ﷺ بأن يقول له سراً خطيراً كهذا، ونحن نتصور أن الرسول ﷺ يخاف أن يعرف طفل صغير كـ علي بن أبي طالب بأمر الرسالة، خصوصاً إذا كان هذا الموضوع يفترض أن يظل سراً لا يعرف، وإلى متى؟ لا نعلم، مدة سنة أو سنتين أو ثلاث إلى أن يأذن الله سبحانه وتعالى بجهرية الدعوة، لكن الظاهر أن علياً كان عبقرياً منذ طفولته، وأثبتت الأيام صدق ظن رسول الله ﷺ، فقد كان علي من أكثر الصحابة قدرة على استنباط الأحكام وعلى القضاء في الأمور، وكانت لديه فراسة عميقة إلى جوار العلم والفقه.

كان في اختيار الرسول ﷺ لمن يدعوه تنوع، وهذا يوضح لنا أن مجال الدعوة أوسع بكثير جداً مما قد نتخيل، فهؤلاء الأربعة الأوائل فيهم الرجال والنساء، فيهم السادة والعبيد، فيهم الكبار

والصغار لا حدود لهذه الدعوة، أنت عليك فقط أن تنظر من تقابل ومن تعرف؟ ومؤكد أنك ستجد الذي يصلح لأن تكلمه في أمر الإيمان والالتزام بدين الله عز وجل، فـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه آمن وهو في العاشرة، ليصبح بذلك أول الصبيان إيماناً، وتصبح السيدة خديجة أول النساء، وأبو بكر أول الرجال، وزيد بن حارثة أول الموالي رضي الله عنهم أجمعين، وهذا كله في اليوم الأول للدعوة.

ثم دعا الرسول ﷺ بناته إلى الإسلام السيدة زينب وكانت في العاشرة من عمرها وهي الكبيرة، والسيدة رقية كان عمرها سبع سنين، والسيدة أم كلثوم كان عمرها ست أو خمس سنوات، فكلهن دخلن في الإسلام في هذا السن المبكر جداً، أما السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها فقد كانت صغيرة جداً وقت البعثة. هذا كان الوضع في بيت الرسول ﷺ.

5

الــدعوة ســراً

الحكمة من الدعوة السرية

لا شك أن الرسول ﷺ كان يريد أن يصل بدعوته لكل إنسان في مكة، بل لكل إنسان على ظهر الأرض، وربما تصور المرء أن أسهل وسيلة لهذا أن يقف وسط الكعبة من أول يوم أُمر فيه بالبلاغ ويعلن للناس أمر الإسلام، لكن هذا لم يحدث، فماذا فعله ﷺ؟ كان ﷺ ينتقي رجلاً من رجال قريش، ثم يخبره سراً عن الإسلام، وكان يعلم أصحابه أن يفعلوا هذا، وقد ظلت الدعوة السرية فترة طويلة جداً بالقياس إلى عمر الدعوة الإسلامية، فالدعوة السرية امتدت حوالي ثلاث سنوات، والدعوة كلها 23 سنة.

قد يتصور البعض أن الرسول ﷺ عندما وقف على جبل الصفا وقال للناس: (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي؟)، يظن أن هذه المقولة كانت في بادئ الدعوة، لا. بل كانت بعد ثلاث سنين كاملة من نزول الوحي. وهي فترة كبيرة جداً أيضاً في حق مجتمع صغير كمكة، لكن لماذا هذا الوضع؟ ولماذا هذا التخفي؟ قد يتحمس المرء ويقول: دعوة الإسلام دعوة جميلة ومقنعة وعقلية، ولو وقف الرسول ﷺ في وسط مكة وأعلن عنها لسوف يسلم أكبر عدد من الناس في أقل وقت ممكن، لكن هذا لم يحصل ولم يفعله

الرسول ﷺ؛ لأنه يعرف أن دعوة الإسلام وإن كانت جميلة ومقنعة، إلا أنها ستتعرض إلى معارضة وحرب، ليس فقط من قريش، بل من العالم كله.

ثم لو أتى سائل يسأل: هل الرسول ﷺ كان خائفاً على نفسه من قريش؟ سأقول له: لا شك أن الرسول ﷺ يعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لكن كانت هذه هي الحكمة، كل خطوة في حياته ﷺ كانت محسوبة، تستطيع أن تقول: إن السرية في الدعوة في هذه المرحلة لم تكن اختياراً نبوياً، ولكنها كانت أمراً إلهياً، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعلم الرسول ﷺ، ويريد أن يعلمنا منهج التغيير في مثل هذه الظروف، كيف يمكن للأجيال التي ستأتي بعده أن تغير في غياب الرسول ﷺ؟ إذا توافقت الظروف مع ظروف رسول الله ﷺ في هذه المرحلة كيف يتصرف؟ والله سبحانه وتعالى قادر أن يحمي الرسول ﷺ فلا يصل إليه أي أذى من قريش، ومع ذلك هو يريد أن يرسم الطريق الصحيح للمسلمين لإقامة هذا الدين، مهما اختلفت الظروف، ومهما كثرت المعوقات؛ ولهذا ربنا سبحانه وتعالى وضع الرسول ﷺ في كل الظروف التي من الممكن أن تمر بها أمته بعد ذلك، وعلّم الرسول ﷺ كيف يتعامل مع كل حدث؟ كيف يصل بدعوته إلى الناس في وجود أي معوق؟

كون الدعوة سرية في السنوات الثلاث الأولى من الإسلام، لحاجة المسلمين إلى هذا الأسلوب السري في الدعوة إذا توافقت الظروف مع هذه الفترة، وعلى سبيل المثال: المسلمون في الاتحاد السوفيتي قبل أن يسقط كانوا يعيشون في مثل هذه الفترة، الإلحاد في كل مكان، كان حمل المصحف أو حتى الاحتفاظ به في البيت جريمة يعاقب عليها القانون، من اكتُشف أنه يصلي أو يصوم يُعاقب ويُعذّب وقد يُقتل، فكان لابد أن تكون هناك سرية تامة في هذه المرحلة، ولو لم يفعلوا ذلك لاختفى الإسلام من هذه البلاد، لكن كانوا يتعلمون في ديار كدار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه وأرضاه، كانوا يحفظون القرآن في سراديب وخنادق وكهوف الجبال،

والحمد لله مرت السنوات وبقي الدين وبقي المسلمون ورُفعت الغُمة، فما الذي حفظهم؟ حفظهم فقه المرحلة، نعم، ربنا سبحانه وتعالى هو الحافظ، وهو المعين، لكن هناك أسباب، والأسباب الصحيحة هي التي أخذ بها الرسول ﷺ في نفس الظرف الذي كان يعيشه المسلمون، لو أعلن كل واحد من المسلمين إسلامه في الاتحاد السوفيتي وفتح صدره لنيران الشيوعية، لاختفى الإسلام من بقاع كثيرة في الأرض، وسوف يموت الشهداء لكن أين الدعوة وأين الإسلام؟ ففقه المرحلة كان هاماً جداً، ووجود المثال النبوي الحكيم في إخفاء الإسلام في مثل هذا الظرف كان معلماً لهم، وكان مؤيداً لمنهجهم، كان معهم دليل شرعي قوي يؤيد هذه السرية.

اختلفت الظروف بعد ذلك في حياة الرسول ﷺ، وبالتبعية سيختلف منهجه ﷺ في إيصال دعوته للناس وفي تربيته للمؤمنين، سيأتي زمان بعد هذا يُعلن فيه البعض إسلامهم ويكتم المعظم، مثل إسلام سيدنا عمر وسيدنا حمزة رضي الله عنهما، وسيأتي زمان يعلن الجميع وتكون التربية في العلن، وذلك بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وسيأتي زمان سيدعو رسول الله ﷺ فيه زعماء العالم إلى الإسلام، وهذا بعد صلح الحديبية، كل هذا سيحدث.

حتى لا يأتي أحد من المسلمين ويستشهد بفعل من أفعال الرسول ﷺ والظروف مختلفة، وإلا فلماذا هذا التنوع في حياة الرسول ﷺ؟ ليعلمنا الحكمة الحقيقية في الاقتداء بالرسول ﷺ في أفعاله وأقواله عند تشابه الظروف.

ضرورة الحفاظ على الدعوة بالسرية

نخرج من موقف الرسول ﷺ عند بدء الدعوة بقاعدة مهمة: وهي أن الدعاة مطالبون بالحفاظ على أنفسهم وعلى حياتهم لا لخوفهم من الموت، فالموت في سبيل الله في حد ذاته غاية، ولكن

حفاظاً على الدين وعلى الإسلام، وعلى استمرار المسيرة، أي: أن العملية ليست عملية ملل من الدعوة أو الحياة أو الأعداء، لا، فهنا نظام وحكمة ومنهج ثابت، ومن هذا أخذ العلماء حكماً فقهياً مشهوراً وهو: أنه يجوز للجيش المسلم أن يفر من مثليه، وقد بوب له الفقهاء باسم: باب جواز الفرار من المثلين، كما يقول الله سبحانه وتعالى: {فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ} [الأنفال:66] الفقهاء قالوا: لو أن العدد أكبر من الضعف، أي: مائة مقاتل يقابلهم ثلاثمائة أو أربعمائة مقاتل يجوز لهم القتال ويجوز لهم الفرار حسب ما يرى القائد، بل إن الإمام مالك رحمه الله قال: يجوز الفرار من المثل، وليس من المثلين، وقال: إذا كان العدو أعتد جواداً وأجود سلاحاً وأشد قوة، وغلب على ظن قائد المسلمين الهلكة، وأخذ في الحسبان العوامل الأخرى غير العدد بل ذهب العز بن عبد السلام إلى أبعد من ذلك، فقال: إذا لم تحصل النكاية في العدو.أي: لو أنك تحارب عدوك وأنت متأكد أنك لا تستطيع أن تؤذي عدوك فلا تقاتله، قال: إذا لم تحصل النكاية في العدو وجب الانهزام؛ لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكافرين، أي: أن النفس ستذهب والمسلمون سوف يموتون، والكفار لن يحصل فيهم أي أثر، بل سيزيد الكفر؛ لأن المسلمين قلوا. ويقول العز بن عبد السلام: وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة. أي: أنه يأثم المسلم بإظهار نفسه إذا كان الاختفاء والانسحاب هو الألزم للمرحلة، وهذا إدراك لسلوك المسلم وسلوك الرسول ﷺ في مثل هذه المواقف.

الفرق بين المحافظة على الدعوة والمحافظة على النفس

هناك نقطتان مهمتان لتكتمل الصورة:

النقطة الأولى: أن الفارق بين الحكمة في الحفاظ على النفس وبين الجبن خطوة، فمن الممكن أن يقول شخص: أنا أحافظ على نفسي؛ لأن المرحلة تريد هذا، فلا يقول كلمة حق ولا يجاهد،

ولا يدعو إلى الله، ولا أي شيء أبداً في سبيل الله، بينما الدافع الحقيقي وراء هذا الركون أو القعود هو الجبن والخوف من مواجهة الباطل؛ كيف نفرق بين الحكيم الذي يتبع الرسول ﷺ، وبين الجبان الذي لا يريد أن يحمل هم الدعوة؟

أولاً: يرجع في ذلك إلى الدليل الشرعي من سيرة الرسول ﷺ، وذلك أن يكون موقفه هذا يشبه موقف الرسول ﷺ عندما أخذ بالسرية.

ثانياً: الورع والإيمان والتقوى الذي في قلب الإنسان، والله سبحانه وتعالى هو المطّلع على القلوب ويراك، وأنت أولاً وآخراً تتعامل مع الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: الرأي المشار إليه من قبل القائد والجماعة والشورى في هذه المرحلة، والشورى في غاية الأهمية وهكذا يمكن أن يخرج عامل الهوى، ونستطيع أن نفرق بين الحكيم وبين الجبان.

النقطة الثانية: أن الذي يُراعى هو مصلحة المسلمين والإسلام عموماً، وليس مصلحة الفرد، أي: أنه قد يهلك الفرد وتكون الهلكة محققة، لكن هذا في مصلحة المجموعة، هنا لا يُلتفت إلى الحفاظ على الفرد؛ لأننا نحافظ على الدين بصفة عامة، وعلى الأمة أو المصلحة العامة، أي: أنه سيأتي بعد ثلاث سنين من هذا الأمر أن الرسول ﷺ يجهر بدعوته، وستكون هناك خطورة حقيقية عليه، لكن المصلحة الأعم للدعوة أنه يُعلن، وسيأتي بعد فترة يبعث مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة، وسيكون هناك خطورة حقيقية على مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه، ففي المدينة المشركين واليهود وغيرهم، لكن المصلحة المتحققة أعلى، فيُضحى بمصلحة مصعب بن عمير على حساب تحقيق مصلحة أكبر للدعوة، من الذي يحكم في النهاية؟ الشورى والقائد، ومن المؤكد أن الهوى سيدخل إذا لم تدخل الشورى أو القائد في الموضوع. وقد يكون من الهوى أن يموت؛ لأنه لم يتحمل الظلم الواقع على المسلمين، ولا يستحمل أن

الكفر له الغلبة، فيحاول أن يتخلص من الأمر بالتسرع في إعلان نفسه، أو التسرع بالقتال في سبيل الله، أو في إظهار أمر الدعوة في مكان لا يستقيم أن يُظهر فيه أمر الدعوة في هذه المرحلة، كل هذا قد يكون هوى في قلب الإنسان، والله سبحانه وتعالى يريد منك تصرفاً آخر، ولهذا نؤكد دائماً على الشورى والرجوع إلى قائد المسلمين.

فقه اختيار المدعوين في المرحلة السرية

كان الرسول ﷺ والمسلمون في السنوات الثلاث الأولى لا يتحدثون بالإسلام إلا سراً لرجال معينين يختارون لهذا، لكن كيف كان يتم هذا الاختيار؟ ما السبب في أن الرسول ﷺ أو أبا بكر يذهب لدعوة عثمان بن عفان ولم يذهب إلى الوليد بن المغيرة أو لـ أبي جهل أو أمية بن خلف؟ من الواضح أن هناك قواعد دقيقة لهذا؛ لأننا لم نسمع أن اختيارهم كان خطأً، بل كل الذين اختاروهم وأسروا إليهم بالإسلام قبلوه. وهذا شيء مهم: أنك تعرف من الذي لو عرضت عليه أمر الدين قَبِلَه في الغالب، بهذا ستوفر مجهوداً كبيراً، وفي نفس الوقت ستنجح، وتبني لك قاعدة قوية. بالنظر إلى السابقين إلى الإسلام نستطيع أن نخرج بقواعد مهمة، وسبق أن ذكرنا قاعدة في دعوة المدعوين، وهي الحب أولاً، لكن هناك قاعدتان في غاية الأهمية أيضاً كان النبي ﷺ يستعملهما في اختيار الناس:

القاعدة الأولى: الحكمة النبوية العظيمة، (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا). الاختيار كان يقع غالباً على أصحاب الأخلاق الحسنة والأخلاق الحميدة، الذين يعظّمون الصدق والأمانة والكرم والشجاعة والعدل ومكارم الأخلاق، هناك كثير من الناس غير ملتزم بالإسلام، لكنه يحب الأخلاق الطيبة، هؤلاء لو التزموا بالدين سيكونون خير سند للدعوة، وبهؤلاء بدأ رسول الله ﷺ.

القاعدة الثانية: التركيز على الشباب، نعم الدعوة موجهة لكل الأعمار، لكن التركيز على الشباب في الفترة الأولى كان واضحاً، لأسباب:

أولاً: أن الشباب لم يَطُل عليهم الأمد في الاستمرار على تقاليد معينة، ولم يعتادوا على عبادة الأصنام لسنوات طويلة، ولم يتمسكوا بالدفاع عنها، فأنت عندما تذهب للكلام مع غير الشباب، وتقول له: أنت لك 40 سنة أو 50 سنة تدافع عن قضية باطلة، كيف يمكن له أن يؤمن بكلامك؟ صعب، لكن الشباب أيسر بكثير، لم تتلوث عقولهم بأفكار خاطئة، ومن ثم يستطيعون تقبل الفكرة الإسلامية بسهولة.

ثانياً: أن الشباب بصفة عامة مولعون بالجديد، لذلك تجد أكثر المقلدين للموضات هم الشباب مهما كانت، حتى لو كانت لا تتوافق مع هواهم، لكن المهم أنها شيء جديد.

ثالثاً: أن الله سبحانه وتعالى أعطى الشباب حماسة عالية، وحمية ونشاطاً، لا يعترفون بالصعب، بل تستطيع أن تقول: لا يعترفون بالمستحيل، وحمل الإسلام صعب وشاق يحتاج إلى عزيمة الشباب، وليس معنى هذا أن الشيوخ ليس لهم مكان في حمل دعوة الإسلام، لكن فرصة إيمان الشباب وفرصة حركة الشباب للدعوة بعد الإيمان، وفرصة ثبات الشباب على الحق وتحديه للصعاب والمشاكل أكبر من فرصة الشيوخ، ومن المؤكد أيضاً أن الدعوة تحتاج إلى الشيوخ وحكمتهم بجانب حماسة الشباب.

كل هذا الكلام جعل التركيز الأول على الشباب ذي الأخلاق الطيبة والحسنة، فهؤلاء هم الذين يمكنهم أن يتحملوا الدعوة، سواء في زمان الرسول ﷺ، أو في الأزمان اللاحقة، أو في زماننا هذا وإلى يوم القيامة.

هذه سنة من سنن الله عز وجل في التغيير.

ثمار الصديق الدعوية في الدعوة السرية إلى الإسلام

في اليوم الثاني من أيام الدعوة بدأ الرسول ﷺ والمؤمنون الأوائل يتحركون لانتقاء عناصر جديدة. ولنا وقفة مهمة مع حركة الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فقد كان الصديق إيجابياً بدرجة لا يمكن وصفها، كان يتحرك بالدعوة وكأنها أُنزلت عليه، لم تكن الدعوة عنده مجرد تكاليف من رسول الله ﷺ، كان يحب الإسلام ويريد من الناس جميعاً أن يعرفوه، وفي نفس الوقت كان يحب كل الناس، وهذا الحب للدين وللناس نتج عنه حماسة دعوية على أعلى مستوى، ففي أول تحرك له أتى بمجموعة وليس فرداً، أتى بالأسماء الذين سأذكرهم، وأريدك أن تقف عند كل اسم وتتأمل صاحب هذا الاسم وتاريخ وقصة حياته، لتعرف ميزان الصديق عند الله عز وجل.

الاسم الأول: عثمان بن عفان.

قف وفكر في سيرة عثمان رضي الله عنه وأرضاه، وفي تجهيز جيش العسرة جيش تبوك، وشراء بئر رومة، وتوسعة المسجد النبوي، وخلافة المسلمين 12 سنة، حياة طويلة من الإنفاق والجهاد والدعوة والعلم والصيام والقيام وقراءة القرآن. فـ عثمان بن عفان حسنة من حسنات الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

الاسم الثاني: الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه.

الاسم الثالث: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأرضاه.

ولن أفصل في سيرة هؤلاء؛ فكل واحد منهم يعتبر علماً ومنارة من منارات الإسلام.

الاسم الرابع: طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وأرضاه.

الاسم الخامس: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه.

فهؤلاء الخمسة جميعهم من العشرة المبشرين بالجنة، وهؤلاء لم يغيروا طعاماً أو شراباً، أو سكناً، وإنما غيروا ديانة وعقيدة، فمكة لها مئات السنين وهي تعيش في الشرك، فما ذلك الإقناع الذي كان عند الصديق حتى أقنع هؤلاء الخمسة العمالقة بأمر الإسلام؟ ما مقدار الصدق الذي في قلب الصديق رضي الله عنه وأرضاه حتى يهدي الله عز وجل على يده هؤلاء الخمسة العظام. الغريب أن هؤلاء الخمسة لم يكونوا من قبيلة بني تيم، قبيلة الصديق رضي الله عنه باستثناء طلحة بن عبيد الله فـ عثمان أموي، والزبير أسدي، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، لكن من المؤكد أن علاقات الصديق كانت بهم قوية جداً ووثيقة قبل الإسلام، ليس من المعقول أن يتعرف عليهم بالصدفة وفي وقت إسلامهم، وإنما من المؤكد أنهم كانوا يحبونه حباً عظيماً، وبعد هذا يأتي الإقناع وتأتي الحجة. ثم لو نظرنا إلى أعمار هؤلاء فـ الزبير بن العوام رضي الله عنه كان عمره 15 سنة، وعندما تسمع اسم الزبير بن العوام تعتقد أن عمره 40 أو 50 سنة. وكان عمر طلحة بن عبيد الله 16 سنة. وسعد بن أبي وقاص خال رسول الله ﷺ له تاريخ طويل وجهاد وفتوح وكان عمره حين أسلم 17 سنة. أما عثمان بن عفان فقد كان كبيراً بالنسبة لهم، كان عمره حين أسلم 28 سنة. كذلك عبد الرحمن بن عوف كان عمره حين أسلم 30 سنة. كل هؤلاء أخذوا قرار تغيير الدين والارتباط بالإسلام وتحمل المشاق الضخمة في هذه السن المبكرة! فـ الزبير وطلحة وسعد لو كانوا في زماننا فلا يزالون في المرحلة الثانوية، فهل أولادنا في المرحلة الثانوية عندهم من الوعي والإدراك وتحمل المسئولية والقدرة على الفهم والتفكير مثل هؤلاء؟ هل عندهم من القدرات التي كانت عند شباب الصحابة؟ والله إننا لنحزن عندما نرى أن بعض الشباب في هذه المرحلة العمرية الثمينة جداً فرغت عقولهم تماماً من كل ما هو ثمين أو قيم، ولو بحثت في عقولهم لم

تجد إلا بعض الأغنيات والمسلسلات والمباريات، وقصات الشعر والفيديو ورسائل الموبايل مع أن كثيراً منهم نشئوا في بيوت مسلمة، ومن آباء وأمهات مسلمين، وربما نشئوا في بيئة إسلامية صالحة، لم يكونوا في بيوت كافرة كبيت الزبير بن العوام أو طلحة بن عبيد الله أو سعد بن أبي وقاص.

أين المشكلة؟! نعم هناك دور كبير جداً راجع لفساد الإعلام والتعليم، لكن نحن أيضاً علينا جزء كبير، لعلنا لم نعط الشباب الوقت الكافي من حياتنا، أو أننا نستصغر عقولهم وأفكارهم، فينتهي من الثانوية والجامعة والجيش ويتزوج، وهو لا يزال أيضاً صغيراً، والبلوغ العقلي عندنا 40 سنة! وعند ذلك لا يعتمد على نفسه، ولا يعتمد عليه مجتمعه. هذا الشيء في الحقيقة يحتاج منا إلى وقفة كبيرة جداً، الشباب إمكانيات هائلة، لو وقفت مع الشباب وأعطيتهم وقتاً وتربية وجهداً ستأخذ منهم كما أخذ الرسول ﷺ من الزبير وطلحة وسعد.. وغيرهم.

سبب نجاح الصدِّيق في الدعوة إلى الله تعالى

هذا النشاط يحتاج إلى وقفة وتحليل ودراسة، ما معنى أن تكون دعوة الصديق بهذه الروعة؟ لماذا استُجيب للصديق بهذه الصورة؟ أعتقد أن المسألة ليست مجرد حركة، فهناك كثرة من المسلمين ومن الدعاة تتحرك في سبيل الله، لكنها تنفر الناس من دين الله عز وجل، فهم يتحركون وعندهم صدق في الحركة، لكن الأسلوب أو الهيئة أو الطريقة لا تناسب الوضع والشكل الذي كان عليه الصديق رضي الله عنه وأرضاه، لدرجة أن الرسول ﷺ كان يقول لبعض المسلمين: (يا أيها الناس؛ إن منكم مُنَفِّرين) أي: بعض الدعاة ينفرون الناس من الإسلام عكس المطلوب تماماً، فما الذي جعل الناس تستمع لكلام الصديق رضي الله عنه؟

أولاً: كان الصديق -كما يقول طلحة بن عبيد الله - رجلاً سهلاً محبباً موطأ الأكناف، أي: ليّن الجانب، وببساطة ليس بالفظ ولا بالغليظ. هذه أول سمة: أن تكون لين الجانب مع الذي تدعوه، واترك العنف.

ثانياً: كان تاجراً ذا خلق واستقامة، وهذا شيء في منتهى الأهمية.

المال فتنة، وكثير من التجار يخسرون الناس بسبب التجارة، لكن الصديق كان عكس هذا تماماً، كان يكسب الناس بسبب التجارة كان تاجراً صدوقاً، بل تاجراً صديقاً، كريماً رحيماً، فيه رأفة وأدب وخلق حسن، فكيف يمكن أن يكون حب الناس لإنسان يتصّف بهذا، يعطي الناس ولا يأخذ منهم؟

ثالثاً: يقول طلحة: وكنا نألفه ونحب مجالسه؛ لعلمه بأخبار قريش وحفظه لأنسابها.

أي: أن الصديق كان عالماً بعلم زمانه وهو علم الأنساب، والطبقة المثقفة في مكة كانت تحب أن تجلس معه وتسمع منه الأنساب، أي: أن الصديق ما كان يكتفي بالبسمة فقط أو المال، وإنما كان يعطي علماً أيضاً، وكان من أدبه رضي الله عنه أنه كان لا يطعن في أنساب أحد، مع علمه بكل نقيصة في كل نسب، فهذا من حسن خلقه رضي الله عنه وأرضاه، كيف لا يستجيب الناس لدعوته وهو بهذه الصفات؟ هذه الدعوة لم تأت من فراغ، ولم تكن مصادفة أن يستجيب هذا العدد العظيم من عمالقة الإسلام للصديق رضي الله عنه. إذا أردت أن تكون داعية فادرس سيرة الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وهو من خير الدعاة بعد رسول الله. وهنا نقف وقفة مع أنفسنا ونسأل: أتى الصديق بهؤلاء ونحن بمن أتينا؟ أجب على هذا السؤال بينك وبين نفسك، وليس بالضرورة أن تأتي بغير المسلمين إلى الإسلام، أو برجال

أمثال عثمان والزبير لكن أين الحركة للدين؟ هل وصلت دعوتنا إلى المسلمين غير الملتزمين بالإسلام بنفس حمية وحماسة الصديق رضي الله عنه وأرضاه؟

هل أتينا إلى المسجد بمسلم لا يعرف طريق المساجد؟ هل دفعنا بمسلم إلى قراءة القرآن بعد أن هجره السنوات الطوال؟ هل شرحنا لمسلم حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وقد نسيهم أو تناساهم؟ هل هذّبنا من أخلاق أبنائنا وأصحابنا وشركائنا وزبائننا وجيراننا؟ هل وصلنا بالدعوة إلى كل من نعرف؟ هل؟ هل؟

أسئلة كثيرة جداً لمجالات من العمل لا تحصى ولا تعد، أبواب الدعوة لا حصر لها، المهم أن يتولد في القلب شعور بأنك أنت وحدك الذي تحمل هم الإسلام كله على كتفك، تشعر أنك أنت المسئول، وأن القضية قضيتك، وأن المهمة مهمتك. هذا هو الدرس الذي نأخذه من الصديق، ولو استمعنا للقصة لمجرد التمتع بها لن نفهم الغرض من هذه المجموعة من الدروس: كيف نبني أمة؟

عالمية دعوة الإسلام وقاعدة المفاضلة بين الناس في الدين الإسلامي

تزايد عدد المسلمين، والقاعدة الأصيلة التي تحكم هي: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا) لم تكن تحكم المسلمين أي قاعدة من القواعد التي اخترعها الناس للتفرقة، القواعد التي اخترعها الناس ظالمة، والله عز وجل عادل لا يظلم، وعدله مطلق سبحانه وتعالى لا ظلم فيه، لا تكون المفاضلة بين الناس إلا بأمور يستطيعون تغييرها، لكن لا ينفع التفاضل بأشياء ليس لهم يد فيها.

فمثلاً: المفاضلة في قانون الله تعالى تكون بالتقوى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:13] وهي شيء مكتسب، فلكي تتحول من غير تقي إلى تقي فالطريق واضح في

الدين، كذلك الأخلاق الحسنة هي شيء مكتسب، نعم لها جذور فطرية، والإنسان يكون مجبولاً على الكرم والصدق، لكن في النهاية الأخلاق الحميدة شيء مكتسب، تستطيع إذا أردت أن تتحول من كاذب إلى صادق، أو من خائن إلى وفي، أو من جبان إلى شجاع وهكذا، وعندها يمكن التفضيل بين واحد وآخر على أساس التقوى وعلى أساس الأخلاق.

أيضاً كذلك تستطيع أن تسبق غيرك بالكفاءة.

هذه أمور تستخدم للمفاضلة بين الناس: التقوى، الأخلاق، الكفاءة، وجميعها أمور مكتسبة، لكن لا يجوز التفرقة والمفاضلة بين الناس على أشياء لا دخل لهم فيها، ولهذا الرسول ﷺ كان يستخدم القواعد الإلهية ولا يستخدم القواعد الظالمة التي اخترعها الناس، فلم يكن هناك فرق بين الأحرار وبين العبيد، فالكل أولاد آدم عليه السلام، والكل سواسية، بل قد يسبق العبد الحر في مجال الأخلاق والتقوى والكفاءة؛ ولهذا الرسول ﷺ وجه دعوته للعبيد كما وجهها للسادة سواء، وهذا كان مستغرباً في البيئة المكية القديمة، وإلى الآن هو أمر مُستغرب، أنا أريد منك أن تتخيل أن الوزير جالس بجوار العسكري في نفس الدعوة، بل قد يُقدّم عليه إذا كان أكفأ وأقدر على إدارة الأمور، فلم يعط قانوناً ولا دستوراً للإنسان حقه مثل ما فعل الإسلام، فنحن نرى في الأوائل الذين أسلموا تباينات عجيبة، كما رأينا من الأشراف من الصديق رضي الله عنه وأرضاه وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد كل هؤلاء من أشراف مكة، كما رأينا هؤلاء رأينا أيضاً العبيد والموالي، رأينا بلالاً وعامر بن فهيرة وزيد بن حارثة وغيرهم، وليس هذا إلا في دين الإسلام.

أيضاً لم يكن هناك فرق بين الغني والفقير، المال لا يصلح للمفاضلة بين الناس، فالله عز وجل يرزق من يشاء بغير حساب، الأوائل الذين أسلموا كان فيهم الأغنياء واسعو الثراء كـالصديق وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وكان فيهم أيضاً شديدو الفقر كـعبد الله بن مسعود

وعمار بن ياسر وسمية بنت خياط وخباب بن الأرت وغيرهم، لم يكن هناك أي فرق بين الغني والفقير.

لكن هنا معلومة هامة، وهي على عكس ما يتخيل كثير من الذين يدرسون السيرة، فهم يعتقدون أن غالبية المسلمين كانوا من الفقراء البسطاء، لكن عندما نأتي نحلل شخصية كل مسلم من المسلمين الأربعين الأوائل سنجد أن الفقراء كانوا 13 والأغنياء كانوا 27، أي أن 70٪ من المسلمين الأوائل كانوا من الأغنياء، ولم تكن هناك ثورة من الفقراء على الأغنياء، كما يحب بعض الاشتراكيين أن يصوروا من ذلك؛ ليأخذوا سنداً شرعياً لاشتراكيتهم، فالوضع كان خلاف هذا تماماً، الأغنياء سعوا إلى هذا الدين القويم الرائع، وضحوا بثرواتهم، وعرّضوا أنفسهم للفقر الشديد، وليس أبلغ من الأمثلة الإسلامية الرائعة كـ الصديق، فقد كان يملك أربعين ألف درهم عندما أسلم، وعندما هاجر كان يملك خمسة آلاف درهم صرفها على الهجرة، أي: أنه أصبح فقيراً بعدما أسلم، ومصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه كان من أغنى أغنياء مكة، ومن أنعم شبابها، ثم أصبح من أشدها فقراً وحاجة، ولم تكن هناك ثورة من الفقراء على الأغنياء، أو عملية تقسيم للثروات على شعب مكة أبداً، لم يكن هناك أي فرق بين الغني والفقير، المهم التقوى، لم يكن هناك أيضاً فرق بين العرب وغير العرب، أين الذنب في ولادتي، سواء ولدت في مصر أو باكستان أو إندونيسيا أو نيجيريا أو أمريكا أو أي مكان من الأرض؟ المهم التقوى والأخلاق والكفاءة.

دعوة الإسلام ليست دعوة قومية، حتى في هذه البيئة التي تفتخر بعربيتها، فقد ضمت هذه الدعوة بلالاً من الحبشة، وصهيباً الرومي ، وبعد سنين ستضم سلمان الفارسي ، وستدخل بعد ذلك كل العرقيات من فرس ورومان وسلاجقة وأتراك وأكراد.. وغيرهم كثير، سيدخل كل

هؤلاء إلى دين الإسلام، وكل منهم سيخدم الإسلام في مكانه، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى.

كذلك لم يكن هناك فرق بين الرجل والمرأة، ومن يتكلم على أن الإسلام ظلم المرأة لا بد أن يراجع التاريخ وقوانين الإسلام، فانظر إلى مدى الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في حياة أهل مكة، كيف نقل الإسلام في يوم وليلة أهل مكة من رجال يستحقرون النساء، ويستقلون شأنهن، ويهمّشون أدوارهن، ولا يعطونهن شيئاً من الميراث، بل يرث الرجل زوجة أبيه إذا مات الأب، كيف تحولوا من هذا الوضع إلى الوضع الجديد الذي تدعى فيه نساء مكة إلى الإسلام كما يُدعى الرجال؟ لدرجة أن ربع الرعيل الأول في هذه المرحلة الحرجة من الدعوة كن من النساء، وفي ظل هذا التكتم الشامل والسرية التامة يعظّم الرسول ﷺ من قيمة النساء ومن قيمة عقولهن، ويثق في إدراكهن لخطورة الموقف، ويعلم عن يقين احتياج الدعوة لهن، لا بد أن يقفن بجانب الأزواج، ويربين الأبناء، ويقمن بالدعوة في أوساط النساء.

الفارق بين حياة الجاهلية بقوانينها الظالمة وأحكامها الجائرة، وبين العدل المطلق الذي جاء به الإسلام كان مجرد لحظات، نزل الأمر الإلهي قُمْ فَأَنذِرْ [المدثر:2]فقام الرسول ﷺ لينذر الرجال والنساء، قام ليحكم الأرض بقانون السماء، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: (إنما النساء شقائق الرجال).

أيضاً لم يكن هناك أي فرق بين قبيلة وقبيلة أخرى، وهذا أيضاً مستغرب جداً في المجتمع القبلي، وهذا المجتمع طالما حدثت فيه حروب بين القبائل على أتفه الأسباب، وبعد الإسلام رأينا القبائل المختلفة تجلس سوياً ويضع بعضهم يده في يد الآخر، ويؤلف الله عز وجل بين قلوبهم حتى يحاربوا غيرهم، وإن كانوا من نفس قبائلهم، فتجد الهاشمي يحارب الهاشمي الذي ليس على دينه، ويضع يده في يد المخزومي إن كان مسلماً مثله، فالقبلية مرفوضة في دين

الإسلام. الدعوة الإسلامية كانت إعلاناً لحقوق الإنسان، وهي والله أعظم بآلاف المرات من الإعلان الذي أتى بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً من الزمان أو أكثر، كان إعلاناً من رب العالمين أن الناس سواسية كأسنان المشط، بدأ الرسول ﷺ حياته بهذا الإعلان الرباني لحقوق الإنسان، وأنهى حياته في خطبة الوداع بنفس الإعلان: (كلكم لآدم، وآدم من تراب) هذه هي قواعد الإسلام.

حرص النبي ﷺ على الدعوة وأفرادها

استمرت الدعوة السرية لمعظم الأفراد حتى بعد الإعلان النبوي الذي سوف يحصل بعد ثلاث سنين، فقد كان الرسول ﷺ حريصاً كل الحرص على الحفاظ على كل واحد من أفراد جماعته المؤمنة، سواء كان عبداً أو حراً، قرشياً أو غير قرشي، من قدماء الصحابة أو حديثي الإسلام كل الناس كانت قيمتهم عالية عند رسول الله ﷺ.

قصة إسلام عمرو بن عبسة

هناك بعض الراويات التي توضح لنا كيف كان الرسول ﷺ حريصاً على أن يأخذ بكل عوامل الحرص والحذر؛ ليحمي الجماعة المؤمنة الجديدة التي في مكة. مثال ذلك: إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه وأرضاه بعد أكثر من ثلاث سنين من الدعوة، وكان من قبيلة سُليم، وكان مع الرسول ﷺ أكثر من 60 صحابياً، لكن انظر إلى الحوار الذي سوف يدور بين عمرو بن عبسة رضي الله عنه وبين الرسول ﷺ. يقول عمرو بن عبسة كما جاء صحيح مسلم: (فتلطّفت حتى دخلت عليه مكة، فقلت له: ما أنت؟ فقال: أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله ولا يشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: معي حر وعبد، يقول عمرو بن عبسة:

ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به) فالرسول ﷺ لا يريد أن يكشف أوراقه كلها أمام عمرو بن عبسة رضي الله عنه، ولا يريد أن يقول له على جميع المسلمين قبل أن يستوثق منه، بالذات أن عمراً ليس من مكة، فهو بالنسبة للرسول ﷺ مجهول، فلا يستطيع أن يخبره في هذا الوقت، ومع الأخذ بالاعتبار أن الرسول ﷺ لو كان قال له: إن عددنا 60، كان أكثر إقناعاً له؛ لأنه سيرى أن عدد الذين آمنوا بهذه الدعوة كبير، لكن الرسول ﷺ آثر الحرص والحذر على الدعوة في ذلك الوقت، وهذا شيء كان في ذهن الرسول ﷺ في كل خطواته في أثناء المرحلة السرية، وأيضاً بعد المرحلة السرية.

آمن عمرو بن عبسة رضي الله عنه وأرضاه، ولما آمن أراد أن ينضم إلى رسول الله ﷺ في مكة، فقال له ﷺ: (إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا) لأن الموقف صعب، ولا يوجد أحد يحميه في داخل مكة، وسوف يُضطهد فيها أشد الاضطهاد، فهنا يضحي ﷺ بالنصرة التي ستأتي من وراء عمرو بن عبسة ببقائه في مكة، ويضحي أيضاً بالعلم الذي قد يحصّله عمرو ببقائه في مكة، في نظير أن يؤمِّن حياته ويحفظه لمرحلة قادمة قد تكون الدعوة أحوج إليه، وأعاده مرة أخرى إلى قبيلة سُليم، وقال له: ادع إلى الله هناك، وأتى عمرو بن عبسة بنصف قبيلة سُليم بعد ذلك.

عمرو بن عبسة أخذ بقواعد الأمان، وبدأ يدعو في قبيلته حيث الحماية المتوافرة له في ذلك المكان، لم يضح أبداً بحياته في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل الدعوة، كل هذه التدابير لا تنفي مطلقاً إيمان رسول الله ﷺ التام بالقدر، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولكنه يأخذ بالأسباب، ويعلمنا كيف نأخذ بها في كل مرحلة من مراحل الدعوة.

قصة إسلام أبي ذر الغفاري

كانت قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه قصة لطيفة طويلة، سآخذ منها ما يفيد الموضوع. أخذ سيدنا علي بن أبي طالب أبا ذر الغفاري ليعرفه على رسول الله ﷺ، وعلي أيضاً كان في منتهى الحرص، كان يقول لـ أبي ذر: إن رأيت شيئاً أخاف عليك منه قمت كأني أريق الماء، أي: أتبول، وفي رواية: كأني أصلح نعلي، فأخذه وذهب به لمقابلة رسول الله ﷺ في البيت الحرام أثناء الطواف ليلاً، لم يذهب به إلى دار الأرقم فهو لم يطمئن إليه بعد، وأبو ذر من قبيلة غفار المشهورة بقطع الطريق، فهو فعلاً أمره غير مأمون إلى أن يستوثق تماماً من إيمانه، فعندما ذهب أبو ذر يكلم الرسول ﷺ سأله أولاً: (من أين أنت؟) فقال أبو ذر: (من غفار)، هنا الرسول ﷺ شعر بالقلق، يقول أبو ذر: (فوضع رسول الله ﷺ يده على وجهي، فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار)

عرف الرسول ﷺ أن أبا ذر من قبيلة خطيرة، ومع ذلك وضح له أمر الإسلام، لكن لم يعرفه على خبيئة من خبايا المسلمين الموجودة في مكة؛ حرصاً وحذراً، وحساً أمنياً راقياً عند رسول الله ﷺ.

الحكمة من اختيار الرسول ﷺ دار الأرقم للاجتماع بأصحابه فيه في أول الدعوة

من المظاهر السرية العجيبة في ذلك الوقت: اجتماع الرسول ﷺ والصحابة في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه 13 سنة من غير أن يعرف مكانهم أحد، شيء في منتهى الغرابة، ومكة بلد صغير، وأهلها جميعهم يعرفون بعضهم بعضاً، كيف استطاع المسلمون أن يأخذوا الحذر لكي لا يعرف مكانهم أحد طوال هذه الفترة، ليس يوماً أو يومين أو ثلاثة بل 13 سنة،

واجتماعهم كان منتظماً، فقد كانوا يجلسون كثيراً، وعددهم غير قليل فهم 60 رجلاً، لم نسمع عن مداهمة واحدة من زعماء قريش لبيت الأرقم خلال 13 سنة.

ولعل سائلاً يقول: ما سبب اختيارهم لدار الأرقم بن أبي الأرقم بالذات؟ ولماذا لم يختاروا بيت الرسول ﷺ أو أحد الصحابة الآخرين؟

نقول:

أولاً: الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فلم تتم مراقبة بيته من قريش، فالرسول ﷺ أو الصحابة الذين عُرفوا بالإسلام لا تصلح بيوتهم لهذا الأمر.

ثانياً: الأرقم من بني مخزوم، وبنو مخزوم هي القبيلة المتنازعة دائماً مع بني هاشم، وأكثر الناس كراهية لبني هاشم في مكة، فرسول الله ﷺ كأنه يجتمع في عُقر دار عدوه، وذلك لم يخطر أبداً على أذهان زعماء أهل مكة.

ثالثاً: الأرقم كان بيته بعيداً عن القوم، لم يكن في قلب المدينة، أي: أنه لم يكن هناك أحد يمشي من جوار البيت، ولم تكن هناك بيوت أخرى يمكن منها مراقبة بيت الأرقم بن أبي الأرقم.

رابعاً: الأرقم كان عمره 16 سنة، شاب صغير لن يشك فيه أحد من أهل مكة، وأهل مكة قد يعتقدون أن الرسول ﷺ يعقد جلساته في بيت أحد من كبار الصحابة، مثل أبي بكر الصديق أو عثمان أو عبد الرحمن بن عوف لكن في بيت هذا الشاب الصغير.

هذا احتمال بعيد جداً عن أذهان قريش. كيف استطاع الأرقم أن يأخذ المهمة الضخمة هذه مع أنه كان من قبيلة بني مخزوم؟ وكان زعيم قبيلة بني مخزوم أبو جهل، ومن المعروف أن أبا جهل فرعون هذه الأمة، أعتى أهل قريش على المسلمين، فلو اكتشف أمر الأرقم بن أبي الأرقم لا بد أن نهايته القتل، فرضي الله عن الأرقم ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

سبب عدم تعرض قريش للرسول ﷺ وأصحابه في أول الإسلام

مع كل الحذر والاحتياط من الرسول ﷺ وصحابته على أمر الدعوة إلا أن قريشاً اكتشفت الأمر، رأت بعض المسلمين يصلي صلاة غريبة لم يعتادوا عليها، فعرفوا أنهم على دين جديد، فقد رأى رجل الرسول ﷺ وهو يصلي مع السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، وكان ذلك الرجل يجلس بجوار العباس، وكان العباس مشركاً فسأله عن عملهما؟ فقال: يزعم أنه يأتيه وحي من السماء، أو يقول: إنه نبي.

وأيضاً أبو طالب عم رسول الله ﷺ رأى ابنه علي بن أبي طالب وهو يصلي مع رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يعلّق على هذا الموضوع، ومن المؤكد أن بعض العائلات الأخرى رأت أولادها يصلون أو يقرءون القرآن، لكن مع كل هذه المشاهدات ومع هذا الإدراك لأمر الإسلام لم تعترض قريش في هذه المرحلة، بل لم تعر ذلك أي اهتمام.

بعض الأحيان يتعجب الواحد من أفعال قريش، لماذا سكتت عن أمر الإسلام في ذلك الوقت؟ ولماذا آذت رسول الله ﷺ وحاربته هذه المحاربة الشرسة بعد أن أعلن دعوته في مكة؟

الحقيقة أن قريشاً كان فيها قبل هذا رجال على نفس هذا النهج، مثل أمية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل وكانوا على الحنيفية، وورقة بن نوفل وكان نصرانياً فهؤلاء لم تكن تعمل لهم أي حساب وظنت أن المسلمين مثلهم، لكن أن يجاهر بدعوتهم، ويدعو إلى تسفيه الأصنام والقوانين الوضعية التي وضعها أهل مكة وأنزلوها منزلة كلام الله عز وجل، فهذا ما لا تريده قريش. فمبدأ قريش واضح وهو: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أما أن يأتي دين يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في منظومة الأرض وفي حياة الإنسان والمجتمع، فهذا ما ترفضه قريش بالكلية. في هذه المرحلة ترك القرشيون المسلمين دون تعرض، ولكن في المرحلة القادمة وبعد

ثلاث سنوات من الدعوة السرية سيجهر رسول الله ﷺ بدعوته في وسط مكة، وسيعلن توحيده لله رب العالمين، وسيعلن نبذه للأصنام والأوثان.

6

الـــدعوة جهــراً

ذكرنا ما فعله النبي ﷺ من بداية الدعوة السرية في أرض مكة، وكانت هذه الفترة قرابة ثـلاث سنوات كاملة، وبلغ عدد المسلمين في آخر هذه الفترة نحو ستين فرداً من الرجال ومن النساء، وأصبح من المتعذر على أهل مكة أن يستأصلوا الإسلام بكامله؛ لأنهم كانوا من قبائل مختلفـة، ومعظمهم من الأشراف، وهنا أذن الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ بالجهر بالـدعوة، وكانـت مرحلة الدعوة الجهرية لرسول الله ﷺ مرحلة جديدة.

في أوائل هذه المرحلة أعلن الرسول ﷺ دعوته، بينما ظل بقيـة المسـلمين في سريـة ولم يجهـروا، وهذا تدرج واضح في إيصال الدعوة للناس. أُمر الرسول ﷺ بـالبلاغ، وأن يبـدأ بأقاربـه دون بقية الناس، وهذا أيضاً نوع من التـدرج في إيصـال الـدعوة إلى النـاس، قـال الله لـه: {وَأَنـذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:214]، ولماذا الأقربون بالذات؟

أولاً: لوجود حب فطري للداعية لأقاربه، وهـم أقـرب إلى الإجابـة مـن غـيرهم؛ إذ القريـب ليست بينه وبين الداعية حواجز قبيلة أو عنصرية فهو يحبه حباً فطرياً.

ثانياً: حمية قبلية تدافع عنه، فهذا يعطي للداعية قوة، وبالذات إذا كانت للداعيـة عائلـة كبـيرة، فلو آمنت هذه العائلة بدعوته لأصبحت عضداً له في دعوته.

ثالثاً: أن دعوة الأقارب هي المسئولية الأولى الملقاة على عاتق الداعية: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته)، ومن هنا جاءت أهمية صلة الرحم وأهمية دعوة الأقربين، فلو أن الداعية يحارب من داخل بيته أو عشيرته أو قبيلته، أو أن أباه أو زوجته أو ابنه يعوق مسيرته، فإن هذه أمور تعيق طريق الدعوة.

وهناك نقطة بنائية هامة لابد أن نخرج منها: وهي أن دعوة الأقربين أهم من دعوة عامة الناس؛ فهذا لوط عليه السلام عندما جاءه قومه يراودونه عن ضيفه، قال لهم: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود:80]؛ لأن لوطاً عليه السلام لم تكن له عائلة قوية، فكان يتمنى لو أن له عائلة قوية لوقف أمام القوم يدافع عن ضيوفه، يقول رسول الله ﷺ تعليقاً على هذا الكلام: (رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد -وهو الله عز وجل-، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ذروة من قومه)، ليس عيباً أن الإنسان يحتمي بقومه وبعشيرته وبقبيلته مادام لا يتنازل عن شيء من عقيدته ودينه، على النقيض من هذا الموقف كان موقف شعيب عليه السلام، وانظر إلى قومه عندما جاءوا إليه ليعترضوا عليه قالوا: {وَلَوْلا رَهْطُكَ} [هود:91]، ولولا العائلة الضخمة الكبيرة التي تأوي إليها: {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود:91]. دعوة الأقربين هامة جداً في بناء الأمم، بل الرسول ﷺ عندما نزلت عليه هذه الآية: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:214] تحرك بسرعة ﷺ، ودعا 45 من أهله إلى الطعام، والدعوة إلى الطعام ترقق القلوب؛ لأن فيها ألفة ومودة، فمن أجل أن يكلمهم في أمر الدعوة دعاهم أولاً إلى الطعام، ثم بعد ذلك يبلغهم أمر الدعوة، لكن قبل أن يتكلم الرسول ﷺ وقف أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّباة، واعلم أنه ليس لقومك طاقة بالعرب قاطبة. كان أبو لهب يسمع بأمر الدعوة وأمر الإسلام، ولكنه لم يعترض على الإسلام من قبل، ولم يعترض أحد من أهل قريش قبل ذلك، ومع

اكتشافهم لبعض المسلمين؛ لأن المسلمين كانوا يكتفون بعبادات فردية، ويعبدون الله عز وجل في بيوتهم، فظن أهل قريش أنهم يفعلون أفعال الذين تنصروا أو اتخذوا الحنيفية ديناً، وأهل الباطل لا يمانعون أن تعبد ما تشاء في بيتك دون تدخل في المجتمع، أما أن يجمع محمد ﷺ الناس، ويبدأ في دعوتهم إلى ما هو عليه، ثم يسفه ما يعبدون من دون الله، ثم يحكمون الله في أمورهم؛ فهذا ما يرفضه أهل الباطل من قريش. كانت هذه مبادرة أبي لهب، ثم أتبعها بكلام شديد، قال: ما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به، فسكت الرسول ﷺ ولم يدع الناس، ولم يدخل في جدل مع أبي لهب، وهي حكمة نبوية بالغة؛ لأن الظرف غير موات، فليس من الحكمة إلقاء الدعوة في هذا الجو، وأبو لهب عم رسول الله ﷺ، وله أتباع وأنصار، فليجمع الرسول ﷺ

موقف الأقربين من الدعوة النبوية

الموقف الأول: هو موقف أبي طالب عم رسول الله ﷺ، والذي أحبه حباً يفوق حب أولاده، والذي كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، وموقفه يعتبر من أكبر علامات الاستفهام في التاريخ، وقف أبو طالب إلى جوار رسول الله ﷺ يشجعه بكل طاقاته، لكنه ما دخل في دينه، أخذ أبوطالب كل تبعات الدين الشاقة، وما استمتع بأحلى ما في هذا الدين؛ من تضحية، وبذل، وجهاد، وعطاء، وتعب، وسهر؛ لأنه لم يؤمن، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:56]. قام أبو طالب فقال: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب -أي: أسرعهم إلى نصرتك ومعاونتك-، فامض لما أمرت به.

أي: أنه يعلم أن الله عز وجل هو الذي أمره بذلك، ولم يأت به من عنده ﷺ، ثم يقول أبوطالب: فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد

المطلب. هذا يعني أنه تيقن أنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه أمر بهذا الكلام ولم يأت به من عنده، وأنه صادق لا يكذب، ومع ذلك يقول: نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب. هذا تناقض بشع في نفس المقالة، ما الذي وقف حاجزاً بينه وبين الإيمان؟ التقاليد، تقديس رأي الآباء والأجداد والعائلات، حتى وإن كان مخالفاً للحق، فهذه الجريمة وراء مصائب كثيرة حدثت لـ أبي طالب وتحدث لغيره ممن ساروا على نهج آبائهم وعصوا الله عز وجل، وخالفوا منهج رسوله الكريم ﷺ. المهم في هذا أن أبا طالب كان واضحاً في دفاعه عن رسول الله ﷺ من أول يوم جهر فيه الرسول ﷺ بالدعوة لأقاربه.

وعلى الجانب الآخر قام أبو لهب وظل مصراً على عدائه، قال: هذه والله السوأة، خذوا على يده قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا.

يتضح أمامنا أن هناك موقفين لأهل رسول الله ﷺ؛ موقف مدافع يتزعمه أبو طالب، وموقف مهاجم يتزعمه أبو لهب.

الجهر بالدعوة أمام قريش عامة

جاءت الأوامر من الله عز وجل أن يوسع الرسول ﷺ دائرة الدعوة، فيقوم بصيحة أعلى بعد ذلك لكل بطون قريش، فوقف ﷺ على جبل الصفا ينادي؛ يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني هاشم، يا بني مخزوم، حتى أتى على كل بطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الأمر؛ لأنه يرى أن الأمر عظيم. يقول ابن عباس في رواية البخاري: جاء أبو لهب وقريش -يخص بالذكر أبو لهب؛ لأن له موقفاً من هذا الحدث- فقال ﷺ: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، فهنا يقيم الرسول

ﷺ الحجة على قومه، أولاً: سألهم: (أكنتم مصدقي؟ فقالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صـدقاً)، بمعنى: أنهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن هذا الرجل لا يكذب، فأنذرهم بالإنذار الذي جـاء بـه: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، أي: إذا كنتم تصدقون إنـذاري لكـم بخيـل وأعـداء، فيجب أن تصدقوا إنذاري لكم بعذاب شديد، إذا بقيتم على ما أنتم عليـه مـن عبـادة الأوثـان وتحكيمها في حياتكم.

فلم يسكت أبو لهب بل قال: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السـورة الكريمـة: {تَبَّـتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:1]. وهنا مشكلة واضحة بـداخل أبي لهـب منعتـه مـن الإيـمان، إن كانت مشكلة أبي طالب التقاليد، فإن مشكلة أبي لهب كانـت الجـبن الشـديد قـال: (لـيس لنـا بالعرب من طاقة) ليس لنا قدرة على تغيير المألوف، ليس عند أبي لهب مانع من الوقوف بجوار القوي وإن كان مخالفاً للحق، وليس عنده مانع من أن يخذل ابن أخيـه، أو يخـذل الحـق بصـفة عامة وإن كان من أقاربه وعشيرته، هذا هو الذي أرداه فجعله من الخـاسرين، الجـبن الشـديد المقعد عن العمل الصالح.

الجهر بالدعوة لعامة الناس من قريش وغيرهم

حصل إعلان لقريش، وحصل إعلان لأقارب الرسول ﷺ خاصة قبل ذلك، ثم جاء بعد ذلك إعلان أوسع، الإعلان العام لأهل مكة ولغيرها، ويتضح من هذا التدرج في الدعوة التـي قـام بها رسول الله ﷺ. قال الله عز وجل: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجـر:94] أي: فاصدع يا محمد بأمر الدعوة.

هناك أمران متلازمان سيبقيان معنا طوال مرحلة جهرية الدعوة:

الأمر الأول: هو إعلان الدعوة للناس كافة مع خطورة هذا الأمر.

الأمر الثاني: الإعراض عن المشركين، بمعنى: عدم قتال المشركين، وهذا يتضمن معنى ضمنياً، وهو أنه سيحاول المشركون قدر استطاعتهم أن يوقفوا مد هذه الدعوة، وهذا هو ما أشار إليه ورقة بن نوفل من قبل لرسول ﷺ، وعلى الرسول ﷺ في هذه الفترة أن يتجنب الصدام مع المشركين: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر:94]، حتى لو حدث كيد وتعذيب وقتل فأعرض عن المشركين، هذه ظروف مرحلة معينة تمر بها الدعوة في هذه الفترة من حياة رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ صدع بما أُمر به، فماذا حدث في مكة؟

حدث انفجار في مكة، مشاعر الغضب والاستنكار والرفض، اجتماعات وتخطيطات ومكائد ومؤامرات، قامت الدنيا ولم تقعد في مكة، إنها الحرب لا هوادة فيها. المسلمون في مكة لم يعلنوا إسلامهم باستثناء رسول الله ﷺ، ولا أحد من البشر يدافع عن رسول الله ﷺ في مكة إلا أبوطالب، ورسول الله ﷺ يقبل بدفاع أبي طالب مع كونه كافراً، فهو رجل واقعي يقدر خطورة الموقف، لم يقل: هذا كافر ولا يجوز أن أحتمي به، ولكنه في ذات الوقت ما فرط في كلمة واحدة من الدين، ما تنازل ما بدل ما غير ﷺ، إنما كانت مساعدة غير مشروطة من أبي طالب، مساعدة دون أن يفرض رأياً أو يخطط مستقبلاً لرسول ﷺ أو للمسلمين والإسلام.

موانع دخول أهل مكة في الإسلام

قبل الحديث عن خطة مكة في القضاء على الدعوة الإسلامية لابد أن نبحث في موانع الإسلام عند أهل مكة، لماذا لم يؤمن أهل مكة؟ هل لأنهم لم يقتنعوا بالدعوة؟ لماذا حاربوا الدعوة ولم ينصروها مع أن الرسول ﷺ منهم ومن داخلهم؟ ألأنهم لم يدركوا الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ؟ أنا لا أعتقد هذا مطلقاً، على الأقل الغالبية منهم، فقد كانت الرسالة واضحة جداً، كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}[النمل:14]،

القرآن كلام معجز، وهؤلاء هم أهل اللغة، ويعرفون أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، ويعلمون أن محمداً ﷺ رسول الله فعلاً ولا يكذب، ومع ذلك كان أُبيّ بن خلف يقابل الرسول ﷺ ويقول له: إني سأقتلك، فيقول له الرسول ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله. فمرت الأيام وخرج أبي بن خلف متردداً إلى أحد يحارب رسول الله ﷺ، فضربه ﷺ بسهم أصاب منه خدشاً في كتفه، فكان أبي بن خلف يصرخ من هذا الخدش صراخاً شديداً، فقال له الناس: هون عليك هذا أمر سهل، فقال أبي بن خلف: إنه قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني! فانظروا إلى مدى تصديقه لكلام الرسول ﷺ، فأين كان عقلك يا أبي؟ أين كان عقل الذين سمعوك ولا يزالون يقاتلون النبي ﷺ؟ أهل مكة كانوا يوقنون أن هذا الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا ريب فيه، فلماذا كذبوه؟

ذكرنا من الأسباب: التقاليد الذي كان عند أبي طالب والجبن الذي كان عند أبي لهب.

من الأسباب أيضاً التي منعت بعض الناس من دخول الإسلام: القبلية، ففي مكة قبائل كثيرة، بل في داخل قريش بطون كثيرة، فـ أبو جهل من بني مخزوم، وكان يقول: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. فالتعصب لقبلية أو لقومية أو لعرق معين من شيم الجاهلية، وأعداء الأمة يستغلون هذا المدخل منذ القديم وإلى يوم القيامة، وهذه هي النقطة التي دخل منها اليهود والإنجليز لإسقاط الدولة العثمانية، عندما فرقوا المسلمين إلى عرب وأتراك. وهي النقطة التي دخل منها الفرنسيون لإسقاط الجزائر عندما فرقوا المسلمين إلى عرب وبربر.

وهي النقطة التي دخل منها شاس بن قيس اليهودي لعنه الله للتفرقة بين الأنصار إلى أوس وخزرج. ومن الناس من منعه **الكبر** عن الإسلام، وما أكثر الذين امتنعوا عن لزوم الحق

بسبب الكبر، قال الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:34]، فالكبر يقود إلى الكفر. وقد عرف رسول الله ﷺ الكبر بقوله: (الكبر بطر الحق وغمط الناس)، (بطر الحق) أي: تعرف الحق ثم تنكره. (وغمط الناس): أي: احتقارهم. وانظر إلى كلام الوليد بن المغيرة الذي حكاه القرآن الكريم، قال الله عز وجل في كتابه: {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف:31] القريتان هما: مكة، والطائف، فالمقصود بالعظيم في مكة هو الوليد بن المغيرة، والعظيم في الطائف هو عروة بن مسعود الثقفي، فيقولون: لو كان نزل القرآن على رجل عظيم لكنا آمنا به، مع أن الرسول ﷺ أعظم الخلق، لكنهم يقيسون العظمة بكثرة الأموال لا بقيم الأخلاق والدين والعقيدة، فالله عز وجل يوضح في كتابه الكريم أن الذي يتصف بصفة الكبر من المستحيل أن يتبع الحق، قال الله عز وجل: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف:146] أي: أن الله عز وجل بنفسه هو الذي سيصرف أولئك الذين يتكبرون عن آياته سبحانه وتعالى.

ومن الناس من منعه الخوف على السيادة والحكم في أرض مكة، فالرسول ﷺ يريد تحكيم الله عز وجل في أمور العبادة، وهو ﷺ ناقل عن رب العزة، وسيسحب البساط من تحت أقدام الزعماء كأبي سفيان.. وغيره؛ وذلك إن انتشر دين الإسلام بمكة، فكان الخوف على الحكم معوقاً ضخماً للانخراط في الدعوات الصالحة.

ومن الناس في مكة من كان يخاف على مصالحه المالية؛ لأنه مستفيد من الوضع الحالي لمكة بحالتها الكافرة الاشراكية، فمكة بلد آمن، ومحط أنظار أهل الجزيرة العربية، والتجارة فيها أشد ما تكون، ولو حارب العرب محمداً ﷺ لتحول البلد الآمن إلى بلد فتن وحروب، وهذا

جو لا يساعد على التجارة، كما أن المشركين الذين يمثلون غالبية أو كل سكان الجزيرة العربية قد يرفضون القدوم إلى مكة بعد إسلامها، بل وقد يحاصرون مكة اقتصادياً، فماذا لو آمن تاجر من كبار التجار خارج مكة، ألن يمنع عن مكة الطعام والتجارة؟ وقد حدث ذلك بعد سنوات فعلاً، فعندما أسلم ثمامة بن أثال ملك اليمامة رضي الله عنه وأرضاه منع الطعام عن مكة فتأذت بذلك. الخوف على المصالح المادية والشخصية والتجارية كان سبباً رئيساً لعدم قبول بعض المشركين لفكرة الإسلام.

ومن الناس في مكة من كان يخاف على شهواته وملذاته؛ لأن الإسلام دعوة إصلاحية تدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، والبعد عن المعاصي والذنوب، وأهل الباطل لا يريدون قيوداً، فالدعوات التي تمنع الزنا والإباحية والظلم والفساد لابد أن تحارب، وعلى قدر انغماس الرجل في شهواته على قدر حربه للإسلام.

أيها الأحبة؛ إننا لا نتكلم فقط عن تاريخ مكة، فهذه الموانع التي وجدت في أهل مكة كانت موجودة أيضاً في العصور التي سبقتها وتلتها وإلى يوم القيامة؛ لأنها سنن في الفطرة النفسية للبشر بصفة عامة تمنع من الالتحاق بالدعوات الصالحة، لابد أن نعرفها من أجل أن نعرف كيف سنقاومها.

ومن الناس من منعه غباؤه وانغلاق فكره عن الدخول في هذا الدين، اعتاد أن الآلهة متعددة، فلما جاءه رجل يخبره أن الله واحد لا شريك له لم يقبل عقله هذا الأمر، قال تعالى عنهم: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص:5]، ولكن العجيب فعلاً أن يعتقد إنسان أن في الكون أكثر من إله، والقضية قضية عقلية بحتة، قال الله عز وجل: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [المؤمنون:91]، هذا دليل عقلي: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ

الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء:22]. والغريب أن الكفار كانوا يناقضون عقولهم، وكأنهم لا يسمعون أصلاً: {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:179]، كان الكفار يناقضون أنفسهم في قضية وحدانية الله عز وجل، واسمع إلى قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [المؤمنون:84-90] فإذا كان الله عز وجل متصرفاً في كل شيء كما تعترفون، فلماذا تحكِّمون غيره؟! هذه هي النقطة التي انغلقت عقولهم عن الإجابة عنها.

ومن الناس من منعه غباؤه عن استيعاب فكرة أن الله عز وجل يرسل رسولاً من البشر، لم يدرك عقله البسيط الحكمة من وراء ذلك، بل كانوا يريدون ملكاً: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء:94]، فيرد الله عز وجل عليهم برد عقلي أيضاً: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} [الإسراء:95]، لو نزل ملكاً فكيف تستطيع تقليده؟ كيف ستتخذه قدوة؟ إذا قام الليل، ستقول: هذا من شأنه، أنا بشر وهو ملك، إذا حارب في سبيل الله، إذا فعل أي شيء في سبيل الله عز وجل ستقول: هو ملك وأنا بشر فلا أستطيع أن أفعل فعله، ولو أنزله ملكاً يتلبس بصورة البشر، لقال الناس: هل يا ترى هو ملك أو بشر؟ يلتبس على الناس أمرهم: {وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ} [الأنعام:8]، قضت حكمة الله عز وجل أنه إذا نزل الملك على القوم نزل بالعذاب، نزل بالهلكة بعد أن يكذبوا

الرسول: {وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا} [الأنعام:8-9] من أجل أن يستطيعوا تقليده: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}[الأنعام:9]، فإن الناس ستضطرب وتتحير، ولن تستطيع معرفة ما إذا كان فعلاً هو ملك أو هو رسول بشر.

ومن الناس من منعه غباؤه من استيعاب فكرة البعث واليوم الآخر، وهذه كانت من أكبر المشاكل بالنسبة لهم؛ لأن قياسه للأمور بقياساته المحدودة، ولو أدرك قدرة الله عز وجل لعلم أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول الله عز وجل يصف حالهم: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [النحل:38]، هذا قسم أقسموا عليه متيقنين أن الله عز وجل لا يبعث من يموت فرد الله عليهم بقوله: {بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [النحل:38]. انظر إلى موقف العاص بن وائل عندما جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد؛ أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار، ثم نزلت الآيات تخاطب العقول، قال الله عز وجل: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:77-79]، هذا هو الدليل الأول على بدء الخلق.

الدليل الثاني: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} [يس:80] أي: خلق الله عز وجل من الشجر الأخضر المليء بالماء النار، فهو قادر على كل شيء سبحانه وتعالى. ثم الدليل الثالث: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس:81]، وقال: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [غافر:57].

ثم قال: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس:82-83].

بل إن من الناس من أهل مكة من كان شديد الغباء حتى اعترض على القرآن الكريم نفسه، والقرآن الكريم كلام الله عز وجل لا يشبهه كلام البشر ولا يستطيعونه: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:42]، والعرب في زمان رسول الله ﷺ أعلم أهل الأرض باللغة العربية، وأكثرهم إتقاناً لها، وكانوا يعلمون تمام العلم أن هذا ليس في مقدورهم، وليس في مقدور عموم البشر، ولكن {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج:46]، قالوا عن القرآن: إنه شعر، وسحر، وكهانة.

هذه وغيرها كانت موانع للناس عن الانضمام في دعوة الإسلام العظيمة، وبدءوا يخططون ويدبرون للكيد لهذا الدين، والحرب بين الحق والباطل سنة ماضية إلى يوم القيامة: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء:89].

المراحل السلمية لصد الدعوة الإسلامية

الدعوات الصحيحة لابد أن تحارب، ولابد أن يجتمع عليها أهل الباطل، قد تؤجل المعركة، قد تأخذ صوراً مختلفة، ولكن لابد لها من حدوث.

بدأ الكفار في الكيد، وسلكوا السبيل الذي سلكه من قبلهم في صدر التاريخ، والذي سلكه أمثالهم إلى يومنا هذا، والذي سيظل كذلك إلى يوم القيامة، سنة الله عز وجل: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب:62] بدءوا يأخذون خطوات متدرجة لإيقاف المد الإسلامي، ونفس الخطوات تتكرر في كل زمان، يقول الله عز وجل: {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}

[الذاريات:53]، فهل أوصى بعضهم بعضاً بنفس الأساليب ونفس الطرق؟ قد تختلف اختلافات طفيفة لاختلاف الزمان أو المكان، لكن الأفكار واحدة، وطرق الصد واحدة.

المرحلة الأولى: تحييد أنصار الرسول ﷺ وتخويفهم

من مراحل صد الدعوة الإسلامية المحاولات السلمية: تحييد أنصار رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، لا يوجد إلا شخص واحد يعلن نصرته لرسول الله ﷺ، وهو أبو طالب، فذهبوا إلى أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا، فعندما استمع أبو طالب إلى هذه الكلمات تأثر وقال لرسول الله ﷺ: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فرفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء وقال لهم: ترون الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة. أي: لو استطعتم أن تشعلوا من هذه الشمس شعلة، فأنا لا أستطيع أن أترك هذا الدين، فقال أبوطالب -وانتبه لتغيره الكبير، فمن لحظات كان متأثراً بكلام قريش، وكان يريد منع رسول الله ﷺ لمنع الأذى عن قريش، ثم بعد أن رأى ثبات رسول الله ﷺ، قال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط؛ فارجعوا راشدين، فأمر القوم أن يعودوا ويتركوا محمداً ﷺ.

صلابة الداعية وثقته في الله عز وجل وفي دينه، وتعظيمه لأمر الأمانة التي يحملها يلقي بآثاره على من حوله، وتنتقل هذه الصلابة انتقالاً طبيعياً منه إلى أتباعه وأحبابه ومقربيه، بل انتقلت إلى أبي طالب وهو كافر، لكن إصرار رسول الله ﷺ جعله يرد أهل الكفر دون إجابة لطلبهم، مع أنه لا يرجو جنة ولا يخاف من نار، فكيف بالمؤمنين؟! ثم إن هذه الصلابة من الداعية تؤثر سلباً على أعدائه، إن العدو المدجج بالسلاح صاحب القوة والسلطان والتنكيل عندما يرى داعية صلباً مستمسكاً بمبادئه وإسلامه يتزلزل كيانه ويتضاءل أمام الداعية، مهما كان في هيئته

الخارجية ممكناً، وكلما رأيت العدو الذي أمامك يكثر من الحراسة والجيوش والتحصينات فاعلم أنه يخاف منك أكثر مما تخاف أنت منه، فلا تهتز.

فشلت المحاولة السلمية الأولى في تحييد أو تخويف أبي طالب واستمر الرسول ﷺ في دعوته.

المرحلة السلمية الثانية: تشويه صورة الداعية أمام الناس

تشويه صورة الداعية أمام الناس، وكانت حرباً إعلامية كبيرة بقيادة الوليد بن المغيرة وأبي لهب وغيرهما، فهذا تحالف من قبائل مختلفة لحرب الإسلام، فهذا أبو لهب من بني هاشم، والوليد بن المغيرة من بني مخزوم، فبنو هاشم رغم عداوتها لبني مخزوم إلا أنها متفقة معها الآن في خطة لشن حرب إعلامية على رسول الله ﷺ. فأقاموا مؤتمراً ضم معظم الفصائل المكية في ذلك الوقت، وكان من الواضح أن الوليد بن المغيرة هو الذي يتزعم هذا المؤتمر، قال الوليد: يا معشر قريش؛ إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا -يقصد رسول الله ﷺ-، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم قول بعض. ويتضح أن الوليد بن المغيرة يحارب الإسلام بذكاء، فهو يريد أن يجمع أقوال الناس في قول واحد؛ حتى يكون مقنعاً للناس في إعراضهم عن رسول الله ﷺ. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس قل وأقم لنا رأياً نقول به، فقال: بل أنتم قولوا أسمع، يريد أن يخرج كل ما في أنفسهم، فبدءوا يفكرون في كذبة مناسبة، ولنعلم أنهم يعلمون أن ما يقولونه هذا ليس صواباً، ولكنهم يفترون على الله عز وجل الكذب، فقالوا: هو كاهن، والوليد بن المغيرة ذكي، قال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه. أي أن لن يقتنع الناس إذا قلتم بأنه كاهن فقالوا: هو مجنون، فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، يكفي من هذه الألفاظ أنه ليس بالجنون، فقالوا: هو شاعر، فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه

ومبسوطه، فما هو بالشعر. عرفنا كل أنواع الشعر، وهـذا بـالتحقيق لـيس شـعراً، قـالوا: هـو ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هـو بنفثـه ولا عقـده. قـالوا: فـما تقول يا أبا عبد شمس؟ فقال الوليد بن المغـيرة: والله إن لقولـه لحـلاوة، وإن أصـله لعـذق -العذق هي النخلة-، وإن فرعه لجناه -ما يجنى من الثمر-، وما أنتم بقائلين مـن هـذا شـيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول -يعني: هو يعلم أن هذا القول ليس بصـحيح، ولكـن أكـبر كذبة من الممكن أن تنطلي على الناس هي هذه الكذبة- أن تقولوا: جاء بقول هو سـحر، وهـو ساحر غير تقليدي، ليس كالناس المعروفين بالسحر عن طريق النفث والعقـد، ولكنـه يسـحر بسحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. يعلـم أنه يكذب، ومع ذلك شجع الناس لتكذب؛ لكي تحارب الدعوة. فنـزل قـول الله عـز وجـل: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المـدثر:11 - 17]، وانظـر إلى التصوير للحالة النفسية التي كان فيها الوليد بـن المغـيرة وهـو يفكـر كيـف يحـارب الـدعوة: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} [المدثر:17 - 22]، صراع نفسي داخلي عنيف بين علمه بالحق وبين إنكاره له، وهكـذا نفسية الكافر المضطربة، ثم ماذا كانت النتيجة بعد كل هذا التفكير الشديد الطويل؟ {ثُـمَّ أَدْبَـرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المـدثر:23 - 25]، فـما هـو العقاب؟ {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر:26].

من سنن الله عز وجل أن يقف الكافرون ضد الحق وهم يعلمـون أن هـذا حـق، فهـم يقفـون ويحاربون الدعوة بكامل طاقتهم، كما فعل الوليد بن المغيرة وكما فعل أبو لهب وغيرهما، ثم مـع كل هذا الإعداد ومع كل هذا المؤتمر الضخم، إلا أنهم ليسوا بموفقين؛ لأن الله عز وجل بنفسه

يحاربهم، الإمكانيات الإعلانية لرسول ﷺ كانت أقل بكثير من إمكانيات الكافرين، ومع ذلك كان يصل إلى الناس؛ لأنه يقول الحق، وشتان بين الحق والباطل، وهي رسالة إلى كل الدعاة: لا يحبطنك سطوة إعلان المحاربين لدعوة الله عز وجل: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ} [الأنفال:59]. أول محور سلكه أهل الباطل في حرب تشويه صورة الدعوة الإسلامية

المرحلة السلمية الثالثة: تشويه الدعوة

تشويه الدعوة ذاتها، وتشويه الإسلام، وأنه يدعو إلى أشياء خرافية ليست حقيقة، فحتى لو لم يكن للناس اعتراض على شخص الداعية، فهناك اعتراض على كلام الداعية، يعني: الإعلان في مكة كان يضرب تارة في شخص الرسول ﷺ أو في شخص الداعية، وتارة يضرب في الإسلام، قالوا: {إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} [الفرقان:4]، أي: هذا كذب ألفه بمساعدة آخرين، {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان:5]، أي: كتب الأولين استنسخها. مع أنهم يعلمون أنه أمي لا يقرأ، ويعلمون حياته من أولها إلى آخرها، وما غادر مكة إلا قليلاً، ولم يكن يغادرها بمفرده، فكيف عرف كل هذا القرآن؟ {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل:103]، فقد ادعوا أن رسول الله ﷺ يتعلم القرآن على يد غلام نصراني، وهم كاذبون، ولكنهم كما قال الله عز وجل: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} [النمل:14].

وقاموا أيضاً بتشويه فكرة التوحيد، وهذا يعتبر طعناً في أصل الرسالة، قالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص:5]، وهذا الصوت العالي للباطل قد يشتت أفكار العوام. ثم عملوا على تشويه فكرة البعث: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [سبأ:7 – 8]، أهل مكة يدعون على

رسول الله ﷺ الكذب، وقد كانوا يسمونه: الصادق الأمين، {أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّـذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالآخِرَةِ فِي الْعَـذَابِ وَالضَّـلالِ الْبَعِيـدِ} [سـبأ:8]. وعملـوا عـلى تشـويه لأخلاقيات وطبائع هذا الدين، فقالوا: (هذا دين يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأهلـه).، مع أنه لم يأت دين يجمع الناس ويوحد صفوفهم مثل دين الإسـلام، ولكـن الإسـلام يريـد أن يوحد الناس على أساس متين يستوي فيه أهل الأرض جميعاً، وهو أسـاس العقيـدة، وهـذا مـا تأباه قريش. وهكذا يفعل أهل الباطل؛ دائماً يتهمون الإسـلام في ذاتـه، كـما يشـوهون صـورة الداعية ويشوهون صورة الدين، والآن نرى الناس يتهمون الإسلام بأنه دين الإرهاب، مع أنه لم يأت دين يدعو إلى الرحمة كدين الإسلام، ويتهمونه بالجمود الفكـري، مـع أنـه لم يـأت ديـن يدعو إلى التفكر كدين الإسلام، ويتهمونه بالتخلف العقلي، مع أنه لم يأت دين يدعو إلى التعلم والتفقه وعمارة الأرض كدين الإسلام.

المرحلة السلمية الرابعة: شغل الناس بالباطل واللهو عن الحق

شغل الناس بالباطل، فمن الصعب على القلب المنشغل بالباطل أن يلتفت إلى دعوة إصـلاحية أو إلى دعوة الحق، بل من الصعب على الإنسان الذي غرق في حياة اللهو والتفاهة والانحـلال أن يهتم بدعوة جادة. خطة قديمة لأهل الباطل أن يقدموا للناس فنوناً مختلفة من الملهيات، فلا يكون عندهم وقت ولا عقل ولا قلب لدراسة هذا الـدين، التفـت إلى هـذه الخطـة الشـيطانية رجل من كفار قريش، تولى ما يسمى بالإعلام المضاد لدين الإسلام، إعلام مضاد بصورة غـير مباشرة، هو لم يطعن في دين الإسلام ولم يطعن في الرسول ﷺ مبـاشرة، لكنـه سـيقدم للنـاس مشهيات وملهيات تشغل الناس في يومهم وليلتهم عن الدين، وهذا الرجـل هـو النضـر بـن الحارث لعنه الله، وقف يحادث قريشاً عن خطته، فقال: يا معشر قريش؛! والله لقـد نـزل بكـم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فـيكم وأصـدقكم حـديثاً

وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن. يتكلم وكأنه يدافع عن الرسول ﷺ، ولكنه يكابر. وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، يا معشر قريش؛ فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم. يقع الذين يصدون الناس عن الدعوات الإصلاحية وبالذات الإسلام في المشكلة الضخمة، وهي أن الدعاة إلى الله عز وجل عادة ما يكونون على صورة طيبة، تفوق بكثير صورة أهل الباطل، من صدق، وأمانة وأدب في المعاملة، ومروءة في الأخلاق، وتفوق في العلم، وحسن في المنطق، فصعب على الناس أن تقبل طعناً في الداعية، وقد يصعب عليها أيضاً أن تقبل طعناً في الرسالة؛ لأن الرسالة تتوافق مع فطرة الناس جميعاً.

الإلهاء عن الحق كان وسيلة من وسائل الكفر في حرب الإسلام، فماذا فعل النضر بن الحارث، ذهب النضر بن الحارث إلى الحيرة في العراق يتعلم منها فناً جديداً؛ لكي يلهي الناس به؛ يبذل النضر بن الحارث المال والوقت والجهد والفكر للصد عن سبيل الله، ينفق أموالاً ضخمة وميزانيات هائلة لنشر الإباحية والمجون: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [الأنفال:36]. أخذ النضر بن الحارث يتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، أخذ يتعلم أساطير وحكايات وروايات وقصصاً فيها تشويق وإثارة، وفيها جذب للانتباه، وتنشيط للشهوات، وإباحية أحياناً، وغموض أحياناً أخرى، وصراع في أحيان ثالثة، ورومانسية في أحيان رابعة، وهزل وضحك وكوميديا في أحيان خامسة، وهكذا سيجد ما يوافق كل ذوق.

ثم عاد النضر بن الحارث بهذا التنوير وبهذا التطور وبهذا الرقي -في زعمه- يرفع الناس في مكة إلى مستوى حضارات الفرس كما يزعم، ثم بدأ في حربه ضد رسول الله ﷺ، إذا جلس

رسول الله ﷺ مجلساً جاداً محترماً يذكر بالله، ويرغب في جنته، ويرهب من ناره، جلس النضر بن الحارث بالقرب منه يحدث بحديثه الهزلي، ويمتع الناس برواياته، ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني. ولم يكتف بذلك النضر، بل اشترى مطربات راقصات، فبدلاً من أن تتخيل الراقصات والمجون في رواياته، فلتشاهده عياناً بياناً بنفسك؛ إمعاناً في الإلهاء والتضليل، كلما سمع أن رجلاً مال قلبه إلى الإسلام سلط عليه المطربات والراقصات يلهينه عن سماع كلام الإيمان، وكلما نشط رسول الله ﷺ نشط النضر بن الحارث؛ لأن هناك مواسم يكون فيها نشاط للدعوة، مثل موسم الحج، في هذه المواسم الدينية ينشط النضر بن الحارث في ملهياته، فنزل فيه وفي أمثاله قول الله عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان:6 – 7].

وهكذا يتواطأ أهل الباطل بهذا المنهج؛ شغل الناس بلهو الحديث، وبالذات في فترات زيادة الإيمان، ولعلنا بذلك نفهم أحداثاً خفيت على بعضنا؛ نفهم مثلاً النشاط الإعلامي الرهيب في شهر رمضان، تكدس ضخم للأعمال الفنية الملهية عن أي شيء جاد في الحياة؛ ملهية عن الدين وغير الدين، برامج حافلة بالفساد، وقنوات تلفزيونية لا حصر لها، وتنوع غير مسبوق فيما يقدم من أفلام، وتمثيليات، ومسرحيات، وأغان، وعروض كلامية، ورياضة، وحكايات، وبرامج ضاحكة، كل هذا في شهر رمضان شهر الصيام والقيام والقرآن والزكاة والصدقة؛ لأن هذا هو أكثر الشهور جدية في السنة، والمؤمن في هذا الشهر لا يجد وقتاً للأنواع المختلفة من الطاعة التي يريد أن يقوم بها، وقلب المؤمن يكون أكثر رقة واطمئناناً وإيماناً وقرباً من الله تعالى؛ لأن الشياطين مصفدة، والمساجد ملأى، وأعوان الخير كثر؛ فهذه الثورة الإيمانية في قلب المؤمن تلفت أنظار أهل الباطل، فيتحركون بنشاط أكبر، ويكرسون جهدهم في هذا الشهر

الكريم، وهذا لا يخفى على عاقل، وعلى أهل الإيمان أن يحذروا، وخطـة النضـــر بــن الحــارث قديمة حديثة، رأيناها بأعيننا وسمعناها في السابق. طريقة النضر بن الحارث حـارب الإسـلام مازالت تطبق إلى يومنا هذا، وسـتظل تطبـق إلى يـوم القيامـة، وصـدق الله العظـيم إذ يقـول: {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات: 53].

هل يئست قريش في حربها للدعوة؟

لا، مازال في جعبتها طرق كثيرة للمحاربة، وطرق خبيثة وشيطانية.

7

تربية الثبات

الضغوط النفسية لصد المسلمين عن الدين

اتخذ أهل الباطل وسيلة أخرى من وسائل الباطل في حرب الإسلام: إنها حرب نفسية شنها أهل الباطل في مكة على المسلمين؛ حتى لا يشعروا براحة، مثل: الضغوط النفسية من الأهل والأقارب.

نحن نعرف أن معظم المؤمنين من الشباب، لذا اجتمع أهل الكفر وأعلنوا في مكة أنه على كل أب وأم وشيخ قبيلة أن يتصرف مع أبنائه، فنحن نعمل ذلك من أجل مصلحة الابن الذي خرج عن دين الآباء، وكذلك من أجل مصلحة الأب حتى يظل محافظاً على مكانه في مكة، مع العلم أن لهجة أهل السلطان في مكة كانت تحمل تهديداً خفياً أو صريحاً، مثل ما حصل مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وارضاه، فقد كان يحمل مهمة إبعاده عن دين الله عز وجل أمه، فقد حاولت بكل طرق الترغيب والترهيب أن تمنع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن الإيمان، لكنها فشلت ولم تستطع رده عن الإسلام، حتى إنها لجأت إلى الإضراب عن الطعام والشراب، قالت: لن آكل ولن أشرب حتى ترجع عن الإسلام، ضغط نفسي رهيب على شاب عمره 20 سنة، لكن الله ثبت سعداً رضي الله عنه، ووقف أمامها وقد أشرفت على الهلاك يقول

لها في يقين: تعلمين والله يا أماه؛ لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فكلي إن شئت أو لا تأكلي. إصرار شديد، استحالة أن يغير هذا الدين مهما كانت الأثمان، ومهما كانت العواقب، فأكلت الأم وبقي سعد رضي الله عنه وأرضاه مسلماً، لكن الأمر كان شديداً ولا شك على نفس الشاب الصغير.

كذلك الضغط النفسي أيضاً مارسته أم مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه، كان مصعب أنعم فتيان قريش، كانت أمه غنية، وكانت توفر له كل أسباب الرفاهية، كانت تحضر له العطر من الشام والملابس من اليمن، فلما آمن منعت عنه ذلك، بل طردته من البيت ومنعت عنه كل الأموال، لكنه وإن كان قد تعود على حياة الترف والرفاهية لم يتغير، تقشر جلده مثل جلد الحية؛ لأنه كان معتاداً على حياة الترف والرفاهية، كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم إذا رأه بكوا لحاله وهو غير مبال، ثبت على الإسلام الذي غير تماماً من شخصية مصعب رضي الله عنه.

كذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه كان عمه يلف حوله الحصير، وبعد ذلك يشعله تحته حتى يكاد يختنق، لكنه أيضاً لم يرجع عن الدين.

كان أبو جهل لعنه الله قيادياً كبيراً في مكة، وكان له تأثير على بيوت كثيرة فيها، كان يمر بنفسه على أهل مكة يهدد ويخوف، ولما يعلم بإسلام أحد يذهب لأهله، ويتوعد أهله بالخسارة الفادحة في المال والجاه والمكانة، كان يطرد من الأعمال من شك في إسلامه، كان يضغط على كبراء مكة ليضيقوا اقتصادياً على المسلمين، ومن لم تقنعه الكلمات قد يقتنع بالجوع. حتى رسول الله ﷺ لم يسلم من هذه الضغوط النفسية، فـ أبو لهب لعنه الله كان قد زوج ولديه عتبة وعتيبة من بنتي رسول الله ﷺ السيدة رقية والسيدة أم كلثوم فلما أعلن الرسول ﷺ أمر الدعوة، أمر ولديه أن يطلقا بنتي الرسول ﷺ، وبالفعل طلقا البنتين، وهذا هم ثقيل، ولا شك

أن فكر الرسول ﷺ سوف ينشغل بهذه القضية ولو بدرجة ما. ثم صورته في مكة يصبح شكلها مختلفاً، فعمه لا يريد أن يزوج ولديه ببنتي الرسول ﷺ، ثم وصل الأمر إلى أن زوجة أبي لهب أم جميل أروى بنت حرب -وكانت امرأة شديدة السوء- كانت تحمل الشوك وتضعه أمام بيت رسول الله ﷺ. تعدى الأمر من إيذاء الرجال لرسول الله ﷺ إلى إيذاء النساء، هذا شيء في منتهى المشقة على نفسية أي رجل، بل خرجت هذه المرأة ذات مرة لتضرب رسول الله ﷺ، وأمسكت بيدها فهراً من الحجارة، -يعني: ملء الكف من الحجارة- وجاءت لترجم الرسول ﷺ وهو جالس بجانب الصديق رضي الله عنه في البيت الحرام فلما جاءت إليهما أخذ الله عز وجل ببصرها عن رسول الله ﷺ، فقالت: أين صاحبك قد بلغني أنه يهجوني؟ وذلك في الآية الكريمة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد:1- 5]، فـ أم جميل بنت حرب قالت: والله لو وجدته لرجمته بهذا الفهر.

وهذا الإيذاء لم يكن فقط في الشارع أو في البيت الحرام، لا، بل كانوا يتطاولون على رسول الله حتى وهو في بيته، فقد كان إذا صلى في فناء بيته ألقوا عليه رحم الشاة من فوق السور حتى يصيبه هذا الأذى؛ لذا كان يصلي وراء حجر يستتر به من قاذورات قريش، ثم كان رسول الله ﷺ يخرج بهذه الأوساخ فيخاطب عقول وقلوب قريش، فيقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟!. يذكرهم بحقوق الجار والجوار التي طالما تشدقت بها قريش، طالما تحدثت قريش عن حفظها لحقوق الإنسان وهي الآن تحارب أعظم رجالها وخيرة أبنائها عندما أعلنوا كلمة الإيمان.

كانت وسيلة من وسائل أهل الباطل في حرب الدعوة الجديدة: وسيلة الضغط النفسي على المسلمين من الصحابة وعلى رسول الله ﷺ نفسه.

طلب المعجزات الخارقة للدلالة على صحة الإسلام تعنتاً ومماراة

وسيلة أخرى من وسائل أهل الباطل: طلب الأمور المعجزة من باب الجدل والمراء، فإن رسول الله ﷺ قد أتى لهم بمعجزة عظيمة خالدة: إنها معجزة القرآن الكريم، تحداهم به تحدياً صارخاً، قال تعالى: {وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:23 - 24]، تحدٍ في منتهى القوة: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} [البقرة:24] ومع ذلك قريش ما حاولت مرة واحدة أن تعارض هذا القرآن الكريم، ومع علمهم بصدقه ﷺ، ومع علمه بعجزهم وضعفهم أخذوا يطلبون المعجزات الأخرى من باب الجدل، مثل: انشقاق القمر، فوقف الرسول ﷺ وأشار بيده إلى القمر فانشق إلى نصفين، نصف على جبل والنصف الآخر على جبل آخر أمام الناس جميعاً، فقالوا: سحركم محمد، والمنصف منهم قال: اسألوا المسافرين، فلو كان سحرنا لن يسحرهم، فلما أتت الناس سألها أهل قريش عن هذا الأمر، فقالوا: نعم، لقد رأينا القمر انشق في ذات الليلة التي انشق عندهم فيها، فكانت هي الليلة التي شق فيها للرسول ﷺ القمر، ومع ذلك قالوا: هذا سحر مستمر ولم يؤمنوا؛ لأنهم ما طلبوا الآيات رغبة في التصديق وإنما لمجرد الجدال والمراء، ثم وصل الأمر إلى أن قالوا لرسول الله ﷺ ما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه} [الإسراء:90 - 93]، لكن الله سبحانه وتعالى يعلم الرسول ﷺ، أنكم إذا وصلتم إلى هذه الدرجة من الجدال والمراء فليس هناك إلا رد واحد وهو: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا

بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء:93]، هم لا يريدون الإيمان، وليس هناك داع للجدل العقيم مع هؤلاء الذين أنكروا بعقولهم وقلوبهم وجوارحهم المعجزة العظيمة، كل الذي طلبوه أقل من معجزة القرآن الكريم، لكنهم لا يريدون أن يؤمنوا، يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ} [الحجر:14]، أي: لو أخذناهم وأريناهم السماء والأفلاك والمجرات والجنة والنار {لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر:15]. هكذا يفعل الكفار وأهل الباطل دائماً في حربهم للمسلمين.

السخرية والاستهزاء بالمؤمنين

هذه وسيلة من أقبح وسائل أهل الباطل في حرب الإسلام والمسلمين: هي السخرية والاستهزاء بالمؤمنين. لم يصبح هناك منطق ولا عقل ولا حجة {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ} [المطففين:29 - 33]. كان الرسول ﷺ إذا جلس وجلس حوله المستضعفون من المسلمين، قال المشركون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟! هكذا سخرية بدون حجة وبدون دليل، وإذا دخل عليهم فقراء المسلمين، قالوا: هؤلاء ملوك الأرض، لأن الرسول ﷺ كان يقول لأهل مكة: قولوا كلمة واحدة -لا إله إلا الله، محمد رسول الله -تملكوا بها العرب والعجم. فيقولون: هؤلاء هم ملوك الأرض الذين سيملكون العرب والعجم.

جلس عقبة بن أبي معيط لعنه الله مرة إلى النبي ﷺ يسمع منه، فرآه أُبي بن خلف فظن أنه آمن، فذهب بعد ذلك يقول له: أنت آمنت، قال: لم أؤمن؟ فلم يصدقه، وقال له: حتى تثبت لي أنك لم تؤمن بدعوة محمد ﷺ لابد أن تبصق في وجه محمد، فقام عقبة لعنه الله وذهب إلى رسول الله ﷺ وبصق في وجهه! هكذا فعلوا مع أحب الخلق إلى الله عز وجل، لكن الوضع مع رسول الله

ﷺ ومع المسلمين بصفة عامة أن ازدادت حركة الدعوة في مكة، وازداد عدد المسلمين، وشعر المشركون بأن الموضوع سيخرج من أيديهم، فقدموا التنازلات، وبدءوا بعمل مفاوضات مع رسول الله ﷺ، وحاولوا أن يلتقوا في منتصف الطريق كما يقال: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:9]، قدموا اقتراحين للرسول ﷺ: أما الأول فقد كان سفيهاً من حكماء قريش، قاموا بما يسمى بالعبادة المشتركة فقالوا: هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر؛ أنت تعبد هبل واللات والعزى، ونحن أيضاً نعبد إلهك في نفس الوقت، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منها. هذا مفهوم مغلوط وسطحي عن الألوهية أن أعبد عشرة أو عشرين إلهاً، وهذا تفكير طفولي من حكماء قريش.

الاقتراح الثاني كان على نفس المستوى من السطحية، فبعض المشركين تقدموا إلى رسول الله ﷺ: أن يكون هناك ما يسمى بعبادة التناوب، أي: نعبد إله محمد سنة، وهو يعبد إلهنا سنة، فنزل قول الله عز وجل يقطع الطريق تماماً على هذه المفاوضات الطفولية، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون:1]، المرة الوحيدة التي قال الله عز وجل فيها: (الْكَافِرُونَ)، ليقطع السبيل على كل كافر يساوم المؤمنين على أمر العقيدة {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:1 - 6]، بذلك أغلق الباب على هذه المفاوضات الهزلية، والدعوة تزداد، والمسلمون يتكاثرون.

وسيلة التعذيب الجسدي

لم تجد قريشاً حلاً إلا أن تلجأ إلى السلاح المعتاد في أيدي أهل الباطل، إذا وجدوا صلابة في الصف المؤمن، ألا وهو سلاح الإيذاء والتعذيب والتنكيل، سبحان الله، ووالله ما هو إلا

سلاح الضعفاء، وهناك من يظن أن من معهم السلاح أقوى من المسلمين، لا، بل هم الضعفاء؛ فهم يختفون وراء سيوفهم وسياطهم ودروعهم، ويخفون معهم ضعفاً شديداً في نفوسهم، يخفون ضعف العقيدة والإيمان والحجة والبرهان، وضعف الشخصية والحكمة والرأي، وضعف الأخلاق والضمير. التعذيب والظلم والإجرام منطق من لا منطق له.

وأنا في حيرة من أمري: كيف لإنسان أن تقبل نفسه أو فطرته أن يرى إنساناً يعذب أمامه، بل ويشارك في التعذيب أو يأمر به؟ أي طبيعة وأي شخصية داخل هذا الإنسان؟ ما شكل قلبه؟ كيف انحطت البشرية إلى هذا المستوى المتدني من فساد الفطرة، الإنسان السليم لا يستطيع أن يرى حيواناً يتألم، فكيف بإنسان يلهب ظهره بالسياط؟ كيف لإنسان أن يحبس إنساناً بلا جريرة أياماً وشهوراً، بل وسنوات، والإسلام قد حرم على المسلم أن يحبس هرة؟ مع كل التداعيات الخطيرة التي تحدث لأسرته ولزوجته ولأولاده ولأمه وأبيه دون ذنب أو خطأ؟ ليس لهم جريمة إلا كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم يصف حال الكافرين مع المؤمنين: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج:8]، أي: مشكلة المؤمنين أنهم آمنوا بالله عز وجل، فقست قلوب الكافرين، وانطلقوا يفترسون المؤمنين والمؤمنات. {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة:74]، هذه نقطة سوداء في تاريخ البشرية حصلت في مكة، وما زالت تتكرر فيمن بعدهم وإلى يوم القيامة.

مرّ بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاه بسلسلة مضنية من التعذيب، كان أُمية بن خلف عليه لعنة الله يعذبه، تعذيباً معنوياً وبدنياً لا ينقطع، فقد كان أمية يضع في عنقه حبلاً ثم يأمر أطفال مكة أن يسحبوه في شوارع وجبال مكة، ولم يكن هذا لمدة يوم أو يومين، بل كان لفترات طويلة إلى أن ظهر أثر الحبل على عنق بلال رضي الله عنه وأرضاه، وكان أمية يمنع عنه الطعام، ويغدو به إلى الصحراء في مكة، ويضعه على الرمال الملتهبة في صحراء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة

لا يقوى على حملها إلا المجموعة من الرجال فتوضع على صدر بلال، وهو يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، لكن بلالاً رضي الله عنه وأرضاه صبر، وكان كثيراً ما يكرر: أحد أحد. ولما سئل: لماذا هذه الكلمة بالذات؟ قال: كانت أشد كلمة على الكفار، فكان يريد أن يغيظهم بها. فصبر بلال رضي الله عنه وأرضاه وما بدل وما غير، إلى أن اشتراه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم أعتقه بعد ذلك، ومرت الأيام ونسي الألم، لكن يبقي الأجر، واحفظوا هذه الجملة: يذهب الألم ويبقى الأجر. كل شيء يذهب، الدنيا كلها تذهب، لكن يبقى الأجر والثواب.

ياسر وسمية رضي الله عنهما والدا عمار بن ياسر رضي الله عنهم عذبا تعذيباً شديداً، وكان أبوجهل عليه لعنة الله يعذبهما مع عمار بنفسه، وزاد العذاب فوق الحد، إلى أن وصل الأمر أن قتل ياسر وسمية رضي الله عنها في بيت الله الحرام، وما ذنبهم حتى يعذبوا إلى أن يموت الأبوان، ليس لهم أي ذنب إلا إنهم أناس يتطهرون، وذنبهم أنهم يريدون الخير لهم ولكم وللمجتمع وللأرض كلها، وأنهم أناس صالحون يريدون أن يعبدوا ربهم بالطريقة التي شرعها الله، لكن {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج:46]، قُتِل ياسر وقتلت سمية، لكن من الذي انتصر في النهاية؟ القاتل أو المقتول؟ سيأتي يوم عظيم، {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين:6]، في هذا اليوم سيأتي الذين عذبوا المسلمين على مر العصور، ويغمسون غمسة واحدة في نار جهنم، وسينسى هؤلاء الهمجيون سعادة الدنيا جميعاً بغمسة واحدة، فما بالك بالخلود في جهنم مع العذاب الشديد، وفي ذات اليوم سيأتي أيضاً بلال وياسر وسمية ومن سار على نهجهم، أولئك الذين عذبوا في سبيل الله عز وجل، سيأتي هؤلاء وسيغمسون غمسة واحدة في الجنة، وسينسى المؤمنون شقاء الدنيا جميعاً، أي جهل وغباء وحماقة يعاني منها أولئك المعذبون لغيرهم؟ {أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ

عَظِيمٍ} [المطففين:4 – 5]. {فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون:115]، في أي شرع وملة وقانون يعذب الإنسان للاعتراف بشيء ما، سواء فعله أو لم يفعله؟ لكن هذا الذي كان يحصل في مكة، وهذه سنة أهل الباطل.

وهذا خَبّاب بن الأرَتّ رضي الله عنه وأرضاه صورة مشرفة من صور الإنسان، كان المشركون يربطون حبلاً في شعره ويجرونه في شوارع مكة، كانوا يوقدون الفحم الملتهب ويضعون خبّاباً رضي الله عنه فوقه، حتى إن ظهره كان فيه حفر كثيرة من الفحم الملتهب الذي كان ينام عليه، وصبر خباب وتحمل، وما بدل وما غير.

نعم إن الطريق طويل وشاق، لكن احفظوا هذه الجملة مرة أخرى: يذهب الألم ويبقى الأجر إن شاء الله.

نتائج الابتلاء في العهد المكي وفي كل عهد

ما حصل في مكة ليس غريباً؛ لأن حرب الحق والباطل سنة من سنن الله عز وجل، ستبتلى الأمة المؤمنة بصفة عامة، وسيبتلى كل فرد من أفرادها بصفة خاصة، لن يكون هناك أي استثناء، يقول الله تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت:2]، لابد من ابتلاء ولابد من فتنة؛ حتى تحدث ثلاثة أشياء مهمة نتيجة هذا الابتلاء: تنقية وتربية وتزكية.

الأمر الأول: التنقية،

تنقية الصف المسلم، ما أسهل أن يقول المرء بلسانه: آمنت وصدقت وأيقنت، لكن ما أصعب العمل، لابد من اختبار وإيذاء الدعاة والملتزمين بنهج الله عز وجل ونهج رسوله الكريم، هذه سنة ماضية لتنقية الصف المؤمن من المنافقين {فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}

[العنكبوت:3]، وإلا لقال كل الناس: نحن مسلمون، نحن مجاهدون في سبيل الله، لكن لابد من ابتلاء حقيقي وشديد.

الأمر الثاني: التربية،

يريد ربنا سبحانه وتعالى لهذه الأمة أن تقود العالمين، وقيادة العالمين تحتاج إلى طراز فريد من البشر لا يهتز أمام العواصف، والابتلاء برنامج تدريبي متدرج للمؤمنين، يرتفع بمستوى المؤمن يوماً بعد يوم، وكلما عظمت مهام المؤمن ازداد بلاؤه؛ ليزداد إعداده كالذهب كلما اصطلى بالنار كان أنقى، وهكذا المسلم الصادق يخرج من الابتلاء أقوى وأعظم. هذه أشياء رأيناها في التاريخ، ورأيناها في الواقع، وستظل إلى يوم القيامة سنة من سنن الله عز وجل.

الأمر الثالث: التزكية،

التزكية هي التطهير من الذنوب والخطايا، أحيانًا يحب ربنا إنساناً ويريد أن يرفع درجته، وهذه الدرجة لا يبلغها بعمله، فيبتليه سبحانه وتعالى فيصبر، فيبلغ الدرجة العالية: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)، إذا كانت الشوكة تعمل هكذا، فما بالك بالضرب والجلد والحبس والتعذيب. هذا كله مصلحة للمؤمنين. تنقية للصف المسلم، وتربية للصف المسلم، وتزكية للصف المسلم، لابد لها من ابتلاء، وسيظل الابتلاء إلى يوم القيامة.

أسباب صبر الصحابة على الأذى في العهد المكي

كانت السمة المميزة لجميع الصحابة: الصبر على الأذى وتحمل الاضطهاد في سبيل الله، ورسول الله ﷺ لم يأمر المسلمين أن يردوا عن أنفسهم ذلك الأمر؛ للأمر الصريح من الله عز وجل: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام:106]، وكان المشركون يعذبون ويشردون

ويذبحون والمسلمون صابرون، بل أمروا ألا يردوا إيذاء، ولا يحملوا سلاحاً، ولا يرفعوا ضيماً، ولا يكسروا صنماً، ولا يسبوا مشركاً، {وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام:108]، قُتل ياسر وقتلت سمية والرسول ﷺ يمر من أمامهم وهم يقتلون فيكتفي بقوله: (صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة)، ولم يمسك بيد أبي جهل ولم يجمع الصحابة ليقوموا بثورة أبداً. نحن نريد أن نقف هنا وقفة؛ كيف تعلم الصحابة الصبر؟ كيف يمكن لرجل يوضع على النار ويحرق أن يتحمل كل هذه الآلام ولا ينتقم لنفسه، وهو في الأخير جسد وعظم ودم ولحم وروح مثل كل الناس؟!

نحن لا ندرس السيرة من أجل أن نحكي حكايات لطيفة عن جيل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، لا، بل نحن ندرسها حتى نفهم كيف وصلوا إلى هذا المستوى؟ ونعرف كيف نقلدهم؟ هناك طرق سلكها الرسول ﷺ حتى يعلم الصحابة، فدين الإسلام ليس فيه ضلالات أو أوهام، فكل شيء فيه واضح. سأخبركم عن بعض الأساليب والأسباب التي جعلت الصحابة ومن بعدهم يتحملون هذه الآلام المضنية في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة:

1. تعظيم قدر الله في قلوب المؤمنين

السبب الأول في زرع الصبر في قلوب المؤمنين: تعظيم قدر الله عز وجل. لو كنت معظماً قدر الله سبحانه وتعالى في قلبك لا يمكن أن يهمك كل ألم يمر بك هذه الآلام؛ لذا تجد القرآن المكي يتكلم كثيراً عن تعظيم قدر الله عز وجل، يتحدث عن صفات الله عز وجل، عن جبروت الله عز وجل، عن عظمة الله عز وجل، عن قدرة الله عز وجل، عن أن الله عز وجل بيده كل شيء ولو كان سيصيبك ضر لابد أنه سيصيبك، ولو اجتمع أهل الأرض لحمايتك فلن ينفعوك، وعلى العكس لو أراد بك الرحمة لابد أن تحدث، وإن اجتمع أهل الأرض ليمنعوك منها، يقول

الله في سورة الأنعام المكية: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام:17]، لو كنت فعلاً مصدقاً بهذه الكلمات ستعرف أن نصيبك من الألم ستأخذه؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى هو الذي أراد أن يقع بك ذلك الألم، فلابد أن يقع، {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:17 – 18].

كل واحد مكتوب عليه نصيبه من الألم من ظالم أو مظلوم، كافر أو مؤمن، وإن لم يعذب في سبيل الله فسيعذب بصورة أخرى، من وجع في ضرسه، وسرطان في جسمه، وكسر في رجله، وصداع في رأسه، {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ} [آل عمران:196]، قد يكون نصيبه من الألم معنوياً، وهو أشد من الألم المادي، لعل له ابناً فاشلاً يشرب المخدرات أو يكون عاقاً لوالديه، أو منعدم الأدب، أو زوجته تكون سبباً لتعاسة حياته، أو رئيسه يهينه كل يوم يعيش في تعاسة وشقاء، حتى لو كان أمام الناس تبدو عليه السعادة وممكن له في الأرض فهو في معيشة ضنكاً. كل الناس تحس بالألم، {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [النساء:104]، لكن المسلم يتعذب كل هذا التعذيب وهو منتظر الجنة في الآخرة، لكن الظالم مسكين يتعذب في الدنيا بالطريقة التي يريدها ربنا سبحانه وتعالى، وفي الآخرة يعذب في جهنم، عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، فلماذا لا يصبر المؤمن؟!

المؤمن عندما يعظم قدر ربنا سبحانه وتعالى يستسهل التضحية من أجل الله عز وجل؛ لأنه يعلم أن كل شيء بيد الله سبحانه وتعالى، وأن كل شيء قدره الله عز وجل لابد أن يحدث وأن يتحقق، سواء كان نعمة أو مشقة.

2. رفع قيمة الآخرة في قلوب المؤمنين

قيمة الآخرة في عيون المؤمنين أسلوب من أروع الأساليب في تربية الصف المؤمن على التحمل والجلد والصبر، وتوسيع مدارك المسلم، وليعلم المقياس الحقيقي بين الدنيا بكل ما فيها من مصاعب ومشاق وألم وعمل، وبين الآخرة وما فيها من خلود، إذا أدرك الناس أن هناك يوماً ما سيحاسبون فيه على ما يعملون، وكان هذا العلم علماً يقينياً، وأدركوا أن الذي سيحاسبهم هو إله قادر عليم حكيم جبار قاهر سبحانه وتعالى، فإنهم ولاشك سيعملون له؛ لأجل ذلك قال الرسول ﷺ في أول يوم لدعوته للناس (والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن على ما تعملون، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً). نحن أحياناً نعاني من خلل تربوي خطير، وهو أننا لا نركز على رفع قيمة الآخرة في عيون المؤمنين، راجع القرآن المكي؛ لتعرف طبيعة المرحلة، إذا كانت الدعوة مضطهدة، والظلم مستفحلاً والأعداء كثر، فلابد من التركيز على رفع قيمة الآخرة في عيون المسلمين. كما تحدث القرآن المكي عن الجنة؟ لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن المكي من التذكير بالجنة والتذكير بالنار. عش في الجنة التي كان يعيش فيها الصحابة وهم لا يزالون في الدنيا، يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان:12]، أنا أريدك أن تتخيل أحد الصحابة وهو في بيت الأرقم بن أبي الأرقم يسمع هذه الآيات والتعذيب ينتظره في الخارج، كم سيكون حجم التعذيب بالنسبة للذي يسمعه عن وصف الجنة؟ لا شيء، إذا قورن أي ألم بالخلود في النعيم سقط {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ

رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان:12 – 22]. تخيل مؤمناً يسمع هذه الآيات ويعيش فيها، ثم يأتي عدوه ليعذبه ويحرمه جرعة الماء، أو الظل، أو يجلده أو يصلبه أو يقتله، ما الضير في ذلك؟ أليس منتقلاً من هذه الحياة بهمومها ومتاعبها إلى تلك الجنة العظيمة الخالدة؟!

اسمع آيات القرآن الكريم المكي بهذا المفهوم، بأذن الصحابي الذي يعذب، لم يكن للتعذيب عندهم أي قيمة، هنا ستفسر لك أشياء غريبة على أسماعنا، مثل: موقف حرام بن ملحان رضي الله عنه وأرضاه لما طعن بالرمح في ظهره فخرج من صدره فقال: فزت ورب الكعبة. أي فوز فازه هذا وقد مات، وفقد كل شيء في عرف أهل الدنيا؟ هو يعتبر نفسه فائزاً؛ لأنه سينتقل من أرض الجهاد إلى الجنة مباشرة، مات شهيداً، وقد وعد الله الشهيد بأن يدخله الجنة بغير حساب. لماذا لا يقول: فزت ورب الكعبة؟ نفهم من هذا أن تعظيم قيمة الآخرة يصبر المؤمنين لا محالة على كل ألم وأذى ومشقة في سبيل الله عز وجل.

3. دراسة التاريخ

السبب الثالث في تربية المسلمين على الصبر: هي دراسة التاريخ. التاريخ يكرر نفسه، ودراسته تعرض صوراً واقعية من الماضي لأناس عاشوا في نفس الظروف التي عشت أنت فيها؛ لأنها حرب واحدة بين الحق والباطل، علو للباطل في فترة من الفترات، تعذيب وتشريد وقتل وإبادة لأهل الحق، وصبر وجلد وتحمل وعزيمة من المؤمنين، ثم في النهاية انتصار للحق وتمكين له، وهزيمة للباطل وهلاك له. صورة متكررة في كل صفحات التاريخ، سنة من سنن الله عز وجل.

راجع القرآن المكي لتجد قصصاً لا حصر لها، لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن المكي من قصة أو إشارة إلى قصة من هذا النوع، وتصور أنك تسمع مع الصحابة من ضمن الأمثلة الكثيرة التي ضربها الله عز وجل لصحابة رسول الله ﷺ في فترة مكة، يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:4]، هذه درجة عظيمة من الألم والإيذاء، حتى هذا لم يحصل مع الصحابة، لا يوجد أحد قتل أبناء الصحابة الرضع مثل ما كان يفعل فرعون لعنه الله، ومع هذه الصورة من الألم، تأتي صورة أخرى من التسلية، يقول الله: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص:5]، بعد كل هذا الألم والاضطهاد يريد الله عز وجل أن يمكن للمستضعفين، {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص:6] إلى آخر الآيات.

نفس الصورة تكررت في مكة وتتكرر إلى يوم القيامة، فإذا كان الصبر سيتكرر فإن التمكين لا محالة سيتكرر؛ لأن الذي يعد هو ربنا سبحانه وتعالى وهو قادر على كل شيء. دراسة التاريخ وتحليله وفقهه أمر في غاية الأهمية لتربية الصف المؤمن على الصبر، ووضع لأيديهم على كل مفاتيح النصر الحقيقة.

4. زرع الأمل والثقة في نفوس المؤمنين بوعد الله بالنصر والتمكين

السبب الرابع: زرع الأمل في نفوس المؤمنين: إذا أحبط الإنسان فلا أمل في صبره ولا نصره ولا تمكينه، يقول سبحانه: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:128]. لابد من صبر حتى يكون هناك تمكين، فربنا سبحانه وتعالى حتى يعلم المسلمين الصبر يريهم الأمل، وأن الأرض ستكون لهم.

هذه من أهم النقاط التربوية في تمكين المؤمنين من الصبر، وبها نفهم موقف الرسول ﷺ لما أتاه خَبّاب بن الأَرَتّ رضي الله عنه وأرضاه بعدما اشتد بهم التعذيب، أتى يطلب من الرسول ﷺ أن يدعو للمسلمين أن يرفع الله عز وجل عنهم هذه الغمة. يقول خباب: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ خباب لم يعد يتحمل، فقد عُذِّب تعذيباً أليماً، كان يكوى رأسه بالنار، ويوضع على الفحم الملتهب، فطبيعي بالنسبة لرجل مر بكل هذه التجارب الأليمة أن يذهب إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الدعاء والاستنصار برب العالمين، وقد كان رد الرسول ﷺ على غير ما نتوقع، فقد غضب رسول الله ﷺ حتى ظهر ذلك في وجهه، يقول خباب كما جاء في البخاري: (فقعد رسول الله ﷺ وهو محمر وجهه، وقال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض حفرة فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

من المؤكد أن غضب الرسول ﷺ في هذا الموقف لم يكن لمجرد طلب الدعاء، بل إن المؤمنين مطالبون بالدعاء في مثل هذه المواقف، لكن الذي حدث أن رسول الله ﷺ شعر أنه قد بدأ ييأس ويفقد الأمل، لذا غضب رسول الله ﷺ ولم يخرجه غضبه عن أسلوبه التربوي الراقي، وذكر له أكثر من طريق ليعلمه بها:

الطريق الأول: أنه ربى بالتاريخ، وذكر له أحداثاً من التاريخ، فالمؤمنون من قبله قد مروا بما هو أشق، والناس عادة تصبر على مصائبها إذا رأت أن غيرها قد ابتلي بمصائب أشد.

الطريق الثاني: أنه زرع الأمل في قلبه وبيقين كامل، (والله ليتمن هذا الأمر)، فاطمأن أنه في يوم من الأيام سيمكن الله عز وجل لدينه.

الطريق الثالث: التذكير بالله عز وجل والتعظيم لقدره فلا يخاف إلا الله، كما قال: (لا يخاف إلا الله).

الطريق الرابع: أن يأخذ بالأسباب، يقول: (والذئب على غنمه)، ليس معنى التوكل على الله عز وجل أنك لا تأخذ بالأسباب، لا، فما زالت السرية موجودة، وما زال الصبر موجوداً، وما زالت الدعوة إلى الله عز وجل موجودة، فلننتظر التمكين.

النتيجة أن خَبّاباً رضي الله عنه وأرضاه ثبت ولم يتزعزع، ولم يبدل ولم يغير، ثم لم يستعجل بعد ذلك. الدرس الذي نأخذه من هذا الموقف: أنك لو وصلت إلى هذه الدرجة من الإيذاء فلا تستعجل، إذ لابد وأن يمكن الله عز وجل لهذا الدين.

5. العلم والقراءة

هناك أسباب أخرى للتربية والصبر استخرجتها من أوائل السور التي نزلت على رسول الله ﷺ في مكة، وفيها تعليم للرسول ﷺ وأصحابه أن يصبروا على هذا الطريق الطويل، ففي سورة المدثر يقول الله: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر:7].وفي سورة المزمل: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [المزمل:10].

من هذه الأسباب: العلم والقراءة كما في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:1]، فمن يعرف أكثر سيصبر أكثر، والقراءة ليست هواية، بل لابد أن تقرأ حتى تتعلم وتصبر؛ لأنه من غير القراءة لا يمكن أن تحصل على العلم، ودروس العلم مهما كثرت لن تعطيك إلا جزءاً ضئيلاً من العلم الذي يفترض بك أن تحصله، فلابد أن نقرأ ونعلم أولادنا القراءة، ونعلم إخواننا وكل مسلم حريص أن يصبر ويقرأ ويتعلم.

6. قيام الليل

من الأسباب: قيام الليل، {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل:2 – 4]، لن يصبر المرء إذا لم يتعود على قيام الليل؛ لذلك فرض قيام الليل سنة كاملة، ولما نزل التخفيف ما تركه أحد منهم؛ لأنهم تعلموا في هذه المدرسة: إذا أردت أن تصبر فعليك بقيام الليل.

7. قراءة القرآن

{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل:4]، القرآن زاد لا يستطيع المسلم أن يصبر بدونه.

8. الذكر

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل:8]، أيضاً الذكر زاد لكل مسلم، وأي مسلم يريد أن يصبر لابد أن يذكر الله عز وجل ذكراً كثيراً، كما يقول سبحانه وتعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [الأحزاب:35]، {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال:45]، فكلما ذكرت ربنا سبحانه وتعالى أكثر عودك على الصبر بصورة أكبر.

9. ترك المعاصي والذنوب

من الأسباب: ترك المعاصي والذنوب: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر:5]، الغارق في المعاصي كيف يمكن أن يصبر.

10. الأخوة في الله

من الأسباب: الأخوة في الله عز وجل: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الكهف:28]، عندما تجد أناساً معك يمشون في نفس الخط فهذا سيقوي قلبك على الصبر.

هذه أمور تعين على الصبر، وهي:

- تعظيم قدر الله عز وجل في القلب.
- تعظيم الآخرة.
- دراسة التاريخ.
- زرع الأمل في نفوس المؤمنين.
- العلم والقراءة.
- قراءة القرآن.
- قيام الليل.
- الذكر.
- ترك المعاصي والذنوب.
- الأخوة في الله عز وجل.

تلك عشرة كاملة، تحفظ؛ إذ ليس هناك صبر من غيرها.

الحكمة الإلهية من عدم القتال في العهد المكي

قد يقول قائل: لماذا أمر الله عز وجل المسلمين بالكف عن القتال في مكة؟ ولماذا تحملوا الألم دون رد أو تغيير؟ يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام:106]. الحكمة الكاملة من وراء ذلك المنع لا يستطيع البشر أن يتوصلوا إليها، لكننا سنبحث فيما نعتقد أنه السبب أو الحكمة، حتى نتعلم كيفية العمل في الظروف المشابهة.

1. التربية على نوع جديد من الصبر

الحكمة الأولى من كف المسلمين عن القتال: التربية على نوع جديد من الصبر، لن يتعلمه المسلمون إلا في مثل ذلك الوضع. الصبر أنواع كثيرة، والعربي بصفة عامة صبور، يصبر على الجوع، والحر، والفقر، وطول السفر، والآلام، والحروب، إلا أنه لا يصبر على تحمل الظلم، فله طبيعة ثائرة لا ترضى بالضيم والجور، يثور ولو ضاعت حياته، لكن الآن أصبحت لدى المؤمنين أبعاداً أخرى أعمق من متطلبات الفرد، وأصبح من أهداف المؤمن أن يقيم أمة ودولة

ومجتمعاً، ولا يستقيم للفرد أن ينظر إلى مصلحته الشخصية، بل يجب أن ينظر إلى مصلحة المجموع، وربنا سبحانه وتعالى يأمرهم ألا ينظروا إلى حظ نفوسهم، ولكن لصالح الأمة والجماعة، لأنه لا يمكن لأمة أن تقوم وأفرادها يقدمون مصالحهم الشخصية على مصالحها، فيتحتم عليهم الكف عن القتال، حتى يتربى المسلمون على هذا النوع الجديد من الصبر.

2. التربية على الطاعة لقيادة هذه الأمة الناشئة

الاختبار الحقيقي للطاعة هو أن تطيع دون جدل ولا ضجر ولا اعتراض، في أمر لا تهواه نفسك في غير معصية للخالق سبحانه وتعالى، هذا هو المقياس الحقيقي للطاعة، كما حصل من خباب مع رسول الله ﷺ، فـ خباب رأى أن استعجال النصر مصلحة في ذلك الوقت، فذهب إلى رسول الله ﷺ يطلب منه ذلك، فأوضح له رسول الله ﷺ الأمر، وبين له ضرورة الصبر.

حينها سمع وأطاع وكف اليد وقبل الأمر، وتعلم شيئاً في منتهى الأهمية للجماعة وهو الطاعة لولي الأمر، لا جماعة بغير إمرة، ولا إمرة بغير طاعة، ومن غير هذا الجو من التعذيب والأمر بالصبر عليه لن يتعلم المسلمون الطاعة في مشوار حياتهم مع الرسول ﷺ وبعده. تربية المسلمين على الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ، أو لأي قائد ما لم يأمر بمعصية لله عز وجل.

3. الدعوة السلمية في هذه البيئة كانت تعطي نتائج أفضل

الحكمة الثالثة في كف المؤمنين عن القتال في مكة: أن الدعوة السلمية في هذه البيئة كانت تعطي نتائج أفضل. ولبيان هذا الأمر نطرح سؤالاً: هل الغرض في النهاية هو حكم مكة أم إسلام مكة؟ الغرض إسلام مكة، ولا يهم من الذي سيحكمها بعد ذلك، المهم يحكمها بكتاب ربنا سبحانه وتعالى وبسنة الرسول ﷺ، كما أن هذه البيئة المكية ألفت العنجهية والشرف والعلو والعزة، ولو فرضت عليها الرأي بالقوة لن تقبله، وسيحدث صراع مبكر بين المؤمنين

والكافرين، وسيرفض الكافرون الدخول في هذا الدين عناداً، فهم يعاندون لضعف المسلمين، فكيف لو فرضوا عليهم الرأي بالقوة؟!. لابد للداعية أن يدرس نفسيات من يدعوه من الناس، فمنهم من يتأثر بمظاهر الرحمة في الداعية، ومنهم من يتأثر بذكاء عقله، أو بقوة بدنه، ومنهم من يتأثر بلطفه وأدبه، وهكذا خلق الله عز وجل الناس مختلفين، ولابد للداعية أن يتعامل مع كل هذه النوعيات، ويراعي ظروف المدعو، وظروف البيئة التي يعيش فيها.

4. تجنب الفتنة

الحكمة الرابعة في كف المؤمنين عن القتال في مكة: تجنب الفتنة الخطيرة التي ستحدث في مكة وتؤدي إلى سمعة سيئة بالإسلام، وإلى الفتنة العظيمة، ولم يكن في أرض مكة حكومة مركزية تقوم بتعذيب الناس، بل تكفل كل زعيم بأتباعه، تكفل الوالد بولده، وشيخ القبيلة بأفراد قبيلته، والسيد بعبده، فمثلاً: مصعب بن عمير عذبته أمه، وعثمان بن عفان عذبه عمه، وخباب بن الأرت عذبته سيدته وهكذا، فلو قاتل المؤمنون دفاعاً عن أنفسهم، فإنهم سيقاتلون آباءهم وأعمامهم وقبائلهم، وفي هذا الموقف ما الذي سيقال عن الإسلام؟ إذا كان الكفار قد ادعوا أن الإسلام يفرق بين الولد ووالده، وبين الرجل وعشيرته، وبين المرء وزوجه من دون قتال، فكيف لو كان هناك قتال؟!. كانت هناك حاجة ملحة لتجنب الفتنة الكبيرة في داخل مكة، وللحفاظ على الصورة الجميلة للإسلام، وهي الصورة الواقعية لهذا الدين العظيم.

5. كثيراً من أهل الكفر سينتقلون بعد ذلك الإيمان

الحكمة الخامسة في كف المؤمنين عن القتال في مكة: أن الله عز وجل يعلم أن كثيراً من أهل الكفر سينتقلون بعد ذلك من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان، فالدعوة ما زالت في مهدها، ولم تأخذ الفرصة الكافية للوصول إلى قلوب الناس، وكثير منهم سيعترض في البداية ويتشدد،

ثم لا يلبث أن يتبدل الأمر في أعينهم، من هؤلاء عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل، فكل هؤلاء أصبحوا بعد ذلك قادة يأخذون الإسلام إلى كل ربوع الأرض، فلو حصل القتال في أول فترة مكة لخسر الإسلام هؤلاء وأمثالهم.

6. الاعتماد على نخوة أهل الجزيرة

أن النخوة التي كانت في قلوب كثير من العرب كانت تتأثر بصورة المظلوم الذي لا يستطيع رفع الظلم عن كاهله، فيتحرك العربي في شهامة ليرفع الظلم الذي يقع على المسلمين، مثل ما وقع في القصة إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فهو صورة من صور النخوة التي تحركت نتيجة الظلم الشديد الذي وقع على رسول الله ﷺ، وكذلك الجوار الذي عرضه ابن الدُغُنَّة على الصدِّيق لما أحس بأنه ظلم، فجاء وهو مشرك ليعرض الجوار على الصديق رضي الله عنه وأرضاه، كذلك الصحيفة التي نقضها المشركون أنفسهم بعد ثلاث سنوات من المقاطعة، كانت صورة من صور النخوة نتيجة الظلم الشديد الذي وقع على المسلمين.

7. عدم الإصطدام بالنواميس الكونية

حتى لا يصطدم المسلمون بالنواميس الكونية؛ النار تحرق، ولذلك فالمسلمون أو الناس بصفة عامة لا يلقون بأنفسهم فيها. من النواميس الكونية أيضاً: أن الذي يسقط في ماء عميق وهو لا يتقن السباحة يغرق، لذلك فالناس لا يتهورون بالنزول في ماء عميق دون إجادة للسباحة.

من النواميس الثابتة أيضاً: أن للباطل قوة، ولا يستقيم للمؤمنين أن يقولوا: إن الله معنا ونحن على الحق، ثم يلقون بأنفسهم في حرب خاسرة، ظناً منهم أنهم لا محالة سينتصرون، نعم، هم عباد الله وجند الله، ولابد أن ينتصروا، ولكن الإسلام دين واقعي عملي يقيس بدقة قوة الباطل، ويقدر القوة الكافية لردها، ويضع الخطة المناسبة للنصر، ويهيئ الصف الكفء

للقتال، ثم يتوكل على الله عز وجل ويعتمد عليه ويقاتل؛ فالإسلام دين يحترم الأسباب، ولو قام المؤمنون بثورة في مكة ما الذي سيحدث؟ سيقتلون رجلاً أو اثنين أو عشرة أو مائة من قريش، وبعد ذلك سيبادون عن آخرهم، نعم، الموت في سبيل الله غاية، لكن المؤمن لا يموت بغير ثمن، إن لم يغلب على الظن التمكين أو إحداث النكاية في العدو فلا معنى للقتال، والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والقياسات المادية التي قدرتها قيادة المسلمين أن الوقت غير مناسب للقتال، ليس جبناً ولا ضعفاً ولكن حكمة وتدبيراً، وسيأتي يوم تأخذ فيه قيادة المسلمين قرار القتال في بدر وما بعد بدر، لكن المسلمون لا يتسرعون النتائج، ويدركون حقيقة ما يسمى بفقه المرحلة، يدرسون الظروف بإحكام، يضعون الخطة، ويطلبون المدد من الله عز وجل، ثم يقومون بما يناسب المرحلة، وقد يناسبها الكف عن القتال، أو دعوة سرية أو جهرية أو معاهدات ومفاوضات، أو جهاد واستشهاد، وقد مر الرسول ﷺ بكل هذه المراحل، ووضع لنا منهجاً دقيقاً نتبعه، لم يترك لنا موقفاً إلا وبين كيف نتعامل معه طبقاً لنواميس الكون لشرائع الإسلام. فالرسول ﷺ لم يكن مجرد رجل حكيم عبقري، لا، بل رسول من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، ناقل لما أراده الله عز وجل منا في كل موقف؛ لذلك نحن ندرس حياة الرسول ﷺ.

8. القتال لم يكن ضرورة ملحة

الدعوة كانت تسير في مكة بمشقة وبصعوبة، ولكنها في النهاية تسير، والرسول ﷺ يخاطب الناس وهو تحت حماية سيوف بني هاشم، فـأبو طالب جعل الرسول ﷺ قضية حياته، وكرس كل جهده لرد الكيد عنه، فلماذا لا يستغل المسلمون هذه الظروف إلى أن يأتي يوم آخر تتغير فيه الظروف، أو يموت فيه أبو طالب عندها ستتغير المرحلة؟. لم يكن هناك ضرورة للقتال، وعندما تكون هناك ضرورة لابد أن يقاتل المسلمون.

9. الحفاظ على سرية إيمان المسلمين الذين يخفون إسلامهم

الحكمة التاسعة لكف المؤمنين عن القتال في مكة: هي أنه لو حدث قتال لاضطر المسلمون إلى كشف كل أوراقهم، وسيظهر كثير من المؤمنين الذين لم يعلم إيمانهم بعد، والمرحلة لا تتطلب ذلك، هذه المرحلة كانت تتميز بجهرية الدعوة لرسول الله ﷺ وللقليل من الصحابة ممن لهم منعة، مثل: أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه أو غيره، لكن عموم المسلمين لا يعلنون عن أنفسهم، ولو حدث القتال في أوائل فترة مكة لاكتشف أمر دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، ولما استطاع المسلمون أن يحادثوا الأفواج التي تأتي إلى مكة وقت الحج، ولما استطاع المؤمنون أن يغادروا مكة إلى غيرها أو يدخلوا إليها، وستوضع على المسلمين قيود شديدة ستؤخر الدعوة لا محالة. متطلبات هذه المرحلة أن يكف المسلمون اليد عن القتال؛ حتى لا يؤدي ذلك إلى كشف كل أوراق المسلمين في وقت يحتاجون فيه إلى التكتم الشديد.

10. إظهار قدرة الله عز وجل وقوته

الحكمة العاشرة: إظهار قدرة الله عز وجل وقوته وعزته وحكمته سبحانه وتعالى، ظهر أمام الجميع في مكة وما حولها في زمانهم وفي الأزمان التي تلت كيف كان المؤمنون ضعفاء. وظهر واضحاً كيف أن القلة المؤمنة لا تملك مقومات الرد المادية فضلاً عن مقومات الانتصار، ثم ستظهر بعد ذلك آيات عجيبة لا تخطر على عقول البشر، سيدبر الإله الحكيم لأوليائه، فإذا بالضعف يتحول إلى قوة، وإذا بالذل يتحول إلى عزة، وإذا بالخوف يتحول إلى أمن، وإذا بالتعذيب والتشريد والإهانة والقتل يتحول إلى سيادة وتمكين، سيكون هناك بدر والأحزاب وفتح مكة وتبوك وفتح فارس والروم.. وغيرها من المواقع، وسترى الأمم كيف سينتشر الإسلام؟ كل هذا من هؤلاء الضعفاء القلة الذين كانوا يعذبون في مكة، {صُنْعَ اللهِّ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل:88]، هذا دليل واضح على قدرة الله عز وجل. لهذه الأسباب وغيرها كف

الله عز وجل المؤمنين عن القتال في فترة مكة، وسيأتي زمان بعد ذلك يسمح فيه بالقتال، ولكل مرحلة طبيعتها، وحتى تقلد الرسول ﷺ يجب أن تعلم ما هي المرحلة التي أنت تعيشها، ومع أي مراحل الرسول ﷺ تتشابه.

زاد تهور أهل الباطل في مكة وزاد التعذيب وضيق الأمر بشدة على المؤمنين، هنا انتقل رسول الله ﷺ من هذه المرحلة التي مرت إلى مرحلة أخرى جديدة تناسب الحرب الضارية التي يشنها أهل الباطل في مكة، بدأ أهل الإيمان يتزايدون، وأصبح من الصعب أن يختفي كل هؤلاء في البلد الصغير مكة، فيكتشف أمرهم فما هو التصرف مع موقف مثل هذا؟ المصير تعذيب وتقتيل، والمسلمون ليست لهم طاقة في حرب أهل الباطل.

ما الحل الذي سيتخذه رسول الله ﷺ؟

سيأخذ قراراً جديداً وينتقل بالمسلمين من هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى، ترى ما هي هذه المرحلة؟

8

هجـرة الحبشـة الأولى

تحدثنا عن أساليب الكفار في صد رسول الله ﷺ ومن معـه مـن المـؤمنين عـن طريـق الـدعوة والإسلام، وعن ثبات المؤمنين وصبرهم على التعذيب الشديد الـذي حـدث في أرض مكـة في بيت الله الحرام، حيث تفرغ الكفار لحرب المـؤمنين، وبـدا واضـحاً أن النيـة هـي الاستئصـال للطائفة الوحيدة التي تعبد الله حق العبادة على الأرض.

مسئولية ضخمة تقع على عاتق رسول الله ﷺ وأتْباعه: أن يصلوا بهذا الدين إلى أهل الأرض جميعاً، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:107]،

ويقول رسول الله ﷺ: (إنما بعثت لكم خاصة وللناس عامة)، وقد اشتد التعذيب بـالمؤمنين في مكة، وكاد المسلمون أن يستأصلوا بالكلية، حينها يظهر حل عملي لإنقاذ الدعوة مـن الهـلاك، وهو نوع من الأخذ بالأسباب، فالرسول ﷺ يخطط تخطيطـاً بشـرياً لإنقـاذ الـدعوة ولإنقـاذ المؤمنين.

كان من الممكن أن ينقذ الله عز وجل حبيبه ومن معه من المؤمنين بكلمـة (كـن) فيكـون، أو ينقذهم بمعجزة خارقة للعادة، ولكن ليست هذه سنة الله عز وجل في التغيـير، فالرسـول ﷺ يعلمنا أن نأخذ بالأسباب الواقعية التي كانت في يده كبشر، وهي في أيدينا الآن كبشـر، ففكـر

رسول الله ﷺ في وسيلة جديدة لمجابهة طغاة مكة، ولم يكن في مقدور المؤمنين آنذاك أن يقاتلوا المشركين، فقد نهاهم الله عز وجل عن ذلك بقوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام:106].

أسباب الهجرة إلى الحبشة والحكمة منها

1. الهجرة إلى الحبشة للمحافظة على الدعوة

كانت الوسيلة الجديدة أمام الرسول ﷺ وأصحابه: هي الهجرة من أرض مكة إلى أرض أخرى جديدة ليس فيها تعذيب أو إيذاء أو استئصال للدعوة. هذه خطوة تكتيكية من رسول الله ﷺ، سبقتها إشارات جاءت في كتاب الله عز وجل، فقد أنزل الله عز وجل سورة الزمر، وكان فيها: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:10]. أرض الله واسعة، وأعظم قطعة في الأرض هي القطعة التي يعبد فيها الله عز وجل، لا تفضل قطعة أخرى بأنهار أو أشجار أو أموال أو أهل وعشيرة، إنما الأرض الصالحة الطيبة هي الأرض التي يعبد فيها الله عز وجل، لذلك فكر المسلمون في ترك أشرف بقعة على الأرض مكة البيت الحرام إلى غيرها؛ لأنهم لا يستطيعون أن يعبدوا الله عز وجل كما يريدون في مكة، فليكن غيرها، المهم أن نعبد الله عز وجل دون أن نفتن في ديننا.

والهجرة وترك الديار والعشيرة ليس أمراً سهلاً، فالقرار صعب، ويحتاج إلى نفوس خاصة، ولابد أن نأخذ في الاعتبار أنهم لا يهاجرون من بلد إلى بلد لتحسين مستوى المعيشة، أو لجمع أموال ليست في بلادهم، أو لتحصيل علم ليس في مدينتهم، أو للحياة في مكان جميل، لا، بل هم يتركون بلادهم وقد استقرت أوضاعهم فيها لولا قضية الدعوة، سيتركونها إلى بلد آخر قد يكون فقيراً بعيداً حاراً أو بارداً مجهولاً، كل هذا لا لشيء إلا لعبادة الله عز وجل.

تخيل بمقياس الحاضر رجلاً يعيش في استقرار في بلد محبوب إلى قلبه، وأوضاعه مستقرة، ثم هو يقرر الهجرة إلى بلد آخر؛ لكي يعبد الله عز وجل بعد أن ضيق عليه في بلده. لو كان سيهاجر إلى بلد أعظم رفاهية وأكثر أموالاً، لكن هذا أسهل، لكن أن يهاجر إلى بلد لا تهفو النفوس إليه عادة، فهو يحتاج إلى جهاد عظيم للنفس؛ ولذلك عظم الله أجر الهجرة عندما تكون في سبيله، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [الحج:58 - 59]. لم يهاجر المؤمنون سعياً وراء الرزق، ولكن في ظاهر الأمر أنهم سيفتقدون الرزق؛ لأنهم سيتركون أعمالهم ويهاجرون إلى بلد قد لا يتوافر فيه عمل مناسب، فوعدهم الله عز وجل بالرزق الحسن في الجنة، فإنه على أسوأ الفروض في حسابات البشر سيقتل المهاجرون أو يموتون، فالله عز وجل يعد -ووعده الحق- أنهم لو قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً، بالإضافة إلى أنه قد علم المؤمن أن رزقه في الدنيا لن ينقص، وسيأتيه رغماً عن أنفه في بلده أو خارج بلده، في ظروف أو في ظروف أخرى {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات:22].

نقف وقفة نحلل فيها، ونحاول الإجابة على سؤال هام: **هل قرر المسلمون الهجرة للحفاظ على الدعوة أم الدعاة؟** قد تكون الفروق بين الإجابتين طفيفة، لكن عند التدقيق في الأمر نجد أن الفرق كبير جداً، هل يضحى بالدعوة من أجل الحفاظ على الدعاة، أم يضحى بالدعاة من أجل الحفاظ على الدعوة؟ واقع الأمر أن أهم شيء في حياة المؤمن هو الدين، والمقصد الأول من المقاصد التي جاء الشرع لحمايتها هو الدين، ومن أجله يضحى بكل شيء. يبذل المؤمنون أرواحهم للدفاع عن الدين، لكن لا يبذل المؤمنون دينهم للحفاظ على أرواحهم، بل يحض الله عز وجل المؤمنين على بذل أرواحهم حفاظاً على دينهم {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة:111]. السبب الأول في الهجرة التي قررها رسول الله ﷺ: هو حماية الدعوة، بمعنى أن الرسول ﷺ أراد أن يجعل للدعوة محضناً آخر غير مكة، بحيث إذا استُؤصل الدعاة في مكة تبقى طائفة أخرى في مكان آخر لاستمرار الدعوة.

لم يكن السبب الأول في الهجرة هو الحفاظ على أرواح الدعاة، وإن كان هذا أمراً هاماً، ويؤيد هذا الرأي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرر أن يهاجر الصحابة رضوان الله عليهم للحفاظ على الدعوة لا على الدعاة، والذين طلب منهم أن يهاجروا كانوا من القرشيين، ولم تطلب الهجرة من الذين كانوا عبيداً، إنما هاجر القوم الذين يتمتعون بعصبية وقبلية، هاجر الأشراف أصحاب المنعة، ولم يهاجر الموالي والمستضعفون، ولو كان الهدف الأول هو حماية الأرواح لكان الأولى أن يهاجر هؤلاء الضعفاء.

2. سبب هجرة أشراف مكة من الصحابة إلى الحبشة

لماذا هاجر الأشراف دون البسطاء؟ أولاً: هذا أدعى لحماية المهاجرين، فأمر الهجرة أمر خطير، قد تطارد مكة فوج المهاجرين، بل بالتأكيد ستطاردهم، وفي لحظات الغضب والغيظ قد يتهور أهل مكة ويقتلون المهاجرين المطاردين، وبالذات لو كانوا من العبيد، أما إذا كانوا من الأشراف فإن عملية الهجرة ستصبح أقل خطورة، حيث إنه لو تم الإمساك بهم فسيحملونهم إلى مكة، ولن يفكروا في قتلهم لقوة قبائلهم.

ثانياً: أن الأشراف أقدر على التأثير في أهل البلد الذي سيهاجرون إليه؛ لأن من طبائع البشر أنه إذا تكلم الشريف سمعوا له وأنصتوا، وإذا تكلم الضعيف لم ينتبه له، والغرض هو إيصال كلمات الدعوة إلى آذان البلد المضيف، وعرض الأمر بأفضل الصور، وسيستقبل المهاجرون في هذه الحالة على أنهم وفد سياسي محترم معارض لسياسة مكة، بدلاً من أن يستقبلوا كمجموعة من العبيد الآبقين من أسيادهم.

ثالثاً: هجرة الأشراف ستؤدي إلى هزة اجتماعية خطيرة في مكة، ستفيق أهل مكة على خطورة أفعالهم، فهؤلاء المؤمنون المطاردون هم من خيرة أهل البلد، ومن أكثر الناس سعياً لإصلاحها، ومن أعرق البيوت، ومن أشرف الناس، وها هم يغادرون البلد؛ لأنهم لم يجدوا فيها أماناً، ما أبشع فعل أهل الباطل، وما أشنع جريمتهم، أهؤلاء هم الذين يُطرَدون؟ أهؤلاء هم الذين يفتنون في دينهم؟ فهجرة الأشراف ستكون صدمة لأهل مكة قد ينتبهون على أثرها إلى خطئهم الفادح في حق المهاجرين وفي حق بلدهم، أما إذا هاجر المستضعفون فلا ضير، أليسوا عبيداً تركوا البلد؟ فلنأت بعبيد آخرين، هكذا سيفكر الطغاة، إذ ليس هناك اعتبار للآدمية أو الإنسانية. الرسول ﷺ كان يدفع المشركين دفعاً إلى تحريك عواطفهم وقلوبهم؛ لإدراك مدى الجريمة التي يفعلونها مع المؤمنين في صدهم عن دين الله عز وجل، لهذه الأسباب هاجر الأشراف ولم يهاجر الضعفاء.

سبب مكث المهاجرين في الحبشة إلى ما بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

متى عاد المهاجرون من الحبشة إلى الصف المسلم من جديد في فترة مكة أم في فترة المدينة؟ مكث المهاجرون في الحبشة مدة تزيد على 15 سنة متتالية، كانت هجرتهم الأولى إلى الحبشة في العام الخامس من البعثة في شهر رجب ثم عادوا سريعاً إلى مكة بعد ثلاثة أشهر، ثم هاجروا من جديد هجرتهم الثانية إلى الحبشة في السنة السابعة، ولكنهم مكثوا في الهجرة الثانية طويلاً، ولم يرجعوا إلا بعد غزوة خيبر.

مرت أحداث في غاية الأهمية والخطورة على المسلمين في بناء الأمة الإسلامية، ومع ذلك لم يرجع المهاجرون من الحبشة، ولم يكن هذا اجتهاداً شخصياً من المهاجرين، بل كان بأمر من قيادة المسلمين المتمثلة آنذاك في رسول الله ﷺ، مرت الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، ومر تأسيس الدولة الإسلامية، وكان البناء صعباً، وكان عدد المسلمين قليلاً، والعدد في الحبشة

كبيراً تجاوز الثمانين، وهم قوة لا يستهان بها، فعدد المهاجرين في غزوة بدر كان نفس عدد المهاجرين إلى الحبشة، ومع ذلك لم يطلبهم رسول الله ﷺ، مرت الغزوات العظام بدر ثم بنو قينقاع ثم أحد ثم بنو النضير ثم الأحزاب ثم بنو قريظة، ثم الحدث الكبير العظيم الهام وهو صلح الحديبية، وبعد صلح الحديبية أمن المسلمون على أنفسهم، وأصبحت لهم دولة لها كيان محترم تعقد به الأحلاف والمعاهدات على أعلى مستوى، يرهب جانبها ويحترم رأيها، فهنا شعر رسول الله ﷺ أنه أصبح من الصعب استئصال المسلمين، لقد كان ممكناً في أي لحظة قبل صلح الحديبية أن يستأصل المسلمون، وأقرب مثال على هذا غزوة الأحزاب؛ حيث أراد الكفار الإنهاء الجذري للإسلام في المدينة، لكن الله عز وجل كتب النصر للمؤمنين، حتى قال الرسول ﷺ: (الآن نغزوهم ولا يغزونا). عندما شعر رسول الله ﷺ بأول لحظات الأمان في المدينة أرسل في طلب المهاجرين في الحبشة، أرسل إليهم عمرو بن أمية رضي الله عنه وأرضاه، فجاءوا في العام السابع من الهجرة بعد فتح خيبر.

كان رسول الله ﷺ يتعامل مع الأمور بحكمة سياسية رائعة، كان يحافظ على نواة للمسلمين هناك في مكان آخر بعيد مثل الحبشة، فإذا هلك المسلمون في المدينة حمل المهاجرون في الحبشة اللواء، وكان المسلمون في الحبشة يقومون بدور المخزون الإستراتيجي الهام للمسلمين، وكانوا على استعداد للرجوع إلى المدينة في أي لحظة إذا طلبت منهم القيادة ذلك. كانت الأدوار موزعة على المسلمين بدقة، طائفة من المسلمين يقومون بالبناء هناك في أواخر الفترة المكية، وفي فترة المدينة هذه الطائفة معرضة لخطر شديد تقابل الموت في كل لحظة، وهناك طائفة أخرى كامنة في الحبشة، في ظاهر الأمر هم غير معرضين للأذى، لكن مهمتهم في غاية الخطورة، لقد كان عليهم أن يحملوا الدعوة بمفردهم إذا هلك المسلمون في المدينة، وقد يموت رسول الله ﷺ شخصياً وتصبح الأمانة معلقة في رقابهم وحدهم، وهنا يتضح أمران:

الأول: أن هذا التوزيع للأدوار تم بمعرفة قيادة المسلمين المتمثلة في رسول الله ﷺ، وكان هناك طاعة عظيمة جداً من الطرفين؛ الطرف الذي يعمل في المدينة، والطرف الذي يعمل في الحبشة، ولو ترك الأمر لكل فرد لدخل الهوى في الاختيار، قد يكون هوى المرء أن يظل بعيداً عن أرض القتال هناك في الأمان في الحبشة، وقد يكون هوى المرء أن يعمل للإسلام في مكان معين، كأن يعمل بجوار رسول الله ﷺ أو في قبيلة كذا أو كذا. فحتى لا يتدخل الهوى في الاختيار وزَّع القائد ﷺ الأدوار على المسلمين، وأطاع المسلمون في أدب جم، إذ لا يشترط الجندي الصادق عملاً معيناً أو مكاناً معيناً؛ لأن الجندي في الإسلام يعمل لله عز وجل، وفي كل مكان يوضع فيه بنفس الحمية، كما أن الأمر يحتاج أيضاً إلى تنظيم، مَنِ الذي يقوم بهذا الدور؟ ومن الذي يقوم بالدور الآخر؟ وحتى لا تختلط الأدوار على الناس يرجع في هذا إلى قيادة المسلمين والشورى ورأي المجموعة، وكل ذلك من أساسيات العمل الجماعي السليم الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ.

الثاني: أن المسلمين المهاجرين في الحبشة لم يكونوا في حالة ركون أو فتور، بل كانوا في إعداد وتدريب مستمر، لقد كان مستوى الإيمان لديهم رائعاً، وكان الاستعداد النفسي للعودة والمشاركة والوقوف في الصدارة ومواجهة الموت كاملاً، يثبت ذلك أنهم لما جاءتهم إشارة العودة عادوا دونما ضجر ولا اعتراض ولا إبطاء ولا طلب لفترة تجهيز وانتقال، ولما وصلوا إلى المدينة انخرطوا في الصف بسرعة، وحملوا المشاق مع المسلمين وكأنهم عاشوا معهم كل التجارب السابقة، حتى إنهم لما وصلوا إلى المدينة علموا أن رسول الله ﷺ يفتح خيبر، وهي على بعد مائة كيلو في شمال المدينة المنورة، فتوجهوا جميعاً إلى خيبر للمشاركة في الغزو فوجدوها قد فتحت، وسر بهم رسول الله ﷺ جداً، وقال: (والله ما أدري بأيهما أفرح)، وفي رواية: (بأيهما أُسَر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر)، وجعفر رضي الله عنه وأرضاه كان أمير

المهاجرين في الهجرة الثانية للحبشة، ورأينا جعفر بن أبي طالب نفسه بعد أن عاد بـ 13 شهراً فقط خرج مجاهداً في سبيل الله في سرية مؤتة وكان أحد قوادها، وقاتل دون تردد، وأقدم دون إحجام، وثبت دون فرار، واستشهد رضي الله عنه وأرضاه دون خوف أو وجل، لقد جاء جعفر رضي الله عنه وأرضاه من الحبشة جاهزاً للقتال في سبيل الله، لقد كانت فترة الحبشة إعداداً وتربية للمسلمين، ولم تكن هروباً من الواقع. الهجرة إلى الحبشة كانت لإنشاء مركز جديد للدعوة يضمن لها الاستمرارية والبقاء، وكانت وسيلة جديدة في مواجهة أساليب البطش في أرض مكة.

أسباب ومزايا اختيار الحبشة دون غيرها للهجرة إليها

لماذا اختار رسول الله ﷺ الحبشة بالذات ليهاجر إليها المسلمون؟ لاشك أن الرسول ﷺ قد فكر كثيراً في المكان الذي يمكن أن يرسل إليه المسلمين، ولعل أقرب الأماكن إلى الذهن هو أن يرسلهم إلى مكان في الجزيرة العربية عند قبيلة من القبائل، فقد كانت هناك تجمعات قبلية كبيرة وكثيفة وكثيرة في جزيرة العرب، هناك ثقيف في الطائف، وهوازن في حنين، وبنو حنيفة في شرق الجزيرة، وعبس وذبيان في شمال المدينة وغيرها كثير، وهذه القبائل تتميز بكونها تعيش في ظروف مقاربة جداً لظروف المسلمين في مكة، ولن يشعر المسلمون بتغير كبير في طبيعة الحياة، كما أنهم يتكلمون العربية، بالإضافة إلى قرب المسافة، فإذا احتاج الرسول ﷺ إلى المسلمين قدموا سريعاً، هذه كلها مزايا موجودة في هذه القبائل، لكن هذه القبائل كانت كلها مشركة، وإن لم تعلن العداء السافر للمسلمين، إلا أنها كلها تكنُّ قدراً عظيماً جداً من الاحترام لقريش، ولاشك أن القرشيين لو طلبوا المسلمين ما ترددت هذه القبائل في دفعهم للكفار من أهل مكة.

اختيار القبائل المحيطة بمكة في جزيرة العرب لم يكن اختياراً سلبياً، ولعله ﷺ أيضاً فكر في يثرب التي أصبحت بعد ذلك المدينة المنورة، لكن يثرب في هذه الآونة لم يكن فيها مسلم

واحد، كما أنها بلد متقلب بسبب الحروب بين الأوس والخزرج، كما أن اليهود يسكنون منذ زمن في هذه البلاد، وتاريخ اليهود لا يبشر بأي خير. ولعله ﷺ قد فكر في العراق حيث القبائل العربية الكثيرة التي تعيش في هذه المناطق، مثل: بني شيبان، ولكن هذه القبائل بالإضافة إلى كونها جميعاً مشركة فإنها على ولاء شديد وتحالف مع الفرس، وعادة ما يكره الملوك الدعوات الإصلاحية، فلن يرحب كسرى فارس بهذا القدوم للمسلمين.

ولعل الرسول ﷺ أيضاً قد فكر في الشام أيضاً فهناك قبائل عربية تعيش فيها، مثل: قبائل الغساسنة، لكنها على الجانب الآخر موالية للروم، ولن ترحب أيضاً باستقبال هذه الدعوة الجديدة، ولعله أيضاً قد فكر في مصر، لكن مصر برغم أن بها ملكاً معتدلاً وهو المقوقس إلا أنها محتلة من الرومان، ولا تملك في ذلك الوقت من أمرها شيئاً، ولعله أيضاً ﷺ قد فكر في اليمن، لكنها كانت محتلة من قبل فارس، ولن يقبل الفرس بقدوم المسلمين، لاشك أنه ﷺ فكر في كل هذه الأماكن؛ لأنها قريبة ومنطقية وغالبها عربي باستثناء مصر، لكنه ﷺ لم يجدها مناسبة؛ لذا جال وبرز في ذهنه ﷺ الاختيار الأخير، والذي يبدو عجيباً في نظر الكثيرين حتى في نظر المعاصرين له ﷺ، وهذا الاختيار هو الحبشة.

لقد كان اختيار الحبشة عجيباً، وإن دل على شيء فإنما يدل على سعة اطلاع رسول الله ﷺ، وعلى حكمته في نفس الوقت، والحبشة وإن كان بها بعض العيوب الملموسة إلا أن مزايا الاختيار تفوق عيوبها.

من عيوب الحبشة: أنها بعيدة عن مكة، وهذا يصعب الاتصال والمراسلات بين الرسول ﷺ وبين مجموعة المهاجرين. أيضاً: اختلاف اللغة، فهي مختلفة بالكلية عن اللغة العربية، كما أن العادات والطبائع لأهل الحبشة مختلفة كثيراً عن عادات العرب، مما قد يؤدي إلى الصعوبة النسبية في الحياة هناك، لكن لها مزايا.

مميزات الحبشة عن غيرها

الميزة الأولى: كان الحاكم في الحبشة عـادلاً، قـال رسـول الله ﷺ لأصـحابه: (لـو خـرجتم إلى الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد)، لم يعلق الرسول ﷺ عـلى شيء في حيـاة الرجـل ولا دينه، ولكن علق على عدله، ما حدث للمسلمين في مكة كان نتيجة ظلم بـين مـن أهـل مكـة، لكن ملك الحبشة النجاشي رحمه الله كان عادلاً، وهو بذلك يحفظ حقوق الآخرين بغض النظر عن ديانتهم أو حبهم أو كراهيتهم، فالعدل أساس من أسس الحكم، وبغيره لا تسـتقيم الـدنيا والآخرة. فكان من سعة الأفق للرسول ﷺ وشمول النظرة وعمق الفكر أن اختار البلد الذي يحكمه حاكم عادل، فضمن بذلك حماية لأصحابه، وهو درس للدعاة أن يستفيدوا مـن الـذين يتصـفون بالعـدل مـن النـاس، وأن يطلعـوا عـلى أحـوال الـبلاد المحيطـة بهـم، حتـى زمـن الاستضعاف، فقد يكون من الفائدة أن يستعينوا برجل من أمثال هؤلاء وإن اختلف دينه عـن دينهم. هذه كانت الميزة الرئيسية في أرض الحبشة.

الميزة الثانية: يعيش في أرض الحبشة نصارى، والمسلمون كانوا يشعرون بقـرب إلى النصـارى، فهم أهل كتاب أيضاً، وظهر ذلك واضحاً من تعـاطف المسـلمين مـع الـروم في حـربهم ضـد فارس الوثنية، وشعر رسول الله ﷺ والمؤمنون أن قلوب النصارى ستكون أقـرب إلى الـدعوة من غيرهم، وقد نزل القرآن بعد ذلك بسنوات عديدة ليؤكد على هـذا المعنـى: {لَتَجِـدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} [المائدة:82]، وللأسف فإن معظـم النصـارى في أرض الحبشـة في ذلـك الوقـت كانت لهم اعتقادات منحرفة نتيجة التحريف في التوراة والإنجيل، ولكن بعضهم كان ما يـزال صحيح الاعتقاد، ومن هؤلاء النجاشي رحمه الله، وهذا أفاد كثـيراً كـما سـنرى في التعامـل مـع المهاجرين المسلمين.

الميزة الثالثة: أن الحبشة بلد بعيد عن مكة، ومع أن هذا يعتبر عيباً من كونه يصعب الاتصال بين الرسول ﷺ وبين المهاجرين، إلا أنه في ذات الوقت يوفر جانباً من الأمان للمهاجرين، فهم بعيدون عن أهل الباطل في مكة.

الميزة الرابعة: أن الحبشة بلد مستقل ليس لأحد عليه سلطان، نعم هو يتبع الكنسية المصرية في الإسكندرية لكن هذه تبعية دينية وليست سياسية، فليس هناك خطورة من أن يملي قيصر الروم أو كسرى فارس.. أو غيرهما رأياً على أهل الحبشة.

الميزة الخامسة: أن الحبشة بلد قوي في المنطقة، وأهل مكة كانوا يعظمون هذا الملك جداً، وكان بينهم وبينه سفارات ومراسلات وهدايا، وهذا قد يكون عيباً لولا أن ملك الحبشة يتصف بالعدل، فكونه يتصف بالقوة والعظمة مع العدل فهذا يوفر حماية أكيدة للمهاجرين، وقريش من المستحيل أن تفكر في غزو الحبشة لمطاردة المهاجرين كما فعلت بعد ذلك في المدينة في غزوة الأحزاب؛ لأن عوامل قوة الحبشة وقوة الملك وبعد المسافة والبحر تحول دون هذا التفكير، وأقصى ما يمكن أن تفعله قريش هو أن ترسل سفارة رسمية تطلب المهاجرين، فإن كان الملك عادلاً، فإنه ولاشك سيرفض تسليم زواره وضيوفه.

الميزة السادسة: أن الحبشة بلد تجاري وعنده قوة اقتصادية معقولة في ذلك الوقت، ولا يخشى عليه من حدوث أزمات اقتصاديه نتيجة قدوم المهاجرين، وهذا ولاشك سيوفر للمؤمنين أماناً واستقراراً، وفي نفس الوقت لا يغير من نفسيات أهل الحبشة، فلن يشعروا بأزمة تذكر نتيجة هجرة المسلمين إليهم.

لهذه الأسباب مجتمعة كان اختيار الحبشة اختياراً موفقاً، وبدأ المهاجرون بالفعل يتجهون إلى هناك ليبدأ ما يسمى في السيرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة.

وقفات مع الهجرة إلى الحبشة

أمر رسول الله ﷺ 14 مؤمناً أن يهاجروا إلى الحبشة: 10رجال و 4 نساء هن زوجات، كانت هذه هي الطليعة الأولى من المهاجرين، وأنا أريد أن أقف وقفتين في غاية الأهمية عند هذا الموقف.

الوقفة الأولى: من أول من هاجر من المسلمين؟

أسماؤهم تحتاج إلى وقفة طويلة، فالأول: هو عثمان بن عفان الأموي رضي الله عنه وأرضاه وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. يا له من موقف، أعمق وسيلة من وسائل التربية هي وسيلة التربية بالقدوة، لقد أصدر رسول الله ﷺ أوامره بالهجرة وترك الديار، ثم لم يعزل نفسه ﷺ عن الأذى من هذه الهجرة، فها هي ابنته السيدة رقية حبيبة قلبه ﷺ تهاجر إلى الحبشة مع المهاجرين، بل تسبق المهاجرين، ويذوق ألم الفراق كما يذوقه أصحابه من المؤمنين، من المستحيل أن يتأثر الجنود بقائدهم إلا إذا شعروا أنه معهم في خندقهم، ما أسهل أن تأمر بالتقشف والهجرة، بل والموت، لكن كل ذلك لا يؤثر في أحد إلا إذا قرن بعمل التربية القدوة.رسالة من رسول الله ﷺ إلى كل قائد: إذا أردت أن تملك قلوب شعبك وأتباعك فانزل إليهم وعش معهم وخالطهم، افرح بما يفرحون به، وتألم مما يتألمون منه، شاركهم في طعامهم وشرابهم وسفرهم وسعيهم وقتالهم، عندئذ اعلم أنك امتلكت قلوبهم.

الاسم الثاني في هذه الهجرة كان أيضاً من بيت الرسول ﷺ: إنه جعفر بن أبي طالب الهاشمي القرشي رضي الله عنه وأرضاه، ابن عم رسول الله ﷺ، هاجر هو وزوجته السيدة أسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنها، وكذلك بقية الأسماء معظمهم من أصحاب الشرف والمكانة والمنعة مثل:

- عبد الرحمن بن عوف من بني زهرة.
- وأبو حذيفة بن عتبة من بني عبد شمس.
- والزبير بن العوام من بني أسد.
- ومصعب بن عمير من بني عبد الدار،
- وأبو سلمة بن عبد الأسد من بني مخزوم.

وهكذا معظم المهاجرين من أشراف مكة.

الوقفة الثانية: أن المسلمين أخذوا بكل الأسباب الممكنة لضمان نجاح عملية الهجرة، لم يقولوا: نتوكل على الله عز وجل وندعوه، ثم نسلم أمرنا بغير إعداد، لا، بل أخذوا بكل الأسباب التي في أيديهم.

أولاً: خرج المسلمون في سرّية كاملة ولم يعلموا أحداً أبداً بهجرتهم.

ثانياً: لم يخرجوا مجموعة واحدة، بل خرجوا متفرقين حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم.

ثالثاً: لضمان عدم الاختلاف ولتوحيد الصف اختار لهم رسول الله ﷺ أميراً من أنفسهم، اختار لهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه وأرضاه من بني جُمَحَ.

رابعاً: التنوع الملموس من قبائل مكة، فإن الرسول ﷺ أخرج من كل قبيلة رجلاً، وبذلك لا تستطيع مكة أن تتحزب ضد قبيلة معينة، لقد اختار رسول الله ﷺ من كل قبيلة واحداً، فأصبح الموقف صعباً على أهل مكة، كما أنه من الناحية الأخرى سوف يكون لهذا الوفد تأثير واضح على ملك الحبشة، فهذا الوفد المكون من خليط من قبائل مكة كأنه سفارة رسمية تمثل شعب مكة، لا يخطر أبداً على ذهن النجاشي أن هذه حركة قبائلية بحتة، بل هي دعوة دينية أخلاقية لا تفرق بين قبيلة أو أخرى، وهذا سيكون أدعى لرد كيد قريش إذا حاولت أن تكيد للمسلمين عند ملك الحبشة. في هذه الهجرة أخذ ﷺ بكل الأسباب المادية وفي كل أموره، حتى يعلمنا كيف نسير على دربه وعلى طريقه ﷺ.

خرج المؤمنون من مكة خفية، واجتمعوا عند ساحل البحر، ولكن مع كل هـذا اسـتطاع أهـل مكة أن يعرفوا وجهتهم وأن يلحقوا بهم؛ فحرب الحق والباطل ليس لها نهاية إلى يـوم القيامـة، هنا كان من الممكن أن تجهض محاولة الهجـرة، ولكـن المسـلمون ابتهلـوا إلى الله عـز وجـل أن ينجيهم مما لحق بهم، في هذه اللحظة وجـدوا سـفينتين في البحـر متجهتـين إلى الحبشـة فركـب المسلمون في إحداهما، وانطلقوا باسم الله في وسط البحر، ولم يستطع المشركون أن يلحقوا بهم.

لقد استنفد المسلمون الوسع، وأخذوا بكامل الأسباب، ولكـن المشـركون لحقـوهم؛ ليلجـأ المسلمون إلى الله عز وجل، وليعلموا أن الأخذ بالأسـباب لا ينفـع إلا إذا أراد الله عـز وجـل، وليدركوا حق الإدراك أن الكون بيد الله عز وجل يصرفه كيف يشاء. وصـل المسـلمون بأمـان إلى الحبشة، وكما توقع رسول الله ﷺ استقبلهم النجاشي خير استقبال، وجلسوا عنده في أكـرم حال، ولم يلقوا عنتاً ولا إيذاء ولا مشقة.

قصة إسلام حمزة وعمر وسجود المشركين لآية سورة النجم

بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة حدثت في مكة أمور عظام في ظاهرهـا بسـيطة، ولكنهـا محطـات تغيير هامة ليس في أوضاع مكة فقط، بل في خريطة العالم.

مما حدث في مكة:

أولاً: آمن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه عم رسول الله ﷺ.

ثانياً: بعده بثلاثة أيام فقط آمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

وستحمل الأيام مفاجآت عظيمة لأهل الأرض جميعاً، سيرون كيف أن هـذا الرجـل البسـيط عمر الذي آمن في هذه البلدة الصغيرة مكة سيقود جيـوش المـؤمنين ليكسـر شـوكتي فـارس والروم، وليوحد أطراف العالم في خلافـة واحـدة، آمـن الفـاروق في مكـة فحـدثت تغيـيرات

جذرية في سياسة المؤمنين، منها ما يتعلق بقضية الهجرة إلى الحبشة، آمن عمر بن الخطاب فظهر الإسلام في مكة، وأعلن كثير من المسلمين إسلامهم، بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ، وكما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر رضي الله عنه وأرضاه، وقلّ إلى حد كبير التعذيب الوحشي الذي كانت تقوم به قريش للمؤمنين، وعاش المسلمون في مكة لحظات عظيمة من السعادة التي لم تمر بهم منذ زمن طويل، سعادة بإسلام البطلين العظيمين الجليلين: حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وسعادة بإحساس الأمان النسبي الذي شعر به المسلمون للمرة الأولى منذ أكثر من خمس سنوات، وسعادة بشعور العزة والفخر بهذا الدين وباتباعه. طارت أنباء هذه السعادة إلى الحبشة، وتواصلت قلوب المؤمنين في الحبشة مع قلوب المؤمنين في مكة وشعروا بنفس السعادة، وشعروا فوقها بسعادة العودة إلى أرض الوطن وإلى أرض الأجداد والعشيرة وإلى البيت الحرام، شعر المسلمون أن وقت العودة إلى مكة سيكون قريباً إن شاء الله.

تزامن مع حدث إسلام البطلين حمزة وعمر رضي الله عنهما حدث آخر عجيب تم في مكة في ساحة البيت الحرام في رمضان من السنة الخامسة من البعثة، كان من أسلوب الكافرين لمنع الناس من التأثر بكلام الله عز وجل أن يمنعوا أنفسهم من السماع أصلاً؛ لأنهم يعلمون أنه لو سمع أحدهم القرآن فقد يؤمن به: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت:26]، كانت هذه هي سياستهم، ولكن في رمضان من السنة الخامسة من البعثة حدث هذا الموقف الغريب: كان المشركون مجتمعين في البيت الحرام، وكان معهم المؤمنون أيضاً، وكان معهم رسول الله ﷺ، فوقف في وسط الناس وبدأ يقرأ سورة من سور القرآن الكريم تلاوة عليهم، وهي سورة النجم كاملة: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ

فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} [النجم:1 – 12].

انبهر المشركون بروعة الكلمات والآيات، وبالكلام العجيب الذي لا يقدر عليه بشر، ولم يحركوا ساكناً، نزلت الآيات كالقوارع على قلوبهم، خرست الألسنة، وتسمرت الأقدام، وتعلقت العيون برسول الله ﷺ، وبدأ رسول الله ﷺ يكمل القراءة بصوته العذب، بل بدأ يقرأ آيات تسفه أصنام قريش وآلهتهم المزعومة {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم:19 – 23].

ومع أن الآيات تهين آلهة قريش وتحقر من شأنها إلا أن المشركين لم ينطقوا بكلمة، بل ظلوا يستمعون القرآن وقد انبهروا انبهاراً كاملاً، وأكمل رسول الله ﷺ السورة بكاملها إلى أن وصل إلى آخرها، حتى قرأ آية السجدة: {أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ* فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا) [النجم:57-62]، ثم سجد رسول الله ﷺ وسجد المؤمنون، لكن المفاجأة الكبرى أن المشركين أيضاً لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من السجود لله رب العالمين، فسجدوا جميعاً مع رسول الله ﷺ، وقد طارت قلوبهم وذهلت عقولهم، ثم قاموا بعد السجود وقد أرعبتهم المفاجأة، ماذا فعلنا؟ لقد لمس الإيمان قلوبهم لحظة، ثم نكسوا على رءوسهم، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل:14].

اجتمع المشركون في مكة ممن لم يحضر المشهد في البيت الحرام، وأخذوا في إلقاء اللوم والتأنيب على المشركين الذين سجدوا مع رسول الله ﷺ، وأُسْقِط في يد المشركين، ماذا يفعلون؟ ثم

غلب عليهم شيطانهم وأوحى إليهم أن يفتروا الكذب على رسول الله ﷺ، فبماذا كـذبوا؟ لقـد أشاعوا أن رسول الله ﷺ قد قرأ آيات معينة تعظم من شأن اللات والعزى، ولذلك لما جـاءت آية السجود سجدوا تعظيماً لآلهتهم، افتروا هذه الفرية؛ ليخرجوا بها مـن الإيـمان الـذي دخـل قلوبهم رغماً عن أنوفهم.

قرار عودة المهاجرين من الحبشة إلى مكة والآثار المترتبة على ذلك

وصل إلى أسماع المسلمين في الحبشة أن مكة قد آمنت ودخل أهلها في الإسلام، قالوا: لقد آمـن حمزة وعمر رضي الله عنهما، وظهر المسلمون، وصاروا أعزة، ثم سجد المشركون مع رسول الله ﷺ إيماناً بما يقول، وقد أصبحت مكة الآن مسلمة، فما الفائدة من البقاء في الحبشـة بعـد إيـمان مكة؟ كيف حدث هذا الخطأ عند المسلمين في أرض الحبشة؟ لابد أنه وقع خطأ في نقل الأخبار من مكة إلى الحبشة أو خطأ في فهم الخبر الصحيح، ولكن في الحـالتين ترتـب عـلى هـذا الخطـأ إرهاق شديد جداً للمسلمين في الحبشة. لقد قرر المسـلمون أن يعـودوا إلى مكـة، وذلـك بعـد إشاعة غير صحيحة جـاءت مـن مكـة إلى الحبشـة، كـم مـن الأثـمان يـدفعها المسـلمون ثمنـاً للشائعات، وكم من الوقت والمجهود والمال يضيع جراء الشائعات، وعـلى المسـلمين دائـماً أن يتبينوا قبل أخذ القرار، وفي اعتقادي أنه كان يجدر بالمهاجرين أن يرسلوا رسولاً واحـداً مـنهم إلى مكة ليستوثق من الخبر، قبل أن يجمعوا أنفسهم ونساءهم وأطفالهم ويعـودوا هـذا المشـوار الطويل المرهق عبر البحار والصحاري، أو أن ينتظروا رسـالة واضـحة مـن قائـدهم المحنـك رسول الله ﷺ، الذي كان سيرسل إليهم حتماً بالخبر لو أن مكة آمنت فعلاً، وأن المصلحة في أن يعودوا إلى مكة، لكن هذا لم يحدث، وعاد المسلمون وركبوا البحر لمسافات طويلة، وجـاءوا إلى مكة وقلوبهم ترقص من الفرحة، ثم كانت الصدمة القاسية، لقد اكتشفوا أن الخـبر كـان مجـرد إشاعة!

مر المسلمون بمعاناة كبيرة بسبب هذه العودة، لكن بفضل الله كان المسلمون على حذر كافٍ عندما اقتربوا من مكة، فقد انتظروا إلى الليل، ووقفوا خارج مكة، وأرسلوا رسولاً، وجاء لهم بالخبر أن أهل مكة ما زالوا مشركين، نعم، مشكلة ضخمة، لكن اجتمع المسلمون وعقدوا مجلساً للشورى، وخرجوا من اجتماعهم بثلاث توصيات، واستقروا على أن يقسموا عليهم هذه التوصيات الثلاث.

التوصية الأولى: أن يعود غالبيتهم مرة ثانية إلى الحبشة دون دخول مكة. وهذا أمر شاق على النفس، ولكنه سيكون أكثر أمناً.

التوصية الثانية: أن يدخل بعض المسلمين إلى مكة سراً متخفين لقضاء بعض المصالح لهم ولبقية المهاجرين، ثم العودة بعد ذلك إلى الحبشة، ومفهوم ذلك أنهم لن يبقوا في أرض مكة إلا فترة بسيطة؛ لأن مكة مدينة صغيرة ومن المستحيل أن يختبئ فيها رجل عن عيون الناس لفترة طويلة.

التوصية الثالثة: أن يدخل بعضهم إلى أرض مكة جهاراً ولكن في جوار واضح وحماية معلنة، حتى لا يعرض للقتل أو للتعذيب الشديد، وهؤلاء سوف يشرحون لرسول الله ﷺ أحوال الحبشة، ويتبادلون الخبرة مع مؤمني مكة بخصوص أمر الهجرة.

وتم بالفعل هذا الاتفاق وعاد الغالبية إلى الحبشة دون دخول مكة، ودخل بعضهم مكة سراً ثم عادوا بعد ذلك إلى الحبشة ودخل بعضهم مكة في وضوح، أما الذين دخلوا مكة في إعلان فكان عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه وزوجته السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم، فدخل عثمان بن عفان الأموي في حماية قبيلته القوية بني أمية، أما عثمان بن مظعون فقد دخل في جوار الوليد بن المغيرة المشرك وهو من قبيلة بني مخزوم، وذلك

لأن قبيلة عثمان بن مظعون بنو جُمح وكانت من أشد القبائل محاربة له شخصياً، وكان من أشدهم عليه أمية بن خلف الجمحي لعنه الله. فدخل عثمان بن مظعون في إجارة الوليد بن المغيرة، وكانت إجارة غير مشروطة، وقد قلنا بأن المشركين قد رفعوا أيديهم نسبياً عن المسلمين بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، ولكن جدت أمور جعلت المشركين ينشطون من جديد لتعذيب المسلمين.

أولاً: أن سجود المشركين في الكعبة مع رسول الله ﷺ سبب بلبلة في أرض مكة، ومن كان متردداً في الإيمان فلابد أن يفكر الآن بجدية، وبالذات في ظل الحماية المادية والمعنوية التي يقدمها فارسا قريش حمزة وعمر رضي الله عنهما؛ لذلك فكرت قريش في إعادة البطش والتعذيب لمنع المد الإسلامي الجارف في مكة.

ثانياً: وصلت إلى مكة أنباء الاستقبال الحافل والكريم الذي قدمه النجاشي للمهاجرين المسلمين، وهذا رفع من معنويات المسلمين من ناحية وأحبط معنويات الكفار من ناحية أخرى، فمشركو مكة كانت لهم علاقات تجارية وصداقة مع النجاشي، ولاشك أن هذه الأمور قد تتأثر بالصداقة والوفاق الجديد مع المسلمين، لهذا قررت مكة أن تنشط في مواجهة الدعوة، فماذا فعلت؟

الوسيلة الأولى: قررت قريش منع المؤمنين من السفر، وقامت بتشديد الحراسة على مخارج مكة، ومطاردة كل من خرج من المؤمنين من مكة، ووضعوا على قائمة الممنوعين من السفر كل من عرف عنه الإيمان أو اشتبه في إيمانه، كل هذا لوقف الهجرة إلى الحبشة، وقد يظن ظان أن المشركين سيكونون سعداء بترك المسلمين في أرض مكة، فلماذا يمنعونهم من الهجرة؟ كانت قريش تفكر بطريقة أخرى.

أولاً: أن المؤمنين اتخذوا من الحبشة موطناً ومحضناً ليربى فيه المسلمون؛ ليعودوا أشد قوة؛ لأن المؤمنين أصحاب قضية، ولن يرضوا بالحياة المستريحة في الحبشة ويتركوا قضيتهم، وكما ذكر لهم رسول الله ﷺ، فإنه قد بعث لقومه خاصة وللناس عامة، ولابد أن المؤمنين سيبذلون قصارى جهدهم ليصلوا بهذه الدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولاشك أن مكة ستكون من أهم النقاط في محطة المؤمنين، ولابد أن يرجع المؤمنون إلى أرض مكة.

ثانياً: أن المؤمنين سيغيرون علاقة الحبشة بمكة، ويجعلونها لصالحهم، فأهل الحبشة إذا رأوا أخلاق المؤمنين ونضجهم ونقاءهم، فإنهم سيستنكرون بشدة أفعال الذين عذبوهم، وقد يقطعون علاقاتهم السياسية والاقتصادية بمكة، وهذا فيه ضرر كبير بهم.

ثالثاً: خاف أهل مكة من أن أهل الحبشة يدخلون في الإسلام، ثم يقبلون على مكة بعد ذلك لغزوها، وقريش ليست لها طاقة بحرب دولة الحبشة وجيش الحبشة وملك الحبشة، وليس ببعيد من أهل مكة ما حدث من أبرهة الأشرم وهو مجرد تابع لملك الحبشة كان على منطقة اليمن.

رابعاً: كانت قريش تخشى من انتشار المد الإسلامي في خارجها، فدعوة المسلمين مقنعة، ودينهم قيم، وقرآنهم معجز، ولو تركت لهم حرية الدعوة فلاشك أن أصحاب الفطر السليمة سيدخلون في هذا الدين. فليمنع المسلمون من السفر، ولتحدد إقامتهم في أرض مكة، هكذا فكر أهل الباطل في مكة.هذه كانت وسيلة منع المسلمين من الخروج من مكة.

الوسيلة الثانية: التعذيب الشديد من جديد، وسيلة العاجز الضعيف المهزوم، والانتكاسة البشعة في الإنسانية، انقلبوا على كل من بقي من المسلمين في أرض مكة يعذبونهم، ولم يستطع حمزة وعمر رضي الله عنهما كأفراد أن يقوموا بحماية المؤمنين من هذه الحرب القرشية المنظمة.

في هذا الموقف العصيب، وتحت هـذا الضـغط القـرشي الظـالم، وخوفـاً مـن استئصـال عامـة المسلمين في لحظات الغضب والتهور غير المحسوب وغير المدروس، في هذا الموقـف الصـعب أصدر رسول الله ﷺ قراره بالهجرة مرة ثانية إلى أرض الحبشة، المرة الأولى هاجر 10 رجال و4 نساء ثم عادوا إلى مكة، ثم عاد بعضهم إلى الحبشة من جديد، أمـا في هـذه المـرة فقـد صـدرت الأوامر بهجرة أكثر من 80 رجلاً مسلماً أو 82 أو 83 وكان فيهم عمار بن ياسر، وهاجر أيضاً: 18 امرأة 11 قرشية و7 غير قرشيات، هذا غير الأطفال.

الرسول ﷺ كقائد مسئول له أهداف واضحة ومحددة، والرؤيـا عنـده واضـحة، فهـو يتحـرك بمرونة سياسية وفقهية عالية، الأهداف واضحة، والدعوة لابـد أن تصـل إلى عمـوم النـاس، والدعوة لن تصل إلى الناس إلا عن طريق الـدعاة، والـدعاة وصـلوا إلى مرحلـة مـن الإيـذاء يصعب معها استمرار الدعوة، فليكن القرار الحاسم الجريء في الوقت المناسب هجرة أكثر من 80 مسلماً، وهو ما يمثل نصف الطاقة الإسلامية تقريباً في ذلك الوقت، وهو قرار إسـتراتيجي خطير، موازنة بين الهجرة وترك الديار ونقل ميـدان العمـل إلى الحبشـة، وبـين البقـاء في مكـة واستمرار الدعوة، مع التضـييق الشـديد الـذي تمارسـه قـريش، موازنـة قـد ينفعـل الشـباب ويقولون: نبقى مهما كانت النتائج، ولو أدى ذلك إلى الموت، فهـذا مـوت في سـبيل الله، لكـن رسول الله ﷺ القائد السياسي المحنك والداعية الحكيم يعلم أن الأمور لا تسير بهذه الطريقـة، فالله عز وجل خلق النبات الضعيف ليناً طرياً مرناً، فمع الريح الشديدة يميل النبـات حتـى لا ينكسر، ثم عندما يشتد عود النبات ويصبح شجرة راسخة لها جذور عميقة؛ فإنها لا تميل أمـام الريح الشديدة، بل تظل ثابتة وتمر الرياح مهما اشتدت قوتها من حولها، هكـذا المـؤمن الفقيـه. أخذ رسول الله ﷺ القرار الجريء، وكان هذا القرار أصعب مائة مرة من قرار الهجرة الأولى.

9

هجرة الحبشة الثانية

كان هذا القرار – قرار الهجرة الثانية – أصعب بكثير من القرار الأول لأمور:

أولاً: أن قريشاً أخذت حذرها، وأغلقت أبواب مكة، ووضعت الحراس على كل مخارجها ومداخلها، فأصبح الخروج صعباً.

ثانياً: أن العدد هذه المرة كبير، ففي أول مرة كانوا 14 رجلاً و 3 نسوة، أما الآن فهم قرابة المائة من غير الأطفال والمتاع الذي أخذوه معهم، ولا ننسى أن مكة بلد صغير، فخروج هذا العدد منها يهزها.

ثالثاً: أن فيهم أسماء لامعة في الإسلام ستخرج من داخل بيوت زعماء مكة المشركين، يظهر هذا من قراءة أسماء المهاجرين إلى الحبشة في المرة الثانية.

سنجد مثلاً السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب زعيم زعماء مكة في ذلك الوقت.

وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة أيضاً كان زعيماً كبيراً من زعماء الكفر.

أما سهيل بن عمرو أحد كبار زعماء مكة، والذي كان يقوم بدور المفاوض في صلح الحديبية فقد خرج من بيته ثلاثة من أولاده: سهلة بنت سهيل بن عمرو، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وعبد الله بن سهيل بن عمرو.

وهاجرت أيضاً فاطمة بنت صفوان بن أمية وصفوان بن أمية لم يؤمن إلا بعد فتح مكة.

وهاجر فراس بن النضر بن الحارث، والنضر بن الحارث هو الذي ذهب إلى فارس وعاد يحكي للناس حياة رستم وإسفنديار وحاول أن يبعد الناس عن دين الله عز وجل بكل طريقة ممكنة، ها قد خرج ابنه مهاجراً مع المسلمين إلى الحبشة.

وهاجر هشام بن العاص بن وائل، والعاص بن وائل من أكابر المشركين، ومن الذين نزل القرآن يلعنهم: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} [مريم:77]، وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، لكن عمرو بن العاص في ذلك الوقت لم يكن قد آمن بعد.

خروج هؤلاء وأمثالهم من داخل بيوت أولئك الزعماء سيحدث زلزلة في مكة ولا شك، وسيصاب كل زعيم في كبريائه وذكائه وحكمته وتقديره للأمور والأحداث. في هذا الجو الصعب، وفي هذه الخلفية المعقدة، أصدر الرسول ﷺ القرار بالهجرة إلى الحبشة.

كان أمير المهاجرين هذه المرة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، وبدأت عملية من أعقد عمليات المناورة بخطة محكمة؛ فقد درست المداخل والمخارج بعناية شديدة، وتعاون الجميع من الصغار والكبار والرجال والنساء لإنجاح هذه المهمة، وبفضل الله سبحانه وتعالى نجحت العملية، وخرج من مكة مائة أو أكثر -على اختلاف الروايات- من الرجال والنساء والأطفال معهم المتاع والزاد، خرجوا إلى البحر الأحمر وركبوا السفن، واتجهوا إلى الحبشة، ولم ينجح الكفار في الإمساك بأي منهم! {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:38].

تصوروا موقف الكفار في اليوم الثاني وقد وجدوا مكة المكرمة نقص منها مائة شخص، تخيلوا الفراغ الهائل الذي تركه هؤلاء الصالحون والصالحات وراءهم. كان المسلمون في غزوة بدر 313، معنى هذا أنه لا يوجد بيت في مكة إلا وخرج منه ابن أو أخ أو أخت.

بفضل الله وصل المؤمنون إلى الحبشة واستقبلهم النجاشي رحمه الله خير استقبال، وكان كما قال عنه النبي ﷺ: (ملك لا يظلم عنده أحد)، كان استقباله على نفس المستوى من استقبال الوفد الأول الذي ذهب في هجرة الحبشة الأولى. لكن هل قبلت قريش بالأمر الواقع، وفكرت في إنهاء الصراع الطويل بينها وبين المؤمنين؟

الهجرة الثانية إلى الحبشة وموقف قريش منها

قد يُعتقد بأن قريشاً ارتاحت لما خرج المؤمنون الخارجون على النظام في مكة، واستقرت الأوضاع بعد ذلك، لكن لا بد أن يحدث الصدام الذي هو سنة من سنن الله عز وجل، حتى لو ترك المؤمنون البلد بالكلية: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217] أي: لا تزال قريش وراء المؤمنين في كل مكان في الأرض إلى أن ترجعهم عن الإسلام، فالهدف الأساسي لدى قريش هو تنازل المسلمين عن الدين.

وفد قريش إلى النجاشي

قررت قريش أن تتبع المسلمين في الحبشة، ولما كانت قريش لا تستطيع أن تهاجم الحبشة بجيش؛ لأنها مملكة قوية على مسافة بعيدة، بالإضافة إلى العلاقات الطيبة بين الحبشة ومكة، فبحثت قريش عن حل لا يدفع للقتال، فقررت أن ترسل وفداً يطلب من ملك الحبشة أن يرد المسلمين إليها، يعني: لجأت إلى المفاوضات السياسية بينها وبين ملك الحبشة، والمهمة صعبة؛ لأن ملك الحبشة مشتهر بين الناس أنه لا يظلم عنده أحد، مما يجعل المهمة تحتاج إلى احتيال

كبير، فحاولت قريش بكل طاقتها أن تنجح هذه المهمة، فاختارت على رأس الوفد اثنين من أمكر رجال قريش: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة وهذان أسلما بعد ذلك، لكن إسلامهما كان متأخراً.

كان عمرو بن العاص مشهوراً بالدهاء والمكر، ويستطيع بذكائه -بحسابات قريش- أن يتصرف مع ملك الحبشة، ليس هذا فحسب، بل هو صديق شخصي له، وفوق كل هذا فأخو عمرو بن العاص وهو هشام بن العاص كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة، فالأمر بالنسبة لـ عمرو يعتبر قضية شخصية، وأيضاً مهمة رسمية، وأيضاً أخو عبد الله بن ربيعة عباس بن أبي ربيعة رضي الله عنهما كان من المهاجرين، فاختاروا هذين الرجلين ليقوما بهذه المهمة في منتهى الجدية، وأنفقوا كثيراً على هذه السفارة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:36]، حملَّت قريش الوفد بالهدايا الثمينة وبالذات الجلود، وهذا نوع من الرشوة للملك ولرجال الحكم في الحبشة. كان عمرو بن العاص في منتهى الذكاء، فلم يدخل على النجاشي مباشرة، إنما ذهب في البداية إلى البطارقة، وهم يمثلون كبار رجال الحكم والدين الموجودين تحت النجاشي في الحبشة، وحمَّلهم جميعاً بالهدايا العظيمة، وبهذا ضمن وقوفهم معه ضد المسلمين، وتأثيرهم على النجاشي.

لقاء عمرو بن العاص بالنجاشي وطلبه

دخل عمرو على النجاشي، وكان اللقاء حاراً بين الصديقين، ليس هذا فقط، بل أتى له بالهدايا العظيمة وأعطاها له، وأصبح الجو مهيأً للكلام، فالكل أخذ الثمن، والابتسامات على الوجوه، والخطة جارية كما يريد.

كان عمرو شديد الذكاء، واختار كل كلمة بدقة شديدة، وأثرت كلماته مع أنها لم تستمر كثيراً،

قال: أيها الملك؛ (إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء).

وهذه سقطة من عمرو بن العاص وكذبة، فمعظم المهاجرين من الأشراف العقلاء، وليسوا من الغلمان السفهاء، ولكنه سهم يضرب به للتحقير من شأن المسلمين، وفي اعتقاده أن النجاشي لن يقدم كلام الغلمان السفهاء على كلام سفارة قريش الرسمية، كان هذا هو السهم الأول لـ عمرو.

أما السهم الثاني فقال فيه: (فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك). أي أنهم لا هم يريدوننا ولا حتى أنت شخصياً يريدونك، هكذا هم في تصوير عمرو بن العاص: لم يراعوا حق الأهل، ولا حق المستضيف لهم.

ثم قال في سهمه الثالث: (وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً)، أنا مرسل إليك من قبل أشراف ورؤساء وزعماء مكة، وهذه إشارة خفية بالتهديد بقطع العلاقات بين مكة والحبشة، ووقف كل المعاملات الاقتصادية والهدايا والجلود.

هذا أولاً. ثم ثانياً: هؤلاء الأشراف هم آباؤهم وأعمامهم، لهم حق الأبوة على هؤلاء، فـ عمرو بن العاص يحاول أن يستثير أخلاق النجاشي لرد هؤلاء الأولاد إلى آبائهم.

وثالثاً: يقول له: أنت ممكن أن تنخدع بحلاوة كلامهم، لكن الذين يعلمونهم حق العلم هم الذين عاشوا معهم فترة طويلة، كما قال عمرو بن العاص: فهم أعلى بهم عيناً؛ انتبه ولا تنخدع بكلامهم، فالذين عاشوا معهم ثلاثين وأربعين سنة يقولون لك بأنهم يكذبون ويخدعون، ويقولون كلاماً غير موافق للحقيقة. تكلم عمرو بن العاص بكلمة موجزة ذكية لا تخلو من أدب جم، وكان المطلوب فيها رد المسلمين إلى مكة.

بعدما انتهى عمرو بن العاص من كلامه، وقبل أن يتكلم النجاشي تـدخل البطارقـة والـوزراء وكبار القوم وقالوا: صـدقا أيهـا الملـك - أي: عمـرو بـن العـاص وعبـد الله بـن أبي ربيعـة - فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم. وهؤلاء البطارقة والوزراء قد أخذوا الرشـوة، وكان عمرو بن العاص يشعر بسعادة كبيرة، فكل شيء يمشي كما خطط، وكـان كـل مـراده أن يرجع النجاشي إليه المسلمين من غير أن يسمع كلامهم ولا حجتهم؛ لأن عمراً يعرف أن كلام المسلمين جميل ومقنع، وأن معهم أسلحة لا يمكنه مواجهتهـا، وأهـم هـذه الأسـلحة القـرآن الكريم، لكن النجاشي ملك لا يظلم عنده أحد، وليس من العـدل أن يحكـم في قضـية دون أن يستمع إلى الطرف الآخر. هذه أبسط قواعد العدل في الحكم.

قال النجاشي رداً على عمرو ورداً على البطارقة الموالين والمحبين لـ عمـرو: لا والله لا أسـلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فأسـألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان -غلمان سفهاء خرجوا عن دين الآبـاء وفعلـوا كذا وكذا- أسلمتهم إليهما ورددتهـم إلى قـومهم، وإن كـانوا عـلى غـير ذلـك منعـتهم مـنهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني. ثم بعث للمسلمين الذين علموا بمجيء عمـرو بـن العـاص وعبد الله بن أبي ربيعة لاستعادتهم.

اجتمع المسلمون في مجلس سريع للشورى، وقالوا: ما تقولـون للنجـاشي إذا جئتمـوه؟ قـالوا: نقول: والله ما علمنا وما أمرنا به نبينـا كائنـاً في ذلـك مـا هـو كـائن، {لا تَبْـدِيلَ لِكَلِـمَاتِ اللَّهِ} [يونس:64]. كانت الرؤية واضحة تماماً عند المسلمين بـلا خـوف أو قلـق؛ لأن الخـوف إنـما يكون من ربنا وحسب. هذا هو الشعور والإحساس الذي كـان عنـد المسـلمين، لا يوجـد أي نوع من القلق؛ لأنهم سيقولون كلام ربنا سبحان وتعالى، ثم اختاروا متحدثاً عنهم هـو جعفـر بن أبي طالب رضي الله عنه لأمور:

أولاً: أنه رئيس الوفد، ورئيس الوفد هو الممثل الرسمي للوفد، ومؤكد أنه التقى قبل ذلك بـــ النجاشي، وألف الحوار معه.

ثانياً: أنه خطيب مفوه يستطيع أن يوصل كلام المسلمين بأفضل صورة ممكنة.

ثالثاً: أنه من أشرف أشراف الوفد، هاشمي قرشي، وفي هذا رد على كلمة عمرو بن العاص: إنه قد ضوى إلى بلادك غلمان سفهاء.

اجتماع جمع المسلمين ووفد قريش ببلاط النجاشي

ذهب المسلمون للقاء النجاشي في اجتماع مهيب، كان النجاشي وسط الاجتماع ومن حوله الأساقفة والبطارقة والوزراء، وكبار رجال الدولة، وأمامهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ومن ورائهم الوفد القرشي الكافر، وجعفر بن أبي طالب ومن ورائه الوفد المسلم.

بدأ الاجتماع الكبير، وافتتح النجاشي هذا الاجتماع بسؤال للمسلمين في منتهى الوضوح والغرابة، قال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟ الغريب في السؤال أن المسلمين ما قالوا للنجاشي أي شيء قبل ذلك عن دينهم، ولا هو سأل، ولم يتحمس المسلمون للقيام بواجب الدعوة في الحبشة؛ لأن الهدف المرحلي للمسلمين في هذه الفترة هو الحفاظ على الدين ممثلاً في المسلمين، ولأنهم يدركون مدى قوتهم البسيطة، ولم يريدوا أن يفتحوا عليهم جبهات جديدة داخل الحبشة، وآثروا أن يتكتموا أمرهم، ويحافظوا على سريتهم، ويهتموا بالدواعي الأمنية للوفد المسلم على حساب الناحية الدعوية في هذه المرحلة، وهذا من فقه المرحلة.

فـ النجاشي رحمه الله لم يسأل، واكتفى فقط بمجرد قول المسلمين بأنهم قد ظلموا في بلادهم فلجئوا إليه، أما كيف ظلموا؟ ولماذا؟ لم يسأل. لكن الوضع في هذا الوقت تغير بالنسبة

للنجاشي؛ لأنه ستحدث بينه وبين مكة مشكلة سياسية، ولابد من التحقيق فيها، كما أن الوضع تغير بالنسبة للمسلمين، ولا ينبغي لهم أن يسكتوا في هذا الوقت، فهم الآن يمثلون دين الإسلام، ولو قالوا كلاماً مغايراً للحقيقة قد يفهم الإسلام بصورة خاطئة، نعم، من الممكن أن يسبب لهم التصريح بالإسلام مشكلة، لكن ليس أمامهم غير هذا، فماذا سيقول جعفر في كلمته أمام النجاشي والوزراء وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة؟ قال كلمات وكأن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعها على لسان جعفر رضي الله عنه وأرضاه، وبالترتيب الذي قاله قسم جعفر المقالة إلى عدة مقاطع، كل مقطع له غرض معين، ورتبها ترتيبًا جميلاً.

المقطع الأول قال فيه:

(أيها الملك؛ كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعف).

هذه أمور تأنف منها النفوس الكريمة، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ما زالا على هذه الصورة الخبيثة، وهذه الجاهلية التي يتحدث عنها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، ثم إن كل المشاكل التي عرضها جعفر في حال الجاهلية تتعلق بالظلم، إما الظلم مع النفس بعبادة الأصنام: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان:13]، أو مع الرحم بقطع الأرحام، أو مع الجار بالإساءة إليه، أو مع الضعيف بأكل حقه. وتخيل أن هذه الصورة تعرض على ملك عادل لا يظلم عنده أحد، ثم إن النجاشي شعر بالبشاعة التي عليها أهل مكة وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة.

فكان هذا أول سهم أطلقه جعفر بن أبي طالب في مقتل لقريش.

المقطع الثاني:

قال جعفر: (فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه)

الذي جاء بهذا الدين ليس رجلاً أفاكاً كذاباً يريد خداع الناس، إنما يشهد بصدقه وأمانته وعفافه؛ لأن الرسول ﷺ كان مشهوراً بذلك في مكة، ولا ننسى أن النصارى يؤمنون بالرسل بصفة عامة، والإنجيل والتوراة فيهما الحديث عن رسل كثيرين، فالحديث عن الرسل ليس بمستغرب لديهم. فكان هذا هو السهم الثاني من سهام جعفر رضي الله عنه وأرضاه.

المقطع الثالث: تكلم فيه عن الصورة المضادة للجاهلية،

قال: (فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام إلخ.

تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها راوية القصة: (فعدَّد عليه أمور الإسلام) أي ذكر له أموراً كثيرة من فضائل الإسلام.

أنا أريد منك أن تتخيل موقف النجاشي وهو يسمع هاتين الصورتين المتناقضتين، صورة الإسلام، وصورة الجاهلية، مع العلم أن جعفراً لم يكذب، إنما الحقيقة أن الباطل بطبيعته قبيح مقيت، والإسلام بطبيعته جميل محبوب.

فكان هذا هو السهم الثالث من سهام جعفر رضي الله عنه وأرضاه.

المقطع الرابع:

قال جعفر : (فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا).

ثم بدأ جعفر يذكر للنجاشي أن عمرو بن العاص وأهل مكة عذبونا لكي نرجع من صورة الإسلام الجميلة إلى صورة الجاهلية المقيتة القبيحة.

قال جعفر بن أبي طالب : (فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث).

وصورة التعذيب هذه تذكر النصارى بالحواريين الذين عذبوا من قبل، وهم أصحاب عيسى عليه السلام الذين عذبوا بنفس الأساليب البشعة. بعد هذا يمكن القول بأن جعفراً سيطر على مشاعر النجاشي ، بل وعلى مشاعر الأساقفة من حول النجاشي .

المقطع الأخير من البيان المسلم؛

قال فيه جعفر : (فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك).

كان كلام جعفر من غير نفاق ولا كذب، فهو يرفع من قيمة النجاشي ، وهو بذلك يكسب قلب النجاشي .. يرفع قيمة العدل عند النجاشي حتى لا يتسرع بعد ذلك النجاشي في حكمه، ولا يجور في قضائه. هنا انتهى البيان الإسلامي السياسي المحنك، والنتيجة مثلما ترون خمسة سهام قوية في صدور الكافرين.

كان واضحاً أن النجاشي والأساقفة تأثروا بكلام جعفر ، لكن النجاشي عقلية كبيرة، فــجعفر يتكلم عن رسول، والنجاشي يعـرف أن كـلام الرسـل غـير كـلام النـاس، ويريـد أن يتأكـد، وواضح أن النجاشي بدأ يهتم بأمر هذا الدين الجديد، وهناك احتمال كبير أنه كـان يعـرف عـن رسول سيأتي في ذلك الزمان، كما كان كل أهل الكتاب يعرفون.

كل هذا جعل النجاشي يقول لـجعفر : هل معـك ممـا جـاء بـه عـن الله مـن شيء؟ -يريـد أن يسمع- قال جعفر : نعم، وبدأ جعفر رضي الله عنه يبحث عما سيقرؤه من القرآن على النجاشي ومن معه؛ لأن آيات القرآن التي نزلت في مكة كثيرة، لكن الله عز وجل وفق جعفراً إلى اختيـار صدر سورة مريم التي تتحدث عن عيسى وزكريا ويحيـى علـيهم وعـلى نبينـا أفضـل الصـلاة والسلام .. السورة التي تتحدث عن السيدة مريم ومكانتها في الإسلام، وبدأ جعفر يقرأ آيات القرآن الجميلة على النجاشي ومن معه:

{كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَـنَ الْعَظْـمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِـنْ وَرَائِـي وَكَانَـتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُـوبَ وَاجْعَلْـهُ رَبِّ رَضِـيًّا * يَـا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم:1-7]. ذكريات جميلة تمـر على أسماع النصارى، بدأ النصاري يتأثرون وجعفر رضي الله عنه وأرضاه يضـرب عـلى الـوتر الحساس: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًـا شَرْقِيًّـا * فَاتَّخَـذَتْ مِـنْ دُونِهِـمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْـرًا مَقْضِـيًّا} [مريم:16-21].

لم تتحمل قلوب النصارى الكلمات المعجزة حتى بكوا وبكى النجاشي ، وبكت الأساقفة. لم تقف هدايا عمرو بن العاص حائلاً بين كلام الله عز وجل وبين قلوب السامعين، ولم يكن صعباً على النجاشي أن يأخذ القرار، قال: إن هذا والذي جاء به موسى -وفي رواية: عيسى- ليخرج من مشكاة واحدة. هذا إقرار بصدق الرسالة، وصدق رسول الله ﷺ وصدق جعفر ومن معه، ثم التفت إلى عمرو وإلى عبد الله بن أبي ربيعة فقال لهما: انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً.

كانت هذه الجولة بكاملها في صف المؤمنين، هزم فيها سفيرا قريش هزيمة منكرة في أول تجربة لقريش مع المؤمنين على أرض محايدة، وخرج عمرو بن العاص وهو في منتهى الغيظ والغضب، فقد كانت هذه ضربة قوية لكبرياء عمرو بن العاص داهية العرب في ذلك الوقت، الذي بلغ من العمر 45 سنة، بينما كان عمر جعفر 27 سنة، لكن العملية لم تكن عملية سن، العملية عملية حق، من الذي يدافع عن الحق، ومن الذي يدافع عن الباطل.

لكن عمرو بن العاص لن يغلب بسهولة، وفكر في جولة ثانية مع المسلمين، كانت هذه المرة جولة انتقامية شرسة، في المرة الأولى كان يريد أن يرجعهم إلى مكة، أما بعد الهزيمة أمام جعفر والمسلمين، فلن يكتفي بهذا، بل سيدفع النجاشي إلى قتل المسلمين، والظاهر أن هذا لم يكن الهدف من سفارة قريش، لكن الضربة التي أخذها عمرو بن العاص جعلته يتصرف بطريقة شخصية. قال عمرو لعبد الله : (والله لأنبأنه غداً عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم) وطريقته هذه في التحدي جعلت عبد الله بن أبي ربيعة يخشاه، وهو الرجل الذي جاء معه، قال: (لا تفعل، فإنهم أرحام وإن كانوا قد خالفونا)، لكن عمراً مجروح، ورفض بشدة، قال: (والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد)، وهذا شيء منكر في الحبشة، أهل الحبشة يتبعون الكنيسة في الإسكندرية، ويعتقدون أن المسيح عليه السلام هو إله تجسد في جسد بشر،

تعالى الله عما يصفون! وهذا يعكس مدى دهاء وثقافة عمرو بن العاص ، فقد كان يعـرف رأي المسلمين في عيسى عليه السـلام، ويعـرف رأي أهـل الحبشـة فيـه، ولديـه اطـلاع كـاف عـلى المعلومات التي يمكن أن يحتاجها في مهمته. ذهب عمرو في اليوم الثاني إلى النجاشي وقال لـه: (أيها الملك؛ إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً)، فأرسل إلـيهم فاسـألهم عـما يقولـون فيه، لم يقدر النجاشي أن يتجاهل مثل هذا الأمر، وبالذات في وجـود الأسـاقفة وكبـار رجـال الدولة، فاضطر أن يرسل إلى المسلمين مرة أخرى.

تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها: (ولم ينزل بنا مثلها)، كانت مشكلة خطـيرة قـد تعصـف بالوفد الإسلامي تماماً؛ لأن رأي الوفد في عيسى بن مريم عليهما السلام يتعارض كلياً مع رأي أهل الحبشة، وهم ضعفاء لاجئون، ولا يوجد مكان آخر سيقبل المسلمين في الأرض، وعمـرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ينتظران رأي النجاشي فيهم.

اجتمع المسلمون في مجلس للشورى قبل أي قـرار، وقـال بعضـهم لـبعض: (مـاذا تقولـون في عيسى إذا سألكم عنه؟) ثم قالوا في منتهى الوضوح: (نقول والله فيه ما قال الله). يقسمون بالله عز وجل أنهم سيقولون فيه ما قال الله عز وجل. (نقول والله فيه ما قال الله، وما جـاء بـه نبينـا كائناً في ذلـك مـا هـو كـائن). هـذا قـرار خطـير في عـرف السياسـيين، أو انتحـار في تصـوير السياسيين، لكن المقاييس عند المسلمين مختلفة؛ إذ الفرق ضخم وهائـل بـين المسـلم السـياسي الداعية، وبين السياسي الذي ليس له مرجعية من الشرع، المسلم السـياسي الداعيـة لـه رسـالة واضحة، وهي أن يصل بدعوته نقية إلى الناس، وهذه مسألة من مسائل العقيدة، مسـألة: هـل ربنا الله عز وجل أم المسيح؟ أما السياسي الذي ليس له مرجعية من الشرـع لا تهمـه الوسـائل، بل يريد أن يصل إلى نتيجة ولو على حساب الشرع أو الأخلاق؛ لأنهـم يقولـون: الغايـة تـبرر الوسيلة، لكن الحقيقة أن الموقف عند المسلمين لم يكن فيه أي حيرة، نعـم خطـير لكنـه لم يكـن

محيراً. نقول فيه ما قال الله عز وجل كائناً في ذلك ما هو كـائن. الموازنـة كانـت سـهلة بالنسـبة للمسلمين: لا شيء يقدم على العقيدة.

ذهب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى النجاشي ومن معه من الأساقفة، فقال له النجـاشي ما تقولون في عيسى بن مريم؟ وقف جعفر أمام ملك الحبشة في وضع صعب، وأي كلمة فيهـا خطأ قد تعصف بالوفد الإسلامي كله.

قال جعفر في منتهى الثقة: (نقول فيه الذي جاء به نبينا، نقول: هـو عبـد الله ورسـوله وروحـه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول) أي: مكانة عيسى وأمه علـيهما السـلام مكانـة عاليـة، لكنهما لا يعدوان أن يكونا بشرين من خلق الله عز وجل. كان هذا الكلام غير مقبـول في أرض الحبشة، لذا انقسم المجلس إلى موقفين: موقف للنجاشي ، وموقف للأساقفة.

أما النجاشي فقد كان موقفه مفاجأة كبـيرة للمسـلمين ولأهـل الحبشـة وللبطارقـة والـوزراء، وعمرو بن العاص ، أخذ النجاشي عود نبات من الأرض، وقال: (ما عدا عيسى بن مـريم مـا قلت هذا العود) أي: كلامك صحيح تماماً في وصف المسيح عليـه السـلام. أي: أن النجـاشي يعترف بعبودية المسيح عليه السلام، وبنبوته، وأنه ليس إلهاً، وهذا كلام في منتهـى الخطـورة في الحبشة، لم يعجب الأمر البطارقة، وتناخرت وأصدرت أصواتاً عالية تنم عن الغضب، فصـاح النجاشي فيهم في حزم، وقال: (وإن نخرتم والله)، والنجاشي بعد هذا أخـذ ثلاثـة قـرارات في منتهى الخطورة:

القرار الأول: استضافة المسلمين بالحبشة في أعلى صورة من صور تكريم الوفـود. وهـذا قـرار خطير؛ لأنه ليس على هوى كبار الأساقفة، ويحمل احتمال وقوع فتنة داخليـة في الحبشـة تطـيح بملك النجاشي نفسه، لكن هذا القرار كان مما يقتضيه العدل، والنجاشي ملك عادل رحمه الله.

القرار الثاني: قطع العلاقات الدبلوماسية مع مكة، فالبلاد التي تؤذي المؤمنين لا يجب أن يعقد معها الصالحون علاقات. قال النجاشي في وضوح: (ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها)، فخرجا من عنده كما تقول السيدة أم سلمة : (مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به).

القرار الثالث: قرار الإسلام، وهذا أخطر قرار في حياة النجاشي رحمه الله، فقد ترك النصرانية إلى الإسلام وهو على رأس دولة نصرانية متمسكة بنصرانيتها، لكنه رجل عادل لا يضيع حق الله عز وجل في أن يعبد، وعادل في أنه لا يضيع حق المؤمنين في أن يدافع عنهم، وعادل في أنه لا يضيع حق نفسه في أن يؤمن بالله عز وجل. لكن النجاشي رحمه الله لم يعلن إسلامه بل أخفى إسلامه وأظهر النصرانية، ولعل ذلك لأسباب منها: أنه خاف على ملكه أو نفسه، وما معنى إعلان جعفر بن أبي طالب لأمر الدعوة دون مواربة بينما أخفى النجاشي أمر إيمانه؟

الحقيقة أن الموقفين مختلفان؛ لأن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه له وظيفة دعوية، وللنجاشي رحمه الله وظيفة دعوية أخرى مختلفة، فمن وظيفة جعفر بن أبي طالب كرئيس للوفد الإسلامي أن يُعرّف بالإسلام بمنتهى الدقة، كل كلمة من كلمات جعفر رضي الله عنه محسوبة على الإسلام، لا ينفع هنا تورية ولا إخفاء، حتى وإن فقد جعفر حياته بكاملها، وهذا هو فقه الموازنات، أما النجاشي فهو ليس محسوباً على الإسلام أو المسلمين، ويقاس الأمر بالنسبة للنجاشي من وجهة نظر أخرى، فلو أظهر النجاشي إسلامه لاقتلعه الشعب النصراني لا محالة، ولو خلع سيختفي المكان الآمن الذي يحتفظ بكوكبة المسلمين، كما أن كتم النجاشي لإيمانه سيحتفظ له بمكانه غالباً، ويكون هذا أدعى لحماية المؤمنين، وظيفة جعفر الدعوية تقتضي أن يعلن إسلامه بوضوح، بينما وظيفة النجاشي الدعوية تقتضي أن يكتم إسلامه بحذر، وكل ميسر لما خلق له.

عاش المسلمون فترة طويلة في رعاية النجاشي رحمه الله، من السنة الخامسة من البعثة -الهجرة الأولى للحبشة- إلى العام السابع من الهجرة النبوة؛ حوالي 15 سنة. تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها: (وأقمنا عند النجاشي بخير دار مع خير جار).

إسلام حمزة

وقع حدث مهم ما بين الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، كان سبباً في تغيير كبير في مسار الدعوة، وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه، ثم إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعده بثلاثة أيام فقط، وذلك في أواخر السنة السادسة من النبوة إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [القصص:56].

نبدأ بإسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ لأنه كان الأسبق: كان حمزة بن عبد المطلب فارساً من فرسان قريش الأشداء، كان من أقواهم شكيمة رضي الله عنه وأرضاه، وفي يوم من الأيام - وكان ما يزال كافراً - خرج إلى الصيد، وفي هذا اليوم مر أبو جهل برسول الله ﷺ فوجده جالساً وحيداً عند الصفا، وكانت بعيدة قليلاً عن بيوت مكة، فتطاول على الرسول ﷺ بلسانه وسبه سباً قبيحاً، والرسول ﷺ ساكت لم يرد عليه: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} [الفرقان:63]، وهذا ليس أي جاهل، بل هو أبو جهل نفسه، ولم يزده حلم رسول الله ﷺ إلا جهلاً، فأخذ حجراً ورماه في رأس الرسول ﷺ، فسالت الدماء من رأسه! فذهب أبو جهل فرحاً بعمله، ويظن أنه لم يره أحد، لكن الله عز وجل الذي لا يغفل ولا ينام له تدبير عجيب، فقد سخر الله عز وجل مولاة لعبد الله بن جدعان رأت الذي دار بين رسول الله ﷺ وبين أبي جهل ، فلما أتى حمزة بن عبد المطلب وقفت الجارية تقص عليه الحادث. الجارية كافرة ومولاها كافر، والذي تحكي له كافر، لكن: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر:31].

قالت الجارية: (يا أبا عمارة؛ لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد) فأثارت الحمية في قلب حمزة رضي الله عنه، خصوصاً عندما زادت كلمة (ابن أخيك). قالت: (لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه محمد ولم يكلمه). انصرف محمد ﷺ؛ لأنه لا يوجد أحد يدافع عنه، فقد كان الوحيد في أعمامه الذي يدافع عنه أبو طالب ، لكن أين بقية الأعمام؟ أين أبو لهب ؟ كان من أشد المحاربين له، أين العباس وحمزة ؟ لا يوجد أحد مشغول برسول الله ﷺ، لا يوجد أحد فيهم متذكر لعبد الله والد الرسول ﷺ، يا ترى لو كان حياً هل سيكون الموقف مثل هذا؟ أين بنو هاشم؟ وأين بنو عبد مناف؟ أبو جهل زعيم بني مخزوم يضرب أشرف شرفاء بني هاشم على الإطلاق، بل أشرف إنسان في الأرض.

عندها تجمعت المشاعر في قلب حمزة .. مشاعر الحب لمحمد ﷺ، ولأبيه عبد الله الذي مات وترك محمداً لهم، مشاعر القبلية الهاشمية القرشية الشريفة، مشاعر الغيظ من زعيم بني مخزوم، مشاعر النخوة والنصرة للمظلوم، مشاعر الإحراج أمام شباب وفرسان مكة، مشاعر كثيرة جعلت الدم يغلي في قلب حمزة . ذهب حمزة مسرعاً إلى أبي جهل ، فعرف أنه في المسجد الحرام، فأقبل نحوه لا يقوى أحد على معارضته، حتى وقف أمامه، ثم رفع قوسه وضرب رأس أبي جهل ضربة شجت رأسه وتفجر منها الدم، قصاص ضربة بضربة، ودماء بدماء، وإذا كان الرسول ﷺ ضرب بعيداً عن الناس فقد ضربه بين الناس في المسجد الحرام، فضيحة بكل المقاييس.

هذا الرد في عرف الناس يشفي الغليل، لكن حمزة ما زال لم يشف غليله، ما زال يريد أن يغيظه أكثر، ولو قتله ستنشب حرب هائلة في مكة بين بني هاشم وبني مخزوم، ولكنه فكر في أشد ما يغيظ أبا جهل ، إنه الدين الجديد الإسلام، فاندفع حمزة دون تفكير وقال: (أتشتمه وأنا على

دينه، أقول ما يقول، فرد عـليّ ذلـك إن اسـتطعت)، يريـد أن يغيظـه بكـل طاقتـه، لم يفكـر في عواقب هذه الكلمة الخطيرة، المهم في هذا الوقت أن أبا جهل يذل وسط الناس.

كان أبو جهل غارقاً في فضيحته، ولم يعد يعرف بم يفكر، وحمزة أمامه يقول بأنه قد أسلم، فقام رجال من بني مخزوم لينتصروا لـأبي جهل ، لكن أبا جهل كان يخشى مـن ذلـك، فقـال في ذلـة شديدة: دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

جلس حمزة بعد هذا مع نفسه، أبهذه السهولة يدخل في دين الإسلام؟ أبهذه السـهولة يقـول في لحظة واحدة الكلمة التي رفض أن يقولها في سنوات مضت، يسمع فيها عن الإسلام، ويسـمع القرآن ولم يؤمن ست سنوات في مكة لم تنقل حمزة من الكفر إلى الإيمان، بينما نقله هذا الحـادث الواحد غير المقصود في عرف الناس. لكن احفظوا هذه الجملة: الظلم الشديد إذا تفاقم وازداد أعقبه نصر من الله عز وجل.

لا شك أن إيمان حمزة بن عبد المطلب كان نصراً للدعوة، ولو كان الإيذاء لرسول الله ﷺ سهلاً لم يكن ليلفت نظر حمزة ، لكن شدة الأذى حركت القوى في قلب حمزة التي لم تتحرك من ست سنوات، انظر إلى تدبير رب العالمين سبحانه وتعالى، كيف يمكـن أن يخلـق مـن وسـط الظلـم عدل، من الاضطهاد والقهر والبطش نصر للـدعوة، لـو كـان أبـو جهـل يعـرف أن كـل هـذا سيحصل لم يكن ليضرب الرسول ﷺ، ولكنه تدبير رب العالمين سبحانه وتعـالى: {وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:30]. ولك أن تتصور موقف الصحابة في الساعة التي ضرب فيها الرسول ﷺ، ثم في الساعة التي آمـن فيهـا حمـزة رضي الله عنـه وأرضـاه. إن هـذه رسالة إلى كل الدعاة: لا تحبطوا من الظلم الشـديد، فلعلـه الظلـم الـذي يسـبق نصرـاً عظـيماً للدعوة، هذا الوضع في مكة، وفي تاريخ الدعوة كلها قبـل الرسـول وبعـد الرسـول وإلى يـوم القيامة، إذا تفاقم الظلم ولّد نصراً للإسلام وللمسلمين.

عاد حمزة إلى بيته يفكر في الكلمة التي قالها هو كرجل صادق مع نفسه ومع مجتمعه، لا يستطيع أن يقول كلمة ثم يعود فيها، وهو في ذات الوقت كرجل صادق مع نفسه ومع مجتمعه لا يستطيع أن يدخل في دعوة لا يؤمن بها، صراع ضخم. فلجأ إلى الله عز وجل، والعرب بصفة عامة كانت تؤمن بالله وبحكمته وبعظمته وبقوته، لكنهم كانوا يحكمون غيره في حياتهم، هذه هي مشكلتهم، لكن حمزة في هذا الوقت في موقف صعب محتاج لربه سبحانه وتعالى، وهو يعرف أن الله موجود ويسمعه، لكن ما الصحيح في الأمر؟ هل أعبد الله على طريقة الأجداد واللات والعزى وهبل، أم على طريقة محمد ﷺ؟!

وقف يدعو ربنا وقال في دعائه: (اللهم ما صنعت إن كان خيرًا فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً). صنع شيئاً أشبه ما يكون بصلاة الاستخارة، فألقى الله سبحانه وتعالى في نفسه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ، فذهب إليه وقال له: (يا بن أخي؛ إني قد وقعت في أمر ولا أدري ما المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري أهو رشد أم غي شديد؛ فحدثني حديثاً فقد اشتهيت يا بن أخي أن تحدثني)، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وحدثه بما كان يحدثه به من قبل، قرأ عليه نفس القرآن، أقبل عليه الرسول ﷺ فذكره كما كان يذكره، الكلام نفس الكلام، لكن الوعاء المستقبل – حمزة – قد اختلف.

لحظة هداية من ربنا سبحانه وتعالى يختارها بحكمة، في لحظة واحدة دخل الإيمان الحقيقي على قلب حمزة رضي الله عنه وأرضاه، سمع الكلمات من رسول الله ﷺ فآمن بصدق من ساعته، قال حمزة رضي الله عنه وأرضاه بصدق: (أشهد أنك الصادق، فأظهر يا بن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء، وإني على ديني الأول).

في لحظة واحدة أصبحت الدنيا في عين حمزة لا تساوي شيئاً، لا يتمنى أن يمتلك الدنيا كلها في مقابل دينه الجديد الإسلام، وأصبح حمزة أسد الله عز وجل.

انظروا إلى النقلة الهائلة الضخمة التي نقلها الإسلام لـحمزة رضي الله عنه وأرضاه، من رجـل مغمور في صحراء الجزيرة العربية يعيش لحياته وملذاته، يخرج للصيد ثم يعود للأكل والنـوم، نقله الإسلام إلى رجل يصبح همه أن يعبِّد الناس كل الناس لرب العالمين سبحانه وتعـالى، وأن يظهر الإسلام في مكة وفي غيرها، وأن يحمـي المستضـعفين، ترقـى في القـدر مـن كونـه سـيداً لمجموعة من الرجال في قرية لا تكاد ترى على الخارطة في فترة قصيرة من عمر الدنيا لا تتجاوز سنوات معدودات، إلى كونه سيداً للشهداء في الجنة على مر التاريخ إلى يوم القيامة.

من أراد أن يعرف قيمة الإسلام فلينظر إلى حمزة قبل الإسلام وبعد الإسلام. الإسلام هو الذي صنع حمزة والصديق وعثمان وعمر وعلياً ، وكل الجيل العظيم، وهو الذي يصنع غـيرهم عـلى مر التاريخ، إذا كنا نريد رجالاً مثل حمزة فلابد أن نأخذ الإسلام كما أخذه حمزة رضي الله عنـه، ونعيشه كما عاشه حمزة وعاشه كل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

هذه كانت قصة إسلام حمزة رضي الله عنه وأرضاه، سيد الشهداء وفـارس المسـلمين رضي الله عنه.

10

إسلام عمر

عمر قبل الإسلام

ذكرنا قصة إسلام حمزة رضي الله عنه، وكيف كان إيمانه إضافة عظيمة للصف المسلم، ثم بعد ثلاثة أيام فقط من إيمان حمزة آمن رجل آخر، آمن عظيم سيغير الله عز وجل به وجه الأرض وحركة التاريخ، وسيزلزل به عروش ملوك الأرض في زمانه كسرى وقيصر وغيرهما، هذا المؤمن الجديد هو عمر الفاروق رضي الله عنه وأرضاه. منذ أول لحظات إيمانه وحتى آخر لحظات حياته رضي الله عنه وأرضاه وهو فاروق.

كانت قصة إسلامه أعجب من قصة إسلام حمزة رضي الله عنه، فحمزة رضي الله عنه خلال السنوات الست التي سبقت إسلامه كان بالنسبة للرسول ﷺ، وبالنسبة للمؤمنين لا معهم ولا عليهم، أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان تاريخه مع المسلمين كله قسوة وعنفاً.

كان عمر مثل حمزة رجل مغمور في التاريخ ككل رجال قريش قبل أن يسلموا، نعم كانت له سفارة قريش، كان مسموع الكلمة في قبيلته بني عدي وفي قريته مكة، لكن في النهاية ما هي قبيلة بني عدي، وما هي مكة بالنسبة للعالم قبل الإسلام؟ ما هي مكة بالنسبة لفارس والروم والحبشة ومصر والصين والهند؟ مجموعة من القبائل البدوية البسيطة تعيش وسط الصحراء

على الرعي والتجارة وبيع الأصنام. هؤلاء هم أهل مكة قبل الإسلام، وكـان عمـر مثلـه مثـل آلاف أو ملايين أو بلايين الرجال الذين مروا في التاريخ الذين لم يسمع بهم أحد قبل ذلك ولا بعد. وعمر فوق ذلك كله كانت فيه قسوة على المسلمين قبل إسـلامه، كـان يعـذب جاريـة لـه أسلمت من أول النهار إلى آخره، ويقول: والله مـا تركتهـا إلا ملالـة أي: ضـجرت مـن كثـرة الضرب والتعذيب.

شعرت زوجة عامر بن ربيعة رضي الله عنها برقة في كلام عمر ، لمـا رآهـا تجهـز نفسـها لهجـرة الحبشة الأولى، قال لها كلمة رقيقة، قال لها: صحبكما الله، وهي غير معتادة منه على هذه الرقـة، فقالت لزوجها في ذلك، فقال لها: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت -يعني: عمر بن الخطاب - حتى يسلم حمار الخطاب ، يأس كامل في إسلام عمر . يـرى عـامر أن فرصة إسلام حمار الخطاب أكبر من فرصة إسلام عمر ، إلا أن نظـرة المـرأة كانـت أدق مـن نظرة الرجل، ورأت بقلبها ما لم يره زوجها بعقله.

كان عمر يعيش في صراع نفسي بين أن يكون زعيماً قائداً في مكة، وبين أن يكون تابعاً لأمر هـذا الدين، فقلبه يقول له: لعل هؤلاء على الحق، فرئيسـهم الرسـول ﷺ الـذي لم تكـن حولـه أي شبهات، فهو الصادق الأمين ﷺ، لكن عقله يقول له: أنت سفير قـريش وقائـد مـن قوادهـا، والإسلام سيضيع عليك كل هذا، قسم الإسلام مكة نصفين: نصفاً يؤمن به، والنصف الثـاني يحاربه، ومنذ ستة أعوام ونحن في صراع وخلافات ومناظرات ومحاورات، وقـد عشـنا مئـات السنين نعبد الآلهة دون اعتراض من أحد أو تخطئة، فلماذا محمد ﷺ تجرأ وخطأنا؟ صراع شديد يدور في نفس عمر ، فقلبه في طريق وعقله في طريق آخر، وأصدقاء السوء كثر في مكة، وكلهـم يزينون له المنكر، في النهاية شعر بكراهية شديدة للرسول ﷺ الذي وضعه في مثل هذا الصراع النفسي الرهيب، فقد عاش عمر لا يعرف التردد، وهو الآن يريد أن يخلـص نفسـه ومكـة مـن

الرجل الذي كان سبباً في كل هذه المشاكل، أراد أن يحسم القضية كطبعه دائماً؛ لذا قرر أن يقتل الرسول ﷺ، وأن يفعل الذي فكرت فيه قريش ولم تستطع فعله، أتى القرار في ذهنه في لحظة، ومحاولة التنفيذ كانت في اللحظة الثانية مباشرة.

وكان مما زاد الأمر حماسة أن أبا جهل منذ يومين فُضح فضيحة غير مسبوقة في مكة، والذي فضحه حمزة عم الرسول ﷺ، وحمزة يدعي بأنه قد أصبح على دين محمد ﷺ، وأبو جهل خال عمر بن الخطاب. فهذه المشاكل كلها بسبب محمد ﷺ، وعمر أصيب في كرامته كما أصيب أبوجهل ، ورد الاعتبار يكون عادة في هذه البيئة بالسيف. كل هذا جعله يرى لزاماً عليه أن يتخلص من محمد ﷺ.

لحظات إسلام الفاروق

خرج عمر من بيته متوشحاً سيفه، خرج ليقتل الرسول ﷺ، ظل يبحث في كل مكان عن الرسول وهو لا يدري أين يجلس، ودار الأرقم بن أبي الأرقم لم يكن يعرفها أحد، وفي أثناء بحثه قابله نعيم بن عبد الله رضي الله عنه، ولكن لم يكن أحد يعلم بإسلامه، وهو من نفس قبيلة عمر من بني عدي، وكان واضحاً من عمر أنه في قمة الغضب، فقال له نعيم : (أين تريد؟) فقال له في منتهى الصرامة والجدية: (أريد محمداً، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسفه آلهتها فأقتله). كان نعيم رضي الله عنه يعلم أبعاد هذه الكلمات، ولا يوجد لديه وقت لتنبيه الرسول ﷺ، فلم يفكر كثيراً، ووجد نفسه مضطراً إلى كشف سر إسلام أخت عمر بن الخطاب السيدة فاطمة بنت الخطاب وإسلام زوجها سعيد بن زيد رضي الله عنه وأرضاه، حتى وإن كان عمر سيقتلهما، ولكنه في المقابل سيجد الوقت الكافي ليبلغ الرسول ﷺ حتى يأخذ حذره، فنعيم كان يظن أن هذا هو الحل الوحيد الذي قد

يصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن مراده؛ لأنه لو أخبره عن إسلام أي شخص آخر لن يهتم، ولكن إسلام أخته وزوجها شيء يطعن في كرامة عمر رضي الله عنه،

قال نعيم: (والله لقد غرتك نفسك يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟) يخوفه من بني عبد مناف، فربما تنفع، ثم قال له: (أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم) أي: اذهب إلى أهل بيتك أولاً وابدأ بهم ثم التفت إلى محمد.

فصرخ عمر في فزع: (أي أهل بيتي؟)

فقال: (ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما).

فشعر عمر أن الدماء تغلي في قلبه، ونسي كل شيء عن الرسول ﷺ، فذهب مسرعاً إلى بيت أخته، وذهب نعيم مسرعاً إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه.

في هذا الوقت كان خَبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه وأرضاه يجلس مع سعيد بن زيد وزوجته في بيتهما يعلمهما القرآن؛ فالرسول كان يقسم الصحابة إلى مجموعات، كل مجموعة تقوم بمدارسة القرآن مع بعضها، ثم يجتمعون كلهم مع رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان خباب بن الأرت هو المعلم لسعيد وزوجته. وصل عمر إلى بيت أخته ووضع أذنه على الباب فسمع صوتهم وهم يقرءون القرآن، فظل يضرب الباب بكل قوته، ولو كان يستطيع كسره لكسره، وهو ينادي بعنف: (افتحوا الباب.. افتحوا الباب)، وإذا كان عمر مرعباً في هدوئه فما بالك في غضبه، أما خباب فاختبأ في غرفة داخلية، وقال في نفسه: لئن نجا سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب فلن أنجو أنا، وخباب من الموالي ديته بسيطة، وعمر لن يفكر كثيراً قبل أن يقتله.

بعد اختباء خباب أصبح الدور على سعيد وفاطمة . قام سعيد رضي الله عنه وفتح الباب، فدخل عمر إلى البيت وهو يحترق من الغضب، قال عمر : (لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه)، ثم بدأ يضرب سعيداً فقامت فاطمة بنت الخطاب ووقفت بينه وبين سعيد تدافع عن زوجها، فالتفت إليها عمر وترك سعيد بن زيد وبدأ يضربها حتى سالت الدماء على وجه فاطمة رضي الله عنه، لما رأى سعيد هذا الأمر لم يجد بداً من الهجوم على الأمر، وقال له في تحدٍ شديد: (نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك).

استغرب عمر من شجاعة سعيد ؛ فلا يوجد في مكة من يكلمه بهذه الطريقة، وأعجب من هذا أن فاطمة المرأة الضعيفة البسيطة وقفت وأمسكت بوجه عمر ، وقالت له في قوة: (وقد كان ذلك على رغم أنفك يا عمر).

ذهل عمر. من هذا الذي يتحدث؟ أليست هذه أخته؟ ما الذي جرأها عليه؟! أحس عمر على بأسه وشدته وسطوته أنه صغير لا يستطيع أن يقف أمامها، وشعر أن الدنيا تغيرت وهو لا يعلم، أول مرة يتعرض لمثل هذا الموقف في حياته، ثم قال عمر كلمة تدل على رقة قلبه التي تختفي وراء هذه الغلظة الظاهرة، قال: (فاستحييت حين رأيت الدماء). الرجل الذي ليس فيه خير لا يستحي من رؤية دماء تسيل على وجه امرأة خرجت عن دينه، ووقفت أمامه وتحدته، وبالذات في هذه البيئة القبلية الجاهلية.

ماذا بعد الاستحياء؟

يقول عمر : (فجلست ثم قلت؛ أروني هذا الكتاب حتى أقرأه)، تنازل عمر وسكت عن تحدي سعيد وفاطمة ، ثم في هدوء يطلب أن يقرأ الكتاب الذي معها، لكن فاطمة وجهت له ضربة ثانية موجعة لعمر ، قالت: (يا أخي؛ إنك نجس على شركك وإنه لا يمسه إلا الطاهر).

كنت أقرأ هذه القصة وأتصور أني سأجد خبر مقتل فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنهـا، لكـن الموقف كان غير ذلك، قام عمر في هدوء ليغتسل. أليس هذا هو عمـر بـن الخطـاب ؟! هنـاك شيء غريب، فهذه ظروف ليس لها إلا تفسير واحـد: {إِنَّـكَ لا تَهْـدِي مَـنْ أَحْبَبْـتَ وَلَكِـنَّ اللهَّ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:56]، شاء الله عز وجل هداية عمـر ، وشـاء الله عـز وجـل الخـير لـعمر وللمسلمين وللأرض بكاملها.

قام عمر ليغتسل في بيت أخته، وكأن بالماء ينزل على رأس وجسد عمر فيغسل كل أدران الكفر والجحود، لم يكن الماء يغسل من الخارج فقط، بل يغسل قلبه وعقله معـاً. لمـا خـرج عمـر مـن الاغتسال أعطته فاطمة الصحيفة وبدأ يقرأ، ولكن بدأ يقرأ بلسانه وبعقله.

قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال: (أسماء طيبة طاهرة). من أول البسملة ظهر الخير الـذي في داخل عمر ، ثم قرأ:{طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طـه:1-2] ويلاحـظ أن عمـر ممن كان سبباً في إيجاد شقاء للرسول ﷺ ولصحابته، ثم هو الآن يقرأ قول الله عزوجل: {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنـزِيلًا مِمَّـنْ خَلَـقَ الأَرْضَ وَالسَّـمَوَاتِ الْعُلَى* الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَـا بَيْـنَهُمَا وَمَـا تَحْـتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَـى * اللهُّ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ لَـهُ الأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى} [طه:1-8]. تزلزل عمر من داخله، ووجد نفسه خاشعاً متصدعاً مـن خشـية الله عـز وجـل، يقول عمر : (فتعظمت هذه الآيات في صدري، فقلت: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله).

لقد أسلم عمر بمعنى الكلمة، أسلم لله إسلاماً كاملاً بكل ذرة في جسده رضي الله عنـه، ووالله إن هذه اللحظة من أعظم لحظات البشرية على الإطلاق، لحظة تحول فيها رجل بسـيط يسـجد لصنم ويعذب المؤمنين إلى عملاق من عمالقة الإيمان، ورجل يراقب الله عز وجل في كل حركة وكل سكنة وكلمة وهمسة، ثمان آيات صنعت الأسطورة الإسلامية العجيبة عمر رضي الله عنه

وأرضاه. عندما سمع خباب هذا الكلام من عمر خرج من مخبئه، وقال له: (يا عمر؛ والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإني سمعته بالأمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب) فالله الله يا عمر. كان يخاف أن يتراجع عن كلامه فهو يحمسه ويشجعه، ويذكر له دعاء الرسول ﷺ، فقال عمر عند ذلك. (فأين رسول الله؟) لم يقل: محمد، هكذا بكل سهولة يعترف برسالة رسول الله ﷺ، قال خباب : (إنه في دار الأرقم).

أخذ عمر سيفه فتوشحه ثم انطلق من جديد إلى رسول الله ﷺ، ولكنه في هذه المرة انطلق بقلب مؤمن، ضرب عمر الباب على رسول الله ﷺ وعلى الصحابة في دار الأرقم ، فقام أحد من الصحابة ينظر فوجد عمر وسيفه على صدره فعاد مرتعداً يقول: (هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه). كان داخل بيت الأرقم أربعين صحابياً، لكن الذي قام ليدافع عن كل الصحابة وعن رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه، مع أنه لم يؤمن إلا من ثلاثة أيام فقط، لكن إيمانه كالجبال.

قال حمزة في صلابة: (وإن كان عمر ، افتحوا له الباب، فإن كان يريد خيراً بذلناه له -أي: إن كان يريد الإسلام- وإن جاء يريد شراً قتلناه بسيفه). الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: (ائذنوا له)، دخل عمر ثم أدخلوه إلى غرفة في الدار، ثم قام إليه رسول الله ﷺ فدخل عليه واقترب منه، وأخذ بمجامع ثيابه وقال له في قوة: (ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة). كلمة تعبر عن مدى المعاناة التي كان يلاقيها المسلمون من عمر، لكن عمر الآن ليس كعمر الأول، قال بصوت منخفض: (يا رسول الله! جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله). كان هذا يمثل انتصاراً هائلاً للدعوة، وبالذات بعد دخول حمزة رضي الله عنه وأرضاه في دين الله عز وجل، كانت الفرحة في قلب الرسول ﷺ لا توصف، أول رد فعل للرسول أن كبر الله عز وجل؛ فهو الذي صنع هذه المعجزة وأتى بعمر

إلى هذه الدار، فلما علم الصحابة دخلوا عليه يهنئونه، كل العداوة القديمة انتهت، وحل محلها الحب والمودة.

عمر بعد الإسلام

ولد عمر من جديد، كما ولد حمزة عملاقاً، فإن عمر أيضاً ولد عملاقاً. ولد عمر فقيهاً حازماً مضحياً، فأول كلمة قالها بعد الإسلام كانت: (يا رسول الله؛ ألسنا على الحق؟) قال: (بلى، قال: ففيم الاختفاء)؟! وانتبه لما يقول: ألسنا على الحق؟ لا يقول: ألستم على الحق؟ فقد أصبح مسلماً، ويقترح عليهم آراء ويفكر لخدمة الدين، وينظر ما هو الأصلح، ويتحرك للدعوة، هذا هو عمر.

الإختفاء كما هو معلوم كان لأسباب، فالرسول ﷺ كان يحسب كل شيء بدقة، يأخذ بكل الأسباب، أما الآن فعلى الرسول ﷺ أن يعيد حساباته مرة أخرى؛ لأن الوضع تغير من ثلاثة أيام مضوا، إن كان للاختفاء مزايا قبل ذلك فللإعلان أيضاً مزايا، فإيمان حمزة وعمر غير الوضع، والرسول ﷺ وافق على الإعلان؛ لأن اثنين من رجال المسلمين غيرا مسار الدعوة بكاملها. في هذه الفترة الحرجة سيبدأ إعلان الإسلام في مكة، ويظهر المسلمون الشعائر أمام الناس في مكة. غير الرسول ﷺ كل المرحلة عندما دخل حمزة وعمر في الدين، أخذوا القرار وخرجوا في نفس اللحظة في صفين: عمر على أحدهما، ولم يؤمن إلا منذ دقائق، وحمزة على الآخر، وما آمن إلا منذ ثلاثة أيام فقط. سارت الكتيبة العسكرية الإسلامية من دار الأرقم إلى المسجد الحرام أكثر الأماكن ازدحاماً في مكة، حتى يراهم أكبر عدد من قريش، رأت قريش المسلمين وأمامهم حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة، يقول عمر : (فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ).

نظر عمر إلى المسجد الحرام فلم يجد أبا جهل مع الناس، وهو أشدهم محاربة للإسلام، فقرر أن يذهب إليه في بيته، ويعلن له أمر إسلامه.

يقول عمر : (فأتيته حتى ضربت عليه بابه)، فخرج إلي وقال: (مرحباً وأهلاً يا ابن أختي)، فقال عمر : (جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال عمر : فضرب الباب في وجهي)، وقال: (قبحك الله وقبح ما جئت به)، لكن عمر كان سعيداً؛ لأنه كاد لأبي جهل. كان عمر يرى أنه ما زال هناك كثر لم يعلموا بعد بأمر إسلامه، ولن يذهب إلى كل واحد في بيته يخبره، فذهب لرجل اسمه جميل بن معمر الجمحي ، وهو كما يقول سيدنا عمر (أنقل قريش لحديث)، مثل وكالات الأنباء، لا يستطيع حفظ السر، لا يسمع شيئاً إلا ونقله للناس، فذهب سيدنا عمر إليه، وقال له: (يا جميل؛ لقد أسلمت)، فنادى جميل بأعلى صوته قائلاً: (إن ابن الخطاب قد صبأ)، أي: ارتد، لكن سيدنا عمر جرى وراءه، وقال له: (كذبت ولكني أسلمت). المهم أن كل مكة علمت أن عمر قد دخل في دين الإسلام، وهذا هو المطلوب.

ردة فعل أهل مكة بعد إسلام عمر وحمزة ومساومتها للرسول

اجتمع أهل مكة حول سيدنا عمر بن الخطاب وقاموا بضربه، فظل يضرب وهم يضربون حتى تعب رضي الله عنه وأرضاه وجلس على الأرض، وهو يقول: (افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا)، أي اصبروا علينا حتى نصل إلى ثلاثمائة، وهذا الرقم الذي قاله هو عدد المسلمين في غزوة بدر، فعمر من أول يوم أسلم فيه ضرب، وكأن الله سبحانه وتعالى يعرفه طريق الدعوة وهو لا يزال في أول أيام إسلامه، كل الناس التي تحملت هم الدعوة تعبوا، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة.

مع أن عمر ضُرب في أول يوم من إسلامه إلا أن هذه كان ردة فعل استثنائية نتيجة للمفاجأة، ثم إن مكة رجعت للصواب فعمر تخاف منه الناس، ويؤكد على ذلك كلام صهيب الرومي رضي الله عنه وأرضاه، يقول: (لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به) ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر).

ومع أن وضع المسلمين تحسن بهذه الصورة، وأصبح أهل الإسلام يظهرون عباداتهم وشرائعهم في مكة، إلا أن الرسول ﷺ لم يعلن الحرب على قريش، ولم يبدأ في مواجهة عنترية مع صور الباطل في مكة، وما زالت الأصنام منتشرة في مكة، بل ما زالت الرايات الحمر للزانيات مرفوعة في مكة، والخمور تشرب، والمشركون يعبدون آلهة غير الله عز وجل، والقتال ممنوع على المسلمين، وهذا من فقه المرحلة. ربما يتحمس الشباب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة والسلاح والعنف، يظنون أنهم في زمن التمكين والسيادة، وينسون أن الرسول ﷺ نفسه كف عن كل هذا في فترة مكة. الجرأة لو حصلت من شباب المسلمين في فترة مكة على المشركين لا تعد شجاعة ولا جهاداً إنما تعد تهوراً وتسرعاً وجهلاً بفقه المرحلة، وميزان المسلمين ثقل بحمزة وبعمر لكن بحساب. وهي رسالة إلى كل المتحمسين من الشباب، ممن يعيشون ظروفاً مشابهة لظروف مكة، وأيضاً من غير حمزة وعمر، ومع ذلك يحدث تهور واندفاع، أقول لهم: كم تخسر الدعوات من حماسة في غير موضعها تماماً، كما تخسر من روية في غير موضعها.

كان وضع المسلمين التعذيب، ولا يوجد قتال، وأيضاً لا توجد مواجهة مع المشركين في مكة، مع كون قوتهم زادت؛ لأن هناك الكثير في مكة سيفكر في الإسلام، وسوف يتحفزون بإسلام حمزة وعمر؛ ولأن المسلمين أعلنوا إسلامهم وبدءوا بالصلاة وقراءة القرآن أمام الناس، ومكة

بدأت تنظر إلى حلاوة الإسلام وشرائعه. وأهل الباطل كانوا في موقف صعب، وكأن الموضوع سيخرج من أيديهم، فالدعوة تتسلل وتدخل إلى كل بيت حتى بيوت الزعماء منهم، فماذا صنعوا؟

عقد أهل مكة اجتماعاً على مستوى القادة والزعماء، وحضره كل زعماء مكة، وتقدم عتبة بن ربيعة –زعيم بني أمية، وأحد حكماء قريش باقتراح، قال: (يا معشر قريش؛ ألا أقوم إلى محمد ﷺ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا). وهي أمور مغرية، والرسول ﷺ هو الذي سيختار، وهذا يمثل تنازلاً خطيراً من زعماء قريش، يفسر الوضع الذي أصبحت فيه مكة بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، ومع أن هذا على غير هوى المعظم، إلا أنهم وافقوا مضطرين، قالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه.

ذهب عتبة إلى الرسول ﷺ فوجده جالساً لوحده بجانب البيت الحرام، فتلطف معه وابتسم وقعد وبدأ يتكلم، وكان ذكياً، وكلامه في عرف كل الناس لا يرفض، قال عتبة : (يا ابن أخي؛ إنك منا حيث قد علمت من الثقة في العشيرة، والمكان في النسب)، أي أن مكانتك عندنا كبيرة، ونحن نحبك ونحترمك، وهذه طريقة ثعبانية مشهورة عند عتبة وعند أمثال عتبة، ثم بدأ يذكر مراده، فقال له مكانتك العالية إلا أنك عملت أشياء تعتبر في عرف مكة جرائم عظمى، فأنت متهم بكذا وكذا وكذا، وهذا شيء خطير وموقفك صعب.

قال له: (إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم) أي: أنت متهم بزعزعة نظام الحكم في مكة، فاترك الدين لأهله من الكهان وسدنة الأصنام، وإلا فإن مستقبلك في خطر، وأنت لك مكانة، وعندك أولاد، ونحن نريد مصلحتك ونحبك، ولأننا نحبك سنعرض عليك كذا وكذا من الاقتراحات فاختر منها ما يعجبك. بهذه المقدمة الثعبانية يقدم له الاقتراحات المغرية، ويبين له

أن رفضها معناه تأكيد هذه التهم الخطيرة في حقك، وأما عقابها فأنت تعلمه. حرب نفسية شديدة، لكن هذه الحرب مغلفة بابتسامة وضحكة وسلام واحترام.

يعلم الرسول ﷺ هذه اللعبة من أولها إلى آخرها، ويدرك أن هذه مساومة على الدين، ومع ذلك كان في غاية الأدب مع عتبة المشرك، وقال له في منتهى الرقة: (قل: يا أبا الوليد اسمع). وبدأ في الكلام والرسول ﷺ يسمع ولم يقاطعه حتى يعطيه عتبة فرصة أن يتكلم، وسنرى بعد ذلك كيف أن عتبة كان يسمع للرسول من غير مقاطعة أيضاً. بدأ عتبة في عرض أمور لو عرض عشرها على مفاوضي هذه الأيام لقبلوها دون تردد، قال عتبة:

العرض الأول: (يا ابن أخي؛ إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً) أي: ستكون أغنى رجل في مكة، وكم من أناس تضحي بحياتها من أجل المال، وها هو يبذل له المال ليكون الأغنى في مكة من غير أي مجهود.

العرض الثاني: (وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك). وهذا شيء غريب في مكة، فكل قبيلة كانت كأنها دولة مستقلة، لكن عتبة يقول له: رأيك سيعمم على كل الناس.

العرض الثالث: (وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا). وهذا أمر لم يحلم به أحد في مكة أبداً، سيكون أول ملك على مكة.

العرض الرابع: وهو عرض غير مؤدب، إلا أنه يحاول أن يقوله في صورة مؤدبة، يقول: (وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب على الرجل حتى يداوى منه) أي: أنت لو لم تقبل كل تلك العروض فأنت مجنون، تحتاج إلى علاج أو أن الجن توجهك من غير قصدك، ونحن نعلم أنك

رجل صالح، وليس لدينا أي مانع من علاجك في أي مكـان تريـده، لـو أردت أن نسـفرك أو نجلب لك دكتوراً فارسياً أو رومياً أو هندياً.

كانت هذه عروض عتبة بن ربيعة التي كان يذكرها، وهو يرى أنه يقـدم أكـبر تنـازل ممكـن أن يقدمه في تاريخ مكة كلها، وهذه حقيقة، فلا يوجد أحد في مكة قد عرضت عليه هـذه الأمـور التي عرضت على رسول الله ﷺ، وفي عرف أهل مكة أن الـذي سـيرفض هـذا مجنـون أو فيـه جن، وكل هذه العروض في مقابل السكوت عن الحـق وتـرك الـدعوة وعـدم الكـلام فـيما لا يرضي الأسياد في مكة.

كان الرسول ﷺ يدرك تماماً أن التنازلات الضخمة في حياة الدعاة تبـدأ عـادة بتنـازل صـغير، والرسول ﷺ لا يمكن أن يتنازل، ومع أنه من أول كلمة قالها عتبة -وهو يعلم أنها مسـاومات لا قيمة لها- عازم على رفض كل هذه العروض الدنيويـة السـفيهة في نظـر الـدعاة الصـادقين، ومع كل ذلك إلا أنه لم يقاطع عتبة ولا مرة، ولم يسخط عليه ولم يعاتبه، بل تركـه يـتكلم حتـى أنهى كلامه، ثم رد عليه بهدوء وعدم انفعال؛ (أقد فرغت يا أبا الوليـد؟) قـال: (نعـم)، فقـال رسول الله ﷺ: (فاسمع مني)، قال: (أفعل). وهذا هو المطلوب، وهو لا يسـتطيع أن يـرفض، فبعد الأدب العظيم الذي رآه من رسول الله ﷺ كان مضطراً لأن يسمع، فبدأ الرسـول ﷺ في الكلام، ولم يتكلم بكلامه هو ﷺ إنما تكلم بالقرآن، قال ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم {حـم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُـونَ} [فصـلت:1-3]، ومن هؤلاء القوم عتبة {بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} [فصلت:4]، وأيضاً من هؤلاء عتبة ومن معه، {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [فصلت:5]، أليس هذا كلام عتبة ؟{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا

عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [فصلت:1-7].

كان عتبة يسمع ولا يستطيع أن يرد؛ لأنها كلمات معجزة تكشف عما بداخله وداخل كل بني آدم، وكلما سمع أكثر يخاف أكثر، فالآيات تلقى عليه مثل الصاعقة، فقرأ رسول الله ﷺ قول الله سبحانه وتعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت:12]. أفبعد كل هذه الصفات يذهب أحدكم ليسجد لهبل أو اللات أو العزى؟ أين عقلك يا عتبة ؟! أين عقل كل المشركين؟! ثم قرأ عليه الرسول ﷺ: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت:13]، أحس عتبة أن الصاعقة نازلة أو ستنزل الآن، فلم يتمالك نفسه، ونسي وقاره ومكانته في مكة، وكل المفاوضات وعداوته للإسلام، نسي كل شيء، وقام يترجى الرسول ﷺ، ووضع يده على فم الرسول ﷺ وهو يقول: (أنشدك الله والرحم.. أنشدك الله والرحم)، ثم ذهب وهو يتخبط، لا ينظر وراءه، وهو واضع يده على رأسه يخاف الصاعقة أن تنزل عليه.

رجع عتبة إلى الكفار بمنظر عجيب، وزعماء قريش لم يكونوا محتاجين لأي ذكاء حتى يعرفوا الذي حصل له، حتى قال بعضهم: (نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به)، قالوا: (ما وراءك يا أبا الوليد؟) فقص عليهم ما جرى بمنتهى الصدق، وكأنه أحد الدعاة إلى الإسلام، قال: (تسألون ما الذي حصل لي؟ ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش؛ أطيعوني واجعلوها فيَّ،

وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه) -أي: اعتزلوه ليس لكم دخل به، اتركوه في حاله، لستم نداً له- (فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به).

لم يعجب زعماء قريش ما جاء به عتبة ، وقالوا له: (سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه)، فقال: (هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم).

كان معنى هذا أن المفاوضات بين رسول الله ﷺ وبين المشركين فشلت، مع أن العروض كانت مغرية، حتى يعلمنا الرسول ﷺ أن السلام ليس معناه التنازل، وأنه لا يكون إلا بحفظ الحقوق، وأول حق لابد أن تحافظ عليه هو حق ربنا سبحانه وتعالى، لا يجوز أبداً لمفاوض أو معاهد أن يبني عهده وميثاقه على مخالفة لحق الله عز وجل، هذا دستور إسلامي واضح.

حصار الشعب

بعد هذا الانهيار الكامل للمباحثات بدا وكأن حدثاً كبيراً سيقع، كان أبو طالب يراقب الموقف، ويرى أن قريشاً لن تسكت على هذا الذي حدث، وكان يخشى أن أحداً من سفهاء قريش يتهور ويذهب لقتل الرسول ﷺ، وهو يحبه أكثر من أولاده؛ لذا لم يجد إلا حلاً واحداً، قام أبو طالب بسرعة ودعا بني عبد مناف بشقيها بني هاشم وبني المطلب- المطلب هو عم عبد المطلب جد رسول الله ﷺ- وطلب منهم أن يجتمعوا لحماية محمد ﷺ، فأجاب جميع القوم مسلمهم وكافرهم حمية وقبلية وطاعة لكبيرهم أبي طالب، وبذلك انقسمت مكة إلى نصفين: بني عبد مناف في جهة، وبقية أهل مكة في جهة أخرى، وإذا كان أبو طالب يخاف من زعماء مكة، فأيضاً زعماء مكة يخافون من المسلمين، ولا قدرة لهم بهم بعد إسلام حمزة وعمر، فحمزة من فرسان قريش الأشداء، وعمر سفير مكة الرسمي، وبنو عبد مناف اتحدوا من أجل حماية

الرسول ﷺ، والطرق السلمية لم تعد تنفع، وفي نفس الوقت لا طاقة لهم بقتال الرسول ﷺ ومن معه من بني عبد مناف؛ لذا اجتمع كفار قريش من جديد وخرجوا بفكرة جديدة في حرب الدعوة وهي المقاطعة، سياسة الحصار الاقتصادي لبني عبد مناف، سياسة التجويع الجماعي لبني عبد مناف، سواء كانوا مسلمين أو كفاراً، ومع العلم أن هذا القانون الجديد يعتبر مخالفاً لأعراف مكة وقوانينها السابقة، لكن لا توجد مشكلة في أن يتغير الدستور، فكل شيء بأيديهم، فلا يهم الشهر الحرام ولا البلد الحرام، المهم المصالح فهي ما يقدم على الأعراف والقوانين، فلا مبدأ، ولا قانون ولا حتى عهد يُحترم. كتبوا قانون المقاطعة، وفيه:

"على أهل مكة بكاملها في علاقتهم مع بني عبد مناف ألا يناكحوهم. أي: لا يتزوجوا منهم ولا يزوجهم. وألا يبايعوهم. أي: لا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم.

وألا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم، وألا يقبلوا من بني هاشم وبني المطلب صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة؛ حتى يسلموا رسول الله ﷺ لهم للقتل".

هكذا بمنتهى الوضوح. وبدأ تنفيذ الحصار الرهيب في أول ليلة من ليالي المحرم في السنة السابعة من البعثة، ودخل بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم إلى شعب أبي طالب ومعهم الرسول ﷺ؛ حتى يتجمعوا كلهم حول الرسول ﷺ، ويحموه من أهل مكة.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من المعاناة والألم، فقد قطع الطعام تماماً عن المحاصرين، فلا بيع ولا شراء، حتى الطعام الذي يأتي مكة من خارجها يشتريه الكفار بسعر عال؛ حتى لا تستطيع بنو عبد مناف شراءه، وأصبح الموقف صعباً، فقد أخذوا الأولاد والنساء في داخل الشعب؛ حتى كان يسمع أصوات النساء والصبيان يصرخون من الجوع، وحتى اضطروا إلى أكل أوراق

الشجر، وظلوا كذلك ثلاث سنين كاملة. من محرم في السنة السابعة من البعثة إلى المحرم سنة عشر من البعثة، مأساة بشرية حقيقية. ثلاث سنوات من الظلم والحصار الجماعي، صورة جاهلية تكررت كثيراً بعد ذلك في الدنيا، نعم اخترعها أهل قريش في ذلك الوقت، لكن للأسف حصلت كثيراً ودائماً مع المسلمين، تكررت في العراق وفي ليبيا والسودان وأفغانستان والصومال وإيران ولبنان وفلسطين، كثير من المسلمين يحاصرون في بقاع الأرض.

ليس الغريب في هذا الحصار أن يضحي المسلمون من بني هاشم وبني المطلب بأنفسهم وبزوجاتهم وبأولادهم؛ لأنهم يقاتلون من أجل عقيدة، لكن الغريب فعلاً أن يصبر الكافر من بني هاشم وبني المطلب على هذا الحصار وهو لا يرجو جنة ولا يخاف من نار، بل لا يؤمن بالبعث، ومع ذلك وقفوا هذه الوقفة الرجولية مع مؤمني بني عبد مناف، لكنهم وقفوا هذه الوقفة حمية، حمية الكرامة أن يهان رجل من نفس القبيلة، حمية الدم والقرابة، حمية العهد الذي قطعوه على أنفسهم قبل رسالة الرسول ﷺ أن يتعاونوا سوياً في حرب غيرهم، حمية واقعية ليست بالخطب والمقالات والأشعار، وضحوا بأنفسهم وأولادهم وزوجاتهم من أجل كلمة.

فك حصار الشعب

بعد ثلاث سنوات من حصار الشعب شاء الله عز وجل أن يفك الحصار، وذلك بأن أحد المشركين من بني عامر بن لؤي، لا هو من بني هاشم ولا من بني المطلب أحس بشيء في صدره، وهذا الرجل هو هشام بن عمرو ، ظل يسأل نفسه: كيف نأكل ونشرب وهؤلاء لا يأكلون ولا يشربون؟ كيف ينام أطفالنا شابعين وهؤلاء ينام أطفالهم جائعين؟ فكان يحمل الطعام بنفسه سراً إلى شعب أبي طالب ، وظل على ذلك فترة، وبعد ذلك أحس بأن ذلك ليس بكاف، ولابد أن يكون هناك موقف أكبر، وأن يفعل شيئاً حتى ينقض هذه الصحيفة، ويلغي

هذا القانون الظالم، ولكن هو لوحده وقبيلته ليست كبيرة، كما أن زعماء مكة كلهم يقفون خلف هذا القانون.

بدأ يبحث عمن يساعده، فبدأ برجل من بني مخزوم أكبر القبائل القرشية، وهي قبيلة اعتادت أن تعارض بني هاشم وتتنافس معها، فإذا قبلت هذه القبيلة بفك الحصار فبقية القبائل ستفك الحصار في الغالب، لكن من الذي سيرضى من بني مخزوم بالوقوف مع بني هاشم ضد بني مخزوم، ولا ننسى أن أبا جهل هو زعيم بني مخزوم، وهو من أشد المتحمسين للمقاطعة، فكان لابد من شخصية تعادله، وتستطيع الوقوف أمامه، فذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي ؛ لأن أمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، فلديه دوافع فطرية عصبية، فذهب إليه وكلمه، فقال له: (يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وأخوالك حيث تعلم). يعني: هؤلاء أخوالك وأنت تتبع أبا جهل ؟ هل نسيت أن بني هاشم أخوالك؟ ثم قال له كلمة خطيرة جداً، قال له: (أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام -يعني: أخوال أبي جهل - ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه من المقاطعة ما أجابك إليه أبداً). يعني: أنت بذلك تخاف من أبي جهل ، فقال له زهير : (ويحك ما أصنع وأنا رجل واحد؟) ثم قال: (أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها)، فقام هشام بن عمرو وفاجأه وقال له: (وجدته لك)، قال: (فمن هو؟) قال: أنا، قال زهير : (فلننظر لنا ثالثاً أيضاً).

ترك هشام بن عمرو زهيراً وذهب يبحث عن ثالث من ذوي الأخلاق، ذهب إلى المطعم بن عدي من بني نوفل، -أتى بقبيلة ثالثة، ذهب إليه وذكره بأرحام بني المطلب وبني هاشم، فقال المطعم : (ويحك ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد)، قال: (قد وجدت ثانياً)، قال: (من هو؟) قال: (أنا)، قال المطعم : (ابحث لنا عن رجل ثالث؟) فقال: (قد فعلت)، قال: (من هو؟) قال: (زهير بن أبي أمية) ، قال: (ابحث لنا عن رجل رابع).

المهمة صعبة جداً؛ لأن هؤلاء سيقفون أمام كل زعماء الكفر في مكة، ومن أجل رجل خرج عن دينهم، ويقوم بسب الآلهة، ويأتي بقوانين جديدة لمكة، مهمة صعبة فعلاً أن تدافع عن هذا الرجل، وعن أولئك الذين ساعدوه والتزموا بدينه. لكن هشام بن عمرو الكافر لم ييأس، وذهب يبحث عن رابع، فذهب إلى أبي البَختري بن هشام -البختري بفتح الباء- وقال له مثل ما قال للمطعم ، فقال له: (وهل من أحد يعين على هذا؟) قال هشام : (نعم، زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا)، فقال أبو البختري : (ابحث لنا عن رجل خامس؟)

فذهب هشام بن عمرو بمنتهى الحميَّة يبحث من جديد عن رجل خامس، ذهب إلى زمعة بن الأسود وهو من بني أسد، فقال له زمعة : (وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟) قال: (نعم)، ثم ذكر له الأربعة السابقين، فوافق زمعة بن الأسود الأسدي ولم يطلب السادس، واجتمع الخمسة وأخذوا القرار الجريء الذي سيعارضون به أكابر القوم، فهم سيطرحون رأياً قد يؤدي إلى انقسام حاد في المجتمع المكي ونصرة دين لا يقتنعون به ولا يرتبطون.

لماذا هذا كله؟ ما الذي حركهم؟ حركتهم حمية النخوة، فأنت ترفض أن ترى أي إنسان مؤمناً كان أو كافراً يعذب أو يظلم أو يجوّع أو يعطِّش. هذه النخوة التي زرعت في قلوب أناس ما عرفوا الله عز وجل، لكن هذه النخوة للأسف لم نرها من مسلمين كثر رأوا وشاهدوا بأعينهم جرائم الحصار والقتل في آلاف وملايين المسلمين في العراق والبوسنة وكوسوفا والشيشان وفلسطين.. وغيرها. كيف أن هشام بن عمرو الكافر والكفار الذين معه لم يأتهم نوم؛ لأن المسلمين يعذبون؟ وكيف يوجد في الأرض مسلمون ينامون ويأكلون ويشربون ولا يهمهم ما يحدث لإخوانهم وأخواتهم في أكثر من مكان في العالم؟! كيف؟! أين النخوة التي تحركت في قلوب الكافرين الخمسة؟ أين النخوة التي دفعتهم لمعاداة قريش دون مصلحة شخصية

متحققة؟ أيأتي على المسلمين زمان نرجو فيه أن تكون أخلاقهم كبعض أخلاق الكافرين، نحن نحتاج فعلاً إلى وقفة مع النفس.

اجتمع الرجال الخمسة واتفقوا على نقض الصحيفة وحددوا اليوم، قال زهير: (أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم)، وقف زهير في المسجد ونادى على أهل مكة، ثم قال: (يا أهل مكة؛ أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة). لم يسكت أبو جهل زعيم مكة وزعيم بني مخزوم، فقام وقال بمنتهى الحماسة: (كذبت والله لا تُشَق)، فقام زمعة بن الأسود ، وقال: (أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت)، فقام أبو البختري بن هشام فقال: (صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به)، فقام المطعم بن عدي وقال: (صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نحن نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها)، ثم قام هشام بن عمرو الذي جمعهم فقال نفس الكلام، وصدق المطالبون بنقض الصحيفة، فوجد أبو جهل نفسه محاصراً بآراء خمسة من الرجال، فقال: إن هذا أمر دُبِّر بليل.

فإذا كان أبو جهل زعيم مكة ووراءه كثير من زعماء مكة، فالله سبحانه وتعالى قدر فك الحصار، فحدث شيء آخر تزامن مع هذه الأحداث، وأوحى الله عز وجل إلى نبيه أن الأَرَضَة -دودة الأرض- قد أكلت الصحيفة، ولم تترك فيها إلا ما كان من اسم الله عز وجل.

وأخبر رسول الله ﷺ عمه أبا طالب بذلك الأمر، فأخذ أبو طالب الكلمات، وذهب إلى نادي قريش، فوجد المشكلة قائمة فتدخل في الحديث، وقال: (إن ابن أخي قال كذا وكذا؛ فإن كان كاذباً وكانت الأرضة لم تأكل الصحيفة ولم تترك فيها إلا باسمك اللهم خلينا بينكم وبينه، تأخذونه وتقتلونه، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا). فقال زعماء قريش في المسجد الحرام: (قد أنصفت يا أبا طالب) ، وذهبوا إلى الصحيفة في جوف الكعبة، فإذا هي كما ذكر

رسول الله ﷺ. آية واضحة لم يكن عند زعماء مكة أمامها أي اختيار سوى نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة، بعد ثلاث سنوات كاملة من الحصار والتجويع.

لم يضع مجهود هشام بن عمرو مع أنه كافر وانتهى الحصار، ثم إن هشام بن عمرو أسلم بعد ذلك بعد فتح مكة، بعد أكثر من عشر سنين من هذه القصة، وأيضاً زهير بن أبي أمية أسلم، أما الثلاثة الباقون فماتوا على الكفر.

شاء الله عز وجل أن يتأخر هذا الإنقاذ إلى ثلاث سنوات، وكان من الممكن أن يقع بعد فترة وجيزة جداً من الحصار كشهر أو اثنين أو ثلاثة، لكن لابد من التأخير، فقد خرج المؤمنون من هذا الحصار أشد شكيمة، وأعمق إيماناً، وأقوى تمسكاً بدينهم وعقيدتهم، لقد تم الابتلاء والامتحان، ونجح المؤمنون.

لابد أن يثبت الصادقون صدقهم بالتعرض للبلاء والثبات على الحق، يقول الله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ} [الرعد:17]، لابد أن يصهر المؤمنون في نار الابتلاء؛ للتنقية وللتربية وللتزكية، للتنقية من المنافقين والكاذبين، وللتربية على الثبات والتضحية في سبيل الله، وللتزكية وتطهير النفوس من الذنوب والخطايا؛ لذلك كان هناك حصار وهجرة للحبشة، وإيذاء وتعذيب..

كل هذه مراحل تربوية في غاية الأهمية صنعت جيلاً من الصحابة، يستطيع أن يلقى الأهوال ولا تلين له قناة، ولا تخور له عزيمة، ولا يهتز له قلب ولا عقل ولا جارحة.

11

عـام الحـزن

موت أبي طالب وأثره على رسول الله ﷺ

بدأت السنة العاشرة بمرض أبي طالب الذي بلغ الثمانين مـن عمـره، كـما أن حصـار الشـعب لثلاث سنوات أكل فيها من ورق الشجر والجلود، بالإضافة إلى القلق، كل هـذا أضـعف مـن قوته ولم يتحمل، ولشدة مرضه كانوا يتوقعون له الموت في أي لحظة، وكان زعماء الكفر يخافون من إيذاء رسول الله ﷺ حتى بعد موت أبي طالب فتعيرهم العرب بأنهم استغلوا موتـه لإيـذاء ابن أخيه، كانت توجد بقايا حياء عند أهل الجاهلية؛ لذا ذهبـوا إلى أبي طالـب وطلبـوا منـه في صراحة أن ينظر لهم أي حل مع محمد ﷺ قبل أن يموت، وجمعوا لـذلك وفـداً مهيبـاً مـن 25 رجلاً، كان منهم أبو جهل وأبو سفيان وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وأمية بـن خلـف وغيرهم كثير، قالوا له: (يا أبا طالب؛ إنك منـا حيـث قـد علمـت -أي أن لـك مكانـة كبـيرة عندنا- وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك من المـوت، وقـد علمـت الـذي بيننـا وبـين ابـن أخيك، فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعـه ودينـه)، وهذا تنازل جديد، وهو في الحقيقة عرض مغر مـن زعـماء مكـة، فقبـل هـذا كـانوا يسـاومون الرسول ﷺ ليترك فكرة الإسلام، وفي هذا الوقت يطلبون منه أن يظل هو وأصحابه مسلمين،

ونحن سنظل على ديننا، وليس لأحد دخل بالآخر، فهؤلاء وهؤلاء سيعيشون متجاورين ولا يؤذي بعضهم بعضاً، لكن في المقابل ألا يتكلم رسول الله ﷺ في معتقدات قريش، وألا ينكر عليهم منكراً، وألا يأمرهم بمعروف، وألا ينصح أحداً بتطبيق أحكام الله عز وجل على عباد الله، متى ما أرادوا الصلاة فليس هناك مانع، ومتى ما أرادوا الطواف بالكعبة ليس هناك مانع، لكن ليس لهم دخل في شئون مكة الدنيوية، بل يفصلون دينهم عن دنيا مكة.

كان الرسول ﷺ للتو خارجاً من الحصار الرهيب الذي امتد ثلاث سنين، والمسلمون وبنو عبد مناف منهكون، وأبو طالب سوف يموت، ونصف المسلمين مهاجر إلى الحبشة، أي: أن الوضع في مجمله ضعيف، والذي يرى هذا الوضع يعتقد أن هذه فرصة كبيرة للمسلمين.

أرسل أبو طالب إلى رسول الله ﷺ وقال له في حضور المشركين: (هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك)، فالرسول ﷺ رد عليه وقال: (يا عم؛ أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟) قال أبو طالب : (وإلى ما تدعوهم؟) قال: (أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة واحدة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم). القرشيون ما كانوا يحلمون أبداً بوحدة العرب، وفوق هذا أيضاً العجم. هذا فوق حدود التخيل، أين هم من فارس والروم؟ كل هذا بكلمة؟

أبو جهل كان يظن نفسه ملكاً، والعرب كلها ستسمع كلامه، وأيضاً كسرى وقيصر، فوجد نفسه يقول: (ما هي هذه الكلمة؟) اندفع في تهور كالعادة وقال: (وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها)، فقال رسول الله ﷺ: (تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه)، فأبو جهل والذين معه أُصيبوا بالذعر، أما زلت مُصراً على ما أنت عليه؟ أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب. فهؤلاء الكفار عاشوا يقاتلون من أجل قضية خاسرة، لها يتعبون ويسهرون ويحزنون ويتألمون، وبعد هذا ما هي النتيجة؟ النتيجة لكل هذا التعب

والسهر والكد والعرق، يقول سبحانه وتعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} [طه:124]. هذه هي العيشة التي يعيشونها، اجتماعات ومؤتمرات ولقاءات، فهم في حذر وترقب ورعب وهلع، لا يستطيعوا أن يطمئنوا ولا أن يناموا ولا حتى أن يستمتعوا بحياتهم {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} [طه:124] ومع هذا أيضاً {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه:124] نسأل الله العافية.

أما الصحابة فقد قالوا هذه الكلمة، واستطاعوا فعلاً تجميع العرب تحت راية واحدة، وبعد أن انتهوا من العرب انتقلوا إلى غيرهم، فقد سقطت عروش كسرى وقيصر .. وغيرهما من ملوك الأرض بجيش لا إله إلا الله، فُتحت بقاع مهولة بلا إله إلا الله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً بلا إله إلا الله، كل هذا حصل بلا إله إلا الله، كل هذا حصل بمنهج الإسلام، والذي لم يجعل لا إله إلا الله منهجه كان مصيره كمصير من كانوا في غزوة بدر، ذلة في الدنيا وذلة في الآخرة.

فشلت المفاوضات مع رسول الله ﷺ، والموقف ظل كما هو عليه لفترة في مكة، ثم دخل المسلمون في ابتلاء جديد، وحلقات متتابعة من الابتلاء والتمحيص، حياة كلها ابتلاء {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك:2].

كان أبو طالب أكثر من يساعد المسلمين، ولكيلا يظن أحد أن الدعوة معتمدة على إنسان معين مهما كان، لا بد أن هذا الإنسان يموت، وننظر ما الذي سوف يحصل للدعوة؟ سنجد أن الدعوة ستظل كما هي؛ لأنها دعوة ربنا سبحانه وتعالى، ليست مرتبطة بموت إنسان ولا بحياته مهما كان هذا الإنسان. مات أبو طالب في السنة العاشرة من البعثة، وكان موته مأساوياً إلى أبعد درجة، ليس لأنه مات، وأنه كان ينصر الدعوة، ويحمي الرسول ﷺ، لا؛ ولكن لأنه مات مشركاً كافراً، مات على غير الحق الذي طالما دافع عنه.

في لحظة موته ذهب إليه الرسول ﷺ فوجد أبا جهل عنده، قد سبق إليه ليتأكد أنه سيموت من غير أن يغير دينه القديم، ومن غير أن يترك هبل. دخل الرسـول ﷺ عـلى أبي طالـب يريـد أن يدركه قبل أن يموت، فمنذ عشر سنين وهو يدعوه إلى الإسـلام وهـو يـرفض، والرسـول ﷺ يعرف أنه لو مات كافراً فإن مصيره جهنم. أبعد كل هذا الـدفاع والكفـاح والتعـب والنصـب يخلد في النار؟

قال له الرسول ﷺ: (أي عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)، أي: أن الرسـول ﷺ بنفسه سوف يقف يدافع عنه ويشفع له. وكان أبو جهل في قلق لموت أبي طالب ، ولو آمـن فقد تؤمن قبيلة بني هاشم، ولو حصل هذا فمن الممكن أن تؤمن مكة، فأراد أن يسـتخدم كـل إمكانياته وطاقاته ليعيش لقضيته تماماً.

قال أبو جهل: (يا أبا طالب؛ أترغب عن ملة عبد المطلب ؟). كـان أبـو جهـل يكـره كـل بنـي هاشم، وعاش عمره ينافسهم ويحاربهم، لكنه يلمس في أبي طالب التقاليد.

أما أبو طالب فقد كان حيران بين أعظم الخلق وأبلغ البشر ﷺ، وبين فرعون هذه الأمة وإمـام الكفر أبي جهل لعنه الله، وفي الأخير كانت النتيجة بعد التفكير، وكان القرار قبل أن يموت أنه قال: (هو على ملة عبد المطلب) . عبادة هبل واللات والعزى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تخيل مدى الألم في قلب رسول الله ﷺ، كان يحب عمه، ويرى بعينيه مـدى الجهـد الـذي كـان يقوم به، ومقدار خدمته للإسلام، فقال ﷺ في حزن شديد: (لأستغفرن لك مـا لم أُنـه عنـك)، كان يشعر أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يقول له: لا تستغفر له، ونـزل قـول الله عـز وجـل: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:56].{ مَا كَانَ لِلنَّبِـيِّ وَالَّـذِينَ

آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}
[التوبة:113].

بعد كل هذا العناء الذي لقيه أبو طالب ، وبعد الحصار في الشعب، وليل نهار مع الرسول ﷺ يسمع منه، لكنه من أصحاب الجحيم؛ لأنه لم يقل كلمة واحدة وهي أثقل من كل أعمال بني آدم: لا إله إلا الله. في الحقيقة أن هذا الموقف مؤثر جداً، يجب أن نحمد الله سبحانه وتعالى على أننا بفضله أصبحنا مسلمين، هناك الكثير من الناس الذين لا يقدرون قيمة هذه الكلمة التي يحملونها، كلمة: لا إله إلا الله.

بعد موت أبي طالب تغير الموقف تماماً في مكة، فأبو طالب كانت له مكانة كبيرة في مكة، أيضاً وكان على دينهم، فقريش على كل الكراهية والعداء التي كانت تحمله للرسول ﷺ لم تستطع فعل كل ما تريده، فقد كانت تهاب أبا طالب ، لكن الآن مات أبو طالب ، فتجرءوا على رسول الله ﷺ، يقول الرسول ﷺ: (ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب) مع كل الذي وقع قبل هذا إلا أنه يعتبره لا شيء قياساً لما وقع له بعد موت أبي طالب .

يقول عبد الله بن مسعود : (كان النبي ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: (أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان؟) -أي: أمعاء الناقة ذبحت الآن- فيضعه على ظهر محمد ﷺ إذا سجد، فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبي معيط لعنه الله، فجاء به فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، يقول عبد الله بن مسعود : وأنا أنظر لا أُغني شيئاً) لاحظ الحسرة الشديدة في كلام ابن مسعود رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود ليس له منعة في مكة، لن يبكي عليه أحد، ولو قام يدافع عن الرسول ﷺ سيُقتل، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (فجعلوا -أي: الكفار- يضحكون ويحيل بعضهم على بعض) يميل بعضهم على بعض من شدة فرحهم بالإنجاز الكبير الذي فعلوه (ورسول الله ﷺ ساجد

لا يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية صغيرة -كان عمرها عشر سنوات تقريباً- فطرحته عن ظهره، فرفع رسول الله ﷺ رأسه، ثم قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش) ثلاث مرات، تفاجأت قريش، فهذه أول مرة يدعو النبي ﷺ عليهم، وهم يعرفون أن الرسول ﷺ صادق، وأن الدعاء بمكة مقبول، ثم بدأ الرسول ﷺ يسمي أشخاصاً يقول: (اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط) ، يقول عبد الله بن مسعود: (وعد السابع فلم أحفظه)، وفي رواية أخرى أن السابع عمارة بن الوليد ، قال عبد الله بن مسعود: (فوالذي نفسي بيده؛ لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في قليب بدر) كل هؤلاء قُتلوا في بدر.

تطور الموقف في مكة، ففي كل يوم مشكلة، الألم بدأ يزداد برسول الله ﷺ، والحزن في قلبه لا يفارقه؛ ليس لأن أبا طالب مات مشركاً، بل أيضاً لأن الكفار لم يتركوه.

موت خديجة وأثره على رسول الله ﷺ

في هذا الجو من الأحزان والهموم يدخل رسول الله ﷺ في مصيبة جديدة وهم جديد (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل)، تعرض الرسول ﷺ لكل الابتلاءات التي من الممكن أن تحصل لإنسان من فقر وجوع، وضرب وتعذيب، وسخرية، وحروب وجهاد، ومن فقد للأم وللأب وللجد والعم، وفقد للأولاد وللأصحاب، وترك للديار.. كل الابتلاءات، وفي هذا الوقت مع كل الهموم التي يعيشها سيدخل في ابتلاء فقد الزوجة، السند العاطفي الجميل لرسول الله ﷺ، ماتت السيدة العظيمة الجليلة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. كانت خديجة نعمة من نعم الله عز وجل على رسول الله ﷺ، وخير متاع الدنيا له، كانت الصدر الحنون، والرأي الحكيم، قضت عشرة طويلة مع رسول الله ﷺ دامت 25 سنة، في كل هذه

السنين لم تختلف مع رسول الله ﷺ، ولم تطلب منه شيئاً لنفسها، وعاشت تساعده بكل طاقتها، كانت كل سعادتها أن تراه سعيداً، فقد كان يتحدث عنها رسول الله ﷺ، فيقول في حب عميق: (آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدّقتني حين كذّبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها) بعد كل هذا الارتباط الوثيق أذن الله عز وجل بالرحيل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [آل عمران:185]، ماتت خديجة رضي الله عنه وأرضاها.

موت الزوجة بصفة عامة مصيبة، فالرجل مسكين بغير زوجته، وكلما طالت العشرة كان الفراق أصعب، فإن كانت الزوجة صالحة كان الفراق أصعب وأصعب، فما بالك لو كانت الزوجة واحدة من أعظم نساء الأرض. هذه من أشد المصائب التي مرت برسول الله ﷺ، فقد كان رسول الله ﷺ يقول: (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون) أي: أنها لم تقارن بنساء قريش أو حتى بنساء زمنها، بل بنساء العالمين، فهذه واحدة من أعظم أربع نساء في الخلق، درجة عالية من السمو.

هذه السيدة بهذا القدر وبهذه القيمة والمكانة فارقت رسول الله ﷺ وتركته بعد وفاة أبي طالب بأيام، وفي روايات قبل وفاة أبي طالب بأيام، أي: أن المصيبتين كانتا في وقت قريب، وخلفتا في قلب الرسول ﷺ حزناً كبيراً، وكان يحتاج إلى من يسمع منه مشاكله وهمومه ويتحدث معه، كان يقول لها: قريش فعلت كذا وكذا، فتقول له: لا بأس فالله معك، وربنا سوف ينصرك، أو يجد ابتسامة تخفف من أحزانه.

كل هذه الأحداث تحصل وعمره خمسون سنة، وقد وهن العظم منه، وكثرت الهموم، وتشعّبت المشاكل، فليست القضية قضية موت أبي طالب ولا السيدة خديجة ، ولا الإيذاء الذي يتعرض له من قريش. إذا كان يحصل معه هكذا من قريش فأكيد أن المسلمين الآخرين سيحصل معهم هذا. كما أنه كان يحمل هم المستضعفين ويشعر بهم ويخاف عليهم، ويحمل هم

مشاكل المسلمين الذين كانوا في الحبشة أكثر من مائة معهم أولادهم، ولا يعلم شيئاً عن وضعهم. هذه جميعها مشاكل وهموم جعلت ذلك العام يُطلق عليه بحق: عام الحزن.

خروج الرسول ﷺ عام الحزن إلى الطائف

كان الهم الكبير الحقيقي في حياة الرسول ﷺ الإسلام، وكان أكثر شيء يزعجه هو بعد الناس عن الإسلام، وأن الموقف تجمد في مكة وأُغلقت جميع أبواب الدعوة فيها، كان هذا أشد ما أثر فيه؛ لأن الدعوة كانت في دمه، ولا يستطيع أن يتوقف عنها، وها هي مكة قد أغلقت كل أبوابها، فهل من المعقول أن يأتي وقت تقف فيه الدعوة؟ مستحيل، الدعوة بالنسبة له كالماء والهواء.

كيف سيتصرف في هذا الموقف الصعب؟

كان الله سبحانه وتعالى يشفق عليه من كثرة حزنه على الناس، فقال له: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:3] كان الرسول ﷺ لا يستطيع أن يتحمل وقوف الدعوة؛ لذا فكّر رسول الله ﷺ وللمرة الأولى منذ البعثة أن يخرج بدعوته خارج مكة، وقبل هذا لم يكن هناك خروج من مكة أبداً؛ لأن أبواب الدعوة كانت مفتوحة فيها، ولو بمشقة، لكن في هذا الوقت بعد أن وقفت الدعوة في مكة أصبح هناك مبرر للخروج، وهذا درس مهم، فإن الداعية لا يترك مكانه ويخرج إلى مكان آخر إلا إذا كان المكان الذي يعيش فيه لا يستطيع أن ينشر فيه دعوته؛ لأن مسئوليته الأساسية هي الناس الذين يعيش معهم.

الرسول ﷺ سيخرج، ولكن إلى أين، فمدن الجزيرة كثيرة، والقبائل فيها متعددة؟ فبمن يبدأ؟

سبب اختيار الرسول ﷺ الطائف للدعوة

فكر الرسول ﷺ بالطائف، ولم يكن هذا الاختيار عشوائياً، فالرسول ﷺ سياسي بارع، وقائد محنك يدرس كل خطوة بدقة شديدة، كانت الطائف تتميز عن غيرها من مدن الجزيرة بأشياء مهمة جداً:

أولاً: تُعتبر الطائف هي المدينة الثانية في الجزيرة العربية بعد مكة، فهي مركز حيوي وهام من ناحية الكثافة السكانية والتجارة، ولها مكانة كبيرة في قلوب العرب، فقد كان يقول المشركون: {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف:31]القريتان: هما مكة والطائف، فكانت مكانتها عالية، والناس الذين فيها كثر.

ثانياً: في الطائف قبيلة ثقيف، وهي من أقوى القبائل العربية، وواضح أن قريشاً بعد هذا سوف تحارب الرسول ﷺ، ولا بد أن الرسول ﷺ يبحث عن قبيلة قوية تستطيع أن تقف أمام قريش، وهذا ليس من السهل، وقبيلة ثقيف كانت في منتهى القوة لدرجة أنها هي القبيلة الوحيدة التي استعصت على الرسول ﷺ بعد الفتح، وظل يحاصرها شهراً كاملاً ولم تُفتح، وإنما أتوا بأنفسهم وأسلموا، فهي فعلاً قبيلة قوية، وضخمة.

ثالثاً: كانت المنافسة الدينية بين مكة والطائف كبيرة، فإذا كانت مكة فيها البيت الحرام وهُبل، فالطائف فيها اللات أشهر أصنام العرب، وكثير من العرب كانوا يحلفون باللات، حتى ممن بداخل مكة، ولعل الطائف ترغب في سحب البساط من تحت أقدام مكة وتتبنى هذه الدعوة الجديدة؛ لكي تتفوق على مكة في ناحية الدين.

رابعاً: أن الطائف قريبة نسبياً من مكة، والمسافة بينهما حوالي 100 كيلو، والرسول ﷺ لا يريد أن يبتعد كثيراً عن مكة، ليسهل التنسيق بين مكة والطائف.

خامساً: كانت الطائف مهمة بالنسبة لأهل مكة، فأغنياء قريش بصفة عامة كانت لديهم أملاك في الطائف، من بني هاشم وبني عبد شمس وبني مخزوم، ولو دخلت الطائف في الإسلام فستكون ضربة اقتصادية موجعة لقريش.

ومن أجل هذا قرر الرسول ﷺ أن يبتدئ بالطائف، فذهب إليها في شوال من السنة العاشرة من البعثة، في نفس الشهر الذي مات فيه أبو طالب أو بعد على حسب اختلاف الروايات، وهذا يبين إلغاء مصطلح الراحة من حياة رسول الله ﷺ.

كانت المسافة بين الطائف وبين مكة 100 كيلو، والطريق كله صحراء، والجو حار، وكان هذا في مايو أو يونيو سنة 619م، ومع ذلك قرر الرسول ﷺ أن يقطع هذه المسافة مشياً على الأقدام، ولم يكن من الصعب عليه أن يوفر جملاً أو حصاناً، لكنه أراد ألا يلفت النظر إليه، فلو رآه المشركون سيعلمون أنه مسافر، وتتعطل الدعوة، ولهذا السبب أيضاً أخذ معه زيد بن حارثة ، ولم يأخذ معه غيره من الصحابة من فرسان المسلمين كـحمزة أو عمر أو سعد أو الزبير ممن يحميه هناك في الطائف؛ لأن أي واحد من هؤلاء لو خرج مع الرسول ﷺ خارج مكة سوف يلفت النظر، لكن لو أخذ معه زيد بن حارثة ، وكان في ذلك الوقت متبنيه، ومعروف بـزيد بن محمد ، فلن يلفت نظر أحد، فهو رجل يمشي مع ابنه.

موقف أهل الطائف من الرسول ﷺ حين أتاهم ودعاهم إلى الإسلام

وصل الرسول ﷺ إلى الطائف، وظل يفكر لمن أذهب؟ وأبتدئ بمن؟ لأن الأمر الآن ليس مجرد دعوة فقط، بل هي دعوة وطلب للنصرة ضد قريش، لذا ذهب لسادة الطائف، فالضعفاء لن يجيروه من قريش، وليس هذا تقليلاً من شأن الضعفاء، ولكن هذه مهمة سياسية، ولا يمكن أن يقاس هذا الموقف بموقف (عبس وتولى)، لا بد من الحديث مع من يستطيع أن

يتحمل المسئولية، كما أنه في الطائف ليس له أي إجارة، وبدون دخول المدينة من بابها الرئيسي فلن يتمكن رسول الله ﷺ من دعوة كبير ولا صغير، ولهذا فكّر الرسول ﷺ أن يذهب لقيادة الطائف مباشرة. وفي هذا رد على من يقول: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، فهذه هي السياسة، إلا إذا كان قصدهم أن السياسة لا تنفع إلا بالكذب والنفاق والمظاهر والتجمل الزائف، فأقول له: الإسلام يدعو إلى السياسة النظيفة، والسياسة الشرعية جزء لا يتجزأ من التشريع الإسلامي، وها نحن نرى الرسول ﷺ يعمل بها.

اتجه الرسول ﷺ إلى ثلاثة من أبناء عمرو بن عمير من كبار سادات الطائف، وعرفهم بنفسه ودعاهم للإسلام ودعاهم للنصرة له وللمسلمين ضد قريش، وهؤلاء الثلاثة هم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير ، فكان ردهم في منتهى السفاهة والتخلف وانعدام الأدب، قال عبد ياليل بن عمرو : إنه (سيمْرُط) -أي: سوف يقطع- (ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك)، وليس هذا استخفافاً بالرسول ﷺ، لا، وإنما بالله عز وجل، أي: سوف يقطع ثياب الكعبة اعتراضاً على إرسال رسول الله ﷺ.

وقال مسعود : (أما وجد الله أحداً غيرك؟). أما الثالث حبيب فحاول أنه يستظرف أو يمثل دور الذكي، إلا أنه كان في منتهى الغباء، قال: (والله لا أكلمك أبداً، إن كنت رسولاً؛ لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلمك).

مع أن الرسول ﷺ اصطدم صدمة جديدة إلا أنه قال لهم: (إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني) أي: إن لم تؤمنوا فاجعلوا هذا الأمر بيني وبينكم، فهو لا يريد أن يصل الخبر إلى قريش، فلو وصل الخبر إليهم سوف يتهم صراحة بتهمة التخابر مع قبيلة أجنبية، ومحاولة زعزعة نظام الحكم في مكة، وإثارة الفتنة .. ، لكن للأسف كان زعماء الطائف مع أنهم أغبياء ومنعدمو

الأخلاق، كانوا أيضاً فاقدي المروءة، فهم لم يكشفوا أمره فقط، بل أغروا به سفهاءهم وغلمانهم.

لم ييأس الرسول ﷺ مما حدث، وظل في الطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا وكلمه، ولكن كلهم رفضوا، وفي اليوم العاشر قالوا له: اخرج من بلادنا، وصفوا العبيد والسفهاء صفين خارج الطائف، وجعلوه يمر بين الصفين، وبدءوا يرمونه بالحجارة وهو بين الصفين، وبدأ الدم يخرج من الرسول ﷺ وهو لا يستطيع التصرف، وزيد بن حارثة يحاول بكل طاقته أن يبعد الحجارة عن رسول الله ﷺ ولا يستطيع، فالحجارة تأتيه من كل مكان، وشج رأسه رضي الله عنه وأرضاه، ومع كل هذا شتائم وسباب ولعنات، والرسول ﷺ وزيد رضي الله عنه يبذلون قدر استطاعتهم للخروج من بين الصفين في اتجاه مكة، لكن العبيد لم يتركوهم، وأسرعوا خلفهم بالحجارة مسافة خمسة كيلو متر كاملة، ثم رأى الرسول ﷺ حديقة فدخل فيها، لعله يجد من يدافع عنه، وعندما دخلها خاف العبيد من اللحوق به، وعادوا إلى الطائف.

أبعد كل هذا العناء والكد والتعب والمشقة هناك من المسلمين ممن يفرطون بالإسلام؟! الناس لا تدري عن الكم الهائل من التضحيات التي دفعها رسول الله ﷺ، ودفعها زيد بن حارثة وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وخديجة .. وغيرهم، إن الدين لم يأتنا بسهولة، فكل لحظة في حياة الرسول ﷺ كان فيها معاناة شديدة، كل هذا ليبلغنا ويوصل لنا الدين، ثم إني لا أشك في أن حزن الرسول ﷺ الحقيقي في هذا الموقف كان على أهل الطائف وليس منهم، وكان لسان حاله يقول: يا ليت قومي يعلمون، فالرسول ﷺ كان خائفاً عليهم كما أنه خائف علينا، أكثر شيء يحزنه أن يأتي من يرفض الإيمان وليس أن يؤذيه أو يضربه، فقد قال الله سبحانه

وتعالى له: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [النحل:127] وليس ولا تحزن منهم، فإنه كان خائفاً عليهم ﷺ، فقد كان رحمة حقيقية للأرض ﷺ.

دخل الرسول ﷺ الحديقة واستظل تحت شجرة فيها، ووضع ظهره عليها، وكان يسيل الدم عليه، وثيابه مقطعة والتراب يغطيه، فحاول أن يتماسك أمام زيد بن حارثة لكن لم يستطع. وبدأت الدموع تنزل من عينيه ﷺ، كان بداخله بركان من الألم غير الجراح والدماء. فما الذي سوف يعمله في هذا الوقت؟ وكيف يرجع إلى مكة؟ فمن المؤكد أن الأخبار قد وصلت إليهم، وأصبحت مكة مقفولة عليه، فمن أين سيدخلها؟

بكى ﷺ بحرقة، ثم رفع يديه إلى السماء، وبدأ يدعو بدعاء حزين جداً، ما دعا به قبل ذلك، ولم يدع به بعد ذلك، دعاء يعبر عن مدى الألم الشديد الذي يعتصر قلبه ﷺ.

قال: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)، ألم شديد مر به رسول الله ﷺ.

إيمان عدَّاس بالنبي ﷺ

لما لجأ النبي ﷺ إلى الحديقة خرج أصحابها وهما: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة من كفار مكة، وعتبة بن ربيعة كان يفاوض الرسول ﷺ قبل هذا، بل دعا عليه النبي ﷺ، وكان يقول: (اللهم عليك بعتبة بن ربيعة ، وعليك بشيبة بن ربيعة) وكان عتبة وشيبة من أغنياء مكة الذين لهم

أملاك في الطائف، لكن مع كل العداء المستحكم بين عتبة وشيبة وبين الرسول ﷺ، إلا أن الحالة التي وصل إليها الرسول ﷺ جعلتهما يعطفان عليه وبعثا له بعنقود عنب مع أحد العبيد، واسمه عداس وكان نصرانياً، وضع الطبق أمام الرسول ﷺ وأمام زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، فمد الرسول ﷺ يده إلى الطبق وأخذ عنبة، وقال: (بسم الله) ثم أكلها، تعجب عدّاس من هذه الكلمة؛ لأنه لم يسمع بمثل هذا في الطائف، فقال: (إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد)، فالرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يشرح له معنى بسم الله الرحمن الرحيم، بدأ يتعرف على عداس، أول شيء في الدعوة التعارف؛ لأن التعارف له هدف واضح، فهو يتكلم معه بأمر الدين، وسأله أسئلة ذات مغزى حتى في هذه الظروف شديدة القسوة لم ينس الرسول ﷺ الدعوة، فأشراف الطائف رفضوا دعوته وضربوه، وهو يبحث عمن يسمع دعوته حتى ولو كان غلاماً صغيراً، فقال له الرسول ﷺ: (من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟) قال الغلام: (أنا نصراني من أهل نِينوىَ)، فقال رسول الله ﷺ: (من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟) قال عداس : (وما يدريك ما يونس بن متى؟) فقال رسول الله ﷺ: (ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي) هذا الغلام الصغير أدرك في لحظة ما لم يدركه حكماء ثقيف، آمن في لحظة واحدة، وأكب على رأس رسول الله ﷺ وعلى يديه وعلى رجليه يقبلها، كما لو كان الله سبحانه وتعالى أراد أن يريح قلب الرسول ﷺ بإيمان عبد، ولكن هذا العبد بإيمانه أثقل من أهل ثقيف جميعاً.

كان عتبة وشيبة يراقبان هذا الموقف من بعيد، فقال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فدعاه وقال له: (ويحك ما هذا؟) قال: (يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي)، قال له: (ويحك يا عدّاس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه)، وكذبوا والله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِّ الإِسْلامُ} [آل عمران:19].

كان لا بد للرسول ﷺ أن يخرج من هذا المكان، فهو غير آمن، فعنقود العنب ليس كافياً لإثبات حسن النوايا، فهذان هما عتبة وشيبة لعنهما الله.

خروج النبي ﷺ من الطائف ووصوله إلى قرن الثعالب ولقاؤه ملك الجبال

بدأ الرسول ﷺ يمشي في اتجاه مكة، وبدأ يفكّر كيف سيدخلها، فالأفكار في عقله تتصارع، وجعلته يمشي وكأنه في حلم، أو مغمى عليه، يقول الرسول ﷺ: (فانطلقت وأنا أهيم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)، وهو على بعد 35 كيلو متر من الطائف، مشى الرسول عليه الصلاة والسلام كل هذه المسافة وهو لا يدري من شدة الهم والتفكير، وفي قرن الثعالب حدث أمر عجيب، يقول رسول الله ﷺ: (فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت) وانظروا إلى مقام الرسول ﷺ، فقد جاءه ملك الجبال ليسمع أمر رسول الله ﷺ، يقول الرسول ﷺ: (فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثم قال: (يا محمد؛ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين) أي: لو كنت تريد أن أُسقط عليهم الجبال فعلت. فقط عليك أن تأمر، فالرسول ﷺ لم يفكر، بل قال في منتهى الهدوء: (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يُشرك به شيئاً).

انظروا إلى رقي أخلاق الرسول ﷺ، ومع كل الألم والحزن والاضطهاد والقهر لا يزال الرسول ﷺ يخاف عليهم، ويأخذ قراره بدون انفعال، ومع كل المصائب التي رآها ﷺ لم يتغير؛ لذا نقول: يستحيل علينا أن نوفي الرسول ﷺ حقه، ألا يستحق أن يصفه الله عز وجل بأنه على خلق عظيم، ويقول: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:107] هذا هو رسولنا. يعلمنا الرسول ﷺ الفرق الضخم والمهول بين السياسي الداعية، والسياسي من أهل الدنيا، سياسي الدنيا لا ينظر إلا إلى المصلحة المادية، لكن السياسي الداعية له هدف أصيل، وهو أن يسلم

الناس لرب العالمين سبحانه وتعالى، السياسي الداعية لا يجب أن يحصل له التمكين على جثث ملايين الكافرين، وليس هناك مانع من أن يتأخر التمكين قليلاً إلى أن يؤمن الكفار. رسالتك في الأرض أن تعلم الناس وليس أن تجلدهم، الناس سوف تضايقك وتؤذيك، لكن هذا لا يغير طريقك؛ لأنك لا تقبض من الناس أنت تأخذ أجرك من الله سبحانه وتعالى، والله لن يضيع مجهودك.

وبعد مرور السنين الطوال أخرج الله عز وجل من أصلابهم من لا يكتفي فقط بقول: لا إله إلا الله، ولكن يحمل لا إله إلا الله إلى كل بقعة في الأرض، فمن صلب الوليد بن المغيرة خرج خالد بن الوليد ، ومن صلب العاص بن وائل خرج عمرو بن العاص ، ومن صلب عتبة بن ربيعة خرج أبو حذيفة بن عتبة ، ومن صلب أبي جهل خرج عكرمة بن أبي جهل .

وبعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت كل جزيرة العرب، ولم يبق على الإسلام إلا مكة والطائف والمدينة المنورة، ولو دعا عليها الرسول ﷺ لكان أهلكها الله سبحانه وتعالى، فهاتان المدينتان ثبتتا على الإسلام في زمن الردة، وحملتا الدعوة حتى بعد وفاة الرسول ﷺ؛ لذا علينا أن نفهم ديننا ونفهم دورنا، فدورنا أن نعلِّم من غير أن نمل ولا نكل، ونربي من غير أن نجلد، وندعو جميع العالمين إلى الإسلام من غير أن نأخذ شيئاً منهم، هذا هو دورنا الذي علمناه الرسول ﷺ في كل خطوة من خطوات حياته.

مرور النبي ﷺ بوادي نخلة ولقاؤه الجن وإيمانهم به أثناء رجوعه من الطائف

بعد موقف ملك الجبال أكمل الرسول ﷺ طريقه إلى مكة، فلما وصل إلى وادي نخلة على بعد 43 كيلو متر من مكة، وقف يستريح قليلاً، والرسول ﷺ عندما يستريح لا يستريح بالنوم وإنما بالصلاة، فوقف يصلي ويقرأ القرآن، فهو يتزود ليكمل الطريق. كان الرسول ﷺ يظن أنه

وحيد في هذا الوادي، وهذا صحيح بالنسبة للإنس، لكن لم يكن صحيحاً بالنسبة للجن، فكان هناك جن في وادي نخلة، جلسوا يستمعون القرآن من رسول الله ﷺ، قال الله يصف ذلك الحدث: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [الأحقاف:29-32].

إن كان البشر في الطائف ومكة قد رفضوا الدعوة، فهناك مجموعة لا بأس بها من الجن آمنت، وفي الحقيقة أن هذا لا يخوّف، بل يسعد أن تأتي يوم القيامة وتجد في ميزان حسناتك ألف أو مليون جني، فمثلاً: كنت في يوم من الأيام تدعو إلى الله، أو تقرأ القرآن، أو تذكر الله سبحانه وتعالى فسمعك جني وآمن، فهذا خير عظيم.

فوائد خروج النبي ﷺ من مكة إلى الطائف

قد يظن ظان أن دعوة الطائف لم يكن فيها فوائد، وأن الرسول ﷺ تعذب من غير ثمن، لكن الحمد لله فقد آمن عدّاس ، وهذا أمر لا يستهان به، فهذا غلام أو رجل أُنقذ من النار وسيدخل الجنة إن شاء الله. وهناك أمة ضخمة جداً من الخلق من الجن قد آمنت بهذه الكلمات التي سمعتها من رسول الله ﷺ. وهناك التثبيت من الله عز وجل عندما بعث للرسول ﷺ ملك الجبال.

كيفية دخول النبي ﷺ مكة بعد عودته من الطائف

اقترب الرسول ﷺ من مكة عند رجوعه من الطائف، فاستوقفه زيد بن حارثة على مشارف مكة، وقال له: (كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟) لكن الرسول ﷺ رد عليه بيقين وقال له: (يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه)، كأنه لم تكن هناك أي مشكلة وقعت لا في الطائف ولا مكة، بل كأنه سيبتدئ الدعوة من بدايتها.

وصل الرسول ﷺ إلى أبواب مكة، وبدأ في التفكير في كيفية الدخول إليها، فقرر أن يستفيد من قانون الإجارة في مكة، وهو قانون محترم فيها، بما أن الذي يطبقه هم المشركون، لكن الرسول ﷺ يستفيد من هذه القوانين طالما أنها لا تتعارض مع شرع الله عز وجل، وليس هذا فحسب، فقد قرر أن يدخل في إجارة مشرك ليس من بني هاشم، وليس بمؤمن؛ لأنه لو دخل في إجارة مؤمن لكان ذلك بمثابة إعلان الحرب بمكة، وسيتميز أهل مكة إلى فريقين: مؤمن، وكافر، وهذا ليس وقت المواجهة، كما أنه لا يجد في بني هاشم على عظمها من يجيره، فكبير بني هاشم بعد موت أبي طالب هو أبو لهب أشد الأعداء لهذه الرسالة، ولن يقبل ولن يترك أحداً من بني هاشم يحمي الرسول ﷺ. فبعث الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الأخنس بن شُرَيْك فلم تكن عنده نخوة، وتعلل بأنه حليف، وأنه ليس رجلاً أصيلاً في مكة، فالحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو وهو من عظماء مكة، وكان من المفروض أن يوافق، لكنه قال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، وسهيل بن عمرو من بني عامر، والرسول ﷺ من بني كعب، والرسول ﷺ يعرف ويفهم القوانين، ويعرف أنها ليست حتمية، وأنه من الممكن أن يجير الحليف، وأن تجير بنو عامر على بني كعب، وإلا لم يكن ليبعث لهم، كانت هذه اعتذارات مؤدبة من قادة مكة. ثم بعث الرسول ﷺ إلى المطعم بن عدي أحد زعماء مكة الكبار، وسيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف، وهو أحد الذين شاركوا في نقض الصحيفة بعد ثلاث سنين. وافق المطعم بن

عدي على إجارة رسول الله ﷺ، وقال لبنيه وقومه: (البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً)، وخرجت كتيبة مسلحة من بني نوفل تستقبل رسول الله ﷺ، وأحاطت به الحمايات، وسارت به حتى وصلت به إلى البيت الحرام، فصلى ركعتين وقام المطعم بن عدي فخطب في الناس، فقال: (يا معشر قريش؛ إني قد أجرت محمداً، فلا يهجه أحد منكم)، ثم أوصلوه إلى بيته ووقفوا على بابه يحمونه.

تعامل رسول الله ﷺ في منتهى الحكمة مع الأوضاع المقلوبة في مكة، وكان من المنطقي أن يدخل مكة في حماية سيوف بني هاشم، لكن نذالة أبي لهب وقفت أمام هذا الأمر، لكن هذا الموقف من بني هاشم ومن أبي لهب لم يغلق كل الأبواب، فلا تزال هناك أبواب مفتوحة، نعم هي أبواب كافرة، لكن ما المانع من استغلالها؟ ما المانع من استخدام أحد المعارف من الكافرين للحماية ما دام ليس هناك تنازل ولا تفريط؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مرفوع الرأس، وحوله الأسلحة من كل مكان، لم يدخلها متسللاً أو منهزماً، ومع أن الحماية جميعها آتية من بني نوفل من المطعم بن عدي أحد المشركين، إلا أنه ﷺ كان حريصاً كل الحرص أن يفهم جميع أهل مكة، والمطعم بن عدي أنه لن يتنازل عن الإسلام والدعوة، ولهذا كان أول شيء فعله ﷺ أن ذهب إلى البيت الحرام يصلي فيه ركعتين على طريقة المسلمين، وأمام جميع الناس؛ ليعلن لأهل مكة ولبني نوفل وللمطعم بن عدي أنه ما زال على نفس الطريق، وسوف يأتي الحجاج لمكة، وسيخرج لهم أيضاً ليدعوهم للإسلام، تماماً كما كان يفعل في أيام أبي طالب . هذا فقه الواقع، المهم لا يكون هناك تنازل.

عند ذلك يكون الوضع قد استقر نسبياً في مكة، فالرسول ﷺ محمي بسيوف بني نوفل، وبكلام المطعم بن عدي الذي قاله وسط جميع الناس، لكن الرسول ﷺ رجل بعيد النظر، حنكته التجارب، يعرف أن هذا الموقف من المطعم موقف مؤقت، فقريش مهما كانت لن تترك

المطعم يحمي الرسول ﷺ لمدة طويلة أبداً، ومع هذا فالمطعم أيضاً كافر وله طاقة والموقف صعب، ومن الممكن أنه لا يستطيع أن يحمي الرسول ﷺ إلى الأبد، كل هذا جعل الرسول ﷺ يبحث عن بديل للمطعم بن عدي .

دعوة الرسول ﷺ لوفود الحج

بدأ الرسول ﷺ يزور الوفود التي تأتي لتحج في مكة، وبدأ يعرض عليهم الإسلام كعادته في ذلك، لكن بدأ يطلب منهم فوق هذا النصرة، وأن يساعدوه ويدافعوا عنه، فهو يريد بديلاً للمطعم بن عدي ، وفي نفس الوقت لم يقل صراحة أنه سوف يحارب قريشاً، أو أنه سيقف أمامها؛ لأن المرحلة في ذلك الوقت كانت صعبة والوضع غير مستقر، وكل هذا يتم في ذي القعدة وذي الحجة من السنة العاشرة من البعثة، أي: بعد كل الأحداث المؤلمة والمحزنة التي حدثت في الشهرين الماضيين، كان الرسول ﷺ يتحرك بمنتهى النشاط مع كل الظروف العادية التي تحصل لأي إنسان عنده بيت وأولاد، ولديه مسئوليات.

ومن هذا الموقف تصلنا رسالة هامة من الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي لا عذر لأحد، فكلمة الظروف لم تكن موجودة في قاموس حياة الرسول ﷺ، وكثير من الناس تعتذر بسبب الظروف: أنت لم تعرف ظروفي، ظروفي غير مناسبة، ليس من يديه في الماء كمن هي في النار!

يا أخي الحبيب؛ أنا أريد منك أن تنظر بأمانة لظروف الرسول ﷺ؛ لتستطيع أن تحكم فعلاً إذا كانت ظروفك صعبة أم لا، فقد كان من الممكن أن ينصر الله رسوله ﷺ بكلمة واحدة، ويفتح قلوب العرب لكلامه من أول يوم في الدعوة، ويوفر عليه الجهد والتعب، ويريح قلبه بدلاً من خروجه من حزن ودخوله في آخر، لكن ربنا يعلمنا طبيعة الطريق، فمن الطبيعي أن يكون عندك مشاكل في طريق الدعوة، لكن ليس من المفترض أن توقفك، من الطبيعي أن تحاربك

الناس وتؤذيك وتسخر منك، لكن ليس من المفترض أن يوقفك مثل هذا، الناس مريضة بمرض البعد عن ربنا سبحانه وتعالى، وأنت طبيبهم تعالجهم ولا تضربهم، وتحبهم ولا تكرههم. هذه هي الرسالة التي أخذناها من حياة الرسول ﷺ، والتي أخذناها من مكة والطائف، والتي سوف نأخذها بعد هذا من المدينة المنورة، الرسالة واضحة، طريق الدعوة صعب، لكن لا بد أن نمشي فيه{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ} [الأنعام:34]دعوة وبعدها تكذيب وإيذاء ثم صبر من الدعاة، وفي الأخير {حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام:34]فليس هناك طريق آخر، فهذا طريق الرسل، وطريق كل مسلم يحب دينه، ويريد أن يتحرك وسط الناس.

بدأ الرسول ﷺ يكلم الوفود التي أتت لتزور مكة، ذهب لبني كلب، ولبني كندة، ولبني حنيفة، وذهب لغيرهم، ومع ذلك ما قبل أحد منهم الإسلام، كل هذا وعمه أبو لهب يمشي خلفه في كل زيارة، الرسول ﷺ يقف على كل قبيلة، ويقول لهم: (يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتسمعوني وتصدقوا بي، حتى أُبين عن الله ما بعثني به)، يريد منهم أن يسلموا ويدافعوا عنه، وأبو لهب هو أيضاً يبذل مجهوداً، فبعد أن ينتهي الرسول ﷺ من كلامه يقف ويقول لهم: (يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة)، يدعي أن هذا ما هو إلا البدعة والضلالة، وأيضاً يقول: (فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه)، فالناس يسألون ويقولون: من هذا؟ فيقال: عمه، فيقول: من المؤكد أنه يعرفه أكثر منا، فلا يؤمنوا، فيذهب أبو لهب فرحاً بنفسه، ويرى أنه قد أدى واجبه، ولا يعرف أنه يحفر لنفسه قبراً في جهنم، فهذا اسم على مسمى أبو لهب ، حتى إن الله سبحانه وتعالى قال: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}

[المسد:1-3] أي: أنه باسم النار التي سوف يدخلها. أحد أصحاب القومية العربية كان يجعل هذا الاسم كُنْيته، وقال: لأن أبا لهب كان عربياً، وهو يعتز بالعروبة وبأي عربي.

كل القبائل رفضت الدعوة، ولم يكن هناك أحد يفكر، إلا قبيلة واحدة فقط التي أخذت الموضوع بجد وفكّرت في الإسلام، ولكن كانت هناك نقطة معينة اشترطوها على الرسول ﷺ ليسلموا ويدافعوا عنه.

هذه القبيلة هي قبيلة بني عامر، وهي من أعز قبائل العرب، وهي إحدى خمس قبائل لم تعرف في تاريخها كله سبياً لنسائها، ولا دفعاً لإثارة غيرهم، والمباحثات معها في غاية الحساسية. عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام وطلب منهم النصرة كبقية القبائل، وكان زعيمهم بَيحرة بن فراس واهتم بالموضوع ووقف يقول لأصحابه أمام الرسول ﷺ: (لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب)، وفي هذا يوضح لنا أن هذا الرجل بعيد النظر، فهو يعرف أن هذه الرسالة سيكون لها مستقبل، ومن يتبناها سوف يسيطر على جميع العرب، لكن في نفس الوقت من الواضح أنه انتهازي ونفعي، فهو لا يريد الإسلام لأنه يحبه، وإنما لأنه يحب الزعامة والسيطرة والرئاسة؛ لأنه بعد ذلك عرض على الرسول عليه الصلاة والسلام عرضاً في منتهى الإغراء، واسمع لهذا العرض، وضع في ذهنك موقف الرسول ﷺ، ففي مكة الدعوة مقفلة، والناس تحاربه، ولا توجد قبيلة ترضى بالإسلام أو بالمدافعة عن الرسول ﷺ، والرسول ﷺ في إجارة المطعم بن عدي الكافر، ونصف المسلمين في الحبشة، وبقيتهم يعذبون في مكة. هذا واقع الرسول ﷺ، فما كان عرض بيحرة ؟

قال: (أرأيت إن نحن بايعناك على هذا الأمر ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟)، فهنا بيحرة يعرض أن يدخل في الإسلام هو وقبيلته، وأن يدافع عن رسول الله ﷺ ضد كل من يخالفه، وأن يخرج الرسول ﷺ من هذا الوضع الحرج الذي يعيشه، وأن يترك

الأمر لرسول الله ﷺ في حال حياته يدعو إلى الله ويعلـم ويـربي ويـأمر ويقـود، لكـن الشرـط الوحيد هو: بعد أن يموت الرسول ﷺ يبقى الأمر لقبيلة بيحرة ، والزعامـة لــبيحرة في حـال حياته أو لقبيلته من بعده.

أعتقد أن هذا العرض في نظر أي سياسي من سياسيين الدنيا لا يُرفض فــبيحرة يقـول لـه: أنـا أساعدك إلى أن تصبح رئيساً وزعـيماً، وسـتظل كـذلك إلى أن تمـوت، وبعـد أن تمـوت تنتقـل الزعامة لنا، أي زعيم من زعماء الدنيا لا يهمه الدنيا جميعاً ومـا يحصـل فيهـا بعـد موتـه، لكـن الرسول ﷺ ليس من زعماء الدنيا، فهو يخاف على الناس وعلى أمته وليس فقط في زمانـه، فهـو أيضاً يخاف على جميع الخلق الذين سوف يأتون من بعده وإلى يوم القيامة.

تأمل رد الرسول ﷺ في ثبات على عرض بيحرة ، قال: (الأمر إلى الله يضعه حيـث يشـاء) فلـو أنك تستحق، فالإسلام هو الذي سيعطيك الولاية، ولو أن غيرك هو الذي يسـتحق فهـو مـن يُعطى الولاية، فالأمر في الإسلام لا يوهب لغير أهله مطلقاً. وهنا درس مهم وهو أن الحريص على الولاية في الإسلام لا يأخذها، فمن الخطر أن تكون ممن يريد الزعامـة، وانظـروا إلى قـول الرسول ﷺ: (إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، أو حرص عليه).

وكان الرسول ﷺ يعطـي النـاس أي شيء مقابـل أن يسـلموا، فقـد يعطـيهم المـال والأغنـام والذهب والفضة، لكنه لا يعطيهم الزعامة إلا إذا كانوا يسـتحقونها أو لا يريـدونها؛ لأن فتنـة الزعيم وضلال الزعيم لا يرجع عليه فقط، وإنما يعود على الأمة بكاملها، والزعيم الذي يريـد الزعامة سوف يرتكب كل الموبقات والجرائم والتزوير ليحافظ عـلى زعامتـه، والـزعيم الـذي يعيش لدنياه سوف يهمل دنيا الناس ودينهم، ولو أخذ قراراً في ظلم سيظلم بـه شـعباً كـاملاً، ولو مشى في طريق خطأ فسوف يمشي الشعب بأجمعه خلفه؛ ولهذا رفض الرسول ﷺ عـرض بيحرة . رفض عرض الرجل الذي يريد زعامة وإن كانت بعد موت الرسول ﷺ، رفـض هـذا

العرض وهو في أمس الحاجة إليه ليضع قواعد واضحة عن خلقه وليس هناك خطوة واحدة في حياته إلا وفيها ألف كنز.

أولاً: عندما قال هذا الكلام رفض بيحرة الإسلام، وبمقاييس أهل الدنيا فإنه من الجنون أن يوافق بيحرة ، كل واحد من أهل الدنيا يقول: وأنا أين نصيبي؟ لكن الذي يحمل هم الإسلام هو الذي ينسى نفسه تماماً ليخدم الناس.

قال بيحرة : (أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك)، وبهذا فشلت المفاوضات مع بني عامر، لكن الرسول ﷺ نجح في إرساء قاعدة أصيلة في بناء الأمة الإسلامية، واحفظوها: (إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، أو حرص عليه).

وبهذا ينتهي العام العاشر من البعثة، وانتهى عام الحزن الذي حمل مشاكل ومصائب من كل نوع، لكن مع كل هذه المشاكل والمصائب والهموم إلا أنه انتهى والرسول ﷺ لا يزال رأسه مرفوعاً، ويعمل ﷺ بمنتهى الحماسة في دعوته، وإن لم يكن هناك الكثير من الناس آمنت في هذه السنة إلا أن الدروس التربوية والقواعد البنائية للأمة لا تُحصى ولا تُعد، هناك كم هائل من الدروس والعظات والعبر، من أهم الدروس:

الأول: أنه مهما كانت ظروفك فلابد أن تعمل لله.

الثاني: ليس من المهم أن يؤمنوا بدعوتك ويصدقوا كلامك، المهم أن توصل إسلامك؛ لأن مهمتنا التبليغ {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ} [آل عمران:20].

12

بيعة العقبة الأولى

تكلمنا عن العام العاشر من البعثة، وهو العام الذي عُرف في السيرة بعام الحزن، وحدثت فيه الكثير من الشدائد والمصائب والآلام والأحزان، مات فيه أبو طالب مشركاً، وماتت فيه السيدة العظيمة الفاضلة خديجة رضي الله عنها، واشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ، وأغلقت أمامه أبواب الدعوة تماماً في مكة، ورفضت دعوته في الطائف، ورجم بالحجارة حتى سالت الدماء من قدميه ﷺ، وشج رأس زيد بن حارثة ، ولم يستطع الرسول ﷺ دخول مكة إلا في جوار المطعم بن عدي المشرك، وفوق ذلك لم تؤمن أي قبيلة في موسم الحج من السنة العاشرة. كيف تصرف الرسول ﷺ في هذا الوضع؟

السياسة الدعوية للرسول ﷺ بين وفود الحجيج للعام الحادي عشر من البعثة

في السنة الحادية عشرة من البعثة ظل النبي ﷺ يدعو الناس في مكة طوال العام، لكن أبواب الدعوة في هذا الوقت كانت مقفلة تقريباً، فكان لا بد له أن ينتظر موسم الحج القادم ليعرض الأمر على وفود القبائل التي ستأتي للحج، ومع ذلك فالرسول ﷺ في أثناء هذه السنة، وقبل موسم الحج لم يكن يسمع أن هناك أحداً غريباً أتى إلى مكة إلا ودعاه إلى الإسلام، ومن كل الذين أتوا إلى مكة في السنة الحادية عشرة من البعثة، آمن أربعة بدعوة الرسول ﷺ، وهذا

مقارنة بالعام السابق يعتبر إنجازاً جيداً؛ ففي السنة الماضية لم يـؤمن غـير عـداس في الطـائف، ومجموعة الجن.

أما الأربعة الذين أسلموا في السنة الحادية عشرة فمنهم من لم نسمع عن أسمائهم كثـيراً، لأنهـم ماتوا بعد إسلامهم، رجل اسمه سويد بن الصامت وكان شـاعراً مـن شـعراء يثـرب، والثـاني اسمه إياد بن معاذ وكان طفلاً صغيراً عمره 12 أو 13 سنة، وكلاهمـا مـات بعـد شـهور مـن إسلامه، أما الاثنان الباقيان فقد كان إسلامهما مؤثراً؛ لأن كل واحد منهما أتى بعد ذلك بقبيلـة كاملة للإسلام.

الأول: أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه من قبيلة غِفار على مقربة من يثرب، وهـي قبيلـة مشهورة بقطع الطريق والسطو على الناس، ومـع ذلـك أسـلم أبـو ذر رضي الله عنـه وأرضـاه ورجع إلى قبيلته يدعوهم إلى الله، وكانت دعوته ناجحة، فقد أتى بقبيلة غفار كاملة للإسـلام، ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ذهبوا إليه في المدينة يبايعونه على الإسلام، وحينها قال رسول الله ﷺ: (غِفار غفر الله لها) أي: كل ما فات مسح.

الثاني: الطُفَيْل بن عمرو الدوسي رضي الله عنـه، وقصـة إسـلامه جميلـة، ولـيس هنـاك وقـت للدخول في تفصيلاتها، لكن المهم أنه بعد إسلامه رجع يـدعو قومـه، وقبيلتـه هـي دَوس مـن قبائل اليمن، وبعد مشـوار طويـل وقصـة لطيفـة آمنـت دوس، وجـاء الطفيـل رضي الله عنـه بسبعين أو ثمانين عائلة من دوس إلى المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينـة، والعائلـة في ذلك الوقت عدد أفرادها كبـير. فإسـلام أبي ذر والطفيـل رضي الله عـنهما أتـى للمسـلمين بقبيلتين كبيرتين، مع أن تلك القبيلتين لم تأت إلا بعد الهجرة، لكـن هـذا تـدبير ربـاني مـن الله سبحانه وتعالى، يدبر بلطف وخفاء سبحانه وتعالى، ومن المؤكد أن إسلام هاتين القبيلتين كـان نصراً كبيراً للدعوة في ذلك الزمن الذي يعرف بزمن الاستضعاف في فترة مكة.

مرت الشهور وجاء موسم الحج من السنة الحادية عشرة من البعثة، وبدأ الرسول ﷺ كعادته في كل موسم يدعو الناس إلى الإسلام، لكن في هذا الموسم بدأ الرسول ﷺ يغير من طريقته لدعوة القبائل. ذكرنا قبل ذلك أن الرسول ﷺ كان في إجارة المطُعِم بن عدي من بني نوفل، وهو مشرك، والرسول ﷺ يعلم أن المطعم له طاقة محدودة، وأصحابه وأقرانه هم زعماء الكفر في مكة، ولن يتركوه كثيراً يدافع عن الرسول ﷺ، فكان لا بد للنبي ﷺ أن يبحث عن بديل للمطعم بن عدي.

التغييرات على أسلوب الدعوة في العام الحادي عشر من البعثة

كان الرسول ﷺ يدعو الناس في خلال الأعوام العشرة السابقة إلى الإسلام فقط؛ (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، لكن الإسلام لوحده لم يكن كافياً، فدعا الرسول ﷺ مع الإسلام إلى طلب النصرة، والدفاع عنه وعن المؤمنين ومواجهة قريش.

وكانت هذه المطالب خطيرة في مكة، لأن قريشاً لو علمت بذلك ستقيم الدنيا ولن تقعدها، فأبو لهب لم يترك الرسول ﷺ، وكان يطارده في كل مكان. وكانت هناك مشكلة أخرى وهي أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف تاريخ كل قبيلة في الجزيرة، ومدى قوتها، وأسماء القادة فيها، لاحتمال أن يتفق مع أحدهم ثم لا تتحمل قبيلته المسئولية، وهذه اتفاقيات في منتهى الخطورة، ولتفادي هذا؛ فإن الرسول ﷺ غير شيئين مهمين، الأول: جعل دعوته للقبائل سرية، فالرسول ﷺ من السنة الرابعة من البعثة وهو يكلم الناس علناً، كان يتكلم أمام أبي لهب وأبي جهل وكل المشركين، لكن الأمر اختلف، وكان هناك مرونة في الدعوة، إذا كانت العلنية لن تؤدي المهمة فلتكن سرية، ليس هناك عنترية ولا انتحار، بل هناك تخطيط وإعداد وفكر سياسي راق، فبدأ الرسول ﷺ الدعوة بالليل فقط، يخرج بالليل من غير أن يراه أحد، وفي كل يوم يختار للدعوة قبائل معينة، ويذهب إلى مخيماتهم خارج مكة في السر، لكي لا يراه أحد، وبذلك

سيضرب عصفورين بحجر؛ لأنه سيوصل لهم الدعوة من غير تشويش من أبي لهب أو قريش، ولأن قريشاً لن تعرف ما هي القبيلة التي وافقت على حماية الرسول ﷺ. كان أول تغيير في سياسة الرسول ﷺ في تلك السنة أن جعل دعوته للوفود الحاجة سرية.

الثاني: أنه اصطحب معه أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، لأنه كان خبيراً بالأنساب، يستطيع أن يعرف القبيلة القوية العزيزة من القبيلة الضعيفة، ويستطيع أن يعرف زعماء القبائل وتاريخهم، لو كانت القبيلة قوية فالرسول ﷺ يعرض عليهم الإسلام، ويطلب منهم النصرة، ولو كانت القبيلة ضعيفة أو زعيمها ليس بيده القرار عرض عليهم الإسلام، لكن لم يطلب منهم النصرة. تخطيط مهول، فبناء الأمم ليس شيئاً سهلاً، تخطيط سياسي على أعلى مستوى.

دعوة النبي ﷺ لقبيلة بني شيبان ونتائج ذلك

ذهب ﷺ إلى قبيلة غسان، وبني فزارة، وبني مرة، وبني سليم، وبني عبس، وبني نصر، وبني ثعلبة، وبني الحارث بن كعب، وبن عذرة، وبني قيس، وبني محارب، ذهب إلى كل هؤلاء وإلى غيرهم، فلم يقبل أي من هؤلاء الدعوة. وليس هناك مشكلة؛ لأن مهمتنا ليست الهداية، ولكن البلاغ، لا يهم كم آمن على يديك، لكن المهم كم عدد الذين أبلغتهم أمر الإسلام، هذا هو الذي يحاسبك عليه ربنا، عملك وليس نتائجك. الرسول ﷺ لم يصبه اليأس بعد أن انتهى من كل هذه القبائل، بل ذهب إلى قبيلة أخرى وهي قبيلة بني شيبان؛ وسنقف وقفة مع مباحثات الرسول ﷺ مع بني شيبان.

قبيلة بني شبيان قبيلة كبيرة عزيزة تسكن في الشمال الشرقي لجزيرة العرب - قريبة من العراق-، ذهب إليها الرسول ﷺ ومعه أبو بكر الصديق، فبدأ أبو بكر أولاً يسأل: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، بعد أن سمع أبو بكر هذا الاسم أسرع إلى رسول الله ﷺ وقال له: بأبي

أنت وأمي يا رسول الله؛ هؤلاء غرر الناس، من أعظم القبائل، وعندما سأل عن أسماء الحضور وجد فيهم أشراف بني شيبان: مفروق بن عامر ، وهانئ بن قبيصة ، والنعمان بن شريك ، والمثنى بن حارثة وأبو بكر يعرفهم ويعرف تاريخهم، كما أنه حاد الذكاء فبدأ يستثير الحماسة والعزة عندهم، قال الصديق : (كيف العدد فيكم؟) فقال مفروق وهو المتحدث الرسمي في الوفد: (إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب ألف من قلة)، وهذا رقم كبير، ولا ننسى أن المسلمين كانوا في بدر 313 أو 314، وكان الكفار ألفاً.

فأثاره أبو بكر أكثر وقال له: (وكيف المنعة فيكم؟) أحس مفروق بالإهانة فعلاً، فرفع صوته وقال: (إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى – في الحرب–، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة ويديل علينا أخرى). كلام في منتهى الحكمة والقوة، وهذا ما كان يريده الصديق رضي الله عنه وأرضاه، أن يظهر العزة والكرامة التي عنده، حتى إذا ما طلب منه الوقوف أمام قريش لا يتراجع أو يتردد.

وكما أن مفروقاً كان منتبهاً لأسئلة الصديق ، قال له: (لعلك أخو قريش)؟ أي: (هل أنت الرجل الذي ظهر في قريش يدعو إلى دين جديد)، يقصد الرسول ﷺ.

فأحب الصديق أن يكسب نقطة في الحوار، فقال له بمنتهى الذكاء: أو قد بلغكم أنه رسول الله؟ يعني: كأنهم متفقون على أنه رسول، وأمر واقع مسلّم به. لكن مفروقاً كان ذكياً وانتبه لسؤاله فرد عليه وقال: (قد بلغنا أنه يذكر ذلك).

لكن الحقيقة أنه كان رجلاً مؤدباً، وكل وفد بني شيبان كذلك، التفت مفروق للرسول ﷺ وقال له: (وإلام تدعو يا أخا قريش؟)

فتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام وبدأ يتكلم قال: (أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد).

ويبدو أن مفروقاً أعجبه كلام الرسول ﷺ، ولم يكن يخاف من قريش، لكنه أحب أن يتعرف أكثر على الدين الجديد، قال: (وإلام تدعو يا أخا قريش؟)

فكر الرسول ﷺ أن يقرأ له قرآناً، وعندما وجد الوفد أخلاقهم عالية، اختار لهم آيات قرآنية تحض على الأخلاق الحميدة، لكي يقف معهم على أرضية مشتركة، فقرأ لهم ﷺ من سورة الأنعام قول الله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:151-153] انبهر مفروق من حلاوة المعاني ومن حلاوة اللغة، وشعر بالإعجاز، وأحب أن يعرف أكثر، فقال: (وإلام تدعو يا أخا قريش؟)

قال ﷺ وهو يضرب على نفس الوتر: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل:90]. تأثر مفروق بالقرآن، وقال في منتهى الصراحة: (دعوت يا أخا قريش والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال). ثم بدأ يسب قريشاً، وأعجبه الإسلام كثيراً، حتى قال كما في رواية: (إن هذا والله ليس من كلام الأرض).

لكن مفروق زعيم من مجموعة من الزعماء، والقرار ليس بيـده وحـده، فأحـب أن يسـمع رأي أصحابه، فقال: (وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصـاحب ديننـا)، ولمـا كـان هـانئ بـن قبيصـة صاحب خلفية دينية أوسع أحب أن يأخذ رأيه، فبدا أن هانئ بن قبيصة كان معجبـاً بالإسـلام أيضاً، ولم يكن لديه أي اعتراض عليه، لكنه يخاف أن يأخذ قراراً مثل هذا يترتب عليـه دخـول بني شيبان في حرب ليس فقط مع قريش، ولكن مع كل العرب.

قال هانئ بن قبيصة: (لقد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إيـاك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لوهن في الرأي، وقلة نظر في العاقبة). أي: ليس من المعقول أننا من جلسة واحدة ندخل في الإسلام ونحارب الدنيا بأكملها، (وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقـداً، ولكـن ترجـع ونرجـع، وتنظـر وننظر) أي: أعطنا فرصة للتفكير، وأنا أعتقد أن هذا انسحاب مؤدب من هانئ.

مفروق كان موافقاً، وهـانئ مـتردد، وهـو يميـل إلى عـدم الموافقـة الآن، وإذا كانـت العمليـة سيكون فيها حروب، فرأي وزير حربية بني شيبان سيكون مهـماً أيضـاً، وكـان وزيـر الحربيـة عندهم هو المُثَنّىَ بن حارثة رضي الله عنه؛ وقد أسلم بعد ذلك.

قال هانئ : (وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا). المثنـى فـارس مغـوار، وصـاحب عقلية عسكرية فذة، وهو مشهور في العرب بذلك.

قال المثنى بن حارثة : (قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة.

هو مع عدم التسرع في دخول الإسلام، لكنه أضـاف نقطـة مهمـة جديـدة في المباحثـات، بـدأ يتحدث عن الوضع العسكري لبني شيبان، وكلامه هـذا عـن الوضـع العسـكري هـو الـذي سيجعله في النهاية يأخـذ قـراراً خطـيراً. قـال المثنـى : (إنـما نحـن نزلنـا بـين صرتـين اليمامـة

والسماوة). الصرى هو تجمع المياه، أي: أننا بين تجمعين للمياه، وبالتـالي تجمعـين للبشرـ، قـال رسول الله ﷺ: (ما هذان الصريان؟) قال المثنى بن حارثة : (أنهار كسرى، ومياه العرب).

أي: تجمع دولة فارس، وتجمع القبائل العربية؛ لأن قبيلة بني شيبان كانت على حدود العـراق، والعراق كانت مملكة فارسية، والجزيرة العربية فيها عشـرات القبائـل، وهـو أراد أن يبـين لـه حدود إمكانياته، وسيعرض عرضاً خطيراً. قال المثنى : (فأما ما كان من أنهار كسرى) - دولـة فارس- فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كـان مـن ميـاه العـرب فذنبـه مغفور، وعذره مقبول) أي نحن لا نستطيع أن نغضب كسرى فارس؛ لأن الخطأ في حقـه غـير مقبول، أما العرب فنحن نقدر عليهم.

كان مفروق يقول: نحن أكثر من ألف، لكن عندما تقارن ذلك بجيش فـارس فهـو أكثـر مـن مليونين، عندما تأتي قبيلة تفتخر أنها أكثر من ألف، وبجانبها دولة فيهـا مليونـا جنـدي، لـيس الشعب وإنما الجنود فقط تعرف أن الفجوة هائلة، وبالحسابات المادية فقط مستحيل أن يصـمد أحد أمام فارس، وفوق ذلك فتوقعات المثنى أن كسرـى فـارس لـن تعجبـه دعـوة الإسـلام، فيقول للرسول ﷺ لا بد أن تعرف أنه لو غضب كسرى فارس فنحن ليس لنا شأن بك.

قال: (وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كســرى ، ألا نحـدث حـدثاً ولا نـؤوي محـدثاً) أي: لا نخترع شيئاً جديداً، ولا ندافع عن أحد أتى بشيء جديد. ثم قال: (وإني أرى أن هـذا الأمـر - أي: الإسلام- مما تكرهه الملوك). وفي النهاية لخص المثنى قراره في منتهى الجرأة، فقـال: (فـإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنـا). كـان هـذا يمثـل انتصـاراً مهـولاً؛ لأن رسول الله ﷺ يطارد في مدينته الصغيرة مكة، ومن أهله وأقاربه، وليس معه إلا حفنة قليلة من المضطهدين، وبقية أصحابه في الحبشة، وهو في إجارة رجل كافر، ثم يعرض عليه أن يدافع عنه ضد كل القبائل العربية، والعرض مقدم من قبيلة قوية مثل بني شيبان، ثم الاشـتراط الوحيـد

عدم حرب فارس، كل هذا يجعل العرض منطقياً بل مغرياً، ولكن الرسول ﷺ رفـض عـرض المثنى بن حارثة وقال في أدب: (ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق) أي أنـه جميـل جـداً أنكـم قلتم إمكانياتكم بوضوح، بدلاً من أن تتفقوا معي وبعد ذلك تتخلوا عنـي، ثـم قـال كلمـة في منتهى الروعة، وهي عبارة عن قانون رئيسي في بناء أمة الإسلام، قال: (فإن دين الله عز وجـل لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه)، ليس من الممكن أن ينصر الإسلام الذي يختـار منـه شيئاً ويترك آخر، هذا لا يعرف ما معنى إسلام، ولا يعرف معنى العبودية لله عز وجـل، العبـد لا ينتقي من كلام سيده ما يعجبه ويوافق هواه. فرفض الرسول ﷺ عرضهم؛ لأن هؤلاء ليس هم من سيحملون الدعوة، فهو يريد رجلاً يقول له: إن الله قال لك اعمل كذا، يعمـل ويطيـع حتى وإن كان عقله لا يستوعب المراد والحكمة المقصودة من ذلك.

ثم قال لهم الرسول ﷺ في يقين رائع: (أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتـى يـورثكم الله أرضـهم وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟) يعني: أمة فارس التي تخـافون منهـا ستنهار تحت أقدام المسلمين، ماذا ستعملون حينها، هل ستدخلون في الإسلام؟

قال النعمان بن شريك: (اللهم لك ذاك).

ولم يمر على كلام رسول الله ﷺ أكثر من خمس عشرة سنة حتى كانـت جيـوش المـؤمنين تـدك حصون فارس، وتزلزل عرش كسرى، والغريب أن المثنى بـن حارثـة الـذي كـان خائفـاً مـن كسرى فارس، كان بعد إسلامه أحد القواد الذين أزاحوا كسرى من ملكـه، لكـن المثنـى بعـد إسلامه كان شخصاً مختلفاً عما كان عليه قبل الإسلام، وهذه هي عظمة الإسلام.

فشلت المفاوضات، وأخذ الرسول ﷺ الموضوع ببساطة؛ لأن القواعد في ذهنه واضحة، ويرى كل شيء بوضوح، لا يفرط ولا يتنازل، وليس هناك من يضحك عليه أو يخدعه أو يخوفـه ﷺ،

فهو يعلمنا كيف نبني أمتنا وتيقنوا أننا من غير هذه القواعد يستحيل علينا أن نبني الأمة، ومن أجل ذلك نحن ندرس السيرة.

دعوة الرسول ﷺ للخزرج في العام الحادي عشر من البعثة

قام الرسول ﷺ من مجلس بني شيبان، وانتقل مباشرة إلى مجلس فيه ستة من الرجال، وكان من هدي الرسول ﷺ أنه لا يترك صغيراً ولا كبيراً إلا ودعاه للإسلام. نسي الرسول ﷺ كل شيء عن بني شيبان، وبدأ يتكلم مع هؤلاء في منتهى الحماس، قال: (من أنتم؟) قالوا: (نفر من الخزرج). الخزرج قبيلة كبيرة مشهورة في يثرب، كما أن لديهم قبيلة مشهورة أخرى هي الأوس، وهؤلاء هم الأنصار، ويثرب مدينة في شمال مكة على بعد حوالي 500 كيلو تقريباً.

بدأ الرسول ﷺ المفاوضات بسؤال مهم، قال: (أمن موالي اليهود؟!) -يعني: حلفاء اليهود؟- قالوا: نعم).

كان الرسول ﷺ مطلعاً على أحوال زمانه، وكان يعرف موازين القوى في العالم، فمثلما كان يعرف وضع بني شيبان ومملكة فارس، وخطورة أن يتعامل مع بني شيبان، وعين لهم معه وعينهم الأخرى مع كسرى، أيضاً كان يعرف أن اليهود يعيشون في يثرب، وأنهم قوة سيكون لها أثر إما سلبي وإما إيجابي، ومن المؤكد أنه سيكون لها أثر أيضاً على من يعيشون بجانبهم.

فوضع الرسول ﷺ هذه الخلفية في ذهنه، ثم قال لهم: (أفلا تجلسون أكلمكم؟) قالوا: (بلى) وجلسوا، فجلس معهم الرسول ﷺ ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، كأي قبيلة من القبائل، فآمن هؤلاء الستة من ساعتهم.

لقد مرت علينا في السيرة مواقف كثيرة يؤمن فيها الإنسان بمجرد سماع القرآن، لكن هذا يكون على المستوى الفردي، لكن هذا الإيمان الجماعي غريب، ولا بد أن نقف معه وقفة لكي

نحلل ونستفيد. الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى كان يعد هذه المجموعة بطريقة عجيبة؛ لكي تقبل الإسلام بهذه السهولة، ثم بعد ذلك تتحرك بالإسلام بنفس السهولة، وكان هذا الإعداد بأمور:

أولاً: خلفية العلاقة مع اليهود. اليهود خلق عجيب، كان إذا حدث بينهم وبين الأوس والخزرج خلاف قالوا لهم: إنه سيظهر في هذا الزمان نبي وسوف نتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم، ونتيجة هذه الأخلاق الفاسدة وقر في قلوب الأوس والخزرج بغض شديد لليهود، وفي نفس الوقت خوف كبير منهم، لكن الأهم من ذلك أن الأوس والخزرج كانوا يقتنعون بقرب ظهور النبي ﷺ، أو على الأقل كانوا يصدقون فكرة ظهور الرسل على خلاف أهل مكة، وفي نفس الوقت يملؤهم الخوف من الرسول الذي سيظهر واتحاد اليهود معه، فلما سمعوا هذا الكلام قال بعضهم لبعض بمنتهى الصراحة وأمام الرسول ﷺ، قالوا: يا قوم؛ تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. لولا غلظة اليهود ما أخذ الخزرج قرارهم بهذه السرعة.

ثانياً: الخلفية الاجتماعية لمدينة يثرب في ذلك الوقت، كانت هناك حرب أهلية طاحنة بين الأوس والخزرج، ففي يوم بُعاث المشهور دارت حرب هائلة بين الأوس والخزرج، وهذا اليوم كان في نفس السنة، كان في السنة الحادية عشرة من البعثة، منذ شهور قليلة، ولو استمر الحال على هذا الأمر لفنيت القبيلتان. ففكر الخزرج أن هذا الرجل -ﷺ- بما له من حلاوة منطق وقرآن معجز يستطيع أن يجمع القبيلتين ويحفظهم من الهلكة، وهم بأنفسهم قالوا هذا الكلام، قالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك. تقول السيدة عائشة: (كان يوم بعاث يوماً قدمه الله تعالى لرسوله ﷺ) -أي أنه بسبب

هذا اليوم أتى الناس وآمنوا بسرعة- (وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم) - شرفاؤهم- (وجرحوا، فقدمه الله عز وجل لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام).

خلفية العلاقة مع اليهود، وخلفية الصراع المهلك الذي كان في يثرب جعل هؤلاء الستة يسلمون بسرعة، وليس هكذا فقط، بل جعلهم يرجعون بسرعة إلى يثرب ليحاولوا نشر الإسلام بأسرع طريقة؛ لكي يوحدوا الأوس والخزرج، ولكي يستطيعوا أن يقفوا أمام اليهود.

هذا ترتيب رباني عجيب! ينصر رسله والذين آمنوا في الوقت الذي يشاء، وبالطريقة التي يشاء، ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يخطط لمقابلة هؤلاء الستة هذه السنة، لكنه كان يعمل في دعوته بمنتهى الحماس، قابل بني عامر وبني شيبان وبني عبس وبني حنيفة.. وغيرهم وغيرهم، ولكن ربنا شاء أن يؤمن هؤلاء، وفي هذا التوقيت بالذات. ونعود ونقول: ليس المهم كم شخصاً آمنوا على يديك، ولكن المهم كم شخصاً أوصلت إليه رسالة الإسلام.

وهؤلاء الستة هم:

- أسعد بن زُرارة
- رافع بن مالك
- جابر بن عبد الله
- قُطبة بن عامر
- عوف بن الحارث
- عُقبة بن عامر.

وقطبة وعقبة ليسا بإخوة ولكنه مجرد تشابه في الأسماء رضي الله عنهم أجمعين.

قال هؤلاء الستة: فسنقدم على قومنا يا رسول الله، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. وعاد الستة إلى يثرب وبدءوا يتكلمون عن الإسلام، وليس هكذا فقط، بل بدءوا يتحدثون مع الأوس بهذا الشأن، وتناسوا يوم بعاث، وآمن بالفعل على أيديهم اثنين من الأوس، أبو الهيثم بن التيِّهان وعويم بن

ساعدة رضي الله عنها، ومرت سنة كاملة وهم يعملون في الدعوة في يثـرب، ومـع أن علمهـم قليل، وسمعوا آيات قليلة من الرسول ﷺ، لكنهم تحركوا بهذه الآيات، (بلغوا عني ولو آية).

لقاء الرسول بأصحابه في بيعة العقبة الأولى

مرت الأيام وجاء موسم الحج من السنة الثانية عشرة من البعثـة، وأصـبح السـتة اثنـى عشرـ، وجاءوا يقابلون الرسول ﷺ. الذي ينظر إلى عام الحـزن والعـام الـذي بعـده -العـام العـاشر والحادي عشر من البعثة- يرى أنه من المستحيل لأمة الإسلام أن تقـوم إلا بعـد قـرون، لكـن مجموعة صغيرة من الخزرج آمنت، وبعد سنتين فقط أصبح للمسلمين دولة!

من الواضح أن النصر قد يكون قريباً مهما كانت الفجوة بينك وبين عدوك واسعة وكبيرة، لكن المهم أنك تمشي في الطريق الصـحيح، والطريـق الصـحيح هـو طريـق الرسـول ﷺ؛ ولـذلك ندرس السيرة. جلس الرسول ﷺ مع الاثني عشر مسلماً الذين جاءوا من يثرب، عشـــرة مـن الخزرج واثنين من الأوس، وبدأ معهم المفاوضات، وهذه المفاوضات عرفت في التـاريخ بعـد ذلك باسم بيعة العقبة الأولى؛ لأن المكان الذي تمت فيه كـان عنـد العقبـة، والأولى لأن هنـاك بيعة أخرى ستأتي بعد ذلك بسنة.

واتفق الرسول ﷺ مع هؤلاء المسلمين، ولكن لم يطلب منهم النصرة والمساعدة كما طلبهـا مـن بني شيبان أو من بني عامر.. أو من غيرهم؛ لأنه يعرف أن القرار ليس بأيـديهم في يثـرب، ولا يريد أن يحملهم فوق طاقتهم، وفي نفس الوقت يربيهم لكي يحملوا هذه المهمة مستقبلاً، وفوق ذلك كان يريد أن يزيد من عدد المسلمين في يثرب، حتى يصل إلى المستوى الذي يمكـنهم فيـه من تحمل مسئولية الدفاع عن الإسلام.

بنود بيعة العقبة الأولى

يحكي لنا عبادة بن الصامت قصة البيعة، وكان من الذين شاركوا في هذه البيعة الهامة في تاريخ الإسلام، يقول عبادة : (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء)، عرفت بذلك لأنها لم يشترط فيها جهاداً ولا حرباً، وكانت بنود البيعة كالتالي:

البند الأول: على أن لا نشرك بالله.

البند الثاني: ولا نسرق.

البند الثالث: ولا نزني.

البند الرابع: ولا نقتل أولادنا.

البند الخامس: ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا.

البند السادس: ولا نعصيه في معروف.

هذه هي الشروط التي على الصحابة.

والجزاء: (فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم). البيعة بسيطة في ألفاظها وفي عدد كلماتها، لكنها عميقة في معانيها، فهي تضع قواعد لبناء المجموعة التي من الممكن أن تحمل مستقبل الأمة الإسلامية على كتفيها. أول بند ذكره هو القضية الأساسية في الإسلام: أن لا نشرك بالله. العقيدة الصحيحة، لا يقدم أمر على أمر الله عز وجل، لا بد أن يعرفوا ذلك من أول يوم.

أما البند الثاني والثالث والرابع والخامس في البيعة فهي بنود ذكرت لأجل هدف واحد، هو الارتفاع بأخلاق هذه الأمة إلى أعلى مستوى.

لا تقوم الأمة على أكتاف المترخصين في قضية الأخلاق، إن ضاعت الأخلاق ضاع كل شيء، ضاعت السياسة، والاقتصاد، والحكم، والقضاء، والمعاملات، وكل شيء. بعد بند العقيدة الأولى أتى بأربعة بنود من أجل قضية الأخلاق.

أما البند السادس فهو مهم ويحتاج إلى وقفة؛ يقول جابر : (ولا تعصوني في معروف).

وهذا البند يوضح شيئين لا تقوم أمة الإسلام من غيرهما: الشيء الأول: طاعة الرسول ﷺ وعدم عصيانه. الشيء الثاني: أن هذه الطاعة لا تكون إلا في المعروف.

وهذا بند قد يستغربه بعض الناس؛ لأن من البدهيات أن الرسول ﷺ لن يأمر إلا بالمعروف، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام يضع قواعد لمستقبل الأمة الإسلامية حتى يوم القيامة، فالذي يقوم مقام الرسول ﷺ في غيابه أو بعد موته لا بد أن يطاع، ولكن لا يطاع إلا في معروف، (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، وهذه قاعدة أصيلة في بناء الأمة الإسلامية.

جزاء أهل بيعة العقبة

أما عن الثمن في مقابل تنفيذ هذه البنود، فإنه لم يعدهم بمال ولا برئاسة ولا بوضع اجتماعي معين، ولا أمن وأمان، وإنما قال كلمة واحدة، ولا يوجد أحد يستطيع أن يحمل مهمة بناء الأمة الإسلامية إلا إذا كان غرضه في النهاية هذه الكلمة، قال رسول الله ﷺ: (فإن وفيتم فلكم الجنة)، أما كل الأثمان الأخرى من مال ورئاسة وأمن وراحة فقد تأتي وقد لا تأتي، ليست هي القضية، وليست هي منتهى أحلام المؤمنين، {إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة:111]، فقط الجنة.

وهنا يتضح الفارق الهائل بين مجموعة الأنصار التي بايعت هنا، وبين قبائل بني شيبان وبني عامر.. وغيرهم ممن اشترطت شروطاً معينة للإيمان، لكن مع كل التكاليف التي فرضت على الأنصار لم يكن هناك أي وعد بأي شيء إلا الجنة، ولذلك بارك ربنا سبحانه وتعالى في هذه البيعة، وكان آخرها دولة وسيادة وتمكيناً. هذا هو ديننا.

عاد الاثنا عشر إلى يثرب، التي أصبح اسمها: المدينة المنورة عندما هاجر إليها الرسول ﷺ، ومن حينها وهم معروفون باسم الأنصار، وبقي معهم هذا الاسم؛ لأنهم فعلاً الذين نصروا الدعوة، ونصروا الإسلام، ونصروا الرسول ﷺ، ونصروا المهاجرين، وتغير حال المسلمين تماماً بعد إسلامهم.

سفارة مصعب إلى المدينة ومهامه فيها

بعث الرسول ﷺ واحداً من المسلمين المكيين إلى يثرب، يمثل دور السفير، لكنه في الحقيقة أعلى بكثير من دور السفير العادي الذي ينقل الرسائل من وإلى الرسول ﷺ، كانت له أدوار إيجابية مهمة:

الدور الأول: تعليم المسلمين هناك الإسلام.

الدور الثاني: أن يكون صورة متحركة للإسلام، وقدوة للناس.

الدور الثالث: إدخال القدر الذي يستطيعه من أهل البلد في الإسلام، لكي تكون حماية البلد بعد ذلك معتمدة على أبنائه من داخله.

الدور الرابع: تمهيد البلاد نفسياً لاستقبال المسلمين بعد ذلك من مكة والحبشة، أو من أي مكان في الأرض.

الدور الخامس: دراسة الوضع العسكري والأمني والاقتصادي ليثرب؛ لأنها ستكون دار الهجرة.

كانت المهمة ضخمة؛ لأنها مهمة التخطيط لبناء دولة، ولا بد أن الذي سيختاره يكون أهلاً لهذه المهمة.

سبب اختيار الرسول ﷺ مصعب بن عمير لدور السفير إلى المدينة

اختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه، ولا بد أن نقف وقفة مع مصعب بن عمير، ومع سبب اختياره من دون كل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. لقد اتصف مصعب بصفات كثيرة، جعلته يستطيع القيام بهذه المهمة الكبيرة، وهذا يثبت أن الاختيار كان حكيماً، ولم يكن عشوائياً أبداً.

أولاً : كان مصعب بن عمير من أعلم الصحابة رضي الله عنه وأرضاه، كان يحفظ كل ما نزل من القرآن، وهو من أوائل من أسلم، وخاض التجربة الإسلامية من أولها، ويعرف متى نزلت آيات القرآن ومعناها، ورأي الرسول ﷺ في تفسير الآيات التي نزلت.

نقطة العلم نقطة في غاية الأهمية، وبالذات أن المسافة بين مكة ويثرب 500 كيلو، وليس هناك فرصة لسؤال الرسول ﷺ، وليس هناك مصادر أخرى للعلم غير مصعب ، فلا بد أن يكون عالماً بحق، وحفظ القرآن كان مهماً جداً؛ لأنه ليس مجرد وسيلة معجزة لإثبات صدق الرسول ﷺ، لكنه أيضاً دستور ومنهاج حياة كاملة للمسلمين، فالذي يحفظ القرآن ويفهمه ويعمل به هو أصلح واحد من يقوم بهذه المهمة.

ثانياً: أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان يتصف باللباقة والذكاء والهدوء والصبر، وسعة الصدر والحلم، وهذه صفات أساسية في أي داعية، كان مصعب إنساناً رقيقاً هادئاً متواضعاً، فيه ذكاء شديد، أي: أنه داعية مثالي.

ثالثاً: أن مصعب بن عمير رضي الله عنه من أشراف أهل مكة، كان من بني عبد الدار الذين يحملون مفتاح الكعبة، ويتوارثونه كابراً عن كابر، وليس معنى هذا أن الإسلام أتى ليفرق بين أصحاب الأصل الشريف وبين غيره من الناس، لكن الرسول ﷺ كان يراعي حالة أهل يثرب، ولا يريد أن يفتنهم، يا ترى ماذا سيكون حالهم لو ذهب إليهم رجل بسيط ضعيف عبد أو حليف؟ ربما لن يسمعوا منه أصلاً، لكن مصعب بن عمير من أشرف الصحابة نسباً.

رابعاً: مصعب بن عمير رضي الله سيكون خير قدوة للأغنياء الذين يريدون الدخول في هذا الدين، ويترددون بسبب ملكهم أو أموالهم؛ لأن مصعباً يقدم لهم المثال العملي لرجل استطاع أن يترك المال من أجل الدعوة، وكذلك الفقراء سيتأكدون أن الدين لا يفرق بين الغني والفقير فعلاً.

خامساً: سيكون إرسال مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى يثرب إعلاناً واضحاً لأهل يثرب ولمكة ولغيرهما أن هذا الدين ليس ثورة من الفقراء على الأغنياء، هذا هو السفير الإسلامي كان رجلاً غنياً وواسع الغنى، ثم ترك ماله ليصبح مسلماً وإن كان فقيراً، وهذا يعني أن دعوة الإسلام لم تظهر من أجل عوامل اقتصادية كما يقول كثير من الناس.

سادساً: هذا السفير المنعزل في يثرب الذي يعيش على بعد 500 كيلو من الرسول ﷺ قد يفتن بالدنيا هناك، وبراحة العيش، ورغد الحياة، مثل ما نرى نحن من يكون شعلة من النشاط، لكن عندما تعرض عليهم الدنيا يفتنون بها ويبتعدون عن الطريق، أما مصعب فلم يكن هكذا،

فقد نجح في الاختبار الصعب الذي قامت به أمه معه، ولئن كان قادراً على رفض الدنيا من يد أمه، فهو على رفضها من أيدي الآخرين أقدر.

سابعاً: الداعية المنعزل الذي يعيش لوحده بعيداً عن المسلمين، ويعلم الناس والناس تمشي وراءه، قد يفتن بفتنة الرئاسة والزعامة، وينسلخ عن الصف بمن تبعه، وهذه كارثة حقيقية، لكن مصعباً في الحقيقة أثبت قدرته على الوقوف أمام فتنة الرئاسة؛ فمصعب من بني عبد الدار، ومكانته في قريش معروفة، وزعامته فيها كانت وشيكة لولا ارتباطه بهذا الدين، لو كان فعلاً يريد الزعامة لظل على شركه ولم يدخل في الإسلام، لكنه اختار الإسلام ورفض الزعامة.

ثامناً: أن مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه كان من المهاجرين إلى الحبشة في الهجرتين الأولى والثانية، ونحن لا نعرف متى عاد من الهجرة الثانية، ولعل الرسول ﷺ استدعاه لأجل هذه المهمة، ولا شك أن هجرة الحبشة قد أكسبته خبرة كبيرة في التعامل مع الأغراب، ومع عادات وتقاليد مختلفة، فإذا كان يستطيع أن يتعامل مع أهل الحبشة وهم ليسوا عرباً أصلاً، ودينهم غريب على الجزيرة العربية، فيستطيع أن يتعامل مع أهل يثرب الذين هم من العرب، وفي نفس الوقت دينهم هو الدين الذي عليه أهل مكة.

تاسعاً: هجرة الحبشة أعطت مصعباً القدرة على ترك الديار ومفارقة الأهل والأحباب. نحن لا نعرف مهمة يثرب كم ستأخذ من الوقت، سنة أو سنتين أو ثلاث سنين، فالذي استطاع أن يصبر على الهجرة فترة طويلة، يستطيع أن يصبر على هذه الهجرة أيضاً.

عاشراً: أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان عمره 35 عاماً وقت هذه السفارة، وهذا سن مناسب جداً لهذا العمل، فهو ليس شاباً صغيراً حتى يتهور أو يندفع، وليس شيخاً مسناً حتى تصعب عليه الحركة والدعوة والمشقة.

فتلك عشرة كاملة من أجلها اختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير ليكون أول سفير في الإسلام، وربما هناك أسباب أخرى كثيرة رآها الرسول ﷺ في مصعب بن عمير رضي الله عنه.

طريقة مصعب في الدعوة إلى الله في المدينة

عاد الأنصار ومعهم الصحابي الجليل القدوة مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى يثرب، وبدءوا يقومون بعمل منظم في يثرب، وفي تلك السنة كانت يثرب مختلفة تماماً عن السنوات التي قبلها، بعد أن كانت غارقة بالدم نتيجة الصراع بين الأوس والخزرج.

نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في ضيافة أسعد بن زرارة الخزرجي رضي الله عنه، وأسعد لم يكن عمره آنذاك قد وصل ثلاثين عاماً، لكنه كان من أحكم الصحابة رضي الله عنهم، كان أسعد يعرف كل أهل المدينة، وكانت له علاقات جيدة بمعظمهم، لكن ليس عنده علم مصعب ، ومصعب عنده علم غزير، لكن لا يعرف أحداً في المدينة.

كان أسعد رضي الله عنه يأخذ مصعباً رضي الله عنه إلى كل بقعة في يثرب، ويدخل به كل بيت وملتقى وشارع، ويعرفه بكل من لقيه، وبعد أن يعرفه عليه يبتدئ مصعب بن عمير رضي الله عنه بالتعريف بالإسلام وقراءة القرآن، وهكذا كانا، فمصعب بغير أسعد لن يستطيع أن يصل إلى أهل يثرب، وأسعد بغير مصعب لا يستطيع أن يقنع الناس بحلاوة الإسلام، وأسعد بهذه الطريقة كان من خير الدعاة، نعم هو لا يخطب ولا يتكلم، لكن من غيره مصعب لن يتكلم، وهذه حلاوة الدعوة، والعمل الجماعي، كلٌ يجد له دوراً يكمل به دور الآخر، وكل هذا يفيد الدعوة بلا شك. والجميل في أسعد بن زرارة رضي الله عنه أنه لم يكن يأخذ مصعباً إلى الخزرج فقط، ولكنه كان يأخذه إلى الأوس أيضاً، نسي الصراعات القديمة والدم والثأر والقبلية، وعاش حياته كلها للإسلام فقط.

إسلام أُسَيْد بن حُضِير وسعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير

من أجمل وأروع وأعظم ما حدث مع أسعد ومصعب دعوة أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، وهما سيدا بني عبد الأشهل من قبيلة الأوس، وهي قبيلة أخرى غير قبيلة أسعد. ذهب أسعد بمصعب إلى حديقة للأوس، وجمع له الذي استطاع أن يجمع منهم، وبدأ مصعب يقرأ عليهم القرآن، كل هذا وسادات الأوس في الحديقة، أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، وكانا ما زالا مشركين، فسمع سعد بن معاذ بأمر مصعب وأسعد ، فغضب غضباً شديداً، وفكر أن يذهب إليهما، لكن أسعد بن زرارة ابن خالة سعد بن معاذ فرأى غير ذلك، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: (اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا)، فأخذ أسيد حربته وذهب إليهما، فلما رآه أسعد آتياً من بعيد لم يخف، ولكنه قال لمصعب كلمة في منتهى الأهمية، قال له: (هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه). انظروا إلى فقه أسعد ، علم أن الصدق مع الله يفتح القلوب، ويُذكِّر من؟! يذكر مصعباً القارئ المقرئ، يذكر الرجل الذي عنده علم، لكن: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات:55].

قال مصعب لأسعد : (إن يجلس أكلمه)، فجاء أسيد ووقف عليهما مستعداً للقتال، وقال: (ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة). أي: اذهبا من هنا لو كنتما تخافان على أنفسكما. كلام غليظ مستفز، لكن قلب مصعب واسع، فقال في منتهى الهدوء وسعة الصدر: (أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره).

فقال أسيد بن حضير : (أنصفت، وجلس وهو مستند على حربته).

بدأ مصعب رضي الله عنه يتكلم عن الإسلام، وبدأ يقرأ القرآن، ووقعت كلمات الرحمن في قلب أسيد بن حضير فتغير وجهه تماماً، وذهب الغضب من وجهه، وبانت عليه سكينة وهدوء، وتأثر لدرجة أن أسعد بن زرارة يقول: (فو الله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله).

قال أسيد بن حضير : (ما أحسن هذا الكلام وما أجمله)، وبعد ذلك قال كلمة عجيبة جداً وهو جالس في نفس اللحظة: (كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟)، كان الرجل يقف مستعداً للقتال، وفي لحظة ترك دينه الذي عاش عليه سنوات وسنوات بمجرد أن سمع بعض الآيات، وبعد أن جاء ليطردهما وأسعد من الخزرج ومصعب ليس من المدينة أصلاً، لكن كلمات القرآن كانت تنزل على قلب أسيد برداً وسلاماً، غيرته كلية من دينه ومن حياته، يريد أن يدخل في الإسلام مباشرة.

قال له أربعة أشياء: (تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم الرابعة: تصلي ركعتين)، فقام واغتسل وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، وأصبح أسيد مسلماً. بهذه السهولة انتقل من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان، وما هي إلا دقائق حتى شعر أسيد رضي الله عنه بحلاوة الإسلام، وأحب أن ينقل هذه الحلاوة لمن يحبهم، ولم يصبح مسلماً فقط، بل أصبح داعية، ففكر في سعد بن معاذ ، قال أسيد : (إن وراءي رجلاً إن تبعكما لن يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما)، ذهب أسيد ليخبر سعد بن معاذ ، فلما رآه سعد من بعيد، وكان رجلاً ذكياً لماحاً، قال بنظرة واحدة: (أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم)، وصدق سعد ، لقد ذهب أسيد من عنده بوجه كافر، وعاد إليه بوجه مؤمن، وشتان بينهما، فقال له سعد: (ماذا عملت؟) ففكر أسيد أن يكذب لكي يدفع

سعداً للذهاب إلى مصعب، لم يكن يعرف أن الكذب حـرام في الإسـلام، فبـدأ يؤلـف قصـة، وقال: (والله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثـة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قـد عرفـوا أنـه ابـن خالتـك ليخفـروك) أي: لإهانتك، فأخذ سعد بن معاذ حربته وتوجه إليهما، فلما وصل لم يجد بني حارثـة ولم يجـد أحـداً معهما، بل وجدهما جالسين من غير أي مشاكل، ففهم أن أسيداً كان يدفعه لكي يأتي ويقابلهما، ولم يجد بداً من أن يجلس معهما لكي يطردهما بنفسه.

لما رآه أسعد بن زرارة آتياً من بعيد قال لـمصعب : (جاءك والله سيد من ورائه قومه إن يتبعـك لم يتخلف عنك منهم أحد)، فانتظر مصعب حتى جاء سعد، فأتى سعد بسرعة ووجـه كلامـه مباشرة إلى أسعد، وتجاهل وجود مصعب ، قال: (والله؛ يا أبا أمامة! لولا ما بينـي وبينـك مـن القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره؟!) وقبـل أن يـرد أسـعد دخـل مصـعب في الحوار وقال لـسعد : (أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمـراً قبلتـه، وإن كرهتـه عزلنـا عنـك مـا تكره). قال سعد بن معاذ : (أنصفت)، فجلس سعد وهو مستند عـلى حربتـه، وبـدأ مصـعب يتكلم في الإسلام، ويقرأ القرآن، وكما أثر القرآن في أسيد أثر في سـعد بـن معـاذ رضي الله عنـه وأرضاه أيضاً، وظهر على وجهه، يقول أسعد بن زرارة : (فعرفنا والله في وجهه الإسـلام قبـل أن يتكلم في إشراقه وتهلله)، ثم قال سعد بن معاذ وكأنه يأخـذ قـراراً سـهلاً في حياتـه، قـال: (كيف تصنعون إذا أسلمتم؟)

هذا القرآن! ها هو يحول سعد بن معاذ رضي الله عنه من كافر لا يساوي عند الله شيئاً إلى مؤمن يهتز عرش الرحمن لموته بعد ذلك، قالا: (تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثـم تصـلي ركعتين). ففعل ذلك سعد ، وأصبح مسلماً، وكما أصـبح أسـيد داعيـة بعـد إسـلامه مبـاشرة، كذلك كان سعد بن معاذ داعية بعد الإسلام، ولكنه كان داعية عجيباً، وصنع شيئاً لا يسـتطيع

أحد أن يصنعه في الإسلام في عشرات السنين، وضع مفاصلة عجيبة مع قبيلته، كان من الممكن أن يدفع فيها ملكه وسيادته ووضعه الاجتماعي، كانت هذه المفاصلة وعمره في الإسلام مجرد لحظات، لقد ولد إيمان سعد عملاقاً بمعنى الكلمة. ذهب سعد إلى قبيلته وقال لهم: (يا بني عبد الأشهل؛كيف تعلمون أمري فيكم؟) قالوا: (سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة)، فقال سعد في وضوح وصرامة: (فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله). مفاصلة كاملة عجيبة، ماذا كان سيحصل لو أن القبيلة رفضت الإسلام؟! سيختارون رئيساً غيره، لكن سعداً تغير، ولم تعد الدنيا تساوي في عينيه أي شيء، وشعر أن عمراً طويلاً ضاع منه، وكان كل همه ألا يضيع الباقي، لكن الحمد لله دخلت قبيلة سعد -بني عبد الأشهل- بكاملها في دين الإسلام في يوم واحد، إلا واحداً تأخر إسلامه أربع سنوات وبعد ذلك أسلم. هل رأيتم النصر، كيف من الممكن أن يكون قريباً؟!

قبل دقائق كانوا مجموعة قليلة ضعيفة بسيطة، والآن أصبحوا مئات ومئات، دخلت في الإسلام قبيلة بأكملها برجالها ونسائها وأطفالها وخيولها وسلاحها، وكل ذلك لكي يبين لنا ربنا رسالة مهمة وهي: أن لحظة التمكين بيده سبحانه وتعالى، وممكن أن تكون قريبة وبطريقة لا يحسب لها المسلمون أي حساب، فإن الله يختار الطريقة والتوقيت، لكن المطلوب منا أن نفعل مثل مصعب وأسعد ، نبذل المجهود حسب الطاقة، ونخلص النية لربنا سبحانه وتعالى، ونصدق الله عز وجل، وسيجعل الله عز وجل بعد كل ضيق فرجاً ونصراً.

تغير الوضع في المدينة، وتحولت إلى خلية نحل، فهذا أسعد ومصعب وسعد وأسيد.. وغيرهم، كلهم يعملون في الدعوة، وصل الإسلام إلى كل مكان في المدينة، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، حتى الذي لم يدخل في الإسلام أصبح يسمع عنه، وأصبح

واضحاً أن المدينة مقبلة على مرحلة جديدة، وسيكون لها دور كبير في تغيير واقع الأرض كلها، وفي تغيير خريطة العالم، كل هذا في أقل من سنة.

تذكروا معي التاريخ، قبل ثلاث سنوات كان عام الحزن، بكل الهموم والأحزان الذي فيه، ومن سنتين كانوا ستة من الخزرج، ومن سنة كانوا اثني عشر، عشرة من الخزرج واثنين من الأوس، والآن الإسلام دخل كل بيوت المدينة، إن النصر لقريب، لكن المهم أن تعمل.

عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه إلى مكة قبل موسم الحج من السنة الثالثة عشرة من البعثة، عاد ونقل أحداث الموقف لرسول الله ﷺ، ونقل له الأخبار السعيدة بإيمان الأنصار، ووضح له منعة المدينة في يثرب، ومنعة رجالها، وقوة بأسها وسلاحها، وعرفه مواطن القوة فيها، ومفاتيح التغيير في الرجال هناك، وأصبح رسول الله ﷺ يتخيل المدينة وهو في مكة وكأنه يراها رأي العين، يراها شارعاً شارعاً ويعرف رجالها رجلاً رجلاً.

13

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة 13 من البعثة حضر المسلمون من المدينة إلى مكة لمقابلة الرسول ﷺ والاستماع منه، ومعظم هؤلاء لم يروا الرسول ﷺ، وكل الإسلام الذي تعلموه وعرفوه كان عن طريق مصعب رضي الله عنه. أتى الوفد المسلم من يثرب ضمن الوفد اليثربي الكبير المشرك، المكون من 300 تقريباً، منهم: 75مسلماً، 73 من الرجال وامرأتان. الغريب أن المشركين الذي كانوا في هذا الوفد لم يعرفوا أكثر المسلمين، أي أن المسلمين من الأنصار كانوا غير معروفين في المدينة بإسلامهم، مع أن دعوة مصعب بن عمير كانت علنية، كان يجلس وسط كل الناس، لكن يبدو أن الذي يسلم كان لا يعلن إسلامه؛ مراعاة لظروف المدينة وكثرة المشركين، ووجود اليهود، وغير ذلك من العوامل، كل هذا جعل الدعوة علنية لكن التربية سرية، واستطاع مصعب بن عمير رضي الله عنه والأنصار أن يكيفوا ظروفهم بحيث تتناسب مع ظروف المدينة المنورة في ذلك الوقت.

المعالم العامة لوفد العقبة الثانية

كان بين وفد الأنصار المكون من 75 وبين الرسول ﷺ وعد في موسم الحج سنة ثلاث عشرة من البعثة، وهم لا يعرفون بماذا سيكلفهم الرسول ﷺ؟ أو ماذا يريد منهم؟ كل الذي يعرفونه هو الاتفاق الذي جرى مع أصحاب بيعة العقبة الأولى، وهذا الاتفاق لم يكن فيه شيء غير

العقيدة والأخلاق وطاعة الرسول ﷺ، وهذه معظمها تكليفات فردية، ولم يطلب منهم الحرب ولا الجهاد أو أي طلب للنصرة؛ لأن الرسول ﷺ كان مقدراً لوضع أصحاب بيعة العقبة الأولى، وكان يعلم بأن إمكانياتهم مهما كبرت فإنها محدودة، ولم يطلب منهم أن يستضيفوه هو ومن معه في مكة إلى المدينة المنورة، ومع ذلك ومع عدم التكليف للأنصار إلا أنهم هم من كان يبحث عن النصرة والمساعدة والاستضافة لرسول الله وللمؤمنين في مكة.

هناك كلمة جميلة قالها جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وهو من الستة الأنصار الأوائل الذين أسلموا في السنة الحادية عشرة من البعثة، ثم بايعه بعد ذلك في بيعة العقبة الأولى، قال هذه الكلمة وهم ما زالوا في المدينة قبل أن يأتوا مكة، قال جابر : (فقلنا: -أي نحن الأنصار- حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا 73 رجلاً). فالأنصار هم الذين سعوا إلى نصرة رسول الله ﷺ قبل أن يطلب منهم ذلك، والرسول ﷺ لم يطلب منهم أن يأتوا بهذا العدد الكبير في هذا الموسم، لكن هم الذين جمعوا أنفسهم في هذا العدد الكبير من أجل أن يقنعوا الرسول ﷺ بالذهاب معهم إلى المدينة، هم الذين بحثوا عن التكاليف والواجبات الشاقة والصعبة في الإسلام. فارق ضخم هائل بين الذي يبحث عن الدعوة والنصرة والجهاد، وبين الذي يبحث عنه الناس؛ ليقوم بأمر الإسلام والجهاد، فرغبة الأنصار هذه ستفسر لنا مواقفهم التي سنقولها الآن في بيعة العقبة الثانية، وستفسر لنا مواقف الأنصار بعد ذلك في كل سيرة الرسول ﷺ.

كان الأنصار أنصاراً للدين بمعنى الكلمة، لم يفكروا في شيء لأنفسهم فحسب، بل عاشوا للدين وللإسلام، عاشوا لغيرهم من المسلمين، ما أبلغ الوصف الذي وصفهم به ربهم سبحانه وتعالى عندما قال: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر:9]، هذه الآية

تلخص كل قصة الأنصار، ولن تستطيع أن تستوعب المواقف العظيمة للأنصار إلا في ضوء هذا المعنى الجميل الذي أشار إليه الله عز وجل في كتابه الكريم.

إعداد الرسول ﷺ والأنصار لموعد بيعة العقبة الثانية

وصل الأنصار إلى مكة مع وفدهم، وبدءوا يرتبون للموعد الذي سيتم بينهم وبين الرسول ﷺ، ويريد الرسول ﷺ أن يجعله في غاية السرية؛ لأنه الموعد الذي يسبق قيام دولة المسلمين، وكذلك كان الرسول ﷺ لا يستطيع أن يقابل ممثلين عن الخمسة والسبعين؛ لأنهم من بطون مختلفة وفروع مختلفة من الأوس والخزرج، صحيح أنهم يرجعون في النهاية إلى قبيلتين، لكن فيهم بطون كثيرة وفروع كثيرة، ومن الممكن ألا يوافق الكل على جميع الشروط التي سيقولها الرسول ﷺ، ومن غير المعقول أن يذهب الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم يكتشف أن كثيراً منهم ليس على قدر المسئولية، أو أن فيهم معترضاً على وجود الرسول ﷺ، أو على بعض بنود الاتفاق؛ لذا كان لابد أن يقابلهم كلهم، ويتأكد أنهم كلهم موافقون على هذا الموضوع بكل أبعاده، وأن كل واحد منهم سوف يبايعه ويسلّم عليه بيده؛ من أجل أن يؤكد البيعة معه بنفسه، فيطمئن من كل واحد بعينه أنه موافق على كل بنود الاتفاق. كيف سيقابلهم وهم في زحمة الحج، ووسط مكة الصغيرة؟ كيف سيقابلهم من غير أن يشعر به أحد من أهل مكة؟

أولاً: اختار الرسول ﷺ أن يكون الموعد في آخر ليلة من ليالي الحج؛ في ليلة 13 من ذي الحجة؛ لأن الحجاج سيعودون إلى بلادهم في اليوم الثاني مباشرة، فلو أن أحداً من أهل قريش علم باللقاء، فلن يصلوا إلى الوفد إلا بعد رحيله.

ثانياً: أنه جعل ساعة اللقاء في الثلث الأوسط من الليل؛ لأن الأغلب أن كل الناس في مكة سيكونون نياماً في هذا الوقت، فالذي سينام متأخراً سيتأخر نومه إلى الثلث الأول من الليل،

والذي سيصحو مبكراً سيصحو في الثلث الأخير من الليل، لكن الثلث الأوسط يكون الناس فيه في الأغلب نياماً.

ثالثاً: اختار الرسول ﷺ مكاناً بعيداً عن زحمة الحجاج، اختار الشعب الأيمن من العقبة، وهو مكان بعيد، لا يوجد أحد من الحجاج وضع فيه مخيمات.

رابعاً: أن الرسول ﷺ لم يخبر أحداً من المسلمين في مكة بالموعد إلا ثلاثة فقط، وسيكون لهم دور في الاجتماع، وهذا ليس بشك في المسلمين، لكنه يريد السرية التامة، فمن ليس له علاقة بالموضوع لا داعي لمعرفته، وهؤلاء الثلاثة هم: عمه العباس ، وكان في ذلك الوقت ما زال مشركاً، وأبو بكر ، وعلي رضي الله عنهم أجمعين، أما العباس فلأنه سيكون مشاركاً في الاجتماعات، وأما أبو بكر وعلي فلتأمين المكان ومراقبة مداخل الشعب الذي سيتم فيه اللقاء.

خامساً: ليأخذ الأنصار الحيطة أيضاً، فمعهم في الوفد 225 مشركاً في نفس الخيام، ورئيس الوفد مشرك، وهو عبد الله بن أُبي ابن سلول الذي سيكون بعد ذلك زعيم المنافقين، فلابد أن يأخذوا الحذر الكافي.

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه وأرضاه -أحد المشاركين في بيعة العقبة الثانية-: (فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل) -أي: الأول-، (خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين) -القطا: طائر صغير يشبه الحمام-، فكانوا يخرجون واحداً واحداً، أو اثنين اثنين، إلى أن اجتمعوا كلهم في المكان المتفق عليه.

أتى الرسول ﷺ في نفس الموعد ومعه العباس رضي الله عنه، وبعث أبا بكر وعلياً كلاً منهما على مدخل من مداخل الشعب للمراقبة.

وقائع بيعة العقبة الثانية

بدأ الاجتماع الذي سيغير من خارطة الأرض كلها، كان وقت الاجتماع قصيراً مع أن أحداثه كانت كبيرة. وهذا الاجتماع سيغير خريطة الأرض، ولابد لكل منا أن يسأل نفسه: أين كان أعداء الله وقت أن تم هذا الاجتماع المهيب؟ أين كان أبو جهل والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.. وغيرهم من قادة قريش؟ أين كان أحبار اليهود: حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف.. وغيرهما؟ أين كان كسرى وقيصر ؟ كل هؤلاء كانوا نياماً، كلهم كانوا غافلين، لا أحد كان يعرف بهذا الاجتماع الذي سيتم، مع أن كلهم بعد ذلك عروشهم ستتزلزل نتيجة هذا الاجتماع، هذا -والله- تدبير رب العالمين سبحانه وتعالى، شيء لا يتخيله عقل، مجموعة بهذه القلة وهذا الضعف، في مثل هذا المكان الذي لا يرى على خارطة الأرض، وبعد ذلك سيكون هذا الاجتماع سبباً في تغيير كل شيء على الأرض في غضون سنوات قلائل.

بدأت مراسم المباحثات شديدة الأهمية، كانت كلمة الافتتاح للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وكان ما زال مشركاً، وواضح أن الرسول ﷺ كان مطمئناً له، وأتى به لأداء دور سياسي معين، ما هو هذا الدور؟ قد نستغرب من شيء كهذا، لماذا يحضر مشركاً في مباحثات بهذه الخطورة؟

هذا الدور هو لتوضيح مكانة بني هاشم في مكة، ولإعلام الأنصار أنهم سيأخذون الرسول ﷺ، وأن له قبيلة كبيرة ذات شرف، فيحرصون على أن يكونوا هم البديل الحقيقي لبني هاشم، وكون العباس مشركاً يعطي بُعداً سياسياً آخر، وهو أن بني هاشم مؤمنهم وكافرهم مع رسول الله ﷺ، وعلى العكس من ذلك لو جاء حمزة فقد يقع في أنفسهم أنه أتى لأنه مؤمن لا ليمثل بني هاشم، وسنرى في كلام العباس رضي الله عنه ما يثبت هذه التحليلات.

قال العباس :(يا معشر الخزرج؛) -والعرب كانت تسمي أهل المدينة كلهم خزرجاً، سواء كانوا من الأوس أو الخزرج -(إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده).

هنا انتهت افتتاحية العباس ، وكانت سريعة وموجزة، وقد وضح من خلالها الدور الذي أتى من أجله.

ثم جاء دور الأنصار في الكلام، وكانوا في منتهى الأدب، فقد كانت هناك ردود كثيرة ممكن أن تقال للعباس ، ويدخلون معه في جدل عقيم، على سبيل المثال: يمكن أن يقولوا له: تقول: إنه في عز وفي منعة وهو في جوار المطعم بن عدي من بني نوفل، ولم يقف بجواره أحد من بني هاشم؟ أو أن يقولوا: أنت تقول: إن الرسول ﷺ أبى إلا أن ينحاز إلينا، وما فعل ذلك إلا لأنه أوذي وضرب وظلم ورجم بالحجارة، وسب وألقي التراب على رأسه، وألقيت عليه رحم الجزور، وأنتم تنظرون إليه كغيركم، أين كنتم وهو يطوف بالقبائل يبحث عمن ينصره وعلى مسمع منكم ومرأى، والقبائل كلها ترفضه؟! بل ليتكم ساكتين فحسب، فإن أبا لهب عمه كان يمشي وراءه ويقول: لا تصدقوه إنه صابئ كذاب، أين كنت أيها العباس الهاشمي العزيز والرسول ﷺ يعاني كل هذه المعاناة أمامك وأمام كل بني هاشم؟

كل هذا كان من الممكن أن يقال أو أكثر منه، لو كانت هذه المباحثات سياسية بحتة، يريدون أن يحققوا فيها أكبر المصالح، ويستغلوا الظرف الحرج الذي وقع فيه الرسول ﷺ، لكن الوضع في الأنصار لم يكن هكذا أبداً، لم تكن المباحثات سياسية دنيوية، بل كانت إيمانية بحتة، فالأنصار جاءوا إلى الرسول ﷺ ليكونوا أنصاره وأتباعه، وطوع إرادته، جاءوا وهم يعلمون أن المنة

والفضل لله ولرسوله، وأن العمل والبذل عليهم وعلى المسلمين جميعاً، فكانوا يفهمون دورهم جيداً، من أجل ذلك قالوا في أدب رفيع: (قد سمعنا ما قلت) -يكلمون العباس رضي الله عنه-، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

بنود بيعة العقبة الثانية

تهيأت للرسول ﷺ وهو في هذا الموقف الصعب الحرج، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت فرصة كبيرة ليذهب إلى بلد كريم، وفي هذا الظرف يعرض على الأنصار شروطاً في منتهى المشقة لقبول استضافته،لم يعرضها على أحد آمن من قبل. كان من عادة الرسول ﷺ أنه ييسر على الناس أمر الإيمان، كان يقبل أن يقوم الرجل بالفرائض فقط ولا يؤدي النوافل، وكان يقول: (أفلح إن صدق)، (إن صدق دخل الجنة) وليس هذا فحسب، بل كان يعطي الأموال من أجل أن يتألف قلوب الناس للإيمان.

أما الآن وهو في هذا الموقف الحرج فإنه يشترط شروطاً قاسية؛ لأنه ﷺ يبني أمة، وفرق كبير بين بناء فرد صالح يعيش لنفسه ولأسرته، وبين فرد صالح في ذهنه وتفكيره أنه يحمل هم الأمة الإسلامية، ولا يعرف أن ينام وهو يرى حوله المنكر والظلم والكفر، ولو رأى أخاه يُظلم لابد أن ينصره، لو رأى أحداً يمس كرامة الأمة الإسلامية يقوم ويدافع عنها كما يدافع عن ابنه أو زوجته أو أمواله أو حياته، هذا هو الفرد المسلم الذي كان الرسول ﷺ يريد أن يبنيه في هذه البيعة، بيعة العقبة الثانية؛ من أجل ذلك قال لهم ما سيأتي، كما أنه كان يعلم أنه يخاطب أناساً على قدر المسئولية، كان يكلم الأنصار، ذكر لهم خمسة بنود:

البند الأول: قال لهم الرسول ﷺ: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل)، السمع في النشاط سهل، لكن في الكسل صعب، وكان من الممكن أن يقول: تبايعوني على السمع

والطاعة، لكن الغرض هو توضيح الرؤية تماماً، سواء كنت كَسِلاً أو نَشِطاً لابد أن تسمع كلام الرسول ﷺ وتطيع له.

البند الثاني: (وعلى النفقة في العسر واليسر)، كذلك النفقة في اليسر سهلة، لكن في العسر تحتاج إلى أناس معينين.

البند الثالث: (وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وهذا هو دور الأمة الإسلامية مع غيرها من الأمم.

البند الرابع: (وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم)، الجهاد وكلمة الحق.

البند الخامس: (وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم)، ليس فقط تمنعوني فحسب، بل تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم؛ حبك لرسولك ولدينك ولأمتك لابد أن يكون أكثر من حبك لنفسك ولزوجتك وأولادك. واضح أن الرسول ﷺ كان يبني مسلماً من طراز خاص سيحمل هم الأمة كلها.

الفرق بين بيعة العقبة الأولى والثانية

كان الرسول ﷺ في بيعة العقبة الأولى يبني فرداً مسلماً مؤمناً يتصف بعقيدة سليمة، وبأخلاق حميدة؛ لا يسرق لا يزني لا يقتل، لكن أن تبني أمة فأنت تحتاج لما هو أعلى، تحتاج لبذل وعطاء ودماء، تحتاج لمكابدة لصبر لقوة لتحمل لتجرد، بناء الأمم يحتاج إلى أناس من نوع خاص، مثل الذين كان يشترط عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الشروط الصعبة، أما أن يكتفي المؤمن بالاعتقاد الصحيح، وبالصلاة، والصوم واجتناب الكبائر؛ من سرقة وزنا وقتل، فهذا جزء من الإسلام، نعم هو جزء مهم، لكن في النهاية هو جزء من الإسلام.

إن الناس يحتاجون لمن يقودهم إلى الخير، والإسلام يريد الذي يدافع عنه، ما أكثر مـن يعتـدي على حرمات المسلمين، من سيدافع؟ ومن سيحمي؟ من سيجاهد ويكافح؟ من سيبلغ رسـالة ربنا لكل الأرض؟ هذا هو الفرق بين البيعة الأولى والبيعة الثانية.

ويكفي أن البيعة الأولى التي اهتمت ببناء الفرد المسلم من دون جهـاد أنهـا عرفـت في التـاريخ باسم بيعة النساء، بينما عرفت بيعة العقبة الثانية بهذه الشروط الصعبة بأنها بيعة الحـرب وبيعـة الجهاد.

موقف الأنصار من بنود بيعة العقبة الثانية

عادة في المفاوضات يناقش كل بند على حدة، فهذا البند نوافـق عليـه، وهـذا البنـد مرفـوض، وهذا فيه تعديل، هذا الكلام يحصل عادة في أي مفاوضات سياسية، لكن نحن قلنا قبل ذلـك؛ إن الأنصار شيء آخر، الأنصار هم أنصار، فماذا قالوا؟

قام البراء بن معرور رضي الله عنه يتكلم عن وفد الأنصار، وقد كان رئيس الوفد المسـلم، مـع العلم أن البراء بن معرور رضي الله عنه وأرضاه لم يسلم إلا منذ ثلاثة أيام، أسلم وهو في طريقه من المدينة المنورة إلى مكة، لكنه كعادة الأنصار ولد إيمانه عملاقاً.

قال البراء بن معرور رضي الله عنه: (والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنـك ممـا نمنـع منـه أزرنـا – يعني: نساءنا– فبايعنا يا رسول الله) –وانتبه فهو الذي يرجو الرسول ﷺ– (فـنحن والله أبنـاء الحرب، وأبناء الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر) أترون إلى مـدى اشـتياق الأنصـار للبيعـة عـلى الجهاد؟ هذا هو الجيل الذي سينصره الله عز وجل، لكن وأثناء كلام البراء اعترض كلامه أبـو الهيثم بن التيِّهان رضي الله عنه وأرضاه، أحد الصحابة الأجلاء القدماء الذين أسـلموا في بيعـة

العقبة الأولى، قال: (يا رسول الله؛ إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها) -أي: بيننا وبين اليهود عهوداً- (فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟).

الحقيقة أن موقف الأنصار خطير، فهم عقدوا معاهدات مع اليهود، وسيقطعونها، لكن ما الذي سيحصل لو أن دين الرسول ﷺ انتشر ووضعه استقر هل سيرجع مرة أخرى إلى مكة؟ وإذا رجع إلى مكة كيف سيكون وضعهم مع اليهود؟ قد يقول قائل: إن هذا الاعتراض فيه تطاول على الرسول ﷺ، أي: كيف تفترض أنه ممكن أن يتركك وأنت محتاج له؟

لكن حقيقة كلام أبي الهيثم كان بمثابة التحميس والدفع للأنصار بالمبايعة، فهو متأكد أن الرسول ﷺ لن يتركهم، لكنه يخاف أن أحد الأنصار المشاركين في البيعة يفكر هذا التفكير؛ فيكون خائفاً من اليهود على مستقبل المدينة، فلو أن أبا الهيثم رضي الله عنه أثار هذه النقطة في هذه اللحظات سيغلق كل أبواب الشيطان، وسيريح الأنصار، من أجل ذلك تكلم بمثل هذا.

تبسم الرسول ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم)

إن قدر القيادة لا ينقص لو أن أحداً من الجنود اعترض على نقطة ما يريد التوضيح، والقيادة الواثقة من نفسها لا يجب أن تغضب لهذا، بل على العكس، القيادة الواعية لا تخيف الناس أو تكتم أفواههم، بل المفروض أن تشجع كل الناس أن يقولوا كل ما في صدورهم، وحينها سيشعر الناس أن قيادتهم ليست مفروضة عليهم، مثل ما قال الرسول ﷺ: (أنا منكم وأنتم مني). ثم إن الرسول ﷺ أيضاً يعلمنا أن أي إنسان قابل للمناقشة وللحساب وللاستجواب؛ لأنه في النهاية بشر، والبشر لابد أن يخطئوا، وليس شرطاً أن يكون مخطئاً كذلك، لكن نريد معرفة وجهة نظره، نستفسر، نتعلم، نضيف، نحذف، نعدل من أجل أن نصل إلى الأفضل،

هذه هي العلاقة السليمة بين القائد والجند، وكذلك إذا أحس الجند أن القائد معهم في نفس المشكلة يشكو مما يشكون منه، يتألم مما يتألمون منه سيبذلون قصارى جهدهم، لكن على النقيض من هذا؛ لو أنهم أحسوا بتكبر القائد، وبسعادته وقت حزنهم ، وترفهه وقت بؤسهم، وأمنه وقت خوفهم، وراحته وقت تعبهم، لو شعروا بهذه الأشياء كلها فمن المستحيل أن يعملوا بحماسة وجدية، لأنهم فقدوا مصداقية القائد، والقدوة فيه.

أما الرسول ﷺ فقد قال في منتهى الصدق والتعاطف مع أبي الهيثم والأنصار: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم)، فتشجع الأنصار عندما سمعوا هذه الكلمات، وقاموا مسرعين إلى مبايعة الرسول ﷺ، لكن حصلت معارضة أخرى بعد هذا الكلام، قام العباس بن عبادة رضي الله عنه وأرضاه يخاطب قومه قبل أن يبايعوا، وقال لهم: (هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟) قالوا: (نعم)، فقال العباس بن عبادة: (إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم) -أي: لو أسلمتموه-(خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو -والله- خير الدنيا والآخرة). العباس بن عبادة أيضاً من السابقين، ويعرف جيداً علامَ يبايع، لكنه يخاف أن يكون أحد الأنصار غير مستوعب لهذه التضحيات كلها، فيحاول أنه يوضح الرؤية على قدر استطاعته للأنصار، فرد عليه الأنصار وقالوا: (فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف).

قاموا يبايعون، لكن قبل أن يبايعوا سألوا: ما الثمن لمصيبة الأموال وقتل الأشراف؟ ما الثمن للطاعة المطلقة في النشاط والكسل؟ ما الثمن للنفقة في العسر واليسر، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللجهاد والنصرة، وحرب الأحمر والأسود من الناس؟ قالوا: (فما لنا

بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟) فقال الرسول ﷺ: (لكم الجنة)! الثمن لكل هذه التضحيات الجنة، ليس هناك وعد بشيء آخر، لا وعد بدولة ولا بتمكين ولا بنصر، مع أنه لابد أن يحصل كل هذا في يوم من الأيام، لكنك قد تموت شهيداً قبل التمكين بسنوات، قد تموت طريداً شريداً معذباً، قد يحدث كل ذلك، لكن المهم أنك ذاهب إلى الجنة، هذا هو المهم.

لما سمع الأنصار هذه الكلمة من فم رسول الله ﷺ، لم يكن عندهم غير كلمة واحدة قالوها بعد ذلك، قالوا: (ابسط يدك يا رسول الله) -يريدون مبايعته- فمد الرسول ﷺ يديه للأنصار من أجل أن يبايعوه، لكن قبل أن يضع أي أنصاري يديه في يد الرسول ﷺ قام الصحابي الجليل أسعد بن زرارة رضي الله عنه وأرضاه وأمسك يد الرسول ﷺ -اعتراض ثالث- وقال يكلم الأنصار: (رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ) أي: نحن نعلم جيداً أنه رسول، ونعلم أن هناك جنة، ولكن الكلام سهل، كل الناس يريدون الجنة، لكن لابد أن تعرفوا العمل المطلوب منكم من أجل الدخول إلى الجنة، لابد أن تعملوا أشياء صعبة، قال أسعد بوضوح: (وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإن كنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وأما إن كنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله).

قام الصحابي الجليل أسعد بن زرارة رضي الله عنه ليؤكد على نفس المعنى من جديد، لكن بألفاظ أخرى، من أراد أن يحيا حياة آمنة؛ يعبد الله عز وجل في بيته، أو في مسجده ولا يسرق، ولا يزني، ولا يقتل، ولكن ليس له علاقة بتمكين دين الله في الأرض، ولا بالجهاد في سبيل الله، ولا بالدعوة إلى الله، ولا بالعمل الدءوب لله، ولا بالتضحية من أجل الله عز وجل، فعليه أن يبايع بيعة النساء، هذه تكفيه، أما من أراد أن يبايع بيعة الرجال، وبيعة الحرب فعليه أن يفقه هذه البيعة فقهاً جيداً، فهذه الاعتراضات كلها من أناس هم من السابقين أصحاب بيعة العقبة

الأولى، أرادوا بها أن يوضحوا للأنصار ولنا الصورة بأكملها، لكن الأنصار كلهم كانوا يفهمون شروط البيعة؛ لذا قالوا في منتهى الوضوح والحماسة: (يا أسعد : أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها)، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (فقمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلك الجنة). يعطيهم الجنة بهذه الشروط؛ لأنه يعرف أن بداخلهم صدقاً كبيراً، لذا كان يعطيهم الجنة، وتمت البيعة الخالدة بيعة العقبة الثانية التي غيرت وجه التاريخ، والثمن الجنة.

حرية اختيار الأنصار لنقبائهم في بيعة العقبة الثانية

هناك بعض الأمور الإدارية في تنظيم العلاقة بين الرسول ﷺ وبين الأنصار.

أولاً: سيتعامل الرسول ﷺ مع مَن مِن الأنصار؟ لابد من وجود من يمثل الأنصار.

ثانياً: كيف يكون التعامل بين المهاجرين والأنصار، لو حصلت مشكلة من الأنصار لمن المرجع؟ ولو حصلت مشكلة من المهاجرين لمن المرجع؟

أمور إدارية هامة رأى الرسول ﷺ أنه لابد أن يكون هناك من يمثل الأنصار، فجعل لكل خمسة من الأنصار نقيباً، فيكون كل ستة مجموعة، ولما كان الأنصار 73 خرج منهم 12 نقيباً.

أيضاً كان من الممكن أن الرسول ﷺ ينتقيهم بنفسه، أو أن يأخذ أصحاب بيعة العقبة الأولى؛ لأنهم كانوا اثني عشر، أو أن يكل ذلك إلى مصعب بن عمير ، أو إلى البراء بن معرور رئيس الوفد، أو أسعد بن زرارة لأنه أحد السابقين، لكن الرسول ﷺ أقر قاعدة عظيمة من قواعد الحكم في الإسلام، وهي قاعدة أن على الشعب أن ينتخب ممثليه انتخاباً حقيقياً، ليس فيه تدخل من القائد الأعلى، قال الرسول ﷺ للأنصار: (أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومكم بما فيهم). حرية كاملة للأنصار في اختيار ممثليهم، هم أدرى بحالهم،

وعندما يختار الشعب حكومته بحرية حقيقية ليس فيها أي تدخل من أي جهة، يسمع لها بعد ذلك بمنتهى الحب، ويطيعها بمنتهى الأمانة، يحس فعلاً أنها حكومته وليست مفروضة عليه، هذا ما كان يريد أن يزرعه الرسول ﷺ بداخل الأنصار، وداخل الأمة الإسلامية بكاملها إلى يوم القيامة.

جلس الأوس والخزرج سوية لأول مرة في تاريخهم لاختيار نقبائهم، وكانوا قبل ذلك يتقاتلون ويتصارعون، ويذبح كل واحد الثاني من أجل كرسي الحكم، لكنه الإيمان، فعندما آمنوا تغير كل شيء، كل واحد يضع يده الآن على كتف الآخر. إن الذي جمع الأوس والخزرج هو نبل الغاية، وسمو الهدف، عندما كان الكرسي هو الهدف، كان الخلاف والنزاع الذي لا نهاية له، ولما أصبحت الجنة هي الهدف وهي الغاية لم يعد للكرسي قيمة، بل أصبح مسئولية وتكليفاً لم يعد تشريفاً، انقلب التنافس على الكرسي إلى التنافس على الجنة: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين:26]، هذه هي عظمة الإسلام.

في لحظات كان النقباء هم: أسعد بن زرارة ، البراء بن معرور، عبد الله بن عمرو بن حرام ، سعد بن عبادة ، عبادة بن الصامت ، سعد بن الربيع ، عبد الله بن رواحة ، رافع بن مالك، المنذر بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين، كان هؤلاء تسعة هم نقباء الخزرج.

أما نقباء الأوس فكانوا ثلاثة: أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، وأبو الهيثم بن التيهان وقيل بدلاً منه: رفاعة بن عبد المنذر رضي الله عنهم أجمعين. و يختفي من أسماء الأوس البطل الإسلامي العظيم سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه؛ لأنه لم يحضر أصلاً من المدينة المنورة إلى مكة.

بعد هذا عقد رسول الله ﷺ اجتماعاً مع هؤلاء النقباء قال لهم فيه: (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم) أي أنتم مسئولون عن كل الأنصار، (وأنا كفيل على قومي) -أي: المسلمين من أهل مكة- فقالوا:(نعم).

الآن رسول الله ﷺ قسم المسئوليات، الاثنا عشر هؤلاء مسئولون عن الأنصار، والرسول ﷺ مسئول عن المهاجرين، وبعد ذلك طلب منهم أن يختاروا واحداً منهم يكون رئيساً لهم، وبالتالي يسهل عملية الاتصال والمتابعة والإدارة وغير ذلك من الأمور، فاختاروا أسعد بن زرارة رضي الله عنه وأرضاه أصغر النقباء رضي الله عنه، لما يظهر عليه من موهبة فذة. وبهذا انتهت مراسم البيعة الفريدة بنجاح في عقر دار المشركين، ووسط الأعداد الهائلة من أعداء الله عز وجل، وصدق الله عز وجل إذ يقول: {إِنَّ اللهَّ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:38].

مناقب أصحاب بيعة العقبة الثانية

قبل أن نترك الأنصار نذكر بعض الإحصائيات اللطيفة على أسماء الأنصار المشاركين في هذه البيعة، وكلها إحصائيات في الحقيقة لها معنى. عندما بحثت في أسماء الصحابة الذين حضروا هذه البيعة من الأنصار وجدت قرابة السبعين من هؤلاء - تقريباً كلهم- اشترك في غزوة بدر الكبرى، فلم تكن البيعة كلام وحسب على الجهاد، لا، فكلهم نفذوا، 70 تقريباً من هؤلاء حضروا غزوة بدر الكبرى.

ثم حوالي نصف هذا العدد اشترك مع الرسول ﷺ في كل المشاهد والغزوات؛ لأن كثيراً منهم استشهد في الغزوات الأولى.

حوالي ثلث أصحاب بيعة العقبة الثانية مات شهيداً في سبيل الله عز وجل، خمسة من اثني عشر. القيادة في نظرهم كانت مسئولية لم تكن أبداً تشريفاً أو منصباً.

أيضاً لم يؤثر عن أي واحد من هؤلاء الأنصار المبايعين في بيعة العقبة الثانيـة الفـرار أبـداً، لا في أُحد ولا في حنين ولا غيرهما، لم يؤثر عن أي واحد من هـؤلاء طلـب للـدنيا ولا للإمـارة ولا للمال.

خلاصة القول أن الصدق الكامل في قلب الرسول ﷺ، وفي قلوب الأنصـار المبـايعين في هـذه البيعـة هـو الـذي كفـل النجـاح لهـذه البيعـة الفريـدة، {لِيَجْـزِيَ اللهُ الصَّـادِقِينَ بِصِـدْقِهِمْ} [الأحزاب:24]. صدقوا الله عز وجل فصدقهم الله عز وجل.

موقف قريش من بيعة العقبة الثانية بعد علمهم بها

لم تمر بيعة العقبة الثانية دون تنغيص، فقد كان أتعس مخلوق عرف هـذه البيعـة هـو الشـيطان، يقول سيدنا كعب بن مالك: (لما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشـيطان مـن رأس العقبـة بأبعـد صوت سمعته قط). -وهم علمـوا أنـه الشـيطان بإخبـار الرسـول ﷺ لهـم- قـال: (يـا أهـل الجباجب)، -أي: المنازل، ينادي أهل مكة- (هل لكم في مذمم) -يقصـد سـيدنا محمـداً ﷺ- (والصباة معه؛ قد أجمعوا على حربكم)، قال رسول الله ﷺ: (هذا أزب العقبـة) -أي: شـيطان العقبة- (اسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك)، وبعد ذلك شعر الرسول ﷺ أن المشركين سيحضرون فقال للأنصار: (ارفعوا إلى رحالكم). كان على الأنصار أن يركضـوا مسرـعين إلى رحالهم؛ لأنهم عرفوا أن قريشاً قد تأتي في أي لحظة، لكن لم يحصل هذا، وإنما قـام العبـاس بـن عبادة رضي الله عنه وأرضاه، الذي قام قبل قليل يقـول للأنصـار: أنـتم تبـايعون عـلى حـرب الأحمر والأسود من الناس، قام وقال: (والذي بعثك بالحق؛ لئن شئت لنميلن عـلى أهـل منـى غداً بأسيافنا) وانتبهوا: أن القتال في منى لم يكن من الأمور التي بايع عليها الأنصار، فهم كانوا قد بايعوا على أن يدافعوا عن الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ولـيس في منـى ولا في مكـة، لكـن العباس بن عبادة يعطي ما هو فوق البيعة، فهو يبحث عن الجنة.

فكان رد الرسول ﷺ عليه في منتهى الوضوح، قال: (لم أؤمر بذلك)، أي: لم أؤمر بالقتال بعد، نعم بايع الأنصار على الجهاد، لكن ليس الآن وقت التطبيق، وهذا من فقه الموازنات؛ لو تقاتل الأنصار الآن مع المشركين فلاشك أن الأنصار سيبادون عن آخرهم، نعم سقطوا شهداء، ولكن أين الدولة؟ أين الدعوة؟ أين التخطيط لنصر وتمكين وسيادة هذا الدين؟ أين بناء الأمة الإسلامية؟ فعلاً كان لابد للمسلمين أن يتجنبوا القتال تماماً في هذا الوقت؛ من أجل ذلك رجع الأنصار إلى خيامهم، وناموا مع الوفد المشرك الذين أتوا معه، ولم يشعر بهم أحد حتى من وفدهم.

في اليوم الثاني علمت قريش بموضوع اللقاء، من الذي أعلمهم؟ الله أعلم، إما الشيطان الذي صرخ بالليل، وإما أن شخصاً رآهم، فذهبت قريش لمقابلة زعيم يثرب عبد الله بن أُبي ابن سلول ، وبدأت تتكلم معه في خطاب يجمع بين الترغيب والترهيب، قالوا: (يا معشر الخزرج) -يكلمون عبد الله بن أبي ابن سلول – (إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه -والله- ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم)، أي: نحن نحبكم، لكن لو استمريتم على هذا الأمر سنحاربكم، وأنت تعرفون جيداً من هي قريش؟ فلما سمع عبد الله بن أبي ابن سلول هذه الكلمات قام يقول بمنتهى الحمية: (هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا على مثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني). نعم هو صادق من داخله؛ لأنه لم يعلم أي شيء عن هذا اللقاء؛ لأن المسلمين تكتموا بكل شيء عن موضوع اللقاء أو الإسلام، ولم يكن يعلم المشركون منهم من المسلمين في داخل وفدهم. هذا كان رد عبد الله بن أبي ابن سلول، أما رد المسلمين الذي بداخل الوفد، الذين قاموا بالبيعة، فنظر بعضهم إلى بعض ولم يتكلموا، وكأن شيئاً لم يكن.

اقتنعت قريش بكلام الوفد اليثربي، وتركوه وعادوا مرة أخرى إلى مكة، لكن بعـدما عـادوا إلى مكة علموا أن ظنهم كان في محله، فرجعوا مرة أخرى بسرعة من أجل أن يمسكوا بوفد يثـرب فوجدوه قد رحل؛ لأنهم تقابلوا للبيعة في آخر ليلة من ليالي الحج، تحسباً لهـذه الظـروف التـي حصلت، فالرسول ﷺ كان قد عمل حسابه لها.

ارتحل الوفد، لكن من بعيد رأى زعماء مكة اثنين من المسلمين؛ رأوا سـعد بـن عبـادة رضي الله عنه وأرضاه، والمنذر بن عمرو رضي الله عنه وأرضاه، وهذان الاثنان هم من النقباء، أما المنـذر بن عمرو فاستطاع الهروب، لكنهم أمسكوا بـسعد بن عبادة سيد الخزرج، رجل عزيز لم يهن في حياته قط، لكن زعـماء مكـة أمسـكوا بـه وضربـوه وجـروه عـلى الأرض. موقـف في منتهـى الخطورة، نظر المسلمون في مكة إلى أخيهم المؤمن وهو يضرب، ولا يستطيعون حراكـاً؛ لأنهـم لو تحركوا من أجل إنقاذه سيعلم مشركو مكة أن هناك بيعة تمـت، وأن هنـاك لقـاء تـم، حتـى الرسول ﷺ نفسه لم يتحرك من أجل نصرة سعد بن عبادة وهذا أيضاً من فقه الموازنات.

كان جبير بن مطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية ممن رأى الموقـف، وسـعد بـن عبـادة رضي الله عنه كان يجير لهم القوافل عندما تمر بالمدينة المنورة، فأجاروه من قـريش، وعـاد سـعد بن عبادة إلى قافلة الأنصار، ووصلوا إلى المدينـة في أمـان، وبـدأ الأنصـار في المدينـة يمهـدون لاستقبال الرسول ﷺ والمهـاجرين مـن مكـة، بـدءوا جميعـاً يسـتعدون لوضـع النـواة الأولى للعاصمة الأولى في الإسلام: المدينة المنورة.

هذه كانت بيعة العقبة الثانية بكل الشروط التي فيها، وبكل الملابسات، وهناك دروس أخـرى كثيرة لكن المقام لا يتسع لها.

الهجرة إلى المدينة

أصبح الوضع مستقراً إلى حد كبير في المدينة المنورة، وأصبحت الصعوبة في مكة، زعماء قـريش الآن يعلمون بتدبير إسلامي خفي لشيء هم لا يعلمونه، هنا صدر الأمر الإلهـي للرسـول ﷺ ومن ثم للمؤمنين في مكة بأن يهاجروا إلى المدينة، كل من يستطيع أن يهاجر فليهاجر، بل يجـب أن يهاجر، الضعفاء والأقوياء، الفقراء والأغنيـاء، الرجـال والنسـاء، الأحـرار والعبيـد، كـل المسلمين لابد أن يهاجروا إلى المدينة المنورة؛ لأن هناك مشروعاً ضـخماً محتاجـاً إلى كـل طاقـة، هناك مشروع اسمه: بناء الأمة الإسلامية.

وبدأت الهجرة، والهجرة لم تكن شيئاً سهلاً، لم تكن عقد عمل أهدي لهـم في بلـد غنـي، كانـت الهجرة تعني ترك الديار، والأموال، والأعمال، والذكريات. كانت الهجـرة الاسـتعداد لحـرب ضد كل المشركين في جزيرة العرب، بل في كل الأرض، كانت استعداداً لحرب الأحمر والأسود من الناس، هذه هي الهجرة، ولم تكن هروباً، بل اسـتعداداً لتكـاليف أشـق، ولواجبـات أكثـر وأعظم.

أمر الرسول ﷺ الناس بالهجرة، وانتظر هو فلم يهاجر، لم يكن همه ﷺ أن ينجو بنفسه ويـؤمن حاله، أو يحافظ على أمواله، كان كل همه أنه يطمئن على حال المسلمين المهـاجرين، ليعلمنـا أن القيادة ليست نوعاً من الترف أو الرفاهية، بل مسئولية وتضحية وأمانـة. أصـدر الرسـول ﷺ أوامره لكل المسلمين في مكة بالهجرة، ولـيس في مكـة فحسـب، بـل أي مسـلم موجـود عـلى الأرض كان لابد أن يهاجر إلى المدينة المنورة، إلا من استثناه الرسول ﷺ، وأمره بأن يمكث في مكانه، لسبب من الأسباب. كان هذا هو الوضع في هذه الهجرة إلى المدينة المنورة، وهو مختلـف عن هجرة الحبشة، فليس كل المسلمين هاجروا إلى الحبشة، كما أن طبيعة المكان وظروف المكان تختلف من الحبشة إلى المدينة، كان المهاجرون إلى الحبشة يريدون فقط الحفاظ على أنفسهم؛ لئلا

يستأصل الإسلام إذا تعرض المسلمون في مكة للإبـادة، لم يكـن الغـرض هـو إقامـة حكومـة إسلامية في الحبشة أبداً، بل كان المسلمون مجرد لاجئين عند ملك عادل، أما الهجـرة إلى المدينـة فكان الغرض منها إقامة دولة إسلامية تكون المدينة هي المركز الرئيسي لها.

كانت المدينة صالحة لإقامة أمة إسلامية بخلاف الحبشة فإنها لا تصلح، لأن في الحبشة معوقات كثيرة جداً لبناء الأمة الإسلامية، مثل: اختلاف اللغة والتقاليد، وعدم استقرار الوضـع، ولأن الاعتماد في الحبشة كان على رجل واحد فقط وهو النجاشي رحمه الله، فهو ملك لا يظلـم عنـده أحد، وإذا مات هذا الرجل أو خلع، فإن المسلمين سيصبحون في خطر عظيم، لكـن في المدينـة الوضع غير هذا، الهجرة لم تكن تعتمد على رجل معين، بل على أنصار المدينـة، والجـو العـام في المدينة أصبح محباً للإسلام، أو على الأقل كان قابلاً للفكرة، ومن ثـم كانـت الهجـرة إلى هنـاك هجرة جماعية لكل المسلمين.

بدأت الهجرة العظيمة، ووقعت تضحيات مهولة مع إصرار وعزيمة، لكن كانت هنـاك أشـياء كثيرة تخفف من آلام الهجرة، وهو إحساس المسلمين أنهم قاب قوسين أو أدنى من بناء الأمـة، وقبل ذلك شعورهم بالمعِّية مع الله عز وجل، وشعورهم أن قائدهم معهم، وسيهاجر ويضحي ويتعب مثلهم، واستقبال الأنصار لكل من هاجر بحفاوة بالغة، وكـأنهم إخـوانهم مـن قـديم. هذه الأشياء كلها كان تخفف كثيراً من آلام الهجرة، ومع ذلك كانت الهجرة صعبة.

قصص الهجرة كثيرة وعظيمة، وحقيقة أن المقام لا يتسع لتفصيلاتها، ويكفي أن كل واحد مـن المهاجرين قد ترك وراءه شيئاً عزيزاً عليه. فمثلاً: أبو سلمة رضي الله عنه وأرضاه، هاجر وترك زوجته وابنه في قصة مشهورة مؤلمة، لكن كان أبو سلمة يفهم واجبه، وكذلك كانـت أم سـلمة رضي الله عنها وأرضاها تفهم دورها، فصبرت سنة كاملة بعيدة عن زوجها، وسنة كاملة بعيدة عن ابنها الذي أخذه زوجها بعد فترة قصيرة عنـدما هـاجر أبـو سـلمة، ثـم بعـد سـنة كاملـة

هاجرت إلى زوجها ومعها ابنها الآخر، هاجرت مسافة 500 كيلو متر لوحدها، تضحيات مهولة، وصهيب الرومي رضي الله عنه وأرضاه ترك وراءه كل ثروته، ترك ما جمعه خلال السنين الطويلة، ترك كل رصيده وهاجر إلى المدينة، ترك وظيفته التي كان مستقراً فيها وهاجر.. وغيره وغيره وغيره، كل قصص الهجرة فيها تضحيات ضخمة.

وفوق أن الصحابة تركوا كل شيء وراءهم، إلا أنه كانت هناك خطورة حقيقية على حياتهم؛ فالكفار لم يكن عندهم أي مانع من قتل أي شخص إذا أمسكوا به، وعلموا أنه مسلم يريد أن يهاجر، بل أرادوا قتل الرسول ﷺ نفسه، فما بالكم بأي شخص ضعيف أو حليف، أو أي شخص من قريش؟!

هجرة عمر كانت علناً بينما كانت هجرة الرسول ﷺ سراً

كان كل الصحابة تقريباً يهاجرون في السر، من دون أن يشعر بهم أحد، حتى هجرة الرسول ﷺ كانت سرية، إلا هجرة واحد من الصحابة فقط كانت علناً أمام كل الناس، تلك هي هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، وقف عمر رضي الله عنه وأرضاه في المسجد الحرام وقال بصوت مرتفع: (يا معشر قريش؛ من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي)، كان يقول هذا الكلام وهو متقلد سيفه، ويده الثانية فيها بضعة أسهم. فلم يقم له أحد، وهاجر رضي الله عنه وأرضاه أمام الناس أجمعين، كانت رهبة كبيرة لـعمر عند عموم الناس.

من الممكن أن يسأل سائل: لماذا هاجر عمر رضي الله عنه علناً والرسول ﷺ يهاجر سراً؟

الواقع أن رسول الله ﷺ مُشَرِّع، وعموم المسلمين سيقلدونه، سواء في زمن مكة، أو في الأزمان التي ستأتي بعد ذلك، وعموم المسلمين لا يطيقون ما فعله عمر رضي الله عنه وأرضاه، وليس

مطلوباً منهم ذلك، لكن المطلوب هو الحذر والاحتياط، والأخـذ بالأسـباب الكاملـة لتـأمين عملية الهجرة، والهجرة في حد ذاتها لم تكن هدفاً، إنما كان الهـدف الوصـول إلى المدينـة لإقامـة الدولة هناك، ويجب الأخذ بكل الأسباب لتجنب كل المعوقات لإقامة هذه الدولة.

لكن على الناحية الثانية أيضاً: موقف عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه وأرضـاه كـان سـليماً، لم تكن هناك مخالفة شرعية، بدليل أن الرسول ﷺ لم يعترض على هذا الكلام، ولو وجدت مخالفة شرعية لاعترض عليه الرسول ﷺ، وعدَّل المسار للمسلمين، لكن هذا لم يحصل، فهجرة عمـر بهذه الصورة صنعت رهبة كبيرة في قلوب الكافرين، أوقفت تفكيرهم تمامـاً، وهـذا كـان فيـه فوائد كثيرة: منها: أنه هاجر معه 20 شخصاً من ضعفاء الصحابة، لم يستطع أحد من المشركين أن يقترب منهم، ولو أنهـم خرجـوا بمفـردهم كـان مـن الممكـن أن يقتلـوا، لكـن لمـا أذل الله المشركين بهذه الصورة سهلت هجرة هؤلاء الضعفاء، وصـدق عبـد الله بـن مسـعود رضي الله عنه وأرضاه إذ يقول: (إن إسلام عمر كان فتحاً)، وارجعوا بذاكرتكم إلى قصة إسـلام سـيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه.

يقول عبد الله بن مسعود : (إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانـت نصــراً، وإن إمارتـه كانت رحمة)، وصدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ورضي الله عن صـحابة رسـول الله ﷺ أجمعين.كان في هجرة الصحابة خطورة كبيرة على معظم المهاجرين، لكنها كانـت خطـوة لابـد منها على خطورتها لبناء الأمة الإسلامية؛ وبهذا هاجر معظم المسلمين في مكة، وكل هذا تـم في شهرين اثنين فقط، محرم وصفر من السنة الرابعة عشرة مـن البعثـة، يعنـي: بعـد حـوالي شـهر واحد فقط أو أقل من بيعة العقبة الثانية، ولم يبق في مكة إلا ثلاثة فقط: الرسول ﷺ، وأبو بكـر الصديق رضي الله عنه وأرضاه مع عائلته، وعلي بن أبي طالـب رضي الله عنـه وأرضـاه، وكـان بقاؤهما بأمر من الرسول ﷺ.

14

الهجـرةإلى المــدينـة

كانت قريش في أزمة كبيرة، ما من يوم يصبحون فيه إلا ويجدون واحداً من المسلمين قد اختفى، أو عائلة مسلمة اختفت، وبعض الأحيان كانوا يجدون فرعاً كاملاً من قبيلة ليس موجوداً، بحيث إن الهجرة كانت تتم بصورة سرية تماماً، إلا هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عرف المشركون أن الهجرة كانت إلى المدينة المنورة، ليس فقط من الشك الذي كان في وفد يثرب الذي جاء إلى مكة قبل ذلك في موسم الحج سنة 13 من البعثة، لكن من أخبار مؤكدة أتت إلى قريش من المدينة المنورة عن طريق أعوان وحلفاء لهم تؤكد هجرة المسلمين إلى المدينة، ويؤكد على هذا ما حصل من أبي جهل وأخيه الحارث لأخيهما من الأم عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه وأرضاه، كان مسلماً وهاجر إلى المدينة المنورة مثل بقية المهاجرين المسلمين، وعلم أبو جهل بهجرته، فلحقه أبو جهل وابتكر حيلة من أجل أن يعيد عياشاً إلى مكة، فأقنعه بأن أمه مريضة، وأنها تريد أن تراه قبل أن تموت، وفعلاً أخذت عياش الرقة لأمه، وعاد مع الحارث وأبي جهل، وبينما هو في الطريق قيداه بالحبال وأخذاه إلى مكة وهو مقيد، وقالا لأهل مكة: (هكذا فافعلوا بسفهائكم)، وحبس في مكة لفترة طويلة.

الشاهد أن أبا جهل كان يعرف إلى أين يهاجر المسلمون، وأنهم كانوا يذهبون إلى المدينة المنورة.

سبب هذا الأمر قلقاً لقريش؛ لأنها كانت على فقه كامل بخطورة الموقف عليهم لو انتشر الإسلام، من هذه المخاطر:

أولاً: أن الذين هاجروا من مكة ليسوا أغراباً عن أهل مكة، بل إن كل واحد من زعماء قريش كان له أخ مهاجر أو ابن أو ابنة، وكل واحد منهم بداخله غيظ كبير على الدين الجديد الذي عرضهم لهذه المشكلة، وكل واحد منهم بداخله كذلك حب فطري لأولاده وأقاربه، ويرى أنهم قد بعدوا عنه، فهذه كانت مشكلة كبيرة، وكان من الصعب أن يقبل بها أهل مكة.

ثانياً: أن دعوة الإسلام لو انتشرت في الجزيرة العربية، فمن الممكن أن تفقد قريش الكثير من مكانتها في الجزيرة، فقد كانت تكسب كثيراً من تجارة الحج إلى مكة، ومن تجارة بيع الأصنام، نعم، دين الإسلام يشجع الحج إلى مكة، لكن تجارة الأصنام وتجارة الخمور والزنا والربا ستقف، مصالح كثيرة جداً ستقف لأهل مكة، وكلها سوف تتعطل لو انتشرت دعوة الإسلام في الجزيرة العربية.

ثالثاً: كان المشركون يفهمون جيداً أن المسلمين ما هاجروا إلى المدينة من أجل قضاء فترة راحة أو استجمام، بل هاجروا لإقامة دولة إسلامية، ولو أقاموا هذه الدولة فلابد أن يعودوا إلى مكة مرة أخرى في يوم من الأيام، وعندما يعودوا إليها، لن يعودوا من أجل السكن فيها، لا، بل سيعودون من أجل أن يحكموا مكة، هكذا يقول المنطق، وطبيعة الدين الإسلامي هكذا تقول، مكث الرسول ﷺ في مكة 13 سنة، يفهمهم قضية أن الحكم لله، فمؤكد أن المسلمين لن يرضوا أن يبقى أهل مكة على تحكيمهم لهبل أو أنصار هبل في حياتهم، لابد أن يحكموا الإله الذي يعبدونه ألا وهو الله عز وجل، وبالتالي يحكمون مكة، وكان هذا مرعباً لزعماء قريش.

رابعاً: أن هذه الهجرة لم تكن إلى أي مكان، لا، بل إلى المدينة المنورة (يثرب)، وكـان لهـا وضـع خاص، ففي اعتقادي أن هذا المكان أكثر مكان لا يحب المشركون أن تكون الهجرة إليه، وذلـك لعدة نقاط:

الأولى: أن سكان يثرب هم الأوس والخزرج، وهم من أعز القبائل العربيـة، ومـن أقواهـا في الحرب، وأشدها ممارسة لفنون القتال المختلفة، ولعـل السـبب في عـدم ظهـورهم في الجزيـرة العربية، وأن تكون لهم كلمة مسموعة وكبيرة فيها هو الصراع الداخلي بـين الأوس والخـزرج، فلو حصل اتحاد بين هاتين القبيلتين الكبيرتين فسوف تكون مشكلة حقيقية على بقية القبائل.

الثانية: أن الأوس والخزرج من أصول قحطانية، بينما قـريش مـن أصـول عدنانيـة، وتعرفـون كيف كانت أثر القبلية في أيام الجاهلية، فإذا كانت قريش بفروعها لها خلافات كبيرة، مثـل مـا رأينا خلاف بني هاشم مع بني مخزوم، ومرجعهما إلى قريش، فما بالكم بين قحطاني وعدناني.

الثالثة: أن المدينة المنورة حصينة، وتعتبر حصانتها حصانة جغرافية طبيعية، فلو فكرت قـريش في يوم من الأيام أن تغزو المدينة فسوف تتخذ قراراً صعباً.

الرابعة: أن المدينة تقع على طريق القوافل التجارية المتجهـة مـن وإلى الشـام، فتسـتطيع المدينـة المنورة أن تخنق مكة اقتصادياً، يظهر هذا جلياً عندما نعلم أن مكـة كانـت تتـاجر بربـع مليـون دينار ذهب سنوياً مع الشام، تجارة مهولة، فتخيل في هذا الزمان ما مقدارها، وهذه كانت رحلة موسم الشتاء.

الخامسة: أهل مكة يعلمون أن اليهـود يسـكنون في المدينـة المنـورة، وهـم أهـل سـلاح ومـال واقتصاد وأعداد غفيرة، وقبائل متعددة، فماذا لو آمن اليهود وانضموا إلى رسول الله ﷺ، هـذه بالنسبة إلى قريش مصيبة كبيرة، والحقيقة: أن العقل كـان يـرجح إسـلام اليهـود؛ لأنهـم أهـل

كتاب، ويؤمنون بالأنبياء، وكانوا يعلمون أن نبياً سوف يظهر في ذلك الزمن، وكانت تعرف قريش هذا الكلام عن اليهود، فكان يخيفها هذا الاعتقاد جداً، لو لا أن اليهود لم يكن عندهم عقل، وهذا هو السبب الذي جعلهم لا يدخلون هذا الدين.

اجتماع قريش بدار الندوة بهدف منع الرسول ﷺ من الهجرة إلى المدينة

نتيجة للعوامل السابقة الموجودة في المدينة المنورة، والتي كانت تسبب خطراً كبيراً على زعماء مكة، إلا أن المسلمين كلهم تسربوا من بين أيديهم، ولم يبق إلا الرسول ﷺ واثنين من أصحابه هما: أبو بكر وعلي رضي الله عنهما، وإذا هاجر الرسول ﷺ بنفسه فكل المشاكل التي يخافونها ستقع، لكن من المؤكد أنه لا خطورة على مكة والرسول ﷺ مازال فيها؛ لأنه من المؤكد أن المهاجرين والمؤمنين من الأوس والخزرج سوف ينتظرون قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة؛ من أجل أن يضمنوا سلامته من ناحية، ومن ناحية أخرى ليأخذ القرار بالهجوم على مكة، فلو استطاع المشركون أن يسيطروا على الرسول ﷺ، فإن خطر يثرب سيقل، لكن كيف يسيطرون على رسول الله ﷺ؟ فقبيلة بني هاشم قبيلة كبيرة وعزيزة، ومن الصعب أن يدخلوا معها في حرب أو صراع، فقرر زعماء مكة نتيجة لهذه الحيرة أن يعقدوا اجتماعاً طارئاً، ليجدوا حلاً.

في يوم الخميس 26 صفر من السنة الرابعة عشرة من البعثة عقد الاجتماع، وكان أخطر اجتماع في تاريخ دار الندوة، حضره ممثلون عن كل القبائل القرشية، ما عدا قبيلة بني هاشم؛ مثل أبو جهل بن هشام عن قبيلة بني مخزوم، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب كلهم عن قبيلة بني عبد شمس، والنضر بن الحارث عن بني عبد الدار، وأمية بن خلف عن بني جُمَح.. وغيرهم كثير، ولم يسمح لأي قبيلة غير قريش أن تدخل دار الندوة. وبمناسبة دخول هؤلاء دار الندوة لا يوجد دليل صحيح على قصة إبليس الذي تمثل بصورة الشيخ

النجدي وحضر معهم الاجتماع؛ فإن شياطين الإنس في مكة لم يكونوا بحاجة إلى شياطين الجن.

بدأ الاجتماع الخطير، ووضعوا المشكلة التي اجتمعوا من أجلها، وبدءوا بالنظر في آراء الحضور، فالطائفة المعتدلة من زعماء مكة كانوا يرون أن حبس الرسول ﷺ كافياً، لكن اليمين المكي المتطرف كان رأيه مخالفاً لهذا الرأي، قال أحدهم -ولعله أبو جهل-: لابد من قتل هذا الرجل، وفي الحقيقة أن هذه الفكرة كانت تعجبهم، ولكن لم يكن عند أحد الجرأة أن ينطق بها؛ لأن بني هاشم قبيلة قوية، ومن الذي سيضحي بنفسه وقبيلته ويقف أمام بني هاشم، لكنّ أبا جهل خرج عليهم بفكرة شيطانية، وهي: أن يختاروا من كل قبيلة في مكة شاباً قوياً، فيحاصرون بيت رسول الله ﷺ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، فلا تجد بنو هاشم أمامها إلا قبول الدية؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يحاربوا كل القبائل، ثم خرجوا بالموافقة على هذا، قال الله عز وجل في كتابه الكريم يصف هذا الحدث: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ} [الأنفال:30]، (يثبتوك) أي: يقيدوك أو يحبسوك، أَوْ {يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:30].

هذه الأفكار التي ظهرت في دار الندوة، وهذه التدبيرات كلها تقع تحت كلمة: {وَيَمْكُرُونَ} . وفي الجزء المقابل: {وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} .

إعداد الرسول ﷺ للهجرة مع أبي بكر وعلي رضي الله عنهما

نزل جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يخبره بأمر هذه الجريمة، وقال له: لا تبت في فراشك الليلة، وأمره بالهجرة، والرسول عليه الصلاة والسلام سأله عمن يهاجر معه؟ فقال: أبو بكر الصديق ، فصحبة الصديق لرسول الله ﷺ كانت بأمر من الله عز وجل، ويا لها من درجة

عالية للصديق رضي الله عنه وأرضاه. بدأ الرسول ﷺ يرتب للهجرة، وبالذات أنه علم أن المشركين يريدون قتله فجر يوم الجمعة 27 صفر سنة 14 من النبوة، فزعماء قريش اجتمعوا في يوم الخميس 26 صفر، فكان على الرسول ﷺ أن يبلغ الصديق رضي الله عنه وأرضاه، ويرتب معه موضوع الهجرة، ولابد أن يكون كل شيء في سرية تامة، ولا يلفت أنظار أي شخص من قريش؛ من أجل ألا يقدم زعماء قريش موعد قتل الرسول ﷺ.

وهناك مشكلة أخرى كان يفكر فيها الرسول ﷺ، وهي هل كان أبو بكر جاهزاً للسفر مباشرة في الموعد الذي أخبره جبريل أن يهاجر فيه، فالصديق سيترك كل شيء، ولا يدري متى سيرجع، وقد لا يرجع بالمرة، ويموت في المدينة المنورة، وسيأخذه الرسول ﷺ من غير عائلته، فهو سيترك بناته وأولاده وأباه وأمه، وهذه تعتبر مشكلة بالنسبة للصديق. وهناك مشاكل أخرى أمام الرسول ﷺ، منها: أن قريشاً سوف تكتشف هجرته لا محالة إن آجلاً أو عاجلاً، فكيف يعطل المطاردة المشركة له؟ كيف يهرب منهم والكفار كلهم يعرفون أنه مسافر إلى المدينة المنورة، ويعرفون الاتجاه الذي يمشي فيه؟ ومنها: أنه كانت عنده أمانات كثيرة وضعها أهل مكة عنده، وكأنه مثل البنك بالنسبة لهم، كان يحفظ لهم أماناتهم وأموالهم، ومع أن أهل مكة مشركون ورافضون للإسلام، إلا أنهم لم يجدوا أحداً في مستوى أمانة الرسول ﷺ، فكانوا يضعون أماناتهم عنده مع حربهم المستمرة له ﷺ، وهذا من أعاجيب الزمان!

المهم أن هذه كانت مشاكل أمام الرسول ﷺ، وكان لابد أن يجد لها حلاً.

ذهب الرسول ﷺ إلى الصديق رضي الله عنه في وقت الظهيرة؛ لأن شوارع مكة في ذلك الوقت تكون خالية، ولن يراه أحد إذا ذهب في هذا الوقت، كما أن الصديق لم يكن معتاداً مجيء الرسول ﷺ إليه في هذا الوقت، فيكون هذا أدعى للتخفي.

شيء آخر فكر فيه الرسول ﷺ: أن يكلف سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمهمتين كبيرتين، المهمة الأولى: أن ينام في فراشه ﷺ في هذه الليلة، ويتغطى ببرده ﷺ، حتى إذا جاء المشركون ونظروا يرون شخصاً نائماً ومغطى ببردة الرسول ﷺ، فيظنون أنه الرسول ﷺ، فيتأخرون في ملاحقة الرسول ﷺ.

المهمة الثانية: رد الأمانات إلى أصحابها، وبعد أن ينتهي من المهمتين يهاجر إلى المدينة المنورة وحده.

خرج الرسول ﷺ في الظهيرة إلى بيت الصديق رضي الله عنه، وزيادة في التخفي غطى رأسه ببعض الثياب، ووصل إلى بيت الصديق من دون أن يراه أحد، فاستغرب الصديق من مجيء الرسول ﷺ في هذا الوقت، وقال: (فداه أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر)، والصديق إلى الآن لا يعلم أنه سيهاجر مع الرسول ﷺ، وأن الهجرة في هذا اليوم ليلاً، في نفس اليوم الذي جاء فيه الرسول ﷺ، فاستأذن الرسول ﷺ فأذن له أبو بكر ، فدخل، فوجد مع أبي بكر أهله، فقال له: (اخرج من عندك)، فقال الصديق : (إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله) -يعني: لا تخف منهم- فقال الرسول ﷺ: (فإني قد أذن لي في الخروج)، يعني: الهجرة.

وانظروا إلى أول رد فعل للصديق رضي الله عنه وأرضاه، أول شيء كان يشغله أن يكون مع الرسول ﷺ، ولم يتخيل أن يبتعد عن الرسول ﷺ ولو للحظات، فقال أبو بكر عندما علم أن الرسول ﷺ سيهاجر: (الصحبة بأبي أنت يا رسول الله)، فقال الرسول ﷺ: (نعم، الصحبة).

فرح الصديق بصحبة رسول الله ﷺ في هذه الرحلة، ولم يتمالك نفسه من شدة الفرح، فبكى رضي الله عنه وأرضاه، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (فلم أكن أدري أن أحداً يبكي من شدة الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي)، هذا مع الخطورة المعروفة في هذه الرحلة، لا شك أن

الصديق رضي الله عنه كان يقدر خطورة الموقف، وأنه سيكون من المطلوبين بعد ذلك وقد يقتل، لكن كل ذلك لم يؤثر فيه مطلقاً؛ لأن الشيء الوحيد الذي كان يهمه أن يكون مع الرسول ﷺ، فهو يحب الرسول ﷺ حباً شديداً، وتهون أمامه كل المصاعب ويبقى إلى جوار الرسول ﷺ. وقبل أن يسأله رسول الله ﷺ كيف سنهاجر، قال الصديق رضي الله عنه وأرضاه: (فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين). من قبل أن يعلمه الرسول ﷺ أنه سيهاجر معه كان قد جهز راحلتين، فأخذ الرسول ﷺ الراحلة، ولكنه قال للصديق: (بالثمن)، ودفع ثمن الراحلة للصديق رضي الله عنه.

لا شك أن الصديق كان إنساناً وكان تاجراً وكان أباً وكان زوجاً وكان كذا وكذا وكذا، مثل أي شخص بيننا، لا شك أن عنده أشياء كثيرة تشغله وتعطله مثل أي إنسان، لكن الصديق رضي الله عنه وأرضاه كان يعطي للعمل لله عز وجل القدر الحقيقي، من أجل ذلك كان يجد وقتاً وطاقة؛ لأنه يريد أن ينفذ ما أمره به ربنا عز وجل ورسوله ﷺ، هذا هو الإنسان الذي عاش للإسلام، فالصديق رجل عاش للقضية الإسلامية، حياته كلها في خدمة هذا الدين، أوراقه كلها مرتبة لمصلحة الإسلام، الأوليات عنده واضحة، وهذه من أهم الدروس التي ممكن أن نتعلمها من الصديق رضي الله عنه وأرضاه، أننا نضع الإسلام وواجبات الأمة في المرتبة الأولى من الأولويات لدينا.

بنود خطة هجرة الرسول ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه

مكث الرسول ﷺ مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخططان لأمر الهجرة، فقد وضعا خطة بارعة متقنة، بذلا فيها كل طاقة وفكر، وعملا حسابها لأشياء كثيرة.
أولاً: لن يبيت الرسول ﷺ في بيته هذه الليلة، وسيخرج من بيته في أول الليل، ويترك علياً رضي الله عنه وأرضاه نائماً في سريره، ويجلس في بيت الصديق من أجل أن يتجنب الحصار

الذي قد يفرض على بيته ﷺ، فهو يعلم أن موعد القتل الفجر، فيريد أن يترك البيت قبل الفجر، من أجل أن يفوت الفرصة على المشركين.

ثانياً: سيبقى رسول الله ﷺ في بيت الصديق رضي الله عنه وأرضاه جزءاً من الليل، أي لن يهاجرا مباشرة، وسينتظرا إلى أن تهدأ الحركة في مكة تماماً، في ذلك الوقت سوف يأخذان الراحلتين وينطلقان من بيت الصديق رضي الله عنه.



ثالثاً: أنهما لن يخرجا من باب بيت الصديق بل من فتحة في خلف البيت لاحتمال وجود مراقبة على باب البيت؛ فقد يتوقعون هجرته معه، فهو الصاحب الأول للرسول ﷺ.

رابعاً: أن المدينة لها طريقان من مكة: الأول: معروف وسهل وقصير نسبياً، والثاني: وعر وصعب وطويل وغير مألوف، ولا يعرفه الكثير من الناس، ففكر رسول الله ﷺ أن يهاجر من الطريق الصعب؛ طريق ساحل البحر الأحمر، نعم هو طويل وصعب، لكن لا يعرفه كثير من أهل مكة، فستكون فرصة الهجرة بأمان في هذا الطريق أكبر.

خامساً: لابد أن يستأجرا دليلاً يكون معهما في هذه الرحلة الصعبة؛ لأن الطريق غير معروف؛ فالسفر في الصحراء أمر خطير، والدليل لابد أن تكون عنده خبرة وأمانة، وفي نفس الوقت لا يشك المشركون في أمره؛ ولذا فإن الرسول ﷺ والصديق اتفقا على دليل اسمه عبد الله بن

أُرَيقط ، وهذا الدليل من المشركين، وكان هذا الفعل منهما في منتهى الذكاء؛ فإن المشركين لن يشكوا مطلقاً في أمره، كما أنه رجل أمين يكتم السر، وهو في النهاية صاحب مصلحة سوف يؤدي المهمة ويأخذ عليها الأجر، وأكيد أنه أجر مجزٍ.

سادساً: قرر الرسول ﷺ أنه في أول الهجرة سيتجه نحو اليمن لا المدينة المنورة لمسافة خمسة أميال -: 8 كيلو متر- للتمويه؛ لأن المشركين إذا افتقدوا الرسول ﷺ، سيبحثون عنه في اتجاه المدينة وليس في اتجاه اليمن.

سابعاً: أنهما سيذهبان أولاً إلى غار ثور في جنوب مكة، وهو غار في جبل عال، والطريق إليه صعب جداً، وسيمكثان فيه ثلاثة أيام، وبعد ذلك يتحركان إلى المدينة عندما يفقد أهل مكة الأمل في العثور عليهما، وكذلك سوف يتركان الراحلتين مع الدليل عبد الله بن أُرَيْقط ، من أجل ألا يرى أحد الراحلتين بجانب الغار، وعبد الله بن أريقط سوف يقابلهما بعد ذلك عند الغار بعد ثلاثة أيام.

ثامناً: يريد الرسول ﷺ أن يعلم الوضع في مكة، وتحركات زعماء مكة، فلابد من شخص يأتي لهم بالأخبار إلى الغار كل يوم ليعدلوا على حسبها الخطة لو حصل شيء مخالف للذي رتبوه، فاتفق الرسول ﷺ مع الصديق رضي الله عنه أن الذي سيقوم بذلك هو عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فهو سيمكث في مكة طيلة النهار، ثم يأتي إلى الغار في أول الليل، ويجلس معهما في الغار ويخبرهما أخبار مكة، ثم يرجع إلى مكة قبل الفجر، ثم في الصباح الباكر يظهر نفسه للناس ويقف أمامهم ليروه؛ ليوهمهم أنه بات في مكة ولم يكن خارجها.

تاسعاً: سيقوم عامر بن فهيرة رضي الله عنه مولى الصديق رضي الله عنه وأرضاه بدور التغطية الأمنية لهذه العملية، فهو سيرعى الأغنام على آثار أقدام الرسول ﷺ وأقدام الصديق رضي الله

عنه، وبعد ذلك فوق أقدام عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، من أجل أن يضيع فرصة تتبع آثار الأقدام بقدر استطاعته، وهذا شيء في منتهى الروعة؛ مع أنهم مشوا في اتجاه الجنوب، ولكن كذلك أخذوا حذرهم في هذا.

عاشراً: أن الذي سيحضر لهم الطعام والشراب فترة الثلاثة أيام في غار ثور السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وكانت حاملاً وفي الشهور الأخيرة من حملها، وإن كان المشركون وضعوا مراقبة على أولاد الصديق الرجال، فمن الصعب أن يضعوها على النساء، كما أنهم لم يعتادوا من النساء أن تقوم بمثل هذه الأدوار، وتذكروا أننا نتكلم عما قبل 1400 سنة سابقة، وتخيل معي كيف لامرأة حامل في شهورها الأخيرة تحمل الطعام والشراب وتسير به مسافة 8 كيلو متر من مكة وحتى غار ثور، ثم تصعد الجبل الصعب، وتفعل ذلك ثلاثة أيام متواصلة! لكن لا تستغربوا، فإنها ابنة الصديق رضي الله عنه وعنها.

حصار المشركين لبيت الرسول ﷺ ليلة الهجرة وخروجه من بينهم سالماً

عاد الرسول ﷺ إلى بيته وبدأ يجهز نفسه، ونادى علياً رضي الله عنه، وكان في ذلك الوقت عمره 23 سنة، وأخبره بدوره، وأنه سينام في سريره ﷺ طوال الليل، ويتغطى ببرد الرسول ﷺ الأخضر، وفي الصباح يعيد الأمانات لأصحابها.

انتظر الرسول ﷺ في البيت حتى الليل، ثم في أول الليل فكر بالخروج والذهاب إلى الصديق ، فرأى أن المشركين قد أتوا مبكرين عن الموعد الذي كان يظنه، ورآهم يحاصرون البيت، وعشرات السيوف تحيط بالبيت، والقرار ليس الحبس أو المحاكمة، لقد صدر القرار بالقتل، وقد أتوا للتنفيذ مباشرة، فماذا يعمل الرسول ﷺ؟ وكيف يخرج؟

أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، وأخبره بأن يخرج من وسط المشركين، وأن يخرج أمام الناس كلهم، ولن يراك أحد منهم؛ فإن الله عز وجل سيأخذ أبصارهم، ستعمى الأبصار كما عميت قبل ذلك البصائر. خرج الرسول ﷺ أمام كل الناس ليلة 27 صفر سنة 14 من النبوة، خرج وهو يقرأ صدر سورة (يس) من أولها إلى قوله عز وجل: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} [يس:9]، وليس هذا فحسب، بل أخذ الرسول ﷺ حفنة من التراب، ووضع جزءاً منها على رأس كل مشرك؛ من أجل أن يقول لهم: لا تظنوا أنني قد بت خارج البيت، لا، أنا كنت بالداخل وخرجت أمامكم وأنتم لم تروني.

كان من الممكن أن يخرج الرسول ﷺ قبل أن يأتي المشركون، لكن هذا الذي حصل كان لإثبات أن الأمر كله بيد الله عز وجل، وأنه بدون توفيق الله عز وجل لا يتم أمر من الأمور، وظهرت المعجزة الظاهرة الواضحة في نصرة الله لرسوله ﷺ.

وصل الرسول ﷺ إلى بيت الصديق رضي الله عنه، وجلس عنده حتى نصف الليل حسب الخطة، وبعد ذلك خرجا من الباب الخلفي للبيت، وتسللا من مكة، واتجها جنوباً إلى غار ثور، وعندما وصلا إلى الغار دخل الصديق رضي الله عنه وأرضاه إلى الغار أولاً، وعمل عملية استكشافية؛ ليطمئن أنه لا خطر فيه، وعندما اطمأن دخل الرسول ﷺ، وبهذا يكون هذا الجزء من الخطة مر بسلام والحمد لله.

هذا ما كان في الغار، أما عند بيت الرسول ﷺ فما زال المشركون على هيئتهم وعلى رءوسهم التراب، وعلي رضي الله عنه مازال نائماً بداخل البيت، وهم على حالتهم مر عليهم رجل مشرك ووجد على رأس كل رجل حفنة تراب، فاستغرب من شكلهم، فقال: (ماذا تنتظرون هنا؟) قالوا: (محمداً) قال: (خيبكم الله، قد -والله- خرج عليكم)، فانزعجوا وتساءلوا، قبل قليل كان نائماً، ونحن نراه بالداخل وهو نائم وعليه برده، وبعد ذلك وجدوا التراب على رءوسهم،

وليس واحداً أو اثنين، بل كلهم على رءوسهم التراب، فقام المشركون ونظروا من ثقب الباب، فرأوا رجلاً نائماً بالداخل وعليه البرد الأخضر، فتحير القوم، وقالوا: والله إنه لنائم، فهل يصدقون ذلك الرجل الذي قال لهم: إنه قد خرج عليكم، والتراب الذي رأوه على رءوسهم، أم يصدقون أعينهم؟ فأراد شخص منهم أن يريح الجميع، قال: لنكسر الباب ونرى من النائم بالداخل، لكن معظم الكفار اعترضوا؛ وقالوا: (والله إنها لسُبَّة في العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا)، كفار مكة لا يهتكون ستر البيوت، ولا يقتحمون حرمات الديار، لا يدخلون بيتاً بغير إذن أهله.

انتظر المشركون إلى الصباح ولم يستطيعوا الدخول إلى بيت الرسول ﷺ؛ حتى لا يلحقهم العيب، وبعد قليل إذا هم بعلي رضي الله عنه وأرضاه قام من الفراش، كان المشركون حينها في منتهى الغيظ، فأمسكوا بسيدنا علي بن أبي طالب وضربوه ضرباً شديداً رضي الله عنه، وأخذوه إلى البيت الحرام ليحققوا معه، وحبسوه هناك، ومع كل هذا الضرب إلا أنه لم يجب عليهم، ومع كونه فارساً مغواراً وكان عمره في ذلك الوقت 23 سنة إلا أنه لم يقاتلهم، وذلك لأمور:

أولاً: لم يؤذن بعد للمسلمين بالقتال إلى هذه اللحظة.

ثانياً: الهلكة محققة لغياب كل المسلمين، ولن يدافع عنه أحد، واجتماع كل المشركين على بني هاشم يصعب الأمر أكثر.

ثالثاً: أن عليه مهمة عظيمة وهي رد الأمانات إلى أهلها، فلابد أن يحافظ على نفسه حتى يؤديها؛ من أجل ذلك لم يرد عليهم حكمة وفقهاً من علي رضي الله عنه.

حبس سيدنا علي ساعة من الزمن، لا شهر ولا سنة ولا سنتين؛ لأن كفار مكة رأوا أن من الظلم أن يحبس إنسان بدون جريرة أو بدون ذنب أكثر من ساعة، ففي عرفهم أن الساعة كثيرة

جداً. مكث علي رضي الله عنه وأرضاه بعد ذلك في مكة ثلاثة أيام يرد الأمانات إلى أهلها، ثم هاجر مباشرة إلى المدينة المنورة.

جهود قريش في البحث عن الرسول ﷺ وأبي بكر

اكتشف زعماء مكة خروج الرسول ﷺ، فأعلنوا حالة الطوارئ القصوى في مكة، وأخذوا مجموعة من القرارات:

القرار الأول: مداهمة منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه المتهم بصحبة زعيم المسلمين رسول الله ﷺ، فلعل الرسول ﷺ مختف في بيته، أو أن الصديق يعرف أخبار الرسول ﷺ، وقام بهذه المهمة أبو جهل بنفسه، أخذ معه فرقة وذهب إلى بيت الصديق ، وظل يطرق الباب بعنف، ففتحت له السيدة أسماء رضي الله عنها، فقال لها: (أين أبوك يا ابنة أبي بكر) ، قالت في هدوء: (لا أدري)، فرفع أبو جهل يده ولطم خدها حتى طار قرطها. هذا تجاوز كبير في أعراف مكة، أن رجلاً يضرب امرأة بهذه الصورة، ومع كل هذا التجاوز إلا أن أبا جهل لم يفكر أن يدخل البيت ويقلبه رأساً على عقب، لم يفكر أن يدخل يبحث على أي دليل، مع خطورة هجرة الرسول ﷺ. ولماذا لم يدخل؟ تذكروا أن زعماء مكة لا يهتكون حرمات البيوت.

الرسول ﷺ ليس في بيت الصديق؛ لذا يجوز أن يكون في بيت آخر من بيوت أصحابه، من أجل ذلك أخذوا القرار الثاني.

القرار الثاني: إحكام المراقبة المسلحة على كل مداخل ومخارج مكة، فإذا كان ما زال داخل مكة أمسكوا به وهو خارج منها.

القرار الثالث: مطلوب حياً أو ميتاً، إعلان عن جائزة كبرى لمن يأتي برسول ﷺ أو صاحبه الصديق رضي الله عنه، والجائزة مائة ناقة، وهذا رقم مهول في ذلك الزمن، ميزانيات ضخمة تنفق لصد الدعوة، ولوقف الدعوة إلى الله عز وجل.

القرار الرابع: المطاردة، استخدام قصاص الأثر لمحاولة تتبع آثار الأقدام لرسول ﷺ، استخدموا قصاص الأثر في كل الطرق الخارجة من مكة، وفي الحقيقة أن الكفار كانوا في منتهى الذكاء؛ درسوا كل المخارج بما فيها المخارج الجنوبية البعيدة عن طريق المدينة، ومع كل طرق التأمين التي كانت في خطة الرسول ﷺ، ومع كون الخطة بارعة، إلا أنه ليس من طابع الخطط البشرية أن تصل إلى حد الكمال، فلابد من وجود ثغرات؛ لذا اكتشف القصاصون الطريق الذي سار فيه الرسول ﷺ وصاحبه، ووصلوا إلى الجبل الصعب الذي بداخله غار ثور، وصعدوا الجبل ووصلوا إلى باب غار ثور، ولم يبق لهم إلا أن ينظروا إلى داخل الغار، ولو نظروا إلى داخله سيرون الرسول ﷺ والصديق رضي الله عنه.

كان الرسول ﷺ في داخل الغار في سكينة تامة، لكن الصديق رضي الله عنه كان قلقاً، يقول الصديق رضي الله عنه: (يا رسول الله؛ لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا)، فيرد عليه ﷺ فيقول: (يا أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، إحساس بمَعّية الله في كل خطوة، والصديق لم يكن خائفاً على نفسه، بل خاف على الرسول ﷺ، ففي بعض الروايات أن الصديق قال للرسول ﷺ: (يا رسول الله؛ إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة).

ماذا فعل المشركون وهم على باب غار ثور؟ بعدما قطعوا هذا المشوار الطويل 8كيلو من الصحراء والجبال والشمس والمشقة، وآثار الأقدام منتهية عند فتحة باب الغار، كان من العقل أن ينظروا ما في الداخل، لكنهم لم ينظروا، كم كانت ستأخذ هذه النظرة لو نظروها؟ لكن (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما).

هناك قصة مشهورة أن العنكبوت نسجت خيطاً كثيفاً على باب الغار، وقال الكفار: (لو دخل من ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه)، وهذه القصة ضعيفة من كل طرقها، وإن كان بعض العلماء رفع درجة القصة إلى الحسن لكثرة الطرق، كذلك قصة الحمامتين وقصة الشجرة التي نبتت على باب الغار قصص ضعيفة لا تصح أصلاً، وحتى لو لم تصح قصة نسج العنكبوت فهذا إعجاز أيضاً، وإلا كيف تفسر أن الغار يكون مفتوحاً والآثار وصلت إليه، والكفار لا ينظرون إلى داخله. هذه معجزة ظاهرة. وليست هي المعجزة الأولى في حياة الرسول ﷺ ولا الأخيرة، فحياته كلها معجزات ﷺ.

فشلت المطاردة ورجع الكفار إلى مكة مرة أخرى وقد يئسوا من العثور على رسول الله ﷺ وعلى الصديق رضي الله عنه، لكن مازالت المكافأة معلنة مائة ناقة لمن يعثر على أحدهما حياً أو ميتاً. مكث الرسول ﷺ في الغار ثلاثة أيام كما كان مقرراً في الخطة، وعبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين كل واحد منهم يقوم بدوره، ومرت الثلاثة الأيام، وجاء الدليل عبد الله بن أريقط بالناقتين في الوقت المتفق عليه، وأحضر له ناقة وأخذوا معهم عامر بن فهيرة في هذه الرحلة المباركة.

انطلقت الرحلة، وخرج الرسول ﷺ من الغار في الليل في ليلة 1 ربيع أول من سنة 14 من النبوة، والهجرة لم تكن في محرم كما يظن كثير من الناس، إنما كانت في أواخر صفر وأوائل ربيع الأول من سنة 14 من النبوة. خرج الرسول ﷺ من الغار في الليل، وزيادة في الحذر اتجهوا جنوباً وابتعدوا أكثر وأكثر عن طريق المدينة؛ زيادة في ضمان ألا يراهم أحد أبداً، وبعد ذلك سيتجهون إلى الغرب من أجل أن يأخذوا طريق البحر الأحمر الصعب، وعندما خرجوا من الغار كان الصديق رضي الله عنه وأرضاه يمشي بطريقة غريبة، لفتت نظر الرسول ﷺ، كان يسير أمام الرسول ﷺ تارة، ثم يسير خلفه تارة أخرى، فلما سأله الرسول ﷺ، قال الصديق

رضي الله عنه وأرضاه في حب شديد: (يا رسول الله؛ أذكر الطلب) -أي: المطاردة- (فأمشي خلفك، ثم اذكر الرصد) -أي: لو أن أحداً منتظرنا في الأمام- (فأمشي بين يديك)، يتمنى الصديق أن لو جاء سهم أن يصيبه هو ولا يمس رسول الله ﷺ، منتهى الحب لرسول ﷺ، وأكملت القافلة طريقها واتجهت إلى المدينة.

مطاردة سراقة بن مالك للرسول ﷺ ومن معه أثناء الهجرة

رأى بعض المشركين القافلة وجاءوا إلى مكة يخبرونهم الخبر، فلعل الركب هم محمد ﷺ وأصحابه، فسمعهم سراقة بن مالك ، وكان سراقة بن مالك يفكر في المائة الناقة التي هي لكل واحد من الاثنين، فخدع الناس، وقال لهم: هذا فلان وفلان أعرفهما، ومباشرة جهز فرسه وسلاحه وانطلق ليفوز بالجائزة الكبرى، واستطاع أن يصل إليهم، واقترب منهم، حتى إنه كان يسمع قراءة رسول الله ﷺ للقرآن، وكان رسول الله ﷺ لا يلتفت -كما يقول سراقة كما جاء في البخاري - وأبو بكر يكثر الالتفات من خوفه على رسول الله ﷺ، وعندما اقترب منهم حدثت المعجزة وبدأت الفرس تسيخ في الأرض مرة وثانية وثالثة، وعلم سراقة أن هناك شيئاً غريباً، يقول: (فأدركت أن القوم ممنوعون). فاقترب منهم وقد سألهم الأمان، وذكر لهم أمر المكافأة التي جعلتها قريش فيهم، فقال له رسول الله ﷺ: (أخف عنا)، وبعد ذلك قال له شيء في منتهى الغرابة، قال: (كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرى)، في هذا الموقف الصعب الذي يطارد فيه من أهل الأرض يبشر سراقة بانهيار عرش كسرى، وأنه سيأتي يوم يأخذ فيه المسلمون سواري كسرى غنيمة، وفي ذلك الوقت سراقة هو الذي سيأخذ هذين السوارين، وسراقة كان يصدق بهذا تماماً، إلى درجة أنه طلب من الرسول ﷺ أن يكتب له كتاباً بهذا الأمر، حتى إذا مات الرسول ﷺ قبل هذا الشيء فسيكون معه الدليل الذي يأخذ به

السوارين، فأمر الرسول ﷺ عامر بن فهيرة أن يكتب له كتاباً، فكتب له على رقة من جلد، وعاد سراقة يبعد الناس عن طريق رسول الله ﷺ، ويقول لهم: (قد كفيتكم هذا الطريق).

كان أول اليوم جاهداً في مطاردة الرسول ﷺ، وفي آخر اليوم كان مدافعاً عنه، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر:31]، والغريب أيضاً أن سراقة مع إحساسه بصدق الرسول ﷺ إلا أنه لم يسلم إلا بعد فتح مكة وحنين، ومرت الأيام وفتحت بلاد فارس وجاءت الغنائم في عهد عمر بن الخطاب وفيها سواري كسرى، فأخرج سراقة كتاب رسول الله ﷺ وسلمه لعمر رضي الله عنه، فأعطاه عمر رضي الله عنه سواري كسرى تنفيذاً لوعد رسول الله ﷺ: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:3-4].

خروج بريدة بن الحصيب ومن معه لمطاردة الرسول ﷺ أثناء الهجرة

لم تحصل مشاكل أخرى في الطريق إلا قبل المدينة المنورة، فقد فوجئ الرسول ﷺ برجل اسمه بريدة بن الحصيب زعيم قبيلة أسلم، وقد خرج له في 70 من قومه، يريد المكافأة، ومع خطورة الموقف إلا أن الرسول ﷺ لم يفقد أعصابه مطلقاً، بل بدأ يعرض الإسلام على بريدة وعلى قومه، وسبحان مقلب القلوب؛ وقعت كلمات الله عز وجل في قلب بريدة وأصحابه، فآمنوا جميعاً في لحظة واحدة، فالرسول ﷺ مكث سنين في مكة من أجل أن يأتي بهذا العدد 70، وفي لحظة واحدة يؤمنون، الله عز وجل يخبرنا أن القلوب بيديه هو سبحانه وتعالى، يستطيع أن ينصرك في الوقت الذي يريده، لكن المهم أنك تعمل كما كان يعمل الرسول ﷺ.

هناك أحداث أخرى كثيرة وهامة وعظيمة ولطيفة في الهجرة، لكن المقام لا يتسع لها، وقد ذكرنا كثيراً من ذلك في محاضرات: الصديق الصاحب والخليل، فلا داعي للتكرار.

وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة سالماً، وكان ذلك في يوم 12 من ربيع الأول سنة 14 من النبوة، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة وهامة في الدعوة الإسلامية، وهي مرحلة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

دروس من الهجرة النبوية

دروس الهجرة لا تحصى ولا تعد، لكننا سنختار بعضاً منها، وبالذات الدروس التي لها علاقة ببناء الأمة الإسلامية.

الدرس الأول: الأخذ بالأسباب، بذل الرسول ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه كل ما في الطاقة لإنجاح عملية الهجرة، وهذا هو الإعداد المطلوب من المؤمنين، أن يعدوا كل ما يستطيعون، وليس مطلوباً منهم أكثر من هذا: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال:60]، لكن نلاحظ كذلك أنه مع هذا الإعداد العظيم إلا أنه حدثت بعض الثغرات في الخطة، وهذا شيء خارج عن حدود البشر؛ إذ الكمال لله وحده.

منها: أن المشركين حاصروا بيت الرسول ﷺ قبل خروجه، مع أن التخطيط أنه يخرج قبل الحصار، لكنهم أتوا قبل موعدهم الذي ظنه الرسول ﷺ.

ومنها: أن أحد المشركين رأى الرسول ﷺ بعدما خرج، وقال لزعماء مكة: لقد خرج عليكم محمد.

أيضاً: المشركون وصلوا إلى غار ثور مع كل الاحتياطات التي أخذها الرسول ﷺ، وسراقة لحق بالرسول ﷺ في الطريق.

فمثل هذه الثغرات لابد أن تحصل، لكن المهم أنك بذلت الوسع في الإعداد، وكذلك لو أنك بذلت الاستطاعة فإن الله سبحانه وتعالى يكمل العجز البشري، مثل ما حدث للكفار وحصل

لهم عمى مؤقت أمام بيت الرسول ﷺ، وكذلك لم يدخلوا الغار بعدما وصلوا إلى بابه، وخيل سراقة لا تستطيع المشي في الرمال، أشياء لم تكن في الحسبان، فالله عز وجل يعطيك هدية لو أنك بذلت وسعك. ابذل الوسع والله عز وجل سيكمل لك العجز من رحمته وكرمه سبحانه وتعالى.

الدرس الثاني: لم يعتمد الرسول ﷺ على الأسباب وترك رب الأسباب، إنما كان يعلم أن الأسباب لا تأتي بنتائجها إلا إذا أراد الله عز وجل، ولذلك بعد أن بذل أسبابه كاملة تحلى بقين عظيم، يقين أن ما أراده الله عز وجل سيكون حتماً، ظهر ذلك في كلمته الرائعة: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، وظهر أيضاً في أنه لم يكن يكثر الالتفات في طريقه، فهو مطمئن إلى أن الله عز وجل سينصر رسله والذين آمنوا، ومن غير هذا اليقين لا أعتقد أن بناء الأمة سيحصل، أو أن أي نصر ممكن أن يتحقق، لابد من يقين بنصر الله عز وجل.

الدرس الثالث: لم يفقد رسول الله ﷺ روح الأمل في أي لحظة من لحظات حياته، حتى في هذه الرحلة الخطيرة، وهو يخرج من مكة بهذه الطريقة، وهو مطلوب لا يأمن على حياته ولا على حياة أصحابه، حتى في هذه الظروف يبشر سراقة ليس فقط بظهور الإسلام على قريش أو على العرب، بل وبسقوط عرش كسرى تحت أقدام المسلمين، وأخذ كنوز كسرى غنيمة: (كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرى).

الدرس الرابع: حرص الرسول ﷺ في كل مراحل حياته على الصحبة، عاش حياته في مكة بصحبة، وخرج إلى الطائف بصحبة، وقابل الوفود بصحبة، وعقد البيعة التي بنيت عليها دولة الإسلام بصحبة، وها هو يسأل جبريل عليه السلام عن صاحبه في الهجرة، كل هذا وهو رسول الله ﷺ، وكل الناس تحتاج إلى صحبة، ويعلمنا رسول الله ﷺ أن نبحث عن الصحبة الصالحة.

الدرس الخامس: وضح لنا وظهر في هذه الرحلة كيف أن القائد العظيم هو الذي يعيش معاناة شعبه، يهاجر كما يهاجرون، ويطارد كما يطاردون، ويتعب كما يتعبون، ويعيش معهم حياتهم بكل ما فيها من آلام وتضحيات، كان من الممكن أن ربنا سبحانه وتعالى ينقل الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بالبراق الذي نقله قبل ذلك في لحظة واحدة من مكة إلى بيت المقدس، لكن أين القدوة في ذلك؟ لابد للمسلمين من طريق عملي لبناء الأمة، طريق في مقدور عموم المسلمين، ولابد أن يسير في هذا الطريق رسول ﷺ رغم كل المعاناة والتعب؛ ليعطي قدوة لكل قائد.

الدرس السادس: رأينا كيف أن الدعوة في دم رسول الله ﷺ، كانت مثل النفس عند عموم البشر، لا يضيع فرصة، لا يرتبط بظرف، يدعو كل من يستطيع، رأيناه كيف دعا إلى الإسلام بريدة وأصحابه من قبيلة أسلم، لم يكن همه الهروب حتى يصل إلى المدينة، بل اعتبر أن الله عز وجل قد ساق إليه هذا الرجل وقومه هدية من الله عز وجل، فتخيلوا فكيف يضيع فرصة مثل هذه، دعا بريدة وأسلم بريدة، وتغير حال بريدة وقبيلة أسلم كلها بعد هذا الإسلام، فانظروا إلى فضل الدعوة.

الدرس السابع: رأينا في هذه الرحلة استعداد الصديق رضي الله عنه وأرضاه للعمل لله عز وجل تحت أي ظرف وفي كل زمان ومكان، القضية في منتهى الوضوح عند الصديق ، أهم شيء في حياة الصديق رضي الله عنه هو أن يرضي الله عز وجل، وأن يرضي رسوله الكريم ﷺ، لا ينبغي أن يطلبه الله عز وجل في مكان فلا يجده، ليس هناك في حياته مكان لكلمة الظروف، كان يعتذر لكل ظرف يطرأ على حياته؛ يعتذر بأن عنده ظرفاً أعظم، فما هو هذا الظرف؟ هو العمل لله عز وجل، والبذل والتضحية والجهاد في سبيل الله عز وجل.

الدرس الثامن: رأينا شدة محبة الصديق للرسول ﷺ، رأينا كيف أنه لا ينتظر أمراً ولا طلباً، إنما يجتهد هو في إتقان حبه لرسول ﷺ؛ يجهز له الراحلة، يبكي من الفرح لصحبته، ينظف له الغار، يسير أمامه وخلفه حماية له، وغير ذلك من المواقف التي ذكرنا بعضها ولم نذكر أكثرها.

حب الرسول ﷺ ليس من فضائل الأعمال فحسب، بل هو من الواجبات، ومن قدم حباً على حب رسول الله ﷺ فهو على خطر عظيم.

الدرس التاسع: رأينا بذل الصديق وعطاء الصديق ، أخذ معه في الرحلة 5000 درهم، وهي كل ما يمتلك من غير الراحلتين، وقبل ذلك أنفق 35000 ألف درهم في سبيل الله، وسيظل ينفق في المدينة، وسيظل ينفق وهو خليفة، وسيظل ينفق وهو على فراش الموت، هذا هو الصديق، من أجل ذلك يقول الله عز وجل: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل:17-21].

الدرس العاشر: وهو شيء مهم لفت الأنظار في قصة الهجرة، ولابد أن نقف معه وقفة، أترون كيف استعمل الصديق عائلته بالكامل في سبيل الله؛ عبد الله ينقل الأخبار، وأسماء تنقل الطعام والشراب، وعامر بن فهيرة يخفي آثار الأقدام، إن الصديق استطاع أن ينقل حبه للدعوة لكل عائلته، بعض الدعاة للأسف الشديد يعانون من مرض العزلة عن عائلتهم، تراهم في منتهى النشاط خارج البيت، ثم لا يشركون أقرب الأقربين إليهم في العمل لله عز وجل، هذا غياب كبير للفهم، وضياع هائل للأولويات، نريد أن نتعلمه من الصديق ، وتذكروا: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

الملامح العامة لبناء الأمة في الفترة المكية

تمت مرحلة هامة من مراحل السيرة النبوة بالهجرة إلى المدينة، تمت المرحلة المكية بكل أحـداثها وآلامها ومشاكلها، مرحلة ذات طابع خاص بدأ الإسلام فيها غريباً، واستمر غريبـاً إلى قـرب نهايتها إلى أن آمن الأنصار. كان الاهتمام الرئيسـي لرسـول الله ﷺ في هـذه المرحلـة أن يبنـي الجانب العقائدي عند الصحابة؛ لا يؤمنون إلا بالله عـز وجـل، لا يتوجهـون بالعبـادة لأحـد سواه، يتوكلون عليه، ينيبون إليه، يخافون عذابه، يرجون رحمته؛ إنه إيمان عميق بـرب العـالمين سبحانه وتعالى، واعتقاد جازم بأن هناك يوماً سيبعث فيه الخلائق أجمعون، وسيقوم فيه النـاس لرب العالمين، يحاسبون على مـا يعملـون، لـن يظلـم في ذلـك اليـوم أحـد، لـن تغفـل الـذرة والقطمير، وإنها –والله– إما جنة أبداً أو نار أبداً.

وإلى جانب العقيدة الراسخة فقد تعلم المؤمنون في هذه المرحلة أيضاً الأخلاق الحميدة؛ هذبت نفوسهم تماماً، ارتفعـوا عـن قـيم الأرض وأخـلاق الأرض وطبـائع الأرض إلى قـيم السـماء وأخلاق السماء وطبائع السـماء. وبالإضـافة إلى العقيـدة والأخـلاق عـرف المؤمنـون في هـذه المرحلة أن الطريق الطبيعي للجنة طريق شاق صعب مليء بالابتلاءات والاختبارات، ما تنتهي من امتحـان إلا وهنـاك امتحـان آخـر، والله عـز وجـل يراقـب العبـاد، يـراقبهم في صـبرهم ومصابرتهم وجهادهم، ولن يستثنى من هذا الاختبار أحد (يبتلى المرء على قدر دينه).

ومع كون هذه المرحلة بكاملها كانت عبارة عن فقرات مختلفة من الإيذاء والتعذيب سواء عـلى الروح أو الجسد، إلا أنها كانت لا تخلو من سعادة، لكن ليسـت السـعادة الماديـة الحسـية التـي يجدها الناس في طعام أو شراب أو شهوة، لا، إنما هي سعادة الروح والقلب، سعادة الطاعة لله عز وجل، سعادة الصحبة لرسـول الله ﷺ، سـعادة الصـلاة ومناجـاة الله عـز وجـل، سـعادة الأخوة والألفة بين المؤمنين، سعادة الدعوة إلى الله عز وجل، سعادة كبيرة عندما ترى شخصـاً

كان يسجد لصنم، حياته تافهة حقيرة لا تساوي شيئاً، وفجأة تحول إلى عملاق من عمالقة الأرض، أي عقل وأي حكمة وأي شجاعة وأي أخلاق! سعادة عظيمة فعلاً، سعادة الثبات أمام كل فتن الدنيا، سواء كانت فتناً في الجسد أو الهجرة أو الإغراءات بالمال أو بالسلطة أو بالنساء.. أو غيرها من الفتن.

والثبات أمام الفتن لا شك أنه يزرع سعادة في قلوب المؤمنين.

لقد كانت الفترة المكية بمثابة الأساس المتين للصرح الإسلامي الهائل، من المستحيل أن يجتاز المسلمون خطوات كبدر والأحزاب وخيبر وتبوك دون المرور على فترة مكة، من المستحيل أن تبني أمة صالحة، أو تنشئ دولة قوية، أو تخوض جهاداً ناجحاً، أو تثبت في ميادين القتال والنزال، أو تقف بصلابة أمام فتن الدنيا المختلفة، من المستحيل أن تفعل كل ذلك إلا بعد أن تعيش في فترة مكة بكل أبعادها.

على الدعاة المخلصين أن يدرسوا هذه المرحلة بعمق، عليهم أن يقفوا أمام كل حدث، قصر وقته أو صغر حجمه، لابد أن يقفوا أمامه وقوفاً طويلاً طويلاً، هنا البداية التي لابد أن نبدأ منها، بغير مكة لن تكون هناك المدينة، وبغير المهاجرين لن يكون هناك أنصار، وبغير الإيمان والأخلاق والصبر على البلاء لن تكون هناك أمة ودولة وسيادة وتمكين.

كانت هذه هي فترة مكة الجميلة؛ لأنها تحكي قصة رسول الله ﷺ، ومازالت لنا جولات مع فترة جميلة أيضاً من فترات حياة رسول ﷺ، تلك هي فترة المدينة المنورة.

نسأل الله عز وجل أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجمعنا مع حبيبه وحبيبنا محمد ﷺ في أعلى عليين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [غافر:44]

15

قيام الدولة الإسلامية

نبدأ الحديث عن العهد المدني في السيرة النبوية، قبل هذا تكلمنا عن العهد المكي، والكثير الكثير من الأحداث الهامة جداً في العهد المكي للأسف أغفلت؛ لكثرة الأحداث وصعوبة الإلمام بكل ما تم في حياته ﷺ من دروس وعبر وعظات وأحكام وتشريعات، إذا كنا نقول ذلك الكلام عن فترة مكة فالحديث عن فترة المدينة أصعب بشكل لافت للنظر؛ لأن أحداث المدينة المنورة كثيرة جداً ومتشعّبة؛ غزوات، وسرايا، ومعاهدات، ولقاءات ومعاملات، وحياة زوجية للرسول ﷺ، وحياة مع الصحابة، وحياة مع المنافقين، وحياة مع أعداء الأمة من اليهود ومن المشركين ومن غيرهم، في الحقيقة هناك تنوعات هائلة في السيرة النبوية، ويكاد يكون من المستحيل أن تجمع كل السيرة النبوية في فترة المدينة المنورة في مجموعة واحدة أو مجموعتين أو ثلاث أو أكثر، سنظل نتكلم سنين كثيرة في السيرة النبوية، ومهما تكلم المتكلمون قبل ذلك ستجد جديداً في السيرة النبوية؛ لأن السيرة النبوية كنز لا ينتهي عجائبه، كما تقرأ القرآن الكريم فأنت في كل فترة تأتي بجديد وبإضافة في فقه آية أو في فهم معنى، ويبدع المفسّرون في تفسير بعض الآيات كل سنة، مع أن لنا تقريباً 1400 سنة ونحن نفسر القرآن الكريم، كذلك في السيرة النبوية كلما تقرأ حدثاً قد تطلع منه على جديد، وكتب السيرة التي تُطبع في هذا الوقت بعد 1400 سنة من التدقيق والتحليل والدراسة للسيرة النبوية ما زالت

تخرج لنا جديداً. السيرة النبوية إعجاز وترتيب دقيق جداً من رب العالمين سبحانه وتعالى، وضع الله عز وجل فيها كل المتغيرات والأحداث، التي من الممكن أن تحدث في الأرض وإلى يوم القيامة؛ لكي يقيم حجته على البشر في قوله سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21] ففي كل مواقف الحياة تستطيع أن تجد سنة حسنة في رسول الله ﷺ.

لن نستطيع بأي حال من الأحوال أن نتناول جميع الأمور بالترتيب، سنُغفل بعضها، ونحيل هذه الأمور إلى مجموعات أخرى من المحاضرات والدروس. على سبيل المثال سنجعل مجموعة نسميها: الرسول ﷺ وحل مشكلات العالم. نتناول فيها كيف حل الرسول ﷺ مشكلة البطالة، ومشكلة الأمية، ومشكلة الزواج المتأخر، ومشكلة الفقر، ومشكلة اللاجئين مشاكل كثيرة جداً مرت بالأمة الإسلامية، حلها الرسول ﷺ بطريقة علمية عملية واضحة، نستطيع أن نقلدها بمنتهى السهولة لو درسنا السيرة النبوية.

وسوف نجعل أيضاً مجموعة من المحاضرات إن شاء الله نسميها: الرسول ﷺ وأخطاء المؤمنين، وسنجمع فيها أخطاء المؤمنين التي وقعوا فيها في فترة المدينة أو في فترة مكة، وهذه الأخطاء في الحقيقة تحتاج منا إلى دراسة متأنية وتحليل لكل خطأ كيف حدث؟ وكيف خرج منه المسلمون؟ وفي الحقيقة تأخذ مساحات كبيرة جداً من الوقت في التحليل والدراسة؛ ولهذا سنحاول أن نخرج هذه الأخطاء قدر المستطاع دون الإخلال بترتيب الأحداث وبفقه المعاني في داخل الفترة النبوية في المدينة المنورة، ونجمع كل هذه الأخطاء في مجموعة: الرسول ﷺ وأخطاء المؤمنين.

ومن المجموعات مجموعة: بناء الدولة الشاملة في عهد الرسول ﷺ البناء الاقتصادي، البناء السياسي، البناء العسكري، البناء القضائي، البناء الرياضي، فالرسول ﷺ كوّن دولة شاملة

بترتيبات دقيقة جداً وقانون محكم، كل هذا يحتاج إلى تفصيلات لا نستطيع أن نتحدث عنها كلها في هذه المجموعة.

إجمالاً فترة المدينة المنورة بصفة عامة لها سمات تميزها عن فترة مكة المكرمة، ففترة مكة تستطيع أن تقول: إنها فترة بناء الفرد المسلم الصالح المؤمن بربه، والمؤمن برسوله الكريم ﷺ، المعتقد بالبعث والحساب يوم القيامة، ودخول الجنة أو النار، كانت بناءً للأواصر القوية بين الجماعة المسلمة الصغيرة جداً، كانت فترة تجنب للاستئصال قدر المستطاع، فمرة عن طريق التخفي، ومرة أخرى عن طريق تجنب الصراع بكل وسيلة ممكنة، ومرة عن طريق الهجرة، فالهجرة إلى الحبشة كانت مرتين، والثالثة كانت للمدينة المنورة، أما فترة المدينة المنورة فكانت فترة بناء للأمة الإسلامية بكل ما تعنيه الكلمة، فإذا كنا في فترة مكة نبني أفراداً، ففي فترة المدينة المنورة نبني دولة كاملة قوية بكل ما تحتاجه الدولة من مؤسسات. وهذه القضية شاقة عسيرة، لكن بدأها الرسول ﷺ بصبر، وبدأ معه المؤمنون في هذا البناء الكبير.

هذه قضية بناء أمة بكل الأصول والتفريعات، فنحن عندما نريد تأسيس شركة كبرى من لا شيء أمر صعب، فكيف ببناء أمة؟! إن قصة البناء هذه من معجزات الإسلام؛ لأنه لم تقم أمة في هذا التوقيت بهذا المعدل السريع والبناء القوي والعمق الحضاري المذهل إلا في أمة الإسلام، فبعض الدول قامت بسرعة، لكنها سرعان ما وقعت، ولم تترك خلفها أي تراث حضاري يُذكر، فعندما تريد المقارنة بين قيام أمة الإسلام وبين قيام أمة التتار تجد أن أمة التتار أيضاً قامت بسرعة، وانتشرت انتشاراً هائلاً في الأرض، لكن أين تراث التتار الآن؟ أين الميراث الحضاري لهذه الدولة؟ انتهت بالكامل، بل على العكس دخلت دولة التتار التي كانت تحتل مساحات شاسعة من العالم الإسلامي في الإسلام؛ لأن دين الله عز وجل يختلف كلية عن

كل قوانين البشر الوضعية، دين غالب قاهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

لا شك أن بناء هذه الأمة واجه تحديات هائلة، تحديات داخل المدينة المنورة وخارج المدينة المنورة، داخل الجزيرة العربية وخارج الجزيرة العربية، تحديات في كل جوانب الحياة، سلاسل متتالية من الصراع، ومن أزمة إلى أزمة أخرى، ومن مشكلة إلى مشكلة أكبر، ومع ذلك تم بناء الأمة الإسلامية.

هذه ليست حكمة بشرية فقط من رسول الله ﷺ، مع أنه أحكم البشر وأعلم الخلق ﷺ، لكن هذا وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، فهو منهج إلهي صادق بنى الأمة بهذا الإعجاز الواضح وبهذا التوقيت المعجز، ففي غضون عشر سنوات فقط أصبحت دولة المدينة المنورة دولة معترفاً بها في العالم، لها قوة، ولها مكانة، ولها سفراء، ولها مراسلات إلى كل بقاع العالم، ولها لقاءات حربية صارمة وقوية مع قوى العالم في ذلك الوقت.

تجربة رائعة حقاً تستحق الدراسة، بل تجب دراسة هذه التجربة، هذا هو الدين الإسلامي حقيقة، الدين الإسلامي ليس مجرد صلاة وصوم وقيام ليل وذكر، الدين الإسلامي منظومة متكاملة تحكم حياة الأفراد والمجتمعات، بل وحياة الأرض بصفة عامة، إذ يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:162] فقد تعلمنا في فترة المدينة المنورة كيف يكون المحيا لله عز وجل في كل جزئية من جزئيات الحياة.

فترة مكة كان أيضاً يطبق على المسلمين، لكن المسلمين لم تكن عندهم تشريعات ولا دولة، ولم تكن عندهم سياسة واقتصاد وقضاء، هذه الأمور لم تكن واضحة تمام الوضوح؛ لأن المسلمين

كانوا عبارة عن جماعة صغيرة جداً مضطهدة ومعذبة ومشردة، لكن الدستور الإسلامي وضح تمام الوضوح في فترة المدينة المنورة، ومع كون المحلل للأحداث يجد أن فترة بناء الأمة تبدو في ظاهرها أصعب من فترة مكة التي هي بناء الأفراد، إلا أنني أقول: إن الفترتين كانت على مستوى واحد من الأهمية تقريباً، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هناك أمة إسلامية قوية بغير تربية مكة، ولن تفهم فترة المدينة مطلقاً بدون الرجوع إلى فترة مكة.

الأسس التي بنى عليها رسول الله ﷺ الأمة الإسلامية

تربية مكة كانت الأساس للصرح الضخم الذي بُني بعد ذلك في المدينة المنورة، والأساس الذي يبني فوقه عشرات الأدوار لا أحد يراه، إلا العالمين ببواطن الأمور، فلو أتيت أحد المهندسين فإنه يستطيع أن يخبرك بعمق الأساس ومساحته وقوته، وأيضاً كم يستطيع أن يبني فوق العمارة التي بُنيت، فلو كان الأساس ضعيفاً فإن البناء ينهار عند أول هزة، قد تجده يقف أمامك فترة من الزمن، لكن أول زلزال ولو كان يسيراً قد يجعل البناء ينهار بالكلية، وما أكثر ما رأينا دولاً وأحياناً تكون دولاً إسلامية تنهار؛ لأن الأساس كان ضعيفاً، والتربية كانت ضعيفة، وما أحداث طالبان منا ببعيد، ما نشك في نياتهم وفي أخلاقهم وفي عبادتهم، لكن البناء كان ضعيفاً، والتربية كانت ضعيفة؛ فحدث هذا الانهيار المروع وفي فترة قصيرة؛ لأنه لم تُدرس سيرة الرسول ﷺ دراسة متأنية منهم، أو ممن وقع من أمثالهم في حلقات التاريخ المختلفة.

إلى كل العاملين على الساحة الإسلامية أقول: دراسة السيرة ليست ترفاً فكرياً، إنما هي فريضة على كل من أراد أن يعز هذه الأمة وأن يشارك في بنائها.

ما هو الأساس الذي وضعه الرسول ﷺ لبناء الأمة الإسلامية، وحرص على تقويته في فترة مكة المكرمة؟ ما الذي نأخذه من فترة مكة لندخل فترة المدينة؟

شهادة أن لا إله إلا الله والعمل بمقتضاها

جعل الرسول ﷺ من أول يوم ثلاثة أسس رئيسية للأمة الإسلامية: الأول: الإيمان به وتعظيمه واليقين الكامل في قدرته وحكمته وأحقيته بالطاعة والخضوع، لا إله إلا الله، هذه كلمة عاش لها ﷺ فترة طويلة من الزمان، من أول البعثة إلى أن مات ﷺ وهو يزرع في الناس هذه الكلمة الموجزة جداً، التي توضح معنى عبادة الناس لرب العالمين سبحانه وتعالى، كان يمشي وسط المشركين في مكة المكرمة ويقول لهم: (قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا: لا إله إلا الله تملكوا العرب والعجم)، فنجاة البشر بصفة عامة في الدنيا بقول لا إله إلا الله، ونجاة البشر يوم القيامة بقول لا إله إلا الله.

لكن ليس المقصود أن تقولها باللسان، فجميعنا يقول: لا إله إلا الله، من منا في حياته يطبق قول لا إله إلا الله؟ هل كان ينكر العرب أن الله عز وجل هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي خلق البشر؟ أبداً: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف:9]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف:87] هذا اعتراف من الجميع، لكن المشكلة الرئيسة أنهم حكَّموا غير الله عز وجل في حياتهم، عبدوا الله عز وجل ظاهراً وطبقوا شرع غيره في كل جزئية من جزئيات حياتهم؛ لذلك كانوا من الكافرين، وخسروا الخسران المبين؛ من أجل عدم تطبيق كلمة لا إله إلا الله في حياتهم، والذين قالوها هم الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ملكوا العرب والعجم كما وعدهم ﷺ: (قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا: لا إله إلا الله تملكوا العرب والعجم). يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف:54] الناس جميعاً تعترف أن الخلق لله، ما ادعى بشر قبل ذلك وإلى الآن وإلى يوم القيامة أنه يخلق، فالجميع يعترف أن الخلق قوة خارجة عن إرادة

البشر وقدرتهم، وهذا يحيلنا جميعاً إلى الله عز وجل أنه هو الذي خلق، لكن من الذي يأمر؟ {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف:54].

لا إله إلا الله تقتضي أن تطيع الله عز وجل، إن هذا الكلام ليس بالسهل، بل كثيراً ما يتعارض مع مصلحتك في الظاهر، والشرع كله مصلحة؛ واتباع شرع ربنا سبحانه وتعالى يحقق لك المصالح في الدنيا والآخرة، لكن عين الإنسان القاصرة أحياناً لا ترى الخير، ولا ترى الحق والصواب في أمر من الأمور، وتظن أن اختيارها أفضل مما اختاره رب العالمين سبحانه وتعالى لها، وهذا ضعف إيمان، فلابد أن تؤمن إيماناً يقينياً بقدرة رب العالمين سبحانه وتعالى على أنه يختار الاختيار الأفضل لك ولأمتك، سواء في زمان الرسول ﷺ أو في زماننا، أو إلى يوم القيامة في كل مكان في الأرض؛ لأن هذه حقائق ثابتة، والإنسان إذا كان عنده تردد في هذا المعنى فهذا ضعف إيمان؛ ولهذا مكث الرسول ﷺ 13 سنة كاملة من مجموع 23 سنة من البعثة كلها يزرع هذا المعنى فقط، ويركز تركيزاً كاملاً على معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله.
رسول الله ﷺ ظل يعمل من أجل لا إله إلا الله فترة طويلة جداً من الزمان، وحرص في فترة المدينة المنورة على تأكيد هذا المعنى حتى مات ﷺ، فالأصل الأول الذي لا تُبنى أمة الإسلام إلا به: لا إله إلا الله؛ شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ والعمل بمقتضاها

الإيمان أن محمد ﷺ رسول الله

الأساس الثاني هو الإيمان الكامل والجازم أن محمداً ﷺ رسول بعثه رب العالمين سبحانه وتعالى برسالة منه إلى البشر عامة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:107]. يقول رسول الله ﷺ: (ألا إن ما حرمت مثل الذي حرم الله) تماماً بتمام؛ لأن السنة وحي من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، والقرآن وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى. لو كان الناس لا يفهمون معنى أن الرسول ﷺ رسول من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، وظنوا أنه مجرد

رجل حكيم أو عبقري أو سياسي قدير أو كذا من الأمور، لأخذوا من كلامه وردوا حسب ما أرادوا، لكن الذي أراد ﷺ أن يزرعه في فترة مكة المكرمة أن ما يقوله هو وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، سواء كان كلام رب العالمين القرآن، أو كان وحياً وعبّر عنه ﷺ بالمعنى، سواء الحديث القدسي أو الحديث النبوي كما نعلم جميعاً.

الإيمان الجازم باليوم الآخر

الأساس الثالث هو الإيمان الجازم بأن هناك بعثاً يوم القيامة، وأن هناك حساباً من إله قدير عليم حكيم، يثيب المحسن بالجنة، ويعاقب المسيء بالنار. هذا ما قاله ﷺ عندما وقف على جبل الصفا يدعو المشركين جميعاً إلى الإيمان برب العالمين سبحانه وتعالى. قال: (والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن على ما تعلمون، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً).

الآثار المترتبة على الإيمان بالشهادتين واليوم الآخر

هناك أمور أخرى كثيرة قام بها الرسول ﷺ منها: تقوية الأواصر بين المسلمين، زرع الأخلاق الحميدة، وتنمية روح التسامي والتضحية عند المسلمين، والبذل والعطاء، لكن لن تتحقق هذه الأمور كلها إلا إذا آمنت أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن هناك بعثاً يوم القيامة إيماناً يقينياً جازماً. قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام:57].

هل نستطيع أن نفهم تطبيق شرع الله في حياتنا من غير أن نفهم هذه الأصول أو الأسس الثلاثة؟ في فترة المدينة المنورة جاءت تشريعات وقوانين كثيرة جداً، ولن يطبق هذه القوانين إلا من رُبِّي تربية صادقة صحيحة في فترة مكة المكرمة، أو تربى في المدينة المنورة على هذه الأصول الثلاثة المهمة. فإن كان الإيمان ضعيفاً كان الانسياق للقانون الذي أتى من عند رب العالمين

عن طريق رسول الله ﷺ ضعيفاً أيضاً، ومن ثم كان بناء الأمة الإسلامية ضعيفاً، والدستور الإسلامي هو أحكم قانون عرفته الأرض؛ لأنه من عند رب العالمين سبحانه وتعالى الذي يعلم ما يصلح العباد وما ينفعهم؛ لهذا كان اختياره لنا دائماً أفضل من اختيارنا لأنفسنا، والمسألة مسألة إيمان ويقين كما ذكرنا، إلا أن فلسفة الحكم في الإسلام لا تعتمد فقط على دقة القوانين وإحكامها، ولا تعتمد على مهارة الحاكم وحسن إدارته، بل تعتمد أيضاً على الشعور الدائم من المسلم بأنه مراقب من رب العالمين سبحانه وتعالى، وليست فقط رقابة ظاهرية، بل رقابة للباطن أيضاً: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} [آل عمران:29].

ويصف ربنا سبحانه وتعالى نفسه بقوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر:19]. ونتيجة هذه المراقبة سيكون الحساب يوم القيامة ثم الجنة أو النار، ومن ثم الأمة التي تؤمن بالله لا تخالف الدستور أو القانون الإلهي حتى في غياب عين الحاكم، أو حتى في غياب المدير أو الشرطي، وما ذلك إلا لأنها تعلم أن الله عز وجل يراقبها. هذه هي فلسفة الحكم في الإسلام، لو أحسن المسلمون فقه هذه الفلسفة لكانت أمة الإسلام هي أكثر الأمم انضباطاً في تنفيذ قوانينها. ولو أضفت إلى هذا حقيقة أن القانون الإسلامي هو أفضل قانون في الأرض بلا منازع؛ فإن هذا يفرز أفضل أمة بكل المقاييس؛ ولهذا ربنا سبحانه وتعالى يقول: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:110] فأنتم خير أمة وقانونكم هو خير القوانين، واتباعكم للقانون خير الاتباع، هذا إذا كان الناس يفهمون حقيقة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وأن هناك بعثاً يوم القيامة.

فإذا رأيت في فترة من الفترات أو في مكان من الأمكنة أن أمة الإسلام ليست خير الأمم في الأرض، فاعلم أن هذا نتج من مخالفة المسلمين، إما بترك أجزاء من القانون، وإما بسوء التربية الذي يفرّغ القانون من روحه ومعناه، فيتحايل عليه المسلم ناسياً أن الله يراقبه؛ وما ذلك إلا

لضعف إيمان، لو حصل هذا ستجد الفساد في أمة الإسلام، وستجد الرشوة والتزوير لإرادة الشعوب، وستجد التدليس على الناس، والكذب والبهتان والفواحش والمنكر، ستجد انهياراً كاملاً لكل فضيلة وخلق ومعروف؛ وذلك لأن القانون تفرّغ من روحه، فالناس لا يعرفون أن هذا وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن الله عز وجل يراقبهم في كل صغيرة وكبيرة.

خلاصة لما سبق لن تكون للمسلمين أمة ودولة بغير تربية مكة، تربية الإيمان بالله عز وجل، والإيمان برسوله الكريم ﷺ، والإيمان باليوم الآخر، تربية الصبر والثبات والتضحية والتجرد والإخلاص الكامل لله رب العالمين سبحانه وتعالى.

بداية العهد المدني بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه

وقفنا في محاضرات مكة المكرمة على أمر الهجرة، وأن الرسول ﷺ هاجر هو وكل المسلمين الذين يستطيعون الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وعند دخولنا المدينة المنورة لفت الأنظار مباشرة رد فعل الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم لدخول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، كان فرحاً شاملاً في كل المدينة المنورة، فقد استقبلوا الرسول ﷺ بالأناشيد والأهازيج كما تعلمون جميعاً: (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) إلى آخر الكلمات التي كان يقولها الأنصار بحب حقيقي وفرح فطري في داخلهم، وهذا الفرح بتحمل المسئولية أمر غريب يحتاج منا إلى وقفة، فشتان بين من يبحث عن الدعوة ومن تبحث الدعوة عنه، وشتان بين من يبحث عن الجهاد ومن يبحث الجهاد عنه، وشتان بين من يبحث عن التضحية ومن تبحث التضحية عنه، فالأنصار كانوا يبحثون عن الدعوة وخدمة الإسلام. ها هو الرسول ﷺ داخل المدينة المنورة، ودخوله هذا معناه خطير جداً، معناه: حرب الأحمر والأسود من الناس. معناه: مفارقة العرب قاطبة. معناه: العداء المستمر مع اليهود الذين يسكنون في داخل المدينة المنورة،

ولهم علاقات قديمة جداً مع الأنصار. معناه: تضحية وبذل وإنفاق وموت في سبيل الله عز وجل.

كان الأنصار يعرفون جيدًا هذه المعاني قبل أن يدخل الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة؛ لأنهم عاهدوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية على النفقة في العسر واليسر، وعلى السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على ألا تأخذهم في الله لومة لائم، وعلى أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، كل هذا في مقابل الجنة. ومستحيل أن يدفع أحد هذه الأشياء جميعها من غير أن يكون عنده إيمان يقيني جازم أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً ﷺ رسول الله، وأن الجنة حق، وأنه سيدخلها بهذه الأعمال التي قدمها من أجل الله عز وجل.

فرح الأنصار هذا يعبر عن طبيعة الأنصار التي سوف نراها بعد هذا في كل مراحل المدينة المنورة، في كل الفترات سواء في داخل المدينة أو في خارج المدينة، فكل الأحداث عطاء مستمر متواصل يعجب له الإنسان، ولا يفقهه إلا من يعلم أن الأنصار مؤمنون إيماناً يقينياً بالله عز وجل وبرسوله الكريم ﷺ؛ لذلك الرسول ﷺ يقول في حق الأنصار كلمات جميلة تُكتب بماء الذهب وبما هو أغلى من الذهب، يقول ﷺ في الحديث المتفق على صحته: (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار).

فإذا كنت تحب الأنصار فأنت مؤمن، وإن كنت تبغضهم فأنت منافق، فانظر كيف أصبح إيمان العبد بقدر وشرف الأنصار علامة من علامات صدق إيمانه، والذي لا يحب الأنصار يجب عليه أن يراجع نفسه، فهؤلاء الأنصار خرجوا فرحين جداً بتلقي كم هائل من المشاكل التي سوف تحدث في المدينة المنورة بعد دخول الرسول ﷺ؛ فرحين لأن هذا هو طريق الدعوة الذي سيوصلهم إلى الجنة، وأنتم تعرفون هذا من قبل، الطريق صعب لكن نهايته الجنة، وفرحهم

هذا كان فرحاً إيجابياً وليس مجرد فرح قلبي. مـن أول يـوم خرجـوا إليـه بالسـلاح، والخـروج بالسلاح فيه معنى التشريف لرسول الله ﷺ، وفي زماننا هذا الوقـت عنـدما نسـتقبل رئيسـاً أو شخصية كبيرة نستقبلها بالسلاح أو بما يسمى تشريفة السلاح هذا.

فهذا فيه تشريف لرسول الله ﷺ، لكن مع هذا فهو تطمين لقلبه ﷺ أنهم مـا زالـوا عـلى عهـد البيعة التي عقدوها معه قبل ذلك في مكة المكرمة بيعة العقبة الثانية، وهناك أعداء كثر في داخل المدينة المنورة وفي خارجها يتمنون قتل رسول الله ﷺ، كثير من المشركين موجـودون في داخـل المدينة المنورة، معظم أهل المدينة كانوا لا يزالون غير مؤمنين، وعندك أيضاً مشركو مكة الـذين استمروا في تتبع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة، ولم يفلت منهم ﷺ إلا عند دخولـه إلى قباء أول مواضع المدينة المنورة، وقلنا قبـل هـذا إن قبيلـة أسـلم اعترضـت الرسـول ﷺ قبـل دخوله إلى المدينة المنورة بقليل؛ بغية القبض عليه لتسليمه إلى قريش؛ لنيل الجائزة الكبرى التـي أعطتها قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ وهي مائة من النوق، وهو رقم ضخم في ذلـك الزمـان. الرسول ﷺ يواجه مخاطر كثيرة داخل المدينة وخارجها، فالأنصار من أول لحظة يقولون: نحن معك بالسلاح، ونحن مستعدون أن نفديك بكل ما نمتلك من أموال وأرواح وكل شيء.

كان هذا وضع الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم، واستقبالهم الحافل برسول الله ﷺ اسـتقبال مشرف حقيقة، ينبئ ويخبر عن طيب وحسن طبيعة الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقفة مع لحظة التمكين لرسول الله ﷺ

قبل أن نعرف ما الذي عمله الرسول ﷺ في المدينة المنورة، أريد أن أقف وقفة وأقول: إن لحظة التمكين قد تكون قريبة جداً، راجع معي الفترة التي سبقت الهجـرة إلى المدينـة المنـورة بـثلاث سنوات. قبل ثلاث سنوات من الهجرة كان عام الحزن الـذي مـات فيـه أبـو طالـب والسـيدة

خديجة رضي الله عنه وأرضاها، وأظلمت مكة تماماً، وأُغلق فيها باب الدعوة، حتى اضطر الرسول ﷺ لأول مرة في تاريخه أن يخرج من مكة المكرمة سعياً وراء إيصال الدعوة إلى غيرها؛ لأنه لم يجد أحداً في مكة المكرمة سيؤمن في تلك اللحظة، وخرج ﷺ في مشوار طويل شاق جداً إلى الطائف، وتعلمون جميعاً ما حدث في الطائف، وخرج منها ﷺ وقد رُمي بالحجارة وأُلقي التراب فوق رأسه وسُب بأقبح الألفاظ، ودخل مكة بعد ذلك في جوار مشرك وهو المطعم بن عدي، والمحلل للوضع يجد أنه من المستحيل حقاً في عرف أهل الدنيا وفي حسابات المادة أن تقوم لرسول الله ﷺ ولمن معه من المؤمنين المضطهدين المشردين المعذبين في داخل مكة المكرمة دولة، ولو بعد عشر أو عشرين أو ثلاثين أو مائة سنة.

راجع مرة أخرى الفترة المكية لتعرف صعوبة هذه الفترة، لا يوجد فيها أي أنصار من أي نوع، رفضت مكة الإيمان، ورفضت الطائف الإيمان، ورفضت كل القبائل التي أتت في العام العاشر والعام الحادي عشر من البعثة جميعاً الإيمان بالله عز وجل وبرسوله الكريم ﷺ، ولم يقبل من كل الذين دعاهم ﷺ الإيمان إلا ستة من الخزرج في آخر العام الحادي عشر من البعثة، كانت هذه الأحداث قبل الهجرة بسنتين، وفي غضون سنتين أصبح الرسول ﷺ قائداً لدولة، ومع أن الدولة بُقعة صغيرة لا تُرى على خريطة العالم في ذلك الوقت في المدينة المنورة، لكن أصبحت له دولة وأصبح ممكناً وزعيماً، وأصبح الجميع يسمع له ويطيع.

سبحان الله! حصل هذا بدون أي نوع من الشواهد، لم نكن نرى أي شاهد، لكن إذا قارنت هذا الوضع بما نحن عليه الآن في عصرنا هذا فإنك ستجد أن الشواهد لإقامة الأمة الإسلامية كثيرة جداً، راجع ثلاثين سنة أو أربعين سنة مضت كيف كان وضع المسلمين ووضعهم حالياً بفضل الله؟ كم من الناس يصلون الآن في المساجد؟ ففي الستينات لم يصل من الناس في المساجد إلا عدد قليل نادر، وتجد المصلي كبيراً جداً في السن، وانظر الآن إلى المساجد بحمد

الله، فإنك ستجد عدد المصلين هائلاً وبالذات من الشباب. كم من المحجبات والملتزمات بالزي الشرعي؟ كم من الدعاة أصحاب الفهم الصحيح الشامل للإسلام انتشروا في بقاع الأرض بكاملها؟ كم من الهيئات تتبنى الآن شئون الإسلام؟ بل انظر إلى كم من المتسلقين الراغبين في السيطرة على أفكار الناس يلوحون بالإسلام وينافقون المسلمين؟ فمن ثلاثين إلى أربعين سنة لم يكن هناك شيء اسمه نفاق للإسلام؛ لأن الإسلام كان ضعيفاً، أما في هذا الوقت فإن الجميع ينافق المسلمين، وإذا رأيت الرجل ينافق الإسلام أو ينافق المسلمين فاعلم أن الإسلام قوي وقاهر، وأن له حضوراً وهيبة وعظمة في قلب هذا الذي ينافق؛ ولذلك ينافقه، وبفضل الله الآن لو راجعنا قلوب ومشاعر العالم الإسلامي بصفة عامة تجد فيها انسياقاً طبيعياً فطرياً للإسلام. أيضاً عند الانتخاب مثلاً تجد الناس يختارون من رفع لواء الإسلام وشعاره، وإن كانوا لا يعرفون اسمه؛ وذلك لأنه يتبنى الفكر الإسلامي الذي يحبه الناس، فهذه كلها علامات وشواهد على قرب قيام الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية بإذن الله. أما أيام الرسول ﷺ فلم يكن هذا موجوداً في فترة عام الحزن ولا في العام الذي تلاه، ومع ذلك قامت الأمة الإسلامية، وأقيمت دولة إسلامية تقيم شرع الله عز وجل في غضون ثلاث سنوات فقط.

الأعمال النبوية التي قام بها ﷺ بعد وصوله إلى المدينة المنورة

لابد أن تركز على الترتيبات النبوية بعد وصوله ﷺ مشارف المدينة، أول شيء فعله كذا ثم كذا ثم كذا، فهذا الترتيب مقصود، وكل الإشارات في حياته ﷺ لها معنى، بل كل حركة وسكنة في حياته كانت بتوجيه ومراقبة من رب العالمين سبحانه وتعالى، حتى اختياراته البشرية ﷺ التي كانت لا تتوافق مع ما يريده رب العالمين سبحانه وتعالى؛ كان ينزل جبريل عليه السلام مباشرة

ليعدل المسار للرسول ﷺ، وليوضح لهم مراد رب العالمين سبحانه وتعالى من هذه النقطة، فأصبحت السيرة النبوية من أولها إلى آخرها بوحي وتأييد من رب العالمين سبحانه وتعالى.

ولا وصول إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا باتباع خطوات الرسول ﷺ، وبالترتيب الذي فعل ﷺ.

بناء مسجد قباء وبعده المسجد النبوي وأهمية ذلك

أول الخطوات إنشاء مسجد قباء، فقد ظل ﷺ في قباء أسبوعين تقريباً، وانتقل بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وسنرجع إلى النقطة هذه بعد قليل. في المدينة المنورة استُقبل الرسول ﷺ من الأنصار استقبالاً كبيراً جداً ومشرفاً مرة أخرى، بعد أسبوعين من انتقاله من قباء، وتسابق الأنصار جميعاً بشتى قبائلهم على استقبال الرسول ﷺ، وكان كل واحد من الأنصار يريد أن تأتي ناقته ﷺ إلى بيته، فكل فرد من الأنصار يريد أن يدخل النبي ﷺ عنده، لكن الرسول ﷺ قال كلمة أصبحت منهجاً لحياة الصحابة بعد ذلك، قال ﷺ: (دعوها فإنها مأمورة).

أي: دعوا الناقة فإنها مأمورة من رب العالمين سبحانه وتعالى، وأنا أيضاً مأمور، والمؤمنون جميعاً مأمورون: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا} [الأحزاب:36] فالرسول ﷺ لا يستطيع أن يختار إذا كان الله هو الذي يختار له أمراً من الأمور، وكأن الرسول ﷺ يقول: قد أجلس في بيت فلان أو بيت فلان، أو بيت أقربائي من بني النجار، أو بيت صحابي كبير، أو أحد ممن أحبهم، لكن إذا أمر الله عز وجل فلا مجال للهوى ولا مجال للاختيار، فالذي يأمر الناقة هو رب العالمين سبحانه وتعالى، وعلينا جميعاً أن نسمع ونطيع؛ هكذا علمهم بوضوح، وكان من الممكن أن ينزل الوحي ليقول للرسول ﷺ: انزل في بيت فلان، أو ضع المسجد في

هذا المكان الفلاني، لكن هذا المشهد العلني أمام الجميع، والجميع يتسابق لاستقباله ﷺ، وهو يخرج نفسه تماماً من الاختيار ويجعل الاختيار الكامل لرب العالمين، هذا المشهد زرع معنى مهماً جداً، سيظل معنا طول فترة المدينة المنورة، وما أكثر التشريعات والأحكام التي نزلت في المدينة المنورة، وقد لا يفقهها عامة الناس، وقد لا يدركون الحكمة من وراء الأمر، ومع ذلك عليهم أن يسمعوا ويطيعوا لله رب العالمين، وبركت الناقة في مكان معين في المدينة المنورة، وفي هذا المكان قرر الرسول ﷺ أن يبني المسجد النبوي، فأول شيء فعله ﷺ في قباء هو بناء المسجد، وأول شيء فعله في المدينة المنورة بناء المسجد النبوي، وفعله هذا ليس مصادفة أو إشارة عابرة، بل هو منهج أصيل فلا قيام لأمة إسلامية بغير تفعيل لدور المسجد؛ فالمساجد في هذا الوقت كثيرة، لكن كثيراً منها غير مُفعّل كمسجد، مخطئ من ظن أن المسجد لم ينشأ إلا لأداء الصلوات الخمس فقط، بل في بعض الدول الإسلامية يُقفل المسجد مباشرة بعد الصلاة، وكأن دوره الوحيد هو الصلاة فقط.

إن دور المسجد في بناء الأمة الإسلامية أعمق من ذلك بكثير، وليست أهمية المسجد في حجمه أو شكله أو زخرفته أو قص الشريط لفتحه، هذه كلها شكليات فارغة لا قيمة لها، والرسول ﷺ كان ينهى عن هذه الشكليات، وكان ينهى عن المبالغة في تزيين المساجد، وكان يقول: (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد) هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل رحمه الله وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان عن أنس رضي الله عنه وأرضاه، ولفظ ابن خزيمة: (يأتي على الناس زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلاً)، تجد المساجد ضخمة وكبيرة جداً وتجد فيها صفاً أو صفين! وقال ﷺ: (ما أُمرت بتشييد المساجد) والتشييد: رفع البناء زيادة عن الحاجة، وقال في رواية أبي داود: (لتزخرفنها

كما زخرفت اليهود والنصارى)، نهتم بالشكليات كالرخام والزخارف وما إلى ذلك، ولا نهتم بالتربية داخل المسجد.

والمسجد في حياة الأمة له أدوار في غاية الأهمية، من ذلك: الحفاظ على إيمان المسلمين، فالأساس الرئيس الذي اجتهد ﷺ في زرعه في صحابته هو الإيمان بالله عز وجل، والمسجد كما يظهر من اسمه هو مكان للسجود لرب العالمين سبحانه وتعالى، للرضوخ الكامل له، والطاعة المطلقة لكل أوامره فمن الصعب جداً أن يجلس المسلمون في بيت الله عز وجل؛ ليأخذوا قراراً أو يعتمدوا رأياً، ثم هم يخالفون ما أراده الله عز وجل منهم، والمسجد مكان يحفظ على المسلمين دينهم؛ ولهذا كانت حياة المسلمين تدور في مجملها حول محور المسجد، فالصلاة في المسجد لا ينبغي التخلف عنها إلا في ظروف ضيّقة ومحدودة؛ لأن المسجد مكان لالتقاء المسلمين وتقوية للأواصر بينهم، فعدم الحضور لصلاة الجماعة في المسجد عمل لا يقوي الأواصر بين المسلمين، فأنت إذا كنت تحافظ على الصلاة خم

كيفية بنائه ﷺ للمسجد النبوي

وقف ﷺ مع صحابته جميعاً يبنون المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وفي بناء هذا المسجد دروس لا تُحصى؛

أولاً: البساطة في البناء، والاهتمام الكامل بالجوهر لا بالشكل. كان المسجد مبنياً من اللبن والجريد، ومع ذلك أخرج عمالقة حكموا العالم بعد ذلك، وكان الجميع يتمنى أن يحمي الرسول ﷺ ويفديه بنفسه وروحه، وأن يفديه من كل تعب أو نصب، ولكن الرسول ﷺ نزل بنفسه مع الصحابة ليبني المسجد ويأخذ معهم التراب، وينقل معهم الحجارة، ويقيم الأعمدة، ويخطط للمسجد، وهذه من أبلغ الوسائل لتربية الشعوب.

ثانياً: المشاركة الحقيقية والمعاناة الكاملة مع الشعب، وسنجد هذه النقطة معنا في سيرته ﷺ كاملة، ففي بدر تجده يقاتل بنفسه ﷺ، وفي أحد كذلك، وفي حفر الخندق يحفر معهم، وفي السفر والحضر معهم في مشاكلهم وأفراحهم وخلافاتهم، معهم في كل أزمة وفي كل لحظة، معهم حتى إلى القبور، فأي واحد منهم يموت يحرص ﷺ على الذهاب معه إلى قبره، فمن أول ما بدأ أخذ يربي إلى أن مات ﷺ، وهكذا مع عموم شعبه ﷺ، فمهما كان الإنسان بسيطاً أو فقيراً أو من قبيلة أخرى أو من لون آخر أو من جنس آخر، فكل المسلمين عنده سواء، وهو ﷺ واحد منهم، وهكذا كان زعماء الأمة في زمان قوة المسلمين.

فهذه أسس رئيسة لبناء الأمة الإسلامية، وما نتحدث عنه الآن في إيجاز يحتاج إلى تفصيلات كثيرة جداً، وتأصيل في داخل الأمة الإسلامية لترفع رأسها من جديد.

كيفية بناء بيت النبي ﷺ في المدينة

هناك موقف لطيف حصل من الرسول ﷺ بعد قرار بناء المسجد في هذا المكان، أنتم تعرفون أن الرسول ﷺ قال عن الناقة: (دعوها فإنها مأمورة)، وبذلك حُدد مكان المسجد النبوي، وفي هذا الوقت لم يكن النبي ﷺ قد سكن المدينة المنورة، ولم يبن له بيتاً، فأين يسكن ﷺ؟ قال: (أي بيوت أهلنا أقرب؟) لم يبحث ﷺ عن أفخم بيوت المدينة أو أقربها إلى قلبه، لكن قال: (أي بيوت أهلنا أقرب؟) أياً كانت هذه الدار، فكل ديار المسلمين داره ﷺ، بغض النظر عن أصولهم أو عرقياتهم أو عن قبائلهم، فقد يكون المسلم الباكستاني أو السوري أو الإندونيسي أو الأمريكي أقرب إلى المسلم من أخيه الذي يربطه النسب به ولا يشترك معه في العقيدة، وما أبلغ ما قاله رب العالمين سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود:46] سبحان الله! ابنه ليس من أهله؛ لأنهما مختلفان في العقيدة، وها هو الرسول ﷺ يبحث عن أقرب بيوت أهله، مع أن الرسول ﷺ من قريش، وهؤلاء من الأوس والخزرج، وأقرب بيت

كان هو بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وفيه مكث الرسول ﷺ، وحدثت فيه أحداث لطيفة لا يسمح المجال بتفصيلها. استقر الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري، وظل فيه فترة من الزمن إلى أن بُني له بيت، وعندما نقول: بيت، فهذا مجاز، فالرسول ﷺ بُني له حجرة بسيطة جداً وصغيرة تفتح على المسجد، وكان كل زوجة من زوجات الرسول ﷺ لها حجرة واحدة، وفي هذه اللحظة التي أتى فيها إلى المدينة المنورة لم يكن متزوجاً إلا بالسيدة سوده بنت زمعة رضي الله عنها وأرضاها، فكانت له حجرة واحدة، وكان قد عقد على السيدة عائشة رضي الله عنها، لكن لم يبن بها بعد.

ويبدأ الرسول ﷺ في بناء دولة لا تحكم المدينة فقط، بل تحكم دولة مؤهلة لقيادة الأرض بكاملها، ولهز عروش ضخمة وممالك عظمى من هذا البناء البسيط الصغير. إن المسجد النبوي البسيط الذي بُني في ذلك الوقت لا شك أنه مجهود هائل، ولا شك أنه في ظن كثير من الناس حلم بعيد المدى ومستحيل، لكن سبحان الله! هذا الحلم تحقق وبخطوات معروفة وثابتة.

لابد لنا أن نتعرف على خطوات الرسول ﷺ: الخطوة الأولى سبق وأن قلناه: إنها خطوة الإيمان الحقيقي اليقيني بالله عز وجل، وهذه بنيت في مكة وأول قدومه إلى المدينة ﷺ، فقد حرص ﷺ على التأكيد عليها، وعلى زرع معناها من جديد في المسجد النبوي ومسجد قباء.

الطوائف الموجودة في المدينة المنورة وخارجها وكيفية تعامله ﷺ معها

أول شيء فعله الرسول ﷺ بعد بناء المسجد دراسة واقع المدينة المنورة بعد الهجرة إليها؛ من الذي يعيش في المدينة المنورة؟ من حول المدينة المنورة؟ من أصحاب المدينة المنورة؟ من يعادي المدينة المنورة؟ من يحايد المدينة المنورة؟ فالرسول ﷺ يبني دولة على أرض فيها الكثير من المتغيرات الهائلة، والمشاكل الضخمة، والأزمات الطاحنة. وهكذا تعددت الطوائف التي يجب

أن يتعامل معها رسول الله ﷺ من أول يوم هاجر فيه، وكل طائفة لها مشاكل خاصة وحسابات مختلفة وأزمات متشعّبة، ولها أولويات تختلف كثيراً عن أولويات الطوائف الأخرى. من هي الطوائف المختلفة، حتى نعرف كيف كانت حكمة الرسول ﷺ في التعامل مع هذه الطوائف المختلفة؟ هذه الطوائف تستطيع أن تقسمها إلى ثلاث مجموعات، وسوف تظهر بعدها مجموعة رابعة خطيرة جداً في المدينة المنورة، لكن بعد سنتين من الهجرة إلى المدينة المنورة.

طائفة المسلمين

المجموعة الأولى من هذه الطوائف: مجموعة المسلمين، والمسلمون هؤلاء أكثر من نوع وطائفة: الطائفة الأولى: أهل المدينة الأصليون من المسلمين، الذين عُرفوا بعد هذا بالأنصار، هؤلاء كانوا طائفتين كبيرتين: الأوس والخزرج، وكانت هناك مشاكل كبيرة بين الطائفتين، وسننظر كيف تعامل الرسول ﷺ مع هذه المشاكل.

الطائفة الثانية: طائفة المهاجرين الذين فروا بدينهم من مكة إلى المدينة بغير زاد ولا مال ولا بيوت ولا أي شيء، وكان موقفهم حرجاً جداً.

الطائفة الثالثة: طائفة المهاجرين إلى الحبشة، وعددهم كبير، وكان عددهم أكثر من 80 رجلاً وامرأة مع أولادهم وممتلكاتهم، وهم موجودون في الحبشة ولهم فيها سنوات.

الطائفة الرابعة: المسلمون في القبائل غير المكية الذين يعيشون في شبه استقرار، ولكن بعيداً عن المدينة المنورة كبعض المسلمين في اليمن، وبعض المسلمين في قبيلة غفار، وفي قبيلة أسلم، وفي غيرها من القبائل، فهم بعيدون عن المدينة المنورة، وليس لهم سند واضح في داخل المدينة المنورة، ومع ذلك هم في قبائلهم أعزة.

الطائفة الخامسة: طائفة المستضعفين في مكة، الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنورة؛ لضعفها وقلة حيلتها، كـ أم الفضل رضي الله عنها زوجة العباس بن عبد المطلب، والعباس لم يسلم بعد، وهي امرأة ضعيفة فكيف تهاجر بمفردها، ومعها ابنها عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه، وكان يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين في مكة، فلم يستطع أن يهاجر.

فهذه خمس طوائف من المسلمين، وعلى رسول الله ﷺ أن يضع حلاً وطريقة ومنهجاً لكل طائفة، وهي طوائف متباينة كما ترون، كل طائفة تعيش في ظروف لها خلفيات وتربية وأصول.

الوضع كان معقد جداً، وعلى الرسول ﷺ أن يحل كل هذه المشاكل، ويقيم دولة متجانسة من هذه الطوائف المختلفة من الناس. هذه أول مجموعة من الذين تعامل معهم رسول الله ﷺ.

طائفة المشركين

المجموعة الثانية: طائفة المشركين، وهذه المجموعة مختلفة تماماً، فقد فُرض عليه ﷺ أن يتعامل معها، ولم يعتقد أحد أن المدينة المنورة بعد أن هاجر إليها الرسول ﷺ سوف تمتلئ بالمسلمين، بل إن استقبال الأوس والخزرج للنبي ﷺ كان من قبل المسلمين، فهناك الكثيرون من الأوس والخزرج إلى هذه اللحظة لم يسلموا، ظلوا على شركهم، وظلوا يعبدون أصنامهم في وجود الرسول ﷺ.

أولاً: المشركون من الأوس والخزرج.

ثانياً: المشركون من الأعراب حول المدينة، وهي قبائل عاشت على السلب والنهب وقطع الطريق في معظمها، فهي قبائل خطيرة جداً لا تريد إلا المصالح والسرقة والنهب، فكيف سيتعامل الرسول ﷺ معها؟

ثالثاً: المشركون من القبائل الكبرى حول المدينة، فبعض القبائل الكبيرة الضخمة حول المدينـة مـا زالــت مشــركة، كيـف سـيتعامل معهـا الرسـول ﷺ؟ كقبيلـة جهينـة وقبيلـة مزينـة.

رابعاً: المشركون من قريش، ولا يظن أحد أن قريشاً ستنسى قصة الرسول ﷺ بمجرد الهجـرة، نعم، المسافة طويلة ما بين مكة والمدينة المنورة، والظـروف قاسـية، طريـق صـحراوي وعـر في ذلك الوقت، ومع ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217] فهذا أمر واضح أن قريشاً لن تنسـى القصـة، وبالفعل لم تنس قريش.

طائفة اليهود

المجموعة الثالثة مجموعة اليهود، واليهود معروف عنهم أنهم أهل غدر وخيانة، وهـم في ذلـك الوقت أهل قوة وسلاح وعتاد، فكيف سيتعامل معهم الرسـول ﷺ، خاصـة أنهـم لم يكونـوا حول المدينة المنورة، بل كانوا داخل المدينة المنورة، وهم ثلاث قبائل قويـة قبيلـة بنـي قينقـاع، وقبيلة بني النضير، وقبيلة بني قريظة؟ وليس هذا فحسب، فهناك في شمال المدينة المنورة قبائـل تعيش في منطقة خيبر ووادي القرى، وكلها قبائل اليهود.

فكيف سيتعامل الرسول ﷺ مع هؤلاء اليهود؟ أتراه يعاهدهم أم يحاربهم؟ هناك طرق مختلفـة جداً للتعامل كانت في حياة الرسول ﷺ، ولكل طريقة منها ظرف، فإن لم أكن أعرف الظروف التي من أجلها اختار ﷺ منهجاً معيناً في التعامل مع هذه الطوائف المختلفـة المتباينـة فـإني لـن أفهم السيرة جيداً؛ لذلك يجب الوقوف عند كل حدث من هذه الأحداث وتحليله بدقة، لكـي نعرف ما هي الأبعاد التي من وراء هذا الحدث؛ ومن أجلها أخذ الرسول ﷺ قراراً دون قرار.

فهذه المجموعات الثلاث مهمة جداً، تعامل معها رسـول الله ﷺ، وهـي: مجموعـة المسـلمين، ومجموعة المشركين، ومجموعة اليهود. وسوف تظهر لنـا بعـد سـنتين مجموعـة المنـافقين، لكـن سنؤجل الكلام عليها عندما نصل إليها.

نلخص الدروس المهمة جداً ؛ ، وهي كيف يمكن أن تُبنى أمة الإسلام؟

أولاً: الأصول الثلاثة:

لا إله إلا الله.

أن محمداً رسول الله ﷺ.

أن هناك بعثاً يوم القيامة، يحاسب فيه رب العالمين سبحانه وتعالى المحسن على إحسـانه بالجنة، والمسيء على إساءته بالنار.

ثانياً: تسابق المسلم إلى البذل وإلى العطاء، كما تسـابق الأنصـار رضي الله عـنهم وأرضـاهم إلى استقبال الرسول ﷺ، مع خطورة استقباله في داخل المدينة المنورة.

ثالثاً: المسجد ودوره في بناء الأمة الإسلامية واتساع الأفق عنـد المسـلم؛ لكـي يعـرف أن دور المسجد ليست في الصلاة فقط، وإنما له دور في كل نقطة من نقاط حياة المسلم.

رابعاً: المشاركة بين القائد والشعب، مشاركة الرسول ﷺ للمسلمين في كل صـغيرة وكبـيرة في حياتهم.

خامساً: رباط العقدية الذي وضحه ﷺ عندما قال: (أي بيوت أهلنا أقرب؟)، فـالرابط الـذي يربط المسلمين هو رباط العقيدة، وليس رباط القبيلة ولا اللون ولا الجنس ولا اللغـة ولا غـير ذلك من الأمور.

سادساً وأخيراً: فقه الواقع، لكي يعرف الرسول ﷺ كيفيـة التعامـل في داخـل المدينـة المنـورة صنف الناس كلهم إلى الطوائف التي تنتمي إليها، ومـن ثـم كـان تعاملـه ﷺ مـع كـل طائفـة مختلفاً.

16

مجتمع المـدينة

كيف تعامل ﷺ مع كل طائفة من الطوائف الثلاثة التي سبق ذكرها؟

أولاً: مجموعة المسلمين، وهذه أهم مجموعة عند الرسول ﷺ، فهي عصب الدولة الإسـلامية، فالمسلمون يقوم على أكتافهم الصرح الضخم الهائل: أمة الإسلام.

المؤاخاة بين الأوس والخزرج

أول طائفة من المسلمين طائفة الأوس والخزرج (الأنصار)، وهؤلاء هم أهل المدينة الأصليون الذين استضافوا الرسول ﷺ والمهاجرين رضي الله عنهم وأرضاهم في المدينة المنورة، وقـدموا تضحيات كبيرة جداً لإيواء المسلمين، مع كل المخاطر والمشاكل التـي قابلـت الأنصـار نتيجـة هذا العمل العظيم، فالأنصار في المدينة المنورة من الأوس والخزرج هما من أكبر القبائل العربية في ذلك الوقت.

كانت قبيلة الخزرج ثلاثة أضعاف قبيلة الأوس تقريباً، لكـن المشـكلة الكـبرى التـي واجهـت رسول الله ﷺ أن العلاقة بين القبيلتين قبل الإسلام كانت في منتهى الشراسـة والعنـف، فآثـار الدماء لم تجف بعد من سيوف هؤلاء وهؤلاء، وقد قامت بين الأوس والخزرج حرب مشهورة في التاريخ، يقال لها: يوم بُعاث، وكانت هـذه الحـرب قبـل بيعـة العقبـة الأولى بسـنتين فقـط،

فالمطلوب من الرسول ﷺ أن يوحد الأوس والخزرج في كيان واحد؛ يدافع عن المدينة المنورة ويحل مشاكلها، ويقف مع الرسول ﷺ في خندق واحد، يقف الأوسي بجانب الخزرجي، ولا يتذكر مطلقاً أي ثأر كان بينه وبين إخوانه من القبيلة الأخرى، وهذا شيء صعب جداً خاصة في هذه البيئة القبلية العربية القديمة.

اعتمد الرسول ﷺ اعتماداً كبيراً على صدق إيمان الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم في التأليف بين قلوبهم، فجمع الأوس والخزرج وذكرهم بالله عز وجل، ووضح لهم أن الرابط الأساسي بين المسلمين في هذا الدين الجديد الذي بعث به ﷺ هو رباط العقيدة، فكل رباط غير هذا الرباط لا ينظر إليه مطلقاً، وكما ذكرنا أن الرسول ﷺ قال: (أي ديار أهلنا أقرب؟)، يسأل عن ديار أهله من الأوس والخزرج، وكان فرع الرسول ﷺ بعيداً جداً عن فرع الأوس والخزرج، فقريش عدنانيون، والأوس والخزرج قحطانيون، وهما فرعان كبيران جداً، فإذا كان الرسول ﷺ وهو من قريش يعتبر أن الأوس والخزرج أهله، فما بالك بالأوس والخزرج الذين هم من فرع واحد، يقال له: بنو قيلة من القحطانيين؟ وهكذا ضرب الرسول ﷺ على هذا الوتر الحساس؛ ولصدق إيمان الأوس والخزرج تقاربت القلوب، سبحان الله! الإسلام يغير تماماً من تكوين الإنسان، ويغير من كل الدوافع التي كانت تحركه قبل ذلك، فيترك قوانين الأرض الوضعية المادية؛ لينتقل بعد ذلك إلى قانون السماء الرفيع، وهكذا نسي الأوس والخزرج تماماً كل الثارات القديمة، وتوحدوا مع رسول الله ﷺ في خندق واحد. هذه أول خطوة عملها الرسول ﷺ، وهي قبل خطوة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومعلوم أن الناس يعرفون قصة المؤاخاة، لكنهم لا يعلمون أن الرسول ﷺ جلس جلسة مهمة مع الأوس والخزرج؛ ليضع الأساس المتين لبناء الأمة الإسلامية قبل أن يؤاخي بينهم وبين المهاجرين.

وبهذا أول طائفة تعامل معها ﷺ هي طائفة الأوس والخزرج، وآخى بينها على أساس الدين.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

الطائفة الثانية: طائفة المهاجرين من مكة إلى المدينة، وكان وضعهم الاقتصادي في منتهى الخطورة، فقد تركوا أموالهم، وتركوا الديار والأهل والعشيرة، تركوا كل شيء، وانتقلوا إلى بلد جديد تماماً، وكثير من الذين هاجروا لم يزوروا المدينة المنورة قبل ذلك مطلقاً، وهذه أول مرة يخرجون فيها من مكة إلى المدينة. تخيل كيف أن شخصاً ترك كل حياته وأعماله وتجارته، وانتقل إلى حياة جديدة وليس معه شيء، وإلى أرض جديدة ليست مألوفة بالنسبة له، وإلى فرع من القبائل لا يمت إليه بصلة قريبة، أضف إلى كل ذلك أن المدينة المنورة كانت تعاني من الفقر، فالأنصار كانوا فقراء، ونحن نظن أن الأنصار أغنياء، وما ذلك إلا لكثرة عطائهم؛ فالإيثار الذي كان يتميز به الأنصار كان يعطيهم صبغة الأغنياء، لكن عموم الأنصار كانوا فقراء، والقلة منهم كانوا أغنياء، فكيف يؤتى بمجموعة من فقراء المهاجرين الذين تركوا كل شيء وراء ظهورهم، فتحمل المدينة المنورة عبئاً ضخماً بإيواء مجموعة أخرى من البشر، وهم لا يكادون يعيشون وينفقون على أنفسهم، فكيف ينفقون على غيرهم؟ فكيف يحل رسول الله ﷺ هذه المشكلة الضخمة؟ فهذه مشكلة اقتصادية كبرى ستواجه المدينة المنورة عند نزول المهاجرين إليها؟ الحالة النفسية أيضاً للمهاجرين كانت صعبة جداً، فالمهاجر قد ترك كل شيء وانتقل إلى المدينة المنورة، فهو يحتاج إلى تطييب الخاطر.

احتوى الرسول ﷺ هذه الأزمة بمنتهى الحكمة، وكل هذا كان بمنهج رباني إلهي، فالله عز وجل قد أنزل قرآناً في هذه الأمور، وأوحى إلى رسول الله ﷺ بأفعال وأعمال عملها وحدت المسلمين في كيان قوي وجميل جداً، ومعلوم أن الإنسان الذي يهاجر من بلده إلى بلد آخر يشعر بشيء من الذلة والضعف، ويحتاج إلى من يقول له: لا، أنت لست ذليلاً ولا ضعيفاً، بل أنت قوي عندما تركت بلدك وتركت كل شيء، وكان من الممكن أن يكون كل شيء معك ولا

تؤمن بهذا الدين الجديد، فأنت رجل معظم ومكرم ومقدم على غيرك، هكذا فعل الله عز وجل في كتابه الكريم، فقد أنزل آيات رفعت من قدر المهاجرين؛ فالمهاجر أصبح يفتخر بأنه مهاجر، والأنصاري أصبح يفتخر بأنه آوى مهاجراً، وانظر إلى كلام رب العالمين سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [آل عمران:195]، ويقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا} [الحج:58]، ويقول: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة:20] إلى آخر الآيات.

هذه الآيات وغيرها رفعت من معنويات المهاجرين، فهذا الشيء يدعو إلى الفخر فعلاً، بل نتج عنها تهيئة نفسية جميلة جداً للأنصار، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر:9] أي: فقر {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:9]. تسابق المهاجرون للهجرة، وتسابق الأنصار للنصرة رضي الله عنهم أجمعين، وهذا الأمر ليس موجوداً إلا في المنهج الإسلامي، وانظروا إلى حال اللاجئين في بقاع العالم المختلفة، فأي مجموعة من اللاجئين لأي ظرف من الظروف، سواء كانت ظروفاً عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك يمثلون عبئاً ثقيلاً على أهل البلد التي هاجروا إليها، بل اللاجئون أنفسهم يشعرون بذلة وضعف وهوان؛ لكونهم تركوا ديارهم وأرضهم وعشيرتهم وما يمتلكون، والدولة التي آوتهم تشعر بعبء اقتصادي ثقيل وسياسي، ينتج عن ذلك ضغوط عليها من هنا وهناك؛ وما ذلك إلا لأنهم ليسوا مرتبطين برب العالمين سبحانه

وتعالى، والأمر في النهاية يعود إلى الإيمان، فالإيمان من أهم أصول بناء الأمة الإسلامية، بل هو أهمها على الإطلاق.

قال سبحانه في سورة الأنفال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:74]، هؤلاء المهاجرون ثم يقول: {وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا} [الأنفال:74] هؤلاء الأنصار {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:74].

التهيئة النفسية للمهاجرين والأنصار

أول شيء عمله الرسول ﷺ بوحي من رب العالمين سبحانه وتعالى: أنه هيأ الأنصار والمهاجرين لقبول فكرة ترك الديار في مكة، والانتقال إلى المدينة المنورة، وهذا شيء صعب، لكن بفضل الله كانت قوة إيمان المهاجرين والأنصار كفيلة بأن تطبق هذا المعنى كما أراده رب العالمين سبحانه وتعالى. فهذا كان أول محور احتوى به الرسول ﷺ أزمة انتقال المهاجرين من مكة إلى المدينة.

المحور الثاني في غاية الأهمية؛ الكفالة السريعة للمهاجرين، فلابد لهذه الأعداد الضخمة التي دخلت المدينة المنورة أن تؤوى بصورة مناسبة، وأول شيء فعله رسول الله ﷺ لإيواء المهاجرين كان أمراً عجيباً غير متكرر في التاريخ، فهو ﷺ أول من بدأ هذا الأمر، ولا نسمع عنه إلا في أمة الإسلام، هذا الأمر هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والفكرة كانت عجيبة، جمع الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار في بيت أحد الأنصار، وبدأ يؤاخي بين كل مهاجري وأنصاري، وجعل الأخوة في كل شيء حتى وصل الأمر إلى الميراث، أي لو مات مهاجري يرثه الأنصاري والعكس كذلك، لكن هذا الحكم نسخ بعد ذلك، وأصبحت الأخوة في كل شيء إلا الميراث.

الكفالة السريعة للمهاجرين عن طريق المؤاخاة

كانت هذه المؤاخاة مؤاخاة حقيقية، وكان لهذا الأمر تطبيقات عملية كثيرة في حياتهم، ومن أشهر القصص في ذلك ما حدث بين سعد بن الربيع أحد كبار الأنصار رضي الله عنه، ومن شهداء أحد كما سنبين إن شاء الله في الدروس القادمة، وبين المهاجري عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه، والذي كان تاجراً في مكة، لكنه ترك كل شيء، وأتى المدينة المنورة بلا شيء. روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه وأرضاه: أن سعد بن الربيع رضي الله عنه قال لـ عبد الرحمن بن عوف: (إني أكثر الأنصار مالاً فسأقسم مالي نصفين).

كان سعد بن الربيع رجلاً غنياً عنده أموال كثيرة، ولو أعطى عبد الرحمن بن عوف 5٪ أو 10٪ من ماله فهذا كثير، ومع ذلك من تجرده وحبه لأخيه وشعوره الكامل بأن هذه أخوة في الله، قال: سأقسم مالي نصفين. ولكي تتأكد من صعوبة هذا الأمر تخيل نفسك أنك تفعل هذا الأمر، تخيل أحد إخوانك في أزمة، فأتيت برصيدك الذي في البنك إذ كنت غنياً، وقمت بتقسيم هذا المال بينك وبينه، هذا أمر شاق وصعب، لكن الأمر الثاني أصعب وأصعب، فقد قال سعد بن الربيع: (ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها).

سبحان الله! هذا أمر عجيب وغريب، لكن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه كان نبيل النفس، قال له: (بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟) يريد أن يعمل، ويخرج رزقه من تعبه وكده، خاصة أنه أحد التجار المشهورين في الإسلام، فدلوه على سوق بني قينقاع، وتاجر حتى كثر ماله. الشاهد في القصة أن المؤاخاة كانت حقيقية، ولم تكن هذه المؤاخاة فقط للإيواء المالي والاقتصادي والسكني للمهاجرين رضي الله عنهم وأرضاهم، ولكن كانت مؤاخاة في كل شيء، وكان الأخ يطمئن على أخيه في أمور الآخرة، كما كان يطمئن

عليه في أمور الدنيا، وقصة سلمان الفارسي رضي الله عنه مشهورة، وذلك عندما آخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي الدرداء رضي الله عنه وأرضاه وأبو الدرداء من الأنصار؛ وسلمان الفارسي ليس من العرب أصلاً، بل هو من الفرس رضي الله عنه وأرضاه، فانظر إلى عمق العلاقة التي كانت بين الاثنين، مع أن كل واحد منهما من أصل بعيد تماماً عن الثاني.

ثبت في صحيح البخاري: أن سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه زار أبا الدرداء في بيته، فرأى أم الدرداء متبذلة: وفي رواية: رثة الهيئة، فقال لها سلمان وكان ذلك قبل فرض الحجاب على المسلمات-: (ما شأنك؟) قالت: (أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا)، وفي رواية: ليس له حاجة في نساء الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له سلمان: (كل)، فقال أبو الدرداء: (إني صائم)، قال سلمان: (ما أنا بآكل حتى تأكل). قال: (فأكل).

وجد سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه مشكلة عند أخيه أبي الدرداء، وجده منصرفاً تماماً إلى العبادة والصيام والقيام وترك أهل بيته، وهذه مشكلة عائلية حقيقية في داخل بيته، ففرغ سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه وقته لإصلاح مشكلة أخيه، وبدأ يضبط عنده بعض المفاهيم التي كانت ستربك له حياته وأسرته، فجلس معه وأقسم عليه أن يفطر ويقطع هذا الصيام، فقد كان الصيام نفلاً، فقطع أبو الدرداء الصيام، وأكل مع سلمان الفارسي، فلما كان الليل -أي: أول الليل- أراد أبو الدرداء أن يقوم الليل كله، فقال له سلمان: (نم)، فنام، ثم ذهب ليقوم فقال -أي: سلمان – (نم)، فلما كان آخر الليل قام سلمان وقال له: (قم الآن)، فصليا من آخر الليل، وأراد سلمان أن يعطي له خلاصة درس تربوي فرغ نفسه لهذا الدرس أربعاً وعشرين ساعة، قال: (إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً)، وفي رواية الترمذي: (ولضيفك عليك حقاً)، (فأعط كل ذي حق حقه).

لم يقتنع أبو الدرداء رضي الله عنه وأرضاه تمام الاقتناع، فذهب إلى الرسول ﷺ يشكو سلمان إليه أنه جعله يفطر وجعله يقوم من آخر الليل فقط، فقال ﷺ: (صدق سلمان)، أي: ما قاله سلمان هو التوازن الذي يجب أن يكون عليه المسلم في حياته، وهو الحق والعدل.

الشاهد في ذلك أن سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه وهو فارسي كان أخاً لـ أبي الدرداء وهو عربي أنصاري، وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه يدخل بيت أبي الدرداء ، ويخاطب زوجته في حدود الإسلام، ويحل المشاكل التي بينها وبين أبي الدرداء رضي الله عنه وأرضاه، كما أن أبا الدرداء رضي الله عنه وأرضاه لم يتكلف شيئاً، ولكن أتى بطعام من طعام البيت، وأكل معه سلمان ، ونام معه في نفس البيت، كما أن أبا الدرداء رضي الله عنه وأرضاه لان في يد أخيه سلمان ، مع أنه غير مقتنع بما يقول، لأنه ضيفه في بيته وأخوه في الإسلام.

فكل هذه الأمور تثبت أن الأخوة التي كانت بين الاثنين كانت أخوة حقيقية، ليست مجرد كلام مكتوب على الورق، وأتمنى أن نجرب هذه الأمور ونطبق هذه المؤاخاة فيما بيننا، أتمنى أن نعيش حياة الأخوة الحقيقية كما كان يعيشها الصحابة الذين بنيت على أكتافهم الأمة الإسلامية، فوالله بغير هذه الأخوة لا تقوم أمة أبداً.

إذاً: أول أمر فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية احتواء أزمة المهاجرين: أن عظم من أجر المهاجرين وصنع تهيئة نفسية لهم، وفي نفس الوقت صنع تهيئة نفسية للأنصاري؛ لكي يتقبلوا أمر الهجرة وأمر النصرة.

الأمر الثاني: حقق الكفالة السريعة للمهاجرين، بحيث يكفل كل أنصاري مهاجرياً فتحل الأزمة بسرعة.

رفع قيمة الأخوة

أعطى ﷺ كماً هائلاً من الأحاديث التي تشجع على الأخوة وترفع من أجرها، قال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لأنفسه) فقد ربط موضوع الأخوة بالإيمان بالله عز وجل، وهذا الحديث في البخاري، بل إنه قال في رواية مسلم عن أبي هريرة: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)، وعلى هذا النسق جاءت أحاديث كثيرة ترفع من درجة الأخوة في الله؛ ولذلك كانت الطائفتان تفعلان ذلك الأمر وهما يرجوان من الله عز وجل أجراً وثواباً عن الأخوة في الله، فرفعوا من قيمة الأخوة في قلوبهم، وبالتالي كان لها أثر فعال حقيقي واقعي في حياتهم.

الميثاق الذي وضعه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار لتنظيم العلاقة بينهم

ما فعله ﷺ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ورفع قيمة الأخوة، وتقريب الأمور للمسلمين بأن هناك أجراً وثواباً وجنة نتيجة هذه الأعمال العظيمة التي يقومون بها؛ بعد ذلك كله رأى ﷺ أن هذا ليس كافياً لتثبيت دعائم الأخوة في الدولة الإسلامية، فنحن سنكون دولة إسلامية حقيقية، دولة ستواجه تحديات خطيرة، ولا يستقيم أبداً أن يترك هذا الأمر فيها للنفس: أنا أريد أو لا أريد، أنا أحب أو لا أحب، بل لابد من وضع قوانين ودساتير مكتوبة، فوضع ﷺ ما يعرف بالميثاق، وهو ميثاق مشهور وموجود في أكثر من رواية من روايات السيرة الموثقة، وفيه توضيح كامل للعلاقة بين المهاجرين والأنصار، وأصبح هذا القانون أو الدستور الذي يطبق في أي بلد من بلاد العالم ملزماً لجميع الأطراف.

هناك بنود كثيرة نمر على بعضها بإيجاز لضيق الوقت.

الأول: أنهم أمة واحدة من دون الناس، أذاب كل الفوارق بين عموم المسلمين فالمهاجرون والأنصار أمة واحدة.

الثاني: يقول ﷺ: (المهاجرون من قريش يتعاقلون بينهم) أي: يدفعون الدية، فلو قتل أحد من المهاجرين أحداً من الناس، وكانت له الدية؛ يجتمع المهاجرون ليدفعوا دية القتيل.

قال: (وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين) أي: لو أن أحداً من المهاجرين وقع في الأسر؛ يجتمع المهاجرون سوياً، ليدفعوا فدية هذا الأسير فيفكوا أسره.

قال: (وكل قبيلة من الأنصار يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين).

قسم الرسول ﷺ المجتمع المسلم إلى عدة طوائف على أساس القبيلة، فالمهاجرون كلهم من قريش، وهذه المجموعة تجتمع سوياً لتفدي عانيها وتدفع الدية عن القاتل منها، وكذلك كل قبيلة من الأنصار، الأوس لوحدهم والخزرج لوحدهم، وقد يقسم الأوس إلى أكثر من فرع، والخزرج إلى أكثر من فرع.

قال: (على معاقلهم الأولى) أي: كما كانوا يتعاقلون قبل دخول الإسلام إلى المدينة المنورة.

وما فعل النبي ﷺ ذلك إلا لأن المؤاخاة وحدها لا تستطيع دفع الديات وفك العاني، وليس هناك بيت مال للمسلمين، إذ إن الدولة كانت فقيرة جداً لا ثروات فيها، فلابد للمسلمين أن يخلصوا أمورهم بأنفسهم، إذا كان الأنصاري أخاً لواحد من المهاجرين، وحصلت عليه دية مقدارها مائة ناقة لن يقدر أن يدفعها له، فلابد أن يجتمع قوم على دفعها، فجمع النبي ﷺ أهل المدينة لهذا الأمر على أساس القبيلة، مع أن الإسلام يكره القبلية في أمور، ولكنه لا ينبذها

بالكلية، بل لابد من أن يطور هذه الرابطة؛ لتخدم الإسلام والمسلمين في إطار الشرع، فجعلها في أمور المؤاخاة وفي أمور المواساة والتعاون على البر والتقوى بين المسلمين: فك الأسير، ودفع دية القاتل لأهل القتيل، والمساعدة في أمور المجتمع المختلفة بروابط الرحم التي بين القبيلة.

فكل واحد منهم يحرص على أن يحل مشكلة إخوانه عن طريق هذا القانون، وهـذا القـانون لا يستقيم تطبيقه أبداً إلا إذا رسخت معاني الأخـوة التـي تحـدثنا عنهـا قبـل ذلـك؛ لـذلك فـإن التشريع الإسلامي كله لا نقدر أن نأخذ منه جزءاً ونترك جزءاً، قال تعالى: {ادْخُلُـوا فِي السِّـلْمِ كَافَّةً} [البقرة:208]، فكل جزئية تكمل موضـوعاً معينـاً، وفي النهايـة هـذا الشرـع المتكامـل يصلح لإدارة الدنيا والدين.

الرسول ﷺ أقر مبدأ القبلية، ولكن في هذه الجزئية، ومبدأ القبلية مقبول في الفقـه الإسـلامي، ولكن في إطار الشرع كما ذكرنا، مثال ذلك: إذا اعتدي على حرمـات دولـة مـن دول الإسـلام والمسلمين، فإن الشرع يفرض على أهل الدولة في داخل الخلافة الإسلامية الكـبرى أن يقـاتلوا في سبيل الله للدفاع عن أنفسهم، فإن لم يستطع أهل القطر الواحد أن يدفعوا عن أنفسـهم لـزم الأقرب فالأقرب أن يساعدهم، لكن لا يتعين القتال على أهل المغرب إذا احتلت بلدة من بلاد المشرق، إن كان أهل المشرق يستطيعون رد المعتدي، فهذا الوضـع يقبلـه الإسـلام، ويقبلـه في أمور أخرى، كالزكاة، فلا تخرج الزكاة مـن قطـر إلى آخـر حتـى تكفـي أهـل القطـر، وهكـذا بالضبط مع كل أمور الإسلام، فالإسلام واحد يكفي الأرض إلى يوم القيامة.

ولو افترضنا أن قبيلة من القبائل كانت فقيرة إلى الدرجة التي لا تستطيع فيها أن تدفع الفدية أو الدية، تأتي نقطة أخرى في الميثاق؛ لتحل هـذه المشـكلة، يقـول ﷺ: (وأن المـؤمنين لا يتركـون مفرحاً) أي: شخصاً كثير الأطفال، وعليه أزمات متلاحقة، قال: (لا يتركون مفرحاً بيـنهم أن

يعطوه في فداء أو عقل). فلو افترضنا أن هناك قبيلة لم تستطع أن تدفع عن أحد المسلمين دية كانت عليه أو فدية، فلابد أن يجتمع المسلمون جميعاً، فهم مجتمع متماسك.

الثالث: (وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بي

الكفالة طويلة المدى للمهاجرين

جاء الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: (يا رسول الله؛ اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين النخيل)، فقال ﷺ: (لا)، فالرسول ﷺ واقعي، فهو لا يريد من الأنصار أن يدفعوا مبالغ كبيرة وقد يندمون بعد ذلك، فأراد الأنصار أن يعطوا المهاجرين فرصة للنمو داخل المجتمع المسلم الجديد، فقال الأنصار للمهاجرين: (إذن تكفونا المئونة ونشرككم في الثمر)، فقال المهاجرون: (اللهم).

فبدأ المهاجرون يعملون في أرض الأنصار، ويقسمون الناتج بينهما، وبذلك تفاعل المهاجرون داخل الدولة الإسلامية، ليسوا مجرد معسكرات لاجئين في خيام، فيكونون عبئاً على الدولة التي استضافتهم، ولكن أصبحوا عنصراً فعالاً داخل المجتمع.

إعطاء الحريات للمهاجرين داخل المدينة المنورة

المحور الأخير في تثبيت أركان الدولة الإسلامية مع شتى فرقها أو طوائفها هو إعطاء كل الحريات للمهاجرين أن يفعلوا مثل الأنصار في المدينة، كحرية التملك، وحرية الزواج؛ وحرية الدخول في مجالس الشورى، وحرية قيادة الجيوش، بل قيادة الدولة نفسها، والمعروف أن الرسول ﷺ من المهاجرين، وخلفاءه من بعده من المهاجرين، إلى أزمنة طويلة، ولا نعلم أنصارياً تولى خلافة المسلمين أبداً.

فقد رسخ النبي ﷺ هذا الأمر، وأعطيت لهم كل صلاحيات أهل البلد، فذابوا ذوباناً طبيعياً في البلد، وأصبحوا عنصراً رئيساً من عناصر المدينة المنورة، وبعد عدة سنوات لم يعد هناك فارق بين المهاجرين والأنصار، بل كلهم ينتمون إلى المدينة المنورة الدولة الإسلامية الأولى، وهذا في منتهى الرقي، فقد أعطى هذا الترسيخ ثباتاً وقوة للدولة الإسلامية، فكل شخص يدافع عن المدينة؛ لأنها بلده وموطنه الأصلي الذي عاش فيه، فقد نسي تماماً قصة البلد الذي جاء منه، بل كثير من المهاجرين بقي في المدينة المنورة حتى بعد فتح مكة وعودة الديار التي كانت مسلوبة منهم إليهم، فقد ظلوا يعيشون في المدينة بعد أن أصبحت المدينة هي دولتهم.

إن هذا العمل له تطبيق في واقعنا، فأمريكا فعلت نفس هذا الفعل، وكأنها تقرأ التاريخ الإسلامي، فالذي يراجع تاريخ أمريكا يجد شيئاً عجيباً، فقد كان تعداد سكان أمريكا في أوائل القرن الثامن عشر خمسة ملايين، أما الآن وبعد مائتي سنة صار تعدادهم أكثر من ثلاثمائة مليون، وأصبح لها قوة كبيرة وقاهرة، ولها أساطيل وجيوش ومخابرات ومصانع، ولها دولة كبيرة وعملاقة، والسبب في ذلك أنها فعلت ما فعله الرسول ﷺ قبل 1400 سنة، فقد حققت أمريكا الوحدة بين أفرادها، كما أن الرسول ﷺ وحد الأوس مع الخزرج، ثم وحد الأنصار مع المهاجرين وجعلهم كلهم كياناً واحداً، كذلك حدت أمريكا نفسها حتى صارت 52 ولاية في بعض قارة كاملة، وتمثل دولة واحدة ورئيساً واحداً، فلابد أن يعطيها هذا قوة.

الأمر الثاني الذي فعلته أمريكا هو نفس الأمر الذي فعله رسول الله ﷺ قبل مئات السنين، فقد قامت أمريكا بإعطاء تأشيرات للناس الذين يأتون من خارج أمريكا ليعيشوا فيها، ويأخذون حقوق المواطن الأمريكي، ومع مرور الوقت يذوبون في المجتمع الأمريكي، ويصبحون أمريكيين يدافعون عن أمريكا كأنها بلدهم، فعندما تراجع التاريخ تجد أن أصول الأمريكان من ألمانيا وإنجلترا وإيرلندا والشرق الأوسط، ومن المسلمين والنصارى واليهود، طوائف

شتى مرت عليهم السنوات تلو السنوات، وأصبحوا في الأخير أمريكيين يساعدون الأمريكيين، وأعطوهم حرية التملك والزواج والدخول في مجالس الشورى، فجدك الأكبر ولد في أمريكا، وكلنا رأينا الانتخابات السابقة التي قبل فيها أحد اللبنانيين أن يترشح في رئاسة الجمهورية لأمريكا.

فهذا العمل عمله الرسول ﷺ قبل مئات السنين، ولكن عمله ﷺ كان راقياً عظيماً، فهو لم يجعل الدافع لهذا التمازج والاختلاط الرائع بين الطوائف المختلفة في الدولة الإسلامية أمراً من أمور الدنيا فقط، بل جعله كما علمه ربه سبحانه وتعالى مجتمعاً أخوياً متماسكاً، مرتبطاً بالآخرة، بالإضافة إلى سعادة الدنيا، فليس هناك ظلم في إقامة الدولة الإسلامية ولا إبادة ولا فساد؛ لأن التشريع قائم على شرع رب العالمين سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى وضع لنا هذا التشريع، وأراد به سعادة الدنيا والآخرة، بينما التشريعات الأخرى قد تحقق نوعاً من السعادة في الدنيا، ولكنها سعادة منقوصة لا شك في ذلك، فهناك أنواع كثيرة جداً من التعدي والظلم والفساد كما ذكرنا، وليس فيها همة إلى الآخرة.

هذا هو المثال الراقي للإسلام، فالإسلام يستطيع أن ينعمك في الدنيا وينعمك أيضاً في الآخرة، فكفالة المهاجرين كانت كفالة طبيعية حتى ذابوا داخل المجتمع المدني لأزمنة لا يعلم عددها إلا رب العالمين سبحانه وتعالى.

هكذا حلت أزمة المهاجرين داخل المدينة المنورة، وبالعكس انقلبوا من كونهم أزمة إلى قوة للدولة الإسلامية.

المهاجرون إلى الحبشة

في الحبشة أكثر من 80 شخصاً، وهم عند ملك لا يظلم عنده أحد، لكن الحبشة غير مؤهلة لإقامة دولة إسلامية، وذكرنا تفصيلات ذلك عند الحديث عن دروس الفترة المكية من السيرة النبوية، ولما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة وشعر بشيء من الاستقرار، أرسل يستدعي بعض المهاجرين في الحبشة؛ ليساعدوه في إقامة الصرح الضخم الهائل الذي سيقيمه في المدينة المنورة؛ وذلك لأن الدولة الإسلامية تحتاج إلى طاقات كثيرة، وفي نفس الوقت لم يندفع النبي ﷺ اندفاعاً عاطفياً وأتى بكل المهاجرين الذين كانوا في الحبشة لمساعدة المسلمين، فإنه لو فعل ذلك قد يضيع على المسلمين فرصة بقاء بعض المسلمين؛ لأنه قد يحصل استئصال للقاعدة الإسلامية الموجودة في المدينة، وهذا وارد؛ لأن قريشاً لن تسكت، واليهود لن يسكتوا، والمشركين من الأوس والخزرج لن يسكتوا، والقبائل حول المدينة لن تسكت، وفارس والروم لن يسكتوا، فكل هذه مخاطر ضخمة حول الأمة الإسلامية، فأبقى ﷺ عدداً لا بأس به من المهاجرين في الحبشة إلى أن تستقر الأوضاع تماماً، ويطمئن إلى أن دولة الإسلام لا تستأصل، وما جاءت هذه المجموعة إلا بعد صلح الحديبية بعد ست سنوات كاملة، وذلك بعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى أن المدينة المنورة أصبحت دولة لا تستأصل، وقتها جاء كل المهاجرين الذين كانوا موجودين في الحبشة.

مسلمو القبائل البعيدة

المسلمون في القبائل البعيدة عن المدينة المنورة، منهم في اليمن وفي غفار وفي أسلم، ومنهم الذين كانوا في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، أبقاهم ﷺ في أماكنهم ولم يأمرهم بالهجرة إلى المدينة المنورة؛ لأن كل واحد من هؤلاء كان نقطة مضيئة في مكانه، فالرسول ﷺ يشتغل

بالدعوة في داخل المدينة وما حولها، لكن النقاط البعيدة جداً لم يصل إليها رسول الله ﷺ، مثال ذلك: الطُفَيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه وأرضاه، كان موجوداً في قبيلة دوس في اليمن، والمسافة بين اليمن والمدينة أكثر من 1000 كيلو متر، فكيف يصل إليهم الرسول ﷺ؟ فبعث طفيل بن عمرو الدوسي ليقوم بالدعوة في هذا المكان، وضِماد الأزدي يقوم بالدعوة في الأزد، وأبو ذر الغفاري يقوم بالدعوة في غِفار وعمرو بن عبسة يقوم بالدعوة في أسلم، وهكذا كل واحد في مكانه، ومع مرور الوقت كثر المسلمون في هذه القبائل المختلفة، وجاء الوقت المناسب، واستدعى رسول الله ﷺ هذه القبائل، فأتى منها المسلمون، وزادت قوة المسلمين في المدينة المنورة، فقدوم هؤلاء في أول الأمر قد يلفت الأنظار إلى قوة المدينة المنورة، وقد يحفز الناس على استئصال المسلمين في المدينة المنورة بسرعة، وفي نفس الوقت يقلل من فرصة الدعوة في قبائلهم، فآثر ﷺ أن يبقى الوضع كما هو عليه بالنسبة لهم، إلى أن تستقر الأوضاع، وبالفعل استدعاهم بعد صلح الحديبية.

مسلمو مكة

آخر طائفة: هي طائفة المسلمين المستضعفين في مكة، الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا وليس لهم حيلة، فهؤلاء أمرهم الرسول ﷺ بالكتمان قدر المستطاع، فلا يخرجوا سرهم ولا يعلنوا إسلامهم؛ حتى لا يستأصلوا، إلى أن يأتي الله عز وجل بأمره، ولم تحل مشكلة هؤلاء إلا بعد فتح مكة، وظلوا في مرحلة السرية طيلة ثمان سنوات من عمر العهد المدني.

هكذا كان تصرف الرسول ﷺ مع الطوائف المختلفة من المجتمع المسلم، وهاأنتم ترون التصرف النبوي في منتهى الحكمة، ويتغير باختلاف الظرف الذي يعيش فيه المسلم.

17

المشركون والدولة الإسلامية

المشركون وكيفية تعامل النبي ﷺ معهم

هذه مجموعة ثانية خطيرة تعامل معها رسول الله ﷺ أيضاً في فترة بناء الدولة الإسلامية في أولها؛ واستمر التعامل مع هذه الطائفة إلى قبيل موت رسول الله ﷺ، هذه هي مجموعة المشركين، ومثل ما قلنا من قبل: إن المشركين كانوا من طوائف شتى.

المشركون من أهل المدينة

الفئة الأولى المشركون من أهل المدينة من الأوس والخزرج، فهؤلاء كانوا في غاية الأهمية بالنسبة لرسول الله ﷺ؛ فإستراتيجية العمل مع المشركين في داخل الدولة في الحالة السلمية هي إيصال الدعوة، والجوار بالتي هي أحسن، وتجنب الصدام قدر المستطاع، بل التعاون في القضايا المشتركة. تعالوا لنرى موقف المشركين في المدينة من الرسول ﷺ ما هي طبيعته؟ وكيف تعامل الرسول ﷺ مع كل واحد منهم؟ بعض المشركين لما دخل الرسول ﷺ المدينة المنورة قرروا الخروج منها، منهم أبو عامر الفاسق الذي كان معروفاً بـ أبي عامر الراهب. هذا الرجل عندما دخل الرسول ﷺ المدينة قرر أن يخرج منها، ودار بينه وبين الرسول ﷺ حوار أوضح فيه ما في داخله، وقرر الخروج من المدينة، هذا الرجل كان اسمه: أبو عامر عبد عمرو بن صيفي الأوسي، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة الذي استشهد في أحد.

هذا الرجل كان يدعي أنه راهب، وأنه على دين الحنيفية، ولبس المسوح وادعى العلم أيام الجاهلية، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، جاء إليه أبو عامر الراهب، وبدأ يحاوره، قال أبو عامر: (ما هذا الدين الذي جئت به؟) قال ﷺ: (جئت بالحنيفية دين إبراهيم)، قال الراهب: (فأنا عليها)، فقال ﷺ: (إنك لست عليها) أي: هناك تحريف كبير في الديانة التي أنت عليها الآن.

قال أبو عامر الراهب: (بلى عليها، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها)، فقال ﷺ: (ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية)، قال أبو عامر الراهب: (الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً)، يعرض برسول الله ﷺ، وبتهمه بالكذب، وأن الله عز وجل سيميته طريداً غريباً وحيداً، فقال ﷺ: (أجل)، فمن كذب فعل الله تعالى به ذلك، فكان أبو عامر الراهب كذلك؛ فإنه لما دار هذا الحوار بينهما وجد التفاعل من الأنصار مع رسول الله ﷺ، والتعامل معه كزعيم للمدينة المنورة، فبعد أن رأى ذلك لم يستطع أن يجلس في المدينة المنورة، وخرج منها وعاش في مكة المكرمة، وسماه رسول الله ﷺ: بـ أبي عامر الفاسق بدلاً من أبي عامر الراهب.

عاش أبو عامر الفاسق في مكة المكرمة ثمان سنوات كاملة، إلى أن جاء الفتح الإسلامي لمكة المكرمة في سنة ثمان من الهجرة، فهرب من مكة واتجه إلى الطائف، ثم بعدها بقليل أسلم أهل الطائف سنة تسع من الهجرة، فهرب من الطائف وعاش في الشام، وهناك مات طريداً غريباً وحيداً، فهو وأمثاله من الناس الذين خرجوا من المدينة المنورة وعددهم بضعة عشر رجلاً، تركوا المدينة المنورة وهجروها إلى غيرها من البلدان، واستراح منهم العباد، لكن المجموعة الكبرى من مشركي الأوس والخزرج بقيت على شركها تعيش في داخل المدينة المنورة، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أُبي ابن سلول الذي أصبح بعد ذلك زعيم المنافقين، هذا الرجل كان

زعيم الخزرج، وكانت له مكانة كبيرة في المدينة المنورة عند أوسها وخزرجها سواء، وهو الوحيد الذي اجتمع عليه الأوس والخزرج لكي ينصبوه ملكاً على المدينة، وذلك قبل قدوم الرسول ﷺ، وكانوا ينسجون له الخرز ليتوجوه كملك على المدينة المنورة، وهو أول اجتماع للمدينة المنورة على رجل واحد قبل رسول الله ﷺ، وفجأة تغيرت الأحداث، وظهر أمر الرسول ﷺ، وآمن به ستة من الخزرج من قبيلته، ثم اثنا عشر رجلاً في بيعة العقبة الأولى، ثم ثلاثة وسبعون رجلاً في بيعة العقبة الثانية، كل هذا لم يعلم به عبد الله بن أبي ابن سلول، مع أنه كان رئيس وفد المدينة للحج في العام الذي بايع فيه الأنصار بيعة العقبة الثانية عام 13 من البعثة النبوية، وكان وقتها مشركاً؛ وكان وفد المدينة يضم داخله 300 شخص من يثرب، منهم 75 مسلماً و 225 مشركاً، ولأنه كان زعيم الوفد كان يظن أنه يعرف كل شيء عن الوفد، ولما شك أهل قريش في إسلام بعض رجال الوفد ولقائهم برسول الله ﷺ نفى ذلك بشدة، وقال: لو حدث هذا لاستشارني قومي. وفي ربيع أول من العام 14 من البعثة، أي: بعد ثلاثة شهور أو يزيد قليلاً، هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة، وصار رئيساً وزعيماً على المدينة المنورة، وهكذا استلم الرسول ﷺ ما كان سيستلمه عبد الله بن أبي ابن سلول، فتحرك الحقد في قلبه على الرسول ﷺ على أشد ما يكون. تخيل موقف عبد الله بن أبي ابن سلول، فقد كان سيتوج ملكاً على المدينة لأول مرة في تاريخ المدينة

مشركي الأعراب والقبائل الكبرى

كان الرسول ﷺ يبعث للمشركين الأعراب بعض من يدعوهم إلى الإسلام، وكان يتخير أفراد قبيلتهم، فمن أخطر القبائل التي كانت حول المدينة المنورة قبيلة غِفار، أرسل إليها الرسول ﷺ أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه، فأتى بنصف أهلها، ودعا لها ﷺ بقوله: (غِفار غفر

الله لها)، واستمرت فيهم الدعوة دون أن ينتقلوا إلى داخل المدينة المنورة، كانوا في ديارهم، وكان النبي ﷺ يرسل إليهم من يعلمهم ويدعوهم إلى الله عز وجل.

وفي نفس الوقت أبرز النبي ﷺ للأعراب قوة المسلمين؛ حتى لا يغتر هؤلاء بأن المهاجرين هاجروا في حالة ضعف أو قلة إلى المدينة المنورة، فيغيرون على المدينة المنورة طمعاً فيها، فأظهر لهم قوة كما سيظهر لنا بعد ذلك، عندما كان يرسل ﷺ السرايا حول المدينة المنورة.

أما المشركون في القبائل الكبرى التي كانت حول المدينة المنورة، فقد حاول ﷺ أن يعقد معهم بعض المعاهدات، كما عقد معاهدة مع قبيلة جُهَينة، وهي قبيلة كبيرة في غرب المدينة المنورة، وكان هذا العقد في منتهى الأهمية؛ لأن غرب المدينة المنورة هو طريق القوافل القرشية المارة من مكة إلى الشام، فإذا أمن ﷺ قبيلة جهينة استطاعت الجيوش الإسلامية بعد ذلك التحرك في أمان في غرب المدينة، وقطع الطريق على قوافل قريش، كما سيتبين بعد ذلك. كانت سياسته مع القبائل الكبرى المحيطة بالمدينة المنورة محاولة عقد المعاهدات والأحلاف قدر المستطاع.

تبقى مشكلة كبيرة جداً، ألا وهي مشكلة مشركي قريش، فبعض الناس يظنون أن الرسول ﷺ إذا انتقل مسافة 500 كيلو متر عن مكة المكرمة فإن مكة هدأ بالها، ولم يعد عندها مشكلة مع المسلمين، وأنه ستهدأ الأوضاع، ولن يُطْلَبَ المسلمون في هذه البقاع البعيدة عن مكة المكرمة.

ولكن هذا ليس صحيحاً، يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217]، فلابد أن المشركين في مكة سيسعون قدر المستطاع لغزو المدينة المنورة، وإخراج المسلمين منها، وللتعاون والتحالف مع أعداء المسلمين هنا وهناك لاستئصال شأفتهم تماماً، وهذا ما حدث بالفعل وبطرق مختلفة كما سنرى، وهذا الكلام كله يثبت لنا حقيقة مهمة جداً، وهي أنه لا خيار في المعركة، حتى وإن تجنب المسلمون المعركة، بل

لابد أن تحدث سنة التدافع التي شرعها رب العالمين سبحانه وتعالى في خلقه وأرضه وإلى يوم القيامة، تدافع أهل الحق وأهل الباطل، حتى وإن كان أهل الحق لا يريدون أهل الباطل بسوء، لابد أن يبحث أهل الباطل عنهم ليتم اللقاء كما أراد رب العالمين سبحانه وتعالى للحرب بين الحق والباطل.

فهذه طوائف مختلفة تعامل معها ﷺ، بقيت لنا طائفتان في غاية الأهمية:

الطائفة الأولى: هي طائفة المشركين في قريش.

والطائفة الثانية: طائفة اليهود.

فالتعامل مع هاتين الطائفتين لا بد أن يوضع في خلفية الآية الكريمة المعجزة، التي لخص الله عز وجل فيها قصة هاتين الطائفتين مع أمة الإسلام، قال الله عز وجل في إيجاز معجز يفسر لنا إستراتيجية هؤلاء المشركين واليهود في تعاملهم مع المسلمين، قال: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [المائدة:82] في ضوء هذه الآية سنفهم أفعال مشركي مكة ويهود المدينة، وسنفسر المواقف التي حدثت معهما.

مشركو أهل مكة وكيفية تعامل النبي ﷺ

قريش أكبر قبيلة وأعز قبيلة عربية، لها تاريخ مجيد، وليس من المعتاد في الجزيرة العربية أن تقف قبيلة في مواجهتها، بل كل القبائل تحرص على إقامة علاقات دبلوماسية قوية مع قريش؛ لأن قريشاً ترعى البيت الحرام، وتهتم بأمور الحجاج في مكة، ولها مكانة في قلوب العرب. فإذا وضعت هذه الخلفية في تحليلك فلا شك أن قريشاً لن تسكت أبداً عن الطعن الخطير الذي وجهه الأوس والخزرج لكبريائها، عندما استضافوا الرسول ﷺ وأصحابه المؤمنين.

فالمسألة أصبحت مسألة كرامة وعناد وكبرياء عند قريش؛ حاول أكابر قريش وزعماؤها بشتى الطرق أن يقتلوا هذه الدعوة في مهدها، لكنهم لم يستطيعوا، وليس من السهل لهؤلاء الأسياد أن يسلِّموا بالهزيمة.

وقريش لها علاقة قوية بالأوس والخزرج، فقد كان بينهم تعاون وتحالف وتجارة وإجارة، بل كان بينهم مصاهرة وزواج، فأخوال الرسول ﷺ نفسه كانوا من بني النجار من الخزرج، ولا شك أن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ستؤثر سلباً على علاقة قريش بالأوس والخزرج، وقد يتلو ذلك آثار اقتصادية واجتماعية وسياسية، وستكون هناك آثار كبيرة ووخيمة على أهل مكة، فقريش تعرف أن الرسول ﷺ ذهب إلى المدينة المنورة حيث يسكن اليهود، ولو أسلم اليهود فإن هذا سيضيف قوة كبيرة جداً إلى قوة المسلمين. فاليهود لديهم سلاح وحصون وعتاد وأفراد وأموال، وقد توقع القرشيون أن يسلم اليهود؛ وذلك لأنهم أهل كتاب، يتحدثون عن الإله الواحد، ويتحدثون عن الرسل والكتب السماوية، بل إنهم يتحدثون عن ظهور نبي في هذه الفترة من الزمان، فلا يستبعد أبداً إسلامهم كما في تحليل قريش.

وبالإضافة إلى كل هذه العوامل فإن المدينة المنورة تقع على طريق التجارة من مكة المكرمة إلى الشام، وأن وفود المسلمين في هذه المنطقة كقوة ودولة سيهدد مصالح قريش التجارية بقوة، وسيضرب اقتصاد مكة بضربات موجعة، فمن المستحيل أن تترك قريش دولة الإسلام هكذا دون مقاومة.

من أجل ذلك كله كان من المتوقع أن قريشاً لن تنسى قصة الرسول ﷺ وهجرته للمدينة، مع أنه صار بعيداً عنها حوالي 500 كيلو متر، وهكذا تبقى السنة الإلهية الواضحة في كتاب الله العزيز سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217].

الطرق التي استخدمتها قريش في التعامل مع النبي ﷺ وأصحابه في المدينة

اختارت قريش طريق العلاقات الدبلوماسية والمراسلات والمفاوضات مع أهل المدينة، لكنها كانت مفاوضات تحمل تهديداً خطيراً للمدينة المنورة، لم تكن في صورة عهود ومواثيق؛ بل كانت في صورة تهديد مباشر من القوة الأولى في الجزيرة العربية لقوة الأوس والخزرج.

راسلت قريش زعيم المشركين في المدينة عبد الله بن أبي ابن سلول، واستغلت رغبة عبد الله بن أبي ابن سلول في الملك والسيادة، وكراهيته لرسول الله ﷺ، واستغلت طبيعته الخائنة التي لا تقدر على المواجهة، فأرسلت إليه وإلى مشركي المدينة بصفة عامة رسالة، ذكرها أبو داود في سننه، تقول قريش لـ عبد الله وأصحابه في هذه الرسالة: (إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم باللات والعزى لتقتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح ذراريكم).

تهديد مباشر لمشركي الأوس والخزرج بإخراج الرسول ﷺ أو بقتله، وجاء التهديد موافقاً لهوى عبد الله بن أبي ابن سلول؛ ولذلك فقد أخذ قراراً في منتهى الخطورة، إذ جمع المشركين من الأوس والخزرج وقرر أن يقاتل المسلمين من الأوس والخزرج، وهكذا تناسى عبد الله بن أبي ابن سلول تماماً عداءه القديم مع الأوس، تناسى الثارات العميقة والدماء التي سالت بين القبيلتين قبل ذلك، لم يعد يذكر إلا الحرب العقائدية الآن، سيقاتل المسلمين من أبناء الخزرج، وسيضع يده في يد المشركين من أبناء الأوس، فقد يظن البعض أن هذا غريب، لكنها حقيقة متكررة وسنة ثابتة، دائماً يجتمع أهل الباطل على اختلاف تصوراتهم وعقائدهم وطرقهم في التفكير لحرب المسلمين.

ستجدون ذلك متكرراً في قصة الرسول ﷺ، وفي الفتوح الإسلامية فتوح فارس والروم والأندلس، وفي الحروب الصليبية وحروب التتار، وفي احتلال أوروبا للعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والعشرين، وستجدونه الآن في أكثر من بقعة من بقاع العالم، وفي أكثر من نقطة من نقاط الصراع بين المسلمين وغيرهم، اتفاق اليهود مع النصارى، واتفاق اليهود مع الهندوس، واتفاق أمريكا مع روسيا، واتفاق إنجلترا مع فرنسا، واتفاق الشيوعيين مع الرأسماليين، ومع الاختلاف البين لهذه المدارس، إلا أنهم يتفقون ويتجمعون إذا كان عدوهم الإسلام، فالحرب عقائدية في المقام الأول، قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء:89].

فجمع عبد الله بن أبي ابن سلول المشركين من الأوس والخزرج لحرب المؤمنين من الأوس والخزرج، وتجمع كذلك المسلمون لحرب المشركين، بوادر حرب أهلية خطيرة، وفتنة طائفية داخلية ستنشب بين المسلمين وطائفة أخرى على غير دينهم، تعيش معهم في داخل البلد الواحد. حينها جاء الرسول ﷺ وحاول قدر المستطاع أن يوقف الصراع قبل أن يبدأ، وصل إليهم بالفعل قبل القتال، لكنه لا يستطيع هنا أن يذكر بالجنة والنار والعقيدة والمبادئ الإسلامية؛ لأن هناك مشركين، فلا يستطيع أن يقول لهم: قال الله وقال الرسول، فأخذ الرسول ﷺ يضرب على وترين في منتهى الأهمية، وهما وتران يمثلان عاملاً مشتركاً بين الفريقين.

الوتر الأول: وتر التحدي وإثارة النخوة والعزة والإباء، وكل هذه معانٍ يفتخر بها العرب كلهم، سواء كانوا مسلمين أو مشركين، قال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت قريش تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم)، وهكذا حرك فيهم عنصر التحدي

لقريش، وأخذ يلفت الأنظار إلى مكيدة قريش، ويقول لهم: لستم أنتم الذين تخدعكم قريش بمكيدة مكشوفة كهذه.

الوتر الثاني كان في منتهى الأهمية أيضاً: وتر الرحم والقبيلة. قال لهم: (تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟) هل سيقتل الأوسي أوسياً؟ هل سيقتل الخزرجي خزرجياً؟ هل سيقتل اليثربي يثربياً من نفس الوطن، ويعيش نفس الظروف ويتعرض لنفس المخاطر؟ وهكذا ذكرهم جميعاً بالمواطنة ليثرب.

فلما سمع القوم هذا الكلام تفرقوا جميعاً مسلمهم ومشركهم، فهذه حكمة نبوية بالغة أنهت الفتنة الطائفية في داخل البلد الواحد تماماً، وأشد الناس فرحاً بهذه الفتنة الطائفية هم أعداء الأمة، فطرف ينهي طرفاً آخر، وطرف يقضي على طرف آخر، وهكذا كسرت شوكة الدولة دون عناء من الأعداء، وهذا الذي كانت تريده قريش، فالقائد الحكيم ﷺ منع ذلك باقتدار، وعلى كل المخلصين لهذا الدين أن يستوعبوا هذا الدرس تماماً، فما أكثر ما تثار الفتن الطائفية في البلاد الإسلامية، ولا تجر على البلد إلا الويلات والدمار، بل ما أكثر ما تثار الفتن بين المسلمين والمسلمين، جماعة تحارب جماعة، أو سلطة تحارب جماعة، والجميع في مرتبة واحدة، وقد رأينا ذلك في فلسطين والعراق والأردن ومصر وليبيا والجزائر وفي غيرها وغيرها، فالرسول ﷺ يعلمنا كيف نتجنب الصراع الداخلي بكل وسيلة،

استخدام قريش للحرب النفسية على المسلمين

قامت قريش بالحرب النفسية على المسلمين بعد فشلها في إثارة الفتنة في المدينة بين المسلمين والمشركين أرسلت قريش رسالة إلى المسلمين، قالت: (لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب،

سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم). هذا أسلوب قديم وحديث، وما زلت قريش تستخدم التهديد والوعيد.

وهذا وإن كان يحتمل أنه من قبيل الحرب النفسية الوهمية على المسلمين، إلا أن المسلمين أخذوه مأخذ الجد والاعتبار، فالعقل لا يمنع أن تغزو قريش المدينة المنورة، أو أن تخطط لقتل الرسول ﷺ، فقد حاولوا أن يقتلوه أكثر من مرة، وآخرها كانت المحاولة التي تمت قبل الهجرة بقليل، وأرادوا أن يضربوا عنقه ﷺ بأربعين سيفاً في وقت واحد حتى يتفرق دمه بين القبائل كما كانوا يقولون، ورصدوا لمن يقتله أو يأسره مائة من الإبل وهو مبلغ ضخم جداً، فلا يستبعد أبداً أن ترصد قريش مائة من الإبل لمن يتسلل إلى داخل المدينة؛ ليقتل الرسول ﷺ؛ لذلك فإن الرسول ﷺ كان كثيراً ما يبيت ساهراً حذراً من غدر قريش، وفي يوم من الأيام تعب ﷺ من كثرة السهر، روى البخاري ومسلم: أن السيدة عائشة قالت: قال ﷺ: (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا؟ فقال: سعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له ﷺ بخير ثم نام).

هذا كان حال المسلمين في المدينة المنورة، الموقف فعلاً كان متأزمًا، وهذا الأمر لم يكن عارضاً، بل كان أمراً مستمراً، لم تقف حراسة الرسول ﷺ إلا بعد أن عصمه الله عز وجل من الناس، وذلك لما نزل قول ربنا سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة:67]. لما نزلت هذه الآية أخرج ﷺ رأسه من القبة وقال: (يا أيها الناس؛ انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل) وأوقف ﷺ الحراسة بذلك، وهذه خاصية لرسول الله ﷺ، فلابد لعموم القيادات الإسلامية أن تحمي نفسها من أعدائها كما أن هذا التهديد لم يكن خاصاً بالرسول ﷺ فقط، بل كان لكل

المؤمنين في المدينة المنورة، وخاصة القيادات الإسلامية، ونحن لا ننسى أن قريشاً رصدت مائة من الإبل لمن يأتي بـ أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه حياً أو ميتاً.

يقول أبي بن كعب رضي الله عنه: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه) فاغتيال الزعامات الإسلامية هدف لأعداء الأمة، لكن هذا التهديد لم يجد مع المسلمين.

قطع قريش للعلاقات الدبلوماسية مع المدينة المنورة

لم ينجح تهديد قريش ولا وعيدها، فقامت بقطع العلاقات الدبلوماسية مع المدينة المنورة، وهددت بمنع أهل المدينة من زيارة البيت الحرام، مع أن البيت الحرام ليس ملكاً لقريش، وأعراف الجزيرة العربية وقوانينها بل وقوانين قريش نفسها تقضي بأن الذي يريد البيت الحرام لا بد أن يعطى الأمان، بل ويكُرم ويخُدم ويرُعى، وكانت قريش تفتخر على غيرها من القبائل بأنها تسقي الحجيج وتعمر المسجد الحرام، ومع كل هذا تنكرت لكل ذلك، وقررت أن تنسى قوانينها أو تتناساها، وتتعربد في الأرض كما يحلو لها.

روى البخاري رحمه الله قصة ذكر فيها: أن سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس انطلق إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف -كان صاحبه في الجاهلية- فقال لـ أمية: (انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت)، فخرج به أمية بن خلف وذهب سعد ليطوف، فلما طاف سعد بن معاذ بالبيت الحرام قابله أبو جهل، فقال أبو جهل يخاطب أمية بن خلف ويتجاهل تماماً سعد بن معاذ مع أنه يعرفه: (يا أبا صفوان؛ من هذا معك؟) فقال: (هذا سعد). وكان أبو جهل يعرف سعداً؛ لأن أمية بن خلف يقول: هذا سعد دون تعريف كامل، فلم يقل له: هذا سعد بن معاذ سيد الأوس. فقال أبو جهل مخاطباً سعداً: (ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم

الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً).

فهذا تهديد خطير، وكأن أبا جهل قد فقد صوابه وحنكته، وفقد كل حكمته في التعامل مع قبيلة قوية كقبيلة الأوس أو الخزرج، فقال سعد بن معاذ رافعاً صوته كما في رواية البخاري، يرد عليه بقوة: (أما والله لئن منعتني هذا -أي: لئن منعتني من الطواف بالبيت الحرام- لأمنعك مما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة).

فهذا موقف جليل من الصحابي الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه يحتاج منا إلى وقفة، فالتذلل والخضوع والخنوع لزعماء الكفر وقادة الضلال وجبابرة الأرض لا يزيدهم إلا كبراً وغطرسة وظلماً وجوراً، أما الوقوف هذه الوقفة الجادة الحاسمة فلا شك أنه يزلزل كيانهم ويهز أعصابهم، ونحن نلاحظ أن سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه كان واقعياً جداً في تهديده، فلم يهدده بقتل أو بغزو مكة أو بالقدوم إلى مكة للعمرة رغماً عن أنفه، ولكن هدده بما يملك. هنا سعد بن معاذ لم يفقد مصداقية كلامه، بل كان كلامه في غاية التأثير، فهو رضي الله عنه وأرضاه يعرف مواطن القوة عنده وما بيده ويعرف ما يضعف عدوه ويعرف مصالح مكة، فهذا موقف رجولي يليق بمؤمن.

قد يقول قائل: لماذا رد سعد بن معاذ رضي الله عنه بغلظة هكذا على أبي جهل؟ بينما رد الرسول ﷺ قبل ذلك بلطف ولين على عبد الله بن أبي ابن سلول المشرك الخزرجي، مع أنه أيضاً أساء له القول قبل ذلك؟

الجواب: لاختلاف الظرف واختلاف المكان واختلاف الشخص المشرك الذي تم الحوار معه، فالرسول ﷺ كان يتحاور مع عبد الله بن أبي ابن سلول زعيم المشركين في يثرب وقبيلته

الخزرج، والخزرج لم تقف سداً منيعاً أمام الإسلام كما فعلت قريش، بل على العكس، فإن عدداً كبيراً جداً من الأنصار هم من قبيلة الخزرج، كما أن المشركين من قبيلة الخزرج بما فيهم عبد الله بن أبي بن سلول لم يسمعوا عن الإسلام إلا منذ فترة وجيزة، ولم يختلطوا برسول الله ﷺ وبالمؤمنين اختلاطاً كافياً؛ فلذلك الرسول ﷺ يؤمل كثيراً في إسلامهم، ويعتقد أنهم بطبيعتهم الرقيقة المشهورة عن أهل المدينة سيميلون إلى الإسلام عاجلاً أو آجلاً؛ لذلك هو لا يريد تصعيد الموقف مع قبيلة الخزرج، بل يريد امتلاك القلوب وإقناع العقول، وهذا كله يتطلب رفقاً في التعامل وليناً في الكلام.

أما موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه مختلف تماماً، فهو موقف مع واحد من أكابر مجرمي قريش، بل مع أعتى عتاتها وأفجر فجارها، موقف مع فرعون هذه الأمة، وبث الرعب في قلبه أمر مطلوب، وإشعاره بالقلق والاضطراب واجب شرعي، وإثارة خوفه على ماله وسلطانه عمل إستراتيجي للمسلمين. وتاريخ أبي جهل يشير إلى أنه لن يؤمن، خاصة أن رسول الله ﷺ دعا عليه قبل ذلك وقال: (اللهم عليك بـ أبي جهل)؛ لذلك فإن سعد بن معاذ لا يؤمل في إسلام أبي جهل لا من قريب ولا من بعيد، فكان قراره حاسماً في ذلك، وهو الوقوف

التضييق الاقتصادي من قريش على المدينة المنورة

رأينا التعامل مع بعض الرموز المشركة في داخل المدينة المنورة، ورأينا الحرب النفسية على المسلمين والتهديد والوعيد، ورأينا قطع العلاقات الدبلوماسية مع المدينة، وذلك لما قطع أبو جهل علاقاته مع سعد بن معاذ وهو سيد الأوس، رأينا تغيير القوانين والتنكر للأعراف ونكث العهود، ومنع المسلمين من الوصول إلى مكة ظلماً وقهراً، هل اكتفت قريش بهذا كله؟ لا، لم تكتف بذلك، بل بدأت في تنفيذ خطوة أخرى، وهي عملية التضييق الاقتصادي على

المدينة المنورة، وذلك بالتأثير على القبائل التي حول المدينة والمنورة، وبالاتصال أيضاً باليهود الذين يعيشون في داخل المدينة المنورة؛ لمنعهم من التعامل مع المسلمين.

استغلت قريش ما لها من نفوذ وعلاقات بالقبائل المختلفة؛ لتحاصر المسلمين وتضيق عليهم، لكن هذه الوسيلة مع خطورتها لم يكن لها التأثير الكافي على الدولة الإسلامية؛ لأن الرسول ﷺ من أول يوم نزل فيه المدينة المنورة قد عمل في حسابه أنه سيقابل مثل هذه المعضلة، وهي معضلة الحصار الاقتصادي من قريش للمدينة المنورة؛ لذلك خطط النبي ﷺ تخطيطاً في غاية الإبهار للخروج من الأزمة الاقتصادية، أدرك الرسول ﷺ من اللحظة الأولى التي بدأ يخطط فيها لبناء الأمة الإسلامية أن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تبنى إلا على أكتاف أبنائها، والاقتصاد المسلم إذا كان معتمداً على الآخرين فإنه سيصبح اقتصاداً هشاً ضعيفاً لا قيمة له، فما بالكم لو كان يعتمد على عدو أو يعتمد على يهود؟ والموقف عند هجرة المسلمين للمدينة المنورة كان صعباً جداً، والمدينة لم تكن فقيرة فقط، بل إن اقتصادها إلى درجة كبيرة جداً كان في يد اليهود، فسوق المدينة الرئيس هو سوق بني قينقاع، ولعله السوق الوحيد في المدينة، والتجارة في معظمها تتم في داخل هذا السوق، حتى إن كبار التجار من الأنصار كانوا لا يتعاملون إلا في داخل هذا السوق، والأخطر من التجارة والسوق والمال هو الماء، والماء كان أيضاً في يد اليهود، وكان أهل المدينة يشترون الماء من الأبيار التي يمتلكها اليهود، وأشهر هذه الأبيار بئر رومة المشهور.

فماذا لو حدث اتفاق بين قريش واليهود؟ وماذا لو منع اليهود تجارتهم عن المسلمين ومنعوا ماءهم عن المسلمين؟ لا شك أن هذا موقف لا يحسد عليه أحد؛ لذلك خطط الرسول ﷺ من أول يوم للخروج من هذه الأزمة بمنتهى المهارة والدقة، سطّر لنا أصولاً أصبحت من الثوابت في التشريع الإسلامي.

والتفصيل لهذه الوسائل يحتاج إلى وقت طويل إن شاء الله في محاضرتين خاصتين: الأولى: الرسول ﷺ والخروج من الأزمة الاقتصادية، والثانية: الرسول ﷺ وعلاج مشكلة الفقر.

لكن الآن سنوجز بعض العناوين المهمة في الخروج من الأزمة الاقتصادية.

أولاً: حرص الرسول ﷺ على توفير الماء المملوك للدولة الإسلامية، فالماء سلعة إستراتيجية، ولن تقوم دولة بلا ماء؛ لذلك روى أحمد والنسائي عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال: (من يبتاع بئر رومة ويغفر الله له)، كان بئر رومة ملكاً ليهود، فابتاعها عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: (يا رسول الله؛ ابتعتها بكذا وكذا، فقال ﷺ: اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك، فقال: اللهم نعم).

إن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه اقتصادي إسلامي كبير، وجه جهده كله لشراء ما ينفع الأمة ويفيدها بدلاً من التجارة في شيء من الرفاهيات أو الكماليات، وهذا كان بتوجيه من الرسول ﷺ، يوجهه لشراء السلع الإستراتيجية، ومن هذه السلع الإستراتيجية الماء، وقد تكون هذه السلعة شيئاً آخر، قد تكون بترولاً أو قمحاً أو قطناً أو طاقةً نووية حسب الظروف.

هناك أمر في غاية الأهمية وهو أهمية التربية الإيمانية في بناء الأمة الإسلامية، فالرسول ﷺ لا يملك شيئاً دنيوياً يعوض به عثمان بن عفان عن الماء الذي اشتراه، ولا يتوقع أن يشتري المسلمون منه ذلك الماء لأنهم فقراء؛ لذلك فإنه حفزه بها في الآخرة، قال له: (من يبتاع بئر رومة ويغفر الله له)، وفي رواية: (وله الجنة) ولو لم يكن إيمان عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه يقينياً في الله عز وجل وفي رسوله الكريم ﷺ وفي الجنة والنار لما هان عليه أن يدفع آلاف الدراهم دون عائد دنيوي، ولم يكن لهذه المشكلة أبداً أن تحل دون تطوع من اقتصادي مسلم غني يرغب في ثواب الآخرة؛ لأن بيت مال المسلمين لم يكن فيه مال، لذلك كخطوة

أولى قبل بناء الدولة لا بد من الاطمئنان على إيمان وعقيدة الجنود، الذين ستبنى علـى أكتـافهم هذه الدولة، وبهذه الخطوة الجب

استخدام قريش الغارات على المدينة المنورة

كل هذه المحاولات الفاشلة من قريش لاستئصال خضراء المسلمين لم تمنع قريشاً من اسـتمرار المحاولة والكيد والتدبير. لما لاقت قريش هذه الصلابة في المقاومـة؛ وهـذه العبقريـة في الأداء الإسلامي، وهذه الاحتراسية الدقيقة في بناء الأمم، لم تجد أمامها إلا أن تستخدم سلاح البطش والقوة التي اعتادت عليه قبل ذلك، والذي اعتاد عليه عموم الجبابرة والمجرمين والمتكبرين في الأرض، قررت القيام بغارة ليلية مباغتة على المدينة المنورة، ضربةً خاطفةً لعلهم يقتلون رجـلاً أو ينهبون مالاً، أو يروعون امرأة أو طفلاً أو شيخاً.

هذه الغارة كانت بعد حوالي سنة تقريباً من هجرة الرسول ﷺ، وكانت بقيادة أحد المشـركين، كان اسمه كرز بن جابر الفهري، والذي أسلم بعـد ذلـك رضي الله عنـه وأرضـاه وصـار مـن الصحابة، أغار على المدينة ليلاً، وسرق بعضاً من ماشيتها إبل وغنم وبقر، وخرج الرسول ﷺ في إثره حتى يرجع الماشية، لكن أفلت كرز بما نهب، وهنا تبين لنا محاولات قريش.

كانت هذه هي محاولات قريش للصـد عـن سـبيل الله، وكانـت هـذه محـاولات قبيلـة كـبرى لاستئصال جذور حركة إسلامية ما زالت ناشئة في طور البنـاء، ولأن قريشـاً القبيلـة الكـبرى تعلم أن هذه الحركة الإسلامية البسيطة تمتلك مقومات بناء دولة عظمى، فإنها سـارعت لهـدم البناء في أول مراحله، حتى لا تغامر بترك هذا البناء ينمو ثم يبتلعها بعد ذلك.

فعلت ذلك قريش، وكذلك تفعل الدول الكبرى الآن، وما زال المسلمون يتعجبون: لماذا دولة عملاقة ضخمة تهتم بأمر مجموعة من المسلمين البسطاء الفقراء الذين يعيشون على بقعة قـد لا

ترى على خريطة العالم؟ والسر أنهم يقرءون التاريخ، أعداؤنا يقرءون التاريخ ونحن نغفل عن قراءته كثيراً، قرأ أعداؤنا كثيراً في التاريخ منذ عهد الرسول ﷺ إلى زماننا هذا، وعلموا أن المجموعة القليلة من المسلمين إذا عاشت بشرع الله عز وجل، وطبقت قوانين الإسلام في كل صغيرة وكبيرة من حياتها، فإنها ما تلبث أن تنمو وتقوى، ثم تمكن في الأرض، ويصبح تمكينها في الأرض خارجاً عن حدود الاستئصال، بل وتصبح قوتها غير قابلة للهزيمة ما دامت مستمسكة بقانونها دون تحريف أو تبديل أو تكاسل أو إهمال، وهذا الأمر تكرر في التاريخ، ولا زال يتكرر إلى الآن.

أذكر لكم مشكلة تؤرقني كثيراً، هذه المشكلة مشكلة السودان، فالسودان أعلنت أنها ستطبق شرع الله عز وجل على بعض الولايات السودانية، ليس تطبيقاً كاملاً في كل السودان، ومع أن هذا التطبيق تطبيق جزئي وليس كلياً، إلا أن الدنيا قامت ولم تقعد، لقد ظهرت كلمة الإسلام في السودان، وهذا في عرف الكافرين أمر خطير، وتحركت قوى عظمى ودول كبرى لمنع هذا البلد من تطبيق شرع ربه سبحانه وتعالى.

يتعجب المراقبون لماذا دولة عملاقة مثل: أمريكا، أو دول متقدمة مثل: دول أوروبا الغربية أو الإسكندنافية أو دولة قوية كإسرائيل تهتم بشأن هذا البلد الفقير البسيط الذي يصارع بضراوة من أجل الحياة؟! فالمجاعات في السودان تقتل الآلاف المؤلفة، فلماذا هذا الزخم الإعلامي الكبير، وهذا التفخيم والتضخيم لأمر قضية السودان؟ ظهرت كلمة الإسلام في السودان، ولو قدر لهذا البلد أن ينمو فقد يغير من خريطة العالم، لا يغير فقط الإمكانات الاقتصادية المتوقعة ولا البترول ولا المزارع، لكن يرفع من شأن البشر الذين يحملون الإسلام في قلوبهم؛ لذلك فإن عموم أعداء الأمة أدركوا هذا الأمر جيداً وللأسف لم يدركه الكثير من المسلمين.

ماذا فعلوا مع السودان الفقير؟ فعلوا نفس السيناريو الذي فعلته قـريش القبيلـة العظمـى مـع دولة المدينة المنورة الناشئة، فقد قاموا بمراسلات لـبعض الانفصـاليين خاصـة مـن أصـحاب الديانات الأخرى؛ للقضاء على الحركة الإسلامية في مهدها، ويا حبذا لو أثيرت فتن طائفية في أرجاء البلاد، وهذا كفعل قريش في مراسلتها مع عبد الله بن أبي ابن سلول ، وكلكم ترون هذا الأمر على الشاشات الفضائية.

ثانياً: قاموا بالحرب النفسية على المسلمين في السودان، عن طريق التهديد والوعيـد المسـتمر في وسائل الإعلام وعبر السفارات والأعوان والوسطاء.

ثالثاً: قطع الدول الكبرى لعلاقاتها الدبلوماسية مع السودان، وبذلك انفصلت السـودان عـن الواقع الذي تعيش فيه، وهذا شيء خطير.

رابعاً: تغيير القوانين والتنكر للأعـراف الدوليـة، وتكـوين الأحـلاف التـي ينكرهـا القـانون الدولي، هذه الأحلاف تقوم بالتأثير على الدول الضعيفة؛ لأجل أخذ قرار يضر بمصلحة دولـة أخرى، وهذا يكون عن طريق مال أو عن طريق ضغط عسكري أو عن طريق ضغط سـياسي، وأمريكا فعلت ذلك فعلاً ضد السودان، فقد ضغطت على دول كثيرة جداً حتى تمنع السـودان من الحصول على مقعد إفريقيا في مجلس الأمـن، وأعطـوا هـذا المقعـد لدولـة أخـرى، مـع أن التصويت على المستوى الإفريقي كان لصالح السودان.

خامساً: الحصار الاقتصادي والضغط على الشعب إلى الموت، وما أحداث دارفور منا ببعيد.

سادساً: الغارات المفاجئة الغادرة لا على جيش ولا على كتيبة، ولكن على الآمنين، مثل ما فعـل كرز بن جابر الفهري في حربه ضد المـؤمنين في المدينـة المنـورة، فعلـت أمريكـا كـذلك عنـدما ضربت مصنع الأدوية في السوادن بحجة أنه ينتج أسلحة كيمائية.

هذه صورة من صور حرب الباطل مع أهل الحق دائماً، ولن يخرج المسلمون في السودان وفي عموم الأمة الإسلامية من أزمتهم إلا بدراسة متأنية للسيرة النبوية، والاتباع الدقيق لكل فعل وقول لرسول الله ﷺ، كما قال ﷺ: (لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسنتي)، ورأينا كيف أن الرسول ﷺ أخذ خطوات عملية محكمة للخروج من هذه الأزمة وهذا الحصار، وهذا المكر والكيد المستمر من أعداء الأمة، هذا كان رد فعل الرسول ﷺ في التعامل مع الطائفة الخطيرة، طائفة المشركين من أهل مكة.

هناك طائفة أخرى خطيرة جداً لعلها أخطر من طائفة المشركين وهي طائفة اليهود، والموضوع مع الحياة متشعب جداً، ولها خلفيات كثيرة، ولها أبعاد كثيرة وعميقة في حياة الرسول ﷺ، سواء لما كان في فترة مكة أو بعد الهجرة أو في أواسط وأواخر الفترة المدنية.

18

اليهود والدولة الإسلامية

تحدثنا عن الظروف التي بدأ فيها ﷺ إنشاء دولته، وتحدثنا عن علاقته مع الطوائف المختلفة التي عاصرت هذا القيام، سواء كانوا مسلمين من أوس وخزرج ومهاجرين وغيرهم، أو كانوا مشركين.و تحدثنا عن مشركي قريش كفار مكة، وكيف كادوا لأمة الإسلام، وكيف خرج ﷺ من الأزمة بنجاح، وبتدبير متقن معروف وبخطوات ثابتة، وترك لنا تشريعاً يستطيع المسلمون أن يخرجوا به من كل أزمة مشابهة.

اليوم حديثنا عن أمر في غاية الأهمية والخطورة، وهو موقف الرسول ﷺ من اليهود الذين كانوا في داخل المدينة، تعلمون أنه في داخل المدينة تعيش ثلاث قبائل كبرى لليهود: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وفي شمال المدينة المنورة ووادي القرى تعيش مجموعة ضخمة أخرى من اليهود متجمعة أساساً في منطقة خيبر، كيف تعامل ﷺ مع هذه الطوائف والقبائل المختلفة من اليهود؟

طبيعة اليهود وكيفية تعاملهم مع المسلمين

حتى نعرف تعامل الرسول ﷺ مع اليهود لابد أن نأخذ خلفية عن طبيعة اليهود، وخلفية عن إستراتيجية اليهود في التعامل مع المسلمين، ملخص تعامل اليهود مع المسلمين مذكور في قول

الله عز وجل: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [المائدة:82]، رأينا في الدرس الماضي المكائد والمؤامرات من قريش الكافرة في حربها ضد رسول الله ﷺ إلا أن حرب اليهود أشد، وعداوة اليهود أشد، ومكر اليهود أشد؛ ولذلك بدأ بهم رب العالمين سبحانه وتعالى في قوله: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ} [المائدة:82].

لنر طريقة تعامل المنهج الإسلامي مع اليهود، وطريقة تناول التشريع الإسلامي لقضية اليهود.

قبل أن يهاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة كان هناك إعداد نفسي ومعنوي للصحابة؛ من أجل أن يعرفوا إلى أين سيذهبون بعد ذلك، مع أنه مدة فترة مكة لم يعلم المسلمون أنهم سيرحلون ويهاجرون إلى المدينة المنورة، حيث تجمعات اليهود الكبيرة، لكن هذا إعجاز ظاهر في كتاب رب العالمين سبحانه وتعالى، فكثير من الآيات القرآنية ذكرت اليهود في فترة مكة، والآيات المكية التي تحدثت عن اليهود وعن بني إسرائيل أكثر من أن تحصى، إن هذا المنهج جميل نريد أن نقف عنده وقفة، فنقول: إن ربنا سبحانه وتعالى كان يوسع الأفق عند المسلمين، فقبل أن تعرف أنك ستلتقي مع اليهود، وقبل أن تعرف أنه سيكون لك دولة في مكان ما، فإن الله سبحانه وتعالى يوسع لك الأفق، ويعرفك بما هو موجود في الأرض الآن، تجد آيات يستغربها المحلل لها، إلا أن يفقه المنهج الإسلامي الرفيع الذي أوحى به رب العالمين سبحانه وتعالى إلى نبيه الكريم ﷺ.

تجد مثلاً آيات في القرآن المكي عن الروم، وآيات في القرآن المكي عن اليهود، تجد الرسول ﷺ يخبر الصحابة عن ملوك العجم، يخبرهم عن قيصر وكسرى والمقوقس، يعرف زعماء العالم في زمانه، مع أن المسلمين في فترة مكة كانوا مضطهدين ومشردين وليست لهم دولة ولا شوكة، وكانوا مأمورين رضي الله عنهم أجمعين في فترة مكة المكرمة بالكف عن المشركين، واحتمالية قيام دولة كانت بعيدةً جداً في الحسابات المادية، ومع ذلك فإن رب العالمين سبحانه وتعالى كان

يعلمهم كيف يدور العالم حولهم، وهذا منهج حياة لابد أن نأخذ به، لا نقول: إننا دولة إسلامية بسيطة أو مجموعة من الملتزمين البسطاء القلة، لا داعي إلى معرفة أحوال العالم، وحقيقة أنك تحزن جداً عندما تجد شباباً كثيرين لا يعرفون عن أحوال الدنيا شيئاً، لا يعرفون ما الذي يحصل في فلسطين، وما الذي يحصل في الشيشان، وما الذي يحصل في كشمير، والعراق، والسودان، وما الذي يحصل بين الهند وباكستان، وما الذي يحصل بين أمريكا وروسيا، وما الذي يحصل بين أمريكا والصين، فالعلاقات الدولية الكثيرة المعقدة المتشابكة التي حول المسلمين لابد أن يفقهها المسلمون؛ لأنه سيأتي يوم من الأيام يستفيدون من هذه الأمور، فتظهر قوى وتندثر أخرى، وقد يؤثر ذلك سلباً أو إيجاباً على المسلمين.

تحدث القرآن المكي كثيراً عن بني إسرائيل، قبل أن يعرف المسلمون أنهم سيذهبون إلى المدينة المنورة، وقد ترك القرآن المكي انطباعات إيجابية كثيرة عن اليهود، وهذا الغرض معروف، وسنتكلم عنه بعد قليل. كان يتحدث القرآن المكي عن بني إسرائيل دائماً بلفظ بني إسرائيل، لم يذكر كلمة اليهود أبداً؛ لأن كلمة اليهود استحدثت بعد ذلك في بني إسرائيل، جاءت هذه الكلمة بعد أن خالفوا كثيراً، لكن في الفترة التي كانت قبل المخالفة، وكانوا فيها أتباعاً لموسى عليه السلام ومن بعده من الأنبياء، كان يطلق عليهم في القرآن الكريم: بنو إسرائيل. وإسرائيل هو نبي الله يعقوب عليه السلام، فنسبة هؤلاء إلى نبي تعطي لهم تشريفاً وتكريماً وتعظيماً، فترفع قيمة بني إسرائيل في قلوب المسلمين.

أيضاً تكررت كلمة (أهل الكتاب) ثلاثين مرة في القرآن كاملاً، منها آية واحدة فقط في القرآن المكي، وجاءت في قوله تعالى: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت:46]، فلفظة: (أهل الكتاب) تضم اليهود والنصارى، وجاء فيها الأمر بالمخاطبة بالتي هي أحسن.

وتحدث رب العالمين سبحانه وتعالى في كثير من الآيات عن موسى عليه السلام، وتكرر ذكر موسى عليه السلام في القرآن 136 مرة، منها 122 مرة في القرآن المكي، تركيز وتكثيف كبير جداً على قصة موسى عليه السلام، ومعظم قصة موسى مع فرعون، وليس عن مخالفات بني إسرائيل الكثيرة، وإن كان هذا موجوداً.

إجمالاً: ذكر رب العالمين سبحانه وتعالى أنه أعطى بني إسرائيل كثيراً وكثيراً، حتى قال سبحانه وتعالى في القرآن المكي: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدخان:32]، وهناك آيات كثيرة تشبه هذا المعنى، وذكر ما فعله الرسول ﷺ مع اليهود لتأليف قلوبهم عندما دخل الرسول ﷺ المدينة حاول أن يرقق قلوب اليهود، وأراد إشعارهم بأنهم فريق واحد من المؤمنين، فعمل شيئين بوحي من رب العالمين سبحانه وتعالى.

الأمر الأول: هو اتجاه القبلة ناحية بيت المقدس، ثبت في البخاري ومسلم أن الرسول عليه السلام توجه إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً من بداية دخوله المدينة حتى قبيل بدر بقليل كما سنرى إن شاء الله في الأحداث، وهذه القبلة الواحدة تعطيهم انطباعاً واضحاً أنهم فريق واحد يتجهون إلى قبلة واحدة، فنحن وهم نعبد إلهاً واحداً، ونؤمن بالأنبياء السابقين جميعاً. بقيت جزئية واحدة فقط، وهي أن اليهود يؤمنون برسول الله ﷺ، الذي هو مذكور عندهم في الكتب المقدسة لاسيما التوراة والإنجيل، وعندهم علامات وبشارات كثيرة تؤكد أنه هو النبي الخاتم ﷺ.

الأمر الثاني: صيام يوم عاشوراً. لما دخل الرسول ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال ﷺ: فنحن أحق وأولى بموسى منكم، فصامه ﷺ، وأمر المسلمين بصيامه) فالمسلمون واليهود

يصومون يوماً واحداً في السنة، وهذا اليوم فيه تعظيم لموسى عليه السلام، بل وتقليد له، فالرسول ﷺ وهو النبي الخاتم وأتباعه المؤمنون يقلدون موسى عليه السلام في صيامه لهذا اليوم الذي نجاه الله عز وجل فيه، فكل هذا تقريب للقلوب، ومحاولة لاكتساب قلوب اليهود، فنحن لسنا أعداء لليهود، فكلنا نعبد إلهاً واحداً.

قصة إسلام عبد الله بن سلام وموقف يهود بني قينقاع من إسلامه

بدأ ﷺ في دعوته لليهود، وجمع اليهود مرة ومرتين وثلاثاً، كان يجمع القبائل بعضها مع بعض أحياناً، وأحياناً يخاطب الأفراد ﷺ. وجاء إليه أناس من بني قينقاع ومن بني النضير ومن بني قريظة، وأول من جاء إليه عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه، كان اسمه الحصين بن سلام رضي الله عنه قبل أن يسلم، وسماه الرسول ﷺ عبد الله وهو من بني قينقاع، لما سمع بقدوم الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة أراد أن يختبره ليعرف أهو الرسول المذكور في التوراة أو غيره؟ فذهب إليه وقال له: (إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟) فقال رسول الله ﷺ: (أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبقت كان الشبه لها، قال: أشهد أنك رسول الله)، ثم قال:(يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك) أي: يكذبونني، يقولون: أنت تقول كلاماً ليس موجوداً في التوراة، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت -أي اختبأ داخل البيت- فقال ﷺ: (أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟) قالوا: (أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، وسيدنا وابن سيدنا)، فقال ﷺ: (أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟) قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم ذلك مراراً، فقالوا مثل ذلك. فخرج

عبد الله إليهم، فقال: (أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشـهد أن محمـداً رسـول الله)، فقـال اليهـود: (شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه).

وفي رواية: (أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه قال لهم: يا معشـر اليهـود؛ (اتقـوا الله، فوالذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله جاء بحق)، قالوا: (كذبت، فـأخرجهم ﷺ) وهنا وضحت الرؤية تماماً أمام الرسول ﷺ، فاليهود كلهم يعرفـون تمـام المعرفـة أنـه رسـول، ومع ذلك ينكرون.

أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه، وأسلم بعد ذلك مجموعة قليلة جداً من اليهـود، أما عموم اليهود فقد ظلوا على كفرهم. هذا كان موقف بني قينقاع.

موقف بني النضير وبني قريظة من رسالة محمد ﷺ

كان من بني النضير حُيَيّ بن أخطب وهو مشهور، وأخوه أبو ياسر بن أخطـب، وبنـو النضـير قبيلة قوية جداً، فيها الكثير من أشراف اليهود، منهم: سلام بن أبي الحُقَيق وسلام بن مِشـكم، وكعب بن الأشرف.

تحكي أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها وأرضاها قصة قدوم حيـي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ، فتقول: (إن حيي بن أخطب وعمها أبا ياسر بن أخطب ذهبا إلى الرسول ﷺ في الصباح). تقول: (فلم يرجعا حتى كانا مع غـروب الشـمس)، قالـت: (فأتيـا كالين -كسلانين- يمشيان الهوينا، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله مـا التفـت إلي واحـد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هـو؟) أي: يا ترى أهو الرسول الذي جاء في التوراة؟ قال: (نعم. والله هو)، قـال: (أتعرفـه وتثبتـه؟) قال: (نعم). قال: (فما في نفسك منه)، قال: عداوته -والله- ما بقيت.

سبحان الله؛ وفوق ذلك يحلف ويقول: عداوته -والله- ما بقيت.

بذلك وضح حيي بن أخطب منهج اليهود في التعامل مع الدين الإسلامي الجديد، وهو المنهج الذي ظل سارياً عند اليهود إلى يومنا هذا إلا من رحم الله تعالى. وهكذا فإن بني النضير بكاملهم لم يسلم منهم واحد.

كذلك بنو قريظة لم يسلم منهم أحد، وهذا موقف عجيب جداً يحتاج إلى وقفة وتحليل ودراسة لطبيعة هؤلاء البشر الذين يتعاملون مع رسول يعلمون أنه رسول بهذه الصورة، لكنك عندما تراجع قصتهم مع سيدنا موسى عليه السلام، فإنك تستطيع أن تفهم لماذا عملوا هكذا مع رسولنا الكريم ﷺ.

المعاهدة النبوية مع اليهود وأسبابها

رفض اليهود جميعاً الإسلام تقريباً؛ لذلك قرر الرسول ﷺ أن يقوم بمعاهدة بين المسلمين واليهود. ومن المهم جداً أن ندرس ظروف هذه المعاهدة وبنودها؛ لكي نستطيع أن نقارن بين واقعنا الذي نعيشه الآن، وبين ما فعله رسول الله ﷺ.

عقد الرسول ﷺ هذه المعاهدة وحافظ عليها، وفي نفس الوقت هو الذي أجلى بني قينقاع، ثم بني النضير، وهو الذي قتل بعد ذلك رجال بني قريظة، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة في كل خطوات حياته. فلابد أن نعرف متى عاهد؟ ومتى حارب؟ ومتى قبل من اليهود بعض البنود في المعاهدة؟ ومتى لم يقبل منهم أن يمكثوا في المدينة المنورة يوماً واحداً؟ هذه أمور تحتاج منا إلى بحث دقيق.

قد يكون في قرارة نفس واحد منا غيظ وحقد كبيرين على اليهود؛ لأنهم علموا أنه الرسول الحق، ومع ذلك لم يتبعوه، والدين الإسلامي والشرع الإسلامي لا يظلم الناس شيئاً، فليس

معنى قيام دولة إسلامية أن تهضم حقوق أهل الكتاب، والعلاقة بين المسلمين وبين أهل الكتاب واضحة جداً في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، لخصها الله عز وجل في سورة الممتحنة، قال سبحانه وتعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة:8 - 9]. الإسلام قفزة حضارية هائلة، فالعالم اليوم بالكاد يتحدث عن قبول الآخر وعن الاعتراف به وسماعه، لكن الإسلام يتجاوز هذه المسألة إلى ما هو أعظم منها، العالم الآن قد أصبح في طفولة حضارية، والإسلام منذ 1400 سنة نزل بما هو أعظم وأعلى وأسمى من ذلك، نزل بالإحسان إلى الأخ والبر به والعدل معه والرحمة به وهكذا، فليس معناه أن الرسول ﷺ يكره أهل الكتاب على الدخول في الإسلام، مع أنه كان يتفطر حزناً ﷺ على يهودي أو نصراني يموت على غير الإسلام، ومع ذلك لا يستطيع أن يكرهه؛ لأن هذا ليس من شرعنا، قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:256].

الرسول ﷺ قرر أن يعقد معاهدة مع اليهود، واعلم أن فرصة الدعوة ما زالت موجودة، فلم يكن هناك تاريخ عدائي يذكر بين المسلمين واليهود وقتئذ، نعم، هم كذّبوا الآن، ولكن قد يفتح الله عز وجل قلوبهم إن شاء الله في المستقبل، والرسول ﷺ ما كان ييئس مطلقاً من دعوة إنسان، فقرر أن يعمل معهم معاهدة.

بنود المعاهدة النبوية مع اليهود

إن بنود المعاهدة مع اليهود تستخلص منها قواعد المعاهدات في الإسلام، وأصوله، وهذه المعاهدة بهذا الوصف توضح مدى التجني على السيرة النبوية، الذي قام به من شبّه المعاهدات

الحديثة في زماننا مع اليهود بالمعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهـود في زمانـه، وشـتان بين المعاهدتين. تعالوا بنا لنرى بنود معاهدة الرسول ﷺ:

أولاً: أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وهذا البند يوضح لنا حقيقة كبرى، قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:256] فللمسلمين دين ولليهود دين، وفي هـذه المعاهدة تعريف كل اليهود الموجودين في داخل المدينة المنـورة بأسـماء قبـائلهم، أي يهـود بنـي النجار، يهود بني حارثة، يهود بني ساعدة، يهود بني عوف وهكذا.

ثانياً: أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

أي: الذمة المالية لهم محفوظة تماماً من قبل زعيم الدولة في ذلك الوقت ﷺ، فلـيس معنـى أننـا عاهدناهم، وأن الزعامة في الدولة والرئاسة في الدولة للمسلمين أن يؤخذ حقهم، أو أن تؤخذ ممتلكات لهم، بـل لهـم حريـة التملـك مـا دامـوا في عهـدهم مـع المسـلمين في داخـل الدولـة الإسلامية، وفي نفس الوقت فيها نوع من تميـز المسـلمين عـنهم، فـلا تعنـي هـذه المعاهـدة أن الأمور ستتميع، ويصبح الاقتصاد الإسلامي ممزوجاً بالاقتصاد اليهودي، لا، ليس للمسـلمين دخل بحياتهم، بل لهم حياتهم المستقلة التي يعتزون بها، ويدخل الرسول ﷺ في المعاهـدة هـذا البند؛ لأن الاقتصاد في تلك اللحظة كان معظمه في أيدي اليهود.

ثالثاً: أنه في وقت الحرب يتغير هذا الأمر، فإذا حـدث حـرب أو حصـار عـلى المدينـة المنـورة، فالجميع بحق المواطنة يدافع عن المدينة المنورة، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

أي: ما دام المسلمون واليهود يعيشون في بلدة واحدة، لزم الجميع الدفاع عن البلـد إذا حصـل غزو خارجي.

رابعاً: أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين أي: إذا حصل حرب تجتمع النفقة من الطرفين للدفاع عن البلد. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن النصر للمظلوم، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. كلها أمور تحفظ لليهود شأنهم في داخل الدولة التي يتزعمها محمد ﷺ.

خامساً: هناك بند خطير جداً وفي منتهى القوة: يقول ﷺ: (وأنه لا تجار قريش ولا من ناصرها) وهذا بند خطير. فهذه المعاهدة مكتوبة، وقع عليها الرسول ﷺ ووقع عليها اليهود، وهو أنه إذا دهم يثرب أي عدو فعلى الجميع أن يتعاون في صده، حتى ولو كان هذا العدو قريشاً، ولم يكن بين قريش واليهود خلافات قبل ذلك، بل كانت العلاقات الدبلوماسية بينهم جيدة.

فاليهود بهذه المعاهدة قرروا أن يقاطعوا قريشاً؛ لأنهم يتوقعون أن قريشاً تهجم على المدينة المنورة، لكن لمعرفة الرسول ﷺ أن اليهود أهل خداع ومكر وغدر وخيانة، صرح في المعاهدة باسم قريش؛ لئلا تقول اليهود في يوم من الأيام: إن قريشاً مستثناة من هذه المعاهدة، واعلم أن أي معاهدة مع اليهود لابد أن تكون كل كلمة فيها مكتوبة بمنتهى الوضوح، فقوله: (وأنه لا تجار قريش ومن ناصرها)؛ أي إذا هجمت قريش على المدينة فعلى اليهود أن يساعدوا المسلمين في حربهم لا قريشاً في حربها ضد المسلمين، وسنرى مخالفة اليهود لهذا البند في بني قريظة، ونفهم من خلفيات غضب رسول الله ﷺ على بني قريظة، عندما عاونت قريشاً على المسلمين في يوم الأحزاب، فنحن نلاحظ أن هناك قوة وصلابة في المعاهدة من طرف رسول الله ﷺ، وهو الذي كان يملي الشروط على اليهود.

سادساً: قال ﷺ: (وألا يخرج من اليهود أحد إلا بإذنه ﷺ)، وهذا مثل نظام الجوازات في الوقت الحاضر، لا أحد يغادر الدولة إلا بإذن من السلطة نفسها، فليس لقبائل اليهود في داخل

المدينة المنورة أن يخرجوا لحرب أو سفر أو لأمر من الأمور إلا بإذن الرسول ﷺ؛ لأنهم قد يشعلون نار الفتن خارج المدينة؛ فتجر هذه الفتن الويلات على المدينة المنورة بما فيها من اليهود والمسلمين. انظر إلى الفرق الرهيب بين هذه المعاهدة وبين المعاهدات التي عقدت في فلسطين مع اليهود.

سابعاً: أهم بنود هذه المعاهدة: قوله ﷺ: (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ).

لو حصل خلاف بين المسلم وأخيه، أو حصل خلاف بين المسلمين واليهود، فالحكم لله عز وجل ولرسوله الكريم ﷺ، فانظر يا أخي المسلم إلى مدى القوة، ومدى النصر والبأس الذي حققه ﷺ بهذه المعاهدة، أبعد هذا كله يشبهون المعاهدات الحديثة بهذه المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود؟!

الفوائد التي نتعلمها من المعاهدة النبوية مع اليهود

نتعلم من هذه المعاهدة أن الإسلام دين ينظم كل أمور الحياة، فها هو الرسول ﷺ الذي علم المسلمين الصلاة والصيام والقيام والقرآن وبناء المساجد يقف بكل صلابة ورجولة وقوة وحكمة وسياسية بارعة، ويعقد مع اليهود معاهدة كانت يد الله عز وجل فيها هي العليا، وقد حصل المسلمون من هذه المعاهدة اتقاء شر اليهود، والتعاون على البر وليس على الإثم، والاعتراف من قبل اليهود بدولة المسلمين الناشئة، وهي مع ذلك لها احترام وعزة ورأي.

كما أن هذه المعاهدة فيها تخذيل قوة اليهود عن معاونة قريش، وهذا نجاح كبير جداً، فها هو الرسول ﷺ فصل بين الحزبين: حزب قريش وحزب اليهود، وأي مخالفة بعد ذلك سيدفع اليهود ثمنها، والحكم والمرد إلى الرسول ﷺ.

قَبِل اليهود ولهم من العمر مئات السنين في داخل يثرب بزعامة الرسول ﷺ على المدينة المنورة، فأي فضل وخير وعظمة ونصر وتمكين في هذه المعاهدة التي تمت بين الرسول ﷺ وبين اليهود؟!

الفرق بين المعاهدة النبوية مع اليهود والمعاهدات الحديثة معهم

البون شاسع بين المعاهدة النبوية مع اليهود والمعاهدات الحديثة التي يروق لبعض المسلمين أن يشبهوها بمعاهدة الرسول ﷺ معهم، ففي معاهدة الرسول ﷺ مع اليهود لم يخالف شرع الله عز وجل، ولم يقدم تنازلاً واحداً مخلاً بالدين، وقد بيّنا أن أهم شرط في العهود مع أهل الكتاب: ألا ينقض أمر من أمور الدين، وعندما أقر العدو على امتلاكه لأرض من أراضي المسلمين فإن هذا إخلال واضح بالدين، وهذا الإخلال قد حصل في كثير من المعاهدات مع اليهود في زماننا هذا، وهو إخلال واضح في الشرع لا يقبل أبداً في معاهدة إسلامية.

ومن مخالفة الشرع أن يعقد الصلح في وقت تعين الجهاد، إذ لا تجوز المعاهدة في وقت تعين الجهاد؛ لأن من الأسباب التي تجعل الجهاد فرض عين نزول العدو في الأرض الإسلامية، كنزول اليهود في أرض فلسطين الآن.

من مخالفة الشرع أيضاً: الإقرار بالظلم، ومعاهدة الرسول ﷺ فيها: أن النصر للمظلوم، فلا يجوز عقد معاهدة يكون من جرائها أن يزج في السجون آلاف من المجاهدين، أو يكون من جرائها إقصاء عدد هائل من المجاهدين عن الأرض الإسلامية، أو يكون من جرائها مصادرة الديار والأموال والأراضي وما إلى ذلك. في معاهدة الرسول ﷺ: أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، واليهود في هذا الوقت ظلموا كل الجيران الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والمصريين. فهذه كلها مخالفات شرعية لا تجوز في معاهداتنا مع اليهود وغيرهم.

في زمن الرسول ﷺ وفي عهده كان الخروج من المدينة لا يتم إلا بإذنه، لكن الآن لا يخرج أحد من الفلسطينيين من فلسطين إلا بإذن من اليهود.

أخذ الرسول ﷺ العهد على اليهود ألا يجيروا قريشًا القوة الأولى في الجزيرة في ذلك الوقت، لكن هل أمن المسلمون شر أعدائهم بهذه المعاهدات الحديثة؟ هل اشترط المسلمون على اليهود ألا يعاونوا عدواً يضرب بلداً من بلدان المسلمين؟ هل اشترطوا عليهم ألا يعاونوا أمريكا مثلاً في ضرب العراق أو سوريا أو إيران أو السودان أو غيرها من بلاد العالم الإسلامي؟ كل هذا لم يحدث، لكن أهم ما في الأمر أنه عند الاختلاف من يحكم بيننا؟ في معاهدة الرسول ﷺ كان الحكم هو الله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ، وهذا مصرح به في المعاهدة، ووقع عليه اليهود، أما الآن فالمرد إلى الأمم المتحدة، أو قل: إلى أمريكا، ثم بعد ذلك من أعطى فلسطين لليهود؟ إنها الأمم المتحدة، هي التي أنشأت قرار التقسيم وأعطت جزءًا كبيراً جداً من فلسطين لليهود، وبعد ذلك أعطتها لهم كلها، فالواقع يا إخواني أن المعاهدات في العصر الحديث مختلفة اختلافاً بيناً حقيقيًا عن المعاهدة التي عقدها الرسول ﷺ، فلا وجه للمقارنة أبداً.

أسباب موافقة اليهود على المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ معهم

نقف وقفة مع موافقة اليهود على هذه البنود التي في المعاهدة، مع أنهم قوة لا يستهان بها، فاليهود أعداد كبيرة، ولديهم سلاح وقلاع واستقرار وتاريخ ومال، وأشياء كثيرة جداً وقوية، والدولة الإسلامية ما زالت في طور الإنشاء ولم يعترف بها أحد بعد، فلماذا قبل اليهود بهذه الدَنية في هذه المعاهدة؟ ولماذا سلموا رقابهم هكذا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين مع قوتهم؟

أولاً: من طبيعة اليهود الجبن الشديد، والله سبحانه وتعالى ذكر ذلك في أكثر من موضع في كتابه الكريم: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} [الحشر:13].

وقال: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة:96].

فالجبن الشديد شيء داخلي فطري في اليهود، وهذا لابد من معرفته جيداً في تعاملنا مع اليهود.

ثانياً: لو أن هذا الجبن الشديد قوبل بجبن أكبر، فإن الكفة ستكون في صالح اليهود، لكن الرسول ﷺ كان يقف في صلابة وقوة وبأس واضح، والمؤمنون معه على قلب رجل واحد، وما ذلك إلا لوحدتهم. فالقوة التي وقف بها الرسول ﷺ هو الثبات على المبدأ، وتسابق الصحابة بشتى طوائفهم أوس وخزرج ومهاجرين من مكة المكرمة وغيرهم، وكل هؤلاء يسمعون ويطيعون لقائد واحد بمنهج واحد، وكل هذا كان له أثر كبير في إيقاع الرهبة في قلوب اليهود.

ثالثاً: الفرقة الشديدة بين فرق اليهود، فنحن نتكلم على اليهود وكأنهم فريق واحد، لكن بني قينقاع غير بني النضير وغير بني قريظة وكل فرقة لها مع الفرقة الأخرى عداوات، قال الله في كتابه: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [الحشر:14]، وفي ظاهر الأمر تظن أن دولة اليهود موحدة، لكن الله يقول: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} [الحشر:14].

فبنو قريظة كانت تحالف الأوس، وبنو قينقاع وبنو النضير كانا يحالفان الخزرج، وعندما تقوم حرب بين الأوس والخزرج تقوم حرب بين بني قريظة وبين بني قينقاع وبني النضير وهكذا. بينهم شقاق وخلاف كبير جداً، والرسول ﷺ يعلم ذلك الأمر، وقال هذه الكلمات في معاهدته بقوة، وهو يعلم أن اليهود لن يجتمعوا أبداً على قلب رجل واحد بنص كلام رب العالمين سبحانه وتعالى.

رابعاً: المصالح، فاليهود قبلوا بهذه التنازلات حفاظاً على مصالحهم، هم لا يريدون الدخول في مواجهة مع الأوس والخزرج؛ وذلك لأن الأوس والخزرج هم الذين يشترون منهم ما يبيعونه، فلو حصل حرب مع الأوس والخزرج ضاعت التجارة اليهودية، والتجارة والمال هما عصب حياة اليهود، فهم يحرفون الكتاب ويخونون العهود ويغيرون المواثيق من أجل حفنة من المال، والله عز وجل يقول عنهم في كتابه: {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [النساء:161].

خامساً: الرهبة والجلال الذي يقع في قلوب الكافرين عند لقاء المؤمنين، وهذا شيء ليس له أدلة في يدك، بل هو شيء رباني وجندي من جنود الرحمن، قال الله عز وجل: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [الحشر:2]، بدون أي مبررات مادية يقع الرعب في قلوب الكافرين عند لقاء المؤمنين، بشرط أن يتحقق الإيمان في قلوب المؤمنين، فالله عز وجل وعد أن ينصر من نصره: {إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد:7].

وقال ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)، قبل أن يلتقي الرسول ﷺ مع عدوه بشهر يكون العدو مرعوباً، مع أن الفارق في القوة كبير جداً، وهو لصالح العدو، هناك فارق في القوى المادية والأعداد والعتاد والحصون والقلاع والتاريخ والسلاح، أمور كثيرة في صالح العدو، ومع ذلك يقع الرعب في قلوبهم؛ لأن الله عز وجل هو الذي يضعه في قلوبهم: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [الأحزاب:26].

لهذه الأسباب جلس اليهود على طاولة المفاوضات مع الرسول ﷺ، ودب الرعب في قلوبهم، وقبلوا بهذه البنود. في أزمان أخرى إذا رأيت بأس اليهود وقوتهم على المسلمين فاعلم أن المسلمين خالفوا شرع ربهم سبحانه وتعالى؛ ولذلك هانوا على الله عز وجل، فهانوا بعد ذلك على اليهود وعلى غيرهم من الناس، تجد خمسة ملايين يهودي يملون قراراتهم على مليار وأكثر

من المسلمين، وهذا ميزان مقلوب وليس هذا لقوة اليهود، وإنما هو لضعف المسلمين، فلابد أن يعود المسلمون إلى دينهم؛ ليحكموا حكماً صحيحاً في ضوء الشرع الحكيم.

موقف اليهود بعد عقد النبي ﷺ المعاهدة معهم

هناك شيء مهم في موضوع المعاهدات: وهو أنه لابد للحق من قوة تحميه، فإذا كنت معاهداً لليهود فلابد أن تكون لك قوة تحميك، ليس من الحكمة مطلقاً أن تعاهد اليهود دون أن يكون لك قوة مخوفة لليهود، حتى ولو كانت كل البنود شرعية؛ لأن من طبيعتهم التمرد والمخالفة ونقض العهود، فإذا لم يكن معك قوة فما أيسر المخالفة عندهم، وانظر إلى قول الله عز وجل: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [البقرة:100] فلو افترضنا أن اليهود خالفوا مخالفة صريحة للمعاهدة ماذا ستعمل؟ هل ستكتفي بالشجب والإدانة والصراخ والولولة ولطم الخدود؟ لا؛ لأن هذا كله لا ينفع مع موازين القوى العالمية.

المعاهدات مع اليهود تحتاج إلى رجولة، وتحتاج إلى قوة وشجاعة، فلابد أن ترجع إلى معاهدة الرسول ﷺ ماذا فعل؟ ولابد أن تعرف إذا خالف اليهود ماذا تفعل؟ وكيف تتصرف؟ فماذا فعل اليهود بعد هذه المعاهدة؟ مع وفاء المسلمين بالعهد إلا أن اليهود بدءوا يتحرشون بالمسلمين، وكعادة اليهود يتحرشون دائماً بالمسلمين بصورة غير مباشرة، أي: يدفعون غيرهم للعمل دون أن يكون لهم ظهور واضح في الأمر.

تأثير اليهود فكرياً على المسلمين والمشركين في المدينة

هناك أناس يفكرون في الإسلام ويريدون أن يدخلوا فيه، فبدأ اليهود في إثارة الشبهات، كما هو معروف الآن بالإعلام اليهودي، فالإعلام اليهودي في هذا الوقت الحاضر أداة من أكبر أدوات الحرب لديهم. كذلك نفس هذا النظام كان يعمل أيام الرسول ﷺ، على سبيل المثال:

يعلنون أمام الأنصار أن هذا ليس هو الرسـول الـذي في كتـبهم، ولسـان حـالهم: نحـن أدرى بكتبنا، كان معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه في حوار مع اليهود.

قال لهم: (يا معشر يهود؛ اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تسـتفتحون علينـا بمحمـد ﷺ). كـانوا يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتـل عـاد وإرم، فلـما بعـث الله عـز وجـل رسوله الكريم ﷺ كفروا به كما رأينا، فـ معاذ بن جبل يقول لهم متعجباً: كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فما الذي غيركم؟ فقال رجل من أشراف بني النضير اسمه سلام بن مشكم: (ما جاءنا بشيء نعرفه، ومـا هـو بالـذي كنـا نـذكر لكـم)، فأنزل الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة:89].

الشيء الآخر في التأثير الفكري: أنهم فكروا في خطة في منتهى الخبث، فكروا أن يؤمنـوا قلـيلاً مع رسول الله ﷺ ثم يتركوه ويقولوا: لما دخلنا معه وجدنا أنه على باطل؛ فيهتز المسلم الجديـد ويتردد الذي يفكر في الإسلام. وقال الله عز وجل في ذلك: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران:72] ثم إنهم بدءوا يكذبون القرآن الكريم، على سبيل المثال: القرآن الكـريم ذكـر أن الجنة للمؤمنين، وأن النار لمن كذب وكفر، قال الله سبحانه وتعـالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [البينة:6].

اليهود يقولون: نحن سندخل النار فترة محدودة جداً من الزمن قيل في بعض الروايات: سـبعة أيام، وفي بعض الروايات: أربعين يوماً وبعد ذلك نخـرج مـن النـار، ويـدخل الله عـز وجـل

المسلمين النار أبد الآبدين، فأنزل الله عز وجل قوله: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة:80]، ودعاهم ﷺ إلى تمني الموت، فيموت أكذب الفريقين، فرفضوا ذلك.

قال ابن عباس: (لو تمنى اليهود الموت لماتوا). وقال الله عز وجل في ذلك: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة:94 - 95] فهم يعلمون أنهم إذا تمنوا الموت أمام رسول الله ﷺ، ليعرف من هو أكذب الفريقين فإنهم هم الذين سيموتون؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الأكذب؛ ولذلك لم يفعلوا. قس على هذا الأمر أحداثاً كثيرة؛ حتى إنهم في النهاية أنكروا نبوة سليمان عليه السلام، وذلك لأن الله عز وجل ذكر في كتابه أنه نبي، فأنكروا نبوته واتهموه بالسحر، وطعنوا في أنبيائهم للطعن في القرآن الكريم، والآيات التي نزلت في ذلك كثيرة، وليس المجال للتفصيل فيها.

لذا نفهم أنه من أهم وسائل حرب اليهود للمسلمين هو التأثير الفكري عن طريق الحرب الإعلامية التي فعلوها، وإثارة الشبهات عند المسلمين، أو عند من يفكر في الإسلام.

تأثير اليهود الاقتصادي على أهل المدينة

ثانياً: التأثير الاقتصادي، فقد ذهبوا إلى الأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ، وأمروهم ألا ينفقوا على من عند رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل في ذلك: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء:37] أي: يكتمون التوراة، فهم يبخلون بالمال، ويأمرون الأنصار بالبخل بمالهم، وبذلك يؤثرون سلباً على اقتصاد المسلمين.

محاولة اليهود التفرقة بين المسلمين من الأنصار في المدينة

ثالثاً: محاولة التفرقة بين الصف المسلم، وفك الرباط القوي الذي صنعه ﷺ بين الأوس والخزرج، وقام بهذه المحاولة رجل يهودي كبير في السن اسمه شاس بن قيس. قال كلمة هي في الحقيقة حكمة، قال: (يا معشر يهود؛ تعلمون والله أنه لا مقام لكم في يثرب إذا اجتمع أبناء قيلة).وأبناء قيلة: هم الأوس والخزرج؛ وذلك لأنه لو حصل هذا الاجتماع فإنه ستتوطد قوة الرسول ﷺ داخل المدينة المنورة، وفي هذا إيذاء لليهود، فهم يكرهون الرسول ﷺ.

كذلك اليهود تجار سلاح، وكانوا يربحون أموالاً طائلة من الحرب بين الأوس والخزرج. فالرسول ﷺ وحد الأوس والخزرج الآن، فلا يوجد هناك حرب، وستضيع قوة كبيرة جداً من القوى الاقتصادية عند اليهود، وهي قوة تجارة السلاح، فبعث شاس بن قيس شاباً وقال له: (اجلس في مجلس فيه الأوس والخزرج واذكر يوم بعاث، وذكرهم بأشعار يوم بعاث، فتتحرك فيهم النخوة والحمية والقبلية والجاهلية فيصطرع القومان)، وبالفعل ذهب ذلك الشاب وعمل هذا العمل، وجلس يقول تلك الأشعار بجانب هذا وهذا، ودخل الشيطان بين الأوس والخزرج، مع أنهم من عمالقة الإيمان حقيقة، لكن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، وقام واحد من الأوس وواحد من الخزرج فتصارعا، ثم قال أحدهما لصاحبه: (إن شئتم رددناها جذعة)، أي: نرجع مرة أخرى إلى يوم بعاث ونجعلها حرباً جديدة، فغضب الفريقان جميعاً الأوس والخزرج، وقالوا: (قد فعلنا، موعدكم الظاهرة -مكان يدعى الحرة الآن- السلاح السلاح)، فخرجوا إلى الحرة في لحظة من لحظات الضعف التي دخل فيها الشيطان فيها إلى قلوب الأوس والخزرج، وكادت أن تقوم مهلكة عظيمة بين الفريقين. كان الرسول ﷺ جالساً وسط مجموعة من المهاجرين، فلما وصله النبأ الخطير قام مسرعاً يجر ثوبه حتى وصل إلى الأنصار وقال كلمات تختلف تماماً عن الكلمات التي قالها

الرسول ﷺ في حل المشكلة القديمة التـي دارت قبـل ذلـك بـين مشــركي الأوس والخـزرج ومؤمني الأوس والخزرج، والتي هيّج هذه المشكلة عبد الله بن أبي ابن سلول.

ففي الحدث السابق ذكرهم الرسول ﷺ بالقبلية، وذكـرهم بالتحـدي لقـريش، لكـن في هـذا الحدث يقول الرسول ﷺ: (يا معشر المسلمين؛ الله الله) ذكرهم برابطة الإسلام وذكـرهم بـالله عز وجل: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهـركم؟)، علمهـم أن دعـوى الفرقـة بـين المسـلمين دعوى الجاهلية، هكذا عرفها ﷺ، فـدعوى القوميـة: أنـا أوسي وأنـت خزرجـي مـن دعـوى الجاهلية، ثم قال: (بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع عنكم الجاهلية واسـتنقذكم بها من الكفر، وألف بين قلوبكم؟) فـالحوار مختلـف تمامـاً، يـذكرهم بـرب العـالمين سـبحانه وتعالى، ويذكرهم بالإسلام، يذكرهم بقال الله وقال الرسول ﷺ؛ لأن نوعية المخاطب مختلفة، وشتان بين الخطاب لمجموعة مختلطة من المشركين مع المؤمنين، والخطاب لمجموعة خالصة من المؤمنين.

عرف القوم أنها نزغة من نزغات الشيطان، وكيد من أعدائهم، فبكوا في لحظتهم وتأثروا جميعـاً في لحظة واحدة، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، كأنه لم يحصل شيء.

مرت المشكلة بسلام، ولم يحدث أذى في داخل الصف المسلم، لكن ظهرت خطورة اليهود على المسلمين، وأنزل الله عز وجل في شاس بن قيس قوله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَـا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُـدُّونَ عَـنْ سَـبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران:98 – 99].

وأنزل سبحانه وتعالى أيضاً قولاً في الأوس والخزرج. قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران:100 – 101].

تتوالى الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [آل عمران:102–103].

فهذه محاولات مستمرة من اليهود للتفريق بين المسلمين، ولحصار المسلمين اقتصادياً، ولتشكيكهم في دينهم، وكل هذه محاولات مكثفة متكررة، ومع ذلك كان رد فعل المسلمين هو كظم الغيظ، ومحاولة تجنب الصدام قدر المستطاع، حيث نزل التوجيه الرباني للمسلمين بذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:109]، فنحن نرى هنا مخالفة واضحة من اليهود، وهذه المخالفة لم تصل إلى درجة القتال والإخراج من الدين، ولم تصل إلى درجة مظاهرة الكفار على إخراج المسلمين من ديارهم؛ لذلك كان المطلوب من الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الوقت أن يعفو ويصفح، ويصل بدعوته إلى اليهود، وإلى أولئك المكذبين الجاحدين، فاستمرت الدعوة الإسلامية إليهم، واستمرت محاولات تجنب الصدام بين المسلمين.

وفي نفس الوقت كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف أن قوة المسلمين ما زالت في طور الإنشاء، وقوة اليهود كبيرة، ولعل الدخول في معركة مع اليهود في ذلك الوقت ليس في مصلحة الأمة الإسلامية، فكان الصبر هو الحل.

اتهام فِنْحاص ربنا عز وجل بالفقر ورد ابي بكر الصديق عليه

إن الصبر والحكمة من الرسول ﷺ وصحابته شجع اليهود على تجاوزات أكبر، من ذلك ما حدث عندما دخل الصديق رضي الله عنه وأرضاه بيت المدراس، وهو بيت كبير يعلم فيه اليهود التوراة، ويقوم فيه بالتعليم حبر من أحبار اليهود اسمه فنحاص، ومعه آخر يساعده اسمه أشيع، فدخل أبو بكر على اليهود وهم يعلمون التوراة بطريقتهم، بتحريفها وتزويرها وتبديلها، وبإنكار نبوة الرسول ﷺ، فلما دخل الصديق وسمع هذا الكلام قال لـ فنحاص ومن معه: (يا فنحاص؛ اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ﷺ، وقد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة)، فقال فنحاص لـ أبي بكر: (والله يا أبا بكر؛ ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير) -أعوذ بالله أي: لسنا محتاجين إليه وإنما هو الذي يحتاج إلينا- (وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا! وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا). تخيل معنى الكلمات، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة:245]، فهو يقول: إن هذا نوع من الربا، ألست تعطي الله أموالاً وهو يضاعفها لك، فهذا ربا، فكيف ينهى عن الربا ويأخذه؟ فانظروا إلى مدى اعوجاج هذا الخبيث، هذا هو فنحاص، كلام يعبر عن نفسية ممزقة تماماً، هي نفسية فنحاص ومن كانوا على دينه.

لم يجد أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه كلاماً يرد به عليه، فرد بيديه وضرب فنحاص ضرباً شديداً في وجهه حتى اختفت معالم وجهه، وذهب إلى رسول الله ﷺ يحكي له الموقف، وكان تصرف أبي بكر على غير ما اتفق عليه المسلمون، إذ كان المسلمون مأمورين بالعفو والصفح وعدم الإيذاء.

فجاء فنحاص يشتكي إلى الرسول ﷺ ما فعله أبو بكر به، وقال له: انظر ما صنع بي صاحبك، فقال ﷺ لـ أبي بكر الصديق: (ما حملك على ما صنعت؟) فقال أبو بكر: (يا رسول الله؛ إن عدو الله هذا قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه)، فأنكر فنحاص وقال: (ما قلت ذلك)، فأنزل الله عز وجل: {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران:181]).

وهكذا أنزل الله آيات تصدق قول الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وكشفت ما قاله فنحاص عليه لعنة الله، وأنزل الله عز وجل في حق الصديق رضي الله عنه وأرضاه قوله: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [آل عمران:186] مع أن الغضب هنا كان لله عز وجل وليس للناس، ومع أن العقاب الذي فعله الصديق يعتبر مناسباً للحدث؛ لأنه اعتبر أن الدفاع الذي فعله كان مناسباً للجريمة التي فعلها فنحاص؛ لأن فنحاص سب الله عز وجل سباً وقحاً وجرح دين المسلمين، وهذا مخالف للعهد، وكان الصديق يستطيع قتل فنحاص، فقد قال لـ فنحاص كما في إحدى الروايات: (والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله) فاكتفى الصديق بهذا الأمر.

مع كل هذا إلا أن الله عز وجل أمر المسلمين بالتعقل والصبر، حتى وإن كانت الجريمة قد تمت؛ لأن الدخول في حرب في هذا التوقيت لعله يفتح على المسلمين أبواباً كبيرة من الفتن، ولعله يؤدي إلى تداعيات لا يتحملها موقف المسلمين في هذه اللحظة.

19

الطريق إلى بـــدر

قد مر علينا تقريباً ستة أشهر منذ بدء المرحلة المدنية من السيرة النبوية. الوضع داخل المدينة كان فيه شيء من الاستقرار، لكنه استقرار على بركان قابل للانفجار في أية لحظة. فالمسلمون في هذا الوقت يحكمون المدينة المنورة، لكن هناك قوى خطيرة جداً ما زالت تنتشر في المدينة، وهذه القوى كانت قوى موزعة ما بين مشرك لا يؤمن بالله عز وجل، مثل عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين، أو يهودي منحرف علم الحق واتبع غيره.

والوضع خارج المدينة أيضاً كان فيه بعض الاستقرار، لكن هناك اضطرابات كثيرة أيضاً، وهناك معاهدات مع بعض القبائل المحيطة بالمدينة، لكن تهديد قريش للمدينة كان مستمراً.

فعلاقات قريش بالأعراب حول المدينة كانت قوية، ولا يستبعد أبداً أن يحدث هجوم قرشي شامل على المدينة المنورة بتعاون مع الأعراب أو مع المشركين داخل المدينة أو مع اليهود أو مع غيرهم. فماذا يحدث إن بوغت المسلمون بهذا الهجوم؟ القتال حتى هذه اللحظة كان منهياً عنه، ولو حدث أن هجم المشركون فإن القاعدة التي كانت سارية في مكة: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر:94].

لكن الوضع في هذا الوقت تغير، والمسلمون الآن أصبح لهم شوكة، وأصبح لهم كيان ودولة، ولا يستقيم لمن أراد أن يقيم دولة إلا أن يكون قادراً على الدفاع عنها، لكن كيف يكون الدفاع،

ولم ينزل الأمر بالقتال بعد؟ نزل حكم الله عز وجل بالإذن بالقتال للمسلمين، وتغير الوضع كله وتغيرت المرحلة، نزل قول الله عز وجل: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج:39]. فالتشريع في غاية الإحكام ليس عشوائياً أبداً، بل هناك فقه المرحلة، فالمرحلة السابقة في مكة كانت تستلزم الكف والإعراض، أما هذه المرحلة فتستلزم الإذن بالقتال فقط وليس الفرض، فالإذن حسب الاستطاعة للقتال وحسب التقدير للقوة، لكن حينما يكون فرضاً فليس للمسلمين إلا أن يقاتلوا. وسنلاحظ التدرج الجميل في التربية، فإنه لا يحمل الناس مرة واحدة على شيء يركونه، فالناس بصفة عامة تكره القتال، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:216]. فبما أن عامة الناس تكره القتال كان هناك نوع من التدرج، المرحلة الأولى إعراض، وهذه المرحلة إذن، وبعد ذلك فرض، وبعد ذلك قتال عامة الناس الذين يصدون عن سبيل الله.

الاستراتيجية التي اتبعها النبي ﷺ لضرب مقدرات قريش ومهاجمة قوافلها

هذا الإذن بالقتال كان بداية تغير استراتيجي محوري مهم في خط سير المدينة المنورة، فقد أذن للمسلمين الآن أن يرفعوا عن أنفسهم الظلم الذي وقع عليهم، إن رأوا أن قدرتهم تسمح لهم بهذا. فمن هو الذي ظلم المسلمين؟ إن الذي أوقع عليهم الظلم في الأساس هم أهل مكة الكافرين، ولم يكن الظلم من شخص واحد، بل كان ظلماً متعدداً مركباً؛ ظلم في الجسد، بالتعذيب والحرق والإغراق والقتل أحياناً، ظلم في المال بمصادرته بدون وجه حق، واغتصابه بالقوة. ظلم في الديار في الطرد منها وأخذها، بل وبيعها وأكل ثمنها، ظلم في النفس بالسب والقذف وتشويه السمعة. ظلم في الحرية بالحبس والعزل عن المجتمع، ظلمات بعضها فوق بعض. فماذا يعمل المسلمون حتى يرفعوا هذا الظلم عن أنفسهم؟ لو هجموا على مكة، قد لا يكون هذا أمراً حكيماً في ذلك التوقيت، إذ قوة المسلمين ما زالت ناشئة، وأعداد المسلمين ما

زالت قليلة، والمدينة مضطربة بالمشركين واليهود، وليس من الممكن أن نترك المدينة لقتال أهل مكة، وفيها عدد هائل من المشركين واليهود الذين لم يؤمنوا بعد.

الحل كان في مهاجمة قوافل قريش التي تتجه إلى الشام. فهذه القوافل لا تحميها إلا قوة عسكرية بسيطة، وتقدر القوة الإسلامية أن تهاجمها، كما أن هذه القوافل تمر قريباً من المدينة، فلن يكون هناك جهد كبير على المسلمين، وفي نفس الوقت سيرجعون إلى المدينة بسرعة قبل أن تحصل مشاكل من اليهود أو المشركين. ثم أنهم سيستعيدون جزءاً من أملاكهم المسلوبة، ويوقعون الرهبة في قلوب أعدائهم، فكانت هذه فكرة فيها أكثر من فائدة، وبذلك يرفع المسلمون الظلم عن كاهلهم بمهاجمة قوافل قريش. وطبعاً هم في حالة حرب حقيقية، وليس هناك أي مجال لما يطعن به المستشرقون والعلمانيون بأن المسلمين يغيرون على الآمن من قريش، هذه حرب معلنة بين دولة المدينة المسلمة وبين دولة مكة الكافرة، وكل طرف من الطرفين يستحل دم الآخر وماله، وكل طرف من الطرفين يضرب مصالح الآخر، وهذا عرف في حالة الحرب متعارف عليه في كل الأزمان والأماكن، والإسلام دين واقعي يرد القوة بالقوة، ويشهر السيف في وجه من أشهر السيف عليه: {وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى:41 – 42].

ثم بعد ذلك يلومون المسلمين أنهم يهاجمون قافلة من قوافل قريش التي سلبت كل أموال المسلمين، ولا يلومون من سلب أموال شعب بكامله، وهذا يحصل كثيراً ونراه في التاريخ.

كذلك يستاءون لو أن المسلمين قتلوا من قتلهم قبل ذلك وعذبهم وشردهم، ولا يستاءون ممن أباد الشعوب بالبارود والنابالم واليورانيوم والقنابل العنقودية وغير ذلك. موازين مختلفة ومكاييل متباينة؛ لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله عز وجل.

تربية النبي ﷺ لأصحابه على الفهم الصحيح للهدف من وراء القتال

أخذ المسلمون قراراً بمهاجمة قوافل قريش المتجهة إلى الشام، لكن قبل التخطيط العسكري لمهاجمة قوة قريش لا بد من تربية خاصة لنفوس المسلمين. الآن هناك تشريع جديد، قانون يسمح بالقتال، فلابد أن نعرف لماذا سنقاتل؟ وماذا لو قتلت في المعركة؟ وماذا لو انتصرت؟ إن هذه الأمور لم يعرفها المسلمون قبل ذلك؛ لأن التشريع جديد والظروف جديدة، لكننا نجد الرسول ﷺ بدأ يعلم المسلمين ليس فقط كيف يقاتلون، ولكن في سبيل من يقاتلون.

فالقتال في الإسلام ليس إلا في سبيل الله عز وجل، ليس في سبيل النفس، ولا القائد ولا في سبيل الدنيا بأسرها، إنما هو في سبيل الله؛ لذلك فإنك تجد دائماً كلمة الجهاد في القرآن أو في السنة تأتي دائماً مقرونة بكلمة: (في سبيل الله) قال تعالى: {إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِّ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة:111] إلى آخر الآيات.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: (والذي نفسي بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل). وتجد هذا متكرراً في القرآن والسنة، وهو مخالف تماماً لأغراض الحرب عند غير المسلمين أو عند الجيوش العلمانية من المسلمين، منهم من يقاتل رغبة في سبيل المال أو السلطة أو التملك، ومنهم من يقاتل رهباً وخوفاً من القائد أو العقاب، فليست هناك قضية حقيقية يقاتل من أجلها، ومن ثم يقاتل بلا حماسة ولا روح ولا هدف؛ لذلك فليس عنده أي مانع من أن يهرب من الجيش إن أمكن الهروب، أو يهرب من أرض القتال نفسها؛ لأنه ضاعت النوايا والأهداف، أما القتال في الإسلام فمختلف، هو قتال في سبيل الله، والله عز وجل حي لا يموت؛ لذلك فإن روح الجهاد عالية بصورة مستمرة وتلقائية في كل فرد.

قام الرسول ﷺ بالإعداد التربوي والنفسي على أعلى مستوى، وأصبح الصف الإسلامي فعلاً جاهز للصدام المروع مع قريش، لكن مع ذلك لم يخرج الرسول ﷺ إلى القتال خروجاً عشوائياً دون تخطيط، بل جهز مسرح العمليات بقدر ما يستطيع، كما قلنا قبل ذلك أنه عقد بعض المعاهدات مع القبائل التي تقع في غرب المدينة المنورة، وهذه القبائل تسيطر على المنطقة التي تمر منها قوافل قريش، فالرسول ﷺ عقد معاهدات جوار ودفاع مشترك، وبهذه المعاهدات سيحيد على الأقل جانب هذه القبائل، وسيطمئن إلى أنه لن يضرب من ظهره في أثناء الحرب مع قريش، وسيقوم كما سنرى بعقد معاهدات أخرى كلما استطاع مع بعض القبائل الأخرى في المنطقة وحولها.

أسباب تكوين الدوريات الإسلامية من المهاجرين فقط

بدأت الدوريات العسكرية الإسلامية بالفعل تجوب المنطقة حول المدينة المنورة بحثاً عن قوافل قريش المتجهة إلى الشام، ونلاحظ شيئاً مهماً في هذه الدوريات، فهي مكونة فقط من المهاجرين وليس فيها أنصاري واحد، وذلك لعدة أسباب:

أولاً: المهاجرون هم الذين وقع عليهم الظلم من قريش، فحربهم مع قريش ستبقى حرباً مفهومة عند كل أهل الجزيرة العربية، فيعذر أهل الجزيرة العربية المسلمين تماماً في هذه الحرب، وبذلك لا تفهم صورة الإسلام بطريقة خاطئة وبالذات في أيام الإسلام الأولى التي لم يسمع الناس فيها عن الإسلام.

ثانياً: المهاجرون سيكونون أكثر حمية وأشد قوة في حربهم مع قريش؛ لكونهم يستردون حقاً شخصياً لهم سلبته قريش؛ لذا ستكون فرصة النصر في جيش المهاجرين أكبر من فرصة النصر في الجيش المختلط من المهاجرين والأنصار.

ثالثاً: المهاجرون يعرفون أهل قريش، ويعرفون طرق حربهم وطرق قتالهم، فقد عاشوا بين أظهرهم فترة طويلة من الزمان، فهم يعرفون القادة، ويعرفون إمكانياتهم العسكرية بكل التفاصيل، وهذا الأمر سيعطي فرصة أكبر للنصر.

رابعاً: رفع الروح المعنوية للمهاجرين، فالمهاجرون تركوا الديار والأموال، وهذه فرصة لرفع الروح المعنوية، وتعويض ما خسروه مادياً ومعنوياً.

وقد يكون هناك أسباب أخرى لاختيار المهاجرين قد لا نعلمها، لكن السبب الرئيس في هذا الأمر: هو أن الرسول ﷺ لم يرد أن يحرج الأنصار بالخروج للقتال ضد قريش خارج المدينة؛ لأن الأنصار لما بايعوا بيعة العقبة الثانية بايعوا على أن ينصروا الرسول ﷺ في داخل المدينة المنورة إن أتى إليهم، ولم يبايعوه على الحرب خارج المدينة، والرسول ﷺ لو أمر الأنصار لأطاعوه، لكنه لا يريد أن يسبب لهم الإحراج، وكان ﷺ وفياً في كل عهوده، لا يأخذ الناس أبداً بسيف الحياء.

سرايا وغزوات النبي ﷺ

كما أننا وقفنا وقفة مع نوعية المقاتلين لا بد أن نقف وقفة أخرى مع أولئك الذين استخلفهم ﷺ على المدينة المنورة عندما خرج بنفسه للقتال. هناك ثمان غزوات وسرايا تمت قبل غزوة بدر، من رمضان في السنة الأولى هجرية إلى رمضان في السنة الثانية هجرية، سنة كاملة تمت فيها ثمان غزوات وسرايا.

الغزوة: هي التي كان يخرج فيها ﷺ بنفسه، وحينها كان يستخلف أحد أصحابه على المدينة المنورة. أما السرية فهي التي يرسل فيها بعض الجنود بقائد من الصحابة، ولا يخرج فيها ﷺ.

لرسول ﷺ أربع سرايا وأربع غزوات، فالأربع الغزوات التي خرج فيها استخلف على المدينة أناساً من أصحابه، استخلف مرة سعد بن عبادة، ومرة سعد بن معاذ، ومرة زيد بن حارثة، ومرة أبا سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهم أجمعين.

أما تنوع الرجال فأمر مفهوم، فقد كان يربي قيادات تستطيع تحمل المسئولية، ويدربهم على القيادة تدريباً حقيقياً واقعياً. كما أن قيادة سعد بن عبادة وسعد بن معاذ للمدينة المنورة في غياب الرسول ﷺ أمر مفهوم أيضاً؛ وذلك لأن سعد بن عبادة سيد الخزرج، وسعد بن معاذ سيد الأوس، لكن اللافت للنظر حقاً هو ولاية زيد بن حارثة رضي الله عنه في سرية، وأبي سلمة بن عبد الأسد في سرية أخرى، وهذان الاثنان من المهاجرين وليسا من الأنصار، وولايتهم على المدينة المنورة مستغربة جداً، وإن كانت تدل على شيء فإنها تدل على أمور في غاية الرقي، منها: طاعة الأنصار الكاملة لرسول الله ﷺ، ومنها: أن المدينة أصبحت كياناً واحدًا، لا فرق فيها بين مهاجر وأنصاري، وزهد الأنصار في الدنيا، وعدم رغبتهم أبداً في الرئاسة أو الملك.

فإذا أضفت إلى كل ذلك أن زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه كان مولى يباع ويشترى علمت مدى الانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب كافة، حتى قبل أشراف الأنصار وأشراف المهاجرين بولاية زيد بن حارثة عليهم، ما دام يحكمهم بالإسلام وبأمر رسول الله ﷺ. والجميل في ذلك أن هذا التغير الهائل في طبيعة العرب لم يتطلب أعواماً ولا قروناً، بل عدة شهور فقط! زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه تولى قيادة المدينة لما خرج الرسول عليه والسلام في غزوة سفوان، وكان غزوة سفوان في ربيع الأول من السنة الثانية هجرية، أي: بعد حوالي اثني عشر شهراً من قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة. فانظر إلى

تربية الإسلام كم هي جميلة، وانظر إلى التغير الهائل الـذي يحدثـه الإسـلام في قلـوب النـاس، وهذا لا يكون إلا لمنهج رب العالمين سبحانه وتعالى.

أما بالنسبة للسرايا والغزوات التي حصلت فكانت بالترتيب الآتي: كانت ثمان غزوات وسرايا مثل ما قلنا؛

فالسرية الأولى سرية سيف البحر، سِيف البحر، أي: ساحل البحر بكسر السين وليس بفتحـه، كانت في رمضان سنة واحد هجرية.

السرية الثانية: سرية رابغ في شوال سنة واحد هجرية، بقيادة عبيـدة بـن الحـارث بـن المطلـب رضي الله عنه.

السرية الثالثة: سرية الخرار في ذي القعدة سنة واحد هجرية، بقيادة سعد بـن أبي وقـاص رضي الله عنه.

ثم بعد ذلك غزوة الأبواء وتسمى ودان في صفر من السنة الثانية هجرية بقيـادة الرسـول ﷺ، ولم تحدث في ذي الحجة ومحرم غزوات وسرايا؛ لأنها أشهر حرم ليس فيها قتال.

بعد ذلك: غزوة بواط، في ربيع أول سنة اثنين هجرية بقيادة الرسول ﷺ.

بعد ذلك: غزوة سفوان في ربيع أول أيضاً سنة اثنين هجرية بقيادة الرسول ﷺ.

السابعة: غزوة ذي العشيرة في جمادى الأولى سنة اثنين هجرية، بقيادة الرسول ﷺ.

الثامنة: سرية نخلة في رجب سنة اثنين هجرية بقيادة عبد الله بن جحش رضي الله عنه وأرضاه.

الفوائد المستنبطة من السرايا والغزوات

بنظرة عامة على هذه السرايا والغزوات نجد أنه لم يحدث قتال في المعارك السبعة الأولى تقريباً، ومع ذلك لم تخل هذه المعارك من فوائد كثيرة جداً؛

أولاً: هذه المعارك كسرت الحاجز النفسي الكبير الذي كان عند المسلمين. فالمسلمون كان عندهم حاجز نفسي، فقد مكثوا أربع عشرة سنة بالتمام والكمال لا يقاتلون، والمسلمون أُمروا بعدم حمل السيف في وجه من يظلمهم طيلة هذه المدة، وترك الدفاع عن النفس كل هذه الفترة قد يورث ضعفاً في النفس أو شعوراً بقلة الحيلة، وقد يؤدي إلى ما يسمى بإلف الذل أو الهوان، فجاءت هذه السرايا و الغزوات البسيطة نسبياً كوسيلة متدرجة للصعود بنفسيات الصحابة من حالة الاستكانة إلى حالة الاستنفار والنهوض، ومن حالة الصبر على عدم الدفاع إلى حالة الصبر على تبعات الهجوم. نقلت هذه السرايا والغزوات جيل المهاجرين من كونهم مجرد جماعة مضطهدة مشردة، إلى كونهم دولة ممكنة، لها جيش ينفذ مخططات ويحافظ على الأمن ويرهب الأعداء ويحفظ الكرامة وهكذا، فكانت فعلاً نقلة نفسية في منتهى الروعة.

ثانياً: هذه الغزوات والسرايا دربت الصحابة على فنون القتال، ودربتهم على ركوب الخيل والحرب على الإبل والمناورة والخطة والتحرك والترقب، ففرسان العرب بصفة عامة كانوا يركبون الخيل والإبل ويحاربون بالسيف والدرع، لكن ليس من الممكن أن ندخل حرباً ضخمة بدون تدريب، خاصة أن المسألة ليست مجرد مسابقة أو استعراض، بل مسألة حياة أو موت، مسألة بقاء أمة أو فناء أمة.

ثالثاً: هذه الدوريات العسكرية عرّفت المسلمين الدروب والطرق حول المدينة المنورة، فالمهاجرون ليسوا من أهل المدينة المنورة، ولا يعرفون الطرق والمسالك حول المدينة المنورة.

رابعاً: هذه الدوريات أشعرت القبائل المحيطة بقوة المسلمين، وكشفت جرأة المسلمين في مواجهة قريش، مع أن قريشاً هي أكبر القبائل العربية وأقواها. لا شك أن هذه الدوريات أدخلت الرهبة في قلوب هذه القبائل وبالذات الأعراب، وبدءوا يحسبون للمسلمين ألف حساب.

خامساً: نتيجة هذه القوة التي ظهرت للمسلمين استطاع المسلمون أن يقوموا بعقد بعض المعاهدات مع بعض قبائل المنطقة غير قبيلة جُهَينة، كقبيلة بني ضَمرة وغيرها من القبائل، من أجل ذلك رسخ المسلمون أقدامهم في المنطقة.

سادساً: أن هذه الدوريات العسكرية أرسلت رسالة واضحة إلى قريش، هذا إعلان رسمي للحرب من قبل الدولة الإسلامية، مع أن قريشاً أعلنت الحرب من قبل، لكن هذا أول إعلان رسمي من الدولة الإسلامية للحرب على قريش. العلاقة لن تستمر بين المسلمين وقريش كما كانت من قبل، لن تستمر كعلاقة ظالم بمظلوم، أو كعلاقة مستبد بمقهور لا، ستصبح من الآن علاقة دولة بدولة أخرى تكافئها وتناظرها، ومن المؤكد أن هذا سيؤثر سلباً على نفسية أهل مكة، فإنهم يرون قوة المسلمين تتنامى والأعداد تتزايد، وجرأة المسلمين تصل إلى حد مهاجمة قريش لا مجرد الدفاع عن النفس، فهذه الفائدة كانت من أعظم فوائد هذه الدوريات الإسلامية.

وقفات مع سرية نخلة

إذا كان هذا التحليل ينطبق على السبع المعارك الأولى، فالمعركة الأخيرة التي كانت سرية نخلة، تحتاج إلى وقفة خاصة. هذه السرية خرجت من المدينة المنورة في شهر رجب سنة اثنين هجرية؛

لاعتراض قافلة لقريش ستمر بمنطقة نخلة، ونخلة منطقة تقع بين مكة والطائف، ولهذه السرية مشكلتان كبيرتان، المشكلة الأولى في المكان والمشكلة الثانية في الزمان.

أما مشكلة المكان: فهي أن منطقة نخلة تقع على بعد حوالي أربعمائة وثمانين كيلو متراً من المدينة المنورة، فهي مسافة طويلة جداً خاصة أن السرية عدد الخارجين فيها اثنا عشر مقاتلاً فقط، أمرها خطير جداً جداً، وفي نفس الوقت نخلة قريبة جداً من مكة، فلو علم المشركون بأمر هذه السرية، فإن قتال هذه السرية سيكون أمراً ميسوراً على جيش مكة. من أجل هذا كان من المتوقع أن المسلمين يترددون في أمر الخروج في هذه السرية؛ لذلك اختار الرسول ﷺ طريقة فريدة جداً لإخراج هذه السرية، لم يكرر هذه الطريقة مع سرايا أخرى.

هذه الطريقة: أنه كتب تكليف هذه السرية في كتاب مغلق، وأعطاه لقائد السرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه، وأمره أن يسير بهذا الكتاب المغلق مدة يومين، وبعد يومين يفتح الكتاب ويقرؤه، وبعد أن فتح عبد الله بن جحش الكتاب وجد فيه: (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم) وأمره ﷺ ألا يكره من معه على الخروج إلى هناك، أي: كل واحد يخرج بإرادته الكاملة، وهنا قام عبد الله بن جحش رضي الله عنه وقال لأصحابه: (من أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض)، فنهضوا جميعاً معه واتجهوا إلى منطقة نخلة.

والذي جعل الرسول ﷺ يعمل هذا التوجيه الفريد لهذه السرية هو صعوبة المهمة وبعد المسافة، فلو أنه أمر الصحابة أمراً مباشراً في المدينة بالخروج إلى هذه المسافة البعيدة قد يتردد البعض في التكليف، لكن إذا أتاهم التكليف بعد قطع مسيرة يومين -خمس الطريق تقريباً- فإنهم سيكونون على الاتجاه ولن يترددوا إن شاء الله، ومع ذلك لم يرد ﷺ أن يفرض عليهم هذا الأمر الشاق فرضاً، بل ترك لهم حرية الاختيار، وهو يعرف درجة إيمانهم، وثيق ثقة كاملة

في أنهم سيكملون المهمة ويصلون إلى نخلة، وهذا الذي حصل بالفعل. هذه كانت مشكلة المكان. أما مشكلة الزمان فكانت أصعب، فهذا الخروج كان في شهر رجب، ورجب كما تعرفون من الأشهر الحرم، والعرب بكاملهم سواء كانوا من المسلمين أو من الكافرين يحرمون القتال في الأشهر الحرم، وكثير من الفقهاء يقولون: إن هذا الحكم نسخ، لكن في ذلك الوقت هذا الحكم لم يكن منسوخاً، فالقتال في الشهر الحرام حرام على المسلمين وعلى الكافرين، حتى إن الرسول ﷺ لم يأمر الصحابة بالقتال لا تصريحاً ولا تلميحاً. قال لهم: (فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم) فقط.

وصل الصحابة بالفعل إلى منطقة نخلة، ووجدوا القافلة التي ذكرها ﷺ، لكنهم وصلوا في آخر ليلة من ليالي الشهر الحرام رجب، والقافلة متجهة إلى مكة، وبعد ليلة واحدة ستكون داخل مكة، فلو تركوا القافلة حتى تنتهي ليالي شهر رجب ستدخل القافلة حرم مكة، والقتال في مكة حرام كذلك، وستفلت القافلة، وهذه القافلة كانت فرصة كبيرة للمسلمين.

أولا: ستكون أول ضربة لقريش؛ لأن كل الغزوات والسرايا لم تسفر حقيقة عن أي غنائم أو انتصارات.

ثانياً: هذه الضربة في عمق الجزيرة العربية بعيداً جداً عن عقر دار المسلمين، وقريباً جداً من عقر دار الكافرين، فهي تحمل جرأة لا تخفى على أحد، ومن المؤكد أنه يكون لها أثر سلبي ضخم على المشركين.

ثالثاً: لم يكن في القافلة إلا أربعة رجال فقط، فالحراسة ضعيفة، والمسلمون كانوا عشرة، كان عددهم قبل ذلك اثني عشر رجلاً، لكن اثنين منهم سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان رضي

الله عنهما ضل لهما بعير قبل وصولهم إلى نخلة، فذهبا للبحث عنه فوجد الصحابة القافلـة تمـر، والصحابة في هذا الوقت عشرة، والقافلة فيها أربعة، ففرصة القتال ممكنة.

ثالثاً: المسلمون في هذه السرية من المهاجرين، وقد أوذوا إيذاءً مباشراً من قـريش، فقائـد هـذه السرية عبد الله بن جحش كان أبو سفيان بن حرب قد استولى على داره وباعهـا وأكـل ثمنهـا، فالمهاجرون يشعرون من داخلهم بأذى شديد تلقوه من قريش، فهذه فرصة أن القافلة أمامهم. لكن في نفس الوقت كانت هذه السرية في آخر ليلة في الشهر الحرام رجب، والقتال فيـه ممنـوع فهل يتقيد الصحابة بالقوانين التي انتهكها عدوهم آلاف المرات، ويضـيعون فرصـة السـيطرة على القافلة، أم يرمون بالقانون عرض الحائط ويهجمون على القافلة؟ هل يرفع الصحابة الظلم الذي وقع عليهم منذ سنين، وقد جاءت فرصة قد لا تتكرر بسهولة، أم يتركون هـذه الفرصـة الثمينة؟ هل يراعي المسلمون الآن الشهر الحرام، ولا يعتدون على قريش وقد سـلبت أمـوالهم وهتكت أعراضهم وأراقت دماءهم في مكة البلد الحرام، وفي الأشهر الحرام قبل ذلك عـلى يـد أصحاب القافلة أنفسهم، هل يفعلون ذلك، أم ينتقمون لأنفسهم وقد جاءتهم الفرصة؟

كانت أسئلة محيرة جداً في أذهان الصحابة، فقد جلسوا سوياً يتشاورون، وبعد الشورى أخذوا القرار، والقرار كان برفع الظلم الذي وقع عليهم، والهجوم على القافلة في الليلة الأخـيرة مـن شهر رجب. وبالفعل قامت الفرقة الإسلامية بالهجوم على القافلة، وقتل في هذا الهجـوم أحـد المشركين وكان اسمه عمرو بن الحضرمي وأسر اثنان مـن المشـركين: عـثمان بـن عبـد الله بـن المغيرة، والحكم بن كيسان ، وفر الرابـع وكـان اسـمه نوفـل بـن عبـد الله بـن المغـيرة ، وغـنم المسلمون القافلة بكاملها، وعادوا إلى المدينة بالأسيرين والقافلة، وقد حققوا انتصاراً لم يحققوه قبل ذلك. وهذان الأسيران كانا أول أسيرين في الإسلام، والقتيل هـو أول قتيـل في الإسـلام، وهذه أول غنائم في الإسلام، كان يوماً فاصلاً في تاريخ الجزيرة العربية.

قامت الدنيا بعد هذا الحدث ولم تقعد، وتباينت آراء الناس تماماً في هذا الحدث، فقريش على كفرهم وظلمهم وتكبرهم وإجرامهم في حق المسلمين لبسوا لباس الشرف والدين والأخلاق وقالوا: إن المسلمين انتهكوا الحرمات، وخالفوا الأعراف، وتعدوا على القوانين؛سبحان الله! قريش تتحدث عن الحرمات والأعراف والقوانين؟! ألم تكن مكة بلداً حراماً حرم فيه قتل الحيوان وقطع النبات فضلاً عن إيذاء الإنسان؟! ألم تكن هناك مخالفة لأعراف مكة والجزيرة عندما تخلى الأهل والأحباب والأصحاب عن أشرف الرجال محمد ﷺ، والذي كانوا يلقبونه بالصادق الأمين؟! ألم يغروا به سفهاءهم، وأهانوه هو وصحبه، حتى اضطر إلى ترك الديار والأهل العشيرة؟! أليس من قوانين مكة والجزيرة ألا يظلموا وألا يقبلوا بظلم؟ أليست أجساد المسلمين حرمات؟ ألم تشهد مكة البلد الحرام جلداً وإغراقاً وإحراقاً وتقتيلاً لرجال ونساء، ليست لهم جريمة إلا أنهم أمنوا بالله عز وجل؟! ألم تكن هذه الدماء حراماً، أين احترام القوانين؟ أين حفظ الحرمات؟ أين الالتزام بالأعراف؟ لماذا أرادت قريش أن يطبق القانون على المسلمين في مرة واحدة خالفوا فيها، بينما هي لم تطبق على نفسها القانون في مرات ومرات تمت فيها المخالفة بشكل علني وصريح؟ هذا هو الكيل بمكيالين، وهو سلوك كل الظالمين، لا يلجئون إلى القانون إلا إذا كان يحكم لهم، فإن حكم لغيرهم كانوا أول المخالفين، أهذا منطق يعتد به؟!

وإلى الآن -سبحان الله- كثير من الدول الظالمة تعيش بهذا المبدأ الفاسد، كل يوم تنتهك الأعراف العالمية، وتدمر القوانين الدولية، وليس هناك من يتكلم أو يعترض على هذا، فإذا خالف المسلمون مرة قامت الدنيا ولم تقعد. كثير جداً من دول العالم تمتلك السلاح النووي، ولو فكرت دولة إسلامية في امتلاك السلاح النووي قامت الدنيا ولم تقعد، فما هو الفرق؟

أليس هذا كيل بمكيالين؟ أحرام على المسلمين وحلال لغيرهم؟ هذا لا يمكن أبداً أن يكون منطق الحق والعدل، هذا منطق القوة الغاشمة الظالمة، وهذا كان منطق قريش في ذلك الوقت.

لم تكن ثورة قريش الإعلامية لإيمانها الحقيقي بعدم جواز خرق القانون، إنما كانت الثورة لكونها هي المتضررة، ولو كان غيرها هو الذي وقع عليها الضر ما تكلمت، بل لعلها كانت ستؤيد وتبارك، قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين:1-3].

كان هذا موقف قريش، فما هو موقف الرسول عليه السلام؟

في الحقيقة إن الرسول ﷺ وضع في حرج شديد، فالرسول عليه السلام لم يكن عنده وحي تماماً بهذه المسألة، وهو ﷺ لا يقر بصفة عامة خرق القوانين والحرمات، فلم يأمر بقتال في الشهر الحرام، ولم يرده، حتى إنه لم يسعد بما حدث عندما سمع به، بالرغم أن المسلمين عانوا قبل ذلك آلاماً كثيرة جداً، وبرغم أن هذا أول قتيل في الإسلام وأول أسيرين في الإسلام، وأول قافلة في الإسلام، لم يفرح بهذا الموقف كله. توقف ﷺ ، فالمسألة عنده مسألة مبدأ ﷺ ، وأنكر على الصحابة ما فعلوه. قال: (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام)، ولم يكتف بذلك، بل أوقف التصرف بالقافلة، وأوقف التصرف في الأسيرين إلى أن يأتي وحي يرشد المسلمين إلى القرار الأحكم في هذه القضية. هذا كان موقف الرسول ﷺ .

أما الصحابة الذين قاموا بالسرية فقد رأوا أنهم أخطئوا في الاجتهاد، وبقية الصحابة جاءوا إليهم يعنفونهم ويلومونهم، ويلقون على أكتافهم تبعات الحدث الخطير: ماذا فعلتم قاتلتم في الشهر الحرام؟ فكان الموقف متأزماً حقاً.

بينما الجو العام في الجزيرة العربية يسير نحو تحميل هذه الفرقة الإسلامية الخطأ الذي فعلوه، وكانت تتفق على ذلك آراء أهل مكة والمدينة على حد سواء، مع اختلاف طرق التفكير واختلاف التصورات، فنزل الوحي بما فاجأ الجميع، نزل يوضح للناس كافة مؤمنهم ومشركهم الحقائق كما ينبغي أن تكون. نزل يبين للناس ما اختلفوا فيه، نزل ليخرج المسلمين من المثالية غير الواقعية إلى فقه الواقع والموازنات وفقه الأولويات. نزل ليفضح مكر الماكرين وكيد الكافرين، ونزل لينصر ويؤازر الطائفة المؤمنة الصادقة التي أرادت أن ترفع عن كاهلها وكاهل المسلمين بعض ما وقع عليهم من ظلم.

نزلت آيات كريمات من سورة البقرة. قال الله عز وجل فيها: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} [البقرة:217]. نعم. القتال في الشهر الحرام كبير، لكن انظر: {وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِّ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِّ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:217]. قال الله عز وجل للمسلمين: أنه لا معنى أبداً لتلك الضجة المفتعلة التي فعلتها قريش، ولا معنى أبداً لهذه التمثيلية الهزلية التي قام بها كفار قريش. فعلى الرغم من أن القتال في الشهر الحرام كان ممنوعاً في ذلك الوقت ولا ينبغي أن يسعى إليه المسلمون، وما زال ممنوعاً كما ذكرنا في رأي بعض الفقهاء، إلا أن ما فعلته قريش أكبر وأعظم من ذلك. الكفر بالله عز وجل وعبادة الأصنام من دون الله أكبر من القتال في الشهر الحرام، ومنع المسلمين من الطواف بالكعبة وأداء المناسك أكبر من القتال في الشهر الحرام، وفتنة المسلمين عن دينهم بالتعذيب والتشريد والقتل أكبر من القتل في الشهر الحرام. كل هذا قريش فعلته، ولم تفعله مرة واحدة بصورة عابرة، إنما فعلته مراراً وتكراراً، حتى أصبح عرفاً سائداً وقانوناً معمولاً به، فكل هذه جرائم أكبر بكثير مما فعله المسلمون وهاجت له قريش فسبحان الله تصبح تمثيلية مضحكة جداً عندما ينادي فرعون كما ذكر ربنا في كتابه الكريم بقتل موسى عليه السلام؛ لأنه كما يدعي

فرعون يظهر في الأرض الفساد، قال تعالى وقَال فِرْعَون {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:26]. من الذي يتكلم؟ فرعون الذي كان يقتل الأبناء ويستحيي النساء.

هكذا علم القرآن الكريم المسلمين وغيرهم فقه الواقع، فليس من الممكن أبداً في واقع الحياة أن تسير كل الأمور بفقه المثاليات، فقد يحدث أحياناً مخالفات نتيجة اضطرار في بعض الأمور.

من أجل هذا نشأت القاعدة الفقهية المعروفة: دفع أكبر الضررين وجلب أكبر المنفعتين، فقد يقبل المرء بضرر ما في سبيل دفع ضرر أكبر منه، مع أن فقه المثاليات يقتضي دفع كل الأضرار وليس بعض الأضرار، لكن هذا غير ممكن وغير واقعي بل هو مستحيل؛ لأنه لا بد أن تحدث أضرار، فالحكمة تأتي في المقارنة بين الأضرار واختيار الأقل. المسلمون وقع عليهم ضرر كبير جداً، وهو الفتنة عن الدين بالتعذيب والقتل والمنع من دخول المسجد الحرام، وليس من الخطأ أن أقبل بضرر القتال في الشهر الحرام وهو أقل؛ لأدفع به ضرراً أكبر وهو الفتنة في الدين والصد عن سبيل الله، ومع ذلك المسلمون لم يحرصوا على الإتيان بالضرر الأصغر هذا، بالعكس كانوا يتمنون أن لو كان القتال في شعبان وليس في رجب، وقعدوا يتشاورون في هذا الأمر، وكان الموضوع شاغلاً فكرهم، لكن القافلة كانت ستفلت منهم، وسيستمر ضرر قريش الأكبر تجاه المسلمين، ومن المحتمل ألا تكون هناك فرصة ثانية مثل هذه؛ لذلك فإن الله عز وجل من رحمته بالمسلمين الذين خاضوا هذه السرية لم يكتف فقط برفع الإثم عنهم، بل أعطاهم ثواب المجاهدين في سبيل الله أيضاً. أنزل الله عز وجل قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ }[البقرة:218] كل هذا التعليق على سرية نخلة: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

[البقرة:218]. غفر لهم ما تم لهم من قتال في الشهر الحرام وهكذا أيـد الله عـز وجـل موقـف الصحابة المجاهدين، ووضح الرؤية لعموم المسلمين، فهدأت النفوس واطمأنت القلوب.

تعامل الرسول ﷺ مع الحدث تعاملاً في منتهى السياسة والحكمة، يجمع فيه بين القوة والعـزة من جانب، وبين التفاهم والتحاور من جانب آخر، فقد أخذ القافلة كغنيمة ورفض أن يردهـا إلى قريش، واعتبرها جزءاً بسيطاً من ممتلكات المسلمين المسلوبة، وفي نفس الوقت لم يتشـدد في أمر الأسيرين، بل قبل في الأسيرين الفداء بالمال، وكان قبول الفداء في عزة عظيمة جداً. يظهـر هذا الكلام في الموقف الجميل التالي:

كان عدد الخارجين في السرية اثني عشر رجلاً، وصل منهم إلى المدينة عشـرة، وبقـي عتبـة بـن غزوان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما؛ لبعير ضل لهما، فلم يرجعا مع السرية، فلما تـأخرا قرر الرسول ﷺ ألا يفدي الأسيرين إلا بعـد عـودة الصـحابيين الجليلـين إلى المدينـة المنـورة، وذلك لخوفه من كفار مكة أن يمسكوهما فيقتلوهما، فلـما رجعـا إلى المدينـة المنـورة أذن ﷺ في الفداء.وهكذا كان ﷺ قائداً حريصاً على جنوده، حريصاً على عـزة أمتـه؟، وفي نفـس الوقـت كان حريصاً على عدم قطع قنوات الاتصال السياسية مع أعدائه، فقبل فداء الأسرى، وأعطـى دية المقتول عمرو بن الحضرمي لأهله، وذلك ليفتح باب التعامل بالمثل، فلو حصل أن وقـع في أيدي الكفار مسلم فإنه يكون التعامل بهذه الطريقة.

موقف قريش من انتصار المسلمين في سرية نخلة

أغلقت هذه الصفحة مؤقتاً لصالح المسلمين، لكن هذا الموقف كشـف عـن بعـض الأحـداث الخطيرة التي من الممكن أن تشهدها الجزيرة العربية مستقبلاً. كشفت عن منـاطق خطـرة جـداً

سيحصل فيها أحداث قريبة بين مكة والمدينة. مكة فيها كفار قريش، والمدينة فيها اليهود، ماذا حصل بعد هذه السرية؟ ما هو الذي غير الأوضاع بعد هذه السرية العظيمة؟

بعد هذا الاختراق المرعب لصفوف قريش، وبعد هذا التحدي السافر من القوة الإسلامية الجديدة، لا شك أن قريشاً ستعيد الحسابات تماماً، وسترتب الأوراق من جديد. المسلمون وصلوا إلى مكان لا يتوقع المشركون أبداً أن يصلوا إليه، سيطروا في جرأة عجيبة على قافلة من قوافل قريش على بعد أربعمائة وثمانين كيلو متراً من المدينة المنورة وقريبة جداً من مكة، ولا يستبعد منهم أبداً تكرار هذا الأمر في أي مكان في الجزيرة، بل قد يتم غزو مكة ذاتها، فلا شك أن هذا سيدفع أهل مكة إلى أخذ تدابير وقائية وقد يفكرون في غزو المدينة المنورة، وهم فعلاً غزوا المدينة قبل ذلك في محاولة كُرْز بن جابر الفهري، ولعل المحاولة القادمة تكون أكبر، فقد يفكر المشركون في اصطياد القوافل الإسلامية، وقد يفكرون في الهجوم على القبائل الإسلامية حول المدينة، فهذه احتمالات أصبحت واردة بعد سرية نخلة. قد يحدث صدام قريب مروع بين قوة المشركين المتمثلة في قريش وحلفائها، وقوة المسلمين الناشئة في المدينة المنورة. هذا الخطر يتوقع قدومه من مكة.

أما الخطر الأقرب فكان متوقعاً من اليهود، فاليهود إلى الآن لم يظهروا أي تعاطف مع الدين الجديد، اللهم بعض الأفراد المعدودين على أصابع اليد الواحدة. حاول اليهود الدس والكيد لهذا الدين أكثر من مرة، وازداد كيدهم بعد سرية نخلة، وبدءوا يجاهرون بموالاتهم لقريش الكافرة، مع أن المعاهدة التي بينهم وبين الرسول عليه والسلام كانت تقول: (لا تُجار قريش)، لكنهم بدءوا يظهرون الولاء لقريش، بل أظهروا الرغبة الجامحة في أن تأتي قريش وتغزو المدينة المنورة وأبرزوا حتى التفاؤل بالأسماء، واليهود يحبون الرموز، على سبيل المثال: (قتل عمرو بن الحضرمي)، عمرو عُمرت الحرب، الحضرمي حضرت الحرب، والذي قتل عمرو بن

الحضرمي من المسلمين كان اسمه واقد بن عبد الله، قالوا: (واقد أوقدت الحرب).هـذه طبيعـة اليهود. بعد هذه السرية تبين أن هناك صداماً متوقعاً قريبـاً مـع قـريش، وأيضـاً هنـاك صـدام قريب متوقع مع اليهود، هذا كله في شهر شهر شعبان سنة اثنين هجرية.

مرحلة فرض القتال على المسلمين إذا قوتلوا

إلى هذه اللحظة كان القتال مأذوناً به وليس مفروضـاً عـلى المسـلمين بمعنـى: أن الله سـبحانه وتعالى أذن للمسلمين أن يقاتلوا إن وجدوا في أنفسهم قدرة عـلى القتـال، أو أن يختـاروا عـدم القتال إن رأوا أن ذلك أفضل. والآية التي أقرت هـذا التشريـع: {أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج:39]. لكن الوضع في هذا الوقت تغير، فالإذن جاء في زمان القتال فيه محتمـل، أما الآن فالقتال ليس محتملاً فقط، بل متوقعاً وقريباً جداً يكاد يكون حتميـاً. لـو حـدث قتـال بالصورة التي نتخيلها من جانب قريش المهزومة في كرامتها، المجروحة في كبريائها، وبمساعدة اليهود الغادرين في داخل المدينة المنورة، كيف سيكون الموقف؟ سيكون الموقف في غاية التأزم.

لا ينفع هنا مجرد الإذن بالقتال، بل يجـب أن يفـرض القتـال عـلى المسـلمين لـدفع شر هـؤلاء الأعداء؛ لأن الإذن سيسمح للبعض بعدم المشاركة، وسيفتح للشيطان أبواباً كثيرة يدخل منها إلى قلوب الضعفاء فيصور لهم صعوبة القتال، وستقاتل قريش مجتمعة مـع اليهـود، وسـتقاتل مجتمعة مع قبائل العرب، وهذا أمر صعب، فلا يمكن للمسلم في مثل هـذه الظـروف أن يـؤثر الدعة ويتجنب القتال، لكن إن فرض القتال على المسلمين فرضـاً فـإنهم سـيعتبرونه كالصـلاة والزكاة، ويعتبرونه واجباً ينفذ، وبذلك تغلق أبواب الشيطان، وستقل حتماً نسبة التخلف عـن الجهاد في سبيل الله، ولن يكون التخلف إلا من الضـعفاء أو المنـافقين، وهـؤلاء لا نريـدهم في المعركة. نتيجة لهذه الظروف ينزل الله التشريـع المحكـم بالقـانون الجديـد المناسـب للمرحلـة الحالية.

المعاني المستنبطة من آيات القتال

فرض سبحانه القتال على المسلمين إذا قوتلوا، وليس للمسلمين اختيار في قضية دفع المشركين إذا هجموا عليهم، بل لا بد من الدفاع حتى الموت، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ} [البقرة:216]. لم يعد القتال مأذوناً به فقط، بل صار مكتوباً -أي: مفروضاً- على المسلمين، ونزل أيضاً قول الله عز وجل الذي يوضح سبب القتال في هذه المرحلة، وبعض الأحكام الخاصة بالقتال.

قال الله عز وجل: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة:190 - 193] سبحانه الله؛ نريد أن نقف وقفات طويلة مع هذه الآيات، ونريد أن نتصور حال المسلمين وحال غير المسلمين عند نزول هذه الآيات.

كراهية الناس عامة للقتال

حملت هذه الآيات تشريعاً جديداً يحتاج إلى نفوس إسلامية خاصة للعمل بهذه الآيات، ويحمل في نفس الوقت رسالات في منتهى الوضوح إلى المشركين في مكة، وإلى المشركين في خارج مكة، وإلى اليهود كذلك. تعالوا نعيش مع أهل هذه المرحلة، ونراقب رد فعلهم لهذه الآيات:

أولاً: الناس بصفة عامة تكره الحروب والقتال، ولا يختلف اثنان في أن الحروب تأتي بالدمار والخراب وإزهاق الأرواح، ونحو ذلك من أشياء تورث الحزن والكراهية؛ من أجل هذا ربنا يقول: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:216]. لكن ليس معنى هذا: أن القتال إذا

تعين على المسلمين لهم أن يتركوه لأنه مكروه، بل بعض المسلمين يصلون إلى درجة من الرقي في الإيمان في حبهم للموت مع أنه مكروه، يتمنون هذا المكروه من أجل إرضاء الله سبحانه وتعالى، وقد مر بنا قول الرسول ﷺ: (لوددت أن أغزو في سبيل الله) وفي رواية: (لوددت أن أقتل في سبيل الله). يقول سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه: (جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة). الموت مع أنه مكروه بصفة عامة، إلا أنه أصبح محبوباً إلى خالد رضي الله عنه وإلى جيشه، وما ذلك إلا لأنه في سبيل الله، فليس معنى القتال مكروه: أننا نقعد عنه، بل على العكس، كلما ارتقى المسلم في سلم الإيمان أحب هذا المكروه ما دام في سبيل الله.

القتال مكروه في ظاهره وخير في باطنه

المعنى الثاني: معنى دقيق جداً ومهم، وهو أن الذي تراه بعينك مكروهاً يجعل الله عز وجل في باطنه الخير: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة:216] وأحياناً ترى شيئاً محبوباً وتظن أنه خير، ويكون في باطنه الشر: {وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [البقرة:216].

هذا الكلام قد يكون غريباً عند عموم الناس ويحتاج إلى يقين كبير وإيمان كامل باختيار رب العالمين سبحانه وتعالى، ومع ذلك لو تدبرت في الأحداث فإنك ستقترب غالباً من رؤية الخير في باطن ما يراه الناس شراً.

على سبيل المثال: القتال مكروه، فيه إيذاء وقتل وتدمير وخراب، لكن انظر إلى الأمة التي تقاتل، والأمة التي لا تقاتل. الأمة التي تجاهد وتقاتل ترفع رأسها وتعز نفسها، وينظر لها الآخرون نظرة احترام وتوقير. والأمة التي تزهد في القتال وتعرض عن الجهاد يسلط الله عز وجل عليها الذل، حتى لا تجد لها مكاناً بين الأمم المرموقة في العالم. الأمة التي تجاهد تحافظ

على حقوقها، وتسترد المسلوب منها، والأمة التي تعرض عن القتال والجهاد تنتهك حرماتها وتضيع حقوقها، ولا يخفى ما وراء ذلك من أمور مكروه معروفة.

تدبروا الأمر يا إخواني؛ فإن القتال وإن كان في ظاهره كره، إلا أن في باطنه عزة كبيرة للأمة المسلمة ما دام هذا القتال في سبيل الله.

ظهور الطائفة التي رأت الكره في القتال ولم تر الخير في باطنه

النقطة الثالثة: عموم المؤمنين قبلوا الأمر دون جدال، وقبلوا القتال في سبيل الله سواء كان مأذوناً به أو مفروضاً عليهم، لكن هناك طائفة من المؤمنين عندما نزل هذا الفرض للقتال رأت الكره ولم تر الخير في باطنه، وأتاها التكليف في لحظة من لحظات ضعف الإيمان، ولم يكن إيمانها بالقوة التي تدفع إلى العمل وإن كان مع الكراهية، وهذه الطائفة ليست منافقة بل مؤمنة، لكنها فترة ضعف وفترة فتور فماذا حصل؟

انطلق هؤلاء إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: (لو تأذن لنا في تأجيل القتال)، قالوا ذلك لأنهم خائفون من المشركين واليهود، خائفون من اتحاد هذه القوى على المسلمين، والمسلمون قلة.

قد نسمع هذا الكلام ونستغرب: كيف يكون هذا الكلام في الصحابة وهم خير الناس وأفضل القرون؟ لكن الحمد لله أن هذا حدث في العهد النبوي؛ لنعرف كيف يتم التعامل مع مثل هذه المواقف؟! ما هي وسائل علاج حالات الضعف الإيماني التي تطرأ على نفس المؤمنين أحياناً؟ الغريب جداً أن هذه الطائفة التي ترددت في أمر القتال لخوفها عندما فرض عليها القتال، كانت هي نفس الطائفة التي كانت تطلب القتال في وقت منعه في أيام مكة.

كان القتال في مكة ممنوعاً؛ لأن قوة المسلمين لم تكن تسمح لهم بذلك، وفصلنا في هذا الأمر في دروس العهد المكي، هذه الطائفة كانت تريد الإسراع برفع الظلم عن الكاهل ولو بالقتال

الصعب، أي: لم تكن خائفة لكنها كانت تعاني من قلة الصبر، والمرحلة كانت تتطلب صبراً من نوع خاص، ألا وهو الصبر على عدم القتال. أما المرحلة الجديدة، فإنها تحتاج إلى صبر من نـوع ثان، وهو الصبر على القتال، سبحان الله! فهؤلاء يعانون من عدم الصبر في مرحلـة مكـة عـلى عدم القتال، وعدم الصبر في مرحلة المدينة على القتال.

هذه الطائفة لم تكن منافقة أبداً، إنما كانت مؤمنة، لكن الإنسان قد يعتريه أحياناً بعض الضعف والقصور في فترة من فترات الحياة، أو ظرف مـن ظـروف الحيـاة، ولـيس هنالـك خطـر في أن يكون هناك بعض المسلمين على هذه الصورة ما دمنا نقر لهم بالإيمان، لكن الخطـر الحقيقـي أن تكون الطائفة هذه هي الطائفة الأعم والأشمل في الأمة الإسلامية، أو أن نفشل في علاج هـذه الطائفة، فهذا الذي لا نريد أن نقع فيه.في هذه الطائفة نزل قول الله عز وجل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [النساء:77] في فترة مكة {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ} [النساء:77] هذه فترة المدينة {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْـيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [النساء:77] فهـذه الخشـية التـي تسللت إلى قلوبهم ليست لضعف يقينهم في أن الله عز وجل قادر على نصرتهم، لكن لأن الدنيا تسللت إلى قلوبهم، ومن ثم حرصوا على الحفاظ عليها، وخافوا من فقدانها.

في هذه اللحظة من لحظات ضعف الإيمان وغياب الرؤية الصحيحة، نسـوا أنهـم لـن يـؤخروا أبداً عن لحظة موتهم، سواء قاتلوا أم لم يقاتلوا، نسوا أن نعيم الآخرة لا يقارن أبداً بنعيم الـدنيا القليل، ومن ثم لا يجوز أبداً للمؤمن الفـاهم الـواعي أن يضـحي بـالآخرة في سـبيل تحصـيل الدنيا، ولو حاز الدنيا بكاملها.

من أجل هذا نر العلاج الرباني وهو يركز على معنى أن المـوت محـدد في ميعـاد لـن يقـدم ولـن يؤخر، معنى أن الدنيا لا تساوي شيئاً، وأن الآخرة هي كل شيء، قال الله عز وجل تعقيباً عـلى

هذه الآيات: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ} [النساء:77]، يعلم الرسول ﷺ كيف يعالج هؤلاء، ويعلمنا بقوله: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء:77 - 78] ففي داخل المدينة أو في خارج المدينة سواء كنا في قتال أو في غير قتال سيأتي الموت في اللحظة المحددة.

فلما ذكرت هذه الطائفة عادت إلى الله عز وجل ولم يتخلف منها أحد، وهذا دليل على أن الطائفة كانت مؤمنة، لكن حصل هذا الأمر لنعرف كيف يكون علاجه.

تحديد قتال الطائفة التي تبدأ المسلمين بقتال

النقطة الرابعة: قال الله عز وجل في هذه الآيات: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [البقرة:190] هنا يحدد ربنا سبحانه وتعالى الطائفة التي يجب أن نقاتلها، وهي الطائفة التي تبدأ المسلمين بقتال، ففي هذه المرحلة لم يكن هناك ما هو معروف في الإسلام بجهاد الطلب، والجهاد لنشر كلمة رب العالمين في الأرض، كما هي في الفتوح الإسلامية التي تأتي بعد ذلك، إنما المرحلة مرحلة دفاع عن النفس وعن الإسلام، ولا بد أن يدرك المؤمنون مدى قوتهم، فلا يطمعون فيما هو أكبر من حجمهم الحقيقي، وهذا الذي نسميه فقه المواقع.

قتال المسلمين للأعداء مقيد بعدم الاعتداء

النقطة الخامسة: إن شهوة الانتقام عند المظلوم قد تتفاقم وتخرج عن الإطار المسموح به في الشرع، ونحن لا يجوز لنا أبداً أن نرفع ظلماً وقع علينا بإيقاع ظلم على آخرين. لذلك يأتي الضابط المهم جداً للقتال في الإسلام، وهو ضابط ثابت مستمر غير منسوخ، معمول به في كل حروب المسلمين إلى يوم القيامة: {وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:190]. الله عز وجل لا يحب المعتدي حتى ولو كان من المسلمين، والعدل قانون لا ينصلح حال الأرض إلا

به، والعدل لابد أن يكون مع الجميع حتى مع الأعداء المكروهين إلى النفس، يقول تعالى: {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} [المائدة:2] حتى مع الصد عن المسجد الحرام لا تعتدوا، وصور الاعتداء كثيرة، منها الغدر والخيانة وتعذيب الأسرى، ومنها التمثيل بالجثث، والقتال لحظ النفس وليس لله عز وجل، ومنها قتال من لا يجب أن يقاتَل، ومنها التجاوز في التدمير والتخريب، ومنها إيقاع الظلم ضد أي إنسان كان، بل إن منها إيقاع الظلم بالحيوان أو بالنبات.

انظروا إلى التعاليم النبوية التي تضع ضوابط القتال في الإسلام حتى نعرف قبل أن نحمل السيف ونحارب أعداءنا كيف نحارب بأخلاق الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: (انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغُلّوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين).

فهذه نصائح تقال لجيش خرج يحارب، ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن بريدة رضي الله عنه: (اعزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا - لا تغلوا من الغنيمة - ولا تغدروا، ولا تمثلوا - أي لا تمثلوا بجثة قتيل من الأعداء- ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع المعتكفون للعبادة).

هذه هي أخلاق الحروب في الإسلام، ليس فيها قتل لمدنيين أو غير محاربين، وليس فيها إبادة جماعية، ولا تدمير عشوائي، ليس في تاريخنا ما يشبه ما حدث في هيروشيما أو ناجازاكي أو فيتنام أو كوريا أو ألمانيا أو غيرها من البلدان، ليس في تاريخنا ما يشبه ذلك من قريب أو من بعيد. إن الجميل جداً في قصة القتال في الإسلام أن هذه الضوابط كلها والتشريعات الأخلاقية العظيمة لم تأت نتيجة تطور معين في الحضارة الإسلامية على مدار السنين والقرون، إنما نزلت في أول تشريع للقتال، نزلت بهذا التكامل والسمو والعظمة، بما لا يدع أي مجال للشك أن هذا

المنهج رباني وأن هذه التشريعات إلهية، وأنه لا مقارنة مطلقاً بين قوانين السماء المتكاملة والتامة وبين قوانين الأرض الوضعية التي يعتريها الكثير من النقص في كل بند من بنودها: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:50].

هناك تشريعات أخرى كثيرة الوقت لا يتسع، لكن الذي أريد أن أقوله إن هذه الآيات لما نزلت كان وقعها شديداً جداً على قريش واليهود وعلى كل الجزيرة العربية، وقد ترقب الجميع أن تدور حرب هائلة بين المسلمين وبين الكافرين.

20

أهل بـــدر

الآن فرض القتال على المسلمين، لا يجوز للمسلم إن قوتل إلا أن يقاتل.قـال الله عـز وجـل في كتابه الكريم: {وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّـذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِـبُّ الْمُعْتَـدِينَ [البقرة:190]، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِـنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَـزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة:191-193] وذكرنا أن هذه الآيـات كـان لهـا وقع شديد على المشركين واليهود، بل وعلى بعض المسلمين، فهذه أول آيات تفرض القتال على المسلمين، وقتال المشركين أمر متوقع جداً بعد سرية نخلة.وربنا سـبحانه وتعـالى قـال في هـذه الآيات: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقـرة:191]، ففيهـا إعـلان صريـح يـدل عـلى قـوة المسلمين وواقعيتهم، إعلان مجابهة القوة الكافرة المعتدية عليهم وهي قريش في كل مكان، هـذا الإعلان يدل على أن كل المحاربين من قريش مسـتهدفون الآن، وأن قريشـاً كانـت تسـتهدف المسلمين قبل ذلك في كل مكان، وقد حان وقت المعاملـة بالمثـل، سيُسـتهدف المشـركون مـن قريش في كل مكان سواء في المدينة أو في مكة أو في أي قافلة هنا أو هناك، كل هذا فهمنـاه مـن الجزئية القصيرة من القرآن المعجز: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقرة:191] إعلان صريح

للحرب على قريش، وفي نفس الوقت هذه الآية حملت الإصرار على موقف المسلمين في سرية نخلة، نحن لا نعتذر بأي حجج واهية عما حدث في هذه السرية، بل نحن نقول: سيتكرر هذا كثيراً إلى أن تفيق قريش من غيها وتتوب من ظلمها. في نفس المجموعة من الآيات قال الله عز وجل: {وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} [البقرة:191] وهذا تصعيد خطير جداً وصريح، فالمشركون أخرجوا المسلمين المهاجرين من مكة، والآية تدعو المسلمين أن يخرجوا الكفار من مكة أيضاً، {وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} [البقرة:191]، جملة في منتهى الخطورة، فعلى كفار قريش أن يتوقعوا مباغتة المؤمنين لهم في مكة في أي لحظة، فعليهم أن يعيشوا في رعب الانتظار الآن، وعليهم أن يدركوا أن الأوضاع الجديدة شديدة الاختلاف عن الأوضاع السابقة، عليهم أن يدركوا أن هؤلاء الذين عذبوا لسنوات وسنوات في البلد الحرام مكة، قويت شوكتهم الآن واشتد عودهم، وبلغ تهديدهم للدرجة التي يصرحون فيها بغزو عقر دار المشركين مكة.

في الناحية الأخرى على المسلمين أيضاً أن يكونوا على قدر المسئولية الجديدة، عليهم أن يعلموا أبعاد الخطة الجديدة، عليهم أن يعلموا متطلبات المرحلة الجديدة، فلم يعد هدف المسلمين فقط هو الحفاظ على دينهم وحياتهم، بل ارتفع الهدف إلى الرغبة الصادقة في رفع الظلم تماماً عن كواهلهم، إلى الرغبة الصادقة في نشر هذا الدين في كل مكان، ولو كان هذا المكان هو مكة معقل قريش. فتحت هذه الآية آفاق جديدة تماماً للمسلمين، سمت بأحلامهم وآمالهم إلى درجة لم يكونوا يتخيلون أنهم سيصلون إليها في هذا الوقت، كل هذه الأحداث وقعت في المدينة المنورة والدولة الإسلامية لم يتجاوز عمرها سنتين.كذلك حددت الآيات بعض التشريعات الخاصة بالقتال في البلد الحرام مكة، قال الله عز وجل: {وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:191].

فالآيات فيها تهديد خطير لقريش، إذ تتحدث وكأن القتال في مكة أصبح أمراً واقعاً وليس مجرد فكرة أو تهديد عابر، بل هو حدث واقعي قريب له أحكام وقوانين. لاشك أن هذا ألقى الرهبة في قلوب الكفار.تخيل معي أن دولة تتحدث عن الأحكام التي يجب أن تنفذ، وعن التشريعات التي يجب أن تطبق عند دخول عاصمة دولة معادية لها، لا شك أن هذا يدل على شدة الثقة بالنفس، وفي نفس الوقت يدل على أن هناك عزيمة لن تنطفئ حتى يتحقق لها ما تريد. كان هذا هو الوضع بعد سرية نخلة، خلاصة هذا الوضع حتى الآن ونحن نقترب من النصف من شعبان سنة اثنين هجرية: أن المسلمين أعلنوا الحرب صراحة على مشركي مكة، وأن الموقف صار متأزماً جداً، والجميع مؤمنهم وكافرهم يتوقع صداماً مروعاً قريباً بين فريق الحق المتمثل في مؤمني المدينة المنورة وفريق الباطل المتمثل في كفار مكة.

الاختبارات التي مر بها مؤمنو المدينة قبل اصطدامهم بأهل الباطل

من سنة الله سبحانه وتعالى أنه قبل الصدامات الكبرى التي تقع بين الحق والباطل لابد أن تمر أمة المسلمين ببعض الشدائد والمصاعب والاختبارات التي تمثل امتحاناً صعباً لكل المسلمين، فمن السهل أن تقول: أنا مؤمن، لكن الصادقين قليل. قال الله عز وجل يصف إيمان الأعراب: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات:14]، فلا بد أن يكون هناك اختبار صعب يحدد فعلاً من الصادق ومن الكاذب ومن المؤمن ومن المنافق؟من هذه الاختبارات التي تمت في شهر شعبان اختبار فرض القتال، فالذي يقبل بمشقة فرض القتال ويستمر في الطريق هو صادق الإيمان، وأما الذي سيجزع ويتثاقل إلى الأرض فصف المؤمنين في غنى عنه ولا يحتاجون إليه، بل من الأفضل أن يترك الصف من الآن قبل أن تشتد الأزمة. فرض القتال كان أحد الاختبارات قبل الصدام المتوقع، ولكن لم يكن هذا هو الاختبار الوحيد، كان هناك اختبارات أخرى حصلت قبل هذا الاختبار

وفي نفس شهر شعبان، إعداد واضح من رب العالمين سبحانه وتعالى لمجموعة مـن المسـلمين، سوف تغير بعد ذلك من خارطة العالم بكامله.

من الاختبارات المهمة التي حصلت قبـل فـرض القتـال وفي شـهر شـعبان اختبـاران في غايـة الأهمية: اختبار فرض الزكاة واختبار فرض صيام رمضان.كانت الزكاة مفروضة على المسلمين في فترة مكة، لكن لم تكن بالنصاب المعروف وبالقدر الـذي نعرفـه، بـل كانـت متروكـة لكـل مسلم بقدر ما يستطيع دفعه، أما الآن فقد فرض على المسلمين أن يـدفعوا قـدراً معينـاً مقـداره 2.5٪ إذا بلغ المال النصاب وحال عليه الحول.وقيمة الزكاة وإن كانـت قليلـة إلا أن الإنسـان بطبعه مجبول على حب المال، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر:20]، والإنسان بطبعـه لا يحب القيود خاصة القيود المادية، وهكذا لـن يقبـل بفـرض الزكـاة إلا المـؤمن حقاً.كـذلك اختبار الصيام، فإن الصوم المفروض على المسلمين حتى هذه اللحظة لم يكن إلا يوماً واحداً في السنة هو يوم عاشوراء، أما الآن فقد فرض علـيهم صـيام شـهر كامـل في السـنة، وهـو شـهر رمضان، وهذا الفرض نزل في شهر شعبان، وعلى ذلك فإن المسلمين سيصومون شهر رمضان دون تهيئة نفسية مسبقة، وهذا شاق عليهم خاصة في هذه البيئة الصحراوية، فلن يثبت في هـذا الاختبار إلا صادق الإيمان. الاختبار الأول: الزكاة، الاختبار الثاني: الصيام، الاختبار الثالث: فرض القتال. بقي هناك اختبار رابع صعب جداً حصل في نصف شهر شـعبان، وهـو اختبـار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في مكة.وكل هذه الاختبارات كانـت متتاليـة، حصلت في خلال أسبوعين من شهر شعبان، والمسلمون قبل هذا الحدث كانوا يصلون في اتجاه بيت المقدس 16 أو 17 شهراً، من أول الهجرة إلى منتصف شعبان من السنة الثانية من الهجرة، وفي هذا إعلان لعموم الناس أن الرسالة الإسـلامية مـا هـي إلا اسـتكمال لرسـالات الأنبيـاء السابقين، وأن الرسول ﷺ ومن قبله من الأنبياء جاءوا بمنهج واحد ويعبدون إلهاً واحداً، وفي

ذلك تقريب لقلوب اليهود من سكان المدينة من الدين الجديد، فهم يشتركون مع المسلمين في قبلة واحدة، ويعظمون إلهاً واحداً، ويصومون يوماً واحداً. ثم مرت الأيام والشهور، وظهر للجميع أن اليهود قوم فاسقون، أدركوا الحق واتبعوا غيره؛ لأجل ذلك نزل الوحي من السماء بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، وفرض صيام رمضان بدلاً من صيام عاشوراء. كانت هذه التغييرات تحمل معاني سامية جداً من التميز للأمة الإسلامية، ومن التوجه إلى أشرف بقاع الأرض، ومن مخالفة اليهود الفاسقين، ومن غير ذلك من الأمور العظيمة، وفوق هذا كله كان فيها إشارة لطيفة إلى أن الله عز وجل سيفتح مكة للمسلمين في يوم ما؛ لأنه ليس من المعقول أن توجد قبلة قوم في بلد أعدائهم. وبعد مشروعية استقبال الكعبة حصلت مشكلة صعبة، فاليهود كعادتهم حاولوا إثارة الفتنة وإشاعة الشبهات، واجتهدوا في ذلك تمام الاجتهاد، إذ صاروا يتهكمون من هذا التحويل للقبلة، ويقولون: إن المسلمين مترددون بين قبلتين، وقالوا: إذا اتجهتم إلى القبلة الجديدة فما شأن القبلة القديمة التي كنتم تصلون إليها؟ والذين كانوا يصلون باتجاه القبلة القديمة ثم ماتوا ماذا يفعل الله عز وجل بصلاتهم، فقد كانوا مخطئين في الاتجاه، كأسعد بن زرارة رضي الله عنه وأرضاه، والبراء بن معرور ؟وهكذا يحاول اليهود أن يثيروا الشبهات والفتن دائماً، فأنزل الله عز وجل يرد عليهم ويصفهم بالسفهاء، ويبين المفهوم الدقيق الذي يجب أن يدركه كل مؤمن، وهو أن الأمر كله لله عز وجل، يحكم بما يشاء وقت ما يشاء سبحانه وتعالى، هو المتصرف في خلقه وملكوته، ولا راد لقضائه سبحانه وتعالى، قال سبحانه: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة:142]، وطمأن الله عز وجل المؤمنين على صلاة أولئك الذين ماتوا قبل ذلك، وعلى صلاتهم هم أنفسهم، قال الله عز وجل: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة:143] ومع ذلك كان

الاختبار صعباً، فالله سبحانه وتعالى يقول: {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة:143]، إذاً: كأن الموضوع اختبار، والله حدد الغاية من هذا الاختبار، فقال: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة:143]، فالأمر في حقيقته امتحان كما بين الله عز وجل.

اختبارات شهر شعبان كانت مكثفة جداً، ويوحي هذا بوضوح أن المسلمين يقتربون من حدث هام لا يمكن أن يخرج له إلا المؤمنون حقاً؛ لذلك كانت الاختبارات متكررة في هذا الشهر الكريم، هذا الحدث هو لقاء الكافرين مع المسلمين في غزوة بدر الكبرى، وتسمى هذه الغزوة بيوم الفرقان، وإلى هذا الوقت لم تمض على المدينة إلا سنتان والرسول ﷺ يقودها، لكن الوضع في المدينة المنورة لم يكن مستقراً أبداً، فهناك طوائف شتى من المشركين من الأوس والخزرج، وهناك اليهود، وهناك قريش وخاصة بعد أن جرحت في كبريائها بعد سرية نخلة، وهناك قبائل الأعراب المحيطة بالمدينة والتي عاشت على السلب والنهب، فهي عصابات إجرامية، وظهور دعوة أخلاقية كدعوة الإسلام في هذا المكان تحجم كثيراً من السرقات والنهب والسلب، وهذا مما لا شك فيه لا يعجب هذه القبائل، فالأوضاع غير مستقرة أبداً.

وقفات مع غزوة بدر الكبرى

في يوم الفرقان كانت غزوة بدر الكبرى في 17 من رمضان سنة اثنين هجرية، هذه الغزوة قلبت الموازين كلها، بل تستطيع أن تقول: هي المعركة التي عدلت موازين العالم المقلوب وليس من الضروري أن تحدث نقاط التغيير المحورية في العالم نتيجة صراع بين قوة عالمية أولى وأخرى، لكن قد يبدأ التغيير بحدث لا يعطي أحداً من أهل الأرض أهمية، بل قد لا يشعرون به أصلاً، فمن كان يسمع عن غزوة بدر من أهل فارس أو أهل الروم أو أهل الصين أو أهل الهند؟ إن غزوة بدر في حسابات العسكريين معركة بسيطة جداً، 300 جندي يحارب ألف

جندي في نقطة لا ترى على خارطة الأرض، وفي صحراء العرب الجرداء، وأي محلل عسكري سيحلل هذه المعركة بأنها مجرد صراع عابر، أو تستطيع أن تقول: مشكلة بين قبيلتين لا تحمل أي نوع من الخطورة على القوى العالمية الموجودة آنذاك، فجيوش الرومان كانت تقدر بالملايين في ذلك الوقت، وجيوش فارس كانت تزيد على مليوني جندي، هذه أعداد الجيوش فقط لا الشعوب، أما الشعوب فكانت تقطن في مساحات واسعة جداً، وهي الآن عشرات الدول؛ لذلك فإن غزوة بدر في التحليل السطحي معركة عابرة، لا يرجى أن يكون لها أي أثر إلا في بعض النقاط غير المرئية في الصحراء، ومع ذلك فإن التحليل العميق يثبت غير ذلك تماماً. فبعد غزوة بدر ولدت أمة ثابتة راسخة، لها رسالة وهدف وطموح، تغير وجه التاريخ حقاً بعد هذا الميلاد. قامت الدولة التي ستحمل على أكتافها قضية هداية الناس أجمعين إلى رب العالمين سبحانه وتعالى، ونشأت الأمة التي ستصبح خير أمة أخرجت للناس، وخرج الجيش الذي سيزلزل بعد ذلك عروش قيصر وكسرى، فغزوة بدر غزوة فرقت بين مرحلة كانت فيها دولة الإسلام ناشئة ضعيفة مهددة، ومرحلة أخرى أصبحت فيها دولة الإسلام معتبرة ومستقرة وقوية لها شأن في المنطقة، وكل الناس في العالم يسمعون عن دولة الإسلام؛ لذلك فإنه ليس من المستغرب أن الله سبحانه وتعالى سماها يوم الفرقان، فإن مقاييس رب العالمين سبحانه وتعالى ليست كمقاييس البشر، فإن الصدام المروع بين فارس والروم مرات عديدة لم يغير من وجه التاريخ.قال تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم:1-3]، فازت أو خسرت ليس هناك تأثير في الأرض، فما هي إلا لحظات عابرة مهما طالت في عمر البشرية، لكن بدراً وضعها مختلف، فالصدام البسيط الذي تم بين المدينة المنورة ومكة غير كل شيء في الأرض، وما زال يغير إلى يوم القيامة، فغزوة بدر لحظة فارقة حقاً، وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن نقف طويلاً مع غزوة بدر. غزوة بدر لم تكن غزوة عظيمة بأرضها

أو بجغرافيتها أو بخطتها أو بنوعية السلاح الذي استخدم فيها، إنما كانت عظيمة بأهـل الحـق فيها ولو كانوا قلة بسطاء حقراء، أو بالتعبير القرآني كما قـال تعـالى: {وَلَقَـدْ نَصَرَـكُمُ اللهُ بِبَـدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران:123]، فكانت بدر عظيمة بالطائفة المؤمنة النبيلة التي شاركت فيهـا، فمن أجل هذه الطائفة حدثت تغييرات كونية هائلة، ومن أجل هذه الطائفـة نزلـت الملائكـة، ومن أجل هذه الطائفة خضع الشيطان بل نكص على عقبيه مذموماً مدحوراً، فلا بـد أن نقـف وقفة وندرس هذه الطائفة النبيلة العظيمة الطائفة هذه يا إخواني أنـا أرى أنهـا معيـار للجـيش المنتصر، جيش بدر مقياس لكل جيوش المسلمين الجيش الذي سيعرف يتصف بصفات جيش بدر سيعرف يحقق نصر مثل نصر بدر.

الأسباب التي دعت إلى غزوة بدر الكبرى

عادت قافلة مكية من الشام إلى مكة بقيادة أبي سفيان ، ومعظم القوافل التي خرج لها المسلمون قبل ذلك لم يحدث فيها قتال كما تعلمون، حتى القتال الذي حصـل في سريـة نخلـة كـان قتـالاً بسيطاً، 10 من المسلمين يحاربون 4 من الكفـار، لكـن هـذه القافلـة كانـت تختلـف عـن بقيـة القوافل في بعض الأمور المهمة:

أولاً: هذه القافلة من أكثر القوافل المكية مالاً، فضرب هذه القافلة يمثل ضربةً اقتصاديةً هائلـةً لمكة، فيها ألف بعير موقرة بالأموال، وفيها ما لا يقل عن خمسين ألف دينار ذهبي.

ثانياً: هذه القافلة ليست بقيادة قائد مغمور من قواد مكة أو تاجر عادي مـن تجـار قـريش، بـل هي بقيادة أبي سفيان بن حرب من سادة قريش، ومع هذه القافلـة حراسـة مكونـة مـن 30 إلى 40 مشركاً، أما قافلة نخلة فكان معها أربعة رجال فقط.

ثالثاً: هذه القافلة تمر بجوار المدينة في شهر رمضان، بعد شهر ونصف شهر فقط من أحداث سرية نخلة، وموقف المؤمنين مع هذه القافلة يؤكد صلابة موقفهم واستمرارية حربهم ضد المشركين، ويثبت أنهم ليسوا خائفين أبداً من آثار سرية نخلة، بل على العكس يعتبر هذا الخروج تأكيداً واضحاً لقوة المسلمين وتصميمهم على الحرب ضد قريش إلى النهاية، ولا شك أن هذا سيهز كفار مكة.

لذلك خرج الرسول ﷺ خرج بأكبر عدد من المسلمين، وإلى هذه اللحظة كل السرايا والغزوات السابقة لم يتجاوز عدد المسلمين فيها مائتين، لكنهم في غزوة بدر أصبح عددهم 313 أو 314 أو 317 على اختلاف الروايات، وقد خرج الأنصار لأول مرة مع المهاجرين، والغزوات والسرايا التي حدثت قبل بدر كلها كانت معتمدة على المهاجرين، كذلك كان خروج الأنصار في غزوة بدر برغبتهم أنفسهم، وبشورى من رسول الله ﷺ، كما جاء في صحيح مسلم : أن الرسول ﷺ استشار الناس في الخروج للقافلة، فأعلن أبو بكر الموافقة، وأعلن عمر الموافقة، وكثير من المهاجرين أعلنوا كذلك الموافقة، وكان الرسول ﷺ يطلب المزيد من الرأي، حتى قال سعد بن عبادة زعيم الخزرج: (إيانا تريد يا رسول الله؟!) فقال ﷺ: (أجل). فقال: (والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر -أي: الخيل- لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا) وبرك الغماد: مكان بعيد عن المدينة المنورة في اتجاه اليمن.كانت هذه استشارة حصلت داخل المدينة المنورة، وعرض الأنصار أن يخرجوا مع الرسول ﷺ إلى هذه القافلة، وقبل الرسول ﷺ هذا العرض، وفعلاً خرج الأنصار، بل معظم الجيش كان من الأنصار، فعدد الأنصار في بدر كان 231 أنصارياً، 61 من الأوس، و170 من الخزرج، والمهاجرون كانوا 83 فقط، يعني: ثلثي الجيش تقريباً من الأنصار، وتزود الرسول ﷺ بسلاح المسافر، وأخذ معه فرسين وسبعين من الإبل، وقسم جيشه إلى مهاجرين وأنصار،

وأعطى راية المهاجرين لعلي بن أبي طالب ، وراية الأنصار لسعد بن معاذ ، وأعطى الراية العامة للجيش لمصعب بن عمير رضي الله عنهم أجمعين، وجعل على الساقة في مؤخرة الجيش قيس بن أبي صعصعة رضي الله عنه. كان هذا الإعداد في منتهى القوة، هذا الجيش خرج لقافلة يحرسها 30 أو 40 رجلاً، أي: أن الجيش الإسلامي عشرة أضعاف حراس قافلة مكة تقريباً، والمخابرات الإسلامية حددت أن القافلة ستمر قريباً جداً من بدر، وهي على بعد حوالي 70 كيلو متر جنوب المدينة المنورة، وهكذا اتجه الرسول ﷺ مباشرة إلى بدر حتى يقطع الطريق على القافلة.

كانت القافلة المكية على رأسها أبو سفيان بن حرب ، وهو من أذكى وأدهى العرب، وكان له مخابرات استطاع من خلالها أن يعرف أن الرسول ﷺ خرج من المدينة المنورة قاصداً القافلة، لكنه لم يعلم بعد إلى أين وصل الرسول ﷺ، ولم يضيع وقتاً، بل أرسل رسالة سريعة إلى مكة يستنفر جيش مكة للخروج لإنقاذ القافلة، أرسل الرسالة مع واحد اسمه ضمضم بن عمرو الغفاري ، فلما وصل ضمضم إلى مكة وقف على بعيره وشق قميصه، وبدأ يصرخ في أهل مكة: (يا معشر قريش؛ يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث) ونفر الناس كلهم، فما تزال مصيبة سرية نخلة قريبة، وكلهم أخذ الموضوع بمنتهى الجدية. بدءوا في جمع المقاتلين من كل مكان، وأعدوا جيشاً كبيراً على أعلى مستوى، كان تعداده 1300 مقاتل من قريش وما حولها من قبائل العرب هذا الإعداد الأول، وخرجوا بمائة فرس و600 درع، وجمال كثيرة جداً لا يعرف عددها، لكنهم كانوا ينحرون 9 أو 10 من الإبل للطعام فقط يومياً، وخرج مع قيادة الجيش كل زعماء الكفر تقريباً: أبو جهل ، عتبة بن ربيعة ، شيبة بن ربيعة ، الوليد بن المغيرة ، عقبة بن أبي معيط ، أمية بن خلف وغيرهم، أما أبو لهب فلم يخرج وخرج آخر في مكانه كان عليه دين. قال له:

(أخرج وسأرفع عنك الدين). جعل المشركون على رأس الجيش أبا جهل سيد مكـة وفرعـون هذه الأمة، وكان هذا إعداداً ضخماً لجيش خطير، وقـد تعـاون الجميـع لإخـراج هـذا الجـيش الكبير، بل تعاون معهم الشيطان نفسه، فإنه لما قررت قريش الخروج خافت من غدر بني بكـر لها؛ وذلك لأنه كان بينها وبين بني بكر بعض الثارات القديمة، فقالوا: إذا خرجنا أتونا بنو بكر من ورائنا، وكاد ذلك يقعدها عن الخروج، لكن الشيطان تمثل لهم في صورة سراقـة بـن مالـك بن جعشم المدلجي أحد أشراف بني كنانة. قال لهم: (أنا جـار لكـم مـن أن تـأتيكم كنانـة مـن خلفكم بشيء تكرهونه)، والقصة سندها صحيح ولها أكثر من طريق، وكم من المـرات سـاعد الشيطان أولياءه في حرب المؤمنين، لكن كيد الشيطان لا يسمن ولا يغني من جوع إذا كـان الله عـز وجـل مـع الفريـق الآخـر، {فَقَـاتِلُوا أَوْلِيَـاءَ الشَّـيْطَانِ إِنَّ كَيْـدَ الشَّـيْطَانِ كَـانَ ضَـعِيفًا} [النساء:76]. إن الشيطان دفع الكافرين دفعاً إلى حتفهم في بدر، قال تعالى: {وَمَا يَعْلَـمُ جُنُـودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر:31]. كذلك فعل أبو جهل أحد كبار شياطين الإنس في مكة، دفع نفسـه وزعماء مكة جميعاً للخروج إلى حتفهم، وقصته مع أمية بن خلف معروفة ذكرهـا البخـاري في صحيحه، كان أمية بن خلف من عتاة الإجرام، وكان سـعد بـن معـاذ رضي الله عنـه وأرضـاه صديقاً له في الجاهلية وقد زار سعد مكة وأحب أن يطوف، وفي أثنـاء زيارتـه لمكـة قـال سـعد لـأمية : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنهـم قـاتلوك)، أي: أن المسـلمين سـيقتلون أميـة بـن خلف ، ففزع أمية بن خلف وقال: (بمكة؟) قال سعد : (لا أدري). ازداد رعب أمية ، ورجـع مسرعاً إلى أهله وقال لزوجته: (يا أم صفوان؛ ألم تسمعي ما قال لي سعد ؟) قالـت: (ومـا قـال لك؟) قال: (زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي)، فقلت له: (بمكـة؟) قـال: (لا أدري)، فقـال أمية : (والله لا أخرج من مكة). إن هذه القصة تعرفنا كيف أن أهل الباطل يقرون من داخلهم أن أهل الإيمان هم على حق، وأن كلامهم صحيح لا خطأ فيه، وحق لا باطل فيه، لكـن الكـبر

والبطر يمنعهم من الإيمان. كذلك هذه القصة تُثَبت المؤمنين، فلا بد لكل مـؤمن أن يعـرف أن عدوه من داخله مرتعب منه مهما كان هذا العدو قوياً، ومهما كان أعوانه كثراً، ولما قـرر جـيش مكة الخروج خاف أمية أن يخرج مع الجيش؛ لأنه يعرف أن كلام رسول الله ﷺ صدق، أتاه أبو جهل فقال له: (يا أبا صفوانإنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفـوا معك)، فأرسل إليه أبو جهل عقبة بن أبي معيط ، وعقبة بن أبي معيط مجرم شيطان، فقد ذهـب وأحضر لـأمية بن خلف طيباً خاصاً بالنساء، فوضعه بين يديه وقال له: (تطيب، إنما أنـت مـن النساء)، فقال أمية : (قبحك الله) فاستحى أن يكون جميع الرجال قد خرجوا وهو قاعد، فقـرر أمية بن خلف أن يخرج وينفذ خطة كي يرجـع، وقـرر أن يشـتري أجـود بعـير في مكـة ليقـوم بالهروب إن سنحت له فرصة، ورجع إلى البيت وتجهز للخروج فقالت له أم صـفوان : (أوقـد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟) قـال: لا، (مـا أريـد أن أجـوز معهـم إلا قريبـاً)، وفي أثنـاء الطريق قرر أمية الرجوع أكثر من مرة، لكن أبا جهـل كـان يأتيـه ويكمـل الطريـق معـه حتـى وصلوا بدراً، وكان مصيره مثلما أخبر رسول الله ﷺ.قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْـدًا * وَأَكِيـدُ كَيْدًا} [الطارق:15-16] سبحان الله! رأس الباطل أبو جهل هو الذي يدفع جنده إلى الهلكـة، انظروا ماذا يقول الله سبحانه وتعالى: {اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر:43]، فـأبو جهـل كـان يعتقـد أن هـذا هـو أفضـل إعـداد، وأنـه قـد مكـر بالمسلمين.

خرج جيش مكة، وفي الطريق قبل أن يصلوا إلى بدر وصـلتهم رسـالة أخـرى مـن أبي سـفيان يقول فيها: (إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا). اكتشف أبو سفيان تحركات الجيش المسلم، وعلم أنه سينتظر في بدر، وبسرعة غير اتجاهه ناحية الغرب، وسار على ساحل البحر الأحمر وأفلت بالقافلة، وكان أبـو سـفيان يـرى أنـه لا داعـي

للدخول في صدام دون إعداد جيد مسبق، فالأفضل تـدبير أمـر الجـيش بـترو. وجـدت هـذه الرسالة هوى في قلب أمية بن خلف وغيره، فأراد الجميع الرجوع، لكـن أبـا جهـل قـام لهـم، وأخذ يدفعهم دفعاً، كما دفع فرعون جنده للدخول في البحر خلف موسى ﷺ. قال أبو جهـل للجيش: (والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور ونطعم الطعـام ونسـقي الخمر وتعزف القيان) أي: المطربات، وهذا كعادة أهل الباطـل دائـماً، عنـد مناسـبات النصـر يعدون حفلة ويأتون فيها بالمطربين والمطربات، ويأكلون ويشربون الخمر، ويفعلون أشياء مـن هذا القبيل، لكن المسلمين يحتفلون للنصر بصلاة الفجر وسجدة الشـكر، يحتفلـون بصـدقات وإعتاق عبيد ورفع لذكر الله في الأرض، أما أهل الباطل فعـلى العكـس تمامـاً، لا يـذكرون الله سبحانه وتعالى أبداً لا في نصرهم ولا في هزيمتهم، فهم لم يخرجوا إلا إرضاء لأهـوائهم ورغبـة في الذكر عند الناس، يتضح ذلك جلياً في قول أبي جهل : (وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً) فكل الذي في رأسه ذكر الناس لهم، والله سبحانه وتعالى ذكر ذلـك في كتابه الكريم، قال تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [الأنفال:47]،

برغم إصرار أبي جهل إلا أن مجموعة من المشركين انشقت عن الصف ورفضت إكمال الطريق، هذه المجموعة كان يقودها الأخنس بن شريق ، وأخذ معه بني زهرة بالكامل وكـان تعـدادهم 300 مقاتل، وعاد بهم إلى مكـة. هـذه الانقسـامات داخـل حـزب الباطـل هـي نصــر كبـير للمؤمنين، فالجيش المكي أصبح ألف مقاتل وأكمل الطريق حتى نزل قريباً من بدر عند مكـان يعرف بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر.

تحقيق مبدأ الشورى بين أفراد الجيش المؤمن

نقلت الاستخبارات الإسلامية خبرين في منتهى الأهمية: الخبر الأول: هروب القافلة، الخبر الثاني: جيش مكة على مقربة من بدر، فالوضع خطير جداً، وإعداد المسلمين كان قوياً جداً بالنسبة لقافلة تجارية، لكن لاشك أنه ضعيف جداً بالنسبة لجيش نظامي خرج مستعداً للقتال، فلا يوجد سوى اختيار من اثنين: إما الرجوع إلى المدينة وتجنب القتال، وإما التقدم إلى بدر والصدام المروع، ومن هنا نركز على هذه القضية؛ لأن كل موقف سيحمل ملمحاً من ملامح النصر، وسيكون فيه إشارة إلى عامل من عوامله. كل صفات الجيش المنتصر تجمعت في جيش بدر، وأي جيل مسلم يريد أن ينتصر لا بد أن يعرف صفات جيل بدر جيداً، ولا بد أن يستوعب سورة الأنفال جيداً، فهي سورة تحدثت عن غزوة بدر، والرسول ﷺ أمامه خياران: الرجوع أو القتال.

كان النبي ﷺ يريد القتال؛ لأن الرجوع له آثار سلبية كبيرة، فهو سيهز جداً كيان المسلمين، وسيضيع مكاسب سرية نخلة، وسيشجع الكفار على التمادي في الحرب على المسلمين، فكلما رجع المسلم خطوة احتلها عدوه، ولا يستبعد مطلقاً إذا رجع الجيش المسلم أن يستمر الجيش المكي في المسير ويغزو المدينة، وعندئذ سيكون الخطر أكبر، لكن الرسول ﷺ ليس قائداً ديكتاتورياً كأبي جهل، فالقائد الديكتاتوري يبرز فهمه دائماً لمن يقودهم، والذين من حوله يحاولون أن يفهموه أن رأيه فقط هو الرأي الصحيح، وأنه يفهم في كل شيء؛ لذلك فعليه ألا يضيع وقته ووقت شعبه في الاستشارات، لكن الرسول ﷺ لم يكن كذلك، فمع أنه أحكم البشر كان يستشير أمته في كل القضايا التي لم ينزل فيها وحي، فإذا كان هناك أمر من الله في قضية من القضايا فإنه لا يجوز للمسلمين أبداً أن يتشاوروا في تطبيق الأمر من عدمه، وإذا لم يكن هناك أمر من الله فلابد من الشورى، وكل تحركاته ﷺ كانت بالشورى، لما خرج من

المدينة للقافلة خرج بالشورى، ولما قرر أن يحارب لم يحارب إلا بشورى، وسنرى للشورى مواضع كثيرة بعد ذلك في بدر وفي غير بدر.

نستطيع أن نقول ببساطة إن من أهم ملامح الجيش المنتصر أن يكون جيشاً يعظم الشورى الحقيقية وليست الشورى التمثيلية الهزلية على الشعب، بل شورى حقيقية تهدف إلى قرار يصلح الأمة، وهكذا عمل الرسول ﷺ مجلساً استشارياً كبيراً تبادل فيه الرأي ليس فقط مع قادة الجيش ولكن مع عامة الجيش، فقام المستشار الأول لرسول الله ﷺ أبو بكر الصديق وأيد الحرب ضد الكافرين، وكذلك قام المستشار الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال نفس الكلام، ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه وأرضاه وقال كلاماً رائعاً علق عليه عبد الله بن مسعود . قال: (شهدت من المقداد بن عمرو مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به)، قال: (يا رسول الله؛ امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إن ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك حتى نبلغه).

سُر الرسول سروراً عظيماً بكلام المقداد ، ولكن ما زال يطلب الاستشارة ويقول: (أشيروا علي أيها الناس أشيروا علي أيها الناس)، وقد كان الرسول ﷺ في مواقف كثيرة يكتفي باستشارة أبي بكر وعمر ، ويقول: (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما)، لكن هنا ما زال ينتظر استشارة الأنصار، فإنه لم يسمع رأي الأنصار بعد، فالأنصار قبل ذلك في المدينة أعلنوا موافقتهم على الخروج معه للقافلة، لكن الآن ليس هناك قافلة، وإنما قتال مع جيش كبير، والرسول ﷺ يعلم أنه لو أمر الأنصار لأطاعوه فوراً، فهم في أعلى درجات الإيمان رضي الله عنهم أجمعين. لكن الرسول يذكر بيعة العقبة الثانية، وفيها بايع الأنصار على نصرة الرسول ﷺ إذا قدم إليهم في المدينة، ولم يبايعوه على الحرب خارج المدينة، والأمر ليس فيه تكليف إلهي الآن فيسمع الجميع

ويطيع، ولكن فيه الشورى، والرسول ﷺ لا يريد أن يكره الأنصار على القتال، فشتان بين من يقاتل وهو مكره، ومن يقاتل وهو راغب في الجهاد، ولا ننسى أن الأنصار ثلثا جيش المسلمين، فهذا الطلب المتكرر للاستشارة: (أشيروا علي أيها الناس أشيروا علي أيها الناس)، لفت نظر سيد الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه، وكان حامل لواء الأنصار حينها، فقام وقال: (لكأنك تريدنا يا رسول الله؟!) قال رسول الله ﷺ: (أجل)، قال سعد : (فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إننا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله عز وجل يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله)، ثم قال: (لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فينا من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ برك الغماد لنسيرن معك، ووالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك).

هؤلاء هم الأنصار (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق)، ولما سمع الرسول ﷺ هذا الكلام تحرك في منتهى النشاط وقال للناس في حماسة: (سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، ووالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)، وفي رواية مسلم عن عمر بن الخطاب قال: (أنه مر مع المسلمين على أرض بدر ليلة المعركة وعرفهم أين يموت كل طاغية من طواغيت مكة كان يقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، فما أخطأ رجل الموضع الذي حدده ﷺ).

صفة الإيمان الكامل بالله ورسوله

من موقف المؤمنين الباسل سنجد أكثر من صفة من صفات الجيش المنتصر.

أولاً: ذكرنا قصة الشورى وأهمية الشورى في بناء الأمة الإسلامية.

ثانياً: لنا صفة هي من أهم صفات الجيش المنصور، بل هي أهم الصفات مطلقاً، ظل الرسول ﷺ (13) سنة في مكة وبعد ذلك في المدينة يزرعها في المسلمين، وهي صفة الإيمان الكامل بالله عز وجل وتوجيه النية كاملة إليه، والإيمان الكامل برسوله ﷺ واتباعه اتباعاً لا تردد فيه، فإن جيش مكة خرج ليتحدث الناس عنه، خرج لإرضاء شهوات النفس ولغرض الصد عن سبيل الله بطراً ورئاء الناس، بينما صدق التوجه كان واضحاً في كل كلمة من كلمات الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، فهم يعلمون أنهم في مهمة سامية وغرض نبيل، لا يرجون من ورائها إلا الثواب من الله عز وجل، فالله غايتهم بمعنى الكلمة، ومن غير صفة الإيمان هذه لا يوجد نصر، فالجيش العلماني لن ينصر أبداً، والجيش العاصي لن ينصر، والجيش الفاسق لن ينصر، والجيش الذي يقاتل من أجل القائد لن ينصر، والجيش الذي يقاتل من أجل قبلية أو عصبية لن ينصر، والجيش الذي لا يعرف أصلاً لماذا يقاتل لا يمكن أن ينصر أبداً، وهناك جيوش كثيرة جداً وأحياناً مسلمة لا تعرف لماذا تقاتل؟ القائد أمر، لكن لماذا أمر وكيف أمر؟ ويا ترى هل هذه الحرب ترضي الله أم تغضبه؟ ولا أحد يعرف لأنه لا يسأل، فهذا لا يمكن أن ينتصر، فالنصر في المفهوم الإسلامي من عند الله عز وجل: {إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد:7]، ونصر الله عز وجل يكون بطاعته وتطبيق شرعه. والجيش الإسلامي أصبح له 15 سنة كاملة يتربى على هذا المعنى، وهذه أهم صفة من صفات الجيش المنتصر.

صفة الأمل والتفاؤل واليقين بنصر الله عز وجل

الصفة الثالثة: صفة الأمل: (سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، ووالله لكأني انظر إلى مصارع القوم)، والجيش المحبط من المستحيل أن ينتصر، والإحباط لا يأتي إلا من تفاهة المهمة التي يقاتل من أجلها الجيش، والدنيا بكاملها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فالذي يقاتل من أجل الدنيا لا شك أنه سيحبط، ومن أحبط لاشك أنه سيهزم.

صفة الحزم وعدم التردد

الصفة الرابعة: صفة الحسم وعدم التردد.

إن مرحلة الشورى هي مرحلة تداول الرأي، فإن استقر المسلمون على رأي فلابد من الحسم في تنفيذه؛ لأن التردد والتسويف يضعف الهمة ويزيد من جرأة العدو ويفتح أبواباً للشيطان، قال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} [آل عمران:159]، فمع خطورة الموقف وقلة إعداد المسلمين وقوة الجيش الكافر إلا أن المسلمين أقدموا دون أي تردد. رأينا في الجيش الكافر تردد أمية بن خلف في الخروج، ورأينا انسحاب الأخنس بن شريق ، ورأينا رفض الجميع للقتال ودفع أبي جهل لهم، ورأينا خوفهم من الخروج في البداية، وتمثل الشيطان لهم في شكل سراقة بن مالك بن جعشم ، رأينا كل ذلك.

ولا زلنا سنرى تردداً آخر، فأهل الباطل في تخبط دائم، فقد كان عتبة بن ربيعة رافضاً للقتال تماماً، وهو من قادات مكة، وقف يقول للقوم: (يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه). أي: سندخل في معركة، ويقتل بعضكم بعض المسلمين، وهم إخوانكم وآباؤكم وأبناؤكم، فالمشرك سيقول للمشرك الآخر: نعم. أنت من قتلت أبي في موقعة بدر. ثم أبدى النصيحة وقال: (فاجعلوا

حقها برأسي وارجعوا). هذه نصيحة واحد من قادة مكة في أرض المعركة، غضب أبو جهل غضباً شديداً وقال: (انتفخ والله سحره). السحر: هو الرئة، وهذه علامة على الجبن، ثم قال أبو جهل : (إنما محمد وأصحابه أكلة جزور لو قد التقينا). يعني: العرب كانوا يقدرون أكلة الجزور بمائة رجل، ورد عتبة على أبي جهل ، لكن لنتذكر أولاً رد سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه على رسول الله ﷺ: (فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فينا من أمر فأمرنا تبع لأمرك).

سبحان الله تجرد كامل لله عز وجل، ليس له أي مصلحة في الموقعة من مصالح الدنيا، لكن انظر إلى المشاكل التي كانت موجودة بين المشركين في أرض المعركة، فهذا عتبة أحد القادة مع أبي جهل في صراع أمام كل الجيش، وهذا يؤثر سلباً على نفسية الجيش. قال عتبة : (ستعلم من الجبان المفسد لقومه)، وهكذا بدءوا يدخلون في الملاسنات والمعركة لم تبدأ بعد، ثم قال عتبة بن ربيعة قولاً يعبر عن رعبه الداخلي: (أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً). سبحان الله؛ المسلمون 300 مقاتل والكفار 1000 مقاتل ومع ذلك يقول: (أما والله إني لأرى قوماً - يعني: المسلمين- يضربونكم ضرباً، أما ترون رءوسهم كالأفاعي وكأن وجوههم السيوف).

هذه هي نفسية من يحاربون الإسلام، جاء حكيم بن حزام حينها وكان مشركاً وأسلم بعد ذلك رضي الله عنه، جاء إلى عتبة بن ربيعة يقول له: (يا أبا الوليد ؛ هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت)، قال: (ماذا أفعل؟) قال:(إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي - يقصد الذي قتل في سرية نخلة- وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس)، أي: إذا كانت المشكلة في دية ابن الحضرمي فادفعها أنت لعائلته وارجع بالناس، فقال عتبة بن ربيعة : (أنت وذاك، واذهب إلى ابن الحنظلية -يعني: أبا جهل - فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك

عن ابن عمك)، يقرب له نسب الرسول ﷺ منهم، أي: قريبك في الرحم، لعله يرجع، فانظر إلى حجم التشجيع، فذهب حكيم إلى أبي جهل وقال له ذلك، فرد أبو جهل : (أما وجد رسولاً غيرك). هذا أبو جهل يكلم أحد أشراف مكة حكيم بن حزام ، لكن كان جوابه بمنتهى الغرور، قال له: (أما وجد رسولاً غيرك)، قال: (لا، لم يجد غيري، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره) أي: أنا رسول لواحد من أشراف مكة أيضاً عتبة بن ربيعة ، ومع ذلك رفض أبو جهل وأصر على القتال وتصرفه يعبر عن ديكتاتورية مطلقة.

ذهب عمير بن وهب الجمحي وذلك قبل أن يسلم ليقدر أعداد المسلمين، فعاد إلى قريش وقدر العدد بثلاثمائة أو نحو ذلك، ومع أن جيش المسلمين ثلث جيش الكفار إلا أن عمير بن وهب قال: (ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، ووالله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم). فانظر إلى حجم التردد الذي يعيشه أهل الباطل، فكيف سيقاتلون مثل هؤلاء؟! لكن كل من يحارب الإسلام تكون هذه حالته.

الجيش المسلم عكس الجيش الكافر تماماً، الجيش المسلم جيش مؤمن بالله عز وجل وبرسوله الكريم ﷺ، لا يعمل إلا لله عز وجل، متفائل وعنده يقين كامل في نصر رب العالمين سبحانه وتعالى، حاسم غير متردد، ويعمل بالشورى في كل قضاياه، إلا إذا كان هناك أمر من الله أو رسوله الكريم ﷺ فلا شورى فيه، فهذا جيش لابد أن ينتصر، وليست الروح العالية التي رأيناها في موقف أبي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ : أن كل الجيش كان كذلك، بل كان هناك بعض المؤمنين خائفين من جيش مكة، ليس ضعفاً في اليقين، ولكن لإحساسهم أنهم لم يخرجوا بالاستعداد الكامل، وأنه كان من الممكن أن يعدوا إعداداً أفضل من ذلك فهناك

أعداداً كبيرة من المسلمين في المدينة، لو عرفوا أن هناك جهاداً لخرجوا مع المسلمين، فكانوا يقولون: يا ليتنا نقاتل القافلة ولا نقاتل الجيش.

الخلاصة أنهم كرهوا الحرب، وتمنوا أنه لو كان هناك حرب مع القافلة فقط، والله سبحانه وتعالى ذكر ذلك في كتابه الكريم، قال: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ} [الأنفال:5-7]، القافلة أو الجيش وَتَوَدُّونَ [الأنفال:7]، الذي تتمنونه في قلوبكم، {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [الأنفال:7] أي: القافلة. هل هذا الشعور الذي كان عند بعض المسلمين شعور سيئ؟ هل هذا شعور خطير؟ أبداً ليس معنى الإيمان بالله: عدم الخوف أبداً، لكن المطلوب من المؤمن ألا يؤثر هذا الخوف على طاعته لله عز وجل، وعلى طاعته لرسوله الكريم ﷺ، ولا ينبغي أن يقوده الخوف إلى مخالفة شرعية، وهذا فارق كبير جداً بين بدر وأحد، ففي بدر خوف المؤمنين لم يدفعهم إلى المخالفة، وفي أحد خوف المؤمنين دفعهم ليس إلى مخالفة واحدة، بل إلى مخالفات كما سنرى بعد ذلك إن شاء الله.

الشيء المهم الذي نريد أن نلفت النظر إليه: أن الجيش يكون فيه عدد من عمالقة الإيمان الذين يستطيعون أن يحركوا الخير الموجود في داخل قلوب عموم المؤمنين، هذا الأمر سنعرفه في غزوة تبوك، فالناس عموماً فيهم خير كثير، لكن يحتاجون إلى من يحركهم، وليس من الضرورة أن يكون الجيش بكامله أبا بكر وعمر ، ولكن من الضروري أن يكون في الجيش أمثال أبي بكر وعمر ، وكل ما درسناه سابقاً عن غزوة بدر كان في يوم الخميس في 16 من رمضان سنة 2 هجرية، واليوم الثاني سيكون يوم الجمعة 17 من رمضان سنة 2 هجرية، وهو يوم بدر أعظم أيام الإسلام، بل من أعظم أيام الدنيا هذا اليوم.

21

يوم بـــدر

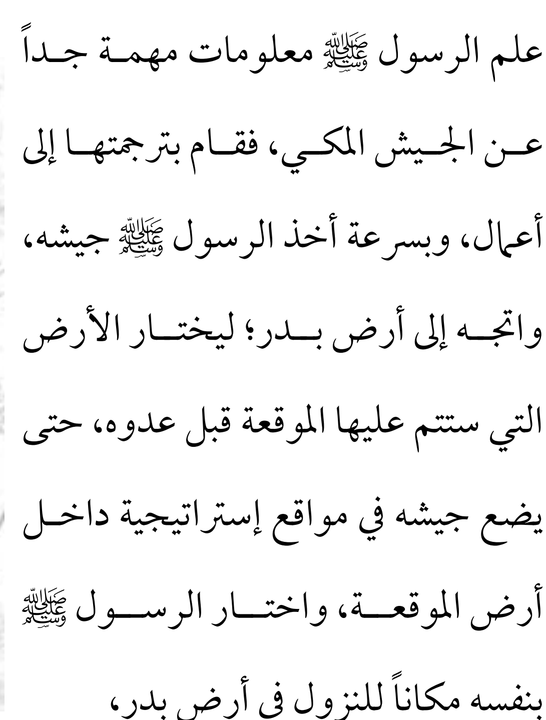
كانت صفات الجيش المنصور موجودة بكاملها في جيش المدينة المؤمن، وكانت صفات الجيش المهزوم موجودة بكاملها في جيش مكة الكافر، ولم تكن هذه فقط صـفات الجيـوش المنتصـــرة والمهزومة، فلا تزال هناك صفات أخرى كثيرة، سنتعرف عليها اليوم من خلال الحـديث عـن يوم الفرقان يوم بدر.

عملية الاستكشاف من قبل الرسول ﷺ لجيش المشركين في بدر قبل القتال

وصلنا في الدرس الفائت إلى أن الجيش المكي عسكر في منطقة العدوة القصوى جنـوب وادي بدر، والجيش المسلم اقترب من بدر في المنطقة الشمالية منه، وتعـرف بالعـدوة الـدنيا. قـام ﷺ بعملية استكشافية بنفسه هو وأبو بكر الصـديق رضي الله عنـه وأرضـاه، واسـتطاعا أن يعرفـا مكان جيش مكة، لكن لم يستطع الرسول ﷺ أن يعرف أعداد القوم ولا قادتهم، فأرسل فرقـة استكشافية ثانية كان فيها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسـعد بـن أبي وقـاص رضي الله عنهم أجمعين، وأمسكت الفرقة غلامين من جيش العدو، وأحضروهما إلى الرسول ﷺ، وبـدأ الرسول ﷺ في استجوابهما.قال: (أخبراني عن قريش).قالا: (هم وراء هذا الكثيب الذي تـرى بالعدوة القصوى) قال: (كم القوم؟) قالا: (كثير)، قال: (ما عدتهم؟) قالا: (لا نـدري)، قـال ﷺ: (كم ينحرون كل يوم؟) قالا: (يومـاً تسـعاً ويومـاً عشـــراً)، قـال ﷺ: (القـوم فـيما بـين

التسعمائة والألف)، فاستطاع أن يحدد بالضبط العدد الحقيقي لجيش مكة؛ لأنهم كانوا يعلمون أن الجمل يكفي مائة تقريباً للأكل، ثم قال ﷺ: (فمن فيهم من أشراف قريش؟) قالا: (عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد) كل قادة مكة موجودون في جيش مكة الذي خرج إلى بدر، فأقبل الرسول ﷺ على المؤمنين وقال لهم: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها).

اختيار الرسول ﷺ مكان موقعة بدر وسماعه لمشورة الصحابة





علم الرسول ﷺ معلومات مهمة جداً عن الجيش المكي، فقام بترجمتها إلى أعمال، وبسرعة أخذ الرسول ﷺ جيشه، واتجه إلى أرض بدر؛ ليختار الأرض التي ستتم عليها الموقعة قبل عدوه، حتى يضع جيشه في مواقع إستراتيجية داخل أرض الموقعة، واختار الرسول ﷺ بنفسه مكاناً للنزول في أرض بدر، واستقر فيه في تلك الليلة، فجاء إليه الصحابي الجليل الحُباب بن المنذر رضي الله عنه من الأنصار، وهو من الخبراء العسكريين المعروفين بدقة الرأي وعمق النظرة، وسأل النبي ﷺ: (يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟)، أي: إن كان هذا هو اختيار رب العالمين سبحانه وتعالى فليس لنا

أن نختار، وإن كان اختياراً بشرياً مبنياً على الفكر العسكري والتدبير الحربي فمن الممكن أن ندلي فيه بآرائنا، فقال ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، قال: (يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل)، أي: هذا ليس مناسباً، قالها بوضوح دون خجل ولا مواربة؛ لأن الموضوع خطير وهذه مسئولية، فما الرأي إذاً؟ قال الحباب: (فانهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم -أي: أقرب ماء من قريش- فننزله وتغور -يعني: تخرب- ما وراءه من القلب -جمع قليب الآبار الموجودة في منطقة بدر- ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون)، هذا هو منتهى الحكمة، فالماء في الصحراء في غاية الأهمية، فقال الرسول ﷺ دون أدنى تردد: (لقد أشرت بالرأي)، وبالفعل غير مكانه الأول ونزل في المكان الذي أشار إليه الحباب بن المنذر رضي الله عنه.

ولنا وقفة مهمة مع إيجابية الحباب رضي الله عنه، قد يتخيل الواحد منا أن أي واحد من الصحابة إذا رأى الرسول ﷺ عمل شيئاً لا يقول رأيه؛ لاحتمال أن يكون وحياً، حتى ولو لم يكن وحياً لا يقول، والرسول ﷺ أحكم البشر وأفضل العالمين، ومن المؤكد أن رأيه البشري أحسن من رأي الآخرين، لكن هذا التصور لم يكن عند الصحابة، بل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم كان عندهم إيجابية رائعة، فلو رأى الصحابي شيئاً ويعتقد أن هناك ما هو أولى منه يذهب ويدلي برأيه، حتى لو لم يطلب منه ذلك؛ لأنه يدرك أن الرسول ﷺ بشر، ويجري عليه في الأمور التي ليس فيها وحي ما يجري على عامة البشر من اختيار صحيح مرةً وخطأ مرةً أخرى، أو على الأقل يختار خلاف الأولى في أمر من الأمور. وهكذا أدرك الحباب أن الرسول ﷺ هو الذي قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، وهكذا يفتح الرسول ﷺ المجال الواسع لكل فكر وإبداع وإضافة، وبهذا تشارك كل عقول المسلمين لخدمة الأمة الإسلامية، فلو كان رأي

الحباب خطأً فإن الرسول ﷺ سيعرفه الرأي الصحيح، ويكون قد تعلم شيئاً، أو على الأقل قاتل وهو مقتنع بوجهة النظر الأخرى.

وهذا يرجعنا إلى مبدأ الشورى من جديد، ويرينا كيف نستفيد من طاقات المجتمع وكيف يمكن أن نستغل المواهب الهائلة التي وزعها الله على خلقه بحكمة عجيبة. فلو كان هناك كبت لآراء الجنود لما عرف الرسول ﷺ المكان المناسب في بدر، وهذا سيكون له ضرر على الأمة كلها لا على الرسول ﷺ فقط.

الشورى أمر حتمي لأمة تريد النهوض، فإنه بعد النزول في المكان الذي حدده الحباب رضي الله عنه قام الصحابة بالإشارة على رسول الله ﷺ بأمر اختلف فيه الرواة، وهو بناء العريش أو مقر القيادة؛ لكن سواء تم بناء هذا العريش أو لم يتم، فإن الثابت حقيقة أن الرسول ﷺ لم ينعزل عن جيشه أبداً في موقعة بدر، فمع أنه القائد الأعلى للجيش قاتل معهم بنفسه، بل كان أقربهم إلى العدو. روى الإمام أحمد بن حنبل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: (لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس ﷺ، ثم يقول علي بن أبي طالب: ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه) فهذا كلام في منتهى الأهمية؛ لأنه يثبت لنا أن الرسول ﷺ كان مشاركاً لجيشه ولشعبه، ويعيش معهم في كل قضاياهم.

نزول السكينة والمطر والنعاس على جيش المسلمين

حصل في ليلة بدر أمران في غاية الأهمية غير النزول في مكان بدر: أولاً: النعاس الذي غلب المسلمين في ليلة بدر بعدما وصلوا وعسكروا في المكان. ثانياً: المطر الذي نزل في نفس الليلة، فالنعاس كان أمره عجيباً، كان المسلمون على بعد خطوات من الجيش المكي الكبير، ومع ذلك يصلون إلى حالة من السكينة وهدوء الأعصاب، فينامون بأمان تام في أرض بدر، ومعلوم أن

الشخص لما يكون منشغلاً بشيء مهم لا يستطيع أن ينام بمنتهى الأمان وهو في وسط بيته، فما بالك بشخص نائم في أرض المعركة وهو منشغل بها، فمن الممكن أن تكون نهايته فيها؟ لكنه هدوء أعصاب عجيب، لا يفكر في عدد الأعداء، ولا يفكر في طريقة القتال، ولا يفكر في سيناريو المعركة، ولا يفكر في أولاده وزوجته، ولا يفكر في تجارته ولا حتى في نفسه، بل نائم في منتهى الراحة. في هذه الليلة نام الجميع إلا النبي ﷺ، ظل طوال الليلة يصلي ويدعو الله عز وجل أن ينصر هذا الجيش المؤمن.

على الناحية الثانية كان جيش مكة حيران لا يستطيع النوم، فغداً موقعة مرعبة بالنسبة لهم، بالإضافة إلى أنه ليس مقتنعاً بالحرب أصلاً، وعلى ماذا يحارب، من أجل هبل واللات والعزى، أم من أجل القائد الزعيم أبي جهل، أم من أجل القافلة؟ فالقافلة قد تجاوزت الخطر، وأبو سفيان عبر بها إلى بر الأمان فعلام القتال؟ فقد يموت المشرك غداً، أو يصبح أسيراً أو جريحاً أو هارباً ومطارداً، فيا لها من نفسية مضطربة مريضة! {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج:31].

كذلك المطر في ليلة بدر كان عجيباً جداً، فمنطقة بدر كلها عبارة عن واد صغير، فسحابة واحدة صغيرة قد تغطي الوادي كله، فنزول المطر في ليلة بدر على أرض بدر فقط غريب جداً، فقد نزل هيناً لطيفاً خفيفاً على المسلمين ونزل وابلاً شديداً معوقاً على الكافرين. شرب المسلمون واغتسلوا وتماسك الرمل في معسكرهم تحت الأقدام، فثبتت الأقدام، وذهبت عنهم وساوس الشيطان، وقد جاء الشيطان إلى بعضهم بسبب الجنابة وقلة الماء وقال لهم: كيف ستصلون؟ كذلك آية التيمم لم تكن قد نزلت بعد، فقال الله عز وجل: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}

[الأنفال:11]. أما الكفار فقد أحدث المطر مخاضة كبيرة عندهم، منعت التقدم وأعاقت الحركة، وليس لأحد طاقة بحرب الله عز وجل.

مقارنة بين دعاء المؤمنين لربهم ودعاء الكافرين يوم بدر

في صباح يوم بدر كانت أول كلمات الرسول ﷺ دعاء لرب العالمين سبحانه وتعالى، دعا أمام الناس جميعاً ليذكرهم بالله عز وجل الذي بيده النصر والتمكين، رفع يده وقال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة)، فالنبي ﷺ من وقت خروجه من المدينة يدعو الله سبحانه وتعالى أن يأتي بالنصر، فعندما خرج من المدينة المنورة إلى بدر كان يقول: (اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم)، وقبل القتال كان يقول: (اللهم فنصرك الذي وعدتني)، وأثناء القتال كان ﷺ شديد الابتهال إلى ربه، كان يرفع يده إلى السماء ويستقبل القبلة ويقول: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) واستمر ﷺ يدعو بهذا رافعاً يديه إلى السماء حتى سقط رداءه من على كتفيه، فأتاه الصديق رضي الله عنه وأرضاه فرفع الرداء من على الأرض، ووضعه على كتف الرسول ﷺ، وقال له برقة وهو يمسك بكتفي الرسول ﷺ: (يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك)، فانظر إلى طول الدعاء وطريقته حتى جعل أبو بكر الصديق يشفق على الرسول ﷺ من كثرة الدعاء، ولم يكن هذا الدعاء من الرسول ﷺ فقط، بل كان من الجيش كله، فكل الجيش مرتبط بالله سبحانه وتعالى؛ لذلك قال الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ} [الأنفال:9] أي: جميعاً تستغيثون بالله، وكل هذا يؤكد على أهم صفة من صفات الجيش المنصور، ألا وهي صفة الإيمان بالله

سبحانه وتعالى، والاعتقاد الذي لا ريب فيه أنه هو الذي ينصر ويمكن ويعز ويرفع سبحانه وتعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر:10]، هذا كان دعاء الفريق المؤمن.

لكن الغريب أن الكفار أيضاً كانوا يدعون الله، وعلى رأس الذين كانوا يرفعون أيديهم بالدعاء أبو جهل، كان يقول: (اللهم أَقْطَعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه، فأحنِه الغداة) ويستخدم نفس الكلمة التي قالها الرسول ﷺ، يقول: (فأحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم).

إن دعاء أبي جهل هذا يدعو إلى العجب والحيرة، فكتب السيرة تنقل لنا كثيراً مواقف في فترة مكة تثبت بما لا يدع أي مجال لشك أن أبا جهل كان يعرف أن رسول الله ﷺ على حق، ويعرف أنه نبي، ويعرف أن القرآن معجز ويعرف أن الملائكة تحرس النبي ﷺ، عرف ذلك بوضوح في أكثر من موقف، ومع ذلك فهو الآن يدعو وبصوت يسمعه الجميع أن ينصر الله عز وجل الأحب إليه! فتفسير دعاء أبي جهل يحتمل أمرين في رأيي؛

الأمر الأول: أنه يصنع نوعاً من التحفيز المعنوي لجنوده، فكثير من جنود الباطل يحسون بالضعف؛ لتفاهة قضيتهم، ولشعورهم المستمر أن المسلمين معهم قوة كبيرة أكبر من قوة البشر، فيقوم القائد الكافر بإيهام جنوده أنهم على حق، وأن مهمتهم سامية، وأنهم يعملون للخير، ليس خيراً لهم فقط، بل يعملون لخير المجتمع والوطن، بل والعالم، فقد يقنعهم كما كان يفعل أبو جهل بأن ما يقومون به من قتال هو جزء من الدين، وأنهم متدينون ومخلصون ومتبعون للآلهة، وهذه محاولة دنيئة لإضلال القوم، كما قال الله في حق فرعون: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [طه:79]، وقال فرعون نفسه: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:29]، فيحاول أن يقنعهم أن كل الإجرام الذي يقوم به هو وأمثاله من

الطواغيت ما هو إلا خير وهدى ورشاد وإصلاح، وهذا الأمر نراه كثيراً سواء في الطواغيت القدماء أو في الطواغيت المعاصرين، فكلهم يقولون: إنهم مصلحون.

الأمر الثاني: أن الطاغية حينما يستمر في إقناع الناس أياماً عديدة أنه مصلح ومتدين وأخلاقه عالية، يصدق نفسه أنه على خير، وقد كان من قبل يخدعهم بالباطل وهو يعرف أنه على باطل، كذلك البطانة التي من حوله تقنعه أنه على حق، وأنه عبقري ومصلح ومؤدب وخيِّر وطيب ورحيم؛ فيصدق الطاغية نفسه ويصدق أعوانه الذين من حوله، فيصبح مقتنعاً أنه على صواب، وهذه مرحلة في منتهى الخطورة تدل على عمى البصيرة، فلا يرى الحق من الباطل، ولا يستطيع أن يميز الصواب من الخطأ، ففي المرحلة الأولى كان يميز الصواب من الخطأ، لكنه كان يعمل الخطأ لهوى في نفسه أو لمصلحة أو هدف، أما الآن فإنه لم يعد يستطيع أن يرى: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} [الأعراف:198]، فعلى العيون غشاوة تحجب الرؤية تماماً: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة:7]، وفي الآذان عازل يمنع السمع كلية: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل:80]، فهو ميت فعلاً، وعلى قلوبهم أغلفة سميكة تمنع وصول أي موعظة أو عبرة: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [الأنعام:25].

الطواغيت والمجرمون يمرون بمرحلتين، المرحلة الأولى: مرحلة الخداع للآخرين حتى يحقق مصلحة معينة، وفي هذه المرحلة يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، لكنه يختار الباطل لهوى في نفسه. المرحلة الثانية: مرحلة الطمس على البصيرة، وفيها لا يستطيع أن يميز الحق من الباطل، وبالتالي يفتقد أي إمكانية للهداية، ومن البديهي أن الذي يدخل هذه المرحلة لا يكون إلا من عتاة الإجرام، وأصحاب التاريخ الطويل في الصد عن سبيل الله، وهذا التحليل يفسر لنا كلمات كثيرةٍ، نسمعها من طواغيت ومجرمين ومعذبين لغيرهم، وناهبين للمال، وهاتكين

للأعراض ومستبيحين للحرمات، ومع ذلك يتكلمون عن الفضيلة والشرف والأمانة والإصلاح.

بعض صفات وملامح الجيش المنتصر

بدأ الرسول ﷺ يصف الصفوف، وكانت هذه أول مرة يحارب فيها العرب في صف الرسول ﷺ؛ لذا كان حريصاً على جعل الصف متساوياً ومتراصاً في منتهى النظام، وبدأ الرسول ﷺ يلقي على جيشه بعض الأوامر العسكرية لتنظيم العملية الحربية، قال: (إذا أكثبوكم -أي: اقتربوا منكم- فارموهم بالنبل)، فأمرهم بالرمي عليهم عند الاقتراب، حتى لا يطلقوا السهام والكفار لا يزالون بعيداً فلا تصل السهام إليهم. أحياناً يكون المقاتل في حالة عصبية شديدة، ويطلق السهام في كل مكان بدون تركيز، وهذا يضيع الذخيرة على المسلمين، فالرسول ﷺ يقول لهم: (لا تطلقوا هذه السهام إلا عندما يقتربون ويصبحون في مرمى السهام) بعد ذلك ابدءوا في ضربهم، في رواية البخاري يقول: (واستبقوا نبلكم) أي: حافظوا على الذخيرة، ولا تقوموا بإهدار هذه السهام، ثم يقول: (ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) لا ترفعوا السيوف من أغمادها إلا بعد أن يقترب الجيش تماماً.

إن هذا التكتيك النبوي يحتاج منا إلى وقفة؛ حتى نعرف صفة مهمة من صفات الجيش المنصور، فمن صفات الجيش المنصور: الإعداد الجيد والأخذ بكل أسباب النصر المادية، والعمل بكل ما هو متاح في اليد لتحقيق النصر، وقد رأينا كيف حصلت المخابرات الإسلامية على أخبار جيش مكة، ورأينا الموقع العسكري المتميز الذي نزلوا فيه، ورأينا التوجيهات العسكرية الحكيمة، ورأينا الصفوف والترتيب، وسنرى أيضاً مهارة القتال وقوة الضربات والشجاعة والإقدام والاحترافية في الحرب، فهو إعداد في منتهى الروعة، إذ الجيش كله يتكون من فرسين وسبعين جملاً، وعدة المسافر ليست عدة المحارب، لكن هذه هي الإمكانيات التي

في استطاعتهم، والرسول ﷺ أعد كل ما في استطاعته؛ لذلك ليس غريباً أن تجد في سورة الأنفال قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال:60].

تواضع القائد مع جنده وانصهاره فيهم

هناك موقف مهم وعجيب حصل أثناء تسوية صفوف المقاتلين المسلمين، هذا الموقف يعرفنا أيضاً على صفة مهمة من صفات الجيش المنصور أثناء تسوية الصف وجد الرسول ﷺ صحابياً متقدماً عن غيره من الصحابة في الصف، وغير مستو في مكانه، فجاء إليه ﷺ وكان يمسك بيده قدحاً -سهماً بلا نصل- يسوي بها الصف، وكان اسمه سواد بن غَزِيَّة رضي الله عنه، فضربه بالقدح ضربة خفيفة في بطنه، وقال له: (استوِ يا سواد)، لكن العجيب في الموقف هو رد فعل سواد رضي الله عنه الذي فاجأ الجميع بقوله: (يا رسول الله أوجعتني فأقدني)، أي: الضربة أوجعتني وأنا أريد القصاص، يريد أن يقتص من رسول الله ﷺ قائد الجيش، بل قائد الدولة الإسلامية، لكن الأعجب من كل هذا رد فعل الرسول ﷺ، فقد استجاب دون أي جدل لطلب سواد، ولم يقل له: الضربة خفيفة وأنا قائد الجيش، وليس فقط ذلك، بل إن سواداً كانت بطنه عارية، فلما ضربه الرسول ﷺ جاءت الضربة على بطنه مباشرة، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه ليضربه سواد ضربة مماثلة تماماً على البطن مباشرة ودون ثياب.

فهل هذا الموقف يحصل في الجيش الآن بين جندي وعقيد أو حتى رائد أو نقيب؟ لن أقول لك: لواء أو مشير. هل هذا من الممكن أن يحصل؟ لكن هذا الحدث حصل في التاريخ مع الرسول ﷺ، حصل مع قائد الدولة بكاملها، كشف عن بطنه وقال: (استقد)، خذ حقك، اضرب، لكن سواداً اعتنقه وقبل بطن الرسول ﷺ، فقال النبي ﷺ: (ما حملك على هذا يا

سواد؟) قال: (يا رسول الله قد حضر ما ترى -أي: حضر أمر القتال والحرب- فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك) فدعا له ﷺ بخير.

لم يمت سواد في بدر، لكنه لفت أنظارنا إلى صفة أصيلة من صفات الجيش المنصور، هذه الصفة هي تلاحم القائد مع شعبه وانصهاره فيه، فالجيش المنصور لا فرق فيه بين قائد وجندي، والأمة المنصورة لا فرق فيها بين حاكم ومحكوم، كما قال الرسول ﷺ للأنصار في بيعة العقبة الثانية: (أنا منكم وأنتم مني)، وقد رأينا هذا الأمر قبل ذلك في مكة، وفي قصة بناء المسجد النبوي، ورأيناه الآن في كل خطوات بدر، وسنراه كثيراً من أول لحظات الخروج من المدينة إلى بدر، فقد كان الصحابة يتناوبون على الإبل لقلة عددها، وكان الرسول ﷺ وهو قائد الجيش يتناوب في الركوب مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه، وفي رواية: مع أبي لبابة رضي الله عنه، وأثناء السفر قال الصحابيان للرسول ﷺ: نحن نمشي عنك، فانظر إلى رد الرسول ﷺ: (ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)، فالرسول ﷺ وهو المعصوم يريد أجر المشي في سبيل الله، وهذا التصرف يزيد من حماسة الجند، وذلك عندما يجد القائد معه في كل خطوة من مشاكله وتعبه وسعادته وحزنه، ليس هناك ترفع ولا كبر ولا ظلم ولا كراهية، أما الآن في بعض الدول الإسلامية يكون هناك ألف حاجز بينك وبين الزعيم لابد أن تجتازها، حتى تستطيع أن تصل إليه، بل من المستحيل غالباً أن تتجاوز التسعمائة حاجز الأخيرة. هذه مشكلة لو حصلت في أمة ليس من الممكن أن تنتصر أبداً، ولتراجعوا معي سيرة زعماء الأمة الذين حصل في زمنهم نصر وتمكين وعزة، فإنك ستجد اختلاطاً كاملاً من القائد مع الشعب، كـ صلاح الدين الأيوبي، وقطز، وعبد الرحمن الناصر، وموسى بن نصير، ويوسف بن تاشفين وغيرهم كثير. فلتراجعوا تاريخ الأمة، فإنكم

ستجدون هذه الأشياء واضحة مثل الشمس، وعلى النقيض تماماً كل لحظات الانهيار والتردي في حالة الأمة تكون مصحوبة بعزلة الحاكم عن الشعب.

روى الترمذي وأبو داود عن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من ولاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره).

تفوق عناصر الجيش في المواجهات الفردية يرفع من معنويات الجيش

صار الجيشان الآن أمام بعضهما، وبدأت ساعة الصفر، وقام رجل من المشركين اسمه الأسود بن عبد الأسد المخزومي وأقسم أن يشرب من حوض المسلمين أو ليموتن دونه، فانظر إلى هذا الضلال؛ كفاح وتضحية واستعداد للموت من أجل قضية فاسدة: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر:8]، وقام الرجل ليبر بقسمه، لكن قابله الأسد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وضربه ضربة قطعت ساقه، ومع ذلك كان الرجل مصراً على الوفاء بقسمه، فظل يزحف على الأرض لكي يصل إلى ماء بدر، لكن حمزة أدركه وقتله قبل أن يصل إلى مراده.

فكانت هذه نقطة بداية مهمة للمعركة، وكانت نقطة لصالح المسلمين، حدث هذا في أول دقيقة من دقائق المعركة، فكان توفيقاً كبيراً من رب العالمين، فقد رفع معنويات المسلمين وأحبط معنويات الكافرين، وحرك الغيظ في قلوب زعماء مكة، ونهض ثلاثة منهم يطلبون المبارزة من المسلمين، فقد كان من عادة الناس في الحروب القديمة أن يتبارز أفراد قلائل في بداية المعركة كنوع من الاستعراض، ثم يبدأ بعد ذلك الهجوم الشامل في الجيش كله؛ لذلك قام عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة وهم من أشداء فرسان مكة. والعجيب الذي يلفت النظر هو قيام عتبة بن ربيعة، فقد كان عتبة بن ربيعة من الحكماء

المعدودين في قريش، ومن أصحاب الرأي السديد في أمور كثيرة، وكان يدعو قريشاً أن تخلي بين رسول الله ﷺ وبين العرب ولا يقاتلوه، وكان يقول: (إن هذا الرجل ليس بشاعر ولا بكاهن ولا بساحر ولا بكاذب)، وكان يرفض فكرة القتال في بدر بعد إفلات القافلة، وكان إلى آخر لحظة يجادل المشركين في قضية القتال، حتى نظر إليه الرسول ﷺ من بعيد قبل بدء المعركة، وهو يركب جملاً أحمر، فقال ﷺ: (إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا)، لكن القوم لم يطيعوه وأصروا على القتال، وللأسف الشديد دخل عتبة معهم المعركة ولم يرجع كـ الأخنس بن شريق، والأعجب من ذلك أنه خرج مع من خرج للمبارزة، فقد كان عتبة مصاباً بمرض خطير مرض الإمَّعيّة، فهو حكيم في الرأي، لكن يسير مع الناس حيث ساروا، إذا أحسن الناس أحسن، وإذا أساءوا أساء، كان ضعيف الشخصية مهزوزاً متردداً، وهذا الذي أرداه فأصبح من الخاسرين، وأمثال هؤلاء نراهم كثيراً في الواقع، فمن الناس من يكون ذا رأي حكيم وسديد، ويكون عندنا آمال عريضة في أنه يغير من حوله، لكنه يمشي مع التيار، وتكون الكارثة.

خرج الفرسان الثلاثة يطلبون القتال، فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار، لكن الفرسان المشركون قالوا: (لا حاجة لنا بكم إنما نريد أبناء عمنا)، فقال الرسول ﷺ: (قم يا عبيدة بن الحارث) وهو ابن عم الرسول ﷺ- ثم قال: (قم يا حمزة) وهو عم الرسول ﷺ، ثم قال: (قم يا علي بن أبي طالب) وهو ابن عم الرسول ﷺ، فكلهم من الأقربين، مع أن القتال خطير، لكن القائد وعائلته يعيشون حياة الناس تماماً، ويتعرضون لكل مشاكل الأمة، فيكونون في أوائل المضحين والمجاهدين، وبدأت المبارزة، واختلفت الروايات فيمن بارز من؟ لكن رواية أحمد وأبي داود تقول: إن علي بن أبي طالب بارز شيبة، وإن حمزة بارز عتبة، وإن عبيدة بن الحارث بارز الوليد بن عتبة.

والتقت السيوف واحتدم الصراع، وبدأت الدماء تسيل، ثم بـدأت الجثـث تتسـاقط في دقـائق معدودة، وانتهت الجولة الأولى من الصراع لصالح المسلمين مرة أخـرى، عـلي بـن أبي طالـب وحمزة بن عبد المطلب قتلا شيبة وعتبة، سبحان الله! سقط عتبة في أرض بدر ولم تنفعه حكمته، وأصيب عبيدة والوليد بإصابات بالغة، فأسرع علي وحمزة إلى الوليد بـن عتبـة وقـتلاه، وحمـلا عبيدة إلى معسكر المسلمين، فكان سقوط أربعة قتلى للمشركين في أول المعركة.

اشتعلت أرض بدر بالقتال، هجوم شامل كاسـح في كـل المواقـع، صـيحات المسـلمين ترتفـع بشعارهم في ذلك اليوم: أحد أحد، أحد أحد، صليل السيوف في كل مكان، الغبار غطـى كـل شيء، هذا الصدام المروع حدث لأول مرة بين المسلمين والكافرين، معركة بين الحق والباطل.

مع كل الحماس الذي كان المسلمون فيه، إلا أنهم لا يزالون محتاجين إلى تشجيع وتحميس أكثـر؛ لأن الموقف صعب، فجاء دور التحميس والتشجيع، ولن يكسل المؤمن حين يسمع ذلك، جاء وقت التذكير بالجنة، فقد رفع الرسول ﷺ صوته ليسمع الجميع قال: (والذي نفسـي بيـده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة).

إن كلام الرسول ﷺ عجيب جـداً لا يمكـن أبـداً أن يفهمـه علـماني ولا كـافر أو فاسـق؛ لأن الرسول ﷺ لا يحفز الناس كالمعتاد في كل الحروب على الدفاع عن حيـاتهم، بـل يحفـزهم عـلى فقد حياتهم، يقول: (لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً) إلى آخر الحديث، والذي يرى نفسه أنه يعيش للدنيا لو قتل يكون قد فقد كل شيء، لكن الذي يفهم ما معنـى الجنـة سـيكون للقتل عنده معنى آخر، فالجنة حلم كبير عند المسلمين، وهي ليست في الدنيا، إنما تأتي الجنة بعد الموت، فالموت هو الحاجز الوحيد بين الشهيد الذي يقتل في أرض الجهاد وبـين الجنـة، كـما أن الشهيد يدخل الجنة بغير حساب. لو جاء الموت لأصبحنا من أهل الجنة، فليـت المـوت يأتينـا، وهكذا يصبح الموت المكروه عند عامة البشر أمنية، بل أسمى الأماني لمن فقه حقيقة الجنة.

(إن في الجنة مائة درجة أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) والحديث في البخاري.

وأيضاً في البخاري: (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها، ولملأت ما بينهما ريحاً -أي: ما بين السماء والأرض، أو ما بين المشرق والمغرب- ولنصيفها -أي: الخمار الذي على رأسها- على رأسها خير من الدنيا وما فيها)، سبحان الله! فمن كان له يقين في ذلك يشتاق إليه؛ لذلك فإن الجيش المنصور جيش يحب الموت، يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه: (جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة)، وقد تحدث الرسول ﷺ يتكلم عن الأمة المهزومة التي ليس لها وزن في العالم، فأخبر أن أهم صفة فيها صفة الوهن: (قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟! قال: حب الدنيا وكراهية الموت)، أي: كراهية الموت في سبيل الله. فلو حصل في الأمة كراهية الموت، فإنها ستقع، وعلى العكس لو أحبت الأمة الموت في سبيل الله وهبت النصر ووهبت الجنة.

يذكر أن إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل الهالك قال في تعليق على اتهام اليهود له بعدم القدرة على السيطرة على حماس والجهاد، قال: (أتحدى أي جهاز مخابرات في العالم أن يقاوم أناساً يريدون أن يموتوا) فالمؤمن القوي يحب أن يموت، ويخاف ألا يموت، ويخاف أن ينكشف أمره فلا يموت، فكيف يمكن أن تحاربه؟!

إن طلب الموت في سبيل الله ليس فيه كآبة ولا حزن، إنما الكآبة أن تقف يوم القيامة تنتظر الحساب سنوات وأنت ترى حولك الشهداء يدخلون الجنة من غير حساب، فلا عذر لك يا أخي المسلم أن تقول: أين الجهاد؟ وأين القتال؟ فالمسألة مسألة صدق في النية تريد أو لا تريد، فإن كنت تريد فستأخذ أجر الشهادة وتدخل الجنة وإن مت في بيتك وسط أهلك، قال رسول

الله ﷺ: (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) وإن كنت لا تريد فلن تأخذ أجر الشهادة حتى لو فتح لك ألف باب للجهاد، فالمسألة مسألة صدق، وانظر إلى الجنة كيف أثرت في الصحابة يوم بدر، فهذا عُمير بن الحمام رضي الله عنه سمع الرسول ﷺ يقول: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فماذا أعددنا لهذه الجنة؟! {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:13].

لما سمع عُمير بن الحمام رسول الله ﷺ يقول ذلك قال متعجباً: عرضها السماوات والأرض؟! فإن الواحد منا يكافح سنين حتى يكون عنده بيت أو سيارة أو بعض الأموال أو بعض السلطات، وكل هذا لا يمثل أي وزن في الأرض، فما بالك بالجنة التي عرضها السماوات والأرض؟ فإنه لا يستبعد أن يكون ملك أحدنا في الجنة قدر مجموعة شمسية أو أكثر؛ فـعمير يتعجب من جنة عرضها السماوات والأرض، فقال ﷺ في منتهى الإيجاز: (نعم)، وتلقى عمير بن الحمام رضي الله عنه الكلام بمنتهى بيقين لا جدال فيه ولا محاورة، فقال عمير: (بخٍ بخٍ) فأسرع عمير يقول: (لا والله يا رسول الله! ما قلتها إلا رجاء أن أكون من أهلها)، فقال ﷺ: (فإنك من أهلها)، يا الله! عمير يخبره رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة وهو ما زال يمشي على أرض بدر! لم يستطع عمير أن يعيش لحظة واحدة على الأرض، كان يمسك في يديه بعض تمرات يتقوى بها على القتال، فتذكر ثمار الجنة وطيورها وشرابها وحوض الرسول ﷺ فيها، فألقى بالتمرات على الأرض وقال كلمة عجيبة، قال: (لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة) أكل التمرات في بضع دقائق حياة طويلة؟! فألقى بنفسه وسط الجموع الكافرة فاستشهد ودخل الجنة، يقيناً دخل الجنة؛ لأن هذا كلام الرسول ﷺ (لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة) ثم قالها تصريحاً لـعمير : (فإنك من أهلها). إن أهل الدنيا وطلابها يظنون أن عمير بن الحمام خسر شبابه ومات فلم يستمتع

بحياته، إن المقاييس ليست كذلك. روى الترمذي عن كعب بن مالـك رضي الله عنـه وأرضـاه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضـر تعلـق بشـجر الجنـة) أي: ترعى أرواحهم من ثمار الجنة قبل قيام الساعة.

النفوس العظيمة لا يعوقها عن هدفها عائق

كان عُمير بن أبي وقاص رضي الله عنه شاباً لا يتجاوز عمره 16 عاماً، فهو في تعريـف منظمـة الصحة العالمية طفل؛ لأن الأطفال في تعريفهم تحت 18 سـنة، وفي تعريـف القـيم والأخـلاق والمبادئ والعقائد يعد من سـادة الرجـال رضي الله عـنهم، تقـدم رضي الله عنـه ليجاهـد مـع المجاهدين في بدر، لكن خاف أن يرده الرسول ﷺ؛ لأنه لا يزال صـغيراً، فأخـذ يتـوارى بـين القوم حتى لا يراه الرسول ﷺ فيرده، فرآه أخوه المجاهد العظيم سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه، قال له: (ما يحملك على هذا؟) قال: (أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني ويـردني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة) سبحان الله! كانـت لديـه أمنيـة حلـوة أن يمـوت وعمره لا يتجاوز 16 سنة، رآه الرسول ﷺ وهو يختبـئ منـه، فأشـفق عليـه مـن القتـال ورده فبكى عمير؛ لأنه ستضيع عليه فرصة الموت في سبيل الله، فرق له ﷺ لما رآه يبكـي وسـمح لـه بالجهاد، فجاهد واشتاق بصدق للشهادة، فاستشهد ودخـل الجنـة. هكـذا فهـم عمـير بـن أبي وقاص الجنة وهو لم يكلف إلا منذ سنتين أو ثلاث سنوات، فهم ما يعجز عن فهمـه الأشـياخ والحكماء والعباقرة، فيا له من مـنهج تربـوي إصـلاحي واقعـي لا يرقـى إليـه أي مـنهج مـن المناهج.

عوف بن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ: (يـا رسـول الله؛ مـا يضـحك الـرب مـن عبده؟ قال: غمسه يده في العدو حاسراً) أي: من غير درع، وهذا فيـه دلالـة عـلى قـوة البـأس

وعدم الخوف من الموت، ومعلوم أن هذا التصرف يلقي الرهبة في قلوب العدو، هنا ألقى عوف درعه وقاتل حاسراً حتى استشهد رضي الله عنه ودخل الجنة.

موضوع الجنة لم يكن غائباً أبداً عن أذهان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم؛ لذلك انتصروا، الجيش الإسلامي قبل أن يأتي إلى بدر كان يبحث عن الجنة، وفي أرض بدر كذلك كان يبحث عن الجنة، وبعد بدر كذلك يسأل عن الجنة. قبل الخروج إلى بدر أراد سعد بن خيَثمة وأبوه خيثمة رضي الله عنهما الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر، لكن كان تحت رعايتهما بنات كثيرات، فلابد أن يخرج واحد منهما، ويقعد الآخر لرعاية البنات، لكن الاثنين يريدان أن يخرجا للقتال، يطلب الاثنان الجنة بصدق، فلم يتنازل أحد منهما، فقررا أن يعتمدا على القرعة، فخرج سهم سعد بن خيثمة، فتحسر أبوه حسرة حقيقية، فقال لابنه في توسل: يا بني؛ آثرني اليوم -أي: (اتركني أخرج)- فضلني على نفسك، لكن سعداً رضي الله عنه وأرضاه رد بجواب يفسر سبباً من أسباب الجيش المنصور، قال في أدب: (يا أبي لو كان غير الجنة لفعلت)، لا أستطيع.

وخرج سعد بن خيثمة بهذه الروح الصادقة وقاتل رضي الله عنه حتى استشهد، ودخل الجنة التي يريد.

واللطيف في الأمر أن أباه خيثمة خرج في أحد بعد بدر بسنة، واستشهد أيضاً.

أم حارثة بن سراقة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تسأله عن ابنها حارثة بن سراقة استشهد في بدر وهو شاب صغير، مات مقتولاً، وفي مثل هذا الموقف تطيش عقول وتضطرب أفئدة ويتزلزل رجال ونساء، لكن أم حارثة أتت تسأل عن شيء محدد، قالت: (يا رسول الله؛ قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع؟) فقال لها الرسول ﷺ: (يا أم حارثة؛ إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى)، الله أكبر!

حارثة بن سراقة رضي الله عنه وأرضاه في الفردوس الأعلى؛ لأنــه مــات شــهيداً في ســبيل الله، والشهيد كما ذكر ﷺ من يموت مقبلاً غير مدبر محتسباً صابراً، هذه صفات الشـهداء الـذين في الجنة، وهذه كلها كانت موجودة في حارثة، لذلك بلغ الفردوس الأعلى، واستراحت أم حارثة وتقبلت أمر موت ابنها الشاب بسهولة شديدة، وصبر واحتساب، بل وبسعادة رضي الله عنها؛ لأنه من يحب أحداً يحب له الخير أيضاً، وليس هناك خير أفضل من الجنة.

بعض صفات أهل بدر وشدة حرصهم على الجنة

صفات أهل بدر الجميلة كثيرة، من أهم صفاتهم: أنهم جيش مـؤمن بـالله، ومـؤمن بالرسـول ﷺ، ومؤمن بالجنة، ومن غير الإيمان لا يمكن أن يكون هناك نصر، وهذا القول لا نقوله كنوع من الترف الفكري، أو القصص التاريخي الذي ليس له واقع في حياة الناس، إنما نقوله ليكـون منهجاً في حياتنا، ومنهجاً في تربية الأطفال والرجال والنساء، ومن غير هـذا المـنهج لا يوجـد فرصة للإصلاح، دعوكم من مناهج الشرق والغرب، ومناهج الإصلاح الوهمية والمبنيـة عـلى طلب الدنيا وبأي وسيلة، إن هذه المناهج لا تورث إلا كآبة وتعاسة في الـدنيا، وشـقاء وذلاً في الآخرة. إياكم أن تظنوا أن الغرب والشرق من أصحاب المال والسلطة والجاه والملك يعيشـون في سعادة، أبداً، من يفقد منهم ماله ينتحر، ومن يموت له ابن أو حبيب يكتئـب وينعـزل عـن المجتمع، ومن يتعرض لمصيبة تكون هذه نهاية الدنيا عنده، ومن وجد نفسه فقيراً أو من عائلـة صغيرة، أو يعيش في وضع اجتماعي صغير يعيش معقداً حاقـداً عـلى المجتمـع، حاسـداً لكـل الأغنياء، وقد يكون سارقاً وقاتلاً ومرتشياً وفاسداً، ويعيش حيـاة الإجـرام، ولا يوجـد عنـده بديل.

روى الحاكم -وقال: صحيح على شرط مسلم - عن أنس رضي الله عنـه وأرضـاه: (أن رجـلاً أسود أتى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله؛ إني رجل أسود) - أي: رجـل فاقـد لكـل مقومـات

الوجاهة في الدنيا ومتاعها – (منتن الريح قبيح الوجه لا مال لي، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا؟) فقال ﷺ: (في الجنة)، فقاتل الرجل حتى قُتل، فأتاه النبي ﷺ بعد ما استشهد، ووقف بجانبه، يعلم الصحابة ويعلمنا – ويقول: (قد بيّض الله وجهك) – ألم يكن يقول: إني رجل أسود؟! – (وطيب ريحك وأكثر مالك)، ومعلوم أن أقل أهل الجنة ملكاً له عشرة أمثال الدنيا، فالجنة فيها سلوى وتعويض لكل مؤمن فقد أي شيء، وفيها الجزاء لكل من تعب أو سهر أو بذل أي مجهود للإصلاح. الجنة صبّرت أم حارثة، وشجعت عمير بن الحمام، وعمير بن أبي وقاص وسعد بن خيثمة، وحارثة بن سراقة وغيرهم وغيرهم. الجنة جعلت الحباب بن المنذر يقول رأيه؛ لكي يفيد المسلمين ويدخل الجنة بعد ذلك. الجنة جعلت المكروه محبوباً وجعلت الموت مطلوباً، يقول الرسول ﷺ: (ألا مشمر للجنة؟ ألا مشمر للجنة؟) -أي: هل هناك من يريد الجنة- (فإن الجنة لا خطر لها) -أي: لا مثيل لها- (هي -ورب الكعبة- نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مُطّرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلل كثيرة في مقام أبداً، في حَبرة ونَضرة، في دور عالية سليمة بهية)، فلما سمع الصحابة ذلك قالوا: (يا رسول الله؛ نحن المشمرون لها؟) قال: (قولوا: إن شاء الله)، و ذكر رسول الله ﷺ الجهاد وحض عليه، وأعطاهم شيئاً عملياً يدخلون به الجنة. والحديث في صحيح ابن حبان وسنن ابن ماجه.

عندما تملأ الجنة حياتنا بهذه الصورة، وتصبح هدفاً واضحاً في تفكيرنا، وحين نأخذ قراراً أو نعمل عملاً أو نقول كلمة أو نضحك ضحكة أو نسافر أو نقعد أو نحب أو نكره، عندما تصبح الجنة محركاً لكل حياتنا، فإننا سنرى نصراً مثل نصر بدر، وتمكيناً وعزة وسيادة مثل الذي حصل في بدر تماماً بتمام.

الوحدة والتماسك بين المؤمنين على أساس الدين لا النسب

ما زالت هناك صفات مهمة، وكلها واضحة في أهل بدر: الوحدة والألفة والتماسك والترابط بين أفراد الجيش الواحد، وبين أفراد الأمة الواحدة، فإنه لا يوجد نصر من غير وحدة.

هذه قاعدة، لكن الوحدة في الجيش المنصور لا بد أن تكون وحدة عقائدية، بمعنى: أن الرابط الرئيسي بين المسلمين هو الإسلام، لا قبلية ولا لون ولا عنصر ولا وضع اجتماعي ولا أي شيء من متعلقات الدنيا، فالوحدة في الله والأخوة في الله هما اللتان تنفعان فعلاً.

انظر إلى أهل بدر؛ جيش قوي متماسك، مع أن تركيبته عجيبة خاصة في هذا التوقيت، قبل الإسلام كان الرباط الأساسي في الجزيرة -ولعله الوحيد- هو رباط القبلية، حتى قالوا كلمتهم الفاسدة: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، ليس من المهم في أيام الجاهلية أين الحق أو العدل، لكن المهم أن هذا من قبيلتي سواء كان ظالماً أو مظلوماً لا فرق، فجاء الإسلام ليغير المقاييس الباطلة التي كانت الجاهلية تحكم بها، فالرسول ﷺ قال الكلمة نفسها لكن بتعديل كبير جداً في المفهوم والتصور. قال لأصحابه: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، وهذا الحديث في البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، فتعجب الصحابة، وقالوا: (يا رسول الله؛ ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟) قال ﷺ: (تمنعه من الظلم؛ فإن ذلك نصره).

وهكذا فإن أخي هو المشترك معي في العقيدة، ليس مهماً ما هي قبيلته أو بلده، أنصره بالعدل والحق فقط، ولو ظَلَم أشترك مع غيري كي أرده عن ظلمه، وأكبر ظلم في الدنيا هو الإشراك بالله عز وجل: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان:13]؛ لذلك رأينا التلاحم والتناصر والوحدة بين الطوائف المختلفة من أهل بدر، هذه

الطوائف لم يجمعها إلا شيء واحد فقط هو الإسلام، فقد حاولوا أن يردوا الظلم الذي ارتكبه غيرهم، حتى لو كان الظالمون الآباء والأبناء والأقارب والعشيرة.

إن جيش المسلمين في بدر كان فيه المهاجر الذي من قريش، والأنصاري الذي من الأوس والخزرج، وفرع قريش بعيد جداً عن فرع الأوس والخزرج، فقريش من العدنانيين، والأوس والخزرج من القحطانيين، فرعان مختلفان تماماً، ومع ذلك لأول مرة في تاريخ العرب يكونون جيشاً واحداً، والذي جمعهم هو الإسلام؛ هذه نقطة من أهم نقاط بناء الأمة الإسلامية.

إن هذا الجيش لم يكن من كل القبائل فقط، بل كان فيه العربي وغير العربي، فـ بلال كان في هذا الجيش مع أنه حبشي، ولم يشعر مطلقاً بالغربة في هذا الجيش الذي يغلب عليه العرب، ولم يشعر العرب في داخل الجيش بأن هناك عنصراً غريباً في داخل الجيش من الحبشة، بل التعاون والتلاحم بينهم كان على أكبر مستوى.

قصة قتل أمية بن خلف.

كان أمية بن خلف خائفاً من أن يشترك في غزوة بدر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر أن المسلمين سيقتلونه، وكان أمية بن خلف صديقاً لـ عبد الرحمن بن عوف أيام الجاهلية، كان عبد الرحمن بن عوف يمشي في أرض بدر قبل انتهاء المعركة بقليل، وقد وضح أن النصر حليف المسلمين، حاملاً في يديه مجموعة أدراع استلبها من القتلى المشركين الذين قتلهم، والسلب: هو ما يكون على القتيل المشرك، وهو من حق المسلم الذي قتله، فرأى أمية وابنه واقفين في منتهى الرعب، فلما رأى عبد الرحمن صرخ: هل لك فيَّ تأخذني أنا؟ فأنا خير من هذه الأدراع التي معك، ما رأيتك اليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ فرمى عبد الرحمن بن عوف بالأدراع وأخذ أمية بن خلف وابنه، واسم ولده علي بن أمية.

أخذ عبد الرحمن يمشي بهما في أرض بدر، فمر عليهم بـلال بـن ربـاح رضي الله عنـه فلـما رأى بلال أمية بن خلف تذكر الذكريات المؤلمة فإن أمية هو الذي كان يعذب بلالاً في مكة، فصرـخ بلال: (رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا). لكن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أخذ الموضوع ببساطة، وقال لـ بلال: (أي بلال أسيري)، فكان بلال لا يقول إلا كلمة واحدة: (لا نجوت إن نجا)، فرأى عبد الرحمن بن عوف أن بلالاً يأخـذ الموضـوع بجـد ولا يسـمعه، فقال له: (أتسمع يا بلال؟! هذا أسيري)، فقال بلال: (لا نجوت إن نجا)، وكان عبـد الـرحمن يمنع بلالاً من الوصول إلى أمية، فنادى بلال إخوانه من الأوس والخزرج صارخاً: (يا أنصـار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا)، فجاء الأنصار وأحـاطوا بـأمية بـن خلـف وابنه وبـعبد الرحمن بن عوف ، فلم يستطع عبد الرحمن أن يفعل شـيئاً، ومـا هـي إلا لحظـات حتى تحققت نبوءة الرسول ﷺ، وقُتل أمية بن خلف وابنـه عـلى يـد الأنصـار رضي الله عـنهم وعلى يد بلال ، وهكذا انتصر الأنصـار -الأوس والخـزرج- لأخـيهم في الله بـلال بـن ربـاح الحبشي رضي الله عنهم أجمعين، ومع أن عبد الرحمن بن عوف ضاعت من يـده ثـروة كبـيرة إلا أنه كان يقول: (يرحم الله بلالاً ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري).

وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه خاله في يوم بدر، كان اسمه العاص بن هشام بـن المغيرة . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبحث عن ابنه عبد الـرحمن بـن أبي بكـر ليقتلـه، وكان مشركاً يقاتل في صف المشركين، وكان الرسول يشبه أبا بكر بإبراهيم ؛ لأن ابتلاءات أبي بكر كانت قريبة من ابتلاءات إبراهيم ، فقد وصل الأمـر إلى أنـه كـان سـيذبح ابنـه كـما فعـل إبراهيم ، لكن بلاء إبراهيم أشد: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل)، أراد إبـراهيم أن يذبح ابناً باراً به مؤمناً أصبح بعد ذلك نبياً، لكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يريـد أن يذبح ابناً مشركاً، لكن هذا أيضاً صعب جداً، فإن ولدك مهما صـنع فيـك لا تحـب لـه الأذى،

فضلاً عن أن تؤذيه بنفسك، لكن أبا بكر كانت حياتـه كلهـا للإسـلام، والأوسي والخزرجـي والحبشي والرومي إخوانه في الله؛ لأنهم مسلمون، لكن ابنه ليس من أهله؛ لأنه مشرك، فيـا لـه من إيمان في منتهى العمق، والحمد لله لم يستطع أبو بكر الوصول إلى ولده عبد الرحمن رضي الله عنه؛ لأن عبد الرحمن بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه.

رأى مصعب بن عمير رضي الله عنه في نهاية موقعة بدر أخاه أبا عزيز بن عمير أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاري: (شدَّ يديك به؛ فإن أمه ذات متـاع، لعلهـا تفديـه منـك)، فتعجب أبو عزيز وقال لأخيه مصـعب : (أهـذه وصـاتك بي!) فقـال مصـعب رضي الله عنـه يلخص سبباً من أهم أسباب النصر: (إنه -أي: الأنصاري- أخي دونـك)، سـبحان الله! هـذا هو رباط العقيدة والألفة والمحبة والتعاون والتناصر في الله عز وجل، ثم يأتي من يقول إن هـذا الفعل يدل على التجرد من مشاعر الإنسانية، فإن مصعب بن عمير لا يشعر بأخوته لأخيه مـن الدم، فنقول: بل هذا هو منتهى الرقي في المشاعر الإنسانية، كل المشاعر موجهة لله عـز وجـل، إذا كان الإنسان يعيش لقضية ما، فإنه يكرس لها كل جهده ومشاعره وطاقاته، ويصبح متجرداً تماماً لهذه القضية، فإذا كانت هذه القضية هي إرضاء رب العالمين سـبحانه وتعـالى، فهـذه مـن أبلغ وأعظم المشاعر التـي يـتحلى بهـا الإنسـان، وإننـا الآن نتحـدث عـن يـوم حـرب ونـزال ومفاصلة، وليس حديثنا عن أيام دعوة، فإن العلاقة في أيام الدعوة مختلفـة تمامـاً مـع الـرحم، لكن الآن هناك مفاصلة كبرى كما ترون. ولن يفهم كل الناس هـذه المشـاعر المتجـردة لله؛ لأن القليل من الناس هم الذين قدم يصلون إلى هـذا المسـتوى الراقـي مـن الحـس والفكـر، فهـذا الجيش كان عظيماً فعلاً.

كفاءة الجيش المؤمن وأمانته

وأيضاً من صفات هذا الجيش: أنه كان كفؤاً وبقدر المسئولية فعلاً، فقد تكون القضية سليمة، لكن المحامي فاشل؛ ولذلك نخسر القضية، وربما تكون الغاية نبيلة والمدافع عنها ضعيفاً، فلا نصل إلى الغاية، فالمسألة مسألة أمانة، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الساعة فقال له: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)، وهذه مشكلة ضخمة تواجهها الأمة الإسلامية الآن، فالأمر في هذا العصر لا يوسد إلى أهله، بل يوسد إلى من عنده واسطة أو قريب أو صاحب أو ابن فلان أو فلان، فالأمر يجب أن يوسد إلى من يستطيع فعلاً أن يؤديه على أفضل وجه، وهذا لا بد أن يجمع بين الصفتين، كما قال الله عز وجل: {إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [القصص:26]، والقوي: الكفء في مجال العمل فإن كان الفرد في الجيش لابد أن يكون عسكرياً جيداً، وإن كان في الزراعة فلا بد أن يكون فاهماً في أمور الزراعة، كذلك في التجارة وفي الصناعة وفي التعليم وفي الإدارة، وفي أي مجال يكون محترفاً في مجاله فعلاً، بل يكون مبتكراً ومخترعاً ومتحمساً للإبداع.

والأمين: هو الذي يعلم أن الله عز وجل يراقبه؛ فيرعى الأمانة، ولا يغش ولا يدلس ولا يضيع وقتاً ولا يبخل برأي ولا يدخر معونة، يكون أميناً كما وصفه الله عز وجل. في موقعة بدر وسد الأمر إلى أهله، والكفاءة رأيناها في كل المقاتلين، احترافية في الأداء، مهارة في المناورة، قوة في النزال، دقة رأي وبعد نظرة، عسكريون على أعلى مستوى وفي منتهى الأمانة، يعرفون أن الله ينظر إليهم في كل لحظة؛ لأن إيمانهم عالٍ جداً، وأخلاقهم لا تسمح بأي تفريط؛ لهذا السبب رفض الرسول ﷺ في بدر أن يستعين بمشرك. ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهو خارج إلى بدر، ويُذْكَر أن هذا الرجل له جرأة ونجدة، ففرح أصحاب النبي ﷺ، فقال الرجل لرسول الله ﷺ: (جئت لأتبعك وأصيب معك، فقال

ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع؛ فلن أستعين بمشرك)، سبحان الله! مع قوة الرجل وبأسه ونجدته، ومع احتياج المسلمين إليه، إلا أنه قد يفتقر إلى الأمانة، فهو لا يؤمن بأن الله عز وجل يراقبه فقد يخدع المسلمين، فرفض ﷺ الاستعانة بأي مشرك في غزوة بدر؛ فهذه قاعدة: ألا يستعين المسلمون بالمشركين، لها بعض الاستثناءات، وهي موجودة في كتب الفقه، لكن الأصل ألا يستعين المسلمون بمشرك ولو كان كفؤاً.

وأكمل الرسول ﷺ الطريق إلى بدر، وجاء إليه نفس الرجل بعد قليل، وقال له كما قال أول مرة؛ فقال له ﷺ: (تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع؛ فلن أستعين بمشرك)، ثم جاء له مرة ثالثة فقال له ﷺ كما قال أول مرة، فقال له الرجل: (نعم أؤمن بالله ورسوله؛ فقال ﷺ: فانطلق)، فهذا معنى في غاية الأهمية: توسيد الأمر إلى أهله، وأهله هم الأكفاء الأمناء، وقد يكون الرجل أميناً وتقياً وورعاً، لكنه ليس كفئاً؛ هذا أيضاً لا ينفع. رد الرسول ﷺ في بدر بعض المسلمين؛ لأنه ﷺ رأى أن قدرتهم القتالية ضعيفة، مع علمه التام بأمانتهم، ورغبتهم الصادقة في القتال، ورد مجموعة من صغار السن؛ لضعف بنيتهم، وضآلة أجسامهم، كـ عبد الله بن عمر والبراء بن عازب رضي الله عنهم، وغيرهما من الصغار، وفي نفس الوقت قبل بعض صغار السن الآخرين؛ لكفاءتهم العسكرية والجسدية، كـ عمير بن أبي وقاص، ومعاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء، كانوا صغاراً في السن، لكن عندهم قدرة قتالية، فقبلهم ﷺ. فلابد من كفاءة وأمانة، ومن دون هاتين الاثنتين لا يوجد نصر.

الاعتماد على الشباب والاهتمام بهم

موضوع صغار السن هذا سيأخذنا إلى صفة أخرى من صفات الجيش المنصور. من الممكن أن الصغير والكبير ينصران الإسلام، لكن التاريخ يقول: إن معظم محطات التغيير الرئيسية كانت معتمدة اعتماداً شبه كلي على الشباب، وراجعوا محاضرات الفترة المكية.

عملت بحثاً في أعمار المشاركين في غزوة بدر، وهناك كثير لا نعرف أعمارهم، لكن الذي أحصيته من هؤلاء يكفي أن يكون عينة صادقة تعبر عن حال الجيش، فإن متوسط العمر في الجيش كان اثنين وثلاثين سنة، وهناك أناس أكبر وأناس أصغر، فالمواقع القيادية في بدر كلها كانت للشباب، كان حامل راية المهاجرين علي بن أبي طالب، وعمره خمسة وعشرون سنة، وحامل راية الأنصار سعد بن معاذ، وعمره اثنان وثلاثون سنة، وحامل الراية العامة للجيش كله مصعب بن عمير، وعمره سبعة وثلاثون أو ثمان وثلاثون سنة، كما أن شهداء بدر متوسط عمرهم تحت الثلاثين سنة، فالشباب طاقة هائلة، والتركيز عليهم في موقع الذب وفي غيرها من المواقع الفاصلة كان في منتهى الوضوح، والنصر جاء على أيديهم في بدر وفي غيرها، وليس معنى هذا أننا لسنا محتاجين لحكمة الشيوخ، لا، بل نحن محتاجون لكل الطاقات، الصغير والكبير، الرجل والمرأة من المؤسف جداً أن يكون شباب الأمة الذين يجيء معظم النصر على أيديهم يكون مشغولاً ببعض الأمور التافهة التي لا تصلح لطفل فضلاً عن شاب.

وراجعوا محاضرة: كلمة إلى شباب الأمة.

ملخص صفات الجيش المنصور

نحن ذكرنا عدة صفات للجيش المنصور، تعالوا نجمعها وتعرف عليها، فإنها إذا تجمعت في أي جيش لانتصر؛ لأن هذه سنن، وسنن الله سبحانه وتعالى لا تبديل لها.

الصفة الأولى: الإيمان بالله عز وجل، وبرسوله الكريم ﷺ، لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ هذه أهم صفة، وأي منهج لا يقوم على الكتاب والسنة؛ لن يكون من ورائه إلا كل خزي وذل وهزيمة.

الصفة الثانية: الإيمان باليوم الآخر، وطلب الجنة، وحب الموت في سبيل الله، والزهد في الدنيا.

الصفة الثالثة: الوحدة بين المسلمين، والصف المتآلف المتحاب، ولا بد أن يكون هذا الحب لا يقوم على روابط قبلية أو عرقية، ولكن في الأساس يقوم على رباط العقيدة والدين.

الصفة الرابعة: الإعداد الجيد من خطة ومال وسلاح وجهد وتخصص وعلم.

الصفة الخامسة: الشورى، والشورى لا تكون إلا فيما لا نص فيه، ولا يجوز للمسلمين أن يجتمعوا على مخالفة الشرع، بل يتشاورون فيما لا نص فيه، وبدون شورى فإن النصر بعيد، بل مستحيل.

الصفة السادسة: الحسم وعدم التردد: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159]، والتسويف وتأجيل الأعمال علامة على التردد والضعف، وطبعاً هذا يؤخر النصر، بل أحياناً يمنعه.

الصفة السابعة: الاعتماد على الشباب، والاهتمام بهم، والارتقاء بأفكارهم، والثقة في قدراتهم وإمكانياتهم.

الصفة الثامنة: توسيد الأمر إلى أهله، وأهله هم الأكفاء الأمناء.

الصفة التاسعة: مشاركة القائد لشعبه وعدم الترفع عليهم، والاختلاط بهم، والتضحية معهم.

أما الصفة العاشرة والأخيرة: فهي روح الأمل والتفاؤل واليقين في نصر الله عز وجل لهذه الأمة؛ هذه كانت الصفة العاشرة من صفات الجيش المنصور، فتلك عشر كاملة.

وهذه الصفات العشر تحتاج لدروس ومحاضرات ودورات ومناهج، وتحتاج لوقت وجهد كي تزرع وتكون منهج حياتنا، وإن صفة واحدة من هذه الصفات إذا فقدت؛ قد يفقد معها النصر تماماً، حتى لو تحققت التسع الصفات الباقية، فمن غير إيمان لا يوجد نصر، ومن غير وحدة لا يوجد نصر، ومن غير أمانة لا يوجد نصر وهكذا، وسيتضح هذا جلياً في أحد.

الثبات يتحقق بتحقيق صفات الجيش المنصور كاملة

إذا حقق المسلمون هذه الصفات العشر؛ أنعم الله عليهم بنعمة عظيمة جداً، وهي نعمة الثبات.

فلا أحد يستطيع أن يضمن أنه سيثبت، ولكي تكون أهلاً للثبات لابد أن تستوفي الصفات العشر للجيش المنصور مثلما ذكرنا، فإنه لا نصر من غير ثبات؛ ولهذا تجد أن الله يذكر في سورة الأنفال الثبات كثيراً، سواء بنفس اللفظ أو بمعناه، تجد مثلاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ} [الأنفال:15]، كذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} [الأنفال:45]، وعند الحديث عن المطر قال: {وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال:11]، وعند الحديث عن الملائكة قال: {فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال:12]، فالثبات هبة من الله عز وجل، لا يلقاها إلا من قدم الصفات العشر مكتملة، فإذا ثبت المسلمون في أرض المعركة؛ أنزل الله عليهم سبحانه وتعالى النصر من عنده.

22

نصـر بـــدر

جنود الله في بدر

نزول النصر يحتاج منا إلى وقفة مهمة وطويلة، فالنصر يأتي من حيث لا يتوقـع المسـلمون، بـل أحياناً يأتي من حيث يكره المسلمون، أي: يأتي النصر بطريقة يعترف الجميـع أنهـا ليسـت مـن طرق البشر، ولا يستطيعونها؛ وما ذلك إلا لكي ينسب المسلمون النصر إلى الله عز وجـل، ولا ينسبوه إلى أنفسهم أبداً. فبعض المسلمين كرهوا هذا اللقـاء مـع الجـيش المكـي في بـدر: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِـنْ الْمُـؤْمِنِينَ لَكَـارِهُونَ} [الأنفـال:5]، وكـانوا يتوقعـون في هـذه الموقعـة موتـاً محققـاً للمسلمين: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [الأنفال:6]، لكن سبحان الله أتى النصـر من حيث لا يتوقع المسلمون، بل ومن حيث يكرهون، وإذا أتى النصـر أتـى بطريقـة لا يقـدر عليها البشر عموماً؛ حتى لا يدعي أحد أنه بفضل قوته وعدده وخطته انتصر، كـما ذكرنـا قبـل ذلك. فلسفة النصر في الإسلام تؤكد أن النصر من عند الله عز وجل، لكنـه لا ينـزل عشـوائياً، بل ينزل على الذين ثبتوا في أرض القتال.

تعالوا نرى كيف نزل النصر في يوم بدر؛ الكيفية التي تم بها النصر تـتلخص في قولـه تعـالى في سورة الأنفال: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران:126]، فهـذا أسـلوب قصر نفى تماماً أن يأتي النصر إلا من طريق واحد: من عند رب العالمين سبحانه وتعالى.

تعالوا نرى جنود الرحمن في يوم الفرقان تعالوا نرى الجنود التي حققت النصر العظيم. سنعد عشرة من جنود الرحمن سبحانه وتعالى في يوم الفرقان، أول جنوده سبحانه الملائكة.

الملائكة

مَن مِن قادة الأرض يستطيع أن يحسب في حساباته عدد الملائكة المقاتلين في الجيش؟ لا المسلمون ولا الكفار يستطيعون أن يحسبوا هذه الحسبة، وهذا شيء معترف به من الجميع، فهو بيد الله عز وجل وحده، فإن جيوش الملائكة قاتلت في بدر، ونزلت كذلك في الأحزاب، والله سبحانه وتعالى قال: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب:9]، ونزلت كذلك في حنين قال: {وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة:26]، ولا يستبعد أن تنزل في معركة قديمة أو حديثة أو مستقبلية، فهم جنود من جنود الرحمن سبحانه وتعالى: {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:6]. الملائكة خلق عجيب، وقوة خارقة غير متخيلة، فقد رفع جبريل عليه السلام قرية لوط إلى السماء على طرف جناحه، حتى سمع أهل السماء أصوات الناس ونباح الكلاب، ثم قلبها، فـ {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} [هود:82]، سبحان الله! ملك واحد يرفع قرية كاملة إلى السماء، وملك يريد أن يطبق على الأخشبين -جبلين حوالي مكة-.

هؤلاء الملائكة شاركوا في غزوة بدر، ليس ملكاً ولا اثنين، بل جيشاً من الملائكة، يقول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:9]، مردفين: أي يتبع بعضهم بعضاً، ومعنى رِدف لكم: أي رِدء لكم ومعين لكم، فهذه ألف من الملائكة في المرحلة الأولى من مراحل القتال، وبعد ذلك تطور الأمر، انظروا إلى قوله تعالى في موقعة بدر: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران:123 -

125]، مسومين: أي معلمين بعلامات. قال الربيع بن أنس رحمه الله -من التابعين- مفسراً هذه الآيات: (أمد الله عز وجل المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. وقد يقول قائل: كان يكفي ملك واحد، فلماذا هذه الأعداد المتزايدة؟)

الجواب

الله سبحانه وتعالى عرفنا الحكمة من وراء هذه الأعداد، قال تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال:10]، تخيل أن الرسول ﷺ يبشر المسلمين بأعداد من الملائكة، بل تخيل المسلمين عند سماعهم لهذه الآيات، فكلمة واحد غير كلمة عشرة، وغير كلمة ألف، وغير كلمة خمسة آلاف، والجميع يعرفون أن ملكاً واحداً يكفي، فنزول خمسة آلاف من الملائكة بشرى كبيرة للمؤمنين، أضف إلى ذلك أن هذا العدد الكبير من الملائكة الذي اشترك في بدر هم مجموعة منتقاة من أفضل الملائكة، فالملائكة هم درجات.

روى البخاري عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه -من أهل بدر- قال: (جاء جبريل ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين -أو قال كلمة نحوها، أي: من أحسن المسلمين، أو من أعظم المسلمين- قال جبريل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة). أضف إلى ذلك أن جبريل وهو أفضل الملائكة على الإطلاق شارك في بدر بنفسه، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: (هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب) وفي رواية ابن إسحاق: (أبشر أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع)، والنقع التراب. أريد منك أن تعيش معي في أرض بدر، تخيل أن جبريل جاء من بعيد راكباً على فرس يجري، وهو ممسك بلجام الفرس، والتراب يتصاعد من حول الفرس، وخلفه ألف من الملائكة الفرسان ترفع سيوفها وعليها أدوات الحرب، كتيبة ملائكية حقيقية، وبعدها كتيبة والثانية والثالثة والرابعة والخامسة.

يا ترى كيف كان شعور المسلمين والرسول ﷺ يشرح لهم أن الملائكة دخلت أرض الموقعة لتقاتل معهم؟ يا ترى هل سيخاف المسلمون في موقف كهذا؟ هل من الممكن أن يهتزوا أو يجبنوا وهم يعرفون أن هناك جيشاً ملائكياً كاملاً يحارب معهم؟! هذا هو قول الله سبحانه: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال:10].

ولم يعرف المؤمنون في بدر عن أمر الملائكة عن طريق الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هم رأوا بأنفسهم آثار الملائكة في أرض بدر، بل إن منهم من رأى الصورة التي تمثل بها الملائكة في أرض بدر، بل إن من المشركين من رأى الملائكة في الصورة التي تمثلوا بها، فقد تمثلوا في صورة بشر. روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ - أي: يوم بدر- يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وهو يقول: أقدم حيزوم) وحيزوم: اسم فرس الملك، (فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه وشُق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع) صار مكان الضربة لونه أخضر، فكانوا يعلمون بأن ضربات الملائكة في يوم بدر تبقي أثراً أخضر على أجساد المشركين، فجاء الأنصاري، وحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: (صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة)، يا الله!!! ملائكة من السماء الثالثة، وملائكة من سماء أخرى وأخرى، فهم فعلاً مجموعة منتقاة من الملائكة من مختلف السماوات.

وروى الإمام أحمد عن أبي داود المازني رضي الله عنه -وهو أيضاً ممن شهد بدراً- قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي؛ فعرفت أنه قد قتله غيري). ويروي الإمام أحمد أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً)كان العباس في ذلك الوقت مشركاً، وخرج مستكرهاً للقتال مع أهل مكة، لم يكن يريد القتال، لكنه لا يزال على دين الكفار، وكان

العباس رضي الله عنه وأرضاه فارساً شديداً، أسره أنصاري قصير كما يقول سيدنا علي بن أبي طالب ، وصف الأنصاري بالقصر تعبيراً عن استغرابه من أسر هذا القصير للعباس بن عبد المطلب الفارس العظيم، فلما جاء العباس مع الأنصاري قال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح -شعره منحسر من على جانبي الرأس- من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق -الأبلق: الذي بين السواد والبياض- ما أراه في القوم)، فقال الأنصاري: (أنا أسرته يا رسول الله) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسكت؛ فقد أيدك الله تعالى بملك كريم).

المؤمنون والمشركون عرفوا أن الملائكة تقاتل في بدر، والملائكة جنود من جنود الرحمن سبحانه وتعالى.

قذف الرعب في قلوب الأعداء

الجندي الثاني من جنود الرحمن في بدر هو جندي عجيب يقال له: الرعب، يلقيه الله عز وجل في قلوب الكافرين، روى البخاري ومسلم -رحمهما الله- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)، وفي رواية أحمد يقول: (ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر)، قبل أن يصل الرسول ﷺ إلى العدو بمسيرة شهر يكون العدو قد أصيب بالرعب، ومعلوم أن الرعب يدخل في قلوب كل الناس، هذا شيء معروف، لكن العجيب أن يدخل الرعب في قلوب القوي من الضعيف، وأن يدخل الرعب في قلب الكثير من القليل، وأن يدخل الرعب في قلب من هو مدجج بالسلاح من الأعزل الذي لا يملك سلاحاً. هذا هو العجيب، وهذا الذي نراه دائماً مع جيوش المؤمنين، يقول سبحانه وتعالى في غزوة بدر: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} [الأنفال:12]، تخيل! سيلقي الله عز وجل بنفسه الرعب في قلوب الذين كفروا، وقد رأينا جيش مكة كيف كان مرعوباً من أوله إلى آخره، مع

أنه ألف بعدة المحارب، والمسلمين ثلاثمائة بعدة المسافر، لكن ماذا تفعل لمن ألقى الله عز وجل الرعب في قلبه؟ وهذا واقع نراه إلى الآن، كم رأينا طفلاً صغيراً يمسك بحجر ويقف أمام دبابة غير خائف، والجندي داخل الدبابة لا يستطيع الخروج. كم رأينا من طائرات وصواريخ تقصف كي تقتل رجلاً أعزل ولعله قعيد على كرسي!. كم رأينا من فرق مسلحة بأقوى الأسلحة والأقنعة والأعداد والسيارات تذهب لتقبض على واحد لا يملك مسدساً أو خنجراً أو أي سلاح! وكثيراً ما نستغرب لماذا يحصل هذا؟ لكن لا نستغرب ونذكر أن الرعب جندي من جنود الرحمن سبحانه وتعالى.

إنزال الطمأنينة والسكينة وتغشية المؤمنين بالنعاس يوم بدر

الجندي الثالث: عكس الرعب، وهو الطمأنينة والسكينة والأمان الذي يصل إلى حد النعاس، يلقيه الله عز وجل في قلوب الذين آمنوا، والقلوب بين أصابع الرحمن، فكما ألقى الله عز وجل الرعب في قلوب الكافرين، ألقى السكينة في قلوب المؤمنين حتى اطمأنوا وثبتوا، وستجد حديثاً عن السكينة في كل المواقع التي حصل فيها النصر، في بدر والأحزاب وصلح الحديبية وحنين وهكذا. يقول الله تعالى عن غزوة بدر: {إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ} [الأنفال:11].

نزول المطر لإعاقة الكافرين وتطهير المؤمنين

الجندي الرابع من جنود الرحمن: المطر، فالله القادر أن ينزل المطر هنا أو هناك، {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ} [الشورى:28]، والله هو الذي يقدر أن ينزل المطر هيناً لطيفاً على منطقة، وينزله وابلاً شديداً على منطقة مجاورة تماماً، ويكفينا أن نتذكر قول الله عز وجل: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال:11].

تقليل عدد كل فريق من الجيشين في عين الآخر

الجندي الخامس من جنود الرحمن: التقليل والتكثير في الأعداد، معنى هذا: أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الشخص يرى الأعداد التي أمامه مختلفة عن الواقع، يراها أكثر أو يراها أقل بحسب ما يريد هو سبحانه وتعالى، وهذا الكلام له أثر عجيب في القتال.

تعالوا نرى قصة الأرقام في بدر: جيش المسلمين في هذه الموقعة ثلاثمائة وأربعة عشر تقريباً، وجيش الكفار ألف، والله سبحانه وتعالى يريد للموقعة أن تتم، ولا يريد لأي فريق أن يقرر الهروب، أو عدم الدخول في صدام؛ لأن الله سبحانه وتعالى يدبر المكيدة للكافرين: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:30]؛ ولكي يصمم كل فريق على القتال لابد أن يشعر أن الفريق الثاني ضعيف وقليل، ومن ثم يتجرأ عليهم ويقرر القتال، هذا كان قبل القتال. ومع أن المخابرات المكية حصرت الجيش المسلم، وعرفت أن العدد الواقعي هو ثلاثمائة تقريباً، كما قال عُمير بن وهب، إلا أن الله عز وجل قلل أعداد المسلمين جداً في نظر أبي جهل؛ حتى دفعه دفعاً للقتال، فقال أبو جهل: إنما هم أكلة جزور، يعني: مائة فقط أو أقل؛ مما جعله يتحمس جداً لقتال المسلمين، ودفعه دفعاً للحرب. الكفار رأوا المسلمين قليلين.

والمسلمون أيضاً رأوا الكفار قلة، مع أن المخابرات الإسلامية حصرت الجيش الكافر، وعرفت أن عدده ما بين التسعمائة والألف كما قال ﷺ، وذلك في أول القتال، ولكي يشجع رب العالمين سبحانه وتعالى المسلمين على القتال دون تردد؛ أراهم أن المشركين قلة، وهم في الأصل ألف، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟) ألف واحد نزلوا في التقدير إلى سبعين!! تخيل! عندما يرى المسلم الكفار سبعين بدلاً من ألف، سبعين، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (فقال لي

-أي: صاحبه- لا، بل مائة) فسبحان الله! فالمسلمون يشاهدون الكفار مائة، والمسلمون يعرفون أنفسهم أنهم ثلاثمائة، وهذا شجعهم جداً على القتال.

كل فريق يرى الفريق الآخر قليلاً، وهذا ما قاله الله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال، قال: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [الأنفال:44]، حتى يتم القتال، {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [الأنفال:44] هذا كان قبل القتال.

ثم بدأت المعركة، وتم ما يريده سبحانه وتعالى من حدوث القتال، فحصل تغيير آخر مهم في عملية الإحصاء والعدد. أما المسلمون فما زالوا يرون الكافرين قلة، وبالتالي فالمسلمون متحمسون تماماً للقتال؛ لأنهم يرون أنهم أكثر من الكفار بثلاثة أضعاف، وأما الكفار فقد حدث لهم تغير عجيب بعد بدء القتال، فقد دخل في روعهم أن المسلمين ضعف المشركين أي ألفين، ودخل في قلوبهم الرعب من المسلمين، وبالتالي انهزموا نفسياً ثم واقعياً، وهذا الحديث تجده في القرآن في سورة (آل عمران) تعليقاً على غزوة بدر، قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} [آل عمران:13]، يرونهم مثليهم: ضعف عدد المشركين، (رأي العين): يرون هذا الأمر بأعينهم ليس وهماً، {وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ} [آل عمران:13]، ذكر الله هذه الآيات في كتابه ليس لمجرد التاريخ لغزوة بدر، بل ذكر ذلك عبرة لأولي الأبصار.

هذه الآيات تفهمنا أشياء كثيرة، منها كيف أن أعداء الأمة مرعوبون من المسلمين المتمسكين بشرع الله عز وجل؛ لأنهم في الغالب يرونهم أكثر من عددهم الحقيقي بكثير، وهذا الذي يجعلهم يتخذون قرارات نحن نرى أنه مبالغ فيها، لكنهم معذورون فيها؛ لأنهم يرون المسلم اثنين، ويرونه ثلاثة، ويرونه عشرة وقد يرونه أكثر. فهذا جندي حقيقي من جنود الرحمن، التقليل والتكثير من الأعداد.

الفرقة بين الكافرين

الجندي السادس من جنود الرحمن في بدر: هو الفرقة بين الكافرين بدون أي تدخل من المسلمين. أن فرقة الكافرين تضعف صفهم، وأحياناً يسعى المسلمون إلى إحداث هذه الفرقة بين الكافرين؛ لأجل توهين قوتهم، مثلما فعل الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب لما قال لـ نُعَيم بن مسعود رضي الله عنه: (خذِّل عنا)، لكن هناك أوقات تحصل فيها الفرقة بين الكافرين من غير أن يفعل المسلمون شيئاً، هذه الفرقة جندي من جنود الرحمن، يرسله رب العالمين سبحانه وتعالى لإضعاف الصف الكافر، فقد رأينا انسلاخ الأخنس بن شريق بثلاثمائة من الكفار قبل موقعة بدر، أي: قبل أن يرى المسلمين أصلاً، ورأينا الصراع بين قادة المشركين وانقسام الصف، والتراشق بالألفاظ والاتهامات، ورأينا كل واحد يبحث عن مصلحة خاصة، وكل هذا في أرض القتال، في مكان لابد أن يكون فيه وحدة، وهذا الشيء يحصل دائماً في صف الكافرين إن وجد المسلمون الذين يستحقون النصر، لكن إن لم يكن المسلمون على هذه الصورة فإننا نجد أن الكفار يتوحدون، وتتفق آراؤهم، وتزداد قوتهم، والأمر في النهاية يعود إلينا نحن، فإن كنا على خير فرق الله عز وجل بين عدونا، وإن كنا غير ذلك جمع الله عز وجل عدونا، فتكون لهم الغلبة علينا؛ حتى نعود إلى ديننا وإلى ربنا سبحانه وتعالى.

هذا هو الجندي السادس من جنود الرحمن سبحانه وتعالى: الفرقة بين الكافرين.

جندي البركة

الجندي السابع من جنود الرحمن سبحانه وتعالى: جندي غريب جداً، اسمه جندي البركة، وهو تضخيم النتيجة للفعل البسيط؛ تعمل شيئاً لا يؤدي في الأصل إلى نتيجة كبيرة، فإذا بالله عز وجل يبارك في هذا العمل ويضخم أثره؛ حتى تصبح النتيجة هائلة.

مثال ذلك: أخذ الرسول ﷺ في يوم بدر حفنة من حصباء من التراب، فاستقبل بها قريشاً ورماها في وجوههم وقال: (شاهت الوجوه)، فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، والحديث في صحيح مسلم، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال:17]، نعم. الرسول ﷺ رمى: {إِذْ رَمَيْتَ}، ولكن لو رمى بالتراب وجوههم ألف مرة فلن يصيب عيون الكافرين جميعاً إلا إذا أراد الله عز وجل للتراب أن يصيبهم، وفعل الرمي هذا لا يؤدي في المعتاد إلى النتيجة الضخمة التي حدثت؛ لذلك ينفي ربنا سبحانه وتعالى الرمي عن رسول الله ﷺ، مع أنه هو الذي أخذ التراب ورماه، لكن الذي أخذه إلى مرماه الحقيقي هو الله عز وجل.

أيضاً في قصة قتل أبي جهل فرعون هذه الأمة وقائد المشركين، وهو واحد من أبرز فرسان المشركين، وأكثر المشركين جرأة على المسلمين وأمنعهم، كان محاطاً بفرقة عسكرية قوية لحمايته، ومع ذلك قتل بطريقة عجيبة، فلو قتله فارس محترف من فرسان المسلمين، مثل الزبير بن العوام، أو علي بن أبي طالب، أو طلحة بن عبيد الله لكان هذا أمراً مفهوماً عندنا، لكن قتله تم بطريقة عظيمة، وليس لها إلا تفسير واحد: هو جندي البركة، وذلك أن الله عز وجل بارك في فعل ضعيف؛ ليحقق نتيجة هائلة قوية ألا تحدث هذه النتيجة، تعالوا نسمع القصة التي يحكيها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه في قتل أبي جهل، والقصة في البخاري.

يقول: (إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن عن يمينه وشماله طفلان): معاذ بن عمرو بن الجموح وعمره ثلاث عشرة سنة، ومعوذ بن عفراء عمره أربع عشرة سنة، يقول عبد الرحمن بن عوف: (فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: أي عم؛ أرني أبا جهل فقلت: يا ابن أخي؛ فما تصنع به؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده! لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده -لن يفارق ظلي

ظله- حتى يموت الأعجل منا). يا الله! هذا الكلام يخرج من طفل عمره ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة، ولا يريد قتل أي واحد حصين في الجيش الكافر، بل يريد قتل زعيم الجيش الكافر المحمي بكتيبة عسكرية، فهذا الكلام عجيب وغير منطقي، حتى قال عبد الرحمن بن عوف: (فتعجبت لذلك)، ثم قال: (وغمزني الآخر فقال لي مثل هذا، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه).

تعالوا نترك عبد الرحمن بن عوف ونسمع من الطفل معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه وعن أبيه وهو يحكي هذا الموقف. الموقف في رواية ابن إسحاق وفي رواية ابن سعد في الطبقات يقول: (سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحَرَجة -أي الغابة كثيفة الأشجار- وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه)؛ لأنها أهم شخصية في الجيش المكي، يقول معاذ: (فلما سمعته جعلته من شأني فصمت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطمت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطير من تحت مرضخة النواة حين يضرب بها).

الله أكبر! ضربة من سيف معاذ أطارت ساق أبي جهل! ليس من الطبيعي أبداً أن معاذاً يفكر في قتل أبي جهل، وليس من الطبيعي أن معاذاً يقدر على الوصول إلى أبي جهل وهو داخل كتيبة عسكرية قوية تحميه، وليس من الطبيعي أن أبا جهل لا يستطيع أن يرد ضربة معاذ، وليس من الطبيعي أن ضربة معاذ تطير ساق أبي جهل هكذا بلحمها وعظمها، بل من الصعب بتر ساق بضربة واحدة، هذا يحتاج إلى فارس محترف متمكن مفتول العضلات. صعب جداً أن نفهم أن هذا الأمر يأتي من طفل عمره ثلاث عشرة أو أربع عشر سنة، لكن هذا حصل وليس هذا فقط، بل بعد أن ضرب معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه وعن أبيه أبا جهل، جاء معوذ بن عفراء الطفل الثاني الذي كان ينافسه على قتل أبي جهل وضرب أبا جهل ضربة أثبتته. انتهى، ولم يبق فيه إلا رمق بسيط جداً من الحياة، ثم جاء عبد الله بن مسعود واحتز رأسه، لكن

من هو الذي قتل فعلاً أبا جهل ؟ الذي قتله معاذ بن عمرو بـن الجمـوح ومعـوذ بـن عفـراء ، وأسرع الاثنان إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقالا له: (أنا قتلته، أنا قتلته)، فقال صـلى الله عليه وسلم: (أرياني سيفيكما! فنظر إلى السيفين فوجد الدماء على كلا السيفين؛ فقـال صـلى الله عليه وسلم: كلاكما قتله). الشاهد في هـذا: أن الله سـبحانه وتعـالى قـادر عـلى أن يمكـن لأي فارس من الفرسان الكبار أن يقتل أبا جهل ويكون الأمر طبيعياً، لكنه يريد أن يرينا جندياً مـن جنوده، يبارك في فعل صغير ويجعله كبيراً، وهذه هي البركة الإلهية، فعل صغير تكون له نتـائج كبيرة جداً.

هذا ليس مجرد توفيق فقط، بل هو أعلى من التوفيق؛ لأن التوفيق شيء ممكن يحصـل في المعتـاد، والله سبحانه يمكن أن يوفق البعض ولا يوفق الآخرين، لكن هنـا نـتكلم في موضـوع البركـة الإلهية، أن هذا الشيء في المعتاد لا يمكن أن يحصل، لكن الله سبحانه وتعالى بقدرته يكتـب لـه الحدوث.

الذي حمل السيف وضرب هو معاذ ، لكـن الـذي سـبب لهـذا السـيف أن يقـوم بهـذه المهمـة المستحيلة هو رب العالمين سبحانه وتعالى، ولا يكـون ذلـك إلا لمـن اسـتوفى الصـفات العشرـ للجيش المنصور. هذا هو الجندي السابع.

الرؤى والأحلام

الجندي الثامن: وهو الـرؤى والأحـلام، يراهـا أهـل الحـق فتبشرـهم، ويراهـا أهـل الباطـل فتحبطهم وتفشلهم، وهذا الكلام ليس دجلاً ولا شعوذة، بـل لـه شـواهد كثـيرة في التـاريخ، سواء في السيرة أو في الفتوح الإسلامية أو في كل المعارك التي مرت بأمتنا.

تعالوا بنا نتكلم في غزوة بدر في البداية عن رؤيا لبعض الكافرين، والرؤيا قد تصيب الإنسان بالكآبة والحزن والإحساس بالفشل، وتوقع الهزيمة في نفسه، فيكون لها رد فعل سيئ جداً على نفسية المحارب. هذا جُهَيم بن الصَلت بن المطلب من عائلة الرسول ﷺ، لكن كان مشركاً، رأى أن رجلاً أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: (قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، وفلان وفلان وفلان، فعد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش)، وانتشرت الرؤيا في مكة، وكان ذلك قبل الخروج إلى بدر، ولما سمع أبو جهل هذه الرؤيا جن جنونه، وقال: (هذا أيضاً نبي من بني عبد المطلب، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا).لكن لا شك أن هذه الرؤيا كان لها أثر سيئ على المشركين، وإلا لما انتشر خبرها بهذه الصورة حتى يصل إلى أبي جهل.

الرؤيا الثانية كانت من عاتكة بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ، وكانت مشركة في ذلك الوقت، واخُتلف بعد ذلك في إسلامها، لكن الراجح أنها لم تسلم، رأت عاتكة قبل أحداث بدر رؤيا خوفتها، فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ؛ لتحكي له الرؤيا، وكان العباس مشركاً في ذلك الوقت، فقالت له: (يا أخي؛ والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، تكتم علي ما أحدثك؟) قال لها: (وما رأيت؟) قالت: (رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث)، أي يدعو آل قريش للخروج إلى المصارع في ثلاثة أيام. قالت: (ثم كرر هذا النداء في مناطق مختلفة حول الكعبة، ومن على جبل أبي قبيس، ثم أرسل صخرة فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارتضت -أي: تفتتت- فما بقي بيت من بيوت مكة إلا دخلته منها فلقة)، قال العباس: (والله إن هذه لرؤيا، فلا تذكريها لأحد)، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة، وكان صاحبه، فذكر العباس له الرؤيا وقال له:

(لا تذكرها لأحد)، فأخبر الوليد بن عتبة أباه عتبة بن ربيعة بالرؤيا وقـال لـه: لا تقـل لأحـد، وهكذا انتشر الأمر في قريش، حتى وصل إلى أبي جهـل وكـان العبـاس في ذلـك اليـوم ذاهبـاً ليطوف بالبيت الحرام، فلقيه أبو جهل مع المشركين، فقال له أبو جهل: (يـا بنـي عبـد المطلـب متى حدثت فيكم هذه النّبّية؟) فأراد العباس أن ينكر فقال لـه: (ومـا ذاك؟) قـال أبـو جهـل: (تلك الرؤيا التي رأت عاتكة)قال العباس: (وما رأت؟) قال أبو جهل: (يا بني عبـد المطلـب! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفـروا إلى مصارعكم في ثلاث، فسنتربص بكم يا بني عبد المطلب! هذه الثلاث، فإن يك حقـاً مـا تقـول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء؛ نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيـت في العرب)، وكانت هذه فرصة لـ أبي جهل ليشمت في بني عبد المطلب؛ فـإن الصـــراع طويـل جداً بين بني مخزوم -قبيلة أبي جهل - وبين بني هاشم قبيلـة الرسـول ﷺ، وسـبحان الله! مـر يومان، وفي اليوم الثالث وأبو جهل يستعد للشماتة في بني عبد المطلب جاء ضمضم بن عمـرو الغفاري الذي بعثه أبو سفيان وهو يصرخ: (يا معشـر قـريش اللطيمـة اللطيمـة أمـوالكم قـد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغـوث الغـوث)، فنفـر كـل أهـل قـريش، وتحققت رؤيا عاتكة.

أريد منكم أن تتخيلوا نفسية الجيش وهو خارج للقتال وهو على الأقل يشك -إن لم يكن متيقناً تماماً- أنه يخرج إلى مصـارعه. وراجعـوا التـاريخ فـإنكم سـتجدون كســرى رأى رؤيـا قبـل القادسية، كذلك رَستم قائد الفرس، كان لها أكبر الأثر على الفرس، كذلك رأى هرقـل، ورأى قائد الجيش الروماني في اليرموك، والكلام كثير جداً في هذا الموضوع ومتكرر.

وعلى الجانب الآخر جيش المؤمنين في ليلة بدر، رأى الرسول ﷺ رؤيا في منامه، أن الكفار أقل من العدد الذي أحصوه قبل ذلك، وذكر ذلك للصحابة فاستبشروا كثيراً، وثبتتهم هذه الرؤيا،

قال سبحانه وتعالى: { إِذْ يُرِيكَهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [الأنفال:43]، فحدث أثر إيجابي حقيقي نتيجة هذه الرؤيا، والأثر هذا سيكون عكسياً لو كانت الرؤيا مختلفة، {وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ} ، ورؤيا الأنبياء غير رؤيا عامة البشر، لكن الرؤيا لها تطبيق في حياة الناس إن كانت تبشر بخير، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

وعلى الناحية الثانية الرؤيا السلبية كان لها أثر كبير جداً على المشركين؛ فالرؤى والأحلام جندي من جنود الرحمن سبحانه وتعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ} [المدثر:31].

أبو جهل

الجندي التاسع من جنود الرحمن وهو من أعجب الجنود، هذا الجندي هو أبو جهل، فـ أبو جهل هو الذي دفع المشركين دفعاً إلى حتفهم، دفعهم للخروج من مكة، ودفعهم للقتال حتى مع إفلات القافلة، ودفعهم للقتال حتى مع اعتراض الجميع في أرض بدر، وقهر أمية بن خلف للخروج ليموت، وقهر عتبة بن ربيعة للقتال ليموت، ولم ير ما رآه جميع أهل قريش، بل طمس على بصيرته وأعان على هلاكهم، وكما دفع فرعون جنده للدخول في البحر ليهلكوا فعل ذلك أبو جهل، ولو تعقَّل لما قتل هذا العدد الهائل من قادة الكفر وأئمة الضلال، ولو تعقل لما كان يوم الفرقان، ولو تعقل لما حدثت الآثار المجيدة التي سنتكلم عنها إن شاء الله في الدرس القادم لغزوة بدر. وما كان لـ أبي جهل أن يتعقل، فما هو إلا جندي من جنود الرحمن سبحانه وتعالى شاء أم أبى، فالله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حتى لو كان أبو جهل يساعد المسلمين على تحقيق مراد الله سبحانه وتعالى.

إبليس

الجندي العاشر والأخير جندي أغرب من أبي جهل وأعجب، هذا الجندي هو إبليس نفسه، فالشيطان اجتهد كل الاجتهاد ليدفع المشركين دفعاً إلى القتال، ولم يكتف بالوسوسة، بل تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك سيد بني كنانة؛ ليجيرهم من بني بكر، وخرج معهم كذلك بصورة سراقة بن مالك، ودخل معهم أرض بدر، وثبت للقتال معهم حتى رأى الملائكة فعرفهم، فقد كان يعبد الله معهم قبل أن يكفر، فلما عرف أن الموضوع خرج من يديه قرر الهروب، ورآه أحد المشركين الحارث بن هشام، وهو يهرب، وكان يظن أنه سراقة بن مالك فأمسكه وقال له: (إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا لا تفارقنا؟) فقال له إبليس: {إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:48]، وفرّ بنفسه حتى ألقى نفسه في البحر، وأنزل الله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} [الأنفال:48]، في صورة سراقة بن مالك، {فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:48]، وطبعاً هذا شيء متوقع، فالشيطان يعد الناس ويمنيهم، ثم يتركهم عند الأزمات، واللوم لا يقع على الشيطان فقط، بل يقع أيضاً وبصورة أكبر على من اتبعوه، وهذا كلام الشيطان نفسه، واسمع كلام ربنا سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم، قال: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} [إبراهيم:22]، أي: لن أنفعكم ولن تنفعوني، {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم:22] نعم، هذا الكلام والحوار سيكون يوم

القيامة، لكنه بالتأكيد يحصل في الدنيا كثيراً، فكم دفع الشيطان أناساً إلى نهاياتهم، ثم تبرأ منهم وتركهم.

قد يكون الشيطان سبباً من أسباب نصر المسلمين، ومن المؤكد أن الشيطان لو عرف أن النصر سيكون حليف المسلمين في بدر؛ لما دفع قريش للحرب، لكن لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. هذا كان الجندي العاشر من جنود الرحمن سبحانه وتعالى، فتلك عشرة كاملة، وجنود الله أكثر من هذا بكثير: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [الفتح:4]، ففي الغزوات الآتية ستتعرف على جنود أكثر وأكثر.

نقول: إن كل كلامنا الذي مضى يصب في معنى واحد مهم، وهو المعنى الذي ظهر لنا في كل كلمة من كلمات درس هذا اليوم، هذا المعنى قوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:10]، وبهذا نفهم الآية التي جاءت في سورة الأنفال: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال:17]. المسلمون يحملون السيوف ويقاتلون، لكن جنود الرحمن العجيبة هي التي حققت النصر، مع اعتراف الجميع بأن الناصر هو الله عز وجل، وهو الذي أكمل لهم هذا النصر العظيم.

فهم الصحابة رضي الله عنهم أن النصر من عند الله

سأختم كلامي هذا اليوم ببيان فهم الصحابة لنصر بدر، وسأختار كلمتين لاثنين من الصحابة الكرام. الكلمة الأولى: لـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه في مسند الإمام أحمد رحمه الله، قال فيها تعليقاً على قتل المشركين الثلاثة الذين قتلوا في أول مبارزة في بدر.

قال: (فقتل الله تعالى عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة)، مع أن علي بن أبي طالب كان من الذين اشتركوا في قتل هؤلاء الثلاثة، إلا أنه لا ينسب ذلك لنفسه أبداً، بل ينسبه لله تعالى، قال: (فقتل الله تعالى عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة).

الكلمة الثانية: لـ عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأرضاه، وهي في مسند الإمام أحمد بن حنبل وفي الصحيحين، قال: (خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله العدو).

فهذا الفهم هو الذي حقق لهم النصر. وحين نعرف أن النصر لا يكون إلا من عند الله، فإننا سنجده قريباً إن شاء الله.

23

مـا بعــد بــدر

آثار غزة بدر

تحدثنا عن غزوة بدر وعن الملابسات التي أدت إلى قيام الغزوة وعن صفات الجـيش المنتصــر، وعن جنود الرحمن سبحانه وتعالى في هذه الغزوة، ووصلنا إلى أن هذه الغزوة فعلاً مـن أعظـم الغزوات في تاريخ المسلمين، وقد سماها رب العالمين سبحانه وتعالى بيوم الفرقـان؛ ومـا ذلـك إلا لأنها فرقت بين مرحلتين مهمتين من مراحل الدعوة الإسلامية والأمة الإسـلامية، والـذي يتذكر الوضع قبل غزوة بدر ويدرس الوضع بعد غزوة بدر يلاحـظ الفـرق الهائـل بـين حـال المسلمين قبل الغزوة وبعدها. إنَّ غزوة بدر كان لها آثـار ضـخمة هائلـة عـلى الجزيـرة العربيـة بكاملها بل وعلى العالم بصفة عامة، وما زال لغزوة بدر إلى يومنا هذا آثار، وسيكون لها آثـار إلى يوم القيامة، فهي فعلاً يوم الفرقان.

الميلاد الحقيقي للدولة الإسلامية بقيادة النبي ﷺ

أول آثار غزوة بدر وأعظمها هو الميلاد الحقيقي للدولة الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ، والجيش الإسلامي الذي ولد في هذه الغزوة هو الذي على أكتافه أنشئت الدولة العظيمة دولة الإسلام، وقد تعرفنا في غزوة بـدر عـلى صـفات الجـيش المنتصــر، وعـرف الصـحابة رضي الله عـنهم وأرضاهم هذه الصفات، ودرسوها بإتقان، وبعد هذا طبقوها في كل المعارك التي انتصـر فيهـا

المسلمون، وإذا خـالف المسـلمون نقطـة أو بعـض النقـاط مـن هـذه الصـفات أتـت الهزيمـة والمصائب؛ لذلك فإن غزوة بدر تعتبر معياراً أو مقياساً يجب أن يقيس المسلمون عليه أحوالهم، فإن كانوا يطيقون هذه الصفات فلله الحمد والمنة والفضـل، وإن كـانوا غـير ذلـك فـلا بـد أن يعدلوا مسارهم؛ ليعودوا إلى الطريقة التي سار عليها أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين.

ولدت أمة الإسلام بعد غزوة بدر، وأصبح لها هيبة في الجزيرة العربية بكاملها، وبدأ النـاس في كل الجزيرة يتساءلون عن الإسلام والمسلمين، فقـد كـانوا يتخيلـون مـن قبـل أن الأمـر مجـرد خلاف داخلي داخل مكة، هذا الخلاف هو رجل من مكة خرج بشـيء اعـترض عليـه قومـه، وظهر له أتباع، فهي مجرد حرب أهلية في داخل مكة المكرمة، ثم بعد ذلك لفتت أنظار العـرب الهجرة إلى المدينة المنورة، لكن اللفت الحقيقي للأنظار كان بعد بدر، فالانتصار الضخم كان له أثر مهول على الجزيرة بكاملها، فبدأ الناس يتساءلون: من هم المسلمون؟ ما هو الإسـلام؟ ولا شك أن هذا فتح للإسلام قلوباً كثيرة. وهكذا بدأ الرسول ﷺ ينظر دولته كدولة مستقرة، لهـا كيان مستقل ولها احترام ولها سمعة عظيمة في داخل الجزيرة العربية.

آثار غزوة بدر على أهل المدينة

كذلك أثرت غزوة بدر على المسلمين في داخل المدينة المنورة الـذين لم يشـاركوا فيهـا، فإنـه لمـا وصل خبر نصر الإسلام في غزوة بدر إلى المدينة المنورة اختلطت مشاعر الفرح والسرـور بهـذا النصر العظيم بمشاعر الندم لعدم المشاركة في هذا النصر العظيم. التف المسلمون حول البشير وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه يطمئنون على أخبار الرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ لم يرجع مباشرة من بدر، بل مكث في أرض بدر ثلاثة أيام كعادة الجيوش المنتصـرة، وبعـد ذلـك عاد إلى المدينة المنورة، لكن الخبر كان قد سبق واستقبلت وفـود التهنئـة الرسـول ﷺ بمنتهـى الترحاب والفرح والسرور، وفي نفس الوقت جاء كثير من الأنصـار رضي الله عنـه وأرضـاهم

يعتذرون لرسول الله ﷺ لعدم مشاركتهم في بدر مع رغبتهم الأكيدة في الجهاد في سبيل الله؛ لأنهم لم يعرفوا أن هناك قتال.

على سبيل المثال: جاء له أُسيد بن حضير رضي الله عنه وأرضاه وقال: (يا رسول الله؛ الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال له ﷺ: صدقت).

مشاعر الندم التي جاءت في قلوب الأنصار والمهاجرين الذين لم يشاركوا في غزوة بدر ستؤدي بعد ذلك إلى بعض النتائج كما سنرى، وسيكون لها أثر واضح إيجابي في مقدمة غزوة أحد كما سيتبين لنا. كان هناك أثر إيجابي كبير على الجيش المسلم، وعلى الذين لم يشاركوا في غزوة بدر، وقامت الدولة الإسلامية على أكتاف هؤلاء وهؤلاء.

آثار غزوة بدر على مشركي مكة

في نفس الوقت كان في غزوة بدر أثر سلبي ضخم جداً على مشركي مكة الذين خرجوا وفجعوا بهذه الفجيعة الضخمة في بدر، فهي ضربة قاصمة هائلة لقريش، وهزة عنيفة لكبرياء قريش وكرامتها وعزتها، فقد كانت قريش أمنع قبيلة في العرب وأعزها وأكبرها، لها تاريخ وكل قبائل العرب تحترمها، لكن الوضع بعد بدر اهتز بشكل مريع، فسبعون واحداً من المشركين الذين شاركوا في بدر قُتلوا، وسبعون كذلك أُسروا، وقارن بين هذه الغزوة وسرية نخلة، فسرية نخلة انتفضت فيها قريش وقلبت الجزيرة العربية وقامت بحرب إعلامية، وكان المقتول فيها واحداً والمأسور فيها اثنين، من خلال ذلك ستعرف مدى المأساة التي وقعت على أهل قريش بعد هذه الغزوة العظيمة غزوة بدر، كذلك هؤلاء السبعون الذين قتلوا هم عمالقة الكفر وقادته وأئمة الضلال في الأرض، منهم فرعون هذه الأمة أبو جهل ، ومنهم الوليد بن

المغيرة ، ومنهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف وغيرهم كثر. هؤلاء السبعون قتلوا في يوم واحد وفنوا في لحظة واحدة، فياله من شيء يشيب له الولدان، فيا ترى كيف كان تأثر قريش لما وصل الخبر؟

قام الحَيْسمان بن عبد الله الخزاعي بإيصال الخبر، فما زالت قريش لا تعرف عن أخبار بدر شيئاً، فلما رأوا الحيسمان بن عبد الله الخزاعي قادماً قالوا: (ما وراءك؟) قال: (قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سماهم)، فاندهش صفوان بن أمية حتى قال: (والله إن يَعقل هذا، فاسألوه عني، لو سألتموه عني سيقول لكم: قتل كذلك، فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: ها هو ذا جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا). كان هذا طبعاً الخبر كالصاعقة على أهل قريش؛ لذلك لم يصدقوا، فانتظروا رسولاً ثانياً، فجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، فلما رآه أبو لهب -وقد تخلف عن غزوة بدر- قال: (هلم إليّ فعندك لعمري الخبر). فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال أبو سفيان كلمات في منتهى الخطورة، قال: (ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس)، فتعجبوا من قوله فقال: (لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق بين السماء والأرض والله ما تليق شيئاً -لا تترك أمامها شيئاً ولا تبقي- ولا يقوم لها شيء). وهكذا صرح أبو سفيان بهذه الكلمات أمام المشركين، والمشركون يسمعون ولا يصدقون، ومع كل هذا الأمر إلا أنهم لا يؤمنون.

وكان أبو رافع رضي الله عنه وأرضاه موجوداً بينهم، وهو غلام للعباس رضي الله عنه، وكان يخفي إسلامه، فلما سمع ذلك قال: (تلك والله الملائكة.. تلك والله الملائكة)، فرفع أبو لهب يده وضربه في وجهه ضربة شديدة، وحصل بينهما نزاع، فاعتلى أبو لهب فوقه وبدأ يضربه،

فجاءت أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما وكانت تخفي إسلامها أيضاً، فأمسكت عموداً وضربت أبا لهب على رأسه حتى شجته شجة منكرة، وقالت له: (استضعفته أن غاب عنه سيده)، فقام أبو لهب مولياً ذليلاً، ولم يعش بعد هذه الضربة إلا سبع ليال، فقد رماه الله سبحانه وتعالى بمرض يسمى العَدَسة، وهي قرحة تصيب الإنسان وتقتله في أيام، وكانت العرب تتشاءم من هذه القرحة، فلم يستطيعوا الاقتراب من أبي لهب حين أصيب بها إلى أن مات، ولم يجرؤ أحد من أولاده على الاقتراب منه، وظلَّ مرمياً على الأرض ثلاثة أيام إلى أن انتشرت رائحته في المكان، فخاف أولاده من تعيير العرب لهم بأبيهم، فحفروا حفرة جواره، وأمسكوا عموداً وبدءوا يدفعون به إلى داخل الحفرة، وأخذوا يلقون الحجارة عليه من بعيد حتى سدوا عليه الحفرة. هذه هي النهاية أبي لهب ، وكانت نهايته بعد سبع ليال فقط من غزوة بدر، وهكذا فقد المشركون في غزوة بدر كل هذا العدد الضخم من القادة، وبعدها بسبعة أيام فقدوا قائداً كبيراً وهو أبو لهب ، وكانت نهاية أبي لهب في منتهى الخزي والعار والذلة والمهانة، مع أنه كان كبير عائلة بني هاشم بعد وفاة أبي طالب ، ومن المفروض أن جنازته تكون جنازة رسمية في داخل مكة، وتأتي الوفود لتعزية أقاربه فيه، لكن لم يحصل ذلك؛ لأن العرب كانت تتشاءم من المرض الذي مات به أبو لهب .

حدث في بدر أزمات كثيرة جداً، أول هذه الأزمات: أزمة سياسية فقد فقدت قريش مكانتها في وسط العرب، واهتزت هزة كبيرة. ثانيها: أزمة اجتماعية، فكل واحد من قريش بكى قتيلاً في بيته، وبذلك تحققت رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ورؤيا جهيم بن الصلت ، فقد رأيا أن كل بيت من بيوت مكة أصيب، وهكذا صار لكل واحد ثأر، وموضوع الثأر في البيئة القبلية كان منتشراً، فمنهم من مات له أب، ومنهم من مات له عم، ومنهم من مات له ابن، وهكذا أصبحت القضية مأساوية في داخل كل بيت من بيوت مكة.

ثالثها: أزمة اقتصادية: تعرفون أن مكة تعتمد اعتماداً كلياً على التجارة، تعرف رحلاتها برحلة الصيف ورحلة الشتاء، وإحدى هاتين الرحلتين تكون إلى الشام، هذه الرحلة تمر بالمدينة المنورة، وهي لها من القوة ما يجعلها تسيطر على المداخل والمخارج المؤدية إلى الشام، وهذه القوة بلا شك ستمنع التجارة إلى الشام، وإذا منعت التجارة من الشام سقطت التجارة كلياً في مكة المكرمة، ولا تتأثر تجارة الشام فقط، بل تجارة اليمن كذلك؛ لأنهم كانوا يأتون بتجارة من الشام ويبيعونها في اليمن، ويأتون بتجارة من اليمن ويبيعونها في الشام وهكذا، فأحدى الرحلتني ستنقطع، وستكون هناك مأساة اقتصادية حقيقية لأهل مكة المكرمة، كما أن مأساة سرية نخلة التي كانت قبل شهر ونصف من غزوة بدر ما زالت مؤثرة في قريش، فقد كانت قافلة ثرية من قوافل قريش استولى عليها المسلمون، أما قافلة أبي سفيان فقد نجت، ولكن سيبقى من الصعب جداً على المشركين أن يتاجروا مع الشام.

هذا موقف مكة المكرمة، ولا شك أن أهل الكفر في قريش لن يسكتوا على هذا المصاب الفادح الذي أصابهم في بدر.

أثر غنائم بدر على المؤمنين

الأثر الرابع لغزوة بدر: كان سلبياً لكن على المؤمنين، ونحن نستغرب كيف يكون هناك أثر سلبي على المؤمنين بعد هذا الانتصار الكبير في بدر.

كان هذا الأثر نتيجة الغنائم التي حصلها المسلمون من غزوة بدر، فهناك أخطاء للمؤمنين بصفة عامة، ومنها هذا الخطأ الذي حدث في غزوة بدر، وهو خطأ بَيّن؛ لأن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأرضاه وصف هذا الأمر فقال: (فلما جاء أمر الأنفال وساءت فيه أخلاقنا)،

فهو يتحدث عن الجيش المنتصر الذي فيه صفات عظيمة كما ذكرنا، إلا أنه في هذه القضية ساءت فيه أخلاقه كما قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأرضاه.

ببساطة شديدة بعد أن انتهت الجولة الأولى من بدر، وبدأ ظهور الانتصار الباهر للمسلمين بدأ المشركون في الفرار، وبدءوا يلقون الغنائم وراءهم، فقسم المسلمون أنفسهم ثلاثة أقسام:

- قسم منهم حول الرسول ﷺ لحمايته.
- وقسم ثان بدأ يجري وراء الفارين من أرض المعركة، ومعظم هذا القسم من الشباب.
- وقسم ثالث بدأ يجمع الغنائم التي كانت موجودة في أرض المعركة.

وبعد انتهاء المعركة اختلف المسلمون على توزيع هذه الغنائم، ولم يكن قد نزل حكم الله سبحانه وتعالى في توزيع الغنائم، وقد كان حكم توزيع أربعة أخماس الغنائم على الجيش لم يشرع بعد.

فقال الذين جمعوا الغنائم: (نحن حويناها -أي: نحن الذين أخذناها- وليس لأحد فيها نصيب)، يريدون أن يأخذوا كل الغنائم لهم، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: (لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه)، وقال الذين أحاطوا رسول الله ﷺ: (خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به وبدأ نوع من الخلاف والشقاق بين المسلمين).

معلوم أن الجيش المنصور فيه صفات النصر الكاملة، لكن ليس معنى ذلك: أنه بلا أخطاء، فكلهم بشر: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون). وهكذا حصل الخلاف، وبدأ كل طرف يريد أن يأخذ من الغنيمة، والغنيمة فتنة من فتن الدنيا، وكان المسلمون في المعركة يطلبون الآخرة فتم لهم النصر، فظهرت لهم الدنيا وهم لم يأخذوا درساً من قبل في فتنة الدنيا، فقد عاشوا 13 سنة في مكة تحت القهر والتعذيب والبطش والفقر وحالات الأذى المستمر،

هذه فترة مكة، وفي أول هجرتهم إلى المدينة المنورة عاشوا سنتين عسيرتين جداً، ولأول مرة يريون هذه الغنائم، وقد كانوا حينما خرجوا من المدينة المنورة إلى بدر في حالة من الفقر الشديد، حتى إن الرسول ﷺ كان يرفع يده ويقول: (اللهم إنهم جياع فأطعمهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم)، أما الآن فهناك غنائم ضخمة موجودة على أرض الموقعة في بدر، والناس في فقر شديد، لكن هذا كله ليس مبرراً للخطأ، وإنما هي خلفيات الخطأ.

هكذا حصل الخلاف والشقاق، ونزل قول الله عز وجل يشرح للمسلمين كيفية تقسيم الغنائم، وقبل أن يشرح كيفية تقسيم الغنائم أعطاهم درساً في منتهى الأهمية، نزلت سورة الأنفال وفي أول السورة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ} [الأنفال:1]، يستنكر رب العالمين سبحانه وتعالى على المسلمين الذين حققوا هذا الانتصار في غزوة بدر أن يهتموا بأمر الدنيا اهتماماً ينشأ بسببه خلاف بينهم، قال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِّ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال:1]، ثم بدأ يعرف لهم الإيمان، ويعرض عن الجهاد في سبيل الله والبذل والقتال فيه، وعن الأحداث الضخمة التي حدثت في غزوة بدر، أعرض عن ذلك كله، وقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُّ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:2-4].

ثم بدأ يشرح لهم قصة بدر قال تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [الأنفال:5-6] إلى آخر الآيات، والآيات فيها نوع من الشدة واللوم على المسلمين، وكأن الله

يقول لهم: كيف تفكرون في أمر الدنيا وقد تحقق لكم هذا الانتصار العظيم بسبب تفكيركم في الآخرة؟ فلا تضيعوا النصر إذاً.

وهكذا نزلت هذه الآيات على المؤمنين برداً وسلاماً، فبمجرد سماعهم للآيات عادوا إلى رشدهم جميعاً، واجتمعت القلوب من جديد، وقبلوا أمر الله عز وجل، وهذا فيه فرق كبير بين موقعة بدر وموقعة أحد، فالمسلمون في بدر لم يخرجوا عن كونهم من البشر يخطئون، لكنهم عندما ذكروا بالله عز وجل تذكروا. أما في غزوة أحد عندما أخطأ المسلمون نفس الخطأ بسبب الغنائم كذلك وذكروا لم يتذكروا فكانت المصيبة، لكن في غزوة بدر بفضل الله عندما ذكر المسلمون جميعاً قبلوا أمر الله عز وجل، وقسم ﷺ الغنائم على السواء كما يقول عبادة بن الصامت ، أي: وزع أربع أخماس الغنائم على الجيش بالتساوي، واحتفظ النبي ﷺ بالخمس للدولة، وكان له ﷺ حق التصرف فيه. هذا هو تشريع الغنائم الذي يسير إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة.

الآثار المترتبة على وجود أسرى بدر في أيدي المسلمين

الأثر الخامس لغزوة بدر: أثر الأسرى الذين أسرهم المسلمون في غزوة بدر، تعلمون أن المسلمين أسروا سبعين من المشركين في غزوة بدر، فيا ترى كيف يتم التصرف فيهم؟ فإن لم يكن بعد تشريعاً وأمراً مباشراً بالوحي لرسول الله ﷺ في التصرف في الأسرى، فكان من اللازم أن يتصرف بطريقة من طرق التشاور كما اعتاد ﷺ في حياته مع الصحابة، فجمع الصحابة، وكوَّن مجلساً استشارياً، وبدأ يسألهم: ماذا نعمل في الأسرى؟ فقال أبو بكر المستشار الأول لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله؛ هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً).

أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه يقدم رأياً يغلب عليه جانب الرحمة يقول: هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، نأخذ فدية، والفدية هي أموال، يأخذونها لحاجتهم الماسة إليها، خاصة وأنهم يؤسسون دولة، وفي نفس الوقت لو عاشوا قد يهديهم الله سبحانه، ولو قتلناهم فإنهم سيموتون على الكفر. كان أبو بكر الصديق له اختيارات شديدة الشبه باختيارات الرسول ﷺ، وكانت طبيعته قريبة جداً من طبيعة المصطفى ﷺ، وكان دائماً يغلب عليه جانب الرحمة، وكان ﷺ يصفه ويقول: (أرحم أُمتي بأمتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه)، هذا كان رأي الصديق رضي الله عنه.

فقال ﷺ للمستشار الثاني: (ما ترى يا ابن الخطاب ؟!) قال: (والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكِّنني من فلان -وذكر قريبًا له- فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب أخيه فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم). كان رأي عمر بن الخطاب حاسماً شديداً، فقد رأى أن يقتل السبعين وليس ذلك فقط؛ بل كل واحد يقتل قريبه، حتى يظهر كل مسلم لله عز وجل أنه ليس في قلبه حب لأي مشرك حتى ولو كان من أقرب أقاربه، هكذا كان رأي عمر ، وكان الرسول ﷺ يقول في عمر : (أشد أمتي في أمر الله عمر) رضي الله عنه وأرضاه.

هذان اختياران، والاثنان مبنيان على حب كامل لله عز وجل، وحب كامل لأمر الدعوة وأمر الدولة الإسلامية، لكن كل واحد له طريقة، والثنان مختلفان تمام الاختلاف، واحد يقول: نأخذ الفدية، والآخر يقول: نقتل الأسرى.

قال عمر رضي الله عنه: (فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر الصديق) هذه رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: (فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، وأخذ

منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال ﷺ للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عُرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، وأشار إلى شجرة قريبة) أي: كاد العذاب يصيب الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، لأنهم اختاروا أمر الفداء؛ فالأولى في هذا الموقف ما أوحى الله عز وجل به إلى نبيه الكريم ﷺ بأن يثخن في الأرض، أي: بأن يقتل الأسرى؛ لأن هؤلاء كما قال عمر صناديد الكفر وأئمته وقادته في الأرض.

وأنزل الله عز وجل قوله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} [الأنفال:67] أي: أنتم تريدون الفداء والأموال، {وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:67]. ثم قال: {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:68]، هذا العذاب العظيم كان يقصده الرسول ﷺ عندما رآه عمر يبكي هو وصاحبه. فإن قيل: ما هو الكتاب الذي سبق؟ الجواب: الكتاب الذي سبق هو الآيات التي نزلت قبل ذلك في سورة محمد ﷺ، قال الله عز وجل في حق الأسرى: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد:4]، يعني: أمر الفداء أمر مشروع، وكان الأولى أن يثخن في الأرض كما قال الله عز وجل، لكن أخذ الفداء كان أمراً شرعياً كما ذكر الله عز وجل.

كان على نفس رأي عمر بن الخطاب رأي سعد بن معاذ رضي الله عنهما، وقد أدلى برأيه في ساعة مبكرة، قال ذلك حين بدأ المسلمون في أسر المشركين في أرض بدر وقبل الاستشارة، وقد نظر الرسول ﷺ لسعد بن معاذ فوجده حزيناً، فقال له: (والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم) أي: تكره أن يأسر المسلمون المشركين، (قال: أجل والله يا رسول الله كانت أول

وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشـرك أحب إلي من استبقاء الرجال) هذا كان رأي سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه.

استقر المسلمون على أمر الفداء، فإن الله سبحانه وتعالى أنزل هذه الآيات ولم ينكر عليهم هذا الأمر، صحيح أنه قال: إن الأولى قتل الأسرى، لكنه أقر أن يأخذ المسلمون الفداء، وبدأ المسلمون فعلاً بأخذ الفداء، فالذي كان لديه مال يدفع مالاً، والمال يتراوح من 1000 إلى 4000 درهم للرجل حسب الحالة المادية له.

موقف النبي والصحابة من فداء العباس بن عبد المطلب

من أروع الأمثلة التي تذكر في أمر الفداء ما دار بين الرسول ﷺ وبين عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد كان أسيراً في يوم بدر.

أنتم تعرفون أن العباس بن عبد المطلب خرج مستكرهاً إلى غزوة بدر، وقاتل مع المشركين فيها وأسر مع من أسر، وكان العباس غنياً، وليس من المستبعد أن يدفع فدية ليفتدي نفسه، فدار هذا الحوار اللطيف بينه وبين رسول الله ﷺ، هذا الحوار ينقل درجة من أعظم درجات الرقي في قيادة الدولة، ليس فيه أي نوع من الوساطة، ولا نوع من المحاباة للأقارب أو الأهل أو العشيرة.

قال العباس لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله قد كنت مسلماً)، يعني: أنا كنت مسلماً ومخفياً إسلامي، فقال ﷺ: (الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان عليّ فافتد نفسك) سبحان الله! يقول له: أنت في الظاهر أنك في أرض الموقعة تحاربنا، وأما باطنك فالله أعلم، وهو الذي يحاسبك عليه، فالذي أنت عليه هذا الوقت أن تدفع الفدية كمشرك، وليس ذلك فقط، بل قال: (فافتد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد

المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بـن عمـرو) يعنـي: تـدفع فـديتك وكذلك فدية ثلاثة معك؛ لأن هؤلاء الثلاثة فقراء وهو غني، فقال العباس : (ما ذاك عندي يـا رسول الله) أي: ليس لدي هذا الكم من الأموال التي أستطيع بها أن أدفع فدية للأربعة، (فقال ﷺ: (فأين المال الذي دفنته وأم الفضل ، فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا فهذا المـال الـذي دفنته لبني: الفضل وعبد الله وقـثم)، قـال الرسـول ﷺ ذلـك وهـو لم يـره، لكنـه علـم ذلـك بالوحي، فقد قام العباس قبل أن يخرج إلى بـدر بـدفن مـال كثـير في مكـة لـه ولــأم الفضـل ، وحكى الرسول ﷺ له الموقف، فقال العباس : (والله يا رسول الله إني لأعلـم أنـك رسـول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل) اقتنع العباس في هذا الوقت أنه رسـول الله وأقسم بذلك، وأخبر رسول الله أنه سيدفع الفدية، لكن قـال: (فاحسـب لي يـا رسـول الله مـا أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي)، أي: كان معي في أرض بدر 20 أوقية من المال، أخذها المسلمون غنائم فاحسبها من الفدية، فقال ﷺ: (ذاك شيء أعطانـا الله تعـالى منـك، لا، لن نحسبها من المال)، أي: لن نحسبها من الفدية، فأنزل الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَـنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِـنْكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُـمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال:70]. نزلت هذه الآيات في العباس رضي الله عنـه، إن كنـت فعـلاً كـما تقول أنك مسلم فـإن الله سيعوضـك عـما دفعتـه، وإن كـان غـير هـذا فإنـه سـبحانه وتعـالى سيحاسبك، فقال العباس تعليقاً على هـذه الآيـة بعـد ذلـك: (فأعطـاني الله عـز وجـل مكـان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل)؛ لأن الله قال: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال:70]. هكذا يرينـا الرسـول ﷺ كيفية تطبيق القانون على كل الناس، يطبق هذا القانون حتى وإن كان على العباس بن عبـد المطلب ، وقد تعجب الصحابة رضوا نالله عليهم من هذا الموقف، وكان الأنصار رضي الله عنه

وأرضاهم في قلوبهم رقة عجيبة، لما رأوا هذا الأمر أشفقوا على رسول الله ﷺ من أن يأخذ الفداء من عمه وعمه يحبه، خاصة أن العباس رضي الله عنه وأرضاه كان واقفاً مع الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية، فمعنى هذا: أنه قريب جداً من قلب الرسول ﷺ وليس هو كأبي لهب. وجاء الأنصار إلى النبي ﷺ، وحاولوا أن يعفوا العباس من الفدية بطريقة لطيفة ومؤدبة جداً، فقد كان الأنصار قمة في الأخلاق والإيمان.

قالوا: (يا رسول الله؛ ائذن لنا فلنترك لابن اختنا العباس فداءه)، كانت جدة العباس من بني النجار من الخزرج فقال الأنصار: يا رسول الله اعف عن العباس لأجلنا، ولم يقولوا له: اعف عن العباس ؛ لأنه عمك، ومعلوم أن العمومة أقرب بألف مرة من أن تكون جدة العباس من بني النجار، لكن الرسول ﷺ رفض رفضاً تاماً وأصر على أخذ الفداء، بل وأخذ أعلى رقم من أرقام الفداء من العباس وهو 4000 درهم للرجل.

موقف النبي من سهيل بن عمرو حين أُسر

كذلك لرسول الله ﷺ موقف جميل مع سهيل بن عمرو ، فقد كان سهيل بن عمرو من قادة قريش، وكان قد أسر في غزوة بدر، وكان معروفاً بحسن الخطابة وحسن البيان يحمس المشركين على القتال ضد رسول الله ﷺ. فلما أخذه المسلمون أسيراً رأى عمر بن الخطاب أن ينزع ثنية سهيل بن عمرو حتى يمنعه من الخطابة: (يا رسول الله دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً) لكن الرسول ﷺ رفض أن يُمِثِّل بالرجل أولاً، ثم قال: (إنه عسى) وهذه نبوءة ومعجزة من معجزات الرسول ﷺ، قال: (إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه) أي: قد تجده يقف فيخطب خطبة لا تذمه فيها ولا تلومه، بل تمدحه، وحصل ذلك فعلاً، فإنه لما ارتدت العرب وقف سهيل بن عمرو وخطب في الناس وثبتهم على

الإسلام في مكة المكرمة، وقال: (يا معشر قريش لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأولهم ردة، من رابنا ضربنا عنقه. وهكذا ثبت الناس في مكة على الإسلام).

كيفية فداء الفقراء من أسرى بدر

كانت هذه صورة من صور الفداء وهي الفداء بالمال، لكن هناك أناس كانوا فقراء، فرأى النبي ﷺ أن بعض هؤلاء الأسرى يعرفون القراءة والكتابة، والأمة الإسلامية في ذلك الوقت لم تكن قد تعلمت بعد، وليس عندها قدرة على القراءة والكتابة إلا القليل، فقام النبي ﷺ بفك أسر مثل هؤلاء من المشركين على أن يعلم كل واحد منهم عشرة من غلمان المدينة المنورة، وهذا يرينا بعد نظر، الرسول ﷺ ودقة فهمه، فالأمة في حاجة إلى القراءة والكتابة، فاستغل ﷺ هذا الظرف العظيم، وهو ظرف وجود سبعين من المشركين، منهم من لا يقدر أن يدفع الفدية، فاستغل هذا الأمر في تعليم المسلمين القراءة والكتابة.

هناك بعض الأسرى منَّ الرسول ﷺ عليهم بغير فداء وأطلقهم، من هؤلاء أبو عزة الجُمحي ، كان فقيراً جداً وقال: (يا رسول الله لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن علي، فمن عليه ﷺ)، لكن أخذ عليه عهداً ألا يظاهر عليه أحد، وحينها قال أبو عزة بعض الأشعار في مدح الرسول ﷺ. لكن سبحان الله ما خشي منه سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب حصل، فقد كان أبو عزة بعد إطلاقه شراً على المسلمين وحرباً عليهم، وألب عليهم المشركين في غزوة أحد.

وقتل ﷺ بعض الأسرى، قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ؛ لأن هؤلاء كانوا من أكابر مجرمي قريش، نسميهم في هذا الزمن بمجرمي الحرب، ﷺ لهما محاكمة، وقتل الاثنين وهو في الطريق إلى المدينة المنورة.

التشريع الإسلامي في شأن الأسرى وحقوقهم

وبعد حل مشكلة الأسرى جاء التشريع الإسلامي بأحكام حول قضية الأسرى، هذه الأحكام بإيجاز أن إمام المسلمين له الحق في الاختيار بين أربعة أمور:

- إما المن بغير فداء،
- وإما الفداء، وهذا الفداء قد يكون بمال أو قد يكون بتعليم أو قد يكون بأسير مثله، أي: تبادل أسرى،
- وإما قتل لمجرمي الحرب أو المعاملة بالمثل إن كان الكفار يقتلون المسلمين الأسارى.
- الأمر الرابع: الاسترقاق: أن يحتفظ بالأسير رقيقاً عنده إلى أجل يحدده الإمام، حسب ما يرى من احتياج المسلمين.

هذه أربعة أمور يختار الإمام منها ما يريد، ويجوز للحاكم أن يتعاهد مع دولة ما أو مجموعة من الدول على طريقة معينة للتعامل مع الأسرى، آتية كأن يتعاهد مع دولة ما أو مع مجموعة من الدول أنه ليس هناك استرقاق، أو أنه ليس هناك قتل للأسرى، أو أنه ليس هناك كذا أو كذا على طريقة معينة ما دام الشرع يسمح بطرق مختلفة للتعامل مع الأسرى.

لكن هناك شيء مهم جداً، وهو أنه إذا احتفظت بالأسير فلا بد من إكرامه ورعايته رعاية أخلاقية سامية تليق بدين الإسلام، قال الله عز وجل: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان:8].

وقد زرع الرسول ﷺ هذه الأخلاق في الصحابة من أول يوم كان لهم فيه أسرى، فقد قال الرسول ﷺ في قضية الأسرى: (استوصوا بالأُسارى خيراً)، فلما سمع الصحابة ذلك بذلوا

كل ما يملكون في سبيل بذل الخير للأسارى، تخيل! هؤلاء الأسرى كانوا منذ أيام قليلة يحاولون قتل المسلمين، ومع ذلك نسي المسلمون ذلك تماماً وتذكروا قول المصطفى ﷺ: (استوصوا بالأسارى خيراً).

يقول أبو عزيز بن عمير -وكان من أسارى بدر-: (كنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البُر لوصية رسول الله ﷺ) كان عندهم خبز بر، وكانوا يقدمون هذا الخبز على طعام التمر؛ لأنه أفضل عندهم، فكانوا يعطونه الطعام الأفضل ويأخذون الأقل في الفضل تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ. فكان هذا تصرف الأنصار هذا له أثر كبير جداً على نفسية أبي عزيز بن عمير ، فما هي إلا أيام بعد أن أطلق حتى أسلم رضي الله عنه وأرضاه.

كذلك أبو العاص بن الربيع كان من أسارى بدر، وهو زوج زينب ابنة الرسول ﷺ، ومع ذلك كان أسيراً من الأسرى، فقال: (كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلي)، كل ذلك تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ.

وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة -أخو خالد بن الوليد رضي الله عنه- من أسارى بدر، وكان يقول مثل ذلك ويزيد، كان يقول: (وكانوا يحملوننا ويمشون)، أي: لو رأوا واحداً منا متعباً أو مريضاً أو جريحاً حملوه ومشوا، فانظر إلى أي حد بلغ الرفق بالأسير، هذا هو المنهج الذي جعل الإسلام يدخل في قلوب الناس، فأسلم أبو العاص بن الربيع ، وأسلم أبو عزيز بن عمير ، وأسلم السائب بن عبيد ، وأسلم الوليد بن الوليد وهكذا.

كان هذا الأثر الخامس من آثار غزوة بدر، وعرفنا فيه التشريع الإسلامي في قضية الأسارى.

أثر غزوة بدر في محاولة اغتيال النبي ﷺ وغزو المدينة

الأثر السادس: هو أن الأزمة الضخمة التي مرت بها قريش من أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية دفعتها إلى التفكير في غزو المدينة المنورة، بل دفعتها إلى محاولة قتل الرسول ﷺ نفسه، وظهرت أكثر من محاولة منها:

واحدة كانت لـعمير بن وهب الجمحي ، أُسر ابنه في غزوة بدر، فأراد أن يرجع ابنه، وفي نفس الوقت كان يكن في قلبه حقداً كبيراً على رسول الله ﷺ، وذات يوم جلس مع صفوان بن أمية في الحجر يتذاكران سوياً أمر بدر، وكان صفوان بن أمية قد قتل أبوه وأخوه في بدر، فقال صفوان : (والله إن في العيش بعدهم خير، فقال له عمير : صدقت والله، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علّة ابني أسير في أيديهم). إن عمير بن وهب سيدخل المدينة المنورة بسهولة؛ لأن لديه أسيراً هناك يريد أن يفتديه، فإذا دخل قتل الرسول ﷺ، فاغتنم صفوان الفرصة وقال: (عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا) وهكذا دفعه دفعة شيطانية إلى الذهاب لقتل رسول الله ﷺ، (فقال عمير : فاكتم عني شأني وشأنك. قال: أفعل).

فقام عمير وأخذ سيفه وأحده جيداً وسمّه، وبالفعل أخذ نفسه وانطلق إلى المدينة المنورة، ومر على مجموعة من الصحابة رضي الله عنهم يتحدثون في أمر بدر، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد اشتهر عن عمر بفراسته الشديدة فقال: (هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر) ودخل بسرعة على الرسول ﷺ وقال له: (يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، وقال ﷺ: فأدخله علي، قال: فلبّبه بحمالة سيفه) يعني: أمسك بالسيف ووضعه على رقبته وأدخله على الرسول ﷺ، ولم يكتف عمر بن الخطاب بذلك، بل قال لرجال من

الأنصار: (ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به).

رأى الرسول ﷺ عمر بن الخطاب ممسكاً بـعمير بن وهب ، فقال له: (أرسله يـا عمـر ادن يـا عمير) فدنا وقال: أنعموا صباحاً، فقال النبي ﷺ: (قد أكرمنـا الله بتحيـة خـير مـن تحيتـك يـا عمير) ثم قال: (ما جاء بك يا عمير ؟!) قال: (جئت لهذا الأسـير الـذي في أيـديكم فأحسـنوا فيه)، فقال ﷺ: (فما بالك السيف في عنقك؟) قال: (قبحها الله من سيوف، وهـل أغنـت عنـا شيئاً؟) قال ﷺ: (أصدقني ما الذي جئت له؟) قال: (مـا جئـت إلا لـذلك)، فقـال ﷺ: (بـل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان دينك وعيالـك عـلى أن تقتلنـي، والله حائل بينك وبين ذلك)، فلم يجد عمير إلا شيئاً واحداً، قال: (أشهد أنك رسـول الله! قـد كنا يا رسول الله والله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينـزل عليـك مـن الـوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هـداني للإسلام وساقني هذا المساق) سبحان الله! أتى من أجل أن يقتل الرسول ﷺ فكانـت النتيجـة أن دخل في الإسلام، وأصبح من أعظم صحابة الرسول ﷺ. ثم تَشّهّد عمير بن وهب شـهادة الحق -شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله- فقال ﷺ لأصحابه: (فقهوا أخاكم في دينه، وأقرءوه القرآن، وأطلقوا له أسيره).

ظل صفوان في مكة المكرمة ينتظر خبر قتل الرسـول ﷺ، وكـان يقـول لأهـل مكـة: (أبشـروا بوقعة تأتيكم الآن تنسيكم وقعة بدر)، وكان يسأل كل من قدم إلى مكة عـن عمـير بـن وهـب حتى أخبره آتٍ من المدينة أنه أسلم، فحلف صفوان ألا يكلمه أبداً، واستمر فعـلاً مخاصـماً إلى فتح مكة، لكن سنذكر أمراً إيجابياً لـعمير بن وهب رضي الله عنه وأرضاه، فمع قلـة مـا تعلمـه

بعد إسلامه إلا أنه قال: (يا رسول الله؛ إني كنت جاهزاً على إطفاء نـور الله، شـديد الأذى لمـن كان على دين الله عز وجل، وأنـا أحـب أن تـأذن لي فأقـدم مكـة، فـأدعوهم إلى الله تعـالى وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام؛ لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنـت أوذي أصـحابك في دينهم) فأذن له ﷺ.

وهكذا رجع عمير إلى مكة المكرمة، وبدأ يدعو إلى الله عز وجل فيها، وكان عمير من قبيلة قوية تدعى بني جُمح، واستطاعت أن تحميه في هذا الأمر، فقد كان سيد قومه رضي الله عنه وأرضاه. وجلس يدعو إلى الإسلام حتى فتح الله مكة، وكان له دور بعد فـتح مكـة في إسـلام الصـديق القديم له صفوان بن أمية ودخوله حظيرة الإيمان، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

هذه كانت أول محاولة لقتل الرسول ﷺ في المدينة المنورة قامت بها قريش، وفشلت كما تـرون، وانتهت بإسلام عمير بن وهب رضي الله عنه.

المحاولة الثانية كانت محاولة قصيرة قام بها أبو سفيان بن حرب زعيم مكة بعد فقد مكـة لكـل الزعماء السابقين، فقد قرر أبو سفيان بعد موقعة بدر قراراً، ونذر أولاً ألا يمس رأسه مـاء مـن جنابة حتى يغزو محمد، وكان العرب يغتسلون من الجنابـة قبـل الإسـلام، فأقسـم ألا يغتسـل مطلقاً حتى يذهب إلى محمد ﷺ ويغزوه في بلده ثم أخذ أبو سفيان رأي قادة قريش بأن يوقفـوا التصرف تماماً في أموال القافلة التي نجت يوم بدر، لكي يجهزوا بها جيشـاً كبـيراً لغـزو المدينـة المنورة بعد ذلك، لكن إلى أن يتم هذا الجيش قرر أبو سفيان أن يقوم بعملية قرصنة على المدينـة المنورة محاولةً لغزو سريع وتحقيق بعض المكاسـب، ولرفـع الهمـة عنـد القرشـيين، وفي نفـس الوقت إرجاع بعض الهيبة للدولة القرشية في الجزيرة العربية، فجمـع 200 راكـب وذهـب إلى المدينة المنورة ليبر بيمينه وقسمه. ذهب إلى المدينة المنورة، وخـاف أن يـدخلها نهـاراً، فـدخلها ليلاً، واستطاع أن يقتل رجلين من الأنصار، وأخذ بعـض الماشـية وانطلـق في طريقـه إلى مكـة

راجعاً، طبعاً كانت محاولة شبه صبيانية، معه 200 فارس ومع ذلك لم يستطع أن يلقى المسلمين في قتال، بل حينما قتل الاثنين أخذ نفسه وهرب بسرعة.

عرف الرسول ﷺ أن أبا سفيان دخل المدينة المنورة بالليل، وجمع الصحابة رضي الله عنه وأرضاهم وخرج بسرعة يتبع أثر أبي سفيان ، لكن أبا سفيان استطاع الهروب بجيشه، وكان معهم أحمال كثيرة من السَوِيق –نوع من الطعام، خليط من الحنطة والشعير– فألقى الكفار هذا الطعام؛ ليتخففوا من أحمالهم ويستطيعوا الهرب، وجمع المسلمون السويق وأخذوه كغذاء للمدينة المنورة، وعرفت هذه الغزوة بغزوة السَويق، وكانت في ذي الحجة سنة 2هـ أي: بعد بدر بشهرين تقريباً، كانت هذه محاولة من محاولات قريش كذلك.

أثر غزوة بدر في الأعراب حول المدينة

الأثر السابع من آثار غزوة بدر أثر الغزوة على الأعراب حول المدينة. كانت حياة الأعراب تقوم في الأساس على السلب والنهب، فهم قطاع طريق ولصوص، وقيام دعوة أخلاقية في داخل دولة قوية مثل دولة الإسلام قد يحجم من السرقات وقطع الطريق الذي يقوم به الأعراب. لما انتصر الرسول ﷺ في غزوة بدر بدأ الأعراب يفكرون في محاولة جمع أنفسهم للقيام بغزو المدينة المنورة؛ لمنع هذه القوة من التنامي، فإن هذه القوة لو كبرت فإنها ستوقف نشاط الأعراب حول المدينة، فجمعت بنو سليم نفسها وبدأت تقرر غزو المدينة المنورة.

عرف الرسول ﷺ أن بني سليم تجمع الأعداد لغزو المدينة، فأخذ نفسه والصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وانطلقوا بسرعة إلى بني سليم، فلما رأى بنو سليم النبي ﷺ قادماً فروا إلى الجبال وتركوا كل شيء، وعاد ﷺ من بني سليم بكمية كبيرة من الغنائم، مقدارها 500 بعير وزعها على جيش المدينة المنورة، وكان هذا في شوال سنة 2هـ أي: بعد الرجوع من بدر بحوالي

سبعة أيام فقط، وكان فيها نصر كبير للمسلمين، وازدادت الرهبة والهيبة للدولة الإسلامية في الجزيرة العربية، وعلى غرار غزوة بني سليم كان هناك أكثر من غزوة في هذه السنة التي تلت غزوة بدر، هذا كان من أهم الآثار لغزوة بدر.

أثر غزوة بدر في تَغَير التركيبة السكانية داخل المدينة المنورة

هناك أثر ضخم جداً وهائل لغزوة بدر، وهو تغير التركيبة السكانية داخل المدينة المنورة. قبل موقعة بدر كنا نقسم الناس في المدينة المنورة إلى مسلمين ومشركين ويهود، فالمشركون تغيروا، يعني: إما صاروا مسلمين؛ لأنهم بالإسلام ودخلوا فيه على اقتناع، وإما تحول المشركون إلى منافقين. ظهرت طائفة جديدة ما كانت موجودة قبل هذا في كل مراحل الدعوة النبوية، لا في فترة مكة ولا في أوائل فترة المدينة، وهي طائفة المنافقين.

المنافقون لا يظهرون إلا إذا قويت شوكة الإسلام والمسلمين، فلو رأيت المنافقين يكثرون فهذه علامة صحية، علامة على أن دولة الإسلام أصبحت قوية، وقبل هذا كانت ضعيفة، فلا يفكر أحد من المشركين أن ينافقهم، لكن الآن أصبحت دولة المسلمين قوية، وبدأت تظهر طائفة المنافقين القذرة، وعلى رأس هذه الطائفة كان الرجل الذي كان يكره الرسول ﷺ كراهية شديدة عبد الله بن أبي ابن سلول ، فبدلاً من أن يكون زعيم المشركين في المدينة أصبح زعيم المنافقين في المدينة المنورة.

بعد بدر مباشرة أعلن هؤلاء القوم إسلامهم وأبطنوا الكفر في داخلهم، وطبعاً سيكون لهم أثر سيء جداً على المدينة المنورة وعلى المسلمين.

أثر غزوة بدر في سيطرة المسلمين العسكرية على الجزيرة العربية

الأثر التاسع: السيطرة العسكرية الكبيرة للمسلمين على الجزيرة العربية، فقد استطاعوا أن يصلوا إلى مناطق واسعة من الجزيرة العربية، ويتضح هذا جيداً في سرية زيد بن حارثة ، هذه السرية لها قصة في منتهى الروعة ونحب أن نقف معها.

لما حصلت السيطرة الكاملة للمدينة المنورة على منطقة شمال مكة المكرمة منطقة الطريق إلى الشام، بدأت قريش تفكر في حل لطريق التجارة إلى الشام؛ لأن التجارة إلى الشام وقفت، وهي عصب حياة أهل مكة، فاجتمعوا اجتماعاً كبيراً، وكان صفوان بن أمية في هذه السنة هو قائد الحملة التي ستذهب إلى الشام، فقال صفوان بن أمية : (إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا، ولا ندري كيف نصنع بأصحابي وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معهم، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإن حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء). فقام الأسود بن عبد المطلب وقال لصفوان ولمن معه من المشركين: (اترك طريق الساحل وخذ طريق العراق). ومعلوم أن طريق العراق طريق طويل جداً يخترق نجداً إلى الشام، ويمر بشرق المدينة، لكن على بعد كبير جداً منها، وقريش نفسها لا تعرف هذه الطريق، فهي تحتاج إلى دليل ماهر حتى يعبر بها هذا الطريق الوعر ليصلوا إلى الشام. وافقت قريش على هذا الرأي، واختارت لها دليلاً اسمه فرات بن حيان من بني بكر بن وائل، ليوصلهم للشام عن طريق نجد.

خرجت عير قريش بقيادة صفوان بن أمية ، وأخذت الطريق الجديد، ونقلت المخابرات الإسلامية الأخبار إلى المدينة المنورة، وبسرعة جهز الرسول ﷺ سرية على رأسها زيد بن حارثة رضي الله عنه، قوام هذه السرية مائة راكب، وانطلقوا بسرعة لقطع الطريق على القافلة، فهرب

صفوان بن أمية ومن معه من حراس القافلة، وتركوا دليل القافلة فرات بن حيان فأخذه المسلمون أسيراً وأخذوا القافلة بكاملها، فكانت غنيمة كبيرة جداً، كانت تحمل الأواني والفضة للتجارة في الشام، وقدرت قيمة هذه القافلة بمائة ألف دينار، وقسمت على أفراد السرية بعد أن أخذ منها الرسول ﷺ الخمس. بعد ذلك أسلم فرات بن حيان ، فكانت ضربة في منتهى القوة لقريش، وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر، كان هذا في جماد الآخرة سنة 3هـ، أي: بعد حوالي عشرة أشهر من غزوة بدر، معنى هذا: أن سيطرة المسلمين على الجزيرة العربية لم تكن عابرة، بل كانت مستمرة.

إن هذا الموقف جعل قريشاً تتحرك لهجوم كاسح شامل على المدينة المنورة، وهذه ستكون مقدمات غزوة أحد

أثر عزوة بدر على اليهود.

تعلمون أن داخل المدينة المنورة ثلاث قبائل يهودية: قبيلة بني قينقاع، وقبيلة بني النضير، وقبيلة بني قريظة.وفي شمال المدينة المنورة تجمع ضخم لليهود يقال لهم: يهود خيبر، وقد عمل الرسول ﷺ معاهدة مع اليهود، وحاول اليهود مراراً وتكراراً حاولوا أن يخالفوا هذه المعاهدة وأن ينقضوا الميثاق، وتحدثوا كثيراً بالسوء عن الصحابة وعن رسول الله ﷺ، بل وعن رب العالمين سبحانه وتعالى، وتطاولوا كثيراً في هذه الكلمات، ولكن الرسول ﷺ كان يضبط النفس ويحاول التحكم قدر المستطاع في أعصاب الصحابة، لكي يمنعهم من الصدام مع اليهود؛ لأن الوضع ما زال مضطرباً داخل المدينة المنورة.

وبعد انتصار الرسول ﷺ على قريش في بدر عاد إلى المدينة المنورة وهو يرفع رأسه بعزة وقوة وبأس، وأرهب ذلك معظم الجزيرة العربية، لكن كان رد فعل اليهود غريباً، فقد جمع الرسول

ﷺ بداية دخوله المدينة المنورة جمع اليهود -يهود بني قينقاع، وحذرهم من مَغبّة الطغيان والمخالفة المستمرة التي كانوا عليها، وقال لهم: (يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثلما أصاب قريشاً)، وبالطبع هو لا يكرههم على الإسلام أو على الإيمان، ولكن يقول لهم إن قريشاً لما ظهرت على أمر الله عز وجل أذلها الله عز وجل، وهذا له بوادر وظواهر عند اليهود، فهم يخالفون بصورة مستمرة ويسيئون الأدب مع الأنبياء ومع رب العالمين سبحانه وتعالى، لكن رد فعل بني قينقاع كان عنيفاً جداً، قالوا: (يا محمد -ﷺ- لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لن تلقى مثلنا). هذا إعلان صريح من اليهود وتهديد واضح من اليهود بالحرب على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، وقد عرفنا المعاهدة التي بها كف الحرب بين الطائفتين، بل وتجعل واجباً على اليهود أن يناصروا المسلمين في حربهم ضد من يغزو المدينة المنورة سواء من قريش أو من غيرها، لكن الآن بدأ انشقاق كبير داخل المدينة المنورة، وأعلنوا استعدادهم لحرب الرسول ﷺ وهددوه وتوعدوه؛ ضعوا كل هذا بجانب؛ الذكريات القديمة لليهود في خلال السنتين الماضيتين من التكذيب المستمر والادعاء بالباطل على المسلمين وعلى آيات الله عز وجل وعلى الحبيب ﷺ.

عندما قابل كان اليهود النبي ﷺ بهذا الكلام، أنزل الله عز وجل آيات بينات توضح العلاقة بين اليهود والمسلمين في مرحلة قادمة، وهي آيات أنزلت في يهود بني قُينقاع، قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران:12]، ويخبر الله بني قينقاع أن يتعظوا بما حدث في لقريش: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي

الأَبْصَارِ} [آل عمران:13]، لكن كانت بصائر اليهود مطموسة تماماً، فلم يفقهوا هذه الآيات ولم يهتموا بها.

هذا هو الموقف الذي كان بين اليهود وبين المسلمين، ولم يقف الموقف إلى هنا، بل إنه تصاعد أكثره، فقد حدث أن امرأة من المسلمين قدمت إلى سوق بني قينقاع، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود تبيع وتشتري منه، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، أي: يحاولون أن يقنعوها بأن تكشف وجهها، فرفضت المرأة ذلك، فأتى أحد اليهود من ورائها وربط طرف ثوبها في رأسها دون أن تنتبه، فعندما وقفت انكشفت سوءتها فصرخت، فجاء مسلم وقتل اليهودي الذي فعل ذلك، فاجتمع يهود بني قينقاع على المسلم وقتلوه، فكانت بوادر أزمة ضخمة جداً في داخل المدينة المنورة؛ حيث إن قبيلة بني قينقاع اجتمعت على قتل المسلم بعد أن قامت بجريمة كشف عورة المرأة المسلمة، ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ، فبمجرد أن وصل إليه الأمر جمع الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وجهز الجيش وانطلق مباشرة إلى حصون بني قينقاع، وحاصر يهود بني قينقاع فيها، وأصر ﷺ على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره.

هكذا حرك الرسول ﷺ هذا الجيش بأكمله من أجل كشف عورة امرأة مسلمة واحدة، وإنه ليحز في نفس الإنسان الآن أن يرى عورات المسلمات تكشف في أماكن كثيرة من العالم، بل وتنتهك الحرمات إلى درجة القتل والاعتداء على المرأة، وإلى درجة أمور يستحي الإنسان من ذكرها، تحصل كل هذه الأشياء ولا تتحرك جيوش المسلمين. حرك الرسول ﷺ حرك جيشاً كاملاً من أجل كشف عورة امرأة مسلمة واحدة، هذه هي عزة الدولة الإسلامية وكرامتها، فإنه حصل نوع من الامتهان لهذه الكرامة بهذه العملية الفاجرة من اليهود، وأخذ الرسول ﷺ أخذ الموضوع بمنتهى الجدية، وانطلق بجيشه إلى حصار بني قينقاع مع احتمال سقوط دماء كثيرة نتيجة القتال بينه وبين بني قينقاع، وتعرفون أن بني قينقاع من أصحاب السلاح والقلاع

والحصون والبأس الشديد في الحرب، لكن مع هذا كله رأى رسول الله ﷺ أن كل ذلك هو ثمن بسيط جداً جداً أمام حفظ كرامة الدولة الإسلامية.

بالفعل بدأ الحصار يوم السبت في نصف شوال سنة 2 هجرية، يعني: بعد غزوة بدر بأقل من شهر، وحاصر النبي ﷺ بني قينقاع أسبوعين بالتمام، حتى ظهر هلال ذي القعدة، وقذف الله عز وجل الرعب في قلوب اليهود فنزلوا على حكم الرسول ﷺ، وكان حكم الرسول ﷺ فيهم قتلهم لهذه المخالفة الشنيعة التي فعلوها، وليس فقط لكشف وجه المرأة المسلمة ولا لقتل المسلم، بل لتراكمات طويلة جداً، فإن اليهود في مخالفات مستمرة منذ أن دخل النبي ﷺ المدينة، وفي سب علني لله ولرسوله الكريم ﷺ، وسب للصحابة، وإثارة للفتن بين المسلمين، فكان لابد أن تكون هناك وقفة من الرسول ﷺ.

إن هذا يعرفنا على واقعية المنهج الإسلامي، فالرسول ﷺ رأى في هذه اللحظة أن قوة المسلمين تسمح بردع قوة اليهود، فقام ﷺ بحصار اليهود وقتالهم، ولو قارنا هذا الموقف مع موقف سابق مر بنا في فترة مكة، وهو قتل سمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم أجمعين، فإنه عندما قتلت سمية اكتفى رسول الله ﷺ بأن قال: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، ولم يحرك مجموعة الشباب المسلم الموجود في فترة مكة لقتال أبي جهل ؛ لأنه يعرف أن القوة الإسلامية لا تسمح بهذا الأمر في ذلك الوقت؛ من أجل ذلك لم يقم الرسول ﷺ بهذا الإجراء في فترة مكة، لكن الآن قد أذن بالقتال، بل فرض على المسلمين، وقوة المسلمين تسمح، فاختار الرسول ﷺ هذا القرار. فإذا أردنا أن نتأسى به ﷺ في علاقتنا مع المشركين أو مع اليهود أو مع أعداء الأمة بصفة عامة، علينا أن ندرس جيداً الظرف الذي أخذ فيه ﷺ القرار أياً كان هذا القرار.

نزل اليهود على حكم الرسول ﷺ وخرجوا من حصونهم، والقرار كان قتل بني قينقاع، هنا جاء وكان عبد الله بن أبي ابن سلول قد أسلم منذ أيام قليلة، أي: لم يمض على إسلامه شهر،

وكان حليفاً لبني قينقاع، فطلب من رسول الله ﷺ أن يحسن في مواليه في بني قينقاع، فرفض الرسول ﷺ؛ لأن هذه جريمة عسكرية كبرى وفتنة كبيرة تحدث في المدينة، والرسول ﷺ قد أخذ القرار، فكرر ابن أبي الطلب مرة وثانية وثالثة، ثم أدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ الذي لبسه أثناء الحرب، فقال له رسول الله ﷺ: (أرسلني)، وغضب ﷺ غضباً شديداً وقال له: (ويحك أرسلني)، لكن المنافق عبد الله بن أبي أصر على إمساك الرسول ﷺ، وقال: (لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر). هكذا قال بمنتهى التصريح.

عبد الله بن أبي كان حليفاً لبني قينقاع، وبنو قينقاع فيهم جيش قوامه 700 رجل، 400 حاسر و300 دارع، أي: 400 من غير دروع، و300 عليهم دروع الحرب، هؤلاء السبعمائة قد منعوا عبد الله بن أبي -كما يقول هو- من الأحمر والأسود، فهي القوة العسكرية الرئيسية المساعدة لعبد الله بن أبي زعيم الخزرج قبل أن يأتي الرسول ﷺ، فقد كانوا يمنعونه من الأحمر والأسود أي: من كل الناس، والرسول ﷺ قرر أن يقتلهم جميعاً في لحظة واحدة، لكن ابن أبي يقول: إني والله امرؤ أخشى الدوائر، أي: تدور الدوائر بعد ذلك على المدينة فلن ألقى شخصاً يحميني، قال ذلك ولم يفكر في الرسول ﷺ، ولم يفكر في الجيش الإسلامي، ولم يفكر في انتمائه، بل إن كل تفكيره كان في عقائده الجاهلية التي كان عليها، فعلاقته باليهود كانت أشد توثيقاً من علاقته برسول الله ﷺ، ومع ذلك كان الرسول ﷺ يعذره؛ لأن إسلامه لم يزل حديثاً، وكان يؤمل كثيراً في إسلامه خاصة أن وراءه مجموعة كبيرة من الناس، فعامله ﷺ بالحسنى في هذا الموقف، وقبل منه أن يفتدي هؤلاء، ولكن اشترط عليه أن يتركوا المدينة المنورة بأكملها، فقبل اليهود بذلك، وخرجوا من المدينة المنورة إلى منطقة تسمى أذرعات بالشام، ويقال: إنهم قد هلكوا بعد فترة وجيزة هناك، وبهذا انتهت قصة بني قينقاع من المدينة المنورة.

بعض ملامح غزوة بني قينقاع

ظهر لنا في قصة بني قينقاع بعض الملامح. أولاً: الرسول ﷺ لم يستطع أن يقف هذه الوقفة الجادة القوية مع اليهود إلا بعد أن اطمأن على قوة الجيش والاقتصاد والدولة الإسلامية، بحيث إن السوق الإسلامي أصبح قوياً وموجوداً وله حضور في المدينة المنورة، وتعلمون أن كل التجارة كانت في سوق بني قينقاع، فإذا كانت التجارة معتمدة اعتماداً كاملاً على بني قينقاع، وبعد ذلك خرجوا إلى الشام، فكيف سيكون الحال داخل المدينة المنورة؟ لذلك فإن الرسول ﷺ أمن نفسه من هذا الأمر من أول يوم نزل فيه المدينة المنورة، وعمل السوق الإسلامي، وصار الماء ملكاً للمسلمين بعد أن كان ملكاً لليهود، وقد تكلمنا على بئر رومة قبل ذلك في الدروس الماضية من العهد المدني.

إن الجيش المسلم جيش معتمد على أفراده تماماً لا يعتمد على معونات خارجة عن المدينة المنورة، بل يعتمد على المهاجرين والأنصار، ليس مثل عبد الله بن أبي الذي يعتمد على اليهود في حمايته، وهذا الوضع شجع الرسول ﷺ على أن يأخذ قرار الحرب بسهولة.

الرد السريع على بني قينقاع وعدم التساهل فيما فعلوه مع المرأة المسلمة

الملمح الثاني مهم لنقف عليه في غزوة بني قينقاع: أن الرسول ﷺ لم ير التساهل مطلقاً مع اليهود بعد هذا الموقف الذي فعلوه مع المرأة المسلمة ومع الرجل المسلم الذي قتل؛ لأن فعلهم كان مخالفة صريحة للمعاهدة التي بينه وبينهم، ولو سكت ﷺ على مخالفة اليهود للمعاهدة مرة ثانية وثالثة وأكثر من ذلك -لزاد اليهود من تطاولهم، وبالتالي يبدءون الدخول في مرحلة ثانية من الاستهزاء بالدولة الإسلامية وبكرامتها، وعندما يكون هناك تساهل بالأمر الجديد سيعملون أشياء أخرى أكثر وأكثر، وحدود اليهود ليست لها نهاية.

ورأينا هذا الفعل منِ اليهود سواء في السابق أو في اللاحق، وسنظل نـراه مـن اليهـود إلى يـوم القيامة؛ لأن هذه طبيعة مـن طبـائع اليهـود. ففـي العصرـ الحـديث خـالف اليهـود القـوانين الإسلامية، وبدءوا بالهجرة إلى فلسطين وكانت الهجرة إلى فلسـطين ممنوعـة علـيهم، وسـكت المسلمون، وبعد ذلك تملك اليهود الاقتصاد الفلسطيني في داخـل فلسـطين بكاملهـا، كـذلك المسلمون لم يحركوا ساكناً، واستقدم اليهود السلاح الخفيف في داخل فلسطين، كذلك سـكت المسلمون عن ذلك، واسـتقدم اليهـود السـلاح الثقيـل في داخـل فلسـطين، وكـذلك سـكت المسلمون عن ذلك، ثم جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والمسلمين، وكذلك السكوت هو السائد، فقامت إسرائيل سنة 1948 ثم قامـت حـرب سـنة 1956، ثـم قامـت الحرب سنة 1967، ثم أشعلت حرب سنة 1982 ضد لبنان وهكذا كلما نسكت يأخذ اليهـود منطقة أكبر، كنا نطالب بالعودة إلى حدود التقسـيم، وبعـد ذلـك نطالـب بـالعودة إلى حـدود 1967، وبعد ذلـك نطالـب بـالعودة إلى حـدود الانتفاضـة، والآن اليهـود يعملـون الجـدار، وسنطالب بالعودة إلى حدود الجدار، وهكـذا تسـاهل وراء تسـاهل وراء تسـاهل، حتـى أدي للذي نراه الآن. لذلك تجنب الرسول ﷺ كل هذه المأساة، وأخذ قراراً حاسماً وسريعاً بحصـار بني قينقاع، وعقابهم بالطريقة التي شرعت في المعاهدة التي بينه وبينهم قبل ذلك بسنتين. هـذا هو الوضع الحاسم الذي علمنا إياه الرسول ﷺ.

قوة العلاقة بين اليهود والمنافقين

الملمح الثالث من ملامح غزوة بني قينقاع: قوة العلاقة بين اليهود وبين المنافقين من المسلمين، المنافقون أسماؤهم إسلامية وصفاتهم إسلامية وشكلهم إسلامي، لكن يتعـاملون مـع اليهـود بمنتهى الحمية والقوة؛ لأنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، واستغل اليهود هذه العلاقة في أيام الرسول صلى ﷺ، واستغلوها بعد وفاة الرسـول ﷺ وإلى زماننـا الآن وإلى يـوم القيامـة،

فالعلاقة وطيدة وأكيدة بين اليهود والمنافقين، وقد ذكر الله عز وجل ذلك في كتابه بتعبير غريب وواضح جداً، قال سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} [الحشر:11] إلى آخر الآيات، فجعل الله عز وجل المنافقين إخواناً للذين كفروا من أهل الكتاب، فهذا الأمر واضح جداً في كتاب رب العالمين سبحانه وتعالى، وواضح من خطوات السيرة النبوية كما ترون. هذا هو موقف الرسول ﷺ من بني قينقاع.

أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف

شبيه بهذا الموقف في هذه الفترة أيضاً ما فعله ﷺ مع رجل من يهود بني النضير، كان هذا الرجل يقود حرباً ضروساً ضد المسلمين، ليس كل القبيلة يقودون هذه الحرب، وإنما هو واحد منها كان اسمه كعب بن الأشرف، وهو من قادة بني النضير وزعمائها، هذا الرجل كان يصرح بسب الله عز وجل وبسب رسوله الكريم وكان شاعراً مجيداً ينشد الأشعار في هجاء الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ولم يكتف بذلك الأمر، ولكنه ذهب ليؤلب القبائل على الدولة الإسلامية، ولم يكتف بهذا الأمر، بل ذهب إلى مكة المكرمة، وألّب قريشاً على المسلمين، وبدأ يتذاكر معهم قتلى المشركين في بدر، بل إنه فعل ما هو أشد من ذلك وأنكى، وتعلمون أنه من اليهود وهو يعلم أن الرسول ﷺ رسول من عند رب العالمين؛ سأله القرشيون وهم يعبدون الأصنام، قالوا: (أديننا أحب إليك، أم دين محمد وأصحابه، وأي الفريقين أهدى سبيلاً؟) فقال الكافر: (أنتم أهدى منهم سبيلاً)، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} [النساء:51].

هذا الكلام شجع قريشاً على الحرب، ولم يكتف كعب بذلك، بل زاد على ذلك أموراً تخرج عن فطرة العرب وأدبهم بصفة عامة، سواء كانوا في الإسلام أو في الجاهلية، بدأ يتحدث بالفاحشة في أشعاره عن نساء الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. كعب بن الأشرف ارتكب عدة جرائم ضخمة، سب الله عز وجل، وسب رسوله الكريم ﷺ، وهجى الصحابة، وهجى الصحابيات بأفحش الكلام، وحرض قريشاً على الانتقام لقتلاها في بدر، وكل هذا مخالفة صريحة للمعاهدة بينهم وبين الرسول ﷺ؛ لأنه كان في المعاهدة: ألا تُجار قريش ولا تنصر على المسلمين، فكل هذه الأشياء جعلت الرسول يأخذ قراراً في منتهى الحسم بقتل كعب بن الأشرف، فقال ﷺ: (من لـ كعب بن الأشرف؛ فإنه آذى الله ورسوله)، فقام محمد بن مسلمة وعباد بن بشر وأبو نائلة والحارث بن أوس ومجموعة من الأوس رضي الله عنهم أجمعين، وقرروا القيام بهذا الأمر، وبالفعل خرجت هذه السرية وذهبت إلى كعب بن الأشرف وبطريقة فيها تفصيل لا يسمح المجال بذكره هنا، استطاعوا أن يستخرجوا كعب بن الأشرف بحيلة من داخل حصنه، وقاموا بقتله كما أمر الرسول ﷺ، وبذلك تخلصت الدولة الإسلامية من أحد ألد أعدائها كعب بن الأشرف.

تعليقات على موقف النبي ﷺ من يهود بني قينقاع وقتل كعب بن الأشرف

هناك تعليقان على هذا الموقف:

التعليق الأول: أن الرسول ﷺ قتل كعب بن الأشرف وحده دون قبيلته، بينما أخرج قبيلة بني قينقاع بكاملها عندما خالفت، فالفرق بين الموقفين: أن قبيلة بني قينقاع أولاً كانت تجاهر بالعداء كقبيلة، والموقف بعد بدر كان واضحاً، وصراعها مع الرسول ﷺ كان معلناً، بينما قبيلة بني النضير لم تجاهر بهذا العداء إلى هذه اللحظة، بل بعد قتل كعب بن الأشرف جاءت إلى الرسول ﷺ تقر العهد وتطيل المدة. الفرق بين القبيلتين: أن قبيلة بني قينقاع كانت معادية

كقبيلة كاملة، والأخرى أحد أفراد القبيلة هو الذي كان يعادي، والسيئة عند الرسول ﷺ لا تعم.

التعليق الثاني على موقف بني قينقاع وموقف كعب بن الأشرف: هو وضوح مدى الانحراف الجنسي عند اليهود، ومدى إثارة الغرائز واستخدام ذلك للإفساد في الأرض، ففي قصة المرأة المسلمة حاولوا أولاً كشف وجهها، ثم بعد ذلك كشفوا عورتها، وفي قصة كعب بن الأشرف أخذ يتحدث عن نساء الصحابة رضي الله عنهن أجمعين بالفاحشة، وبكلام لا يستقيم أبداً لإنسان صاحب فطرة سليمة. هذه كانت طريقة من طرق اليهود، كانوا يستخدموها في عهد النبي ﷺ، وقبل عهده وبعد موته، فقد فشا فيهم الزنا حتى قال ﷺ: (أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) وهذا ينشأ عامة في تاريخهم، وإلى الآن معظم وسائل الإعلام والسينما والمواقع الإباحية والبرامج والأفلام الجنسية تمت بصلة كبيرة إلى اليهود، فأكثر من 50٪ من وسائل الإعلام يملكها اليهود، وأكثر من 80 أو 90٪ من الإعلانات التي تقدم خلال هذه الوسائل من برامج وأفلام وغيرها تقوم في الأساس على إثارة الغرائز الجنسية وعلى النساء، ولابد أن ينتبه المسلمون لهذه النقطة.

بعد موقف النبي ﷺ من بني قينقاع ومن كعب بن الأشرف استقر الوضع داخل المدينة المنورة نسبياً، وأصبح الرسول ﷺ وأصحابه قوةً كبيرة جداً داخل المدينة المنورة، وأعلن معظم الناس الإسلام في المدينة، نعم؛ منهم منافقون، لكن الذي يحكم المدينة المنورة حكماً تاماً كاملاً هو الرسول ﷺ؛ لذلك خاف اليهود من المسلمين بعد الموقف الحاسم الذي حصل مع بني قينقاع، وبدأ بنو النضير وبنو قريظة يتربصون بالمسلمين.

24

الطريق إلى أحد

إن موقف قريش كان موقفاً سيئاً جداً، فهي تعاني من أزمة اقتصادية ضخمة، وذلك بقطع طرق التجارة عن الشام، كذلك تعاني من أزمة سياسية ضخمة، وذلك بإهانة كرامتها وضياع هيبتها في الجزيرة العربية بعد الهزيمة المرة على يد المسلمين، خاصة أن الكفار كانوا أضعاف الجيش الإسلامي، كذلك تعاني من أزمة اجتماعية، وذلك بقتل سبعين من أشرافها، وكل واحد من عائلات هؤلاء الأشراف يريد أن يأخذ الثأر لأبيه أو لعمه أو لخاله أو كذا من أقاربه، كذلك تعاني من أزمة دينية؛ لأن الله عز وجل أخبر أن الحرب مستمرة بين الكفار والمسلمين، ما دام المسلمون على دينهم. قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:36]، هذا هدف واضح عندهم، والرسول ﷺ ينشر الإسلام في المدينة وما حولها، وبالتالي يرفع من درجة الفوران والغليان في داخل مكة المكرمة.

فيا ترى ماذا سيعملون؟ لنرى الآن ماذا سيفعل القرشيون مع رسول الله ﷺ ومع المؤمنين في المدينة المنورة.

المقدمات الإعدادية لفريق الباطل

قلنا قبل ذلك: إن الكفار أوقفوا التصرف في قافلة أبي سفيان التي نجت من بدر؛ وذلك لتجهيز جيش ليحارب المسلمين، هذه القافلة كانت تقدر قيمتها بخمسين ألف دينار ذهبي، فهي كمية هائلة من الأموال، ومع ذلك كل هذه الأموال أنفقت للصد عن سبيل الله، وبدأت قريش تجهز الجيش من داخل مكة، بل بدأت تستنفر القبائل المحيطة المساعدة والمعاونة لها، وكونت بالفعل جيشاً كبيراً قوامه 3000 مقاتل، وأخرجت كل زعماء مكة على رأس الجيش المكي، وعلى رأس كل هؤلاء أبو سفيان، وأكبر المساعدين له في هذه الموقعة هو صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد، هذه هي القوة البشرية التي جهزوها.

أما قوة السلاح فجهزوا 3000 بعير و 200 فرس، و 700درع، وخرج مع الجيش 15 امرأة من نساء قريش، تتقدمهم سيدة مكة الأولى في ذلك الوقت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، وكذلك زوجات القادة العظام الكبار في جيش مكة، زوجة صفوان بن أمية، وزوجة عكرمة بن أبي جهل، وزوجة الحارث بن هشام، وفوق كل هذا حرب إعلامية ضخمة في الجزيرة العربية بكاملها تحفز الناس على حرب المسلمين، وقاد هذه الحملة أبو عزة الجمحي، الأسير الذي أسره ﷺ في غزوة بدر وأطلقه مناً بغير فداء، وأخذ عليه عهداً ألا يشارك ولا يحفز المشركين على حرب المسلمين، فهاهو الآن يخالف العهد ويحفز العرب بكاملهم على حرب المسلمين، وهذا سيكون له مردود في غزوة أحد كما سنرى إن شاء الله.

القيادة العامة للجيش لـ أبي سفيان، وقائدا سلاح الفرسان خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، وكان اللواء مع بني عبد الدار. هذا هو إعداد جيش مكة، ومع أن هذا الإعداد إعداد كبير جداً، إلا أن هذه الموقعة أسهل على المسلمين من موقعة بدر للأسباب التالية:

أولاً: فقدت قريش معظم قادتها، فهذا الجيش يخلو من أسماء ضخمة في تاريخ مكة، فليس هناك الوليد بن المغيرة ولا أبو جهل ولا عقبة بن أبي معيط ولا النضر بن الحارث ولا أمية بن خلف، وقتلى بدر من المشركين كثير جداً.

ثانياً: المسلمون يعلمون بأمر الحرب ويستعدون لها، حيث إن الخبر وصل من مكة إلى المدينة المنورة مباشرة، وعند الرسول ﷺ وقت للإعداد، فسيخرج بعدة المقاتل لا بعدة المسافر.

ثالثاً: الحرب ستكون في المدينة أو بجانب المدينة المنورة، فعلى على المشركين أن يسيروا مسافة خمسمائة كيلو متر إلى المدينة المنورة حتى يدخلوا في المعركة، فهو مشوار طويل جداً في الصحراء، والجيش قوامه 3000 مقاتل، فقد تكون هناك مشقة على الجيش، بينما سيخرج المسلمون من المدينة المنورة إلى أحد أو إلى ما حولها حسب اختيار المكان، والمسافة التي سيقطعونها 5 كيلو أو 10 كيلو أو 20 كيلو من المدينة المنورة، فالوضع بالنسبة للمسلمين أقل مشقة.

رابعاً: الحالة المعنوية؛ فمعنويات المسلمين مرتفعة، بينما معنويات الكفار في الحضيض، فقد كانوا مغلوبين في بدر، ومروا بأكثر من أزمة خلال السنة الماضية، وآخر الأزمات كانت أزمة سرية زيد بن حارثة، ففي هذه السرية أخذت القافلة من صفوان بن أمية، وكان فيها بضاعة تقدر بمائة ألف دينار، فكانت ضربة قاسية جداً لقريش، خاصة أن القافلة كانت تسير على مسافة بعيدة جداً من المدينة المنورة، مما يثبت لنا الكفاءة العسكرية والمخابراتية للقوة الإسلامية في المدينة المنورة، فكل هذا يضعف جداً من نفسية الجيش المكي، وكل هذا يبين أن جيش المسلمين له علو وقوة وبأس، مع أن عدد الجيش الإسلامي أقل من عدد الجيش المكي، لكن عوامل نصره كانت كثيرة.

المقدمات الإعدادية لفريق الحق

علم الرسول ﷺ أن جيش مكة يستعد للخروج، فاجمع الصحابة للشورى، ولو راجعنا صفات الجيش المنتصر لوجدنا أن كل الصفات العشر تتكرر ثانياً في الجيش الذي خرج من المدينة إلى أحد، لكن سيحصل اختلاف في نقطة أو نقطتين، لكن إلى الآن الجيش الإسلامي يسير تماماً كما كان جيش بدر يسير، فمن العوامل التي تحققت في الجيش المسلم:

أولاً: الشورى. جمعهم الرسول ﷺ ليتشاوروا جميعاً، فأول شيء قرروه قبل التفكير في أي طريقة للقتال أن يؤمنوا المدينة المنورة، فقاموا بتشكيل فرقة لحماية الرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ مستهدف، وقد يحصل أي جريمة لاغتياله ﷺ، وهذا سيؤثر على المدينة المنورة، وكان على رأس هذه الفرقة كبار الأوس والخزرج: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، وهي من أقوى الفرق الإسلامية، وبدأت تحوط بيت الرسول ﷺ والمسجد النبوي، وتسير معه في كل مكان.

ثانياً: وضعوا فرقاً لحماية مداخل المدينة المنورة، حتى لا يباغت المسلمون ليلاً أو نهاراً.

ثالثاً: وضعوا دوريات مراقبة حول المدينة المنورة لاستطلاع مكان الجيش المشرك وخطواته وتحركاته.

رابعاً: جميع المسلمين في المدينة المنورة من الأوس والخزرج والمهاجرين كانوا لا يتحركون إلا بالسلاح حتى في أثناء الصلاة، فقد كان السلاح ملازماً لهم باستمرار، وهذا يوضح لنا صفة مهمة جداً من صفات الجيش المنتصر، وهي صفة الإعداد الجيد: مخابرات قوية أتت بالأخبار، حصار، حماية قوية للرسول ﷺ، وحماية قوية للمدينة، واستعداد كامل للقتال.

ثم فكروا في الموقف الذي يقومون به: هل يخرجون خارج المدينـة أو يمكثـون بـداخلها؟ أيـن يحاربون؟ يختارون أرض القتال هم أم يختارها العدو؟ وقبـل أن يختـاروا القـرار قـص علـيهم الرسول ﷺ رؤيا. قال لهم: (إني قد رأيت والله خيراً، ثم قـال: رأيـت بقـراً تُـذبح، ورأيـت في ذباب سيفي ثُلَماً -خدشاً أو كسراً- ثم قال: ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة).

رأى الرسول ﷺ ثلاثة أشياء.

أولاً: رأى أن بقراً تذبح، وأول ذلك ﷺ بأن نفراً من أصحابه يقتلون، وأول الخدش أو الكسر الذي في سيفه بأن رجلاً من أهل بيته يُقتل، وأول إدخال يده في درع حصـينة بالمدينـة المنـورة، أي: أنه يقاتل في المدينة المنورة، لكنه ذكر هذه الرؤيا ليس على أنها قـرار يُمـلى عـلى المسـلمين، ولكن في صورة رأي يستأنس به؛ لأنه لو كان وحياً مـا جـاز لـه أن يستشـير الصـحابة في هـذا الأمر، لكنه يرى أن الأمر متروك للشورى ورأي المسلمين، فكان رأيه ﷺ أن يقاتل في المدينـة، بل صرح بعد ذلك بهذا الرأي وقال: (يقاتل المسلمون عـلى أفـواه الأزقـة والنسـاء مـن فـوق البيت)، يعني: لو بقي ﷺ وجيشه في المدينة المنورة فإن جيش مكة سيضطر إلى دخـول المدينـة المنورة، وستكون الحرب حرب شوارع، والحرب التي تكون من هذا النوع تكون صـعبة جـداً على الجيش المهاجم للبلد. لكن معظم المسلمين كان لهم رأي آخر، خاصة الذين لم يشـتركوا في موقعة بدر، كانوا يودون الخروج إلى قتال المشركين خارج المدينة المنورة، حتى قال قائلهم: (يـا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخـرج إلى أعـدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم)، وكان من أشد المتحمسين للخروج حمزة بن عبـد المطلـب رضي الله عنـه وأرضاه، حتى إنه قال كلمة عجيبة للرسول ﷺ، قال: (والذي أنزل عليـك الكتـاب لا أطعـم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة)، فـانظروا إلى هـذه العزيمـة، وانظـروا إلى القناعـة برأي الخروج.

كان معظم الصحابة على هذا الرأي، ولم يكن على رأي رسـول الله ﷺ إلا القليـل، وكـان مـن هؤلاء عبد الله بن أبي ابن سلول، وكما تعملون أن عبد الله هو زعيم المنافقين، ولم يكـن موافقـاً على رأي الرسول ﷺ ومقتنعاً به، وإنما ليسهل عليه الفرار إلى داخل المدينة المنورة، فكل مـنهم سيقاتل على رأس شارع أو من داخل بيت، وسيكون هناك سهولة للفـرار مـن الموقعـة، لكـن الرسول ﷺ نزل على رأي الشورى حتى وإن كان مخالفاً لرأيه، حتى وإن كان يتـأول في رؤيـاه أن نفراً من أصحابه سيقتل، وأن واحداً من أهل بيته سيصاب، وأنه من الأفضـل أن يقاتـل في داخل المدينة، لكنه عندما رأى أن ذلك ليس وحياً من رب العالمين سبحانه وتعالى نزل عن رأيه لصالح رأي الأغلبية، وقرر الخروج من المدينة المنورة لقتال المشركين.

صلى الرسول ﷺ بالصحابة يـوم الجمعـة، ووعظهـم وأمـرهم بالجـد والاجتهـاد، وبشرـهم بالنصر إن هم صبروا وإن هم ساروا على نهج الله عز وجل وعلى أمر نبيه ، وبالفعل فرح الناس بالخروج وتجهزوا بنشاط، وبعد أن صلى الرسول ﷺ العصر في يوم الجمعة في ستة من شـوال، حشد أهل العوالي وحشد المدينة المنورة، وجمع الأصحاب رضي الله عنهم وأرضـاهم أجمعـين، وبدأ يستعد شخصياً للخروج للقتال، فأخذ معه أبا بكر وعمـر رضي الله عـنهما ودخـل بيتـه، ليجهزاه بعدة الحرب، ولبس العدة الكاملة، لبس درعين وأخذ سيفه وخرج من بيته، وقبل أن يخرج من بيته اجتمع الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم مع المهاجرين، وقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير :(استكرهتم رسول الله على الخروج فردوا الأمـر إليـه)، فـأحس الصـحابة أنهم برأيهم هذا قد خالفوا رأي رسول الله ، والرسول وإن كان قـد سـمح بالشـورى في هـذا الأمر إلا أنه هو الرسول ، ويعلم الجميع أن رأيه هـو الأحكـم والأعلـم والأفضـل، فاسـتحيا الصحابة أن يخالفوا الرسول ﷺ وخافوا من ذلك فقالوا: (نرد الأمر إليه مرة ثانية)، فلما خرج رسول الله وعليه عدة الحرب، قالوا له: (يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع مـا شـئت

إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل). لكن الرسول ﷺ قد اتخذ القرار وأعد العدة واتفق الصحابة على القتال، فقال لهم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته -لباس الحرب- أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه). ونستفيد من هذا فائدة عظيمة جداً وهي الحسم وعدم التردد، وهذه كما تذكرون صفة مهمة من صفات الجيش المنتصر، وقلنا: إن من صفات الجيش المنتصر التحفيز بالجنة، فقد حفز الرسول ﷺ المسلمين بالجنة في خطبة الجمعة، وفي خروجه لصلاة العصر، وعندما سمع الناس نداء الجهاد في سبيل الله خرجوا من كل مكان، وخرج كما تعلمون جميعاً حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه وأرضاه، مع أنه كان حديث عهد بعرس، فقد كانت ليلة الجمعة ليلة الدخول على زوجته، لكنه عندما سمع نداء الجهاد في سبيل الله خرج مباشرة دون تردد. الصحابة في معركة أحد خرجوا فعلاً لله عز وجل، وهذا كان في عموم الجيش المسلم، إلا طائفة المنافقين التي كانت في جيش الجيش المسلم، وسنرى أمرها الآن.

بدأ الرسول ﷺ يجهز جيشه، ويعد العدة ويصف الصفوف؛ حتى يخرج على تعبئة من المدينة المنورة، فجهز 1000 مقاتل من المدينة المنورة، وجعل على كتيبة المهاجرين مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه، وعلى كتيبة الأوس أسيد بن حضير رضي الله عنه، فهو الذي كان يريد الخروج بعد أن رجع الرسول ﷺ من غزوة بدر ولم يشترك فيها أسيد ، وقال: (يا رسول الله لو كنت أعلم أنك تلقى قتالاً لخرجت معك، فقال له : صدقت)، فهاهو اليوم جاء ليخرج ويحقق مراده في الجهاد في سبيل الله، وجعله الرسول ﷺ على رأس كتيبة الأوس، وجعل على رأس كتيبة الخزرج الحُباب بن المنذر الذي أثبت كفاءته في موقعة بدر. جهز رسول الله مائة درع، ولم يكن مع المسلمين في هذه الموقعة خيول، فلم يكن يملك أحدهم الخيول إلا القليل جداً، وبعض الروايات تذكر أنه كان مع المسلمين خمسون فرساً، لكن هذه الروايات غير صحيحة.

إن إعداد الرسول ﷺ للجيش الإسلامي في غزوة أحد كان بقدر المستطاع، فقد أعد لهم القـوة التي يستطيع ، بدايةً من المخابرات السليمة وحماية المدينة المنورة، وتجهيز العدة، وإعداد الأفراد وإعداد السلاح، وهكذا خرج بهذا الإعداد الجيد.

كذلك الرسول قيادة الكتائب التي خرجت في هذه الموقعة إلى عمالقة العسكريين الإسلاميين، مثل مصعب بن عمير وأسيد بن حضير وحباب بن المنـذر وغـيرهم مـن قـادة الصـحابة، ورد الأطفال الذين لا يستطيعون القتال في غزوة أحد، رد عبد الله بن عمر وقـد كـان رده أيضـاً في غزوة بدر، ورد زيد بن أرقم ورد زيد بن ثابت ، ورد أبا سـعيد الخـدري ورد أسـامة بـن زيـد رضي الله عنهم أجمعين؛ لأنهم كانوا جميعاً صغيري السن.

من هذا يتبين لنا صفة من صفات الجيش المنتصر، هو توسيد الأمر إلى أهله، وهذا الكـلام قـد تكلمنا عنه في بدر، والآن نلقاه بكامله منطبقاً على الجيش الذي خرج في أحد، وكما قلنا في بـدر رد الرسول أحد المشركين وقال: (لا أستعين بمشرـك) تكـررت كـذلك في غـزوة أحـد، فقـد جاءت كتيبة كاملة التسليح للاشتراك مع المسلمين للقتال في أحـد، فسـأل عنهـا رسـول الله ، فقالوا له: هذه كتيبة من اليهود من حلفـاء الخـزرج، يعنـي: كـانوا متحـالفين منـذ القـدم مـع الخزرج، يرغبون في المساهمة للقتال ضد المشرـكين، فقـال : (هـل أسـلموا؟ فقـالوا: لا، فـأبى وقال: لا أستعين بمشرك). جيش أحد محاكاة كاملة للجيش الإسلامي الذي خرج ببدر، ومن المفترض أن هذا الجيش يحقق نتائج مثل بدر، وسنرى فعلاً أن هذا الجـيش مـادام محافظـاً عـلى هذه الصفات فإنه يحقق نفس النتائج، وهذه سنة إلهية.

كذلك ملمح آخر مهم من ملامح الجيش المنتصـر رأينـاه في غـزوة أحـد، وهـو الاعـتماد عـلى الشباب، فجيش أحد هو جيش بدر بالإضافة إلى آخرين، وسأحكي لكم حكاية تريكم كيـف كان الشباب يشاركون في موقعة أحد.

أجاز الرسول ﷺ رافع بن خُدْيج رضي الله عنه وأرضاه لقدرته على الرماية، وهو ما زال طفلاً صغيراً لا يتجاوز عمره 13 أو 14 سنة، ولم يجز سَمُرَة بن جندب رضي الله عنه؛ لأنه كان صغيراً في السن، وليست له القدرة على الرماية حسب رؤيته ، فأجاز الأول ورفض الثاني، فجاء إليه سمرة وقال: (يا رسول! أنا أقوى من رافع أنا أصرعه)، بمعنى: أنني عندما أصارعه أغلبه، فأمرهما الرسول أن يتصارعا أمامه؛ ليختبر القدرات العسكرية والقتالية عندهما، فتصارعا فغلب سمرة رافعاً ، فأجازه الرسول .

تحقق في جيش أحد الإيمان بالله عز وجل، والإيمان برسوله الكريم ، والإيمان باليوم الآخر، والتحفيز على الجنة حب الموت في سبيل الله، والحسم وعدم التردد، والإعداد الجيد، وتوسيد الأمر إلى أهله، وقيمة الشباب والشورى والأخوة، كل شيء تقريباً في بدر كان موجوداً في أحد، وإذا كان الجيش بهذه الهيئة فإنه سينتصر بإذن الله، والرسول أخبرهم أنهم لو مكثوا على هذا المنهج سوف ينتصرون، وهذه بشرى من رب العالمين سبحانه وتعالى لكل من أخذ بهذه المبادئ.

خروج النبي بجيشه إلى أحد

خرج الجيش الإسلامي وأخذ الطريق في اتجاه أحد؛ لأنه علم أن الجيش المشرك عسكر عنده، وحاول الرسول ﷺ بقدر المستطاع أثناء السير أن يسير من وسط المزارع التي حول المدينة المنورة؛ حتى لا يكتشف من قبل الجيش المشرك، ووصل بالفعل إلى منطقة أحد، ومن بعد رأى الجيش المشرك، وعندما أصبحوا على مسافة قريبة من أرض المعركة حدث تمرد هائل في الجيش المسلم، فقد خرج عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، وقال: إنني لا أوافق على القتال في أرض أحد، إنني أرى أنه لن يحصل قتال، فسأعود إلى المدينة المنورة وليس بمفردي، وسآخذ معي كل من أتيت بهم، وكان تعداد الذين أتى بهم 300 مائة شخص، أي: 30٪ من الجيش!

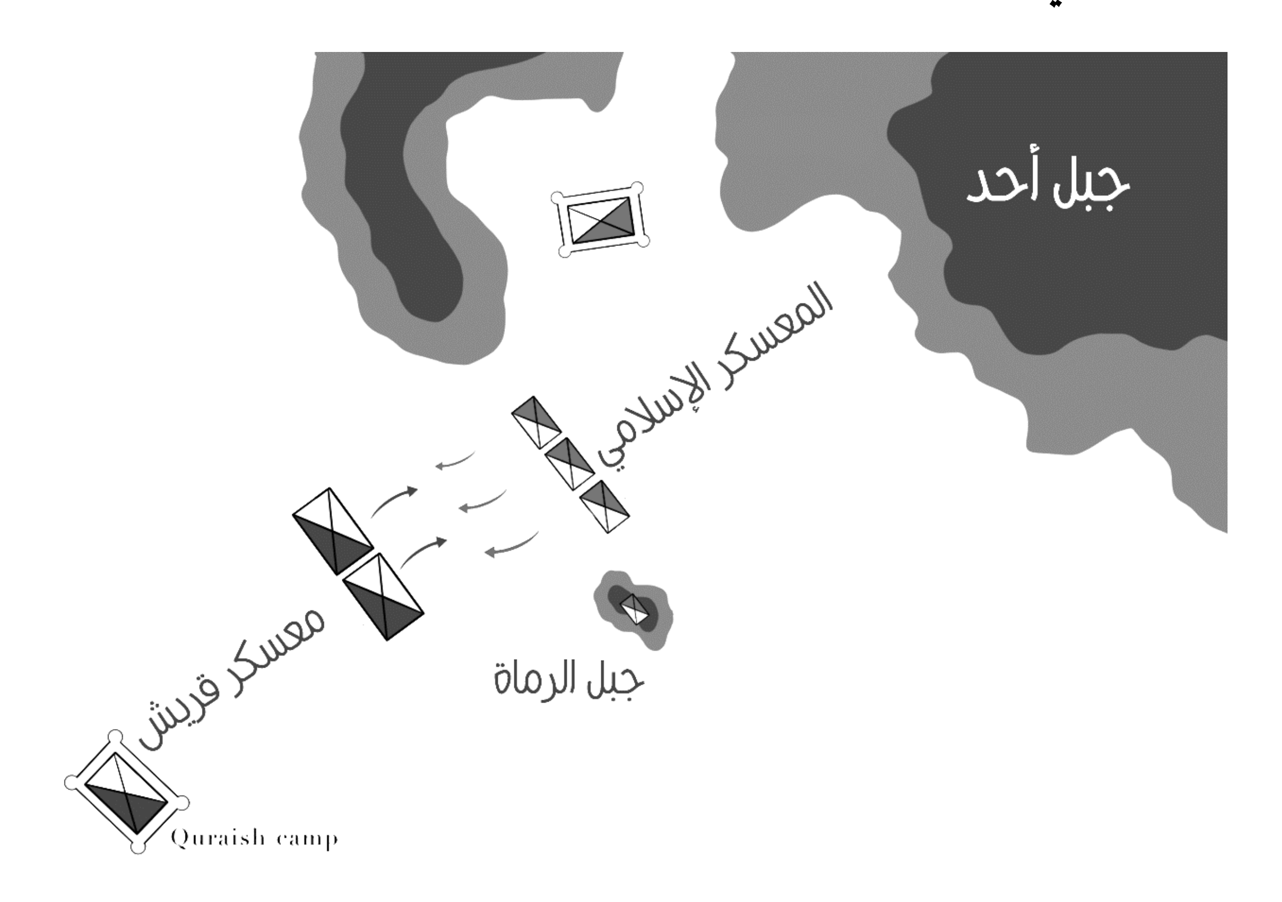
ومعلوم أن جيش الكفار 3000 أي جيش المسلمين أقل من جيش الكفار بكثير، ومع هذا كله ينسحب 300 شخص من أرض المعركة.

وقف عبد الله بن حرام رضي الله عنه وأرضاه أمام المنافقين وهم ينسحبون من أرض المعركة يقول لهم: (تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)، فقالوا: (لا نعلم أن هناك قتالاً)، فحاول معهم مرة أخرى وأخرى، لكنهم رفضوا، فقال لهم: (أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه)، ونزل قول الله عز وجل: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [آل عمران:167].

قد يظن الإنسان أن هذه خسارة كبيرة جداً للجيش الإسلامي، لكن بالعكس. قال الله عز وجل يصف حال المنافقين: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:47]، فوجود المنافقين في داخل الصف المسلم خطر كبير جداً، فإنه من الممكن جداً أن يكونوا عيناً على المسلمين، أو قد يدلون بآراء فاسدة في الجيش المسلم، بل قد يثيرون بعض الشبهات في داخل الجيش المسلم تجعل بعض المؤمنين الصادقين يترددون في أمر القتال، وهذا عين ما حدث في غزوة أحد، فإن الكلمات التي قالها عبد الله بن أبي قبيل الدخول في أرض المعركة بقليل أثرت في طائفتين من المسلمين الصادقين المؤمنين: بني حارثة من الأوس، وبني سلمة من الخزرج، قالوا: الأولى أن نعود ونقاتل في المدينة، فإن جيشنا قليل وجيشهم كثير، وفكروا جدياً في الرجوع، لولا أن الله عز وجل ثبتهم بصدق إيمانهم، فقد وقف الرسول ﷺ والصحابة، وأقنعوهم بالبقاء في أرض المعركة في أحد؛ حتى يكملوا اللقاء، وفي حقهم نزل قول الله عز وجل: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ

مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:122]، قال الله عز وجل: {وَاللهُ وَلِيُّهُمَا} [آل عمران:122]؛ لأنهم ثبتوا فعلاً في أرض القتال ولم يفروا.

وصول النبي وجيشه إلى أحد وتوجيهاته ﷺ لأفراد الجيش



دخل الرسول ﷺ أرض أحد، وبدأ ينظر إلى الأرض بنظرة عسكرية ثاقبة، وبدأ يحط معسكره في المكان المناسب، واختار مكاناً في منتهى العبقرية؛ اختار مكاناً يكون عن ظهره وعن يمينه جبل أحد، فتكون له حماية طبيعية من جبل أحد، وفي نفس الوقت كان جيش مكة في مكان منخفض نسبياً وهو في مكان مرتفع، وهذا يعطيه قدرة أكبر على القتال، واكتشف ﷺ في أرض القتال أن بجانبه جبل صغير عرف بعد ذلك في التاريخ بجبل الرماة، وهذا الجبل كان على شمال الجيش الإسلامي، ويعتبر ثغرة ضد مصلحة الجيش المسلم؛ لأنه لو استطاع الجيش الكافر أن يلف حول هذا الجبل لدخل على المسلمين من ورائهم، وسيكون الجيش الإسلامي محصوراً بين المشركين من الأمام ومن الخلف؛ ولكي يأمن الرسول ﷺ هذه النقطة الحساسة في

أرض التقال، انتخب من أصحابه خمسين رامياً ماهراً وضعهم على جبل الرماة، وأمرهم أن يصدوا عنهم هجمات الفرسان المشركين، هؤلاء الخمسون كان على رأسهم الصحابي الجليل عبد الله بن جبير الأوسي البدري رضي الله عنه وأرضاه، كان من أعظم الصحابة وأمهر الرماة فيهم، وذكر الرسول ﷺ بعض الأوامر والنصائح له وللفرقة التي معه، نريد أن نقف وقفة طويلة جداً مع أوامر الرسول ﷺ للفرقة التي كلفت بحماية هذا الجبل.

قال الرسول ﷺ لهم الأمر بطريقة فريدة، طريقة تجعل فهم هذا الأمر بصورة خاطئة يعتبر أمراً مستحيلاً، فتعالوا واسمعوا الكلام الذي قاله رسول الله ﷺ.

التوجيه الأول: خاطب الرسول ﷺ القائد عبد الله بن جبير أمام الرماة جميعاً.

قال له: (انضح عنا الخيل بالنبل)، هذه الجملة لوحدها تكفي المهمة في منتهى الوضوح، أي: مهمتك ومهمة الرماة أن تمنعوا خيول المشركين من الالتفاف حول الجيش الإسلامي، وليس المنع عن طريق القتال، ولكن عن طريق الرمي من أعلى الجبل، والنضح يعني: الرمي؛ لأن خيل المشركين لن تقابل بخيل من المسلمين، فالمسلمون ليس لهم خيول في موقعة أحد، ولن يستطيع الرماة بسيوفهم أن يقاتلوا هؤلاء المشركين الفرسان، فلابد أن يكون الصد عن طريق الرماية. هذا أمر في منتهى الوضوح وكان كافياً، لكن الرسول ﷺ لم يكتف به.

التوجيه الثاني: (لا يأتون من خلفنا) الواضح من الأمر الأول أن الغرض عدم الالتفاف حول الجيش الإسلامي، لكن كذلك يريد أن يوضح لهم الأمر على أتم وجه، فقال: (لا يأتون من خلفنا).

التوجيه الثالث: (إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك)، وكأن الرسول ﷺ يرى تماماً كل الـذي سيحصل بعد ذلك في أحد، وينبه الصحابة مرة ومرتين وثلاثاً وما زال في التنبيه: (إن كانت لنا -لو كسبنا- أو علينا -لو خسرنا- لا تتركوا الجبل).

الأمر الرابع: (لا نؤتين من قبلك)، يحرك فيه المشاعر، لا يخسـر كـل هـؤلاء المسـلمين الحـرب بسبب مجموعة الخمسين هذه، وكل هذا الكلام للقائد عبد الله بن جبير وكل الرمـاة يسـمعون هذا الكلام. ليس هذا فحسب، فالرسول ﷺ ترك عبد الله بن جبير وانتقل إلى مجموعة الرمـاة، وبدأ يخاطبهم بنفسه، وقال لهم كلاماً في منتهى العجـب، فالتوجيهـات الأربعـة الأولى كانـت موجهة لـ عبد الله بن جبير.

أما التوجيه الخامس: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتـى أرسـل إلـيكم) أي: حتى في حال الهزيمة المرة القاتلة التي سيقتل فيها جيش المسلمين بكاملـه وتنـزل الطيـور تنهش أجساد المسلمين لا تتحركوا مع كل ذلك، فانظر إلى عظم هذا الأمر سـبحان الله! الأمـر السادس: (وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إلـيكم)، أي: في حالـة النصر الساحق وفرار المشركين، واحتلال المسلمين لمعسكر الكافرين أيضاً لا تبرحوا مكانكم، أظن بعد ذلك إذا حصلت مخالفة فستكون مخالفة متعمدة، ولو حصلت مخالفـة متعمـدة لأمـر الرسول ﷺ لا تتوقع نصراً أبداً، وهذا الذي سوف نراه في موقعة أحد.

الرسول ﷺ وجه هذه التوجيهات المباشرة الواضحة الجليـة هـذه إلى فرقـة الرمـاة الخمسـين، ونزل ﷺ مرة أخرى إلى جيشه، وبدأ يحفز الناس على الجهاد في سبيل الله، ويذكرهم بالجنة، ثم يحفزهم على التنافس في أعمال الخير وأعمال الجهـاد وأعـمال القتـال، فجعـل بيـنهم نوعـاً مـن التنافس على شيء مهم جداً، أخذ ﷺ سيفاً بتاراً قوياً ورفعه بين الصحابة، وقـال: (مـن يأخـذ هذا السيف بحقه؟)، قال هذا الكلام في وسط مجموعة من المقـاتلين الأشـداء مـن المهـاجرين

والأنصار، فقام إليه أكثر من واحد، منهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب وغيرهم وغيرهم، أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه وأرضاه وهو من الأنصار، فقال: (وما حقه يا رسول الله؟! قال: أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني)، فقال سِماك بن خَرشة بمنتهى القوة: (أنا آخذه بحقه يا رسول الله)! وهكذا أعرض الرسول صلى الله عليه وسلم عن كل الذين تقدموا له قبل ذلك، وأعطى السيف أبا دجانة رضي الله عنه وأرضاه، أخذ أبو دجانة السيف وأخرج من جيبه عصابة حمراء وربطها على رأسه، فقال الأنصار: (لقد ربط أبو دجانة عصابة الموت)، كان يضع هذه العصابة الحمراء على رأسه عندما يطلب الموت، وبدأ يمشي متبختراً بين صفوف المسلمين والمشركين، فقال صلى الله عليه وسلم: (هذه مشية يكرهها الله ورسوله إلا في هذا الموطن)، ففي هذا الموطن يستحب أن نظهر العزة والقوة أمام الكفار، فالله عز وجل يحب هذه المشية في هذا الموطن، وسوف نرى إن شاء الله بعد ذلك ما الذي عمله أبو دجانة بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم.هذه هي حالة الجيش المسلم.

المحاولات المبذولة لإثارة حماس الجيش الكافر وتفكيك الصف المسلم في أحد

على الجانب الآخر كذلك كان هناك تحميس وتحفيز في الجيش الكافر، فقد بدأ أبو سفيان ترتيب جيشه، فوضع خالد بن الوليد على الميمنة، ووضع عكرمة على الميسرة، ووضع صفوان على المشاة، وهؤلاء يعتبرون من عمالقة الفرسان في الجيش المشرك، ووضع عبد الله بن ربيعة على رماة النبل، وأعطى اللواء لبني عبد الدار. ويذكر التاريخ أن بني عبد الدار كانوا دائماً يحملون اللواء قبل الإسلام وكذلك بعد الإسلام ففي بدر كانوا يحملون اللواء، وفي أحد كذلك كانوا يحملون اللواء، ففي غزوة أحد أراد أبو سفيان أن يستثير حماسة بني عبد الدار، فقال لهم كلاماً في منتهى القسوة حتى يخرج كل ما في نفوسهم.

قال لهم: (يا بني عبد الدار؛ قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم)، أي: أنتم كنتم مشاركين في الهزيمة، (فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه)، أي: إن لم تكونوا بقدر حمل هذا اللواء سلموه لي وأنا سوف أتصرف، وهكذا أثار حمية وغضب بني عبد الدار، وقالوا: (نحن نسلم إليك لواءنا! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع)، وسبحان الله! صدقوا في كلماتهم؛ فقد أبيدوا عن بكرة أبيهم حول اللواء في موقعة أحد كما سنبين إن شاء الله.

هذه كانت محاولة من أبي سفيان لاستثارة الهمة عند الجيش المشرك لحرب المسلمين، وليس هذا فحسب، بل إن النساء بدأن يحمسن جيش المشركين للحرب ضد المسلمين، وقفت هند بنت عتبة ومن معها من النساء يشجعن الجيش المشرك على القتال وينشدن الأشعار في ذلك، وهي أشعار كثيرة جداً ليس المجال أن نفصل فيها، لكن الشاهد أن كل هذه الأشعار كانت عبارة عن علاقات دنيوية أرضية مادية ليس إلا، بينما كان التحفيز على الجانب الآخر في جيش المسلمين بالجنة.وشتان!

حاول أبو سفيان تفكيك الصف المسلم، راسل الأنصار قال لهم: (خلوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم، لا حاجة لنا إلى قتالكم)، وكأنه يقول: نحن نريد محاربة القرشيين فقط، علاقتنا بكم أيها الأوس والخزرج! جيدة منذ القدم، لا نريد أن نقاتلكم، لكن هيهات! كيف لهذه الكلمات أن تقع في قلوب الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم وهم من أعظم الناس إيماناً، وقد رد الأنصار عليه رداً في منتهى العنف وأسمعوه ما يكره فعلاً.

واقتربت ساعة الصفر ودنا الجيشان من بعضهما البعض، قامت قريش بمحاولة أخرى لتفكيك الصف المسلم؛ خرج أبو عامر الفاسق الذي كفر برسول ﷺ، وسماه الرسول ﷺ أبا عامر الفاسق، وقد هرب إلى مكة، والآن خرج مع جيش مكة لمحاربة المسلمين في موقعة أحد،

فـ أبو عامر الراهب قرر أن يحاول تفتيت الصف المسلم، فخرج ونادى على قومه الأوس، قال: (يا معشر الأوس؛أنا أبو عامر) -يريد تذكيرهم بنفسه، وكان ابنه حنظلة بن أبي عامر في صـف المسلمين، لكن شتان بين الاثنين- فقال الأوس: (لا أنعم الله بك عيناً يـا فاسـق) سـبحان الله! قالوا ذلك مباشرة؛ لأنهم يعرفون قصـته ويعرفـون تاريخـه، فقـالوا لـه كلـمات بمنتهـى القـوة والبأس، فقال: (لقد أصاب قومي بعدي شراً)، يقصد أنهم تغيروا، وسنرى بعد ذلـك عنـدما يبدأ القتال أن أبا عامر الفاسق سيقاتل قتالاً شديداً في صف الكفار ضـد المسـلمين، وسـيرمي الحجارة الكثيرة على الجيش المسلم.

هذه كانت المحاولة الثانية من قريش لتفكيك الصـف المسـلم، ولكـن فشـلت أيضـاً، والتقـى الجيشان، وستبدأ بعد قليل موقعة من أشرف المواقع في تاريخ المسلمين، وهذه الموقعة في أولهـا كانت شديدة الشبه بموقعة بدر الكـبرى التـي مـرت بنـا في الـدروس الماضـية، لكـن بعـض التغييرات البسيطة في الصف المسلم أدت إلى نتائج عكسية هائلة كما تعلمون.

هذه التفصيلات وهذه المناورات التي دارت في أرض أحد لها موضوع خضم جـداً يحتـاج منـا إلى تفصيل.

25

يوم أحـــد

بدأ القتال يوم السبت السابع من شوال سنة ثلاث للهجرة بعد حوالي سنة من غزوة بـدر، بـدأ اللقاء في منتهى الشراسة، وأول لقاء دار كان حول راية الكفار، وكان يحملها فـارس مـن بنـي عبد الدار اسمه طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أكبر وأعظم وأشرس فرسان قـريش، كانوا يلقبونه بكبش الكتيبة، فكان طلحة بن أبي طلحة أول من طلب القتال من قريش.

وخرج بهيئته المرعبة وكان راكباً جملاً، فأحجم المسلمون عن مبارزته؛ لأن شكله كـان مرعبـاً، فتقدم الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه وانطلق إليه، وقفز فوق جمل طلحة بن أبي طلحـة وجذبه من فوق الجمل إلى الأرض، وبرك فوقه وقتله رضي الله عنه وأرضاه.

فلما رأى الرسول ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه يقتل كبش الكتيبـة طلحـة بـن أبي طلحـة قال: (إن لكل نبي حواري وحواريي الزبير) رضي الله عنه وأرضاه، واحتدم اللقـاء بســرعة، واشتعلت أرض المعركة. وتقدم عثمان بن أبي طلحة أخـو طلحـة بـن أبي طلحـة وحمـل الرايـة وطلب القتال، فخرج له حمزة رضي الله عنه وأرضاه وقتله ثم خرج أخوهم الثالـث أبـو سـعد وقتله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وهكذا خرج مسافع بن طلحة، ثـم خـرج كـلاب بـن طلحة ثم الجلاس بن طلحة، مجموعة كبيرة من بني عبد الدار، هؤلاء الستة من بيت واحد من بيت أبي طلحة.

كانت مأساة بالنسبة لبني عبد الدار، ومع ذلك خرج منهم واحد اسمه أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب. ثم خرج شريح بن خالد فقتله غلام أنصاري اسمه قزمان، ثم خرج واحد اسمه عمرو بن عبد مناف فقتله قزمان أيضاً. ثم خرج ولد لـ شرحبيل بن هاشم فقتله قزمان أيضاً، فقد قاتل قزمان قتالاً شديداً في يوم أحد.

فهؤلاء عشرة قد قتلوا كلهم من بني عبد الدار، وكان كل واحد منهم يسلم الراية للآخر؛ لأنهم كانوا قد عاهدوا أبا سفيان ألا يتخلوا أبداً عن الراية، وصدقوا في ذلك.

ثم خرج مولى لبني عبد الدار كان اسمه صواب من الحبشة قاتل قتالاً أشد من السابقين جميعاً حتى قطعت يده الأولى ثم الثانية، ثم قطع رأسه وهو يحمل الراية حتى سقط، وبسقوط هذا الغلام الحادي عشر سقطت الراية المشركة، ولم يتسلمها أحد بعد ذلك.

كان اللقاء بأعلى مستوى، فالأرض كلها هجوم كاسح شامل، وكان شعار المسلمين في هذا اليوم: أَمِت أَمِت، وكانت البداية في صالح المسلمين، فقد قتلوا أحد عشر قتيلاً من غير أن يقتل واحد من المسلمين، فقد كان انتصاراً ضخماً ضعفت به معنويات الكفار، وارتفعت معنويات المسلمين إلى أعلى درجة، وبدأ المسلمون يقتلون في الكفار ويسيطرون على الموقف تماماً، وقاتل جميع المسلمين بمنتهى الضراوة والقوة.

بلاء وقتال أبي دجانة وحمزة وغيرهما

كان من أبرز المقاتلين المسلمين في هذه اللحظات أبو دجانة وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما، فهذان قد فعلا الأفاعيل بجيش قريش. أخذ أبو دجانة السيف الذي أعطاه ﷺ، وربط على رأسه عصابة حمراء، وقال الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فجال في الأرض وقتل الكثير من المشركين.

وهناك موقف للزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه، فقد كان في نفسه غاضباً؛ لأن الرسول ﷺ أعطى السيف لـ أبي دجانة ولم يعطه هو، فقال الزبير في نفسه: (أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع) -أي: سأرى أبا دجانة ماذا سيفعل في هذه الموقعة حتى يعطى هذا السيف- (فاتبعته فرأيته وهو يقول(:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

والكيول: مؤخرة الصفوف، يعني: أقاتل في مقدمة الصفوف.

قال الزبير بن العوام: (فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله، وكان في المشركين رجل شديد جداً يقتل كل جريح مسلم فدعوت الله أن يجمع بينه وبين أبي دجانة فاجتمعا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته -بدرعه- فعضت بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله) وأخذ أبو دجانة يخترق صفوف الكفار حتى وصل إلى آخره، وكان في آخر الجيش النساء، فرفع سيفه ليضرب إنساناً.

يقول أبو دجانة: (رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة -وهي هند بنت عتبة - فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة). هذا هو أبو دجانة رضي الله عنه وأرضاه.

وقاتل حمزة بن عبد المطلب أيضاً كقتال أبي دجانة رضي الله عنهما، قاتل قتالاً شديداً في كل الميادين، ولم يقف أبداً في وجهه أحد من المشركين، لكن وقف في ظهره أحدهم، وهو وحشي بن حرب أحد الغلمان في جيش المشركين، وله قصة،

يقول وحشي بن حرب: (كنت غلاماً لـ جبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق، المسألة مسألة ثأر تماماً، قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يَهُد الناس هداً ما يقوم له شيء، وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في ثِنْته -يعني: في أحشائه- حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغُلب -أي: بعد أن ضرب حمزة بالحربة ذهب ليقتل وحشياً- وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيها ولم يكن لي بعده حاجة وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت).

لقد كان قتل حمزة رضي الله عنه وأرضاه أسد الله وأسد رسوله ﷺ خسارة فادحة خسرها المسلمون، ومع قتل هذا الأسد العظيم رضي الله عنه إلا أن المسلمين ظلوا مسيطرين تماماً على الموقف في أرض أحد، فقد قاتل عامة المسلمين يومئذ قتالاً شرساً شديداً عظيماً، قاتل أبو بكر وقاتل عمر وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن جحش وسعد بن معاذ كل المسلمين أبلوا بلاءً حسناً في ذلك اليوم.

وكان لـ خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه -وكان يومئذ مشركاً- نظرة عسكرية ثاقبة، رأى الثغرة التي من الممكن أن يلتف على المسلمين عن طريقها، فجاء خالد بن الوليد بفرقة من الفرسان والتف حول جبل الرماة، لكن فوجئ بسيل من السهام من كتيبة الرماة من فوق الجبل، فردت خالد بن الوليد ولم يستطع مع كل ذكائه وعبقريته وحنكته العسكرية أن يتجاوز هذه الكتيبة ويأتي الجيش المسلم من الخلف، وقرر خالد المحاولة مرة ثانية وثالثة، وفي كل مرة يفشل في تجاوز كتيبة الرماة التي قامت حتى هذه اللحظة بمهمتها على أكمل واجب.

انتصار المسلمين في غزوة أحد في أول الأمر

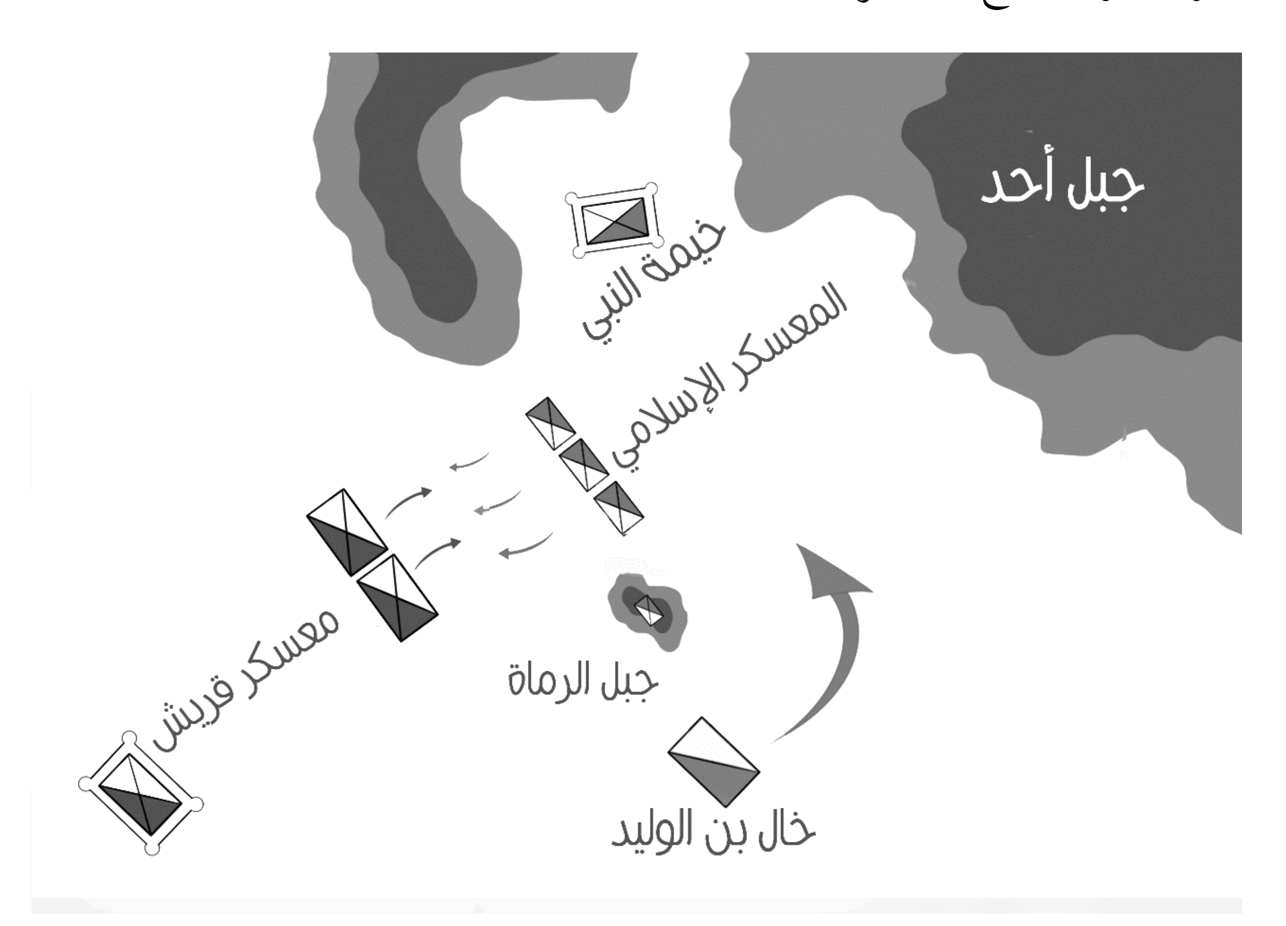
بدأت الهزيمة تدب في الجيش المشرك ثلاثة آلاف مشرك، كأنهم يقابلون ثلاثين ألف مسلم، مع أن المسلمين كلهم سبعمائة، وبدأ المشركون يفكرون في الهروب، وبدءوا فعلاً في الهروب، وعادوا يتراجعون إلى الوراء شيئاً فشيئاً، ثم بدءوا يولون وجوههم قبل مكة، حتى إنهم تركوا النساء وراءهم. يقول الزبير بن العوام: (والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير). أي: انتهت الموقعة ومن الممكن أخذ النساء سبياً.

فكان نصراً عظيماً للجيش المسلم، لا يقل هذا النصر روعة عن نصر بدر، فالله سبحانه وتعالى قال: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} [آل عمران:152] تحسونهم أي: تستأصلونهم، فالله سبحانه وتعالى وعد المسلمين إن كانوا صابرين ومتبعين لرسوله الكريم ﷺ أن يعطيهم النصر في أحد وفي غيرها، وقد بشرهم الرسول ﷺ بذلك قبل الخروج إلى أحد، والمسلمون إلى هذه اللحظة ملتزمون تماماً بما قال لهم ﷺ، وبما كانوا عليه يوم بدر؛ لذلك تحقق النصر حتى هذه اللحظة.

إذا وقفنا وحللنا فإننا سنجد أن هذا الجيش إلى الآن مؤمن بالله عز وجل، ومؤمن باليوم الآخر يطلب الجنة، والشورى طبقها، والإعداد الجيد طبقه، والقائد في هذا الجيش يعيش مع شعبه ويشترك معهم في كل صغيرة وكبيرة، وأخوة في الله واضحة في أثناء القتال، والأمل في قلوبهم، واليقين في نصر الله عز وجل يملأ نفوسهم، والأمر موسد إلى أهله، والصفات العشر التي تكلمنا عنها في غزوة بدر كلها متحققة إلى هذا الوقت في جيش أحد، فكان النصر للمسلمين.

انقلاب الموازين في آخر معركة أحد لصالح المشركين

بعد هذا الانتصار العظيم للمسلمين، وبعد هذا الهروب الكبير لجيش المشركين، تخلى بعض المسلمين عن صفة واحدة من هذه الصفات العشر، فتغير الموقف تماماً، ففي أثناء هروب المشركين من أرض المعركة متجهين إلى مكة ألقوا كل ما معهم من الأمتعة والممتلكات والأثقال والأحمال، ألقى المشركون الدنيا خلفهم؛ ليتخففوا، وليستطيعوا الهرب، ورأى الرماة المسلمون من فوق الجبل الدنيا التي ألقاها المشركون خلفهم، فأخذ الرماة قراراً عجيباً، أخذوا القرار بالنزول لجمع دنيا المشركين.



تخيل! المخالفة الواضحة الصريحة لكلام رسول الله ﷺ، النزول من أجل جمع دنيا المشركين، قالوا: (الغنيمة الغنيمة! الغنيمة الغنيمة!) فهذه الغنيمة وهذه الدنيا وهذه الأموال أعمت أبصارهم تماماً عن تذكر ما قاله الحبيب ﷺ، لكن القائد عبد الله بن جبير وقف لهم وذكرهم

وقال: (أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟) فقالوا: (الغنيمة الغنيمة) فكانت مخالفة متعمدة لكلام الرسول ﷺ، ولكلام القائد المباشر عبد الله بن جبير.

وهكذا نزل ثمانون في المائة من الرماة، حيث نزل أربعون من الرماة من أصل خمسين؛ ليجمعوا الغنيمة مع المسلمين، ورأى خالد بن الوليد الثغرة، وكان قائداً عسكرياً محنكاً، وأتى بفرقته بسرعة والتف من حول جبل الرماة، وحاول عبد الله بن جبير رضي الله عنه ومن تبقى معه من الرماة أن يمنعوا خالد بن الوليد من الدخول على الجيش الإسلامي من الخلف، لكنهم فشلوا، فحاول عبد الله بن جبير قتالهم إلا أن مجموعة من فرسان المشركين قتلوه ثم أبادوا بقية الرماة.

والتف خالد بن الوليد من وراء الجيش الإسلامي وصاح صيحة عالية جداً سمعها المشركون الذين يفرون، أدركوا منها أن خالداً التف حول الجيش الإسلامي فعادوا للقتال من جديد، وحصر المسلمون بين خالد بن الوليد من الخلف والمشركين من الأمام، وهكذا وضع المسلمون بين فكي كماشة، وأسرعت امرأة من المشركين كان اسمها عَمرة بنت علقمة، ورفعت اللواء الساقط على الأرض، واهتاج المشركون، وتحمسوا حماساً كبيراً في الهجوم على المسلمين، وقوتهم ذكريات بدر وذكريات الهزيمة الأولى في أحد، وبدءوا يضغطون على المسلمين من الناحيتين.

التفاف المشركين حول رسول الله ﷺ

كان الرسول ﷺ في آخر الجيش المسلم ينظم الصفوف، ولما التف خالد بن الوليد حول الجيش الإسلامي، كان أول فرقة من المسلمين قابلها هي الفرقة التي فيها الرسول ﷺ، ولم ير خالد بن الوليد الرسول ﷺ، لكن ما هي إلا دقائق وسيظهر؛ لأنه آخر الصفوف، فلابد أن يختار ﷺ أحد اختيارين: إما أنه يهرب بالتسعة إلى أي مكان في أرض المعركة حتى يستطيع أن يقاوم من

جديد، وإما أن ينادي الجيش حتى يجتمع من جديد، ويبدأ في محاولة لاستعادة الموقف على أرض أحد. لكن لو نادى ﷺ الناس فمن المحتمل أن المشركين الذين باغتوا المسلمين من الخلف يسمعون صوته، ولو سمعوا صوته لأحاطوا به ﷺ وقتلوه، ومع ذلك في شجاعة نادرة اختار الرسول ﷺ الحال الثاني، ونادى بأعلى صوته لاستعادة الموقف من جديد قال: (إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله) وهكذا بدأ يعلي صوته؛ ليسمع المسلمون.

صار المسلمون في حالة اضطراب شديدة جداً، فذاك ينظر قدامه، وذاك ينظر وراءه، والمشركون في حالة نشاط عجيب، وصار الموقف مأساوياً، سمع خالد بن الوليد الرسول ﷺ ينادي، فانطلق إلى المنطقة التي فيها رسول الله ﷺ وحاصرها، وبدأت الفرقة التي حول الرسول ﷺ تقاتل قتالاً شديداً، تسعة ضد فرقة كاملة من الفرسان، والرسول ﷺ يشجعهم ويقول: (من يردهم عنا وله الجنة -أو يقول-: من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة).

فتقدم أنصاري وقاتل قتالاً شديداً حتى استشهد رضي الله عنه وأرضاه، ثم تقدم الثاني ثم الثالث ثم الرابع ثم الخامس ثم السادس، ثم تقدم سابعهم عمارة بن يزيد بن السكن رضي الله عنه وأرضاه، وكل هؤلاء السبعة من الأنصار، فقاتل عمارة قتالاً شديداً حتى أصيب رضي الله عنه وأرضاه، فسقط على الأرض، واقترب من رسول الله ﷺ حتى وضع رأسه على قدم رسول الله ﷺ، واستشهد وخده ملتصق بقدم الحبيب ﷺ.

تأثر الرسول ﷺ في هذا الموقف، قال: (ما أنصفنا أصحابنا)، تقدم الأنصار الواحد تلو الآخر، ولم يتقدم طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، فأثار هذا الموقف حمية طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص فقاما يقاتلان قتالاً شديداً، لكن ماذا يعمل اثنان وسط هذه المجموعة الضخمة من المشركين؟ وتقدم من الكفار عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، تخيل! سعد بن أبي وقاص يدافع عن الرسول ﷺ، وأخوه عتبة يقذف بالحجارة وجه رسول الله ﷺ

حتى تفجرت الدماء من رأسه ﷺ، وجاء عبد الله بن شهاب الزهري أحد المشركين فشجه شجة منكرة في رأسه ﷺ، ثم جاء إليه رجل اسمه عبد الله بن قمئة وضربه بالسيف ضربة شديدة على كتفه ﷺ، وظل ﷺ يشتكي منها شهراً كاملاً بعد ذلك، ثم ضرب وجه الرسول ﷺ، فدخلت حلقتان من حلقات المغفر الذي كان فوق رأس الحبيب ﷺ في وجنته، وابن قمئة يقول: (خذها وأنا ابن قمئة، فقال ﷺ: أقمأك الله) أي: أهلكك الله، واستجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فبعد غزوة أحد بقليل وقع من فوق جبل في بلده وقُتل.

وهكذا تفجرت الدماء من رأسه ومن جسده ﷺ، وهو يمسح الدم من على وجهه ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟ فأنزل الله عز وجل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل عمران:128]).

في هذا الموقف قام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأرضاه وطلحة بن عبيد الله بعمل لا يستطيع أن يقوم به إلا جيش كامل، فقد كان سعد بن أبي وقاص يرمي بسهامه المشركين، مجموعة ضخمة من المشركين حول المصطفى ﷺ، ومع ذلك يرد سعد بن أبي وقاص بسهامه هذه المجموعة الضخمة، وأُعجب الرسول ﷺ بأداء سعد بن أبي وقاص حتى قال له: (ارم سعد فداك أبي وأمي)، وهكذا جمع له ﷺ أبويه يفديه بهما، فكان ذلك فخراً له رضي الله عنه وأرضاه.

وحارب طلحة بن عبيد الله حرباً ضروساً في ذلك اليوم، وقاتل من كل مكان حول المصطفى ﷺ، حتى وصلت الجروح التي أصابت جسده إلى تسعة وثلاثين جرحاً، تخيل أن واحداً يتقطع بالسيف تسعةً وثلاثين جرحاً ولا زال يقاتل في سبيل الله، وجاء سهم من بعيد كاد يصيب المصطفى ﷺ، فوضع طلحة يده أمام السهم، فدخل السهم في يده وأنقذ الرسول ﷺ وشلت يد طلحة بهذا السهم رضي الله عنه وأرضاه.

بعد هذه الحرب الضخمة حول الرسول ﷺ وصل بعض الصحابة رضي الله عنهم من بعيد، رأوا الرسول ﷺ في مأزق وفي موقف صعب، ففاء إليه مجموعة من الصحابة من مقدمة الجيش، وأول من فاء إلى الرسول ﷺ أشد الناس حباً له أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وبينما هو يعود إلى رسول الله ﷺ رأى واحداً يقاتل حول النبي ﷺ من كل مكان فقال: (كن طلحة فداك أبي وأمي، كن طلحة فداك أبي وأمي، كن طلحة فداك أبي وأمي) ثم وجده طلحة كما تمنى؛ لأن طلحة مقاتل شديد وفارس مغوار، فتمنى أن يكون طلحة ؛ حتى يستطيع أن يدافع الدفاع الأمثل عن رسول الله ﷺ.

ثم وصل أبو بكر الصديق وتبعه مباشرة عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ووجد أبو بكر الصديق أن حلقات المغفر قد دخلت وجه الرسول ﷺ؛ فذهب لينزعها، فقال له أبو عبيدة : (نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني)، ونزل أبو عبيدة بن الجراح ، ووضع فمه على حافة المغفر، وبدأ يجذبها بخفة من وجه رسول الله ﷺ، لكن من قوة مسكة حلقة المغفر بأسنانه وقعت إحدى أسنانه رضي الله عنه وأرضاه، وخرجت إحدى حلقات المغفر، فأراد أبو بكر أن ينزع الحلقة الأخرى، فقال له ثانية: (نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني)، ونزع الحلقة الثانية وسقطت سن من أسنانه رضي الله عنهم أجمعين.

قاتل الصحابة قتالاً شديداً حول المصطفى ﷺ، ورأى الرسول ﷺ طلحة وهو ما زال يقاتل عن اليمين وعن اليسار بهذه الجراح الكثيرة؛ فقال لأصحابه لأبي بكر وعمر وأبي عبيدة : (دونكم أخاكم، دونكم أخاكم فقد أوجب) أي: أدى كل الذي عليه، وسقط طلحة رضي الله عنه من الإصابات الكثيرة، وبدأ الصحابة يدفعون عن رسول الله ﷺ أذى القرشيين.

جاءت بعد ذلك مجموعة أخرى من الصحابة، جاء أبو دجانة ومالك بن سِنان والد أبي سعيد الخدري ، وجاء حاطب بن أبي بلتعة ، وجاءت أم عمارة إحدى النساء تقاتل حول رسول الله ﷺ.

كان أبو طلحة الأنصاري يضع نفسه أمام الرسول ﷺ؛ ليحميه من سهام المشركين، وكان الرسول ﷺ يريد أن يضرب بالسهم من ورائه، فكان يرفع رأسه من وراء كتف أبي طلحة ، فكان أبو طلحة يقول له: (يا رسول الله بأبي أنت وأمي لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك يا رسول الله).

كانت أم عمارة تقاتل عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله، يقول ﷺ: (ما نظرت يميني ولا شمالي ولا أمامي ولا خلفي إلا وجدت أم عمارة تقاتل عني بسيفها). نظر إليها ﷺ نظرة إعجاب بقتالها، مع أنها امرأة ضعيفة وليست مكلفة بالقتال بالسيف في هذه الموقعة التي فر فيها بعض الرجال، فنظر إليها نظرة وهو يبتسم، فشاهدته أم عمارة رضي الله عنها وأرضاها وهو يبتسم فقالت: (يا رسول الله ادع الله أن نكون معك في الجنة، فقال: أنتم معي في الجنة). كانت تقاتل هي وزوجها وابنها جميعاً حول رسول الله ﷺ.

جاء حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وقتل عتبة بن أبي وقاص الذي كان يرضخ وجه رسول الله ﷺ بالحجارة، وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وقاتل قتالاً شديداً حتى تحطمت أسنانه رضي الله عنه وأرضاه، وأصيب بعشرين إصابة في جسده، كان أحدها سبباً في إصابته بالعرج الدائم بعد ذلك.

سقط الرسول ﷺ في حفرة من الحفر التي فعلها المشركون ككمين للمسلمين، ولم يستطع أن يخرج من شدة الجراح التي في جسده ﷺ، وأبو دجانة يرى السهام تأتي من كل مكان صوب

الرسول ﷺ، فوضع نفسه رضي الله عنه وأرضاه فوق الرسول ﷺ، وغطى الحفرة بجسده حتى يتلقى السهام بظهره رضي الله عنه.

أثر إشاعة قتل النبي ﷺ على المسلمين

كان الجميع يقاتل حول المصطفى ﷺ، فجاء مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو يحمل راية المهاجرين، وقاتل قتالاً شديداً حول المصطفى ﷺ فقطعت يمينه، فحمل الراية بشماله فقطعت شماله، فبرك على الراية رضي الله عنه وأرضاه وهو قابض عليها بعضديه، وجاء المشركون من خلفه وقتلوه، فسقط على الأرض وهو يقول: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران:144].

وكان مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه شديد الشبه برسول الله ﷺ، فظن المشركون أنهم قتلوا المصطفى ﷺ، فقال ابن قمئة وكان هو الذي قتل مصعب بن عمير: قتلت محمداً، قتلت محمداً، وانتشر الخبر في أرض المعركة بكاملها، فكان هذا الخبر مأساة على المسلمين.

وهكذا أشيع أن الحبيب ﷺ قد قتل، فالأمر لا يمكن أن يتخيلوه أبداً، فإنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون الرسول ﷺ، كيف ينقطع الوحي؟ كيف لا تتم الرسالة؟ كيف؟ كيف؟ ظهرت أسئلة كثيرة في أذهان الناس، وأحبط كثير من المسلمين في أرض القتال.

وصل الإحباط بالبعض إلى أن جلس على أرض المعركة دون قتال، القتال دائر من حوله وهو لا يرفع سيفه ليدافع حتى عن نفسه، هذا فهم خاطئ، فالقتال ليس من أجل المسلمين وليس من أجل رسول الله ﷺ، إنما القتال في سبيل الله عز وجل، والله حي لا يموت، فلماذا القعود والإحباط؟! إن قضية القتال في سبيل الله لا يجب أن تغيب أبداً عن ذهن المؤمن، بل عليه أن يكون كالصحابي الجليل ثابت بن الدَحداح رضي الله عنه وأرضاه من المشاركين في غزوة أحد،

لما رأى الناس قعدوا على الأرض ذهب إليهم وقال في إيمان عميق وفهم دقيق: (إن كان محمد ﷺ قد قتل فإن الله حي لا يموت)، ثم قاتل رضي الله عنه وأرضاه حتى استشهد.

قال ذلك أيضاً أنس بن النضر رضي الله عنه وأرضاه، مر على بعض المسلمين وهم جلوس على أرض القتال، قد فقدوا روح القتال والمقاومة، فقال لهم: (ماذا تنتظرون؟) قالوا: (قتل رسول الله ﷺ)، فقال في منتهى الشجاعة والقوة: (قوموا فموتوا على ما مات عليه ﷺ، إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت).

ثم قال وهو ينظر إلى المسلمين الذين أحبطوا وقعدوا على أرض القتال: (اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -أي: المسلمين-، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -أي: المشركين-، ثم تقدم رضي الله عنه وأرضاه ليلقى المشركين، فلقيه سعد بن معاذ فقال له سعد: أين يا أبا عمر! رآه يدخل في وسط المشركين، فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد! إني أجده دون أحد) -أي: أشم رائحة الجنة عند أحد- ثم مضى رضي الله عنه وأرضاه وقاتل المشركين قتالاً شديداً ضارياً حتى استشهد رضي الله عنه وأرضاه، وطعن أكثر من ثمانين طعنة في جسمه، ولم يعرفه أحد إلا أخته ببنانه.

استمرت إشاعة موت الرسول ﷺ في الجيش إلى أن اكتشف كعب بن مالك رضي الله عنه وأرضاه ممن شارك في غزوة أحد أن الرسول ﷺ حي لم يقتل، فنادى في المسلمين: (أبشروا أبشروا رسول الله ﷺ حي)، فأشار له ﷺ أن يصمت؛ لئلا يلفت أنظار المشركين، ومع ذلك سمع ثلاثون شخصاً من المسلمين كلمة كعب بن مالك؛ ففاءوا إلى رسول الله ﷺ، وبدءوا يحوطونه، وبدأ الرسول ﷺ يقود هذه المجموعة للانسحاب المنظم في اتجاه الجبل، وكان الرسول ﷺ ينادي مجموعة أخرى من المسلمين من بعيد (إليّ عباد الله! إليّ عباد الله!) لكن هناك مجموعة لم تكتف بالإحباط والقعود في أرض القتال، بل فعلت ما هو أشد وأنكى، لقد

قررت هذه المجموعة الفرار من أرض القتال، والفرار من الزحف كبيرة من الكبائر، فمنهم من فر وهو يصعد إلى الجبل، ومنهم من فر في طريقه إلى المدينة حتى وصل إلى المدينة المنورة فاراً، والرسول ﷺ يناديهم وهم يسمعون ولا يلبون، وذكر الله ذلك في كتابه: {إِذْ تُصْعِدُونَ} [آل عمران:153] أي: إلى الجبل {وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [آل عمران:153] أي: في آخر الجيش ينادي المسلمين، وهم يسمعون هذا النداء ولا يلبون.

ومع هذه الكارثة استطاع الرسول ﷺ أن ينسحب إلى الجبل بالثلاثين الذين معه من المسلمين، وبينما هو يصعد إلى الجبل إذ رآه عدو الله أبي بن خلف أحد كبار المشركين، فجاء يجري من بعيد ويقول: (لا نجوت إن نجا لا نجوت إن نجا)، وأراد الدخول على الرسول ﷺ، فقال القوم للرسول ﷺ: (يا رسول الله؛ أيعطف عليه رجل منا؟) فقال ﷺ: (دعوه)، فلما دنا من الرسول ﷺ تناول الرسول ﷺ حربته وضربه ضربة)، وهذه الضربة خدشت فيه خدشة خفيفة جداً ، ومع ذلك صرخ أبي بن خلف ، وأخذ يجري كالطفل، وهو يقول: (قتلني -والله- محمد، قتلني -والله- محمد)، واستغرب المشركون من حالته، قالوا: (ذهب -والله- فؤادك، والله إن بك من بأس) قال: (إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني) فانظر إلى اقتناع أبي بن خلف أن كلمة رسول الله ﷺ حقيقية، وأنه لو تنبأ أنه سيقتله في يوم من الأيام فإن هذا التنبؤ سيحدث لا محالة، حتى وإن كان من خدش خفيف، قال هذه الكلمات التي تعبر عن أن المشركين جميعاً يقتنعون تماماً أن الرسول ﷺ حق، وأن ما بعث به هو الصدق، ولكنهم كانوا يكذبون لمصالحهم، لعنهم الله. كما تنبأ ﷺ وأخبر قبل ذلك بالوحي، مات عدو الله أبي بن خلف بهذا الخدش الخفيف الذي أصابه من رسول الله ﷺ وهو راجع إلى مكة.

بدأ الرسول ﷺ يحاول من جديد صعود جبل أحد، لكن إصاباته كانت كثيرة، فلم يستطع أن يصعد الجبل، فاعترضته صخرة كبيرة، ولم يستطع الرسول ﷺ تسلقها، فجلس طلحة بن عبيد

الله على الأرض -مع أنه مصاب بتسعة وثلاثين إصابة في جسده- ليصعد فوق ظهره رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: (أوجب طلحة) أي: فعل كل ما يمكن أن يفعله، وهو من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنه وأرضاه. لذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد، قال: (ذلك اليوم كله لطلحة) رضي الله عنهم أجمعين. وبالفعل بدأ يصعد ﷺ الجبل هو والذين معه، ورآهم خالد بن الوليد وأبو سفيان ، فجمعوا أنفسهم ليمنعوهم من صعود الجبل وليكملوا القتال، فقال ﷺ: (اللهم إنهم لا ينبغي لهم أن يعلونا). كان الموقف خطراً جداً لو صعدوا إلى المسلمين، فانتدب ﷺ فرقة ممن معه، وعدد الذين معه ثلاثون، خرجت منهم مجموعة على رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين، وقاتلوا المشركين قتالاً شديداً حتى صدوهم عن صعود الجبل، واستطاع الرسول ﷺ ومن معه أن يختفوا داخل الجبل.

تمثيل المشركين بجثث قتلى المسلمين آخر المعركة

قام المشركون بعد صعود النبي ﷺ بعمل شنيع، التفتوا إلى جثث المسلمين الملقاة على أرض الموقعة -سبعون شهيداً في أرض أحد- وبدءوا يمثلون بالجثث، فقامت النساء بتقطيع آذان الرجال المسلمين وأنوفهم، ويصنعن منها خلاخيل وقلائد ويلبسنها، فكن في منتهى الإجرام، وذهبت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وكانت من أشد الكفار ضراوة على المسلمين إلى حمزة رضي الله عنه وأرضاه عم الرسول ﷺ، وشقت بطنه وأخرجت قطعة من كبده رضي الله عنه وأرضاه وحاولت أن تأكلها، ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها، أي: أخرجتها من فمها.

هذا يعبر عن مدى الغل والحقد الذي كان في قلوب المشركين، فإن هند بنت عتبة كانت موتورة؛ فقد قتل أبوها عتبة بن ربيعة في غزوة بدر، وعمها شيبة بن ربيعة أيضاً في غزوة بدر، وأخوها الوليد بن عتبة في غزوة بدر، وابنها حنظلة بن أبي سفيان في غزوة بدر، فهؤلاء أربعة

قتلوا في غزوة بدر من أقاربها، وهذا بالنسبة لها كانت كارثة، وكان حمزة رضي الله عنه ممن اشترك في قتل أقاربها، فقد شارك في قتل الوليد بن عتبة وقتل شيبة بن ربيعة.

كان هذا الموقف في أرض القتال بعد صعوده ﷺ إلى الجبل، صعد الرسول ﷺ الجبل وما زالت الدماء تنزل من رأسه، وحاول الصحابة من حوله أن يوقفوا الدماء، فكانوا يصبون الماء فوق رأس الرسول ﷺ، لكن الماء كان يزيد الجرح نزيفاً، وكانت فاطمة رضي الله عنها مع الجيش الإسلامي في ذلك الوقت، فلما رأت هذا الموقف أتت بحصير وأحرقته، وبدأت تدفع الحصير في داخل الجرح في رأس رسول الله ﷺ حتى توقف النزيف. كان الرسول ﷺ في هذا الموقف يقاتل من أول الصباح إلى الظهيرة، فجاء وقت صلاة الظهر وجمع المسلمين لأدائها، لكنه لم يستطع أن يقف ﷺ من شدة الإصابات التي أصابته، فصلى قاعداً وصلى المسلمون قعوداً بقعوده ﷺ.

موقف المشركين من إشاعة قتل النبي ﷺ وتمثيلهم بالشهداء

ما زال المشركون يعتقدون أن رسول الله ﷺ قد قتل، وبعض المسلمين مع الرسول ﷺ، وبعض المسلمين شهداء في أرض الموقعة، وبعض المسلمين فر إلى أماكن مختلفة من الجبل، وبعض المسلمين فر إلى المدينة المنورة، فالوضع كما ترون كان مأساوياً حقيقياً.

جاء أبو سفيان ليشمت بالمسلمين، فعرف أن هناك مجموعة من المسلمين قد فرت إلى الجبل، فجاء هو ومن معه من المشركين؛ ليخاطب رسول الله ﷺ إن كان حياً، أو ليتأكد على أنه قتل، فنادى أبو سفيان: (أفيكم محمد؟) فأشار ﷺ إلى أصحابه: (لا تجيبوه). أشار إشارة فهم منها الصحابة ألا يجيبوا أبا سفيان؛ حتى لا يكشفوا المكان الذي هم فيه، فلم يجب الصحابة، فقال: (أفيكم ابن أبي قحافة؟) فأشار رسول الله ﷺ ألا يجيبوه فلم يجبه أحد، فقال: (أفيكم عمر بن

الخطاب؟) وأخذ يرتب في سؤاله عن الأشخاص، فمن أهم شخصية إلى الوزير الأول ثم الوزير الثاني فلم يجيبوه، ففرح أبو سفيان وقال: (أما هؤلاء الثلاثة فقد كفيتموهم)، أي: قد قتلوا، فلم يتمالك عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه. قال: (أي عدو الله! إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله ما يسوءك)، مع أنه ﷺ قال له: لا تتكلم، لكنه لم يستطع أن يمسك نفسه، فأحب أبو سفيان أن يرد الغيظ إلى المسلمين مرة أخرى، فقال كلمة شنيعة، قال: (قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني).

فانظر إلى الشر الذي كان في داخلهم في تلك الساعة، فإن من طبيعة العرب ألا يمثلوا بالجثث، لكن خرجوا عن منهجهم تماماً في هذه الموقعة، وأراد بذلك أن يغيظ عمر بن الخطاب ومن معه من المسلمين، ثم قال: (أُعل هبل)، فقال النبي ﷺ: (ألا تجيبونه؟) فقالوا: (ما نقول يا رسول الله؟!) قال: (قولوا: الله أعلى وأجل)، فقال الصحابة: (الله أعلى وأجل)، فقال أبو سفيان: (لنا العزى ولا عزى لكم)، فقال النبي ﷺ: (ألا تجيبونه؟) فقالوا: (ما نقول؟) قال: قولوا: (الله مولانا ولا مولى لكم)، فقال أبو سفيان: (يوم بيوم بدر، والحرب سجال)، فأجاب عمر رضي الله عنه وأرضاه قال: (لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار) وفي رواية: أن الذي قال هذا هو رسول الله ﷺ.

عند ذلك قال أبو سفيان: (هلم إلي يا عمر) فقد كان أبو سفيان يسمع صوت سيدنا عمر رضي الله عنه، فقال الرسول ﷺ: (ائته فانظر ما شأنه) -أي: انظر ماذا يريد- فجاءه، فقال له أبو سفيان: (أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟) قال عمر: (اللهم لا، وإنه ليستمع كلامك الآن)، فقال أبو سفيان -وانظر إلى احترام المشركين للمسلمين- أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر). إن احترام المسلمين موجود عند كل المشركين، وعند كل أعداء الأمة، فهم يحاربونك ويقاتلونك ويضيقون عليك الخناق، وفي داخلهم يكنون الاحترام الكامل لشخصيتك

ولدفاعك عن مبادئك، ولتضحيتك في سبيل دينك وفكرتك، هذا هو الواقع؛ لذلك صدّق أبو سفيان عمر وهو عدو له، ولم يصدق ابن قمئة أحد جنود الجيش المشرك معه.

انسحب أبو سفيان، ولم يفكر أن يصعد الجبل مرة ثانية واكتفى بما فعل، وعاد مع المشركين في اتجاه مكة، وانتهت موقعة أحد بذلك.

موقف النبي ﷺ وأصحابه من شهداء أحد

نزل الرسول ﷺ من فوق الجبل ليتفقد الشهداء، وكان موقفاً مريعاً، سبعون من أفاضل المسلمين كلهم ملقى على أرض أحد، كان منهم: حمزة بن عبد المطلب وعمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وحنظلة، وخيثمة، كثير من شهداء المسلمين سقطوا في يوم أحد، فوقف ﷺ ونظر إلى الشهداء وقال: (اللهم إني شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك).

كان هناك أناس من الصحابة أخذوا بعض الشهداء ليدفنوهم في المدينة، فأمر ﷺ أن يُرَدوا جميعاً إلى أرض أحد ويدفنوا فيها، وألا يغسلوا ولا يكفنوا، بل يدفنوا في ثيابهم بعد أن تنزع الدروع والجلود من فوقهم. وكان ﷺ يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين أحياناً في ثوب واحد، ويقول: (أيهم أكثر أخذاً للقرآن) فمن كان يحفظ القرآن أكثر وضعه الأول في اللحد، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة) مرة ثانية، وكررها كثيراً في ذلك اليوم، وكان إذا علم أن بين اثنين من الصحابة محبة كبيرة دفنهما معاً، فدفن عبد الله بن عمرو بن حرام مع عمرو بن الجموح رضي الله عنهم أجمعين.

ولما رأى ﷺ ما حدث بـ حمزة رضي الله عنه اشتد حزنه وتقطع كبده ﷺ وبكى بكاءً شديداً، وانتحب حتى نشغ -كما يقول الراوي- من البكاء، أي: صار له شهيق عال من البكاء.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب) بل وضعه ﷺ في القبلة وصلى عليه مع كل شهيد رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم.

كذلك مصعب بن عمير رضي الله عنه ممن قتل شهيداً في يوم أحد، وكفن في ثياب بالية رثة، يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: (قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه)، وذكروا ذلك للرسول ﷺ فقال: (غطوا بها رأسه بهذه البردة، واجعلوا على رجله الإذخر) والإذخر نبات.

إن وضع الشهداء كان مؤلماً جداً للمسلمين، ومع كل هذه الأحداث جمع الرسول ﷺ كل الموجودين في أرض القتال، وقال لهم: (استووا حتى أثني على ربي عز وجل) يا الله! موقف عجيب في كل مواقفه ﷺ، فصاروا خلفه صفوفاً، فوقف ﷺ يدعو والجميع يؤمن على دعائه، استمعوا إلى دعائه ﷺ وهو يقول: (اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين،

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق).

هذا دعاء جميل، دعاء فيه الشكر الدائم لرب العالمين سبحانه وتعالى في كل الظروف، حتى لو كان ذلك بعد مصيبة أحد، دعاء فيه إعلان أن كل شيء بإذن الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى قادر على منع الهزيمة، لكنه أوقع المصيبة بالمسلمين لحِكَمٍ كثيرة يعلمها، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ} [آل عمران:166]. هذا دعاء فيه تعظيم الآخرة في عيون الصحابة، خاصة في هذا الموقف، لما قال ﷺ: (اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول) حتى لو ضاقت الدنيا كلها وأعطيتنا الآخرة فنحن الرابحون، دعاء فيه وضوح الرؤية في حرب كل من صد عن سبيل الله، سواء كانوا من المشركين أو من الكفرة من أهل الكتاب الذين قاتلوا المسلمين، دعاء جامع شامل يعبر عن فهم دقيق للحبيب ﷺ.

رجع ﷺ إلى المدينة المنورة، واستقبل في حزن شديد، فكل بيت تقريباً فيه شهيد، وقابلته في الطريق حِمنة بنت جحش رضي الله عنها ونعى إليها ﷺ أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له الله عز وجل، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال ﷺ: (إن زوج المرأة منها لبمكان). جاءت امرأة من بني دينار أصيب زوجها وأخوها وأبوها في أحد، فنعوا لها جميعاً، فقالت: (ما فعل رسول الله ﷺ؟) الزوج والأخ والأب لم يشغلوا بالها، وأخذت تسأل عن رسول الله ﷺ. فقالوا: (خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين). قالت: (أرونيه حتى أنظر إليه)، فأشاروا إليه، فقالت: (كل مصيبة بعدك جلل). يعني: صغيرة ويسيرة، هذه مشاعر الحب التي كانت من المسلمين تجاه رسول الله ﷺ، حتى مع المصاب الفادح الذي أصيب به الجميع.حقيقة غزوة أحد وأسباب مصيبة المسلمين فيها

ماذا نسمي أحداً؟

لابد أن نقف وقفة ونقول: يا ترى ماذا نسمي أحداً؟ هل نسميها هزيمة أو نسميها نكسة؟ أو ماذا نسميها؟ عندما تراجع أحداث غزوة أحد سواء أثناء الغزوة أو بعد الغزوة، فإنك تجد أن كلمة هزيمة لا تنطبق على وصف غزوة أحد، فالجيش المكي لم يحتل موقع الجيش المسلم، والجزء الأساسي من الجيش المسلم لم يفر مع شدة الارتباك، نعم، هناك من فر، لكن مجموعة كبيرة من المسلمين بقيت في أرض المعركة، منهم من قاتل حول الرسول ﷺ، ومنهم من قاتل حتى استشهد، والجيش المكي لم يفكر في مطاردة المسلمين، ومع أن أبا سفيان خاطب عمر بن الخطاب وأدرك أن الرسول ﷺ حي وأنه في الجبل لم يفكر أن يصعد إلى الجبل مرة أخرى، ومع أن كل الذين مع رسول الله ﷺ مجموعة قليلة من المسلمين، كذلك لم يقع أسير واحد من المسلمين في أيدي الكفار مع هذا الأمر الشديد الذي تحدثنا عنه، لكن في غزوة بدر أسر المسلمون سبعين من المشركين.

كما أنه لم تكن هناك غنائم مسلمة في أيدي الكفار، ولم يقف الجيش المكي في أرض المعركة يوماً ولا يومين ولا ثلاثة، بل عادوا إلى مكة في ذلك الوقت، وقد قعد الرسول ﷺ في بدر ثلاثة أيام، وقعد في غيرها من الغزوات ثلاثة أيام، بل إنه كان يقعد شهراً كاملاً في أرض القتال، لكن الكفار غادروا أحداً، ولم يفكروا في غزو المدينة المنورة مع أن المدينة خلا منها الجيش، فكل ذلك يدل على أن الموقعة ليست هزيمة للمسلمين، لابد لها من وصف آخر، سنسميها كما سماها الله سبحانه وتعالى، فالله سماها في الكتاب الكريم: مصيبة: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:165]. وقال: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:166]. فغزوة أحد مصيبة ولا شك في ذلك، وليست المصيبة في استشهاد سبعين

من الصحابة؛ لأن هؤلاء من أكرم الخلق على الله عز وجل، وقد نالوا درجات عالية جداً، واصطفاهم الله سبحانه وتعالى، يقول الله في الكتاب تعليقاً على غزوة أحد: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران:140] فهؤلاء اختارهم الله؛ ليكونوا من أفضل الناس، إنما المصيبة في شيء آخر، المصيبة تكمن في اضطراب بعض المفاهيم عند المسلمين، وإن كان اضطراباً حصل في لحظة من لحظات القتال وغير كل شيء، وهذه المصيبة هي تغلب الدنيا في قلوب بعض الصحابة، فالصحابة منذ بدء القتال وهم يقاتلون في سبيل الله عز وجل، يقاتلون من أجل الجنة، وفي لحظة انقلبت الموازين، وأصبح فريق منهم يقاتل من أجل الدنيا، وقد وصل تغلغل حب الدنيا في قلوبهم إلى أن يخالفوا كلام الرسول ﷺ مخالفة صريحة متعمدة، وراجع الكلام الذي قاله ﷺ لـ عبد الله بن جبير ولفرقة الرماة، فهو كلام في منتهى الوضوح، توجيه أول وثان وثالث ورابع وخامس وسادس، فالتوجيه الأول: (انضح عنا الخيل بالنبل) إلى آخر كلامه ﷺ، وأثناء القتال يلتف خالد بن الوليد حول الجيش ثلاث مرات، ويستطيعون أن يصدوه، وبذلك عرفوا أن هذا المكان خطر وصعب ومهم بالنسبة للمشركين، وعرفوا أن لهم دوراً كبيراً جداً في صد المشركين. ستة توجيهات من الرسول ﷺ، وثلاثة توجيهات من خالد بن الوليد بلفته أنظار المسلمين إلى أهمية المكان الذي يقفون عليه. هذه تسعة توجيهات والتوجيه العاشر جاء من عبد الله بن جبير رضي الله عنه وأرضاه، عندما أرادوا النزول قائلين: الغنيمة الغنيمة، وقف لهم وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ ومع ذلك لم يستمعوا.

كل هذا يثبت أن المخالفة كانت متعمدة وصريحة من أجل الدنيا، وقد كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: (والله لا أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم الدنيا). والله سبحانه وتعالى وصف ذلك في كتابه تعليقاً على أحد. قال: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} [آل عمران:152].

وبسبب الدنيا صار المسلمون فريقين: الفريق الأول: أنس بن النضر وثابت بن الدحداح وأبي طلحة وغيرهم من الذين قاتلوا حتى النهاية، فمنهم من قاتل وثبت حتى شهادته، ومنهم من قاتل حول الرسول ﷺ لحمايته، ما نكصوا على أعقابهم وما فروا. والفريق الثاني: هم الذين تغلغلت الدنيا في قلوبهم، وغير مقبول للجيش المسلم أن يصل حب الدنيا إلى قلوب بعضه، فيدفعه هذا الحب إلى المخالفة.

كذلك في موقعة بدر حصلت أيضاً مخالفة من أجل الدنيا، قال الله عز وجل في صدر سورة الأنفال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ} [الأنفال:1] يتكلم عن مشكلة الغنائم التي دخلت في قلوب الصحابة، فوجههم الرسول ﷺ إلى اتباع كلام رب العالمين سبحانه وتعالى، وانصاع الجميع لكلام رب العالمين سبحانه وتعالى، وسلموا أنفسهم له، ووزع رسول الله ﷺ الغنائم بالطريقة التي شرعها رب العالمين سبحانه وتعالى، لكن في غزوة أحد حذرهم الرسول ﷺ ست مرات، ومع ذلك خالفوا، فكانت مخالفة متعمدة فلابد لها من مصيبة، وإن كان الجيش الذي خالف هو جيش رسول الله ﷺ.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه: (ما كنت أحسب أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا، حتى نزل فينا ما نزل: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} [آل عمران:152]). فالمصيبة التي عمت الجيش كله بسبب مجموعة من المسلمين أصابتهم الدنيا؛ لأن هذا المرض قد ظهر فيهم من قبل، فقد كان متغلغلاً قبل غزوة أحد، فكان لابد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتفتيش عن إيمان الآخرين، وطاعتهم لله عز وجل وعبادتهم له والتزامهم بمنهجه سبحانه وتعالى، لكن عندما تسأل الإنسان عن دنياه ولا تسأله عن آخرته تؤثر فيه تدريجياً، حتى تصير مصيبة كبيرة تعم المسلمين جميعاً. فالوضع الذي كان في أحد هو مصيبة تمكن الدنيا من القلب حتى تدفع المسلم إلى المخالفة الصريحة المتعمدة لكلام الحبيب ﷺ.

مصيبة قتل سبعين من المسلمين بسبب مخالفة الرماة

المصيبة الثانية التي حدثت في أحد: قتل سبعين من المسلمين بسبب خطأ من الأخطاء.

وقد قلنا قبل ذلك: إن استشهاد سبعين ليست خسارة، بل هي ميزة عظيمة من الله سبحانه وتعالى لهم، فقد انتقاهم شهداء، لكن أن يقتلوا بسبب خطأ من المسلمين هذا غير مقبول. إن قتلوا وهم يؤدون كل ما عليهم ويحاربون كما في بدر حرباً متكاملة شاملة، ويأخذون فيها بكل أسباب النصر، ويتصفون بكل صفات الجيش المنصور، فليس هناك مشكلة، بل بالعكس هذه نعمة من الله سبحانه وتعالى، لكن أن يقتلوا بسبب خطأ، فهذا يحتاج إلى وقفة.

مصيبة قعود بعض المسلمين عن القتال للإحباط النفسي

المصيبة الثالثة: هو قعود بعض المسلمين عن القتال إحباطاً، فالإحباط غير مقبول أبداً في عرف المسلمين، بل هو من شيم الكافرين، قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر:56]. وقال: {إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف:87] فالإحباط ليس من صفات المؤمنين أبداً، فعندما يقعد المسلم ويفتر عن القتال، والقتال ما زال ناشباً في كل مكان فهذا غير مقبول، حتى وإن أشيع أن الرسول ﷺ قد قتل.

مصيبة الفرار من الزحف من قبل بعض المسلمين

المصيبة الرابعة الخطيرة: أن بعض المسلمين سمعوا نداء الرسول ﷺ في آخر الموقعة: (إلي عباد الله إلي عباد الله) ومع ذلك أصروا على الفرار، فيا لها من كارثة، بل هي كبيرة من الكبائر، لكن كل ذلك تجمعه كلمة واحدة يقال لها: مصيبة، فغزوة أحد كانت مصيبة، لكن من ورائها خير كثير، وهذه المصيبة في الأساس جاءت من ذنب واحد، جاءت من غياب عنصر واحد من

عناصر قيام الأمة المسلمة، جاءت من غياب صفة واحدة من صـفات الجـيش المنتصر، وهـي عدم حب الدنيا وتقديمها على الآخرة، فلما حصل الحب للدنيا وقدمت على الآخـرة ألقـى الله عز وجل في قلوب المسلمين الوهن والضعف.

تذكرون حديث المصطفى ﷺ لما سألوه عن الوهن الذي يصيب المسلمين؟ فقال: (حب الـدنيا وكراهية الموت) فالمسلمون أحبوا الدنيا في موقعـة أحـد فحـدثت المصـيبة، ودخـل الـوهن في قلوبهم، فهم لما كانوا أقوياء قتلوا أحد عشر فارساً من بني عبـد الـدار حـاملاً للـواء، وسـقط اللواء مع وجود كل هؤلاء الفرسان من المشـركين، لكـن لمـا دخلـت الـدنيا في قلـوب بعـض المؤمنين رفع اللواء المشرك، وكانت الحاملة له امرأة من المشركين. هذه الموازنات لابد أن نفكـر فيها جيداً، فالنصر والتمكين من عند رب العالمين سبحانه وتعـالى، ولا ينـزل سـبحانه وتعـالى هذا النصر والتمكين إلا على من أخذ بأسباب النصر الكاملة واتصف بصفات الجيش المنصور كاملاً دون نقص.

ومع ذلك هل كانت هذه المصيبة شراً محضاً أم كان في باطنها خير؟

الجواب كان في داخلها خير كثير، فمع كل هذه الكوارث التي حدثت في ذلك اليوم، ومع فقد سبعين من أعظم صحابة رسول الله ﷺ، ومع كون هذه المصيبة تغلغلت في قلـوب المسـلمين، وشعروا بالخزي والعار والذل والهوان لفرارهم من أرض القتال إلا أنه كـان في داخلهـا خـير كثير.ما هو هذا الخير الذي كان في باطن غزوة أحد؟ وما هي الطريقة التـي اتبعهـا رسـول الله ﷺ لإخراج المسلمين من هزيمتهم النفسية؟ وما هو المنهج الرباني الحكيم الـذي نـزل ليعـالج كل صغيرة من صغائر الذنوب، أو كبيرة من كبائر الذنوب في قلوب الصحابة رضي الله عـنهم وأرضاهم؟ وكيف عاد المسلمون من جديد إلى مطاردة الكـافرين؟ وكيـف عـادت الهيبـة مـن جديد للدولة الإسلامية بعد هذه المصيبة الكبيرة؟ هذا حديث قد يطول.

26

الخروج من مصيبة أحد

أحُداً لم تكن شراً محضاً، بل كان في داخل هذه المصيبة خير كثير. أول حكمة نراها في هذه المصيبة هي الحكمة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى تعليقاً على غزوة أحد في آيات سورة آل عمران، ونحن بحاجة ماسة إلى أن ندرس هذه الآيات بدقة وتفصيل، خاصة عندما تمر أزمات أو مصائب كبرى على الأمة الإسلامية: يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران:166] لماذا؟ {وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} [آل عمران:166 - 167]، أي: التنقية والتصفية والابتلاء، فلو كانت حياة المؤمنين انتصارات بلا هزائم لدخل في الدين الإسلامي الصادق والكاذب، ولاختلط الحابل بالنابل، لكن عندما تحصل المصائب ينكشف الذي في قلبه مرض، ويبدأ بالمجاهرة بالعداء للإسلام؛ لأن الإسلام نسبياً أصبح ضعيفاً، والدولة الإسلامية بعد أحد أصيبت إصابة كبيرة، فمن كان يُخفي في قلبه الكفر ويظهر الإسلام أظهر ما كان يخفي، وفعلاً بعد أحد جاهر كثير من المنافقين بنفاقهم، وقد رأينا أن 300 انسحبوا قبل بدء معركة أحد، فما بالك بعد المصيبة التي حصلت؟ يقول الرواة: (نجم النفاق في المدينة المنورة بعد أحد)، فالمسلمون عرفوا أناساً كثيرين بنفاقهم، كانوا في الظاهر يصلون ويصومون ويتكلمون بالخير، لكن الشر يكمن في داخلهم، هذا الشر خرج وظهر للناس بعد أحد.

من الممكن أن الرسول ﷺ يعرف هؤلاء بالوحي، فقد أسر بأسمائهم إلى حذيفة بن اليمان، فمن الممكن أن نكشف أمرهم بالوحي ويكفي، لكن الله سبحانه وتعالى يعلم أن الوحي سينقطع بوفاة الرسول ﷺ، وهو آخر الأنبياء ﷺ، فلابد أن يعرف المسلمون المنافقين إلى يوم القيامة، فما هي الطريقة لمعرفتهم؟ الطريقة: هي حدوث المصائب على الأمة الإسلامية سواء في زمن الرسول ﷺ، أو في الأزمان اللاحقة إلى يوم القيامة، فكلما تحصل مصيبة وتضعف الدولة الإسلامية وتمر بأزمة يظهر النفاق. هذه طريقة تعرفنا وتفصل لنا نوعية المسلمين في داخل الدولة الإسلامية، وعندها تستطيع أن تختار الناس الذين تعتمد عليهم في إقامة صرح الأمة الإسلامية، فلن تختار منافقاً ولن تُسِر بأمر خطير إلى أحد المنافقين، وهذا إن شاء الله ستتكلم عنه بالتفصيل عند الحديث عن الأحزاب وتبوك، فهي غزوات يتضح فيها أمر المنافقين وضوحاً بيناً، لكن أذكركم بالآية الكريمة التي نزلت تعليقاً على غزوة تبوك، وسنفسرها إن شاء الله عندما نتكلم عن غزوة تبوك، قال الله عز وجل: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:47].

إن عبد الله بن أُبي انسحب من جيش النبي ﷺ بـ 300 مقاتل، وقد يتخيل أن في انسحابهم أزمة، وهذا فهم خاطئ، فإن وجود هؤلاء الثلاثمائة داخل المعركة قد يزيد من خذلان المسلمين الذين ثبتوا، فيغيروا رأيهم، والله عز وجل يقول: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة:47] أي: فيكم أيها المؤمنون الصادقون من يستمع إلى كلام المنافقين.

في باطن المصيبة رحمة وخير، فالمسلمون سيعرفون الأشخاص الذين يتكلمون بالسوء على الإسلام معرفة واضحة.

معرفة المسلمين شؤم معصية أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ

من الآثار والحكم: أن يعلم المسلمون شؤم معصية أمر الله عز وجل، وشؤم معصية أمر الرسول ﷺ، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:65] هذه الآية نزلت في ظرف معين وفي حدث معين، لكن الأوضاع عامة تشمل كل الأحداث، وأحاديث الرسول ﷺ بين أيدينا، وإذا لم نُحكِّم الرسول ﷺ في أمور حياتنا في كل صغيرة وكبيرة؛ فإننا سنصاب بمثل مصاب أحد، فمشكلة أحد الرئيسة بدأت من أن مجموعة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ مع علمهم به.

وهذا أمر خطير؛ لأنه إذا أمر الرسول ﷺ فلا خيرة لنا، قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب:36]، وإذا لم نأتمر بأمر الرسول ﷺ قال: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا} [الأحزاب:36]، فيحصل مثل أُحد وأعظم منها، وأُحد تتكرر كثيراً في حياتنا، كم قد أمرنا الرسول ﷺ بأمور وخالفنا هذه الأمور، ويخيل لنا أننا نعمل ما هو أفضل وأصلح لنا ولأمتنا، أمرنا الرسول ﷺ بعدم التعامل بالربا ونتعامل أحياناً بالربا، ونقول: إن هذا فيه خير للأمة، أمرنا بعدم الإباحية والمجون والفواحش، ومع ذلك يرتكبها كثير من المسلمين ويصرحون بها ويجاهرون بها، سواء كان للسياحة أو لحرية المرأة، أو للترفيه، أو لأخذ قسط من الراحة، مبررات كثيرة جداً كلها مخالفة لأمر الرسول ﷺ، ومع ذلك تفعلها وأنت تعلم أنك مخالف، فهذا يؤدي إلى مصائب كثيرة فالمصيبة التي حدثت في أُحد هي إحدى نتائج المعصية، وكان هذا أمراً لافتاً للنظر، فلو كان الأمر مرّ بسلام لما عرفنا أن مخالفة أمر الرسول ﷺ قد تؤدي إلى مصيبة، حتى في وجود ذلك الجيل العظيم من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

وضوح خطورة الدنيا وضرورة الحذر منها

من الآثار والحكم: لفت أنظار المسلمين جميعاً سواء الذين شاركوا في أحد أو الذين يأتون من بعدهم إلى خطورة الدنيا، حتى جيش الصحابة وهو أعظم الأجيال لو أصيب بمرض الدنيا فإنه سيصاب بمثل مصاب أحد؛ لذلك ستجد أحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ تتحدث عن الزهد في الدنيا وتأمر المسلمين بالحذر التام من خطورة أمر الدنيا، وهناك أبواب كثيرة في ذم الدنيا موجودة في كتب الصحاح والسنن، وقد كان الرسول ﷺ لا يجد فرصة إلا وينبه المسلمين فيها إلى خطورة الدنيا، من ذلك أنه قال: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء).

على هذا النسق من التحذير والتنبيه جاءت أحاديث كثيرة جداً، كذلك القرآن الكريم قلّما تجد صفحة أو صفحتين من القرآن الكريم ليس فيها تنبيه أو تحذير من أمر الدنيا، وقد رأينا مصيبة الدنيا في أحد حين قال الصحابة: الغنيمة الغنيمة. حتى بعد النصر وبعد استيفاء معظم صفات الجيش المنصور، وحتى بعد طلب الآخرة في أول المعركة، إن دخل طلب الدنيا فإن هذا يؤثر على الجيش بكامله. هذه المصيبة الكبيرة لفتت الأنظار بوضوح إلى خطورة الدنيا، ولو مر الأمر دون مصيبة أو كارثة لما عرف أحد أن الدنيا خطيرة لهذه الدرجة.

إعلام المسلمين أن خطأ بعضهم يعمهم جميعاً

من الآثار والحكم: إعلام المسلمين أن خطأ البعض يعم على كل المسلمين، فالذين خالفوا هم أربعون صحابياً فقط، نزلوا من فوق جبل الرماة، فحدثت كل التداعيات الخطيرة داخل موقعة أحد نتيجة مخالفة هؤلاء الأربعين، وهذا يدل على قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الصف المسلم، فنحن كجيل يريد أن يرفع رأسه وسط العالمين ويقود الأرض إلى

الخير، لابد أن يبحث عن الأمراض التي تصيب الأمـة، انظـر إلى جـارك وأخيـك وصـاحبك وأولادك وأبيك وأمك ورحمك، كل الدوائر التي حولك إن رأيت فيهـا معصـية أو أخطـاء أو منكراً أو بعداً عن رب العالمين سبحانه وتعالى فاعلم أن ضرر ذلك لن يصيب هؤلاء فقط، بـل سيقع الضرر عليه وعليك وعلى الأمة بكاملهـا، وتـذكروا حـديث السـفينة الـذي يقـول فيـه الرسول ﷺ: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مـروا عـلى من فوقهم، قالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا). هم يريدون خيراً بهذا الأمر، لكن لا يدركون ما وراءه، فما بالـك لـو كـانوا يريـدون شراً؟ هـم يريـدون أن يتجنبـوا إيـذاء غيرهم؛ لذلك يريدون أن يخرقوا خرقاً في الجزء الأسفل من السفينة، وهـذا سـيؤدي إلى غـرق السفينة، يقول ﷺ: (فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعـاً) أي: أن السـفينة سـتغرق، فالـذي عصى والذي لم يعص كلهم سيغرقون، ثم قال: (وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً).

هذه فائدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجدير بالأمر أن مرض الدنيا الـذي ظهـر يـوم أُحد كان له جذور سابقة ليوم أحد، فلابـد للمسـلمين أن يحـذروا مـن هـذه الأمـراض التـي تفشت في جيش أُحد.

حكمة إبقاء زعماء الكفر في غزوة أحد أحياءً بعد الغزوة

من الآثار والحكم اللطيفة في يوم أُحد: أن المسـلمين لم يقتلـوا عـدداً كبـيراً مـن الكـافرين مـع رغبتهم في قتلهم، والله عز وجل أراد أن يحفـظ دمـاء هـؤلاء الكـافرين؛ لأنهـم بعـد سـنوات سيسلمون ويصبحون نصراً للإسلام والمسلمين. انظر إلى القائد الأعلى لجيش مكـة أبي سـفيان والقواد الثلاثة الذين كانوا يساعدونه صفوان بن أميـة، وخالـد بـن الوليـد، وعكرمـة بـن أبي جهل، هؤلاء القواد الأربعة سواء كان القائد العام أو الثلاثة الذين تحته أسلموا، وكلهـم كـان

لهم دور كبير في المعارك الإسلامية، وليس هؤلاء فقط، بل ومن النساء هند بنت عتبة التي كانت تحمس الجيش للقتال، والتي بقرت بطن حمزة رضي الله عنه وأرضاه ولاكت كبده، أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها، فهؤلاء القادة الأربعة وهند بنت عتبة شاركوا في موقعة اليرموك، وكان لهم دور كبير في نصر المسلمين في اليرموك، فأحياناً يكون في داخلنا رغبة قوية في هلكة الظالمين، ورغبة قوية في أن يخلصنا الله سبحانه وتعالى من فلان وفلان وفلان؛ لأنهم كادوا للإسلام ومكروا به، ومع ذلك يخبئ الله عز وجل لنا خيراً كثيراً في إبقائهم، فبعد قليل سيصيرون مسلمين، ويكونون هم أنصار الإسلام.

اصطفاء الله كثيراً من المجاهدين للشهادة

من الآثار والحكم التي نريد أن نقف معها وقفة: أن في هذه المصائب التي تنزل على الأمة الإسلامية ينتقي الله عز وجل بعضاً من المسلمين ليتخذهم شهداء، ومن الممكن أن يكونوا شهيدين أو ثلاثة في المعركة، عندها لن تأخذ في بالك قيمة الشهداء وعظمتهم، لكن حين يستشهد سبعون من المسلمين، فهذا أمر لافت للنظر جداً، وخاصة بهذه الطريقة المؤثرة التي حدثت يوم أُحد.

إن قصص الشهداء تفتت الأكباد خاصة عندما تقرأ قصة الشهيد الأول والثاني والثالث والعاشر إلى السبعين، هذا لابد أنه سيلفت النظر بوضوح إلى قيمة الشهداء في الميزان الإسلامي، فالقرآن مركز على قضية الجهاد، ويلفت النظر إلى أن الجهاد يكون بالنفس والمال، فالجهاد في غاية الأهمية، لا تقوم أمة إلا بالجهاد في سبيل الله، وإن تركت الأمة الجهاد في سبيل الله ذلت: (إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا يرفعه حتى تعودوا إلى دينكم).

هذا هو كلام الرسول ﷺ، وهذا هو الواقع الذي نـراه في كـل صـفحة مـن صـفحات القـرآن الكريم، قال تعالى: {إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [التوبة:111]، لـيس المـال فقط، بل {أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْـدًا عَلَيْـهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهَّ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّـذِي بَـايَعْتُمْ بِـهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:111]، وهذا كثـير جـداً في القـرآن الكـريم: {لا يَسْـتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ} [التوبـة:44]، فأنـت عنـدما تجاهد بنفسك فهذا لاشك أنه شيء عظـيم، وعنـدما تفقـد نفسـك وأنـت ثابـت في سـبيل الله سبحانه وتعالى فهذا شيء أعظم، وعندما تهوى الموت في سبيل الله ويصبح أعظم أمنيـة عنـدك فلا شك أن هذا أعظم وأعظم وأعظم، وكل هذا رأيناه في أُحد، وليسـت المسـألة أنـك تكـون شهيداً بمجرد رغبة عابرة تأتي على الذهن في لحظة من لحظات علو الإيـمان أو القـرب مـن الله عز وجل، ليست هذه السنة، السنة أن طريق المسلم طويل وصـعب حتـى يصـل إلى الشـهادة، نعم، هناك استثناءات وهناك بعض الظروف لا تكـون عـلى هـذه الصـورة، لكـن الأصـل أن الطريق طويل. كنت مستغرباً لماذا الرسول ﷺ في الحديث الذي ذكر فيـه أن الجهـاد هـو ذروة سنام الإسلام ذكر أموراً كثيرة لا علاقة لها بالجهاد قبل أن يتكلم عن الجهاد؟ يـا تـرى مـا هـو الرابط بين هذه الأمور وبين الجهاد؟ ماذا قال الرسول ﷺ لـ معاذ بـن جبـل رضي الله عنـه لمـا سأله؟ سأل معاذ بن جبل الرسول ﷺ سؤالاً جميلاً، ولكنه صعب، قال: (يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، فقال له ﷺ: لقد سألتني عن عظيم -أي: أمـر كبـير- وإنه ليسير على من يسره الله عليه -وما هو الطريق؟ - قال: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً)

الأمر الأول: توجيه النية الكاملة لله عز وجل عند المسلم، حتى يصل في يوم مـن الأيـام إلى أن يكون مجاهداً، ويصل بعد ذلك إلى الشهادة.

قال: (وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)، وليس من المعقول أبداً أن يكون مجاهداً دون أن يعمل هذه الفرائض، ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟ قال: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا قول الله عز وجل: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:16] حتى بلغ قوله: {يَعْمَلُونَ} [السجدة:17]) فالرسول ﷺ تكلم عن بعض أعمال الخير من الفرائض والنوافل من صيام وصدقة وقيام كلها مهمة جداً في الطريق للجهاد في سبيل الله، ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه)، قلت: (بلى يا رسول الله) قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)، ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) قلت: (بلى يا رسول الله) فأخذ لسانه وقال: (كف عليك هذا)، فقلت: (يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟) فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس على وجوههم أو قال: على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم).

طريق الجهاد طريق طويل، لا يستطيع أن يصل إليه المسلم دون أن يؤدي الفرائض التي عليه، ولن يصل إلى طريق الجهاد في سبيل الله عز وجل من واظب على المعاصي والمخالفة، وواظب على عدم اتباع أمر رسول الله ﷺ في الفرائض. ثم بعد الفرائض النوافل أيضاً، لن يصل إلى الجهاد إلا من قام الليل وتصدق وصلى النوافل وصام صيام النفل، فإن فعل ذلك كله أصبح مستعداً لأن يكون مجاهداً في سبيل الله، فيبدأ في حبه للجهاد في سبيل الله، فإنه لن يصل إلى الجهاد في سبيل الله إلا من أحبه، ولن يصل إلى مرتبة المجاهدين إلا من طلب الجهاد بصدق في سبيل الله، ولابد أن يكون كله في سبيل الله. قضية الإخلاص في العمل قضية واضحة، فلو أنك تقاتل في سبيل القومية، أو في سبيل الوطنية أو في سبيل أهلك أو في سبيل كذا وكذا،

كل هذا لا يصل بك إلى درجة الشهادة، فهذه محطة مهمة من محطات الوصول إلى الشهادة أن تكون مجاهداً في سبيل الله.

بعد الإخلاص تحب الموت في سبيل الله، وهذه درجة أعلى، فقبل أن تصل إلى الشهادة لابد أن تحبها وتكون طالباً لها، وقد كان الرسول ﷺ دائماً يحبب الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم في قضية الموت في سبيل الله، وإنه لمكروه أن تطلب الموت في أي ظرف، إلا إذا كان في سبيل الله وكنت في أرض القتال، عندئذٍ ستطلب من الله سبحانه وتعالى أن ينعم عليك بنعمة الموت في سبيله سبحانه وتعالى، والرسول ﷺ كان يقول في الحديث: (لوددت أني أُقتل في سبيل الله، ثم أُحيا ثم أُقتل، ثم أُحيا ثم أُقتل، ثم أُحيا ثم أُقتل) هذه هي أمنية رسول الله ﷺ، وهذا الحديث في البخاري فإن قيل: لماذا يتمنى عملية القتل المتكررة؟ يفسر ذلك الرسول ﷺ في حديث آخر في البخاري أيضاً يقول: (ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة)؛ لأنه عند دخوله الجنة يلقى خيراً عظيماً جداً نتيجة الشهادة؛ فيتمنى أن يعود فيقتل ليضاعف له من الخير في الجنة.

قد صح في مسند أحمد بن حنبل والطبراني أن رسول الله ﷺ يقول: (إن للشهيد عند الله سبع خصال: أن يُغفر له في أول دفعة من دمه ويُرى مقعده من الجنة، ويُحلى حلة الإيمان، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة،ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويُزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفع في سبعين إنساناً من أقاربه).

نماذج بطولية من شهداء أحد

كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يستمعون إلى الأحاديث في فضل الشهيد وما أعـد الله له في الجنة فتاقت نفوسهم بصدق إلى الشهادة، فهذه بعض نماذج من الشهداء في غـزوة أُحـد، وبعض الأمثلة الفاضلة لسبعين شهيداً.

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

أول شهيد يلفت نظرك: هو حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضـاه؛ فسـيد الشـهداء هـو حمزة رضي الله عنه، أسلم في العام السادس تقريباً من البعثة النبوية، أي: قبل عشر سنوات مـن غزوة أحد، وسلك طريقاً طويلاً جداً من الكفاح مع رسول الله ﷺ؛ سواء في فـترة مكـة أو في فترة المدينة، سواء في داخل الشعب أو في أثناء الهجرة أو بعد إقامة الدولة أو في بدر، فقد رأينـا له مواقف مميزة في بدر، وكان المشركون يقولون: (من هذا الذي كان معلماً بريشة في صـدره؟) قالوا: (إنه حمزة) فقالوا: (هذا الذي فعل بنا الأفاعيل)، كان له طريـق طويـل في الجهـاد حتـى أكرمه الله سبحانه وتعالى بالشهادة في يوم أحد. كان حمزة قبل الإسلام مجرد رجل يحب الصـيد والمتعة واللهو، ويسجد لصنم، عاش حياة ليس لهـا قيمـة ولا وزن في حيـاة الأرض، وبعـدما أسلم انتقل من كونه سـيداً في قبيلتـه الصـغيرة إلى كونـه سـيداً لشـهداء الأرض أجمعـين يـوم القيامة، واستشهد في يوم أُحد رضي الله عنه.

مصعب بن عمير رضي الله عنه

كان طريق مصعب بن عمير رضي الله عنه طـويلاً جـداً، حتـى يكـون شـهيداً، أسـلم مبكـراً، وخاض جهاداً في سبيل الله في مكة والحبشة والمدينة وبدر وأحد، في محطـات كثـيرة أبـلى بـلاءً حسناً، وتعب كثيراً وبذل كثيراً وضحى كثيراً، ثم في النهاية أنعم الله عز وجـل عليـه أن مـات

شهيداً في سبيله، وكأنها هدية، وقبل أن يُستشهد قطعت يمينه وقطعت شماله ومع ذلك لم تسقط الراية من يده؛ لأنه كان مشتاقاً إلى الشهادة، وطالباً للموت بصدق، وإن تصدق الله يصدقك: (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه).

أُستشهد مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه بعد رحلة كفاح طويلة، مر عليه رسول الله ﷺ فوقف عليه ودعا له، ثم قرأ: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:23]، ثم قال ﷺ: (أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فائتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يُسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه)، هذا الحديث في مستدرك الحاكم وهو صحيح. إن شهداء أحد يردون السلام على من سلم عليهم وإلى يوم القيامة، وزيارة شهداء أُحد أصبحت سنة شرعها لنا ﷺ، وكان دائم الزيارة لشهداء أُحد إلى مماته، وقبل الممات بقليل خرج ﷺ ليزور شهداء أُحد ويستغفر لهم، فهذه قيمة كبيرة في ميزان شهداء أُحد رضي الله عنهم أجمعين.

سعد بن الربيع رضي الله عنه

ذكرنا قصة المؤاخاة بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وكيف كان يريد أن يدفع نصف ماله ويطلق إحدى زوجاته لـ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، فكان سعد في تضحية وبذل حقيقي، وخاض طريقاً طويلاً حتى دخل موقعة أُحد، وفي يوم أُحد قاتل قتالاً عظيماً، وبعدما انتهت الموقعة وذهب المشركون، أخذ الرسول ﷺ يطمئن على أصحابه فلم يجد سعد بن الربيع، فأمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يبحث عن سعد بن ربيع وقال له: (إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟) -أي: كيف حالك؟ - قال زيد بن ثابت: (فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو في آخر رمق، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم)، فقلت: (يا سعد

إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول لك: (أخبرني كيف تجده؟) فقال: (وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار)، انتبه إلى اللحظة الأخيرة من حياته ما زال إيجابياً يحمس الناس على الجهاد في سبيل الله، فمن الممكن أن يقول: لقد خسرت كل شيء وراح عمري، وراحت حياتي وراحت أموالي وتجارتي، لكنه لم يفكر في كل هذا، كل الذي كان يفكر فيه وهو يعالج سكرات الموت أن يوصي الأنصار بقوله: (لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف).

سبحان الله فأهم قضية عنده الحفاظ على رسول الله ﷺ، حتى وهو في آخر لحظة من لحظات حياته؛ لذلك فإن سعد بن الربيع له قيمة كبيرة في ميزان الإسلام.

عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه

يقول عبد الله بن عمرو بن حرام قبل موقعة أُحد: (رأيت في النوم مُبَشِّر بن عبد المنذر رضي الله عنه من شهداء بدر، يقول: أنت قادم علينا بعد أيام، فقلت: وأين أنت؟ قال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء، قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى، ثم أُحييت)، فذهب عبد الله بن عمرو بن حرام إلى رسول الله ﷺ وأخبره برؤياه، فقال ﷺ: (يا عبد الله هذه الشهادة). اشتاق عبد الله بن عمرو بن حرام اشتياقاً حقيقياً للشهادة، وخرج في غزوة أحد وهو بهذه النية والعزيمة على أن يموت في سبيل الله، ولما رأى عبد الله بن أبي ينسحب بجيشه ذهب إليه ونصحه بالعودة، لكن عبد الله بن أبي أصر على الهروب من أرض المعركة، فلعنه عبد الله بن عمرو بن حرام وقال: (تباً لك أبعدك الله سيغني الله عز وجل عنك رسوله الكريم ﷺ)، وأكمل المعركة بهذه الحمية، وقاتل قتالاً شديداً حتى قيل: إنه أول من قتل يوم أحد رضي الله عنه وأرضاه، وكان عنده بنات كثيرات وديون. بعد استشهاده جاء ابنه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما وأرضاهما أجمعين حزيناً لفقد والده مهموماً، فأخذ يكشف الغطاء عن وجه أبيه ثم

يغطي، وكرر ذلك عدة مرات، وكان الصحابة رضي الله عنهم ينهونه، والرسول ﷺ لا ينهاه؛ لأنه كان يقدر الموقف الذي هو فيه، فلما رأى جابراً منكسراً هذا الانكسار الكبير، يقول جابر: (قال لي رسول الله ﷺ: يا جابر ألا أخبرك بما لقي الله عز وجل به أباك؟) قلت: (بلى)، قال: (ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً، فقال: يا عبد الله تمنَّ علي أعطك، قال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية)، يتمنى نفس أمنية الرسول ﷺ (لوددت أن أُقتل ثم أُحيا، ثم أُقتل ثم أُحيا)، قال: (يا رب تُحييني فأُقتل فيك ثانية، قال: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب فأبلغ من ورائي)، سبحان الله! حتى بعد موته حريص على الناس، وحريص على أهله والأنصار، وحريص على المهاجرين وعلى كل المسلمين، قال: (فأبلغ من روائي -أي: بيّن للمسلمين قيمة الشهادة وكرامة الشهيد- فأنزل الله عز وجل: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:169 - 171]). روى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وغيرهم، وهو صحيح.

انظر إلى قيمة الشهيد، صار في حوار وخطاب مع رب العالمين سبحانه وتعالى بمجرد الشهادة.

خَيْثمة أبو سعد رضي الله عنه

كان سعد بن خيثمة في بدر قد استهم مع أبيه للخروج إلى بدر، وخرج سهم سعد واستشهد في بدر، وقبل وقعة أُحد حدث حوار لـ خيثمة مع الرسول ﷺ يقول فيه: (لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت -والله- عليها حريصاً حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه فرُزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: اِلحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد -والله- يا رسول الله

أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبر سني ورق عظمي وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنـة)، فـدعا لـه ﷺ بـذلك، فأُستشـهد يـوم أحد)، فقد كان يريد أن يستشهد في سبيل الله، واشتاق اشتياقاً حقيقياً إلى المـوت في سـبيل الله، وصدق الله فصدقه الله.

عمرو بن الجموح رضي الله عنه

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه وأرضاه أعرج شديد العرج، وكان كبـيراً في السـن عمـره أكثر من الستين سنة، وعنده أربعة أولاد كلهم يقاتلون في سبيل الله، وقـد خرجـوا يـوم أحـد، وأصر عمرو على الخروج إلى أحد؛ لأنـه سـمع قضـية الشـهادة، وتاقـت نفسـه إلى أن يمـوت شهيداً، لكنه معذور لعرجته وكبر سنه، وأولاده يكفونه ذلك، ولكنه أصر على الخروج، فـأبى أولاده، وأخبروه بأن الله قد جعل له رخصة، وأنهم يكفونه ذلك، فذهب عمرو بن الجموح إلى الرسول ﷺ يشكو أولاده ويقول: (يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرى أن أُستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة)-أي: هذه الإعاقة لن تعوقني عـن دخـول الجنة شهيداً- فقال ﷺ يخاطب عمرو بن الجموح: (أما أنت فقد وضع الله عنـك الجهـاد، ثـم قال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة)، فخرج عمرو بن الجموح بهذا الصدق مع الحبيب ﷺ في أحد، واستشهد مع الشهداء رضي الله عنه.

حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه

خرج حنظلة بن أبي عامر وهو في ليلة عرسه للجهاد في سبيل الله، ومن استعجاله خـرج وهـو جنب، وقاتل في أحد حتى استشهد، وبعد موته نظر النبي ﷺ إلى نعشه، فوجـد أن المـاء يقطـر منه رضي الله عنه وأرضاه، فتعجب ﷺ، فأرسل إلى زوجته وقـال: (مـا بالـه؟ فـذكرت قصـته

فقال: سبحان الله إن الملائكة تغسل حنظلة)، وأصبح بعد ذلك يحمل اسم: (غسيل الملائكة) رضي الله عنه وأرضاه.

عبد الله بن جحش رضي الله عنه

سار عبد الله بن جحش رضي الله عنه في طريق طويل وكفاح مرير، من أيام مكة المكرمة وهجرته إلى الحبشة مرتين، وهجرته بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وخروجه في بدر ثم خروجه في أحد، فتعالوا لنرى اشتياق عبد الله بن جحش رضي الله عنه للشهادة، تعالوا نرى الحوار اللطيف الذي دار بينه وبين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما قبل بدء المعركة، قال عبد الله بن جحش لـ سعد: (ألا ندعو الله؟) فخلواَ في ناحية، فدعا سعد فقال: (يا رب إذا لقيت العدو فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه)، فأمَّن عبد الله بن جحش. كان دعاء سعد بن أبي وقاص دعاءً طبيعياً، يدعو أنه يقاتل أحد الكفار فينتصر عليه ويأخذ سلبه، لكن انظر إلى دعاء عبد الله بن جحش واشتياقه الحقيقي إلى الشهادة في سبيل الله، قال: (اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده شديداً بأسه أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت). يتمنى أن يقابل أحداً من الكفار، فيتقاتلا فيقتله الكافر، ثم يمثل بجثته، فيقطع أنفه وأذنه؛ ليسأله رب العالمين سبحانه وتعالى: من فعل فيك هذا؟ ومن فعل فيك هذا؟ فيقول: فيك يا رب! وفي رسولك ﷺ، فيقول الله عز وجل: صدقت.

انظر إلى تعليق سعد بن أبي وقاص على هذه الدعوة، يقول سعد بن أبي وقاص لابنه: (يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط). استجاب الله دعاءه كما تمنى، وصدق في ذلك.

الأُصَيْرِم عمرو بن ثابت بن قيس بن وقش

إن طريق الوصول إلى الشهادة طريق طويل، وهذه قاعدة، لكن للقاعدة استثناء، فمن الممكن أن يستشهد شخص عمره في الإسلام قصير جداً، لكن تكون عنده رغبة حقيقية في الشهادة في سبيل الله فيموت شهيداً، عندنا في القرآن قصة سحرة فرعون الذين انتقلوا من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان في لحظة، ثم أصبحوا شهداء في سبيل الله، أيضاً في موقعة أحد مثال كمثال هؤلاء، رجل انتقل من الكفر إلى الإسلام في لحظة ثم أصبح شهيداً.

هذا الرجل هو الأصيرم من الأوس من بني عبد الأشهل من قبيلة سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه، لما أسلم سعد بن معاذ أسلمت كل قبيلته إلا الأصيرم، تأخر إسلامه إلى يوم أحد، ففي يوم أحد وجد أن الإسلام قريب إلى قلبه، فانتقل إلى المسلمين فوجدهم قد خرجوا إلى أحد، فلحق بهم فوجدهم يقاتلون، فدخل يقاتل معهم، ثم أصيب ووقع على الأرض، واقترب الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم منه فقالوا: (هذا الأصيرم ما جاء به؟ قد كان كافراً! لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر)، ثم سألوه: (ما الذي جاء بك أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون)، ومات من لحظته، آخر كلمة قالها: إنه قاتل في سبيل الله، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: (هو من أهل الجنة)، في لحظة واحدة فقط، في لحظة إيمان وصدق انتقل من معسكر الكفر إلى الإيمان، ثم أصبح شهيداً، ثم أصبح في الجنة، كل تاريخه في الإسلام نصف يوم تقريباً لم يكمل يوماً كاملاً، يقول أبو هريرة: (ولم يصل الأصيرم لله صلاة قط) فاعلم يا أخي المسلم أن من أهل الدنيا من يعمل بعمل أهل النار ثم يسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

مخَيْرِيق رضي الله عنه

في غزوة أُحد شارك واحد من اليهود كان اسمه: مخيريق، لما خرج ﷺ لقتال المشركين في أحد جمع مخيريق اليهود وقال لهم: يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق، قالوا: (إن اليوم يوم السبت)، قال: (لا سبت لكم)، فأخذ سيفه وعدته، وقال: (إن أصبت فمالي لمحمد ﷺ يصنع فيه ما شاء)، ثم ذهب مع المسلمين وقاتل حتى استشهد، فقال ﷺ: (مخيريق خير يهود).

قصة قزمان وقتاله في غزوة أحد

على العكس من قصة الأصيرم كانت قصة قزمان، كان قزمان في غزوة أحد قد قتل ثلاثة من حملة راية المشركين الواحد تلو الآخر، ثم قاتل بعد ذلك قتالاً شديداً حتى إن بعض الروايات تقول: إنه قتل سبعة أو ثمانية من المشركين، وفي آخر الموقعة وجدوه قد أثبتته الجراحات، فأخذه المسلمون وبشروه، قالوا: (هنيئاً لك الجنة)، فقال: (والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي)-أي: لا علاقة لي بالإسلام، لم أقاتل إلا قومية فقط- قال: (إن قاتلت إلا عن أحساب قومي)، ولولا ذلك ما قاتلت، ثم اشتدت به الجراح فنحر نفسه، وكان إذا ذكر عند رسول الله ﷺ يقول: (إنه من أهل النار)، فهذا الرجل قاتل في سبيل الوطنية والقومية وليس في سبيل الله، فضاع منه كل شيء مع أنه أبلى بلاءً حسناً في الموقعة، وأدى أفضل من كثير في الموقعة؛ لكنه قاتل من أجل الدنيا فما له في الآخرة من نصيب.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (أن رجلاً سأل الرسول ﷺ قال: الرجل يقاتل للمغنم -يريد الغنيمة- والرجل يقاتل للذكر -لكي يقول عنه الناس:

شجاع وجريء وقوي- والرجل يقاتل ليرى مكانه -أي: مكانه في قبيلته- فمن في سبيل الله؟ فقال ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).

وروى الترمذي وأبو داود، وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء، فالناس رجلان: مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب).

هذه حكم كثيرة موجودة في مصيبة أُحد، في داخل المصيبة جعل الله عز وجل خيراً، وقد تكلمنا على أكثر من حكمة لحدوث المصائب على الأمة الإسلامية، وليس معنى ذلك أننا نبحث عن المصائب، لكن لنعلم أن المصيبة ليست شراً محضاً، بل في باطنها خير كثير قد نرى هذا الخير وقد لا نراه، فالخير موجود، والله سبحانه وتعالى قد لا يأذن بها إلا لأن فيها خيراً للمؤمنين، قال سبحانه وتعالى في كتابه: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:166].

طرق علاج الهزيمة النفسية التي لحقت المسلمين في غزوة أحد

ما قصة الناس الذين لم يموتوا في غزوة أحد، وما قصة الناس الذين انكسروا انكساراً شديداً؟ وما قصة الناس الذين فروا من الزحف؟ وما قصة الناس الذين ما استطاعوا أن يدافعوا عن الإسلام والمسلمين؟ وما مقدار الهزيمة النفسية التي كانوا فيها؟ وما مقدار الانكسار الذي وصلوا إليه؟ وكيف كانت الحالة النفسية المتردية التي وصل إليها أولئك الفارون عندما وصلوا إلى المدينة المنورة، ورجع إليهم ﷺ بجراحه وآلامه ومصابه وسبعين من الشهداء؟ إن هذا الأمر صعب جداً على النفس.

إن هذه الكارثة النفسية كادت تودي بهؤلاء جميعاً وتذهب بهم، لولا أن نزل المنهج الرباني لعلاج هذه الهزيمة النفسية، ولإخراج المسلمين من الانكسار النفسي الذي يعقب المصائب والأزمات الشديدة. تعالوا لنعرف كيف يخرجنا الله من أزماتنا النفسية ويأخذ بأيدينا ويدخلنا الجنة بعد أن عصينا وأذنبنا وأخطأنا، بل وبعد أن ارتكبنا الكبائر، فالفرار من الزحف كبيرة من الكبائر؟ نحن في حاجة إلى أن نراجع سورة آل عمران؛ حتى نفهم قصة أحد، وسأمر بإيجاز على النقاط.

رفع الروح المعنوية للمسلم بلفت النظر إلى الجوانب الإيجابية فيه

النقطة الأولى: رفع الروح المعنوية للمسلم بلفت النظر إلى الجوانب الإيجابية فيه.

فكل واحد منا فيه جوانب إيجابية وجوانب سلبية، وفي وقت الهزيمة والنكسة وحدوث المصيبة تغلب على الإنسان بعض جوانبه السلبية من فشل وضعف، إن بعض جوانب الضعف موجودة في كل الناس، ففي هذه الأزمة لابد أن تقول له: أنت وعندك جوانب ضعف عندك جوانب قوة، قال الله تعالى: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:139] سبحان الله! بعد كل الكوارث التي حدثت في أحد، وبعد كل المخالفات الشرعية التي تمت على أيدي بعض الصحابة، يقول لهم رب العزة سبحانه وتعالى: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:139].

فالقرآن يلفت النظر إلى جوانب القوة في الإنسان، يأخذ بيده لكي لا يقع، ولكي يقوم بعد هذه المصيبة في لحظات علو الكافر على المؤمن، ففي مرحلة من مراحل الزمن لابد من لفت نظر المؤمن إلى أنه كما أن فيه ضعفاً أدى إلى علو الكافر، فإنه يملك جوانب إيجابية تسمح له بالقيام من جديد: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:139]، فعندما

ترى دولة غير مسلمة تعلو دول المسلمين فلا يهولنك ولا يحبطنك ذلك، بل انظر إلى ما في يديك من إمكانيات، فإمكانيات الأمة ضخمة، إمكانيات إستراتيجية، وإمكانيات اقتصادية، وإمكانيات مالية، وإمكانيات بشرية وإمكانيات كثيرة، بل عندك أشياء كثيرة أكثر من التي فقدتها، وأهم شيء تملكه ولم تفقده هو الإيمان بالله عز وجل، والإيمان برسوله الكريم ﷺ، والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر.

هذه القيمة العليا هي التي ترفع المسلم فوق أي إنسان في الأرض: {وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:139]، فهذه هي التي تجعلنا أعلم من غيرنا حتى في حال ضعفنا ومصائبنا وأزماتنا، ليس معنى هذا ألا يعمل المسلمون ويجتهدوا، ولكن معناه أن يعلموا أن أعظم مقومات قيامهم على الإطلاق: الإيمان، ولو ملكوه على حقيقته فإنهم الأعلى حقاً، وستكون لهم الدولة حتماً كما ذكر رب العالمين سبحانه وتعالى.

رفع الروح المعنوية بلفت النظر إلى الجوانب الإيجابية في الحدث نفسه

النقطة الثانية: رفع الروح المعنوية بلفت النظر إلى الجوانب الإيجابية في الحدث نفسه. وهذا الذي نتتكلم عنه: تمييز الصف وإظهار المنافقين من المؤمنين. وكذلك لفت نظر المسلمين إلى شؤم المعصية، وإلى خطورة الدنيا. وكذلك انتقاء بعض المسلمين ليكونوا شهداء، هذه كلها جوانب إيجابية في الحدث، وعندما ينظر المسلم إلى هذه الجوانب الإيجابية تطمئن النفس وتهدأ الروح.

معرفة كون المصائب مقدرة من الله

النقطة الثالثة: توضيح أن المصائب مقدرة حتماً، وستقع ما دام الله عز وجل قد قدر لها أن تقع، صحيح أن هناك أسباباً، وأن علينا أن نسعى قدر الإمكان لمنع الكوارث والمصائب؛ لأن الله

عز وجل أمرنا بالسعي وبأخذ الأسباب، ونعلم أننا نؤجر على العمل ما دام العمل موافقاً للشرع، ونعلم أيضاً أن الله عز وجل قادر على تعطيل الأسباب، ونعلم أنه قادر على إنفاذ الأسباب، فكل شيء بيده سبحانه وتعالى، فإن قدر للمصيبة أن تقع فليس هناك أي معنى لكلمة: (لو)؛ لأنها تفتح عمل الشيطان، فمهما قلنا: لو كنا عملنا كذا أو كذا، فإن المصيبة ستقع 100٪؛ لأن الله سبحانه وتعالى قدر لها أن تقع، فالمفروض أن تتصرف بشكل إيجابي مع المصيبة، ولا تأخذ الأمور بمنتهى الفتور والكسل والإحباط.

الوعد بالقيام من جديد والأمل بأن النصر قادم

النقطة الرابعة: الوعد بالقيام من جديد، والأمل في أن النصر قادم: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران:160] قاعدة محكمة، والله عز وجل لا ينصر إلا من نصره، ونصر الله عز وجل يكون بتطبيق شرعه، وإن قضى الله عز وجل بالنصر للمؤمنين فلا غالب لهم حتماً؛ لأن هذه سنة ثابتة إلى يوم القيامة، فيها تجدد الأمل دائماً في نصر قادم.

التربية بالتاريخ

النقطة الخامسة: التربية بالتاريخ، والتأكيد على أن القيام بعد السقوط أمر متكرر في السابق، وسيتكرر حتماً في الواقع وفي المستقبل: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ} [آل عمران:146]، ونفس هذه القصة حصلت قبل هذا بكثير، قال: {وَكَأَيِّنْ} [آل عمران:146] كلمة توضح الكثرة، فالأمر متكرر جداً، والحكايات التاريخية التي تتناول نفس المعنى أكثر من أن تحصى، فأي قصة واقعية حصلت في الماضي قبل كذا، يعلم الناس جميعاً أن هذه القصة ستتكرر، وأن القيام بعد السقوط ليس أمراً نادراً بعيد الحدوث، بل هو القاعدة التي يجب أن يبني عليها المؤمن حساباته.

ما أصابك أصاب عدوك أيضاً

النقطة السادسة: استشعار أن ما أصابك أصاب عدوك أيضاً، فيحصل عندك نوع من التهوين للمصيبة، ولا تظن أن جهدك الذي بذلته مع عدوك ذهب سدى، بل جهدك الذي بذلته أثر بعمق في عدوك، وراجع معي الآيات، يقول سبحانه وتعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ} [آل عمران:140]. ويقول في آية أخرى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء:104]، مرة قال: (مثله)، ومرة قال: (كما)، فلا تحسب أن عدوك قد انتصر نصراً بلا ألم، أو حقق ربحاً بلا خسارة، فمن المؤكد أنه خسر، فالمشركون في غزوة أحد فقدوا في بعض الروايات: 22 شخصاً، وفي أصح الروايات: 37 من القتلى، وهو رقم ضخم، والمسلمون استشهد منهم 70 مقاتلاً، لكن موتى بدر من المشركين 70 مقاتلاً والأسرى من المشركين 70، والله عز وجل ذكر ذلك في كتابه.

قال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} [آل عمران:165] أي: استشهد منكم 70 الآن، لكن في بدر انتصرتم وأخذتم 70 أسيراً وقتلتم 70 قتيلاً من المشركين، فلابد أن تذكر هذه الإصابات في طرف عدوك حتى تهدأ النفس ويطمئن القلب.

تداول السلطة بين الأمم والأفراد سنة من سنن الله

النقطة السابعة: من سنن رب العالمين سبحانه وتعالى أن تتداول السلطة بين الأفراد، بل بين الأمم، وأمة الإسلام ليست خارجة عن هذا القانون، فهي تتسلم قيادة الأرض في أحيان، ويتسلمها غيرها في أحيان أخرى: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:140]، فعندما تدرك ذلك يصير هذا أمراً متوقعاً وليس مستغرباً أن تفقد الأمة القيادة للأرض،

وعندما تحمل المصيبة سيكون هذا أحسن، أما إذا كنت تظن أنك دائماً منصور، فلا شك أنك ستهزم نفسياً عند إصابتك، وهذا ليس واقعياً.

ابتداء المسلم حياته الجديدة بمغفرة الله عز وجل له

النقطة الثامنة: أن المسلم يستطيع أن يبدأ بداية جديدة دون أخطاء، ويبدأ بصفحة بيضاء دون خطايا أو ذنوب مهما فعل قبل ذلك، فالمسلمون في أُحد أخطئوا خطأً فادحاً كما ذكرنا، عصوا الرسول ﷺ، وارتكبوا كبيرة من الكبائر هي الفرار من الزحف، ومع ذلك تنزل الآيات بالمغفرة للمسلمين عدة مرات، قال الله عز وجل وهو يصدر الحديث عن قصة أحد: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:133]. ثم ذكر من صفات هؤلاء المتقين: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [آل عمران:135]، وبعد قليل في الآيات قال: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} [آل عمران:152] ثم قال: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ} [آل عمران:155]، فسبب الفرار من الزحف أن الشيطان استزلهم ببعض ما كسبوا، ثم ذكر العفو مباشرة فقال: {وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ} [آل عمران:155]، فالصفحة البيضاء للمذنب تفتح أمامه طريق العمل الجديد.

محاسبة الإنسان يوم القيامة على الأعمال لا على النتائج

النقطة التاسعة وهي من أهم القضايا التي ترفع الهمة وتقوي العزيمة: أن الإنسان لا يحاسب يوم القيامة على النتائج، وإنما يحاسب على الأعمال، قال تعالى: {فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:148]، فالثواب الحسن حقاً هو ثواب

الآخرة، والذين انتصروا من الكفار في موقعة أو موقعتين قال الله عز وجل عنهم: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران:196 - 197].

القعود واليأس يوجبان العقاب من الله

النقطة العاشرة لإخراج المسلمين من الهزيمة النفسية: أن طول القعود وطول اليأس يوجب العقاب من رب العالمين سبحانه وتعالى، فلابد من توازن الكفة، تبشير وإنذار أيضاً، حتى يتعادل الخوف من عقاب الله، مع الرجاء في رحمته، فالعمر أيامه معدودة، وليس هناك وقت طويل للتفكير وإعادة الحسابات، بل يجب أن يعود المسلم إلى ربه سريعاً، وإذا كان الإنسان بطبيعته يخطئ فليس هناك أي مبرر أن يصر على الخطأ، قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران:144] ثم حذر بقوله: {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:144]. هكذا تتوازن الكفة عند المسلم فيعمل واضعاً نصب عينيه سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، وفي نفس الوقت يخاف من عقابه سبحانه.

بهذه الوسائل العشر أخرج الله سبحانه وتعالى المسلمين من أزمتهم النفسية، وقربهم منه وغفر لهم، وغسل ذنوبهم، وأتاح لهم العمل من جديد بصفحة بيضاء، فيا له من أسلوب راقٍ، وأسلوب تربوي متميز.

خروج النبي ﷺ بأصحابه إلى حمراء الأسد وأثر ذلك على المسلمين والمشركين

أخذ الرسول ﷺ هذا المنهج، وطبقه مباشرة على المسلمين، بل عمل عملاً في منتهى الرقي، فقد خرج بالمسلمين للجهاد في سبيل الله في اليوم الثاني مباشرة من غزوة أحد بما فيهم من جراح وآلام، سواء كانت آلاماً جسدية أو نفسية.

خرج بهم للجهاد في سبيل الله، ولمتابعة قريش ومطاردتها، منتهى التحميس والتحفيز للعمل لله إلى آخر لحظة، وقال بعض المسلمين ممن لم يشارك في أحد: (يا رسول الله نخرج معك، قال: لا، لا يخرج معنا إلا من شهد القتال)، فالناس الذين قاتلوا في أُحد هم الذين يخرجون، وكأنه يقول لهم: أنا واثق فيكم، وأعلم أن هذه غلطة عابرة ولن تتكرر، بل هي هفوة من عظماء ولا يمكن لها أبداً أن تتكرر، فيا لها من ثقة كاملة في الجيش المسلم مع ما به من جراح! وخرج من بقي من المسلمين، خرج من ثبت وخرج من فر وعلم أن الله قد غفر له، خرجوا جميعاً إلى منطقة تسمى: حمراء الأسد، وهي تبعد حوالي 8 أميال من المدينة المنورة، وعسكروا هناك في انتظار الجيش الكافر، وبدءوا يستطلعون الأخبار، فعلموا أن الجيش الكافر موجود على بعد 36 ميلاً من المدينة المنورة عند منطقة اسمها: الروحاء، وقد كان الجيش الكافر وقف وقفة هناك، وقال: نحن لم ننتصر إلا انتصاراً جزئياً، فالرسول ﷺ وأبو بكر وعمر كلهم على قيد الحياة، وجيشه في المدينة المنورة ما زال موجوداً، فمن الممكن أن نرجع ونحاربهم مرة أخرى، نغزو المدينة المنورة، ونستأصل شأفة المسلمين وهم في حالة ضعفهم.

كان الكفار يفكرون في ذلك، والرسول ﷺ يفكر أيضاً في مطاردتهم، لكن الرسول ﷺ كان واقعياً، فقد أخذ المسلمين معه، لكنهم في حالة من الضعف والتعب والجراح والآلام، فهو يعلم أن الموقعة ستكون صعبة، ويريد أن يرفع من معنوياتهم، لكن لا يريد أن يضيعهم، ولا يريد أن يهلكهم في موقعة قد تكون خاسرة؛ لذلك حاول ﷺ أن يخذل صف المشركين ويرهبه،

فلقي شخصاً اسمه: معبد بن أبي معبد الخزاعي وبعثه برسالة إلى أبي سفيان، فقد كان أبو سفيان يريد أن يرجع إلى المدينة المنورة ليغزوها، وكان صفوان بن أمية وبعض المشركين معارضين له، وبينما هم في هذا الحوار إذ دخل عليهم معبد بن أبي معبد.

فقال لهم: محمد قد خرج لكم في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحركون عليكم تحركاً، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

فخاف أبو سفيان وقال: ويحك ما تقول؟ قال معبد: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: لا تفعل إني ناصح، وهكذا أُحبط أبو سفيان وانهارت معنويات الجيش المكي كله، وهذا يؤكد أنهم يألمون كما يألم المسلمون: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء:104]، فلم يكن انتصاراً مبهراً حققوه في أحد، بل وقفوا خائفين مع أنهم 3000 شخص، وكان المسلمون كلهم 700 شخص استشهد منهم 70، بالإضافة إلى أنهم ضعفاء وجرحى، ومع ذلك لم يستطع أبو سفيان أن يتحرك، بل إنه بعث شخصاً لكي يخذل الجيش الإسلامي، أرسل رسالة مع ركب من عبد القيس إلى رسول الله ﷺ يحاول أن يخذله قدر المستطاع.

قال لهم: أبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فوصلت الرسالة إلى رسول الله ﷺ، وأصر الصحابة جميعاً على القتال، مع أن المسلمين 630 على أقصى تقدير، والمشركين 3000، وهكذا خرج المسلمون من أزمتهم النفسية تماماً، وقهروا

الانكسار الذي كانوا فيه، وتحولوا إلى شجعان وأبطال مجاهدين في سبيل الله يطلبون الموت من جديد، لا يخالفون أمر الله ولا أمر رسوله ﷺ.

ولما عرف المشركون ذلك رجعوا بسرعة إلى مكة، وأنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً، قال الله عز وجل: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [آل عمران:172]، أي: استجابوا لدعوة الرسول للخروج إلى حمراء الأسد {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:172-175].

وبعد أن هربت قريش، أقام الرسول ﷺ في حمراء الأسد ثلاثة أيام كاملة، وكأنه هو الجيش المنتصر يتحدى قريش بالبقاء فيها، ومع ذلك لم تأت قريش.

كانت هذه مصيبة عابرة في تاريخ المسلمين خرجوا منها سريعاً؛ لأن المنهج الرباني لا عوج فيه ولا خطأ، المنهج الرباني كما قال الله عز وجل: {تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:42]، سبحانه وتعالى.

26

الطريق إلى الأحزاب

(عقبات أحد)

قريش قبل أن تغادر أرض أحد كانت قد أعلنت للمسلمين أنها على استعداد للتلاقي مرة ثانية، واختارت بنفسها المكان الذي سيتم فيه اللقاء الثالث بينها وبين المسلمين، واختارت موقع بدر، لترد بذلك هزيمة بدر؛ ولترفع من جديد من قيمة قريش وهيبتها في وسط الجزيرة العربية، وقَبِل الرسول ﷺ هذا الأمر، وقال: (موعدكم في قابل) أي: في العام القادم في نفس المكان.

كان اللقاء الأول بين المسلمين وبين الكفار في بدر في رمضان سنة 2هـ، واللقاء الثاني كان في شوال سنة 3هـ، واللقاء الثالث منتظر ومفترض أن يكون في شوال سنة 4هـ، ووافق الطرفان على ذلك، وعاد الرسول ﷺ من موقعة حمراء الأسد إلى المدينة؛ ليعيد حساباته من جديد، وعلى الرغم من أن غزوة حمراء الأسد أعادت شيئاً من الهيبة إلى الأمة الإسلامية، إلا أنه لا شك أن موقعة أحد هزت سمعة الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية بكاملها، وقد رأينا بعد غزوة بدر انتشاراً إسلامياً كبيراً في الجزيرة العربية، بل سيطرة عسكرية على مناطق بعيدة جداً عن المدينة المنورة، ورأينا رضوخ كثير من القبائل العربية -على الرغم أنها ما زالت على إشراكها- لسيطرة المسلمين العسكريين؛ لأن وقع بدر على قلوب الناس كان كبيراً فعلاً، فقريش من أعظم القبائل العربية التي هزمت على يد هذه المجموعة

الناشئة، ولا شك أن في ذلك مقومات قوة وظهور لا يتخيلها عموم القبائل العربية في ذلـك الوقـت؛ ولذلك كانت السنة التي تلت بدراً لها وضع ممتاز جداً بالنسبة للمسلمين.

وعاش المسلمون فيها فترة سعيدة من فترات إنشاء الدولة الإسلامية، وعلى النقيض تماماً الفـترة التـي تلت غزوة أحد كانت فترة صعبة جداً من أشد فترات السيرة النبوية صعوبة. قد مررنا بفـترات كثـيرة وصعبة في السيرة النبوية، وكل فترة لها طابع خاص، لكن الفترة التي أعقبت غـزوة أحـد بـدأت كـل القبائل العربية المحيطة بالمدينة المنورة وغيرها من أعداء الأمة تتربص الدوائر بالأمة الإسلامية؛ لأنهـا مصابة إصابة فادحة، فسبعون من الشهداء، وفرار الجيش الإسلامي من أرض موقعـة أحـد كـان لـه واقع سيئ على نفوس المسلمين وسمعتهم، فمع أنهم قاموا من جديد في حمراء الأسد، لكن هذا الأمـر لم يرد الكثير من السوء الذي أصاب السمعة الإسلامية. تعالوا لنحلـل الموقـف بعـد غـزوة أحـد؛ إن أعداء الأمة الإسلامية الآن حوالي أربع طوائف:

الطائفة الأولى الكبيرة: هي قريش، وقد هدأت بانتصارها في أحد، وقبلت ذلك الانتصار تعويضاً عن بدر، ولا يزال أمامها سنة قادمة للحرب مع المسلمين، بالإضـافة إلى أنهـا مـا زالـت تـتربص الـدوائر بالمسلمين؛ لأن المسلمين ما زالوا يسيطرون على الطرق التي تمر منها القوافـل التجاريـة القرشـية مـن مكة إلى الشام، فلا بد لقريش أن تنهي أمر المسلمين، كذلك لم تكن مقتنعة تمـام الاقتنـاع أنهـا أدت مـا يجب أن تؤديه؛ لأن الرسول ﷺ ما زال حياً وأبو بكر ما زال حياً وعمر ما زال حياً، وهؤلاء هم الذين سأل عنهم أبو سفيان، وهم يعلمون أن الدين الإسلامي نفسه عنده الإمكانيـة لتغيـير الأفـراد تغيـيراً جذرياً، ورأوا مجموعة كبيرة من الصحابة كانوا أناساً عاديين قبل الإسلام، وبعـد الإسـلام أصـبحوا من القادة والمفكرين والمفاوضين وغير ذلك من الرموز الإسـلامية المبهـرة أيـام رسـول الله ﷺ فهـم يخافون من كون هؤلاء القادة ما زالوا أحياء ومعهم هذا المنهج العظيم: الإسلام، فإنهم سوف يقلبون

حال الجزيرة العربية تماماً، ولا شك أن قريشاً لن تكون في حال هانئة بوجود مثل هذه القوة المتنامية في المدينة المنورة. قريش هدأت، ولكن هدوءاً نسبياً، ولا شك أنها ستقوم بعد ذلك.

الطائفة الثانية من الأعداء: المنافقون في داخل المدينة المنورة، وكما ذكرنا قبل ذلك أنه بعد مصيبة أحد نجم النفاق في المدينة المنورة، ومن كان يخفي شيئاً في قلبه أظهره، فالذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، بدءوا يجاهرون بالعداء للإسلام، وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ابن سلول ، وهم كثير في داخل المدينة المنورة، ويكفي أن نذكر أن 30٪ من الجيش الإسلامي في موقعة أحد انسحب وعاد إلى المدينة المنورة، فكان هؤلاء من أشد السهام الموجهة إلى صدر الأمة الإسلامية بعد عودة الجيش الإسلامي مهزوماً في أحد.

الطائفة الثالثة: طائفة تعيش داخل المدينة المنورة وهي طائفة اليهود، رأينا قبل ذلك أن بني قينقاع خرجوا من المدينة المنورة، وبقي فيها بنو النضير وبنو قريظة، وهؤلاء وإن كانوا على العهد، إلا أن اليهود مشهورون بالغدر، والرسول ﷺ مع أنه كان معاهداً لهم إلا أنه كان يتعامل معهم دائماً بالحذر التام، ولا ننسى أن أقل من سنة كان كعب بن الأشرف يُؤلب القبائل العربية على المسلمين، وتم اغتيال كعب بن الأشرف سيد بني النضير، ولا شك أن بني النضير قد تنتقم لكعب بن الأشرف ، وقد تنتهز فرصة إصابة المسلمين في أحد، وستقوم بالغدر أو بنقض العهد والميثاق مع المسلمين.

الطائفة الرابعة: طائفة الأعراب، وهي القبائل التي تعيش في البادية حول المدينة المنورة، وهي قبائل كثيرة وقوية، تعيش على السلب والنهب، وقيام دولة الرسول ﷺ في داخل المدينة المنورة يمنع الكثير من الأعمال الإجرامية التي كانت تقوم بها هذه القبائل، وبالتالي يحرمها من ثروات كثيرة.

فلا شك أن كل هذه الطوائف بعد مصاب أحد ستفكر كثيراً في هدم هذا الكيان الجديد الناشئ في المدينة المنورة، وهذا الذي حصل.

الأزمات التي مر بها المسلمون بعد غزوة أحد

في الشهور الستة الأولى بعد غزوة أحد مر المسلمون بخمس أزمات خطيرة جداً، كلما خرجوا من أزمة دخلوا في أخرى، وهذا تصديق لكلام رب العالمين سبحانه وتعالى في قوله: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:140]، فالدولة كانت للمسلمين بعد بدر، وأصبحت لغير المسلمين بعد أحد.

دعوة بني أسد لحرب المسلمين

الأزمة الأولى: دعوة بني أسد لحرب المسلمين، كان فيهم طليحة بن خويلد الأسدي، جمع الجيوش وبدأ يفكر في غزو المدينة المنورة، وعلم الرسول ﷺ بذلك، فبعث بسرعة سرية أبي سلمة لمحاولة تفتيت هذه القوى قبل أن تتجمع وتهاجم المدينة المنورة. خرجت سرية أبي سلمة في 1 محرم سنة 4هـ أي: بعد حوالي شهرين ونصف شهر تقريباً من غزوة أحد، واستطاعت هذه السرية أن تشتت شمل بني أسد، وبالفعل تفرقوا في الجبال ولم يتم الغزو، لكن ظهرت نوايا المؤامرة من قبل القبائل المحيطة بالمدينة المنورة.

تجمع قبائل هُذَيْل لحرب المسلمين

الثانية: في نفس الوقت الذي جاء فيه خبر تجمع بني أسد للهجوم على المدينة المنورة، تجمعت بعض القبائل الأخرى بقيادة رجل اسمه خالد بن سفيان الهذلي لغزو المدينة المنورة أيضاً، وهو من أعظم وأكبر وأشرس المقاتلين العرب، كان رجلاً ضخماً، وله قدرات قيادية هائلة، جمع قبائل هذيل كلها، وهي بطون كثيرة جداً. عندما وصل الخبر إلى الرسول ﷺ اهتم جداً بالأمر، وأرسل إلى عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه، وذكر له قصة خالد بن سفيان الهذلي، وطلب منه أن يذهب إليه ويقتله؛ لأنه هو الرأس المدبر، ولو قتل فإنه من الصعب أن تتجمع هذه القبائل، وبالتالي يتجنب الرسول ﷺ مأساة

كبرى قد تتعرض لها المدينة المنورة، وظهرت هناك مشكلة، وهي أن عبد الله بن أنيس لم ير من قبل خالد بن سفيان الهذلي ولا يعرفه، فقال: (يا رسول الله انعته حتى أعرفه)، فأعطاه الرسول ﷺ علامة غريبة، قال: (إذا رأيته وجدت له قشعريرة) يعني: حين تراه ستصاب بالرعب، فقال عبد الله بن أنيس: (يا رسول الله ما فَرِقت من شيء قط) أي: ما خفت من شيء أبداً، فقال له ﷺ: (بلى، آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته).

ذهب عبد الله بن أنيس ودخل المنطقة التي فيها قبائل هُذَيل، ومن بعيد رأى خالد بن سفيان الهذلي يقول عبد الله بن أنيس: (فلما رأيته هبته وفرقت منه، فقلت: صدق الله ورسوله). أخذ عبد الله بن أنيس يفكر كيف يمكن أن يغتال هذا الرجل الضخم، فقرر أن يذهب إليه ليحتال عليه بحيلة، وكان ذلك بعد وقت دخول صلاة الظهر، وخشي أن يفوته وقت صلاة الظهر، ولكنه إذا صلى الظهر قد يراه فيكتشف أمره؛ لذلك اجتهد عبد الله بن أنيس اجتهاداً غريباً، وبعد ذلك أُقر الشرع هذا الاجتهاد، وهو أن يصلي وهو يسير إليه، قال: (فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الركوع والسجود) أي: يشير برأسه للركوع والسجود وهو يمشي، سبحان الله! وأصبحت هذه الصلاة معروفة في الفقه بصلاة الطالب وصلاة المطلوب، أي: الذي يَطلُب رجلاً للقتل والذي يُطْلَب للقتل.

قال: (فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ – أي: خالد يسأل عبد الله بن أنيس – قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا، قال: أجل، أنا في ذلك، قال عبد الله: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركته، وعدت إلى الرسول ﷺ، فلما رآني قال قبل أن أتكلم: أفلح الوجه، قلت: قتلته يا رسول الله! قال: صدقت، ثم قام معي ﷺ، فدخل بيته فأعطاني عصاه، فقال: أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس. قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ فقال: فرجعت إليه ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني

هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة) أي: ستكون هـذه العصـا حجـة لـه عنـد رب العـالمين سبحانه وتعالى، وهو أن الرسول ﷺ كافأني يوماً على عمل عظيم قمت به لصـالح الأمـة الإسـلامية، ولما مات عبد الله بن أنيس رضي الله عنه وأرضاه أمر أن تدفن معه هذه العصا، وبالفعل وضعت معـه في كفنه رضي الله عنه وأرضاه.

حصل للمسلمين أزمتان: أزمة بني أسـد، وأزمـة هـذيل، وخـرج المسـلمون بفضـل الله مـن هـاتين الأزمتين بسلام.

أزمة بَعث الرجِيع

الأزمة الثالثة: كانت أزمة تعرف في التاريخ ببعث ماء الرجيع، كانت في شهر صفر من السـنة الرابعـة من الهجرة يعني: بعد أحد بأربعة شهور، جاءت قبيلة عَضَل وقبيلة قَارَّة، وهمـا قبيلتـان مـن القبائـل العربية، وذكرا أن فيهما إسلاماً، أي: هناك بوادر إسلام، لكنهما لا يعرفان شيئاً عنـه، فطلبـا بعثـاً مـن الصحابة يذهب إليهما ليعلمهما الإسلام والقرآن. اختار الرسول ﷺ عشرة من الصحابة، وأمر عليهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه، وذهبت هذه المجموعة لتعليم هـؤلاء الإسـلام، وفي الطريـق غدرت بهم قبيلتا عضل وقارة، واستصرخا عليهم حياً مـن هـذيل، فهـذيل مـا زالـت متـوترة لقتـل قائدهم خالد بن سفيان الهذلي، فلما حصل هذا الاستنفار تجمعوا حول هؤلاء العشرة، وطلبـوا مـنهم النزول على العهد والميثاق، وقالوا: إذا نزلتم على العهد والميثاق لا نقتل منكم أحداً، فرفض عاصم بن ثابت رضي الله عنه، وقال: (لا أنزل على عهد مشرك)، وقاتل في أصحابه هذا القتال أسـفر عـن قتـل سبعة من المسلمين، وبقي ثلاثة منهم فنزلوا على العهد، هؤلاء الثلاثة: هم خُبَيب بن عدي، وزيد بـن الدَثِنَّة وواحد ثالث لم يعرف الرواة اسمه، فلما أمسكوا بالثلاثة أخذوا يكتفونهم، فقـال الثالـث: هـذا أول الغدر، فبدأ يقاوم فقتلوه، وبقي الاثنان، ولما وصلوا بهما إلى بلادهم باعوهما لأهل مكة، فاشـترى صفوان بن أمية زيد بن الدثنة وقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر، وأما خبيب بـن عـدي فقـد

اشترته مكة وأخذوا جميعاً يتجمعون لقتله، وخرجوا به إلى التنعيم حتى لا يقتلوه في البلد الحرام، وأجمعوا على صلبه ليقتل، فقال رضي الله عنه وأرضاه: (دعوني حتى أركع ركعتين)، فتركوه فصلى ركعتين خفيفتين، ولما سلم قال: (والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت في الركعتين)، ثم رفع يده وقال: (اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً)، ثم بدأ ينشد مجموعة من الأبيات قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي

أي: في أي مكان، وبأي طريقة، مادام في سبيل الله فهذه أمنيتي، ثم قال له أبو سفيان قبل أن يقتل: (أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك؟) قال: (لا والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكه تؤذيه)، سبحان الله كان الصحابة جميعاً يفتدون رسول الله ﷺ بأرواحهم، وكان هذا الكلام يخرج من قلبه رضي الله عنه وأرضاه، ثم قدم للقتل فقتل صابراً محتسباً مقبلاً رضي الله عنه وأرضاه ولم يقر بكلمة واحدة من الذي يريدون.

أما قائد هذه المجموعة عاصم بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه كانت هناك امرأة من بني عبد الدار اسمها سُلافة بنت سعد أقسمت أنها إن أمسكت بـ عاصم بن ثابت لتشربن الخمر في قحف رأسه؛ لأنه اشترك في قتل بعض من بنيها، هذا المرأة مات زوجها وأربعة من أولادها في موقعة أحد، وهم من بني عبد الدار، وسمع مجموعة من بني لِحيان بمقتل عاصم بن ثابت، فذهبوا بسرعة ليأخذوه ويذهبوا به إلى سلافة بنت سعد فلما ذهبوا إليه وجدوا مجموعة كبيرة من الدَبْر - ذكور النحل- تغطي عاصم بن ثابت رضي الله عنه، فما استطاعوا أن يقتربوا منه، فابتعدوا عنه وبالليل جاءوا ليأخذوه، فوجدوا أن سيلاً من السيول -يقول الراوي: وليس في السماء سحابة واحدة- قد احتمل عاصم بن ثابت إلى حيث لا يعلمون واختفت الجثة؛ وذلك لأن عاصماً رضي الله عنه كان في حياته بعد أن أسلم يقسم أنه لا يمس مشركاً، وفي قتاله يوم الرجيع قال: اللهم إني قد حميت دينك أول النهار، فاحم

لحمي في آخره فحمى الله لحمه وهو ميت. لما كانت هذه القصة تحكى أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (يحفظ الله عز وجل العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته).

هذه قصة ماء الرجيع، وكانت مأساة حقيقية للمسلمين، عشرة من خيار الصحابة ماتوا في وقت واحد.

في نفس الوقت الذي خرج فيه هؤلاء العشرة إلى ماء الرجيع حصلت قصة ثانية في وقت متزامن قبل أن يصل خبر قتل هؤلاء العشرة حصلت قصة ثانية خطيرة جداً.

أزمة بعث بئر معونة

جاء عامر بن مالك أحد زعماء بني عامر؛ ليقدم هدية إلى رسول الله ﷺ، فعل ذلك نوعاً من التقارب بين القبائل وليس طمعاً في الإسلام، فالرسول ﷺ قال: (أسلمت؟) قال: (لا) قال: (فإني لا أقبل هدية من مشرك)، قال: (فإن القوم يرغبون في الإسلام فابعث معنا من يعلمهم الإسلام)، فقال ﷺ: (إني أخاف عليهم أهل نجد)، فقال عامر: (فإني جار لهم) أي: إني أجيرهم من بني عامر، وبنو عامر هم معظم أهل نجد، فوافق الرسول ﷺ، ولأن قبيلة بني عامر كانت قبيلة كبيرة وأهل نجد هم مجموعات هائلة من القبائل، اختار الرسول ﷺ مجموعة كبيرة من الصحابة يعرفون بالقراء، كلهم كانوا يقرءون القرآن ويتدارسونه ليل نهار، كانوا من خيار الصحابة رضي الله عنه وأرضاهم أجمعين، وكان تعدادهم سبعين صحابياً، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الخزرجي رضي الله عنه، وكان هؤلاء السبعون معظمهم من الأنصار، وأخرجهم ﷺ ليقوموا بدعوة هذه القبائل الكبيرة للإسلام، وخرجوا في جوار عامر بن مالك زعيم بني عامر.

في الطريق وبعد أن وصلوا إلى منطقة تعرف باسم بئر معونة عسكروا فيها، وهي بئر بين بني عامر وبين بني سُلَيم، فنزلوا هناك وبعثوا أحد الصحابة وهو حرام بن مِلحان برسالة إلى عامر بن الطفيل

ابن أخي عامر بن مالك وكان عامر بن الطفيل رجلاً شريراً آثماً غادراً، وبينه وبين الرسول ﷺ قصة قديمة. كان قد جاء إلى الرسول ﷺ وعرض عليه أمراً قال: (أخيرك بين ثلاث خصال: أن يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك، أو أن أغزوك بأهل غطفان) أي: يهدده، فرفض الرسول ﷺ كل هذه المطالب جميعاً وردها.

فلما بعث الصحابة حرام بن ملحان برسالة يدعونه فيها إلى الإسلام، أشار الغادر عامر بن الطفيل إلى أحد رجاله -مع أن الرسل لا تقتل- أن يطعنه من ظهره، فجاء الرجل بحربة كبيرة وطعنه من خلفه فأنفذها حتى خرجت من صدره رضي الله عنه، ولما اخترق الرمح ظهر حرام بن ملحان وخرج من صدره وأدرك أنه ميت -أخذ الدم الذي يتفجر من جسده بيديه، وبدأ يمسح به وجهه ورأسه ويقول: (فزت ورب الكعبة فزت ورب الكعبة). سبحان الله! تخيل في هذا الموقف شاباً مثل حرام بن ملحان رضي الله عنه وأرضاه يُطعن هذا الطعن، وكل الذي يفكر فيه هذا الوقت أنه مات في سبيل الله عز وجل شهيداً، فقال: فزت ورب الكعبة.

إنه لمنظر بديع، منظر يعبر عن صدق النوايا في القلب، يعبر عن الثبات إلى آخر اللحظات حتى في أشد المواقف صعوبة، كثير من الناس تهتز عند لحظات الموت، لكن {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم:27].

أدهش الموقف كل الحضور، حتى إن جبّار بن سلمى الذي طعن حرام بن ملحان في ظهره حين سمع ذلك، قال: فقلت في نفسي: (ما فاز؟ ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟) فقال له الناس حوله: (يقول المسلمون: إن هذه شهادة)، فسأل جبار بن سلمى عن ذلك حتى عرف أمر الشهادة في الإسلام، وذهب إلى المدينة المنورة يسأل عن ذلك، وكان ذلك سبباً في إسلامه رضي الله عنه وأرضاه. هذا الموقف خطير، ويجعلنا نسأل سؤالاً: هل الشهيد يتألم مثل ما نحن نتألم؟ يا ترى بعد الطعنة التي دخلت في ظهره وخرجت من صدره يستطيع أن يفكر ويزن الأمور، ويقول كلاماً في منتهى الحكمة

مثل هذا الذي قاله؟ يرد علينا الرسول ﷺ ويقول في الحديث: (ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة)، لما تقرصك حشرة أو ناموسة أو غيرها من الحشرات هذه القرصة التي تشعر بها أنت يشعر بها الشهيد، حتى ولو كان مطعوناً أو مضروباً بسيف أو أطلق عليه صاروخاً، لا يشعر الشهيد إلا بمثل ألم القرصة، ونحن نوقن بذلك تماماً كما صور الحديث ﷺ.

كان هذا أول الغدر، قتل حرام بن ملحان رضي الله عنه، ثم قام عدو الله عامر بن الطفيل باستنفار بني عامر لقتال المسلمين في بئر معونة، فرفض بنو عامر وقالوا: (لا نخفر ذمة عامر بن مالك)، فإن عامر بن مالك كان قد أجار المسلمين من بني عامر، فقام عامر بن الطفيل باستنفار بني سليم، فأجابته بعض البطون من بني سليم: عُصَيّة ورِعل وذكوان، وجاءت هذه القبائل وأحاطت بالمسلمين الذين في بئر معونة، وقاتل المسلمون جميعاً حتى قتلوا إلا واحداً منهم أصيب إصابات بالغة، وظنوا أنه قتيل، هو كعب بن زيد رضي الله عنه، وبعد سنة واحدة تقريباً قتل شهيداً رضي الله عنه وأرضاه في يوم الخندق. هذه إصابة ضخمة في الأمة الإسلامية، وكل هذا بعد حوالي أربعة شهور من أحد، ففي أحد مات سبعون، وفي ماء الرجيع مات عشرة، وفي بئر معونة مات سبعون، أي: مائة وخمسون صحابياً رضي الله عنهم وأرضاهم فقد تهم الأمة، نحن نتكلم على الأمة في بدء نشأتها، فهذه الأرقام أرقام مؤثرة جداً في جيل الصحابة رضي الله عنهم، وهؤلاء السبعون الذين استشهدوا في بئر معونة هم مجموعة من خيار الصحابة، من القراء والعلماء، من الذين يعلمون الناس الدين، فكانت إصابة بالغة للدولة الإسلامية.

صادف مع قتل هؤلاء السبعين مرور عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة رضي الله عنهما، فلما رأوا هذه المأساة نزلا ليساعدا المسلمين في حربهم، فأمسك بهما المشركون وقتلوا المنذر بن عقبة . أما عمرو بن أمية فقد أمسك به عامر بن الطفيل زعيم هؤلاء المجرمين، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه، نذرت نذراً أن تعتق رقبة، فأخذه كأسير ثم أعتقه، ورجع عمرو بن أمية ليخبر الرسول ﷺ بمأساة بئر

معونة، وفي الطريق استظل تحت شجرة، وجاء رجلان من بني كلاب -فرع من فروع بني عامر- فجلسا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو بن أمية ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، لكن بعد أن قتلهما وجد معهما عهداً من رسول الله ﷺ يحفظ لهما الأمان وهما من المشركين، فلما قدم إلى المدينة المنورة أخبر الرسول ﷺ بأمر بئر معونة، وأخبره بأمر قتل الرجلين من بني عامر.

انظروا إلى رد فعل الرسول ﷺ، سبحان الله لقد كان آية من آيات السمو الأخلاقي، هذه القصة نريد أن نطير بها إلى الآفاق؛ لنتعلم المنهج الإسلامي في التعامل مع الناس، قال ﷺ: (لقد قتلت قتيلين، لأُدِيَنهما) سبحان الله! تخيل! الرسول ﷺ سيجمع الدية لهذين القتيلين، مع أن نبأ قتل هذين القتيلين جاء مع خبر استشهاد سبعين من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم في بئر معونة، ومع هذا الخبر المؤلم إلا أن الرسول ﷺ يفكر في هذين القتيلين اللذين قتلا بغير وجه حق، فلا بد أن يعطي الدية لأهلهما.

كان خبر بئر معونة مأساة ضخمة، فقد مكث الرسول ﷺ يقنت في صلاته ويدعو على رعل وذكوان ولحيان وعصية شهراً كاملاً، وليس في الفجر فقط، بل كان يدعو في الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء؛ لأنها كانت أزمة خطيرة جداً، وفي نفس الوقت كان المسلمون في حالة من الفقر الشديد، ليس معهم ما يكفي لدفع الدية، وأراد الرسول ﷺ أن يفي بالعهد ويجمع الدية، فبدأ يجمع من المسلمين قدر المستطاع لكن لم يكف ذلك، فأراد أن يذهب إلى اليهود، فقد كان العهد الذي بين المسلمين وبين اليهود في أول دخول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة يقضي بأنه إذا وقع أحد الأطراف في قضية من قضايا الدية، ولم يستطع أن يدفع الدية، على الطرف الآخر أن يعاونه في دفع هذه الدية، فلم يستطع الرسول ﷺ أن يجمع من المسلمين، فذهب إلى يهود بني النضير، وكان هذا مقدمة الأزمة الخامسة.

أزمة بني النضير

الخامسة: أخذ الرسول ﷺ مجموعة من الصحابة، وذهب إلى بني النضير، ليجمع الدية لقتيلي عمرو بن أمية، وأخذ معه أبا بكر وعمر وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ولما ذهب إليهم اجتمع اليهود بعيداً عن رسول الله ﷺ، وقالوا: (أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد فيلقيها على رأس محمد فيشدخه بها؟) وهكذا حاولوا اغتيال رسول الله ﷺ، فهم يرون أن المسلمين في أزمة، كانت مصيبة أحد قبل أربعة شهور سبعين شهيداً، وشهداء ماء الرجيع عشرة، وشهداء بئر معونة سبعين، فالمسلمون في أزمة، واليهود أهل غدر وخيانة، فرأوا الفرصة سانحة في أن يقتلوا الرسول ﷺ، ويتخلصوا من دولة الإسلام تماماً، فسألوا: من الذي يقوم بإسقاط رحى على رأسه؟ فقال رجل اسمه عمرو بن جِحَاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود: (لا تفعلوا، فوالله لَيُخْبَرَن بما هممتم به)، فانظر إلى أي حد كان اقتناعهم بأنه رسول الله قال: ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، لكن حيي بن أخطب زعيم بني النضير وأبو السيدة صفية رضي الله عنها وأرضاها أصر على قتل الرسول ﷺ. بالفعل اجتمع الملأ على ذلك، وقام عمرو بن جحاش بحمل حجر كبير، وصعد فوق البيت ليلقيه على الرسول ﷺ، وفي هذه الأثناء وهم يتفقون جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بما يدبرون، فترك الرسول ﷺ المكان، وانتقل مباشرة إلى المدينة المنورة، مضى ولم يقل لأصحابه شيئاً؛ حتى لا يلفت الأنظار، واتبعه أصحابه رضي الله عنهم.

لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة أخبر الصحابة بأن اليهود كانت تدبر مكيدة لقتله ﷺ، وفي هذا نقض صريح ومباشر للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، ومن ثم قرر ﷺ إجلاء بني النضير من المدينة المنورة. أرسل ﷺ لهم رسالة يقول فيها: (اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً - أي: عشرة أيام- فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه).

مع قوة اليهود وبأسهم وسلاحهم وعتادهم وحصونهم وقع الرعب في قلوبهم عندما قرأوا الرسالة، وقرروا الخروج فعلاً، وبدءوا يجهزون العدة؛ ليخرجوا من المدينة المنورة دون قتال. عندما نووا الرحيل جاء إليهم رئيس المنافقين عبد الله بن أبي فقال لهم: (لا تخرجوا من دياركم فإن معي ألفين، يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم)، وقد كان اليهود على عزم أكيد للخروج، ثم ثبتهم في البقاء مجموعة من المنافقين، فالمنافقون خطرهم شديد جداً؛ لذلك يقول رب العالمين سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء:145]، المنافق في الظاهر أنه مسلم؛ لكن سوء أعمالهم لا يفكر فيها اليهود أنفسهم، ذهبوا إلى اليهود وثبتوهم وقالوا: إنهم سيحاربون معهم ضد المسلمين إن حدثت حرب، وأنزل الله عز وجل قرآناً يفضح فيه أفعال اليهود والمنافقين. قال سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ} [الحشر:11 - 12].

هذا كلام الله سبحانه وتعالى، المنافقون قلوبهم ضعيفة واهنة؛ لأنها بعيدة عن الحق، قلوبهم في الظاهر مسلمة وفي الباطن تكره الإسلام وتتعاون مع اليهود، لكن إن جاء خطر عليهم تنكروا لعهودهم كما يتنكر اليهود، وكما يتنكر أعداء الأمة بصفة عامة لأخلاقهم ولعهودهم، فهذا الذي حصل تماماً، ثبت المنافقون اليهود، وثبت اليهود بكلام المنافقين ولم يخرجوا، وأرسلوا رسالة إلى الرسول ﷺ يقولون فيها: (إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك).

كان الموقف في غاية الحرج، فالرسول ﷺ مصاب في 150 صحابياً في خلال الشهور الأربعة التي مضت، وسيدخل الآن في حرب كبيرة مع بني النضير، لكن إن سكت سيكون هناك هزة كبيرة لسمعة الأمة الإسلامية، فكان لا بد من أخذ قرار حازم مع مثل هؤلاء، سواء كانوا بني النضير أو

غيرهم، لا بد أن يحفظ كرامة الأمة الإسلامية. بالفعل جهز ﷺ جيشاً في ربيع الأول سنة 4هـ، وانطلق لحصار بني النضير، وضرب الحصار عليها من كل مكان حوالي ست ليال، وفي بعض الروايات خمس عشرة ليلة، لكن الراجح: ست ليال فقط، ثم هزم هزم الله عز وجل اليهود.

إن اليهود وهم في داخل الحصون قد يستمرون داخلها سنين، لأن فيها ثماراً ومياهاً وسلاحاً، فقد يعيشون فترة طويلة، لكن مع ذلك انهزموا بشيء لا يستطيعه البشر، لقد قذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب. الرعب من جنود الرحمن سبحانه وتعالى، فكيف يخاف اليهود وهم بهذه القوة من المسلمين، مع أن المسلمين في مصابهم الفادح يعانون أشد المعاناة، والحصار قد يطول ويطول على المسلمين؟ لكن مع ذلك استسلم اليهود في ستة أيام، ونزلوا على أمر المسلمين ولم ينفعهم المنافقون، انسحب عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يقاتل معهم كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ} [الحشر:12].

وذكر الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه الكريم بعض صفات اليهود استخلاصاً من هذا الموقف. قال: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} [الحشر:13-14] وهذا الشيء ليس خاصاً بيهود بني النضير أو خاصاً باليهود الذين كانوا يعيشون أيام الرسول ﷺ، بل هي قواعد ثابتة على كل اليهود، ما داموا على يهوديتهم ولم يسلموا فإن الله عز وجل زرع في قلوبهم الرعب والهلع.

قال الله عز وجل في كتابه الكريم يصف حال اليهود: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا} [البقرة:96]؛ فحب اليهود للحياة أكثر من المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة أصلاً، فقوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} أي حياة وإن كانت تعيسة وذليلة ورخيصة، المهم أنه يعيش.

نزل اليهود على أمر المصطفى ﷺ، وخرجوا من ديارهم بغير سلاح يحملون ممتلكاتهم فقط، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم كما وصف الله سبحانه وتعالى في كتابه، ينزعون الأبواب والنوافذ، ويأخذون كل ما يستطيعون أن يحملوه في هذا الخروج، وبالفعل تركت بنو النضير المدينة المنورة واتجهت إلى خيبر -وخيبر تجمع يهودي كبير في شمال المدينة المنورة- وبذلك انتهت قصة بني النضير من المدينة المنورة، وخرج زعماء بني النضير حُيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر، وسيكون لهما دور بعد هذا، وسنرى ذلك في الحرب مع المسلمين. لم يسلم من يهود بني النضير إلا رجلان فقط: يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، من خلال ذلك ستعرف معنى كلام الله سبحانه وتعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [المائدة:82].

بفضل الله خرج المسلمون من أزمة بني النضير وهم أكثر قوةً وأرفع شأناً في الجزيرة العربية بكاملها، واسترد المسلمون كثيراً من هيبتهم بعد انتصارهم على بني النضير، مع أن بني النضير قبيلة كبيرة لها تاريخ طويل في المدينة المنورة، ولها تاريخ في صناعة السلاح والقلاع والحصون، وإنه لأمر عظيم أن الرسول ﷺ أجلاهم بهذه السهولة والبساطة، حاصرهم ست ليال فقط، ثم نزل اليهود على رأيه ﷺ.

غزوة نجد

أحب الرسول ﷺ أن يستغل هذا الظرف، وبدأ يرسل السرايا والجيوش لتثبيت دعائم الأمن في الجزيرة العربية، ولاسترداد الهيبة من جديد، وأول جيش خرج كان على رأسه الرسول ﷺ نفسه في غزوة تسمى غزوة نجد، وذهب لتأديب قبائل نجد التي تجمعت لقتل المسلمين في بئر معونة وماء الرجيع، ولما خرج فروا منه جميعاً، ولم يلق قتالاً ﷺ، لكنه استعاد الهيبة بشكل كبير.

غزوة بدر الصغرى

أخذ ﷺ يعد العدة ويجهز الجيش للقاء القادم مع المشركين، فقد كان هناك تواعد بين المسلمين والمشركين على اللقاء للمرة الثالثة: الأولى: بدر، والثانية: أحد، وكان من المفروض أن يكون اللقاء الثالث في هذه الأيام في السنة الرابعة من الهجرة. بالفعل جهز النبي ﷺ جيشه، وفي شعبان 4هـ أرسل رسالة إلى قريش يتواعد معها على اللقاء في بدر، وخرج النبي ﷺ بجيش قوامه 1500 مقاتل، وذهب إلى بدر، وخرج كذلك أبو سفيان من مكة بـ 2000 من المقاتلين، ووصل المشركون إلى منطقة تسمى مر الظهران قريبة جداً من مكة، وعسكر الجيش هناك، ولا يزال أمامه طريق طويل حتى يصل لبدر، لكن الجيش الذي خرج كان متثاقلاً تماماً، وعنده نوع من التردد الكبير في قتال المسلمين، وفي داخله الهلع والهيبة للمسلمين مع أن الموقعة الأخيرة كانت لصالح المشركين، ووقف أبو سفيان في مر الظهران يخاطب الجيش ويقول لأصحابه: (يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا). هكذا كان أبو سفيان، يتحجج بحجج واهية، فلو كانوا حريصين على القتال لخرجوا، فاجتمع القوم على الرجوع، ولم يعارض أحد أبا سفيان في قضية العودة إلى مكة المكرمة، وبذلك تخلفوا عن اللقاء الذي وعدوا به رسول الله ﷺ.

ولم يبق الرسول ﷺ في بدر ثلاثة أيام فقط، بل بقي ثمانية أيام متصلة؛ حتى يثبت للجميع أنه لا يهاب قريشاً ولا يخاف جيوشها ولا عدتها ولا عتادها، وكان في هذا أثر إيجابي كبير للدولة الإسلامية في الجزيرة العربية.

تأديب قبائل منطقة دومة الجندل شمال المدينة

سمع الرسول ﷺ أن بعض القبائل في شمال الجزيرة العربية في منطقة دومة الجندل بدءوا يتجمعون ويهاجمون القوافل المارة، ويقتلون المسلمين هناك، وهي قبائل كبيرة وضخمة في هذه المنطقة، فجمع الرسول ﷺ جيشاً ليذهب إلى دومة الجندل، وهي تبعد عن المدينة مسافة أكثر من 450 كيلو، ذهب ﷺ بنفسه، وهناك بدأ يفرق السرايا والجيوش في الأماكن المختلفة، وفروا منه جميعاً ولم يلق ﷺ قتالاً، ولكنه ثبت من جديد دعائم الدولة الإسلامية في هذه المنطقة، بل وسمع الناس جميعاً في الجزيرة العربية بأخبار الجيوش الإسلامية التي تتجه هنا وهناك، وكان هذا في ربيع أول سنة 5هـ.

نتائج خروج المسلمين من الأزمات بعد أحد

كانت غزوة أحد في شوال سنة 3هـ، وفي الشهور الستة التي بعدها كانت هناك أزمات كبيرة مرت بها الأمة الإسلامية، أزمة بني أسد، وأزمة خالد بن سفيان، وأزمة ماء الرجيع، وأزمة بئر معونة، ثم في النهاية أزمة بني النضير.

خرج المسلمون من هذه الأزمات في يوم خروج بني النضير، واستطاع المسلمون من جديد أن يستعيدوا الهيبة، واستغل الرسول ﷺ هذا الموقف في نشر الهيبة والسمعة الجيدة للمسلمين في الجزيرة العربية، فقام بعدة سرايا وغزوات من أشهرها: غزوة نجد، واللقاء الذي كان منتظراً بينه وبين المشركين في بدر، عرفت في التاريخ بغزوة بدر الصغرى تمييزاً لها عن غزوة بدر الكبرى التي كانت في سنة 2هـ، ثم قام بغزوة دومة الجندل.

كان لكل هذا نتائج كبيرة في الجزيرة العربية على كل المحاور، سواء كانت نتائج في داخل المدينة المنورة أو في خارجها.

استكانة المنافقين داخل المدينة المنورة

أولاً: استكان المنافقون في داخل المدينة المنورة، بعد مصيبة أحد نجم النفاق في المدينة المنورة، وجاهر المنافقون المسلمين بالعداء، بل وتعاونوا مع بني النضير ووعدوهم بالمساعدة ضد المسلمين إن حارب اليهود والمسلمين، لكن بعد هذه السرايا والغزوات استكان المنافقون تماماً، ورضخوا لأوامر الرسول ﷺ، وكتموا في قلوبهم الكفر، وأصبحوا في داخل صف المسلمين، وهذا فيه خطر كبير، لذلك نتوقع أن تحدث أزمة تكشف المنافقين قريباً.

تحرك مخاوف اليهود

ثانياً: تحركت مخاوف اليهود؛ فلم يبق من اليهود في المدينة المنورة إلا بنو قريظة، وبقي يهود بني قريظة على العهد، لكن في قلوبهم قلق ورعب شديد من المسلمين، فهذه بنو قينقاع قد خرجت، وخرج وراءها بنو النضير، ولم يبق غير بني قريظة. كذلك يهود خيبر رأت أن اليهود يخرجون من داخل المدينة المنورة، وبعد أن ينتهي الرسول ﷺ من قصة اليهود في المدينة المنورة، لا يستبعد أن يتجه إلى يهود الشمال إلى خيبر، أضف إلى ذلك أن بني النضير هاجرت إلى خيبر، ونقلوا ليهود خيبر كل الكراهية التي حملوها معهم من المدينة المنورة، كذلك زعماء بني النضير انتقلوا إلى خيبر، وفيهم من الشر ما فيهم، منهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وغيرهما من زعماء اليهود، فمن المتوقع أن تكون هناك مشاكل كثيرة تجيء من ناحية خيبر.

شعور قريش بالقلق والخوف من المسلمين

ثالثاً: بدأت قريش تشعر بالقلق، ومع أنها كانت رافعة رأسها بعد أحد، لكنها اهتزت هزة كبيرة برجوعها عن بدر الصغرى، وعدم القدرة على مواجهة المسلمين، مع أن عدد الكفار في غزوة بدر الصغرى 2000، وعدد المسلمين فيها 1500، أضف إلى ذلك انقطاع التجارة إلى الشام تماماً بعد قيام

الدولة الإسلامية، فهذا أمر لا بـد أن تفكـر فيـه قـريش. قـريش بـدأت تشـعر بـالقلق الشـديد تجـاه المسلمين، لكن لا تدري كيف تتصرف؟

شعور القبائل المحيطة بالمدينة المنورة بالقلق والخوف من المسلمين

رابعاً: القبائل التي تحيط بالمدينة المنورة هي قبائل الأعراب التي تعيش في البادية بدأت تشـعر بـالقلق الشديد، وأهم هذه القبائل قبائل غَطَفَان التي منها قبائل بني سليم وقبائل بنـي هـذيل وبنـي لحيـان، وهي القبائل التي غدرت بالمسلمين سواء في بئر معونة أو في ماء الرجيع.

مقدمات تجمع الأحزاب لغزو المدينة

لما رجع الرسول ﷺ من غزوة دومة الجندل عاهد عيينة بن حصن أحد زعماء بني فـزارة، وبنـو فـزارة فرع من فروع بني سليم، وهذا الفرع لم يكن ممن غدر بالمسلمين في بئر معونة؛ لـذلك عاهـد الرسـول ﷺ عيينة لفترة من الزمان. هذه المتغيرات التي حدثت في الجزيرة العربية وفي المدينة المنـورة في خـلال السنة السابقة كانت سبباً لحدوث شيء كبير ضد المسلمين في الفترة القادمـة، فهنـاك منـافقون داخـل المدينة ويهود، وهناك قريش، وهناك قبائل عربية غير مسلمة حول المدينة المنورة.

دور اليهود في تجمع الأحزاب لحرب المسلمين

كل الطوائف من اليهود والمشركين كانت حاقدة على الإسلام، وكان المسلمون في كل المعارك السـابقة يواجهون كل قبيلة على حدة، فإذا تجمعت هذه القبائل فإنها ستحدث أزمة كبيرة على المسلمين، لكـن كيف تتجمع هذه القبائل وهي متفرقة في شدة التفرق؟ فإن العرب لم يتجمعوا في يوم من الأيـام، إنـما هم عبارة عن قبائل منفردة؛ كل قبيلة لها قانونها ولها زعيمها ورأيها، فكيف تتجمع هـذه القبائـل عـلى قلب رجل واحد لحرب المسلمين؟ هذا شيء مستغرب، لكن لليهود فيه دور كبير.

لقد كان لليهود دور كبير في تجمع القبائل لحرب المسلمين، فقد جمعوا القبائل من هنا وهناك ولم يشتركوا هم في المعركة، وهذا هو دور اليهود المعروف عنهم منذ سنين طويلة، وما زالوا يعملون ذلك باحتراف إلى هذا الوقت، وسيستمرون على ذلك، فهم دائماً يؤلبون غيرهم على حرب الإسلام وحرب دعوة الحق، ويخرجون هم تماماً من الصورة والأحداث، وهذا ما فعله اليهود أيام الرسول ﷺ، خرجت من خيبر مجموعة من يهود خيبر وبني النضير، فيهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، وأخذوا يؤلبون القبائل على المسلمين، ويجمعون القبائل المتفرقة لحرب دولة الإسلام في المدينة المنورة.

ذهبوا أولاً إلى قريش وقالوا لهم: الفرصة سانحة في أن نجمع لكم القبائل من غطفان وبني سليم وغيرها لحرب المسلمين، ولم تصدق قريش أنها وجدت مثل هذه الفرصة؛ وذلك لأن قريشاً طعنت في كبريائها يوم أن عادت من بدر الصغرى دون قتال في شعبان سنة 4 هـ، وبدأ القرشيون يجمعون من القبائل المحيطة بمكة المكرمة ما يستطيعون جمعه من الجنود، حتى جمعوا 4000 مقاتل، وانتقل اليهود بسرعة من قريش إلى غطفان في شرق الجزيرة العربية، والتقوا بزعماء غطفان هنا وهناك، وكانت هذه القبائل الغطفانية تنتظر الفرصة كذلك، فقال لهم اليهود: قريش معكم، فقد جمعت 4000 مقاتل، لكن غطفان لم تتشجع كثيراً على القتال لخوفها من المسلمين، مع أن قبائل غطفان كثيرة ومعها قريش، لكن اليهود ما يئسوا، قالوا لهم: إن لم تكونوا متحمسين على القتال فنحن نحمسكم بالمال، فمع بخل اليهود الشديد إلا أنهم ينفقون المال الكثير إذا كان هذا الإنفاق للصد عن سبيل الله، فهم ينفقون ببذخ وكرم كبير لا يتخيله أحد، هذه هي طبيعتهم، فوعدوا زعيم بني فزارة عيينة بن حصن وبقية زعماء غطفان أن يعطوهم ثمار خيبر كاملة لمدة سنة، وكانت خيبر غنية بالثمار، فكل ما ينتج فيها من ثمار يدفع لغطفان ولـ عيينة بن حصن على أن يجمعوا جيشاً قوامه 6000 مقاتل ستة آلاف من غطفان وبني سليم، وأربعة آلاف من قريش، وهكذا اجتمع 10000 مقاتل.

طارت الأنباء المرعبة إلى المدينة المنورة، فقد كان هذا أخطر الأنباء من أول إنشاء الدولة الإسلامية، فإن العرب كانوا إذا وصل عددهم 1000 يفتخرون، يقول أحدهم: إنا لنزيد على الـ1000، ولن يغلب 1000 من قلة. تخيل 10000 مقاتل قادمين باتجاه المدينة المنورة ليحاصروها من كل مكان، وفيهم من الحقد ما فيهم، ووصل الخبر على المسلمين وكان ثقيلاً، وميز الله بهذا الخبر الخبيث من الطيب، قال تعالى: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [الأنفال:37]، فإنه لما سمع المؤمنون الصادقون بهذا الخبر قالوا: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب:22]، فالجيوش والأمم والأعادي كلهم سيتجمعون عليهم باختلاف إستراتجياتهم وأفكارهم، لكن وعدهم الله بالنصر عليهم إن هم تمسكوا بمنهجه سبحانه وتعالى، فها هو الجزء الأول يتحقق: وهو تجمع الأحزاب حول المسلمين، أما الجزء الثاني فلا بد أن يتحقق: وهو النصر عليهم ما داموا متمسكين بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ، وهم بفضل الله متمسكون: فالنصر آتٍ إن شاء الله، مع أن الظاهر مختلف تماماً، فالأحزاب 10000 مقاتل يحاصرون المدينة، فكيف الخروج من هذه الأزمة؟ فما زالوا لا يعرفون، لكنهم متيقنون تماماً في وعد رب العالمين: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب:22].

أما على الناحية الثانية فارتعب المنافقون، كيف يحاربون عشرة آلاف مقاتل؟ والمنافقون لا يحسبون الأمر إلا بحسابات الورقة والقلم والحسابات المادية فقط، ولا يقتنعون بقدرة رب العالمين سبحانه وتعالى وبحكمته وبإرادته وبهيمنته على الكون بكامله، فلم يستطيعوا أن يعوا هذا الأمر، وأخذوا يحسبون كل شيء بالورقة والقلم، كيف يحارب المسلمون 10000، والمسلمون داخل المدينة بكاملها سواء كانوا من الرجال أو من النساء أو من الأطفال أو من الشيوخ أو من الصادقين أو من المنافقين لا يصل عددهم إلى 10000؟ فكيف سيحاربون جيشاً مؤهلاً لحرب المسلمين قوامه 10000 مقاتل؟

حينما سمع المنافقون الأنباء قال الله عز وجل في وصفهم: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب:12]، هكذا بالتصريح، الله سبحانه وتعالى وعدنا بالنصر والرسول كذلك وعدنا بالنصر، لكن كيف؟ لا نستطيع، جيوشنا لا يمكن أن تحارب جيوشهم الكبيرة، فقرروا عدم القتال مع المسلمين، وإن كانوا في الظاهر هم من المسلمين، وهذا يبين لنا أن خطرهم شديد، فهذه أزمة كبيرة آتية على الأمة الإسلامية، ولا بد أن تحل هذه الأزمة الكبيرة، وذلك بأن يوقن المسلمون بنصر من الله عز وجل، هذه سنة من السنن، ففي بدر بدأت الأزمة تتصاعد وتتصاعد وتتصاعد حتى وصلت إلى أقصاها في شهر شعبان سنة 2هـ وحصل في شهر شعبان ابتلاءات قصوى وكبرى للمسلمين، فلم يخرج من المسلمين إلا الصادق، وخرجوا إلى لقاء بدر بصفات الجيش المنصور، فتحقق لهم النصر بعد الصدام المروع مع المشركين.

الآن المسلمون في أزمة كبيرة آتية عليهم، وقد فرقت هذه الأزمة الصف وميزته، وظهر المسلمون الصادقون، وظهر المنافقون الكاذبون، وعند هذا الأمر توقع أن يحدث نصر قريب؛ لأننا وصلنا إلى أقصى درجات الأزمة تقريباً؛ لذلك استبشر المسلمون بهذه الأزمة على ضخامتها.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

عند أشد لحظات الليل يأتي الفجر، وهكذا تجمعت الجيوش من كل مكان، وأحاطت بالمدينة المنورة كما يحيط السوار بالمعصم، ومع ذلك أخرج الله عز وجل المسلمين من أزمتهم منتصرين.

28

الأحـزاب

ذكرنا أنه نتيجة استقرار أوضاع المسلمين، وتحرك القلق في قلوب جميع أعداء الأمـة مـن يهـود ومشركين ومنافقين، وبدءوا يفكرون في شيء يمنعون فيه الدولة الإسلامية من إكمال المسـيرة، وتولى كبر التدبير لهذا الأمر فرقة من يهود خيبر ويهود بني النضير، وكونوا وفداً من حـوالي 21 رجلاً، وتحرك هذا الوفد إلى الجزيرة العربية هنـا وهنـاك؛ ليجمـع الجمـوع لحـرب المسـلمين، واستطاعوا أن يحمسوا قريشاً على أن تخرج في 4000 مقاتل، واشتروا غطفان وبني سليم بالمال على أن يخرجوا في 6000 مقاتل، وتحركـت هـذه الجمـوع الضـخمة 10000 مقاتـل صـوب المدينة المنورة، وكان الهدف استئصال المسلمين تماماً، ليس الغرض الانتصار في موقعـة عـابرة، ولكن الهدف هو إنهاء الوجود الإسلامي في الأرض بـالمرة، ووصـل النبـأ المرعـب إلى المدينـة المنورة.

أما المنافقون فقد ظهر نفاق معظمهم، وقالوا: (لا طاقة لنـا أبـداً بحـربهم)، وظهـرت علـيهم علامات الرعب والهلع، وهؤلاء المنافقون لم يكتفوا بـالهلع والقعـود، بـل حـاولوا أن يمنعـوا الآخرين من الحرب بحجة أنها حرب لا طائل من ورائها، قال الله عـز وجـل: {قَـدْ يَعْلَـمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِـحَّةً عَلَـيْكُمْ فَـإِذَا

جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [الأحزاب:18 – 19] هذا كان رد فعل المنافقين.

أما المؤمنون الصادقون فإنهم ومع عظم الخبر إلا أنهم وجدوا فيه بشرى، والبشرى هي أن الله عز وجل وعد المسلمين بالنصر على أعدائهم إن هم تجمعوا لهم، ووعدهم بالنصر إن وصلت الأزمة إلى الذروة، أين هذا الوعد؟ يقول ابن عباس رضي الله عنهما: هذا الوعد في قوله تعالى في سورة البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة:214] المسلمون الآن يقتربون من مرحلة الزلزال، إذاً: النصر أيضاً يقترب.

بدأ المسلمون يفكرون في الأزمة القادمة بإيجابية، ما الذي سوف نعمل؟ أول شيء فعلوه: إقامة مجلس شورى، وهذه هي البداية الصحيحة، وعند مراجعة صفات الجيش المنصور الذي قلناه قبل هذا في بدر ستجدونها جميعها موجودة بالتفصيل في جيش الأحزاب، فهذه سنن وليست مصادفات، وهكذا أقيم مجلس الشورى المكون من المهاجرين والأنصار وغيرهما من القبائل المختلفة، بل إن فيهم من ليس عربياً أصلاً مثل بلال الحبشي وسلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين، وهذه هي عظمة الدين الإسلامي، وانظر ما هي الخبرات التي تتراكم في الأمة الواحدة نتيجة جمع البشر من كل العناصر والقبائل والأجناس والبلاد تحت راية واحدة، فهذه أزمة الأحزاب، والله سبحانه وتعالى يجعل حلها على يد رجل ليس من العرب أصلاً، ولكنه من المسلمين، وهو سلمان الفارسي.

هذا الجيش الإسلامي يستفيد من خبرة الجيش الفارسي، ومن تجارب شعب كامل مثل شعب فارس، كما أن سلمان الفارسي لم يدخل في الجماعة المسلمة إلا منذ أيام أو شهور قليلة، ولعل

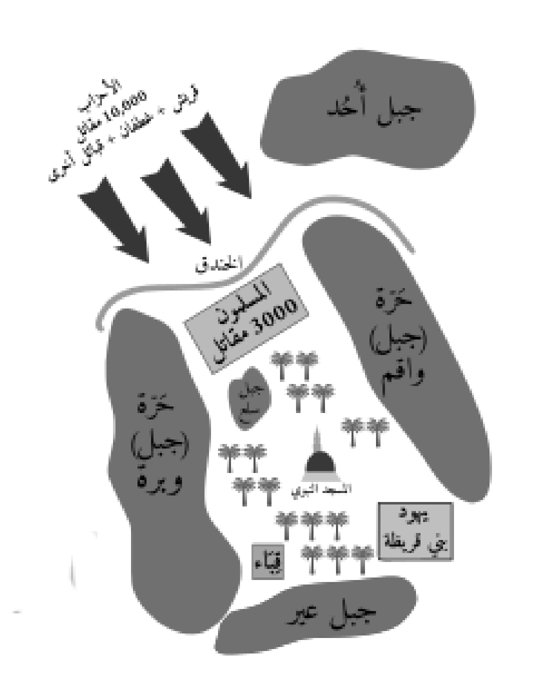
هذه هي المشاركة الأولى مع الصف المسلم، ومع ذلك تجده قد انصهر تماماً في الصف المسلم، وأصبح عضواً فاعلاً في الأمة، وأصبح له رأي معتبر لا يشعر بأنه غريب، فهذه هي دولته وأمته وهذا هو دينه، وسلمان أسلم من بداية الهجرة، لكنه كان عبداً عند أحد اليهود، ولم يُعتق إلا قبل الأحزاب بقليل.

قال سلمان: (يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا) فعندما سمع الرسول ﷺ والصحابة هذه الفكرة أعجبتهم، وسرعان ما ظهرت فيهم صفة الحماس وعدم التردد، وأخذوا القرار مباشرة، وهو لا بد أن نبدأ في الحفر حالاً.

واقعية المنهج النبوي في حفر الخندق

نقف على واقعية المنهج النبوي، ما معنى واقعية المنهج النبوي؟ قد يقول قائل: كيف يجبن المسلمون عن اللقاء فيحفرون الخندق ولا يحاربون؟ أن الإسلام دين واقعي، مع القناعة التامة بأن الله سبحانه وتعالى معنا إذا كنا معه، وسينصرنا إن نصرناه، إلا أننا نأخذ بكل الأسباب، فـ 10000 مقاتل مشرك ضد 3000 مقاتل مسلم، وهم جميع أهل المدينة من الرجال، هو لقاء غير متكافئ، خاصة أن هؤلاء العشرة آلاف يمكن أن يزيدوا، ويمكن أن يضموا إليهم يهود خيبر، ويمكن أن تأتي قبائل مشركة أخرى غير قريش وغطفان وبني سليم، فاحتمال هذه الأحداث جعل الرسول ﷺ والصحابة أن يختاروا محاولة تجنب اللقاء قدر المستطاع، فكانت فكرة الخندق فكرة ممتازة.

لم نهرب من أرض الموقعة ولم نتنازل عن شيء، وسيكون العدو في مأزق؛ لأنه لن يستطيع أن يعيش طويلاً بعيداً عن بلاده وطعامه وشرابه وتجارته،



فسيصبح عامل الزمن في صالح المسلمين، وفعلاً كانت فكرة ممتازة، وأسرع النبي ﷺ وأخذ مجموعة من الصحابة وتفقد أطراف المدينة؛ لكي يرى المكان المناسب لحفر الخندق، فهو يأخذ بكل الأسباب، ووجد الرسول ﷺ أن شرق المدينة وغرب المدينة لها حماية طبيعية من المرتفعات الشرقية والغربية، وأيضاً جنوب المدينة محمي بغابات طبيعية وأحراش.

بقيت منطقة الشمال ومنطقة الجنوب الشرقي، ومنطقة الجنوب الشرقي فيها ديار بني قريظة، وهم إلى الآن على العهد مع رسول الله ﷺ، والعهد لا يقضي فقط بعدم معاونة قريش ولا إجارتها، ولكن يقضي أيضاً بالدفاع المشترك عن المدينة المنورة إذا داهمها عدو، وأياً كان هذا العدو، ولذلك أرسل الرسول ﷺ رسالة ليؤكد العهد معهم، فأكدوا العهد، وتأكيدهم هذا مهم جداً؛ لأن جيوش المشركين لو دخلت من عندهم فهذا معناه إنهاء الوجود الإسلامي تماماً، واستئصال شعب المسلمين بكامله.

منطقة الشمال مفتوحة؛ ولذلك أخذ الرسول ﷺ القرار بحفر الخندق في شمال المدينة المنورة؛ ليغلق المنطقة ما بين الحرة الشرقية والغربية، وإذا كان القرار سهلاً وسريعاً فالتنفيذ قد يكون مستحيلاً ليس صعباً فقط، فمشروع حفر الخندق مشروع لا يتخيله عقل بأي حال من الأحوال، مشروع جبار بمعنى الكلمة، الخندق عمقه خمسة أمتار، وعرضه خمسة أمتار في أقل التقديرات، وبعض التقديرات تصل إلى عشرة أو اثني عشر متراً، وطوله اثنا عشر كيلو متر، وهذه المعلومات أخذت من الموقع الرسمي للمدينة المنورة على الإنترنت (موقع مساحة المدينة المنورة)، هذه الأبعاد معناها: أن الأرض التي يراد حفرها لا بد أن يكون حجمها ثلاثمائة ألف

متر مكعب، وهذا رقم مهول جداً، ولقد جلست مع أكثر من مهندس لنتصور الجهد الذي بُذل في هذا، ففي هذا الوقت قدرة العامل على الحفر في اليوم الواحد لا يتجاوز خمسة أمتار مكعبة ويكون الحفر في أرض رملية سهلة وبعمق متر واحد فقط، وكلما كان العمق أكثر قلّت قدرة العامل على الحفر؛ لأن عليه أن يحفر في أرض أصعب، ويخرج التراب وينقله بعيداً، ثم يرجع فينزل مرة أخرى، أو تكون هناك فرق كثيرة لحمل ونقل الأتربة الهائلة التي تخرج من الحجم الضخم الذي سنحفره.

كان تعداد الصحابة جميعهم في المدينة 3000 ولم يقم كلهم بالحفر، فهناك من هم مشغولون بالحراسة، وهناك من يخدم في أمور الطعام والشراب، ومنهم من يكون مريضاً أو كبيراً في السن، ومع ذلك لو أن كلهم شاركوا في الحفر فإنه من المستحيل أن تنتهي عملية الحفر للخندق في هذا الزمن القياسي، كان حفر الخندق في أسبوعين فقط، فلو أن كل صحابي سوف يشتغل 16 ساعة يومياً فإنه سوف يضاعف الشغل أيضاً، وهذا صعب جداً، وكل هذا مع افتراض أن الأرض رملية سهلة، فلو تخيلت أن الأرض صخرية فإنها تحتاج في زمننا هذا إلى معدات خاصة وأجهزة حفر متطورة، عندئذ ستعرف كيف كان هذا العمل جباراً، لو أضفت إلى هذا أننا نحفر لعمق خمسة أمتار وليس متراً واحداً، ولو أضفت إلى هذا أن نقل كميات التراب إلى أماكن بعيدة عن الحفر هي أيضاً مسئولية هؤلاء 3000 صحابي الذين يقومون بالحفر، ولو أضفت أن الخندق متسع في بعض الأماكن إلى أكثر من خمسة أمتار، ولو أضفت نقص خبرة المسلمين في هذا العمل، فهم أول مرة في حياتهم يحفرون خندقاً، ولو أضفت كثرة الأعداد العاملة وتوزيعها على 12 كيلو متر، كيف يمكن أن تدير فرقاً بهذه الضخامة؟ وإذا أضفت إلى كل ذلك أن هؤلاء يعملون في ظروف شديدة الصعوبة من جوع وبرد، وخوف من قدوم الأعداء في أي لحظة. لو أضفت كل هذا فإنك ستعرف أن هذا عمل جبار، وهذا العمل

في زماننـا يحتـاج لكـي يـتم في أسـبوعين إلى أكثـر مـن مـائتي لـودر، وشـواكيش إلكترونيـة، وعشـرات السيارات للنقـل كـي تأخـذ الأتربـة، وكـذلك إدارة هندسـية كاملـة، ويحتـاج إلى مجموعة من الاستشاريين المتخصصين في الحفر، وإذا أردت أن تعـرف صـعوبة هـذا المشـروع قارنه مثلاً بمشروع الأنفاق، وانظر كيف كان صعباً، وقد أخـذنا فيـه عشر سـنين، وتعطلـت الدنيا في كل مكان.

مشروع الخندق كان مشروعاً خرافيـاً، فـإن أحـد المهندسـين كنـت أحسـب معـه حجـم هـذا المشروع، فرمى القلم من يده وقال لي: (هذا غير ممكن يا دكتور الموضوع هذا ليس بإمكانيـات البشـر)، قلت له: صدقت، هناك أشياء لا تستطيع أن تفهمها إلا أن تكون مؤمناً حقاً بـالله عـز وجل، تتذكرون غزوة بدر، وتتذكرون كيف تم النصر؟ وتتـذكرون جنـدي البركـة، وهـو أن يضخم الله عز وجل من نتيجة جهد يبدو في ظاهره بسيطاً فينتج نتائج عجيبة.

البشر في العادة لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يعملوا هذا العمـل، لكـن الله سـبحانه وتعالى إذا أراد أن يجعلهم يستطيعون لاستطاعوا، سواء بأيديهم أو كان معهم ملائكة أو جنـود لا نراها، لكن هذا واقع رأيناه ونراه، وسنظل نراه إلى يوم القيامة ما دام أن هنـاك مـن يسـتحق نصـر الله سبحانه وتعالى، وحُفر الخندق العملاق وتم المشروع الجبار.

ضوابط العمل الجماعي في حفر الخندق

نجح مشروع حفر الخندق تماماً وكان عملاً جماعياً ضخماً، وهناك ضـوابط جعلتـه يـنجح، مـا الذي عمله النبي ﷺ؛ لكي يعطي المشروع هذا أكبر فرص النجاح؟ أدار الرسول ﷺ المشـروع بكفاءة غير متخيلة، وضع لنا قواعد ناجحة للأعمال الجماعية، وأي عمل جماعي في أي مشروع

كبير، حتى ولو كانوا مجموعة من المشركين إذا أخذوا بهذه القواعد فإنه سوف يتم النجاح، فما بالكم لو كانوا مؤمنين، والله سبحانه وتعالى يؤيدهم؟! ما هي ضوابط العمل الجماعي الذي علمنا إياها الرسول ﷺ؟ الضوابط كثيرة جداً، لكن لنأخذ منها أربعة ضوابط فقط.

مشاركة القائد لجنوده

أولاً: مشاركة القائد لجنوده، مشاركة الحاكم لأتباعه، مشاركة صاحب العمل لعماله، فلو شارك القائد جنوده فإنهم لا شك يخرجون أقصى طاقاتهم، وليس نتيجة خوفهم من القائد لا، وإنما نتيجة شعورهم بقضية مشتركة مهمة، نتيجة إحساسهم أن الموضوع هذا موضوعهم جميعاً.

فالرسول ﷺ وهو النبي المطاع والحاكم لدولة المدينة والقائد الأعلى لجيش المسلمين ينزل بنفسه ليحفر مع المسلمين، لا يشرف على الحفر فقط! وإنما يقوم بالحفر بنفسه، فيضرب بالمعول بنفسه، ويأخذ التراب بنفسه، وكشف عن بطنه حتى لا تعوقه الملابس عن الحركة، والصحابة لا يرون بطنه من التراب الذي غطاه، وهذه هي ضوابط نجاح العمل الجماعي، مع أن الجيش جميعه في جوع ولا يوجد أكل، يقول أنس رضي الله عنه أيام الأحزاب: (كان أهل الخندق يؤتون بملء كفي من الشعير -وأنس في ذلك الوقت كان صغيراً فتخيل حجم كفه- قال: فيُصنع لهم بإهالة سنخة -والإهالة: هي الدهن، سنخة يعني: تغير لونها وطعمها من القدم- توضع بين يدي القوم والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن). هو هذا أكلهم، فإن قيل: ما الذي يأكله قائدهم؟! قال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: (شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر، فرفع ﷺ عن حجرين) هنا القائد أكثر جوعاً من الشعب، فهذا شعب يمكن أن ينجح في أعماله الجماعية، وكثيراً ما نفشل في أعمالنا الجماعية؛ لأننا نسمع خطباً رنانة تدعو إلى الكفاح وإلى العمل والجهد وشد الحزام والانتماء، ثم

لا نجد ممن يلقي الخطب الرنانة مساعدة في حفر الخندق، في الليل وحده شعب كادح وقواده مستريحون، شعب بائس وقواده مترفون، شعب جائع وقواده مشبعون، فكيف يمكن أن ينجح العمل في وضع مثل هذا؟ كان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عنده طعام قليل من اللحم والخبز، ولا يكفي إلا رجلين أو ثلاثة.

يقول جابر رضي الله عنه: (رأيت في النبي ﷺ خمصاً شديداً)-جوعاً شديداً- وأراد أن يدعو النبي ﷺ واثنين من أصحابه إلى ضيافته، وعرف الرسول ﷺ أن هناك أكلاً، ولم يذهب معه ليأكل سراً، مع أن هذه أكلة اعتزم عليها، وليس من الحرام أن يأكل منها، لكن الرسول ﷺ وقف على الخندق، ونادى بأعلى صوته: (يا أهل الخندق أخوكم جابر أعد لكم وليمة)، وارتبك جابر، فذهب إلى امرأته يقول لها: (الفضيحة الفضيحة، جاء الرسول ﷺ بأهل الخندق)، وكان تعدادهم ألفاً، فكيف سيكون موقف جابر وموقف امرأته؟ هناك موقف لطيف لامرأته، قالت لزوجها جابر: (هل أعلمته أن الطعام لا يكفي إلا رجلاً أو رجلين؟ فقال: نعم) قالت: (الله ورسوله أعلم) قالت ذلك بيقين، فجاء النبي ﷺ ومعه ألف رجل، وبمعجزة من معجزاته ﷺ أخرج لهم الطعام من البرمة والخبز من الفرن، وأخذ يطعمهم عشرة عشرة، حتى انتهى منهم جميعاً، ثم أكل منه هو ﷺ، أكل ﷺ آخر الناس؛ لأنه لا يرى نفسه وإنما يرى شعبه فقط.

فهذا من أهم ضوابط العمل الجماعي وعلى أي مستوى، سواء كان العمل الجماعي يتكون من ثلاثة أو من عشرة أو من ألف أو من أمة كاملة؛ لا بد من مشاركة القائد لجنوده أولاً.

توزيع الأعمال على جميع الأفراد

ثانياً: توزيع الأعمال على الجميع، كثير من أعمالنا تفشل؛ لأن ثلاثة أو أربعة يأخذون العمل كله، وباقي الصف مستريح لا يشتغل، ونحن نظن أن الدنيا فيها إنجازمع أن هذا العمل أقل من 10٪ من الذي ممكن أن نعمله لو اشتغلنا جميعاً. وزع الرسول ﷺ الأعمال على الجميع، فالجميع يعملون، وليس هناك أحد أفضل من الآخر، ولا يوجد بينهم كسلان أو متهاون، وكان ﷺ يعطي كل عشرة من الصحابة مسافة أربعين ذراعاً، وعندما ينتهون منها يأخذون غيرها وغيرها وهكذا.

الجمع في الإدارة بين الرفق والحزم

ثالثاً: الجمع في الإدارة بين الحزم والرفق، ليس هناك من يمشي من غير إذن، والإذن ليس تمثيلاً وليس شيئاً روتينياً لا معنى له، بل إن القائد للعمل الجماعي إن لم يقبل الإذن عندها لا يوجد إذن، ولو أن هذه الطاعة ليست واضحة في ذهن العامل، عندها لا يوجد معنى للعمل الجماعي، والرسول ﷺ يقول: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني) هذا كلام النبي ﷺ، وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي قوله تبارك وتعالى يوجه التعليمات لنا ولنبينا ﷺ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} [النور:62] فمن ترى أن العمل لن يتأثر بغيابه أو ترى أن الظرف الذي يواجهه قهري فائذن له؛ لأن الإذن ليس مجرد إعلام لقائد العمل، هذا طلب يحتمل الرفض ويحتمل القبول، ومع ذلك لم يكن الرسول

ﷺ يتعسف في استخدام هذا الأمر، بل كان فعلاً يأذن لبعض الصحابة إن رأى أن لهم ظرفاً قهرياً طارئاً. وكان الجميع ينظر بصدق إلى أهمية إنجاح العمل الجماعي الذي يقومون به، وفي نفس الوقت لم يكن هذا الحزم معناه الغلظة والجفاء والقسوة، وإنما علمنا الرسول ﷺ كيف يمكن أن نجمع بين الحزم والهيبة والاحترام مع اللطف في المعاملة والرقة في الحديث، بل وبالدعابة والمرح والترفيه عند لحظة حفرهم للخندق، واشتراك الرسول ﷺ مع الصحابة في نقل التراب، كان ينشد معهم شعر ابن رواحة رضي الله عنه:

يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا

وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان ينشده بنوع من الغناء، يمد صوته ﷺ في آخره، ويراهم النبي ﷺ يحفرون في البرد والجوع ويقول: (اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة). وفي رواية: (فاغفر للمهاجرين والأنصار)؛ لأن الرسول ﷺ لم يكن يعرف أن يقول الشعر، فيرد عليه الصحابة ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

نعم هناك حزم ونظام وترتيب وخطة، لكن في جو جميل من الألفة والمحبة والسعادة الحقيقية.

كيف لهذا العمل أن يفشل في هذا الجو؟ لا يمكن.

قلنا ثلاث ضوابط مهمة للعمل الجماعي: أولاً: مشاركة القائد لجنوده.

ثانياً: توزيع العمل على الجميع.

ثالثاً: الجمع في الإدارة بين الحزم والرفق.

رفع الهمة ببث الأمل في النفوس

هناك ضابط رابع مهم يجعلك تشعر بأن هذا العمل يمكن أن يكون فرصة النجاح فيه كبيرة، هذا الضابط: رفع الهمة ببث الأمل في النفوس.

لا أنسى أستاذاً كان يختبرني في الكلية امتحاناً شفوياً، ما إن دخلت عليه حتى قال لي: أسألك سؤالاً وأنا متأكد أنك لا تستطيع أن تجيب عنه! لماذا هذا الإحباط؟ لماذا تقتل في الذي أمامك كل أمل في النجاح؟

إن الرسول ﷺ كان يرفع همة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً في كل المواقف الصعبة، وهذا هو منهج حياته ﷺ، والذي عمله أيام حفر الخندق كان فوق التخيل، ولم يقل لهم: هناك أمل في حفر الخندق، ولم يقل لهم: هناك أمل أن ننتصر على الأحزاب الآتية، ولم يقل لهم: هناك أمل أن ننتصر على العرب، لا، وإنما كان يرفع همتهم لما هو أعلى من كل أحلامهم، فهو يزرع بداخلهم أملاً في سيادة العالم، وليس في سيادة المدينة أو الجزيرة العربية فقط.

قال ﷺ وهو يضرب صخرة صعبة اعترضت الصحابة: (باسم الله، الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة) يُبشر بفتح الشام في لحظة حفر الخندق، ثم

ضرب الثانية فقطع جزءاً آخر من الصخرة، فقال: (الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأُبصر قصر المدائن الأبيض الآن) يقول لهم: أنا أرى قصر الحكم الفارسي ملكاً للمسلمين، ثم ضرب الثالثة فشق بقية الحجر وقال: (الله أكبر؛ أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني).

عظّم من أحلامك، كبّر أهدافك، ليست قضيتنا هي الحصار، ولا قضيتنا هي الدولة الصغيرة التي نحن نعيش فيها، لا، قضيتنا هداية العالمين، قضيتنا حمل هذه الرسالة إلى كل بقاع الأرض، ويبشرهم أن الكلام هذا ليس بأوهام، وإنما سوف يحصل بإذن الله، وسيصل الإسلام إلى فارس والروم واليمن، وسيصل إلى كل بقعة في العالم، قديماً وحديثاً؛ لأن هذا وعد ربنا سبحانه وتعالى، والله لا يخلف الميعاد؛ ولهذا نجح الصحابة في حفر الخندق العملاق، ولو كان عندهم يأس وإحباط ما كانوا ليستطيعوا أن يحفروا 20 أو 30 متراً مكعباً فقط، فما بالك في ثلاثمائة ألف متر مكعب.

وحُفر الخندق ونجح المشروع، ومع ذلك لم ينته الامتحان بعد، لا زلنا سندخل في مرحلة الزلزال لنتخلص من كل المنافقين.

يوم الأحزاب

جاءت الأحزاب في شوال سنة 5هـ بعدد قوامه 10000 مقاتل من مشركي قريش وغطفان وبني سليم وغيرهم، ولم يكتف الرسول ﷺ بحفر الخندق، بل جمع الصحابة الثلاثة آلاف الذين اشتركوا في الحفر، ونظّم نقط حراسة للخندق وفرق قتال وكتائب مقاومة؛ ليمنع المشركين من تخطي الخندق تحت أي ظرف، وتفاجأت الأحزاب بالخندق أمامهم، فقد وضعوا في حسبانهم كل شيء إلا هذا الخندق، قالوا: هذه مكيدة ما عرفتها العرب، وصدقوا، ولكنهم

نسوا أن المسلمين ليسوا عرباً فقط، وبدأ المسلمون في رمي المشركين بالنبال؛ ليمنعوهم من عبور الخندق أو ردمه، وحاول المشركون بكل ضراوة أن يقتحموا الخندق، ونجحوا فعلاً في العبور من مكان ضيق في الخندق بفرقة على رأسها أحد أبطالهم، وكان اسمه عمرو بن عبد ود، ومعه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم من فرسان قريش، لكن تصدى لهم المسلمون، وحدثت مبارزة رهيبة بين عمرو بن عبد ود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنّ الله عز وجل على البطل الإسلامي العظيم علي بن أبي طالب بقتل الفارس القرشي الكبير عمرو بن عبد ود، وهرب بقية القوم الذين كانوا معه، وتكررت محاولات المشركين مرات، وتصدى أسيد بن حضير بكتيبة من مائتي مسلم لفرقة فرسان بقيادة خالد بن الوليد، واستطاع أن يردهم منهزمين، وأحياناً كان يدور الصراع حول الخندق لفترات طويلة، حتى إنه في أحد الأيام ظل المسلمون يدافعون عن الخندق قبل صلاة العصر حتى بعد صلاة المغرب، وضاعت عليهم صلاة العصر، والحدث هذا فريد في السيرة، ونادر جداً أن يضيع فرض على المسلمين، وهز هذا الأمر المسلمين، كيف يمكن أن تضيع منهم صلاة؟ حتى قال ﷺ كما جاء في البخاري: (ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)، بل إن في مسند أحمد بن حنبل والشافعي رحمهما الله: أن الكفار أضاعوا على المسلمين في أحد الأيام صلاة الظهر والعصر والمغرب، فصلوها جميعاً مع العشاء.

المقاومة فعلاً كانت شرسة، وأُصيب فيها الكثير من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وطال الحصار شهراً كاملاً، والموضوع كما هو صعب على المسلمين كذلك كان صعباً على الكفار: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء:104]، وقد سبق الكلام على ذلك في غزوة أحد، ولم يستطع الكفار أن يتصرفوا، حتى جاء الحل من قبل اليهود، فاليهود هم الذين جمعوا هذه الأعداد بكاملها، وما زالوا يريدون استئصال المسلمين، فما هو الحل؟

نقض بني قريظة للعهد

خرج مع المشركين أحد زعماء اليهود واسمه حيي بن أخطب، وكان من أشدهم كفراً وحقداً وغلاً وحسداً، قال لهم: هناك حل واحد وهو بنو قريظة، وبنو قريظة على الجنوب الشرقي للمدينة المنورة، لو فتحوا الأبواب للمشركين لدخول المدينة لانتهت المدينة، فما بالكم لو حاربوا مع المشركين؟ فعندما سمع المشركون الفكرة من حيي بن أخطب أعجبتهم، وبقي عليهم فقط أن يقنعوا بني قريظة بنقض العهد مع رسول الله ﷺ، والسماح للمشركين بدخول المدينة لاستئصال الشعب المسلم بكامله، وذهب حيي بن أخطب؛ لكي يؤدي المهمة القذرة، والتقى بزعيم بني قريظة كعب بن أسد، فقال له حيي: (إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على سادتها وقادتها قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه)، فقال له كعب: (جئتني والله بذل الدهر، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً)، لكن حيياً استمر في الكلام مع كعب وزين له الأمر، ثم وعده إن تخلفت قريش وغطفان عنه أن يدخل معه في حصنه، ويتحمل معه ما يحدث بعد ذلك، وتحت تأثير شيطان بني النضير وافق شيطان بني قريظة، وقرر التحالف مع المشركين لتنفيذ ما ذكره حيي، وهو ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، وكان التحالف ليس فقط في أن يفتحوا المدينة، وإنما أيضاً ليقوموا بتجهيز فرق عسكرية للحرب ضد المسلمين.

صارت المدينة على أبواب هلكة قريبة، ماذا يحدث لو انساح عشرة آلاف مسلح بالإضافة إلى يهود بني قريظة إلى داخل المدينة؟ لا أحسب أن أحداً يبقى حياً في المدينة المنورة، لا بد أن تضع هذا في بالك؛ لتفهم رد فعل الرسول ﷺ على الخيانة التي حصلت من بني قريظة، ونقلت المخابرات الإسلامية هذا الخبر، وقد كان الرسول ﷺ خائفاً من خيانة اليهود، وجعل عليهم

مراقبة، فهل من قبيل المصادفة أن يخون اليهود في تعاملهم مع الرسول ﷺ؟ هل من قبيل المصادفة أن يظهر الانحراف في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة؟ لا شك أن هذا ليس مصادفة أبداً، ولا شك أن هذا واقع لا بد أن نُدركه جميعاً، فقد ذكره ربنا سبحانه وتعالى في كتابه حين قال: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [البقرة:100] وانظر المعاني التي تأتي في ذهنك عندما تسمع اللفظ القرآني {أَوَكُلَّمَا} [البقرة:100] كل مرة هكذا؟ هل توجد مرة فيها وفاء لليهود؟ هل توجد مرة فيها أمانة؟ {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ} [البقرة:100] فالكلام هذا ليس مصادفة أبداً، بل هو قاعدة، ولا بد أن نعرفها جيداً.

وصل الخبر إلى الرسول ﷺ، وقبل أن يأخذ الرسول ﷺ أي رد فعل أراد أن يستوثق من الخبر، فأرسل مجموعة من الصحابة للتأكد، فيهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وغيرهم، وقال لهم: (انطلقوا حتى تنظروا: أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم، أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس) أي: إن كانوا حقاً قد غدروا فلا تذكروا ذلك أمام الناس؛ لكي لا يحصل إحباط (وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس). المسلمون اليوم ينشرون أخباراً وخططاً وتسليحاتٍ وأعداداً وإمكانياتٍ للعدو على صفحات الجرائد وعلى شاشات التلفاز، فيشعر المسلم المشاهد لهذه الأخبار أنه لا يوجد أمل ولا توجد فائدة أبداً، لكن الرسول ﷺ يعلمنا أنه ليس كل ما يُعرف يقال، وذهبت المجموعة الإسلامية إلى بني قريظة، وتكلموا معهم مباشرة: أما زلتم على العهد؟ فجهر يهود بني قريظة بالسوء، وسبوا الرسول ﷺ وقالوا: (من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد)، ثم رجع الصحابة إلى الرسول ﷺ وقالوا: (عضل والقارة)، أي: غدروا كغدر عضل والقارة، وهي القبائل التي غدرت بالمسلمين عند ماء الرجيع، فحزن الرسول ﷺ حزناً شديداً لهذا الخبر، حتى إنه تقنع

بثوبه -أي: غطى رأسه بالثوب- ومكث طويلاً ﷺ يفكر ما الذي سيحصل؟ وبعد ذلك رفع رأسه فجأة، وقال للمسلمين بصوت عال: (الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره) وهو يحاول قدر المستطاع أن يرفع من همة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وعلى الرغم من محاولات الرسول ﷺ لتجنب انتشار الخبر إلا أنه شاء الله سبحانه وتعالى للخبر أن ينتشر، وهذا أيضاً له حكمة واضحة، وهو الابتلاء والتنقية والتمييز بين صفوف المسلمين وصفوف المنافقين، فكل ما حدث من الأحزاب وحصار المدينة كانت درجة من درجات الابتلاء، أما الآن فقد وصل المسلمون إلى ما نسميه مرحلة الزلزال، وهي المرحلة التي يُزلزل فيها المسلمون زلزالاً لا يثبت فيه إلا الصادق حقاً، أما المنافق سواء كانت درجة نفاقه كبيرة أو صغيرة لا شك أنه سيقع. وصف الله سبحانه وتعالى هذا الأمر في سورة الأحزاب: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} [الأحزاب:10] من الشمال ومن الجنوب، {وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب:10 - 11]. مرحلة الزلزال مرحلة خطيرة، ولا بد منها قبل أن يأتي النصر، ولكن إذا أتت فالحمد لله، معنى ذلك: أن النصر قريب إن شاء الله: {وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة:214].

أما المنافقون فقد كان وضعهم مختلفاً، كان المشركون حول المدينة من الشمال، واليهود من الجنوب، ولا أمل مطلقاً في نظرهم في النجاة: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب:12] وبعضهم قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. بدأ المنافقون في التسرب من الصف: {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ

يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب:13] والحمد لله بدأت تنقية الشوائب وبدأت تنقية المنافقين من الصف، وبدأ يقترب النصر.

ما قام به ﷺ من أعمال بعد نقض بني قريظة العهد

الرسول ﷺ قائد عملي، لا بد أن يأخذ ردود أفعال واقعية، ما الذي سوف نعمله؟ الجيش الإسلامي في حراسة الخندق في شمال المدينة، أي: هم في منطقة خارج المدينة المنورة، والنساء والأطفال في داخل المدينة، واليهود إلى جوارهم، وأول شيء فكر فيه النبي ﷺ هو إرسال جند لحماية النساء والأطفال. وما يروى من قصة دفاع السيدة صفية عن الحصن ضد اليهودي، ورفض حسان بن ثابت رضي الله عنه أن يهاجم اليهودي، فهذه رواية لا صحة لها؛ لأن السند منقطع، وفيها طعن لا يصح أبداً في صحابي جليل كـ حسان بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه، ولا تنسوا أن حسان بن ثابت كان من الشعراء، ولو حدث هذا لما تركه أحد من شعراء قريش دون هجاء.

بعث الرسول ﷺ فرقة لحماية الجبهة الداخلية في المدينة المنورة، ولا بد أن نفكر في الموقف من جديد، الآن الحصار من قريش وغطفان واليهود، فلا بد أن نعمل محاولة لفك هذا التحالف الرهيب، وأراد الرسول ﷺ أن يأتي بعرض مادي يحاول بهذا العرض أن يفك التحالف، فيا ترى يعرضه على من؟ على قريش، أم على اليهود، أو على غطفان؟ قريش لا يمكن، فتاريخ العداء طويل، وهؤلاء لم يأتوا من أجل المال، وإنما هناك دوافع عقائدية كبرى، أيضاً اليهود لا يمكن؛ لأن حقدهم على الرسول ﷺ كبير جداً، وقد قالوا كلاماً في حق المسلمين ولا يستطيعون أن يتراجعوا عنه، وفي نفس الوقت التعاهد معهم غير مضمون؛ لأنهم متعودون على الخيانة، تبقى غطفان، فغطفان لم تأت إلى الحرب وهي متحرقة شوقاً لقتال الرسول ﷺ، بل جاءت من أجل مال خيبر، فلو أعطوا من مال المدينة قد يرجعون، ولو رجعوا فإن صف

المشركين سوف يتفكك، فستكون المحاولة في هذا الاتجاه. هذا كان تفكير الرسول ﷺ، وفعلاً عقد الرسول ﷺ اجتماعاً مع زعماء غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف. فإن قيل: كيف تقابلوا وكيف وصلوا له؟ نحن لا نعرف، المصادر لم توضح ذلك، لكن يبدو أنها كانت فرصة سريعة حتى إن الرسول ﷺ لم يجد وقتاً لإشراك الصحابة في اللقاء، أو أن اللقاء كان على مستوى عالٍ جداً من السرية فلم يشترك فيه من الطرفين إلا الزعماء، فالرسول ﷺ من ناحية المسلمين، وعيينة بن حصن والحارث بن عوف من ناحية غطفان. اللقاء تم بعد مشاورات ومداولات طويلة، واستقر الطرفان على إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة لسنة كاملة، على أن تعود غطفان وتترك حصار المسلمين، لكن الرسول ﷺ علّق هذه المفاوضات على قبول مجلسه الاستشاري لفكرة المفاوضات، خاصة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فهما سيدا الأوس والخزرج للسببين التاليين: أولاً: لأن الأوس والخزرج قريبون في مساكنهم في المدينة المنورة من غطفان؛ ولهذا فهم أدرى الناس بغطفان وبما يصلح معهم.

ثانياً: أن ثمار المدينة هذه والتي ستكون ثمناً لفك الحصار ليست ملكاً شخصياً لرسول الله ﷺ، وإن كان هو زعيم المدينة المنورة وزعيم الدولة كلها، وإن كان هو النبي ﷺ، لكنه يحترم الملكية الشخصية للأفراد، فالثمار هذه ملكية شخصية للأوس والخزرج.

لهذا بعد اجتماع الرسول ﷺ مع زعماء غطفان عقد اجتماعاً آخر مباشرة مع السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما، وعرض عليهما الاتفاق الذي وصل إليه مع زعماء غطفان، وكان الرسول ﷺ يظن أن هذا عرض مغر جداً ينقذ المدينة من الحصار الصعب، وكان هذا التشاور بعد شهر من الحصار تقريباً، فيا ترى كيف كان رد فعل زعيمي الأوس والخزرج؟ يا ترى فرحا بهذا العرض أم رفضاه؟ وانظر إلى ردهما والحكمة فيه، أول شيء قاله سعد بن معاذ رضي الله عنه: (يا رسول الله؛ هل هذا أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله به لا

بد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟). انظر إلى مدى الفهم والحكمة، لو كان أمراً من الله، أو شيئاً يحبه الرسول ﷺ عندها لا بد أن نطيع وننفذ، وإن كان رأياً بشرياً ترى أن فيه المصلحة للمدينة نعرض فيه رأينا، فقال ﷺ: (بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم)، فقال سعد بن معاذ: (يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها – أي: من المدينة المنورة – ثمرة واحدة إلا قِرىً أو بيعاً –أي: ضيافة أو بيعاً–، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا به وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم). أعجب الرسول ﷺ برأيه مع أن رأيه كان مخالفاً وقال: (أنت وذاك)، فلما سمع سعد بن معاذ ذلك أمسك الصحيفة ومحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: (ليجهدوا علينا)، وأرسل الرسول ﷺ إلى زعماء غطفان يعلمهم برأي المجلس الاستشاري وهو رفض المساومة، والحقيقة كان رأي السعدين في منتهى العمق والحكمة، لم تكن أبداً نظرة عنترية غير مدروسة، ولكنها نظرة إستراتيجية رائعة، فمستقبل المدينة قد يتحدد بهذه المفاوضات، وليست المشكلة في صرف ثلث ثمار المدينة، لكن المشكلة أن غطفان ستحقق انتصاراً غير مقبول على الدولة الإسلامية، وسوف تهتز صورة الدولة الإسلامية أمام غطفان، بل ستهتز أمام الجزيرة العربية بكاملها، وهؤلاء ليسوا من الزعماء النبلاء الشرفاء، بل هم مرتزقة مأجورون، وسيفتح باب الابتزاز المستمر للمدينة المنورة، كلما أرادوا المال جاءوا وحاصروا المدينة المنورة، فهذه الوقفة الصلبة الجريئة لا شك أنها ستهز غطفان من الأعماق، خاصة أنهم لا يفكرون في أي شيء غير المال والدنيا، وطالب الدنيا ضعيف أمام طالب الآخرة.

ولا ننسى أن ديار غطفان قريبة من المدينة المنورة، وقريش آجلاً أو عاجلاً سترجع إلى مكة وديارها، أما غطفان فباقية؛ ولهذا لا بد أن نحافظ تماماً على صورتنا أمام غطفان، فكان قرار السعدين في منتهى الحكمة، والرسول ﷺ أقره دون تردد، وليعلم الجميع أن الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام، وكان من الممكن أن يوحي الله سبحانه وتعالى بهذا الرأي مباشرة إلى الرسول ﷺ، لكن حدوث القصة بهذه الصورة يفتح للمسلمين أبواب الفكر والإبداع، وإبداء الرأي لمصلحة الأمة الإسلامية.

إصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه

خرج المسلمون للجهاد من جديد، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يختبر الصدق في كلام سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحدث أمر شق على المسلمين كثيراً، لكنه كان حُلماً لـ سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقد أُصيب البطل الإسلامي الشاب سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه بسهم في ذراعه أو كتفه، وكانت الإصابة شديدة الخطورة، وكانت أزمة فوق كل الأزمات التي مضت، فهو زعيم الأوس وحكيم من حكماء المسلمين وفارس من فرسانهم، وهو المطاع في قومه، والحبيب ليس فقط لرسول الله ﷺ، بل لله رب العالمين. فيا تريما هو رد سعد بن معاذ وهو شاب يُصاب إصابة قاتلة وعمره 37 سنة؟.

قال سعد وهو يدعو الله عز وجل: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أُجاهده فيك من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى أُجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها -أي: افجر إصابتي واجعلها تزيد- واجعل موتتي فيها). هو شاب عمره 37 سنة يرجو من الله سبحانه وتعالى ألا يلتئم الجرح لكي يموت وعندما يصبح الموت أمنية فهي موتة شهيد، وهو لا يضمن إن عاش بعد ذلك أنه سوف يموت شهيداً، فهذه فرصة، فيدعو الله ألا

تضيع هذه الفرصة، ثم قال في آخر دعائه: (ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة) حتى في لحظاته الأخيرة لا ينسى غدر بني قريظة، ولا ينسى هموم الأمة الإسلامية، والموقف قد تأزم جداً، وهو أشد مراحل الزلزال، ولا يوجد في الصف أي منافق، فكلهم خرجوا ولم يبق إلا المسلمون الصادقون، والمسلمون قد عملوا ما بوسعهم، حفروا الخندق في وقت قياسي، وتحملوا الجوع والبرد، وحموا الخندق بأرواحهم، وقاتلوا بضراوة، وسهروا وتعبوا وكافحوا، وعملوا المفاوضات وعملوا مجالس الشورى، وعملوا كل شيء من الممكن أن يُعمل في مثل هذه الظروف، وقبل هذا وأثناء هذا وبعد هذا اجتهدوا في الدعاء، فهم يعرفون أن النصر ليس من عندهم أبداً، بل هو من عند الله سبحانه وتعالى، فالمسلمون كانوا يدعون الله تعالى أيام الأحزاب، ويقولون: (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)، والرسول ﷺ كان يدعو والمسلمون يؤمنون يقول: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم).

عندها انتهى الامتحان لم يبق إلا أن يأتي نصر الله سبحانه وتعالى، لكن كيف يأتي؟ يأتي كما تعودنا بطريقة لا يتوقعها المسلمون، وبطريقة لا يستطيعون أن يضعوها أبداً في حساباتهم؛ ليعلم الجميع أن الناصر هو الله عز وجل. كيف حصل النصر؟ من هم جنود الرحمن في الأحزاب؟ كل الذي سبق وأن قلناه في بدر يمكن أن نقوله في الأحزاب، لكن سأختار لكم ثلاثة جنود فقط من جنود الرحمن.

نُعيم بن مسعود رضي الله عنه

الجندي الأول: نعيم بن مسعود؛ رجل من المشركين لا يتوقع إسلامه أبداً في هذا التوقيت، بل يكاد يكون مستحيلاً، لماذا أقول: إنه من الصعب جداً أن يسلم في هذه الظروف؟ نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي الغطفاني من قبيلة غطفان المحاصرة للمسلمين، كيف لرجل من

هذا الجيش القوي المحاصر للمسلمين، وبعد أن مر شهر على الحصار، وقد ينهار المسلمون في أي لحظة، خاصة بعد خيانة اليهود، كيف له أن يترك جيشه القوي؛ لينضم إلى الجيش الضعيف المهدد بالموت في أي لحظة، ولعل بعض المسلمين كانوا يريدون أن يسلم نعيم بن مسعود قبل سنة أو سنتين أو أكثر، ولو أسلم قبل الأحزاب لما كان له دور في رفع الحصار على المسلمين، لكن كل شيء محسوب: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:49].

جاء نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ يقول له: (يا رسول الله؛ إني قد أسلمت، وإن قومي غطفان لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال ﷺ: إنما أنت رجل واحد -أي: أن انضمامك إلينا لن يكون فيه فارق كبير- فخَذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة) لكن الله سبحانه وتعالى هداه لفكرة عجيبة جداً! لو فكر فيها عشرين سنة لما وصل إليها، ولم تخطر هذه الفكرة على بال الرسول ﷺ ولا على بال أحد من حكماء الصحابة، لكن إذا أراد الله سبحانه وتعالى للنصر أن ينزل على المسلمين فسينزل ولا معجز له سبحانه وتعالى، ونعيم بن مسعود شخصية معتبرة قيادية معروفة عند اليهود وعند قريش، ذهب مباشرة إلى يهود بني قريظة وهم يظنونه مشركاً، ويعلمون أنه من قادة غطفان، وله معرفة ببواطن الأمور وما يجري خلف الأبواب.

قال لهم: (قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم)، قالوا: (صدقت)، قال: (فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم)، فقالوا: (وما العمل يا نعيم؟!) قال: (لا تقاتلوا معهم حتى يُعطوكم رهائن)، قالوا: (لقد أشرت بالرأي)، ثم ذهب نعيم إلى قريش وقال لهم: (تعلمون ودي لكم ونُصحي لكم)، قالوا: نعم، قال: (إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم

قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم)، ثم ذهب إلى غطفان وقال لهم ما قاله لقريش.

وهكذا شعرت قريش بالقلق، وكذلك غطفان، فأرسلوا رسالةً سريعة لليهود، وكانت الرسالة يوم السبت وبتدبير رب العالمين، وأنتم تعرفون أن السبت هي إجازة رسمية عند اليهود، قالت قريش لليهود: (إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك القِراع والخُف -أي: الدواب والماشية التي معهم- فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً)، فبعث اليهود إليهم وقالوا: (هذا اليوم هو يوم السبت ولا نستطيع، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن)، فقالت قريش لغطفان: (صدقكم والله نعيم)، فبعثوا إلى اليهود وقالوا: (إنا لا نُرسل إليكم أحداً فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً)، فقال اليهود: (صدقكم والله نعيم)، فدبت الفرقة بين الفريقين وتفكك الأحزاب.

لماذا يأتي إسلام نعيم بن مسعود في هذا الوقت بالذات؟ ومن أين أتته الفكرة؟ وكيف تم تطبيقها؟ وكيف وقع فيها اليهود؟ وكيف وقع فيها حكماء قريش وغطفان؟ ولماذا لم يحصل تحقيق ومحاولات لكشف الحقيقة؟ ليست هناك سوى إجابة واحدة فقط: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82].

هذا أحد جنود الرحمن في الأحزاب وهو نعيم بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه.

الريح

الجندي الثاني: الريح، وهو جندي هائل من جنود الرحمن سبحانه وتعالى، فقد بعث الله سبحانه وتعالى ريحاً باردة قاسية البرودة على معسكر الكافرين، لم تترك لهم خيمة إلا قلعتها، ولا قدراً إلا قلبته، ولا ناراً إلا أطفأتها، فكانت الريح شديدة على الكفار وهيّنة على المسلمين،

وليس بينهم إلا عرض الخندق، ووصلت شدة الريح وخطورتها إلى الدرجة التي دفعت المشركين لأخذ قرار العودة دون قتال وفك الحصار، ورفع الحصار عن المدينة المنورة.

كيف اختارت الريح مكاناً وتركت مكاناً؟ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82]، ولماذا لم تأت الريح من أول يوم، وانتظرت شهراً كاملاً؟ ليتم اختبار المؤمنين ويتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق. ولماذا لم تأت أقوى من ذلك لتهلك الكفار كما أهلكت عاداً وثمود؟ لأن معظم هؤلاء الكفار سيسلمون، ويكونون بعد ذلك في جيش الإسلام. الكون يجري وفق نواميس هي غاية في الدقة والإعجاز.

الملائكة

الجندي الثالث: الملائكة، يقول الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الأحزاب:9]. وسوف نرى في حديث بني قريظة بعد قليل أن الملائكة شاركت في الحرب، بل وشارك جبريل عليه السلام بنفسه.

تم نصر الله عز وجل، وأرسل الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان إلى معسكر الكفار؛ ليطمئن على سير الأحداث وعلى فعل الرياح بهم، وعلى أثر الفرقة التي أحدثها نعيم بن مسعود رضي الله عنه، فعاد حذيفة بالخبر الجميل والنصر العظيم، لقد عزم الجميع على الرحيل، حدث كل هذا من غير قتال من المسلمين، وانظر إلى قوله تبارك وتعالى: {وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب:25] وانتهت واحدة من أعظم معارك المسلمين، مع أنه لم يحدث فيها قتال، وكأن الله عز وجل يريد أن يقول لنا: ليس المطلوب هو تحقيق النصر، ولكن المطلوب هو العمل من أجله، المطلوب هو قرار الجهاد،

المطلوب هو الثبات في أرض المعركة، المطلوب هو صفات الجيش المنصور، أما النصر فينزل بالطريقة التي أراد الله عز وجل، وفي الوقت الذي يريد سبحانه وتعالى.

غزوة بني قريظة

إن كانت قصة الأحزاب انتهت فقصة بني قريظة لم تنته بعد، فاليهود أعداء الله وأعداء المؤمنين وأعداء الحق وأعداء الأخلاق الحميدة وأعداء كل خير. رجع الرسول ﷺ من الخندق بعد صلاة الصبح، وذهب إلى بيته بعد غياب قرابة شهر، وبعد عناء كبير ومشقّة بالغة يغتسل ﷺ، فإذا بجبريل عليه السلام قد جاءه عند الظهر فقال له: (قد وضعت السلاح؟!، والله ما وضعناه) أي: أن الملائكة لم يضعوا السلاح، بل في رواية السيدة عائشة عند الطبراني والبيهقي تقول: (فكأني برسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل). سبحان الله! يقاتل جبريل عليه السلام قتالاً حقيقياً في أرض المعركة.

قال جبريل: (اخرج إليهم، قال النبي ﷺ: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة)، وفي رواية: (أن جبريل قال: إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب) وهكذا سار جبريل عليه السلام في موكبه من الملائكة، أما الرسول ﷺ فقد أمر المسلمين بالتوجه السريع إلى بني قريظة، وليس هناك راحة بعد هذا الشهر الطويل، إنما الراحة هناك في الجنة، أما الدنيا فهي دار عمل، فقال: (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة) وهكذا اجتمع الرسول ﷺ والصحابة في ثلاثة آلاف مقاتل، هذا غير الملائكة، في حصار بني قريظة، واستمر الحصار 25 ليلة، تقريباً كالحصار الذي كان على المسلمين في المدينة المنورة.

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال تحول المسلمون من محاصَرين إلى محاصِرين في لحظات، واستمر الحصار كما قلنا 25 ليلة، وبعد كل تعب الخندق لا يزال

المسلمون في قوة، يحاصرون 25 ليلة، وفي النهاية قذف الله عز وجل الرعب في قلوب اليهـود، فنزلوا على حكم الرسول ﷺ، مع أنه كان بإمكانهم المطاولة في الحصار، وأمر الرسول ﷺ بـأن يُقيدوا فقيدوا، فجاءت الأوس إلى رسول الله ﷺ وكانوا حلفاء بني قريظة في الجاهليـة، وكـان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وقد كان من المقرر أن الرسول ﷺ يقتل بني قينقاع، لكن جـاء عبـد الله بن أبي ابن سلول زعيم الخزرج واستنقذهم منه، فجاءت الأوس إلى الرسول ﷺ وقالـت: (يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخواننا الخـزرج، وهـؤلاء بنـو قريظة موالينا فأحسن فيهم)، فقال الرسول ﷺ: (ألا ترضون أن يحكـم فـيهم رجـل مـنكم؟) قالوا: بلى قال: (فذاك إلى سعد بن معاذ) قالوا: (قد رضينا) فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بـن معاذ وكان في المدينة مصاباً، فأتوا به من المدينة المنورة راكباً عـلى حمـار، فلـما رآه الأوس التفـوا حوله، وقالوا: (يا سعد أجمل في مواليك فأحسن فيهم)، فإن الرسول ﷺ قد حكّمك لتحسـن فيهم، وهو ساكت رضي الله عنه لم يرد عليهم، حتى قال لهم: (قد آن لـ سـعد ألا تأخـذه في الله لومة لائم)، عندما سمعوه يقول هذا عرفوا أن سعداً سوف يحكم فـيهم حكـماً شـديداً، وأتـى سعد ووصل إلى المكان الذي فيه الصحابة، ولما رآه الرسـول ﷺ قـال للصـحابة: (قومـوا إلى سيدكم)، فقام الصحابة احتراماً لـ سعد بن معـاذ رضي الله عنـه وأرضـاه وأنزلـوه مـن فـوق الحمار، وقالوا: (يا سعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا عـلى حكمـك) قـال سـعد: (وحكمـي نافـذ عليهم؟) -أي: أن الذي سأقوله سوف يحصل فيهم؟ - قالوا: (نعم)، قال: (وعلى المسلمين؟) قالوا: نعم، قالوا: (وعلى من هاهنا؟) وأعرض بوجهه رضي الله عنـه وأرضـاه، وأشـار ناحيـة الرسول ﷺ، وهو لا يريد أن يقول: وحكمي نافذ على رسـول الله ﷺ، وهـذا يـدل عـلى أدبـه رضي الله عنه، فقال ﷺ: (نعم، وعليّ)-أي: أن حكمك ينفذ عليّ- قال: (فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال وتُسبى الذرية وتقسّم الأموال)، فقال الرسول ﷺ: (لقد حكمـت فـيهم بحكـم

الله من فوق سبع سماوات) وبدءوا بتنفيذ حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه، وجمعوا يهود بني قريظة وقتلوا الرجال جميعاً، كان تعدادهم تقريباً 400 وفي بعض الروايات: 700، وقتل معهم حيي بن أخطب الذي وعد قبل هذا كعب بن أسد. قال له: لو رجعت غطفان وقريش فسأدخل معكم في الحصن، ودخل في الحصن معهم وقُدِّم للقتل، فقد كان تاريخه أسود وطويلاً مع المسلمين، وانظر إلى قوله للرسول ﷺ وهو في حالة القتل، قال: (والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغلب)، هو يعرف أنه يُغالب رب العالمين سبحانه وتعالى، ويقر بذلك عند موته، ثم يقول: (أيها الناس لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها على بني إسرائيل)، ثم جلس فضُربت عنقه.

لم يقتل واحد من بني قريظة وكان اسمه عمرو ؛ وذلك لأنه كان مسافراً وليس في بني قريظة وقت الغدر، ويتضح جلياً أن القتل كان نتيجة غدر بني قريظة، والذي لم يغدر معهم وكان خارج الحصن لم يُقتل معهم، وليس هنا مجال لأحد أن يقول: إنه كان هناك تجاوز في قتل 400 أو 700 من بني قريظة أبداً، فقد كانوا يريدون فعل ذلك بالضبط في أهل المدينة المنورة بالكامل، مع أنهم كانوا على عهد مع الرسول ﷺ، وكانوا يريدون أن يفتحوا الأبواب مع قريش وغطفان كما قالوا؛ ليستأصلوا محمداً وأصحابه جميعاً، والجزاء من جنس العمل: {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر:43].

استشهاد سعد بن معاذ رضي الله عنه

بعد أن انتهت قصة بني قريظة استجاب الله عز وجل لدعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه، فانفجر جرحه وسالت منه الدماء حتى خرجت من خارج الخيمة، رضي الله عنه وأرضاه، ليلقى ربه سعيداً راضياً، ويكفي في حق سعد بن معاذ ما رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال في حقه: (اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ) وعندما أخذ الصحابة سعد بن معاذ

وجدوا جنازته خفيفة، فقال ﷺ: (إن الملائكة كانت تحمله) كانت قيمته كبيرة في ميزان الإسلام رضي الله عنه وأرضاه، مع أن كل عمره في الإسلام ست سنين، ومع ذلك فإن إنجازه يعجز عن مثله الناس في 30 و 40 و 50 سنة، فرضي الله عنه ورضي الله عن صحابة الحبيب ﷺ أجمعين.

هذه كانت قصة الأحزاب وبني قريظة، كانت موقعة عجيبة بلا قتال تقريباً: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب:25] لكنها كانت امتحاناً عظيماً، ولم يثبت فيها إلا الصادق حقاً، وكانت في نفس الوقت غزوة فرقت بين مرحلتين رئيستين في السيرة، فما قبل الأحزاب شيء، وما بعد الأحزاب شيء.

قبل الأحزاب كان الاضطراب والقلق والمشاكل الكثيرة وعدم الاستقرار، أما بعد الأحزاب فقد نضجت الدولة الإسلامية نضجاً جعلها قادرة على الوقوف بصلابة في وجه كل أعدائها، رسّخت الأحزاب أقدام المسلمين في الجزيرة العربية، ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على تحدي هذا الكيان الصلب الجديد، ولقد كان الرسول ﷺ في منتهى العمق في تحليله لغزوة الأحزاب، فقد قال بعد أن ذهب الكفار: (الآن نغزوهم ولا يغزونا) أي: نحن نسير إليهم.

الفترة التي كانت بين الهجرة والأحزاب كانت فترة تأسيس للدولة الإسلامية، أما الفترة التي ستأتي بعد الأحزاب فستكون فترة تمكين لدين الله عز وجل في الأرض، وسنرى فيها صلح الحديبية وفتح خيبر ومؤتة وفتح مكة وحنين وتبوك، وسنرى فيها المراسلات إلى ملوك العالم وأمرائهم، وسوف نرى انتشار دين الله سبحانه وتعالى في المدن والبوادي، وسنرى تسابق

الوفود لإعلان إسلامهم بين يدي الحبيب ﷺ، ستكون فترة سعيدة، وكل أحداث السيرة سعيدة، وكيف لا وهي حياة أفضل العالمين وخير البشر وسيد الدعاة وإمام الأنبياء ﷺ.

29

المسلمون بعد الأحزاب

(السنة السادسة للهجرة)

تحدثنا عن تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة خلال الخمس السنوات الأولى من الفترة المدنية، فالسنوات الخمس الأولى كانت مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية، بدأت من الهجرة وانتهت بانتهاء غزوة الأحزاب. كانت مرحلة التأسيس مرحلة شاقة جداً ومرهقة، فقد تعددت فيها أنواع الصراع مع أعداء الأمة، فقد وجهوا كل طاقاتهم لمنع قيام الدولة الإسلامية، ولكن بفضل الله نجح المسلمون بقيادة الرسول ﷺ في تأسيس دولتهم برغم كل هذه المعوقات، وبانتهاء غزوة الأحزاب انتهت هذه المرحلة الهامة لتبدأ مرحلة أخرى لا تقل أهمية أبداً عن المراحل السابقة، عبَّر عنها ﷺ بقوله الدقيق الذي يعبر عن دراية كاملة بوضعه ووضع العالم من حوله، قال ﷺ بعد انتهاء الأحزاب: (الآن نغزوهم ولا يغزونا) أي: نحن سنسير إليهم؛ لأن الدولة الإسلامية بفضل الله أصبحت من القوة بحيث أنها لا يمكن أن تستأصل، وبحيث أنه من الصعب جداً على الآخرين التفكير الجدي في غزو المدينة المنورة، هذه المرحلة الجديدة نستطيع أن نسميها مرحلة الانتشار والفتح والتمكين لدين رب العالمين سبحانه وتعالى.

سينتشر فيها دين الإسلام كما سنرى بسرعة مذهلة، ليس فقط في الجزيرة العربية، بل وما حولها، وسيتطور الأمر بعد وفاة الرسول ﷺ لينتشر الإسلام في ربوع العالم المختلف. هذه هي طبيعة بناء الأمة الإسلامية، تبدأ شاقة وعسيرة؛ لأن كل الأعداء على اختلاف توجهاتهم يتعاونون في حربها، ثم تخرج الأمة من عنق الزجاجة في وقت ما لتبدأ مرحلة الانتشار والفتح والتمكين.

مرحلة الانتشار والفتح بعد الأحزاب

في ذي العقدة سنة 5 هـ رحلت الأحزاب، وفي نفس الشهر بدأ المسلمون مرحلتهم الجديدة، حملات عسكرية متتابعة وسريعة لهدف رئيس هو تأديب وعقاب أولئك الذين شاركوا في حصار المسلمين في غزوة الأحزاب، أو تأديب أولئك الذين غدروا بالمسلمين في حوادث أخرى سابقة للأحزاب؛ ليعلم الجميع أن انتهاك حرمات الأمة الإسلامية لا يمر هكذا بدون عقاب.

والحملات العسكرية بعد الأحزاب كانت مكثفة جداً، بمعدل حملة كل 20 يوماً تقريباً، وهذا فيه إرهاق شديد جداً على الدولة الإسلامية الناشئة، ومع ذلك هذا الإرهاق لا بد منه؛ لأن الأمة التي لا تجاهد تصاب بالذل، روى أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إذا تبايعتم بالعينة)، العينة: نوع من أنواع الربا، (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد) ما هو الذي سيحصل؟ (سّلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم)، ضعف المسلمين وذلة المسلمين لا يؤدي فقط إلى التهديد المستمر للدولة الإسلامية، ولكن يؤدي أيضاً إلى فقد الثقة في الدين الإسلامي نفسه، ستقول الناس: لو كان هذا الدين عظيماً لكافح من أجله أصحابه، لو كان هذا الدين عظيماً لفرض نفسه على الآخرين وسادهم، ولذلك جعل الله عز وجل من دعاء المؤمنين أن يقولوا: {رَبَّنَا لا

تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس:85]، هذه الفتنة قد تكون نتيجة الوضع المتردي للمسلمين في فترة من فترات حياتهم، ينفر الناس من الإسلام، يهجرون الإسلام؛ لعدم ثقتهم في المسلمين، وهذا أمر خطير، والرسول ﷺ يريد أن تبقى صورة الأمة الإسلامية مرفوعة ومهابة وسط الجزيرة العربية.

سرية عبد الله بن عَتِيك لقتل سلَّام بن أبي الحُقيق

لقد بدأ الجهاد مباشرة بعد غزوة الأحزاب، وأول ما بدأ به تحرك تجاه أولئك الذين حركوا جموع العرب لغزو المدينة المنورة، وبالتحديد اتجاه اليهود وزعمائهم، وأهم هؤلاء الزعماء حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب كان قد قتل مع يهود بني قريظة في أعقاب غزوة الأحزاب مباشرة، وبعد مقتل حيي بن أخطب لزم على المسلمين أن يذيقوا سلام بن أبي الحقيق من نفس الكأس الذي كان يريد أن يذيقه للشعب المسلم بكامله في المدينة المنورة، من أجل هذا أرسل الرسول ﷺ سرية لاغتيال سلام بن أبي الحقيق في خيبر، وسلام بن أبي الحقيق من زعماء خيبر، وخيبر على بعد حوالي 150 كيلو شمال المدينة المنورة، وهي مهمة خطيرة جداً، فالرسول ﷺ أرسل سرية كاملة بقيادة عبد الله بن عتيك رضي الله عنه وأرضاه.

نرى الفكر السياسي والعسكري الدقيق لرسول الله ﷺ؛ لأنه بالسرية هذه سيقضي على رءوس الفتنة ومجرمي الحرب ومحركي الجموع، وبالتالي يستطيع بعد ذلك أن يسيطر على الأمور بصورة أيسر وبطريقة أسرع، وبحمد الله نجحت سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه في قتل سلام بن أبي الحقيق، وتخلص المسلمون من رأس كبير من رءوس الفتنة، وكانت خسارة كبيرة جداً لليهود، وبالذات أن ذلك كان بعد التخلص من بني قريظة، وبعد التخلص من حيي بن أخطب، وبات واضحاً للجميع أن الدولة الإسلامية في طريقها إلى النمو والقوة، وأن نجمها سيعلو في الجزيرة بكاملها، والرسول ﷺ لم يهمل هذه النجاحات المتتالية في الأحزاب وبني

قريظة وفي حادثة اغتيال الزعيم اليهودي سلام بن أبي الحقيق، بل استغلها بنشر القوات الإسلامية في كل مكان هنا وهناك، وبسط السيطرة على المناطق المختلفة في الجزيرة، وقام بتأديب وعقاب من اشتركوا في إيذاء المسلمين قبل ذلك.

سرية محمد بن مسلمة لتأديب بني بكر بن كلاب من قبائل نجد

بعد عودة سرية عبد الله بن عتيك من خيبر، أرسل سرية بقيادة محمد بن مسلمة رضي الله عنه وأرضاه إلى منطقة تعرف بالقرطاء، وهي تبعد عن المدينة المنورة أكثر من 300 كيلو متر، وهذه السرية كانت موجهة إلى بطن بني بكر بن كلاب، وهم من قبائل نجد الذين اشتركوا في حصار المدينة المنورة أيام الأحزاب، مع أن هذه السرية كانت مكونة فقط من 30 فارساً فهي سرية صغيرة، إلا أنها حققت نتائج عظيمة جداً، لا تتناسب مطلقاً مع عددها الصغير. ألقى الله سبحانه وتعالى بهذه السرية الرعب في قلوب بني بكر، لقد هرب معظمهم من السرية، وتفرقوا في الصحراء وقتل منهم عشرة، واستاق محمد بن مسلمة رضي الله عنه وأرضاه عدداً كبيراً جداً من الإبل والشياه، جاء في بعض التقديرات أنها 150 من الإبل و 3000 من الشياه.

كان من آثار هذه السرية أن ارتفعت هيبة المسلمين في قلوب الأعراب هنا وهناك، وخاف الناس منهم، وتحسن الوضع الاقتصادي في المدينة المنورة، وبالذات أن المسلمين لا زالوا خارجين من أزمة الأحزاب، فقد كانوا في حالة شديدة جداً من الفقر والجوع، وارتفعت معنويات المسلمين جداً، وشعروا بشعور المهاجم لا شعور المدافع. هذه ثلاثة آثار إيجابية لهذه السرية البسيطة.

قصة أسر ثُمامة بن أُثال الحنفي وإسلامه

عند عودة المسلمين من هذه السرية من أرض نجد أسروا رجلاً كان في طريقهم لم يكونوا يعرفونه، فلما أتوا به إلى المدينة المنورة تبين أن هذا الرجل هو ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، فهو من أعظم وأكبر زعماء العرب مطلقاً في ذلك الوقت، فقد كان ذاهباً من بني حنيفة متنكراً من أجل أن يقتل الرسول ﷺ بنفسه، لكن تعالوا لننظر ماذا سيحصل مع هذا الأسير؟ وما هي الآثار التي نتجت عن أخذ هذا الأسير الكبير؟ أخذ المسلمون هذا الأسير وربطوه في سارية من سواري المسجد النبوي، فخرج ﷺ وسأله: (ما عندك يا ثمامة؟) لنتصور حلم ورفق الرسول ﷺ وهو يخاطب رجلاً يعلم أنه جاء ليقتله: (ما عندك يا ثمامة؟ فقال ثمامة: عندي خير يا محمد). ثم عرض على النبي ﷺ ثلاثة أمور، يقول: (إن تقتل تقتل ذا دم) أي: لو قتلتني ورائي قبيلة كبيرة جداً بنو حنيفة ستأخذ بثأري، فدمي لن يذهب هدراً. هذا أول شيء، وهذه صيغة تهديدية، (إن تقتل تقتل ذا دم).

الثاني: (وإن تنعم تنعم على شاكر) أي: لو أطلقتني بغير فداء سأحفظ لك هذا الجميل وأشكره لك.

الثالث: (وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت) أي: إن طلبت المال كفدية سنعطيك منه ما تشاء؛ لأن ثمامة من أغنى أغنياء العرب، وتصور هذا العرض والمدينة في حالة من أشد حالات الفقر.

هذه اختيارات ثلاثة عرضها ثمامة على رسول الله ﷺ، لكن الرسول ﷺ آثار آثر يرد سريعاً على هذه الاختيارات الثلاثة، بل تركه مربوطاً في سارية المسجد يشاهد حركة المسلمين وتعامل المسلمين وصلاة المسلمين ودروس المسلمين، فالمسجد كان حياة المسلمين كلها، كل شيء

يحصل في المسجد، حتى الأمور السياسية والعسكرية الخطيرة تتم في داخل المسجد، ويؤخذ القرار في داخل المسجد.

فـ ثمامة بن أثال وهو مربوط يرى واقع المسلمين وحياة المسلمين وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وبين الأخ وأخيه، يرى الإسلام بصورة واقعية تماماً.

خرج الرسول ﷺ في اليوم الثاني وسأل ثمامة نفس السؤال قال: (ما عندك يا ثمامة؟) فرد عليه بنفس الرد وعرض عليه الأمور الثلاثة، فتركه الرسول ﷺ للمرة الثانية ورجع له في اليوم الثالث وقال له: (ما عندك يا ثمامة؟) فرد ثمامة بنفس الرد، هنا الرسول ﷺ سيختار أحد الاختيارات الثلاثة، فالرسول ﷺ رأى ثمامة رجلاً عاقلاً سيداً شريفاً زعيماً، ومن ورائه رجال وأقوام، وراءه قبيلة كبيرة جداً قبيلة بني حنيفة، ثم إن الرسول ﷺ لاحظ انبهار ثمامة بن أثال بالمسلمين وبطبيعة الدين الإسلامي، ولاحظ انبهار ثمامة بالرسول ﷺ نفسه، فقد شعر رسول الله ﷺ أن إسلام ثمامة محتمل، فلو أطلقه بدون فداء لعل هذا يؤثر فيه ويسلم، وقد يسلم من ورائه أيضاً قبيلة بني حنيفة، وكان إسلام الرجل أحب إلى رسول الله ﷺ من أموال الدنيا جميعاً، أن يسلم واحد ويستنقذ من الكفر إلى الإيمان هذا يساوي عند الرسول ﷺ أكثر من كل أموال الدنيا، لذلك اختار الرسول ﷺ أن يطلق ثمامة بغير فداء.

تصور هذا أسير ثمين جداً ويطلقه هكذا بغير فداء! أنعم عليه آملاً أن يكون ثمامة بن أثال صادقاً عندما قال: (إن تنعم تنعم على شاكر)، وهذا التصرف في حسابات أهل الدنيا من السياسيين يعتبر تصرفاً غير مفهوم؛ لأن الرسول ﷺ يحكم دولة فقيرة، وهي لا زالت خارجة من أزمة اقتصادية طاحنة، ولو طلب الأموال الطائلة لبذلت لفك أسر ثمامة بن أثال، لكن الرسول ﷺ لم يكن يفكر في الدنيا بكاملها، كل الذي يفكر فيه استنقاذ ثمامة وقبيلة ثمامة من براثن الكفر وجذبهم إلى جنة الإيمان، ولا يفقه ذلك إلا سياسي مؤمن، وثمامة كان عند حسن

ظن الرسول ﷺ، فقد خرج مسرعاً من المسجد النبوي بعد أن أطلق سراحه، انطلق إلى نخل قريب من المسجد عنده بئر من الآبار فاغتسل من هذا الماء الذي في البئر، والظاهر أنه سأل قبل ذلك عن كيفية الإسلام، لكنه لم يرد أن يسلم وهو في قيده؛ من أجل ألا يتهم بالنفاق، أو يتهم أنه أسلم ليطلق سراحه، وإنما انتظر حتى أطلق ثم اغتسل وجاء بنفسه مختاراً إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه بين يديه، فعل ذلك بكل حسم وعمق إيمان، لم يفكر في الرجوع إلى بلده للاستشارة وأخذ الرأي، وإنما بعد أن رأى الحق رغب فيه وأسرع إلى الإسلام مهما كانت العواقب ومهما كانت النتائج.

قرر السيد ثمامة بن أثال الذي تعود أن يتبعه الناس أن يتحول من سيد إلى تابع مطيع لهذا الدين الجديد دين الإسلام، فعنده إيمان عميق ومن أول يوم من أيام الإسلام. لقد وقف ثمامة بن أثال رضي الله عنه وأرضاه في خشوع أمام الرسول يقول له: (أشهد أنه لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد)، ثم قال: (يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، ووالله ما كان دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، ووالله ما كان بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي). في لحظات تبدلت المشاعر والأحاسيس والأمنيات والأهداف هذا هو الإسلام، وهذه هي نتيجة المعاملة بالحسنى، والجدال بالتي هي أحسن، والرفق والحلم مع الناس.

ثم قال ثمامة رضي الله عنه وأرضاه: (يا رسول الله إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟) أي: أنه كان ناوياً العمرة بعد أن يقتل الرسول ، لكنه الآن صار مسلماً، فهو يسأل: هل يذهب لأداء العمرة أم لا؟ فأمره أن يعتمر، فلما ذهب إلى مكة فهو زعيم كبير جداً وكان مقرباً إلى أهل مكة، (فلما ذهب إلى أهل مكة وعرف المشركون في مكة أنه قد أسلم، فقال له أحد المشركين: (صبوت؟) أي: تركت العبادة الصحيحة؟ كما تقول لواحد مؤمن في هذا الوقت:

كفرت؟ (فقال ثمامة : لا والله ولكني أسلمت مع محمد) ما كنت عليه من عبادة الأصنام هو الباطل، وأنا في هذا الوقت آمنت حقيقة لا صبوت.

ثم أخذ قراراً في منتهى الجرأة والأهمية والتضحية، قال مخاطباً زعماء قريش: (لا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حِنْطة حتى يأذن فيها النبي) هذا قرار عجيب جداً، إنه قرار مقاطعة اقتصادية كاملة لأقوى قبيلة عربية في المنطقة قريش، لماذا هذه المقاطعة؟ لأنها معادية للإسلام والمسلمين، هذا قرار فيه جرأة كبيرة جداً، فهو سيواجه قريشاً بكل قوتها ورجالها وسلطانها وعلاقاتها وتاريخها، وهو سيمنع الطعام عن مكة، وكانت اليمامة المصدر الرئيسي لشعير وخبز مكة، كان يطلق على اليمامة ريف مكة.

هذا القرار فيه إيذاء شديد لمصالح مكة، وحصار اقتصادي مريع لمكة، وهو قرار في نفس الوقت فيه تضحية كبيرة جداً من ثمامة ؛ لأنه ليس فقط سيواجه زعماء مكة أو يفقد علاقات مهمة معهم، ولكنه سيفقد كذلك ثروات ضخمة؛ فثمامة بن أثال تاجر يعتمد في التجارة على البيع والشراء، فهو الآن يقرر رضي الله عنه وأرضاه أن يخسر هذه التجارة، ويخسر هذه الأموال، ويخسر هذه العلاقات، ولكن كل ذلك في سبيل الله؛ هو ليس بخسران في الحقيقة بل هو رابح ربحاً عظيماً جداً؛ لأنه ترك تجارة المشركين وتاجر مع رب العالمين سبحانه وتعالى.

يتعلل الكثير الآن بأننا لا نستطيع أن نقاطع أعداءنا؛ لأننا سنفقد ثروات اقتصادية ضخمة وسنخسر مادياً، والمصانع ستقفل، والتجارات ستقف، أقول: هذه طبيعة الحروب، والنصر لا يأتي إلا ببذل وتضحية في سبيل الله؛ لأن هذا الذي نشتريه بجهادنا بأنفسنا وأموالنا هو شيء ثمين ونفيس جداً، إنه شيء اسمه الجنة، فلا بد أن يكون المدفوع في الجنة كثيراً وعظيماً جداً؛ لأنه كما روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن الرسول قال: (ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة) فأنت تتاجر مع رب العالمين سبحانه وتعالى، والثمن الجنة.

فثمامة أخذ قراراً ونفذه بالفعل وتمت المقاطعة وعلم بها ورضي عنها وتركها تحدث دون أن يمنعها، ففي هذا الأمر أبلغ الرد على من يقول: إن المقاطعة بدعة، بل على العكس، المقاطعة سنة تقريرية من سنن الرسول ، والسنة: هي كل فعل أو قول أو تقرير لرسول ، فالرسول عندما يرى حدثاً من أحداث الصحابة فيسكت عنه أو يستحسنه أو يقره بكلمة أو بفعل، كل هذا يحول الحدث إلى سنة؛ لأن الرسول لو رأى منكراً لنهى عنه، فهذا الأمر حدث من ثمامة بن أثال وسكت عنه الرسول وأقره، واستمر ثمامة في المقاطعة إلى أن حدث أمر غريب.

فما هو الذي حصل بعد هذا من أجل أن نفهم معنى السنة ومعنى البدعة؟ المقاطعة أثرت تأثيراً مباشراً قوياً حاسماً على زعماء مكة وعلى شعب مكة بصفة عامة، كادت مكة أن تهلك، وفشلت كل محاولات مكة في إقناع ثمامة بن أثال بالعدول عن المقاطعة؛ لأنه أصر عليها وربط رفع المقاطعة بموافقة النبي على إعطاء مكة الشعير من جديد، وقريش لم يكن أمامها إلا حل واحد، وهو حل عجيب، وأبعد حل ممكن نتصوره، بل أبعد حل ممكن تتصوره قريش نفسها.

ماذا عملت قريش؟ لقد أرسلت وفداً إلى المدينة المنورة؛ ليستعطف رسول الله ليأذن لثمامة بمعاودة التجارة مع قريش، هذا الموقف كان بعد شهور قليلة جداً من غزوة الأحزاب، فقريش تنازلت عن كبريائها وغطرستها وذهبت لتسأل الرسول وتطلب منه وترجوه وتستحلفه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليأذن له بمعاودة التجارة معها، فكتب له ولم يلمه على المقاطعة ولم يقل: هذا غير صحيح أو غير سنة، بل أذن له أن يعطيهم؛ بسبب الأرحام التي سألوه بها .

فهذا أمر واضح جداً في السيرة النبوية، وهو أمر يقبله كل عقل وكل شرع؛ لأنه ليس من المعقول أن الناس تحارب الرسول وتذبح المسلمين وتحاصر المسلمين وتجوع المسلمين فإذا ما أخذنا قراراً بعدم الشراء منهم سميناه بدعة، هذا أمر غريب جداً على الفقه والفهم الإسلامي.

ولا يخفى علينا في هذا الموقف أن نرى رقة قلب رسول الله ، حيث وافق على إعطاء قريش مع كل ما فعلته مع المسلمين قبل ذلك، وافق على طلب قريش وأمر ثمامة بإلغاء المقاطعة التي كانت بينه وبين قريش.

هذا الموقف رفع رءوس المسلمين إلى السماء، لم تعد دولة المسلمين دولة ضعيفة مهيضة الجناح، مهددة من هنا وهناك، لا، بل أصبحت دولة منتصرة تبسط سيطرتها على بقاع متعددة في الجزيرة العربية، يرهبها الصغير والكبير، لها قوة اقتصادية، لها علاقات دبلوماسية، في يدها مفاتيح لتغيير الأوضاع في الجزيرة، وللتأثير على الجميع بما فيهم قريش ذاتها.

لقد كانت سرية محمد بن مسلمة سرية بسيطة مكونة من 30 فارساً، لكن إذا أراد الله عز وجل بالأمة خيراً فلا راد لفضله سبحانه وتعالى، ويأتي الخير بأهون الأسباب التي يتوقعها المسلم، بل يأتي من حيث لا يتوقع أصلاً، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:3]، والنصر ما هو إلا نوع من الرزق، وكثيراً ما يأتي من حيث لا يحتسب الإنسان.

غزوة بني لحيان

بعد هذه الآثار العظيمة من ارتفاع معنويات المسلمين، وخوف الأعراب، وهزة قريش، وإسلام ثمامة بن أثال رضي الله عنه، وقتل زعماء اليهود الكبار وفي أولهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، بعد كل هذا كان لزاماً على المسلمين أن يستغلوا هذه الآثار الضخمة بسلسلة منظمة من الحملات العسكرية هنا وهناك؛ لأن قريشاً ستنشغل بنفسها ولن تقدم أي معونة لأحد في حرب المسلمين، وبدأ الرسول ﷺ في رسم خطة لبسط السيطرة على الجزيرة العربية.

ومن يشاهد خريطة تحركات الجيوش والسرايا بعد غزوة الأحزاب يدرك بجلاء أن الرسول ﷺ كان على دراية تامة بجغرافية وظروف الجزيرة العربية، كانت الغزوات والسرايا متنوعة في كل الاتجاهات في صورة شبكة منظمة رائعة، طرقت تقريباً كل دروب الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وكان شعار هذه المرحلة: (الآن نغزوهم ولا يغزونا).

أول قبيلتين فكر الرسول ﷺ أنه يحاربهم: قبيلة عضل، وقبيل قارة، وقصة هاتين القبيلتين في الغدر بأصحاب الرسول ﷺ معروفة ومشهورة، وتكلمنا عليها قبل هذا في الدروس السابقة، وهي قصة الغدر عند ماء الرجيع. قتلت هاتان القبيلتان من أصحاب الرسول ﷺ 10 عند ماء الرجيع، بعد أن أوهموا المسلمين أنهم يريدون هؤلاء الصحابة لتعليمهم الإسلام، وكان وقع هذه المصيبة كبيراً جداً على الرسول ﷺ، حتى إنه ظل يدعو عليهم في قنوته في كل صلواته لمدة شهر كامل.

عندما وجد الرسول ﷺ الفرصة مواتية لقتالهم أعد العدة لذلك، بل وقرر الخروج بنفسه على رأس الجيش، فعرفت هذه الغزوة في التاريخ بغزوة بني لحيان. وبنو لحيان هي القبيلة التي تنتمي إليها قبائل عضل وقارة، وخرج الرسول ﷺ بالفعل بجيشه إلى بني لحيان في ربيع أول سنة 6 هـ، وهذا الخروج خطير جداً لأمور:

أولاً: لأن قبائل بني لحيان قبائل قوية مقاتلة.

ثانياً: لأن قبائل بني لحيان اشتهرت بالغدر وقطع الطريق، من أجل هذا عندهم عدة كمائن على الطريق.

ثالثاً: لأن مساكن بني لحيان بعيدة جداً عن المدينة المنورة، فهي تبعد تقريباً 400 كيلو متر من المدينة المنورة إلى الجنوب.

رابعاً: لأن مساكن بني لحيان قريبة جداً من مكة المكرمة، على بعد 90 كيلو متر من مكة المكرمة، فلا يستبعد أبداً أن تدرك قريش أن جيش المدينة على مقربة من مكة المكرمة فتخرج له قريش، وأنتم تعرفون قوة قريش.

كل هذه الأمور جعلت هذه الغزوة خطيرة، ومن أجل هذا خرج الرسول ﷺ بنفسه فيها. وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع أول 6 هـ، وخرج الرسول ﷺ في 200 من أصحابه، ومعه مجموعة من الفرسان في هذه الغزوة، وأوهم الناس أنه سيتجه إلى الشمال في بادية الشام، وبعد ذلك غير الاتجاه وذهب إلى الجنوب حتى يضلل عيون العدو، ووصل إلى ديار بني لحيان، لكن كما ذكرنا قبل هذا أن بني لحيان كانت لهم عدة كمائن على الطريق، واكتشفت هذه الكمائن قدوم الرسول ﷺ، فما كان منهم إلا أن فروا من ديارهم لما عرفوا أن الرسول ﷺ وأصحابه قد غزوهم، مع أن الرسول ﷺ كان في 200 فارس، وجاء على بعد 400 كيلو من المدينة المنورة، فهرب بنو لحيان جميعاً في رءوس الجبال وتركوا ديارهم خالية. وكان على غير مراد الرسول ﷺ، فالرسول ﷺ كان يريد أن يقابلهم ويحاربهم؛ لينتقم لأصحابه أصحاب الرجيع، لكن هروب بني لحيان ترك أثراً إيجابياً كبيراً جداً في صالح المسلمين في المنطقة كلها. العربي ليس من شيمه الهروب، والجبن صفة مذمومة جداً عنده، لا يحب أبداً أن يوصف بها، وبالذات إن كانت القبيلة قبيلة قوية لها تاريخ في الحرب والقتال والغزو، لكن ربنا سبحانه وتعالى ألقى الرعب في قلوبهم، لم يفكروا أصلاً في المقاومة، لم يفكروا في صورتهم أمام القبائل الأخرى، فكان ذلك انتصاراً كبيراً جداً للمسلمين بلا شك، والرسول ﷺ لم يكتف بهذا الانتصار، بل مكث في ديار بني لحيان يومين كاملين يبث السرايا للبحث عنهم في كل مكان، لكن لم يعثر على أحد منهم، ويعتبر بقاء الرسول ﷺ في أرض القبيلة مدة يومين كاملين هذا من أقوى

دلالات الانتصار عند العرب، لأن من ينتصر لا يخرج سريعاً من مكان القتال وكأنه يخشى القوم، فالرسول ﷺ أثبت أنه لا يخاف بني لحيان ومكث يومين كاملين.

ليس هذا فحسب، بل أرسل سرية ﷺ من 10 فرسان في اتجاه مكة حتى بلغت كُراع الغَمِيم، وكراع الغميم على بعد حوالي 60 كيلو تقريباً من مكة المكرمة، وأمرهم أن يظهروا أمرهم ولا يستخفون؛ ليعلم بهم أهل مكة وأنهم سيغزون مكة؛ وذلك لإلقاء الرعب في قلوب القرشيين، وحدث ما تمناه المصطفى ﷺ فقد فزعت قريش ونفرت إلى السلاح، لكن الرسول عاد إلى المدينة ولم يدخل معهم في قتال؛ لأنه غير مستعد لقتال قريش في ذلك الوقت، لكن تحقق له ما أراد وشعرت قريش بالخطر الشديد من المسلمين.

غارة عُيَينة بن حصن الفزاري وغزوة الغابة

بعد أسبوعين كاملين من الغياب عن المدينة المنورة، وفي أثناء عودة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة أغار عيينة بن حصن الفزاري على بعض ممتلكات المسلمين في خارج المدينة المنورة، في منطقة تعرف بالغابة، وأخذ منها إبلاً وشياهاً للمسلمين، وقتل ابن ابي زر الغفاري رضي الله عنه وارضاه واختطف امرأته، وهرب عيينة بن حصن في اتجاه الشمال الشرقي للمدينة في ناحية منازل غطفان، ووصل الخبر إلى الرسول الله ﷺ نقل له سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وأرضاه، وسلمة من أعظم الرماة في الإسلام، فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك عاد سلمة مسرعاً إلى منطقة الغابة وظل يرمي الفرقة الغازية فقتل بعضهم وأصاب بعضهم.

أخرج الرسول ﷺ فرقة سريعة الحركة من الفرسان، وأمر عليهم سعد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه، وهذا غير سعيد بن زيد المهاجري رضي الله عنهم أجمعين، وكان في هذه الفرقة المقداد بن عمرو وعباد بن بشر وأبو قتادة وعكاشة بن محصن رضي الله عنهم أجمعين،

ومجموعة من خيار فرسان الصحابة، وقال ﷺ لأميرهم سعد بن زيد: (اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس) وخرجت هذه الفرقة السريعة، والرسول ﷺ تبعها بعد ذلك بجيش من المسلمين، وأدرك هذه الفرقة عند مكان تسمى ذا قرد على بعد حوالي 35 كيلو متر شمال شرق المدينة المنورة.

في هذه الغزوة قتل أبو قتادة رجلاً من المشركين، وقتل عكاشة بن محصن رجلين، واستنقذ المسلمون بعض الإبل والشياه، وفرت المرأة المسلمة امرأة أبي ذر ونجت بنفسها إلى المدينة المنورة، وهرب عيينة بن حصن ومن معه ببعض الإبل.

طلب سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وأرضاه من الرسول ﷺ أن يجعل معه من الرجال ليغزو بهم قبائل غطفان في مكانها، لكن الرسول ﷺ رفض ذلك؛ لأن قبائل غطفان قبائل قوية جداً ومنازلها بعيدة عن المدينة المنورة، ولا يريد أن يدخل معها في صراع وهو لم يعد العدة الكافية لذلك.

نرى واقعية جميلة في رد فعل الرسول ﷺ فهو يكافح ويجاهد ويستخلص الإبل قدر المستطاع في واقعية دون تهور، فقد كان كل ذلك في حدود المدينة المنورة، وفي نفس الوقت هو لا يتهور بإرسال جيش إلى مغامرة غير مأمونة، وعلى العكس من ذلك فقد أخذ جيشه القليل ﷺ وذهب به إلى بني لحيان؛ لأن هناك اختلافاً بين بني لحيان وبين بني غطفان، فقبيلة لحيان وإن كانت قوية إلا أنها أقل بكثير جداً من قبائل غطفان، فالرسول ﷺ يعطي لكل أمر قدره، يحسب حساباته بدقة، ويتصرف على ضوء هذه الحسابات، في توازن رائع وفقه عميق. هذه الحملة الأخيرة التي قادها ﷺ تعرف بغزوة الغابة، وهو المكان الذي أغار عليه عيينة بن حصن، أو غزوة ذي قَرَد، وهو المكان الذي وصل إليه ﷺ في مطاردته للمشركين، وهذه الغزوة كانت في ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة 6 هـ.

السرايا التي بعثها ﷺ بعد غزوة ذي قرد (غزوة الغابة)

بعد عودته ﷺ إلى المدينة بدأ في إخراج سرايا منظمة إلى كل بقاع الجزيرة العربية تقريباً؛ وذلك إلى القبائل التي شاركت في غزوة الأحزاب، وكذلك القبائل التي اشتركت في قتال المسلمين قبل ذلك، أو إلى القائل التي تستعد لغزو المدينة المنورة، وهكذا بعث ﷺ السريا الآتية:

أولاً: بعث سرية بقيادة عكاشة بن محصن رضي الله عنه وأرضاه إلى غمر مرزوق، وهو تجمع لفرع من فروع بني أسد، وبنو أسد من القبائل التي اشتركت في حصار الأحزاب، وكانت هذه السرية في نفس الشهر الذي تمت فيه غزوة ذي قرد وهو ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة 6 هـ.

السرية الثانية كانت بقيادة محمد بن مسلمة إلى ذي القصة لقتال بني ثعلبة على بعد حوالي 55 كيلو متر شمال المدينة، وهذه كانت في ربيع الثاني سنة 6 هـ.

في نفس الشهر ربيع الثاني خرجت سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأرضاه إلى نفس المكان ولنفس الهدف لقتال بني ثعلبة.

في نفس الشهر كذلك ربيع الثاني خرجت سرية أخرى بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه إلى منطقة تعرف بالجَمُوم، والجموم على بعد حوالي 100 كيلو متر من المدينة المنورة وخرجت لقتال بني سليم.

وبعد عودة هذه السرية بأيام في شهر جمادى الأولى خرجت سرية مهمة جداً بقيادة زيد بن حارثة مرة ثانية أيضاً.

وسنرى أن اسم زيد بن حارثة يتكرر مرة واثنتين وثلاثاً وأكثر؛ لأن الرسول ﷺ يريد أن يدربه لأمر كبير جداً سنعرفه عندما نأتي لغزوة مؤتة إن شاء الله.

المرة الثانية: خرج زيد بن حارثة على رأس سرية أخرى موجهة إلى منطقة تعرف بالعِيص، وهذه المنطقة شمال غرب المدينة المنورة، وكان غرض هذه السرية اعتراض قافلة من قوافل قريش، فأمسك زيد بن حارثة بالقافلة بكاملها، وكانت ضربة كبيرة جداً لقريش.

وفي الشهر الذي يليه شهر جمادى الآخرة من سنة 6 هـ خرج زيد بن حارثة للمرة الثالثة على رأس سرية إلى منطقة تعرف بالطرف على بعد 55 كيلو متر من المدينة المنورة على طريق العراق، وكانت لقتال فرع من فروع بني ثعلبة.

وفي نفس الشهر جمادى الآخرة سنة 6 هـ خرج زيد بن حارثة للمرة الرابعة على رأس سرية في منتهى الأهمية إلى منطقة حِسْمَى في شمال الجزيرة العربية، وهذه السرية مهمة جداً ومحتاجة لوقفة، وسبب هذه السرية أن أحد أصحاب الرسول ﷺ وهو دِحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه كان في طريقه من الشام إلى المدينة المنورة فاعترض طريقه أحد زعماء قبيلة جُذام، وقبيلة جذام تسكن في شمال الجزيرة العربية، فهذا الزعيم كان اسمه الهُنَيد بن عَوْص ومعه ابنه ومجموعة من رجال قبيلة جذام، وأخذوا ما مع دحية الكلبي رضي الله عنه، وسمع بذلك مجموعة من بني الضَبيب، وبنو الضبيب كانوا من المسلمين فهبوا لنجدة دحية الكلبي، ونجحوا في استرداد الأشياء التي سلبها منه الهنيد بن عوص ومن معه، وحمل دحية الكلبي هذه الأشياء وعاد إلى المدينة المنورة، في عرف أناس كثيرين أن الموقف انتهى، ما دام الشيء الذي أخذ رجع فليس هناك داع للقتال.

لكن عندما أخبر دحية رسول الله ﷺ بهذا الأمر قرر رسول الله ﷺ ألا يجعل هذا الموقف يمر دون وقفة، حتى وإن كان ما سلب من المسلمين رد إليهم؛ ليعلم الجميع أن هيبة الأمة الإسلامية لا ينبغي أبداً أن تنتقص، وأن أي قبيلة أو إنسان تسول له نفسه التعدي على حرمة الأمة الإسلامية، ولو كان هذا التعدي على رجل واحد أو امرأة واحدة من المسلمين لا بد أن

يحدث انتقام من قبل الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية، من أجل هـذا قـرر الرسـول ﷺ أن يبعث جيشاً لعقاب قبيلة جذام على تعديها على أحد رعايا الدولة الإسـلامية، وبخاصـة الهنيـد بن عوص وابنه اللذان تزعما الفرقة التي هجمت على دحية الكلبي رضي الله عنه وأرضاه.

هذا موقف مشرف جداً، يكتب بماء الذهب وأغلى من الـذهب، لقـد رأينـا الرسـول ﷺ قبـل ذلك ينتفض لانتهاك حرمة امرأة واحدة أهينت على يد يهود بني قينقـاع، فحـاربهم وأجلاهـم من المدينة جميعاً، وهاهو الآن ينتفض لانتهاك حرمة رجل مسلم واحد اعتدي عليه مـن قبيلـة قوية في شمال الجزيرة العربية بعيدة جداً عن المدينة المنورة، فلا تسل عن مدى إحسـاس رعايـا الدولة الإسلامية بالأمان والطمأنينة لحماية القائد لها، ولا تسل عن مـدى إحساسـهم بالأمـان وهم يعلمون ويوقنون أن دولتهم بكاملها تقف وراءهم، تحفظ كرامتهم، تدافع عن حقوقهم، ترفع رءوسهم في العالم أجمع.

وهذا الموقف يزداد قيمة عندما نعرف أن القبيلة التي اعتدت على دحية الكلبي هي قبيلـة قويـة جداً، قبيلة جذام، وتقع مساكنها على بعد حوالي 800 كيلو متر شمال المدينة المنـورة. تصـوروا اجتياز مسافة طويلة وصعبة جداً في الصحراء وسـيتم فيهـا لقـاء صـعب، لكـن كرامـة الأمـة الإسلامية فوق كل الاعتبارات، هكذا يكون التعامل مع هموم وقضايا الأمة.

جهز الرسول سرية بقيادة زيد بن حارثة للمرة الخامسة في سنة 6 مـن الهجـرة، عـدد أفرادهـا 500 رجل، وهذه أكبر السرايا التي خرجت من المدينة المنورة، وأخرجهـا بهـذا الحجـم؛ لأن مهمتها صعبة، ولا مدد لها من المدينة؛ لبعد المسافة بينها وبين المدينة المنورة، كما ذكرنا تبعد عن المدينة حوالي 80 كيلو متر، فخرج زيد بن حارثة بهذه السرية الكبيرة، وكان يسير ليلاً ويكمـن نهاراً؛ حتى لا تكشفه العيون، وباغتت هذه السرية الكبيرة قبيلة جُذام في الصباح فقتلت مـنهم عدداً كبيراً، وكان من بين القتلى الهنيد وابنه، وساق زيد بن حارثة مـن ماشـيتهم 1000 بعـير،

و5000 شاة، وساق من السبي 100 من النساء والصبيان، لقد كان هذا الحدث انتصاراً هائلاً وحدثاً مدوياً في الجزيرة العربية بكاملها.

لقد عرف الجميع بوضوح أن انتقاص هيبة الدولة الإسلامية عاقبته الحرب والقتال والجهاد، لا بد لكل أهل الجزيرة أن يدركوا هذا الأمر جيداً، ولا بد أن يدركوا هذه القيمة العالية للدولة الإسلامية الناشئة في المدينة، ولا بد لهم أن يدركوا قيمة كل مسلم، سواء كان مقيماً في المدينة أو مسافراً في أي مكان في الجزيرة العربية أو غيرها.

لقد كان هذا الموقف في غاية الروعة من رسول الله ، لكن مع كون المسلمين يعيشون أزمة اقتصادية كبيرة بعد الأحزاب، ومع أن هذه الغنائم التي أتت إلى المدينة المنورة فيها خير كبير جداً للمدينة المنورة، إلا أن الرسول أعاد هذه الغنائم مرة ثانية إلى قبيلة جذام؛ وذلك عندما جاء إليه زيد بن رفاعة الجذامي رضي الله عنه أحد أفراد قبيلة جذام، وكان قد أخذ قبل ذلك كتاباً بالأمان من رسول الله عندما أسلم هو وبعض أفراد القبيلة، ومع أن الكتاب كان قد تم نقضه عندما غدرت قبيلة جذام بدحية الكلبي ، إلا أن الرسول آثر أن يكسب قلوب القبيلة بإعادة الأموال والغنائم والنساء والصبيان، وحصل كل ذلك بعد أن ظهرت هيبة الدولة الإسلامية وظهرت قوتها وعزتها، وتحقق الهدف من السرية، وقد تكون إعادة الغنائم والسبي الآن سبباً في ثبات المؤمن في القبيلة وسبباً في إسلام من لم يسلم بعد، فهذا تصرف سياسي حكيم جداً من رسول الله ، أثبت فيه للجميع سواء في زمنه أو في زمننا هذا وإلى يوم القيامة أنه لا يقاتل من أجل المال والغنائم والسبي والدنيا بكاملها، وإنما يقاتل لأجل إعلاء كلمة الله عز وجل، ولأجل تعبيد الناس لرب العالمين، ولأجل الدفاع عن كرامة وحرمات الأمة الإسلامية. هذه السرية كما ذكرنا كانت في شهر جمادى الآخرة سنة 6 هـ سرية مهمة جداً.

بعد عودة زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه إلى المدينة المنورة مكث فيها عدة أيام، ثم خرج للمرة السادسة على رأس سرية أخرى إلى منطقة وادي القرى، وكان هذا في شهر رجب سنة 6هـ لقتال قبيلة بني فزارة، وهي قبيلة عيينة بن حصن الذي سبق وأن أغار على المدينة المنورة في غزوة الغابة كما تعلمون.

غزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع)

سمع ﷺ بتجمع قبيلة بني المصطلق لحرب المسلمين في المدينة المنورة، فباغتهم ﷺ بخروجه إليهم في 2 شعبان سنة 6 هـ، ووصل إليهم عند منطقة تعرف بماء المريسيع، لذلك هذه الغزوة تعرف في بعض الكتب بغزوة المريسيع أو غزوة بني المصطلق، وفي هذه الغزوة انتصر المسلمون انتصاراً كبيراً على بني المصطلق وغنموا غنائم ضخمة وكبيرة، وسبوا عدداً كبيراً من نساء القبيلة، وكان منهن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها التي أصبحت أم المؤمنين بعد ذلك، وهي ابنة زعيم بني المصطلق الحارث بن ضرار، وكانت ضربة قوية هائلة للقبيلة، ووقعت جويرية بنت الحارث التي هي بنت زعيم قبيلة بني المصطلق في نصيب ثابت بن قيس رضي الله عنه وأرضاه من الأنصار، والرسول ﷺ في قصة طويلة أدى عنها مكاتبتها لـ ثابت بن قيس، وعرض عليها الزواج بعد أن أسلمت وتزوجها ﷺ، وكان الهدف من الزواج واضحاً جداً، فالرسول ﷺ أراد بهذا الزواج أن يتألف قلوب بني المصطلق، حيث أعتق المسلمون سبايا بني المصطلق وقالوا: (أصهار رسول الله ﷺ)، فأعتق يوم زواج الرسول ﷺ من جويرية بنت الحارث أهل مائة بيت من بني المصطلق، وكان ذلك سبباً في إسلام قبيلة بني المصطلق، وكان نصراً عزيزاً للإسلام والمسلمين، ومع كون غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع ليست من الغزوات الكبرى لرسول الله ﷺ، ولم يكن الصراع فيها طويلاً ولا كبيراً ولا القتلى والشهداء

كثيرين، ومع ذلك فهذه الغزوة اكتسبت أهمية خاصة في السيرة النبويـة؛ لخطـورة الآثـار التـي ترتبت على وجود المنافقين في داخل هذه الغزوة.

دور المنافقين في إذكاء الفتن بين المسلمين في غزوة بني المصطلق

لقد حدثت انتصارات سابقة كثيرة بعد غـزوة الأحـزاب، ورأى المنـافقون هـذه الانتصـارات المكثفة فخرجوا في غزوة بني المصطلق ابتغاء الحصول عـلى غنيمـة، وفي غـزوة بنـي المصـطلق تسبب المنافقون في أكثر من أزمة، كادت كل واحدة منها أن تطـيح بكيـان الدولـة الإسـلامية، وصدق الله عز وجل إذ يقول في حـق المنـافقين: {لَـوْ خَرَجُـوا فِـيكُمْ مَـا زَادُوكُـمْ إِلَّا خَبَـالًا} [التوبة:47] (خبالاً) أي: اضطراباً وضعفاً، {وَلَأَوْضَـعُوا خِلالَكُـمْ يَبْغُـونَكُمُ الْفِتْنَـةَ وَفِـيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:47].

فهذا عين ما حدث في غزوة بني المصطلق، فقد تسبب المنافقون في فتن متتالية، كما قـال الله عـز وجل في كتابه الكريم: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُـمْ} [التوبـة:47] أي وقـع المؤمنـون الصـادقون في أمور كثيرة بسبب المنافقين، حيـث التـبس الأمـر عـلى أكثـر المـؤمنين في هـذه الغـزوة، وهـذه الأزمات التي أثارها المنافقون في هذه الغزوة مـن الضـخامة بمكـان، فهـي بحاجـة إلى تحليـل طويل وتدبر عميق، مما قد لا يتسع له المقام في هذه المحاضرة، لكن بإذن الله سـنفرد لهـا حـديثاً خاصاً في مجموعة أخرى من المحاضرات وقد نوهنا عنها قبل ذلك: وهي مجموعة الرسول ﷺ وأخطاء المؤمنين، سنجمع فيها كل الأخطـاء التـي وقـع فيهـا الصـحابة سـواء في غـزوة بنـي المصطلق أو في الغزوات الأخرى أو في السرايا أو في جميع السيرة النبويـة، ونحلـل فيهـا كيـف كان رد فعل المصطفى ﷺ لعلاج هذه الأخطاء وهذه الأزمات.

سنعرج سريعاً على هذه الفتن التي دارت في غزوة بني المصطلق.

الأزمة الأولى التي حدثت: كانت صراعاً قام بين المهاجرين والأنصار على السقاية من بئر من آبار المنطقة، وهذا الحدث نادر في السيرة، لعله الوحيد الذي حدثت فيه أزمة ضخمة بين المهاجرين والأنصار، وكانت أزمة كبيرة جداً كادت أن تتفاقم لولا حكمة الرسول ﷺ في السيطرة عليها. ثم إنه نجمت عن هذه الفتنة فتنة أخرى خطيرة جداً وهي فتنة نداء المنافقين في أوساط الأنصار بأن يخرجوا المهاجرين من المدينة، وقال عبد الله بن أبي ابن سلول كلمته الفاجرة يعلق فيها على المهاجرين بقوله: والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: (سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل). كانت أزمة خطيرة جداً توشك أن تقضي على الأمة لولا أن الله عز وجل سلم.

وحدث بعد ذلك فتنة ثالثة خطيرة شنيعة أشد من الأولى والثانية: إنها حادثة الإفك، وفيها اتهم المنافقون السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنه وأرضاها بالفاحشة، وللأسف الشديد وقع بعض المؤمنين في الأمر، واتسع نطاق الأزمة حتى شمل المسلمين كلهم ما بين مدافع ومهاجم، وما بين مبرئ ومتهم، ولم ينزل وحي في هذه القضية إلا بعد شهر كامل، فبعد شهر كامل نزل الوحي بتبرئة السيدة عائشة الطاهرة رضي الله عنه وأرضاها من التهمة الشنيعة التي أثارها المنافقون، واشترك فيها كما ذكرنا بعض المؤمنين. حادثة الإفك هذه من أشد الأزمات التي مرت بالمسلمين في فترات السيرة النبوية، وهذه الأزمة خطيرة جداً تحتاج إلى وقفات طويلة وتحليلات كثيرة، وانتباه إلى رد فعل رسول الله ﷺ، وتدبر في تعليق رب العالمين سبحانه وتعالى للحدث كما في سورة النور. هذه قصة كبيرة جداً تحتاج إلى تفريغ وقت وتدبر، وسنفرد إن شاء الله كما ذكرنا تفصيلاً في موضوع أخطاء المؤمنين.

استمرار السرايا التأديبية للمناوئين والمعارضين للدولة الإسلامية الناشئة

الذي نريد أن نذكره في هذا المقام: أنه بالرغم من الأزمات والفتن التي حدثت في غزوة بني المصطلق إلا أن أسهم المسلمين كانت في ارتفاع دائم، وكان الجو العام في الجزيرة العربية يشير بوضوح إلى نمو الدولة الإسلامية نمواً سريعاً، وأن هذا النمو يسير بشكل طبيعي ومتدرج ومدروس، وكل هذا سيكون له آثار كبيرة جداً على الأحداث المستقبلية للدولة الإسلامية، وسنفهم الكلام هذا أكثر عندما نأتي لصلح الحديبية. غزوة بني المصطلق كانت في شهر شعبان سنة (6) هـ ومع أن الأحداث كانت تغلي بالأحداث الأخيرة وبالذات حادثة الإفك إلا أن حركة الجهاد لم تتوقف.

بعث الرسول ﷺ في نفس الشهر شهر شعبان سنة 6 هـ سريتين هامتين جداً: الأولى: بقيادة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه إلى ديار بني كَلِب بدومة الجندل على مسافة كبيرة جداً من المدينة المنورة، والأخرى: إلى ديار بني سعد بفدك، والذين كانوا يعدون العدة للتعاون مع يهود خيبر لحرب المسلمين، وكانت هذه السرية الأخيرة بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، كان هذا البعث في شهر شعبان مع وجود حادثة الإفك في المدينة، فحركة الجهاد في سبيل الله لم تتوقف.

وفي شهر رمضان سنة 6 هـ أرسل الرسول ﷺ سرية أخرى إلى بني فزارة في منطقة وادي القرى، وكان على رأسها أبو بكر الصديق أو زيد بن حارثة رضي الله عنهما أجمعين، وهذه السرية كانت موجهة لامرأة في هذه المنطقة اسمها أم قِرفة، فهذه المرأة أعدت فرقة من ثلاثين فارساً لاغتيال الرسول ﷺ، فلما علم الرسول ﷺ بهذه الفرقة المجهزة له أخرج لها هذه السرية الإسلامية، فقتلت هذه السرية الإسلامية هؤلاء الفرسان الثلاثين جميعاً، وازداد نشاط المسلمين جداً في شهر شوال سنة 6 هـ، فبعث الرسول ﷺ فيه ثلاث سرايا خطيرة:

الأولى: كانت إلى مجموعة من المشركين من قبائل عُكل وعُرَينة كانوا قد أظهروا الإسلام وغدروا بأصحاب الرسول ﷺ، وقتلوا منهم واحداً، وسرقوا كمية كبيرة من الإبل، فبعث لهم الرسول ﷺ سرية بقيادة كُرْز بن جابر الفهري رضي الله عنه واستطاع الإمساك بهم وقتلهم وتمكن من استرداد الإبل.

السرية الثانية: في شوال 6 هـ كذلك وكانت هذه السرية بقيادة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه، وكانت مهمتها في منتهى الخطورة، مهمتها اغتيال اليُسَير بن رِزام أمير خيبر من اليهود، فهو من أكابر اليه ود ومن الذين أخذوا يجمعون اليهود في خيبر ووادي القرى وفَدَك لحرب المسلمين، ولم يكتف بذلك، بل قام بجمع غطفان من جديد لحرب المسلمين، من أجل أن يعيد الأحزاب مرة ثانية، كان يريد أن يقوم بنفس الدور الذي قام به قبله حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، ولكي لا تتكرر مأساة حصار المسلمين في داخل المدينة المنورة حرص الرسول ﷺ على التخلص من هذا الطاغية قبل أن يجمع هؤلاء المشركين، وبذلك يجنب المسلمين ويلات أزمة ضخمة قد تحدث، وكانت هذه السرية المكونة من ثلاثين فارساً، وتمكنت هذه السرية من قتل اليسير بن رزام، وأمن بذلك المسلمون شر خيبر، ولكن بصفة مؤقتة؛ لأن كل اليهود في ذلك الوقت كانوا متجمعين في خيبر، ولا شك أن العلاج النهائي لمشكلة يهود خيبر وتأليبهم المستمر على المسلمين يحتاج إلى وقفه حاسمة، ويحتاج إلى حرب فاصلة مباشرة كالتي فعلت قبل ذلك مع يهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة، هذا هو الحل النهائي مع يهود خيبر، لكن الرسول ﷺ لم يكن قادراً على ذلك الوقت؛ لأن وضع المدينة المنورة خطير، لا يستطيع ﷺ أن يغزو خيبر الآن دون أن يؤمن ظهره. أخطر ما يهدد ظهر الرسول ﷺ هو غزو قريش المدينة المنورة، وبالذات أن غزوة الأحزاب لم يمض عليها سوى سنة واحدة، وإذا خرج الرسول ﷺ بجيش الآن إلى حرب خيبر حرباً شاملة فقد

يستغرق هذا الخروج إلى فترة طويلة جداً من الزمان قد تصل إلى شهور؛ لشدة بأس المقاتلين من أهل خيبر، ومناعة حصون خيبر، وبعد خيبر عن المدينة، فهو ﷺ لا يستطيع أن يترك المدينة خالية من الجند فترة طويلة غير محسوبة، لذلك اكتفى ﷺ باغتيال رأس الفتنة ومحرك الجموع اليسير بن رزام إلى أن يصل إلى وسيلة لتأمين جانب قريش، وبعدها يفكر في قضية خيبر، وهذا عين ما سنراه بعد صلح الحديبية. كل هذا كان في شوال 6 هـ، وكانت هذه هي السرية الثانية في شوال.

السرية الثالثة والأخيرة في هذا الشهر كانت سرية خطيرة جداً، ووجهة هذه السرية كانت غريبة جداً، كانت وجهتها مكة المكرمة، وكثير من الناس لا يعرف أمر هذه السرية، خرجت هذه السرية إلى مكة المكرمة لمهمة في غاية الخطورة إنها مهمة اغتيال أبي سفيان شخصياً، وعلى رأس هذه السرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه وأرضاه، وأبو سفيان كان من أشد المجمعين والمؤلبين لحرب المسلمين في الأحزاب، فهو شخصية خطيرة جداً ومحورية في مكة المكرمة، وحربه معلنة ضد المسلمين، بل إنه دبر مؤامرة لقتل الرسول قبل هذه السرية بقليل، وفشلت هذه المؤامرة، وذلك حين استأجر أبو سفيان أعرابياً لقتل المصطفى ، وكان الرد على هذه المحاولة من أبي سفيان أن يرسل الرسول سرية لاغتيال أبي سفيان ، فكما فشلت سرية أبي سفيان في اغتيال المصطفى كذلك سرية الرسول لم تستطع اغتيال أبي سفيان ، والحمد لله أنه لم يقتل؛ لأن أبا سفيان أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه.

بهذا الموقف علمت قريشاً أنها مهددة في عقر دارها، لا شك أن ذلك أفزع زعماءها جداً؛ لأن الزعماء من أهل الدنيا لا يرون أن هناك شيئاً أغلى من حياتهم وكراسي حكمهم، فهذه أهم شيء عندهم، فإذا هددوا فيها كانت بالنسبة لهم الطامة الكبرى، فهذه السرية كما ذكرنا كانت

في شوال سنة 6هـ فيكون قد مرت سنة كاملة على غزوة الأحزاب؛ لأن غزوة الأحزاب كانت في شوال 5 هـ.

آثار الغزوات والسرايا التي حدثت في السنة السادسة للهجرة

تميزت هذه السنة المباركة السنة السادسة من الهجرة بأنها كانت سنة جهادية من الدرجة الأولى، حيث انتشرت فيها جيوش المسلمين كما رأينا في كل أنحاء الجزيرة العربية تقريباً، وتمت فيها 20 حملة عسكرية كاملة، بمعدل حملة عسكرية كل 20 يوماً، كان منها 17 سرية بقيادة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، و 3 غزوات بقيادة المصطفى ﷺ، ومع أن هذه الغزات والسرايا بصفة عامة لم تكن من المعارك الضخمة إلا أن تأثيرها كان عميقاً جداً على كل أهل الجزيرة، سواء من المسلمين أو المشركين أو اليهود أو المنافقين، فكل الناس تأثرت بهذه الغزوات والسرايا.

فتعالوا بنا نذكر بعض الآثار الحميدة لهذه السرايا والغزوات المتتالية في السنة السادسة من الهجرة هذه عشرة آثار نذكرها كما يلي:

الأثر الأول: تحسن الوضع الأمني للمسلمين في الجزيرة العربية، سواء في المدينة أو في القبائل المسلمة في أي مكان، أو حتى للمسلمين العابرين أو المسافرين من مكان إلى مكان؛ لأن هيبة المسلمين أصبحت في قلوب الجميع عظيمة جداً.

الأثر الثاني: تحسن المستوى العسكري والأداء القتالي للمسلمين تحسناً ملحوظاً، فقد كانت هذه الغزوات والسرايا بمثابة دورات عسكرية تدريبية عملية تختلف كثيراً عن التعليم النظري، بل تختلف عن التدريب الاصطناعي غير الواقعي، فيظهر أثر هذه التدريبات المكثفة على مستقبل الجيش الإسلامي، سنرى بعد هذه الغزوات والسرايا المعارك المتلاحقة التي

ستأتي بعد ذلك؛ خيبر، مؤتة، فتح مكة، حنين، الطائف غيرها وغيرها، وسنرى أثر هذه الدورات التدريبية على أداء المقاتل المسلم.

الأثر الثالث: تحسن الوضع الاقتصادي للدولة الإسلامية، وذلك لعدة أمور

منها:الاستقرار الأمني الذي يشجع على التجارة.

ومنها: العلاقات المنتشرة للمسلمين في كل مكان.

ومنها: كثرة الغنائم في السرايا والغزوات.

ومنها: اعتماد المسلمين تجارياً على أنفسهم بعد قطع العلاقات التجارية مع اليهود.

الأثر الرابع: أقام المسلمون علاقات دبلوماسية قوية مع الكثير من موازين القوى في الجزيرة العربية، سواء على مستوى القبائل أو على مستوى الأفراد الزعماء، فعلى سبيل المثال: أقام المسلمون علاقات دبلوماسية قوية مع قبائل بني المصُطلق، ومع قبائل بني كَلِب في دومة الجندل ومع غيرها، وكذلك مع بعض الزعماء الكبار أمثال: ثمامة بن أثال رضي الله عنه وأرضاه.

الأثر الخامس: في مقابل هذه العلاقات حدث تفكك ملحوظ في علاقات قريش مع كثير من القبائل العربية؛ لأن القبائل التي عقدت علاقات مع المسلمين فقدتها قريش، وهناك من القبائل العربية التي لم تنضم إلى هنا أو هناك آثرت أن تبقى على الحياد، لا هي مع قريش ولا هي مع المسلمين، وهذا يعتبر انتصاراً كبيراً جداً للمسلمين؛ لأن قريشاً مع ما لها من تاريخ وقوة وسيادة لم تعد مقنعة لعموم القبائل العربية كحليف، وهذا لا شك سيكون له بُعْدٌ هام في صلح الحديبية بعد ذلك كما سنرى.

الأثر السادس: شعرت قريش بالقلق الشديد نتيجة نمو الدولة الإسلامية بهذه الصورة، وأحست أن المسلمين قادرون على تهديدها في عقر دارها، فقد رأينا كيف أن سرية إسلامية وصلت إلى حدود مكة كما ذكرنا في غزوة بني لحيان، ورأينا محاولة اغتيال أبي سفيان، ولا شك أن كل هذا له أثر كبير جداً على نفسيات القرشيين، مما جعلهم يحسون أن البساط سينسحب من تحت أرجلهم، وأن الأيام الآتية ليست لهم، بل للمسلمين، وهذا سيكون له أيضاً أثر كبير في صلح الحديبية.

الأثر السابع: نتيجة التقدم الإسلامي الملموس والتأخر القرشي الواضح ارتفعت معنويات المسلمين جداً، وازدادت ثقة المسلمين بأنفسهم، وهذا سيعطيهم القدرة على الانطلاق إلى قرارات جريئة جداً، تكون لها تبعات كبيرة جداً، ولن يقف أمام أحلامهم أحد، بل إننا سنشاهد مواقف لعلها لم تكن تخطر أصلاً في أذهان المسلمين.

الأثر الثامن: نتيجة هذا المستوى الإسلامي المتميز سارع المنافقون بكتم نفاقهم، ومن كان يجاهر بالسوء أيام الأحزاب، فإنه الآن يتملق ويداهن ويتخفى، وليس معنى ذلك أنهم سيكفون عن أذاهم، أبداً، لكن معناه: أنهم سيكيدون كيدهم بحذر أكثر وحرص أعظم، وهذا قد يضاعف من خطورتهم، وما أحداث غزوة بني المصطلق بخافية عن أحد، فقد دبروا كل الفتن التي حدثت في بني المصطلق في خفاء شديد وفي سرية مطلقة بل إنهم عندما سئلوا مباشرة عن هذه الأحداث أنكروا وحلفوا بالله ما قالوا، ولا شك أن فتنة المنافقين ستزداد كلما ازدادت قوة الدولة الإسلامية، وستتفاقم هذه الفتنة كما تعلمون بعد ثلاث سنوات من هذه الأحداث في غزوة تبوك، كما سنرى إن شاء الله في الدروس الآتية، وعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على حذر تام من هذه الثعابين التي تسعى في الظلام.

الأثر التاسع: ضعف قوة اليهود إلى حد كبير، وهذا كان له أثر بعد ذلك، فقد قتل أكابر مجرميهم بدءاً بـحيي بن أخطب وسلام بن مشكم أثناء غزوة بني قريظة، ثم بعد ذلك قتل سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام كما ذكرنا ثم إنهم قد هوجموا في وادي القرى وفدك، وهددوا تهديداً خطيراً، وفوق كل هذا فقدوا الكثير والكثير من أحلافهم في الجزيرة؛ لأن الحملات الإسلامية المتكررة هنا وهناك قطعت أوصال اليهود وعلاقاتهم بغيرهم، وكل واحد في الجزيرة همه الأكبر أن يحافظ على نفسه، ولم يضع اليهود في حساباته، فهذا كله سيكون له أثر كبير جداً في علاقات الرسول ﷺ باليهود وبالذات بعد صلح الحديبية.

الأثر العاشر والأخير: نتيجة هذه الحملات العسكرية هنا وهناك سمع أهل الأرض جميعاً بهذا الدين الجديد: الإسلام، وهذه الدولة الجديدة: الدولة الإسلامية، وتحولت الدعوة من المحلية إلى العالمية، ومن الجزيرة العربية إلى القارات المختلفة، ومن العرب إلى كل الأجناس والعناصر، وهذا سيكون له أثر كبير جداً في الخطة المستقبلية للدولة الإسلامية، وسنرى هذا عندما يبدأ الرسول ﷺ في مراسلة زعماء العالم أجمع، يدعوهم إلى الإسلام، لم يكن هذا الأمر إلا بعد أن سمع العالم أجمع بالدولة الإسلامية الجديدة التي نشأت في المدينة المنورة. هذا هو الأثر العاشر، وتلك عشرة كاملة. لا شك أن هذه الآثار الكثيرة كانت تشير إلى أن هناك حدثاً كبيراً ستمر به المنطقة، سيكون له أبلغ الأثر في تغيير الأوضاع، ضعف قريش وضعف اليهود وقوة المسلمين وترقب القبائل العربية كلها، كل هذا يشير إلى حدوث حدث قريب مهم جداً، ويشير أيضاً إلى أنه سينتقل المسلمون إلى مرحلة جديدة تتبدل فيها موازين القوى في الجزيرة، بل في العالم أجمع، وواضح أن هذا الحدث الذي سينتج عن هذه الآثار الكثيرة هو صلح الحديبية، فصلح الحديبية هو اللحظة الحاسمة الفارقة الشديد الأهمية في تاريخ الأمة الإسلامية، هو لا شك يحتاج إلى تحليل طويل ودراسة متأنية.

30

الطريق إلى الحديبية

ستتحدث عن حدث من أعظم أحداث السيرة النبوية، وأعظم أحداث الأرض بصفة عامة، وهو لحظة فارقة حقيقية في تاريخ الأمة الإسلامية، وله انعكاسات ليس فقط على الجزيرة العربية، ولكن على العالم أجمع كما سيتبين لنا إن شاء الله، وهذا الحدث العظيم هو صلح الحديبية، ويكفي في وصف عظمة هذا الحدث أن الله عز وجل سماه بالفتح المبين، الفتح الذي جاء في الآية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:1] الكثير من المفسرين يفسرون هذا الفتح المبين بأنه صلح الحديبية، ويكفي الذين اشتركوا في هذا الخروج إلى صلح الحديبية من الصحابة أنه سبحانه وتعالى قد رضي عنهم تصريحاً في كتابه الكريم قال: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح:18]، وكان عددهم 1400 صحابي، فهذا الجمع الهائل من الصحابة صرح ربنا سبحانه وتعالى أنه قد رضي عنهم، وهذا أمر يستوجب منا الوقوف والدراسة والتأني في بحث هذا الموضوع الهام الخطير، لكن لا نستطيع أن نفهم أبعاد صلح الحديبية إلا بالرجوع إلى ما ذكرناه في الدرس السابق، وقد ذكرنا فيه أن الرسول ﷺ بعد غزوة الأحزاب قال كلمته المشهورة: (الآن نغزوهم ولا يغزونا)، ومن ثم كانت السنة السادسة من الهجرة هي السنة التي تلت غزوة الأحزاب، وكان في مجملها مجموعة من السرايا والغزوات في كل مكان في الجزيرة العربية، ونتج عن ذلك آثار كثيرة لخصناها في آخر

الدرس السابق، ومجمل هذه الآثار: أن الدولة الإسلامية أصبحت دولة مرهوبة لها قوة وهيبة وعظمة في قلوب جميع العرب بما فيهم قريش، وأن قريشاً بدأت تفتقد إلى الأعوان والأحلاف والأصحاب، وميزان القوى بدأ يسير في صف المسلمين على حساب قريش، هذا الأمر سيكون له مردود هام جداً في صلح الحديبية، كما سيتبين لنا الآن.

رؤيا الرسول ﷺ دخول البيت الحرام مع أصحابه

في شهر شوال من السنة السادسة من الهجرة، يعني: بعد مرور سنة من غزوة الأحزاب، رأى الرسول ﷺ رؤيا: رأى أنه يدخل البيت الحرام هو وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين معتمرين، ورؤيا الأنبياء حق، فالرسول ﷺ سيأخذ أصحابه ويذهب في رحلة عمرة جماعية إلى مكة المكرمة إلى عقر دار قريش، وهذا أمر صعب جداً، فهم قبل سنة واحدة فقط جاءت الأحزاب في 10000 مقاتل: 4000 من قريش والقبائل التي تحالفها، و 6000 من غطفان، جاءوا يحاصرون المدينة المنورة بغرض استئصال المؤمنين بكاملهم. الآن الرسول ﷺ بعد مرور سنة واحدة من غزوة الأحزاب في شجاعة منقطعة النظير يأمر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم بالتجهز لأداء العمرة، وليس بينه وبين قريش أي نوع من المعاهدات أو الصلح أو الاتفاقيات.

لما ذكر هذا الأمر لصحابته رضي الله عنهم وأرضاهم قبل الجميع من الصحابة ذلك دون تردد، بل اشتاقوا إلى الأمر، مع أن السفر إلى مكة المكرمة في ذلك الوقت سواء للعمرة أو غيرها يحمل خطورة شديدة جداً عليهم، والمسلمون قد تحملوا الكثير والكثير قبل ذلك من قريش، وقريش لم ترع أي حق للبيت الحرام ولا للبلد الحرام، فقد انتهكت حرمة البلد الحرام قبل ذلك كثيراً، ومع ذلك لم يتردد الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم في قبول الأمر النبوي بالذهاب إلى العمرة، وقد حاول الرسول ﷺ الاستفادة قدر المستطاع من قوانين المجتمع

المشرك التي يعيش فيها، أي: الأعـراف الدوليـة في ذلـك الوقـت، أعـراف الجزيـرة العربيـة، وأعراف قريش ذاتها تقضي بأن الذي يذهب إلى مكة المكرمة لأداء العمرة آمن مهـما كـان بينـه وبين قريش من خلافات، فهل ستحترم قريش هذه القوانين القديمة أم لا؟! هذا ما سنراه.

خرج المسلمون سعداء قد شرحت صدورهم لهذه العمرة مع خطورتهـا، وهـذا مهـم جـداً في بدايـة أي عمـل، لـذلك سـيدنا موسـى عليـه السـلام كـان يقـول: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [طه:25]، فالإنسان عندما ينشرح صدره لعمل ما يكون أداؤه فيه أداء متميـزاً. لم يكـن هنـاك أي نوع من الإكراه لصحابة الرسول ﷺ للذهاب إلى هذا المشوار الصـعب، لكـن في المقابـل من الناحية الأخرى جميع المنافقين تقريباً لم يستطيعوا الخروج إلى هذا المشوار الصعب، وترددوا كثيراً وفكروا كثيراً، وفي النهاية أخذوا القرار الحاسم أنهم لن يخرجوا مع الرسول ﷺ إلى مكة المكرمة؛ لأن هذا المشوار في نظرهم مشـوار مهلـك، كيـف نـذهب إلى قـريش في عقـر دارهـا وبسلاح المسافر، ليس معنا أسلحة الحروب؟ لذلك لم يخرج مع المسلمين إلا منافق واحد اسمه الجد بن قيس.

كذلك الأعراب حول المدينة المنورة دُعوا إلى الخروج، ولكنهم جميعاً أبوا أن يخرجوا مع رسول الله لذلك هذا الصف الذي خرج من المدينة إلى مكة هو صف خالص نقـي طـاهر، وعـددهم 1400 مؤمن ليس فيهم إلا منافق واحد ليس له كبير الأثر في أوساط المؤمنين، وكما هو معلوم في الغزوات السابقة أن الرسول ﷺ إذا خرج بصف مؤمن خالص كان النصر قريبـاً بـإذن الله عز وجل، فسنرى -إن شاء الله- نتائج عظيمة جداً نتيجة خروج هذا الصف النقي من المدينـة المنورة، فقد كانوا 1400 وفي رواية: 1500 صحابي، وأخذ معه في خروجه زوجتـه أم سـلمة رضي الله عنها وأرضاها، وكان هـذا الخـروج في غُـرة ذي القعـدة سـنة 6 هــ بعـد سـنة مـن الأحزاب، واتجه إلى مكة المكرمة، وفي ذي الحليفة (الآن آبار علي وهو المكان الذي يحـرم منـه

القادمون من المدينة إلى مكة)، هناك في ذي الحليفة أحرم وقلد الهدي، وكان قد أخذ معه مجموعة ضخمة من الإبل ليذبحها في مكة المكرمة، وهذا من النوافل، فالرسول ﷺ أحرم بالعمرة ولبس لباس العمرة وبدأ بالتلبية؛ كل هذا ليدل على أنه لم يذهب إلى مكة إلا للعمرة فقط، وهو يعلم أن هناك عيوناً كثيرة لقريش على الطريق، وهذه العيون لاشك أنها ستنقل الأخبار إلى مكة المكرمة، وهو لا يريد حرباً مع أهل مكة ولم يذهب إلا للعمرة، وما رآه في الرؤيا هو فقط مجرد العمرة؛ ولذلك لم يخرج وأصحابه إلا بسلاح المسافر، وفي طريقه من ذي الحليفة إلى مكة المكرمة كان يلبي: لبيك اللهم لبيك إلى آخر الدعاء.

توقف الرسول ﷺ وأصحابه بكراع الغميم

وصل في طريقه إلى منطقة تسمى كراع الغميم، وهو على بعد 60 كيلو أو 64 كيلو تقريباً من مكة المكرمة، وهناك فوجئ بأن قريشاً قد جمعت جيشاً وجمعت الأحابيش، والأحابيش: هي مجموعة من القبائل كانت تتحالف مع قريش، وسميت بذلك؛ لأنهم اجتمعوا عند جبل اسمه حبش، وعقدوا اتفاقية دفاع مشترك عن مكة المكرمة، فهذه المجموعة من القبائل جمعتها قريش لصد الرسول ﷺ عن أداء العمرة في مكة المكرمة، مع أن العرف والقانون الدولي في ذلك الوقت يسمح للرسول بأن يذهب إلى مكة معززاً مكرماً ممنوعاً، بل على قريش في أعرافها وفي قوانينها أن ترعى حقوق المسلمين، وأن تخدم المسلمين، وأن تسقي الحجاج، وأن تفعل كذا وكذا، لكن كل هذا ضربت به قريش عرض الحائط، وبدأت التعامل مع الموضوع بنوع من الغدر ومخالفة القوانين والعهود التي بينها وبين العرب قاطبة.

فوجد أن هناك جيشًا يقف عند كراع الغميم يمنع المسلمين من الوصول إلى مكة المكرمة، هذا موقف خطير، فالرسول ﷺ ليس معه إلا 1400 من المسلمين وبسلاح المسافر، ويقف أمامه عند كراع الغميم جيش، ليس من قريش فقط، ولكن من قريش ومن معها من القبائل المحالفة

لها، فوقف وبدأ يأخذ الشورى بينه وبين أصحابه، ولم يترك الرسول ﷺ الشورى في موقف من المواقف، إلا في حالة ما إذا كان هناك أمر مباشر من رب العالمين سبحانه وتعالى، إذا كان أمر حل أو حرمة فهنا لا يأخذ الرسول ﷺ رأي الصحابة فيه.

فمثلاً: الخروج من المدينة المنورة إلى مكة لأداء العمرة كان عن وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى؛ لذلك لم يجمع الرسول ﷺ أصحابه ليأخذ رأيهم: نذهب أو لا نذهب؟ مع خطورة الأمر.

ما دام ربنا سبحانه وتعالى أمر بكذا أو نهى عن كذا فلا مناقشة ولا تردد، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا} [الأحزاب:36]، فالرسول ﷺ إنما هو في قضية عسكرية فأخذ الشورى فيها، فقد جمع أصحابه في هذا الموقف الخطير الذي هم فيه، وشاورهم: هل نحارب هؤلاء الذين تجمعوا لنا أم نعود ولا ندخل إلى مكة؟ هل نغير على قبائل الأحابيش الخالية الآن من الرجال؛ لأن معظم جيش الأحابيش خرج للوقوف عند كراع الغميم؟ وكان قد عرض فكرة الالتفاف حول هذا الجيش والميل على قبائلهم الفارغة من الجنود وقتلهم وسبيهم، فيكون ذلك عزة وقوة للمسلمين على الكفار، هذه كانت آراء مطروحة من الرسول ﷺ طرحها على الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم؛ ليختاروا ما يناسبهم، وعرض بعض الصحابة رضي الله عنهم آراءهم، فكان ممن تكلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، قال: الله ورسوله أعلم إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، رأي الصديق رضي الله عنه وأرضاه ألا نسعى لقتالهم ولا نذهب إلى قبائل الأحابيش ولا نقاتل هذا الجيش، بل نكمل الطريق في محاولة الوصول إلى البيت، فإن كان هذا الجيش الذي وضع في كراع الغميم مجرد إرهاب للمسلمين ولن يقاتل فنحن سنكمل الطريق ونذهب

إلى العمرة في مكة المكرمة، وإن أصروا على القتال قاتلناهم فنحن لا نخشى القتال، ولكن لا نسعى إليه، هذا ملخص رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم قبلوا هذا الرأي واستحسنوه، وكذلك النبي ﷺ ، ومن ثم أكملوا الطريق، لكن قريشاً كانت مصرة على منع الرسول ﷺ وأصحابه من دخول مكة المكرمة للعمرة؛ لذلك وضعت فرقة قوية من الفرسان على رأسهم خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان وقتها مشركاً، وهذه الفرقة من الفرسان حوالي 200 فارس، ووراءهم جيش مكة، وهذه الفرقة كانت في كراع الغميم، ولما اقترب الرسول ﷺ وقف أمام هذه الفرقة المسلحة، وعند هذا الوقوف جاء موعد صلاة الظهر، والمسلمون في أي ظرف من الظروف لا يضيعون الصلاة ولا يؤخرون الصلاة عن أوقاتها إلا في الظروف الضيقة المحدودة جداً، تكاد في السيرة تعد على أصابع اليد الواحدة، كما حدث في غزوة الأحزاب قبل كذا، لكن عموم الأمر أن المسلمين يصلون الصلوات في أوقاتها حتى في ميادين القتال، بل إنهم كثيراً ما كانوا يصلون الصلاة على خيولهم إيماءً إذا احتدم القتال، هذا اهتمام كبير جداً بقضية الصلاة، ووقف والمسلمون معه يصلون صلاة الظهر خلفه مؤتمين به ، يركعون ويسجدون جميعاً مع الرسول ﷺ وهم كما ذكرنا 1400 ، فـ خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين رأى المسلمين في صلاتهم في حال الركوع والسجود، ورأى الجيش كله لا يرى مَنْ أمامه في وضع السجود، فوجدها فرصة للإغارة على المسلمين فهو فكر بذلك دون أن يظهر ما فكر فيه إلى أحد، لكن خالد بن الوليد لم يأخذ قراراً حاسماً، مع أنه يرى أن هذه فرصة ممكنة للهجوم على المسلمين، فسأل الذين حوله: هل هناك صلاة ثانية للمسلمين مثل هذه الصلاة؟ فقال له من حوله من المشركين الذين يعلمون أحوال المسلمين: (نعم هناك صلاة يسمونها صلاة العصر)، فرأى خالد بن الوليد أن هناك فرصة للهجوم على المسلمين أثناء صلاة العصر، ولم يخبر بذلك أحداً

من أصحابه من المشركين، فلما جاء وقت صلاة العصر وقف ليصلي بالمؤمنين فنزل عليه الوحي بصفة صلاة الخوف، وصلاة الخوف صلاة خاصة لا يقوم بها المسلمون إلا في الظروف الضيقة جداً، في حال ما إذا كان المسلمون في ميدان القتال ويخافون من عدوهم أن يغير عليهم فإن لهم أن يصلوا صلاة الخوف.

من صفة هذه الصلاة بأن الإمام الذي هو الرسول ﷺ في الحديبية يصلي ركعتين ويصلي خلفه نصف الجيش، والنصف الآخر يقف للحراسة، وبعدما يصل الإمام إلى الركعة الثانية يقعد للتشهد ولا يقوم، وبقية الناس تسلم وتنتهي من صلاتها ركعتين؛ لأنهم يصلون صلاة قصر المسافر، وينصرف نصف الجيش الذي صلى ليقف في الحراسة ويأتي الذين حرسوا الجيش في صلاته الأولى ويصلون خلف الإمام ركعتين أيضاً، فالإمام يقف بعد التشهد الأوسط ويصلي ركعتين التي بقيت له من الصلاة الرباعية التي هو صلاها فيصلي بنصف الجيش الثاني ركعتين، فيكون الرسول ﷺ في صلاة الخوف صلى أربع ركعات، ونصف الجيش صلى الركعتين الأوليين، والنصف الثاني صلى الركعتين الأخريين. هذا الحكم نزل في الحديبية أمام خالد بن الوليد ، فخالد بن الوليد كان يريد أن يهجم على المسلمين أثناء صلاة العصر، ولكن لم يقدر؛ لأن نصف الجيش وقف للحراسة، فقال كلمة عجيبة قال: (إن القوم ممنوعون)؛ هؤلاء عليهم حماية غير طبيعية، حماية فوق طاقة البشر، كيف صلوا هذه الصلاة للمرة الأولى في حياتهم بهذه الكيفية، من أعلمهم بما فكر فيه خالد ، مع أنه لم يطلع أحداً على ما كان يفكر فيه؟ ولعل هذا الموقف كان له أثر كبير في تفكير خالد بن الوليد في أن يسلم؛ فهو أسلم بعد صلح الحديبية بشهور قليلة.

لم يستطع خالد بن الوليد أن يحارب المسلمين، والرسول ﷺ لا يريد الدخول في قتال مع المشركين، وبعد ما انتهى من الصلاة أخذ الجيش وانحرف عن جيش خالد بن الوليد متجنباً

إياه، وبدأ في التوجه إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، فهو مُصِّر على استكمال الأمر حتى نهايته، وخالد بن الوليد حين رأى ذلك الموقف أصبح متردداً في قضية القتال، وقال: إن القوم ممنوعون، ورجع سريعاً إلى مكة ليخبرهم بهذا الأمر.

وصول النبي ﷺ وأصحابه إلى الحديبية

أكمل الطريق إلى مكة المكرمة إلى أن وصل إلى مكان يعرف بالحديبية، ويوجد هناك بئر، وهذا الموضع قريب جداً من مكة المكرمة، يقع بين التنعيم وبين مكة المكرمة، ويبعد التنعيم حوالي 5 كيلو من مكة المكرمة، فهو دخل في حدود مكة المكرمة نفسها، وأصبح الموقف شديد الحرج، ففي أي لحظة من اللحظات القادمة قد يحدث قتال عند إرادة دخول مكة المكرمة، لكن قبل دخول مكة المكرمة حدث أمر مفاجئ، حدث أن ناقة الرسول ﷺ توقفت عن المسير، فالصحابة اجتمعوا ليدفعوا الناقة إلى القيام وإكمال المسيرة إلى مكة المكرمة، وكان الجميع متحمساً جداً لدخول مكة المكرمة، ورفضت الناقة أن تقوم، فقال الصحابة: (خلأت القصواء خلأت القصواء) أي: امتنعت عن القيام وامتنعت عن التقدم، فقال : (ما خلت القصواء وما ذاك لها بخلق) أي: ليس من خلق القصواء أن ترفض الأمر الموجه إليها، وما ذاك لها بخلق: (ولكن حبسها حابس الفيل) أي: أنه سبحانه وتعالى أراد لها ألا تتقدم، فهو أمر من الله عز وجل للناقة. وقوله: (حبسها حابس الفيل) الفيل الذي كان يركبه أبرهة عندما أراد دخول مكة المكرمة، لكن الله أمره ألا يدخل، فوقف الفيل ولم يستطع أبرهة أن يدفع الفيل لدخول مكة، فهذا الأمر تكرر تماماً مع الناقة النبوية، وقد تكرر هذا الموقف مع الناقة قبل ذلك، ومن أشهر المواقف التي حدثت مثل ذلك: عند هجرة النبي ﷺ فقد ترك الناقة تسير إلى أن استقرت في مكان ما، وقال للصحابة من الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم: (دعوها فإنها مأمورة)، فنفس الموقف يتكرر في الحديبية؛ بسبب هذا قال الرسول ﷺ كلمة مهمة جداً،

وستفسر لنا هذه الكلمة أموراً كثيرة آتية بعد ذلك، ثم قال بعد أن أحس وشعر أن هناك وحياً واضحاً في هذه القضية، قال: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)، أي: أن الرسول ﷺ قرر أنه سيقبل بالصلح مع قريش، فهو كان يشعر أن هناك وحياً في هذه القضية لم يكن مباشراً، لكنه فهمه من خلال وضع الناقة وعلم أنها مأمورة؛ وعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يريد قتالاً يتم بينه وبين قريش في ذلك الوقت، لذلك سيقبل بأي خطة تعظم حرمات الله، فهو يشترط في الخطة أن تعظم حرمات الله، فلن يقبل بظلم على المسلمين، ولن يقبل بمخالفة شرعية ، فهذا أمر في غاية الأهمية. الرسول ﷺ كان يريد مصالحة وخطة ليس فيها قتال، وهذا أيضاً سيفسر لنا قبول الرسول ﷺ بصلح الحديبية بصورة واضحة؛ لأنه أمر مرضي له .

بعد قليل من بقاء المسلمين في منطقة الحديبية أرسلت قريش أحد الرسل؛ جاء لكي يحل المشكلة بين المسلمين وبين قريش، وهذا الرسول ﷺ هو بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعي فهو ليس من قريش وإنما من قبيلة خزاعة، ومعروف أن قبيلة خزاعة حليفة لبني هاشم وللرسول ، والرسول ﷺ كان يحب خزاعة، وقريش لم ترسل رجلاً منهم، لم ترسل زعيماً من زعمائهم يهدد ويتوعد، لا، لأن قريشاً تريد أن تعامل الرسول ﷺ بالسِلم، وبنوع من الحسنى، وبتجنب القتال قدر المستطاع، ونحن قد نستغرب ونقول: كيف قبلت قريش العزيزة المنيعة القوية القبيلة الكبيرة المعظمة عند جميع قبائل العرب بلا استثناء، كيف تقبل هذه القبيلة الكبيرة بالجلوس مع الرسول ﷺ في طاولة المفاوضات، مع عدم الضغط المباشر على الرسول ﷺ ؟ أقول: إن الذي حصل في السنة السادسة من الهجرة أثر تأثيراً كبيراً على سلوك قريش، الذي حصل من سرايا وغزوات متتالية في العام السادس من الهجرة كان فيه رفع الراية الجهاد وإظهار الهيبة الإسلامية والعزة الإسلامية في كل مكان، فكل هذا كان له تأثير سلبي واضح

على نفسيات قريش، وكان له تأثير معنوي إيجابي رائع جداً عند المسلمين، مما جعل الموقف يكون بهذه الصورة.

أول رسل قريش لمفاوضة النبي ﷺ بالحديبية

لقد كان المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قريبة جداً من مكة المكرمة، وبهذه العزة يقفون ينتظرون رسل قريش، وقريش لا تستطيع أن ترسل زعيماً من زعمائها وإنما تبعث واحداً وسيطاً يتوسط عند المسلمين أن يعودوا، فذهب بديل بن ورقاء الخزاعي إلى الرسول ﷺ ؛ ليمنعه قدر المستطاع من دخول مكة، فقريش لا تريد من الرسول ﷺ أن يدخل مكة في ذلك الوقت، ولا تريد أن تحدث معه قتالاً؛ لأنها تشعر أنها أضعف من المسلمين، مع أن المسلمين ليس معهم إلا سلاح المسافر فقط، فوقف بديل بن ورقاء وحاول أن يهدد الرسول ﷺ تهديداً خفيفاً، لكن هذا التهديد لم يكن من قريش؛ لأن بديل بن ورقاء ليس قرشياً، فقال بديل مهدداً: (إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العُوذ المطافيل) أي: ما تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي وهما فرعان من قريش يعيشون في مكة تركتهم نازلين قريباً جداً من الحديبية، (معهم العوذ المطافيل) أي: معهم الأبناء والأولاد وهم يريدون حربك يا محمد، فالحرب ستكون ضارية بينك وبين قريش، ثم يكمل بديل بن ورقاء ويقول: (وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت). فماذا كان رد فعل الرسول ﷺ ؟

رتب الرسول ﷺ الكلمات ترتيباً سياسياً حكيماً بارعاً، وبين له فيه أنه فهم الموقف تمام الفهم، وأن قدوم الرسول ﷺ إلى مكة المكرمة لم يكن قدوماً متهوراً غير مدروس، بل إن الرسول ﷺ عمل حساب لكل نقطة، فماذا قال؟ قال ﷺ: (إنا لم نأت لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين) أي: نحن لسنا مخالفين لقوانين الجزيرة العربية، وإنما أنتم الذين تخالفون قوانين الجزيرة العربية، وقوانين قريش نفسها تقضي بأن ندخل إلى مكة المكرمة لأداء العمرة إذا أرادنا

ذلك، بل على قريش أن تحمينا وتحرسنا بسيوفها، فنحن نسير وفق هذا القانون وأنـتم تخـالفون هذا القانون، فهو في منتهى القوة يقول ﷺ: (إنا لم نأت لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين).

الأمر الثاني: أنت تهددني بقريش وأنهم قد جمعوا العوذ المطافيل وجمعوا جيوشاً ليحـاربوني، لا، أنا أعلم بوضع قريش، قال ﷺ: (وإن قريشاً قـد نهكـتهم الحـرب وأضرت بهـم) أي: ليسـت قادرة على محاربة المسلمين، فقريش أضعف من أن تحارب، فقد عادت من الأحـزاب في خـزي واضح بعد أن فشلت في غزو المدينة المنورة، وقريش لم تحرك جيشاً واحـداً لقتـال المسـلمين في خلال السنة السادسة من الهجرة، مع اقتراب المسلمين أكثر من مرة من حدود مكة المكرمة.

الرسول ﷺ يعلم القوة التي هو فيها الآن، ويفاوض من هذا الوضع القوي، ولـذلك كلماتـه مسموعة وكلماته مرغوبة عند بديل بن ورقاء وعند القرشيين جميعاً، فقال هذه الكلـمات: (وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا)، فبدأ يعدد عروضـاً في منتهـى الوضـوح، فقد أعطاهم ثلاثة عروض ليختاروا منها ما يشاءون.

العرض الأول: (فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس) يعني: هذا العـرض يقضــي أن الرسول ﷺ يطلب من قريش أن تضع الحرب بينه وبينهم مدة من الزمـان، وهـذه المـدة سـنة سنتان ثلاث عشر، ويتركون ما بيني وبين الناس، أنا أدعو الناس وهم يـدعون النـاس، وكـل واحد يتصرف دون خشية من الطرف الآخر أن يدخل معه في حرب. هذا العرض يفسر لنا أن ما حدث في صلح الحديبية من كون القرشيين يطلبون المعاهدة والمـدة كـان مطلبـاً إسـلامياً في البداية؛ لأنه هو الذي طلب هذه المدة؛ لأنه يعلم تمام العلم أن الدعوة في الجـو السـلمي أكثـر إنتاجاً وأعظم تأثيراً وأسرع إلى قلوب الناس منها في جـو الحـروب، لـذلك كـان يطلـب مـن قريش أن تضع الحرب بينها وبينه مدة من الزمان؛ ليسمح له فيها بالـدعوة في كـل مكـان دون قتال.

العرض الثاني: (وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا)؛ لو أرادوا أن يسلموا ويبقوا مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا فعلوا ذلك، فنحن نرحب بهم في الإسلام. الرسول ﷺ يقول هذه الكلمات وهو بسلاح المسافر فهذا يدل على عزة الإسلام فعلاً.

العرض الثالث: (وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره) قتال إلى النهاية حتى الموت، فنحن لا نخشى القتال، بل نطلبه ونحبه؛ لأنه في سبيل الله عز وجل. والسالفة أي: الرقبة، فهذا كان وضع الرسول ﷺ، كلمات في منتهى القوة، وعروض ثلاثة واضحة جداً.

فقال بديل: (سأبلغهم ما تقول)، وأخذ العروض الثلاث وانطلق إلى مكة المكرمة، وعندما ذكر بديل هذه الأمور لزعماء مكة، كان المتوقع منهم أن يثوروا ويغضبوا، كيف يقول لهم الرسول ﷺ هذه الكلمات وهو على بعد خطوات قليلة من مكة المكرمة وهو في عقر دارهم ومعهم الجيوش؟! لكن هذا لم يحدث وألقى الله في قلوب القرشيين؛ هكذا يرفع المسلمون رءوسهم عندما يعتزون بدينهم فلابد أن يكون هذا الموقف من أعدائهم.

ثاني رسل قريش لمفاوضة النبي ﷺ بالحديبية

لقد حاولت قريش قدر المستطاع أن يتجنبوا اللقاء والصدام مع الرسول ﷺ وإن كان بسلاح المسافر، فأرسلوا الحُلَيْس بن علقمة، والحليس بن علقمة من بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة زعيم الأحابيش المحالفين لقريش، فقريش للمرة الثانية لم ترسل قريش أحد زعماء قريش؛ لأنه قد يتهور في قرار لا يستطيع القرشيون تحمله، فأرسلوا الحليس بن علقمة، والرسول ﷺ لما رأى الحليس قال: (هذا من قوم يعظمون البُدن)، أي: من قبيلة بني الحارث بن عبد مناف وهم قوم متدينون يحترمون قواعد البيت الحرام وأعراف البيت الحرام،

ويعظمون البدن، ويحترمون من جاء لأداء العمرة أو الحج في مكة المكرمة، فالرسول ﷺ عامله بما هو أهله، فأرسل في وجهه البدن؛ ليشعره أنه ما جاء إلى هنا إلا ليقوم بما يعظمه الحليس بن علقمة وقومه، فعندما أرسل البدن في وجهه واستقبله الصحابة يلبون: لبيك اللهم لبيك، لما رآهم الحليس بن علقمة قال: (سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت).

استطاع الرسول ﷺ أن يكسب قلب الحليس بن علقمة حتى قبل أن يتم بينه وبينه كلام، فقد كان عند الرسول ﷺ فقه في منتهى الروعة، فـ الحليس بن علقمة كافر، وبديل بن ورقاء كافر، وأبو سفيان كافر، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل قبل ذلك، وكل هؤلاء كفار، لكن كل واحد له طريقة تعامل، فهناك كافر غادر، وهناك كافر من نبلاء القوم، وهناك كافر لا يعظم أي دين، وهناك كافر يعظم الدين وإن كان ديناً باطلاً هكذا كل واحد له طريقة في التعامل، والرسول ﷺ يتعامل مع الرجل على قدر علمه وقدر بيئته وقدر ظروفه، وهذه هي الحكمة في حقيقتها.

الرسول الثاني لقريش فشل في أداء ما تتمناه قريش، بل بالعكس فقد رجع إليهم وقال لهم: اسمحوا له بالدخول إلى مكة لأداء العمرة، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، لكن قريشاً ضربت بكلامه عرض الحائط، وقالوا: هذا الكلام لا يستقيم نحن نريد أن نمنعه مهما كانت الأعراف والقوانين.

ثالث رسل قريش لمفاوضة النبي ﷺ بالحديبية

لقد تأزم الموقف جداً عند قريش، فأرسلت الرسول ﷺ الثالث وأيضاً ليس من قريش وهو عروة بن مسعود الثقفي من قبيلة ثقيف، فقريش أرسلت واحداً تعتقد اعتقاداً جازماً أن المسلمين سيحترمون رأيه ويسمعون كلامه؛ لأنه كان مُعَظّماً جداً في كل الجزيرة العربية، وهذا

الرجل هو عروة بن مسعود الثقفي، وكما تعلمون عندما نزل القرآن الكريم على رسولنا الكريم في مكة وبلغ به الناس، وقف القرشيون وقالوا قولتهم التي حكاها الله عنهم: {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف:31]، فهم يريدون سحب العظمة من الرسول ﷺ وينسبونها إلى أولئك الذين كثرت أموالهم وعظمت قوتهم في الجزيرة العربية، والقريتان هما: مكة والطائف، والرجل الذي يقصدونه من مكة: هو الوليد بن المغيرة، والذي يقصدونه من الطائف: هو عروة بن مسعود الثقفي هذا. جميع أهل مكة والجزيرة العربية يدركون أن هذا الرجل أعظم رجلين في داخل الجزيرة العربية بكاملها، لذلك أرسلوه للتفاوض مع الرسول ﷺ.

عروة بن مسعود لكونه عزيزاً وسيداً جاء بكلمات تهديديه لرسول الله ﷺ، وفي نفس الوقت إن هدد ولم يقبل الرسول ﷺ بكلامه لن يكون ذلك مؤثراً على قريش؛ لأنه من ثقيف، فذهب عروة إلى الرسول ﷺ وقال له: (أرأيت لو استأصلت قومك)، انتبه لكلمات عروة بن مسعود الثقفي كيف يقلب الحقائق، كيف يصور رسول الله ﷺ وكأنه يريد أن يقتل الناس وليس العكس، مع أن الرسول ﷺ جاء وأعلن أكثر من مرة: (إنا لم نأت لقتال أحد ولكن أتينا معتمرين)، فهو يريد حقاً تعطيه قريش لكل الناس، ولكنهم يخالفون ويرفضون إعطاء ذلك الحق، فهنا قلب للحقائق وتصوير المظلوم أنه الظالم وتصوير الظالم أنه المعتدى عليه، وهذا أمر متكرر كثيراً في التاريخ، من ذلك: كلام فرعون عن موسى عندما قال: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:26]. جاء عروة بن مسعود الثقفي وقال: (أرأيت لو استأصلت قومك وقتلت كل من في مكة، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك)، انظر إلى القلب الواضح للحقائق، مع أن الرسول ﷺ لم يقل إنه يريد أن يستأصل قومه، بل بالعكس هو طلب منهم أن يسمحوا له بالعمرة ويرجع إلى المدينة المنورة، ولم يسأل

عن حقوقه داخل مكة المكرمة، ولم يسأل عن دياره، ولم يسأل عن أمواله، ولم يسأل عن كذا وكذا من حقوق الصحابة، فقد سلب هو أصحابه من أهل مكة كل هذه الحقوق، ومع ذلك تجد الكلمات معكوسة تماماً من عروة بن مسعود الثقفي هذه عاداتهم، ثم يقول عروة بن مسعود: (وإن الأخرى) أي: إن هي غلبت قريش المسلمين، قال: (فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك)، هذا كلام في منتهى سوء الأدب، أي: أن هؤلاء الذين معك كلهم إذا بدأت الحرب سيفرون ويتركونك، إنما هم أوباش من الناس، فهو يسب الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ويذكر أنهم جميعاً سيفرون عن الرسول ﷺ ويدعونه لقريش.

هذا الرجل يهدد ويتوعد وليس كالذي سبقه الحليس بن علقمة، فمثل هذا ما ينفع معه الكلام الهادئ وما ينفع معه العظة كما فعل الرسول ﷺ مع الحليس بن علقمة، هناك رد ثان مناسب له، والذي تولى الرد عليه هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مع علمنا بـ الصديق في رفقه ولينه ورقته ورحمته رضي الله عنه، لكن كل ذلك في موضعه، أما إذا كان في موضع العزة والقوة فهو أقوى الصحابة رضي الله عنه وأرضاه، وهكذا كان في كل حياته، وراجعوا ما قلناه في محاضرات الصديق رضي الله عنه وأرضاه عن قوة الصديق وبأسه رضي الله عنه.

فهنا وقف الصديق وتكلم بغلظة وشدة وعنف لم نعهده فيه قبل ذلك، قال رضي الله عنه وأرضاه بعد أن سب عروة بن مسعود سبة قبيحة مباشرة، قال وهو مستنكر: (أنحن نفر عنه؟): هل الصحابة تفر عن رسول الله ؟ وعروة بن مسعود لما سمع السباب الذي قاله أبو بكر الصديق ومعلوم أن عروة بن مسعود زعيم وعظيم من عظماء العرب، ومن المستحيل أن توجه له هذه السبة أو هذا القذف دون أن يحرك الجيوش والجموع، لكنه قال كلمة تعبر عن مدى أخلاقيات بعض رجال العرب حتى في جاهليتهم، قال: (لولا يد كانت لك عندي لم

أجزك بها لأجبتك) أي: أنت كنت قد عملت معي معروفاً قبل كذا، ولأجل هذا المعروف لـن أجيبك على هذا السباب الذي وجهته إليّ، وحفظ للصديق معروفه القديم، والحمد لله أنه كان هناك معروف من الصديق ؛ لأننا لا نريد الحرب أن تقوم، والرسول ﷺ ما سعى لحرب مطلقاً في هذه الرحلة بفضل الله.

لما هدأ الموقف وبدأ الرسول ﷺ يتكلم من جديد، وفي أثناء هذا الكلام كان عروة بـن مسـعود الثقفي يتحدث مع الرسول ﷺ وكان يمد يده يتناول لحية الرسـول ﷺ وهـو يخاطبـه، فكـان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وأرضاه واقفـاً بجانـب الرسـول ﷺ، فكـان كلـما رآه يمـد يـده ويمسك لحية الرسول ﷺ أهوى بنعل السيف على يد عروة بـن مسـعود الثقفـي ليمنعهـا مـن الوصول إلى لحية الرسول ﷺ، وهذا الموقف مهم جداً؛ لأن اسم المغيرة الكامل هو المغـيرة بـن شعبة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه وأرضاه فهو ابن أخي عروة بن مسعود ، فهذا فيـه إبـراز معنى الولاء عند المسلمين لله ولرسوله وللمؤمنين، حتى وإن كان الذي يتفاوض مع الرسـول ﷺ الآن هو عم المغيرة بن شعبة مباشرة، فعم المغيرة بن شعبة أبعد من رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة يسمع ويطيع للرسول الهاشمي ﷺ ولا يسمع ولا يطيع لعمه الثقفـي، فهـذا منتهـى الولاء والتجرد للإسلام والمسلمين. هذه الرسالة وصلت إلى عروة بن مسعود الثقفـي ونقلهـا حرفياً إلى قريش، ولا شك أنها كان لها أبعـد الأثـر في قلـوب القرشـيين، وهنـاك أمـور كثـيرة حصلت في أثناء زيارة عروة بن مسعود للتفاوض مع الرسول ﷺ، وهذه الأشياء ليست كلاماً من الصحابة إلى عروة بن مسعود الثقفي ، ولكنها أفعال فعلت للرسـول ﷺ، وهـذه الأفعـال كانت تعظيماً وتوقيراً وإجلالاً للرسول الحبيب ﷺ، وهذه الأفعال ليسـت متكلفـة؛ لأن حيـاة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم كلها كانت تفانياً في خدمة الرسول ﷺ، لكن إظهـار هـذه الأمور في ذلك الوقت وفي هذه المحادثات كانت مقصودة لاشك فيه، وكان لها أبلغ الأثر عنـد

عروة بن مسعود ، فنترك عروة بن مسعود يصور ذلك الأمر، فهو لما رجع إلى قريش ذكر لهم ما رأى من أصحاب الرسول ﷺ، قال للقرشيين: (أي قوم والله، لقد وفدت على الملوك على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً). هذا الكلام كان له أبلغ الأثر عند القرشيين وعند عروة بن مسعود نفسه، ثم بدأ يذكر أفعال الصحابة قال: (وإذا أمرهم محمد ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها) عروة بن مسعود مع أنه رسول قريش إلى المسلمين يأمر قريشاً أن يسمعوا لكلام الحبيب ﷺ، وخطة الرشد هذه هي الخطة التي ليس فيها قتال، وهو لم يأت إلا لعمرة فاتركوه يؤدي العمرة ويرجع إلى المدينة.

انظر كيف أثر تفاعل الصحابة مع الرسول ﷺ من إظهار قوة الصف عند المسلمين وعزة المسلمين ورفعتهم وهيبتهم، كل هذه الأمور كانت أمام عروة بن مسعود لها أبلغ الأثر على القرشيين وعلى أعداء المسلمين؟!

محاولة بعض شباب قريش منع الصلح مع المسلمين

هزمت قريش هزيمة نفسية قاتلة، وبدأت تفكر تفكيراً جدياً في الصلح، لكن ما هي بنود الصلح؟ ما هي ظروف الصلح التي يفكرون فيها؟ كانوا قبل ذلك يرفضون الجلوس مع النبي ﷺ على طاولة المفاوضات؛ لأنهم لا يعترفون به أصلاً، وهاهم الآن حين رأوا هذه العزة العظيمة للمسلمين يتفاوضون معهم، وبدءوا يفكرون في الصلح، لكن هناك مجموعة من شباب قريش المتحمسين المتهورين أرادوا أن يقطعوا كل طريق للصلح، فقامت هذه المجموعة وهم حوالي 50 شخصاً من المشركين وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل وكان وقتها مشركاً،

قامت هذه المجموعة بالتسلل إلى معسكر المسلمين ليلاً ليقتلوا بعض المسلمين، وهم غرضهم أن يبدأ القتال ثم بعد ذلك ستكون الحرب الكبيرة بين المسلمين وبين قريش.

فما الذي حصل مع هؤلاء؟ لقد كانت هناك مجموعة من الحرس يحمون المسلمين، وعلى رأس الحرس محمد بن مسلمة رضي الله عنه وأرضاه، فاعتقل محمد بن مسلمة هؤلاء الخمسين المشرك، فماذا فعل الرسول ﷺ مع هؤلاء الخمسين؟ لقد أطلقهم جميعاً منّاً بلا فداء؛ لإبداء حسن النوايا ولإبداء الرغبة في الصلح، كأنه يقول لقريش: هذه رغبة حقيقية عندنا فنحن لم نجئ للقتال إنما جئنا معتمرين، ويريد أيضاً الصلح والهدنة؛ لينتشر الإسلام في الجزيرة العربية في وضع سلمي، قال الله سبحانه وتعالى يصف هذا الموقف في كتابه الكريم: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح:24]، فقوله: {مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح:24] أي بعد أن أخذتم هؤلاء الخمسين أُسارى.

إرسال النبي ﷺ لعثمان بن عفان رضي الله عنه لمفاوضة قريش في الصلح

لقد أرسلت قريش ثلاثة رسل حتى الآن: أرسلت في البداية بديل بن ورقاء الخزاعي من خزاعة، وأرسلت بعد ذلك الحليس بن علقمة من بني الحارث بن كنانة، وأرسلت بعد ذلك عروة بن مسعود الثقفي من ثقيف، وهؤلاء الثلاثة من خارج قريش، أرسلتهم محاولة للتوسط بينهم وبين الرسول ﷺ، وكان الرسول ﷺ في كل مرة يبلغهم بشيء، لكي يوصلوه إلى مكة المكرمة، لكن إلى الآن لم تستمع قريش مباشرة إلى كلام الرسول ﷺ، وقد يكون هؤلاء الرسل لم يبلغوا الأمر بصورة مرضية؛ إما لشيء في صدورهم، أو سوء فهم لقضية من القضايا؛ فلذلك أراد الرسول ﷺ أن يرسل رسولاً من المسلمين، يستطيع بواسطته أن يصل بالمعاني التي يقتنع بها المسلمون ويطالبون بها، يوصلها بوضوح إلى زعماء قريش؛ ليتجنب فتنة ليس لها أصل، فالرسول ﷺ فكّر في إرسال سفير ورسول، فمن الذي أراد أن يرسله؟ أول من أراد

أن يرسله إليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، وعمر بن الخطاب كما تعلمـون رجـل قوي مفاوض له حكمة وقوة ورأي سديد جداً، فهو في كثير من المرات ينـزل القـرآن الكـريم موافقاً لرأيه رضي الله عنه وأرضاه، فيما عرف بموافقات عمر رضي الله عنه، ومما جعـل النبـي ﷺ يختار عمر بن الخطاب أنه كان في جاهليته سفيراً لقريش، وكانت الزعامة في قريش موزعة على عشر قبائل، كل قبيلة عليها دور من الأدوار في قيادة مكة، والدور الموكل إلى بني عـدي - التي هي قبيلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه- كـان دور السـفارة في قـريش، والـذي كان يقوم بهذا الدور من قبيلة بني عدي هو عمر بـن الخطـاب نفسـه، فالرسـول ﷺ أراد أن يبعث رسولاً قديماً مـن رسـل قـريش تعـترف بـه كسـفير، فهـذا في غايـة الأهميـة ولـه عمـق إستراتيجي واضح، فهذه كانت وجهة نظر الرسول ﷺ في إرسال عمر بن الخطـاب رضي الله عنه، لكن على غير المعتاد اعتذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرسول ، لأنـه علـم أن الأمـر ليس وحياً، وإنما هو رأي من الرسول ﷺ له أن يراجع فيه ويعرض رأيـه، فعـرض عمـر بـن الخطاب رأيه في منتهى الوضوح ومنتهى الصراحة وقال: (يا رسول الله ليس لي بمكة أحد مـن بني كعب يغضب لي إن أوذيت) أي: أنا من قبيلة ضعيفة، قبيلة بني عـدي بطـن ضـعيف مـن بطون قريش، لو حصل وقتل عمر بن الخطاب فلن يتحرك له أحد، ثم قال: (فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها). عثمان بن عفان من قبيلة بني أمية وهـي قبيلـة قويـة عزيـزة شريفـة لهـا تاريخ ولها جنود ولها رجال، والجميع يعمل لها ألف حساب، ثم يقول: (وإنه -أي: عثمان بـن عفان - مُبَلِّغ ما أردت) يعني: الذي تريده سيتحقق على يد عثمان ما هو علي يدي أنا، وواضـح من كلام عمر بن الخطاب ومن سيرته قبل هذا الأمر وبعد هذا الأمر أنه لا يخشـى المـوت، ولم يقل هذا الكلام خوفاً من قريش أو من غيرها، بل كان على اسـتعداد دائـم أن يبـذل روحـه في سبيل الله عز وجل، لكنه يريد أن تتم المهمة، وهذه المهمة مثل عـثمان بـن عفـان رضي الله عنـه

سيؤديها؛ لأن عمر ليست له منعة في داخل مكة المكرمة وهو يريد أن تتم هـذه المهمـة؛ لـذلك ذكر اسم عثمان بن عفان ، ولماذا عثمان بن عفان من بين 1400 صحابي؟ هذا اختيار في منتهى الحكمة فعلاً؛ لأنه الرجل المناسب في المكان المناسب، فـعثمان بن عفان من قبيلة بني أمية وهي قبيلة قوية تقدر على حماية عثمان بن عفان ، وإجارة بني أمية تمضي على كل قـريش، كـذلك أبـو بكر الصديق نفسه لو ذهب فإنه لا يؤدي مثل ما يؤدي عـثمان بـن عفـان ؛ لأن قبيلـة أبي بكـر الصديق قبيلة ضعيفة، التي هي قبيلة بني تيم. كان اختيار عمر موفقاً لـعثمان جداً هذا أولاً.

ثانياً: عثمان بن عفان مشهور بالحلم والحكمة، فعنده القدرة على أن يتفاوض ويؤدي المهمة كما ينبغي أن تؤدى.

ثالثاً: عثمان بن عفان رجل محبوب جداً في داخل مكة المكرمة سواء في أيام جاهليتـه أو في أيـام إسلامه؛ لأنه كان كريماً واسع الكرم، يعطـي عطـاء بـلا حـدود، وكـل أهـل مكـة قبـل ذلـك استفادوا منه، فهو عند أهل مكة محبوب، والناس كلها لن تؤذيـه قـدر المسـتطاع، وعـثمان بـن عفان رضي الله عنه وأرضاه زوج ابنتي الرسول ﷺ ، كان متزوجاً في البداية من السيدة رقية ، فلما ماتت تزوج أم كلثوم ، وهـو الآن هـو زوج ابنـة الرسـول ﷺ أم كلثـوم ، ولـن يضـحي الرسول ﷺ بزوج ابنته هكذا إذا أرسله، فمن الواضح أنه يريد الصلح والهدنة مع قريش.

هذه أمور كثيرة جداً تجعل موقف عثمان بن عفان مترجحاً في هذه السفارة، والرسـول ﷺ لمـا سمع ذكر اسم عثمان بن عفان وجد أنـه الرجـل المناسـب، وقبـل تشريـح عمـر بـن الخطـاب لإرسال عثمان بن عفان إلى قريش، وبالفعل كان هو رسول المسـلمين إلى قـريش، وهـذا يرينـا مدى سعة صدر الرسول ﷺ ، وكيف أنه قبل بتغيير رأيه دون أن يثور على عمر بن الخطاب أو يتهمه بعدم القبول لرأيه وبالتقصير في حق المسلمين؛ لأنه ليس هناك وحي في هذه القضية.

كان هذا موقفاً من أعظم المواقف في تاريخ المسلمين، كيف أن عند الحاكم استيعاباً لكل القدرات الموجودة في الجيش، وهذا الموقف لا يجب أن يمر دون أن نذكر أنه من أعظم مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، حيث أوكلت إليه هذه المهمة العظيمة الخطيرة جداً، والتي تعبر عن مدى ثقة رسول الله برأيه في اختياره للتحاور والتفاوض مع المشركين. وفي هذا الموقف نفي كل الشبهات التي قيلت في حقه بعد ذلك من المغرضين ومن أعداء المسلمين.
خرج عثمان بن عفان من عند الرسول ﷺ إلى قريش بمهمة شديدة الوضوح، فقد أرسله الرسول ﷺ بثلاثة أمور واضحة:

الرسالة الأولى: عليه أن يخبر قريشاً أن المسلمين لم يأتوا إلا معتمرين، وأنهم ما أرادوا القتال في هذه الرحلة إلى مكة المكرمة، وأنهم سيقبلون أي خطة تعظم فيها قريش حرمات الله عز وجل، هذا أول أمر وأهم أمر.

الرسالة الثانية: أن يدعو قريشاً إلى الإسلام. حتى في هذا الموقف نرى أن الرسول ﷺ مشغول بهداية قريش إلى الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث: أن يأتي المستضعفين من المسلمين في مكة، والمستضعفون في مكة هم الذين لم يستطيعوا لضعفهم أن يهاجروا إلى المدينة المنورة. أمر عثمان بن عفان أن يذهب إلى هؤلاء المستضعفين سراً ويتحدث إليهم بتبشيرهم أن الله عز وجل سيعز المسلمين يوماً، وأنه لن يستخفي أحد بعد ذلك بالإسلام في مكة، وهذه بشارة نبوية، ومكانها في هذا التوقيت في غاية الأهمية؛ لأن المستضعفين في مكة المكرمة يرون قريشاً تحاصر المسلمين في الأحزاب وتقاتل المسلمين مرة بعد مرة، والآن يمنعون المسلمين من دخول مكة، فهذا الوضع قد يؤثر سلباً على نفسيتهم، فالرسول ﷺ يهتم جداً بنفسيات هؤلاء المستضعفين، مع أنهم ليسوا معه في دولته

في هذه اللحظة، لكنه يهتم بكل رعايا الدولة الإسلامية كل بحسب ظروفه ومكانه. هذه كانت مهمة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

وبالفعل ذهب عثمان بن عفان إلى مكة المكرمة ليؤدي المهمة العظيمة، ومع أنه رسول والرسل عادة في عرف هذه البلاد وغيرها لا تقتل، إلا أنه لم يعتمد على هذا الأمر فقد أخذ بكامل الأسباب؛ لكي لا يحدث له أي أذى، ولكي تتم المهمة على الوجه الأكمل.

أول ما دخل طلب إجارة أبان بن سعيد بن العاص الأموي رضي الله عنه وكان وقتها ما زال مشركاً، فدخل في إجارة أبان ، وأبان رجل قوي وفيه لين ورحمة ولطف، وعلاقته قوية بعثمان بن عفان ، وسيدافع عنه لصلة الرحم والقرابة والمعرفة، وبصفة اللين التي يتميز بها أبان بن سعيد وفوق هذا كله توفيق رب العالمين سبحانه وتعالى هو الذي جعل سيدنا عثمان بن عفان يطلب إجارة أبان بن سعيد بالذات، وأبان بن سعيد قبل قدوم الرسول ﷺ إلى الحديبية كان في رحلة تجارية إلى الشام، وهناك في الشام التقى مع راهب من النصارى، وهذا الراهب ذكر له أن هذا الوقت سيظهر فيه رسول في بلادهم، فأبان بن سعيد مهيأ نفسياً، فهذا الذي يقف خارج مكة هو رسول من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن عثمان بن عفان رسول رسول الله، فهذا الإحساس جعله يدافع عن عثمان بن عفان بكل طاقته، فاستطاع عثمان أن يؤدي المهمة على الوجه الأكمل، فدخل عثمان بن عفان مكة في عزة، دخل سفيراً لرسول الله ﷺ الذي يقف مع 1400 صحابي خارج مكة المكرمة يطلب دخولاً للعمرة، وعرض عثمان عروضه بمنتهى القوة أمام قريش، وقريش في الحقيقة استقبلته أحسن استقبال، استقبلته استقبال السفراء، وسمعت منه ما قاله، بل وعرضت عليه أن يطوف حول البيت الحرام، وتصور مدى اشتياق عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه للطواف حول البيت الحرام، له ست سنوات كاملة في المدينة المنورة ولم يطف في هذه السنوات الست ولا مرة بالبيت الحرام،

لكن مع هذا الاشتياق الذي كان عند عثمان بن عفان ومع هذا الأجر العظيم في الطواف حـول البيت الحرام، إلا أن عثمان بن عفان قال قولاً صارماً واضـحاً لقـريش، يعـبر عـن مـدى ولاء المسلمين لقائدهم ، قال: (لا أطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ).

هذا موقف من أعظم مواقف عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ومن أدقها فهماً وفقهاً، فهو قال لهم: إنني لا أستطيع أن أتحرك قيد أنملة إلا بأمر من قائدي رسول الله ﷺ ، فهـذا الموقـف من عثمان بن عفان أحدث هزيمة نفسية لقريش، وعرفت أن الصـف المسـلم قـوي صـلب لا يمكن أن يخترق، فمع أن عثمان بن عفان جاء على بعد 400 كيلـو أو 500 كيلـو طلبـاً لهـذه العبادة، ومع ذلك لا يستطيع أن يؤديها إلا بأمر من الحبيب .

هذا موقف عظيم فعلاً هز قريشاً، وقريش بعد هذا الموقف بدأت تفكر تفكيراً عملياً سريعـاً في الصلح مع الرسول ﷺ ، ولم يبق فقط إلا أن يحددوا بنود هذا الصـلح، فالصـلح أصـبح أمـراً واضحاً عند قريش بعد هذا الموقف، ومن قبله مواقف المسلمين العزيـزة في المفاوضـات التـي تمت عند الحديبية.

31

صلح الحـديبية

لم يكن القرار سهلاً على قريش، فقد ظلت تفكر أياماً في أمر هذا القرار وعثمان بن عفـان رضي الله عنه وأرضاه في مكة ينتظر قرار قريش. في هذا الوقت أشيع عند المسلمين أن عثمان بن عفان قد قُتل في مكة المكرمة، وهذا أمر خطير ومخالف للأعراف كما تعلمون، فقتـل الرسـول يعتـبر إهانة كبيرة جداً للدولة التي يُقتل رسـولها، ومخالفـاً للأعـراف والقـوانين، لـذلك بمجـرد أن وصلت هذه الإشاعة إلى المسلمين ومع أن الإشاعة لم تكن صحيحة، لكن الرسول ﷺ تعامـل مع الموضوع بمنتهى الجدية، فعندما أشيع أن عثمان بن عفان قد قتل جمع الرسول ﷺ المسلمين جميعاً وعقد معهم مبايعة، وبايع المسلمون رسول الله ﷺ بيعـة مـن أعظـم البيعـات في تـاريخ الأرض، عرفت في التاريخ ببيعة الشجرة أو بيعة الرضوان، بيعـة الشـجرة؛ لأنهـا تمـت تحـت شجرة عند الحديبية، وبيعة الرضوان؛ لأن الله عز وجل صرح في كتابـه أنـه رضي عـن أولئـك الذين قاموا بهذه البيعة، قال سبحانه وتعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَـنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْـتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح:18].

بايع الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً على ألا يفروا، كما جـاء في صـحيح مسـلم عـن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وبايع بعض الصحابة على الموت، بل بايع بعضهم على المـوت

ثلاث مرات، وممن بايع على الموت ثلاث مرات سلمة بن الأكـوع رضي الله عنـه وأرضـاه كـما جاء ذلك في صحيح مسلم.

كانت هذه البيعة خطيرة فعلاً، وبايع الجميع على عـدم الفـرار، أي: أنهـم سـيناجزون القـوم، وسيقاتلون قريشاً ولن يفروا أبداً في هذا القتال، مع كونهم لا يحملون إلا سـلاح المسـافر، إنهـا بيعة في منتهى الأهمية، بايع جميع الصحابة إلا واحداً فقط وهو الجد بن قيس، وهو كما ذكرنا في الدرس السابق من المنافقين.

بعد هذه البيعة مبـاشرة جـاء عـثمان بـن عفـان رضي الله عنـه وأرضـاه يخـبر الرسـول ﷺ أن القرشيين قد وافقوا على الصلح، وسيأتي رجل منهم ليفاوض رسول الله ﷺ على بنود الصـلح فلم يقم المسلمون لحرب المشركين.

وقفات مع بيعة الرضوان

نحتاج إلى أن نقف وقفات مع هذه البيعة العظيمة: بيعة الرضوان.

أولاً: هذه البيعة فيها خلاصة ما هو مطلوب مـن المـؤمن في دنيـاه، {قُـلْ إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ} [الأنعـام:162]، كـل شيء في حيـاتي لله عـز وجـل إلى لحظـة الموت، أنا في سبيل الله عز وجل، طاعة كاملة لله ولرسوله، فأمر هـذه البيعـة صـعب، فهـؤلاء المسلمون جاءوا إلى مكة للعمرة بسلاح المسافر فقط، ولا مدد لهم من المدينة؛ لأن المدينة تبعـد عن مكة قرابة 500 كيلو، ومن الطبيعي إذا قاتلوا المشركين في هـذا المكـان فـإن المسـلمين قـد يُقتلون؛ لأنهم يقاتلون جيشاً بعدة وعتاد وعلى بعد خطوات من المـدد، وليسـت قريشـاً فقـط، ولكن معها قبائل الأحابيش الحليفة لها، لكن مع ذلك لم يفكر واحد من المسلمين في أسرته، في أولاده، في زوجته، في تجارته، في أعماله، في حياته، لم يقل أحد منهم: ظروفي لا تسمح أبداً، بـل

لم يقم أحدهم بهذه البيعة إحراجاً من رسول الله ﷺ أو إحراجاً من المسلمين، بل فعلوها جميعاً راغبين صادقين، وهذا كلام رب العالمين في قرآنه الكريم سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح:18]. اطلع الله عز وجل على قلوب كل من بايع، فعلم سبحانه وتعالى أن هذه القلوب جميعاً قلوب مؤمنة مخلصة، من الفتح المبين الذي ذكره الله عز وجل في بداية السورة التي تحدثت عن صلح الحديبية وهي سورة الفتح، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:1]، فكون رب العالمين يصرح بالرضا عن مجموعة كبيرة عددها (1400) شخص وهم ما زالوا أحياء على وجه الأرض هذا من الفتح المبين؛ أن تصل مجموعة من البشر إلى هذا الرقي وهذا الإخلاص وهذا الفقه والفهم والعمل بهذه الصورة التي ترضي رب العالمين سبحانه وتعالى رضاءً تاماً يكتبه في كتابه نقرؤه إلى يوم القيامة هذا من الفتح المبين، فهذه البيعة لها مكانتها، ولها قيمتها في الميزان الإسلامي، وظل هؤلاء عند جميع علماء الأمة من أعظم المسلمين درجة وإلى يوم القيامة، وهذا كلام الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خطبهم يوم الحديبية فقال لهم: (أنتم اليوم خير أهل الأرض)، وهم 1400 صحابي.

أول شيء: أنه ظهر في هذه البيعة التضحية والبذل والعطاء الكامل من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وهو خلاصة ما هو مطلوب من المؤمن في دنياه.

ثانياً: هذا الموقف الذي أعلن فيه المسلمون رغبتهم في الموت هز مكة تماماً من داخلها، فمن يستطيع أن يقاتل قوماً يطلبون الموت؟ بماذا ستخوفهم؟ ستقتلهم، فهم الذين يريدون أن يموتوا، فقد بايعوا على أن يموتوا، بايعوا على ألا يفروا حتى النهاية، ولم يكن معهم إلا سلاح بسيط، ومع ذلك بايعوا على الموت. هذا الموقف هز مكة تماماً، وجعلها تفاوض الرسول ﷺ

على أن يعود إلى المدينة بأي ثمن، حتى وإن كان في ذلك حط من كرامة قريش، وهذا ما سنراه بعد ذلك في بنود المعاهدة.

عبر خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه بعد هذا الحدث بسنوات عن صفات الجيش المنصور بكلمات قليلة ذكرها لـ هُرمز قائد الفرس ملك الأُبُلّه عند بداية فتح فارس قال: (جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة). الجيش الذي يحب الموت من المستحيل أن يهزم، وهذا درس من أعظم الدروس؛ من أجل ذلك قررت قريش إبرام الصلح بكل ما فيه.

ثالثاً: لم يصب المسلمين سوء عندما أخذوا قرار الموت، بينما في أحد عندما أخذوا قرار الفرار، استشهد منهم سبعون، وكان عددهم في أحد 700 وفي الحديبية 1400 لم يصب منهم أحد بسوء، وهذه كلمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وهي كلمة جميلة جداً يقول فيها: (احرص على الموت توهب لك الحياة). الجيش الذي يريد أن يموت يهب الله له الحياة والنصر والتمكين والسيادة، والجيش الذي يريد أن يعيش أي عيشة حتى لو كانت رخيصة أو ذليلة أو تعيسة، المهم أن يعيش فهذا جيش يكتب عليه الموت.

رابعاً: أن الله سبحانه وتعالى صرح برضاه عن أولئك الذين قاموا بالبيعة، مع أنهم ما زالوا على قيد الحياة، ومن الممكن أن يرتكبوا بعد ذلك ذنوباً أو أخطاءً أو كذا أو كذا من الأمور، ومع ذلك ربنا سبحانه وتعالى صرح أنه قد رضي عنهم، والله سبحانه وتعالى يعلم الغيب، ويعلم أن هؤلاء سيفعلون كذا وكذا، وأنه من المؤكد أن يكون لهم أخطاء؛ لأنهم من البشر، وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، لكن يوجد معنى في غاية الأهمية ينبغي أن نفهمه من هذا الكلام: وهو أن موقفاً واحداً في حياتك لصالح المسلمين ولصالح الأمة يكون من الثقل بحيث أنه لا يعدل به ذنب بعد ذلك، وهذه ليست دعوة للذنوب، ولكنها دعوة للأعمال الصالحة الثقيلة، وقرأنا أكثر من مرة في السيرة النبوة، كما في غزوة تبوك أن الرسول ﷺ قال

لـعثمان يومها: (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم)، فهذا موقف واحد من عثمان بـن عفـان رضي الله عنه وأرضاه إن وضع في كفة ووضعت بقية الذنوب في كفة أخرى فإن هذا الموقف سيعدل وسيرجح، وبهذا ينجو عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

كل واحد منا يسأل نفسه: هل تملك موقفاً تعتقد أنه منجيك يوم القيامة؟ كلنـا نصـلي ونصـوم ونحج ونقرأ القرآن، لكن هل يوجد في حياتنا عمل يخدم الأمـة، نأخـذه بأيـدينا يـوم القيامـة ونقول: يا رب هذا العمل عملناه من أجلك، ونعتقد تمام الاعتقـاد في يومهـا أنـه منجينـا مـن النار؟ فهذه بيعة الرضوان عمل واحد عابر دار في ساعة أو ساعتين وانتهت القضية، لكن ظل في عرف الزمن إلى يوم القيامة حدثاً يقتدي به المسلمون، ويتعلمون منه، بـل ويُحفـظ في كتـاب رب العالمين سبحانه وتعالى، نريد لحظات صدق من هذا النوع تنجينا في الدنيا وفي الآخرة.

إرسال قريش سهيل بن عمرو للتفاوض مع النبي ﷺ

نعود إلى الحديبية، قررت قريش الصلح، وقررت أن ترسل رجـلاً لإتمـام الصـلح مـع رسـول ﷺ، وهنا لا ينفع أن تبعث قريش وسيطاً من خزاعة أو من ثقيف أو من أي قبيلة غير قـريش؛ لأنه سيتفق وسيفاوض في بنود ستتأثر بها قريش تأثراً مبـاشراً، فـلا بـد أن يكـون واحـداً مـن قريش، إذاً: من تبعث؟ هل تبعث عكرمة بن أبي جهل أم تبعث خالد بن الوليـد أم تبعـث أبـا سفيان أم تبعث صفوان بن أمية؟ لم تبعث أحداً من هؤلاء؛ لأن كل هؤلاء كما يطلقون علـيهم في هذه الأيام من: الصـقور، كـل هـؤلاء يريـدون أن يحـاربوا المسـلمين، وقـريش لا تريـد أن تحارب، هي تريد أن تلطف الأمر بقدر المستطاع، فأرسلت رجلاً من الحمائـم رجـلاً طيبـاً كـما يقولون، أرسلت: سهيل بن عمرو، وسهيل بن عمرو حياته كلها في مكـة هادئـة وهـو إنسـان لطيف وليست له مشاكل ضخمة مباشرة مـع المسـلمين، ويسـتطيع أن يتفـاوض بلطـف مـع

المسلمين، وهذا ما تريده قريش، حتى إن الرسول ﷺ لما رأى سهيل بن عمرو قال: (قد سهل لكم أمركم. أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل).

الرسول ﷺ استبشر وبشر المؤمنين، وأخذ من كلمة سهيل معنى فقال: (سهيل قد سهل أمركم)، والفأل الحسن في الإسلام مطلوب، لكن في نفس الوقت كانت قريش حذرة؛ لأن سهيل بن عمرو رجل مصاب من المسلمين في بيته، أتدرون كم شخص أسلم من عائلته؟ أربعة من أولاده أسلموا، وهذه كارثة بالنسبة له، فهذا الرجل سيذهب ليدافع عن قضية شخصية، أسلم أربعة من أولاده وثلاثة من إخوته، أولاده: أم كلثوم وسهله وعبد الله هؤلاء الثلاثة أسلموا منذ زمن بعيد، ويعيشون في المدينة المنورة، والرابع: أبو جندل مسلم أيضاً ومقيد قيده أبوه سهيل بن عمرو قبل أن يخرج؛ لئلا يلتحق بالمسلمين، وإخوته: السكران بن عمرو وأبو حاطب بن عمرو وسليط بن عمرو، عائلته تقريباً كلها أسلمت ولم يبق إلا هو، فهو مصاب في عزته في وسط قريش، فذهب يفاوض بكل حمية، ذهب لكي يأخذ من المسلمين كل مصلحة ممكن تكون لقريش.

هنا لا بد أن نقف وقفة ونقول: إذا قام فريقان بالصلح فمعنى ذلك: أن القوتين متكافئتان، وإذا حرص القوي في الظاهر على الصلح مع الضعيف فاعلم أنه يرى الضعيف أقوى منه، وأنه من داخله يخشى هؤلاء الضعفاء، ويعمل لهم ألف حساب، ومستعد أن يتنازل، فعلى المسلمين أن يثبتوا وإن كانوا ضعفاء، فإنهم على الحق، والله معهم، وإذا ثبتوا فإن هذا يزلزل كيان الكافرين.

قعد القرشيون بكل ما لهم من تاريخ وقوة وجنود وأحلاف، قعدوا مع الجماعة الضعيفة المستضعفة التي كانت تعيش عندهم وخرجت من ديارهم وذهبت إلى المدينة المنورة، وجاءت الآن للعمرة بسلاح المسافر، قعدوا من أجل الصلح في مصلحة الطرفين، ويلتقون في منتصف

الطريق كما ذكروا، هذا الصلح يحمل إيجابية واضحة، ولكنه في نفس الوقت يحمل سلبية لا بـد أن يفقهها المسلمون، فالإيجابية الهامة: أن كل طرف أصـبح معترفـاً بـالآخر، فـإذا كنـت أنـت جماعة لا دولة وتم معك الصلح فهذه إيجابية كبرى جداً؛ لأنها بداية الاعتراف بأنك أصـبحت قوياً متكافئاً. قريش لا تحتاج لاعتراف الرسول بها؛ لأن قريشاً صار لها ستمائة سنة وأكثر قبيلـة معترف بها وسط الجزيرة العربية بكاملها، بل ووسط العالم، ولها علاقات مع بعـض الـدول في العالم، أما جماعة المسلمين فلا يعترف بهم أحد لا قريش ولا غيرها؛ لأنها جماعة ناشـئة ضـعيفة مستضعفة، فإذا اعترفت بها قريش فهذه من أعظم إيجابيـات صـلح الحديبيـة، ونحـن الآن في أيامنا رأينا عندما نجحت حماس في انتخابات فلسطين ماذا حصل؟ دعتها بعض الدول العالمية للحديث والتحاور والتفاوض، منها: روسيا مثلاً، وروسيا تعتبر من أقطاب العالم ومن أقـوى دول العالم، ومع ذلك دعت حركة حماس لسماع الرأي ولتبادل المشورة في بعض الأمور، وهذا في حد ذاته اعتراف بحماس، وهذا الكلام أغضـب اليهـود جـداً؛ لأن هـذه المفاوضـات فيهـا اعتراف ضمني بشرعية حماس وبقوة حماس. هذا الذي كـان يعيشـه الرسـول ﷺ أيـام صـلح الحديبية، فكون قريش تجلس على طاولة المفاوضات معه فهذا اعتراف أمام الجميع أن الرسول ﷺ أصبح زعيماً لدولة معترف بها في الجزيرة العربية، وهذا انتصار كبير وفتح مبين فعلاً.

أما السلبية التي تكون في هذا الصلح: أنه إذا جلست قوتـان للتفـاوض وللصـلح فـلا بـد أن يتنازل كل طرف عن شيء، وهذا يحتاج إلى وقت من أجل أن نفهمه، فحين تحصل مفاوضـات بين مجموعة من المسلمين وبين دولة قوية في العالم لا بد أن نعرف بالضـبط حـدود التفـاوض، ونعرف بالضبط ما هو الذي يمكن أن نسـمعه ويغضـبنا ونمـرره، والـذي يمكـن أن نسـمعه ويغضبنا ولا يمكن أن نمرره؟ فالرسـول ﷺ في هـذه الهدنـة سـيقبل لا محالـة بـأمور ستشـعر المسلمين بغصة في حلوقهم وستشعرهم بألم؛ لأنه لا بد إذا جلس اثنان للتفاوض أن كل واحـد

يتنازل عن شيء، وإلا فلماذا التفاوض؟ ولماذا الجلوس؟ لو كان واحد غالباً وواحد مغلوباً مع إملاء لشروط فهذه معاهدات استسلام، هذا في عرف المعاهدات بين المنتصر والمهزوم، وفي هذه اللحظة لا تعتبر هذه المعاهدات معاهدات بصفة حقيقية، ولكن يطلق عليها المعاهدة لتسهيل الأمر على المهزوم؛ ليقبل بكل البنود والشروط، أما في صلح الحديبية ليست هناك إملاءات من المنتصر على المهزوم؛ الوضع في الحديبية يعتبر متكافئاً، وجاء الرسول ﷺ بمجموعة من المسلمين ليس غازياً ولا فاتحاً ولا مهاجماً لقريش، وإنما يريد فقط دخول مكة للعمرة، وقريش تريد أن تمنعه، وقريش قوة كبيرة، والمسلمون إلى الآن قوتهم ما زالت ناشئة وبسيطة، ولذلك هذا الجلوس إلى حد ما متكافئ، وعندما تراجع بنود صلح الحديبية تجد أن معظمها في صالح المسلمين، وليست لصالح قريش، وهذا كله بسبب ما حصل من المسلمين في السنة السادسة من الهجرة من الغزوات والسرايا التي تكلمنا عنها بالتفصيل في المحاضرة السابقة من هذه المجموعة. عندما رأى المشركون القوة والعزة والثبات عند المسلمين ورأوا أنهم جاءوا بلا خوف ولا وجل من قوة قريش حصل صلح الحديبية.

بنود صلح الحديبية

صلح الحديبية: معاهدة من أربعة بنود، تعالوا لنرى كل بند هل هو في صالح المسلمين أم في صالح المشركين؟

البند الأول: أن الرسول ﷺ وأصحابه يرجعون من عامهم هذا فلا يدخلون مكة، وإذا جاء العام المقبل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثة أيام، ليس معهم إلا سلاح الراكب، ولا تتعرض لهم قريش، هذه البند الأول.

هل هذا البند في صالح المسلمين؟ رجوع الرسول ﷺ هذا العام في صالح قريش؛ لأنه يحفظ لها نسبياً ماء وجهها، لكن قدوم الرسول ﷺ في العام المقبل، ودخول مكة دون مقاومة، بل وخروج أهلها منها وعدم التعرض مطلقاً لجيش المسلمين، هذا والله انتصار مهول للرسول ﷺ وللمسلمين، ونحن عندما نتذكر ما حدث للمسلمين في مكة صدق مدة ثلاث عشرة سنة من التعذيب والإبادة، ثم بعد ذلك الهجرة وفرار المسلمين بدينهم، وقد تركوا كل شيء في مكة، ثم نتذكر بدراً وأحداً وتجميع قريش للأحزاب وحصار المدينة منذ أقل من سنة واحدة، كل هذه المقاومة القرشية انهارات، وقَبِل المشركون بفتح باب دولتهم للمسلمين دون مقاومة، أي نصر للمسلمين؟! وأي رفع رأس للمسلمين في الجزيرة العربية بكاملها؟! وأي إراقة لماء وجه قريش وسط الجزيرة العربية؟! أين صقور قريش؟ أين السلاح والعتاد؟ أين العلاقات والأحلاف؟ أين الأموال والاقتصاديات الهائلة لقريش؟ أين كل ذلك؟ كل هذا ينهار أمام دولة المسلمين الناشئة.

هذا البند بكل تأكيد في صالح المسلمين، ليس هذا فقط اعترافاً من قريش بدولة المسلمين، ولكن هذا اعتراف أن دولة المسلمين دولة قوية تفتح لها أبواب مكة، ويخرج أهلها منها، وهذا لم يُفْعل مع أي قبيلة في تاريخ مكة بكاملها، فقريش لم تخرج وتترك مكة المكرمة مفتوحة الأبواب ولا مرة لأي قبيلة من قبائل العرب مهما كانت قوية، هذا فُعِل هذا مع المصطفى ﷺ، فهذا دليل على أنه أقوى من أي قبيلة في الجزيرة العربية في نظر قريش. هذا البند في صالح المسلمين.

البند الثاني: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

هذا البند في صالح من؟ من الذين يحتاج إلى وضع الحرب ويرغب في الأمان؟ أليس هم المسلمون؟ هذه بغية المسلمين، كان الأمان طلباً نبوياً قبل المعاهدة أصلاً قبل صلح الحديبية، لعلكم تذكرون الكلام الذي قاله الرسول ﷺ لـ بديل بن ورقاء الخزاعي وذكرناه في الدرس السابق، قال: (فإن شاءوا ماددهم) كان هذا طلباً إسلامياً أن تحدث مدة بين المسلمين وبين المشركين. الرسول ﷺ هو الذي يحتاج أن يقيم دولته ويؤسسها، أما دولة قريش فمقامة منذ مئات السنين، بينما دولة المسلمين الناشئة عمرها ست سنين فقط، وتحتاج إلى كثير وكثير من الإعداد والتأسيس، فهل ستكون الدعوة في الجزيرة العربية أسهل في جو الحروب والدماء والعداوات المتكررة أم ستكون أسهل في حالة الأمان؟ لا شك أنها في حالة الأمان أسهل، وهذا ما يريده المسلمون، فإنهم سيتحركون في كل مكان بسهولة آمنين من الحرب مع القبائل المختلفة أيضاً، وحركة المسلمين لدعوة القبائل البعيدة عن المدينة المنورة والقبائل القريبة من مكة المكرمة ستكون أسهل وأيسر، بخلاف ما إذا كانت الحرب معلنة بين المسلمين وبين قريش.

الدعوة والحركة ستكون أسهل وأقرب إذا كانت الحرب موضوعة لأن المسلمين سيتحركون ويدعون الناس إلى الإسلام، وتزداد قوتهم، والناس محتاجة إلى تعريفها بالإسلام، وبمجرد معرفة الإسلام معرفة صحيحة فإن الفطرة السليمة ستقبل الإسلام بلا تردد، وكانت القبائل خائفة من سماع شيء عن الإسلام؛ لأن كلمة الإسلام تعني حرب قريش، وقريش أعز قبيلة في العرب، فإن أمنت الناس حرب قريش سيدخل في الإسلام رجال ونساء وأطفال كثيرون، وهذا ما رأيناه فعلاً بعد صلح الحديبية بعد ذلك، كما سنتكلم عنه إن شاء الله.

هذا البند بوضوح في صالح المسلمين.

توجد هنا ملاحظة مهمة جداً، وهي أن المسلمين عندما عقدوا هدنة مع المشركين في ذلك الوقت لم يأخذوا كل حقوقهم، ولم ترد إليهم كامل حقوقهم، لا زالت هناك ديار منهوبة، لا زالت هناك أموال مسلوبة، لا زالت هناك أرض محتلة من القرشيين، ومع ذلك قبل المسلمون بالهدنة قبل أن ترد إليهم حقوقهم المسلوبة، لكن المسلمون في هذه المعاهدة لم يقروا قريشاً على أي حق مسلوب لهم عندهم، لم يقولوا: ديارنا وأموالنا وأرضنا كلها حق لكم، أبداً لم يقولوا هذا الكلام، وإنما وضعوا الحرب عشرة سنوات، وبعد هذه العشر السنوات سنطالب بحقوقنا وسنسعى لاسترداد كل ما سلب مني. إذا جلس المسلمون في صلح مع أعدائهم، وقبلوا بالهدنة دون إقرار العدو على حقوق مسلوبة هذا أمر شرعي، لكن إذا أقر المسلمون لعدوهم بحق المسلمين المسلوب هذا غير جائز وغير شرعي، ولا يمكن أبداً أن تقيس هذه المعاهدة التي قام بها ﷺ بمعاهدات أخرى أقر فيها المسلمون لعدوهم بحقوق المسلمين، هذا شيء وما فعله المصطفى ﷺ شيء آخر، وهناك فارق كبير بين معاهدة صلح الحديبية وبين المعاهدات التي قام بها المسلمون في عصرنا هذا مع اليهود، التي أقروا فيها لليهود بممتلكات إسلامية خالصة، فحذار أن يشبه أحد هذه المعاهدات الحديثة بمعاهدة صلح الحديبية، شتان بين المعاهدتين.

البند الثاني من بنود صلح الحديبية في صالح المسلمين تماماً.

> **البند الثالث:** من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزء من ذلك الفريق.

فأي عدوان تتعرض له أي قبيلة من القبائل المحالفة يعتبر عدواناً على ذلك الفريق، ويعتبر في نفس الوقت مخالفة واضحة للاتفاقية، فهذا البند في صالح من؟ قريش أعظم قبائل العرب،

والذي يحتاج ويريد أن يدخل في عهدها لا ينتظر معاهدة بهذه الصورة، إن أردت فادخل في عهد قريش من الآن، أين المشكلة؟ سيدخل في عهدها مباشرة لقوتها وتاريخها، لكن القبائل التي تريد أن تدخل في عقد وحلف محمد ﷺ ستتردد ألف مرة؛ خوفاً من بطش قريش وحلفائها، لكن بعد صلح الحديبية من كان في قلبه تردد سيأمن من وضع الحرب، وسينضم إلى فريق المسلمين وهو مطمئن.

هذا البند لم تستفد منه قريش مطلقاً؛ لأن قريشاً أي أحد يريد أن يحالفها سيحالفها، بينما استفاد المسلمون من هذا البند استفادة قصوى، فالقبائل ستنضم لهم بعد أن أمنت قريشاً، من أجل هذا كان هذا البند في صالح المسلمين، ودليل هذا أن قبيلة خزاعة لم تنضم في حلف المسلمين إلا بعد صلح الحديبية، مع أن قبيلة خزاعة من أكثر القبائل قرباً إلى رسول ﷺ حتى إن كُتّاب السير يقولون: (كانت خزاعة عيبة نصح لرسول ﷺ) أي: موضع سر وثقة الرسول ﷺ، وكما ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ كان يرسل عيوناً من خزاعة، ويتحالف مع خزاعة، وكان بينها وبين بني هاشم حلف قديم جداً ومع بني عبد المطلب، ولها تاريخ طويل في هذه القضية. قبيلة خزاعة التي تحب الرسول ﷺ لم تدخل في حلفه إلا بعد صلح الحديبية، فما بالك ببقية القبائل؟ هذا البند فعلاً كان في صالح المسلمين، وهذا البند بالذات هو الذي سيكون سبباً بعد هذا في فتح مكة المكرمة، فأي خير جاء من ورائه.

البند الرابع، وهذا البند يحتاج منا وقفة مهمة؛

> البند الرابع: من جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ هارباً منه لم يرد إليه، ومن أتى محمداً ﷺ من غير إذن وليه هارباً منه رده عليهم.

أي: من يأتي المسلمين من أهل قريش بعد صلح الحديبية مسلماً يرجعونه إلى أقاربه، إن كان أقاربه يرفضون إسلامه، ومعلوم أن كل المشركين سيرفضون إسلام أهل مكة. هذا البند يقضي أن كل مسلم جديد بعد صلح الحديبية سيرجع مرة أخرى إلى مكة المكرمة، وعلى الناحية الأخرى إذا ارتد أحد المسلمين وذهب إلى مكة لا تعيده مكة إلى المسلمين.

هذا البند في ظاهره في صالح القرشيين، لكن تعالوا نحلل هذا البند، هذا البند يتكون من جزأين: الجزء الأول: من يهرب من الصف المسلم إلى الصف الكافر، هل يريده المسلمون؟ لو أن شخصاً من المسلمين ارتد وقرر أن يكون في صف قريش هل نتمسك به؟ هل نجبره على البقاء في المدينة المنورة وهو كاره للإسلام والمسلمين؟ واضح جداً أننا لسنا بحاجة إليه، بل لو كان هذا البند غير مكتوب في المعاهدة كل من يريد أن يرتد من المسلمين سيبطن هذه الردة ولن يظهرها؛ لأنه خائف من أن ترجعه قريش إلى المسلمين؛ لذلك هذا البند يسمح لكل من في قلبه مرض أن يظهر هذا المرض، ويتخلص منه المسلمون، وقد ذكرنا الآية قبل هذا أكثر من مرة، قال الله عز وجل في كتابه: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:47] فأنا لماذا أدع المنافق داخل المدينة المنورة يدل على عوراتي، وينقل أخباري إلى المشركين، ففي بقاء أهل النفاق خطورة شديدة على المسلمين، والمسلمون ليسوا في حاجة إلى من يبقي معهم بجسده وهو ليس معهم بقلبه، من أجل هذا فالتخلص منه أفضل. هذا الجزء من البند الرابع في صالح المسلمين.

الجزء الثاني هو الذي فيه سلبية واضحة: أي واحد من أهل مكة بعد صلح الحديبية جاء إلى المسلمين مسلماً، سواء كان إسلامه قبل صلح الحديبية أو بعده، فإن على المسلمين أن يردوه إلى مكة المكرمة، يردونه إلى أهله من الكافرين، ومعلوم إذا رد مسلم إلى الكفار فإنه قد يفتن في دينه، فقد يعذبه المشركون حتى يكفر بالله عز وجل، بالإضافة إلى أن المسلمين سيخسرون

قوته، كان المفروض أن يضيف قوته إلى قوة المسلمين، فالمسلمون في هذه الحال لن يستفيدوا من قوته ومن طاقته.

نستطيع أن نقول: هذه الفائدة الوحيدة التي حصلت قريش عليها في هذه المعاهدة الطويلة، فهذا البند يعتبر في صالح قريش، ولا بد أن يكون في صالحها شيء، وإلا لما تمت المعاهدة، ومع ذلك هذه الجزئية من البند لا تخلو من فائدة للمسلمين، لكن كيف؟

نقول: المسلم الذي سيعود إلى مكة قد يصبح مصدراً للاضطراب في داخل دولة مكة، قد يدعو إلى الإسلام في داخل مكة، قد يؤثر على عقليات المشركين في داخل مكة، قد يُجّمع نفسه مع غيره ويصيب المشركين بأذى في داخل مكة أو في خارجها، بل قد يخفي إسلامه ويدل على عورات المشركين، ويحدث فتناً في داخل المشركين، فهو لا يقبل دينهم ولا يقبل عبادتهم، فيكون خطراً حقيقياً على المشركين، وهذا عين ما رأيناه بعد ذلك. حتى هذه الجزئية من هذا البند التي هي في صالح المشركين فيها خسارة للمشركين أيضاً.

هذه هي بنود صلح الحديبية الأربعة، تعالوا نراجع هذه البنود الأربعة سنجد أنها في الغالب في صالح المسلمين على حساب قريش، وفيها فوائد جمة ومزايا عميقة جداً، سبعة أثمان المعاهدة في صالح المسلمين، والجزئية الوحيدة التي تمثل ثمن المعاهدة التي في صالح المشركين في صالح المسلمين أيضاً، ولكن بخسارة، فأي فائدة لا تخلو من خسارة، هذا هو صلح الحديبية، وهذه هي قيمة هذا الصلح الكبير، وهذا هو الصلح الذي سيكون له نتائج غيرت ليس فقط وجه الجزيرة العربية، ولكن وجه العالم.

كتابة صيغة صلح الحديبية وتوثيقها

بعد أن اتفق الرسول ﷺ على بنود الصلح مع قريش لا بد أن توثق وتسجل في صحيفة تكون بين الدولتين يوقع عليها الطرفان، ويعترف بها في الجزيرة العربية بكاملها، وبدأ الرسول ﷺ الجلوس مع سهيل بن عمرو لكتابة الصحيفة، لكن الرسول ﷺ أمّي لا يكتب ولا يقرأ، فالذي كان يكتب المعاهدة هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، والذي يملي عليه الكلمات هو رسول ﷺ، وهذه إشارة قوية جداً إلى أن اليد العليا في المعاهدة للمسلمين، فهم الذين يملون المعاهدة ويكتبونها، فالرسول ﷺ يملي وعلي بن أبي طالب يكتب، وسهيل بن عمرو مجرد مستمع.

فقال ﷺ: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)، بداية كل عمل للمسلمين: بسم الله الرحمن الرحيم، فوقف سهيل واعترض، وكل اعتراضات سهيل بن عمرو شكلية، لم يعترض على كل البنود السابقة مع كل الخسائر التي خسرتها قريش لضعف قريش، وإنما هو الآن يعترض اعتراضات شكلية، ونريد أن نشاهد مرونة الرسول ﷺ.

قال سهيل: (ما الرحمن؟) أي: لسنا موافقين على هذه الكلمة، (ما الرحمن؟ فو الله ما ندري ما هو، اكتب: باسمك اللهم، فالرسول ﷺ قال لسيدنا علي: (اكتب: باسمك اللهم)، باسمك اللهم هذه ليست فيها معارضة لأمر شرعي، وإذا لم يكتب الرحمن الرحيم ليس معنى ذلك أنه غير معترف بأن الله عز وجل هو الرحمن الرحيم، لا، وإنما لم يكتب ذلك في المعاهدة، فهذه نقطة شكلية مررها الرسول ﷺ دون وقوف، (فمحا علي بن أبي طالب البسملة وكتب: باسمك اللهم.

ثم قال الرسول ﷺ: (هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله)، ولم يكمل الكلمة بعد حتى وقف سهيل مرة أخرى، لكن هذه الوقفة مهمة جداً من سهيل قال: (لـو نعلـم أنـك رسـول الله مـا صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبـد الله)، هـم لم يعترفـوا بعـد بنبـوة المصطفى ﷺ، فكيف تكتب في الصحيفة ويوقع عليها سهيل، فالرسول ﷺ قال: (إني رسـول الله وإن كذبتموني)، ثم أمر علياً أن يمسح رسول الله ﷺ ويكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فسيدنا علي قال: لا أستطيع أن أمسح كلمة رسول الله، فالرسـول ﷺ قـال لـه: (أرني مكانها)، فأشار له علي رضي الله عنه وأرضاه على مكـان الكلمـة، فمحاهـا ﷺ بنفسـه)، هـذا موقف في منتهى العمق، فـ سهيل بن عمرو يريد أن يأخذ الرسول ﷺ في قضايا جانبيـة بعيـدة عن الصلح، فهو يسحبه في تفريعات بعيدة عن الموضوع الأساس الـذي نـتكلم فيـه، وكانـت رؤية الرسول ﷺ واضحة جداً، فهو يريد أن تـتم المعاهـدة؛ لأن هـذه البنـود كلهـا في صـالح المسلمين، ويرى أن فيها نصراً للمسلمين، لم يكونوا يحلمون قبل صـلح الحديبيـة، فالمسـلمون يقولون: كان كل طموحنا أننا نؤدي العمرة ونرجع مرة أخرى إلى المدينة المنورة، والآن عنـدنا كل المكاسب، فلا نعطل الصلح من أجل كلمة كذا أو كذا، فالرسول ﷺ يريد للصلح أن يتم، وهذه الكلمات لن تؤثر على الصلح. النبي ﷺ يمحو كلمة: محمد رسـول الله، ويكتـب: محمـد بن عبد الله، وهذا الكلام ليس فيه خطأ هو فعلاً محمد بـن عبـد الله ﷺ، فلـماذا لا نكتـب هـذا الأمر وتمر المعاهدة بسلام، ويخرج المسلمون بكل هذه الفوائد التي فيها؟! من المرونة أن أتنازل عن أشياء لا تقدم ولا تؤخر، وليس فيها مخالفة شرعية، وهذا واضح مـن إقـرار الرسـول ﷺ لمحو هذه الكلمات، فهو ﷺ لا يقر باطلاً أبداً. نحن نحتـاج إلى أن نفهـم هـذا الكـلام جيـداً، نحتاج إلى أن نفهم متى نتشدد ومتى نتساهل، متى نقول: لا يمكـن أبـداً أن نتنـازل عـن هـذا الأمر، ومتى نقول: يمكن نتنازل عن هذا الأمر أو نقبل بهذا الأمر.

شروط الصلح في الإسلام

السيرة النبوية كلها كنوز، وكلها واقع، نحن نقرأ هذا الكلام الذي وقع قبل 1400 سنة، لكن هذا الكلام له تطبيق في كل يوم من حياتنا وتعالوا ننظر إلى صلح الحديبية وكيف أنه بين لنا وعرفنا شروط الصلح في الإسلام:

أولاً: هذا الصلح ليس فيه إقرار للمشركين على باطل، وليس فيه تنازل عن شيء من الدين، وليس فيها إعطاء أرض لقريش ليست أرضهم، أو الاعتراف لهم بها، هذه الأمور لم تكتب في الصلح، وهذا الصلح لا يمنع المسلمين من التسلح، ولا يمنع المسلمين من عقد الأحلاف، ولا يمنع المسلمين من إعداد العدة، ولا يأمر المسلمين بتغيير المناهج أو تبديل الثوابت. هذا والصلح في الإسلام، صلح ليس فيه تنازل عن شيء من الشرع.

ثانياً: هذا العهد وهذا الصلح بين الرسول ﷺ وبين قريش لم يقر الصداقة بينهما، وإنما فقط أقر وضع الحرب لمدة عشر سنوات مع بقاء الحالة كما هي عليها، حالة العداوة بين المسلمين وبين المشركين باقية، لم يقر الصداقة بين المسلمين وبين المشركين.

ثالثاً: هذا العقد إلى أجل، عشر سنوات، وبعد العشر سنوات يمكن أن نقعد ونتكلم، إذا أردنا أن نمد العهد بعد عشر سنوات نفعل، وإن رأينا أن هذه المدة تكفي لم نفعل، لكن لا يوجد شيء اسمه سلام دائم، كما في عصرنا مع عدم عودة الحقوق سلام دائم لا ينفع، السلام مقرون بعودة الحقوق.

رابعاً: هذا العقد واضح البنود ليس فيه بند مبهم، بحيث يفهم على أكثر من محمل، لا، بل واضح جداً؛ من أجل أن يضمن المسلمون حقهم تماماً دون خداع من الطرف الآخر.

خامساً: هذا العقد عُقد وللمسلمين قوة تستطيع أن تردع العدو إذا خالف المعاهـدة، أمـا إن لم تكن لك هذه القوة فلا معنى للمعاهدة، فمثلاً: لو أننا وضعنا بنـوداً وحصـلت منـا تنـازلات ومنهم تنازلات، وجاء بعد سنة أو سنتين فخالفوا هذه المعاهدة، مـاذا سـتعمل هـل سـتذهب لتشتكي وتشجب وتندب وتدعو هذا وذاك ليدافع عنك، أم عندك القوة الكافية لـردع العـدو ومعاقبة العدو إذا خالف المعاهدة؟! فالرسول ﷺ كانت عنده هذه القوة، وسنرى بعد سـنتين كيف أنه ﷺ ردع قريشاً وحلفاءهم بني بكر عندما خالفوا هذه المعاهدة مع المسلمين، لكن لـو كان المسلمون ضعافاً وحصلت مخالفة ولم يستطيعوا أن يردعوا المخالف فماذا سيكون الموقف؟ سيكثر الاستهزاء والاستخفاف بهم، وهذه شيء طبيعي جداً، وحتى لو دخل طـرف ثالـث في المعاهدة ليضمن الطرفين، فهل الطرف الثالث سيكون على الحيـاد وقـوي بحيـث يسـتطيع أن ينصر الطرف الأول على الطرف الثاني، أو الطرف الثاني على الطرف الأول إذا خالف أحدهما، أم هو مع طرف من الطرفين سواء كان ظالماً أو مظلوماً؟! إذا لم يملك المسلمون القـوة الكافيـة للردع عند المخالفة فلا معنى للمعاهدة.

إن معاهدة صلح الحديبية بالمقارنة بمعاهدات المسلمين مع اليهود في زماننا هذا، وأشـهر هـذه المعاهدات معاهدة (أوسلو) ومعاهدة (خارطة الطريق) وغيرهما من المعاهدات بـين المسـلمين واليهود، وفي هذه المعاهدات أُقِرَ اليهود على باطل، وهو امـتلاكهم لأرض فلسـطين، أو لجـزء من أرض فلسطين، والمسلمون جميعاً كانوا مقتنعين تماماً الاقتناع أن فلسـطين أرض إسـلامية، أو أرض عربية كما كانوا يقولون، لكن بعد هذه المعاهدات أقر بعـض المسـلمين أن جـزءاً مـن أرض فلسطين لم يعد مملوكاً للمسلمين. في هذه المعاهدات قلب العداء بين المسـلمين واليهـود إلى صداقة، ويتبع ذلك رفع عداوة اليهود من مناهج التعليم والإعـلام؛ مـن أجـل أن يصـعد جيل من المسلمين لا يعرف عدوه من صديقه، وهذا شيء خطـير جـداً. في هـذه المعاهـدات لم

يحدد المسلمون فترة معينة للمعاهدة ثابتة أو مفتوحة، وإنما السلام الدائم مهما حدث، وهذا شيء خطير. في هذه المعاهدات لم يعترف اليهود بالأحلاف التي بين المعاهد وبين الدول الأخرى، في كامب ديفيد لم يعترف اليهود بمعاهدات مصر مع الدول الأخرى، فلو دخلت إسرائيل مع دولة أخرى من دول العالم الإسلامي في حرب ليس لمصر أن تعترض؛ لأن بنود المعاهدة تقر بأنه ليس هناك حرب بين إسرائيل وبين مصر، فماذا حصل بعد هذا؟ الذي حصل بعد هذا أن إسرائيل غزت لبنان بعد كامب ديفيد بسنوات قليلة جداً، ففي عام 1982 م غزت إسرائيل لبنان ولم تستطع مصر أن تدافع عن لبنان بجيشها، مع أن هناك معاهدة دفاع مشترك بين مصر ولبنان، كما يقر بذلك ميثاق جامعة الدول العربية، لكن ما دام هناك معاهدة مع إسرائيل فإن مصر لا تدافع عن دولة أخرى إذا حاربتها إسرائيل، وكان كل دور مصر أن تخرج ياسر عرفات من لبنان مع وجود الجيش اليهودي في داخل لبنان، وهذا شيء خطير جداً.

هذا العقد بين إسرائيل ومصر عُقد وليس للمسلمين القوة الكافية للردع لو حصلت مخالفة؛ لأن سيناء التي هي محل النزاع أصلاً لم يترك فيها جيش مصري، أقصى مسافة يمكن أن يكون فيها الجيش المصري على بعد 5 كيلو متر من قناة السويس، بينما يوجد جيش اليهود على بعد ثلاثة كيلو مترات من رفح، يعني: بقيت منطقة سينا بكاملها خالية من السلاح ومن الجيش، مع أنها صارت مصرية، فهذا بالتالي يجعل الجنود المصريين أو المسلمين عند الإسماعيلية وبور سعيد والسويس، بينما جنود اليهود عند رفح في أي لحظة من لحظات التعدي جنود اليهود سيكونون داخل سينا، ورأينا عندما حصلت مخالفة في داخل رفح لم يستطع المصريون المقاومة المسلحة لهذا الأمر؛ لأن الجيش المصري في الإسماعيلية وبور سعيد والسويس ليس في رفح، وكان من المفروض أن يكون جيشنا على بعد 3 كيلو متر من رفح، كما أن جيشهم على بعد 3 كيلو متر من رفح، أليست رفح هي الحد الفاصل؟ المسافة العدالة الفاصلة أن يكون بيننا وبين

رفح 50 كيلو، ويكون بينهم وبين رفح 50 كيلو، بيننا وبين رفح 1000 كيلو، وبينهم وبين رفح 1000 كيلو، هذا هو العدل، لكن ألا يكون عندك أي نوع من الحماية لأرض لك، وجيوش عدوك على بعد مسافة ثلاثة كيلو مترات فقط من الحدود، هذا أمر غير مقبول.

ثم من الذي يراقب هذا العهد؟ أمريكا الموالية لإسرائيل، والأمم المتحدة المؤسسة لإسرائيل، أليس هذا هو الحاصل؟! وإذا حدث خلاف بين الطرفين من الذي سيحكم، ستحكم أمريكا أو الأمم المتحدة، وكلنا نرى ذلك.

ثم الأخطر من كل ما سبق في هذه المعاهدة أنه تم الاعتراف بدولة إسرائيل كدولة مستقلة في فلسطين، فكونها تعقد الأحلاف والمعاهدات وتعترف بها دولة من أكبر دول المنطقة كمصر هذا من أفضل نجاحات اليهود في الخمسين السنة الأخيرة، وقبل ذلك كان المسلمون جميعاً يطلقون على اليهود: الكيان الصهيوني، أو يطلقون عليهم: المحتلين اليهود، لكن بعد معاهدة كامب ديفيد صارت دولة إسرائيل ولها سفارات في معظم العالم الإسلامي.

أما نتائج صلح الحديبية فمختلفة تماماً عن نتائج هذه المعاهدات المعاصرة.

بعد الاعتراف بإسرائيل تم فصل مصر عن العالم العربي، أليس كذلك؟ ونتج عن هذا الاعتراف خلاف دائم بين مصر والعالم العربي، وحصل شقاق كبير جداً جداً في الصف المسلم، لكن بعد صلح الحديبية حصل العكس تماماً، دخل مسلمو اليمن في الدولة الإسلامية، وعاد مسلمو الحبشة إلى الدولة الإسلامية، وتوافدت القبائل المسلمة إلى الدولة الإسلامية، وحصلت وحدة بعد صلح الحديبية وليس فرقة.

أقول لكم كلمة موجعة جداً: صلح الحديبية فعلاً شبه كامب ديفيد لكن بطريقة عكسية، حقق اليهود الفوائد التي حققها المسلمون من صلح الحديبية، والمسلمون في زماننا الآن خسروا

الخسائر التي خسرتها قريش في صلح الحديبية، وراجعوا الصلحين وضعوهما مع بعض وقارنوا بينهما ستجدون أن هذا الكلام صحيح مائة بالمائة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

صلح الحديبية تم والحمد لله، وكتب بين الرسول ﷺ وبين سهيل بن عمرو ، لكن هل أعجب الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم هذا الصلح؟ هل وافقوا على هذا الصلح؟

في الواقع أن جل الصحابة كانوا يرفضون هذا الصلح، فهم لم يروا إلا سلبيات هذا الصلح فقط، لم يروا إلا الجزء الثاني من البند الرابع، الذي هو إعادة المسلمين إلى الكفار مرة أخرى، بينما الرسول ﷺ كان ينظر إلى الموضوع بنظرة شمولية، تتميز بوضوح الهدف وعمق التحليل.

الهدف من صلح الحديبية

ليس الهدف من صلح الحديبية استئصال قريش، وليس الهدف عمرة عابرة في حياة المسلمين، وليس الهدف إذلال قريش بالدخول إلى مكة رغماً عن أنفها، وليس الهدف إيمان مكة وحدها.

ما هو الهدف؟ لقد كان هدف رسول الله ﷺ أعمق من ذلك بكثير، الهدف هو نشر دين الله عز وجل في الأرض قاطبة، حتى لو تأخر إسلام مكة عدة سنوات، مع أن مكة أحب بلاد الله إلى قلب الرسول ﷺ، لكنه كان ينظر نظرة شمولية، وينظر في ذات الوقت نظرة واقعية للأحداث، فبعض الصحابة في ذلك الوقت لم ينظروا هذه النظرة، كان كل همهم أن يدخلوا تلك السنة إلى مكة المكرمة، كان كل همهم أن يعودوا بالمسلمين الموجودين بمكة إلى داخل المدينة المنورة، لكن الرسول ﷺ نظرته أعمق وأوسع من هذا بكثير، كان يرى كل الفوائد التي تكلمنا عليها وأكثر من هذا في داخل صلح الحديبية؛ من أجل هذا قَبِل ﷺ بالصلح.

هنا سؤال مهم جداً ومحتاج إلى وقفه مهمة وهو: لماذا لم يستجب الرسول ﷺ لرأي الصحابة مع أن الأغلبية منهم لا يريدون أن يتم الصلح بهذه الصورة؟ لماذا الرسول ﷺ خالف هؤلاء الصحابة؟ أين الشورى في ذلك الموقف؟ هذا شيء في منتهى الأهمية، والشورى لا تكون إلا في الأمور التي ليس فيها وحي، التي ليس فيها أمر مباشر من رب العالمين سبحانه وتعالى، أو من رسوله الكريم ﷺ، والرسول قبل ذلك أشار في أكثر من مرة أن هذا الأمر وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، فالرؤيا التي رآها في المدينة المنورة كانت وحياً من الله عز وجل، والناقة التي حبست من دخول مكة المكرمة وذكر ﷺ أنها مأمورة، وأنه حبسها حابس الفيل، فهذه إشارة واضحة من رب العالمين سبحانه وتعالى أنه لا يريد له أن يدخل مكة المكرمة، لذلك أخبر أصحابه أنه سيقبل بأي خطة تعظم فيها حرمات الله عز وجل، وفيها منع للقتال، ثم بعد ذلك ذكر ذلك عندما جادله ﷺ كلمة توضح أن كل المعاهدة كانت بوحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، ذكر ذلك عندما جادله بعض الصحابة كما سيتبين إن شاء الله في الدرس القادم، قال لهم موضحاً لهم أهمية هذه المعاهدة وأنها أمر من رب العالمين سبحانه وتعالى، قال: (إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبداً). اتضح أن هناك وحي في هذه القضية، وهناك أمراً مباشراً من رب العالمين سبحانه وتعالى أن يقبل رسول الله ﷺ هذه البنود، فهنا لا يوجد شورى.

هناك فارق ضخم جداً وهائل بين الشورى وبين الديمقراطية، فالشورى في الإسلام تكون في الأمور التي ليس فيها أمر مباشر من رب العالمين سبحانه وتعالى، أو من رسوله الكريم ﷺ، إذا كان هناك أمر من الله فلا خيرة للمؤمنين، لكن في الديمقراطية أي شيء موضوع للتشاور، أي شيء موضوع لاجتماع الشعب، أي شيء موضوع للأغلبية، حتى وإن أحلت الأغلبية حراماً أو حرمت حلالاً، هذا في عرف الديمقراطية مقبول، أما في عرف الإسلام فغير مقبول،

هذا فارق ضخم جداً، نعم، هناك نقط تماس بين الشورى والديمقراطية يـرجح رأي الشـعب ورأي الأغلبية في القضايا التي ليس فيها أمر مباشر من رب العـالمين سـبحانه وتعـالى، أو مـن الرسول ﷺ. الفرق الضخم الهائل أن مرجعيتنا في الشورى إلى الإسلام وإلى الكتاب والسـنة، وهذا من أعظم الفوارق بين المنهجين: الشورى، والديمقراطية.

هذا هو صلح الحديبية وهذه هي البيعة التي قال الله عز وجـل في حقهـا: {لَقَـدْ رَضِيَ اللَّهُ عَـنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح:18]، وهذه البنود التي عقـدها الرسـول ﷺ مـع سهيل بن عمرو، وكان من أثرها أن عم الإسلام وانتشر ليس في الجزيرة العربيـة فقـط، بـل في عموم بلاد العالم، كما سنرى هذه الأمور بالتفصيل إن شاء الله

32

مـا بعـد الحـديبية

وقفنا عند كتابة هذا الصلح، وأن الرسول ﷺ أظهر مرونة واضحة في كتابه هذا الصـلح حتـى يتمه، وبعد أن كتب الصلح حدث أمر زاد من هم الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وعقّـد المشكلة أكثر وأكثر وهو أن أحد المسلمين الذين أسلموا في مكة ولم يستطع أن يهاجر إلى المدينـة المنورة مع المسلمين جاء إلى المسلمين بعد كتابه الصالح، فهو عندما علم أن المسلمين قد جاءوا إلى الحديبية جاء إليهم وهو يرسف في أغلاله، كان أبوه قد قيده في داخل البيـت مـن أجـل ألا يهاجر إلى المسلمين، وعندما علم أن المسلمين على أبواب مكة جـاء إلـيهم يرسـف في أغلالـه، فمن هو هذا الرجل؟ هذا الرجل هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، هو ابـن سـفير قـريش في معاهدتها مع رسول الله ﷺ، فأبوه هو الذي كتب المعاهدة بينه وبين المصطفى ﷺ، وجـاء أبـو جندل بن سهيل لينضم إلى صف المسلمين. فُجِع سهيل حين رأى ولده أبا جندل مع أنـه كـان قد قيده قبل ذلك في البيت، فأصبحت الأزمة أزمة كبيرة جداً، فهذا ابن سهيل يريـد أن ينضـم إلى المسلمين، هنا انتفض سهيل بن عمرو وقال لرسول الله ﷺ: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده، فالمعاهدة تقول: من جاء رسول الله ﷺ من مكـة مسـلماً يـرده ﷺ إلى أوليائـه، وهـذا سهيل بن عمرو ولي أمر أبي جندل يطلـب أن يـرده الرسـول ﷺ، فالرسـول ﷺ حـاول قـدر المستطاع أن يأخذ أبا جندل، فقال: (إنا لم نقض الكتاب بعد) أي: نحن ما زلنا نكتب الكتـاب،

فقال سهيل: (إذاً -والله- لا أقاضيك على شيء أبداً) أي: إما أن آخذ أبا جندل وإما ألا يكون هناك صلح، فأصبح الموقف صعباً، والرسول ﷺ كان يشعر بقيمة هذه المعاهدة ويريد لها أن تتم قدر المستطاع، فقال ﷺ: (إذاً فأجزه لي) أي: أعطه لي كرماً منك، قال: (ما أنا بمجيزه لك) أي: لن أعطيه لك، فقال ﷺ يحاول أن يسترضي سهيل بن عمرو قال: (بلى تفعل)، قال: (ما أنا بفاعل) إنه موقف صعب، وقد ذكرنا في الدرس الذي سبق أن ثلاثة من أولاده أسلموا قبل ذلك وانضموا إلى جيش المسلمين وإلى دولة المدينة المنورة، وهؤلاء الثلاثة هاجروا هجرة الحبشة ثم هاجروا بعد ذلك هجرة المدينة المنورة، فهذا هو الذي بقي له أبو جندل، فهو متمسك به إلى النهاية، قال: (ما أنا بمجيزه لك، ما أنا بفاعل).

ثم لم يكتف بذلك سهيل بن عمرو، بل قام وأخذ يضرب أبا جندل أمام المسلمين، والمسلمون يتأثرون ويبكون على حال أبي جندل، لقد كان موقفاً مؤثراً جداً، وأبو جندل رضي الله عنه وأرضاه لم يكتف بهذا المشهد المؤثر جداً في المسلمين، بل ذهب إلى المسلمين وقال لهم: (يا معشر المسلمين؛ أأُرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!) الحقيقة أن هذا موقف صعب شديد الصعوبة، فماذا يفعل الرسول ﷺ في هذا الموقف، وهو يريد لهذه المعاهدة أن تتم ويرى ما فيها من آثار، وموقف أبي جندل لا شك أنه محرج، لكن ماذا يفعل؟

الموازنة هنا وتحكيم العقل تقول: إنه يرد أبا جندل مع كل التداعيات التي قد تحدث لـ أبي جندل بعد ذلك؛ لأن ثمن إتمام صلح الحديبية هو أن يرد أبا جندل إلى المشركين مرة ثانية؛ لأننا قد كتبنا العهد، والمسلمون عند عهودهم، والمسلمون يتصفون بوفاء لا غدر، فما دام أن الرسول ﷺ قد كتب المعاهدة مع سهيل بن عمرو وأقرت فلا معنى هنا لنقض المعاهدة، وخاصة أنها في صالح المسلمين كما ذكرنا، لكن الرسول ﷺ لم يترك أبا جندل هكذا إنما قال له كلمات، وفي داخل هذه الكلمات إشارات جميلة جداً منه ﷺ، قال له ﷺ: (يا أبا جندل اصبر

واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، فلا نغدر بهم).

في كلام الرسول ﷺ أكثر من إشارة:

أولاً: الرسول ﷺ حكم العقل وقال: لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن ننقض المصالحة الآن، وذكر قاعدة هامة جداً من قواعد المسلمين في المعاهدات وهي الوفاء لا الغدر، حتى لو كانت هناك تداعيات سلبية بعد ذلك، فما دمت قد عاهدت فلا غدر، والمسلمون عند عهودهم.

ثانياً: أنه ﷺ أعطى طريقاً للنجاة لأبي جندل ، قال له: (اصبر واحتسب) ثم بشره بأن الله عز وجل سوف يخرجه من هذه الأزمة فقال: (فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً) فهو ﷺ ذكر أن مع أبي جندل في داخل مكة المكرمة بعض المستضعفين، وفي هذا إشارة إلى أنك إذا وجدت جهدك مع أولئك المستضعفين فقد يكون ذلك هو السبب في خروجكم من الأزمة، وهو السبب في الفرج الذي سيجعله الله عز وجل لك ولمن معك من المستضعفين.

هؤلاء المستضعفون عندهم أكثر من طريق، فيمكن أن يهاجروا كما هاجر المسلمون قبل هذا إلى الحبشة، يمكن أن يهاجروا إلى أي مكان آخر غير المدينة المنورة، حتى لا يوقعوا المسلمين في حرج بعد هذه المعاهدة، ويمكن أن يكتموا إسلامهم، ويمكن أن يتظاهروا بالكفر، ويمكن أن يعملوا أي شيء إلى أن يجعل الله عز وجل لهم فرجاً ومخرجاً، وهذا وعد من رسول الله ﷺ، وإذا كان أبو جندل صادق الإيمان فلا شك أنه سيؤمن بهذا الوعد، وكذلك المؤمنون معه من أهل مكة المكرمة، وقد يقول شخص: قدِّر أن أبا جندل فتن في دينه؛ نتيجة الإيذاء والتعذيب

الذي وقع عليه من سهيل بن عمرو أو من غيره من زعماء مكة؟! نقـول: إن الرسـول ﷺ يـرد على هذه الكلمات كما جاء في صحيح مسلم، قال: (إن من ذهـب منـا إلـيهم فأبعـده الله)، أي: الذي يترك الإسلام ويرتد ويعـود إلى المشـركين أبعـده الله، ولا نريـده: (ومـن جاءنـا مـنهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)، أي: من جاءنا منهم ورددناه بعد ذلك إلى مكة فـلا شـك أن الله عز وجل سوف يخرجه من هذه الأزمة، وليس من الممكن أبداً أن يسعى هو إلى الله عـز وجـل، ثم يوقعه الله عز وجل في فتنة.

هذا الأمر كان واضحاً جداً في ذهن الرسول ﷺ، وأنه وإن رد أبا جندل فهو في يوم من الأيـام سيأتي إلى المسلمين مرة ثانية، لكن الصحابة رضي الله عـنهم وأرضـاهم مـا كـانوا يـرون هـذه الأبعاد، كل ما يرونه أن أحد المؤمنين يحاول أن ينضم إلى جيش المسـلمين وإلى دولـة المسـلمين ولا يستطيع المسلمون مع قوتهم ومع دولتهم أن يأخذوه، ورأوا أن ذلك هو الدنيـة في الـدين، وأن هذا نقص كبير جداً في المعاهدة، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه وأرضـاه في هـذا الموقف حين رأى أبا جندل يضربه أبوه سهيل بن عمـرو والرسـول ﷺ لا يسـتطيع أن يأخـذه معه إلى جيشه؛ قام عمر بن الخطاب واقترب من أبي جندل وقرب إليه مقبض سيفه موحيـاً لـه أن يأخذ السيف ويضرب أباه، قال عمر بن الخطاب مخاطباً أبا جندل : (اصبر يا أبا جندل فـإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني منه قائم السيف). يقول عمر بعد ذلك تعليقـاً على هذا الأمر: (رجوت أن يأخذ السيف فيضرب بـه أبـاه فضـن الرجـل بأبيـه)، أي أن : أبـا جندل ما أخذ السيف وما قتل أباه، فهذا فعل العاطفة ولـيس فعـل العقـل، والحمـد لله أن أبـا جندل لم يأخذ السيف ويقتل به سهيل بن عمرو ، والرسول ﷺ ما كـان ليقـر ذلـك أبـداً؛ لأن هذا لا شك أنه سيؤدي إلى تأزم الموقف، وقـد تـنقض قـريش العهـد بكاملـه وتعـترض عـلى

المصالحة، ويكون في ذلك خسارة للمسلمين، ورد أبو جندل إلى المشركين، وأنفذ العهد كما أمر ﷺ.

بعد معاهدة صلح الحديبية دخلت قبيلة بني بكر في حلف قريش، ودخلت قبيلة خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، وهذا يعبر عن أهمية هذا الصلح وقيمته؛ لأن قبيلة خزاعة مع تاريخها الطويل مع بني هاشم إلا أنها لم تدخل في حلف الرسول ﷺ إلا بعد أن عقد صلح الحديبية.

موقف الصحابة رضوان الله عليهم من صلح الحديبية

بعد تمام صلح الحديبية رجع الرسول ﷺ إلى معسكره في الحديبية ليعد العدة للعودة إلى المدينة المنورة مرة ثانية، ثم بعد ذلك بعام يأتي إلى مكة المكرمة من جديد للعمرة، فالرسول ﷺ في كل هذه الرحلة وكل هذه المحاورات كان محرماً، فقد أحرم من ذي الحليفة كما ذكرنا قبل ذلك، وجاء ملبياً حتى وصل إلى الحديبية، فمنع هناك، فهو في هذا المكان عند الحديبية أُحصر ﷺ عن دخول مكة المكرمة، فانطبق عليه حكم المحصر عن العمرة، أي: أنه نوى عمرة ولم يستطع أن يصل إلى مكة المكرمة لأي سبب من الأسباب، لذلك قرر ﷺ أن يقوم بالنحر والحلق في هذا المكان؛ ليتحلل من إحرامه ﷺ، وقد ذكرنا أن هذا الهدي الذي كان معه ﷺ هو مستحب وليس فرضاً على المسلمين، لكن عند الإحصار لابد له أن ينحر هذا الهدي الذي وهبه لله عز وجل.

الرسول ﷺ أمر الصحابة جميعاً بالنحر، قال لهم: (قوموا فانحروا)، وهذا أمر واضح جداً، لكن رد الفعل كان غريباً جداً، يقول الراوي: (فوالله ما قام منهم أحد) والرسول ﷺ كرر الأمر مرة ثانية وقال: (قوموا فانحروا). فلم يقم أحد، فكرر الثالثة: (قوموا فانحروا)، فلم يقم منهم أحد، ومع ذلك كان الرسول ﷺ في هذا الموقف كان يقدر الحالة النفسية التي عليها

الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، فهم مع طاعتهم له التي وصفها عروة بن مسعود قبل هذه المعاهدة بساعات قليلة جداً، فقد وصف حالة الصحابة رضي الله عنه وأرضاهم في تفانيهم في طاعة الرسول ﷺ، ولكنهم في هذا الموقف لا يستطيعون أن يقوموا بالنحر والحلق، لأن معنى النحر والحلق أنهم تحللوا من العمرة، ومعنى تحللهم من العمرة أنهم راجعون إلى المدينة المنورة، وهم إلى هذه اللحظة ما زال لديهم أمل في أن يدخلوا مكة المكرمة ويعتمروا كما كانوا يرغبون، فهم غير قادرين على أن ينفذوا هذا الأمر بالذات، أمر النحر والحلق، وموقف أبي جندل زاد المأساة عند الصحابة، والقضية عندهم قضية خطيرة، والرسول ﷺ يشعر بما يشعر به الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وليس معنى هذا أن يعذر الصحابة رضي الله عنه وأرضاهم معذورون وليسوا مخطئين، بل هذا خطأ وسنتحدث عنه -إن شاء الله- بالتفصيل عند الحديث عن أخطاء المؤمنين، لكن الرسول ﷺ تعامل مع الموقف بمنتهى الحكمة، فقد دخل ﷺ إلى خيمته وهو حزين جداً ولم يعنف الصحابة رضي الله عنه وأرضاهم؛ لأنه يرى ما بهم من أزمة، فالصحابة إذا كانوا غير راضين بإقرار هذه المعاهدة فالبديل عن هذه المعاهدة هو الحرب، وهم كانوا مستعدين أن يحاربوا ويقاتلوا إلى الموت كما ذكرنا في الدرس السابق، فهم قد بايعوا على عدم الفرار، فلو لم يتم هذا الصلح فستكون النتيجة القتال، قد تذهب فيه أرواحهم جميعاً، فحزن الصحابة يدل على مدى تجردهم وحبهم للموت في سبيل الله عز وجل، والرسول ﷺ يدرك كل هذه المشاعر، فلذلك قدر موقف الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

دخل الرسول ﷺ إلى خيمته وكانت معه في هذه الرحلة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها وأرضاها فلما دخل عليها ورأت ما به من الحزن سألته، فذكر لها ما لاقى من الناس، فقالت: (يا رسول الله أتحب ذلك -أي: أن ينحروا ويحلقوا-؟ فقال: نعم، قالت: اخرج) انتبه إلى هذه النصيحة الجميلة جداً من أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، وانتبه إلى تشاور المصطفى ﷺ

مع زوجته في قضية من أخطر قضايا المسلمين، لم يذهب للتشاور مع أبي بكر أو مع عمر أو مع غيرهما، لكنه ذهب إلى زوجته وتحدث معها في قضية تهز كيان الدولة الإسلامية بكاملها، واستمع إلى رأيها، وكان رأيها حكيماً جداً، أخرج المسلمين من الأزمة، ماذا قالت أم سلمة رضي الله عنها وأرضاها؟ قالت لرسول الله ﷺ: (اخرج ثم لا تكلم أحداً حتى تنحر بُدُنَك، وتدعو حالقك فيحلقك)، فقام ﷺ فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك. نحر البدن ودعا الحالق فحلق له، فالرسول ﷺ فعل أمراً جميلاً جداً بنصيحة السيدة أم سلمة، فلما رأى الصحابة ذلك الأمر قاموا جميعاً لم يتخلف منهم أحد، قاموا وبدءوا في النحر، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، كاد بعضهم أن يصيب الآخر من شدة الحزن والغم الذي كان يشعر به، لكن في النهاية استجاب الجميع، ونحروا وحلقوا، ومما فعله الرسول ﷺ أن قدم جملاً يعرفه الجميع لينحره مع الناس، هذا الجمل هو جمل أبي جهل، كان الرسول ﷺ قد أخذه من غنائم بدر، وأتى به إلى هذا المكان في الحديبية لينحره، وبذلك حقق هدفين رئيسين:

أولاً: أغاظ المشركين؛ لأن هذا الجمل كان مشهوراً ومعروفاً عند المشركين، وكان معلماً بعلامة، فيه حلقة من فضة موضوعة في أنفه، فالجميع يعرفه.

ثانياً: أنه رفع معنويات المسلمين وذكرهم بيوم بدر، وذكرهم أن الله عز وجل أخرجهم من أزمة بدر من موقف كان بعض المؤمنين يكرهونه، كما قال الله عز وجل: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال:5]، والآن سوف يخرجهم الله عز وجل من هذا الموقف الذي يكرهه بعض الصحابة أو جل الصحابة إلى نصر وسيادة وتمكين؛ لأن الله عز وجل هو الذي أوحى لنبيه بهذا الصلح.

موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من صلح الحديبية

ظل الحزن مسيطراً على عامة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، فقد وصل الحزن ببعضهم إلى أمر لا نتخيله حقيقة، وصل إلى حوار عجيب دار بينهم وبين المصطفى ﷺ، وهذا الحوار دار بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين رسول الله ﷺ، وهذا الحوار يعبر عن مدى الأسى والحزن الذي كان في قلب عمر والصحابة رضي الله عنهم؛ من جراء هذا الصلح الذي عقده الرسول ﷺوهذا الحوار العجيب جاء في صحيحي البخاري ومسلم.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (فقلت: ألست نبي الله؟) فالرسول ﷺ بسعة صدر عجيبة، قال: (بلى)، قلت: (ألسنا على الحق وهم على الباطل؟) فقال ﷺ: (بلى)، قلت: (فلم نعطي الدنية في ديننا؟) هذا كلام غريب جداً؛ لأن الرسول ﷺ مستحيل أن يعطي الدنية أبداً في دينه، لكن هكذا صرح عمر بن الخطاب بهذه الكلمات التي كانت في قلوب كثير من الصحابة، ولكن لم يجرءوا على التصريح بها، فقال ﷺ كلمات واضحة جداً، قال: (إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري) وفي رواية: (ولن يضيعني أبداً) أي: هذا وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، وهو عز وجل أمرني ولن أعصيه في هذا الأمر، وهذا الأمر الذي تكرهونه سترون من ورائه خيراً إن شاء الله.

ومع كل هذه التوضيحات والتوجيهات من رسول الله ﷺ إلا أن عمر رضي الله عنه قال: (أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟) قلت لنا: سنأتي البيت الحرام ونطوف به. وأنا لا أعرف كيف قال سيدنا عمر بن الخطاب هذه الكلمات لرسول الله ﷺ؟! لكن هذا يعبر عن مدى المأساة التي كان يعيشها عمر رضي الله عنه وأرضاه والصحابة أجمعون، ومع ذلك وسع الرسول ﷺ صدره وصبر على كلمات عمر بن الخطاب، وقال له: (بلى) أي: أنا اخبرتك بهذا الأمر فعلاً، لكن انتبه إلى ما قال بعد، قال: (أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟) قال عمر: (لا)

أي: أنا أخبرتكم أننا سندخل مكة المكرمة معتمرين إن شاء الله، لكن ما ذكـرت لكـم أن هـذا يكون في هذا العام، فقال ﷺ: (فإنك آتيه ومتطوف به). قال هذا الكلام وهو في منتهى الثقـة؛ لأن هذا وعد رب العالمين سبحانه وتعـالى، وعمـر بـن الخطـاب في ظننـا بعـد هـذه الكلـمات الواضحة جداً سيترك الموضوع ويسلم الأمر لله عز وجل، وينطلق إلى المدينة المنورة، لكن عمر بن الخطاب ذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه فقال له: (يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟)، فما زال يتكلم في الموضوع وبهذه الصيغة. قال أبو بكر: (بـلى)، قلـت: (ألسـنا عـلى الحق وعدونا على الباطل؟) قال: (بلى)، قلت: (فلم نعطي الدنية في ديننا؟) فـ أبو بكر الرجـل الهادئ اللطيف لما سمع هذه الكلمات انتفض وقال: (يا عمر؛ إنه رسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه عز وجل، وهو ناصره) فكلمات الصديق رضي الله عنه وأرضاه دون أن يسـمع رسـول الله ﷺ توافقت مع نفس كلمات الرسول ﷺ، وهذا من أعظم مناقب الصديق كما يقول ابن حجـر العسقلاني رحمه الله في شرح صحيح البخاري، ثم إن الصديق يعطيه نصيحة هامة جداً وهي له ولعموم الأمة الإسلامية، قال: (فاستمسك بغرزه) أي: أي خطوة يخطوها ﷺ استمسك بهـا، تمسك بسنته، قال: (فاستمسك بغرزه حتى تموت، فو الله إنه لعلى الحق)

كل هذا الكلام وما زال عمر رضي الله عنه يعترض، فقال: (أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟)، رد عليه الصديق: (قال: بلى، ثم قال: أفأخبرك أنـه يأتيـه العـام؟) سـبحان الله! نفس الكلمات: (أفأخبرك أنه يأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومتطوف به).

هذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أعظم البشر بعد الأنبياء، وهذا لم يأت مـن فـراغ، فقـد كان لديه يقين مرتفع جداً، وإيمان كامل بالله عز وجل وبرسـوله الكـريم ﷺ، وظهـر ذلـك في مواطن كثيرة جداً من حياته، وهذه من أعظم مواطنه رضي الله عنه وأرضاه.

انتهى الرسول ﷺ من هذا الموقف ركب الطريق إلى المدينة المنورة، وفي طريقه إلى المدينة المنورة نزلت عليه سورة الفتح، يقول ﷺ: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:1]) وأول ما أنزلت عليه هذه السورة دعا عمر رضي الله عنه وأرضاه؛ لأنه كان متأثراً جداً من هذا الحدث، دعاه ﷺ وقرأ عليه -كما يقول عمر بن الخطاب- السورة كاملة من أول آية إلى آخر آية، وبعد أن انتهى قال عمر : (يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: نعم) هذا الصلح في حد ذاته فتح من الله عز وجل، وفي آخر الدرس إن شاء الله سنقول: لماذا سمي هذا الصلح العظيم بالفتح المبين، كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم.

مواقف بعد صلح الحديبية

-موقف النبي ﷺ من هجرة النساء من مكة بعد صلح الحديبية

لما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، بدأ يعيد ترتيب الأوراق حسب الوضع الجديد الذي تمخضت عنه هذه المعاهدة، وبمجرد وصوله ﷺ وصلت بعض المؤمنات من مكة المكرمة مهاجرات إلى المدينة المنورة، وهذا أول قدوم للمسلمين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد الصلح، ولكن هؤلاء القادمون لم يكونوا رجالاً إنما كانوا نساءً، ومع ذلك أسرعت قريش وطلبت إعادة المؤمنات المهاجرات إلى مكة المكرمة كما تقول المعاهدة، لكن الرسول ﷺ وقف لهم وقال: (إن نص المعاهدة ينص على الرجال فقط)، ونص حديث البخاري يقول: (وعلى ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته علينا) لم يدخل النساء في القضية، والحمد لله أن الرسول ﷺ كان حريصاً على ذلك الأمر عند كتابة المعاهدة، لكن الرسول ﷺ أراد أن يطمئن إلى إسلام هؤلاء المؤمنات اللاتي قدمن من مكة إلى المدينة، فنزلت سورة الممتحنة وفيها تفصيل لهذا الأمر، قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}

[الممتحنة:10] أي: تأكدوا من إيمانهن، هل جئن من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة هرباً من أزواجهن أو طلباً لرجال المدينة المنورة أم جئن إلى المدينة المنورة مهاجرات إلى الله عز وجل وإلى رسوله الكريم ﷺ؟ {اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ} [الممتحنة:10] أي: بعد هذا الاختبار والامتحان تأكدتم أنهن من المؤمنات الصادقات: {فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} [الممتحنة:10]، لا ينبغي أن يعدن إلى الكفار وإن كن أزواج كفار من مكة، ما ينبغي لامرأة مؤمنة أن تتزوج من رجل كافر، {فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [الممتحنة:10]، لكن انظر لما سيأتي بعد ذلك في الآيات، فهذا بعد حضاري راق جداً في الإسلام وعدل مطلق، قال تعالى: {وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا} [الممتحنة:10]، أي: الكفار الذين هربت أزواجهم من مكة إلى المدينة المنورة دفعوا قبل ذلك مهوراً لأزواجهم من المؤمنات، والآن هربت الزوجة إلى بلاد المسلمين وما عادت تصلح أن تكون زوجة لهذا الرجل الكافر، فلا يجب أن يضيع عليه هذا المهر الذي دفعه لها، يقول الله عز وجل: {وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا} [الممتحنة:10]، أي: أعيدوا إلى الكفار القدر الذي أنفقوه من المهر إليهن؛ حتى يستطيعوا به أن يتزوجوا مرة ثانية من امرأة تحل لهم. هذا حكم عام نزل لكل المؤمنات اللاتي هاجرن من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وظل بعد ذلك حكماً إلى يوم القيامة، لا يجوز أبداً لامرأة مسلمة أن تتزوج من رجل كافر.

كذلك نزل في نفس الآيات أنه لا يجوز أيضاً لرجل مسلم أن يتزوج من امرأة كافرة، قال الله عز وجل في نفس الآيات: {وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة:10]، هذه الآية موجهة إلى رجال المسلمين، أي: لو كان عندك امرأة مشركة تزوجت بها قبل أن ينزل هذا الحكم فلا بد أن تطلقها وتعيدها مرة ثانية إلى أهلها المشركين في مكة المكرمة أو غيرها، وعند نزول هذا الحكم طلق المسلمون المؤمنون نساءهم الكافرات وأعادوهن إلى أهلهن، ومن هؤلاء عمر بن

الخطاب رضي الله عنه وأرضاه طلق زوجتين من الكفار كانتا عنده وأعادهما إلى مكـة المكرمـة. بما أننا في هذا الوقت نبني مجتمعاً مسلماً خالصاً فمحال على أم كافرة أن تربي أولادها على معاني الإسلام والعقيدة الصحيحة، وكذلك محال على أب كافر أن يربي أبنـاءه عـلى معـاني الإسـلام والعقيدة السليمة الصحيحة. استقر الوضع في داخل المدينـة المنـورة وقبـل المشركون بقضـية المؤمنات اللاتي هاجرن من مكة المكرمة إلى المدينة.

-موقف النبي ﷺ من هجرة أبي بَصير إلى المدينة بعد صلح الحديبية

جاء من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة مهاجراً إلى الله ورسوله رجل اسمه أبـو بصـير رضي الله عنه وأرضاه، وأبو بصير من ثقيف، لكنه كان يعيش في داخل مكة المكرمة حليفاً لقريش، وأبو بصير أسلم بعد صلح الحديبية أو قبيل صلح الحديبية، وهرب مـن مكـة المكرمـة ووصـل إلى المدينة المنورة، وطلب اللجوء إلى رسول الله ﷺ، وبمجرد أن خـرج مـن مكـة علمـت قـريش بخروجه فأرسلوا رجلين وراءه إلى الرسول ﷺ، وقالوا هذا داخل في بنـد المعاهـدة، المعاهـدة تقول إنه من أتى إليكم من أهل مكة مسلماً فعلى رسـول الله ﷺ أن يـرده إلى المشركين، وهـذا يجب أن ترده، هذا موقف صعب جداً على رسول الله ﷺ، ومع ذلك تعامـل الرسـول ﷺ مـع الموقف بنفس العقل الذي تعامل بـه مـع موقـف أبي جنـدل قبـل ذلـك، فأعـاد أبـا بصـير إلى الرجلين، وقبل ﷺ أن يعود مرة ثانية إلى مكة مع مدى المأساة التي كان يشـعر بهـا، لكـن هـذه معاهدة، ورجع أبو بصير مع الرجلين، وعند ذي الحليفـة جلـس الثلاثـة ليسـتريحوا قلـيلاً في طريق السفر، فقام أبو بصير وأخذ سيف أحد المشركين وقتل به أحدهما، وهرب المشرك الثـاني جهة المدينة المنورة؛ لأنه سيجد العدل عند رسول الله ﷺ، فلما رآه الرسول ﷺ من بعيـد قـال: (لقد رأى هذا ذعراً) أي: هذا الرجل خاف من شيء خطير جداً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قـال: (قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول) أي: أبو بصير قتل صاحبي وسيلحقني بعد قليل، فجـاء أبـو

بصير يجري خلف هذا المشرك، ووصل إلى النبي ﷺ فقال: (يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم)، أي: أنت عملت الذي عليك، وفيت بالعهد وأرجعتني إلى المشركين، لكن أنا هربت من المشركين، فالآن أنا لست داخلاً في دولتك، أنا لست فرداً من أفراد المدينة المنورة، أنا لا ينطبق علي الآن العهد، قد أوفى الله ذمتك، فلما سمع منه هذه الكلمات؛ قال ﷺ كلمة عجيبة، قال: (ويل أمه مِسْعَر حربٍ لو كان معه أحد)، فقوله: (ويل أمه) هذه كلمة تقال عند المدح، أي: هذا الرجل فعل أمراً عظيماً، ما كان يتصور أحد أن يأتي هذا الفعل منه، (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد)، أي: هذا سيؤجج الحرب في المنطقة، لو كان معه أحد يشاركه في ذلك. في هذا إشارة واضحة لـ أبي بصير أن: استعن بمن معك من المستضعفين المسلمين، فأنت وحدك لن تعمل شيئاً، لكن اجعل قوتك مع المسلمين لتقدروا على فعل شيء، ورد رسول الله ﷺ أبا بصير مرة ثانية.

خرج أبو بصير هارباً بنفسه خارج المدينة المنورة، وقعد على طريق القوافل المتجهة من مكة المكرمة إلى الشام، وكلما مرت عليه قافلة اعترض طريقها يقتل منها من استطاع قتله ويأخذ من غنائمها ما استطاع، وعلم المسلمون المستضعفون في داخل مكة المكرمة وفي غيرها بمكان أبي بصير، فهربوا إلى أبي بصير، وبدأ أبو بصير رضي الله عنه يكون عصابة من الرجال، حتى صارت مجموعة كبيرة من الرجال تعترض طريق القوافل المكية، وهذا الفعل أحدث أزمة كبيرة جداً في مكة، مما جعلهم يأتون رسول الله ﷺ ويناشدونه الرحم ويطلبون منه أن يضم أبا بصير وأصحابه إلى المدينة المنورة، وأن يلغي هذا البند من صلح الحديبية: أن يرد من جاء مسلماً إلى مكة، بل يقبل المسلمين من مكة ولا يعيدهم إليها مرة أخرى، وهذا هو البند الذي كان مشكلة عند الصحابة، ففي أيام قليلة بعد صلح الحديبية يُلغى هذا البند من المعاهدة، وأصبحت المعاهدة خالصة لصالح المسلمين، وأصبحت فتحاً مبيناً حقيقياً للمسلمين.

الآثار الإيجابية المترتبة على معاهدة صلح الحديبية

تعالوا ننظر إلى معاهدة صلح الحديبية بعد أيام من حدوثها، تعالوا لننظر الخير الذي جاء من ورائها، فأصدق تصوير لها وأفضل تعبير لها هو ما اختاره لها رب العالمين سبحانه وتعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:1]، فهذا الفتح المبين له دلالات كثيرة جداً أعددت منها عشرة:

أولاً: وضوح إيمان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ويكفي أن الله عز وجل أنزل فيهم قرآناً، قال الله سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح:4] سبحان الله فالله عز وجل شهد لهم بالإيمان وزيادة الإيمان بعد هذا الحدث العظيم: صلح الحديبية.

الأمر الثاني: من أعظم ثمرات صلح الحديبية: هو اعتراف قريش بالمسلمين كقوة ودولة، وهذا الاعتراف جاء من قريش وهي أعظم قبيلة عربية، فالميلاد الرسمي للدولة الإسلامية في الجزيرة العربية هو صلح الحديبية؛ لأنه بعد هذا الاعتراف من قريش بدأت معظم القبائل الموجودة في المنطقة تعترف بالمسلمين، بل بدأت الدول في العالم تعترف بالمسلمين كدولة. هذا من أعظم ثمرات صلح الحديبية فعلاً، وكل الآثار التي ستأتي بعد هذا مترتبة على كون المسلمين أصبحوا دولة حقيقية معترفاً بها في المنطقة.

الأمر الثالث: هو الفتح المبين في انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، فالذين أسلموا في هاتين السنتين بعد صلح الحديبية وإلى فتح مكة من سنة (ست) أو أواخر سنة (ست) إلى أواخر سنة (ثمان) من الهجرة أكثر من الذين أسلموا خلال (تسع عشرة) سنة كاملة من الدعوة، فالدعوة الإسلامية أخذت (ثلاث عشرة) سنة في مكة المكرمة و (ست) سنوات بعد ذلك في المدينة المنورة إلى أن أتى صلح الحديبية، فالذين أسلموا في تسع عشرة سنة لا يتجاوزون (ثلاثة

آلاف) شخص، بينما الذين أسلموا بعد هذا من أواخر سنة (ست) من الهجرة إلى فتح مكة خلال سنتين فقط قرابة (سبعة آلاف) شخص؛ لأن الرسول ﷺ دخل مكة المكرمة عام الفتح بجيش قوامه (عشرة آلاف) مقاتل، غير النساء والصبيان الذين كانوا معهم، وكان المسلمون في صلح الحديبية (ألفاً وأربعمائة) شخص، وسائر الـ (ثلاثة آلاف) كانوا بالمدينة. تصور مدى الفتح المبين في سنتين فقط، تضاعف العدد ووصل إلى (عشرة آلاف) مقاتل، فهذا فعلاً فتح مبين.

الأمر الرابع: بعد صلح الحديبية مباشرة اطمأن الرسول ﷺ إلى استقرار الأوضاع في المدينة المنورة، فأرسل إلى المسلمين الموجودين في الحبشة؛ لأن بعض المسلمين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة في العام السادس من البعثة النبوية، وقعدوا في الحبشة (سبع) سنوات كاملة حتى الهجرة و (ست) سنوات كاملة من أيام المدينة المنورة، يعني: (ثلاث عشرة) سنة كاملة في داخل الحبشة لم يرسل إليهم رسول الله ﷺ، لكن بعد صلح الحديبية مباشرة وجد الرسول ﷺ أن الفرصة أصبحت مواتية ليستفيد من جهود وطاقات المسلمين الموجودين في الحبشة، فأرسل إليهم عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه وأرضاه ليستقدم هؤلاء، وبالفعل جاءوا مباشرة ووصلوا إلى رسول الله ﷺ وهو في فتح خيبر كما سنذكر ذلك إن شاء الله في الدروس القادمة. أضيفت إلى قوة المسلمين في المدينة المنورة قوة المسلمين الذين كانوا في الحبشة بعد غياب ثلاث عشرة سنة عن رسول الله ﷺ.

الأمر الخامس: قدوم المسلمين من القبائل المختلفة الأخرى، فمسلمو اليمن بدءوا يقدمون إلى المدينة المنورة، مسلمو بني حنيفة، ومسلمو بني كَلِبْ، ومسلمو بني كذا كذا وكذا، كل مسلمي قبائل العرب بدءوا يتحركون منها إلى المدينة المنورة، وقبل ذلك كان ﷺ يأمر المسلمين أن يمكثوا في قبائلهم ولا يقدموا إلى المدينة المنورة؛ لأنهم كانوا يقومون بالدعوة في قبائلهم، هذا

من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الوضع في داخل المدينة المنورة لم يكن مستقراً قبل ذلك، أما الآن بعد صلح الحديبية فقد فتحت الأرض للمسلمين فزادت قوتهم بعد هذا الصلح.

الأمر السادس: تعاهدت قبائل كثيرة مع رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، وما كانت هذه القبائل تجرؤ على هذا الأمر قبل هذا الصلح، وأول هذه القبائل قبيلة خزاعة، وبعدها بدأت القبائل تتوافد على المدينة المنورة.

الأمر السابع: هو أمر خطير جداً وغريب جداً، وسنفرد له إن شاء الله درساً كاملاً، وسيكون موضوع الدرس الذي سيأتي إن شاء الله، وهذا الأمر هو بداية المراسلات النبوية من رسول الله ﷺ إلى عموم زعماء وقادة العالم في كل مكان، فقد راسل كسرى فارس، وراسل قيصر الروم، وراسل زعماء العرب في كل مكان يدعوهم إلى الدخول في هذا الدين الجديد وهو الإسلام. قبل صلح الحديبية ما أرسل رسول الله ﷺ رسالة واحدة إلى زعماء العالم، فهذا يدل على التغير الهائل في مسار الدعوة، والانطلاقة العظيمة للإسلام بعد صلح الحديبية، أي فتح هذا؟! إنه فتح مبين فعلاً.

الأمر الثامن أيضاً في غاية الأهمية: بدأ صناديد مكة وزعماؤها يفكرون جدياً في الإسلام، ومن أوائل من أسلم بعد صلح الحديبية ثلاثة من أعظم قواد مكة، وأصبحوا بعد ذلك من أعظم قواد المسلمين: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. خالد بن الوليد كان إضافة هائلة لقوة الإسلام والمسلمين، وقد ظل خالد بن الوليد عشرين سنة تقريباً في الكفر يحارب الإسلام والمسلمين، والآن بعد صلح الحديبية بدأ خالد بن الوليد يفكر جدياً في أمر الإسلام، وسنتعرض إن شاء لتفصيل قصة إسلامه في الدروس القادمة. أسلم خالد بن الوليد وضم جهده إلى المسلمين، ومعلوم ما وقع على يده بعد ذلك من الفتوحات بعد إسلامه، فتصور مدى الإضافة التي أضافها رضي الله عنه وأرضاه إلى

المسلمين بعد إسلامه. كذلك عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، ففلسطين بكاملها ومصر بكاملها فتحت على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

أبطال قريش بدءوا يتوجهون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؛ ليعلنوا إسلامهم، فهذا فتح مبين فعلاً.

الأمر التاسع: تفرغ رسول الله ﷺ لليهود، فقضية خيبر كانت تشغل ذهن رسول الله ﷺ، لكنه لم يكن مستطيعاً أن يتوجه إليهم بقوته وجيشه مع وجود الحرب والخلافات المستمرة بينه وبين قريش؛ لكن بعد صلح الحديبية أمن ﷺ جانب قريش، ومن ثم انطلق إلى خيبر كما سنذكر في الدروس القادمة.

الأمر العاشر والأخير في هذا التحليل -وهو مهم جداً-: وقوع هزيمة نفسية قاسية لقريش هيأتها نفسياً بعد ذلك للتسليم التام لرسول الله ﷺ، وكانت بدايات تفكير القرشيين في التسليم للرسول ﷺ، وفتح أبواب مكة في صلح الحديبية، هذا هو الأمر العاشر والأخير، فتلك عشرة كاملة.

وقفات هامة مع صلح الحديبية

صلح الحديبية يحتاج منا وقفات كثيرة جداً، لكن سأقف هنا ثلاث وقفات هامة:

ضرورة الرضى بشرع الله عز وجل واعتقاد الخيرية فيه

الوقفة الأولى: هل كان الصحابة يرون كل هذا الخير من الآثار التي ذكرناها، وقد توجد غيرها وغيرها؟

الجواب لا، فالصحابة ما كانوا يرون هذا الخير كله، بدليل ما رأيناه منهم ومن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه بالذات، لكن ما حدث في صلح الحديبية هو وحي، بدليل قول الرسول ﷺ: (إنه ربي ولن يضيعني أبداً)، فهذا وحي، ومع ذلك لم ير الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم الخير في هذه النقطة الشرعية في ذلك الوقت، وهذا أمر غريب، وإذا كنا نلوم الصحابة أنهم وقعوا في هذا الأمر مرة في حياتهم فلا بد أن نعترف أننا نقع فيه مراراً.

فما أكثر ما سمعنا حكم الشرع في قضايا كثيرة جداً، ويكون أحياناً الحكم مباشراً جداً وواضحاً جداً، لكننا نقدم رأينا، أحياناً نرى الأم والأب يتركان البنت بلا حجاب بغية الزواج، والعلة في أذهانهما أنهما يريدان أن تتزوج البنت، ولو حجبت في اعتقادهما فهذا سيؤخر زواجها فيتركانها من غير حجاب، وهذه مخالفة صريحة للشرع، فهما يريان الخير في غيره فيقدمان رأيهما ويلغيان من حياتهما حكم الشرع في هذه الجزئية.

نرى استثمارياً كبيراً جداً يقترض بالربا؛ لكي يقيم مشروعاً كبيراً وعنده مليون علة في ذهنه لهذا الأمر، فهو يعلم حكم الشرع تماماً ثم يخالف بغية البحث عن خير، فهو يرى أن الخير في مخالفة الشرع في هذه الجزئية. نرى دولة تبيع خمراً؛ لكي تنشط السياحة لديها، ونرى حاكماً يوالي دولة قوية وإن كانت معادية للإسلام؛ لأنه يرى أن هذا أصلح لحياة الناس، ولا يرى الخير في حكم الشرع، وهذه القضايا نراها كثيراً جداً في حياتنا، لكن الخطير جداً في حياتنا أننا نفعل ذلك طلباً للدنيا، وليس طلباً للآخرة، أما خطأ الصحابة في قضية صلح الحديبية فلم يكن طلباً للدنيا أبداً، إنما فعلوه طلباً للآخرة، ليس لدى الصحابة مصالح دنيوية يرجونها يوم الحديبية رضي الله عنهم أجمعين، وإنما كانوا يريدون أن يدخلوا مكة لأداء عبادة العمرة، لم يأتوا لتجارة ولا لحرب ولا لأي مصلحة دنيوية، بل جاءوا لأداء عبادة العمرة ثم يعودون بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وإن مُنِعوا قاتلوا، والقتال كان خطيراً جداً؛ لأنهم لا يملكون سلاح المقاتل،

وكانوا معرضين للقتل، ومع ذلك يقبلون بذلك، أي: أنهم عندما عرضوا رأياً مخالفاً لحكم الشرع، ما عرضوا ذلك إلا طلباً للآخرة، وليس طلباً للدنيا، ولو كانوا طلاب دنيا لآثروا الرجوع حفاظاً على حياتهم.

نستفيد من صلح الحديبية بعد رؤية الخير العميم الذي نتج عنه: أن نرضى بشرع الله عز وجل، ولا أقول: نقبل بشرع الله عز وجل، ولكن نرضى بشرع الله عز وجل بحب واقتناع؛ لأنه وإن كانت عيوننا لا ترى الخير فإننا على يقين أن الخير موجود، سنراه اليوم أو غداً أو بعد سنة أو سنتين أو أكثر، أو ربما نموت قبل أن نراه، لكن من المؤكد أن فيه خيراً، قال الله عز وجل: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة:216] وقال سبحانه وتعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء:19]. نحن نريد أن نصل إلى درجة التسليم الكامل لرب العالمين سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل في كتابه: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:65]، ودرجة التسليم معناها: الرضا الكامل بحكم الله عز وجل، وأن نوقن يقيناً جازماً أن الخير فيما اختاره لنا الله عز وجل، والصحابة رضوان الله عليهم تعلموا من درس الحديبية حين رأوا الخير الذي حصل بعد صلح الحديبية، مع أنهم في وقت الصلح لم يكونوا يرون هذا الخير، وخاصة وقت موقف أبي جندل ما كانوا يشاهدون إلا الشر، من أجل هذا عرف عمر بن الخطاب أنه كان مخطئاً وحاول قدر المستطاع بعد ذلك أن يكفر عن الخطأ الذي حدث منه في يوم الحديبية، يقول: (فعملت لذلك أعمالاً) أي: عمل أعمال خير كثيرة جداً؛ للتكفير عن هذا الأمر، ويقول: (فما زلت أتصدق وأصلي وأصوم وأُعْتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً) فما عرف أنه مخطئ فقط، بل استفاد من الدرس بعد ذلك في كل حياته، فكان يقول معلماً للمسلمين رضي الله عنه

وأرضاه: (أيها الناس اتهموا الرأي على الدين) قد يكون لك رأي في قضية من القضايا وتشعر أنه أفضل من الحكم الشرعي في هذه القضية، وهذا يأتي على أذهان الكثير، فاتهم رأيك مهما كان في تصورك مقنعاً وقدم حكم الشرع، يقول: (اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أُرد أمر رسول الله ﷺ برأي، فوالله ما آلو على الحق)، أي: أنا كنت فعلاً أبحث عن الحق، ومع ذلك كان الخطأ في رأيي والصواب في حكم الشرع، (وذلك يوم أبي جندل).

يقول نفس الكلام سهل بن حنيف رضي الله عنه وأرضاه، فقد كان حاضراً ذلك الموقف، يقول للمسلمين: (اتهموا رأيكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته)، أي: أنا لو كنت أستطيع أن أمنع الرسول ﷺ من فعل هذا الصلح لفعلت، لكن لم أستطع، ومع ذلك هو ينصح المسلمين بعدم فعل ذلك بعد أن رأى الخير في صلح الحديبية.

هذا درس في غاية الأهمية، ولعله أعظم دروس الحديبية مطلقاً، وهو أن نوقن تماماً أن شرع الله عز وجل هو الخير لنا في دنيانا وفي آخرتنا.

الثقة في القيادة وإعذارها

الوقفة الثانية المهمة جداً: الثقة في القيادة، فأحياناً تتخذ القيادة قرارات لا يدرك الجنود كامل أبعادها، فكثيراً ما تكون الرؤية عند القيادة أشمل وأكبر، ويكون تحليل الأمور بصورة أعمق؛ لأن القيادة تطلع على أمور لا يراها الجنود، وتفكر في مصالح لا ينظر إليها الجندي، وتحاول تجنب مفاسد لا يدركها الجندي. القيادة الحكيمة هي التي تجمع بين الأحلام المطلوبة والواقعية في الأداء، وتقارن بين وسائل تغيير المنطق، وتعرف معنى التدرج في التغيير، وتقدر حجم المكاسب والخسائر، كل هذه أبعاد قد لا يراها الجندي المتحمس أو المسلم المتلهف لأن يرى الإسلام ممكناً له في الأرض ما بين يوم وليلة، فالقيادة هي التي تدرك كل هذه الأمور وقد

تأخذ قرارات يراها الجنود أحياناً مخيبة للآمال أو يرونها محبطة للنفسيات أو خاطئة سياسياً، وأحياناً قد يرى الجندي أن هذه مخالفة شرعية، مع أن كل هذا قد يكون وهماً لا حقيقة له.

الرسول ﷺ قَبِل برد المسلم الذي يأتيه من مكة إلى المدينة مع خطورة ذلك عليه، نعم هذه خطورة حقيقية، لكن لماذا قبل بذلك؟ لأنه ينظر إلى المصالح مجتمعة، وينظر إلى المفاسد مجتمعة، فوجد أن المصالح أعلى بكثير من المفاسد، مع الإقرار التام أن أمر إعادة المسلم إلى مكة أمر فيه مفسدة، لكن المصالح أعلى، وهو لا يستطيع أن يمنع المفسدة الآن، فقبل بها، وعليه أن يختار المصالح الكثيرة التي معها بعض المفاسد، ولا يختار دفع بعض المفاسد ويضيع المصالح الكثيرة، وهذا الأمر يحتاج إلى حكمة وإلى ورع وإلى علم، والموفق من وفقه الله عز وجل.

وكذلك الرسول ﷺ قَبِلَ قَبْلَ ذلك بأمور لا يحبها، بل يمقتها كل المقت، ولكن الواقع فرضها عليه، ولم يقبلها قبل ذلك المتحمسون من الشباب، ثم تبين أن الخير كان في قراره ﷺ، فمثلاً: الرسول ﷺ أمر بعدم الرد على من آذى المسلمين وعذبهم -بل وقتلهم- في العهد المكي، وهذا كان حكماً شرعياً قبل به الرسول ﷺ وعموم الصحابة في ذلك الوقت، لكن بعض المتحمسين من الصحابة لم يقبلوا بهذا الأمر، وقالوا: لم نعطي الدنية في ديننا؟ ولم لا نرد على المشركين؟ ولم كذا وكذا؟ ثم ظهر لهم بعد ذلك الخير في قرار الشرع. فهذا ما نسميه: بفقه المرحلة، أو فقه الموازنات.

كذلك تطاول اليهود على المسلمين في أوائل عهد المسلمين بالمدينة، وقاموا بأمور كان من الممكن أن تفسر على أنها نقض للمعاهدة، ومع ذلك التزم الرسول ﷺ بسياسة ضبط النفس قدر المستطاع، ليس هذا لضعف ولا لتفريط، ولكن فقه المرحلة وفقه الموازنات يقتضي ذلك. وهكذا كان الوضع في صلح الحديبية، وهكذا كان الوضع أيضاً في مواضع كثيرة جداً في السيرة النبوية، بل لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه يكاد يكون مستحيلاً أن تجد قراراً يخلو

من أي سلبية، وإنما القضية قضية موازنات، حتى إننا في الأمثال الشعبية نقول: (ليس هناك حلاوة بدون نار)، دائماً توجد مشكلة، ومع ذلك الموازنة بين المصالح والمفاسد هي التي تختار قراراً دون قرار. هذه كلمة جميلة جداً لـ عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه وهو مشهور بالحكمة، قال: ليست الحكمة أن تدرك الفرق بين الخير والشر، أو الفرق بين الحلال والحرام، ولكن الحكمة أن تدرك أي المنفعتين أعلى وأي الضررين أكبر. هذه هي الحكمة.

المهم في هذا المقام أن تدرك أنه لكي تقوم وتسود وتمكن لا بد من أخذ قرارات تبدو في ظاهرها مؤلمة للمسلمين، وقد يبدو فيها للناظر مخالفات شرعية، لكن المدقق والمحلل والعالم ببواطن الأمور سيجد أنها أخف الضررين، وليس معنى هذا أنها ليست ضرراً، لا، بل هي ضرر، ولكن في هذا الموطن هي أخف الضررين، فتقبل شرعاً ولا تعد مخالفة، ولا بد لكل جندي أن يدرك كل هذه الأبعاد، ومن ثم يعذر القيادة، ويقدم لها النصح والإرشاد بأدب، ويقبل منها الأمر والتوجيه، وكل ذلك لا يمكن أبداً أن يكون إلا بثقة تامة في القيادة، وإدراك كامل للعبء الثقيل الملقى على أكتاف القادة، وبغير هذه العلاقة الوثيقة بين القيادة وجنودها لا يمكن لجماعة أو لأمة أن تقوم.

هذه النقطة الثانية مهمة جداً، أنه يجب أن تتوافر الثقة في القيادة، وأن يدرك الجنود أن القائد قد يختار من الأمور ما قد يحزن الجنود، ولماذا اختار هذا؟ لأنه أخف الضررين، ولم يختر هذا الأمر لأنه يرغب في الضرر ذاته أو لأنه متنازل أو مفرط، أبداً، إذاً: لابد أن نفهم هذه القاعدة جيداً.

عذر القيادة لجنودها وأفرادها

النقطة الثالثة والأخيرة في التعليق على هذا الحدث: أنه إذا كنا قد طلبنا من الجنود أن يعذروا القيادة في قراراتها، وأن تتصف ردود أفعال الجنود بالثقة في اختيار القائد، فإننا في نفس الوقت

نطلب من القيادة أن تعذر جنودها عند ظهور بعض علامات الغضب، أو عدم الرضا من بعض القرارات غير المفهومة لعموم الناس، وأن يتسع صدر القيادة لتستوعب الجنود وهم في حالة نفسية سيئة، وأن تقبل منهم بعض الأخطاء، وأحياناً تكون هذه الأخطاء كبيرة جداً، ليس هناك مانع، لكن ننظر إلى ملابسات هذا الخطأ وفي أي ظرف حصل وممن حصل، وخير مثال على هذا الأمر في صلح الحديبية: ما رأيناه من رسولنا ﷺ في تعامله مع الصحابة، وخاصة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أصر على المجادلة مع الرسول ﷺ أكثر من مرة، ومع ذلك لم يعنته رسول الله ﷺ لكثرة اعتراضاته، ما قال له: هذا الكلام وهذا الحوار بهذه الطريقة لا يصلح أن يكون معي وأنا رسول ﷺ، فهو ﷺ عذره؛ لأنه يقدر موقفه ويعلم تاريخه ويعلم واقعه، وهذا الخطأ الذي حدث منه -وإن كان عظيماً- فقد قاسه على سيرته الجميلة رضي الله عنه وأرضاه. سيرة عمر كلها تضحيات وكلها طاعة وجهاد في سبيل الله، وكلها بذل وعطاء، حتى إننا وجدناه ﷺ يرسل لـ عمر خاصة بعد نزول سورة الفتح ليطمئن قلبه، فقرأ عليه سورة الفتح بكاملها من أجل أن يقول له: إن قرار الصلح هو القرار الأصوب، ولما سأله سيدنا عمر بن الخطاب: (أفتح هو؟ فقال ﷺ: نعم)، اكتفى بذلك ولم يذكره بخطئه السابق، وما قال له: ما كان ينبغي أن تقول كذا وكذا، وحتى بعدما ظهرت خيرات صلح الحديبية بعد ذلك لم نسمع أن الرسول ﷺ استدعى عمر بن الخطاب وقال له: ألم أقل لك إن ذلك خير؟ أرأيت كذا وكذا؟ ما قال له هذه الكلمات، بل إنه ﷺ قبل منه الخطأ بسعة صدر؛ لأنه يقدر الظروف التي حدث فيها ذلك الخطأ، فالرسول ﷺ كان رحيماً بـ عمر وبسائر أصحابه ﷺ تمام الرحمة، وكان مقدراً حبهم للإسلام تمام التقدير، هذه هي القيادة الرشيدة.

خلاصة الأمر: أن الأمة الناجحة حقاً هي الأمة التي يشعر فيها الجندي أنـه قريـب جـداً مـن القائد، يحبه ويقدره ويطيعه ويثق به تماماً، ويشعر القائد كـذلك أنـه قريـب جـداً مـن جنـوده، يحبهم ويقدرهم ويثق بهم، وهذه الثقة والتسامح والمحبة المتبادلة بين القائد وجنوده من أقـوى الأسباب التي تقوم عليها الأمم.

33

عـالمية الإسـلام

على الرغم من القوة المتنامية للدولة الإسلامية والتي ظهرت بجلاء بعد غـزوة الأحـزاب، إلا أن الاستقرار الحقيقي للدولة الإسلامية لم يأت إلا بعد صلح الحديبية، وكما ذكرنا قبـل ذلـك: اعتراف قريش أكبر قبائل العرب وزعيمة الجزيرة سياسياً ودينياً واقتصادياً وتاريخياً بالمسلمين، كل هذا أعطى المسلمين شهادة ميلاد حقيقية، وأعلن للجميع سواء من العرب أو مـن العجـم أن هناك دولة جديدة ولدت في المدينة المنـورة، وهـذه هـي الدولـة الإسـلامية وزعيمهـا هـو الرسول الكريم ﷺ.

إرسال الرسل إلى زعماء العالم بعد صلح الحديبية

أول شيء فكر فيه الرسول ﷺ بعدما عاد إلى المدينة بعد صلح الحديبية هو إعـلام العـالم أجمـع بهذا الدين الجديد الإسلام؛ ليثبت لنا وللجميع أن هذا الدين ديـن عـالمي نـزل لأهـل الأرض كلهم، يقول الله سبحانه وتعالى في الكتاب: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبيـاء:107]، ويقول الرسول ﷺ كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عـن جـابر بـن عبـد الله رضي الله عنهما: (أُعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي -وذكر منها-: وكـان النبـي يبعـث إلى قومـه خاصـة

وبعثت إلى الناس عامة). ونحن لابد أن نفهم هذا الموضوع جيداً، ونفهم أن علينا دور توصيل الإسلام إلى كل بقعة في العالم، وليس هذا تفضلاً منا، بل واجباً علينا.

كان الرسول ﷺ من أول أيام الدعوة يدرك عالمية الدعوة، ويدرك أهمية وصول هذه الدعوة إلى كل بقاع الأرض، وكان ﷺ يبشر المسلمين في مكة قبل سنوات من الهجرة، يبشرهم أن لهم دوراً تجاه العالم، وكان يقول لهم: (قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا: لا إله إلا الله تملكوا العرب والعجم). كانت القضية في ذهنه واضحة جداً، لكنه لم يشرع فيها بخطة وبنظام إلا بعد صلح الحديبية، وقد يقول شخص: لماذا لم يرسل الرسول ﷺ رسائل إلى عموم ملوك وأمراء الأرض من أول أيام الدعوة في مكة، أو من أول أيام المدينة المنورة، وقد كانت هناك بعض التعاملات مع بعض الممالك والدول الأخرى، ومع ذلك في هذه التعاملات لم يخطط رسول الله ﷺ إلى دعوتهم في ذلك الوقت؟ تفسير ذلك في كلمة واحدة هي **الواقعية**، يعلمنا رسول الله ﷺ واقعية المنهج، فإرسال رسالة يدعو فيها الناس إلى تبديل دينهم والدخول في دين جديد لم يسمع به أحد ولو أن أحدهم سمع به، فماذا سيسمع؟ سيسمع عن التشريد والاضطهاد والتعذيب لأبناء هذا الدين الجديد، إرسال مثل هذه الرسالة قد لا يقدم ولا يؤخر كثيراً، فمن هذا الذي سيقدم على مثل هذه الخطوة الجبارة ويبدل عقيدته لأجل مجموعة من الضعفاء في قرية صغيرة من قرى العالم؟! ولقد رأينا الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم عندما هاجروا إلى الحبشة لم يكن من مهمتهم دعوة النجاشي رحمه الله للإسلام، بل إنهم لم يعرفوا النجاشي بدينهم، ولولا الموقف الذي قام به عمرو بن العاص ومحاولته إثارة النجاشي على المسلمين لما شرح جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي الإسلام، وحتى بعد هذا الشرح لم يدع جعفر بن أبي طالب النجاشي إلى الدخول في هذا الدين الجديد، مع أنه كان يشعر أن هناك ميلاً في كلام النجاشي للإسلام، ومع ذلك لم يدعه صراحة إلى الإسلام، لماذا؟ لنفس

الكلمة التي قلناها: إن الرسول ﷺ والصحابة كانوا واقعيين إلى أقصى حد، لا يصح ولا يجدي لقائد جماعة صغيرة ضعيفة أن تراسل كبار زعماء العالم لتدعوهم لتغيير معتقداتهم وتبديل أديانهم وإظهار التبعية لفكر جديد أو قانون جديد، بل لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن هذه الدعوة المبكرة قد يكون لها من الآثار السلبية أكثر من الآثار الإيجابية، والدليل الشرعي على هذا أن الرسول ﷺ لم يفعله، ولو كان خيراً لفعله ﷺ، وما كان يعجزه ﷺ أن يرسل رسولاً إلى كل دولة من دول العالم من أول أيام الإسلام، لكن لم يفعل؛ لأنه لا فائدة من هذا الإرسال.

أما الدليل العقلي على ذلك فإنه قد يلفت الأنظار بدعوته هذه إلى جماعته الصغيرة الناشئة فتستأصل في مهدها.

أما افتراض أنه من الممكن أن الله سبحانه وتعالى يفتح قلوب الزعماء ويضحون بملكهم وسلطانهم من أجل هذا الرجل البسيط الذي ظهر في قرية صغيرة في صحراء الجزيرة، فهذا افتراض بعيد جداً لا يرقى أبداً إلى درجة الواقعية، كل هذا الكلام كان قبل صلح الحديبية، لكن بعد صلح الحديبية تغير الوضع جداً.كان جميع العالم يسمع عن قريش، فقريش القبيلة العربية الكبيرة العزيزة، وإن لم تكن بقوة فارس والروم، ولم تكن تحلم بهذا الشيء، لكنها كانت معروفة لكل الناس حتى خارج الجزيرة العربية، بل إنه كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية مع معظم القوى الموجودة في العالم آنذاك، من أجل ذلك اعتراف قريش بدولة الإسلام كدولة لها سيادة يعتبر أهم نقطة لإعطاء شرعية لهذه الدولة الجديدة؛ الدولة الإسلامية.

كل دول العالم لن تتعامل مع هذا الكيان الجديد -الدولة الإسلامية- إلا بعد اعتراف قريش به، أما قبل ذلك فالمسلمون في نظر العالم عبارة عن جماعة غير شرعية خرجت عن منهج الدولة الأم قريش، وبالتالي لا يمكن التعاون معها إلا من قبل المعادين لقريش، ولم يكن أحد يعادي قريشاً لا في الجزيرة ولا في العالم في ذلك الوقت، من أجل ذلك الرسول ﷺ في بداية الأمر

شغل نفسه بدعوة من حوله من العرب في الجزيرة في فترات الدعوة الأولى؛ لأنه يعلم عدم جدوى مراسلة الآخرين قبل اعتراف قريش.

أما الآن وبعد اعتراف قريش بالدولة الإسلامية فزعماء العالم سيتقبلون فكرة المراسلة بينهم وبين زعيم الدولة الجديدة الرسول ﷺ، وسيسقط حاجز الشكليات والرسميات والبرتوكولات لتبقى مناقشة مضمون الرسالة: هل هذا الدين الجديد دين يستحق الاتباع، أم أن صاحبه يكذب علينا؟ فيناقشون الموضوع بموضوعية إلى حد ما، وستكون مناقشة هذه الرسالة أفضل لا شك إذا كان المرسل قوياً ممكناً؛ لأن الله عز وجل يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن، وكل هذا تحقق إلى حد كبير بعد صلح الحديبية.

من أجل ذلك ما إن وجد الرسول ﷺ الفرصة سانحة أرسل الرسائل مباشرة إلى كل زعماء العالم آنذاك، فهو لم يضيع الوقت، بل أرسل الرسائل مباشرة، والرسائل كانت في منتهى الوضوح، حيث دعاهم إلى الدخول في الإسلام، وحملهم مسئوليتهم ومسئولية شعوبهم أيضاً، وبدأت هذه الرسائل تخرج من المدينة المنورة.

خرجت أولى هذه الرسائل في نفس الشهر الذي رجع فيه الرسول ﷺ من صلح الحديبية شهر ذي الحجة سنة 6 هـ، والبعض أخرها إلى غرة محرم سنة 7 هـ: بعد صلح الحديبية بأيام، انظر إلى مدى استعجال الرسول ﷺ لهذا الأمر؛ لأنه أحس أن فترة طويلة جداً مرت به، وهو يريد أن يوصل الإسلام إلى كل مكان، لكن الظروف لم تسمح، عندما سمحت الظروف مباشرة أرسل الرسل، خرجت هذه الرسائل في معظمها في وقت متزامن لا يفصل بينها إلا أيام، ولم تتأخر إلا بعض الرسائل، وإن شاء الله سنتعرض لها في الدروس القادم، والرسائل التي أرسلت في شهر ذي الحجة سنة 6 هـ وأوائل محرم سنة 7 هـ كانت سبع رسائل كالآتي:

رسالة إلى النجاشي أصحمة رحمه الله ملك الحبشة، وحملها عمرو بـن أميـة الضـمري رضي الله عنه.

رسالة إلى المقوقس زعيم مصر، وحملها حاطب بن أبي بلتعة اللخمي رضي الله عنه.

رسالة إلى كسرى ملك فارس، وحملها عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه.

رسالة إلى قيصر ملك الروم، وحملها دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه.

رسالة إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، وحملها العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه.

رسالة إلى هوذة بن علي ملك اليمامة، وحملها سليط بن عمرو العامري رضي الله عنه.

رسالة إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك دمشق، وحملها شجاع بـن وهـب الأسـدي رضي الله عنه.

قصة إرسال الرسائل والحوار الذي دار بين السفراء وبين ملوك العالم دروساً لا تُحصـى، لكـن لضيق الوقت لا نستطيع أن نحلل كل هذه السفارات، لكن إن شاء الله سنحلل هذه الرسـائل إجمالاً، ونأخذ مثالاً أو مثالين على هذه الرسائل إن شاء الله.

بتحليل هذه الرسائل نجد أن مضمون الخطاب في كل المراسلات واحد تقريبـاً؛ لأن الرسـائل ليست دعوة إلى إقامة علاقات دبلوماسية أو إلى تبـادل السـفراء أو إلى مجـرد التعـارف، ولا إلى طلب استمداد شرعية ما باعتراف الدول الأخرى به، إنما الهدف واضح تمام الوضوح، الهـدف الدعوة الصريحة للإسلام، الدعوة إلى ترك أي دين كان، والدخول في الدين الجديـد الإسـلام. هذا يعني اتباع الدين الجديد، وهو يقضي الاتباع لرسول الله ﷺ، وهـذا الكـلام لـيس سـهلاً؛

لأن الملك سيتحول من ملك مطاع لا ترد له كلمة إلى تابع مطيع يرد الأمر كله لله عز وجل ولرسوله الكريم ﷺ، ولا شك أن هناك من سيقبل هذه الدعوة ويكون مؤمناً، ولا شك أن هناك من يرفض هذه الدعوة ومن قد يغضب ويثور ويعترض وقد يرسل الجيوش ويهدد بالقتل كل هذا متوقع، وكل هذا مع أنه صعب إلا أنه لا يمنع من تبليغ دعوة رب العالمين إلى العالمين.

هذه الخطابات والرسائل تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرسول ﷺ كان قائداً قوياً، وكان مجاهداً عزيزاً لا يخشى في الله لومة لائم، وكان متجرداً تماماً لله عز وجل طائعاً لكل أوامره؛ لأن أي واحد من ملوك الدنيا لو كان في وضعه، فإنه لن يفكر أبداً في مراسلات من هذا النوع؛ حتى لا تنقلب عليه الأوضاع ويثور عليه أهل الدنيا، ولكن لكونه رسولاً ﷺ فهو يعلم أن مهمته تقتضي البلاغ للعالمين مهما كان الثمن، وبعد ذلك هو رأى بعينه ورأى المسلمون معه أن الله عز وجل ينصر الدين حتماً، ويخرج المسلمين من الأزمات مهما اشتدت هذه الأزمات، وقد أخرجهم سبحانه قبل ذلك من أزمات في مكة وبدر وأحد والأحزاب وبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وغير هذا كثير. لم يكن هذا التاريخ من الانتصارات لضعف أعداء الأمة أبداً، كل أعداء الأمة كانوا أقوياء جداً، لكن هذا الانتصار كان بقوة الله عز وجل وإرادة رب العالمين سبحانه وتعالى ونصره للذين آمنوا به.

هذه المعاني كانت واضحة جداً في ذهن النبي ﷺ، من أجل ذلك جاءت رسائله في منتهى الوضوح لا تميع فيها ولا مداهنة، وبغير هذه النظرة التي ذكرناها لا يمكن أبداً أن تفهم رسائل رسول الله ﷺ إلى ملوك العالم.

نص رسالة الرسول ﷺ لهرقل والدروس المستفادة منها

تعالوا نأخذ رسالة كمثال من أجل أن نرى هذا الوضوح، ولكي نفهم ماذا تعني رسالة من رسول الله ﷺ إلى ملك أو زعيم من زعماء العالم. لندرس رسالة هرقل قيصر الروم، والرسالة جاءت في البخاري، وذكرت رواية البخاري لها؛ حتى لا يستغرب السامع مضمون هذه الرسالة، واعلم أن هذه الرسالة رسالة من رئيس دولة صغيرة جديدة هي دولة المدينة المنورة، وجيشها على أكبر تقدير 3000 جندي، وعمرها لا يتجاوز 6 سنوات، وأسلحتها بسيطة، وعلاقاتها في العالم محدودة جداً، ومع ذلك كله أعلم أن هذه الرسالة ترسل إلى هرقل قيصر الروم، الزعيم الأعظم للدولة الأولى في العالم الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الرومانية تسيطر تقريباً على نصف أوروبا الشرقية، غير تركيا والشام بكامله، وغير مصر وليبيا، وجيوشها تقدر بالملايين بلا أي مبالغة، وأسلحتهم متطورة جداً، وتاريخها في الأرض له أكثر من 1000 سنة، ضع كل هذه الأمور في ذهنك وأنت تقرأ أو تسمع كتاب وخطاب الرسول ﷺ إلى قيصر الروم.

يقول ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين) (الأريسيين) أي: الفلاحين، يعني: الشعب، ثم كتب آية من آيات رب العالمين سبحانه وتعالى، قال: ({قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:64]).

رسالة فيها الوضوح والقوة والعزة والحكمة في كل كلمة من كلمات الخطاب، وهذا الخطاب يحتاج إلى محاضرات لكي نحلله وندرسه ونستخرج منه الدروس التي في باطنه، لكن نحن هنا سنشير إلى بعض الدروس الهامة إشارة سريعة.

من هذه الدروس: أن الرسول ﷺ حرص على ظهور عزته وعزة الدولة الإسلامية في كل كلمة من كلمات الخطاب.

أولاً: بدأ باسمه قبل اسم هرقل، وهذا الكلام خطير جداً في زمانهم، قال: (من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم)، ثم دعاه مباشرة إلى الدخول في الإسلام، فقال: (أسلم تسلم)، حتى لم يعرض الطلب بصيغة فيها تردد أو صيغة فيها عرض يقبل أو لا يقبل وإنما قال: (أسلم تسلم).

وأيضاً من الدروس: أنه مع إظهار هذه العزة والقوة إلا أنه لم يقلل من قيمة الطرف الآخر، بل بالعكس رفع قدر الطرف الآخر وحفظ له المكانة، حيث قال: (إلى هرقل عظيم الروم).

وأيضاً من الدروس: أنه جمع في مهارة عجيبة بين الترغيب والترهيب، بقوله له: (أسلم يؤتك الله أجرك مرتين) يعني: فيها نوع من الترغيب، ثم يقول له وهو يهدد بوضوح: (فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين) والكلام كله عبارة عن عدة أسطر قليلة جداً.

وأيضاً من الدروس: حسن اختيار الآية المناسبة من القرآن الكريم، أتى بآية تقرب كل أهل الكتاب، وتوضح أن هناك قواسم مشتركة كثيرة بيننا وبينهم، من أجل ذلك يمكن أن يفتح عقله للتفكير، ويرفع حواجز كثيرة جداً بين الطائفتين المسلمة والنصرانية.

هكذا كان الخطاب لـ هرقل عظيم الروم، وهكذا كان الخطاب لكل زعماء العالم، فالخطابات تقريباً مشابهة لهذا مع اختلافات قليلة جداً في الألفاظ حسب البلد المرسل إليها والدين الذي يدينون به، ومع وحدة الخطاب تقريباً لكل مكان من السبعة الأماكن التي تكلمنا عليها إلا أن ردود الأفعال كانت متباينة جداً، فقد بلغ بعضها القمة في الأدب وحسن الرد، بينما بلغت بعضها أدنى مستوى لسوء الأدب والمعاداة، وبين هذا وذاك كانت هناك ردود أفعال أخرى كثيرة.

موقف النجاشي ملك الحبشة والمنذر بن ساوى ملك البحرين

جاءت أفضل الردود من النجاشي ملك الحبشة، ومن المنذر بن ساوى ملك البحرين، وهؤلاء الاثنان أسلما دون تردد. واحد أسلم وأخفى إسلامه وهو النجاشي ملك الحبشة؛ لأن وضع الدولة النصراني كان صعباً جداً، فهو لا يستطيع أن يعلن إسلامه، ولأنه لو أسلم فإن الشعب سيقتلعه اقتلاعًا من كرسيه، وقد حصل قبل ذلك عندما ساند المسلمين أن الشعب أقام عليه ثورة وكاد أن يقتلع النجاشي من كرسيه، من أجل ذلك أخفى إسلامه، وآثر أن يساعد الدولة الإسلامية الناشئة الجديدة هناك في المدينة المنورة، وهو يعلن النصرانية في الظاهر ويبطن الإسلام.

أما المنذر بن ساوى رحمه الله فقد أعلن إسلامه وأسلم شعبه، وكانوا يدينون بعبادة الأصنام، لكن يبدو أن المنذر بن ساوى رحمه الله كان قوياً ممكناً في قبيلته ومحبوباً بين شعبه، وكان الناس تبعاً لقائدهم كعادة العرب في ذلك الوقت، فزعيم القبيلة أخذ قرار الإسلام فأسلمت قبيلته وأسلم شعبه، وهذا الوضع غير الوضع في بلاد الحبشة حيث كان بلدًا نظامياً كبيراً له تاريخ طويل، ومن الصعب على النجاشي أن يغير أفكار الناس كلها في لحظة واحدة.

موقف المقوقس ملك مصر

أما المقوقس فقد أحسن استقبال الوفد الإسلامي وأكرمه بالهدايا، إلا أنه لم يسلم، وإني لأتعجب جداً من عدم إسلامه؛ لأن المقوقس ذكر في رده لـ حاطب بن أبي بلتعة الذي كان رسول رسول الله ﷺ، ذكر في رده له أنه كان يعلم أن نبياً سيظهر في هذا الزمان، ولكنه كان يحسب أن هذا النبي سيظهر في الشام، فهو كانت عنده تهيئة نفسية لظهور النبي ﷺ، ومع ذلك لم يسلم، بل إنه لم يفكر أصلاً في التأكد من كونه نبياً أم لا، مع أنه كان يعرف أنه نبي فعلاً، وإلا لما أكرم سفارته وحملها بالهدايا كما نعلم جميعاً؛ لأنه ليس من الممكن أن يفعل هذا الأمر مع كذاب يدعي النبوة، وخاصة أن رسول الله ﷺ في ذلك الوقت لم تكن له قوة كبيرة أو بأس، ولم يكن يحكم دولة ضخمة يخشاها المقوقس فيحتاج إلى مهادنته، بالعكس فإن قوة مصر المادية كانت أضعاف أضعاف قوة المدينة المنورة في ذلك الوقت، لكن على كل حال إكرام المقوقس لوفد رسول الله ﷺ ترك أثراً إيجابياً للدولة الإسلامية في كل مكان، أكد على شرعيتها في النظام الدولي الجديد، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. كان رد المقوقس رد بأدب وحمل الهدايا لكن لم يسلم.

موقف هرقل ملك الروم

أما هرقل زعيم الدولة الرومانية التي كانت تسيطر تقريباً على نصف مساحة العالم في ذلك الوقت، فإن موقفه من الرسالة يحتاج إلى وقفة ويحتاج إلى تحليل، فهو يفسر لنا الكثير من أحداث التاريخ، سواء في أيام الرسول ﷺ أو في الأيام التي تلت الرسول ﷺ، وحتى إنها تفسر لنا أحداثاً كثيرة جداً من الواقع الذي نعيشه؛ لأنكم تعرفون أن التاريخ يتكرر.

عندما استلم هرقل رسالة الرسول ﷺ أخذ الموضوع بمنتهى الجدية، مع أنه زعيم أكبر دولة في العالم، ويستلم رسالة من زعيم دولة لم يسمع بها أحد إلى الآن، وهذه الدولة الجديدة خرجت في بلاد العرب، والرومان بصفة عامة كانوا ينظرون إلى بلاد العرب نظرة دونية، يرونهم دائماً أقل من أن يهتموا بشأنهم، لم يدرسوا أحوالهم أو عاشوا ظروفهم؛ لأن هؤلاء العرب قوم يعيشون حياة البداوة في أعماق الصحراء، بعيدون كل البعد عن كل مظاهر الحضارة والمدنية، متفرقون مشتتون متنازعون، أحلامهم بسيطة جداً، طموحاتهم قليلة جداً، عددهم محدود، أسلحتهم بدائية، والفارق بينهم وبين إمبراطورية الرومان الهائلة كالفارق بين السماء والأرض. كلنا نعرف كيف كان الصراع يدور بين دولة فارس والروم وكل ما عمله العرب هو الاكتفاء فقط بمراقبة الأحداث، وأنهم يتراهنون من الذي سيكسب من الدولتين العظيمتين فارس والروم، ولم يكن أحد فيهم عنده طموح في مشاركة القوى العالمية لا من قريب ولا من بعيد في الأحداث الجارية في العالم، ومع كل هذا فـ هرقل زعيم الروم عندما أرسل الرسول ﷺ إليه رسالة أخذ الأمر بمنتهى الجدية، ولم ينكر أن يكون ذلك الرجل نبياً حقاً، ولم يكن ينقصه إلا التأكد فقط، ويريد دليلاً، ونحن عندما نسمع عن هرقل أو نقرأ عنه نشعر أنه كان زعيماً نصرانياً متديناً ملتزماً إلى حد كبير بتعاليم دينه، وكان يقدر كثيراً أن الله عز وجل يساعده في معاركه، وكلنا نعرف أنه نذر أن يحج إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه من حمص إلى القدس شكراً لله على نصره للرومان على الفرس، فمثله يتأكد أنه قرأ في التوراة والإنجيل أن هناك رسولاً سيأتي، وأن هذا الرسول بشر به موسى وعيسى عليهما السلام، وكان ينتظر هذا الرسول ﷺ.

هذا الرجل الذي أرسل له رسالة وهو الرسول ﷺ يذكر له في هذه الرسالة أنه نبي آخر الزمان، وقبل هرقل الفكرة، بل لعله مشتاق إلى رؤية ذلك النبي، وقبل هذا هرقل كان قد

سمع عن النبي ﷺ، بل إن الله عز وجل يسر له لقاء غريباً عجيباً؛ فقبل استلام الرسالة هيئ هرقل نفسياً تماماً لاستلام مثل هذه الرسالة العجيبة، وذلك أنه سمع أن نبياً ظهر في بلاد العرب، فقال لجنوده ائتوني ببعض العرب أسألهم عن هذا النبي الذي ظهر في بلادهم، فأتى الجنود ببعض التجار الذين كانوا يتاجرون في غزة في فلسطين، وكان هرقل في بيت المقدس في ذلك الوقت، وذهبوا بهم إلى هرقل من أجل أن يتأكد من أمر الرسول ﷺ، وكان من بين هؤلاء التجار أبو سفيان بن حرب زعيم قريش، وحصلت هذه القصة بعد صلح الحديبية مباشرة، بعدما تم صلح الحديبية سافر أبو سفيان إلى غزة وأخذه الجنود إلى هرقل في بيت المقدس، وكان التوقيت توقيتاً عجيباً جداً من كل النواحي، وكأن الله سبحانه وتعالى بعث أبا سفيان الكافر في ذلك الوقت ليقيم الحجة على هرقل، وهذا اللقاء ورد في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه من أبي سفيان رضي الله عنه بعد إسلامه.

فلما مثل التجار عند هرقل سألهم: (أيكم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟) فقال أبو سفيان: (فقلت: أنا أقربهم نسباً إليه)، فقال هرقل: (أدنوه مني وقربوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره)، ثم قال لترجمانه: (قل لهم: إني سائل هذا - أي: أبا سفيان - عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه).

يعني: يريد هرقل أن يعرف بجدية كل شيء عن هذا النبي، فهو سيسأل أقرب الناس إليه نسباً؛ لكونه أعرف الناس به، وفي نفس الوقت سيجعل وراء أبي سفيان التجار الآخرين كحكام على صدقه، فالتجار تحت تأثير إرهاب هرقل وبطشه كل واحد منهم يخاف أن يكذب، وكذلك أبو سفيان يخاف أن يكذب، لكن العرب حتى في أيام الجاهلية كانت تستنكر صفة الكذب، وتعتبرها نوعاً من الضعف غير المقبول، من أجل ذلك كان أبو سفيان يقول تعليقاً على كلمة هرقل هذه: (فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا علي كذباً لكذبت عليه). فهو في تلك اللحظة مع

أنه يكره رسول الله ﷺ كراهية شديدة، فإنه كان بعد صلح الحديبية وقبل إسلامه، إلا أنه لا يستطيع أن يكذب على محمد ﷺ، لا يستطيع تشويه صورته عن طريق الكذب، فهو يستحي من الكذب إلى درجة أنه كان يقول: ولكني كنت امرأً أتكرم على الكذب. أي: لا أستطيع أن أكذب.

بدأ استجواب هرقل لأبي سفيان أمام الجميع، أمام العرب والرومان، وفي حضور علية القوم من الأمراء والوزراء والعلماء الرومان. في هذا الاستجواب سنرى أن هرقل سيسأل أسئلة يحاول بها أن يتيقن من أمر هذه النبوة التي ظهرت في بلاد العرب: أهي نبوة حقيقية أم يدعيها أحد الكذابين؟ وستكون الأسئلة عبارة عن استنباطات عقلية، أو أسئلة بناء على معلومات عن الأنبياء بصفة عامة، أو عن هذا الرسول ﷺ بصفة خاصة، كما جاءت في التوراة والإنجيل. هذا الحوار الذي دار بين هرقل زعيم أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت وبين أبي سفيان زعيم قريش أنا أحسبه من أعجب الحوارات في التاريخ، وهو عجيب من أكثر من وجه، ومن العجيب فيه اهتمام زعيم أكبر دولة في العالم بأمر رجل يظهر في صحراء العرب، وكذلك من حيث دقة الأسئلة، أو من حيث ردود أبي سفيان المشرك آنذاك والذي كان يكره سيدنا محمداً كراهية كبيرة جداً، أو من حيث تعليق هرقل على كلام أبي سفيان في آخر كلامه، أو من حيث رد فعل هرقل بعدما سمع كلمات أبي سفيان ، فهو حوار عجيب بكل المقاييس.

بدأ الحوار بسؤال: كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب.

قال هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قال أبو سفيان : لا.

فقال هرقل : فهل كان من آبائه من ملك؟

قال أبو سفيان : لا.

قال هرقل : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم.

قال هرقل : أيزيدون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان : بل يزيدون.

قال هرقل : فهل يرتد أحداً منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال أبو سفيان : لا، لا يرتد منهم أحد.

قال هرقل : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان : لا.

قال هرقل : فهل يغدر؟

قال أبو سفيان : لا، ثم قال: ونحن معه في مُدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها، أي: هل سيغدر أم لا في صلح الحديبية؟ وأبو سفيان أراد أن يقول أي شيء سلبي عن الرسول ﷺ؛ لأن كل الإجابات ترفع من قدر رسول الله ﷺ، يقول أبو سفيان تعليقاً على هذه الكلمة: (ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة). أي: حاولت على قدر ما أستطيع أن أطعن في رسول الله ﷺ بأي شيء فلم أستطع إلا هذه الكلمة، وهرقل لم يعبأ بها، وكأنه لم يسمعها.

قال هرقل : فهل قاتلتموه؟

قال أبو سفيان : نعم.

قال هرقل : فكيف كان قتالكم إياه؟

قال أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. هو يقصد بدراً ثم أحداً.

قال هرقل : ماذا يأمركم؟

قال أبو سفيان : يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

انتهى الاستجواب الطويل من هرقل ، وبدأ هرقل يحلل كل كلمة سمعها، وكل معلومة حصل عليها؛

قال هرقل : سألتك: عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها.

وسيبدأ هرقل يأخذ كل كلمة وكل نقطة يثبت بها لـأبي سفيان وللجميع ولنفسه قبلهم أن هذا رسول من عند الله.

ثم قال: وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا، قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا؛ فقلت: أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

هذه هي تحليلات هرقل ، فما هي النتيجة لهذا التحليل؟ لقد كانت النتيجة خطرة فعلاً، يقول بمنتهى الصراحة: (فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم). مستبعد أن يكون من العرب، ثم قال: (فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه).

سبحان الله هذه كلمات خطيرة وعجيبة جداً من زعيم الإمبراطورية الرومانية، أيقن هرقل من أول وهلة أن هذا الرجل رسول حقاً، وأن ملكه سيتسع حتى يأخذ بلاد الشام، وأنه وجب الاتباع له والانصياع الكامل لأمره، بل والرضوخ لقوله تماماً، والتواضع الشديد إلى درجة أن هرقل يتمنى أن لو غسل قدمي رسول الله ﷺ.

وفي هذا المجلس عندما انتهى هذا الحوار دعا هرقل بكتاب الرسول ﷺ والرسالة التي جاءت مع دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، وقرأ هذا الكتاب في وجود أبي سفيان ومن معه، ونحن لا نعرف هل هذه أول مرة يقرأ هرقل فيها الكتاب، أو كان قد قرأه قبل ذلك وأعاد القراءة مرة أخرى؟. قرأ كتاب الرسول ﷺ أمام أبي سفيان ومن معه من العرب، وأمام الرومان الموجودين، وبدأ يقرأ الكلمات العجيبة التي ذكرناها قبل ذلك من الرسول عليه

السلام إليهم، وفيها دعوة صريحة إلى دخول الإسلام، فـما أن انتهـى مـن القـراءة حتـى سـمع أصواتاً عالية جداً وكثر اللغط وارتفعت الأصوات في كل مكان، وضجت القاعة بـالاعتراض على كل كلمة من كلمات هذا الكتاب النبوي، فزعماء النصارى وأمراء الجيوش وعلـماء الـدين كل هؤلاء رفضوا تماماً هذه الدعوة الكريمة من رسول الله ﷺ، وعندما حصل هذا الكلام أمر هرقل بـأبي سفيان ومن معه من التجار أن يُخرجوا من القاعة.

تصور معي موقف أبي سفيان وهو يرى رهبة هرقل عندما سمع قصة المصـطفى ﷺ، وموقفـه عندما رأى قناعة هرقل الذي سمع عن الرسول ﷺ مرة واحدة، وأبو سفيان له سـنين وسـنين مع الرسول ﷺ ولم يؤمن برسالته بعد، وتصور موقفه وهو يسمع رسالة رسول الله ﷺ القويـة التي وجهت إلى زعماء الدول العالمية الكبرى في ذلك الوقت، فهذا الكلام ترك أثراً نفسياً هائلاً عند أبي سفيان حتى إنه ضرب يداً بالأخرى متعجباً وقال: (لقد أَمِر أمـرُ ابـن أبي كبشـة). أي: عَظُم أمر ابن أبي كبشة، يقصد الرسول ﷺ. ثم قال: إنه ليخافه ملك بنـي الأصـفر. أي: هـذا هرقل زعيم الرومان يخشى الرسول ﷺ. لا شـك أن هـذا الحـدث سـيحفر تمامـاً في ذهـن أبي سفيان ، سيكون له بعد ذلك أبلغ الأثر في قرارات أبي سفيان ، وسنرى مواقف عجيبة جداً من أبي سفيان إلى أن يسلم بعد ذلك في فتح مكة.

موقف هرقل بعد قراءة رسالة النبي ﷺ

لقد كان هرقل على استعداد لاتباع الرسول ﷺ، لكن في المقابل كانت هناك ثورة كبيرة جداً في داخل البلاط الملكي ترفض تماماً فكرة الإسـلام، وأدرك هرقـل أنـه إذا أعلـن رغبتـه في اتبـاع الرسول ﷺ فإن عليه أن يغامر بملكه، وعليه أن يخاطر بسيادته على شعبه، وقد ينزعه الأمـراء نزعاً من رئاسة البلد، حتى إنه في رواية قال لـ دحية بن خليفة الكلبي الذي هو رسول رسـول الله ﷺ: (والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنـه الـذي كنـا ننتظـر، ونجـده في كتابنـا،

ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته). في رواية أخرى ذكرها ابن كثير رحمه الله: أن هرقل اتبع الأسقف الأكبر للرومان فدخل عليه، فعرض عليه هرقل الكتاب، فلما قرأ الأسقف الكتاب، قال: (هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى، الذي كنا ننتظره). قال هرقل: (فما تأمرني؟) قال الأسقف: أما أنا فإني مصدقه ومتبعه. الأسقف الأكبر آمن. فقال قيصر: (أعرف أنه كذلك، ولكني لا أستطيع أن أفعل) أي: أنا أعرف أنه نبي، لكن لا أستطيع أن أتبعه، وإن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم.

وفي رواية أخرى: أن هذا الأسقف كان اسمه صَغَاطر وأنه خرج إلى الرومان، ودعا جميع الرومان إلى الإيمان بالله تعالى، وإلى الإيمان برسوله الكريم ﷺ، وأعلن الشهادة أمام الجميع: أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فماذا عمل الناس؟ قام الناس كلهم إليه فضربوه حتى قتلوه.

هذا الأسقف كان أعظم شخصية في الدولة الرومانية، وهو أعلم من هرقل عند الناس، وعلم هرقل بقتل هذا الرجل الأسقف الكبير فلم يستطع أن يفعل أي شيء مع من قتله، وهذا دلالة على ضعفه الشديد أمام الكرسي الذي يجلس عليه. هرقل عقد مقارنة سريعة جداً بين الملك والإيمان، وبين الحياة ممكناً وبين الموت شهيداً، فأخذ القرار بمنتهى السهولة، واختار الملك والحياة، ورفض الإيمان والشهادة، لم يكن ذلك لعدم تيقنه من أمر الرسول ﷺ، لكنه ضن بملكه وضحى بالإيمان.

أمر الإيمان واضح جداً، وإعجاز القرآن ظاهر، وطريق الإسلام مستقيم، والدلائل على صدق هذا الدين بينة وقاهرة وظاهرة للجميع، والإنسان هو الذي يختار، وعلى قدر قيمة الشيء في نفس الإنسان يضحي، والناس كلها تضحي، ولا أحد يستطيع أن يجمع كل شيء، والواحد قد يضحي بالإيمان من أجل أن يأخذ الملك، وآخر قد يضحي بالملك من أجل أن يأخذ الإيمان، فـ

هرقل وأمثاله ينطبق عليه قول الله عز وجل: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل:14] ويقول الله عز وجل: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [يونس:108].

هرقل لا يمكن أن يعذر في عدم إسلامه مهما كانت فتنته، ومهما كان راغباً في الملك راهباً من الموت؛ لأن الإيمان لا يوزن إلى جواره شيء. يعلق الإمام النووي رحمه الله على موقف هرقل فيقول: ولا عذر له في هذا؛ لا عذر له في ترك الإيمان مهما كان سيضيع منه أو سيقتل، لأنه قد عرف صدق النبي ﷺ، وإنما شح بالملك وطلب الرئاسة، ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله أيضاً تعليقاً على هذا الحديث: ولو تفطن هرقل لقوله ﷺ في الكتاب: (أسلم تسلم)، وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة وأسلم، لسلم له كل الدنيا وكل الآخرة، لسلم من كل ما يخافه، ولكن التوفيق بيد الله عز وجل.

هرقل بعد كل هذا اليقين اكتفى بأنه يُحمِّل دحية الكلبي بعض الهدايا لرسول الله ﷺ، ولم يفكر في قضية الإيمان، مع أنه كان يعلم أنه في يوم من الأيام سيئول كل ملكه الذي يحكمه إلى رسول الله ﷺ كان يوقن بذلك؛ لأن ذلك موجود في التوراة والإنجيل، وقد قال قبل ذلك بوضوح في حواره مع أبي سفيان: (إنه سيملك موضع قدمي هاتين) وعندما غادر بيت المقدس إلى القسطنطينية، قال وقد أشرف على الشام حين طلع فوق ربوة عالية وأطل على الشام بكاملها، ثم قال: السلام عليك يا أرض سوريا؛ يسلم عليها تسليم الوداع، وأنه لن يرجع إليها مرة أخرى. أدرك أن هذه البلاد لن تبقى بعد هذا الظهور لهذا النبي الكريم ﷺ تحت سيطرته، وبعد كل هذه القناعة برسول الله ﷺ، وكل هذا اليقين بنبوته لم يقف هرقل عند حد عدم الإيمان، ولم يقبل بالحياد، ولكن سير الجيوش تلو الجيوش لحرب المسلمين، مع إحساسه الداخلي أنه سيهزم، وأنه ليس من الممكن أبداً أن ينتصر على نبي ولا على أتباع نبي، لكن هذا

لإحساس لم يمنعه من اتباع الشياطين، ومحاولة مقاومة هذا الدين الجديد الإسلام، بداية من مؤتة ومروراً بتبوك، وبعد ذلك معارك متتالية كثيرة في فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وتركيا.. وغيرها، ومع فشله في كل هذه المعارك، ومع تناقص الأرض من حوله، ومع ظهور صدق الرسول ﷺ يوماً بعد يوم إلا أن هرقل لم يؤمن، ويبدو أن فتنة الكرسي لا تعدلها فتنة.

هذا كان موقف الدولة الرومانية، اعتذار مهذب، ثم بعد ذلك حرب ضروس، وهذا الموقف نراه كثيراً جداً في التاريخ والواقع، نراه كثيراً من زعماء وأمراء وعلماء ورجال دين العالم، يعرفون صدق الإسلام، ويعرفون نبوة الرسول ﷺ، لكنهم يرفضون هذه النبوة حفاظاً على كراسيهم، وشحاً بملكهم، هم قد يحاولون في بعض الأحايين إقامة العلاقات الدبلوماسية اللطيفة، من تبادل الهدايا مع المسلمين، مثل ما عمل هرقل ، لكن حتماً سيأتي يوم تقف فيه الهدايا ويبدأ فيه الصراع، وبدلاً من كلمات التحية سيكون التهديد والإنذار، وبدلاً من الرسائل والسفراء ستكون القذائف والجيوش. يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217].

إذا كنا وقفنا هذه الوقفة مع رد فعل هرقل والإمبراطورية الرومانية من رسالة النبي ﷺ، فلابد أن نقف وقفة مماثلة مع رد فعل كسرى فارس والإمبراطورية الفارسية، وهي الدولة الثانية التي تقتسم العالم مع الدولة الرومانية. لقد رأينا من هرقل ميلاً في البداية إلى الإسلام، ثم حرباً ومقاومة.

موقف كسرى ملك فارس من رسالة النبي ﷺ له

أما كسرى فارس وكان اسمه إبرويز بن هرمز، وقد ظهر عداؤه للإسلام من أول لحظة قرأ فيها الخطاب، وكان ينوي تدمير هذا الدين الجديد وحرب هذا الرسول الكريم ﷺ، وكان

خطاب الرسول ﷺ لكسرى هو نفس خطاب هرقل إلى حد كبير، بدأ فيه بالبسملة، ثم بعد ذلك قال: (من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس)، ثم بعد ذلك دعا ﷺ كسرى إلى الدخول في الإسلام، لكن مع تغيير يسير في بعض الألفاظ لتناسب كسرى فارس والديانة التي هم عليها، قال ﷺ: (سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وhدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة، {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس:70]، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك) خطاب في منتهى القوة.

غضب كسرى غضباً شديداً عندما سمع هذا الخطاب، وتعامل معه بسطحية بالغة، لم يلتفت إلى المعاني التي فيه، ولا إلى الرسالة التي يشير إليها الخطاب، لكن كل الذي نظر إليه الشكليات التي في الخطاب، فأمسك الخطاب ومزقه، وقال في غطرسة: (عبد من رعيتي يكتب اسمه قبلي)، وسب الرسول ﷺ، فلما وصلت هذه الكلمات إلى النبي ﷺ، قال ﷺ: (مزق الله ملكه)؛ لأنه مزق الكتاب، وبالفعل ففي غضون سنوات قليلة جداً من هذه الأحداث مزق الله عز وجل ملك كسرى تماماً، وامتلك المسلمون كل الأراضي الفارسية، وسقطت الإمبراطورية الفارسية تماماً، وكانت تسيطر على مساحات هائلة من الأرض.

هذه هي النبوة في مواجهة الغطرسة المجوسية الكافرة، لكن كسرى فارس إبرويز لم يكتف بهذه الكلمات وبتقطيع الخطاب، لا، بل حاول أن يعتقل رسول الله ﷺ من أجل أن يعاقبه بنفسه، فأرسل رسالة إلى عامله الفارسي على بلاد اليمن، وكانت اليمن مستعمرة فارسية، وهي قريبة من المدينة المنورة، فأرسل رسالة إلى عامل اليمن واسمه باذان وكان فارسياً، وطلب منه أن يبعث رجلين من رجاله ليأتيا برسول الله ﷺ إلى المدائن عاصمة فارس. انظروا يبعث اثنين فقط من الرجال ليأتيا بزعيم المدينة المنورة، وانظروا كيف كانت نظرة كسرى فارس للعرب،

بعث اثنين من الرجال ولم يبعث جيشاً ليأتيا برسول الله ﷺ إلى المدائن عاصمة الدولة الفارسية، وقال لهما: أخبراه إن هو رفض فسيقتل، وسيهلك كسرى قومه ويخرب بلاده، فذهب الرسولان إلى الرسول ﷺ وقالا له هذا الكلام، فطلب الرسول ﷺ طلب منهما في أدب جم أن ينتظرا إلى اليوم التالي وسيرد عليهما، وجلسا في المدينة تلك الليلة، وفي هذه الليلة التي جاء فيها رسولا كسرى أتى الوحي إلى رسول الله ﷺ وأخبره بنبأ عجيب، أخبره أن هذا الزعيم الفارسي المتغطرس إبرويز قتل في نفس الليلة، ومن الذي قتله؟ قتله ابنه شيرويه بن إبرويز، وكانت هذه الوقعة في ليلة الثلاثاء 10 جمادى الآخرة سنة 7 هـ، وفي اليوم التالي أرسل الرسول ﷺ إلى الرسولين وجلس معهما وقال لهما: (إن ربي سبحانه وتعالى قتل ربكما الليلة)، ففزع الرسولان وقالا: (هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من ذلك، أنكتب عنك بهذا ونخبر الملك باذان الذي هو ملك فارس في اليمن؟) فقال ﷺ في منتهى الثقة: (نعم أخبراه ذاك عني)، ليس هذا فحسب، بل قال لهما في يقين: (وقولا له أيضاً: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهي إلى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت -يخاطب باذان- أعطيتك ما تحت يديك ومَلَّكتك على قومك)، والرسول ﷺ عاملهما معاملة الملك الكريم وحملهما بالهدايا، وأعادهما إلى باذان مرة أخرى، ووصل الرسولان إلى باذان ملك اليمن الفارسي، وقالا له ما قاله الرسول ﷺ، وكان باذان رجلاً عاقلاً؛ فإنه عندما سمع هذه الكلمات، قال: (والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول، وليكونن ما قال، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل)، أي: كيف عرف أن هناك شيئاً حصل في المدائن، وهي على بعد مئات الكيلو مترات في ذلك الزمن؟ ثم قال: (وإن لم يكن الذي قاله فسنرى فيه رأينا)، وذهبت الأيام وجاء خطاب من الزعيم الجديد في بلاد فارس شيرويه بن إبرويز جاء

خطاب إلى باذان عامل اليمن يقول له فيه: إنه قد قتل أباه إبرويز؛ بسبب أنـه قتـل الكثـير مـن أشراف فارس، وكاد أن يودي بفارس إلى الهلاك.

وصل هذا الخطاب إلى باذان ، حدد باذان الليلة التي قتل فيها إبرويز ، فوجد أنها نفـس الليلـة التي حددها الرسول ﷺ، فأيقن أن هذا رسول من عند الله عز وجل، وأن الذي أخـبره بـذلك وحي من عند الله عز وجل؛ لأن المسافات بين المدينة والمدائن هائلة، ومستحيل على أهل ذلـك الزمن بأي صورة من الصور أن يعلموا الأحداث التي تحدث في كل بلد، وأنه لا يـتم هـذا إلا بمعجزة خارقة، فعند ذلك علم باذان أن هـذا رسـول، وأخـذ القـرار الـذي لم يسـتطع آلاف وآلاف غيره أخذه، أخذ قرار الإسلام، وسبحان الله الذي يهدي من يشاء إلى صراط مسـتقيم، فأسلم باذان وحسن إسلامه وأسـلم أبنـاؤه، وأسـلم كـل الفـرس تقريبـاً في الـيمن، وأسـلم الرسولان اللذان بعثهما باذان إلى رسول الله ﷺ، ثم أسلم بعد ذلك كثير من أهل اليمن.

هـذه الأحـداث تفسرـ لنـا قـول الله عـز وجـل: {وَمَـا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْـتَ وَلَكِـنَّ اللهَّ رَمَـى} [الأنفال:17]، الرسول ﷺ إنما أرسل رسالة إلى كسرى فارس يريد إسلام شعب فارس الذي هو في الشمال الشرقي من المدينة المنورة، ويريد الله عز وجل أن يسلم بهذه الرسالة شعب اليمن الذي هو في الجنوب، وهو بعيد جداً عن منطقة فارس، وهذا يلفت نظرنا لشيء مهـم جـداً ألا وهو أن جهد الداعية لا يضيع، بل يبقى جهد الداعية وينتشر، ولكن ليس بالضرورة أن ينتشرـ في الاتجاه الذي يريده الداعية، فالله عز وجل يسير الكون بنظام بديع، وتنسيق محكم، وحكمـة بالغة، والقلوب بين أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء، فأنت أيها الداعية عليك الـدعوة، والله سبحانه وتعالى يفتح القلوب. بالفعل كان الرسول ﷺ عند وعده، فقـد أعطـى ولايـة الـيمن لـباذان رضي الله عنه، وكان إسلام اليمن إضافة كبيرة جداً لقوة المسلمين.

أما كسرى فارس الجديد شيرويه بن إبرويز مع أنه توقف عن طلب الرسول ﷺ، وتوقف عن التفكير في عقاب رسول الله ﷺ كما كان يريد أبوه، إلا أنه لم يفكر في الإسلام أصلاً، وبذلك تجمدت تقريباً العلاقات بين الدولة الإسلامية والدولة الفارسية، التي تحركت بعد ذلك بسنوات في عهد الصديق رضي الله عنه، عندما بدأت الفتوحات الإسلامية. هذا كان موقف الدولة الفارسية من خطاب ورسالة النبي ﷺ.

موقف هوذة بن علي صاحب اليمامة من رسالة النبي ﷺ له

أما هوذة بن علي صاحب اليمامة، فإنه عندما وصلت إليه الرسالة لم يفكر في الإسلام؛ لأنه أعجب بالإسلام، لكنه فكر فيه لأنه شعر بقوة الرسول ﷺ، وتنبأ لدولة الرسول ﷺ بمستقبل كبير، من أجل ذلك قرر أنه يفاوض الرسول ﷺ وأرسل له رسالة، قال فيها: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك)، هذه مساومة.

الرسول ﷺ في رسالته إلى هوذة بن علي وعده أن يعطيه ما تحت يديه من اليمامة إن أسلم، لكن هوذة بن علي رغب في مساومة الرسول ﷺ حتى يأخذ ملكاً أكبر، وعلق إسلامه على هذا الشرط، والرسول ﷺ يرفض أن يطلب أحد الإمارة، ويرفض أن يعطي الإمارة لمن يطلبها، كما جاء في البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه قال: (إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه)، لماذا كان الرسول ﷺ يمنع الإمارة لمن يطلبها؟ لأنه يعلم أن من سيتولى الإمارة وهو حريص عليها فلن يعود ضرره عليه فقط، ولكن سيعود الضرر على كل من يقود؛ لأنه مفتون بالإمارة، وسيضحي من أجلها لا من أجل الإسلام، ولأنه لو تعارض الإسلام مع استمراره في الإمارة سيترك الإسلام ويتمسك بالإمارة، وهنا قد يتبعه قومه، وستكون كارثة ومشكلة كبيرة؛ من أجل ذلك لم يكن الرسول ﷺ يعطي الإمارة لأحد طلبها، ومن أجل ذلك علَّق الرسول ﷺ على موقف هوذة بن علي

وقال: (لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت)، ثم تنبأ له بالهلكة، قال: (باد وباد ما في يديه)، وتحقق تنبؤ الرسول ﷺ بعد أقل من سنتين، حيث مات هوذة بن علي وفقد ملكه ولم يسلم.

موقف الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق من رسالة النبي ﷺ له

من الزعماء الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ الرسائل الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق، وكان هذا الرجل نصرانياً تابعاً لـ هرقل قيصر الروم، وكان رده تقريباً نفس رد كسرى زعيم فارس، ألقى الخطاب وقال: (من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه)، وبدأ في تجهيز الجيوش من أجل أن يغزو المدينة المنورة، لكن قبل أن يفعل هذا أحب أن يستأذن هرقل وبعث له برسالة، فتزامن وصول رسالة الحارث مع وصول رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل، فـ هرقل قال له: لا، انتظر، لا ندري ماذا سيحدث بعد ذلك من الأحداث؟ فأمره ألا يرسل الجيوش، فانصاع الحارث إلى كلام هرقل ولم يرسل الجيوش، وعندما علم الرسول ﷺ رد فعل الحارث قال: (باد ملكه)، وصدق الرسول ﷺ، ما لبث أن مات وباد ملكه تماماً، بل دخل ملكه بعد ذلك في ملك المسلمين.

هذه كانت ردود الأفعال المختلفة لدعوة الرسول ﷺ للعالمين، وكما رأينا اختلف رد الفعل من إيمان سريع، إلى تفكير ثم إسلام، إلى حياد مؤدب، إلى رفض للإسلام، إلى حرب الإسلام، ردود مختلفة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

نخلص من كل هذه الرسائل إلى أنه ليس من واجب الداعية أن يفتح قلوب الناس إلى الإسلام أبداً، لكن من واجب الداعية أن يصل إليهم بدعوته بيضاء نقية، ثم بعد ذلك فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح قلوب من يشاء إلى الهدى والإيمان، قال تعالى: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ} [المائدة:99] والرسول ﷺ عمل هذا البلاغ على أتم ما يكون.

نظرة تحليلية حول رسل رسول الله ﷺ إلى زعماء ورؤساء وملوك العالم

بقي لنا في موضوع هذه المراسلات العظيمة أن ننظر نظرة تحليلية في السفراء الكرام الذين اختارهم الرسول ﷺ لإيصال الرسائل إلى زعماء وأمراء العالم.

سنلاحظ عدة ملاحظات جميلة جداً:

أولاً: هؤلاء الرسل جميعاً عندما تنظر إلى أسمائهم تجد أنهم من قبائل مختلفة، فعمرو بن أمية من بني ضَمْرة، وهو الذي أرسل إلى النجاشي .

و العلاء بن الحضرمي من حضرموت اليمن، وأرسل إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين.

و عبد الله بن حذافة من بني سهم، وأرسل إلى كسرى فارس.

و دحية بن خليفة من بني كلب، وأرسل إلى قيصر الروم.

و حاطب بن أبي بلتعة من بني لخم، وأرسل إلى المقوقس في مصر.

و سُليط بن عمرو من بني عامر، وأرسل إلى هوذة بن علي باليمامة.

و شجاع بن وهب من بني أسد، وأرسل إلى الحارث بن أبي شمر في دمشق.

هذا الاختلاف في القبائل لا شك أنه إشارة واضحة جداً من الرسول ﷺ إلى كل المسلمين سواء في المدينة أو في خارج المدينة، وإلى كل العرب المراقبين للأحداث، وإلى كل دول العالم التي أُرسل إليها السفراء، وإلى كل المحللين والدارسين للسيرة على مدار السنين إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، أن هذه الدعوة ليست قبلية أبداً، بل هي دعوة تضم بين طياتها أفراداً من كل قبائل العرب، وهؤلاء السفراء كانوا بمثابة الصورة الجديدة المرجوة لهذه الأمة، ووحدة العناصر المختلفة على رباط واحد فقط هو رباط العقيدة الإسلامية.

الملحوظة الثانية: أن قريشاً لم يمثلها في هذه السفارات إلا صحابي واحد فقط، وهو عبد الله بن حذافة السهمي القرشي رضي الله عنه، وبقية السفراء جميعاً ليسوا من قريش.

وهذه إشارة من الرسول ﷺ أن الأصلح هو الذي يُعطى العمل ويكلف بالمهمة، بغض النظر عن النسب والمكانة العائلية والقبلية وما إلى ذلك، مع أن الجميع يعرف أن قريشاً هي أعلى العرب نسباً، وقد يقول البعض: لعله من الأصلح والأفضل أن نجعل كل السفراء من قريش؛ لأجل رفع قيمتهم عند زعماء العالم، لكن مثل هذا سيترك رسالة عكسية سلبية وهي أن السفارة لا تكون إلا في الأشراف، وهذا ليس صحيحاً، الأكفأ والأفضل هو الذي يحمل الرسالة.

الملحوظة الثالثة: أن التمثيل القرشي لم يكن فقط يسيراً في هؤلاء السفراء، وإنما كان التمثيل في بني هاشم منعدماً تماماً، وهذه إشارة واضحة جداً من الرسول ﷺ أنه لا يجب أبداً أن تعطى المناصب الهامة إلا للأكفاء بغض النظر عن قرابتهم أو علاقتهم بالقائد، فالقائد المتجرد حقاً هو الذي ينظر إلى مصلحة الأمة لا مصلحة القبيلة، ويهتم بقضايا الشعب لا قضايا العائلة.

الملحوظة الرابعة في هؤلاء السفراء الكرام: أنهم جميعاً من المهاجرين لا يوجد فيهم أنصاري واحد، وهذه الملحوظة ليست خاصة بهؤلاء السفراء، لا، سنجدها تقريباً في كل مواطن السيرة، قلما تقلد أنصاري منصباً هاماً أو قيادياً في الدولة الإسلامية؛ ولعل ذلك ليبقى الأنصاري رمزاً في المسلمين يعطي ولا يأخذ، وأنتم تعرفون أهم سمة تميز الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم: أنها صفة الإيثار، كما وصفهم الله تعالى وقال: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الحشر:9]، لابد أن يبقى مثلاً يؤثر على نفسه وهو راض مطمئن، والأنصار رضي الله عنهم أجمعين ما نالوا من الدنيا شيئاً يذكر، لا في حياة الرسول ﷺ ولا بعد وفاته ﷺ، كانوا مثلاً رائعاً للعطاء بلا حدود؛ للإيثار دون تردد، فمن الأفضل أن يظلوا بهذه الصفة دائماً؛ من أجل

ذلك الرسول ﷺ لم يعطهم السفارة ولا القيادة، جاء في البخاري عن أنس رضي الله عنه وأرضاه عن أسيد بن حضير أخبره: (أن رجلاً من الأنصار جاء إلى الرسول ﷺ وقال له: يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ فقال ﷺ: ستلقون -يخاطب الأنصار عامة- بعدي أَثَرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض). أي: أمر الأنصار ألا يبحثوا أبداً على الإمارة؛ حتى يبقى دائماً مثل الإيثار واضحاً نقياً عندهم رضي الله عنهم.

ليس معنى هذا أن المهاجرين كانوا يتشوفون للإمارة أو يرغبون في السفارة أبداً، بل على العكس المهاجرون باعوا الدنيا تماماً، وهذه السفارات على شرفها خطيرة جداً، وقد يكون ثمنها حياة السفير، وسنرى هذا الكلام فعلاً بعد ذلك مع الحارث بن عمير رضي الله عنه وأرضاه عندما يقتل على يد شرحبيل بن عمرو الغساني ، وسيكون قتله سبباً في غزوة مؤتة، وسنرى هذا في الدروس القادمة. نخلص من ذلك الأمر: أن الأنصار لا يرهبون السفارة ولا المهاجرون يرغبون فيها، لكن كل يؤدي ما يناسبه، وكل ميسر لما خلق له.

كذلك هناك أمر مهم جداً: وهو أن الأنصار يقلون مع مرور الوقت، والناس حولهم تكثر من مهاجرين وغير مهاجرين، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إن الناس يكثرون ويقل الأنصار، حتى يكونوا في الناس بمنزلة الملح في الطعام)، فليس من الحكمة أن يظن الناس أن قيادة الأنصار لازمة؛ من أجل أنهم أهل المدينة التي أقيمت الدولة الإسلامية على أكتافهم، ثم بعد ذلك يفتقد الناس الأنصار لقلتهم، لا، بل الأفضل أن يستمر في الإمارة والسفارة المهاجرون الذين تتزايد أعدادهم تدريجياً، ولهم مكانة كبيرة جداً في قلوب العرب قاطبة، والأنصار سيكونون مساعدين للمهاجرين في حكمهم وقيادتهم، كما قال سعد بن عبادة رضي الله عنه وأرضاه يوم السقيفة بعد وفاة الرسول

ﷺ مخاطباً المهاجرين: (أنتم الأمراء ونحن الوزراء)، وقد فصلنا هذا الكلام كثيراً عندما عن الصديق رضي الله عنه وأرضاه في يوم السقيفة.

الملحوظة الخامسة: هي أن هؤلاء السفراء جميعاً كانوا يتصفون باللباقة والكياسة والذكاء والدهاء وحسن الحوار، ورأينا هذا الكلام كله من خلال حوارهم مع زعماء العالم، كانوا جميعاً على قدر المسئولية. من أجل النعم على الأمة أن يوسد فيها الأمر إلى أهله، وكانت هذه السفارات العديدة نقلة نوعية في خط سير الدولة الإسلامية، فقد انتقلت فيها الأمة الإسلامية من المدينة إلى كل أقطار الأرض، ومن المحلية إلى العالمية، ومن انتظار الفرصة المناسبة للدعوة إلى المبادرة بإرسال دعوات الإسلام إلى كل بقعة من بقاع العالم، إنها نقلة نوعية بكل المقاييس.

34

فتح خيبر

تحدثنا قبل ذلك عن صلح الحديبية، وذكرنا أن صلح الحديبية يعتبر نقطة تحول حقيقي ويعتبر نقلة نوعية في تاريخ الأمة الإسلامية بكل المقاييس الفارقة، ولذلك بدأ الرسول ﷺ بعد هذا الصلح الهام يرتب أوراقه من جديد، فقد قام بخطوتين كان من الصعب جداً أن يقوم بهما قبل هذا الصلح: الخطوة الأولى: خطوة مراسلة زعماء وملوك العالم، وهي خطوة ما كان يستطيع أن يقوم بها أبداً قبل صلح الحديبية؛ لأن دولة الإسلام في ذلك الوقت كانت دولة غير مستقرة، غير معترف بها حتى في محيط الجزيرة العربية، فكيف يعترف بها على مستوى العالم، أما بعد صلح الحديبية فقد استقرت الأوضاع إلى حد كبير جداً في المدينة المنورة، وأمن الناس من احتمال الحرب، واعترفت قريش بالدولة الإسلامية، وكذلك اعترفت القبائل العربية الكبرى بهذه الدولة الجديدة، بدليل دخول بعض القبائل -كخزاعة- في حلف الرسول ﷺ، ونتيجة هذا الاستقرار بدأ الرسول ﷺ في نشر الإسلام عالمياً عن طريق مراسلات عديدة إلى زعماء وملوك العالم كما فصلنا.

هذه كانت هي الخطوة الأولى بعد صلح الحديبية، وتقريباً بدأت في أول محرم سنة سبع أو في أواخر سنة ست في آخر ذي الحجة.

الخطوة الثانية: فتح خيبر، وقد قام به ﷺ بمجرد أن انتهى من صلح الحديبية.

خيبر كما نعلم جميعاً من أكبر التجمعات اليهودية في الجزيرة العربية، وملف اليهود بصفة عامة مع الرسول ﷺ أسود شديد السواد، وهذا السواد شمل كل فترات المعاملات، سواء في السلم أو في الحرب، أو في وقت المعاهدة التي عقدها مع يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، كان الأصل عند اليهود في التعامل هو الخيانة المتكررة، والتشكيك المستمر في دين الإسلام، ومحاولة إثارة الفتنة على الدوام، ثم تطور الأمر إلى معارك حقيقية بين المسلمين وبين يهود القبائل الثلاث، وانتهى الأمر بإجلاء قبيلتي بني قينقاع وبني النضير، وقتل رجال القبيلة الثالثة بني قريظة، ولم يبق من تجمعات اليهود الكبرى في الجزيرة إلا تجمع خيبر وما حولها من تجمعات أصغر مثل تجمع تيماء، وتجمع فدك، وتجمع وادي القرى، لكن التجمع الرئيس كان تجمع خيبر، وهذا التجمع الكبير من أقوى التجمعات اليهودية مطلقاً، وقد ازداد قوة بعد إجلاء يهود بني النضير؛ لأنهم انضموا بكل طاقتهم إلى يهود خيبر، وإذا كنا رأينا قبل ذلك أن كل التعاملات اليهودية مع الرسول ﷺ كان فيها خيانة وغدر وكيد وتدبير مؤامرات تلو المؤامرات، فإن يهود خيبر لم يخالفوا هذه القاعدة، مع أن علاقة يهود خيبر بالرسول ﷺ لم تكن مباشرة كالقبائل اليهودية الثلاث التي ذكرناها قبل ذلك، إلا أنهم لم يكفوا عن محاولتهم للكيد للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وأخطر محاولات ومؤامرات خيبر كانت مؤامرة جمع القبائل العربية المختلفة لحرب المسلمين في المدينة المنورة في غزوة الأحزاب، فيهود خيبر بعثوا وفداً كبيراً جداً مكوناً من عشرين زعيماً من زعماء خيبر، بالاشتراك مع بعض زعماء قبيلة بني النضير، وبدءوا يجوبون القبائل العربية الكبرى مثل: قريش، وغطفان وغيرهما؛ لتحفيز هذه القبائل على الاجتماع لحرب المسلمين، ولم يكتف يهود خيبر بالدور التنسيقي للأحزاب، بل بذلوا المال وثمار خيبر لقبائل غطفان؛ لكي يدفعوها دفعاً لاستئصال المسلمين، وقبائل غطفان

مرتزقة يحاربون بالأجر، فخيبر ضحت بنصف ثمارها؛ لكي تـدفع غطفـان لحـرب المسـلمين، وليس هذا فحسب، بل كان لهم دور كبير جداً في إقناع بني قريظة بخيانـة عهـد الرسـول ﷺ، وهذا الفعل كان سيؤدي إلى كارثة حقيقية بالمدينة المنورة، لولا أن الله عز وجـل لطـف بعبـاده المؤمنين، كما فصلنا وشرحنا في غزوة الأحزاب.

رغم فشل الأحزاب في غزو المدينة إلا أن يهود خيبر لم يكفوا أبداً عن محاولتهم المضـنية لإيـذاء المسلمين، وثبت أنهم قاموا بالتخابر مع المنافقين في المدينة المنورة؛ لكي يدبروا مؤامرات كيديـة للمسلمين، ووصل الأمر إلى محاولة اغتيال الرسول ﷺ.

وهذا التاريخ الطويل من الكيد والدس والمؤامرات يحتاج إلى وقفة مـن المسـلمين، وكـان مـن الأفضل والمناسب أن تكون هذه الوقفة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، لكن لم يكـن ذلـك ممكنـاً ومتيسراً؛ لأن الرسول ﷺ كان يخشى أن تباغت قريش المدينة المنورة في أي لحظـة، ومـا غـزوة الأحزاب عنه ببعيد، لأنه قد يجتمع الناس من جديد لمحاصرة المدينة واقتحامها، فالرسول ﷺ لا يستطيع أن يترك المدينة المنورة بدون جند، وخاصة أن حصون خيبر كانت شديدة التحصين والقوة، وأعداد اليهود كبيرة جداً، وتوقع الرسول ﷺ أن حرب خيبر تحتاج إلى وقـت طويـل، فلذلك لم يستطع أن يترك المدينة، فانتظر حتى تأتي الفرصة المناسبة، وهو لم ينس أهل خيـبر ولم يقلل من شأنهم، وإنما أجل أهل خيبر إلى الوقت المناسب، وهذا الوقت الذي انتظـره الرسـول ﷺ لم يضيعه، بل قام بحملات تأديبية لقبائل غطفان وغيرها مـن القبائـل التـي تحزبـت ضـد المسلمين، وكان ما يميـز كـل هـذه الحمـلات أنهـا كانـت سريعـة وخاطفـة، وليسـت بـالقوة العسكرية الإسلامية الكاملة، كل هذا خوفاً من هجـوم قـرشي مباغـت عـلى المدينـة المنـورة، وكانت هذه الاستراتيجية سارية وبنجاح حتى صلح الحديبية، لكن بعد صلح الحديبية تغيرت الأوضاع، فقد أمن الرسول ﷺ من حرب قريش، ووضعت الحرب بين الدولتين لمـدة عشـر

سنوات كاملة؛ لذلك أول ما أتم الرسول ﷺ صلح الحديبية استغل الهدنة التي عقدها مع قريش في تأديب هؤلاء اليهود الغادرين.

أهداف سرعة خروج الرسول ﷺ إلى خيبر

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى خيبر بعد أقل من شهر من عودته من صلح الحديبية في محرم سنة سبع، وكانت هذه السرعة لأهداف، منها: أنه يريد حفظ كرامة الأمة الإسلامية بالرد على اليهود الغادرين.

ومنها: أنه لا يأمن غدر قريش وحلفائها؛ من أجل ذلك بادر إلى هذه الخطوة قبل أن تفكر قريش في الغدر أو تستعد له.

ومنها: أن خبر صلح الحديبية وصل حتماً إلى يهود خيبر، وقد يتوقعون هجوماً من المسلمين، لذلك كلما كان أسرع كان أفضل قبل أن يستعد اليهود.

ومنها: أنه أراد أن يرفع معنويات المسلمين المنكسرة بعد صلح الحديبية، فهم لم يكونوا قد رأوا الخير الذي ترتب على صلح الحديبية، فأراد ﷺ أن يعوضهم بهذا الفتح القريب.

وفوق كل هذه الأهداف أن رب العالمين سبحانه وتعالى كان قد بشر المؤمنين أن هناك مغانم كثيرة سيحققونها بعد صلح الحديبية، كما جاء في سورة الفتح التي نزلت مباشرة بعد الصلح، ولعل هذه الغنائم تكون غنائم خيبر، وقد كان كما قال الله عز وجل في سورة الفتح: {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} [الفتح:20] فقوله تعالى: {مَغَانِمَ كَثِيرَةً} هي مغانم خيبر وغير خيبر من الفتوحات الإسلامية التي جاءت بعد هذا الصلح العظيم، وقوله: (هَذِهِ) أي: صلح الحديبية.

سبب عدم قبول الرسول ﷺ خروج المنافقين معه إلى خيبر

كانت هناك مشكلة كبيرة جداً، وهي أن الرسول ﷺ كان خائفاً من خيانة المنافقين داخل المدينة المنورة، وكما ذكرنا أن المنافقين يتعاملون مع اليهود، والعلاقة بينهم كانت حميمة من أيام بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، والآن ثبت أنهم يتعاملون مع يهود خيبر، فالرسول ﷺ لا يريد أن يخرج معه المنافقون في هذا الجيش، فماذا يفعل؟ هو لا يستطيع أن يقف ويقول: المنافق لا يخرج؛ لأن النفاق أمر قلبي، لكن الرسول ﷺ أعلن أنه لا يخرج إلى قتال أهل خيبر إلا من شهد صلح الحديبية، وبذلك يضمن أن كل من شارك في هذا الفتح سيكون من المؤمنين؛ لأن هذه المجموعة التي شاركت في صلح الحديبية جميعاً مؤمنون كما قال الله عز وجل عنهم: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح:18]، فخرج الرسول ﷺ بألف وأربعمائة مقاتل، وهم الذين كانوا معه في صلح الحديبية، وكما هو معلوم إذا رأينا الصف المؤمن خالصاً نقياً مؤمناً؛ فإن الله عز وجل يمنحه النصر والتمكين.

خرج هذا الجيش العظيم بهذه الروح الطيبة المتفائلة، ولنتذكر أن ألف وأربعمائة مقاتل سيحاربون أعداداً ضخمة هائلة؛ لأن أعداد اليهود كانت أضعاف أضعاف الجيش الإسلامي، ومع ذلك كانوا خارجين بتصميم ويقين على أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى، قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:249].

كما توقع الرسول ﷺ فقد أرسل المنافقون إلى يهود خيبر يخبرونهم بقدوم الرسول ﷺ إلى خيبر، بل وشجعوهم على قتال الرسول ﷺ، وقالوا لهم: لا تخافوا منهم؛ فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا القليل.

قرارات الرسول ﷺ في تأمين عملية اجتياح خيبر

لما وصلت رسالة المنافقين إلى أهل خيبر بخروج الرسول ﷺ إليهم واستعد أهل خيبر، ولم يكتفوا بالاستعداد والتحصن، بل أرسلوا أحد زعماء اليهود واسمه كنانة بن أبي الحقيق، وهو أخو سلام بن أبي الحقيق الذي قتل قبل عدة أشهر على أيدي المسلمين، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق إلى قبائل غطفان المرتزقة وعرضوا عليهم المال؛ لكي يساعدوهم ويعاونوهم في حرب المسلمين، وعرضوا عليهم نصف ثمار خيبر، وبالفعل بدأت قبائل غطفان في التجهز للخروج في اتجاه خيبر وأعدوا جيشاً كبيراً جداً لهذا الأمر، وبفضل الله اكتشفت مخابرات الرسول ﷺ هذا التحرك لغطفان، وبسرعة أخذ الرسول ﷺ عدة قرارات لكي يؤمن عملية اجتياح خيبر:

أولاً: أخرج ﷺ سرية بقيادة أبان بن سعيد رضي الله عنه باتجاه أعراب نجد حول المدينة؛ لكي يثير الرعب في هذه المنطقة فلا تجرؤ غطفان ولا غير غطفان على مهاجمة المدينة المنورة؛ لأنها خالية تقريباً من الرجال في ذلك الوقت؛ أول شيء: أنه قام بتأمين المدينة المنورة.

ثانياً: أرسل سرية إلى ديار غطفان، فالمسلمون متجهون إلى الشمال باتجاه خيبر، والرسول ﷺ أرسل سرية إلى الشمال الشرقي إلى ديار غطفان؛ لكي يوهم جيش غطفان أنه سيغزو ديارهم لا ديار اليهود، وأمر هذه السرية أن تظهر أمرها ولا تتخفى، وتحدث لغطاً وصوتاً عالياً، لكي يلفت أنظار جيش غطفان فيعود مرة ثانية إلى دياره، ولا يشترك مع أهل خيبر في الدفاع عن حصون خيبر، وفعلاً هذا الذي حصل، فجيش غطفان لما سمع الصوت رجع سريعاً عائداً إلى قبائله وإلى دياره، وترك يهود خيبر يواجهون الرسول ﷺ منفردين.

ثالثاً: أن الرسول ﷺ غير اتجاهه، حيث أخذ بعض الأدلة لتدله على طريق آخر ليدخل خيبر من شمالها وليس من جنوبها، والمدينة المنورة في جنوب خيبر، وبدلاً من أن يدخل من الجنوب دخل من الشمال، ويكون بذلك حقق شيئين، وضرب عصفورين بحجر:

أولاً: سيحول بين غطفان وبين خيبر بجيشه، فجيشه سيفصل بين قبائل غطفان وبين مدينة خيبر.

ثانياً: سيمنع اليهود من الفرار إلى الشام، فيحصر اليهود في منطقة خيبر، وسيكون الطريق إلى الشمال مغلقاً بالجيش الإسلامي.

وهذا تخطيط عسكري على أحسن مستوى.

عوامل ومقومات النصر في جيش الرسول ﷺ في غزوة خيبر

نستطيع بهذا أن نتبين بعض ملامح الجيش المنصور من الخطوات السابقة: أولاً: الجيش بكامله من المؤمنين وهذا أهم عامل، فالرسول ﷺ حدد الخروج في أولئك الذين شهدوا صلح الحديبية، حتى لو كان هؤلاء قلة، فإنهم سينتصرون بإذن الله عز وجل.

فكل الجيش كان مؤمناً، وكان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالرسول ﷺ، ويجمعهم رباط العقيدة، وقد تخلت غطفان عن اليهود؛ لأنه لا يربطهم ببعضهم إلا المصالح الدنيوية، أما الجيش الإسلامي بشتى فروعه: قبائل الأنصار، وقبائل المهاجرين، وغير ذلك من القبائل التي دخلت مع الرسول ﷺ في المدينة المنورة، كل هذا الجيش كان وحدة واحدة، وهذا من أهم عوامل النصر.

وكذلك الأخذ بالأسباب: إعداد العدة، والخطة، والخطط البديلة، وتغيير الاتجاه، والعيون، فكل شيء يستطيع أن يفعله ﷺ من أسباب النصر فعله ﷺ، فهو سيدخل منطقة خيبر وعنده مقومات النصر للمسلمين.

اقترب الرسول ﷺ من خيبر جداً، وكان هذا الاقتراب في الليل، والرسول ﷺ لم يكن يقاتل بالليل، كان ينتظر حتى يأتي الفجر، ثم يقاتل بعد الفجر ﷺ، فاختار ﷺ مكاناً وعسكر فيه قريباً من مجموعة حصون اسمها حصون النطاة، على وزن حصاة، وكانت مجموعة حصون كبيرة في منطقة خيبر، وعندما اختار الرسول ﷺ ذلك المكان جاء إليه الحُباب بن المنذر رضي الله عنه وأرضاه وقال: (يا رسول الله إن هذا المنزل قريب من حصن نطاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وهذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة) أي: هذا مكان بين النخلات قد يتسلل اليهود من خلال النخيل إلى الرسول ﷺ وأصحابه ولا يدركون هذا التسلسل. (فلو أمرت بمكان آخر نتخذه معسكراً،) فقال ﷺ: (الرأي ما أشرت به) وغير ﷺ المكان إلى المكان الذي أشار به الحباب بن المنذر رضي الله عنه وأرضاه، والحباب قبل ذلك أشار بمثل هذه المشورة في موقعة بدر، ورأينا سعة صدر الرسول ﷺ لقضية الشورى وسماع آراء الآخرين، وكيف كان ذلك سبباً للنصر في بدر، وسيكون سبباً من أسباب النصر في خيبر، وهي سنن ثابتة كما نرى.

إعطاء الرسول ﷺ الراية في خيبر لعلي رضي الله عنه

بعد أن استقر الجيش الإسلامي في مكانه الجديد، قام ﷺ وخطب في الناس وقال لهم: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه).

واضح جداً من هذا الوصف أن من يفتح الله عز وجل على يديه البلاد، ويمكن له في الأرض وينصره على أعدائه لا بد لهذه الشخصية أن تكون محبة لله عز وجل ولرسوله الكريم ﷺ، وأن تكون محل حب الله عز وجل وحب رسوله الكريم ﷺ، هذه الصفة لا تأتي إلا بموافقة تامة للشرع وبصدق كامل في النية، والله عز وجل مطلع على القلوب، ولا يعطي نصره إلا لمن

أحب سبحانه وتعالى. هذا الأمر ينطبق على كل مراحـل التمكـين في حيـاة الأمـة الإسـلامية، وعلى كل انتصارات الأمة الإسلامية، فأنت إذا رأيت الله عز وجل نصر خالد بن الوليـد رضي الله عنه وأرضاه، أو نصر عمرو بن العاص، أو نصر صـلاح الـدين الأيـوبي، أو سـيف الـدين قطز، أو يوسف بن تاشفين أو أي إنسان مكن له في الأرض ونصر، فاعلم أن هذه علامـة مـن علامات حب الله عز وجل للعبد.

الرسول ﷺ لما قال هذه الكلمات وأصبح في اليوم الثاني جاء الناس جميعاً متشوفين لحمل هـذه الراية، فقال ﷺ: (أين علي بن أبي طالب؟) فقال الناس: (يـا رسـول الله هـو يشـتكي عينيـه)، فأرسل إليه) فسيدنا علي بن أبي طالب كان عنده رمد في عينيه، وكان لا يرى إلا بصعوبة، فهـم قالوا: يا رسول الله إنه مريض به رمد في عينيه، فالرسول ﷺ أصر على الإتيـان بــ عـلي بـن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، فلما جاء بصق ﷺ في عينيه فبرئ علي بن أبي طالب كأن لم يكن به أي مرض، وأعطاه ﷺ الراية، وكان الجميع يرى أن ظروف علي بـن أبي طالـب لا تسـمح لـه بالقيادة، ولكن رب العالمين سبحانه وتعالى يسر له ذلك الأمر، فإن كنـت صـادقاً فسـيفتح الله لك أبواب العمل، وأبواب التوفيق إلى عمـل، حتـى وإن كانـت الظـروف صـعبة والمعوقـات كثيرة، قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَالَّذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللهَّ لَمَـعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:69].

أخذ سيدنا علي الراية وقال: (يا رسول اللهأقاتلهم حتـى يكونـوا مثلنـا؟) فقـال ﷺ موضـحاً الغاية من الحرب في الإسلام: (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهـم إلى الإسـلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مـن حمر النعم). يبين الرسول ﷺ أن إسلام هـؤلاء أحـب إليـه مـن أمـوالهم ومـن ديـارهم ومـن سلطانهم ومن كل شيء، فمع كل التاريخ الأسود لليهود، ومع كـل المحـاولات المضـنية التـي

بذلوها لاستئصال المسلمين في المدينة المنورة، إلا أن الرسول ﷺ ما زال إلى هذه اللحظة حريصاً تمام الحرص على إسلامهم وهدايتهم إلى رب العالمين سبحانه وتعالى.

بدء تحرك الرسول ﷺ وأصحابه تجاه حصون خيبر

بدأ الجيش الإسلامي في التحرك باتجاه خيبر، وخرج اليهود كالعادة من حصونهم إلى مزارعهم، وفوجئوا برسول الله ﷺ والجيش معه، فقالوا: (محمد والخميس). و (الخميس) يعني: الجيش الكبير، ورجعوا هاربين بسرعة إلى حصونهم، وأغلقوا الأبواب عليهم، وصاح الرسول ﷺ صيحة عالية سمعها الجيش بكامله وسمعها اليهود، قال ﷺ: (الله أكبر خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر) قالها ثلاثاً ﷺ ثم قال: (إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

هذه الكلمات كانت آثارها هامة على الجيشين: الجيش الإسلامي، والجيش اليهودي، فهو يذكر المسلمين بأن النصر من عند الله عز وجل، وأن الله عز وجل أكبر من أي عدو، فإن كنتم ترون حصون خيبر وسلاح خيبر وأعداد خيبر أكثر بكثير منكم فاعلموا أن الله عز وجل معنا وهو ناصرنا عليهم، ففيها رفع الروح المعنوية عند المسلمين، وذكر المسلمين بأيام الله عز وجل، ذكرهم ببدر وذكرهم بالأحزاب، وذكرهم بما حدث قبل ذلك من قتال مع اليهود في المواقع الثلاثة التي ذكرناها قبل ذلك. وهذه الكلمات أيضاً وصلت إلى أسماع اليهود وأوقعت الهزيمة النفسية في قلوبهم. (الله أكبرخربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

و (المنذرون) هم اليهود؛ لأن الرسول ﷺ بلغهم الرسالة مرات عديدة فأبوا أن يستمعوا إلى كلامه، ثم أعاد عليهم الرسالة على لسان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه كما فصلنا.

فتح الرسول ﷺ لحصون خيبر واحداً تلو الآخر

خيبر عبارة عن منطقة ذات حصون كثيرة جداً، فيها حصون كبيرة وفيها حصون صغيرة، لكن الحصون الكبيرة عبارة عن ثمانية حصون رئيسة، خمسة منها في منطقة، وثلاثة في منطقة ثانية، والخمسة الحصون هي خط الدفاع الاستراتيجي الأول لليهود، وهذه الحصون مقسمة إلى ثلاثة حصون وحصنين، ثلاثة حصون في منطقة اسمها النطاة، واثنان في منطقة اسمها الشق، والحصون الثلاثة التي في منطقة النطاة أسماؤها: ناعم، ثم الصعب بن معاذ، ثم قلعة الزبير.

أول حصن منها قابل الرسول ﷺ كان حصن ناعم، وهو من الحصون القوية جداً في خيبر، والرسول ﷺ اقترب كثيراً من هذا الحصن، وأرسل علي بن أبي طالب ليدعوهم إلى الإسلام كما ذكرنا قبل ذلك، وهنا لا ينبغي أن يقول قائل: إنه لا إكراه في الدين؛ لأن الحرب هنا ليست عقاباً لهم على تركهم للإسلام، وليست عقاباً لهم على رفضهم الدعوة الإسلامية، ولكن جاء الرسول ﷺ من المدينة المنورة إلى خيبر ليعاقب اليهود على جرائمهم المتعددة السابقة، ليعاقبهم على تحزيبهم الأحزاب وحصار المدينة المنورة، وعلى تجسسهم مع المنافقين في داخل المدينة المنورة، وعلى محاولتهم اغتيال الرسول ﷺ، وعلى تحفيزهم لغطفان أكثر من مرة لحرب المسلمين، فلذلك قرر الرسول ﷺ أن يعاقبهم، ولكنه أعطى لهم فرصة أخيرة ليرفعوا عن أنفسهم العقاب الذي يستحقونه، فهو أخبرهم إن أسلمتم رفعنا عنكم العقاب وتناسينا كل ما سبق، وهذه سعة صدر ورحمة من رسول الله ﷺ، لكن اليهود رفضوا هذه الدعوة، رفضوا دعوة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهم بالإسلام، وقرروا الحرب، واغتروا كثيراً بقواتهم وأعدادهم وحصونهم. عادة الحروب القديمة أن يبدأ القتال بمبارزة بين أحد الفرسان من فريق، وأحد الفرسان من الفريق الآخر، والمنتصر في هذه المبارزة يعطي دفعة معنوية كبيرة للفريق الذي انتصر في هذه اللحظات الأولى من القتال، فاليهود أخرجوا أحد أبطالهم وأشد

فرسانهم وكان اسمه مرحب، وكان عملاقاً ضخم الجثة، وخرج وطلب المبارزة فخرج له عامر بن الأكوع رضي الله عنه وأرضاه، وسرعان ما دارت المبارزة بين الاثنين، وضرب عامر بن الأكوع مرحباً اليهودي ضربة كبيرة، ولكن طاشت الضربة ولم تصل إلى مرحب، لكن هذه الضربة أكملت الطريق ووقع سيف عامر نفسه في ركبته، فقتل عامر بسيفه خطأ، واستشهد رضي الله عنه وأرضاه، فقال الناس: قتل نفسه، وتأثر الناس جداً من هذا الموقف، بل وصل الأمر إلى أن بعض الصحابة قالوا: حبط عمله، وكأنه قد قتل نفسه بإرادته، وهذا لم يحدث، ودليل ذلك أن الرسول ﷺ علق بعد ذلك على هذه الحادثة، وأثنى على عامر بن الأكوع رضي الله عنه وأرضاه، فقال: (إن له لأجرين، وجمع بين إصبعيه ﷺ، ثم قال: إنه لجاهد مجاهد) أي: مجتهد جداً في العلم والعبادة والعمل، مجاهد في سبيل الله، (قل عربي مشى بها مثله) نادر جداً من العرب من مشى في أرض المعركة أو مشى في الأرض بصفة عامة مثل هذا الرجل المجاهد عامر بن الأكوع رضي الله عنه وأرضاه. لكن في أرض المعركة أحدث قتل عامر بن الأكوع هزة عند المسلمين، ورفع الروح المعنوية عند اليهود، فوقف مرحب القائد اليهودي يطلب المبارزة من جديد بعد أن ارتفعت معنوياته في اللحظات الأولى من القتال، فخرج له من المسلمين البطل الإسلامي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه حامل راية المسلمين في موقعة خيبر، ودار بينهما قتال شديد عنيف، ثم من الله عز وجل على علي بن أبي طالب بالنصر، كما تنبأ بذلك رسول الله ﷺ، (رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه)، وبالفعل فتح الله عز وجل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتل مرحب، وقتل مرحب فيه إشارة كبيرة إلى أن النصر سيكون للمسلمين؛ لأن مرحب كان أقوى رجل في اليهود، وكان اليهود لا يتصورون أبداً أن يقتله أحد المسلمين، وخرج أخو مرحب واسمه ياسر، وأراد الثأر لأخيه، وكان أيضاً من العمالقة اليهود، خرج يطلب المبارزة فخرج له الزبير بن العوام رضي الله عنه

وأرضاه، واستطاع الزبير رضي الله عنه وأرضاه أن يقتل ياسر أخا مرحب، وكانت بداية الانتصار للمسلمين واحتدم اللقاء بين الفريقين، واللقاء لم يتم في ساعة أو ساعتين ولكن استمر عدة أيام منفصلة، وهذا غريب في عرف القتال عند العرب؛ لأن العادة -كما رأينا قبل ذلك في بدر وفي أحد وفي غيرهما- أن يكون اللقاء يوماً واحداً، لكن في هذا اللقاء الشديد دارت المعركة أكثر من يوم، حتى تسلل اليهود من حصن ناعم وتركوه فارغاً للمسلمين وكان هذا التسلل ليلاً في أحد الأيام، وانتقلوا إلى الحصن الذي وراءه وهو حصن الصعب بن معاذ، واحتل المسلمون حصن ناعم، وكان ذلك رافداً قوياً للجيش الإسلامي في موقعة خيبر.

فتح الرسول ﷺ وأصحابه لحصن الصعب بن معاذ

لم يكتف الرسول ﷺ بهذا النصر الجزئي في هذه المعركة، بل استمر في القتال مع اليهود، فهو جاء لينتقم من أفعال اليهود المتكررة، وليخرج اليهود من هذه البلاد كما أخرج قبل ذلك يهود بني قينقاع وبني النضير، وحاصر الرسول ﷺ حصن الصعب بن معاذ حصاراً شديداً، وحصن الصعب بن معاذ كان أشد صعوبة من الحصن الذي قبله حصن ناعم.

ومع أن الحصار شديد، ومع أن فتنة الحرب كبيرة، إلا أن الله عز وجل أراد أن يبتلي المؤمنين أكثر وأكثر، فأوقعهم في أمر صعب إلى جوار صعوبة الحرب، وهو أمر الجوع، لقد جاع المسلمون جوعاً شديداً، حتى قالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء. لما ازداد الجوع بالمسلمين قام بعض رجال الجيش الإسلامي بذبح بعض الحمير للأكل، والعرب كانت تأكل الحمير في ظروف معينة، ولم يكن هذا الأمر محرماً على المسلمين في ذلك الوقت، ونصبوا القدور ولم يكن هذا بعلم الرسول ﷺ، ولما رأى الرسول ﷺ النيران مشتعلة، قال: (على أي شيء توقدون؟) وهو يعلم أنه ليس مع الجيش لحم يوقد عليه النار، فقالوا: (يا رسول الله على لحم) أي: نوقد هذه النيران على لحم. (قال: أي لحم؟ قالوا: لحوم الحمر الإنسية) أي: لحوم الحمر التي نعرفها

وتستخدم في النقل، وهذه الحمير لم تكن محرمة على المسلمين حتى تلك اللحظة، ولكن الرسول ﷺ في هذا الموقف الصعب قام ونهى عن أكل لحوم الحمر الإنسية، حيث قال: (إنها لا تحل لامرئ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر).

هذا موقف صعب، الناس في ضائقة وفي مخمصة شديدة، كما وصف أحد الصحابة أنه جوع شديد جداً، وبدأت اللحوم تنضج، ورائحة اللحوم بدأت تظهر عند الناس ونفوسهم متشوقة إلى الأكل، ثم أتى النهي من عند رسول الله ﷺ. هذا ابتلاء كبير لا ينصاع له إلا مؤمن كامل الإيمان، وبفضل الله نجح الجيش بلا استثناء في هذا الاختبار، والكل لم يأكل من هذه اللحوم؛ بل إن الرسول ﷺ لم يكتف بتحريم الأكل من لحوم الحمر الإنسية، وإنما قال (أريقوها واكسروها) أريقوا ما في القدور من اللحوم والمرق واكسروا القدور؛ ليختفي كل أثر لهذه اللحوم، فسأل بعض الصحابة: (أنريقها ونغسلها؟) أي: بدل الكسر نغسل القدور، (فقال: أو ذاك) يعني: قبل ﷺ بغسل القدور.

هذا التحريم جاء في وقت يحتاج فيه الجيش لهذا الأكل، وواضح أن الرسول ﷺ كان يرى أن موقف الصحابة لم يصل بعد إلى موقف الاضطرار، وما زال بهم قوة أن يبقوا بدون طعام فترة من الزمان، وإلا لو كانوا مضطرين لجاز لهم أكل أي شيء حتى الميتة كما يعلم الجميع. هذه تربية إيمانية عالية جداً، ونجاح عظيم للجيش المؤمن، وهذه من أعظم أسباب النصر.

هذا يلفت أنظارنا لمسألة مهمة نحب أن نقف عليها، وهي أن هذا التحريم الذي جاء على لسان الرسول ﷺ لم يأت في القرآن الكريم، والله سبحانه وتعالى ذكر في الكتاب أنواعاً كثيرة من المحرمات على المسلمين، منها: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ} [المائدة:3]، وغيرها من المحرمات التي ذكرت للمسلمين.

تحريم الحمر الإنسية لم يأت في كتاب الله عز وجل، وإنما جاء فقط في السنة النبوية، ومـع ذلـك على المسلمين ألا يأكلوا من الحمر الإنسية، والرسول ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة المنورة قـال في خطبة ذات يوم للصحابة بعد أن ادعى بعض المنافقين أنه يكتفي فقـط بـالقرآن الكـريم، أو أن الرسول ﷺ تنبأ أنه سيأتي زمان على المسلمين فيدعي بعضهم أن القرآن الكـريم يكفـيهم دون السنة، فروى أبو داود رحمه الله عن المقدام بن معدي كَرِبْ رضي الله عنه، قال: قال رسـول الله ﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معـه).و (الكتـاب) القـرآن الكـريم (ومثلـه معـه) السـنة المطهرة، والسنة وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، (ألا يوشك رجل شـبعان عـلى أريكتـه يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيـه مـن حـلال فـأحلوه، ومـا وجـدتم فيـه مـن حـرام فحرموه) أي: يقصد هذا الشخص الجالس على أريكته الاكتفاء بالقرآن والابتعاد عن السنة.

ثم قال: (ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي نـاب مـن السَـبُع)، وذكـر ﷺ أنواعـاً أخرى من المحرمات، وهذه المحرمات لم تأت في كتاب رب العالمين سبحانه وتعالى، ومع ذلك فهي محرمة على المسلمين بتحريم الرسول ﷺ لها، فثبت الحكم عند المسلمين، وهـذا مـن أبلـغ الأدلة لكون السنة النبوية مصدراً هاماً من مصادر التشريع.

بعد هذه الأزمة التي حصلت للمسلمين بخيبر لجأ المسلمون لجـوءاً كـاملاً إلى الله عـز وجـل، وهذه من أبلغ الفوائد في الأزمات، عند الأزمات يلجأ المسلمون الصادقون إلى الله عـز وجـل ليفتح لهم أبواب الرحمة، فوقف الرسول ﷺ يدعو والصحابة يؤمنون، قال ﷺ: (اللهـم إنـك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح علـيهم أعظـم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً وودكاً) والودك: هو اللحـم الدسـم السـمين، وفي اليـوم الذي تلاه فتح الله عليهم حصن الصعب بن معـاذ، وهـو مـن أغنـى حصـون خيـبر بالطعـام والشراب، وفيه ما لذ وطاب من ألوان الطعام المختلفة، ووجدوا فيه الطعام والـودك كـما دعـا

النبي ﷺ، واستجيب الدعاء بحذافيره. وأكل الناس وشبعوا واستكملوا الحرب بفضل الله، وانتقلوا من هذه القلعة إلى غيرها.

فتح الرسول ﷺ وأصحابه لحصن قلعة الزبير

بعد أن سقط حصن ناعم، ثم سقط حصن الصعب بن معاذ، وفيه وجدوا الكثير من الطعام كما ذكرنا، انتقلوا بعد ذلك إلى حصن قلعة الزبير، وهو الحصن الثالث في المنطقة، وحصن قلعة الزبير من أمنع الحصون في هذه المنطقة، وكما يقول الرواة: لا تقدر عليه الخيل والرجال؛ لأنه فوق قمة جبل، ويصعب الوصول إليه، ففرض الرسول ﷺ عليه الحصار مدة ثلاثة أيام، ثم ألقى الله عز وجل الرعب في قلب رجل من اليهود، فأتى وتسلل من الحصن، وجاء إلى الرسول ﷺ وطلب الأمان، ثم قال له: (يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا، إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك) أي هناك شراب يدخل إلى الحصن عن طريق عيون تدخل من تحت الأرض، وهم في كل ليلة يخرجون دون أن يشعر المسلمون ويأخذون من هذا الشراب، فيقول اليهودي: (فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك). لو قطعت هذه العيون لا بد أن يخرجوا؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يعيشوا بدون ماء، فقطع ﷺ الماء عن اليهود، فخرجوا وقاتلوا أشد القتال، واستمر القتال فترة من الزمان حتى انتصر المسلمون، وافتتحت قلعة الزبير. هذه من أشد المعارك ضراوة في تاريخ المسلمين، فهم عند كل حصن يقاتلون أياماً، ثم يهربون من الحصن إلى الحصن الذي يليه، وهكذا وهذه الحصون مبنية بمهارة عجيبة جداً، فكل حصن متصل بالآخر.

هكذا انتهى الرسول ﷺ من فتح الحصون الثلاثة الأولى، التي هي: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير، وكانت في منطقة تسمى النطاة.

قبل أن ننتقل ونعرف ماذا عمل الرسول ﷺ بعد فتح حصون منطقة النطاة، لا بد أن نقف وقفة ونقول: إن نصر الله سبحانه وتعالى يأتي بعد أن يستنفد المسلمون كل أسباب النصر، وقد لا تؤدي هذه الأسباب إلى النصر بذاتها، بل كثيراً ما يحدث أن يعجز المسلمون بعد بذل الأسباب، ثم يأتي النصر من حيث لا يتوقعون، كما فعل الله عز وجل قبل ذلك في بدر وفي الأحزاب وفي مواطن كثيرة، وجنود الرحمن كثيرون، كما قال سبحانه: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر:31] وأحد جنود الرحمن سبحانه وتعالى في موقعة خيبر كان ذلك اليهودي، وهو ما زال على يهوديته، فأتى إلى رسول الله ﷺ وكشف له الطريق الذي به استطاع المصطفى ﷺ والصحابة الذين معه أن يفتحوا هذا الحصن الصعب: قلعة الزبير، {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [آل عمران:126].

فتح الرسول ﷺ لحصني أُبَي والنزار

بعد هذه الفتوح انتقل اليهود إلى الحصن الذي يليه، الذي هو: حصن قلعة أبي، وهو أحد حصون منطقة الشق، فبعد أن فتحت منطقة النطاة كلها بقيت منطقة الشق وفيها حصنان: أبي، والنزار، ودار قتال عنيف حول قلعة أبي إلى أن فتحت بنفس الطريقة، حصار ثم قتال، ثم هرب اليهود إلى الحصن الذي يليه، الذي هو حصن النزار. هذا الحصن الخامس وقف الرسول ﷺ محاصراً له عدة أيام؛ لأنه كان أمنع الحصون الخمسة، لذلك وضع اليهود في ذلك الحصن الذراري والنساء، وظنوا أنه من المستحيل أن يفتح، ولذلك استمر الحصار فترة طويلة من الزمان بالقياس إلى ما قبله، وما استطاع الرسول ﷺ أن يفتح الحصن، فلجأ ﷺ إلى طريقة جديدة في الحرب، أتى بالمنجنيق، وكان المسلمون قد استولوا عليه من بعض الحصون اليهودية السابقة، يقال: كان في حصن الصعب بن معاذ، فنصب رسول الله ﷺ المنجنيق وبدأ يقصف الحصن بقذائف من بعد، حتى أحدث خللاً في بعض الجدران لهذا الحصن، ومن هذا الخلل

تسلل المسلمون إلى داخل الحصن ودار قتال من أعنف أنواع القتال في داخل الحصن، وكتب الله عز وجل النصر للمسلمين للمرة الخامسة، وفتح الحصن العظيم حصن النزار، وهرب منه بقية اليهود إلى حصون المنطقة الأخرى التي اسمها الكتيبة، وتركوا خلفهم النساء والأطفال وكل شيء.

حصار الرسول ﷺ لحصن القَمُوص وتسليم حصني الوطيح والسُلالم

انتقل الرسول ﷺ إلى منطقة الكتيبة، ومنطقة الكتيبة منطقة واسعة فيها ثلاثة حصون كبيرة: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلالم، هذه الحصون الثلاثة كانت من الحصون المنيعة، وتحصن فيها اليهود، لكنهم كانوا قد أصيبوا بهزيمة نفسية كبيرة نتيجة الهزائم المتلاحقة في أكثر من موقعة سابقة في خبير، ففتح خيبر ليس مجرد لقاء عابر، وليس مجرد موقعة واحدة، بل هو عبارة عن عدة مواقع متتالية في مكان واحد، حصن وراء حصن، حتى فتح المسلمون خمسة حصون صعبة دون هزيمة واحدة؛ لذلك كانت خيبر محفورة في أذهان اليهود، ومحفورة في أذهان المسلمين، فهي من أعظم انتصارات المسلمين مطلقاً، وسماها ربنا في كتابه الكريم فتحاً: {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح:18] أي: فتح خيبر.

انتقل الرسول ﷺ إلى منطقة الكتيبة وحاصر أول حصن الذي هو حصن القموص، واستمر الحصار أربعة عشر يوماً متصلة، واختلف الرواة فيما حدث في هذا الحصن، هل دار قتال بعد هذا الحصار، أم أنهم سلموا بدون قتال؟ الثابت أن الحصنين الآخرين اللذين هما حصن الوطيح وحصن السلالم سُلِّما دون قتال، لكن المختلف فيه هو حصن القموص، لكن سواء دار قتال أو لم يدر قتال، فقد طلب اليهود بعد عدة أيام أن ينزلوا على الصلح، وقاموا بعمل المفاوضات مع رسول الله ﷺ، فقبل ﷺ أن يتفاوضوا في هذا الأمر، وكان الذي نزل للمفاوضة هو كنانة بن أبي الحقيق، فدار بينه وبين الرسول ﷺ حوار طويل خلاصته أن

المفاوضات في صالح المسلمين 100٪، فقد صالح اليهود على حقن دماء كل مـن في الحصـون من المقاتلة والذرية والنساء، على أن يتركوا الديار والثياب والأموال والـذهب والفضـة وكـل شيءإلا ثوباً على ظهر إنسان، فسيخرجون في أكبر هزيمة من هزائم اليهود مطلقاً، والحقيقة أنه كان انتصاراً مهولاً بالنسبة للمسلمين، والرسول ﷺ في هذا المعاهدة شرط عليهم شرطاً هامـاً جداً، قال: (وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ إن كتمتموني شيئاً) أي: لـو أخفـى اليهـود شيئاً من الأموال أو من الذهب والفضة، فإنه يجوز للرسول ﷺ أن يعاقبهم؛ بسـبب إخفـائهم للمال أو للذهب أو الفضة، وقبل اليهود بذلك الشرط، وبدءوا في الخروج من خيبر.

وقفة مع قتال الرسول ﷺ لليهود بخيبر ومقارنة ذلك بقتال غير المسلمين

نقف وقفة ونقول: يجب ألا ينسى المحلل لهذه الغزوة أنها مـن أولهـا إلى آخرهـا جـاءت عقابـاً لليهود على خياناتهم المتكررة، وتأليبهم القبائل العربية على حرب المدينـة المنـورة، ومحـاولاتهم المستمرة لاستئصال أهـل المدينـة المنـورة، واغتيـال الرسـول ﷺ، وكـون الرسـول ﷺ يقبـل بخروجهم أحياء؛ فهذا تفضل منه ﷺ، وكان من حقه أن يعاملهم بالمثل وبالقصاص بأن يقتل المقاتلة الذين يقاتلون منهم، لكن أقيمت المعاهدة على هذا النمط. كل الغـربيين الـذين حللـوا موقعة خيبر يقولون: إن هذا من الظلم لليهود، وهذا من الشر في الحروب، وهذا من التجـاوز في المعاملة! نقول: هذه طبيعة الحروب، وكان اليهود حريصين تمام الحرص على قتل المسـلمين، والناظر إلى تاريخ الحروب في الأرض يجد أن حروب الرسـول ﷺ هـي مـن أرحـم الحـروب مطلقاً في تاريخ الإنسانية، ولو نظرتم إلى حال الإنجليـز والفرنسـيين في الحـروب، وإلى حـال ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، فخسائر ألمانيا في الحرب العالمية الثانية 20 مليون قتيـل، مـنهم 850 ألفاً من الجنود، أقل من مليون من الجنود، و 19 مليوناً من المـدنيين قتلـوا في الحـروب، بينما في عهد الرسول ﷺ لم يقتل مدني أبداً، بل كان يـأمر النـاس أن (اغـزوا في سـبيل الله، عـلى

بركة الله، لا تقتلوا شيخاً كبيراً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا منعزلاً في صومعة) ولا أي إنسان لم يقاتل المسلمين، وكان يفرق ﷺ بين الكافر الذي يقاتل المسلمين، والكافر الذي لا يقاتل المسلمين، بل أمر الله عز وجل أن يبلغ الكافر الذي لا يقاتل المسلمين مأمنه، ويعلم الدين، فالأمر ليس على إطلاقه أننا نحارب كل الكفار ونقتل كل الكفار، بل نقاتل من قتل المسلمين أو وقف أمام نشر الدين، فهذا أمر لا بد أن نضعه في حساباتنا عند تحليل غزوة خيبر وفتح خيبر، فقد كان فيها رحمة كبيرة، وبرغم الهزيمة القاسية التي وقعت على اليهود؛ إلا أنه لم يقتل من اليهود غير ثلاثة وتسعين مقاتلاً، واستشهد من المسلمين ستة عشر إلى ثمانية مجاهداً حسب اختلاف الروايات.

مصالحة الرسول ﷺ ليهود خيبر

لقد ترك اليهود غنائم ضخمة جداً، تركوا أموالاً ودياراً، وتركوا أهم من ذلك النخيل، وكانت خيبر بلاداً غنية جداً بالزراعة، فتركوا كل هذا وراءهم وبدءوا في عملية الخروج. ثم إن اليهود بعد قرار المعاهدة وقرار الخروج من خيبر قدموا عرضاً إلى رسول الله ﷺ، قالوا: (يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم).

وقد كانت أراضيها كبيرة جداً، والصحابة لم يكن لهم علم كبير بالزراعة، وهي بعيدة عن المدينة المنورة، واليهود يستطيعون أن يصلحوا هذه الأراضي ويخرجوا منها الثمار، فقالوا: دعنا نقوم على إصلاح هذه الأراضي، ثم نقيم معاهدة بيننا وبينك على اقتسام هذا الثمار، فوجد الرسول ﷺ أن هذا العرض عرض مناسب للمسلمين، فأقر اليهود على أن يعطيهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمرة، ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم في خيبر، فإذا أمر ﷺ في يوم من الأيام دون تحديد في هذه المعاهدة بخروج اليهود من خيبر فعليهم أن يخرجوا، وهو ما تم بعد ذلك في عهد عمر بن الخطاب كما يعلم الجميع.

انتهت المعركة بهذا الأمر، وبدأ ﷺ يقسم غنائم خيبر الكثيرة جداً على المسلمين غير الزراعة، كان هناك سلاح، وكان هناك أموال، فهذه الغنائم كانت كثيرة، حتى إن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول -كما روى البخاري -: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها -كما جاء في البخاري -: لما فتحت خيبر قلنا: (الآن نشبع من التمر).

كان من بنود المعاهدة أن من كتم مالاً من اليهود عن المسلمين برئت منه ذمة الله عز وجل وذمة رسوله الكريم ﷺ، بمعنى أنه يقتل لإخفائه ذلك المال. اكتشف الرسول ﷺ أن كنانة بن أبي الحقيق أخفى مالاً، ذكر له ذلك أحد اليهود، فأتى بـ كنانة بن أبي الحقيق، وبدأ باستجوابه فقال له ﷺ: (هل أخفيت مالاً؟!) فقال: (لا). فقال ﷺ: (أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟) قال: (نعم)، فأمر ﷺ بالبحث في أرضه، وكان أحد اليهود قد عين مكاناً معيناً، قال: إن كنانة قد أخفى في هذا المكان شيئاً، فبحثوا في ذلك المكان فوجدوا كنزاً كبيراً من المال، وقُتل كنانة بن أبي الحقيق نتيجة مخالفته للمعاهدة التي كانت مع المسلمين، وسبيت امرأة كنانة بن أبي الحقيق، وكانت امرأة كنانة هي صفية بنت حيي بن أخطب، وكما نعلم جميعاً أن رسول الله ﷺ تزوجها بعد ذلك وأصبحت من أمهات المؤمنين.

الحكمة من زواج الرسول ﷺ بصفية بنت حيي رضي الله عنها

لنا وقفة مع زواج الرسول ﷺ من السيدة صفية رضي الله عنها وأرضاها. بداية الأمر أن السيدة صفية أخذت في السبي وكانت مع أحد أصحاب رسول الله ﷺ، وهو دحية الكلبي رضي الله عنه وأرضاه، فأتى أحد الصحابة إلى رسول لله ﷺ وقال له: إن هذه بنت ملك، ولاينبغي أن تكون إلا لك، فأخذها ﷺ. وفي زواجه ﷺ من السيدة صفية حكم، من هذه الحكم أنه رفع درجة السيدة صفية، فهي بنت ملك أو بنت زعيم من زعماء اليهود، وزوجة زعيم من زعماء اليهود، فلا يليق أن تعطى لأي إنسان من المسلمين، فرفع من قدرها وعظم من

شأنها، وتزوجها ﷺ بعد أن أعلنت إسلامها. ثم إن هذا الزواج فيه استمالة لقلوب اليهود، فعندما يكون بينهم وبين زعيم الدولة الإسلامية نبي هذه الأمة علاقة مصاهرة؛ فإن هذه العلاقة قد ترقق قلوب اليهود وتفتح قلوبهم للإسلام.

ثم إن هذا سيمنع الخلاف بين الصحابة؛ لأن أحد الصحابة -كما ذكرنا- جاء إليه وقال: أعطيت دحية الكلبي هذه، فقد ينظر بعض الصحابة إلى أنه أعطى أحد الصحابة شيئاً قد يناسب غيره من عموم الصحابة، وبذلك قطع الخلاف بين الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وكانت هذه بداية خير كبير للسيدة صفية، فقد أصبحت أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، وروت الكثير والكثير عن رسولنا الكريم ﷺ. هذه كانت غزوة خيبر.

مؤامرات اليهود ضد المسلمين بعد غزوة خيبر

هل امتنع كيد اليهود بعد هذه الغزوة، وبعد هذا القتال المرير الذي دار عدة أيام بلغ شهراً أو أكثر من القتال؟ هل سكنوا لذلك الأمر؟ لم يكتف اليهود بذلك، بل استمروا في المؤامرات وفي الكيد وفي الدس، حتى إنهم فكروا في قتل الرسول ﷺ قبل أن يغادر خيبر. كلنا نعرف قصة الشاة المسمومة، ونحتاج إلى أن نقف وقفة مع هذه الشاة، لنرى رد فعل الرسول ﷺ مع هذا الأمر، حيث اجتمع اليهود على محاولة اغتيال الرسول ﷺ بعد انتصار المسلمين في خيبر، وقصة الشاة المسمومة ليست تفكيراً من امرأة واحدة كما تروي بعض الروايات، بل كان بتدبير من كل اليهود، والروايات كلها صحيحة، ولا بد من الجمع بينها كما سنذكر.

هذه رواية في صحيح البخاري تقول: (إن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها ﷺ، فجيء بها إلى الرسول ﷺ فسألها عن ذلك؟ قالت: أردت قتلك، قال: ما كان الله ليسلطك على ذلك) وفي بعض الروايات أن هذه المرأة هي زينب بنت الحارث امرأة سلام

بن مشكم الذي قتله المسلمون قبل ذلك، فأرادت أن تنتقم لزوجها القتيل، ولقومها بصفة عامة.

هناك رواية أخرى في صحيح البخاري أيضاً وفي صحيح مسلم كذلك، يروي هذه الرواية أبو هريرة رضي الله عنه، يقول: (لما فُتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من هاهنا من اليهود، فجمعوا له اليهود، فقال لهم ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، فقال لهم ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال ﷺ: كذبتم، بل أبوكم فلان) ذكروا رجلاً معيناً، فذكر لهم خلافه(فقالوا: صدقت وبررت).

بهذا السؤال أثبت الرسول ﷺ لهم أنه يستطيع أن يكتشف الكذب الذي يكذبونه بواسطة الوحي، فسألهم سؤالاً آخر، وقال: (هل أنتم صادقوني عن شيء إن أنا سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كما عرفته في أبينا، فقال لهم ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها) أي: يمكث اليهود فيها قليلاً ثم يدخل المسلمون فيها إلى الأبد، هذا كلام اليهود.

فقال ﷺ: (اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً)، فقال لهم بعد ذلك: (هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟) فقالوا: (نعم)، فقال: (هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟) فقالوا: (نعم) أن اليهود اجتمعوا على جعل السم في الشاة ليقتلوا الرسول ﷺ، ثم أعطوا هذه الشاة لامرأة سلام بن مشكم لتهديها لرسول الله ﷺ.

فقال لهم ﷺ: (ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لن يضرك). الرسول ﷺ بعد اعتراف اليهود اعترافاً صريحاً جازماً بأنهم دبروا محاولة لقتله

عفا عنهم جميعاً، فهذه من أبلغ مواطن الرحمة في حياته ﷺ، وعفا عن المرأة التي قدمت له الشاة، وسئل مباشرة ﷺ: (ألا تقتلها؟ قال: لا) ولم يقتل المرأة.

ثم إن أحد الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم -وهو بشر بن البراء بن معرور - أكل مع رسول الله ﷺ وقت أكله من الشاة المسمومة، وكما هو مشهور أن الشاة المسمومة قالت لرسول الله ﷺ: (لا تأكل مني فإني مسمومة)، فالرسول ﷺ لفظ الشاة وأمر الصحابة ألا يأكلوا، لكن هذا الصحابي بشر بن البراء كان قد ابتلع قطعة من اللحم من هذه الشاة المسمومة فمات بها، فلما مات بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه أقام رسول الله ﷺ الحد على المرأة التي قدمت الشاة فقتلها به.

من كل أرض خيبر لم تقتل إلا مرأة واحدة؛ لأنها قتلت رجلاً من المسلمين بالشاة المسمومة، وإذا قارنا هذه المعركة العظيمة بكل معارك الأرض، كما ذكرنا أن ألمانيا قتل منها 20 مليوناً منهم، 19 مليون مدني، وهذا تكرر في معظم المعارك الأخرى، ففي (ناجازاكي) و(هيروشيما) قتل ربع مليون وكلهم من المدنيين، رجال ونساء وأطفال، فشتان بين حروب المسلمين وبين حروب غير المسلمين.

من الأشياء الهامة جداً: أن الرسول ﷺ في غزوة خيبر غنم مجموعة من صحائف التوراة، ومع أنه ﷺ يعلم أنها محرفة تمام التحريف، وأنه قد أزيلت منها البشارات التي تبشر به ﷺ، وأنه قد اعتدي فيها كثيراً على حرمات الله عز وجل، إلا أنه سلم هذه الصحائف كاملة لليهود عندما طلبوها منه، ولم يحرقها، وسمح لهم بالمعتقد الذي يعتقدونه، وهو يعلم أنه معتقد فاسد، وهذا من سعة الصدر عند المؤمنين، قال الله عز وجل في كتابه: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:256]، وهذه القصة واردة وثابتة وشهد بها حتى المستشرقون الذين حللوا سيرة الرسول ﷺ، وذكروا أن المسلمين يسمحون للآخرين بالاعتقاد الذي يعتقدونه.

الآثار المترتبة على غزوة خيبر

كانت غزوة خيبر غزوة مهولة من غزوات المسلمين، وتركت أثـراً ضـخماً جـداً عـلى الجزيـرة العربية، وأشد هذه الآثار على اليهود القريبين من خيبر أو البعيدين عن خيبر، فكـل اليهـود في المنطقة بعد أن سمعوا أنباء خيبر بدءوا يفكرون تفكيراً جدياً في التسليم لرسول الله ﷺ، ومـن هؤلاء يهود فَدَك فقد قبلوا أن ينزلوا على نفس الصلح الذي نزلت عليـه يهـود خيـبر، عـلى أن يكون لهم النصف من الثمار كنفس المعاهدة التي تمت في خيبر. كذلك يهود وادي القرى قاوموا في البداية بعض المقاومة، ثم إنهم بعد ذلك قبلوا أيضـاً بـنفس الصـلح، وكـذلك يهـود تـيماء، وبذلك حيد جانب اليهود تماماً في الجزيرة العربية.

عاد الرسول ﷺ بعد هذه الغزوة إلى المدينة المنورة في أواخر صفر، أو أوائـل ربيـع الأول سـنة سبع، بقي أكثر من شهر في منطقة خيبر، كما توقع ﷺ أنه سيبقى وقتاً طويلاً هناك.

الرسول ﷺ قد تخلص نهائياً من خطر اليهود، فإذا أضفنا إلى هذا التخلص ما حـدث في صـلح الحديبية مع قريش فسنجد أن معظم القوى الموجودة في الجزيرة قد تعامل معها رسول الله ﷺ، ولم يبق من قوى الجزيرة إلا قوة غطفان، وإن وجه إليها رسول الله ﷺ بعـض السرـايا، لكنهـا تحتاج هي الأخرى إلى وقفة جادة وتصرف حكيم سريع من رسول الله ﷺ.

35

قوة الإسلام

تحليل الوضع في أوائل العام السابع من الهجرة:

أولاً: حيّد جانب قريش، وبدأت الأرض تتناقص من حول قريش، وشعرت قريش بعظمة الدولة الإسلامية وخاصة بعد فتح خيبر، وكانت قريش تعتبر خيبر من أقوى حصون الجزيرة العربية مطلقاً، وكانت تعتبر اليهود من أشد الناس قتالاً ومن أقواهم عدة، فكانت هزيمة اليهود في خيبر ضربة كبيرة جداً ليس لليهود فقط، ولكن لقريش في عقر دارها، لم تتصور قريش أن المسلمين بلغوا من القوة إلى الدرجة التي تمكنهم من فتح خيبر.

ثانياً: أمن المسلمون جانب اليهود بعد هزيمتهم في خيبر، وأصبح للمسلمين اليد العليا بلا منازع في الصراع الذي بينهم وبين اليهود بصفة عامة، ورأينا قبل هذا أن المسلمين لم يكتفوا فقط بفتح خيبر، ولكنهم فتحوا أيضاً وادي القرى وتيماء وفدك؛ جميع التجمعات اليهودية الموجودة في شمال المدينة المنورة.

ثالثاً: ازدادت قوة المسلمين بشكل ملحوظ، وكان ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين عالياً جداً؛ لأن فتح خيبر كان فيه خير كثير جداً للأمة الإسلامية، ليس من الجانب العسكري فقط، ولكن من الجانب الاقتصادي أيضاً، وذكرنا قول السيدة عائشة رضي الله عنها عندما قالت: ما شبعنا من التمر إلا بعد فتح خيبر.

وكذلك قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وفوق ارتفاع الروح المعنوية انضم المسلمون من أماكن مختلفة في الجزيرة العربية إلى قوة المدينة المنورة، وجاء المسلمون من الحبشة، وهذا حدث تزامن مع فتح خيبر ولم نذكره في الدرس الماضي، ففي أواخر خيبر بعد أن تم فتح خيبر جاء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه والمهاجرون من الحبشة، حتى إن الرسول ﷺ أسهم لهم من أسهم خيبر؛ لأنه اعتبرهم مشاركين في الغزوة حيث جاءوا بهذه النية من المدينة المنورة، فكانت إضافة كبيرة جداً للدولة الإسلامية، وقدم أيضاً الأشعريون وعلى رأسهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه من اليمن، وقدم كذلك الدوسيون وقبائل دوس قبائل كبيرة من اليمن، جاءت أيضاً في ذلك الوقت وعلى رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه وأرضاه، وقدم المسلمون من قبائل أخرى كثيرة إلى المدينة المنورة، وازدادت أعداد المسلمين بعد فتح خيبر أو بعد صلح الحديبية، بل إن المسلمين قدموا أيضاً من مكة المكرمة ذاتها، بعد أن تنازلت قريش عن بند إعادة المسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة، بعد الحرب التي شنها عليهم أبو بصير رضي الله عنه وأرضاه وأصحابه، كما ذكرنا في الدروس السابقة، وبدأت قوة الدولة الإسلامية تتنامى، وفي نفس الوقت بدأت قوة قريش تقل، ثم إن هناك عدداً كبيراً من العرب بعد صلح الحديبية أسلم ودخل في صف المسلمين، لم يكن يقوى على إعلان إسلامه قبل صلح الحديبية. بعد أن وضعت الحرب في الجزيرة العربية أوزارها وأمن الناس جانب قريش دخل في الإسلام من كان متردداً.

رابعاً: بقي من الأعداء القدامى للمسلمين قبيلة غطفان، وقبيلة غطفان مجموعة من المرتزقة يؤجرون للهجوم على الغير، استأجرهم قبل ذلك اليهود لحرب المسلمين في الأحزاب، وحاصروا المدينة المنورة بستة آلاف مقاتل مع أربعة آلاف من قريش، وكان الجميع عشرة آلاف، وكانوا يريدون استئصال الدولة الإسلامية تماماً، ولهم تاريخ معقّد مع المسلمين، ففي

أكثر من مرة يحدث منهم نوع من الغدر بالمسلمين وقتل عدد من المسلمين، وما أحداث بئر معونة وغيرها من الأحداث ببعيدة من المسلمين، وآخر الأحداث التي حصلت من غطفان كان حصار الأحزاب، ثم محاولة معاونة يهود خيبر في حربهم ضد المسلمين لولا أن فرّق رسول الله ﷺ هذا التحالف الذي كان بين اليهود وبين غطفان، عن طريق إرسال سرية إلى غطفان كما فصلنا.

تخلص المسلمون من عدوين: من قريش عن طريق المصالحة والمهادنة، ومن اليهود عن طريق الحرب كما في فتح خيبر، ولم يبق أمامهم سوى عدو واحد كبير وهو غطفان، بهذا التحليل أستطيع أن أحدد أهداف المرحلة القادمة.

أهداف الرسول ﷺ في مرحلة ما بعد فتح خيبر

ما هي أهداف الرسول ﷺ في العام السابع، أهداف المرحلة التي بعد فتح خيبر؟ لقد كان للرسول ﷺ هدفان رئيسان في العام السابع من الهجرة، أو في الفترة التي تلت فتح خيبر.

الهدف الأول: هو نشر الدعوة، واستغلال الهدنة التي حصلت بين المسلمين وبين قريش بعد صلح الحديبية.

الهدف الثاني: إيقاف خطورة قبيلة غطفان وتأمين جانبهم، والانتقام لكرامة الأمة الإسلامية من حصار غطفان ومن حرب غطفان المرة تلو المرة للمسلمين.

من اللافت للنظر أن الرسول ﷺ لتحقيق هذين الهدفين سلك مسلكاً واحداً وهو إظهار القوة والعظمة والعزة للإسلام والمسلمين، فكما أن الإسلام دين وشريعة وقرآن يتلى يؤثر في قلوب الكثير من الناس، إلا أن هناك الكثير من الناس لا يتأثرون إلا بمظاهر القوة، ولا ينبهرون إلا بعزة الإسلام وسيادته على الغير، والطابع الذي كان يغلب على السنة السابعة هو إظهار القوة

الإسلامية والعظمة الإسلامية والعزة الإسلامية، وقد ظهر ذلك في مراسلات الرسول ﷺ، وظهر ذلك في حروب الرسول ﷺ، وظهر ذلك في عمرة القضاء، وظهر تأثر الكثير من أهل مكة وأهل الجزيرة بصفة عامة -بل والعالم أجمع- بمظاهر القوة الإسلامية التي ظهرت في العام السابع من الهجرة. لننظر هنا كيف حقق النبي ﷺ الهدفين في السنة السابعة من الهجرة عن طريق إظهار القوة الإسلامية.

نشر الدعوة

الهدف الأول: نشر الدعوة، تكلمنا قبل هذا على الرسائل للزعماء والملوك، وفصّلنا فيها كثيراً، وهذه الرسائل أضافت للمسلمين قوة كبيرة جداً، وليست قوة معنوية، ولكن قوة عددية؛ لأن بعض هذه الرسائل أدت إلى دخول عدد جديد من المشركين في الإسلام، ومن أبرز هؤلاء مملكة البحرين بكاملها، دخل زعيمها المنذر بن ساوى ودخل جميع شعب البحرين في صف المسلمين، وكذلك دخلت دولة اليمن في الإسلام بعد إسلام باذان قائد اليمن الفارسي عندما آمن برسول الله ﷺ، وآمن معه شعبه الفارسيون الذين يعيشون في اليمن وأهل اليمن الأصليين، الجميع تقريباً آمن ودخل في صف الدولة الإسلامية، نعم هم بقوا في مكانهم في اليمن، ولكن هذه إضافة قوية جداً للدولة الإسلامية، ولا ننسى أن اليمن في جنوب قريش والمدينة المنورة في شمال قريش، بهذا تكون مكة المكرمة محاصرة بين مناطق إسلامية، وهذا بلا شك إضافة كبيرة للدولة الإسلامية الجديدة.

أرسل الرسول ﷺ الدعاة هنا وهناك يدعون الناس إلى الإسلام، وبدأت القبائل تفكر في الإسلام بطريقة جديدة دون خوف أو وجل من قريش، فهناك أعداد كبيرة من العرب دخلت في الدين الإسلامي بعد صلح الحديبية.

إيقاف خطورة قبيلة غطفان

الهدف الثاني: إيقاف خطورة قبيلة غطفان، وقد أرسل الرسول ﷺ ليوقف خطورة غطفان ويؤمن جانبها عدة سرايا قرابة ست سرايا، ثم خرج إليها في **غزوة ذات الرقاع**، وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة سبع، يعني: كانت بداية فتح خيبر في أول محرم سنة سبع هجرية، واستمر أكثر من شهر، فالرسول ﷺ خرج في أواخر شهر صفر سنة سبع أو أوائل ربيع الأول سنة سبع إلى غطفان، فهو خرج إلى غطفان بمجرد أن عاد من فتح خيبر، كان في حركة دائبة وفي جهاد مستمر في سبيل الله. بعض كتب السير يضع غزوة ذات الرقاع في السنة الرابعة، وهذا لا يستقيم؛ لأن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه ثبت في البخاري أنه شارك في غزوة ذات الرقاع، وأبو موسى الأشعري باتفاق لم يأت إلا في العام السابع من الهجرة مع قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى خيبر، فمن المؤكد أن غزوة ذات الرقاع تمت في السنة السابعة من الهجرة.

هذه الغزوة كانت موجهة إلى قبائل غطفان، وقبائل غطفان لم تكتف بحصار المدينة المنورة في غزوة الأحزاب ولا بمساعدة اليهود في خيبر، بل كانوا يعدون العدة لغزو المدينة المنورة مرة أخرى بعد غزوة الأحزاب؛ وذلك لأنهم علموا أن الرسول ﷺ أرسل إليهم سرية قبل ذلك وهو يفتح خيبر، فلذلك أرادوا أن يغزوا المدينة المنورة من جديد، فكان على الرسول ﷺ أن يقف وقفة جادة تجاههم، ويخرج إليهم ﷺ بنفسه بدلاً من أن ينتظرهم في المدينة المنورة؛ لكي لا يُظَن أن المسلمين يخافون من غطفان وأنهم لا يجرءون على المواجهة المباشرة معهم، فالرسول ﷺ لا يريد وجود هذا الانطباع السلبي لا عند غطفان ولا عند أهل الجزيرة العربية بصفة عامة. لهذا جهز ﷺ جيشاً وخرج فيه بنفسه ﷺ، ويبدو أن جيوش المسلمين في ذلك الوقت كانت موزعة في أماكن مختلفة، فهناك جيوش في خيبر وفي وادي القرى وفدك وتيماء وفي غيرها

من الأماكن الملتهبة في ذلك الوقت؛ فلذلك لا يأمن الرسول ﷺ أن يترك المدينة بلا جيش يحميها، فهو لا يأمن غدر قريش، وقد تلف قبائل غطفان من هنا أو هناك لتدخل إلى المدينة المنورة، واليهود كذلك قد يغدرون، فهناك أمور خطيرة جداً تجعله يترك حامية في داخل المدينة المنورة، وهذه الأمور جعلت الرسول ﷺ يخرج في جيش صغير نسبياً، هذا الجيش كان تقريباً أربعمائة وفي بعض الروايات سبعمائة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ولم يكن معهم من الإبل إلا القليل، حتى إن الستة من الصحابة كانوا يتناوبون ركوب البعير الواحد، وذهب الرسول ﷺ مسافة كبيرة جداً بجيشه في عمق الصحراء، توغل جداً حتى بلغ ديار غطفان، وغطفان إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة على مسافة عدة ليال من المدينة، ولكون المسافة كبيرة والصحابة يسيرون على أقدامهم فقد أثّر ذلك جداً عليهم رضي الله عنهم أجمعين، روى البخاري رحمه الله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه)، أي: أن الستة يتناوبون على بعير واحد فقط، يقول: (فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا).

نحتاج إلى أن نقف وقفة مع هذا الموقف، فهذا الحديث وأمثاله يوضح لنا مدى التضحية والبذل والعطاء الذي تميز به هذا الجيل النادر، وهو جيل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، لقد كانوا في حركة دائبة مستمرة في سبيل الله. في الأشهر الأخيرة من السنة السادسة ذهب الرسول ﷺ والصحابة إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، مع التضحية التامة بالنفس والذهاب إلى عقر دار قريش، وبيعة على عدم الفرار وعلى الموت، واستعداد تام للقتال حتى النهاية، ثم عودة للمدينة المنورة بعد صلح الحديبية، وانطلاق مباشر إلى حصون وقلاع خيبر وقتال شرس أكثر من شهر متصل في خيبر، وانتصار مهيب لا مثيل له، ثم عودة للمدينة لعدة أيام ثم

الخروج والسير في الصحراء مسافة طويلة لقتال قبيلة غطفان، وهي من أقوى وأشرس قبائل العرب.

الصحابة كانوا في حركة دائمة في سبيل الله، وبذل وتضحية في كل دقيقة، وسبق أن رأينا كيف أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه عاد من الحبشة ووجد أن الرسول ﷺ قد غادر المدينة إلى خيبر فترك المدينة مباشرة واتجه إلى خيبر ليشترك في القتال، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه يأتي من اليمن في أيام خيبر، فيخرج بعد قدومه بعدة أيام إلى هذه الغزوة الشديدة غزوة ذات الرقاع، لم تكن هناك لحظة ضائعة في حياة هذا الجيل، ولعل ذلك هو الذي يفسر الكم الهائل من الأحداث التي تمت في زمن البعثة النبوية، وزمن البعثة النبوية فترة محدودة جداً وقصيرة، لا يمكن أبداً أن تستوعب كل هذه الأحداث، إلا إذا نظرت إلى هذا الجهد والبذل والعطاء المستمر من هذا الجيل رضي الله عنهم أجمعين. إذا أضفت إلى هذا الاستغلال الدقيق لكل لحظة من لحظات الحياة مسألة البركة التي يُنعم الله عز وجل بها على عباده المؤمنين، عندها تستطيع أن تفهم كيف فعلوا هذه الأحداث الضخمة الكثيرة في هذه الفترة المحدودة من الزمان، وكانت كل أعمالهم هذه خالصة لله عز وجل، حتى إن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه عندما حكى هذا الحديث كره وندم أن حدّث بذلك الأمر، وقال: (ما كنت أصنع بأن أذكره)، فهو ندم على ذكره لذلك الأمر، وتمنى أنه لو كتم هذا الأمر ليصبح عمله بينه وبين رب العالمين سبحانه وتعالى، لكن الحمد لله على أنه حدّث بذلك الأمر؛ ليصل إلينا فنتعلم منه ونُعلمه لإخواننا وأبنائنا.

مع كل هذه الشدة وصل الجيش الإسلامي إلى ديار غطفان، وكنا نتوقع أن تحدث معركة طاحنة بين المسلمين الذين تعرضوا لأذى غطفان قبل ذلك أكثر من مرة، وبين غطفان القبيلة الكبيرة الشرسة التي تُغْزى في عقر دارها، ولكن لم يرد ولم ينشب قتال أصلاً لا كبير ولا

صغير، فقد آثر أهل غطفان ألا يدخلوا في صراع مع المسلمين، مع أن المسلمين على أقصى تقدير لا يزيدون عن سبعمائة كما ذكرنا، وأعداد غطفان هائلة، والمعركة في عُقر دار غطفان، وفي الطرق والدروب التي خبروها وعرفوها قبل ذلك ألف مرة، والمسلمون قادمون من مسافة بعيدة جداً، قد نقبت أقدامهم من السير كما يقول أبو موسى الأشعري ، وأهل غطفان مستقرون في ديارهم. سبحان الله! هذا الأمر في عُرف أهل الدنيا عجيب، كيف يهرب هؤلاء الغطفانيون وهم في هذه الظروف المستقرة من جيش ظروفه صعبة كجيش المسلمين.

هذا الكلام وهذا الوضع لم يكن له إلا تفسير واحد، وهو أن هذا الجيش الإسلامي مؤيد بقوة خارقة فوق كل الحسابات المادية، إنه تأييد رب العالمين سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ﷺ ولعامة المؤمنين الذين ساروا على طريقه، يقول الرسول ﷺ: (نُصرت بالرعب مسيرة شهر) أي: قبل أن يصل إلى أرض المعركة يكون الجيش الذي هو ذاهب إليه مرعوباً منه.

هذا الأمر تأييد رب العالمين لجيش المؤمنين، هذا أمر مفهوم بالنسبة لعموم المؤمنين، ورأوه كثيراً، رأوه في بدر وفي الأحزاب وفي قتال اليهود في المعارك المختلفة بدءاً من بني قينقاع وانتهاء بخيبر، بل شاهدوه في النصف الأول من غزوة أحد عندما كان المسلمون مرتبطين بالله عز وجل، قال تعالى تعليقاً على النصف الأول من غزوة أحد: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران:151] أي: أن الله سبحانه وتعالى إذا ارتبط به المسلمون ألقى في قلوب أعدائهم الرُعب، هذا بدون حسابات مادية وبدون أعداد وعدة، فهو أمر غير مفهوم تماماً عند أهل الدنيا، لكنه أمر مفهوم ويقيني عند المؤمنين؛ لأنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى معهم، لكن الجديد في غزوة ذات الرقاع الشعور أن هناك قوة خارقة إلى جانب المؤمنين، وهذا الشعور وجد عند أهل غطفان، وذلك عندما وجدوا أنفسهم ينسحبون أمام الجيش الإسلامي بشكل

غير مبرر، ووجدوا أنفسهم للمرة الأولى في حياتهم يرتعبون من غيرهم، فهؤلاء يعيشون على السلب والنهب وقطع الطريق، وحياتهم كلها في حرب، وكل عيشهم قتال، ومع ذلك وجدوا أنفسهم يخافون من أربعمائة أو سبعمائة، فإذا كان هذا الرعب من فريق قليل كالمسلمين، فإنه يحتاج إلى وقفة، ويحتاج إلى تفسير وإلى تحليل، هكذا فكّر أهل غطفان، فغزوة ذات الرقاع هزت قبيلة غطفان من الأعماق، مع أنها غزوة -كما ذكرنا- لم يحدث فيها قتال، لكن نحن تعودنا على أن يأتي النصر من حيث لا نحتسب، ليعلم الجميع أن النصر من عند الله عز وجل.

بدأت شعوب غطفان وزعماؤها يفكرون جميعاً بنظرة إيجابية لهذا الدين، مع أنهم لم يأخذوا قراراً سريعاً بالدخول في الإسلام، لكنهم وقفوا وقفة جادة للتأمل. هؤلاء المرتزقة الذين عاشوا حياتهم على السلب والنهب وجدوا أنفسهم أمام شيء ما قبلوه قبل ذلك، ولم يسمعوا عنه إلا من غير المسلمين، فهم طالما سمعوا عن المسلمين من قريش ومن اليهود ومن غيرهم، لكنهم أول مرة يقابلون المسلمين حقيقة، ودخلت الرهبة في قلوبهم، وألقى الإسلام بجلاله وهيبته على غلاظ القلوب وعلى دهاة الإجرام أهل غطفان؛ لأن هذا الدين المحكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهذا الدين يتسلل إلى القلوب تسللاً.

عاد الرسول ﷺ دون قتال، لكن ترك أثراً لا يُمحى من قلوب غطفان، وشاء الله عز وجل أن يضاعف من هذا الأثر بقصتين حدثتا مباشرة بعد هذه الغزوة أثناء عودة الرسول ﷺ من غطفان إلى المدينة المنورة.

قصة أعرابي غطفان وسقوط السيف من يده

القصة الأولى: جاء في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن الجيش الإسلامي وهو عائد من غطفان إلى المدينة المنورة نـزل في مكـان ليسـتريح، فتفـرق النـاس في ظـلال الشـجر ليستظلوا، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلّـق بهـا سـيفه، قـال جـابر: فنمنـا نومـاً، أي: الرسول ﷺ وجميع الصحابة ناموا؛ فالطريق متعب، قال: فجاء رجل مـن الأعـراب المشـركين فاخترط سيف رسول الله ﷺ ورفعه فـوق رأس الرسـول ﷺ، وفجـأة اسـتيقظ الرسـول ﷺ ووجد الأعرابي واقفاً على رأسه بالسيف، فقال لـه الأعـرابي المشـرك -وهـو مـن غطفـان-: (أتخافني؟) الأعرابي يخاطب الرسول ﷺ: أتخافني؟ وهذا السؤال غريب، وكان من المتوقع من هذا الرجل أن يقتل رسول الله ﷺ، وبذلك ينال شرفـاً كبـيراً جـداً عنـد أهـل غطفـان، لكـن الرجل لم يفعل ذلك، وإنما بدأ في حوار مع الرسول ﷺ، وهذا لمنع رب العالمين سبحانه وتعالى رسوله الكريم من أذى الآخرين، قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة:67] قال لـه: أتخافني؟ فرد الرسول ﷺ وقال: (لا) ما اهتز له جسم ولا دخل في قلبـه أي خـوف، فتعجـب الأعرابي من هذا الموقف، السيف في يده والرسول ﷺ أعزل ولـيس معـه أحـد ومـع ذلـك لا يخاف، فقال الأعرابي: (فمن يمنعك مني؟) فقال ﷺ: (الله). في رواية أن الأعرابي كرر السؤال ثلاث مرات: من يمنعك مني؟ من يمنعك مني؟ من يمنعك مني؟ وفي كل مرة يقول الرسول ﷺ: الله الله، فوقع السيف من يد الأعرابي، وفي رواية البخاري أيضاً يقول: (إن الأعرابي شـام السيف)، أي: أنه أغمد السيف ولم يقع منه رغماً عن إرادته؛ تعجباً من ثبات الرسـول ﷺ، وفي الرواية التي ذكرها الإمام أحمد بن حنبل وابن إسحاق رحمهما الله: (أنه عندما وقع السـيف مـن يد الأعرابي، فأمسك رسول الله ﷺ بالسيف ورفعه على الأعرابي وقال له: من يمنعك منـي؟) فالأعرابي كافر ما استطاع أن يقول: الله، وما استطاع أن يلجأ إلى آلهته المزعومـة مـن الأصـنام،

لكن طمع في كرم الرسول ﷺ فقال له: (كن خير آخذ)، فقال ﷺ: (تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟) فقال الأعرابي: (أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك). أي أنه لم يسلم، لكنه وعد الرسول ﷺ ألا يقاتله بعد ذلك، وعلى الرغم من الموقف الشديد إلا أن الأعرابي لم يستطع أن يأخذ قرار الإسلام، ومع ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراحه ولم يعاقبه، وثبت ذلك في البخاري أن الرسول ﷺ لم يعاقب هذا الرجل، وعاد الرجل إلى أهله سالماً وقال لهم: (جئتكم من عند خير الناس)، وفي رواية: أن عدداً كبيراً من أهله أسلم، وأن هذا الرجل اسمه غورث بن الحارث.

هذه القصة وإن كانت في ظاهرها عابرة، إلا أنها تركت أثراً كبيراً جداً في أعراب هذه المنطقة من قبائل غطفان، وأدركوا بهذه القصة أن رسول الله ﷺ ليس رجلاً كريماً فقط، وليس قائداً شجاعاً جريئاً فقط، وإنما هو أيضاً نبي مرسل؛ لأنه ليس من عادة الملوك والقادة أن يتركوا من وقف على رءوسهم بالسيف مهدداً هكذا، ليس من عادتهم الرحمة والكرم والتسامح إلى هذا الحد، فهذا ليس من طبع الملوك والقادة. ولا شك أن هذه القصة بالإضافة إلى غزو الرسول ﷺ لهم بجيشه الصغير البسيط دون خوف ولا وجل؛ كان لها أبلغ الأثر في تفكير هؤلاء الأعراب جدياً في قضية الإسلام.

قصة اصابة عباد بن بشر بثلاثة أسهم أثناء الصلاة

هذه قصة أخرى عجيبة حدثت في أثناء رجوع هذا الجيش المبارك إلى المدينة المنورة، ورواها أبو داود عن جابر رضي الله عنه وأرضاه: أن جيش المسلمين نزل بأحد الأماكن للراحة، فعيّن رسول الله ﷺ رجلين للحراسة: عباد بن بشر الأنصاري رضي الله عنه، وعمار بن ياسر المهاجري رضي الله عنه، فقسم الليل بينهما، فكانت نوبة عباد بن بشر، فأراد أن يقطع الليل بالصلاة، ووقف يصلي قيام الليل، فجاءه أحد المشركين أيضاً من غطفان، ورماه بسهم، فنزع

عباد السهم وأكمل صلاته، والدم يسيل منه ويتفجّر، فرماه المشرك بسهم آخر فنزعه عباد وأكمل صلاته، فجاءه السهم الثالث فنزعه عباد ثم ركع وسجد وأنهى صلاته، ولم يقطع الصلاة فجأة ولكنه أكمل صلاته، ثم أيقظ عمار بن ياسر، فلما وجد عمار بن ياسر الدماء في كل مكان ورأى الأسهم الثلاثة، قال لـ عباد: (هلا أيقظتني أول ما رمى؟) فيرد عباد بن بشر رضي الله عنه في يقين وخشوع ويقول: (كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها)، وفي رواية ابن إسحاق: قال عباد: (وايم الله لولا أن أضيّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أحب إلي من قطعها). أي: لقطع هذا الرجل حياتي قبل أن أقطع هذه السورة، ولك أن تتصور مدى استمتاع عباد بقراءته، ومدى حبه لقيام الليل، ومدى استغراقه في عبادته، ومدى خشوعه وتركيزه في الصلاة رضي الله عنه وأرضاه.

الشاهد في هذه القصة هو أن هذا الرجل المشرك الذي أطلق السهام هرب عندما رأى عمار بن ياسر استيقظ وفر إلى قومه، ولا ندري عنه شيئاً بعد ذلك، إلا أنه انبهر لرؤية أولئك الذين كانوا منذ قليل يغزونهم بشجاعة ويحاربونهم بضراوة يقفون في عبادتهم بهذه الصورة الخاشعة، لا شك أن جمع الصحابة بين الجهاد والصلاة، وبين القتال والعبادة، وبين القوة والرحمة، وبين الثأر للكرامة والعفو عند المقدرة، لا شك أن ذلك كان لافتاً للنظر جداً لكل الناس، ولا شك أنه كان يترك انطباعاً إيجابياً عند عموم البشر، بغض النظر عن جنسياتهم أو أعرافهم أو قبائلهم.

إرسال الرسول ﷺ للسرايا بعد غزوة ذات الرقاع

كانت غزوة ذات الرقاع غزوة بلا قتال، لكنها غيّرت كثيراً في أوساط قبائل غطفان، وعدّلت كثيراً من سلوكهم، وهذا سوف يفسّر لنا أحداثاً كثيرة ستأتي بعد هذا.

لم يكتف الرسول ﷺ بعد غزوة غطفان بهذا الإنذار القوي الموجه لها، لكن أرسل بعد غزوة ذات الرقاع ست سرايا متتالية كلها في العام السابع من الهجرة، أرسل هذه السرايا إلى عدة مناطق مهمة في الجزيرة العربية، وهي: منطقة كُديد، ومنطقة تُربة، ومنطقة بني مرة، ومنطقة ميفعة، ومنطقة يمن، ومنطقة الغابة، ست مناطق، والقاسم المشترك بين كل هذه المناطق أنها كلها أرض لغطفان. هناك تركيز واضح على قبيلة غطفان في العام السابع الهجري، وواضح أن الرسول ﷺ يسير بخطة محكمة، ليست هناك عشوائية أبداً في الأداء، فالرسول ﷺ بعد صلح الحديبية وتحييد جانب قريش وجه كامل الطاقة لردع بقية الأحزاب، ولصد بقية أعداء الأمة، ولهذا رأينا الحرب ضد اليهود والحرب ضد غطفان، فالأمور في غاية الترتيب، ونجح الرسول ﷺ في هذه الحملات المتكررة في ردع اليهود وغطفان تماماً، وبذلك أصبحت القوة الإسلامية في أواخر العام السابع الهجري هي القوة الأولى في الجزيرة العربية، ومع نجاح هذا الجانب العسكري للدولة الإسلامية إلا أن الرسول ﷺ لم يترك مهمته الأولى كرسول وهي مهمة البلاغ ونشر الدعوة إلى الله عز وجل في كل مكان في الجزيرة العربية، بل خرج خارج الجزيرة العربية كما ذكرنا، ودعا إلى الإسلام صراحة وبقوة وعزة حتى وصل الإسلام إلى معظم ممالك العالم في ذلك الوقت.

كملخص للعام السابع الهجري: نجد أنه كان عاماً جهادياً ودعوياً، بدأ فيه المسلمون في جني ثمرات صلح الحديبية، وصلت في هذا العام دعوة الإسلام إلى كل مكان، وانتصر المسلمون فيه انتصاراً باهراً على اليهود في خيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، وانكمشت غطفان وتضاءلت جداً، وعرفت أن قوة المسلمين أعلى بكثير من قوتها، حتى وإن كان عدد المسلمين قليلاً، وزاد عدد المسلمين بشكل ملحوظ بعد قدوم المسلمين من كل مكان، فقد جاء مهاجرو الحبشة وجاء الأشعريون والدوسيون وغيرهم، بل وأسلم الكثير والكثير في العام السابع

الهجري، وكان عاماً حافلاً بالدعوة والجهاد، وتـوج هـذا العـام في آخـره بتحقيـق شيء فـرح المسلمون به كثيراً، وهو دخول مكة المكرمـة لأداء العمـرة؛ لأن مـن بنـود صـلح الحديبيـة أن المسلمين يرجعون دون دخول مكة للعمرة في العام السادس الهجري، عـلى أن يـأتي المسـلمون بعد عام، أي: في نهاية العام السابع الهجري ليدخلوا مكـة معتمـرين، لـيس معهـم إلا سـلاح المسافر، ويخرج أهل مكة من مكة تماماً، ويتركـون البلـد الحـرام للمسـلمين مـدة ثلاثـة أيـام متواصلة، وبالفعل مرت السنة كما رأينا وجاء شـهر ذي القعـدة مـن العـام السـابع الهجـري، وأُعلن في المدينة المنورة عن العمرة العظيمة، وأمر الرسـول ﷺ ألا يتخلـف عنهـا أحـد شـهد الحديبية، وستبدأ تفصيلات هامة لهذه العمرة المباركة، وفي الحقيقة تحتـاج منـا إلى وقفـة مهمـة جداً.

عمرة القضاء وآثارها الإيجابية على المسلمين

خرج في هذه العمرة المباركة ألفان من الصـحابة رضي الله عـنهم وأرضـاهم مـن غـير النسـاء والصبيان؛ كل من شهد الحديبية خرج إلا من استشهد، وخرج معهم أيضاً آخرون، فالصحابة الذين كانوا في الحديبية هم ألف وأربعمائة، وفي هذا الوقت خـرج ألفـان، وخرجـوا بالسـلاح الكامل في موكب مهيب، ومع أن الرسول ﷺ كان متفقـاً مـع قـريش أنـه لا يـدخل مكـة إلا بسلاح المسافر فقط، إلا أنه ﷺ لم يأمن مـن غـدر قـريش، فخـرج بالسـلاح الكامـل والعـدة الكاملة، بالرماح وبالسهام والدروع وبكل شيء وكأنه مستعد لحرب، لكنه سـيترك كـل هـذه الأشياء خارج مكة ليدخل مكة بسلاح المسافر فقط، وفاء لعهـده ﷺ، فجمـع بـين الأمـرين: الأخذ بالأسباب والحماية لهؤلاء الخارجين إلى مكة المكرمة للعمرة، وفي نفـس الوقـت يـدخل بعهده مع قريش إلى مكة بسلاح المسافر، وأحرم ﷺ من ذي الحليفة (أبيار عـلي)، وظـل يلبـي من ذي الحليفة إلى أن وصل إلى مكة المكرمة، عشرة أيام تقريباً من التلبية المتواصلة، ووصل إلى

مكة، وهذه اللحظة من أعظم لحظات السيرة النبوية؛ فهي لحظة مهيبة فعلاً، بعد سبع سنوات كاملة من الهجرة، وبعد أن ترك الرسول ﷺ أحب البلاد إليه يعود الحبيب ﷺ إلى بلده مكة. الأيام تمر بحلوها ومرها، تمر بسعادتها وأحزانها، الأيام تمر دوماً: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:128]. شتان بين حال المسلمين منذ سبع سنوات وحالهم الآن، خرج رسول الله ﷺ من مكة منذ سبع سنوات مهاجراً يترقب ويستخفي بنفسه ويختبئ هنا تارة وهنا تارة، يخفي آثاره قدر ما يستطيع، واليوم يدخل رسول الله ﷺ مكة معلناً للجميع أنه داخل، وليس هذا الإعلان لأهل مكة فقط، بل لأهل الجزيرة جميعاً، بل لعله للعالم أجمع.

خرج الرسول ﷺ من مكة منذ سبع سنوات هو وصاحبه الصديق وعامر بن فهيرة والدليل المشرك عبد الله بن أُريقط، أربعة نفر لا يكاد يراهم أحد، والآن يعود الرسول ﷺ بألفين من الرجال دون النساء والصبيان، في مظاهرة إيمانية عظيمة، وتلبية تقطع صمت الصحراء، تُعلن لكل الخلق أن: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، حقاً لا شريك لك، حقاً إن الحمد كله لله، وحقاً إن الملك كله لله، والدليل أن هذه العمرة التي نتحدث عنها قبل سبع سنوات منها يخرج أهل مكة جميعاً يبحثون عن رسول الله ﷺ في كل بقعة ليقتلوه، والآن خرج أهل مكة جميعاً إلى جبال مكة وإلى أودية مكة يفسحون الطريق لرسول الله ﷺ، ليدخل مكة معتمراً ملبياً، رافعاً رأسه، محاطاً بكوكبة من المسلمين المسلحين بالسيوف في أعظم تشريفة رأتها مكة في كل تاريخها، اكتفى أهل مكة بالمراقبة له ولأصحابه وهم يؤدون شعائر العمرة على طريقة المسلمين.

مظاهر قوة المسلمين في عمرة القضاء

هذا حدث من أعظم أحداث السيرة النبوية، وهذه العمرة تمهيد نفسي رائع لما سيحدث بعد ذلك بعام، عندما يدخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً، ولعل قضية فتح مكة تكون غير متوقعة عند كثير من الصحابة؛ لأن مكة أعظم مدن الجزيرة، بل أعظم مدن العالم، وقريش هي أعز قبيلة في العرب، فكون المسلمين سيأتون في جيش لاقتحام مكة، ويغزون قريشاً في عقر دارها هذا أمر بعيد جداً في تصور الكثيرين، لكن بعد هذه العمرة أصبح الوضع مختلفاً، رأى المسلمون أهل مكة يفسحون لهم الطريق دون مقاومة، وليس هذا فقط، بل إنهم يتركونهم ثلاثة أيام متواصلة في داخل مكة، يكتفون فقط بالمراقبة بحسرة، وهم لا يستطيعون فعل أي شيء، لا شك أن المسلمين لاحظوا الانبهار الذي كان عند القرشيين من رؤية قوة المسلمين؛ ولنا مع هذا الانبهار من أهل قريش وقفة؛ لأن الرسول ﷺ كان يعرف أن هناك أناساً كثيرين لا ينبهرون إلا بالقوة، ولا يحترمون غيرهم إلا إذا وجدوه صلباً شديداً عزيزاً، وصدق عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ يقول: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. لم يرتدع أهل مكة عند سماع الآيات الجليلة الباهرة للقرآن الكريم ، مع تمام علمهم أن القرآن معجز وأنه فوق طاقة البشر، وأنهم لا يستطيعون الإتيان بسورة من مثله ولو اجتمعوا لذلك، لم يرتدعوا بهذا القرآن العظيم، لكن على الناحية الأخرى وقفوا منبهرين تماماً أمام قوة المسلمين وجلد المسلمين، والرسول ﷺ كان يعرف هذا جيداً، وحرص تمام الحرص على إبراز قوة المسلمين قدر المستطاع ﷺ.

من ذلك مثلاً: أولاً: جاء ﷺ بالسلاح الكامل من المدينة المنورة، لكنه أبقى السلاح خارج مكة مع سرية من الصحابة، وكانوا مائتي رجل، وكان عليهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وبعد أن انتهى ﷺ ومن معه من العمرة تبادل هؤلاء الحراس مع مجموعة أخرى من المسلمين

وأدوا العمرة كغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، فالمسلمون جاءوا من المدينة إلى مكة بالسلاح؛ لأنهم يعرفون أن هناك عيوناً لقريش ترقب الموقف، فلما رأت قريش الرسول ﷺ معه قوة السلاح وقوة جيوش غير معتمرة، أرسلوا إلى الرسول ﷺ بذلك الأمر، وأخبروه أنه قد وعدهم أن يدخل مكة فقط بسلاح المسافر، فأخبرهم ﷺ أنه عند وعده، وأنه سيترك السلاح خارج مكة، ولكنه لا يأمن على نفسه ولا على جيشه من غدر قريش؛ فلذلك أخذ بالأسباب ﷺ، فأتى بعدة كاملة؛ ليلقي الرهبة في قلوب المشركين.

ثانياً: دخل الرسول ﷺ مكة راكباً ناقته القصواء، والمسلمون حوله يشهرون سيوفهم لحمايته، تصور كون الرسول ﷺ في وسط المسلمين وهم محيطون به كما يحيط السوار بالمعصم؛ حماية له من المشركين أو من غدر قريش. كان منظر مهيب جداً.

ثالثاً: دخل المسلمون مكة وهم يلبون جميعاً في صوت واحد: لبيك اللهم لبيك، وأنا أريد منك أن تتصور أن ألفين من الرجال الأشداء يلبون ويرفعون أصواتهم بالتلبية وهم يدخلون مكة، أول مرة ترى مكة منظراً كهذا.

رابعاً: يتقدم صفوف المسلمين عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه وهو ينشد الشعر، نحن نستغرب ونقول: لماذا هذا الشعر في مثل هذا الموقف؟! لقد كان الشعر عند العرب وسيلة الإعلام الأولى، إذا قيل الشعر وقف الجميع ليستمع، وكان عبد الله بن رواحة يعرف جيداً هذا الموقف، واختار من شعره ما يناسب إظهار القوة، ومما قاله في شعره ما جاء في سنن الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه وأرضاه، والحديث حسن صحيح قال:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

إلى آخر الأبيات، والمضمون لهذا الشعر أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه يفسح الطريق لرسول الله ﷺ، ويعلنها واضحة صريحة أنه سيضرب كل من سوّلت له نفسه الغدر به ﷺ. عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يستوعب هذا الذي فعله عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فقال له: (وفي حرم الله تقول الشعر؟) لكن الرسول ﷺ كان موافقاً لفعل عبد الله بن رواحة؛ لأنه مدرك لعقلية العرب عامة ولعقلية قريش خاصة، فقال له: (خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل) أي: هذه الأبيات أسرع في قريش من رمي النبل والسهام، فكان هذا الأمر فعلاً من أقوى الأسلحة التي وجهت لقريش.

خامساً: أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يرملو في الأشواط الثلاثة الأولى أي يجروا الجري العسكرية المعروفة والتي نفعلها في الأشواط الثلاثة الأوائل في العمرة وأصبحت سنة بعد ذلك دائماً. هذه الطريقة العسكرية تظهر قوة وجدية المسلمين.

سادساً: أمرهم ﷺ أن يظهروا أكتافهم اليمنى.. لماذا؟ حتى يظهروا لقريش قوتهم العضلية عندما يكشفوا عن سواعدهم الشديدة. في رواية قال النبي ﷺ :(رحم الله أمرأً أراهم اليوم من نفسه قوة).

الأمران الأخيران فعلهم النبي ﷺ لأنه سرت في مكة شائعة أن المسلمين قد وهنتهم حمى المدينة المنورة، فلما رأى المشركون قوة المسلمين وعضلات المسلمين وسرعة المسلمين قالوا: (هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجل من كذا وكذا) تركت هذه الأفعال أثر كبير جداً في قلوب المشركين.

سابعاً: صلى الرسول ﷺ بالمسلمين الصلوات الخمس في الأيام الثلاثة بصورة جماعية في الحرم، وتصور صلاة ألفين من الرجال غير النساء والصبيان بطريقة واحدة بتكبير وتحميد، وبقيادة

منظمة لرسول الله ﷺ، فهذه الصورة باهرة لكل الناس، والمشركون لأول مرة يرون مثل هذا التجمع الضخم يصلي في الحرم بهذه الصورة.

ثامناً: أمر الرسول ﷺ بلالاً أن يؤذن من فوق الكعبة، فكانت هزة نفسية عميقة للمشركين، فهم رأوا بلالاً الحبشي الذي كان يُباع ويشترى، بل ويُعذّب في شوارع وصحراء مكة، وكانوا يربطون الحبل في عنقه ويسيرون به في شوارع مكة يسخرون منه، وكان يُعذّب بالصخرة العظيمة على ظهره، فهذا الرجل الذي لاقى الأمَرَّين من أهل مكة ومن زعماء مكة، هاهو الآن يصعد فوق الكعبة، فوق أعظم مكان في الأرض بعد أن أعزّه الله عز وجل بالإسلام فيرفع أذان المسلمين، فهذا الفعل هز قريشاً من الأعماق، وراجع كلمات الأذان بما فيه من مواطن عزة كثيرة جداً من تكبير لله عز وجل، وشهادة بوحدانية الله عز وجل، وشهادة بنبوة الرسول ﷺ.. إلى آخر كلمات الأذان، فهي كلمات تلقي الرهب والجلال في قلوب كل من يشاهد ذلك من غير المسلمين.

تاسعاً: تعاملات الرسول ﷺ مع المؤمنين جميعها كانت أمام المشركين، حيث رأوا بأعينهم خضوع الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ، ورأوا مدى التوقير والإجلال له، وسمعوا قبل هذا ما قاله لهم عروة بن مسعود الثقفي في يوم صلح الحديبية، فهم في هذا الوقت يرون بأعينهم، فعلموا وتأكدوا أن الصف الإسلامي صف موحد قوي طائع بكامله لزعيم واحد هو الرسول ﷺ.

عاشراً: ختم الرسول ﷺ هذه الصورة البهية القوية بزواجه من السيدة ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وفي هذا الزواج الدليل على أنه يعيش حياة طبيعية جداً في مكة، لا يخاف ولا يترقب ولا يعيش في ظروف غير طبيعية، بل يتزوج ويحتفل ويقيم العرس في يسر وسهولة لا تخلو من حكمة سياسية رائعة، فقد دعا المشركين لحضور الحفل وللأكل من الوليمة، لكنَّ

المشركين رفضوا ولم يقبلوا ذلك، فقد فهموا رسالة الرسول ﷺ، وفهموا أنه يتصرف في مكة وكأنها بلده وليست بلدهم، بالإضافة إلى أن السيدة ميمونة بنت الحارث من قبيلة بني عامر العزيزة جداً، فقبيلة بني عامر كانت تفتخر على العرب أنها من القبائل التي لم يُسب منها امرأة واحدة ولم يؤخذ منها أسير، فهذا إعلان ارتباط بين الرسول ﷺ وبين قبيلة قوية عن طريق النسب، وبهذا تتناقص الأرض من حول المشركين، فإذا أضفت إلى ذلك أن السيدة ميمونة بنت الحارث خالة خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، وفي ذلك الوقت كان لا يزال مشركاً، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب ، وكانوا يقولون: إنها من أعظم الناس أصهاراً؛ لأن علاقتها الإنسانية في مكة كبيرة ومتشابكة جداً، فهذا زواج سياسي اجتماعي دعوي حكيم من رسول الله ﷺ، وفي توقيت في غاية الحكمة. هذا الزواج كان له أبلغ الأثر على مشركي مكة، وقد حاول الرسول ﷺ أن يظهر به قوة المسلمين وبأس المسلمين أمام مشركي قريش، فتلك عشرة كاملة.

بهذه الأمور ارتفعت مكانة المسلمين إلى السماء، وظهرت عزة المسلمين، وكانت هذه العمرة من أجل وأعظم الأعمال في هذه السنوات السبع الأخيرة، وعُرفت هذه العمرة بأسماء كثيرة جداً، منها: عمرة القضاء، عمرة القضية، عمرة القصاص، عمرة الصلح، وهذه كلها أسماء لنفس العمرة التي كانت في العام السابع من الهجرة.

تابع الرسول ﷺ سراياه إلى مناطق غطفان من جديد بعد عمرة القضية، فقد أرسل إليهم سريتين: إحداها: في ذي الحجة في السنة السابعة للهجرة، والأخرى: في صفر في السنة الثامنة للهجرة، وواصل سياسة الضغط على غطفان حتى تلين قناة غطفان، وحتى يعرفوا جدية وبأس المسلمين.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

لقد حدث شيء مهم في شهر صفر سنة ثمان، يحتاج إلى وقفة كبيرة ومهمة، وهو من أعظم ثمار صلح الحديبية وعمرة القضاء، وهذا الحدث لحظة فارقة ليست في تاريخ مكة المكرمة ولا في تاريخ الجزيرة العربية ولا في تاريخ العالم في ذلك الوقت، ولكن في تاريخ الإنسانية وإلى يوم القيامة، فأنت عندما تتدبر في هذا الحدث وآثار هذا الحدث على الأرض بصفة عامة في عمق الزمان والمكان تجد له سبحان الله آثاراً لا تنتهي، هذا الحدث العظيم هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم أجمعين. ثلاثة من عمالقة مكة، بل من عمالقة الأرض بصفة عامة، هؤلاء الثلاثة لم يسلموا فقط في شهر صفر سنة ثمان هجرية، بل أسلموا في يوم واحد من شهر صفر سنة ثمان، فهذا نصر كبير جداً للإسلام والمسلمين، فقد عبّر ﷺ عن إسلامهم بقوله: (إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها) وفي رواية: (أفلاذ أكبادها) خلاصة ما في مكة هم هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم وأرضاهم. بالفعل نقطة محورية في السيرة النبوية وفي تاريخ الأرض بصفة عامة. انظر إلى الآثار التي حدثت في الأرض على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، وعلى يد عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، من الآثار أنها فُتحت العراق، وفُتحت فارس، وفُتحت بلاد ما وراء النهر، وفُتحت أرمينية، وفُتحت بلاد كثيرة جداً في آسيا، وفُتحت الشام، كل ذلك على يد البطل خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه. كذلك فُتحت فلسطين وفُتحت مصر على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، فكم من المسلمين الذين في هذه البلاد؟ وكم من الأعمال الصالحة؟ وكم من الجهاد في سبيل الله؟ وكم من الدعوة إلى الله عز وجل؟ وكم من العلم؟ وكم الإضافات الإنسانية؟ كل هؤلاء دخلوا بجهاد هذين البطلين العظيمين: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، فهو إنجاز هائل للمسلمين في العام الثامن من الهجرة، فإضافة هذين الاثنين في

الدولة الإسلامية من أقوى الإضافات في تاريخ الإسلام، وأعطى الرسول ﷺ هذين الرجلين أهمية خاصة جداً في أحاديثه وفي معاملاته ﷺ، حتى إنه أعطى خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه لقباً ما أعطاه لأحد قبله ولا بعده، وسماه سيف الله المسلول، وقال عن عمرو بن العاص كلمات ما قالها لأحد غيره رضي الله عنه، قال عنه: (أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص) والحديث صحيح كما رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه وأرضاه، وحسّن هذا الحديث الألباني رحمه الله، فقوله: (أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص) كلمة كبيرة جداً في حق هذا البطل العظيم.

يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي عن طلحة رضي الله عنه وصححه الألباني، يقول: (عمرو بن العاص من صالحي قريش) وهذا الكلام فيه أبلغ الرد على كل من يطعن في هذين الصحابيين الجليلين العظيمين اللذين فتحا بلاداً شتى، لا أقول: دخل مئات الآلاف في الإسلام على يديهما فقط، وإنما دخل الملايين من البشر في زمانهم وإلى الآن، فكل المسلمين في فلسطين وفي العراق ومصر والشام، كل هؤلاء يدينون بالفضل لهذين البطلين. هذا أمر خارج عن التصور، ويعتبر من أعظم أحداث التاريخ الإسلامي، لا بد أن ندرس إسلام هذين البطلين، لا بد أن نفهم لماذا أسلما بعد سنوات طويلة جداً من الصد والبُعد عن دين الله عز وجل؟ إسلام هذين البطلين وغيرهما يحتاج منا إلى وقفة وتحليل، فالذي دفع هؤلاء إلى الإسلام هو الانبهار بقوة الإسلام، والانبهار بعظمة الرسول ﷺ كقائد، فهؤلاء جميعاً من القادة العسكريين، ومن الفرسان المشهورين في بلاد العرب، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام قائد بارع عظيم من القواد لم يروا مثله قبل ذلك، حتى في موقعة أحد فشل سيدنا خالد في قهر الخطة التي وضعها الرسول ﷺ إلا بعد أن خالف الرماة أمر الرسول ﷺ، فقد كانت الخطة في تمام الإحكام، وكان سيدنا خالد يدرس هذا الكلام جيداً، ويعرف أنه لا يستطيع الغلبة على

الرسول ﷺ، ولولا مخالفة الرماة ما استطاع أن يأتي المسلمين من خلفهم، ولهرب مع من يهرب، فـ خالد قد فشل أكثر من مرة أمام الرسول ﷺ، مما جعله ينبهر تمام الانبهار بقوة وبأس وتخطيط الرسول ﷺ. فوق ذلك ينبهر بأخلاق الرسول ﷺ كداعية وكإنسان يعيش وسط الناس بمبادئ وقيم معينة ما يخالفها، وعادة العسكريين أنهم يدوسون على كل القيم والأخلاق، ويحققون الأهداف بغض النظر عن الوسائل، لكن خالد بن الوليد رضي الله عنه شاهد في الرسول ﷺ غير ذلك، فقد شاهد رجلاً عسكرياً حكيماً قائداً قوياً، ومع ذلك يتحلى بكامل الأخلاق الحميدة، فقد بلغ الذروة ﷺ في الأخلاق، وهو شاهد ذلك مرات عديدة في حياة الرسول ﷺ الصادق الأمين، ولم يستطع أبو سفيان على عداوته إياه أن يقول في حقه كلمة سلبية واحدة أمام هرقل زعيم الروم، فهو ﷺ قائد أخلاقي من الدرجة الأولى.

كذلك كان عمرو بن العاص منبهراً تمام الانبهار بشخصية الرسول ﷺ، وهذا الذي دفعه بعد ذلك إلى الإسلام، لكن القوة الإسلامية التي ظهرت في صلح الحديبية، والتي ظهرت في عمرة القضاء كان لها أبلغ الأثر في إسراع خطوات إسلام القائدين العظيمين: خالد وعمرو رضي الله عنهما. لننظر كيف أسلم كل منهما وكيف فكر به؟

إسلام خالد بن الوليد

وقف خالد بن الوليد رضي الله عنه في جمع من المشركين بعد خروج الرسول ﷺ من مكة المكرمة في عمرة القضاء، في أواخر العام السابع من الهجرة، وقف وقال للجميع كلاماً عجيباً غريباً يُستغرب جداً من مثله في هذا الموقف، قال لهم: لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، وقف هذا الموقف مع أنه كان قد سمع كثيراً من القرآن الكريم وكثيراً من أحاديث الرسول ﷺ قبل ذلك، لكن الآن جوبه بقوة وعزّة الإسلام فانبهر رضي الله عنه فقام هذا المقام وقال هذه الكلمات وهو من هو، وهو من أعظم

زعماء مكة مطلقاً، وكان قائد الفرسان في معارك قريش، ولعل هذا هو الذي أخّر إسلامه إلى هذا الوقت، فعندما أسلم كان عمره سبعاً وأربعين سنة، ففي هذه الفترة كان قائداً في قريش، فكان يخشى على مكانته إذا انضم إلى الإسلام، وكانت له مكانة مرموقة جداً في الجيش المكي، وله مكانة مرموقة في وسط العرب، فخاف على هذه المكانة أن تضيع، وبالإضافة إلى أن أباه الوليد بن المغيرة كان من أشد أعداء الدعوة الإسلامية، لكن خالد بن الوليد في هذا الوقت تغير وانبهر بقوة الإسلام، وانبهر بالرسول ﷺ أكثر وأكثر، وهذا الذي جعله يقول هذه الكلمات التي تعبر عن رغبته في دخول الإسلام، ثم علّق على هذه الكلمات وقال: (فحق لكل ذي لب أن يتبعه).

لما علم أبو سفيان ما قال خالد بن الوليد ناداه حتى يتأكد من أنه قال هذا الكلام أم لم يقله، فأكد له خالد صحة ما قال وكرر نفس الكلمات أمام أبي سفيان، فاندفع أبو سفيان إلى خالد بن الوليد يريد أن يضربه، فحجز بينهما عكرمة بن أبي جهل، وكان عكرمة في ذلك الوقت لا يزال مشركاً، وكان من أكثر الرجال قرباً إلى قلب خالد بن الوليد، وكانت بينهما صداقة قديمة جداً، فحجز عكرمة بين أبي سفيان وبين خالد وقال كلمات عجيبة هو الآخر لـ أبي سفيان قال: (مهلاً يا أبا سفيان، فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه) أي: كما أنك تخاف من أن كلام خالد يؤثر في الناس، فأنا أيضاً قد خفت من هذا الكلام، بل إنني خفت أن أكون على دين محمد بعد هذا الذي رأيت في عمرة القضاء، ثم قال له: (أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وهذه قريش كلها تبايعت عليه؟ والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم) أي: ليس خالد وحده منبهراً بمحمد وأصحابه، وهذا كلام صريح جداً، لكن كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل:14]، الجميع يعلم أن هذا الدين حق، وأن هذا الرسول حق؛ فلذلك كسر بعضهم كبرياءه واتبع الرسول

ﷺ، وبعضهم ظل في كبريائه وفي غيه إلى أن مات على ذلك، والحمد لله أن كل هؤلاء الذين دخلوا في الحوار أسلموا بعد هذا، لكن تأخر إسلام بعضهم عن بعض. هذا كان موقف خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، ولا ننسى أن خالد بن الوليد في يوم الحديبية قال كلمة عظيمة في حق المسلمين، قال: (إن القوم ممنوعون)، وذلك عندما نزلت صلاة الخوف كما ذكرنا ذلك في درس الحديبية، فـ خالد بن الوليد يعلم أن القوم ممنوعون من الله عز وجل، وأن الله عز وجل يحيطهم برعاية وعناية خاصة جداً، وهذا كله كان له أثر كبير جداً في قلب خالد بن الوليد.

لكن هناك شيء آخر أيضاً أثر في خالد كثيراً، وهو أن خالد بن الوليد عندما رأى جيش المسلمين داخل مكة المكرمة للعمرة في العام السابع من الهجرة، لم يستطع أن يحتمل هذا المنظر في بدايته، وخرج من مكة وتركها، وكان له أخ اسمه الوليد بن الوليد رضي الله عنه وهو من الصحابة الذين دخلوا مع النبي ﷺ إلى مكة للعمرة، فعندما دخل بحث عن أخيه خالد بن الوليد ليخبره عن أمر الإسلام فلم يجده، فكتب له كتاباً قال له فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الإسلام جهله أحد؟) ثم كتب كلاماً عجيباً بعد ذلك، قال: (وقد سألني رسول الله ﷺ عنك) فهذه الكلمات كانت من أبلغ الكلمات أثراً في إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه. قال له أخوه الوليد بن الوليد: (وقد سألني رسول الله ﷺ عنك قال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: ما مثله جهل الإسلام؟) أي: كيف لـخالد الذي له هذا العقل الراجح ألا يفكر في الإسلام، ثم قال كلمة جميلة قال: (ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره).

أي: أن الرسول ﷺ يخبر عن خالد أنه لو أضاف قوته إلى قوة المسلمين لقدمه على غيره، فهو قائد، وفارس عظيم، فإضافة هذه القوة إلى قوة الإسلام تجعل له السبق على المسلمين، وإن سبقوه قبل ذلك بدخول الإسلام. لك مكان ستُحفظ ولك وضع سيستقر في الدولة الإسلامية

هذه الكلمات وصلت إلى قلب خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، وهو تأليف عظيم جداً من الرسول الحكيم ﷺ لقلب خالد بن الوليد رضي الله عنه، وهذا استغلال لإمكانياته ومواهبه رضي الله عنه وأرضاه. هذه هي الحكمة الحقيقية.

ثم يقول الوليد بن الوليد رضي الله عنه: (فاستدِرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة)، لقد فاتتك عزوات كثيرة وكنا هناك كثير من المعارك كنا بحاجة إليك مواطن صالح استدرك ما فاتك وانسى ما فات ولنهتم بالقادم؛ تحميس لـخالد بن الوليد ألا يضيع وقتاً آخر.

وقعت هذه الكلمات في قلب خالد بن الوليد ، فكان رد خالد بن الوليد عندما قرأ الجواب أن قال: (فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني مقالة رسول الله ﷺ)، ثم قال خالد رضي الله عنه: (و أرى في النوم كأني في بلاد ضيّقة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه لرؤيا..) وبعد هذا فهم تفسير الرؤيا أنها خروج من الشرك إلى الإيمان.

عندما أجمع خالد بن الوليد أن يخرج إلى الرسول ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة المنورة قال: (من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه؟ إنما أكلة رأس) أي: أننا مجموعة قليلة جداً من الناس يكفيها رأس من الإبل للأكل فقط؛ لأن الأرض تتناقص من حول قريش، ثم قال: (وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو

قدمنا على محمد فاتبعناه؛ فإن شرف محمد على العرب)، فأبى صفوان أشد الإباء وقال: (لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً)، وذلك أن صفوان بن أمية موتور، فقد قُتل أبوه أمية بن خلف في بدر، ولقد كان إسلام صفوان بن أمية بعد فتح مكة.

المهم أن خالد بن الوليد يريد أن يصاحب رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فعندما سمع هذه الكلمات من صفوان بن أمية قال: (هذا رجل موتور قد قُتل أبوه وأخوه ببدر)، بعد هذا قابل عكرمة بن أبي جهل وعرض عليه نفس الكلام، فقال له مثل ما قال صفوان ورفض تمام الرفض، وأيضاً قال خالد نفس الكلام: (إنه رجل موتور قتل أبوه أبو جهل) ، لكن خالد بن الوليد لم ييأس، إنما ذهب إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وكان في ذلك الوقت مشركاً، فقال له نحواً مما قال لصاحبيه، فكما يقول خالد : (فأسرع عثمان بالإجابة). أي: أنه قبِل فكرة الإسلام، واتفق الاثنان على الخروج إلى المدينة المنورة وتواعدا، وخرجا إلى المدينة المنورة لإعلان إسلامهما بين يدي رسول الله ﷺ، وفي الطريق قابلا عمرو بن العاص .

إسلام عمرو بن العاص

ظل عمرو بن العاص فترة طويلة جداً من حياته يرفض فكرة الإسلام، فـ عمرو بن العاص عندما أسلم كان عمره سبعاً وخمسين سنة، بقي فترة طويلة جداً من حياته يحارب الإسلام والمسلمين، فقد ظل أكثر من عشرين سنة من عمره وهو يرفض فكرة الإسلام، فما الذي غيّر فكر عمرو بن العاص؟ كانت عند عمرو بن العاص موانع كثيرة جداً، فقد كان له قيمة كبيرة في قريش كـ خالد بن الوليد، وكان أبوه العاص بن وائل من أشد أعداء الدعوة الإسلامية، فقد تربى في بيت يكره الإسلام والمسلمين، فهذا الذي جعله يتأخر هذه الفترة الطويلة من الزمن، وانظر إلى بداية التغير في فكر عمرو بن العاص، يقول: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: (تعلمون -

والله- أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً عظيماً)، فبدأ عمرو بن العاص وهو من دهاة العرب يرقب بعينه أن الأيام القادمة للمسلمين وعلى قريش، فقال: (وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟) قالوا: (وماذا رأيت؟) قال: (رأيت أن نلحق بالنجاشي)، وقد كان النجاشي صديقاً حميماً لـ عمرو بن العاص، فيقول: (رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد)

انظروا إلى أي مدى بلغت الكراهية في قلبه لرسول الله ﷺ، أي: لأن يحكمهم النجاشي خير من أن يحكمهم محمد ﷺ، مع أن محمداً ﷺ قرشي، ومن نفس القبيلة التي منها عمرو بن العاص، وقد كان عمرو بن العاص سهمياً قرشياً، وكان الرسول ﷺ هاشمياً قرشياً، لكن عمرو بن العاص يقبل بحكم النجاشي ولا يقبل بحكم بمحمد ﷺ! ثم يقول: (وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا كل خير)، أي: أنه لو انتصرت قريش على المسلمين فسيعود بعد ذلك عمرو بن العاص وله من المكانة المحفوظة ما له في قريش. هذا موقف سلبي؛ لأنه يترك الحرب تثور بين قريش وبين المسلمين، فإن انتصرت قريش عاد إليها وإن لم تنتصر بقي هناك عند النجاشي، هذا موقف سلبي من عمرو بن العاص في ذلك الوقت، وسبحان الذي أعزه بعد ذلك بالإسلام.

المهم أن أصحابه وافقوه على هذا الرأي، وقالوا: (إن هذا هو الرأي)، قال: (ثم قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان من أكثر ما يحبه النجاشي هو الجلود، ولذلك جمعوا له كمية كبيرة من الجلود وأخذوها وسافروا إلى النجاشي)، وكما يقول عمرو بن العاص: (فوالله إنا لعنده إذا جاءه عمرو بن أمية) رضي الله عنه الصحابي الجليل أرسله الرسول ﷺ إلى النجاشي ليأتي بـ جعفر بن أبي طالب وأصحابه بعد صلح الحديبية، فعندما رأى عمرو بن العاص عمرو بن أمية عند النجاشي فكّر في شيء، وهو أن يطلب قتل عمرو بن أمية، فإن قتله أصبحت له يد كبيرة

عند قريش، فدخل عمرو بن العاص على النجاشي فقال له: (أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا)، لكن رد فعل النجاشي كان خارج تصورات عمرو بن العاص تماماً، لقد غضب النجاشي غضباً شديداً، حتى قال عمرو بن العاص: (لو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك)، وكان النجاشي قد أسلم وأخفى إسلامه، لكن وجد فرصة لأن يدعو عمرو بن العاص، فهو يخاف أن يدعو بدعوته في داخل الحبشة حتى لا يخلعه قومه من كرسيه، لكن عمرو بن العاص صاحبه وبينهما علاقة قديمة جداً، فأراد أن يصل إليه بالخير الذي وصل إليه قبل ذلك، النجاشي، فقال النجاشي: (أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لقتله؟) ثم قال عمرو بن العاص: (قلت: أيها الملك أكذلك هو؟) قال: (ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده)، وفجأة ألقى الله عز وجل في قلب عمرو بن العاص الإسلام.

هذه تراكمات كثيرة، فهو منبهر كما ذكرنا قبل ذلك برسول الله ﷺ، منبهر بكامل حياة الرسول ﷺ، لكن تنازعه نفسه ألا يؤمن؛ بسبب العادات والتقاليد، ومعاداة أبيه للرسول ﷺ، فهذه أمور كثيرة جداً كانت مانعة له عن الإسراع إلى الإسلام، لكن فجأة اكتشف الحق أمام عينيه، فقال للنجاشي: (أفتبايعني له على الإسلام؟) قال النجاشي: (نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام)، أي: أي: أن إسلام عمرو بن العاص كان على يد النجاشي رحمه الله.

انظروا إليه كيف يهرب من الإسلام إلى المكان الذي يسلم فيه، هرب من الإسلام على يد النبي ﷺ وأسلم على يد النجاشي ملك الحبشة، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:56].

أسلم عمرو بن العاص وكتم إسلامه عن أصحابه وتركهم وعاد إلى الجزيرة العربية بعد ذلك، وعاد وهو ينوي الذهاب إلى الرسول ﷺ لإعلان الإسلام بين يديه، ووصل إلى مكة المكرمة ومكث فيها قليلاً، ثم خرج بعد ذلك في اتجاه المدينة المنورة، وفي حال خروجه إذا به يقابل خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، فسأل عمرو خالد بن الوليد قال له: (أين يا أبا سليمان ؟) فقال خالد في منتهى الصراحة والوضوح: (والله لقد استقام المنسم. أي: وضح الطريق)، ثم قال: (وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأُسلم، فحتى متى؟) قال عمرو بن العاص : (قلت: والله ما جئت إلا لأُسلم)، وتحرك الثلاثة من مكة إلى المدينة المنورة، حتى وصلوا إلى منطقة الحرة، وهناك عند منطقة الحرة أناخوا ركابهم وبدءوا يستعدون للقدوم على رسول الله ﷺ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: (فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ). وعند ذهابه إلى الرسول ﷺ لقيه أخوه الوليد بن الوليد رضي الله عنه فقال: (أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أُخبر بك فسُر بقدومك، وهو ينتظرك)، قال: (فأسرعت المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله)، فقال: (الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير)، قلت: (يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادع الله أن يغفرها لي)، فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام يجب ما كان قبله)، قلت: (يا رسول الله على ذلك؟) فقال: (اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك)، قال خالد : ثم تقدم عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، ودار بين عمرو بن العاص وبين الرسول ﷺ حوار لطيف، فقال عمرو بن العاص : (لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ، فقلت: ابسط يمينك فأُبايعك، فبسط يمينه ﷺ فقبضت يدي)، قال: (ما لك يا عمرو ؟) قال: (أردت أن أشترط)، قال: (تشترط بماذا؟) قلت: (أن

يُغفر لي)، قال: (أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كـان قبلهـا، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟) وأسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه ثـم تقـدم عـثمان بـن طلحة رضي الله عنه وأرضاه وأسلم أيضاً.

إسلام عثمان بن طلحة

بعد أن تحدثنا عن عمرو بن العاص وعن خالد بن الوليد سنتحدث عن عثمان بـن طلحـة، فـ عثمان بن طلحة رضي الله عنه وأرضاه من بني عبد الدار حامل مفتاح الكعبة، وإسـلام عـثمان بن طلحة يعتبر إضافة سياسية في منتهى القـوة للدولـة الإسـلامية؛ فهـؤلاء هـم عمالقـة مكـة بالفعل، وعظماء مكة: خالد بن الوليد بن المغيرة رضي الله عنه وأرضاه، وعمرو بن العاص بـن وائل رضي الله عنه وأرضاه ، وعثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه وأرضاه ، هؤلاء الثلاثـة من أعظم الفرسان في تاريخ مكة جميعاً، فكان هذا هو الحدث الهائل الذي حدث في صفر سـنة ثمان، وهو من أعظم آثار الحديبية وعمرة القضاء مطلقاً، وآثار هذا الحدث مـا زلنـا نجنيهـا إلى هذه اللحظة، وسنظل نجني في هذه الآثار إلى يـوم القيامـة، فهـذا الحـدث هائـل لـن تـدركوا عظمته إلا بدراسة الفتوح الإسلامية، ورؤية الآثار العظيمة التي تركهـا هـؤلاء العمالقـة رضي الله عنهم وأرضاهم للإسلام والمسلمين.

36

نصر مؤتة

وضح أن الدولة الإسلامية في العام السابع من الهجرة كانت تسير من ارتفاع إلى ارتفاع، ومن مجد إلى مجد، فمن فتح خيبر إلى انتصارات متتالية على غطفان، إلى عمرة القضاء بكل أبعادها السياسية والدعوية، إلى إسلام أبطال مكة الثلاثة: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم أجمعين. هكذا كانت الدولة الإسلامية، وكان الوضع يسير في تقدم ملموس واضح لكل الناس، لكن هذا النمو المتزايد لفت أنظار الكثيرين ممن لم تكن لهم علاقة مباشرة بالدولة الإسلامية، فأحسوا بخطر قيام هذه الدولة الفتية في المدينة المنورة، ومن ثم بدءوا في التحرش بالدولة الإسلامية، وتفاقم الأمر حتى وصل إلى إراقة دماء مسلمة.

هذه المشاكل في مجموعها كانت تأتي من شمال الجزيرة العربية، وشمال الجزيرة العربية كان موطناً لعدة قبائل كبرى من قبائل العرب، ومن أشهر هذه القبائل: لخم، وجُذام، وبلقين، وبهراء، وبِلِي، وغسان، وقُضاعة، وغيرها من القبائل، وكان الكثير من هذه القبائل يدين بالنصرانية، ويوالي الدولة الرومانية القريبة من هذه الأماكن، فالدولة الرومانية كانت تحتل بلاد الشام، ولها هيمنة على هذه المنطقة بكاملها، وزعماء هذه القبائل على عظمها كانوا عبارة عن مجرد عمال لـ هرقل على بلادهم، كعادة الدولة الصغرى في التعامل مع الدولة العالمية

العملاقة. ولما بدأت الدولة الإسلامية في الظهور، وبخاصة بعد غزوة الأحزاب، بدأت هذه المنطقة الشمالية في التحرش بالدولة الإسلامية.

عندما نقوم بمراجعة سريعة لتاريخ هذه المنطقة، نجد أن الأمور تتصاعد وتنذر بصدام كبير بين قبائل المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية وبين الرسول ﷺ في خلال السنتين السابقتين سنة ست وسبع من الهجرة، وقد ذكرنا أنه في شهر جمادى الآخرة سنة ست اعترضت قبيلة جذام دحية الكلبي رضي الله عنه وأرضاه، وأنهم سلبوه كل ما كان معه من هدايا موجهة لرسول الله ﷺ، وكان هذا سبباً في إرسال سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه إلى منطقة حِسمى، وتكلمنا عليها من قبل، وكانت سرية ضخمة عددها خمسمائة رجل، وهذه السرية هزت هذه المناطق وحققت نجاحاً كبيراً للمسلمين، وأيضاً مر بنا رد هرقل لفكرة الإسلام مع إيمانه الجازم بصدق الرسول ﷺ، إلا أنه ضن بملكه وآثر أن يكون ملكاً على أن يكون مؤمناً، وأيضاً مر بنا موقف الحارث بن أبي شمر زعيم دمشق، وعزم هذا الرجل على تجهيز الجيوش لغزو المدينة لولا أن هرقل منعه كما ذكرنا. كانت هناك حوادث كثيرة تنبئ عن قرب الصدام بين المسلمين وبين هذه المنطقة الشمالية.

كانت هناك أحداث جديدة، فقد قامت قبيلة قضاعة في ربيع الأول سنة ثمان باغتيال مجموعة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وعددهم خمسة عشر رجلاً، وكان على رأسهم كعب بن عمير الأنصاري أو عمرو بن كعب الغفاري رضي الله عنهم أجمعين. اعترضت قبيلة قضاعة طريقهم وقامت بقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً فقط، وهذه السرية التي خرجت للدعوة إلى الله عز وجل تعرف بسرية ذات أطلاح، وقد ذكرنا أن قبيلة قُضاعة لم يكن لها علاقة سابقة بالمسلمين فاعتدت على مجموعة من رعايا الدولة الإسلامية. ثم تفاقم الأمر جداً عندما أرسل الرسول ﷺ رسالة إلى عظيم بُصرى بالأردن يدعوه فيها إلى الإسلام، وحامل الرسالة

كان الحارث بن عمير رضي الله عنـه، وهـو في الطريـق اعـترض طريقـه شرحبيـل بـن عمـرو الغساني، وهو عامل هرقل على منطقة البلقـاء أيضـاً في الأردن، وقيـد الحـارث بـن عمـير ثـم ضرب عنقه. قتل الرسل جريمة شنيعة؛ لأن الأعراف كانت تقضي بعدم قتـل الرسـل، وكـان هذا تجاوزاً خطيراً جداً من هذه القبائل، وكما ذكرنا أن معظم هذه القبائل كان يدين بالنصرانية ويتبع الدولة الرومانية.

بعد هذا الحدث زاد الأمر سوءاً، وبدأت الدولة الرومانية ونصـارى الشـام يتعقبـون كـل مـن أسلم ويقتلونه، حتى وصل الأمر إلى قتل والي معان في الأردن؛ لأنـه كـان قـد أسـلم، فقتلـوه لإسلامه. إزاء هذه الأوضاع المتردية كان لابد للدولة الإسلامية من وقفـة جـادة للـدفاع عـن هيبة الدولة الإسلامية والثأر لكرامتهـا. وقفـة لتـأمين حركـة الـدعاة المسـلمين لهـذه المنـاطق الشمالية من الجزيرة. ووقفة لتأمين خط سير التجار المسلمين من وإلى الشام، فالموضوع خطـير فعلاً. ولو قامت هذه القبائل العربية أو الدولة الرومانية على مخارج ومداخل الجزيـرة العربيـة الشمالية فسيضيقون على المدينة المنورة، ولا ننسى أن قريشاً في جنوب المدينة.

الآن في الشمال مشكلتان كبيرتان: مشكلة الدولة الرومانية، والقبائـل العربيـة المتحالفـة معهـا التي معظمها قبائل نصرانية مثل: لخم، وجذام، وغسان، وغيرها من القبائـل، وهـذه مشـكلة ضخمة كبيرة، ومشكلة قبائل قضاعة الذين اعتدوا على خمسـة عشرـ صـحابياً رضي الله عـنهم وأرضاهم وقتلوهم، وهذه القبائل أيضاً قبائل كبرى، ولكنها منفصلة عن القبائل المتحالفة مع الدولة الرومانية. فهاتان المشكلتان لا بد من وقفة جادة معهما. الرسول ﷺ آثر أن يبدأ بواحدة تلو الأخرى، فبدأ ﷺ بمواجهة القبائل العربية المتنصرة الموجودة في الشمال؛ لأن هـذه المنـاطق خطيرة جداً، ولأن أعداد هذه القبائل كبير، ولأن مساندة الدولة الرومانية لهـم متوقعـة؛ فهـم

حلفاؤهم، لذلك حرص الرسول ﷺ على تكوين جيش قوي جداً يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأمثل.

الإجراءات التي اتخذها الرسول ﷺ بين يدي غزوة مؤتة

قام الرسول ﷺ بعدة خطوات مهمة لمواجهة قبائل الشمال المتحالفة مع الرومان:

أولاً: كون أكبر جيش إسلامي خرج من المدينة حتى تلك اللحظة، وعدد هذا الجيش ثلاثة آلاف مقاتل، فهو أكبر رقم يحارب في التاريخ الإسلامي إلى تلك اللحظة.

ثانياً: ولى على الجيش زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، وزيد بن حارثة كان قد قضى فترة تدريبية هامة جداً في السنة السادسة من الهجرة، فقد قاد خمس سرايا متتالية، وكان زيد بن حارثة قد جاء إلى هذه المنطقة قبل ذلك، جاء إلى شمال الجزيرة العربية في سرية حسمى سنة ست هجرية، وكانت من السرايا الضخمة الكبيرة، فهو أعلم بهذه المنطقة من غيره من الصحابة.

ثالثاً: لم يجعل الرسول ﷺ لهذه الغزوة أميراً واحداً، بل عين ثلاثة من الأمراء، إن قتل واحد تولى الآخر، فقال: (إن قُتل زيد فـ جعفر بن أبي طالب، وإن قتل جعفر فـ عبد الله بن رواحة)، وواضح من هذه التولية المتتالية للأمراء أن الرسول ﷺ كان يتوقع حرباً ضروساً في هذه المنطقة، حرباً يقتل فيها الأمراء الثلاثة، وهي المرة الأولى والأخيرة في حياته ﷺ التي يولي فيها ثلاثة من الأمراء على سرية واحدة، ولعل ذلك كان بوحي من الله عز وجل.

رابعاً: أخرج الرسول ﷺ مع الجيش البطل الإسلامي الفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولم يكن مر على إسلام خالد إلا ثلاثة أشهر فقط، ولعل حداثة إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه هي التي منعت الرسول ﷺ من تولية خالد على ذلك الجيش؛ لأنه لا يعرف جنود

المسلمين ولا يعرف طاقاتهم، كما أنه لم يختبر بعد مع الصف المؤمن، فهذه أول مهمة يختبر فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه بعد أن أسلم، ومهمة قيادة ثلاثة آلاف مسلم مهمة كبيرة، تحتاج إلى رجل له تاريخ مأمون مع المسلمين، وعمر خالد في الإسلام ثلاثة أشهر فقط، وعمره في الجاهلية أكثر من عشرين سنة، فلا بد من اختبار.

تجهز الجيش الإسلامي بهذه الصورة القوية، ومع أن المهمة صعبة والطريق طويلة جداً، أكثر من ألف كيلو من المدينة المنورة، والطريق في صحراء قاحلة، والخروج كان في حر شديد؛ لأن خروج المسلمين كان في جمادى الأولى سنة ثمان وهذا يوافق أغسطس سنة 629 م في شدة الحر. مع كل هذه المصاعب إلا أن معنويات الجيش الإسلامي كانت مرتفعة جداً، وخاصة أن الرسول ﷺ خرج بنفسه لتوديع الجيش، واستمر يمشي معهم حتى بلغ ثنية الوداع.

مهمة الجيش الإسلامي الخارج إلى مؤتة

حرص الرسول ﷺ أن تكون مهمة هذا الجيش واضحة تمام الوضوح، فالمسافات بين المدينة وبين الأردن كبيرة جداً، ولم تكن هناك فرصة للاستشارة أو أخذ الرأي، من أجل هذا حدد الرسول ﷺ مهمة الجيش في أمرين:

الأمر الأول: دعوة هذه القبائل إلى الإسلام كما ذكرنا أكثر من مرة، إسلامهم أحب إلينا من أموالهم، أحب إلينا من غنائمهم، فكان دائماً يقدم الدعوة ﷺ.

الأمر الثاني: قتال شرحبيل بن عمرو الغساني ومن عاونه؛ لأنهم قتلوا رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير رضي الله عنه، ومع أن القتال كان لرد الهيبة والاعتبار، وانتقاماً لكرامة الدولة الإسلامية، وثأراً للحارث بن عمير رضي الله عنه، وتأديباً لـ شرحبيل بن عمرو وقومه، مع كل هذا إلا أن الرسول ﷺ حرص على ألا تخرج الحرب الإسلامية عن ضوابطها الشرعية،

وحرص أن يلتزم المسلمون تماماً بأخلاقهم حتى في أشد حروبهم. صورة رائعة حضارية من أرقى الصور في التاريخ، قال لهم ﷺ عند خروجهم من المدينة كما روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه، قال لهم: (انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تَغُلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وفي رواية مسلم زاد: (ولا تمثلوا) أي: بالجثث بعد القتل.

هذه هي الحرب في الإسلام، صورة راقية جداً تحتاج إلى تفصيل، لكن لا يتسع المجال لهذا الآن، لكن كل هذه النصائح وجهت لجيش خرج للانتقام لكرامة الأمة الإسلامية.

في هذا المقام أن نذكر: أن هذا الجيش الإسلامي لم يكن خارجاً لحرب الدولة الرومانية؛ لأن إسلام الدولة الرومانية كان متوقعاً، أو على الأقل أن تبقى على الحياد؛ وذلك للاستقبال الطيب والحسن الذي قابل به هرقل دحية الكلبي رضي الله عنه، وللقناعة التي أظهرها هرقل برسول الله ﷺ، فكان من المتوقع أن تتغير قلوبهم للإسلام، وخاصة أنهم أهل كتاب، ومن النصارى، فالرسول ﷺ بعث هذا الجيش لحرب شرحبيل بن عمرو الغساني الذي قتل رسول رسول الله ﷺ، والجيش الإسلامي الذي خرج باتجاه شمال الجزيرة العربية يعتبر من الجيوش الكبيرة في عرف ذلك الزمن، وخاصة أن القبائل العربية لم يكن من عادتها أن تتوحد في حروبها، وليس من المتوقع أن يلقى هذا الجيش الإسلامي جيوشاً أكبر منه بكثير، وهذه الخلفية لا بد أن نضعها في أذهاننا قبل أن نحلل موقعة مؤتة، حتى نعلم أن هذا الجيش لم يلق به إلى التهلكة أبداً، إنما كان بحسابات ذلك العصر من الجيوش القوية الضخمة.

من الخلفيات المهمة جداً لهذا الجيش: أنه كان جيشاً أخروياً بمعنى الكلمة، أي: أن هذا الجيش بكامله كان من المؤمنين الصادقين الراغبين حقيقة في الموت في سبيل الله، المشتاقين حقيقة للشهادة في سبيل الله، الطامعين في الجنة، الخائفين من النار، كان جيشاً رائعاً بمعنى الكلمة.

عبر عن ذلك أحد أفراد هذا الجيش عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، لما خرج الجيش من المدينة المنورة بكى هذا القائد الجليل رضي الله عنه بكاءً شديداً، فظن الناس أنه خائف من الموت، فقالوا له: (ما يبكيك يا ابن رواحة؟) فقال: (والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار) أي: أنا لست خائفاً من الموت، ولا خائفاً من البعد عنكم، لكن أنا خائف أن يكون مصيري النار، يقول: ولكني سمعت سمع الرسول ﷺ يقرأ قول الله عز وجل: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم:71]، يقول عبد الله بن رواحة: (فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود). هذا يعبر عن مدى خشية وتقوى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه، مع جهاده وبذله بداية من بيعة العقبة الثانية، فقد كان من الخزرج في بيعة العقبة الثانية، ومروراً بكل المشاهد مع الرسول ﷺ، فكان من أهل بدر، ومن الثابتين في أحد، ومن أهل الأحزاب، ومن أهل بيعة الرضوان، وهو من الذين عاشوا حياتهم يجاهدون بالسِنان واللسان، فسيفه مرفوع في كل المعارك، ولسانه ينزل بالقوارع الشعرية على رءوس أعداء الإسلام، ورأينا قبل هذا أنه كان يقول الشعر بين يدي الرسول ﷺ في عمرة القضاء في داخل الحرم، فتاريخه طويل جداً، وتاريخه مجيد فعلاً، ومع ذلك يخشى أن يسقط في النار إذا مر على الصراط. سماعه لهذه الآية العظيمة دفعه إلى أن يقول هذه الكلمة الإيمانية العظيمة: (لست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود). الناس الباقون في المدينة قالوا له ولجميع الجيش: (صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين) فهل هذه الأمنية كانت عند عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أن يرده الله عز وجل إلى المدينة غانماً؟ أبداً لم تكن هذه أمنيته، إنما كان يريد أن يلقى الشهادة في سبيل الله عز وجل، لقد خرج عبد الله بن رواحة ليموت ولم يخرج ليعود، فرد عليهم عبد الله بن رواحة بشعر، هذا الشعر يعبر عن مشاعره ومشاعر الجيش الإسلامي الخارج إلى مؤتة، قال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أي: أسأل الله عز وجل مغفرة منه وضربة سيف شديدة جداً تخرج الدماء حتى تتفجر من جسدي، هذه أمنيته، أمنيته أن يضرب بالسيف حتى يموت.

أو طعنة بيدي حران مجـــــهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشدك الله من غاز وقد رشدا

عندما مررت على قبر عبد الله بن رواحة ذكرني أحد أصحابي هناك أن أقول: أرشدك الله من غاز وقد رشدا.

صدق رضي الله عنه، فهذا الجيش كان يطلب الموت، ونحن تعلمنا أن الجيش الذي يطلب الموت توهب له الحياة، هذه قاعدة حقيقية، وهذه سنة ثابتة، وهي كلمة عميقة جداً قالها الصديق رضي الله عنه وأرضاه وكلنا نحفظها: احرص على الموت توهب لك الحياة، فهذا الجيش كان حريصاً على الموت وسنرى كيف ستوهب له الحياة.

كثرة عدد الجيش الروماني

وصل الجيش الإسلامي الكبير إلى منطقة معان بالأردن في رحلة طويلة شاقة، ووصل هناك في جمادى الأولى سنة ثمان، وعند وصول الجيش الإسلامي وجد هناك في انتظاره مفاجأة غير متوقعة، وجد أن الدولة الرومانية قد ألقت بثقلها في هذا الصراع، فقد أعدت جيشاً هائلاً عدده مائة ألف مقاتل، وأعد العرب النصارى الموالين للرومان مائة ألف مقاتل أيضاً، فصار مجموع جيوش العدو مائتي ألف مقاتل، هذا رقم مهول لا يتصور، وخاصة أن الجيش

الإسلامي ثلاثة آلاف مقاتل فقط، فـماذا سـيفعل أمـام كـل هـذه الجيـوش الجـرارة؟ وتجمـع الرومان بهذه الأعداد الهائلة أمر عجيب حقاً، ليس العجيب في أن الرومان كثرة، نحن تعودنـا على هذه الأرقام في حروب الرومان، لكن العجب أن يجمع الرومان هذا العدد المهـول لحـرب ثلاثة آلاف مقاتل فقط. وهذا الكلام يمكن أن أن يفسر على أكثر من وجهة؛ من الممكن أنهـم لم يدركوا عدد المسلمين فأعدوا عدداً يكافئ أي إعداد للمسـلمين، أو أنهـم أدركـوا فعـلاً عـدد المسلمين وأرادوا استئصال المسـلمين تمامـاً؛ حتـى لا تقـوم لهـم قائمـة، لا مجـرد هزيمـة، بـل استئصال، أو لكون هرقل يدرك أنه يحارب نبياً فأراد أن يعد قوة خارقة لعله يهزم هـذا الجـيش المؤمن، أو لعل كل ذلك.

الدولة الرومانية جهزت مائة ألف واستعانت بمائة ألف من العرب النصارى؛ لتحـارب ثلاثـة آلاف مقاتل مسلم، وإذا كان هذا التجمع غريباً من الرومـان فهـو كـذلك أيضـاً غريـب مـن العرب؛ لأن العرب لم يكن من عادتهم التجمع والاتحاد، بـل كـان يحـارب بعضـهم بعضـاً، لم تجمعهم قضية مطلقة من قبل ومع ذلك جمعوا مائة ألـف في موقعـة واحـدة. هـذا الموقـف لـه تفسير واحد، وهذا التفسير هو إشارة هرقـل لهـم بـالنهوض معهـم؛ لأن الكثـير مـن القبائـل والدول العربية لا تتحرك عند داعي القتال إلا إذا أخذت إذناً من القائد الأعظم للدولة الأولى في العالم، عندها يهب الجميع لتنفيذ الأمر كأنهم إلى نُصب يوفضون.

تجمع في أرض معان مائتا ألف مقاتل غالبهم من النصارى سواء من الرومـان أو مـن العـرب ينتظرون قدوم الجيش الإسلامي من المدينة المنورة. كانـت مفاجـأة بكـل المقـاييس وإزاء هـذا الوضع الخطير عقد المسلمون مجلساً استشارياً، مثـل عـادتهم دائـماً، وبـدءوا في تبـادل الـرأي، وخرجوا بثلاثة آراء: الرأي الأول: أن يرسل المسلمون رسالة إلى الرسول ﷺ في المدينة المنورة يخبرونه بأن الأعداد ضخمة وهائلة، إما أن يمدهم بمدد، وإما أن يـأمرهم بقتـال، أو يـأمرهم

بانسحاب، لكن هذا الرأي لم يكن واقعياً؛ لأن المسافة بين معـان وبـين المدينـة لا تقطـع إلا في أسبوعين على الأقل ذهاباً فقط، معنى هذا: أن الجيش سينتظر شهراً كـاملاً قبـل أخـذ القـرار، وهذا مستحيل، وإن قبل المسلمون بذلك لم تقبل قوات التحالف الرومانية العربية.

الرأي الثاني: أن زيد بن حارثة رضي الله عنه قائد الجيوش ينسحب بـالجيش ولا يـدخل في أي قتال، وقال أصحاب هذا الرأي لـ زيد بن حارثة: قد وطئت البلاد وأخفت أهلهـا فانصرـف، فإنه لا يعدل العافية شيء، فأصحاب هـذا الفريـق يـرون أن هـذه الحـرب مهلكـة ولا داعـي لدخولها.

الرأي الثالـث: الـدخول في المعركـة دون تـردد، ومواجهـة هـذه الأعـداد المهولـة في الحـرب الفاصلة. كان صاحب هذا الرأي عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه، فقـد قـام وقـال في منتهى الوضوح: (يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة) أي: ما تخافون منه الموت وهو الذي نريده، وهو الذي خرجنا من أجله. قال: (إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقـاتلهم إلا بهـذا الـدين الـذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة).

كان كلامه في منتهى الوضوح، فقد لخص في كلمته القصيرة جـداً أساسـيات الجهـاد في سـبيل الله. الجيش المسلم المؤمن جيش يطلب الشهادة ويحرص عليها، والنصر لا يأتي بعدد ولا عدة، إنما يأتي من عند الله عز وجل، وليس معنى هذا أن يترك المسلمون الإعداد، لا، ولكن يجـب أن يفعلوا ما عليهم والله عز وجل بعد ذلك ينصرهم، وفعلاً قام المسلمون وأعـدوا مـا علـيهم في حدود الطاقة، أعدوا جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهذا شيء كبير جداً بالنسبة لهم. نستنبط من كلام عبد الله بن رواحة أن العدة الرئيسة للمسلمين في القتال هي دين الإسلام، قال: (وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به).

أيضاً نأخذ من كلامه أن المعركة عند المسلمين لا تخلو من أمرين: إما نصر وإما شهادة، أما الرضا بالهزيمة فليس اقتراحاً مطروحاً عند المسلمين، بل هو مرفوض.

ولما قال عبد الله بن رواحة هذه الكلمات قال الناس جميعاً: (صدق -والله- ابن رواحة) اجتمعوا جميعاً على قرار القتال، ولنا مع هذا القرار وقفة.

لا شك أن إقدام الصحابة رضي الله عنهم على هذا الأمر بهذه الصورة الجماعية لهو خير دليل على أنهم طلاب آخرة وليسوا طلاب دنيا، وأن الصدق والإخلاص والتجرد يملأ قلوبهم جميعاً، وأن شجاعتهم بالغة، وأن قوتهم النفسية والقتالية فوق حدود التصور، لا شك في كل ذلك، لكننا نريد أن نفهم قرار الحرب هذا في ضوء القياسات المادية التي رآها الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، هل كان قرار الحرب هذا قراراً صائباً؟ الإجابة بسرعة قبل أن يذهب الذهن هنا أو هناك: نعم، كان صائباً ولا شك في ذلك، بدليل أن الرسول ﷺ لم يعلق أي تعليق سلبي على هذا الأمر، ولم يعنف الصحابة لا من قريب ولا من بعيد على أمر هذا القتال، ولا ذكر أنه كان الأولى ألا يقاتلوا، والرسول ﷺ لا يسكت على منكر، فسكوته ﷺ إقرار، وإقراره سنة، لو تعرض المسلمون للضرر بكل تفصيلاته فإن قرار الحرب آنذاك سيكون قراراً صائباً. لكن كيف الجمع بين هذا القرار وبين عدم جواز إلقاء الجيش الإسلامي في تهلكة، هذا القرار الذي أشار به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه لم يلق أي معارضة من الجيش، مع وجود طاقات عسكرية هائلة في هذا الجيش، وعلى رأسهم البطل الإسلامي الفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، ونحن عرفناه عبقرياً وعرفناه واقعياً لا يرى بأساً في الانسحاب إذا رأى أن الحرب مهلكة، وهذا الجيش الإسلامي الكبير ليس ملكاً لأفراد بعينهم، إنما هو ملك الدولة الإسلامية، ليس ملكاً لأفراد يضحون به إن شاءوا ذلك، وحب الشهادة أمر

عظيم جداً، لكن إن غلب على ظن القادة أن الجيش سيهلك بكامله يصبح الإقدام مفسدة، إذ كيف يضحي القادة بثلاثة آلاف مقاتل هم كل عماد الدولة الإسلامية في ذلك الوقت.

احتمالات انتهاء المسلمين إلى خوض غمار الحرب

يرى المسلمون أن القتال أمر ممكن، وأن النصر أمر محتمل، وأن الوسيلة واقعية جداً لمجابهة الظرف الصعب الذي وضعوا فيه، لكن كيف يكون أمراً واقعياً أن يلتقي ثلاثة آلاف بمائتي ألف؟ تفسير هذا الكلام عندي بثلاث احتمالات:

الاحتمال الأول: أن المسلمين لم يحصروا أعداد المقاتلين الرومان والعرب حصراً دقيقاً، وإنما قدروهم مثلاً بخمسة أو عشرة أضعافهم أو أكثر من ذلك بقليل أو أقل من ذلك، فوجدوا أن القتال مع صعوبته ممكن مع هذه الأعداد، وكل معارك المسلمين السابقة كانت بأعداد أقل بكثير من أعداد المشركين، يقول الله عز وجل في كتابه: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة:249] وذكر سبحانه وتعالى أيضاً في سورة الأنفال: أن الجيش المؤمن قادر على مواجهة عشرة أضعافه إن كان قوي الإيمان حقاً، قال سبحانه وتعالى: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} [الأنفال:65] نعم نزل التخفيف بعد ذلك وجعل المسلم باثنين من الكفار، لكن من الممكن أن يصل المسلم الواحد إلى عشرة من الكفار، بل قد يزيد على ذلك ويصبح الرجل بألف من الكفار، كما قال الصديق رضي الله عنه في حق القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه، وفي حق عياض بن غُنْم رضي الله عنه، وكما قال عمر بن الخطاب في حق عبادة بن الصامت والزبير بن العوام ومسلمة بن مُخَلّد والمقداد بن عمرو قال: إن الواحد منهم بألف. هذا الجيش الإسلامي في مؤتة من المؤمنين الصادقين، والواحد فيهم يوزن بعشرات بل مئات من الكافرين، من أجل ذلك كان قرار الحرب مقبولاً عند المسلمين، وخاصة أنه من المحتمل أنهم

قدروا أعداد النصارى بعشرين أو ثلاثين ألفاً فقط، وليس أكثر من ذلك، وهذا أمر محتمل؛ لأن تقدير هذه الأرقام المهولة قد يكون مستحيلاً في هذه الظروف، وخاصة أنهم في أرض مجهولة للمسلمين لا يعرفون خباياها ولا كمائنها ولا طرقها ولا غير ذلك. هذا احتمال، هو أنهم قدروا أعداد الرومان والعرب بأقل من عددها الحقيقي.

الاحتمال الثاني: قد تكون هناك مبالغة في أعداد الرومان والعرب، وإنما هم أقل مما ذكر من الأرقام المهولة التي ذكرت في الكتب، يعني: لم يصلوا مائتي ألف، لكن لا شك أنهم كانوا أضعاف أضعاف المسلمين.

الاحتمال الثالث وهو مهم جداً: هو أن قادة المسلمين وجدوا أن الانسحاب لن ينجيهم من جيوش التحالف الرومانية العربية، وأنه إن بدأ الجيش الإسلامي في الفرار فقد يحاصر من كل الجهات، وفي هذه الحالة ستكون المعركة عبارة عن مجزرة حقيقيةيذبح فيها الجيش الإسلامي بكامله، فكان الأفضل الثبات والمقاومة؛ لأن هذا سيعطي دفعة نفسية إيجابية للجيش المسلم في أن يهاجم ويخطط لهزيمة الآخرين بدلاً من أن يفكر في الهرب والدفاع فقط، والعكس سيكون بالنسبة لقوات التحالف الرومانية العربية، فهذه القوات قد تهتز من رؤية أناس يطلبون الموت. وقد يكون الانسحاب في معركة من هذا القبيل نجاة للطرف المسلم، ويؤيد هذا الكلام أن الانسحاب مشروع، ذكره سبحانه وتعالى في كتابه بوضوح كما في سورة الأنفال، قال الله: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال:16] في هذه الآية حدد ربنا سبحانه وتعالى سببين للانسحاب لا يأثم المسلم فيهما: الأول: أن ينسحب بخطة حربية ليعاود الحرب من جديد.

والثاني: أن تعود فرقة من الجيش إلى جيشها؛ لكي تستعد بصورة أكبر للقتال، ثم تعاود القتال من جديد، وفئة المسلمين في هذه المعركة كانت في المدينة المنورة، فانسحاب الجيش الإسلامي

سواء إلى الأردن أو إلى الجزيرة العربية، أو حتى عودته إلى المدينة المنورة ليس فيه خطأ شرعي، ولذلك كان أخذ الصحابة بهذا الرأي أمراً ممكناً إن وجدوا أنه يفيد المسلمين.

وعلى العكس؛ ليس من المقبول شرعاً أن يدخل المسلمون في معركة وهم يعلمون أنهم جميعاً سيستشهدون ويفنى الجيش الإسلامي بكامله، لأن هذا يعد تهوراً وليس إقداماً، ومن هنا نقول: إن الجيش الإسلامي وجد أنه لا أمل في الانسحاب ولا نجاة في الفرار، وأنه يجب عليهم أن يواجهوا هذا الظرف برجولة؛ لكي يخرجوا منه على الأقل بأقل خسائر ممكنة، ومن ثم كان قرار الحرب وعدم الانسحاب. ويجوز أن يكون قد حدثت الإحتمالات الثلاثة.

كذلك نضيف أن سمعة الدولة الإسلامية كانت ولا شك ستتأثر سلباً إذا انسحب الجيش الإسلامي من المعركة، بعد أن قطع كل هذا الطريق الطويل مسافة 1000 كيلو، ومن ثم كان قرار الحرب حافظاً لكرامة الدولة الإسلامية.

أخذ المسلمون قرار الحرب بشورى أو قل بإجماع، وانطلقوا ليختاروا مكاناً مناسباً للقتال قبل أن يختار الرومان، وبالفعل وصل المسلمون إلى منطقة مؤتة فقرروا إقامة المعسكر هناك والاستعداد للقتال، ومنطقة مؤتة في الأردن جنوب محافظة الكرك الآن، وأنا زرت أرض مؤتة من أجل أن أرى المكان الذي تمت فيه المعجزة الإسلامية: معركة مؤتة.

مزايا وخصائص اختيار مكان معركة مؤتة

مكان معركة مؤتة عبارة عن سهل منبسط ليس فيه جبال ولا عوائق طبيعية من مياه أو أشجار أو أي شيء، وفيه من المزايا ما ييسر على المسلمين عملية القتال؛

أولاً: كونه سهلاً منبسطاً يحرم الفريقين من المناورة ومن وضع الكمائن. لو أتيح للرومان فعل الكمائن والمناورات لكان هذا الفعل مصيبة بالنسبة للجيش الإسلامي.

ثانياً: أنه عبارة عن أرض صحراوية، والعرب قد اعتادوا على القتال في الأرض الصحراوية، بخلاف الجيوش الرومانية التي اعتادت على القتال في الأراضي الخضراء في الشام وفي تركيا وفي الأراضي الكثيرة الأشجار.

ثالثاً: السهل مفتوح من جنوبه على الصحراء الواسعة، فالرومان لا تجرؤ على التوغل في هذه الصحراء، وبهذا يقدر الجيش الإسلامي أن ينسحب إذا أراد الانسحاب.

رابعاً: في جنوب السهل خلف الجيش الإسلامي بعض التلال، فمن الممكن أن تستغل هذه التلال في إخفاء الجيش الإسلامي وراءها إذا أراد الانسحاب ليلاً.

خامساً: هذا السهل ليست به أي عوائق طبيعية كما ذكرت، ليس هناك أي نوع من الحماية للجندي إلا أن يحتمي وراء سيفه ودرعه، ومن ثم في هذا المكان المفتوح سيظهر أثر الشجاعة والإقدام والتجرد، وهذا الجانب بلا شك يتفوق فيه الجانب الإسلامي تماماً.

الجنود في الجيش الإسلامي يقاتلون على قضية هامة، وعندهم هدف سام جداً، فهم يبحثون عن الموت في سبيل الله، بينما يفتقد جيش الرومان هذا الهدف، فجنود الرومان كالقطيع من الحيوانات لا يدري لماذا يقاتل، ولا يدري ماذا يجني من وراء القتال، وإنما إذا جاء الأمر من القيادة العليا بالقتال فليس عليهم إلا التنفيذ، وإن كان هناك نصر فالذي سيحتفل بالنصر والذي سيسعد به هم القادة والقيصر، وإن كان هناك هزيمة فالجنود هم الذين سيدفعون الثمن من أرواحهم وأبدانهم. هذا كان شأن الجيوش الرومانية وهو شأن كل الجيوش العلمانية في العالم اليوم. أما العرب النصارى المشاركون في المعركة فلم يشاركوا فيها إلا طاعة لـ هرقل لا حباً في القتال، ولا يرغبون في ثواب ولا جنة، منتهى أحلامهم أن يرضى عنهم هرقل، وشتان بين من يبحث عن رضا هرقل وبين من يبحث عن رضا رب العالمين سبحانه وتعالى،

بين من يقاتل ليعيش، وبين من يقاتل ليموت. اختيار الأرض المنبسطة بهذه الصـورة سـتجعل اليد العليا للشجاع على الجبان، وللمقدم على المدبر، وهذا كله في صـالح المسـلمين، واقتربـت ساعة الصفر.

معركة مؤتة

أشرس موقعة في السيرة النبوية، أمواج بشرية هائلة من الرومان ونصـارى العـرب تنسـاق إلى أرض مؤتة، ورجال كالجبال من المسلمين يقفون ثابتين في واجهة أقوى قـوة في العـالم آنـذاك، وارتفعت صيحات التكبير من المسلمين.

حمل الراية زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه، وأعطى إشارة البدء لأصحابه واندفع كالسهم رضي الله عنه وأرضاه صوب الجيوش الرومانية، ولم يشهد المسـلمون قتـالاً مثلـه قبـل ذلـك، وارتفع الغبار في أرض المعركة في ثوان معدودات، ولم يعد أحد يسمع إلا أصوات السـيوف أو صرخات الألم، لا يتخلل ذلك من الأصوات إلا صيحات تكبير المسلمين، أو بعـض الأبيـات الشعرية الحماسية التي تدفع المسـلمين دفعـاً إلى بـذل الـروح والـدماء في سـبيل إعـلاء كلمـة الإسلام، وسالت الدماء غزيرة في أرض مؤتة، وتناثرت الأشلاء في كل مكـان، ورأى الجميـع الموت مراراً ومراراً، كانت فعلاً ملحمة بكل المقاييس، وسـقط أول شـهداء المسـلمين البطـل الإسلامي العظيم والقائد المجاهد زيد بن حارثـة رضي الله عنـه حِـب رسـول الله ﷺ، سـقط مقبلاً غير مدبر بعد رحلة جهاد طويلة جداً، بدأت مع أول أيام نزول الوحي، فهو مـن أوائـل من أسلم على وجه الأرض، وصحب الرسول ﷺ في كل المواطن، وكـان هـو الوحيـد الـذي ذهب معه إلى الطائف، والله كأني أراه وهو يدافع بكل ما أوتي من قـوة عـن حبيبـه ﷺ، حتـى

شج رأسه وسالت دماؤه غزيرة رضي الله عنه وأرضاه، هجرة وجهاد ودعـوة وعبـادة وقيـادة وتجرد. رأيناه في العام السادس من الهجرة يقود السرايا تلو الســرايا في جـرأة عجيبـة وثبـات ناجح، وكأنه يعد لهذا اليوم العظيم، يوم أن يلقى ربه شهيداً مقبلاً غـير مـدبر. لا يبكـين أحـد على زيد بن حارثة فهذه أسعد لحظة مرت عليه منذ خلق.

وحمل الراية بطل جديد، إنه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، وهـذا البطـل الشـاب المجاهد كان عمره أربعين سنة، وكان قد قضى معظم هذه السنوات في الإسلام، أسلم في أوائل أيام الدعوة، وقضى ما يقرب من خمس عشرة سنة في بلاد الحبشة مهـاجراً بـأمر الرسـول ﷺ، ورجع من الحبشة إلى المدينة المنورة في محرم سنة سبع هجرية، وعند وصوله وجد أن النبـي ﷺ توجه إلى خيبر فخرج من فوره إلى خيبر ليجاهد مع رسول الله ﷺ. إنها رغبة حقيقية صادقة في البذل والتضحية. ثم كانت هذه المعركة الهائلة

حمل الراية بعد سقوط أخيه في الإسلام زيد بن حارثة، وقاتل رضي الله عنـه قتـالاً لم يـر مثلـه، وأكثر الطعن في الرومان، ثم تكالبوا عليه، وكان يحمل راية المسلمين كما ذكرنا، فقطعـوا يمينـه رضي الله عنه وأرضاه فحمل الراية بشماله لكي لا تسقط وهـو حـي، فقطعـوا شـماله رضي الله عنه، فاحتضنها بعضديه قبل أن يسقط شهيداً رضي الله عنه وأرضاه، ليأخـذ الرايـة مـن بعـده بطل ثالث ألا وهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما جاء في البخاري: (وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيل فعددت به خمسين ما بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره)، أي: ليس منهـا شيء في ظهـره فهو لم يفر ولو للحظة واحدة رضي الله عنه وأرضاه، بل من أرض المعركة إلى الجنة مبـاشرة، لا يسير فيها بل يطير.

روى الحاكم والطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً في الجنة، مضرجة قوادمه بالدماء، يطير في الجنة).

وروى البخاري أيضاً: (أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان إذا حيا ابن جعفر رضي الله عنه قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين) رضي الله عنه وأرضاه، فربنا سبحانه وتعالى أبدل جعفر بن أبي طالب جناحاً بدلاً من يديه اللتين قطعتا في سبيل الله عز وجل. إنها حياة جهادية طويلة جداً والمكافأة الجنة.

ثم حمل الراية عبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه المجاهد الشاب الذي شارك في كل الغزوات السابقة، وجاهد -كما ذكرنا- بسيفه وبلسانه، وهو الذي كان يحمس المسلمين لأخذ قرار الحرب، وهو الذي كان يتمنى ألا يعود إلى المدينة، بل يقتل شهيداً في أرض الشام، حمل الراية وقاتل قتالاً عظيماً مجيداً حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه.

ما تردد أبداً كما أشيع عنه رضي الله عنه، وكيف يتردد من يدفع الناس دفعاً للقتال، كيف يتردد من يحمس الناس على طلب الشهادة؟ كيف يتردد من يثق به رسول الله ﷺ فيجعله على قيادة هذا الجيش الكبير؟ كيف يتردد من شهد له ﷺ أنه شهيد، ومن دعا له ﷺ قبل ذلك بالثبات؟ وهذا التردد الذي أشيع عنه لم يتفق عليه عامة أهل السير، لم ينقله الكثير من كتاب السيرة، لم ينقله موسى بن عقبة في مغازيه، ولم ينقله المقريزي في (إمتاع الأسماع)، ولم ينقله ابن سعد في (الطبقات)، وإنما ذكره فقط ابن إسحاق رحمه الله في سيرته، وفي هذه الرواية تناقض شديد جداً، تناقض بين أول الرواية وآخر الرواية، في أولها جهاد وتحفيز على الشهادة وفي آخرها تردد، هذا لا يستقيم، أما ما ورد في ابن إسحاق أيضاً من أن هناك ازوراراً في سرير عبد الله بن رواحة في الجنة فهو منقطع السند، وضعفه البيهقي وضعفه ابن كثير وعارضه بحديث أنس بن مالك الذي في البخاري وفيه: أن عبد الله بن رواحة قتل شهيداً ولم يشر إلى ذلك أبداً، ومن

أشاع أن عبد الله بن رواحة قد تردد فبسبب ما نسب إليه من شعر في هذا الموقف قد يوحي أنه متردد، لكن هذا الشعر إن صح نسبه وروايته على اختلاف بين العلماء في الصحة فهذا لا يحمل أبداً على معنى عدم الإقدام، وإنما يحمل على تحميس النفس على شيء خطير، وعلى بذل الروح والتضحية بالنفس، فهو أمر ليس بسيطاً يسيراً عابراً في حياة الإنسان؛ فتحمل آلام الضرب بالسيف والطعن بالرمح ليس شيئاً سهلاً، إذا قال الإنسان لنفسه بعض الكلمات التي تصبره على تحمل الآلام وتشجعه على فراق الأحبة وتدفعه إلى الموت لا إلى الحياة ليس في ذلك شيء، بل هو أمر محمود ومطلوب. ومما قيل من شعره يومئذ:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت

أي: ما رغبت فيه من الشهادة فها هو قد جاد، وإن تفعلي كما فعل زيد وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما هديت، وبالفعل كان قتاله شديداً وجهاده عظيماً، وطعن في صدره رضي الله عنه وأرضاه، وتلقى الدماء بيديه ودلك بها وجهه رضي الله عنه وأرضاه، وأصيب شهيداً كما في مسند أحمد وسنن النسائي والبيهقي عن أبي قتادة رضي الله عنه وأرضاه بسند صحيح.

هذه روايات صحيحة في حق هذا البطل الذي شوهت صورته بهذا الأمر، وهذا لا يستقيم في حقه أبداً، وهو الذي دفع المسلمين هذا الدفع في هذه المعركة الهائلة.

سقط القادة الثلاثة شهداء؛ ليثبتوا لنا وللجميع أن القيادة مسئولية، وأن الإمارة تكليف وليست تشريفاً أبداً، وأن القدوة هي أبلغ وسائل التربية، وكان ثباتهم سبباً في ثبات الجيش الإسلامي، وجهادهم دفع الجيش الإسلامي لبذل كل طاقة. ما يفر الجنود إلا بفرار القادة،

ولا تسقط الراية إلا بهوانها على حاملها، لكن بمؤتة ما سقطت راية المسلمين أبداً ولا في لحظة من لحظات القتال.

بعد استشهاد البطل العظيم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأرضاه حمل الراية الصحابي الجليل ثابت بن أقرم البدري فهو ممن شهد بدراً، فقال: (يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم)، فقالوا: (أنت؛ أنت تحمل الراية)، فقال: (ما أنا بفاعل) أي: هناك من هو أحسن مني في هذا المجال، ثم تقدم إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه القائد المعجزة فدفع له الراية وقال له: (أنت أعلم بالقتال مني)، فقال خالد في تواضع وما زال عمره في الإسلام ثلاثة شهور: (أنت أحق بها مني، أنت شهدت بدراً)، فنادى ثابت المسلمين للاجتماع على خالد ، فاجتمع الناس على خالد وأعطوه الراية.

حمل الراية خالد وجاهد جهاداً يكفر به عن العشرين سنة الماضية، فهذا أول مواقفه في سبيل الله، ولا بد أن يري الله عز وجل منه بأساً وقوة وجلداً وإقداماً رضي الله عنه، قاتل خالد بن الوليد كما لم يقاتل من قبل، حتى يقول كما في صحيح البخاري : (لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية) سيف يمني عريض، تسعة أسياف كاملة تكسرت في يديه وهو يحارب الرومان، تخيل كم من البشر قتل بهذه الأسياف، ومع ذلك استمر في قتاله، كلما انكسر سيف أخذ غيره وقاتل، إنها معركة ضارية، وثبت رضي الله عنه ثباتاً عجيباً وثبت المسلمون بثبات خالد رضي الله عنه وأرضاه.

استمر القتال يوماً كاملاً، وما تراجع المسلمون لحظة، وإنما وقفوا كالسد المنيع أمام طوفان قوات التحالف الرومانية العربية، واستمر هذا الحال حتى جاء المساء. تصور من الصباح إلى المساء في معركة واحدة ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف، هذا شيء مهول، لم يكن من عادة الجيوش

في ذلك الوقت أن تقاتل ليلاً؛ لأنه قد يأتي الشخص فيقتل أصحابه، فتحاجز الفريقان واستراح الرومان ليلتهم هذه، أما المسلمون فكانوا في حركة دائمة.

خطة خالد بن الوليد في تدبير أمر الجيش في معركة مؤتة

بدأ خالد بن الوليد بتنفيذ خطة بارعة عبقرية للوصول بالجيش إلى بر الأمان، وهذه الخطة لها هدف واضح، الهدف هو إشعار الرومان أن هناك مدداً كبيراً قد جاء للمسلمين؛ حتى يدخل جنود الرومان والعرب المتحالفين معهم الإحباط والخوف والذعر، فهم بصعوبة بالغة صمدوا أمام ثلاثة آلاف مجاهد في اليوم الأول، فكيف إذا جاءهم مدد؟ فماذا عمل خالد بن الوليد حتى يخيف ويرهب الجيش الروماني العربي الذي أمامه؟

أولاً: جعل الخيل أثناء الليل تجري في أرض المعركة، لتثير الغبار الكثير، فيخيل للرومان أن هناك مدداً قد جاء للمسلمين في الليل.

ثانياً: غير من ترتيب الجيش، فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، وجعل المقدمة مؤخرة والمؤخرة مقدمة، فلما رأى الرومان هذه الأمور في الصباح، رأوا الرايات والوجوه والهيئة قد تغيرت أيقنوا أن هناك مدداً قد جاء للمسلمين فهبطت معنوياتهم تماماً.

ثالثاً: جعل في آخر الجيش على بعد كثير من الجيش على أحد التلال مجموعة من الجنود المسلمين منتشرين على مساحة عريضة، ليس لهم دور إلا إثارة الغبار لإشعار الرومان بالمدد المستمر الذي يأتي المسلمين.

رابعاً: بدأ خالد بن الوليد في اليوم الثاني من المعركة يتراجع تدريجياً بجيشه إلى عمق الصحراء، فظن الرومان أن خالد بن الوليد يسحبهم ويستدرجهم إلى كمين في الصحراء، فترددوا في

متابعته، ووقفوا على أرض مؤتة يشاهدون انسحاب خالد دون أن يجرءوا على مهاجمته أو على متابعته.

وبالفعل نجح مراد خالد بن الوليد وسحب الجيش بكامله إلى عمق الصحراء، ثم بدأ الجيش في رحلة العودة إلى المدينة المنورة سالماً.

أقوال العلماء في نتائج معركة مؤتة وبيان الراجح منها

لنا مع هذا الموقف وقفات: هل كانت موقعة مؤتة هزيمة للمسلمين أم كانت نصراً للمسلمين؟ هل كانت مجرد انسحاب ناجح؛ لكونه أفضل النتائج التي يمكن أن نتوقعها في مثل هذه الظروف، أم أنها كانت نصراً جليلاً للمسلمين وهزيمة منكرة للرومان؟

تباينت آراء المحللين القدامى والمحدثين حول هذه المعركة، تباينت تبايناً عظيماً فعلاً، فمنهم من رأى أن المعركة كانت انتصاراً للمسلمين، وممن يرى هذا الرأي موسى بن عقبة في مغازيه والزهري والواقدي ، ورجح ذلك البيهقي وابن كثير فهؤلاء جميعاً رأوا أن المسلمين انتصروا انتصاراً جليلاً في موقعة مؤتة، ومن العلماء من عدها هزيمة منكرة للمسلمين كما أشار إلى ذلك ابن سعد في طبقاته، ومنهم من قال: إن كل فئة قد انحازت عن الأخرى، هناك تعادل بين الكفتين، مال إلى هذا ابن إسحاق في سيرته، وابن القيم في زاد المعاد.

والحقيقة أني أميل وبشدة مع الرأي الأول القائل بأن هذا كان انتصاراً حقيقياً للمسلمين، وعندي على هذا الكلام أدلة كثيرة:

أولاً: ما جاء في البخاري عن أنس رضي الله عنه يحكي عن معجزة من معجزات الرسول ﷺ وهو يخبر أصحابه عن نبأ أهل مؤتة قبل أن يعودوا إلى المدينة المنورة، قال ﷺ: (أخذ الراية زيد

فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثـم أخـذها ابـن رواحـة فأصـيب) يقـول أنـس : وعينـاه تذرفان) يعني: يبكي ﷺ على استشهاد الثلاثة، وكانوا جميعاً من أحب الناس إلى قلبه ﷺ.

ثم قال ﷺ: (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه)، وكلمة: (حتى فتح الله عليه) هذه لا تحتمل معاني كثيرة، وإنما تحمل معنى النصر والفـتح والعلـو، فـالله عـز وجـل لا يفتح عليهم بمجرد الانسحاب، لكن الواضح أن المسلمين فتح الله عليهم بالنصر ثم قرر خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه أن ينسـحب وأن يكتفـي بهـذا الانتصـار دون محاولـة متابعـة الجيش الروماني؛ لأن خالد بن الوليد كان واقعياً جداً إلى أبعد درجة، فهو علم أنـه لا يسـتطيع أن يتوغل في أرض الروم بهذا الجيش الإسلامي الصغير، فكان هذا فتحاً من الله عز وجل عـلى المسلمين كما ذكر رسول الله ﷺ، ولو كان الرسول ﷺ يريد أن يذكر أنهم انسـحبوا فقـط دون انتصار لقال كلمة تدل على هـذا المعنـى، كـأن يقـول: حتـى أنجـاهم الله، أو نحـو ذلـك مـن الكلمات، وهو ﷺ أبلغ البشر وأوتي جوامع الكلام، ويستطيع أن يصف بكلمة واحدة الحدث تماماً كما تم في أرض مؤتة: (حتى فتح الله عليه).

الدليل الثاني: روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح، وكـذلك النسـائي والبيهقـي عـن أبي قتادة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه قبل أن يعـود أهـل مؤتـة إلى المدينـة: ألا أخبركم عن جيشكم هـذا الغـازي؟ إنهـم انطلقـوا حتـى لقـوا العـدو فأصـيب زيـد شـهيداً فاستغفروا له)، فاستغفر له الناس، (ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فشد عـلى القـوم حتـى قتل شهيداً فاشهدوا له بالشهادة واستغفروا له)، فاستغفر الناس له، (ثم أخـذ اللـواء عبـد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى أصيب شهيداً فاستغفروا له) هذه الرواية صحيحة تشـهد لــعبد الله بن رواحة بالثبات وتشهد له بالشهادة. فاستغفروا له، فاستغفر له الناس، (ثم أخـذ اللـواء

خالد بن الوليد فرفع رسول الله ﷺ إصبعيه وقال: اللهم هو سيف من سيوفك فانصره)، يقول عبد الرحمن بن مهدي أحد رواة الحديث وهو شيخ الإمام أحمد بن حنبل : (فانتصر به).

هذا دعاء من الرسول ﷺ لسيف الله المسلول خالد وللجيش الإسلامي بالنصر، ودعاؤه ﷺ مستجاب، وهذا الحديث من معجزاته، فهو يخبر به عن الغيب، ومحال أن يتحقق خلاف ما ذكره ﷺ للصحابة، فهو ذكره على سبيل الحجة الدامغة لنبوته ﷺ والحجة الدائمة لإنبائه بالغيب، فحين يدعو فيه بالنصر فلا بد أن يحصل النصر، وهذا صريح في هذه الرواية وهي صحيحة.

الدليل الثالث: كم عدد شهداء المسلمين في هذه الموقعة الطاحنة؟ رقم لا يتصوره أحد مطلقاً، إنهم اثنا عشر شهيداً فقط، منهم الأمراء الثلاثة، وفي حرب مع مائتي ألف ولم يقتل ويستشهد سوى اثني عشر رجلاً، دليل دامغ على انتصار المسلمين؛ لأن الجيش المهزوم مستحيل أن يقتل منه غير اثني عشر رجلاً فقط، بينما خسر الرومان أضعاف ذلك، ويكفي مَنْ قتلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه بتسعة سيوف، فإذا كان شهداء المسلمين أقل من قتلى الرومان فهذه من أبلغ علامات النصر.

الدليل الرابع: غنم المسلمون غنائم عدة من مؤتة، ولا يغنم إلا الجيش المنتصر، بل إنهم غنموا ممتلكات بعض كبار القادة الرومانيين، فبعض المسلمين قتلوا بعض قادة الرومان وأخذوا أسلابهم، روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود وأحمد عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وانظر إلى كلام عوف بن مالك الذي يقول: (إن أحد المسلمين قتل رومياً يحمل سلاحاً مذهباً، ويركب فرساً عليه سرج مذهب) هذه غنيمة عظيمة، ولا يحمل الذهب في المعارك إلا القادة الكبار وليس عامة الجند.

الدليل الخامس: لم نسمع بعد هذه الغزوة عن شماتة شعرية من شعراء قريش أو من عرب الشمال، فهؤلاء لا يتركون مثل هذه الأحداث أبداً تمر دون قصائد شعرية، لو هزم المسلمون ما تركهم أعداؤهم بأشعارهم أبداً، لكن ما سمعنا هذا الكلام، بل العكس، سمعنا فخراً من المسلمين على لسان كعب بن مالك رضي الله عنه وأرضاه وحسان بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه في موقعة مؤتة، وهذا لا يأتي إلا بالنصر.

الدليل السادس: تركت هذه الموقعة أثراً إيجابياً هائلاً على عرب الجزيرة، وخاصة أهل المناطق الشمالية، ورأينا بعد هذه الموقعة وفود القبائل التي طالما عاندت الإسلام والمسلمين تأتي مذعنة إلى المدينة المنورة لتعلن إسلامها بين يدي الرسول ﷺ، فلو كانت هناك هزيمة لما فعلوا ذلك، ولو كانت تعادلاً لانتظروا رد فعل الرومان، ولكن مسارعة هؤلاء تنبئ عن شعورهم بالرهبة والجلال من هذه الدولة التي وقف جيشها هذه الوقفة أمام جحافل الروم والعرب المتنصرة، ولو كانت الغلبة للرومان وللقبائل المتحالفة معها في هذه الموقعة، لكان التسابق لطلب ود الرومان وغسان هو الغالب، ولكن ذلك لم يحدث.

لقد حدث أمر غريب جداً بعد مؤتة، وهو من القبائل التي أتت المدينة قبائل غطفان، وتحدثنا عن غطفان وحرب غطفان للمسلمين، وبعد هذا كله أتت غطفان إلى المدينة لتبايع على الإسلام، وكذلك أتت بنو سليم وأشجع وذبيان وفزارة وغيرها، كل هؤلاء أتوا يبايعون على الإسلام، واشتركوا بعد ذلك في فتح مكة، وغير ممكن بعد الهزيمة أن يحصل هذا الشيء.

أما ما قيل في استقبال الجيش بكلمة: (يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟) فهذه الرواية سندها ضعيف، وحتى لو صحت فإن الرسول ﷺ نفسه في هذه الرواية يدافع عن الصحابة ويقول: (ليسوا بالفرار، بل هم الكرار إن شاء الله) هذا إن صحت الرواية، وفي رواية ثانية أيضاً فيها ضعف أن مجموعة صغيرة من المسلمين فرت إلى المدينة المنورة، وحتى هذه الرواية فيها أن

الرسول ﷺ عذر هذه الطائفة وقال: (أنا فئة لهم) يعني: هؤلاء انحازوا إلى فئة شرعية في المدينة المنورة، فهذا أمر ليس فيه خطأ شرعي إن صحت الرواية أيضاً.

كانت موقعة مؤتة انتصاراً بكل المقاييس، كانت انتصاراً للإنسان على نفسه، يرغم نفسه على خوض غمار المصاعب والمشاق، بل والموت دون تردد، كانت انتصاراً على الدولة الرومانية في أول لقاء بينها وبين المسلمين، وستكون بداية سلسلة مضنية من الحروب، كانت فيها اليد العليا للمسلمين، كانت انتصاراً على القبائل العربية الشمالية التي سارعت بعد عام من هذه الأحداث بالدخول في دين الإسلام، بعد أن رأت قوة وبأس الإسلام، كما رأت قبل ذلك حكمة وأخلاق الإسلام، وأيقنت تماماً أن هذا الدين من عند رب العالمين سبحانه وتعالى.

كانت انتصاراً على كل عدو للدولة الإسلامية، حتى قريش لما رأت هذه الأحداث حارت: ماذا فعل المسلمون مع الدولة الأولى في العالم؟ فكان ذلك سبباً في هزيمة نفسية قاسية لأهل مكة، مهدت تماماً لما سيأتي بعد ذلك من فتح مكة وفتح البلاد المحيطة بها.

هذه هي موقعة مؤتة، وهؤلاء هم الأمراء الشهداء الثلاثة، وهذا هو خالد بن الوليد سيف الله المسلول على أعداء المسلمين، الإضافة الرائعة في الدولة الإسلامية خلال الثلاثة الأشهر السابقة، وهذا هو الجيش الإسلامي الذي يكتب له النصر، وهذا هو الدليل العملي الواقعي أن الله عز وجل ينصر من نصره، ويكون مع من جاهد في سبيله، ويدافع عن الذين آمنوا، ويمحق الذين كفروا.

37

الطريق إلى مكة

حديثنا اليوم عن حدث من أعظم الأحداث في تاريخ الأرض مطلقاً، وهذا الحدث يعتبر لحظة فارقة فرق بين مرحلة ومرحلة أخرى مختلفة تماماً عن المرحلة التي سبقت، وله تداعيات كبيرة جداً، ليس فقط في الجزيرة العربية ولكن في العالم، وليس فقط في زمانه ولكن إلى زماننا الآن. هذا الحدث العظيم الكبير: هو فتح مكة. ولا شك أن هناك أحداثاً كثيرة جداً قادت إلى هذا الفتح العظيم، ومقدمات طويلة، وستكون -إن شاء الله- هذه المقدمات هي موضوع درس اليوم. لكن قبل أن نبدأ في هذه التفصيلات نريد أن نكمل نقطة هامة تحدثنا عنها في الدرس السابق ولم نتناولها بالشرح والتفصيل.

هذه النقطة: هي أنه في بداية العام الثامن من الهجرة حدثت مشكلتان كبيرتان للأمة الإسلامية: المشكلة الأولى: هي قتل الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه وأرضاه سفير رسول الله ﷺ لعظيم بصرى، والذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني. هذه المشكلة كان من جرائها أن أخرج ﷺ جيشاً كبيراً، وهو الجيش الذي دخل في سرية مؤتة بقيادة الأمراء الثلاثة: زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة كما فصّلنا في الدرس السابق، وكان من ورائه النصر العظيم الذي تم في موقعة مؤتة، وبذلك تقريباً انتهت مشكلة قتل الحارث بن عمير، واستعادت الأمة الإسلامية هيبتها إلى حد كبير، ذاع صيتها ليس فقط في أرض مؤتة ولكن في الجزيرة بكاملها.

سرية ذات السلاسل سنة 8 هجرية بقيادة عمرو بن العاص

المشكلة الثانية: حدثت هذه المشكلة في وقت متزامن مع مقتل الحارث بن عمير رضي الله عنه وأرضاه، وهي مشكلة اعتداء قبائل قُضاعة على مجموعة من صحابة الرسول ﷺ، وكانوا 15 رجلاً من الصحابة، وقتلوا منهم 14 رجلاً، وعاد رجل واحد منهم إلى المدينة المنورة وأخبر الرسول ﷺ بتفاصيل الخيانة التي قامت بها قضاعة والغدر الذي فعلته مع صحابة الرسول ﷺ، فكان لا بد للرسول ﷺ أن يقف وقفة جادة مع قبيلة قضاعة؛ لكي لا تهتز صورة الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية. بالفعل قرر الرسول ﷺ أن يبعث جيشاً كبيراً إلى مناطق قضاعة، وكان هذا بمجرد عودة الجيش الإسلامي من مؤتة إلى المدينة المنورة، ومؤتة وقعت في جمادى الأولى سنة 8 هـ والرسول ﷺ في جمادى الآخرة سنة 8 هـ بعث الجيش الثاني إلى قبائل قضاعة. المنطقة التي تعيش فيها قضاعة كان اسمها السلاسل، وهي عبارة عن ماء أو عين أو بئر اسمه السلاسل، وسميت المنطقة بكاملها بذات السلاسل، فعرفت هذه الغزوة في التاريخ بغزوة ذات السلاسل.

اختيار الرسول ﷺ لعمرو بن العاص لقيادة الجيش

من سيختار النبي ﷺ لقيادة هذا الجيش الهام الذي سيخرج لحرب قبيلة كبيرة قوية وهي قبيلة قضاعة، وعلى مسافة كبيرة من المدينة المنورة شمال الجزيرة العربية، وليس لها مدد، ولها ظروف صعبة كظروف موقعة مؤتة؟ اختار الرسول ﷺ لقيادة هذا الجيش شخصية قد يعجز الكثيرون عن اختيارها، وعندما تأتي لتحلل هذا الاختيار ستجد أنه اختيار في منتهى الحكمة من رسول الله ﷺ. لقد اختار الرسول ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، وعمرو بن العاص لم

يكن قد مر على إسلامه إلا شهور قليلة جداً، فقد أسلم في صفر سنة 8 هـ، لم يمر على إسلامه سوى ثلاثة أو أربعة أشهر، ثم اختير ليكون قائداً للجيش الهام في حرب عظيمة للمسلمين.

اختار الرسول ﷺ عمرو بن العاص لتأليف قلبه؛ لأن عمرو بن العاص شخصية محورية جداً في مكة المكرمة، وانضمامه إلى المعسكر المسلم وإلى جيش المدينة المنورة يعتبر إضافة كبيرة جداً لا بد أن يحافظ عليها المسلمون قدر المستطاع. عمرو بن العاص له تاريخ طويل جداً في العداء مع المسلمين، من أوائل أيام مكة، ومروراً بسفره إلى الحبشة لإعادة المسلمين المهاجرين من هناك إلى مكة المكرمة، ثم خروجه بعد ذلك في مراحل متعددة من القتال التي دارت مع المسلمين، وعمرو بن العاص في ذلك الوقت شخصية ليست فقط كبيرة في المقام، ولكن أيضاً كبيرة في السن، فقد كان عمره وقت إسلامه 57 سنة، أي: أنها شخصية من كبار قادة قريش ومن دهاة العرب، ولا بد أن يُحفظ له مكانه في داخل الدولة الإسلامية؛ لكي يستمر في المسيرة معها. رأينا كيف أن النبي ﷺ كان يعظّم من قدر خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه عندما استلم القيادة في غزوة مؤتة، وسماه سيف الله المسلول، ورُفع قدره جداً في الدولة الإسلامية، ولا شك أن أقدام خالد بن الوليد رضي الله عنه كانت أثبت بعد موقعة مؤتة عنها قبل موقعة مؤتة، وله دور وضع في الدولة الإسلامية، والناس بصفة عامة تنظر إليه على أنه قد حقق نصراً مهيباً، وأصبحت له مكانة جميلة تثبت أقدامه إن شاء الله.

كذلك أراد رسول الله ﷺ أن يفعل مع عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، يعطيه قيادة جيش فيحقق انتصاراً فتصبح له مكانة في داخل الدولة الإسلامية، ومن ثم تثبت أقدامه.

ليس هذا فقط، فإن هناك شيئاً مهماً جداً يعبر عن مدى عمق النظرة للرسول الحكيم ﷺ، ألا وهو أن أم عمرو بن العاص من قبيلة قضاعة، وذهاب عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه وأمه من نفس القبيلة يُعطي بعداً هاماً جداً في القتال، فقد يتألف قلوب هؤلاء القوم، وهم

عندما يجدون على رأس الجيش الذي أتى أن أمه منهم قد يحدث بينهم حوار ومفاوضات للقبول بفكرة الإسلام، ولا يأخذهم الكبر والعناد والفجور في الخصام، فتزداد الهوة بينهم وبين الإسلام. والرسول ﷺ كما تعلمون كان دائماً يقرب قلوب الناس للإسلام، وكان إسلام الناس أحب إليه من أموالهم. أيضاً كون أم عمرو بن العاص رضي الله عنه من قضاعة فمن المؤكد أن عمرو بن العاص قد ذهب إلى قضاعة أكثر من مرة، فهو أعرف بديار قضاعة ومساكن قضاعة، والطرق والدروب التي تؤدي إلى هناك أكثر من بقية الصحابة.

اختياره عسكرياً؛ لأنه عبقرية عسكرية، وقيادة فذة، واختياره دعوياً مهم جداً؛ لأنه سوف يؤلّف قلوب قضاعة أكثر من غيره، وفي نفس الوقت هو أعلم بالطريق من غيره. كل هذه الأمور تجعل اختيار عمرو بن العاص لهذه المهمة خاصة في منتهى الحكمة.

روى ابن حبان والحاكم وأحمد بسند صحيح: أن الرسول ﷺ أراد أن يبلغ عمرو بن العاص بهذه المهمة العظيمة فأرسل إليه ثم قال له: (خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، قال عمرو بن العاص: فأتيته وهو يتوضأ ﷺ، فصعّد فيّ النظر ثم طأطأ، فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلّمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة) أي: أنك ستذهب إلى هذه الموقعة وبإذن الله ستنتصر فيها، وستكون لك غنائم فيكثر مالك، وتقسم أربعة أخماس الغنائم على الجيش، فقال عمرو بن العاص واستمع إلى كلامه رضي الله عنه وأرضاه وهو يقول هذه الكلمات أمام الرسول ﷺ، والرسول ﷺ إذا كان الكلام غير سليم فإن الوحي سوف يخبره بذلك، لكن الرسول ﷺ قبل منه هذه الكلمات، قال عمرو: (يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ) وهذا صدق وإخلاص من عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه. ليست هذه فقط هي المنقبة، ولكن ما سيقوله ﷺ بعد ذلك هو منقبة عظيمة جداً لعمرو بن العاص رضي الله عنه، فقال رسول الله

ﷺ: (يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح)، هذه شهادة من رسـول الله ﷺ لــعمرو بـن العاص أنه من الصالحين. بالفعل أُمر على الجيش، وخرج الجيش الإسلامي بقيـادة عمـرو بـن العاص رضي الله عنه يترأس 300 من الصحابة من الأنصار والمهاجرين.

لابد أن نقف وقفة مع عظمة الصحابة رضي الله عنهم في قبولهم لقيادة هـذا البطـل الإسـلامي الجديد، ليس له إلا أربعة أشـهر فقـط في الإسـلام، ومـع ذلـك يقـود جيشـاً مـن المهـاجرين والأنصار لهم تاريخ طويل في الإسلام، بعضهم وصل تاريخه في الإسلام إلى 20 سـنة متصـلة، مع ذلك يقبل أن يترأس عليه في هذا الجيش من كان عمره في الإسلام أربعة شهور فقط. خرج الجيش الإسلامي وسنجد صورة مصغرة من موقعة مؤتة، وكأن الله عز وجل قد أراد أن يحقـق لـعمرو بن العاص ما حقق لـخالد بن الوليد قبل ذلك لتثبت أقدامهما في الإسلام.

عبقرية عمرو بن العاص في قيادة الجيوش

خرج عمرو بن العاص بالجيش ومن أول لحظات الخـروج ظهـرت عبقريتـه رضي الله عنـه في الحروب، من أول الطريق قرر أن يسير بالمسلمين ليلاً ويكمـن نهـاراً، حتـى لا ترصـده عيـون العدو إن كانت على الطريق. وبالفعل وصل جيشه دون أن تدري عيون قضـاعة أنـه قـد جـاء إليهم، وبدأ أيضاً بعبقرية واضحة وبحكمة عسكرية لافتة للنظر يبث العيون هنا وهناك، حتى يستطلع أعداد العدو، فوجد أن أعداد العدو كبيرة، وعلم رضي الله عنه وأرضاه أن طاقته هذه الصغيرة ستكون غير قادرة على مواجهة هذه الأعداد الكبيرة مـن قضـاعة، وفي الحقيقـة كـان عمرو بن العاص في منتهى الواقعية، وما كان يندفع أبداً بجيشه إلا بعد دراسة متأنية، ولم يكـن متهوراً على الإطلاق رضي الله عنه وأرضاه، وسنجد هذا الكلام كثيراً جداً في فتوح عمرو بـن العاص في فلسطين وفي مصر، ما كان يندفع إلا بدراسة حقيقية للواقع الذي هو مقبل عليه.

وجد رضي الله عنه أن أعداد قضاعة كبيرة فأرسل إلى الرسول ﷺ في المدينة المنورة أنني أحتاج إلى مدد، وأمر الجيش الإسلامي ألا يقاتل حتى يأتيه المدد، وبالفعل أرسل الرسول ﷺ إليه 200 من الصحابة من وجوه الأنصار والمهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، على رأس هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أمين هذه الأمة، ومن السابقين، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وله تاريخ طويل جداً مع المسلمين، وتحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح عدد كبير جداً من السابقين، في مقدمتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكفى بهما، ومعظم المائتين من السابقين، وكلهم على هذا المستوى الراقي جداً، قدم في الخبرة والتاريخ والإسلام وسبق في أشياء كثيرة جداً، فهؤلاء كانوا مدداً لـ عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فعندما وصلوا إلى هناك انضم المائتان إلى الثلاثمائة وأصبح الجيش كله 500، لكن من هو أمير هذا الجيش؟ عندما أرادوا أن يصلوا الفريضة تقدم أبو عبيدة بن الجراح ليؤم الناس، وكان من المعروف أن قائد الجيش هو الذي يؤم الناس، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه اعتبر أنه هو الأمير؛ لأنه جاء على رأس 200 من وجوه الأنصار والمهاجرين رضي الله عنهم، وفيهم أبو بكر وعمر، فتقدم أبو عبيدة ليقود الصفوف، ولكن عمرو بن العاص تقدم وقال: (إنما قدمت عليّ مدداً لي، وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير، وإنما أرسلك النبي ﷺ إليّ مدداً)، وعمرو بن العاص لا يزال حديث عهد بالإسلام، لكنه كما ذكرنا كان كبيراً في السن عمره 57 سنة، أي: أنه أكبر من أبي عبيدة بن الجراح بعشر سنوات كاملة تقريباً، وله تاريخ عسكري معروف، ومن فرسان قريش ومن دهاة العرب، وأيضاً أبو عبيدة بن الجراح له مكانة كبيرة جداً عند الصحابة، وتاريخ طويل جداً كما ذكرنا، لكن عمرو بن العاص رأى أنه أحق بالإمارة، ليس لكونه فقط عسكرياً وعبقرياً في إدارة الجيوش وما إلى ذلك؛ ولكن لأن الرسول ﷺ وضعه

على إمارة الجيش الأصلي، فله حجة، وعادة الصحابة أنهم ما كانوا يتنازعون الإمارة بهذه الصورة، ومن الواضح أنه لا يزال جديداً في الإسلام، فعرض هذا الكلام فقال: المهاجرون، والمهاجرون كانوا يميلون إلى أبي عبيدة بن الجراح، وأبو عبيدة رجل حيي جداً فاستحى أن يتكلم عن نفسه، فتكلم المهاجرون فقالوا: كلا، بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه. أي: إذا كنا سنختلف في الأمير، فيكون عمرو بن العاص أمير الثلاثمائة الأوائل، وأبو عبيدة بن الجراح أمير المائتين الذين أتوا مدداً، لكن لا ينبغي أن يكون للجيش الواحد قائدان، فقال عمرو: لا، بل أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف، وكان أبو عبيدة لين الطبع جداً، فخاطب عمرو بن العاص وقال له كلمات جميلة جداً تعبّر عن عمق فهم أبي عبيدة بن الجراح لقضية الإمارة في الإسلام، قال له: (لتطمئن يا عمرو وتعلمن أن آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال: إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك)، فأطاع أبو عبيدة وكان عمرو بن العاص يصلي بالصحابة وهم 500 شخص، فيهم أبو عبيدة وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وفيهم الكثير والكثير من المهاجرين والأنصار، وكان الجميع يصلي وراء عمرو بن العاص حديث الإسلام الذي لم يسلم إلا منذ أربعة أشهر. هذه صورة حضارية رائعة في تاريخ المسلمين، ومظهر من مظاهر الوحدة، ومن أبلغ أسباب النصر، فالجميع يعمل في سبيل الله لا يتهافت أحدهم على الإمارة.

لا بد أن نقف وقفة مع موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفي الحقيقة أنا أرى أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لم يخطئ في هذا الحدث، وعنده حجة شرعية قوية جداً، فالنبي ﷺ بعث إليه وأمّره على هذا الجيش، وأخبره أنه يريد أن يسلمه الله عز وجل وأن يغنمه، أي: أن هناك أمراً واضحاً يفسر لعمرو بن العاص ولغيره من الصحابة أن الرسول ﷺ اختاره لإمارة

هذا الجيش، وأبو عبيدة جاء بمائتين من الصحابة، ولم يصرح الرسول ﷺ مباشرة أنه الأمير على الجيوش، فمفهوم ذلك أنه جاء مدداً لعمرو بن العاص ، وعمرو بن العاص ليس بالعقلية العسكرية البسيطة السهلة التي يؤمها غيرها، فهو قائد ورجل عسكري وعبقري، ويشهد له الجميع من المسلمين وغير المسلمين أن له كفاءة عسكرية لافتة للنظر في الجزيرة العربية، فموقف عمرو بن العاص موقف سليم.

تولى عمرو بن العاص قيادة 500 من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وظهرت عبقريته في أكثر من خطوة، منها: أنهم أرادوا رضي الله عنهم أن يوقدوا النار لغرض التدفئة وكانت ليلة شديدة البرد، وطلبوا من عمرو بن العاص هذا الأمر فرفض رضي الله عنه، قال لهم: لا توقدوا النار، فذهب الصحابة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليتوسط عند عمرو بن العاص لإيقاد النار، فذهب أبو بكر الصديق وكلم عمرو بن العاص في إيقاد النار، فقال عمرو بن العاص بمنتهى الحزم: لا يوقد أحد منكم ناراً إلا قذفته فيها، منع كل الناس أن يقوموا بإيقاد النار، حتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد تحادث في ذلك الأمر مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقال أبو بكر الصديق في منتهى اليقين: إن الرسول ﷺ أمّره على الجيش وهو أعلم؛ أي أن النبي ﷺ أعلم بحكمته وبقدرته على إدارة الجيش، وما علينا إلا أن نسمع ونطيع ولو لم ندر ما هي الحكمة من وراء الأمر.

حكمة عمرو بن العاص رضي الله عنه في ذلك الأمر كانت واضحة، والصحابة عندما عادوا إلى المدينة المنورة اشتكوا عمراً إلى الرسول ﷺ، فسأله عن ذلك وقال: (لماذا فعلت ذلك؟ قال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم)، أي: أن الصحابة جميعهم 500، وقبائل قضاعة أعداد ضخمة جداً، فلو أشعلوا النار وهناك أحد العيون يرقب جيش المؤمنين

سوف يعلمون أن عددهم 500 فيسهل عليهم قتالهم، فلذلك منع رضي الله عنه الصحابة من إيقاد النار، وهذا فعل في منتهى الحكمة.

بعد أن التقى الصحابة رضي الله عنهم في معركة هائلة مع قضاعة، واستطاع عمرو بن العاص بخطة عسكرية بارعة أن يحقق نصراً هائلاً على قبائل قضاعة، وتتكرر من جديد صورة مصغّرة لغزوة مؤتة، فقد حقق انتصاراً كبيراً جداً بعدد قليل جداً من الرجال على مجموعة ضخمة من رجال قضاعة.

بعد هذا الانتصار فرت قبائل قضاعة هنا وهناك، فتحمس الصحابة رضي الله عنهم جداً لهذا الأمر وأرادوا أن يتابعوا جيش قضاعة هنا وهناك، لكن عمرو بن العاص رضي الله عنه أمرهم ألا يتّبعوا جيش قضاعة الفار، فلم يستطع الصحابة أيضاً أن يخرجوا عن أمر عمرو بن العاص، لكنهم ترددوا في ذلك الأمر واحتاروا، لماذا يمنعهم عمرو بن العاص رضي الله عنه؟ ولم يقتنعوا برأيه، فلما عادوا إلى الرسول ﷺ إلى المدينة اشتكوا له، فسأل الرسول ﷺ عمرو بن العاص عن ذلك الأمر؟ فقال: (يا رسول الله كرهت أن يتّبعوهم فيكون لهم مدد)، والنبي ﷺ عندما سمع منه هذه الكلمات استحسن ذلك منه وأقره.

أيضاً هناك مشكلة أخرى وقعت وهي أن عمرو بن العاص رضي الله عنه احتلم في ليلة من ليالي غزوة ذات السلاسل، وكانت ليلة باردة، فأشفق رضي الله عنه أن يغتسل بالماء البارد في تلك الليلة فتيمم رضي الله عنه وصلى بالناس الصبح، فاستغرب الناس من صلاته بهم في وجود الماء متيمماً! الماء موجود لكن الجو شديد البرودة، فلما ذهب الصحابة إلى الرسول ﷺ اشتكوا له ذلك الأمر أيضاً، فقال: (يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فقال عمرو بن العاص : يا رسول الله إني سمعت الله يقول: {وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء:29]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً) أي: له أربعة أشهر في الإسلام ومع ذلك

يجتهد ويحسن الاجتهاد، وضحك النبي ﷺ إقراراً وقبولاً للرأي الذي اختاره عمرو بن العاص رضي الله عنه. في أكثر من مشكلة وخلاف حدث بين عمرو بن العاص وبين الصحابة، مع أن الصحابة رضي الله عنهم فيهم القدامى والسابقين، وفي كل هذه الاختلافات أقر الرسول ﷺ رأي عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهذه من أعظم مناقب عمرو بن العاص رضي الله عنه ورضي عن الصحابة أجمعين.

كانت موقعة عظيمة انتصر فيها المسلمون، وازدادت سمعة الدولة الإسلامية هيبة ورهبة في قلوب الناس، وذاع صيتها في كل مكان، ومما لا شك فيه أن كل هذا سيؤدي إلى الأحداث القادمة.

إرسال الرسول ﷺ عمرو بن العاص إلى ملك عمان وأخيه لدعوتهما إلى الإسلام

بعد غزوة ذات السلاسل ارتفعت ثقة الرسول ﷺ جداً بصدق وذكاء وأمانة وقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، فأرسله ﷺ إلى مهمة أخرى عظيمة جداً، وهي مهمة السفارة إلى دولة عُمان، وكانت عمان دولة مشركة في ذلك الوقت، وكان يحكمها رجل اسمه جَيْفر وأخوه عبّاد، والاثنان كانت لهما سيطرة على منطقة واسعة من الأراضي في عمان وما حولها، فأرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص إليهما يدعوهما إلى الإسلام وإلى الانضمام إلى الدولة الإسلامية. بعد حوار طويل مع جيفر وعباد وبحكمة شديدة وذكاء شديد من عمرو بن العاص رضي الله عنه استطاع أن يقنع عباداً وجيفراً بالإسلام وبالفعل أسلما، بل وأسلم شعبهما بالكامل، ودخلت دولة عمان بكاملها في دولة المسلمين. لم يكتف الرسول ﷺ فقط بجعل عمرو بن العاص سفيراً منه إلى جيفر وعباد، بل عينه جامعاً للزكاة هناك، وكان عامل رسول الله ﷺ هناك في بلاد عمان، مع تثبيت جيفر وعباد على زعامة البلاد، وثق الرسول ﷺ في عمرو رضي الله عنه، وجعله جامعاً للزكاة من تلك البلاد، ولم يكن من السهل أبداً أن يقبل الرسول ﷺ بولاية

إنسان إلا إذا اطمأن تماماً إلى دينه وإلى كفاءته رضي الله عنه ورضي الله عن الصحابة أجمعين. هذه هي قصة عمرو بن العاص في بداية إسلامه.

كان الوضع الإسلامي في أوائل رجب سنة 8 هـ في غاية الاستقرار، وفي رهبة وهيبة، وفي انتصارات متكررة، وفي صورة جديدة جداً لدولة ناشئة في المدينة المنورة، تبسط سيطرتها على أطراف واسعة من الجزيرة العربية. هذه الأحداث كانت نهاية لفترة معينة، وستبدأ الآن فترة جديدة من أحداث السيرة النبوية، وهي كما ذكرت في أول هذه المحاضرة مقدمات فتح مكة.

عندما نأتي لنتكلم عن فتح مكة لا بد أن نعلم أن فتح مكة يعتبر لحظة فارقة حقيقية في تاريخ المسلمين، بل في تاريخ الأرض، حتى إنه إذا ذُكر الفتح معرفاً هكذا (الفتح) عُرف أنه فتح مكة، مع أن كل انتصارات المسلمين كانت فتحاً، فانتصار المسلمين على أهل خيبر كان فتحاً، وعلى الرومان في مؤتة كان فتحاً، وعلى المشركين في بدر كان فتحاً، فكل هذه كانت فتوحات من رب العالمين، لكن إذا ذُكر الفتح معرفاً هكذا (الفتح) عُرف أنه فتح مكة، وهو أمر ليس بعده شيء آخر، حتى إن النبي ﷺ كان يقول: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية) قبل الفتح يمكن للناس أن تهاجر إلى المدينة المنورة، وبعد الفتح انتهت الهجرة، ولكن جهاد ونية، يقول الله سبحانه وتعالى: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد:10] أي: أن ما كان قبل الفتح شيء وما كان بعد الفتح شيء، فإنفاق قبل الفتح شيء وإنفاق بعد الفتح شيء آخر، وقتال قبل الفتح شيء وقتال بعد الفتح شيء آخر.

ما معنى الفتح؟ معناه: التمكين لدين رب العالمين سبحانه وتعالى، ومعناه: النصر والسيادة والعلو في الأرض.

سنن التغيير والنصر والتمكين المستنبطة من فتح مكة

أنا أريد أن أستغل هذا الحدث لأتكلم معكم عن بعض سنن التغيير وسنن النصر والتمكين في الأرض، وجميعها سنستخلصها من فتح مكة.

حكمة الله تعالى في تقدير الأمور بأزمانها

السنَّةُ الأولى: هو أن الله عز وجل لا يعجل بعجلة عباده، وانظروا مرت 21 سنة من أصل 23 سنة من عمر البعثة بكاملها واللات والعزى ومناة وهبل تعبد من دون الله عز وجل في داخل مكة المكرمة. البعض كان يتمنى ويقول: يا ليت مكة فُتحت مبكراً، والرسول ﷺ حكم الدولة الإسلامية الواسعة فترة طويلة من الزمان؛ لنرى فعله وحكمه وأثره ﷺ على العالمين وهو ممكن في الأرض، لكن لو حدث هذا فقد تكون مخالفة للسنة الإلهية، فهذا لا يكون أبداً: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا} [فاطر:43].

فرب العالمين سبحانه كان قادراً أن يفتح مكة من أول لحظات الدعوة، وأن يجعل أهل مكة جميعاً مؤمنين من أول لحظات الدعوة، وعلى الأقل بعد سنة أو سنتين من بناء الدولة في المدينة المنورة، لكن هذا الانتظار الطويل؛ لكي نعلم جميعاً أن الله عز وجل لا يعجل بعجلة عباده. وهذا الموضوع في الحقيقة يحتاج إلى محاضرة خاصة، إن شاء الله سنفرد له محاضرة بعنوان: استعجال النصر، وسنتكلم فيها عن مشكلة العجلة التي عند المسلمين في رؤية التمكين والسيادة لدين الله عز وجل في الأرض.

وتغيير المنكر يحتاج إلى وقت وإلى حكمة ويحتاج إلى تدرج، وهكذا رأينا في السيرة النبوية، وهذه أول سنة من السنن الثوابت.

مجيء التغيير والنصر والتمكين للمسلمين من حيث لا يحتسبون

السنة الثانية: يأتي التغيير ويأتي النصر ويأتي التمكين من حيث لا يحتسب المسلمون، أي: أنه لو راود المسلمون حلم أن يفتحوا مكة كيف سيفكّرون في هذا الأمر؟ من المؤكد أنهم سيضعون سيناريو لهذا الأمر، ولو وضع المسلمون ألف سيناريو للتغيير ولفتح مكة سيأتي التغيير بالسيناريو رقم 1001، أي: أن هناك سيناريوهات متوقعة لكي نفتح مكة، مثلاً: أن تخالف قريش عن طريق غزوها المدينة المنورة، فيرد المسلمون بحرب على مكة المكرمة، أو تحاول قريش قتل الرسول ﷺ، أو تتعدى قريش على قافلة إسلامية، أو تنتهي السنوات العشر سنوات الهدنة فيحدث بعدها قتال ويدخل المسلمون مكة، فهناك افتراضات كثيرة جداً، لكن لم يحدث الفتح بأي أمر من هذه الأمور، ولا بأي شيء خطر على ذهن أي مسلم، لكن حصل شيء غريب جداً وهو أن قبيلة مشركة أغارت على قبيلة مشركة أخرى فتم الفتح للمؤمنين، سبحان الله ما علاقة هذا بهذا؟!

هذا الذي حصل فعلاً في فتح مكة، ولنأتي لنراجع الأحداث: في صلح الحديبية كان من بنود الصلح البند الثالث في الصلح هو: أنه إذا أرادت قبيلة أن تنضم إلى حلف المسلمين انضمت، وإذا أرادت قبيلة أن تنضم إلى حلف قريش انضمت، فبعد انتهاء المعاهدة دخلت خزاعة في حلف الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وهذا الدخول لهاتين القبيلتين في قضية المعاهدة هو الذي كان سبباً في فتح مكة المكرمة، أي: أن القضية كانت بين المسلمين وبين قريش، فخزاعة وبنو بكر ليس لهما أي دخل في القضية، ومع ذلك دخولهما في الحلف المعاهدة هو الذي سيؤدي للفتح كما سنرى. دخول خزاعة في حلف الرسول ﷺ أمر يحتاج إلى وقفة؛ لأن الله سبحانه وتعالى دفع خزاعة دفعاً للدخول في حلف الرسول ﷺ، وخزاعة قبيلة مشركة، نعم هناك علاقات قديمة حميمة بين خزاعة وبين بني هاشم، لكن كان من المتوقع أن

تدخل خزاعة في حلف المشركين من بني هاشم، وليس في حلف المسلمين من بني هاشـم؛ لأن خزاعة مشركة دينها كدين قريش، فلماذا تترك بني هاشم المشـركة وتتحـالف مـع بنـي هاشـم المسلمة المتمثلة في الرسول ﷺ؟ هذا أمر عجيب فعلاً! وهـذا الـدخول العجيـب لخزاعـة مـع حلف المسلمين هو الذي سيؤدي بعد ذلك إلى نتائج كبيرة جداً منها فتح مكة.

وعندما نراجع قصة القبيلتين اللتين دخلتا في المعاهدة نجد أن قبيلة بني بكر وقبيلة خزاعة كان بينهما ثأر قديم، ولعل هذا الثأر هو الذي دفع بني بكر إلى الـدخول في حلـف قـريش، فعنـدما دخلت خزاعة في حلف المسلمين دخلت بنو بكر في الحلف المعاكس؛ لتكون ضد خزاعة، مـع أن العلاقة بين بني بكر وبين قريش ليست على أفضل ما يكون، بدليل أن قريشاً عندما خرجت من مكة المكرمة لحرب المسلمين في موقعة بدر كانت تخشى من غزو بني بكر لمكة المكرمـة، ثـم ظهر لهم الشيطان في صورة سراقة بن مالك يقول لهم: إني جار لكم من كنانـة، وكنانـة تشـمل بني بكر، فالقصة معقدة جداً، وأحداث القصة فعلاً لا يمكن أن تفسر إلا أن الله عز وجل أراد لها أن تتم على هذه الصورة. مع أن العلاقة بين بني بكر وبين قريش معقـدة إلا أنهـا دخلـت في حلفها، وخزاعة مع أنها مشركة إلا أنها دخلت في حلف المسلمين، وهذا سيؤدي إلى شيء معين كما سنرى. بنو بكر التي نتحدث عنها ليست قبيلة بني بكر بن وائل المشهورة؛ لأن بني بكر بن وائل هذه هي قبيلة من قبائل ربيعة، بينما بنو بكر التي نتحدث عنها هي بنو بكر بن عبد منـاف بن كنانة، وهي من مُضر.

كان بين بني بكر وبين خزاعة خلاف قديم جداً وثأر طويل، وهناك ضحايا قتلتهم خزاعة مـن بني بكر، وبعد مرور سنوات وسنوات على هذه الجريمة التي قامت بها خزاعة في حق بني بكر تذكرت بنو بكر ثأرها مع خزاعة، فأرادت أن تنتقم، وكان هذا بعد صـلح الحديبيـة، فأغـارت بنو بكر على خزاعة وقتلت منهم رجالاً بعد صلح الحديبية، ومعلوم بعد المعاهدة أن مـن أغـار

على خزاعة فكأنه أغار على الدولة الإسلامية، وموافقة قريش على إغارة بني بكر على خزاعة هذا نقض صريح لمعاهدة صلح الحديبية التي بينها وبين المسلمين.

لو أن بني بكر أغارت على خزاعة قبل الحديبية لما أحدث ذلك أي نفع للمسلمين؛ لأن قبيلة مشركة أغارت على قبيلة مشركة أخرى ولا دخل للمسلمين، ولو أن هذا الأمر حدث بعد الحديبية مباشرة لعل المسلمين لم تكن لهم طاقة لغزو مكة أو فتحها، ولو ضبطت بنو بكر أعصابها ولم تخالف لما مُهّد الطريق للفتح، ولو وقفت قريش لبني بكر وعارضتها في ذلك الأمر واعتذرت للمسلمين لكان الموقف قابلاً للحل السلمي، ولكنَّ قريشاً أعانت بني بكر على حرب خزاعة في تهور عجيب، ولعل الموقف هذا لو تكرر ألف مرة مع قريش لن تأخذ هذا الرأي، ولن تعمل هذا العمل، لكنها مدفوعة لذلك من رب العالمين سبحانه وتعالى، {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق:15 – 16].

هجمت بنو بكر على خزاعة، وخزاعة غير مستعدة للقتال؛ لأن صلح الحديبية فيه هدنة والحرب موضوعة، لكن الخيانة متوقعة من المشركين. عندما هجمت بنو بكر على خزاعة وقتلت من خزاعة رجالاً كثيرين، وخزاعة غير مستعدة للقتال، فما كان من خزاعة إلا أن تهرب إلى أقرب مكان آمن وهو الحرم المكي، ومساكن خزاعة في شمال مكة المكرمة قريبة جداً من الحرم، فبدأت قبيلة خزاعة تهرب رجالاً ونساءً وصبياناً إلى مكة المكرمة، ودخلت بالفعل داخل الحرم وبنو بكر تطاردها بالسلاح، وكان هذا الموقف كي يزيد تعقيد القضية؛ لأنه لو تمت المعركة في خارج الحرم لأمكن قريش أن تقول: لم نر شيئاً، وقد تزعم أن ذلك حدث رغماً عن أنفها، لكن كون بني بكر وخزاعة تدخلان الحرم ليتم القتال في داخله، ومع أن قريشاً دائماً تحمي الحجاج وتحمي المعتمرين، وتفتخر على العرب أنها حامية الحرم وموفرة للأمان فيه، إلا أن قريشاً في تهور عجيب لم تكتف بالمراقبة، بل أعانت بني بكر بالسلاح لقتل خزاعة، والكلام

هذا غير مبرر؛ لأن خزاعة ليس بينها وبين قريش مشاكل، ولا توجد أي علاقة للمسلمين بالقضية، فتصرف قريش يعتبر تصرفاً غير سليم، لكن هذا يدل على أن الخيانة متوقعة من المشركين، قال الله عز وجل في كتابه الكريم: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [البقرة:100]، وهذا الذي رأيناه بالفعل، وهذه الخيانة تحدث منهم، مع أن الرسول ﷺ كان وفياً تمام الوفاء معهم، حتى إن من جاء المدينة المنورة مؤمناً من مكة المكرمة رده الرسول ﷺ مرة ثانية إلى قريش؛ ليطبق بنود المعاهدة، ورأينا ذلك عندما أعاد الرسول ﷺ أبا بصير إلى مكة المكرمة مع خطورة هذه الإعادة على إيمان أبي بصير ، لكن الوفاء بالمعاهدة، ولم تفعل ذلك بنو بكر ولم تفعل ذلك قريش وخانت.

المشكلة الكبيرة أيضاً هي أن بني بكر تلعب بالقوانين، وقريش تشاهد ذلك الأمر والجميع يقبل، وتم القتال داخل مكة البلد الحرام، وهذا أمر خطير جداً، وكان على قريش أن تؤمن كل زائري هذه المنطقة، وهذا كان عُرف قريش وعُرف الجزيرة العربية، وعُرف كل القبائل، وقانون عام على الجميع على المسلمين وعلى المشركين، لكن دخلت بنو بكر إلى داخل مكة المكرمة لتقتل خزاعة في داخل الحرم، حتى جيش بني بكر نفسه كان مستغرباً من استمرار عملية القتل في داخل الحرم، فنادوا على زعيمهم نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر وقالوا: (يا نوفل إلهك.. إلهك)، أي: قوانين إلهك، قوانين اللات والعزى وهبل، وما إلى ذلك لم تشرع القتال في داخل البيت الحرام، فقال كلمة فاجرة: (لا إله اليوم)، ثم قال: (يا بني بكر أصيبوا ثأركم، وهذه الكلمات التي تكلم بها في منتهى الخطورة. ثم قال لهم: (فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تُصيبون ثأركم فيه؟) فشجّعهم على استمرار عملية القتل لتحدث الجريمة، وقريش لا تشاهد فقط، بل تساعد على هذا الأمر، وهذا انتهاك صريح للبند الثالث من بنود الحديبية، وكان في الأصل أن هذا البند لا يُكتب أصلاً، لكن كل شيء يجري بقدر.

بعد هذا الأمر قدمت خزاعة المدينة المنورة مسرعة تستغيث بالرسول ﷺ ، وأول من جاء من خزاعة رجل اسمه عمرو بن سالم ، وأول ما دخل أنشد بعض أبيات الشعر يشرح فيها المأساة التي تعرضت لها خزاعة، وكان مما قال:

يا رب إني ناشد محمداً	حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلداً وكنا والداً	ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا	وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيم خسفاً وجهه تربدا

إلى آخر الأبيات، وفي هذه الأبيات نلاحظ أن عمرو بن سالم كان قد أسلم عند قول هذه الأبيات، لكن معظم خزاعة لم يكونوا قد أسلموا بعد، والقتلى كان فيهم من المسلمين وكان فيهم من المشركين.

والرسول ﷺ عندما استمع لهذه الأبيات لم يتردد لحظة واحدة، إنما قال في منتهى الثبات: (نُصرت يا عمرو بن سالم)، نعم هو لم يحدد في هذه اللحظة الطريقة التي سينصر بها عمرو بن سالم ، لكنه قرر النصرة في لحظة واحدة؛ لأن الذي بينه وبين قبيلة خزاعة صلح واتفاقية وحلف، وهذا بغض النظر عن كون خزاعة مسلمة أو مشركة، لكن الحلف بينهم وبين المسلمين يقضي أن يدافع كل طرف عن الطرف الآخر إذا اعتدي على حرمات أحد الطرفين. النبي ﷺ أخذ هذا القرار في منتهى الجدية، ولا شك أن هذا يُعطي ثقة للمتحالفين، ويعرّف الحلفاء المشركين أخلاق المسلمين، بأني إذا اتفقت معك أن أدافع عنك إذا أصابك مكروه فسوف أدافع عنك، حتى وإن كان هذا الدفاع سيصيبني بأذى كبير. كان هذا موقف عمرو بن سالم ورد فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم يأتي بُديل بن ورقاء الخزاعي ، والاسم هذا ليس غريباً، فقد مر علينا أيام صلح الحديبية.

أرسلت قريش بديلاً ليقوم بالمعاهدات والمفاوضات بينها وبين المسلمين، كان وسيطاً بين قبيلة قريش وبين جيش المسلمين، أي: أن بديل بن ورقاء رجل صديق لقريش، مع أن بديل بن ورقاء من خزاعة إلا أنه كان يعيش في داخل مكة، لكن في هذا الوقت الإصابة إصابة شخصية له؛ لأن قبيلة بديل هي التي أُصيبت في داخل الحرم، فالآن بديل يتجه ليشكو للرسول ﷺ ، وهذا أمر غريب جداً؛ لأن بديلاً في ذلك الوقت كان مشركاً باتفاق، فهو لم يسلم إلا بعد فتح مكة، وفي ذلك الوقت لا يزال يعيش في داخل مكة المكرمة، ومصالح بديل بكاملها من تجارة وغيرها في داخل مكة المكرمة، بل إن بديلاً كان صديقاً شخصياً لأبي سفيان الذي هو زعيم مكة المكرمة، ومع ذلك عندما أُصيب في قبيلته ذهب ليشكو عند من لا تضيع عنده الحقوق وهو رسول الله ﷺ ، لم يذهب إلى أبي سفيان ويقول له: إن قبيلتك فعلت كذا وكذا، فرد لنا الاعتبار وادفعوا ديات قتلانا، لكنه ذهب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يعلم أنه لن يضيع عنده حق، بل تضيع كل الحقوق عند قريش وعند المشركين.

عندما ذهب بديل للرسول عليه الصلاة والسلام، كان أقصى أحلام بديل أن الرسول ﷺ يأخذ الدية من قريش، أو أن يقتل من بني بكر ما يوازي من قُتل من خزاعة، لكن لم يكن يخطر على باله أبداً أن الرسول ﷺ يفكر في فتح مكة، لكنه دُفع إلى هناك ليكون سبباً من الأسباب التي تؤدي إلى فتح مكة. أمر غريب جداً وعجيب! لكنه يحدث ونراه، ليأتي النصر من حيث لا نحتسب، مع أن بُديلاً مشرك ولم يؤمن بالإسلام حتى هذه اللحظة، وهو غير مقتنع بهذا الدين، ولعله يكره تماماً أن تُفتح مكة بالإسلام، لكن قاده رب العالمين سبحانه وتعالى إلى المدينة المنورة ليستغيث بالرسول ﷺ ليكون سبباً في فتح مكة بالإسلام، موافقة عجيبة جداً، يحدث النصر في النهاية بطريقة لا يحسب حسابها أحد من المسلمين ولا من المشركين.

مجيء النصر والتمكين للمسلمين من حيث يكرهون

السنة الثالثة: لا يأتي النصر فقط من حيث لا يتوقع المسلمون، بل يأتي من حيث يكرهون. وهذا غريب جداً، لكنه متكرر حتى صار سنة، فـ طالوت رحمه الله ومن معه من المؤمنين كرهوا لقاء جالوت وجنوده، لكن جعل الله عز وجل النصر في هذا اللقاء، كذلك كره المسلمون لقاء المشركين في بدر، فجعل الله عز وجل فيه النصر، يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال:5] فكان يوم الفرقان.

وكره المسلمون تحزب الأحزاب حول المدينة قال تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} [الأحزاب:10] لكن كان فيه خير، والرسول ﷺ بعد الأحزاب قال: (الآن نغزوهم ولا يغزونا).

وكره المسلمون صلح الحديبية، وقالوا: (لم نُعط الدنية في ديننا؟)، وكان فيه الخير كل الخير، وقد رأينا تفصيلات الخير الذي تلا صلح الحديبية.

وكره المسلمون قتل أخيهم وصاحبهم وحبيبهم الحارث بن عمير رضي الله عنه سفير الرسول ﷺ إلى عظيم بُصرى، ولكن كان من وراء هذا القتل انتصار مؤتة.

كذلك في قصتنا الآن كره المسلمون نقض بني بكر وقريش للعهد، لا شك أنهم كرهوه، لا شك أنهم يريدون الهدنة أن تمتد عشر سنوات وأكثر؛ لأنهم رأوا في أقل من السنتين خيرات كثيرة جداً، فكيف إذا امتد الأمر لأكثر من ذلك؟ رأوا أعداد المسلمين تتزايد بكثرة في زمن الهدنة والأمن وغياب الحرب، لكن الآن بعد هذا النقض قد تحدث حرب وقد يحدث اضطراب وقلق في الجزيرة، وقد يخاف الناس، وقد تتأثر الدعوة، وقد تغزو قريش المدينة، ويمكن أن تحدث مشاكل لا حصر لها. نحن نكره القتال الآن، ولا نريد أن يحدث أي حرب في

هذا الوقت، ونحب الهدنة، لكن أن يحدث ما نكره قصراً ورغماً عن أنوفنا، ثم يأتي النصر والفتح والتمكين من خلال الحدث الذي نكرهه هذا أمر عجب!! لماذا هذه السُّنة؟ لماذا يأتي النصر من حيث نكره؟ لماذا لا يأتي النصر من حيث نحب، أو بالطريقة التي نريد، أو بالطريقة التي نخطط لها؟ لهذه السنة هدف واضح جداً، وهذا الهدف هو أن الله عز وجل لا يريد لنا أن نُفتن بنصرنا، ولا يريد لنا أن نعتقد أن النصر إنما جاء لحسن تدبيرنا، ولدقة خطتنا، ولبراعة أدائنا، ولذكاء عقولنا، ولسرعة تصرفنا، وحتى لا ننسى أن الذي نصرنا هو الله القوي سبحانه وتعالى، لذلك يأتي النصر من حيث لا نحتسب، بل ومن حيث نكره؛ ليعترف الجميع أن الناصر هو الله عز وجل، ويأتي النصر من طريق عكس التخطيط الذي رسمت، ومن طريق عكس الطريق الذي رجوت.

وهذا ليس معناه أننا لا نخطط أبداً، بل على العكس إذا لم تخطط وتجتهد لا يأتي النصر مطلقاً، لا بد أن تضع ألف خطة جادة لتحقيق النصر؛ لأن النصر سيأتي بالخطة رقم 1001 كما تقدم، أي: يأتي النصر بالخطة التي لم تخططها، فالألف خطة هذه مطلوبة لإثبات أنك قد أخذت بالأسباب، ولتكون مستحقاً لرضا رب العالمين سبحانه وتعالى، ومن ثم تستحق نصر الله عز وجل، لكن النصر يأتي بالخطة التي لم تحسب لها حساباً؛ لكي تعود بالفضل في النهاية لله عز وجل، ولهذا يقول الله عز وجل: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْحُ} [النصر:1] النصر نصر الله عز وجل، والفتح فتح رب العالمين للمسلمين، {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِّ أَفْوَاجًا} [النصر:1 - 2].

كيف سيكون رد المسلمين في حالة رؤيتهم للفتح والنصر؟ وضح لنا سبحانه وتعالى في هذه السورة القصيرة المعجزة سورة النصر أن على المسلمين عند رؤية النصر عمل شيئين:

أولاً: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} [النصر:3] سبح بحمد ربك الذي نصـرك والـذي أيـدك بقوتـه، والذي مكّن لك في الأرض.

ثانياً: {وَاسْتَغْفِرْهُ} [النصر:3] تأتي بالاستغفار بعد النصـر والتمكـين، لاحـتمال أن يكـون قـد دخل في روعك أنك قد انتصرت بقدرتك وبقوتك وبتخطيطك وبتدبيرك، تقـول: أنـا فعلـت كذا، أنا خططت، وأنا دبّرت!! فاستغفر من هذا الأمـر؛ لأن الله عـز وجـل هـو الـذي فعـل، وسوف نفهم بعد هذا كيف دخل الرسول ﷺ مكة وهو في حالة شـديدة مـن التواضـع؛ لـئلا يُفهم أنه قد فعل ذلك بقدرته البشرية، لكن رب العالمين هو الذي أراد التمكين والنصر والعزة للمسلمين، فلا بد من التواضع الكامل له سبحانه وتعالى.

يأتي النصر من حيث نكره؛ لكي لا يدّعي مدع أنه انتصـر بقوته، ولكن يُنسب الفضل والنصرـ لله عـز وجـل {فَلَـمْ تَقْتُلُـوهُمْ وَلَكِـنَّ اللهَّ قَـتَلَهُمْ وَمَـا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْـتَ وَلَكِـنَّ اللهَّ رَمَـى} [الأنفال:17].

طول فترة الإعداد وقصر فترة التمكين

السنة الرابعة: وهذه السنة قد تكون محبطة للبعض إذا درسوا الموضوع بصورة سـطحية، لكـن التدبر في هذه السنة سيثبت إن شاء الله عكس ذلك.

فالسنة الرابعة أن فترة الإعداد طويلة جداً للدولة الإسـلامية؛ لأجـل أن نقـيم دولـة إسـلامية نحتاج إلى فترة إعداد طويلة، لكن فترة التمكين لهذه الدولة قصيرة جـداً. كـان الإعـداد لفـتح مكة والتمكين كما في السيرة مدة 21 سنة كاملة، فأول البعثة كان في رمضان قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، والفتح كان في رمضان بعد الهجرة بثمان سنين، وفترة التمكين سنتان ونصف، مـن فتح مكة إلى وفاة الرسول ﷺ؛ لأن بعد وفاة الرسول ﷺ حدثت الردة، وانتهى التمكين.

فترة الإعداد 21 سنة من أصل 23 سنة، سنتان ونصف، يعني 89٪ من فترة السيرة، ولتكن 90٪، وفترة التمكين 10٪ فقط. راجع معي قصص التمكين في القرآن الكريم التي سبقت الرسول ﷺ، لتراجع قصة نوح عليه السلام وفترة الدعوة إلى الله كم ظل يدعو الناس؟ 950 سنة؛ 1000 سنة إلا 50عاماً، وفترة التمكين يسيرة جداً وقصيرة جداً. هود وصالح كذلك عليهم السلام جميعاً، وموسى عليه السلام ظل في فترة إعداد طويلة جداً، إعداد له شخصياً، ولبني إسرائيل فترة تعذيب وتشريد واضطهاد طويلة جداً، وبعد ذلك فترة التمكين قصيرة.

هذا أمر متكرر جداً سواء قبل الرسول ﷺ أو بعد الرسول ﷺ، راجع قصة صلاح الدين الأيوبي حوالي 80 أو 90 سنة إعداد، وفترة التمكين 15 أو 20 سنة على الأكثر. بعد موقعة الزلاقة والتمكين الكبير لدولة المرابطين في الأرض، إعداد طويل جداً حوالي 60 سنة ثم التمكين في الأرض فترة قصيرة من الزمان.

هذا الكلام يحتاج إلى وقفة، لماذا تستمر فترة التمكين لمدة قصيرة بينما يكون الإعداد طويلاً جداً؟ هذا من أجل سببين رئيسيين:

السبب الأول: هو انفتاح الدنيا على المسلمين بعد التمكين، الوضع الاقتصادي جيد، والأوضاع الاجتماعية كذلك تتحسن، فالدنيا كلها تنفتح على المسلمين فتحدث الفتنة، ويحدث التصارع في زمن التمكين على المال والسلطان. النبي ﷺ كان يخشى على المسلمين من هذا الأمر، وذكرنا أكثر من مرة هذا الحديث لخطورته وأهميته في تكوين الدولة الإسلامية، قال ﷺ: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تُبسط عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلككم كما أهلكتهم)، بينما في أثناء فترة الإعداد لا توجد دنيا عندها ولا توجد فتنة، لكن في فترة التمكين تحدث الفتنة سريعاً، والمعصوم من عصمه الله عز وجل، والقليل جداً من الأمة الذي لا يقع في هذه الفتنة.

السبب الثاني: عدد هائل من البشر سيدخل الإسلام لقوته لا اقتناعاً بمبادئه. في زمن التمكين يرى الناس الدولة قوية وممكنة في الأرض، فينضم الجميع إلى هذه الدولة، المقتنع وغير المقتنع بالمبادئ الإسلامية، هذه ليست قضية تشغل الناس في ذلك الوقت، وتتزايد أعداد المسلمين بكميات كبيرة جداً، وهذه الأعداد المتزايدة لم تخضع للتربية كما خضع لها الأولون، وإنما أخذت قسطاً يسيراً جداً من التربية، وعند أول أزمة من الأزمات يسقط هؤلاء جميعاً فيختفي التمكين، وانظر إلى أعداد المسلمين بعد إعداد 19 سنة، فقد كان العدد 1400 مؤمن في صلح الحديبية، ثم فتح خيبر زاد العدد، وفي فتح مكة بعد أقل من سنتين من الصلح وصل عدد المسلمين إلى عشرة آلاف رجل لفتح مكة المكرمة، وبعد فتح مكة بسنة واحدة خرج الرسول ﷺ في تبوك بثلاثين ألف مقاتل، العشرة آلاف الذين أتوا عام الفتح أصبحوا 30000 مقاتل، وهؤلاء العشرة آلاف منهم تقريباً 5000 أو 6000 أسلموا قبل الفتح بشهور وأيام قليلة، وبعد الفتح اجتمع 20000 بعد سنة واحدة، وبعد سنة أخرى من سنة 9 هـ إلى سنة 10 هـ سنرى أن الناس مع النبي ﷺ في حجة الوداع وصل عددهم تقريباً مائة وثلاثين ألفاً في بعض التقديرات، أي: زدنا مائة ألف مسلم في السنة العاشرة من الهجرة النبوية.

هذه أعداد ضخمة جداً التحقت بالدولة الإسلامية وهم في محاضن بعيدة جداً عن المدينة المنورة، وليست هناك الطاقة الكاملة الكافية لتربية هؤلاء، فعندما حصلت أزمة وفاة النبي ﷺ حصلت ردة في مناطق واسعة في الجزيرة العربية، والردة وقعت عند الذين لم يتربوا، ولا يوجد أحد من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ارتد، بل كلهم ثبت على الإسلام، لكن عموم الناس الذين دخلوا في وقت الفتح ووقت التمكين هؤلاء لم يُعطوا القسط الكافي من التربية، لذلك وقت التمكين عادة ما يكون قصيراً، ووقت الإعداد يكون طويلاً.

هل هذا الكلام محبط؟ هل يمكن أن يقول أحد المسلمين بعد كل هذا الإعداد والجهد والبـذل لا نمكن إلا فترة قصيرة فقط؟

الإجابة على هذا السؤال تكون بسؤال آخر: لماذا تقوم بالإعـداد؟ ولمـاذا تريـد التمكـين؟ هـل التمكين وسيلة أم غاية؟ ألست تريد التمكـين لـترضي الله عـز وجـل وتفـوز بجنتـه سـبحانه وتعالى؟

إذا علمت أن الله عز وجل يُعطي جنته لمن عمل بغض النظر عن تحقيق النتيجة، وبغض النظـر عن أنه حدث تمكين أو لم يحدث تمكين في زمانه، فالله سبحانه وتعـالى يعطيـه الأجـر عـلى قـدر العمل بغض النظر عن الزمن الذي وجد فيه، أليس ذلك مريحاً للإنسان ومطمئناً له؟

فأنت مأجور على عملك في فترة الإعداد وعلى عملك في فترة التمكين أيضـاً، المطلـوب منـك العمل وليس التمكين، فكم من الأمم ممكنة في الأرض وهي من أهل النار؟ وهذا كثـير جـداً، قال تعالى: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْـبِلادِ * مَتَـاعٌ قَلِيـلٌ ثُـمَّ مَـأْوَاهُمْ جَهَـنَّمُ وَبِـئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران:196-197]. وفي الجهة الأخرى، كم من غـير الممكنـين في الأرض وهـم من أهل الجنة؟ فهذا مصعب بن عمير مات في غزوة أحـد، ومـع ذلـك هـو مـن أهـل الجنـة، وكذلك حمزة بن عبد المطلب ، بل إن هناك من مات في الفترة المكية، منهم: سـمية أم عـمار بـن ياسر وياسر رضي الله عنه، وغيرهم ماتوا في الفترة المكية، كذلك البراء بن معرور وأسـعد بـن زرارة ماتا قبل بدر ولم يشاهدا أي نصر للدولة الإسلامية، ومع ذلك إن شـاء الله همـا في أعـلى عليين. المهم أنك تشتغل وتعمل لله عز وجل، وليس بالضرورة أن تعمل في زمـن التمكـين أو قرب زمن التمكين، لكي تسعد بنتائج العمل؛ لأن السعادة الحقيقيـة بعملـك هنـاك في الجنـة، والله عز وجل يختار بحكمته وقدرته اللحظة التي يُمَكَّنُ فيها المسلمون.

هل العمل في زمن التمكين أكثر فائدة وأعظم نفعاً أم في زمن الإعداد؟

قرأنا قبل قليل قوله تعالى: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد:10] أن العمل في الفترة التي تسبق التمكين أعظم أجراً من العمل في فترة التمكين.

من مصلحة المسلمين أن تطول فترة الإعداد، حتى يحصلوا على ثواب أعظم، ومصلحتهم أن يتأخر التمكين، لكن ليس معنى هذا: أننا لا نسعى للتمكين، بل بالعكس نحن مطالبون به، لكن إذا تأخر فلا نحزن ولا نكسل ولا نفتر ولا نقعد، وإنما نوقن أن الله عز وجل أراد بنا الخير، وأراد لنا أن نعمل في زمن ليس فيه فتنة، لعله سبحانه وتعالى يريد أن يثبتنا على الحق، ولعله علم إن مُكّن في زماننا أن نُفتن بمال أو بكرسي أو بغيره.

السنة الرابعة: أن فترة الإعداد طويلة وفترة التمكين قصيرة، وهذا لا يحبط الناس، بل هو أمر متكرر في كل فترات التاريخ، وهناك سنن أخرى كثيرة وسنتعرض لها إن شاء الله أثناء الشرح أو في محاضرات أخرى.

موقف الرسول ﷺ من اعتداء بني بكر على خزاعة

ماذا يفعل الرسول ﷺ إزاء اعتداء بني بكر على قبيلة خزاعة عمرو بن سالم وبديل بن ورقاء الخزاعي يستغيثان برسول الله ﷺ؛ لكي ينجد خزاعة من الأذى والظلم الذي وقع عليها.

هنا حدثت أزمة وهي أزمة نقض العهد، وأزمة احتمال الحرب، وأزمة اهتزاز صورة الدولة الإسلامية إذا لم يكن هناك رد فعل مناسب. هذه أزمة كبيرة جداً، ولكن كيف نحول الأزمة إلى فرصة. هذا الكلام يفهمه علماء الإدارة، فعندما تقع عليك مصيبة كبيرة لا يخبرك فقط كيف

تخرج من المصيبة، ولكن كيف تحاول أن تستفيد من المصيبة، فتحوّلها إلى مصلحة، وإلى فرصة سانحة تحقق من ورائها فائدة كبرى للمسلمين، أو على الأقل الخروج بأقل الخسائر.

الرسول ﷺ يريد أن يكسب من هذا الموقف، كيف يحقق نجاحاً من هذه الأزمة الكبيرة؟ كيف يستفيد من الأزمة ويجعل منها وسيلة لرفعة الأمة وسيادة الأمة؟ هل يبعث ألف جواب استنكار أو شجب وندب؟ لن يسمع صوته أحد، فما الذي يعمل؟ هل يذهب إلى هيئة الأمم المتحدة أو هيئة القبائل المتحدة؟! لن تنفع بشيء، بل من الممكن أن تحكم لقريش الدولة الأولى في المنطقة فما هو الحل؟ لا بد أولاً من دراسة واقعية للموقف، نأتي لندرس الواقع الذي يحيط بالرسول ﷺ، ما هو حال الجزيرة العربية في ذلك الوقت؟

أولاً: الوضع السياسي والعسكري للمسلمين

لقد كان الوضع السياسي والعسكري للمسلمين بعد مؤتة وذات السلاسل وضعاً ممتازاً فأعداد المسلمين تتزايد، والجيش الإسلامي مدرب تدريباً جيداً جداً، ليس مدرباً في لقاءات وهمية، ولكن في لقاءات حقيقية مع اليهود والمشركين، بل ومع الرومان في مؤتة كما رأينا. معنويات الجيش الإسلامي في السماء، والانتصارات المتتالية في كل مكان رفعت معنويات الجيش الإسلامي. سمعة المسلمين طيبة على مستوى الجزيرة بكاملها، بل على مستوى العالم. الدولة الإسلامية لها علاقات قوية جداً مع أكثر من مملكة من ممالك الأرض، فاليمن دولة مسلمة، وعمان دولة مسلمة، والبحرين دولة مسلمة، وهناك علاقات مع الحبشة ومع مصر.

ثانياً: الوضع العسكري لقريش

كان الوضع العسكري لقريش ضعيفاً، ويزداد ضعفاً مع مرور الوقت، والرسول ﷺ كان يرى هذا من سنتين وأكثر، ولا ننسى في صلح الحديبية أنه قال في المفاوضات: (وإن قريشاً قد

وهّنتهم الحرب وأضرت بهم)، وبعد الأحزاب قال ﷺ: (الآن نغزوهم ولا يغزونا) فهو ﷺ يرى أن الدولة الإسلامية في علو واضح، وقريش في هبوط واضح، والوقت الذي مر بعد صلح الحديبية لم يكن في صالح قريش، ورأينا تحول الرجال والنساء من الكفر إلى الإيمان، فهذا إضافة إلى الدولة الإسلامية، وفي نفس الوقت هو نقص في الدولة الكافرة.

أحلاف قريش تكاد تكون محصورة فقط في بني بكر، وعلاقة قريش بهذا الحليف ليست قوية؛ لأنه كان بين قريش وبين بني بكر خلافات من أيام بدر، وهذه العلاقة بين أهل الباطل بين قريش وبين بني بكر أو أي حليف قد تتغير من حال إلى حال أخرى في وقت سريع وعاجل إذا تغيرت المصالح، ولعل قريشاً إذا اتخذت موقفاً عسكرياً معيناً فقد تأتي بنو بكر وتخالف هذا الموقف، وتعتذر لخزاعة وللمسلمين وتفك الحلف بينها وبين قريش، فهذا كله وارد وممكن جداً، ورأته قريش قبل هذا في تاريخها أكثر من مرة. الحلف بينهما حقيقة ليس قوياً، والدليل على أنه عندما فُتحت مكة لم نجد أي مساعدة من أي نوع من بني بكر لقريش ضد المسلمين، مع أن مقتضيات معاهدة الحديبية تلزم بني بكر بالدفاع عن قريش إذا داهمها المسلمون، فما بالك لو كانت بنو بكر هي السبب في المشكلة، فهي التي خانت العهد، وهي التي هجمت على خزاعة، وما بالك لو كانت قريش أعانت بني بكر! فكل هذا كان من المفروض أن يجعل بني بكر تساعد قريشاً في أزمة الفتح، لكن لم نر ذلك وهكذا المعاهدات العلمانية القائمة على غير عقيدة صحيحة، على العكس كان الجيش الإسلامي وحدة مترابطة، يجمعها رباط واحد وهو رباط العقيدة، والرسول ﷺ يرى هذه العلاقات متينة وقوية.

كان الموقف العسكري لقريش في أزمة كبيرة جداً؛ فقريش فقدت مجموعة من أعظم قادتها منذ شهور قليلة فقط، وهذا تمهيد رباني للفتح، فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي كان سبباً في انتصار المشركين في أحد، فقد كان قائد الفرسان الفذ الذي له سمعة في الجزيرة بكاملها،

فهذا الرجل انضم إلى المعسكر الإسلامي، وليس فقط خسارة على قريش، بل كسبه المسلمون، وصار إضافة هائلة للدولة الإسلامية.

وهذا عمرو بن العاص أيضاً من أعظم دهاة العرب فقدت قريش قوته وأُضيفت قوته للمسلمين.

وهذا عثمان بن طلحة أيضاً ليس فقط من الفرسان الأشداء، ولكنه من بني عبد الدار، وحامل مفتاح الكعبة فإضافته للدولة الإسلامية إضافة في منتهى القوة، وقد رأينا عائلة عثمان بن طلحة جميعها أُبيدت حول راية المشركين في غزوة أحد تدافع عن راية المشركين، وقبيلة بني عبد الدار لها تاريخ طويل جداً في الدفاع عن حرمات قريش، والآن زعيم هذه العائلة وعميدها عثمان بن طلحة ينضم إلى المسلمين، وليس من البعيد أن جميع بني عبد الدار تنضم إلى المسلمين، فهذا يسبب اهتزازاً واضحاً جداً للصف المشرك.

كان الوضع مستقر جداً للدولة الإسلامية، وفي الناحية الأخرى وجود ضعف عند قريش، ومع مرور الوقت يزداد هذا الضعف، وتقل الأحلاف، والجنود يقلون، والقادة يُفقدون ولصالح المسلمين.

ثالثاً: تناقص أعداء المسلمين وضعف شوكتهم

رأينا أن اليهود انتهى خطرهم تقريباً بعد فتح خيبر، ورأينا غطفان لم ينته خطرهم فحسب، بل جاءت وفودهم تُعلن الإسلام، وتُعلن انضمامها إلى قوة المسلمين، وغطفان هي التي شاركت منذ سنتين في حصار المدينة المنورة المؤمنة، والآن سوف تشارك في حصار مكة المكرمة المشركة في ذلك الوقت.

رابعاً: الوضع القانوني والشرعي للمسلمين.

إذا أراد المسلمون فتح مكة فالوضع سليم، ولا ينكر عليهم أحد، فهـذه فرصـة سـانحة لفـتح مكة، وقد لا تتكرر بسهولة، ولذلك لا يجب أبداً أن تُضيّع هذه الفرصة، وفتح مكة مطلب هام جداً، ومعاهدة الحديبية كانت تعوق فتح مكة، أما الآن فقد نُقضت المعاهدة، وديـار المسـلمين وأموالهم في داخل مكة ما زالت منهوبة، وهناك فرصة لاستعادة كل هذه الأمـور المنهوبـة مـن المسلمين، كما أن هناك فرصة لتعليم عوام الناس في داخـل مكـة الإسـلام إذا أُزيحـت الطغمـة الحاكمة من كراسيها في مكة؛ ولهذا نجد عدم تفاعل الرسول ﷺ مع محاولات قـريش لتجنـب الحرب، فالنبي ﷺ قرر أن ينتهز هذه الفرصة الثمينـة ويفـتح مكـة، فهـذه حكمـة سياسـية في منتهى الروعة.

خامساً: الواجب الأخلاقي

خامساً: هناك واجب أخلاقي وقانوني وسياسي على المسـلمين أن يقومـوا بفـتح مكـة؛ وذلـك لرفع الظلم عن المظلومين، فخزاعة ظُلمت ولا يجب أن تُترك هكذا دون مساعدة، ثـم إن هـذا الواجب ليس أخلاقياً فقط، بل هو واجب شرعي وقانوني، أي: أنـه فـرض عـلى المسـلمين أن يساعدوا خزاعة؛ لأن هذا التزام إسلامي مؤكد في صلح الحديبية، فكيف يتخلى عنه المسلمون، المسلمون؟ ليس لهم اختيار في ذلك الأمـر، مـا دامـوا قـد عاهـدوا عـلى شيء علـيهم أن يفـوا بعهودهم، والمعاهدة مع خزاعة على أن ينصـروهم إذا انتُهكـت حرمـاتهم، وقـد انتُهكـت وفي داخل الحرم، فلم لا يتحرك المسلمون؟ لا بد أن يتحركوا؛ لأن المعاهدة تقول: إن الاعتداء على خزاعة هو اعتداء على المسلمين، حتى وإن كانت خزاعة مشركة.

هناك واجب شرعي قانوني على المسلمين أن يجتهدوا في رد الحق إلى أصحابه، في رد الحق إلى خزاعة، وفي رفع الظلم عنهم. في نفس الوقت هذا واجب سياسي هام جداً؛ لأن كرامة الدولة الإسلامية انتهكت أيضاً؛ ولأن هؤلاء الذين قُتلوا حلفاء المسلمين وإن كانوا مشركين، فلا بد لحفظ كرامة الدولة الإسلامية أن تكون الوقفة مناسبة، والرسول ﷺ رأى أن هذه الوقفة يجب أن تكون فتح مكة.

تضافرت أمور كثيرة جداً تفيد أن الوضع مناسب جداً لفتح مكة.

وعندما نعيد هذه الأوراق ونحلل الموقف سنجد الآتي:

أولاً: الوضع العسكري والسياسي للدولة الإسلامية ممتاز ويتقدم.

ثانياً: الوضع العسكري والسياسي للدولة الكافرة في مكة ضعيف ويتأخر.

ثالثاً: الأعداء الآخرون للدولة الإسلامية استكانوا اليهود وغطفان وغيرهم.

رابعاً: الوضع القانوني إذا أراد المسلمون فتح مكة سليم تماماً.

خامساً: هناك واجب أخلاقي وشرعي وسياسي على المسلمين لصالح خزاعة لا بد من القيام به.

هذا هو الواقع الذي حلله الرسول ﷺ في لحظة واحدة، فقال: (نصرت يا عمرو بن سالم) وبدأ التجهيز لفتح مكة المكرمة.

أخذ قرار فتح مكة المكرمة في هذه الظروف سيكون قراراً حكيماً يحقق عدة مصالح دعوية وسياسية وعسكرية وأخلاقية، وغير ذلك، لكن هذا ليس قراراً سهلاً، بل هو من أصعب القرارات؛ لأن مكة ليست كأي بلد، مكة هي عقر دار قريش ولها تاريخ طويل، وقريش

ليست بالقبيلة السهلة، هي أعز قبيلة في العرب، والعرب جميعاً يوقّرونها، وقد يغير الكثير من الناس مواقفهم إذا هُددت قريش في عُقر دارها، وبالذات أن عقر دار قريش هو البلد الحرام مكة، وله مكانة هائلة في قلوب جميع العرب.

لقد كان القرار جريئاً جداً وقد تكون له تبعات هائلة، وفي نفس الوقت كثرة التفكير والتروي أكثر من اللازم قد تضيع الفرصة، لا بد أن نأخذ قراراً حاسماً، والقرار قد اتخذ فعلاً وبحسم وبقوة، فقد قرر النبي ﷺ أن يفتح مكة.

وقفة مع قرار الرسول ﷺ فتح مكة

لا بد أن نقف وقفة مع هذا القرار: هذا القرار السريع ليس قراراً متهوراً حاشا لله، فالقرار مدروس وبحكمة، وذكرنا الواقع الذي كان فيه المسلمون والمشركون، لكن نريد أن نلفت الأنظار إلى أمر في غاية الأهمية، ساعد الرسول ﷺ على اتخاذ القرار، وهذا الشيء نسميه: "الجاهزية الدائمة".اجعل هذا شعار حياتك: كن مستعداً، هناك فرص كثيرة جداً تأتي للإنسان، ولكن لا يستغل هذه الفرص؛ لأنه غير جاهز وغير مستعد، فالرسول ﷺ وشعبه المؤمن كان جاهزاً بصفة مستمرة، وكان الجيش مدرباً ومنظماً وعلى أُهبة الاستعداد دائماً، الشعب مهيأ لقضايا القتال والبذل والتضحية، والزوجات يدفعن أزواجهن للتضحية والجهاد، حتى الأولاد الصغار يعيشون هذا الجو باستمرار، ويتشوقون إلى الجهاد كما يتشوق إليه الكبار.

لو فُرض على الناس حرب وهي غير مستعدة نفسياً وقضايا الجهاد غير مطروحة في حياتها لا يمكن أن تجد أحداً سيقف معها، فالشعب المترف المرفه الذي يعيش بالملذات والأغاني والكرة صعب عليه أن يقف موقفاً محترماً في أزمة، فهذه الناس تحتاج إلى تربية، وكان شعب الرسول

ﷺ في جاهزية دائمة؛ ولهذا عندما يأتي ظرف مثل هذا يستطيع ﷺ أن يستغله، فالوضع الاقتصادي للدولة الإسلامية كان في تحسن مستمر، والتنمية في كل المجالات على أحسن ما يكون، والبلد تنتج الذي تريده لا تخاف من أحد. العلاقات الدبلوماسية له كانت مستقرة وكثيرة، والمخابرات الإسلامية كانت هنا وهناك تقوم بدورها على أفضل ما يكون، والحاكم والمحكوم والوزير والغفير والكبير والصغير الرجل والمرأة الكل يشعر بانتماء حقيقي غير مفتعل للبلد وللدين، وليس مجرد أغنية ليس لها أي معنى ولا تطبيق في حياة الناس، وليس مجرد شعار أجوف يقوله هذا أو ذاك! وليس مجرد خطاب سطحي مخادع للمحكومين! لا، الانتماء ليس أنك تذهب لتمثل بلدك في لعب الكرة وتحزن لو دخل هدف على بلدك، الانتماء أن تكون قابلاً لأن تدفع روحك من أجل بلدك ودينك، الانتماء أنك لا تضيع الدقيقة من شغلك في عمل ليس فيه فائدة للبلد والمسلمين، الانتماء أنك تصنع الذي تحتاجه ولا تستورد كل شيء، الانتماء أنك تحب الجيش وليس أن تهرب منه، الانتماء أنك تحافظ على أموال البلد وليس أن تختلسها وتعتبرها مالاً سائباً.

الانتماء قصة كبيرة جداً، قصة لا تقاس أبداً في الإستاد أو في السينما، لكن تقاس في ميدان الجهاد وفي المصنع والجامعة، وفي الحقول والمعامل في هذه الأشياء كلها، هذا هو الانتماء. شعب المدينة كان يعيش قصة الانتماء بطريقة صحيحة؛ ولهذا استطاع أن يقف ويجاهد مع الرسول ﷺ عندما احتاج الرسول ﷺ لهذا الانتماء الحقيقي.

هذه الجاهزية الدائمة من أهم مفاتيح استغلال الفرص السانحة، ولهذا الرسول ﷺ استطاع أن يأخذ القرار من غير تردد؛ لأنه علم أن شعبه وجيشه معه بجد، وعلاقاته الدبلوماسية على أكمل وجه، وتعتبر السيرة منهجاً عملياً واقعياً للتغيير فعلاً.

أُخذ قرار فتح مكة، وهو من أخطر القرارات في تاريخ الجزيرة، بـل في تـاريخ العـالم، وسـوف نرى آثار هذا الفتح الذي سيشمل تقريباً جميع مساحة الأرض وإلى الآن وإلى يوم القيامة.

كان هذا هو الوضع في المدينة المنورة، فكيف كان الوضع في مكة المكرمة؟ كيـف تفكـر قـريش بعد المصيبة التي وقعت عليها؟ وما الذي تعمله بنو بكر مع قريش، وما الذي تعمله القبيلتـان مع المسلمين بعد هذا؟ وكيف سيتعامل الرسول ﷺ مع محـاولات قـريش بعـد ذلـك لتجنـب الحرب؟ وكيف يجهز الرسول ﷺ جيشه ويخرج به إلى هذا المشـوار الصـعب؟ فمكـة المكرمـة تبعد عن المدينة بمقدار 500 كيلو في الصحراء.

هذه التفاصيل في غاية الأهمية، وهي عماد بناء الدولـة الإسـلامية، فينبغـي أن تـدرس بعنايـة، وهذا إن شاء الله سيكون موضوع الدرس القادم.

38

فتح مكة

تحدثنا عن خيانة ونقض بني بكر وقريش للعهد الذي بينها وبين رسـول الله ﷺ ، وقتـل عـدد من رجال خزاعة المحالفة للدولة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن ثـم أخـذ ﷺ القـرار بفـتح مكة، وتجهيز أكبر عملية عسكرية في تاريخ المسلمين حتى تلك اللحظة. الواقع أن قريشـاً بعـد أن قامت بهذه الجريمة وساعدت بني بكر على قتل الرجال من خزاعة في داخل الحرم جلسـت قريش مع نفسها تتشاور في هذه القضية، فهي قضية خطـيرة جـداً: قضـية نقـض الصـلح مـع المسلمين، فزعماء قريش عقدوا مجلساً استشارياً كبيراً واجتمع في هذا المجلس أبـو سـفيان مـع قادة مكة، اجتمع مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسـهيل بـن عمـرو وغـيرهم مـن رجال مكة وزعمائها، وبدءوا يفكرون فيما سيفعلونه نتيجة هذا الأمر الذي حدث وهـو نقـض المعاهدة، وقد كان هناك تصور عند قريش وخاصة عند أبي سفيان عن المسلمين وصل في تلك اللحظة إلى درجة الانبهار، فصلح الحديبية نفسه كانت الغلبة فيه للمسلمين، والقـوة والبـأس في صالح المسلمين، والتفريط والتنازل في صف قريش، وتحدثنا عن ذلك بالتفصـيل، وقـريش ما كانت لتسلّم بذلك الأمر لولا أنها رأت قوة المسلمين، وكان هذا منذ سنتين عندما كان عـدد المسلمين 1400 فقط في بيعة الرضوان أو في صلح الحديبية، ثم سافر أبو سـفيان بعـد الصـلح إلى غزة للتجارة، وهناك التقى مع هرقل في اللقاء الذي تحـدثنا عنـه قبـل ذلـك ودارت بيـنهما

المحاورة العجيبة، وخرج أبو سفيان من هذه المحاورة بإنطباع هائل عن رسول الله ﷺ، حتى إنه ضرب يداً بيد وقال: (لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة؛ إنه ليخافه ملك بني الأصفر – هرقل – فما زلت موقناً أنه سيظهر) الشاهد أن أبا سفيان كان يرى أن أمر النبي ﷺ سيظهر في يوم من الأيام، ثم إن أبا سفيان ومن معه من أهل قريش شاهدوا الانتصارات الإسلامية المتتالية هنا وهناك، وبالذات في خيبر ثم في مؤتة، وكانت هذه الانتصارات كبيرة جداً وضخمة جداً، ثم أسلمت الدول والقبائل المحيطة بمكة المكرمة، أسلمت اليمن، وأسلمت البحرين، وأسلمت عمان وغير ذلك من القبائل، وكل هذا ترك تصوراً بالرهبة والهلع عند قريش من مواجهة المسلمين، أضف إلى ذلك أن قريشاً بدأت تبحث في الفوائد المتحققة من مساعدتها لبني بكر في الخيانة التي تمت بقتل مجموعة من رجال خزاعة، فلم تجد أي نوع من الفائدة تحققت؛ لأن هذه معركة داخلية بين بني بكر وبين خزاعة، فإعانة قريش لبني بكر على حرب خزاعة يعتبر تهوراً ملحوظاً، بالإضافة إلى هذه الأمور خلفية عمرة القضاء، فقبل أقل من سنة واحدة رضي أهل مكة بمنتهى الضعف أن يدخل إليهم الرسول ﷺ مكة، وهو الذي طردوه وعذّبوه وأساءوا إلى سمعته، وحاربوه بكل طاقتهم، وافقوا أن يدخل إلى مكة ومعه 2000 من أتباعه لأداء العمرة، وأخلوا مكة له، وهذا لا شك ترك انطباعاً وتصوراً نفسياً قاسياً عند أهل قريش، ولا ننسى مظاهر القوة التي حرص ﷺ أن يظهرها في هذه العمرة، ولا ننسى انبهار قريش بقوة المسلمين وتعليقات أهل قريش عندما رأوا جيش المسلمين وقوة المسلمين، وعمرة القضاء كانت تمهيداً نفسياً إيجابياً للمسلمين، وكانت تمهيداً نفسياً سلبياً للمشركين، وهذا كله من تدبير رب العالمين سبحانه وتعالى.

قريش في اجتماعهم أدركوا أن احتمال الحرب وارد، واحتمال غزو مكة مع صعوبة تصور هذا الأمر على الذهن أمر محتمل، وبناء على هذا الاجتماع أخذت قريش قراراً صعباً، بل من أصعب

القرارات في تاريخ قريش، وهو الذهاب إلى المدينة المنورة لاستسماح الرسول ﷺ أن يتغاضى عن هذا الخطأ، وأن يطيل الهدنة، وهذاً تنازل كبير جداً، وطعن كبير جداً في كرامة قريش، وخاصة أن الذي اختاروه للذهاب هو أبو سفيان شخصياً، أي: زعيم مكة وسيد مكة، ليس مجرد سفير ترسله مكة ولكن زعيم مكة بكاملها وزعيم بني أمية، وله تاريخ طويل مع المسلمين، وله حروب متتالية مع المسلمين، وهاهو أبو سفيان يتنازل عن كبريائه وعن كرامته ويذهب إلى المدينة المنورة؛ ليطلب من الرسول ﷺ أن يطيل الهدنة، وهذا شيء كبير جداً، ولعل هذه هي ولعله المرة الأولى في تاريخ قريش التي تقدم فيها تنازلاً بهذه الصورة.

موقف الرسول ﷺ وصحابته من أبي سفيان حين جاء إلى المدينة ليطيل مدة الهدنة

ذهب أبو سفيان إلى المدينة المنورة يحاول قدر المستطاع أن يمنع الرسول ﷺ من الانتقام لخزاعة والثأر لكرامته وكرامة الأمة الإسلامية، وأن يطيل المدة بأي ثمن. من هذا الحدث سنأخذ قاعدة مهمة جداً، وهذا القاعدة ليست فقط في أيام الرسول ﷺ ولكنها ستظل معنا إلى يوم القيامة وهي: إذا كان عدوك حريصاً على السلام وحريصاً على تجنب الصدام بكل ما أوتي من قوة ويدفعك إليه دفعاً فاعلم أنه ضعيف، أو على الأقل يخشى قوتك فلا تضعف ولا تجبن.

فأتى أبو سفيان كي يحاول قدر المستطاع أن يتجنب الصدام، وسنجد الوقفة الإسلامية أمام أبي سفيان، في بداية دخوله إلى المدينة المنورة ذهب إلى ابنته، وبنت أبي سفيان كانت زوجة الرسول ﷺ وهي أم حبيبة رضي الله عنها وأرضاها أم المؤمنين، والتقى أبو سفيان مع أم حبيبة رضي الله عنها، وكان هذا اللقاء بعد غياب 16 سنة متصلة، فقد كانت أم حبيبة رضي الله عنها هاجرت إلى الحبشة، وبقيت في الحبشة فترة طويلة من الزمان، ثم تزوجها الرسول ﷺ وأتت إلى المدينة المنورة، ولم تمر بمكة منذ 16سنة متصلة، فالعلاقة بينها وبينه منقطعة فترة طويلة، فكان أبو سفيان يظن أن أم حبيبة ستستقبله استقبالاً حافلاً فهو أبوها، ومنذ فترة طويلة من

الزمن لم ير أحدهما الآخر، لكن عندما أراد التحدث معها وأراد الجلوس على الفراش، فإذا بها تطوي الفراش وتمنعه من الجلوس، فاستغرب أبو سفيان فقال: (يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أو رغبت به عني؟) فقالت السيدة أم حبيبة في صلابة وفي قوة: (هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراشه)، فقال أبو سفيان: (يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر)، ثم خرج.

لنا وقفة مع موقف السيدة أم حبيبة، فقد يقول المحلل لهذا الموقف، إن هذا الموقف فيه نوع من الغلظة غير المقبولة من السيدة أم حبيبة مع أبيها أبي سفيان، والواقع أن في مثل هذه الظروف تكون الغلظة؛ فـ أبو سفيان ليس إنساناً عادياً، بل زعيم مكة، والجميع في المدينة المنورة يعلم أن هناك نقضاً للمعاهدة التي تمت بين المسلمين وبين قريش، وأنه قد جاء إلى المدينة المنورة لكي يطيل المدة، والرسول ﷺ قد أنبأهم بذلك قبل أن يأتي أبو سفيان في معجزة نبوية ظاهرة، قال ﷺ : (كأنكم بـ أبي سفيان قد جاءكم يشد في العقد ويزيد في المدة)، فعرف المسلمون أنه أتى لهذا الغرض، لذلك أرادت أم حبيبة رضي الله عنها وأرضاها أن تقف هذه الوقفة الصلبة الجريئة القوية مع أبيها؛ ليعلم أبو سفيان أن المسلمين جميعاً صف واحد، وأنهم جميعاً على قلب رجل واحد، حتى إن ابنته أم حبيبة رضي الله عنها وقفت مع الرسول ﷺ ضد أبيها أبي سفيان، فهذا ترك انطباعاً وتصوراً سلبياً كبيراً جداً عند أبي سفيان، فقد عرف أنه يقف أمام أناس من الصعب أن يحاربهم، وليس هذا السلوك الإسلامي العام مع الرحم المشرك أو الرحم غير المسلم؛ لأن الله عز وجل أمر بمصاحبة الآباء والأمهات المشركين بالمعروف، قال سبحانه وتعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان:15]، والذي يؤكد على هذا المعنى ما جاء في البخاري عن السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: (قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا

رسول الله ﷺ)، أي: أنها جاءت في نفس فترة صلح الحديبية، فالسيدة أسماء سألت الرسول ﷺ وقالت له: (يا رسول الله إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صليها)، وهذا هو الأصل في المعاملة، لكن موقف أم حبيبة مع أبيها أبي سفيان موقف مختلف، كان موقفاً صحيحاً بدليل سكوت رسول الله ﷺ عن هذا التصرف من السيدة أم حبيبة رضي الله عنها.

خرج أبو سفيان من عند السيدة أم حبيبة بهذه الصدمة الكبيرة، واتجه مباشرة إلى الرسول ﷺ ليحاول أن يطيل المدة كما ذكرنا، فتحدث أبو سفيان مع الرسول ﷺ وذكر له رغبته، لكن الرسول ﷺ رفض أن يرد عليه، حتى مجرد الرد لم يرد الرسول ﷺ ، وهذا ليس هو التصرف المعتاد من رسول الله ﷺ، فقد كان رسول الله ﷺ يحسن استقبال الضيوف ويُكرم الضيوف، وخاصة أن هذا زعيم من زعماء قريش، وكان يستمع منهم الرسول ﷺ ويقبل منهم ويتحاور معهم، لكن في هذا الموقف لم يحدث؛ لأن الرسول ﷺ يريد أن يفتح مكة، فهو يريد أن يستغل هذه الفرصة السانحة، ولا يريد لكلمات أبي سفيان أن تؤثر عليه بصورة من الصور، ومع ذلك لم يقل ﷺ أنتم فعلتم كذا وكذا، ولم يهدد، ولم يذكر كلاماً شديداً مع أبي سفيان ؛ كل ذلك لكي لا يلفت نظر أبي سفيان إلى أن احتمال فتح مكة والهجوم عليها أصبح أمراً وارداً، فآثر الرسول ﷺ أن يسكت وأن يصمت ولا يرد على أبي سفيان بأي كلمة، فأبو سفيان لما لم يتفاوض معه الرسول ﷺ ولم يقبل أن يرد عليه أصلاً، خرج بهذه الأزمة النفسية الكبيرة إلى أبي بكر الوزير الأول لرسول الله ﷺ، نحن كنا نتوقع من أبي سفيان أن يعود أدراجه إلى مكة المكرمة وقد غضب غضباً شديداً وثار ثورة كبيرة، وينقلب بجيشه على المدينة المنورة ثأراً لكرامته، لكن كل هذا لم يحدث؛ لأنه ضعيف جداً، ويعلم أنه ضعيف أمام هذه الصلابة الإسلامية الواضحة، فذهب أبو سفيان إلى أبي بكر وطلب منه نفس الكلام، لكن الصديق رضي الله عنه قال له في

صرامة واضحة: (ما أنا بفاعل) لن أتوسط بينك وبين الرسول ﷺ، فخرج أبو سفيان من عنـد أبي بكر بالصدمة الثالثة؛ أول صدمة كانت لـأبي سفيان مع أم حبيبة رضي الله عنها، والثانية مع الرسول ﷺ، والثالثة مع أبي بكر ، ومع ذلك لم ييـئس أبـو سـفيان واتجـه إلى الـوزير الثـاني في الدولة الإسلامية وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليته ما فعل، فأول ما ذهب وطلب منه نفس الطلب أن يطيل المدة بينه وبين المسلمين، قال عمر بن الخطاب بمنتهى القوة: (أنـا أشـفع لكم عند رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به) انظروا إلى قـوة وصـلابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهذه هي الصدمة الرابعـة التـي أخـذها أبـو سـفيان في المدينـة المنورة، وأيضاً لم ييئس بل خرج من عند عمر بن الخطاب واتجه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسيدنا علي متزوج من السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، فـدخل عنـدهما، وكـان عنـدهما الحسن رضي الله عنه يلعب بينهما، فقال: (يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وأقربهم مني قرابـة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً) انظروا إلى هذا الذل من أبي سفيان ، ثم يقول: (فاشفع لي عند محمد)، فقال علي بن أبي طالب : (ويحك أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه) أي الرسول ﷺ عندما سمع بخيانة بني بكر وقريش وقتلهم لرجال من خزاعة وصل إلى درجة من الغضب ما نستطيع أن نكلمـه، ولا نعلـم مـاذا سـيفعل ﷺ، وهذه هي الصدمة الخامسة من علي بن أبي طالب رضي الله عنـه، فالتفـت أبـو سـفيان إلى فاطمة رضي الله عنها وقال لها: (يا بنت محمد هل لك أن تأمري بُنَيَّك هـذا فيجـير بـين النـاس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟) أي: أن الطفل الصـغير الحسـن بـن عـلي رضي الله عـنهما يخرج ليجير أبا سفيان وأهله وقومه وقريشاً، فقالت السيدة فاطمة : (والله ما بلغ ابني ذلـك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على النبي ﷺ) وهذه هي الصدمة السادسـة، فقـال أبـو سـفيان ليأخذ الصدمة السابعة والأخيرة وهو يخاطب علي بن أبي طالب قال: (يـا أبـا الحسـن إني أرى

الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني)، قال: (والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك)، فقال: (أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟) قال علي بن أبي طالب في منتهى الوضوح: (لا والله، ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك)، ومع هذا الإحباط الذي أصاب أبا سفيان إلا أنه قام فعلاً في المسجد وقال: (يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس)، فلم يقم أحد من المسلمين.

سبع صدمات وضربات متتالية لأبي سفيان زعيم قريش، ولم يجد أي أمل، فكّر في الرجوع إلى مكة المكرمة، وبالفعل صعد على بعيره، وفي طريقه إلى مكة مر على سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم وأرضاهم، فقالوا: (والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها). كان هذا الكلام من هؤلاء الثلاثة: سلمان وصهيب وبلال ، وهؤلاء كانوا من الذين يُباعون ويُشترون، فمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بهم وهم يقولون ذلك، فقال: (أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟) أي: أن أبا بكر تأثر لأبي سفيان ، وذهب إلى الرسول ﷺ وقال له: إن سلمان وصهيباً وبلالاً قالوا كذلك وكذا لأبي سفيان ، فماذا كان رد الرسول ﷺ؟ قال: (يا أبا بكر لعلك أغضبتهم)، لم يقف ﷺ مع أبي بكر الصديق في رأفته ورحمته لأبي سفيان ، إنما وقف مع سلمان وصهيب وبلال يقدّر موقفهم، وفي نفس الوقت يؤثر نفسياً على أبي سفيان قال: (يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؛ لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر وقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي) .

الشاهد من القصة أن الموقف ليس موقف دعوة الآن، ولكنه موقف تجهيز لحرب، فالأموال والديار والحقوق المسلوبة آن لها أن ترجع، وإن كنا قد قبلنا في الحديبية أن نقر الهدنة دون عودة كامل الحقوق، فإن ذلك كان لظروف المرحلة السابقة، وتقديرنا لقوتنا وقوة عدونا في ذلك

الوقت، أما الآن فالظروف قد تغيرت ولن نقبل بما قبلنا به قبل ذلك أيام الحديبية، ولهذا كان هذا رد فعل الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم.

عاد أبو سفيان إلى مكة وفشلت مهمته فشلاً ذريعاً وخسر أكثر مما كسب، وعندما عاد إلى مكة المكرمة ودار بينه وبين زعماء قريش الحوار قالوا له: (ما وراءك؟) قال: (جئت محمداً فكلّمته فوالله ما رد عليّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فوالله ما وجدت فيه خيراً، ثم جئت عمر فوجدته أعدى عدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بأمر صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا)، قالوا: (فبماذا أمرك؟) قال: (أمرني أن أجير بين الناس ففعلت)، قالوا: (هل أجاز ذلك محمد ﷺ؟) قال: (لا)، قالوا: (ويحك ما زادك الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت)، فقال أبو سفيان : (لا والله ما وجدت غير ذلك). أي: أنه لم يكن هناك أي حل إلا أن يعمل هذا، مع أنه لن يجد فائدة، هكذا وضعت قريش في مأزق خطير، وعلمت قريش أن هناك احتمالاً كبيراً جداً لغزو مكة المكرمة، وبدأت قريش تترقب قدوم المسلمين، وهي لا تستطيع أن تعمل شيئاً، فلم يعد من أعوانها إلا بنو بكر، ولم يعد أمامها إلا الانتظار، هذا هو الموقف في مكة، وهنا ننظر ما الذي فعله رسول الله ﷺ في المدينة بعد عودة أبي سفيان إلى مكة المكرمة؟

استعداد الرسول ﷺ وأصحابه لفتح مكة

أعلن الرسول ﷺ استنفاراً عاماً على كل المستويات لكل أهل المدينة المنورة، وإرسال استدعاءات للمسلمين في القبائل المختلفة، وممن أرسل إليهم غطفان، وأرسل إلى بني سليم، وإلى فزارة، وهؤلاء هم الأحزاب الذين حاصروا المدينة منذ ثلاث سنوات، والرسول ﷺ اتفق مع هذه القبائل على التلاقي عند مر الظهران، ومر الظهران على بعد حوالي 22 كيلو من مكة المكرمة، أي: أن هذه القبائل ستأتي من طرق مختلفة؛ لكي لا تستطيع عيون قريش تقدير

عدد الجيش المسلم، وفي نفس الوقت أخرج الرسول ﷺ سرية على رأسها أبـو قتـادة رضي الله عنه للتمويه، أرسل هذه السرية إلى اتجاه بعيد عن اتجاه مكة المكرمة؛ ليلفت أنظار القرشيين إلى أنه لا يريد مكة المكرمة، وأمر ﷺ المسلمين جميعـاً بالسرـية التامـة، وبعـدم إخبـار أي إنسـان خارج المدينة المنورة بأمر هذا الغزو لمكة المكرمة، ثم رفع يده إلى السماء ودعا وقال: (اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة) وبدأ الإعـداد الضـخم للخروج من المدينة المنورة.

في ذلك الوقت حـدثت قصـة لا أريـد أن أقـف عنـدها كثـيراً؛ لأني سـأحيلها إن شـاء الله إلى مجموعة الرسول ﷺ وأخطاء المؤمنين، لكن نمر سريعاً على هذا الحدث، فالحقيقـة أن حاطـب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وأرضاه أخطأ خطأ كبيراً بإرادته بكشف سر رسول الله ﷺ لمشركي قريش، فهو أرسل إليهم رسالة يخبرهم فيها أن رسول الله ﷺ قادم إلـيهم، ولمـاذا فعـل هـذا؟ لأن له عائلة بمكة المكرمة وخشي عليها من بطش قريش، وليست له قبيلة كبيرة بمكـة تـدافع عن أسرته، فهو رجل حليف ليس من أهل مكة الأصليين، وهذا الأمـر لا يُـبَرِر أبـداً لـه هـذا الخطأ الكبير، لكن هذا هو الـذي حصـل، ونـزل الـوحي يكشـف للرسـول ﷺ هـذا الأمـر، واستطاع الرسول ﷺ أن يرسل من يأتي بالرسالة التي أرسلها، وأحبطت هذه المحاولة، وهـذا الصحابي الجليل لم يرتكب هذا الخطأ لأنه من المنافقين، بل هي لحظة ضـعف خـاف فيهـا عـلى أسرته، ولذلك الرسول ﷺ عفا عنه وتجاوز عن هـذا الخطـأ؛ لسـابق تاريخـه رضي الله عنـه في الإسلام، وكما هو معروف أن حاطباً رضي الله عنه من أهل بدر، ولهذا الرسول ﷺ منـع عمـر من إيذائه وقال له: (إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطّلع على قلـوب مـن شـهد بـدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفـرت لكـم)، هـذا الحـدث يحتـاج إلى تفصـيل، ولكـن كـما قلنـا سنتحدث عنه بالتفصيل في مجموعة أخطاء المؤمنين.

خرج الرسول ﷺ من المدينة المنورة وكان هذا الخروج في 10 رمضان سنة 8هـ، واتجه مباشرة إلى مكة المكرمة، وفي الطريق بدأت البشريات تتوافد على المسلمين، أولاً في طريقه وبمجرد أن خرج من المدينة المنورة لقي العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه عم الرسول ﷺ ، ومن أحب الناس إلى قلبه ﷺ ، فقد كان تأخر إسلام العباس رضي الله عنه وأرضاه علامة استفهام كبيرة جداً، حتى إن هناك من قال: إنه قد أسلم أيام بدر، ولم يفسّر تفسيراً واضحاً بقاءه في مكة المكرمة دون هجرة كل هذه السنوات، وهناك من قال: إنه بقي في مكة لنقل الأخبار للرسول ﷺ، ولم يقم أحد الأدلة على ذلك. لكن الحمد لله أنه هاجر قبل أن يصل الرسول ﷺ إلى مكة المكرمة، وذلك أسعد الرسول ﷺ جداً، وسر سروراً عظيماً برؤية العباس رضي الله عنه وأرضاه، وانضم العباس إلى قوة المسلمين، وسيكون له دور إيجابي كما سنرى ذلك في فتح مكة المكرمة، ثم أكمل الرسول ﷺ الطريق وقد زادت قوة المسلمين بـ العباس رضي الله عنه، فوجد رجلين آخرين: أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية، أحدهما ابن عم الرسول ﷺ، والآخر ابن عمة الرسول ﷺ ، وهذان الرجلان كانا من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، وجاءا من مكة المكرمة إلى المدينة ليعلنا إسلامهما بين يدي الرسول ﷺ، وتخيل من شدة إيذائهما للرسول ﷺ رفض ﷺ أن يقابلهما، مع أنه ﷺ كان يفرح كثيراً بمن أتى إليه مسلماً، إلا أنه رفض في البداية مقابلتهما من شدة إيذائهما له في فترة الفترة المكية، لولا أن السيدة أم سلمة رضي الله عنها وكانت مصاحبة لرسول الله ﷺ في الفتح فتوسطت لهما عند رسول الله ﷺ ، فقابلهما الرسول ﷺ وقبل منهما الإسلام بعد أن أعلنا التوبة الكاملة بين يديه ﷺ .

موقف الرسول ﷺ حين شق الصوم على أصحابه بكراع الغميم

أكمل الرسول ﷺ الطريق، وكما ذكرنا أن هذا الخروج كان في رمضان سنة 8 هـ، وصام الجيش معظم الطريق حتى وصلوا إلى كُراع الغميم، وكراع الغميم تقريباً على بعد 60 كيلو أو

أكثر من مكة المكرمة، وفي كراع الغميم جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ وأخبروه أن الناس قد شق عليهم الصيام، وكان هذا بعد صلاة العصر، فماذا فعل ﷺ ؟ دعا ﷺ بقدح فيه ماء ورفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب ﷺ ، وهذا في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. نجد في هذا الموقف أن الرسول ﷺ عقد مقارنة سريعة هامة بين الصوم وبين الجهاد في سبيل الله، فالصوم عبادة عظيمة جداً، كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، كذلك الجهاد عبادة عظيمة جداً، وهو ذروة سنام الإسلام، وصرّح الرسول ﷺ أنه لا يعدله شيء أيضاً كما في البخاري عن أبي هريرة، فهو في هذا الموقف يقارن بين عبادتين عظيمتين، وهذا الموقف كان محيّراً للبعض إلا أن الرؤية كانت واضحة جداً عند رسول الله ﷺ ، فلذلك دعا بقدح فيه ماء فشرب وهو صائم، مع أن الموقف كان بعد صلاة العصر، ولم يبق إلا قليل ويدخل وقت المغرب، لكن فعل ذلك ﷺ ليزرع أكثر من معنى في نفوس المسلمين:

أولاً: هناك ما يسمى بواجب الوقت، بمعنى أن هناك أشياء لا بد أن تتم الآن، وأشياء أخرى من الممكن أن تؤخر إلى وقت لاحق، فتأخير الصيام لا يضر، لأننا من الممكن أن نقضيه بعد انتهاء فتح مكة، لكن الجهاد الآن لا يؤخر، وخاصة أن الجيش على بعد 60 كيلو من مكة المكرمة.

ثانياً: ليس من الممكن أن تأتي بكل أنواع الخير، أو تتجنب كل أنواع الشر، هذه من المثاليات غير الممكنة في الدنيا، لكن المسلم الحكيم يوازن بين العمل الفاضل والعمل المفضول، فيقدم الفاضل ويؤخر المفضول، ولا يكون هذا إلا بترتيب جيد للأولويات، وواقعية في الفكر والأداء، وتوفيق من رب العالمين سبحانه وتعالى.

ثالثاً: أن الإسلام ليس شعائر تعبدية فحسب، ومع ذلك ترى الكثير من المسلمين يقصر التزامه بالإسلام على الصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ونحو ذلك من الشعائر، نقول: الإسلام دين جاء ليحكم كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس، ونحن رأينا الرسول ﷺ يؤخر عبادة وشعيرة هامة جداً ليقوم بأمر آخر من الإسلام أيضاً في صالح الأمة ألا وهو الجهاد في سبيل الله، فالجهاد من الإسلام، والسياسة من الإسلام، والتجارة من الإسلام، والمعاملات من الإسلام وهكذا؛ ولهذا الرسول ﷺ أفطر وأمر الناس بالإفطار وهذا بعد وقت صلاة العصر، بل إن في صحيح مسلم: (أن بعض الصحابة جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: إن بعض الصحابة لم يفطروا مع الناس)، ماذا علّق ﷺ على هذا الفعل؟ قال ﷺ : (أولئك العصاة أولئك العصاة) مع أنهم لم يرتكبوا ذنباً، لكن هذه المخالفة في ذلك الوقت ستجعل قوتهم ضعيفة لا يستطيعون الجهاد مع المسلمين، فهنا خالفوا واجب الوقت، وخالفوا تقليد الرسول ﷺ في هذا الأمر، فسمّاهم ﷺ العصاة، مع أنهم يصومون رمضان في رمضان، وهذا يحتاج إلى تدبر عميق وفقه؛ لكي نستطيع فهم الأبعاد التربوية عند رسول الله ﷺ .

التقاء القبائل عام الفتح بالرسول ﷺ بمر الظهران وموقف زعماء مكة منها

وصل الرسول ﷺ إلى مر الظهران، ومر الظهران على بعد 22 كيلو من مكة المكرمة، وهناك التقت الجنود من القبائل المختلفة من قبائل فزارة ومن قبائل بني سليم ومن غطفان ومزينة وجهينة ومن المدينة المنورة من كل مكان، عشرة آلاف جندي، هذه هي الطاقة الإسلامية، وهذا الوضع كنفس الوضع الذي كان في غزوة الأحزاب ولكن بصورة عكسية، {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:140] قبل الفتح بثلاث سنوات حوصرت المدينة بعشرة آلاف مشرك، والآن تحاصر مكة بعشرة آلاف مسلم، العدد هو العدد لكن شتان بين الفريقين.

أراد الرسول ﷺ لقريش هزيمة نفسية؛ لكي يدخل مكة بأقل الخسائر الممكنة، فـأمر الصـحابة رضي الله عنهم وأرضاهم في فكرة نبوية عبقرية رائعة أن يشـعلوا النـيران جميعـاً، أي كـل فـرد منهم يشعل شعلة ويرفعها بيده، فأصبحت عشرة آلاف شعلة من النيران، فالنيران بحـد ذاتهـا مرعبة، فإذا رآها الناس شعروا بالرهبة، وهـذه الفكـرة كانـت مثـيرة ومرعبـة لأهـل قـريش، وشاهدوها جميعاً؛ لأن المسافة 22 كيلو بـين جـيش المسـلمين وبـين مكـة فهـي مسـافة قريبـة يستطيع أهل قريش أن يروا فيه النيران، ومع هذا كان من قـريش المـراقبين والجواسـيس عـلى مقربة من مر الظهران، ورأوا هذه النيران عن قرب، ومن هؤلاء أبو سفيان شخصياً، وتصـور مدى الهلع والرعب عند سيد قريش وعند زعيم مكـة الـذي يدفعـه أن يخـرج بنفسـه ليراقـب أحوال المسلمين، وكان معه بديل بن ورقاء الخزاعي، وذكرنا قبل هذا أن بديل بن ورقـاء كـان صديقاً شخصياً لـ أبي سفيان ومع أن بديلاً استغاث بالرسول ﷺ إلا أنه لم يكن يتوقع أبـداً أن يأتي الرسول ﷺ بجيش يفتح مكة المكرمة عقر دار قريش، كان كـل أحلامـه أن الرسـول ﷺ سيطلب من قريش أن تدفع دية المقتولين من خزاعة، لكن الآن يشاهد جيشاً كبيراً أتى إلى مكة المكرمة.

وهنا يأتي كلام العباس رضي الله عنه وأرضاه عن هذا الموقف العجيب، وهذا في الطبراني بسند صحيح عن العباس رضي الله عنه، فـ العباس عندما رأى عشرة آلاف جندي على أبواب مكـة المكرمة، ومع ذلك فـ العباس لا يزال حديث الهجرة، بل قد يكون حديث الإسـلام، وقـريش قبيلة قوية جداً، وإسلامها لا شك أنه أفضل من قتلها، ثم هم الرحم والأهل والعشيرة، فـأول ما رأى هذا العدد يقترب من مكة المكرمة قال: (وا صباح قريش، والله لـئن دخـل رسـول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فبدأ يبحث عمن يخـبر قريشـاً أن الرسول ﷺ قد جاء ليخرجوا ليستأمنوه، فهو الآن لا يدل على أسرار الجـيش؛ لأن الجـيش

قد كشف أمره، فقد أشعل عشرة آلاف شعلة حول مكة المكرمة، فليس هناك أي نوع من التخفي، فالآن هو يريد لقريش أن تستأمن لنفسها، فركب بغلة الرسول ﷺ وبدأ يبحث عن أي إنسان يصل بخبر إلى مكة المكرمة، فسمع همسات من رجلين يتحدثان فأحدهما كان يقول: (ما رأيت كاليوم قط نيراناً ولا عسكراً)، فرد عليه صوت آخر وقال: (هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب) أي: أن خزاعة جاءت لتنتقم لنفسها من قريش، فقال الأول: (خزاعة! والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها)، فسمعهم العباس بن عبد المطلب فعرف الصوت فناداهما، فكان الصوت الأول أبا سفيان والصوت الثاني بديل بن ورقاء الخزاعي، وكما ذكرنا أن بديل بن ورقاء يعيش في داخل مكة المكرمة؛ فهو لا يعرف أحوال خزاعة، وهل خزاعة جاءت بجيش أو غير خزاعة. المهم أن العباس رضي الله عنه لما ناداهما فعرف أبو سفيان صوته فقال: (أبو الفضل؟ -أي: العباس بن عبد المطلب) - فقلت: نعم، قال: (ما لك فداك أبي وأمي)، فقلت: (ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس، وا صباح قريش والله)، قال: (فما الحيلة فداك أبي وأمي؟) قال: قلت: (والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك)، فوافق أبو سفيان دون تردد؛ لأن موقفه صعب جداً فهو زعيم قريش، فوافق دون تردد وانصاع لنصيحة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وركب خلفه على بغلة رسول الله ﷺ، وانطلق إلى الرسول ﷺ ، ورجع بديل بن ورقاء إلى مكة المكرمة، وفي ذهابهما إلى الرسول ﷺ كانا كلما مرا على نار من نيران المسلمين قالوا: (من هذا؟) فيقولون: (هذه بغلة الرسول ﷺ، وهذا عم الرسول ﷺ)، إلى أن مرا على نار عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، فقال: (من هذا؟) وقام إليه فرأى العباس ووجد خلف العباس أبا سفيان ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في منتهى القوة: (أبي سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد)، فقرر عمر بن الخطاب

قتل أبو سفيان ، فرأى العباس موقف عمر بن الخطاب فأسرع بـأبي سـفيان إلى الرسـول ﷺ، فأسرع عمر بن الخطاب إلى الرسول ﷺ يريد أن يصل قبل العباس ، لكن العبـاس دخـل عـلى الرسول ﷺ قبل عمر بن الخطاب ، إلا أن عمر بـن الخطـاب رضي الله عنـه دخـل مسرعـاً إلى رسول الله ﷺ وتكلم قبل أن يتكلم العباس ، وقال: (يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني أضرب عنقه). تاريخ طويـل بـين أبي سـفيان وبـين المسـلمين، هناك حروب متتالية قادها أبو سفيان ضد المسلمين، وذكريات أليمة عنـد المسـلمين مـن وراء أبي سفيان ، فـعمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الموقف أراد أن ينتصر لله عز وجـل ويقتـل أبا سفيان ، لكن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله ﷺ: (يـا رسـول الله إني أجرتـه)، ثـم جلست إلى الرسول ﷺ فأخذت برأسه فقلت: (لا والله، لا يناجيه الليلة رجل دوني، فلما أكثـر عمر في شأنه قلت: (مهلاً يا عمر أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلـت هـذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف)، قال عمر بن الخطـاب : (مهـلاً يـا عبـاس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطـاب لـو أسـلم) -الـذي هـو أبـوه شخصياً- قال عمر : (وما به إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحـب إلى رسـول الله ﷺ مـن إسلام الخطاب)، وهذا الكلام صدق من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضـاه، فقـال ﷺ: (اذهب به إلى رحلك يا عباس فإذا أصبح فائتني به) أي: أنه صرف أبا سفيان مع العبـاس بـن عبد المطلب وعاد عمر بن الخطاب إلى رحله، وبدأ الرسول ﷺ يفكر في القضية.

نحن نعذر عمر في موقفه؛ لأن أبا سفيان كان قد قاد الحرب ضد المسلمين في السـنوات السـت الأخيرة، وارجعوا إلى الحوار الذي دار بين أبي سفيان وبين المسـلمين بعـد غـزوة أحـد، لـتروا مدى الشماتة التي كانت عنده في المسلمين، ومدى رضاه بالمثلة التي حدثت للشهداء، وخاصـة أن المثلة حدثت في أحب الناس إلى رسـول الله ﷺ وهـو حمـزة بـن عبـد المطلـب وحـدثت في

أصحابه الشهداء، وهم 70 شهيداً مثِّل بهم في غزوة أحد، وارجعوا أيضاً إلى غـزوة الأحـزاب ورغبة أبي سفيان الأكيدة في إهلاك جميع المسلمين، وكل هذا تاريخ طويل جداً لـأبي سفيان مع المسلمين. إن كنا نعذر عمر في هذا التصرف وهذا العرض الذي قدّمه لقتل أبي سفيان في ذلـك الوقت الذي ليس له عقد ولا عهد، إلا أن موقف العباس كان أفضل في هذا المقام لأمور:

أولاً: قد يسلم أبو سفيان ويحسن إسلامه، فكسب مسلم إلى الصف خير من قتل كافر، ونجـاة إنسان من النار خير من سقوطه فيها، مهما كان هذا الإنسان.

ثانياً: أن هذا أصلح لقريش؛ لأن إسلام أبي سفيان قد يؤدي إلى إسلام قـريش، فتنجـو قـريش بكاملها في الدنيا والآخرة، وتضاف قوة قريش إلى قوة المسلمين، وهذا نصر كبير.

ثالثاً: هذا أحفظ لدماء المسلمين؛ لأن أبا سفيان قد يمنـع قـريش مـن المقاومـة، وبهـذا يسـهل عملية فتح مكة، أما قتل أبي سفيان فقد يثير قريشاً؛ لأنه زعيمهم، وقد يثير بني أمية، لأنه أيضاً من أكبر رءوس بني أمية، فقد تدور حرب الله عز وجل أعلم بعواقبها.

يؤكد أن رأي العباس كان أفضل في هذه القضية أن الرسول ﷺ مـال إلى هـذا الـرأي، ولكنـه تعامل ﷺ مع القضية بتوازن رائع يجمع بين الترهيب والترغيب، ويجمع بـين القـوة والرحمـة، ويجمع بين الذكاء السياسي والفقه الدعوي، فموقفه مع أبي سفيان في اليوم التالي والحوار الذي دار بينهم من أروع مواقف السيرة.

إسلام أبي سفيان ودوره في فتح مكة

عرض الرسول ﷺ الإسلام على أبي سفيان بمنتهى القوة، فهو يعرض عليـه الإسـلام لنجاتـه وإلا فالأصل أن الرسول ﷺ في حل من دماء قـريش؛ لأنهـم خـالفوا صـلح الحديبيـة وقتلـوا رجالاً من قبيلة خزاعة حليفة المسلمين، فعرض عليه الإسلام بصيغة فيها ترهيب واضح قال:

(ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟) تهديد واضح، ذهب وقت الإقناع والمحاورة، والآن نحن على أبواب حرب، وأبو سفيان ليس بالرجل السهل فهو من دهاة العرب، واستطاع أن يقيّم الموقف بأسرع وقت وبصورة واقعية، ولذلك تلطّف في الحوار وأجاب بصورة تجمع بين الموافقة وعدم الاقتناع الكامل، فقال أبو سفيان: (بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً)، وبعد مدح الرسول ﷺ لم يجاوب إجابة مباشرة قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن قال: لو كان هناك آلهة أخرى كاللات أو هبل أو غيرهما لدافعت عنا، فانتقل معه الرسول ﷺ إلى النقطة الأصعب: وهي الاعتراف بنبوة الرسول ﷺ: لأن العرب ما كانوا ينكرون أن الله عز وجل هو الخالق، ولكنهم كانوا يشركون معه أصنامهم، أما قضية النبوة والرسالة فهذه كانت مرفوضة عندهم تماماً، فقال له الرسول ﷺ: (ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟) فـ أبو سفيان حتى هذه اللحظة لم يقتنع بقضية الإيمان، وهو لا يريد في نفس الوقت أن يكذب وهو سيد قريش، وكان كما يقول عن نفسه: وكنت امرأ أتكرم على الكذب، وفي نفس الوقت لا يريد أن يأخذ موقفاً حاداً تكون فيه نهايته، وإنما قال أبو سفيان: (بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن)، أي: أنه وإلى هذه اللحظة لم يكن مقتنعاً بنبوته ﷺ ، فهو متردد، لا يتصور أبو سفيان أن تنهار مقاومته كلها في لحظة، وهنا تدخل العباس رضي الله عنه ليدرك أبا سفيان فـ العباس مدرك صعوبة الموقف، واحتمال قتل أبي سفيان وغزو مكة وإهلاك قريش احتمال وارد جداً، وعمر بن الخطاب صرّح بذلك في اليوم الذي قبيل هذا اليوم، فقال العباس في منتهى القوة: (ويحك يا أبا سفيان أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك)، وهذا ليس إكراهاً في الدين، بل هو رحمة؛ لأن قتل أبي سفيان في هذا الموقف لا يستنكره أحد؛ فهو يسمى في أعراف

الدول: بمجرم الحرب؛ لأنه دبر اغتيالاً جماعياً قبل ذلك لسكان المدينة المنورة في غزوة الأحزاب، هذا غير فتنة الناس عن دينهم طول سنوات مكة والمدينة، غير نقضه العهد مع الرسول ﷺ في صلح الحديبية، فقد أصبح حلال الدم، وهذا في عرف الجميع مقبول، وإسلامه يرفع عنه عقوبة مستحقة وله الخيار، فـ أبو سفيان رجل واقعي فقد أدرك خطورة الموقف ولذلك نطق بالشهادتين مباشرة: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، وأعلن إسلامه أمام الرسول ﷺ، والعباس رضي الله عنه صديق قديم لـ أبي سفيان، ويرى الأزمة التي وضع فيها أبو سفيان، ويرى الإنهيار الذي تعرض له، ولهذا طلب العباس رضي الله عنه من الرسول ﷺ طلباً ليخرج أبا سفيان من هذه الأزمة، فقال: (يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً). هنا بدأ الرسول ﷺ يفكر في الأمر، ومن الواضح أن إسلام أبي سفيان كان إسلام اضطرار، فهو لم يقتنع بعد بالنبوة، وإن لم يشعر بالانتماء الحقيقي للنظام الجديد، فقد ينتهز أي فرصة للانقلاب على المسلمين، وأبو سفيان عظيم مكة لعدة سنوات، فإن لم ينزله ﷺ منزله فإن هذا سيؤثر سلباً لا شك على أبي سفيان وعلى أهل مكة جميعاً، ثم إن الرسول ﷺ إذا أعطى أبا سفيان شيئاً فهو سوف يستخدمه لصالح الإسلام، وسيكون أبو سفيان من رجاله وولاته بدلاً من أن يكون من أعدائه، وقد يرى ذلك بقية زعماء مكة فيطمعون في شيء من سلطان المسلمين كما أخذ أبو سفيان؛ ولهذا الرسول ﷺ قرر أن يعطيه شيئاً، ولكن الرسول ﷺ في ذلك الوقت لا يملك مالاً كثيراً يليق بزعيم مكة، ولا يستطيع أن يعده بإمارة؛ لأنه لم يستوثق بعد من صدق إيمانه؛ لأن الظاهر أنه أسلم مضطراً، وقد يؤذي المسلمين بإمارته سواء على مكة أو غيرها، ففكر الرسول ﷺ في إعطائه شيئاً ينفع ولا يضر، ما هو هذا الشيء؟ قال ﷺ: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن) فالرسول ﷺ خصه بخصيصة تجعله مميزاً على أقرانه

من أهل مكة، وهي أن داره أصبحت مأوى لأهل مكة وأماناً لهم. لكن المتدبر حقيقة في الأمر يجد أن النبي ﷺ أعطاه شيئاً بلا خسارة، هذا الشيء لا يقدم ولا يؤخر كثيراً عند المسلمين، بينما هو يكسب قلب أبي سفيان ؛ لأن أي إنسان يُغلق عليه بابه سيكون في نفس الأمن الذي في دار أبي سفيان ، أي أنه ليس هناك مزية واضحة، لكن جعل له نوعاً من الفخر الشرفي الذي ينفع ولا يضر، وهنا نجد التوازن الرائع. نجد أيضاً أن أبا سفيان بهذه المنحة التي أعطاها له الرسول ﷺ سيدخل إلى مكة دافعاً للناس أن يدخلوا بيوتهم، وألا يقاوموا، وفي هذا تسكين لثورة الغضب في داخل مكة المكرمة، وفي هذا تسهيل لفتح مكة المكرمة دون خسائر كبرى، إنها حكمة سياسية هائلة، وفقه دعوي على أعلى مستوى، لكن هنا ملمح مهم جداً نريد أن نقف عليه وهو أن الرسول ﷺ، بهذا القرار، وهو قرار تأمين من دخل دار أبي سفيان أو المسجد أو من لزم بيته بهذا القرار يكون قد أصدر قرار حظر تجوّل مؤقت في مكة، ومنع الناس من السير في شوارع مكة؛ لأن هذا القرار سيقصر الأمان على من دخل بيته أو بيت أبي سفيان أو المسجد، أما من لم يدخل بيته وسار في الشارع بغض النظر عما يفعله في الشارع فهو غير آمن، هذا حظر تجوّل ليمنع الناس من أي فرصة للمقاومة، وفي نفس الوقت ليمنع القتل العشوائي في أهل مكة، فهذه عملية عسكرية خطيرة جداً، ونريدها أن تتم بأقل خسائر ممكنة من الطرفين. هذا الفعل وإن كان يتبدى فيه الحزم الواضح من رسول الله ﷺ إلا أنه يظهر الرحمة عنده ﷺ، فهو لا يريد إراقة دماء أهل مكة، مع أن دماء المسلمين سالت غزيرة قبل ذلك.

أخذ النبي ﷺ قرار حظر التجوّل في مكة، وهذا يشبه في زماننا قانون الطوارئ، فأحياناً يتخذ هذا القانون في ظروف صعبة خاصة تمر بها البلد، لكن الرسول ﷺ لم يطبّق هذا القانون الخاص الاستثنائي لمدة سنة أو سنتين أو عشرة أو عشرين أو خمسة وعشرين سنة، ولكن طبقه

عدة ساعات فقط، وهذا دليل قوته ﷺ، ودليل قوة حكومته ومدى تجانس هذه الحكومة مع الشعب الذي يُحكم، حتى وإن كان هذا الشعب هو شعب مكة الذي حارب الرسول ﷺ سنين وسنين. لا شك أن الرسول ﷺ كان يدرك أن طول مدة هذه الطوارئ ستترك انطباعاً سلبياً عند الشعب، يوحي بغياب الأمن والأمان في الدولة، ولهذا سارع بانتهائها.

الرسول ﷺ خاطب أبا سفيان في البداية بالقوة والحزم، ثم بعد إسلامه أعطاه شيئاً يفخر به، ويمتلك قلبه بهذا الفخر مع عدم فقد الدولة الإسلامية لأي شيء، بالعكس فقد استخدمه ليفتح الطريق لجيوش المسلمين لتدخل مكة بغير قتال، ومع كون المشهد في ظاهره قد انتهى إلا أن الرسول ﷺ أراد ألا يترك أي فرصة للشيطان مع أبي سفيان ، وقد يكون إسلام أبي سفيان هنا إسلاماً عارضاً جداً للخروج من المأزق فقط، فأراد الرسول ﷺ أن يزلزل معنويات أبي سفيان حتى لا يبقى عنده أي أمل في المقاومة، فماذا فعل الرسول الحكيم ﷺ؟

أمر الرسول ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يقف بأبي سفيان عند مكان ما يشاهد فيه الجيوش الإسلامية وأعدادها وعدتها وتنوع أفرادها، وتعدد قبائلها، لقد أراد ﷺ أن يريه الأحزاب المؤمنة، فشتان بين هذه الأحزاب وبين الأحزاب التي قادها أبو سفيان قبل ذلك؛ ليعلم أبو سفيان أنه لا طاقة له فعلاً بهؤلاء، قال الرسول ﷺ للعباس : (يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها) فنفذ العباس الأمر النبوي وأخذ أبا سفيان وأوقفه عند المنطقة التي ذكرها ﷺ، ووقف أبو سفيان يشاهد العرض العسكري الإسلامي المهيب، جنود الله كما سماها الرسول ﷺ، وانبهر أبو سفيان فعلاً وفقد كل أمل في المقاومة، وانبهار أبي سفيان ليس لأنه أول مرة يشاهد فيها هذه الأعداد، لا، بل قد شاهد هذه الأعداد منذ ثلاث سنوات تقريباً في غزوة الأحزاب، رأى 10000 مقاتل، بل كان هو يرأسها جميعاً، وإنما انبهر لأمور:

أولاً: لأن الله عز وجل يلقي الجلال والرهبة والهيبة على جنوده سبحانه وتعالى، وفي ذات الوقت يلقي الرعب في قلوب أعداء الدين، فيرون أحد المسلمين عشرة، ويرون القوة اليسيرة من المسلمين قوة هائلة.. وهكذا.

ثانياً: أنه رأى في هذه الجيوش عدة قبائل كانت تربطه بهم علاقات قوية جداً، لم يكن بينه وبينها عداء يذكر، فإذا بهذه القبائل جميعاً تجتمع تحت راية رسول الله ﷺ.

ثالثاً: وحدة الصف التي رآها أبو سفيان ، واجتماع الجميع على قلب رجل واحد، والألفة والمودة والصلابة في مشيتهم وفي تصميمهم، وهذا الكلام كله يزلزل أبا سفيان .. مشهد يدعو إلى انبهار أي مراقب. لا شك أن انبهار أعداء الأمة بالصف المسلم المتحد أمر لا ينكر، فكم رأينا من قوى عالمية تخشى طائفة يسيرة من المسلمين لا لشيء ولكن لقوة إيمانهم ووحدة صفهم وحسن إعدادهم، والتاريخ يتكرر.

نتنقل إلى وصف العباس رضي الله عنه لحالة أبي سفيان عند رؤية الجيوش الإسلامية.

قال العباس : ومرت به القبائل على راياتها، فكلما مرت قبيلة قال أبو سفيان : من هؤلاء؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم؟ ثم تمر القبيلة الأخرى فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة؟..، وهكذا كلما مرت قبيلة سأل من هؤلاء؟ فيرد العباس بنو فلان.. وهكذا، فيقول: ما لي ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء، وهذه الكتيبة فيها المهاجرون والأنصار كما يقول العباس بن عبد المطلب : لا يرى منهم إلا الحدق. أي: أن الكتيبة مغطاة بالدروع والسلاح لا ترى إلا أعينهم من خلال الدروع، قال أبو سفيان وهو في أشد حالات الانبهار: (من هؤلاء يا عباس؟) قلت: (هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار)، قال أبو سفيان في منتهى اليأس: (ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً)، قلت: (يا أبا سفيان إنها النبوة)، فقال: (فنعم إذاً)، قلت: (النجاء إلى قومك)، قال: فخرج أبو سفيان حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: (يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به)، وهنا يحقق الغرض الذي كان الرسول ﷺ من أجله أعطاه هذا الفخر، فهذا يمنع قريشاً من المقاومة، ويحقن دماء قريش ودماء المسلمين جميعاً، فقه سياسي عال جداً، قال: (هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به)، ثم قال: (فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)ولم يقل: من دخل داره، ولكنه اكتفى بما هو له؛ ليظهر فخره: (فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)، فقامت إليه امرأته وهي هند بنت عتبة وهي من أشد المقاومين للإسلام ومن أشد المحاربين له، فأخذت بشاربه وقالت للجميع: (اقتلوا الدسم الأحمس -أي: السمين- فبئس من طليعة قوم)، ثم قال: (ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)، فتجمع الناس عليه وقالوا له: (ويلك وما تغني عنا دارك؟) فقال: (ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن)، فتفرق الناس ودخلوا دورهم والمسجد. لقد أصبح أبو سفيان في نهاية اليوم مدافعاً عن دخول الرسول ﷺ إلى مكة المكرمة، فاتحاً الطريق له.

خطة الرسول ﷺ العسكرية لدخول مكة

عند اقتراب الرسول ﷺ من مكة بدأ يضع الخطة العسكرية لدخول مكة، فقسّم جيشه إلى أربعة فرق: فرقة على رأسها خالد بن الوليد رضي الله عنه، وهذه تدخل من جنوب مكة، وهي فرقة فرسان قوية جداً.

الفرقة الثانية: على رأسها الزبير بن العوام رضي الله عنه وتدخل من كداء شمال مكة المكرمة، وهي أيضاً فرقة فرسان. وهاتان الفرقتان تحاصران مكة كأنها بين فكي كماشة.

الفرقة الثالثة: هي فرقة من الرجّالة المشاة بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

أما الفرقة الرابعة: فهي فرقة الأنصار رضي الله عنهم وعلى رأسها سعد بن عبادة رضي الله عنه وأرضاه، وفي هذه الفرقة كان يسير رسول الله ﷺ ، والرسول ﷺ أمر الفرق الأربع بالالتقاء عند الصفا، كل فرقة تأتي من ناحية وتدخل مكة المكرمة ثم يلتقون جميعاً عند جبل الصفا بالقرب من البيت الحرام.

معظم الناس في مكة استمعوا لكلام أبي سفيان ودخلوا الأماكن الآمنة، إما أنهم دخلوا المسجد الحرام، أو دخلوا بيوتهم، أو دخلوا دار أبي سفيان، لكن بعض زعماء قريش غير أبي سفيان قرروا القيام بمحاولة يائسة للمقاومة لعلها تنجح مع جمع أوباش قريش؛ العبيد والفقراء وعوام الناس، فهؤلاء الزعماء يدفعون بهؤلاء الأوباش إلى قتال الجيش الإسلامي، وكان يرأس هؤلاء عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وهما من أشهر فرسان قريش، وكانت النتيجة في حسابات زعماء قريش أحد أمرين: إما نصر، وسيكون هذا النصر للسادة، وإما هزيمة فعندها سيسلمون للرسول ﷺ ما يريده، ولو كانت الهزيمة قاسية وفقد الجيش؛ لأن الجيش هم من الأوباش الذين لا قيمة لهم عندهم، وهكذا هي الجيوش العلمانية، النصر للسادة، والتضحية والبذل للعبيد. أقصى أحلام الجندي المنتصر في الجيوش العلمانية أن يعطى نيشاناً أو عدة عشرات أو مئات من الجنيهات، وعند الهزيمة يضحون بالآلاف والملايين، أما السادة في الجيوش العلمانية فيحتفلون بالنصر ولا يدفعون أثمان الهزائم، وهذا الكلام خلافاً للجيوش الإسلامية تماماً، فالرسول ﷺ كان يقاتل مع جنوده كأحدهم تماماً، يعاني كما يعانون ويتعرض للخطر كما يتعرضون، والغنائم في حالة الفوز توزّع على جيش المنتصر، والهزيمة يشترك في دفع ثمنها الجميع. هذا الأمر يزرع الانتماء في قلوب الجميع بصورة تلقائية طبيعية، فهذا هو الوضع في الجيوش الإسلامية، لكن الوضع في مكة كان غير هذا، فقد كان الوضع في

مكة عبارة عن قبول المعظم من الناس بدخول البيوت وتجنب القتال، إلا فرقة من العبيد والفقراء يقودهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وكانت متمركزة عند منطقة تسمى الخندمة في جنوب مكة، وهذه الأخبار تصل الرسول ﷺ، ومن ثم أصدر الرسول ﷺ عدة أوامر، أصدر ثلاثة أوامر رئيسية:

الأمر الأول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم، فليس الغرض من الفتح هو الانتقام من أهل مكة، رغم كل التاريخ الأسود لكفارها، لكن الغرض هو حكم هذه البلدة الطيبة بالإسلام، وتعليم الناس دين رب العالمين سبحانه وتعالى، وهذا حكم عام ينطبق على كل الحروب الإسلامية، ورأيناه في جميع الفتوحات الإسلامية.

الأمر الثاني: إذا لقيتم أوباش قريش الذين يقاتلون فاحصدوهم حصداً، في مقابل الرحمة في الأمر الأول هناك الحزم والقوة في الأمر الثاني، فلا بد أن يرى أهل الباطل قوة المسلمين وبأسهم، وعندها ستلين قناتهم، وسيسلس قيادهم، وهذا أحفظ لدمائهم ودماء المسلمين.

الأمر الثالث: إهدار دم مجموعة من كفار مكة، وهذه المجموعة ارتكبت جرائم شنيعة في حق الدولة الإسلامية، وهي جرائم لا تغتفر، حتى إن رسول الله ﷺ وهو المشهور بالرحمة والمعروف بالرفق واللين يقول في حقهم: (اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة) وكانوا بضعة عشر رجلاً وامرأة، وكانت هذه دلالة واضحة جداً على جدية الدولة الإسلامية، وعدم قبول الدولة الإسلامية بأي حال من الأحوال أن يسخر أحد منها أو من رموزها، وخاصة أن معظم هؤلاء الذين أُهدر دمهم كانت جريمتهم هي سب الرسول ﷺ والسخرية منه، والتعريض به والتهكم عليه، ولا يخفى على أحد أن الطعن في رسول الله ﷺ ليس كالطعن في أي قائد؛ لأنه ليس مجرد زعيم للدولة الإسلامية، بل هو ناقل عن رب العزة، ورسول من رب العالمين سبحانه وتعالى، فالطعن فيه طعن في دين وشرع وقانون وكيان الدولة الإسلامية، وهو ما لا

يجب أن ينسى بسهولة؛ ولهذا كان الأمر الصارم: (اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة)، وبعضهم قتل فعلاً وبعضهم تاب، وعاد إلى الرسول ﷺ وأعلن التوبة الصريحة بين يديه وقبل منه الرسول ﷺ.

موقف الرسول ﷺ من إرادة سعد بن عبادة مقاتلة أهل مكة يوم الفتح

دخلت الجيوش الإسلامية مكة كما خطط لها رسول الله ﷺ، ومكث معظم أهل مكة في بيوتهم وكانت شوارع مكة في الأغلب خالية من المارة، وكانت رغبة الرسول ﷺ الأكيدة ألا يحدث قتال، وخاصة في هذا البلد الحرام، فهي أحب البلاد إلى قلبه ﷺ، ومع وضوح هذه الرغبة في كلام وأفعال الرسول ﷺ إلا أن بعض الصحابة كانت تراودهم أحلام الانتقام ممن أذاقوا المسلمين العذاب ألواناً، من ذلك أن سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الأنصار وقائد كتيبة الأنصار قال في حماسة عند دخوله مكة: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة)، وهذه الكلمات تعبر عن رغبة في القتال، مع أن هذه الكلمات لها خلفية شرعية ولها منطق مقبول إلا أنها لم ترض الرسول ﷺ، فالخلفية الشرعية أن الرسول ﷺ قال: (إن مكة قد أحلت له ساعة من نهار) القتال في ذلك الوقت قتال شرعي، لكن الرسول ﷺ كان يريده فقط عند الاضطرار، وأن الأصل ألا نقاتل، ولكن منطق سعد بن عبادة هذا منطق مفهوم ومقبول، فالمنطق كان يؤيد هذا الأمر في رأي العموم من الناس؛ فمكة الآن محكومة بأهل الكفر وقتالهم واجب، فهؤلاء هم الذين عذّبوا المؤمنين، وهم الذين أخرجوا الرسول ﷺ آذوه وأصحابه قبل ذلك، بل إن سعد بن عبادة قد تعرض لأذى قريش بصورة مباشرة، وارجعوا إلى درس بيعة العقبة الثانية ففي آخر البيعة أمسك المشركون بـ سعد بن عبادة وضربوه ضرباً مبرحاً مع كونه سيد الخزرج، ومن الشخصيات الهامة جداً في الجزيرة العربية، ولا شك أن هذه الحادثة تركت في نفسه أثراً وأراد أن يعاملهم بالمثل فقال مثل هذه الكلمات، ومع كل هذه المبررات إلا

أن الرسول ﷺ لم يكن يريد قتالاً فعلاً، ووصلت إليه كلمة سعد بن عبادة عن طريق أبي سفيان، وأبو سفيان ارتعب عند سماع كلمة سعد بن عبادة هذه، وأسرع إلى الرسول ﷺ يستوثق من أمر الأمان لأهل مكة، فقال ﷺ عندما سمع هذه الكلمات: (اليوم يوم المرحمة) يرد على كلمة سعد: اليوم يوم الملحمة، قال ﷺ: (اليوم يوم المرحمة، هذا يوم يعظّم الله فيه الكعبة ويوم تُكسى فيه الكعبة) فالرسول ﷺ صحح المفاهيم ولم يكتف بذلك، لقد خشي ﷺ أن يأخذ سعد بن عبادة فرقته من الأنصار بهذه الروح القتالية فيتساهل في أمر القتال، لذلك نزع الراية منه وأعطاها لغيره، لكن بفقه دعوي رائع جداً أراد أن يطيب خاطر سعد بن عبادة ولا يؤثر على نفسيته وخاصة أنه زعيم الخزرج، فأعطى الراية لـ قيس بن سعد بن عبادة، فكان قراراً في منتهى الحكمة أرضى به كل الأطراف، أرضى سعد بن عبادة وأرضى نفسه ﷺ بتنفيذ القرار ألا يقاتل إلا من قاتل، وأرضى أبا سفيان الذي اشتكى إليه هذه الكلمة القاسية عليه، وخاصة أنه قد أعطى أماناً لأهل مكة.

دخلت الجيوش الإسلامية مكة من كل مكان، ولم تلق قتالاً يذكر إلا في جنوب شرق مكة كما ذكرنا عند منطقة اسمها الخندمة، حين تزعم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية أوباش قريش وقاتلوا في هذه المنطقة، والذي دخل من الجنوب من المسلمين خالد بن الوليد رضي الله عنه بفرقة قوية من الفرسان، ومع كون خالد رضي الله عنه صديقاً قديماً وحميماً لـ عكرمة ولـ صفوان إلا أنه كان متجرداً تمام التجرد، وقاتل قتالاً شديداً رائعاً تطاير من حوله المشركون، وما هي إلا لحظات حتى صارت الفرقة المشركة ما بين قتيل وأسير وفار، وهرب صفوان بن أمية وكذلك عكرمة بن أبي جهل هربا من مكة بكاملها، وخمدت المقاومة تماماً في مكة المكرمة، وفتحت مكة أبوابها لخير البشر ﷺ يدخلها آمناً مطمئناً عزيزاً.

لعل هذه هي أعظم لحظات السيرة النبوية فهي اللحظة التي مسحت آثار رحلة طويلة من المعاناة والألم، واللحظة التي انتظرها المسلمون أكثر من عشرين سنة، واللحظة التي سيحكم فيها حرم الله بشرع الله عز وجل، ثلاث عشرة سنة متصلة في مكة من الألم والتعذيب والاضطهاد، أين أولئك الساخرون من الإسلام؟ أين أولئك المتهكمون على رسول الله ﷺ ؟ أين الذين كانوا يقولون: شاعر، أو مجنون؟ أين الزعماء والأسياد والأشراف والقواد؟ أين الجبابرة والطواغيت؟ لا تسمع منهم اليوم إلا همساً.

لا شك أن الرسول ﷺ عند دخوله مكة كان يستعرض شريطاً كاملاً للذكريات، ومر على ذهنه ﷺ وهو يدخل مكة بهذا الدخول العظيم الفاتح، تذكر هنا كانت الطفولة والشباب، وهنا نزل عليه جبريل عليه السلام للمرة الأولى، وهنا كانت خديجة رضي الله عنها، ذكريات 25 سنة كاملة، ذكريات الجهاد والصبر حتى الوفاة. هنا مرت لحظات سعيدة جداً على المسلمين، لحظة يوم أسلم الصديق ويوم أسلم عمر ويوم أسلم عثمان وعلي وحمزة وأبو عبيدة وسعد ذكريات جميلة، هنا دار الأرقم بكل ذكرياته الجميلة أيضاً.

وهنا في نفس الوقت الصبر والكفاح والثبات، فمن هنا خرج المهاجرون إلى الحبشة، ومن هنا خرج المهاجرون أيضاً إلى المدينة المنورة، ومن هنا خرج الرسول ﷺ وصاحبه الصديق في هجرة صعبة في مطاردة شرسة، وزعماء الكفر جميعاً قد جندوا أنفسهم لحربه أو لقتله، يلتفت إلى مكة حال خروجه منها ويقول: (والله إنكِ لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلكِ أخرجوني منكِ ما خرجت) وبعدها تمر الأيام وتمر ثمانية سنين كاملة، أحداث ساخنة، ومواقف صعبة، جهاد ومشقة، وعناء وكفاح، لكن ما غابت مكة عن الذهن لحظة واحدة، وهنا يتحقق حلم السنين، أصبح الأمل واقعاً، وصار الحلم حقيقة، وهناك أناس كثيرون يظنون أن هذا أمر مستحيل، لكن تبقى الحقيقة الواضحة: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي

الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر:44] إنه نصر الله وتدبير الله وتوفيق الله. الرسول ﷺ يدرك ذلك تمام الإدراك؛ لذلك لم يدخل مكة دخول المنتصرين المتكبرين، رافعاً رأسه متعالياً على غيره، ناسباً النصر لنفسه، حاشا لله، ولكنه دخل مكة دخول المتواضعين لله عز وجل الخاشعين له، خفض رأسه ﷺ في تواضع حتى كادت أن تمس ظهر دابته، دخل وهو يتلو سورة النصر، فيذكر نفسه ويذكر المؤمنين حوله ويذكر المؤمنين إلى يوم القيامة، بل ويعلم الناس جميعاً أن النصر من عند الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى إذا قضى شيئاً فلا راد لقضائه: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر:1 - 3].

وصار الموكب المهيب الجليل حتى دخل صحن الكعبة، ليبدأ الرسول ﷺ ومن اللحظة الأولى في إعلان إسلامية الدولة وربانية التشريع، وليرسّخ القاعدة الأصيلة {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام:57].

ونسأل الله عز وجل أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن يرفع رايات الموحدين، وأن يرينا يوماً تفتح فيه بلاد الأرض بالإسلام ويظهر فيه الدين، ويعز الله عز وجل فيه المؤمنين، ويذل فيه المشركين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

39

إســلام مكة

أول ما دخل ﷺ الكعبة المكرمة أمر بتكسير الأصنام التي حولها داخلها، فقد كان حول الكعبة 360 صنماً غير هبل أعظم آلهتهم، فالرسول ﷺ أمر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين بتكسير كل هذه الأصنام وشاركهم في ذلك، وهذا الأمر كان بعد صبر دام 21 سنة كاملة، فقد كان الرسول ﷺ يطوف بالكعبة مدة 13 سنة متتالية؛ الفترة المكية، ولم يفكر مرة واحدة في كسر صنم واحد، وطاف في عمرة القضاء قبل الفتح بعام واحد ولم يفكر لحظة واحدة في كسر صنم واحد من هذه الأصنام، وهذه المفارقة وهذه المقارنة بين الموقفين تحتاج منا إلى وقفة. بعد صبر 21 سنة الآن لا يصبر ﷺ لحظة واحدة، فهو لم يقم الصلاة ولم يكلم الناس ولم يعمل أي شيء قبل أن يكسر الأصنام ويأمر بذلك.

عندما نأتي لندرس سيرة الرسول ﷺ لابد أن نأخذ اهتماماً خاصاً بالأعمال التي قام بها ﷺ، بمعنى أنه إذا بدأ بشيء ما فهذا الأمر مقصود، فكل خطوة من خطواته ﷺ متابعة بالوحي، وفيها رعاية كاملة من رب العالمين سبحانه وتعالى، وهي تشريع للمسلمين، فالرسول ﷺ يوم الفتح لا يصبر دقائق على وجود صنم يعبد من دون الله عز وجل، هذا ما أسميه بـ: فقه الموازنات، وفقه الواقع، وفقه دفع أكبر الضررين، وجلب أكبر المنفعتين. لو كان الرسول ﷺ كسر هذه الأصنام في فترة مكة المكرمة لقامت الدنيا ولم تقعد، ولاستئصل المسلمون بكاملهم

من مكة المكرمة، أما الآن وبعد أن صار ﷺ حاكماً لمكة المكرمة، بل ولأجزاء كبيرة جداً من الجزيرة العربية، وصار في هذه القوة فإنه لا يصبر على وجود مثل هذا المنكر الشنيع من صنم يعبد من دون الله عز وجل، فكسر كل الأصنام، وكسرها وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) بالإضافة إلى كونه لا يرضى عن وجود هذا المنكر، فتكسيره للأصنام كان خطوة سياسية في منتهى الروعة؛ لأن هذه الخطوة كسرت تماماً كل معنويات أهل مكة، وهذه الأصنام ظلت تعبد من دون الله لا أقول عشرات السنين بل مئات السنين في داخل مكة المكرمة، أجيال وراءها أجيال تعبد هذه الأصنام، فهاهي الآن تكسر هذه الأصنام، وكل مشرك كان يعتقد في داخله أن هذه الأصنام ستصيبه ﷺ وأصحابه بضرر أو بسوء؛ لأنهم فعلوا معها ذلك، ومع ذلك لم يحدث له شيء، وكذلك الجيش الإسلامي بكامله لم يحدث له شيء، فظهرت الحقيقة واضحة أمام أعين المشركين أنهم كانوا في ضلال مبين كل هذه السنوات السابقة، هذه خطوة رائعة وهامة جداً لكسر معنويات كفار قريش، فبعد هذا التكسير لهذه الأصنام خارت قواهم تماماً وفقدوا كل أمل في المقاومة، والرسول ﷺ لم يكتف بتكسير الأصنام في مكة المكرمة، بل حرص ﷺ على تكسير الأصنام في كل المناطق المحيطة بمكة المكرمة، فأرسل ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه لكسر العزى، وهي من أكبر الآلهة التي كانت تعبد من دون الله عز وجل، فذهب خالد بسرية وكسر هذا الصنم الضخم صنم العزى، وأرسل سرية بقيادة سعيد بن زيد رضي الله عنه وأرضاه لكسر صنم مناة وهو من أشهر أصنام العرب، وأرسل سرية بقيادة عمرو بن العاص لهدم صنم سواع، وصنم سواع من الأصنام المشهورة عند العرب أيضاً. الرسول ﷺ بنفسه كسر هبل في صحن الكعبة، وأرسل خالد بن الوليد لكسر العزى، وسعيد بن زيد لكسر مناة، وعمرو بن العاص لكسر سواع، لكن بقي صنم مشهور جداً من أصنام العرب وهو صنم اللات، وصنم اللات هذا

كان موجوداً في مدينة الطائف عند قبيلة ثقيف، وهو من أعظم الأصنام عند العرب، ولم يكسر إلا بعد إسلام ثقيف في السنة التاسعة من الهجرة.

لقد كسر الرسول ﷺ كل الأصنام الكبرى التي استطاع أن يكسرها في ذلك الوقت، سواء في داخل مكة أو في المناطق التي حول مكة وبذلك كما ذكرنا سقطت كل معنويات قريش، وحطم تماماً كل أمل عندهم للمقاومة. هذه كانت أول خطوة عملها الرسول ﷺ: تكسير الأصنام في الكعبة وما حولها.

أذان بلال يوم الفتح على سطح الكعبة

الخطوة الثانية كانت هامة جداً، وتضيف معنى مهماً جداً عند قريش في ذلك الوقت؛ ليفقهوا الإسلام على حقيقته، وهي: أن الله عز وجل يعز من انتمى إلى هذا الدين، بصرف النظر عن جنسه وعن لونه وعن قبيلته وعن أي شيء، فمن انتمى لهذا الإسلام فهو عزيز ومن لم ينتم إليه فهو ذليل. رأى المشركون من أهل قريش بعيونهم في ذلك اليوم عندما نادى ﷺ على بلال رضي الله عنه وأرضاه، وأمره أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن الأذان للصلاة، وهذه هي المرة الثانية التي يفعل فيها الرسول ﷺ هذا الفعل، أمر بلالاً رضي الله عنه أن يؤذن في الكعبة في عمرة القضاء، والآن يأمر بلالاً أن يقوم بنفس الأمر، ويصعد بلال رضي الله عنه وأرضاه فوق أشرف بقعة في الأرض، فوق الكعبة البيت الحرام؛ ليرفع الأذان لله عز وجل، الله أكبر، الله أكبر.. إلى آخر الأذان. وبلال رضي الله عنه وأرضاه عندما كان يعذب في مكة قبل الهجرة كان يقول: أحد، أحد، في ذلك الوقت كان يهمس بها همسات لا يسمعها إلا من يعذبه، أما الآن فهو يصدح بالتكبير في كل أرجاء مكة المكرمة، والجميع مسلمهم ومشركهم يستمع إليه رضي الله عنه وأرضاه. هذا الأمر كما ذكرنا كان له أشد الأثر على المشركين، ودليل ذلك ما حدث على سبيل المثال من أبي سفيان بن حرب وعتَّاب بن أَسِيد والحارث بن هشام، فهؤلاء الثلاثة

كانوا قاعدين في فناء الكعبة يستمعون إلى بلال وهو يؤذن، فـ أبو سفيان كان قد أعلن إسـلامه قبل ذلك بين يدي الرسول ﷺ، لكن عتاب بن أسيد كان أحد الشـباب في قـريش، فقـد كـان عمره حوالي 20 سنة ما زال مشركاً، والحارث بن هشام أيضاً كان ما زال مشركاً، والحارث بن هشام هذا هو أخو أبي جهل، فهو أحد كبار الزعماء في مكة المكرمة وأحـد زعـماء بنـي مخـزوم، فقال عتاب معلقاً على أذان بلال رضي الله عنه وأرضاه فوق الكعبـة: (لقـد أكـرم الله أسـيداً – أي: والده أسيد – ألا يكون سمع هذا فسمع منه ما يغيظه، ما وجـد محمـد غـير هـذا الغـراب الأسود مؤذناً)، فقال الحارث بن هشام: (أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته)، فقال أبـو سـفيان: (لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصـى) أدرك أن الرسـول ﷺ نبـي، وسـوف يصل إليه الأمر عن طريق الوحي، فجاءهم ﷺ بعد هذه الكلمات وقـال: (قـد علمـت الـذي قلتم، ثم قال: أما أنت يا فلان فقد قلت كذا وكذا، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا وكذا، فقال أبو سفيان: أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً، فضحك ﷺ، وقال الحارث وعتاب: نشهد أنـك رسول الله.. ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك) واسلموا في هذا الموقف العظيم.

كذلك بنو سعيد بن العاص لما رأوا بلالاً يؤذن على الكعبة قالوا: (لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة)، وقال رجل من قـريش للحـارث بـن هشـام: (ألا ترى إلى هذا العبد أين صـعد؟) فـرد عليـه الحـارث بـن هشـام: (دعـه فـإن يكـن الله يكرهـه فسيغيره)، أعتقد أن هذا الكلام قاله بعد أن أسـلم رضي الله عنـه، ولكـن كـان هـذا في بدايـة إسلامه، وصار بعض قريش يستهزئ ويقلد صوت بلال غيظاً، فقلده أحد الشباب واسمه أبو محذورة الجمحي، وأبو محذورة كان عمره 16 سنة، وكان صوته جميلاً جـداً، كـان مـن أحسـن قريش صوتاً، فلما رفع صوته بالأذان مستهزئاً سمعه الرسول ﷺ، فاكتشف طاقة موجودة عند هذا الشاب، فناداه، فمثل هذا الشاب الصغير بين يديه ﷺ وهو يظن تمام الظن أنه مقتول؛ لأنه

كان يستهزئ بالأذان، فمسح ﷺ صدر وناصية هذا الشاب بيديه الشريفة، فقال أبو محذورة: فامتلأ قلبي إيماناً ويقيناً، فعلمت أنه رسول الله... سبحان . الرسول ﷺ بعد أن آمن هذا الشاب علمه الأذان، وأصبح هو الذي يؤذن لأهل مكة بعد رحيله ﷺ، وظل الأذان في أبي محذورة وعقب أبي محذورة بعد موته إلى فترة طويلة من الزمان. الرسول ﷺ بهذا الأذان وضح لقريش أن الله عز وجل يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأن العزة الحقيقية لا تكون إلا بالإسلام، هكذا فهم القرشيون في هذا الموقف العظيم.

تم الفتح كما رأينا بحرب عسكرية وحرب سياسية وحرب معنوية، والرسول ﷺ أتقن كل هذه الحروب بمنتهى الدقة، الحرب عسكرية أعد إعداداً قوياً جداً للجيش، ووضع خطة محكمة فقد أخفى سيره إلى مكة قدر المستطاع، حتى وصل إلى قريش دون أن تعلم قريش بوصوله إلا على بعد 22 كيلو متر فقط من مكة المكرمة، وقام بحرب سياسية بارعة عندما استخدم أبا سفيان لصالح المسلمين في منع القرشيين من المقاومة عند دخول الجيش الإسلامي إلى مكة المكرمة، ثم مارس الحرب المعنوية بكل تفصيلاتها ابتداء من إظهار العدد الضخم للجيش الإسلامي وإشعال النيران، فقد جعل أبا سفيان يرى الجيوش الإسلامية الكثيرة والقبائل المتعددة، كذلك كسر الأصنام وأذان بلال كل ذلك تحطيم لمعنويات القرشيين وإخماد كل مقاومة عندهم. هذا إعداد باهر ومتقن وحكيم، ويبرز لنا كيف أن الرسول ﷺ كان يجمع بين القيادة وبين النبوة ﷺ، ومع ذلك فالرسول ﷺ برغم هذا الإعداد القوي لم يكتف به ليفتح مكة، بل لجأ إلى وسيلة قلما يلجأ إليها زعيم من زعماء الدنيا بشكل عام...

أخلاقه ﷺ في امتلاك القلوب

وسيلة امتلاك القلوب، فالشعب الذي فتح بلده الآن على يدي الرسول ﷺ يكون في داخله غيظ كبير جداً من المحتل له، سواء كان هذا المحتل من الشرفاء أو من غير ذلك، وكانت هناك

حرب طويلة بينهم وبين الرسول ﷺ، والرسول ﷺ يعلم ما في داخلهم؛ لذلك أراد ﷺ أن يؤلف قلوبهم، فماذا فعل؟ نحن رأينا قبل ذلك أن الرسول ﷺ ألف قلب أبي سفيان بإعطائه الفخر، وأبو سفيان كما ذكرنا زعيم قبيلة بني أمية، وبنو أمية قبيلة كبيرة في داخل قريش، فهو ﷺ ألف قلب زعيم أكبر القبائل القرشية في داخل مكة المكرمة.

موقف ثان رائع منه ﷺ في تأليف قبيلة ثانية كبيرة، وهذا الموقف عندما دخل ﷺ الكعبة المكرمة وصلى فيها، ثم خرج ودعا عثمان بن طلحة رضي الله عنه وأرضاه، وعثمان بن طلحة أسلم في أوائل العام الثامن من الهجرة قبل فتح مكة بعدة شهور، أسلم مع عمرو بن العاص ومع خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار، وبنو عبد الدار من أعظم القبائل القرشية أيضاً وفيها شرف كبير جداً، فهي حاملة مفتاح الكعبة أباً عن جد لعشرات السنين قبل ذلك. دعا الرسول ﷺ عثمان بن طلحة رضي الله عنه وأمره أن يأتي بمفتاح الكعبة، فظن الجميع أن الرسول ﷺ سيأخذ منهم مفتاح الكعبة؛ ليعطيه لأحد أقاربه ليعطيه شخصاً من بني هاشم، بل إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه طلب ذلك صراحة، طلب أن يضم مفتاح الكعبة إلى شرف بني هاشم من السقاية والحجابة، فيكون عندهم مفتاح الكعبة، فيكون ذلك شرف الدهر، لكن الرسول ﷺ أخذ المفتاح ووضعه في يد عثمان بن طلحة رضي الله عنه وأرضاه، وهذا الكلام في منتهى العظمة والحكمة، وحتى تعرف مدى العظمة والحكمة راجع موقفاً من المواقف التي مرت قبل ذلك برسول الله ﷺ في مكة المكرمة قبل أن يهاجر، ويومها كان عثمان بن طلحة هذا من الكفار، وكان قد دار بينه وبين عثمان بن طلحة حوار وطلب منه الرسول ﷺ أن يعطيه مفتاح الكعبة ليدخل الكعبة، لكن عثمان بن طلحة في ذلك الوقت رفض، فقال الرسول ﷺ: (يا عثمان لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت فقال عثمان: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال ﷺ: بل عمرت وعزت يومئذ)، ومرت الأيام

وجاء الرسول ﷺ فاتحاً مكة المكرمة وطلب المفتاح، وعثمان بن طلحة دون تردد أتى بالمفتاح، فهو الآن أصبح من الصحابة المؤمنين البررة، فأتى بالمفتاح ووضعه في يد الرسول ﷺ، وهو يظن أن الأمر سيصير إلى ما قاله ﷺ، وسيعطي المفتاح إلى إنسان غيره، لكن الرسول ﷺ وضع المفتاح مرة ثانية في يد عثمان بن طلحة، وقال: (هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، اليوم يوم بر ووفاء، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم) وظل مفتاح الكعبة مع بني عبد الدار، وهو إلى الآن في نسل بني عبد الدار بكلمة الرسول ﷺ: (خذوها خالدة تالدة). هذا الموقف من أروع المواقف التي استطاع بها الرسول ﷺ أن يكسب قلوب بني عبد الدار جميعاً، فبنو عبد الدار رأت أن الرسول ﷺ أنزل الناس منازلهم حين أبقى لهم على الفخر الذي كان لهم، وبذلك استطاع ﷺ أن يسيطر على الموقف إلى درجة كبيرة في داخل مكة المكرمة. قبل ذلك كسب قلوب بني أمية، والآن يكسب قلوب بني عبد الدار.

لقد كان ﷺ يسير بخطة محكمة، فقد فعل ﷺ أمراً من المستحيل أن تجده في تاريخ أي دولة من الدول حاربت دولة أخرى ولو يوماً واحداً لا عدة سنوات سابقة، لقد وقف الرسول ﷺ في صحن الكعبة في يوم فتح مكة ودعا شعب مكة جميعاً أن يأتوا إلى الكعبة، فأتوا جميعاً، وقد كان موقفهم في منتهى الحرج، بعد صراع طويل جداً وإيذاء للرسول ﷺ، ومصادرة للأموال وللديار، وقتل لبعض الأصحاب، وجلد وتعذيب للبعض الآخر وكذا وكذا من الأمور التي نعلمها، وفصلنا فيها كثيراً في الفترة المكية، وفي الحروب المتتالية بين المسلمين وبين المشركين، بعد كل هذا التاريخ الطويل من العناء مع أهل مكة يسألهم ﷺ سؤالاً واحداً فيقول: (ما تظنون أني فاعل بكم؟) ماذا سيكون رد فعلي معكم بسبب ما فعلتموه معي ومع أصحابي من إيذاء في كل هذه السنوات المتتالية؟ من المفترض أن يأخذ كل هذا الشعب أسرى وسبايا وغنائم؛ لأن هذا فتح عسكري، دخل ﷺ بالقوة إلى مكة المكرمة، أحاطها بعشرة آلاف مقاتل،

فكونه يأخذهم سبايا وأسرى هذا مقبول جداً في عرف العرب، وفي عـرف العـالم أجمـع، لكـن الرسول ﷺ كان واضح الرؤية، فهو لم يدخل مكة ليهلك أهلها، ولم يفتح بلـداً مـن الـبلاد لا مكة ولا غيرها ليهلك أهلها، بل كان دائماً حريصاً على إسلامهم، وإسـلام رجـل واحـد كـان أحب إليه من أموال الدنيا جميعاً. عرف الرسول ﷺ عرف أن قوى أهـل مكـة خـارت، حـين رأوا أصنامهم قد كسرت، وأصبح ﷺ يؤمل كثيراً جداً في إسلامهم، فقد أصبحوا عـلى مقربـة من الإسلام، لم يبق إلا أن يقولوا الشهادة، لذلك قال لهم ﷺ متلطفاً بهم: (ما تـرون أني فاعـل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم)، هم الآن في موقف وأزمة شديدة، والرسول ﷺ عندما قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم لم يقل لهم: أنتم تعرفون هذه العلاقة التي بيني وبينكم من قبـل، وتعرفون أنني أشرف العرب نسباً وأشرف قريش نسباً، وأننـي الصـادق الأمـين، وكـل ذلـك أنكرتموه بعد أن نزلت علي الرسالة، لم يقل كـل ذلـك ولم يعـنفهم، بـل قـال في منتهـى الرحمـة والعفو: (أقول كما قال أخـي يوسـف: لا تثريـب علـيكم اليـوم، يغفـر الله لكـم وهـو أرحـم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)، فأطلقهم جميعاً من غير فداء، مع أنه كان بإمكانـه أن يأخـذهم كلهم أسارى، والدولة الإسلامية في مرحلة النشء تحتاج إلى أموال وتحتـاج إلى طاقـات، ومـع ذلك قال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، لماذا أطلقهم؛ لأن هـذا أدعـى لإسـلامهم وإسـلامهم، أحب إليه -كما ذكرنا- من أموال الدنيا جميعاً، وبالفعـل بعـد هـذا الإطـلاق العظـيم اجتمـع شعب مكة مع رسول الله ﷺ عند الصفا وأخذوا يبايعونه جميعاً على الإسلام إلاقليل القليـل، فمعظم شعب مكة في ذلك اليوم أعلنوا إسلامهم، وانتهـت أحـزان الرسـول ﷺ التـي أخـبر سبحانه عنها بقوله: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:3]، فالرسول ﷺ كان يحزن حزناً شديداً على رجل واحد لم يسلم، فتصور مدى فرحته ومدى سـعادته عنـدما أسـلم شعب مكة جميعاً في يوم واحد. هذا نصر مهيب وفتح من رب العباد سبحانه وتعالى، كما سـماه

ربنا في كتابه الكريم: {نصر الله، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر:1]، وحتى تتصوروا مدى فرحة الرسول ﷺ فأريدكم أن تعودوا بأذهانكم سنوات وسنوات؛ لتتذكروا يوم أن وقف ﷺ في نفس المكان على الصفا يدعو أهل مكة إلى الإسلام فلم يجبه منهم أحد، يقول لهم ﷺ: (والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن على ما تعملون، وإنها لجنة أبداً، أو نار أبداً)، فلم يقتنع أحد من أهل مكة طيلة هذه السنوات الكثيرة إلا القليل، وخرج ﷺ من مكة المكرمة بعد 13 سنة مستمرة من الدعوة، وخرج معه حوالي 160 أو 170 صحابياً من شعب مكة بكامله، وبعد مرور هذه السنوات الطويلة يسلم شعب مكة بكاملهم في يوم واحد، أي نصر؟ وأي عزة؟ وأي سيادة للإسلام؟ نسأل الله عز وجل أن يعز الإسلام والمسلمين.

موقف الرسول ﷺ مع زعماء مكة المشركين يوم الفتح

لقد بقي من أهل مكة بعض الزعماء وبعض الكبراء لم يسلموا، ففر بعضهم خارج مكة المكرمة، وبعضهم اختفى في بيته، وبعضهم طلب الإجارة من بعض الناس، وهؤلاء الذين هربوا جميعاً كان لهم تاريخ طويل مع رسول الله ﷺ، وكان على رأس هؤلاء عكرمة بن أبي جهل الذي فر خارج مكة المكرمة واتجه إلى اليمن، وفر صفوان بن أمية بن خلف الجمحي إلى البحر الأحمر؛ ليلقي بنفسه في البحر منتحراً بعد فتح الرسول ﷺ لمكة المكرمة، وبعد أن فقد كل أمل في أن يكون له موضع أو مكان في مكة المكرمة، وهو من الزعماء، كذلك سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وكان له تاريخ طويل مع الرسول ﷺ، كذلك هند بنت عتبة هناك ناس كثير هربوا من وجه الرسول ﷺ في ذلك الوقت، وكل واحد منهم له قصة، وكل واحد منهم شاء ربنا سبحانه وتعالى شاء أن يدخل الإسلام في قلبه، ولكن بطريقة جميلة جداً على يد الحبيب ﷺ مباشرة.

إسلام سهيل بن عمرو

تعالوا بنا نرى قصتهم واحداً واحداً وفيها من العبر ما فيها، فهذا سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وهو من كبار زعماء قريش، ومن كبار زعماء مكة في التاريخ، وكبير جداً في السن، وعنده الكثير من الأولاد، وهؤلاء الأولاد معظمهم من المسلمين وفي جيش المسلمين الفاتح لمكة المكرمة، فهو بعد أن فتحت مكة المكرمة لم يجد له عوناً من الزعماء الذين كانوا معه؛ فكل واحد فر، ففر هو الآخر ودخل بيته، يقول: (فانقحمت في بيتي وأغلقت علي بابي، ثم يقول: وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل وابنه كان من جنود الجيش الفاتح كان قد أسلم قبل ذلك بزمن، فقال سهيل: وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد ﷺ، وإني لا آمن من أن أقتل)، فـ سهيل بن عمرو ظل يتذكر تاريخه مع رسول الله ﷺ، يقول: (تذكرت أثري عند محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته المعاهدة التي تمت في صلح الحديبية)، لو تذكرون كان سهيل بن عمرو ممثل قريش وزعيم قريش الذي أرسلته ليتفاوض مع الرسول ﷺ في الحديبية، فيجد أنه أثر تأثيراً سلبياً على الرسول ﷺ وعلى أصحابه، ويظن أن الرسول ﷺ سوف يتذكر له هذه المواقف.

ثم يقول سهيل بن عمرو: (ومع حضوري بدراً وأحداً، وكلما تحركت قريش كنت معها، فهو يخاف أن يقتل)، فذهب عبد الله بن سهيل إلى الرسول ﷺ فقال: (يا رسول الله هل تؤمن أبي؟ فقال ﷺ نعم، هو آمن بأمان الله؛ فليظهر)، انظروا إلى هذا التعامل مع أحد كبار زعماء مكة المكرمة، ومدى العظمة في هذا التعامل، بينما عند احتلال أي دولة لدولة ثانية تجد أن الأمراء والوزراء والكبراء في البلد يتتبعون في كل مكان؛ ليقتلوا، أو يسجنوا في السجون فترات طويلة، أو يمثل بهم أو كذا أو كذا، لكن النبي ﷺ يعطي سهيل بن عمرو الأمان، ويقول:

(فليظهر) وانظروا إلى ما سيأتي من حوار بعد ذلك بينه وبين سهيل بن عمرو أحد كبار الـزعماء في مكة المكرمة.

ثم قال ﷺ لأصحابه الذين حوله في ذلك الوقت ومعهم عبدالله بن سهيل بن عمرو: (من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه)، احذروا أن تروعوا سهيل بن عمرو حـين يـأتي للتحـاور معي، (لا يشد أحدكم النظر إليه، فليخرج، فلعمـري إن سـهيلاً لـه عقـل وشرف، ومـا مثـل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع) فـ سهيل عرف المشـكلة التي كانت عنده، والآن هو يريد أن يعود إلى الله عز وجل وإلى رسوله الكـريم ﷺ، فـلا يرفـع أحد إليه النظر، ولا يتهكم أحد عليه بكلمة، ولا يعلق أحد عليه تعليقاً سلبياً بأي صـورة مـن الصور. (إن له عقلاً وشرفاً) هكذا يذكر ﷺ صفة سهيل بهذا التعظيم والتكريم له، مع أنه من ألد أعدائه قبل ذلك. انظروا إلى الرحمة النبوية وإلى فن امـتلاك القلـوب وعبـد الله بـن سـهيل عندما استمع إلى هذه الكلمات طار بها إلى أبيه، فلما ذكر له هذه الكلمات قال سهيل: (كان والله براً صغيراً وكبيراً، وأتى سهيل بن عمرو وأعلن إسلامه بين يدي الرسـول ﷺ) ، وكـما يقـول الرواة بعد ذلك: (كان سهيل بعد هذا الإسلام كثير الصلاة والصوم والصدقة، وخرج مجاهـداً في سبيل الله، وكان أميراً على إحدى فرق المسلمين في موقعة اليرموك).

بهذه المعاملة الحسنة من رسول الله ﷺ امتلك قلوب الناس، فعلاً هـو فـن الـدعوة إلى الله عـز وجل، ليس أبداً تصرف قائد متغطرس احتل دولة من الدول يسوم أهلها العذاب، ولكن هـو التصرف الرحيم من النبي الكريم ﷺ وهو قدوة لنا أجمعين، ولا يخفى عـلى أحـد أن الرسـول ﷺ امتلك قلوب بني عامر جميعاً بتساهله وتسامحه مع سهيل بن عمرو زعيم بني عامر.

مقدمات إسلام صفوان بن أمية

تعالوا نرى موقفه ﷺ مع صفوان بن أمية، صفوان بن أمية بن خلف كان أبوه من أشد المعاندين لرسول الله ﷺ، ومن الذين قتلوا في بدر، وورث صفوان بن أمية هذه الكراهية للإسلام والمسلمين من أبيه، وحارب الرسول ﷺ بكل طاقته، وكان ممن التف على المسلمين في أحد هو وخالد بن الوليد رضي الله عنه، واشترك اشتراكاً كبيراً في قتل سبعين من شهداء الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، واشترك أيضاً في الأحزاب، بل ومن الذين شاركوا في عملية القتال في داخل مكة المكرمة، بل إن صفوان بن أمية قبل ذلك دبر محاولة لقتل الرسول ﷺ، كأنه عداء شخصي بينه وبين الرسول ﷺ، وكما تذكرون هذه المحاولة كانت بينه وبين عمير بن وهب رضي الله عنه وأرضاه، وذكرناها بعد درس بدر، وفيها تعهد صفوان بن أمية لـ عمير بن وهب أن يتحمل عنه عياله وأن يسدد عنه دينه، في نظير أن يقتل عمير رسول الله ﷺ، وقد ذكرنا القصة بتفصيلاتها بعد غزوة بدر، ورأينا كيف أسلم عمير بن وهب في المدينة المنورة، ومرت الأيام وجاء فتح مكة المكرمة وفر صفوان بن أمية لما لم يجد له أي مكان في مكة المكرمة، وعلم أنه لن يستقبل في أي مكان في الجزيرة العربية، فقرر أن يلقي نفسه في البحر؛ ليموت فيه، فخرج في اتجاه البحر الأحمر ومعه غلام اسمه يسار، وليس معه أحد غيره حتى وصل إلى البحر الأحمر، ثم إنه من بعيد رأى أحد الرجال يتتبعه فخاف، وقال لغلامه: (ويحك انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب)، وكان عمير بن وهب صديقاً حميماً لـ صفوان بن أمية قبل أن يسلم، فقال صفوان: (ما أصنع بـ عمير والله ما جاء إلا يريد قتلي، فهو الآن مسلم قد ظاهر محمداً علي)، فقال صفوان بن أمية لما لحقه عمير: (يا عمير ما كفاك ما صنعت بي، حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي) فقال عمير: (جعلت فداك، أنا ما زلت صديقك، وجئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس) إلى آخر الحكاية فـ عمير بن وهب عندما علم أن صفوان

بن أمية هرب من مكة المكرمة، تذكر صديقه القديم صفوان بن أمية، فخاف عليه وخشي عليه وأحب له الإسلام، وأحب له أن يدخل فيما دخل فيه عمير رضي الله عنه ورضي الله عن الصحابة أجمعين، فجاء إلى النبي ﷺ وطلب لـ صفوان بن أمية الأمان، فقال: (يا رسول الله سيد قومي خرج هارباً؛ ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تؤمنه فداك أبي وأمي فقال ﷺ: قد أمنته، فخرج عمير بن وهب حتى وصل إلى صفوان بن أمية كما ذكرنا فقال عمير لـ صفوان: (إن رسول الله قد أمنك)، فخاف صفوان وقال: (لا والله لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها تدل على أن الرسول ﷺ أمنني)، فرجع عمير بن وهب إلى الرسول ﷺ مرة أخرى، وقال: (يا رسول الله جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته، فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها)، فقال الرسول ﷺ: (خذ عمامتي)، انظروا إليه ﷺ يحاول قدر المستطاع أن يأتي بكل إنسان إلى الإسلام: فأخذ عمير العمامة وذهب إلى صفوان بن أمية وقال له: (يا أبا وهب جئتك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبر الناس وأحلم الناس مجده مجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أمك وأبيك، اذكر الله في نفسك) فقال له صفوان: (أخاف أن أقتل)، قال: (قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين).

انظروا كرم رسول الله ﷺ يقول له: تعال لو أردت أن تسلم الآن فأسلم، ولك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، وإن أردت أن تأخذ شهرين كاملين لتفكر فيهما فأنت في أمان، (فهو أوفى الناس وأبرهم ﷺ، وقد بعث إليك بعمامته العلامة التي كان يريدها صفوان بن أمية قال عمير بن وهب: تعرفها؟ قال: نعم).

رجع صفوان بن أمية مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ، وهو ليس أمامه أي طريق آخر، ليس أمامه إلا أن يقبل بهذا الأمان، وهو يعرف أن الرسول ﷺ دائم الحفظ لوعده وعهده فهو الصادق الأمين، فعاد مع عمير بن وهب إلى مكة المكرمة ودخل في الحرم والرسول ﷺ يصلي

بالناس صلاة العصر، فوقفا سوياً حتى ينتهي الرسول ﷺ من الصلاة، فقال صفوان لـعمير بن وهب : (كم تصلون في اليوم والليلة؟) قال: (خمس صلوات)، قال: (يصلي بهم محمد)، قال: (نعم)، فلما سلم الرسول ﷺ وانتهى من صلاته صاح صفوان يخاطب الرسول ﷺ من بعيد قال: (يا محمد إن عمير بن وهب جاءني بعلامتك وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين؟) أي: هل هذا الكلام صحيح أم غير صحيح؟ فقال ﷺ: (انزل أبا وهب ، قال: لا والله حتى تبين لي، قال: بل تسير أربعة أشهر) ليس فقط شهرين، بل خذ أربعة أشهر لتفكر فيها، فترك ﷺ صفوان بن أمية ليفكر، لكن صفوان بن أمية لم يأخذ هذه الشهور الأربعة كاملة للتفكير، بل أسلم قبل ذلك بكثير؛ بهذه المعاملة الحسنة من الحبيب ﷺ.

إسلام عكرمة بن أبي جهل

نأتي إلى قصة واحد من أشد أعداء رسول الله ﷺ في التاريخ كله، هذا هو عكرمة بن أبي جهل وليس فقط مشكلة عكرمة أنه ابن أبي جهل وأنه شرب العداوة هذه المدة الطويلة من أبيه أشد أعداء الإسلام مطلقاً وفرعون هذه الأمة، لكن عكرمة استمر وزاد في العداوة، حتى إن الرسول ﷺ أهدر دمه، وهناك مجموعة من المشركين أهدر الرسول ﷺ دمهم، وقال: (اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة)، وكان من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل، ولعله علم ذلك فكان ممن قاتل في الخندمة يوم الفتح ضد خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولكنه بعد هزيمته فر من مكة المكرمة، وحاول أن يصل إلى اليمن، وذهب إلى البحر ليأخذ سفينة وينطلق فيها إلى اليمن. كانت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ابنة عمه قد أسلمت في يوم الفتح على جبل الصفا مع من أسلم من أهل مكة، فذهبت إلى الرسول ﷺ لتستشفع عنده لـ عكرمة بن أبي جهل أن يؤمنه كما أمّن صفوان بن أمية، لكن موقف عكرمة كان مختلفاً، وكما ذكرنا هو مهدر

الدم، قالت أم حكيم لرسول الله ﷺ: (قد هرب عكرمة منك إلى اليمن وخاف أن تقتله فأمنه، فالرسول ﷺ قال: هو آمن) لم يذكر لها أنه مهدر الدم، ولم يذكر لها التاريخ الطويل له في العداء، بل قال: (هو آمن)، فخرجت أم حكيم الزوجة الوفية تبحث عن زوجها ذهبت حتى وصلت في رحلة طويلة جدا إلى عكرمة بن أبي جهل وهو يحاول أن يركب سفينة في ساحل البحر الأحمر متجهاً إلى اليمن، فكان في حوار مع ربان السفينة التي سيركبها، لقد كان ربان السفينة مسلماً، فقال له قبل أن يركب: (أخلص)، فـ عكرمة بن أبي جهل لا يعرف ما معنى أخلص، قال: أي شيء أقول؟ قال: قل: (لا إله إلا الله)، فقال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، وهو لا يزال في هذا الحوار مع ربان السفينة إذا بـ أم حكيم رضي الله عنها تأتي في هذه اللحظة، فقالت له: (يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس لا تهلك نفسك)، وتدعوه إلى العودة معها إلى مكة المكرمة، فوقف لها عكرمة بن أبي جهل، فقالت له أم حكيم: (إني استأمنت لك محمداً ﷺ)، قال: (أنت فعلت؟) قالت: (نعم، أنا كلمته فأمنك)، فـ عكرمة بن أبي جهل ضاقت عليه الدنيا كلها، أين يذهب؟ هو يريد أن يذهب الآن إلى اليمن، واليمن بكاملها مسلمة كما ذكرنا قبل ذلك في الدروس السابقة، وغير ذلك من بقاع الأرض تتناقص حوله الآن، فالجميع الآن يدخلون في دين محمد ﷺ فماذا يفعل؟ فبمجرد أن قالت له هذه الكلمات أخذ قراراً سريعاً بالعودة معها دون تفكير طويل، وعاد إلى مكة المكرمة وقبل أن يدخل مكة المكرمة إذا بالرسول ﷺ يقول لأصحابه كلمات جميلة جداً، كما ذكرها قبل ذلك في حق سهيل بن عمرو قالها في حق عكرمة بن أبي جهل قال: (يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت).

أي أخلاق كريمة كانت عند رسول الله ﷺ؟ أبو جهل فرعون هذه الأمة ولعنه ﷺ صراحة قبل ذلك، ودعا عليه، وجاء ذكره في أكثر من موضع في القرآن الكريم باللعن عليه، ومع ذلك

الرسول ﷺ يأمر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ألا يلعنوا هذا الرجل فرعون هذه الأمة أمام عكرمة بن أبي جهل؛ لكي لا يؤذوا مشاعر عكرمة، مع أن عكرمة حتى هذه اللحظة لم يسلم بعد، ودخل عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، فلما رآه الرسول ﷺ وثب إليه وما عليه رداء فرحاً به. انظروا إلى أسارير الرسول ﷺ كيف انبسطت عندما رأى عكرمة بن أبي جهل يعود إليه ويأتي إليه وهو على أبواب الإسلام، هو لم يسلم بعد، ومع ذلك كان هذا الاستقبال الحافل من رسول الله ﷺ لواحد من أكبر أعدائه قبل ذلك، وكان من أكبر الذين قاوموه ومنعوه من دخول مكة المكرمة قدر ما يستطيع، فهو الآن يستقبله هذا الاستقبال الحافل.

جلس عكرمة بين يدي الرسول ﷺ وقال: (يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني) -زوجته- فقال ﷺ: (صدقتك فأنت آمن)، فقال عكرمة: (فإلى ما تدعو يا محمد)، قال: (أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وأخذ يعدد عليه أمور الإسلام، حتى عد كل الخصال الحميدة)، فقال عكرمة : والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل). كل هذا الكلام كان يسمعه قبل ذلك سنوات وسنوات ولكنه لم يعقله، فالقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

في هذه اللحظات شعر عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أن كل ما ذكره ﷺ حق، وأن كل ما تحدث عنه قبل ذلك في مكة وغيرها كان صدقاً وكان حقاً، وأنه من كلام النبوة والوحي حقاً، هنا قال عكرمة بن أبي جهل عن ذلك: (قد كنت -والله- فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً)، ثم قال عكرمة فإني: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله) في لحظة واحدة انتقل من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان؛ بسبب حسن المعاملة والرفق بالناس، فالرسول ﷺ يتلطف مع عكرمة مع ما كان بينه وبينه من

العداء، فامتلك قلبه في لحظات فدخل في الإسلام، وانظروا إلى جهاده رضي الله عنه وأرضاه بعد ذلك مع المسلمين، في هذه اللحظات قال عكرمة لرسول الله ﷺ بعد أن أسلم: (يا رسول الله علمني خير شيء، قال: تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله فقال عكرمة : ثم ماذا؟ قال ﷺ: تقول: أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد، فقال عكرمة هذه الكلمات، فقال له الرسول ﷺ: لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيته لك)، أي: أي شيء تريده اطلبه، فماذا طلب عكرمة بن أبي جهل في ذلك الوقت؟ هل طلب مالاً؟ هل طلب سلطاناً؟ هل طلب إمارة على شيء من الأشياء؟ ماذا طلب عكرمة بن أبي جهل ؟ قال: (فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير سرت فيه، أو مقام لقيتك فيه أو كلام قلته في وجهك أوأنت غائب)، فقال ﷺ: (اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض في وجهي أو أنا غائب عنه)، فقال عكرمة : (رضيت يا رسول الله)، ثم قال: (لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله) ثم اجتهد في القتال رضي الله عنه وأرضاه طيلة حياته، سواء في حروب الردة أو في فتوح الشام حتى قتل شهيداً رضي الله عنه وأرضاه في اليرموك. كيف بدل الله عز وجل حياته كاملة بحسن استقبال الرسول ﷺ له وبعفوه عن كل ما بدر منه معه ﷺ ومع المسلمين؛ (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، وخير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت).

هذه كانت قصة عكرمة بن أبي جهل ودخوله في الإسلام، وإضافة قوته رضي الله عنه وأرضاه إلى قوة المسلمين.

إسلام فُضالة بن عُمير الليثي

نأتي أيضاً إلى قصة إسلام واحد من أشد أعداء الرسول ﷺ وهو فضالة بن عمير الليثي، وهذا الرجل من شدة عدائه للرسول ﷺ أنه قرر أن يقتل الرسول ﷺ في يوم الفتح والرسول ﷺ في وسط الجيش الكبير عشرة آلاف، وإذا قتله فضالة بن عمير فلاشك أنه مقتول، ومع ذلك سيضحي بنفسه ليقتل الرسول ﷺ من شدة كراهيته له، بجوار الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا من الرسول ﷺ وهو يحمل السيف تحت ملابسه، قال له ﷺ: (أفضاله؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله، فقال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فالرسول ﷺ ضحك وقال: استغفر الله يا فضالة، ثم وضع يده على صدر فضالة فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه)، وأسلم فضالة رضي الله عنه وأرضاه وحسن إسلامه، حتى إنه لما عاد من عند الرسول ﷺ إلى أهله فمر بامرأة كان يتحدث إليها في الجاهلية، فقالت المرأة له: هلم إلى الحديث، فقال: لا، يأبى عليك الله والإسلام. انظروا تغير 180 درجة، بعد هذا الإسلام أصبح رجلاً آخر غير الرجل الأول. هكذا يصنع الإسلام الرجال والنساء على نهجه، بصورة تكاد تكون مختلفة تمام الاختلاف عن حياته قبل الإسلام.

إسلام هند بنت عتبة

من الذين نحب أن نقف مع إسلامهم وقفة هامة وطويلة، ليس مع إسلام أحد رجال مكة أو أحد زعماء مكة، ولكن مع إسلام إحدى نساء مكة، إحدى النساء اللاتي حاربت الإسلام طويلاً ولمدة سنوات كثيرة، ولها ذكريات مؤلمة جداً مع المسلمين ومع رسول الله ﷺ شخصياً، سنقف مع إسلام هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان رضي الله عنه.

هند بنت عتبة موتورة من المسلمين، قتل أبوها عتبة بن ربيعة في بدر، وقتل عمها شيبة بن ربيعة كذلك في بدر، وقتل ابنها حنظلة بن أبي سفيان أيضاً في بدر، وقتل أخوها الوليد بن عتبة بن ربيعة أيضاً في بدر، فتصور أربعة من أقرب الأقرباء إليها قتلوا جميعاً في بدر، وهم جميعاً من سادة قريش، فالحقيقة موقفها كان في غاية الصعوبة، فقد حملت في قلبها كراهية لم يحملها أحد مثلها إلا القليل، وظلت على هذا الأمر سنوات طويلة منذ بدر وإلى فتح مكة، ست سنوات متصلة، وقبل ذلك أيضاً كانت معادية للإسلام، ولكن ظهرت العداوة بشدة بعد مقتل هؤلاء الأربعة في بدر، وخرجت بنفسها مع الجيش الكافر في موقعة أحد، وحمست الجيش قدر ما تستطيع لحرب المسلمين، ولما فر الجيش من أمام المسلمين في أول المعركة كانت تحثو في وجوههم التراب وتدفعهم دفعاً إلى حرب المسلمين، ولم تفر كما فر الرجال، ثم إنه بعد انتصار أهل مكة على المسلمين في نهاية موقعة أحد قامت بفعل شنيع، قامت بالتمثيل بالجثث، وبدأت تمثل بواحدة تلو الأخرى بنفسها، حتى وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه عم الرسول ﷺ، فبقرت بطنه رضي الله عنه وأرضاه وأخرجت كبده ولاكت من كبده، أي: أكلت من كبده قطعة، فما استساغتها فلفظتها، لكن هذا الموقف أثر بشدة في الرسول ﷺ، وخرجت مع المشركين في غزوة الأحزاب، بل واستمرت في حربها ضد الإسلام حتى اللحظات الأخيرة من فتح مكة، رفضت هند بنت عتبة ما طلبه زوجها من أهل مكة من أن يدخلوا في بيوتهم طلباً لأمان الرسول ﷺ، ودعت أهل مكة لقتل زوجها عندما أصر على مهادنة الرسول ﷺ، ودفعتهم دفعاً إلى القتال؛ تاريخ طويل شرس جداً مع المسلمين.

مع ذلك عندما جلس ﷺ عند جبل الصفا ليبايع الناس على الإسلام جاءت هند بنت عتبة وهي منتقبة متنكرة لا يعرفها ﷺ، والرسول ﷺ كان يبايع النساء في ذلك اليوم مشافهة ما وضع يده في يد امرأة أجنبية قط ﷺ، وكانت بيعة النساء على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن

ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، فبدأت النساء تبايع وقال ﷺ لهن: (بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال) أي: علينا تفصيلات كثيرة بينما الرجال بايعوا بيعة واحدة فقط، ثم قال الرسول ﷺ: (ولا تسرقن، فوقفت هند وقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال ﷺ: خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف)، ثم انتبه ﷺ وعلم أن هذه التي تتكلم معه زوجة أبي سفيان فقال: (وإنك لهند بنت عتبة؟)، فهو ﷺ تذكر في تلك اللحظة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه وما حدث له من هند بنت عتبة، قالت هند: (نعم، هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك)، فهي تعرف تاريخها مع الرسول ﷺ، فالرسول ﷺ دائماً يعفو ويصفح، وأكمل البيعة مع النساء، وقال: (ولا يزنين، فقالت هند: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟! فقال ﷺ: ولا تقتلن أولادكن، فقالت هند قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنت وهم أعلم، هل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر -أي: أنت قتلت آباءهم يوم بدر وتوصينا بأولادهم- فتبسم ﷺ، وضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى على قفاه)، فالرسول ﷺ قدر موقف هند بنت عتبة ومدى صعوبة الإسلام عليها، ومع ذلك هي الآن تسلم عن قناعة، فلما قال ﷺ: ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، فقالت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح، فقال ﷺ: ولا يعصينني في معروف، فقالت هند: والله ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف).

تمت مبايعة نساء مكة جميعاً بما فيهم هند بنت عتبة رضي الله عنها وأرضاها هذه المبايعة المباركة، وسبحان الله حَسُن إسلام هند بنت عتبة ، وكما كانت تخرج مع جيوش الكفار لتحمسها لحرب المسلمين بدأت تخرج مع جيوش المسلمين لتحمسهم لحرب الكفار، ومن

أشهر مواقفها هذا الموقف الذي وقفته في يوم اليرموك، عندما بدأت تشجع المسلمين على القتال في سبيل الله، وعلى خوض غمار المعركة الهائلة ضد 200 ألف رومي، فكانت من أدوات النصر العظيمة في ذلك اليوم المجيد.

الله عز وجل فتح قلوباً غلفاً في ذلك اليوم يوم الفتح، بما لا يمكن أبداً أن يتصور، فمدينة كاملة من أعظم مدن الجزيرة العربية أسلمت بكاملها في ذلك اليوم، ولم يتخلف أحد منهم عن الإسلام.

موقف الرسول ﷺ من إجارة أم هانئ بنت أبي طالب يوم الفتح لبعض المشركين

نريد أن نذكر بموقف من المواقف الرائعة في فتح مكة لإحدى نساء المسلمين، وهي السيدة أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها وأرضاها أخت سيدنا علي بن أبي طالب ، لما نزل الرسول ﷺ بأعلى مكة ودارت الحرب في أسفل مكة بين مجموعة من المشركين وبين سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، هرب رجلان من بني مخزوم ولم يجدا أي ملجأ في ذلك الوقت إلا أن يدخلا عند السيدة أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها؛ لأن زوجها هو هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، فهم من أقارب زوج السيدة أم هانئ ، وطلبا منها أن تجيرهما، وهذا شيء فيه إهانة كبيرة جداً عند العرب، لكن في نفس الوقت هذان الاثنان لم يجدا لهما أي سبيل غير أن يطلبا الإجارة من امرأة، فأجارتهما أم هانئ رضي الله عنها، فما لبث أن دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول: (والله لأقتلنهما)، فأغلقت عليهما الباب رضي الله عنها، وقالت: (قد أجرتهما)، وسيدنا علي بن إبي طالي مُصِّر على أن يقتلهما، فقالت: (نذهب إلى الرسول ﷺ)، فلما سمع ذلك سكت وذهب معها إلى الرسول ﷺ، وعرضت السيدة أم هانئ أمرها عليه وقالت: (يا رسول الله زعم ابن أمي -الذي هو علي بن أبي طالب - أنه قاتل رجلاً أجرته)، فقال ﷺ: (قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت). الرسول ﷺ قبل بإجارة أم هانئ في اثنين

كانا يقاتلان المسلمين، ومع ذلك الرسول ﷺ يجير من أجارت السيدة أم هانئ رضي الله عنها وأرضاها: (قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت).

هذه هي قيمة المرأة في الإسلام، وكما ذكرنا أن أم حكيم بنت الحارث بن هشام تؤمن عكرمة بن أبي جهل مع أنه كان مهدر الدم، وكذلك أم هانئ الآن تؤمن الرجلين بعد أن كانا على مقربة من القتل على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، قبل ذلك أم سلمة كما ذكرنا في الدرس السابق توسطت عند الرسول ﷺ ليقبل توبة أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية بعد أن رفض ﷺ في البداية. مكانة عظيمة جداً وراقية جداً للمرأة في الإسلام، ومنذ الأيام الأولى للإسلام.

موقف الرسول ﷺ من المرأة المخزومية التي سرقت

إن الأحداث في فتح مكة من الصعب أن تحصى في لقاء واحد؛ لأن الأحداث كثيرة جداً، وكنت أود أن أتكلم فيها، لكن الوقت لا يتسع؛ لذلك سأختار بعض الحوادث القليلة التي أعلق عليها تعليقاً سريعاً، ونسأل الله عز وجل أن يجمع بيننا في اللقاءات الأخرى لنفصل في موقف من أهم المواقف اللافتة للنظر في فتح مكة، وهذا الموقف: هو الموقف من المرأة المخزومية التي سرقت، هذه المرأة سرقت بعد أن فتحت مكة، وكانت من النساء اللاتي أسلمن، فهي من بني مخزوم شريفة من الأشراف، وقبيلة بني مخزوم قبيلة كبيرة جداً، وكما يعلم الجميع أن العلاقة بين بني مخزوم وبني هاشم كانت علاقة حساسة جداً، وكان التنافس بينهما على كل الأمور تقريباً، وكان أبو جهل زعيم بني مخزوم، وكان الموقف حرجاً جداً مع هذه القبيلة بالذات، ويخشى من أن تنقلب على المسلمين انقلاباً قد لا يحمد عقباه، ومع أننا رأينا الرسول ﷺ يحاول قدر المستطاع أن يؤلف قلوب القبائل، فألف قلوب بني أمية، وألف قلوب بني عبد الدار، وألف قلوب بني عامر كما ذكرنا في الدرس، لكن هذا حدث مهم مع بني

مخزوم، وقد يفهمه الفاهمون أنه ليس فيه نوع من التأليف لبني مخزوم، لكن نحتاج أن ندرس الموضوع بدقة. هذه امرأة من أشراف بني مخزوم سرقت، فقرر ﷺ أن يقيم عليها الحد وهو أن يقطع يدها؛ لأنها سرقت واكتملت أركان جريمة السرقة، وهنا الرسول ﷺ لم يقل: أريد أن أتألف قلوب بني مخزوم بالعفو عن هذه المرأة التي سرقت، لكنه أقام عليها الحد مضحياً بما قد يحدث من أحداث دامية في داخل مكة نتيجة تطبيقه لهذا الحد، لأجل أن يرينا معنى مهماً جداً ويزرع فينا معنى ينبغي أن نفهمه جميعاً فهماً جيداً دقيقاً، ألا وهو: أنه لا يمكن أبداً لأي إنسان مهما كان نسبه ومهما كان شريفاً ومهما كان عظيماً أن يتغاضى عنها أو يعطلها، أو يقوم بأمر من الأمور يمنع من إقامتها في الدولة الإسلامية، حتى لو كانت العواقب وخيمة، وقرر ﷺ ذلك الأمر وشاع بين الناس أن المرأة المخزومية ستقطع يدها، فذهب بنو مخزوم إلى الرسول ﷺ ليستشفعوا عنده، لكن لم يستطيعوا أن يكلموه مباشرة، فذهبوا إلى أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما فقد كان يسمى بين الصحابة: "الحِب بن الحِب"، كان حب الرسول ﷺ زيد بن حارثة، وأسامة بن زيد هو الحب بن الحب، وكان الرسول ﷺ يحبه حباً جماً، ففي أثناء دخوله مكة المكرمة في يوم الفتح أردفه خلفه، من شدة حبه له رضي الله عنه وأرضاه.

ذهبوا إلى أسامة وقالوا له: استشفع لهذه المرأة ألا تقطع يدها؛ فهي امرأة عزيزة شريفة من بني مخزوم، فـ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخذ الموضوع بسهولة ويسر وذهب إلى الرسول ﷺ ليستشفع لهذه المرأة في حد من حدود الله، فلما كلمه أسامة، تلون وجه الرسول ﷺ وغضب غضباً شديداً، وقال لـ أسامة: (أتشفع في حد من حدود الله أتشفع في حد من حدود الله؟!) حتى إن أسامة بن زيد رضي الله عنهما لم يجد أي مبرر إلا أن يقول: (يا رسول الله استغفر لي يا رسول الله استغفر لي). النبي ﷺ أقام الحد على السيدة المخزومية التي سرقت لم يقبل شفاعة أسامة بن زيد ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ولكنه في آخر اليوم قام وخطب

خطبة ليفهم المسلمين هذا المعنى الدقيق؛ ليضع لهم أسس بناء دولة إسلامية، ليوضح لهم أن العدل أساس الملك حقاً، وتطبيقاً واقعياً في حياة المسلمين، قام ﷺ وقال: (إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها) هكذا في منتهى الوضوح، فحدود الله سبحانه وتعالى لا يمكن أبداً أن نقترب منها، قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة:187] وقال عز وجل: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة:229]، هكذا ينبغي أن نكون مع حدود رب العالمين سبحانه وتعالى.

الرسول ﷺ تألف قلوب الناس بأمور شرفية أو مالية وبأمور مادية هذا أمر ممكن، أما أن يتألف قلوب الناس بتعطيل حد من حدود الله فهذا لا يقبل مطلقاً، مهما كان هذا الذي أخطأ عزيزاً أو شريفاً كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، فأي إنسان وقع في حد من حدود الله لابد أن يقام عليه الحد، وهذه الكلمات التي قالها الرسول ﷺ في خطبته: (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها)، حتى يفهم بني مخزوم أن هذا أمر ليس خاصاً بهم، وأنه لو حدث مع بني هاشم بل لو حدث مع بنته شخصياً -حاشاها أن تفعل ذلك- لو حدث معها لقطع ﷺ يدها.

هذا الموقف مر بأمان، وهدأت بنو مخزوم ولم تفعل شيئاً في ذلك الموقف، وحسنت توبة هذه المرأة المخزومية، وكانت تأتي الرسول ﷺ كثيراً لتسأل عن أمور في الفقه وفي الإسلام فيجيب عنها ﷺ.

موقفه الرسول ﷺ من خزاعة في قتلها لرجل من هذيل ثأراً لقتيل لها في الجاهلية

هذا موقف آخر ففي نفس الغزوة غزوة الفتح حدث أمر آخر يثبت به الرسول ﷺ نفس المعنى في قلوب المسلمين، فبعد مرور يوم واحد من الفتح بلغ النبي ﷺ أن خزاعة حلفاءه عدت على

رجل من هذيل فقتلوه، وهذا الرجل الذي قتل مشرك، وقتلوه برجل قتله في الجاهلية، فغضب ﷺ غضباً شديداً وقام بين الناس خطيباً فخزاعة الآن تأخذ بالثأر لقتيل لها في الجاهلية، وهذا عكس تعاليم الإسلام، وخزاعة تدخل مكة الآن وهي رافعة رأسها؛ لأن الرسول ﷺ فتح مكة من أجل خزاعة، ومع ذلك لا يغفر لها هذا الذنب.

قام ﷺ وخطب في الناس وقال: (يا أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد فيها شجراً، وهي لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله أحلها لرسوله ولم يحلها لكم، ثم قال: يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله) أي: بعد هذه الحادثة سيخير أهل القتيل بين أمرين: إن شاءوا أن يقتل الذي قتل صاحبهم، وإن شاءوا أن يأخذوا الدية، فهم بخير النظرين فليختاروا ما شاءوا. الحدود نفذت على هذا الملأ الواسع وفي هذه الظروف؛ ليعلم أنه لا تفريط أبداً في حدود الله عز وجل. هذه كانت من المواقف الهامة جداً في فتح مكة.

موقفه ﷺ من إقامة وال على مكة بعد الفتح

كان من عادة الرسول ﷺ إذا فتح بلداً أو دخل الإسلام إلى بلد أن يولي عليها أحداً من رجاله، لكن المشكلة أن أبا سفيان كان قبل ذلك زعيم مكة بعد مقتل أبي جهل، ولم يطمئن الرسول ﷺ بعد إلى إسلامه حتى يعطيه إمارة مكة، وبالذات أن مكة أعظم مدن العرب على الإطلاق، فهو لا يستطيع أن يعطيها لرجل لم يثق بعد في إسلامه، ونحن علمنا أن في الحوار الذي دار بينه

وبين الرسول ﷺ لم يكن فيه أبو سفيان حتى اللحظات الأخيرة مقتنعاً تمام الاقتناع بقضية النبوة، فكيف يتصرف الرسول ﷺ؟! إذا أعطى الرسول ﷺ الإمارة لغيره قد يحزن أبو سفيان وينقم على ذلك الأمر ويثور، وقد تثور بنو أمية التي منها أبو سفيان، والرسول ﷺ لا يريد أن تحدث قلاقل أو اضطرابات في مكة وقد أسلمت بكاملها من لحظات قليلة أو أيام قليلة، فالرسول ﷺ في لفتة بارعة أعطى إمارة مكة لـ عتّاب بن أَسِيد رضي الله عنه، وكما ذكرنا أن عتاب بن أسيد كان من شباب مكة، فقد كان عمره حوالي 20 سنة تقريباً، وكان من بني أمية من نفس قبيلة أبي سفيان، فإذا أعطاه الرسول ﷺ إمارة مكة فسيكون فيه تأليف لقلوب بني أمية، ولن تقف بنو أمية طويلاً عند تنحية أبي سفيان عن إمارة مكة؛ لأن الأمير الجديد منها أيضاً، وعتاب بن أسيد شاب لم يتلوث كثيراً بعقائد المشركين، وليس هناك تاريخ عداء طويل بينه وبين المسلمين فيسهل قياده، وبالفعل فإن عتاب بن أسيد حسن إسلامه جداً، وكان كثير الصلاة والصيام والصدقة، وكان من المقربين جداً إلى الرسول ﷺ، واستطاع فعلاً بحكمة أن يحفظ الأمن والأمان في داخل مكة، فلم نسمع عن أي قلاقل في حياته في فترة حكمه لمكة المكرمة، لكن الرسول ﷺ يعلم أن عتاب بن أسيد معلوماته عن الإسلام قليلة جداً؛ لأنه لم يسلم إلا منذ أيام قليلة؛ فلذلك ترك معه معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه؛ ليعلم الناس دينهم، لقد ترك معهم بحراً من بحور العلم معاذ بن جبل، فهو إمام العلماء يوم القيامة وأعلم الناس بالحلال والحرام رضي الله عنه، وأهل مكة فيهم الكثير من العقليات والمفكرين والمبدعين، فهم يحتاجون إلى رجل من علماء الأمة ليجادلهم فيما يختلفون فيه، ولا ننسى أن لهم تاريخاً طويلاً جداً مع الرسول ﷺ، وعندهم شبهات كثيرة قالوها قبل ذلك، وأعلم الناس في الرد عليهم في ذلك الوقت هو معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه، بذلك استقر الوضع في داخل مكة المكرمة، ودخل الناس جميعاً في الإسلام بفضل الله عز وجل.

موقف الأنصار رضي الله عنهم بعد فتح مكة وما كان من الرسول ﷺ تجاههم

يتبقى لنا موقف نحب أن نعلق عليه في ختام هذا الدرس وهو مهم جداً، وهو موقف الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم. رأى الأنصار الأحداث التي تجري في داخل مكة المكرمة وإسلام الجميع، وهؤلاء جميعاً هم أهل وعشيرة ورحم الرسول ﷺ، ولاشك أنهم شاهدوا فرحة وسعادة الرسول ﷺ بهذا الإسلام، وشاهدوا أيضاً استقرار الأوضاع في داخل مكة المكرمة، وإسلام عكرمة بن أبي جهل ، وإسلام سهيل بن عمرو ، وإسلام فضالة بن عمير ، وإسلام قادة مكة بصفة عامة، فالوضع بدأ يستقر جداً في داخل مكة المكرمة، والرسول ﷺ يقف على الصفا يدعو الله عز وجل، والأنصار يقفون تحته يفكرون في وضعهم بعد هذا الفتح، قال بعض الأنصار لبعض: (أما الرجل -يقصدون الرسول ﷺ- فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته)؛ لأنهم يرون تفاعله ﷺ مع الأحداث في داخل مكة. قال أبو هريرة راوي الحديث كما عند مسلم : (وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف عليهم فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي، فلما انقضى الوحي رفع رأسه ﷺ ثم قال: يا معشر الأنصار، قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة في عشيرته، قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: فما اسمي إذاً؟ كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم) أي: أنني سوف أعيش معكم حياتي كاملة، وليس معنى أنني تعاطفت مع هذه الأحداث التي تجري في مكة المكرمة، وأنني فرحت بإسلام هؤلاء العشيرة والأهل والرحم أنني سأبقى في مكة وأترككم. قد ذكرنا في بيعة العقبة الثانية أن الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم قالوا لرسول الله ﷺ: (إن بيننا وبين القوم حبالاً وإننا قاطعوها) فقد بايعوه ﷺ على حرب الأحمر والأسود من الناس، وصرحوا بأنه بعد هذه البيعة هل إذا استقرت الأوضاع في مكة سيعود إليها ﷺ ويتركهم مع اليهود أو غيرهم من الناس، فقال ﷺ: (بل المحيا محياكم والممات

مماتكم، أنا منكم وأنتم مني)، فالرسول ﷺ يؤكد على نفس المعنى الآن ويقول: (ما اسمي إذاً؟ كلا إني عبد الله ورسوله)، أي: مستحيل أن أخالف ما تعاهدت معكم عليه قبل ذلك، (إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم)، قال أبو هريرة: فأقبل الأنصار إلى رسول الله ﷺ يبكون رضي الله عنهم وأرضاهم ويقولون: (والله يا رسول الله! ما قلنا الذي قلنا إلا ضناً بالله ورسوله) أي: ما قلنا هذه الكلمات إلا لأننا نريد الله ورسوله، نريدك أن تكون معنا يا رسول الله، فقال ﷺ: (فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم)، قبل منهم ﷺ هذا الأمر، وقبل منهم هذا الظن الذي ظنوه برسول الله ﷺ وعذرهم رضي الله عنهم وأرضاهم. الأنصار رضي الله عنهم لهم قيمة عالية جداً في ميزان الإسلام، وبذلوا الكثير والكثير رضي الله عنهم، ولم يأخذوا شيئاً لا في الفترة المكية بعد البيعة ولا في الفترة المدنية من أولها حتى هذه اللحظة وإلى آخر حياة الرسول ﷺ، ولذلك الرسول ﷺ شرفهم بكلماته العظيمة، فقال في حقهم: (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار). نحن نعذر الأنصار تماماً في هذا الأمر الذي وقعوا فيه، وعذرهم ربهم سبحانه وتعالى ورسولهم الكريم ﷺ.

كل بذل الأنصار قبل الفتح وبعد الفتح له قيمة عالية جداً؛ لأنه كان في وقت الشدة ووقت العناء ووقت المشقة، ولا يمكن أبداً أن يساويه بذل بعد الفتح، بأي صورة من الصور، ومما يؤكد هذا المعنى الأخير هذه القصة التي أختم بها ، وهي عندما جاء مُجاشع بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه بأخيه مُجالد بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين جاء ليعلن إسلامه بين يدي الرسول ﷺ بعد الفتح، فمجاشع من الذين أسلموا قبل الفتح ومجالد أخوه من الذين أسلموا بعد الفتح، فجاء بأخيه ليبايع بعد الفتح، وقال: (جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة فقال ﷺ: ذهب أهل الهجرة بما فيها)، فقال: (على أي شيء تبايعه، قال: أبايعه على الإسلام والإيمان

والجهاد). الأنصار مكانة عظيمة جداً، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد:10].

40

يوم حنـــين

تحدثنا في الدروس السابقة عن الفتح العظيم فتح مكة، وإسلام معظم أهل مكة، وإضـافة قـوة هائلة للدولة الإسلامية، قوة مكة، وهي ليست قوة بشرية أو اقتصادية فقـط، بـل في الأسـاس قوة دينية واجتماعية وسياسية وأدبية، فحين أصبحت الكعبة المشرـفة في يـد المسـلمين، فإنـه لا يخفى أثر ذلك على العرب الذين كانوا يعظمونهـا جـداً حتـى في زمـان الجاهليـة، وعـادت إلى المسلمين الكثير والكثير من أملاكهم المسلوبة، ومن جديد توثقت العلاقـات بـين الأسر التـي فرقت الهجرة إلى المدينة وقبلها إلى الحبشة بينها وبـين بقيـة أفرادهـا في مكـة المكرمـة، وأصـبح للمسلمين وضع متميز ألقى الرهبة في قلوب كل العرب، وبدأت الكثـير مـن القبائـل تحسـب للمسلمين ألف حساب. ليس من السهل أن تهزم قريش، ليس من السهل أن تفتح مكة، لـيس من السهل أن يقبل سدنة الأصنام وكهنة هبل والعزى ومناة أن يدخلوا في الإسلام.

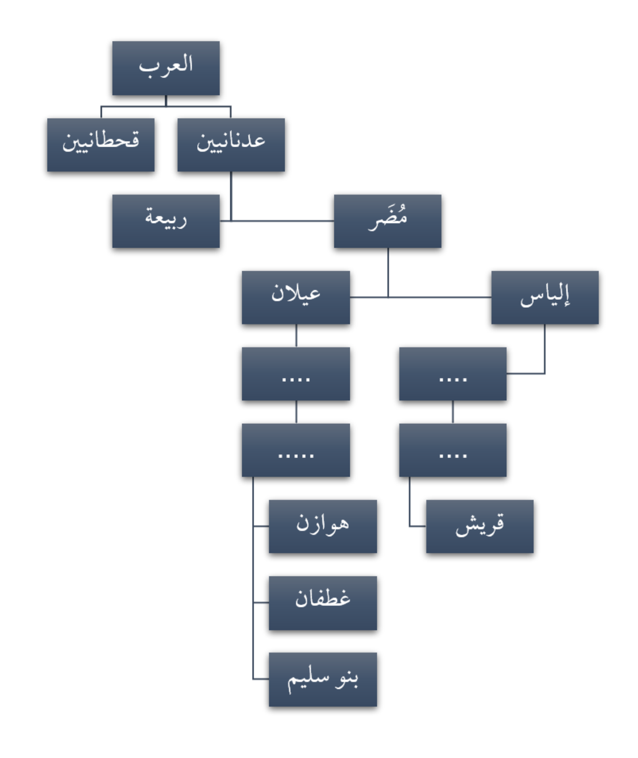
دوافع تجمع قبائل هوازن لمقاتلة الرسول ﷺ وأصحابه بحنين

لقد كان فتح مكة فتحاً مجيداً بكل المقاييس، ومع أن هذا الفتح دفع الكثير من أهل الجزيـرة إلى التفكير في الإسلام، إلا أن هناك بعض القوى الأخرى في الجزيرة العربية أخذت موقفاً معاديـاً جداً من الإسلام ومن الدولة الإسلامية، فقد شعرت وأحست أن هـذا النمـو اللافـت للنظـر

للدولة الإسلامية معناه اقتلاع القبائل الأخرى خلال زمن قليل، من أجل ذلك بدأت هذه القبائل في إعداد العدة لحرب الدولة الإسلامية، قبل أن يتفاقم الوضع ويصبح خارجاً عن السيطرة، فكان من أخطر القبائل التي أخذت هذا النهج وهذا الأسلوب قبيلة هوازن.

يعلم الجميع مدى الروح القبلية عند العرب، ومدى انتماء كل فرد لقبيلته بغض النظر عن الحق أو العدل، وكان هذا من الأمراض الخطيرة التي حاربها الإسلام منذ اللحظة الأولى لنزول الرسالة.

من أجل أن نفهم قصة هوازن مع المسلمين لا بد أن نرجع قليلاً إلى ذاكرة التاريخ، من أجل أن ندرس جذور هذه القبيلة وعلاقة هذه القبيلة بقريش. ينقسم العرب بصفة عامة إلى قسمين رئيسيين: ينقسمون إلى عدنانيين وقحطانيين، العدنانيون ينقسمون إلى: ربيعة، ومُضَر، ومضر تنقسم إلى: إلياس وعيلان، وقبيلة قريش تأتي من فرع إلياس بعد تفرعات كثيرة، وتأتي قبيلة هوازن من عيلان أيضاً بعد تفرعات كثيرة، وكلما بعدت الأنساب ازدادت الحزازيات بين القبائل، ويفقد الناس الشعور بالرحم التي ينتمون إليها.



إذا كان يحصل تنافسات وصراعات بين البطون القريبة من بعضها البعض بسبب القبلية، فما بالك لو كانت القبائل بعيدة الأنساب عن بعضها البعض؟! مثلاً: كلنا يعلم ما كان يحدث من صراع بين بني هاشم وبني مخزوم، ومخزوم وقصي كانا أولاد عم مباشرة، ومخزوم هو الذي جاء منه قبيلة بني مخزوم، وقصي الذي جاء منه بنو هاشم بعد ذلك، ومع ذلك كان الصراع شديداً بين القبيلتين، تنافس قبلي، وقد يصل الأمر إلى المنافسة العسكرية الدموية. كذلك كلنا يعلم الصراع بين الأوس والخزرج مع أن الاثنين أولاد حارثة بن ثعلبة من فروع قحطان، لكن داء القبلية كان يعصف بالجزيرة العربية. الرسول ﷺ من قريش؛ فلهذا القبائل البعيدة عن قريش ستفكر في الإسلام بصورة أكثر تحفظاً من القبائل القريبة من قريش، فهذا أبو جهل لم يرض أن يدخل الإسلام من أجل القبلية، مع أنه قريب من الرسول ﷺ.

عندما نرجع لشجرة الأنساب مع وضع النظرة القبلية هذه سنفهم أحداثاً كثيرة جداً في السيرة، ستجد مثلاً أن القبائل البعيدة جداً عن قريش هي من أواخر القبائل التي أسلمت، ومن أشد القبائل قسوة على المسلمين، فأبعد الفروع عن قريش هي الفروع التي خرجت من قحطان، فهؤلاء لم يسلموا إلا متأخرين مثل: قبائل قضاعة، طي، مذحج، بجيلة ومنهم من كان شديداً جداً على المسلمين مثل: بني لحيان، لكن يشذ عن هذه القاعدة قبائل الأوس والخزرج وأسلم فقد أسلموا قديماً، ويبدو أن ذلك للجذور اليمنية لهذه القبائل، ثلاث قبائل: الأوس والخزرج وأسلم من قبيلة الأزد اليمنية وأهل اليمن يتميزون برقة القلب وقوة العاطفة، يقول الرسول ﷺ: (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً) رواه البخاري ومسلم. فروع قحطان كانت من أواخر القبائل إسلاماً، باستثناء الأوس والخزرج وأسلم.

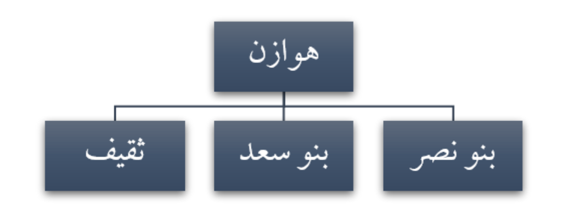
أيضاً من الفروع البعيدة جداً عن قريش ربيعة، فربيعة هي الفرع الموازي لمضر، والخلاف بين ربيعة وبين مضر كبير جداً وطويل، فربيعة تأخر إسلامهم جداً، مثل: بني بكر بن وائل، بني

تغلب، بني عبد القيس، ومنهم من كان شديد العداء للمسلمين ولم يسلم إلا مضطراً، وسارع بالردة بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة، وبعضهم حتى قبل وفاته ﷺ مثل: بني حنيفة.

تأتي بعد كذا مضر تنقسم إلى قسمين رئيسين: إلياس وعيلان، وعيلان مشهورة في التاريخ بقيس عيلان، فقيس هذا أشهر أبناء عيلان فاشتهرت القبيلة بكاملها بكلمة (قيس عيلان). قريش كما ذكرنا هي من إلياس؛ من أجل ذلك تجد قبائل عيلان تنافس بشدة قبائل إلياس ومنها قريش، وقبائل عيلان كثيرة جداً، لكن أشهر هذه القبائل ثلاث قبائل، وعندما تسمع أسماء هذه القبائل الثلاث ستفسر لك مواقف كثيرة جداً في السيرة رأيناها ولا زلنا سنراها.

أهم ثلاث قبائل في عيلان هم: غطفان، وبنو سليم، وهوازن، ونحن رأينا مدى المعاناة التي عاناها المسلمون من غطفان على مدار سنوات مختلفة، وكذلك عانوا من بني سليم، وبعد ذلك أسلمت غطفان وأسلم بنو سليم، وكان من الواضح جداً أن إسلامهم كان إسلام المضطر، فهم انبهروا جداً بقوة الإسلام، وشعروا أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، وقد يجتاحهم المسلمون اجتياحاً مدمراً لذلك آثروا السلامة، آثروا أن يعيشوا تحت كنف الدولة الإسلامية، وجاءت الوفود كما رأينا إلى المدينة المنورة وبايعت على الإسلام بعد انتصار مؤتة وقبيل فتح مكة المكرمة، والإسلام لم يكن قد تمكن كثيراً من قلوبهم، وسنرى أن الرسول ﷺ كان مدركاً هذا الأمر تماماً؛ من أجل هذا سيحاول أن يتألف قلوبهم في الأيام القادمة.

الشاهد من هذا الكلام أن فرعين رئيسيين مهمين جداً من عيلان أسلما مضطرين وأعلنا هزيمتهما أمام الرسول القرشي ﷺ، ولم يبق غير قبيلة هوازن فقط، فهي التي لا زالت رافعة راية عيلان، وكانت انتصارات الرسول ﷺ المتكررة تمثل نذير خطر كبير على هوازن، وتفاقم الأمر جداً بعد فتح مكة؛ لأن منازل هوازن قريبة جداً من مكة المكرمة، في الشمال الشرقي من مكة المكرمة، ولا يستبعد أبداً أن تكون الدائرة على هوازن في المرة القادمة.



تعالوا بعد هذا ننظر نظرة تحليلية في داخل هوازن نفسها. أيضاً قوة هوازن قبائل كثيرة جداً، لكن أشهر قبائل هوازن ثلاث: بنو نصر، وبنو سعد، وبنو سعد هؤلاء هم الذين رضع الرسول ﷺ منهم رضع من حليمة السعدية من بني سعد، والقبيلة الثالثة خطيرة جداً ومشهورة وهي قبيلة ثقيف، فثقيف فرع من فروع هوازن، وإذا كان التجمع الرئيسي لهوازن في الشمال الشرقي لمكة المكرمة، فثقيف اختارت مدينة ثانية تعيش فيها ألا وهي مدينة الطائف في الجنوب الشرقي لمكة المكرمة، واستقرت فيها منذ قديم. قبيلة ثقيف من أهم القبائل العربية مطلقاً ومن أقوى القبائل العربية، بدليل أن مدينة الطائف هي المدينة الثانية في الجزيرة العربية بعد مكة المكرمة؛ ولذلك أخبر الله تعالى عن الكفار قولهم: {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف:31] أي: مكة والطائف، وأعظم سادة في الجزيرة هم سادة مكة والطائف؛ سادة قريش وثقيف. والدليل أيضاً على أهمية ثقيف وقوة ثقيف هو ذيوع شهرة الصنم الذي يعبد في ثقيف، وهو صنم اللات وهو من أشهر أصنام العرب كما هو معلوم. أما صنم العزى فإنه يقع في منطقة نخلة داخل أملاك هوازن، والعرب بشتى أطيافها كانوا يقسمون باللات والعزى، وورد ذكر اللات والعزى في القرآن الكريم قال الله عز وجل: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} [النجم:19] الاثنان في هوازن، اللات في ثقيف والعزى في هوازن نفسها في بني نصر وبني سعد، لذلك كانت ثقيف تشعر بالمساواة دائماً مع قريش، بل إنها كانت تشعر بالتفوق على قريش عسكرياً واقتصادياً وعددياً، وأرض الطائف كانت جيدة جداً والتجارة فيها أيضاً كانت تجارة رائدة، لولا أن قريشاً كانت ترعى البيت الحرام المعظم عند العرب، فهذا كان يرفع مزية قريش عند العرب فوق ثقيف، لكن لم يغير من العلاقة القبلية

المتنافرة بين القبيلتين الكبيرتين، فكان إسلام ثقيف صعباً جداً، وهذا يبين لنا العداء الشديد الذي قوبل به رسول الله ﷺ عندما ذهب إلى الطائف، لأنه في نظرهم قرشي، ورأينا أنه لم يسلم في هذه الزيارة ولا ثقفي واحد، وتأخر إسلام الثقفيين جداً، ومعظم الثقفيين لم يؤمنوا إلا في العام التاسع من الهجرة، والذين أسلموا قبل ذلك كانوا قليلين جداً معدودين على الأصابع، ومنهم المغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله عنه وغيره وهم قليلون جداً، ونفس الكلام ينطبق على بني نصر وبني سعد من هوازن لا تجد أحداً أسلم منهم إلى أول العام الثامن من الهجرة، وإنما معظمهم أسلموا في أخريات العام الثامن. هذه نفسية هوازن بفروعها الرئيسية الثلاثة: بني نصر وبني سعد وثقيف، وأعتقد أن هذه المقدمة ستفسر لنا كثيراً جداً المعارك الهامة القادمة.

قيام مالك بن عوف بتوحيد قبائل هوازن لمقاتلة المسلمين

كان من عادة العرب في ذلك الوقت أنهم يعيشون حياة التفرق حتى في بطون القبيلة الواحدة، وما أكثر ما حدثت الحروب -كما ذكرنا- في داخل الفرع الواحد من القبيلة، كما يقولون أحياناً:

على بكر أخينا   إذا لم نجد إلا أخانا

وقبيلة هوازن كانت تسير بنفس النمط، ففروعها كثيرة، لكن في زمنها كله ما توحدت في كيان سياسي اقتصادي عسكري واحد، بل عاشت حياة الفرقة كما عاشها بقية العرب قبل الإسلام، وكما يعيشها العرب دائماً كلما بعدوا عن الإسلام، لكن ظهر في قبيلة هوازن في هذه الفترة وهي الفترة التي سبقت فتح مكة مباشرة وأثناء فتح مكة ظهرت شخصية هوازينية قلبت الموازين في هذه القبيلة الكبيرة وغيرت كل شيء، هذه الشخصية هي شخصية مالك بن عوف النصري من بني نصر من هوازن، وأمثال هذه الشخصية كثير في التاريخ.

فمن هو مالك بن عوف هذا؟ مالك بن عوف كان شاباً لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد، لكنه كان يملك ملكات قيادية متميزة، عنده علم كبير جداً بالخطط العسكرية وبالفنون القتالية، وكان خطيباً مفوهاً له قدرة كبيرة جداً على التأثير على الناس، وكان يتميز بقدرته الفائقة على الحشد وتجميع الطوائف المختلفة لأداء مهمة معينة، كانت لديه طاقات هائلة، لكن للأسف كل طاقاته هذه كانت موظفة في الشر.

بدأ مالك بن عوف يجمع كل فروع هوازن تحت راية واحدة، وهذا حدث فريد في تاريخ هوازن، فهذه هي المرة الأولى تقريباً التي تتجمع فيها بطون بني نصر وبني سعد وثقيف تحت راية واحدة، وهذا يدلنا على مدى كفاءة هذا القائد، ومع أنه من بني نصر ومعروف أن ثقيفاً هي أكبر وأعز وأعظم قبيلة من قبائل هوازن ومع ذلك قبلت أن تسير تحت راية مالك بن عوف النصري.

لقد جمع مالك بن عوف منهم أكثر من 25 ألف مقاتل، وهذا أكبر رقم تجمع في معركة واحدة في تاريخ العرب قاطبة، جيش هائل، فهو جمع هذه الأعداد الكبيرة باسم القبيلة: نحن من هوازن ومحمد من قريش، هذا هو المنطق مع أن الرسول ﷺ ما سعى أبداً إلى تجميع القرشيين ضد القبائل العربية الأخرى، بل على العكس كان العدو الأكبر للرسول ﷺ في خلال السنوات العشرين السابقة قبيلة قريش، وكان جيشه يضم أفراداً من كل قبائل العرب، والجانب الأعظم من جيش فتح مكة لم يكن من القرشيين، كان من أوس وخزرج وأسلم وغفار والأزد ومزينة وجهينة وغطفان وبني سليم وبني تميم وغير ذلك من الفروع القريبة والبعيدة جداً من قريش، وغطفان وبنو سليم هم أكثر قرباً لهوازن كانوا في جيش الرسول ﷺ الذي فتح مكة، مع كل ذلك إلا أن المحفز الوحيد الذي استخدمه مالك بن عوف هو قضية القبيلة، وأقنع الناس بما نشأ عليه العرب من أن القبيلة فوق كل شيء وقبل كل شيء، وأن عز

القبيلة مقدم على الحق وعلى العدل وعلى القيم وعلى المثل العليا وعلى أي شيء، فنفس فكرة القومية التي ينادي بها الكثيرون في زماننا، أو في الأزمان التي سبقت أو الأزمان التي ستأتي بعد ذلك، ففكرة القومية أو فكرة الوطنية هي تقديم مصلحة القوم أو الوطن أو العنصر بغض النظر عن الحق. إذا خاض الوطن أو القوم حرباً ظالمة فأنا معه؛ لأن مصلحة الوطن مقدمة على الحق والعدل، هذا منطقهم. إذا رأى البعض أن مصلحة القوم أو الوطن تتعارض مع قانون شرعي أو عرف دولي أو قاعدة أخلاقية يترك القانون الشرعي أو العرف الدولي أو القاعدة الأخلاقية وتقدم مصلحة القوم أو مصلحة الوطن. هذا الكلام لا وزن له عند رب العالمين سبحانه وتعالى، وليس معنى ذلك أن حب القوم أو الوطن مرفوضة إسلامياً، لا، بل على العكس حب الأهل والعشيرة فضيلة يحض الإسلام عليها، لكن بشرط ألا تكون على حساب الدين والحق والعدل، يقول الله عز وجل: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ} [التوبة:24] ماذا يحصل؟ {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:24].

في هذه الآية الجامعة وضح لنا ربنا سبحانه وتعالى أن تقديم الأهل والعشيرة، وهم القوم، وتقديم المساكن وهي الوطن، أن تقديم هذه الأشياء على أمر الدين هو نوع من الفسق، ومن فعله فعليه أن ينتظر العقاب من رب العالمين سبحانه وتعالى، والعقاب مخوف جداً، حتى إن الله سبحانه وتعالى أخفى هذا العقاب ولم يعينه لزيادة الرهبة، قال: {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [التوبة:24] لكن ليس معنى الآية أن حب الآباء والأجداد والعشيرة أو القوم والقبيلة والوطن والتجارة مذموم، حاشا لله، ليس هذا هو المعنى مطلقاً، بل أمرنا الله عز وجل أن نصل

آباءنا وأجدادنا وأهلنا ولو كانوا مشركين، لكن إذا تعارض الأمر مع الدين فلا بد من المفاصلة، إذا تعارض الأمر مع الحق والعدل فلا بد من المفاصلة.

قال تعال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:135]، لكن كان الوضع عند مالك بن عوف النصري على خلاف ذلك، فهو على علمه اليقيني أن القرآن حق وأن الرسول ﷺ صادق إلا أنه ضحى بهذا الحق والدين في مقابل إعلاء القومية الهوازنية في منتهى الوضوح، وهذه أزمة أخلاقية وعقائدية خطيرة، فهذه هي الجاهلية بعينها، وكل من دعا إلى هذا الفكر فهو يدعو إلى فكر جاهلي، وهذا الكلام ليس كلامي، فقد روى مسلم وابن ماجه والنسائي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قاتل تحت راية عُمّية -وفي رواية-: عِمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلةٌ جاهلية) أي: الذي يقاتل تحت راية عمية لا يعرف لأي سبب يقاتل ولأي هدف يقاتل، وروى أبو داود عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال ﷺ : (ليس منا من دعا إلى عصبية) أي: يدعو إلى عنصر معين وإلى قومية معينة. (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية).

النقاط السلبية الموجودة عند مالك بن عوف وتغليط دريد بن الصمة له

هناك نقاط سلبية كانت عند مالك بن عوف أولها: أنه يدعو إلى قومية وقبلية بغض النظر عن مواطن الحق والعدل.

النقطة السلبية الثانية خطيرة جداً: وهي أنه يستخدم البلاغة وحسن البيان في خداع الناس، فقد كان يوهم الناس بخلاف الواقع ويغرر بهم، فقد وقف مالك بن عوف يخطب في الناس في الشعب ويقول لهم: (إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فينصر عليهم) أي: لو نحن قابلناهم سنرميهم في البحر. هذا الخطاب من الخداع غير المقبول بالمرة لشعب ساذج حقاً، شعب هوازن يبدو أنه كان شعباً معزولاً عن العالم الخارجي، لا يقرأ ولا يكتب ولا يرى ولا يسمع، وإلا لما صدق مالك بن عوف، أي أقوام أولئك الذين لاقاهم رسول الله ﷺ وكانوا أغماراً لا علم لهم بالحرب؟ هل قريش التي هزمت منذ أيام في عقر دارها أو قبل ذلك في بدر والأحزاب لا علم لها بالحرب؟ هل غطفان التي اكتسحت في ديارها فأذعنت وأطاعت وسلمت وأسلمت لا علم لها بالحرب؟ هل اليهود في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة بل وفي خيبر لم يكن لهم علم بالحرب؟ بل هل الرومان وأعوان الرومان من نصارى العرب بأعدادهم المهولة وبأسلحتهم المتقدمة وتاريخ طويل في الحروب وخبرة فائقة لم يكن لهم علم بالحرب؟ إن شعباً لا يدرك أحوال الدنيا حوله لجدير أن يضحك عليه، لجدير أن يسخر منه، لجدير أن يهزم ويذل. مالك بن عوف خدعهم بكلامه المعسول وبالخطاب البلاغي، فهو شعب قابل للخداع، فقد قبل هذا الشعب الساذج أن يرى الدنيا بعيون مالك بن عوف، من أجل ذلك لا بد أن يدفع الثمن.

النقطة السلبية الثالثة في مالك بن عوف: أنه لم يقم وزناً يذكر لشعبه، فليس عنده أي مانع أنه يضحي بشعبه كله بكل ممتلكاته من أجل تحقيق مجد شخصي له.

ماذا عمل مالك بن عوف بشعبه؟ أمر أن تؤخذ النساء والأطفال والأنعام والأموال وكل ممتلكات شعب هوازن تؤخذ معهم إلى أرض القتال فتوضع في خلف الجيش، لماذا هذا؟ من أجل أن يحفز الجيش على القتال. يقول لهم: لو انهزم جيش هوازن أو فر من أرض القتال

سيستولي المسلمون على كل ممتلكات هـوازن، فــ مالـك بـن عـوف لم ينظـر أبـداً إلى احتمالية الهزيمة، وهذا أمر وارد في أي معركة، لكن لا مانع أن يدفع الشعب كله ثمن تحقيق النصـر لــ مالك بن عوف، أن الشعب كله من رجال ونساء وأطفال يحقق المجد الشخصي لــ مالـك بـن عوف.

النقطة السلبية الرابعة في قائد هوازن مالك بن عـوف: أنـه كـان ديكتـاتوراً لا يسـتمع لرأي الآخرين ولو كانوا من الخبراء: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَـا أَهْـدِيكُمْ إِلَّا سَـبِيلَ الرَّشَـادِ} [غافر:29] بعض الخبراء العسكريين في هوازن حاولوا أن يبعدوا هذا القرار عن ذهـن مالـك بن عوف، قرار أخذ النساء والأطفال والأنعام والأموال إلى أرض المعركة، لكنـه أصر إصراراً عجيباً، فقد ورد في كتب السيرة حوار دار بينه وبين دريد بن الصمة، ودُرَيَـد بـن الصِّـمة أحـد المخضرمين عسكرياً في هوازن فقد كـان عمـره فـوق مائـة سـنة، فتعجـب لاصـطحاب كـل ممتلكات هوازن في أرض القتال فسأل مالكاً عن ذلك، فقال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فغضب دريد غضباً شديداً وقال: (راعـي ضـأن والله، مـا لـك والحرب). أي: أنت لا تعدو أن تكون إلا راعياً للغنم لا تصلح للقيادة العسكرية.

وبعد ذلك أخبره بوجهة نظره وكانت وجهة نظر صحيحة، قال: (هل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك).

ثم قال: (إنك تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب وخافته العجم وأجلى اليهود)، دريد قدر قوة الرسول ﷺ تقديراً سليماً وقال الرأي الأصوب، لكن مالك بن عـوف لم يسـمع لـه، ولم يأخـذ بمشورته، ولم يكن يرى غير رأيه فقط، ومع ذلـك دريـد لم ييـئس، بـل اسـتمر معـه في الحـوار وسأله: (ما فعلت كعب وكلاب) أفضل بطون هوازن عسـكرياً وفـيهم العـدد والعـدة؟ قـال مالك: (لم يشهد منهم أحد)، قال دريد وقد ازداد يقيناً برأيه: (غاب الحد والجد، لـو كـان يـوم

علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب). ثم نصح مالك بن عوف مرات لكن مالك بن عـوف رفض بإصرار شديد؛ لأن نفسية الديكتاتور لا تقبل أبداً أي رأي معارض لرأيه ولو على سبيل الاقتراح أو المشورة، فالشورى عنده تصبح طاعنة للكبرياء وللكرامة، ومن ثم فالدكتاتوريون لا يريدون الخير إلا إذا جاء منسوباً لهم. هذه كانت نقطة خطيرة جداً أيضاً في مالك بن عـوف: أنه كان ديكتاتوراً لا يستمع أبداً للشورى.

النقطة السلبية الخامسة في مالك بن عوف : التلاعب بعواطف الناس بصورة مسرـحية تؤثر على العوام، يستغل الأزمات التي تحصل في الأمة لصالحه، فماذا عمـل مالـك بـن عـوف عندما رأى توجهاً في الشعب لعزله، عندما أحس أن هناك ميلاً شعبياً لتخطئته في قضية صحبة النساء والأطفال والأنعام إلى أرض المعركة، وقف يخطب في شعبه كأنـه ممثـل كبـير جـداً عـلى مسرح درامي، قال لهم: (والله لتطيعونني يا معشر هوازن أو لأتكـئن عـلى هـذا السـيف حتـى يخرج من ظهري)؛ فلأن الشعب مخدوع قد أُقنع قبل ذلك أن هذا هـو الـزعيم الأوحـد، وأنـه حبيب الملايين، وأنه صاحب الإنجازات الضخمة، وأن الحياة بدونه لا تسـتقيم، قـالوا لـه: لا يصلح العيش من غير مالك ، وخرج الشعب في مظاهرات يطلب من الملـك ألا يتنحـى مهـما كان الثمن، ونسي الشعب المصائب التي عملها مالك والتي سـيعملها بعـد قليـل، وإزاء هـذا الضغط الشعبي الجارف اضطر مالك أنه يقبل زعامة هوازن رحمة بهوازن. أما الناصـح الخبـير دريد فتوجه بكلمته إلى الشعب قال لهم: (يا معشر هوازن؛ إن هذا فاضحكم في عـورتكم – في النساء والذرية والأطفال– وممكن منكم عدوكم، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم فانصـــرفوا واتركوه). انظروا النظرة العميقة لـدريد؛ هؤلاء القواد من هذه النوعية سيتركون شـعوبهم في الأزمات، ويلحقون بالأمـان في حصـون وقـلاع، وقـد يغـادرون الـبلاد إلى غيرهـا، فـمالك سيترككم وسيلحق بدولة أخرى حيث أصدقائه من الزعماء.

الشعب المسلوب الإرادة افتقد أي قدرة على الإبصار، واتبع مالكاً فيما يرى، وأحضر كل رجل من هوازن كل ما يملك ووضعه خلف الجيش المقاتل، وخرج مالك بجيشه إلى سهل أوطاس بالقرب من حنين وبدأ فعلاً في تنظيم الجيوش هناك، ووضع الكمائن على جانبي سهل حنين حيث سيمر المسلمون، وقد ذكرنا قبل ذلك أن عند مالك عبقرية عسكرية وعنده قدرة على تنظيم الصفوف وترتيب الحروب، فرتب الجيش في صفوف متوازية، ووضع الخيل في المقدمة، ثم الرجالة خلف الخيول، ثم وضع النساء فوق الإبل في خلف الرجال؛ حتى يوهم المسلمين أن هناك عدداً كبيراً فوق الجمال من الرجال، فيتزايد العدد إلى أضعاف، ويؤثر ذلك سلباً على نفسية المسلمين، ثم صف بعد هذا كله الغنم وصف في الآخر النعم، فقد كان ترتيباً عسكرياً في غاية الإتقان. هذا أنس بن مالك رضي الله عنه يصف جيش هوازن ويقول: (فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت) فقد كان مالك شخصية قيادية بمعنى الكلمة، له القدرة على تجميع الناس وتحميسهم، وله القدرة على إقناع الناس بوجهة نظره سواء عن طريق العقل أو طريق العاطفة، وله القدرة على وضع الخطط العسكرية وإتقانها، لولا ما ذكرنا من سلبيات في مالك لحسب من القواد المعدودين في تاريخ الجزيرة العربية. هذا كان إعداد هوازن.

سلاح اكتشاف رسول الله ﷺ

لقد نقلت المخابرات الإسلامية إلى الرسول ﷺ الأخبار عن هوازن، أنها تستعد لحرب المسلمين، فقد أرسل الرسول ﷺ الصحابي الجليل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه ليأتيه بخبر هوازن، وجاء عبد الله بتأكيد الخبر أن هوازن تتجمع من أجل حرب المسلمين، وأنها قد جاءت عن بكرة أبيهم بنسائهم وبنعمهم وشائهم، فتبسم ﷺ وقال: (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله) يقين بالنصر.

استعداد الرسول ﷺ لمواجهة قبائل هوازن

بدأ الرسول ﷺ في إعداد العدة لهذا الموقف الخطير، وكان إعداده على أعلى مستوى؛ فقد كان على النحو التالي:

أولاً: قرر الخروج للقتال في مكان متوسط بين هوازن ومكة، وآثر ألا ينتظر بمكة، وهذا فيه حكمة كبيرة جداً؛ لأنه لو بقي في مكة وغزاها مالك بن عوف بجيشه فقد يتعاون أهل مكة معه؛ لأن أهل مكة حديثو عهد بشرك وجاهلية فقد يتعاونون مع المشركين من هوازن لحرب المسلمين فتصير كارثة، قد تصير الحرب من داخل ومن خارج، لذلك فضل الرسول ﷺ أن يخرج بجيشه إلى مكان مكشوف بعيداً عن مكة.

ثانياً: قرر أن يخرج بكامل طاقته العسكرية، سيأخذ معه العشرة آلاف مقاتل الذين فتح بهم مكة المكرمة، لأن أعداد هوازن ضخم وكبير.

ثالثاً: أخذ معه من داخل مكة المكرمة المسلمين الطلقاء الذين أسلموا عند الفتح. وهذا فيه بعد نظر كبير من الرسول ﷺ؛ فهؤلاء إن تركوا في مكة قد ينقلبون إلى الكفر مرة ثانية، وقد ينفصلون بمكة عن الدولة الإسلامية، وخاصة لو تعرض المسلمون لهزيمة من هوازن؛ وأيضاً خروجهم مع المسلمين فيه دلالة على أن الرسول ﷺ يقربهم ويثق بهم، وهذا سيثبت أقدامهم أكثر في الإسلام، وأيضاً قد تكون هناك غنائم كثيرة؛ لأن الرسول ﷺ نفسه كان يقول: (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله) فلو وزع عليهم هذه الغنائم لكان في ذلك تأليف لقلوبهم، وأضف إلى كل ذلك أن أعدادهم الكبيرة ستوقع الرهبة في قلوب هوازن، ولا شك أن قريشاً لها مكانة في قلوب العرب، فعندما يخرج منها عدد في داخل هذا الجيش فقد يوقع الرهبة في قلوب هوازن، فيكون النصر حليفاً للمسلمين، فالرسول ﷺ لأجل ذلك كله أخذ معه من

مكة 2000 من الطلقاء وأصبح الجيش الإسلامي 12 ألف مقاتل وهذا أكبر عدد في تاريخ المسلمين في ذلك الوقت.

رابعاً: لم يكتف الرسول ﷺ بسلاح الجيش الإسلامي الذي فتح به مكة المكرمة، مع كون هذا السلاح من الأسلحة الجيدة جداً والقوية جداً، بدليل انبهار أبي سفيان عند رؤيته للجيش الإسلامي، ومع ذلك الرسول ﷺ لم يكتف بهذا السلاح ولا بسلاح المسلمين من الطلقاء، وإنما سعى لعقد صفقة عسكرية كبرى لتدعيم الجيش الإسلامي، فذهب بنفسه إلى تجار السلاح في مكة المكرمة، وكان على رأس هؤلاء التجار صفوان بن أمية ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهذان الاثنان لا زالا مشركين، فطلب منهما السلاح على سبيل الاستعارة بالإيجار والضمان، حتى إن صفوان بن أمية سأل الرسول ﷺ: (أغصباً يا محمد؟) فقال ﷺ: (بل عارية مضمونة) أي: أنا أستعيرها بالإيجار وأضمن عند ضياع بعضها أن أعوضك عنها، هذا مع أن الرسول ﷺ هو الزعيم المنتصر، وصفوان بن أمية هو أحد القادة المهزومين، لكن الرسول ﷺ كان عادلاً في كل أموره، لم يكن يستحل مال مُعاهد بأي صورة من الصور، وصفوان كان في عهد الرسول ﷺ لمدة أربعة شهور يفكر فيها في أمر الإسلام كما فصلنا قبل ذلك.

الشاهد من القصة أن إعداد الجيش الإسلامي كان على أفضل الصور الممكنة، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الرسول ﷺ اصطحب معه في هذه الغزوة بعض المشركين، وكان منهم صفوان بن أمية وكان منهم نوفل بن الحارث تجار السلاح في مكة المكرمة فخرج هؤلاء ليحملوا أسلحتهم للمسلمين. قد يسأل شخص ويقول: لماذا قبل ﷺ أن يستعين في هذه المعركة بالمشركين ورفض أن يستعين بهم في بدر قبل ذلك، ففي بدر قال لهم: (لا أستعين بمشرك)؟ الجواب أن الظرف مختلف، فالنصر ببدر قد ينسب إلى المشركين لقلة أعداد المسلمين وعدم استقرار دولة المسلمين، أما الآن فلن يدعي أحد أبداً أن نصر المسلمين وعددهم

12 ألف مقاتل كان بسبب الأفراد المشركين المعدودين في الجيش الإسلامي، فمن أجل هذا لم ير الرسول ﷺ مشكلة أن يأخذ معه بعض المشركين، وهؤلاء المشركون لن يأخذوا من الغنيمة، ولكن سيعطيهم ﷺ أجراً على عملهم هذا بالاتفاق.

خامساً: أن الرسول ﷺ اهتم جداً بالحراسة الليلية للجيش الإسلامي؛ لئلا يباغت فجأة، فوضع على الحراسة أنس بن أبي مرثد رضي الله عنه.

سادساً: اهتم الرسول ﷺ اهتماماً كبيراً جداً بالحالة المعنوية للجيش الإسلامي، فقد بشرهم أن جيوش هوازن ستصبح غنيمة للمسلمين إن شاء الله، ولا ننسى أن المسلمين دخلوا موقعة حنين ومعنوياتهم مرتفعة جداً؛ لأنهم حققوا انتصاراً مهيباً منذ أيام عندما فتحوا مكة المكرمة أعظم المدن وأشرف الأماكن.

مما سبق يتبين أن إعداد المسلمين لمعركة حنين كان إعداداً قوياً متقناً، فقد أخذ المسلمون بكل الأسباب المادية المتاحة، وكان جيشهم في أبهى صورة، وتوجه الجيش الإسلامي من مكة إلى وادي حنين حيث جموع هوازن تتجمع هناك.

سبب هزيمة المسلمين في أول غزوة حنين

خرج الجيش الإسلامي في 6 من شوال سنة 8 هجرية، ووصل إلى وادي حنين في 10 من شوال سنة 8 هجرية، وفي أثناء الطريق والجيش يسير بهذه الصورة البهية قال بعض المسلمين الجدد من الطلقاء، قالوا كلمة تعبر عن مرض خطير، وسرعان ما انتشرت هذه الكلمة في الجيش بكامله، انتشرت هذه الكلمة كما تنتشر النار في الهشيم، وهذه الكلمة في ظاهرها بسيطة يسيرة لكن كان لها من الأثر ما لم يتخيله المسلمون أبداً.

قال المسلمون: (لن نغلب اليوم من قلة).

كما ذكرنا أن المسلمين كانوا قد فتحوا مكة وهزموا قريشاً بعشرة آلاف فلا شك أنهم سينتصرون في حنين على هوازن بـ 12 ألف مقاتل، هكذا اعتقد المسلمون، بل وصرح المسلمون بألسنتهم بهذا الاعتقاد، وهذا لم يكن أمراً قلبياً، بل خرج على الألسنة.

عندما قال المسلمون هذه الكلمة شق ذلك على رسول الله ﷺ، وأحس أن مشكلة ستحصل، وظهر على وجهه الحزن، وأحس أن هناك شيئاً خطيراً سيحدث لهذا الجيش الكبير. لماذا كل هذه التداعيات لهذه الكلمة البسيطة اليسيرة؟ الجملة في ظاهرها صحيحة، وتركيبها ومعناها صحيح، بل إن هذه الجملة مستنبطة من حديث لرسول الله ﷺ، رواه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه الدارمي والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: (لا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة) فمعنى الحديث: أن الجيش الذي وصل إلى 12 ألف مقاتل لن يهزم بسبب قلة العدد، لكن قد يهزم لأسباب أخرى، قد يهزم لأسباب مادية أو أسباب قلبية؛ قد يوجد 12 ألف مقاتل وليس هناك إعداد عسكري، أو ليس هناك قوة سلاح، أو عندهم خلل في الخطة، أو عدم مهارة في القيادة أو غير ذلك من الأمور المادية، فهذه كلها قد تكون سبباً في الهزيمة، لكن هذه الأشياء في جيش المسلمين الخارج إلى حنين كانت على أحسن مستوى، لكن قد يغلب الجيش لأسباب قلبية، وهذا أمر خطير جداً.

هذه الكلمة التي قالها بعض المسلمين تعبر عن مرض قلبي خطير، وهذا المرض هو العجب بالنفس وبالعدد وبالإعداد المادي، وهو الاعتماد على الأسباب ونسيان رب الأسباب، وهو الظن أنني أنا الذي فعلت وليس الله الذي فعل، ولا شك أن الصحابة وغيرهم من الصالحين لو سئلوا سؤالاً مباشراً: هل النصر من عندك أم من عند الله؟ لا شك أن الجميع سيجيب بلا تردد: بل هو من عند الله عز وجل، لكن هذا الشعور الخفي، شعور الإعجاب بالنفس والغرور يتسلل إلى النفس بلطف شديد، لا يشعر به المؤمن إلا وقد تفاقم.

والإعجاب بالنفس ليس هو الثقة بالنفس، الثقة بالنفس أمر محمود، أما الإعجاب بالنفس فأمر مذموم، والثقة بالنفس أمر مطلوب؛ لأن الجيش لا ينتصر ولا ينجح بغير الثقة بالنفس، لكن لا يجب أن تزيد الثقة بالنفس حتى تصل إلى درجة التوكل على النفس، وليس التوكل على الله عز وجل. والفارق بين الثقة بالنفس والإعجاب بالنفس شعرة، والموفق من وفقه الله عز وجل. كان الواضح من النبرة التي عند الصحابة حين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة أنها كلمة تعبر عن ثقة زائدة عن الحد بالنفس، من أجل ذلك غضب الرسول ﷺ لما سمعها وحزن حزناً ظهر على وجهه ﷺ، ولو قيلت نفس الجملة على سبيل تبشير المسلمين وطمأنة المسلمين لكانت جملة مناسبة وجميلة ومستحسنة، لكن هذا الكلام لم يحصل، وإنما أُعجب المسلمون بعددهم وتوكلوا على كثرتهم، وهذا هو المرض الذي ذكره سبحانه وتعالى في الكتاب الكريم في حق هؤلاء، قال: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} [التوبة:25].

ولا يقولن أحد أبداً: إن هذا المرض كان عند الطلقاء حديثي الإسلام فقط، لا، للأسف انتقل المرض من الطلقاء إلى عامة أفراد الجيش الإسلامي، حتى وصل إلى معظم السابقين، وهذا أمر خطير، وسنرى أثر هذا الكلام بعد قليل. الأمراض القلبية كالعجب والكبر وحب الدنيا والحسد أمراض معدية، إن ظهرت في طائفة ولم تعالج جيداً تنتشر كالوباء، من أجل ذلك كان دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كان واضحاً أن هذا الدور لم يؤد على الوجه الأكمل في هذه المعركة، فحدث أن هذه الكلمة انتشرت في الجيش كله، وكان لهذه الكلمة الخطيرة أثر على كل الناس، وغريب أن البعض القليل قد يؤثر على الكثير، ومن الخطر جداً أن يخرج ضعيف الإيمان في وسط الجيش المؤمن، لكن لولا ظروف مكة حديثة الإسلام وخطورة انقلاب مكة كما ذكرنا قبل ذلك لكان الأفضل ألا يخرج للقتال متذبذب الإيمان، لكن هذه كانت ظروفاً قهرية اضطر المسلمون فيها إلى اصطحاب الطلقاء، مع أن الله تعالى يقول في الكتاب:

{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:47]، لكن غالب الطلقاء لم يكونوا منافقين محترفي النفاق، وإنما كانوا حديثي العهد بالجاهلية، ولم يمروا بتجارب إيمانية كافية، لم يعيشوا في المحاضن التربوية إلا قليلاً، وكان هذا الأمر متوقعاً منهم، لكن الأخطر كما أخبر سبحانه في الآية: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة:47] الأخطر أن استمع المسلمون السابقون إلى هذه الكلمات وتأثروا بها، ومر بنا مواقف مشابهة قبل ذلك في غزوة أحد، وسيمر بنا موقف آخر في غزوة تبوك وسنتكلم عليها بالتفصيل أكثر عندما نأتي للكلام على غزوة تبوك.

اتجه الجيش الإسلامي إلى حنين وهو متيقن أن النصر حليفه، مع شعورهم بكثرة العدد، وهذا المرض القلبي الخطير قاد إلى شيء خطير آخر؛ الثقة الزائدة بالنفس تدفع الإنسان إلى عدم الاكتراث بقوة عدوه، وعدم التأكيد على سير العملية العسكرية بالصورة التي ينبغي أن تكون عليها، فظهر بعض القصور في أداء المسلمين. رأينا أداء المسلمين على أحسن صورة لما كانوا معتمدين تمام الاعتماد على ربنا سبحانه وتعالى قبل أن يقولوا هذه الكلمة، فقد خرجوا من مكة المكرمة بعدة بهية وبجيوش قوية وبإعداد على أحسن مستوى، لكن لما أعجبنا بالكثرة بدأنا نقلل من الاهتمام بالتفاصيل، فالمخابرات الإسلامية لم تتعامل مع الوضع الجديد بدقة كافية، ومن ثم لم تكتشف العيون الإسلامية الكمائن التي زرعها مالك بن عوف حول وادي حنين، وبالتالي سنرى الجيش الإسلام يدخل في منطقة شديدة الخطورة دون دراسة كافية، وقبل ذلك كانت خطوات الجيش الإسلامي متثاقلة وهو في طريقه إلى حنين، فقد قطع المسافة القصيرة جداً في فترة طويلة جداً، مع أن من عادة الجيوش أن تقطع في اليوم الواحد حوالي 50 كيلو متر، ونحن رأينا الجيش الإسلامي توجه من المدينة إلى مكة المكرمة في عشرة أيام، والمسافة بين المدينة ومكة 500 كيلو تقريباً، يعني بمعدل 50 كيلو كل يوم، وهذا معدل طبيعي جداً وقد

يزيد أحياناً ويقل أحياناً لاختلاف الظروف، لكن يبقى المعدل الطبيعي حوالي 50 كيلو، لكن هنا الجيش الإسلامي قطع مسافة 20 كيلو من مكة إلى حنين في ثلاثة أو أربعة أيام، فالجيش خرج في 6 من شوال ووصل إلى حنين في 10 من شوال، وكان الواجب أن يقطع هذه المسافة في نصف يوم فقط، ومع ذلك قطعها في ثلاثة أو أربعة أيام، وهذا تأخير في الحركة مرجعه في الأساس عدم الاكتراث بالعدو لشدة الثقة بالنفس، فلذلك وصل مالك بن عوف بجيشه إلى وادي حنين قبل المسلمين، وبالتالي نشر قواته في الأماكن المناسبة، واحتل المواقع الاستراتيجية، واستراحت جيوشه بصورة كافية قبل اللقاء، فكل هذا كان في صالح المشركين، بينما في غزوة بدر وصل المسلمون إلى أرض القتال قبل المشركين واستطاعوا أن يأخذوا الأماكن المناسبة ليحتلوا مواقع إستراتيجية، وهذا كان سبباً من أسباب النصر. أما الجيش الإسلامي في غزوة حنين لزيادة الثقة بالنفس وللعجب بالعدد اندفع إلى سهل حنين دون ترو، ولم يضع أي حماية لخلفية الجيش الإسلامي قبل أن يدخل وادي حنين، ولم ينظر إلى الكمائن وألقى بثقله الكامل في داخل الوادي، وهذا خطأ عسكري فادح.

عندما نحلل هذه المعركة قد يستغرب جداً من وجود هذه الأخطاء، لأن في الجيش كفاءات عسكرية هائلة، فالجيش يقوده الرسول ﷺ بحكمته العسكرية المعروفة، وبدقته في إدارة الأمور، والجيش يضم بين صفوفه خالد بن الوليد والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعلي بن أبي طالب والحباب بن المنذر وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح .. وغيرهم وغيرهم من العمالقة العسكريين، كيف يحدث هذا القصور؟

الحقيقة أن هذا الكلام ليس له عندي إلا تفسير واحد، وهو أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الأنظار إلى الخطأ القلبي الخطير الذي أصيب به المسلمون، من أجل ذلك حجب الرؤية عنهم فوقعوا في أخطاء لا يقعون فيها أبداً في الظروف العادية، بحيث لو تكررت مثل هذه

المعركة مرات كثيرة فلن يقع المسلمون في هذه الأخطاء، لكن أمر ربنا سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى لم يرد للرسول ﷺ أن يقول كلمة أو خطبة تشعر المسلمين بمدى المأساة التي ستحدث لهم إذا أصيبوا بداء العجب؛ لأنهم لو خرجوا بكلمة أو خطبة ولم يصابوا مصاباً فادحاً سيتسلل المرض أكثر وأكثر إلى قلوبهم، فكان لا بد من مصيبة تهز المسلمين وتوضح لهم الرؤية وتوضح لهم الصورة تمام الوضوح. مصيبة واحدة مثل هذه تترك أثراً تربوياً أعمق من الأثر الذي تتركه ألف خطبة، من أجل ذلك لم يكن هناك وحي في هذه القضية ينبه المسلمين إلى خطورة ما هم مقدمون عليه، وأراد سبحانه وتعالى أن يذيق المسلمين النتيجة المرة لمرضهم الخطير، وهذا أبلغ في تربية هؤلاء المسلمين وفي تربيتنا. لاشك أن غزوة حنين بما حدث فيها من أزمات ما زالت محفورة في أذهان المسلمين إلى الآن، وستظل كذلك إلى يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى سجلها في القرآن الكريم؛ لكي لا ينسى المسلمون أبداً هذه الأزمة التي حصلت في حنين.

ما هي إلا دقائق من دخول الجيش الإسلامي في وادي حنين حتى انهالت عليه الأسهم والرماح من كل مكان، وثارت خيول هوازن في وجوه المسلمين، وخرجت فرق هوازن من هنا وهناك، وأحيط بالمسلمين من كل مكان، وخارت عزائم المسلمين في لحظات، وهم عمالقة في الحروب رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، لكن كل الناس خارت عزائمهم إلا قليل القليل، وقرر معظم الجيش قراراً واحداً في لحظة واحدة ألا وهو الفرار، بل الفرار العشوائي في أي اتجاه، ليسوا متحرفين لقتال ولا متحيزين إلى فئة، لا مقاومة لا محاولة لا تفكير لا شيء إلا الفرار، صدمة في منتهى القسوة، صدمة حنين في تقييمي أشد من صدمة أحد، في أحد خالف بعض رجال الجيش وثبت بعضهم، وقاتل بعضهم حتى الشهادة. أما هنا فلم يثبت من المسلمين إلا عشرة أو اثنا عشر فقط من الرجال، من أصل 12000 مقاتل، هذا يعني ثبات

واحد من كل ألف، في الجيش الإسلامي في حنين. إنها كارثة وأزمة خطيرة، وقد أحس المسلمون أن الصحراء الواسعة أصبحت ضيقة جداً لا تكفي للهروب، ولا تسمح بالفرار، ولسان حال الجميع: نفسي نفسي، الله سبحانه وتعالى يصف حالة الجيش الإسلامي في أول لحظات يوم حنين، قال سبحانه وتعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة:25] مصيبة حقيقة أن ينزع الله عز وجل نعمة الثبات من فرد أو جماعة أو جيش أو أمة، فالثبات هبة من رب العالمين سبحانه وتعالى، يقول تعالى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم:27]. كل الناس محتاجة إلى الثبات، حتى الأنبياء يحتاجون إلى الثبات من الله عز وجل: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء:74]. الله لا يعطي الثبات إلا لمن ارتبط به حقاً، إلا لمن كان خالص النية سليم القلب حسن العمل، كان الموقف يوم حنين مذهلاً، فهذا أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له في ذهول: ما بال الناس؟ فقال: عمر بن الخطاب : أمر الله.. لم يعرف. لعل هذا من أعمق الدروس في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فهو درس لا ينسى، وهذا الدرس نفعهم بعد ذلك ولسنوات طوال، في حروب كثيرة جداً دارت بعد ذلك مع فارس والروم.. وغيرهم من أجناس الأرض، ولم يفر المسلمون الذين شهدوا حنيناً بعد ذلك؛ فكلهم علموا وفقهوا جيداً أن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة، إنما بنصر رب العالمين للجيش، و عمر بن الخطاب الذي كان مذهولاً في ذلك اليوم لا يدري ماذا حدث للمسلمين أدرك مباشرة سبب الفرار، أدرك خلفيات الهزيمة، احتفظ بالدرس العظيم، مع أنه رضي الله عنه وأرضاه كان من الثابتين لم يفر قيد أنملة رضي الله عنه وأرضاه، لكن بعد سنوات طويلة من غزوة حنين أرسل عمر بن الخطاب رسالة إلى جنوده يشرح لهم أسباب النصر المبنية على ما

حدث في يوم حنين، قال عمر بن الخطاب في رسالته المشهورة: (إنكم لا تنصرون على عدوكم بقوة العدة والعتاد، إنما تنصرون عليه بطاعتكم لربكم ومعصيتهم له، فإن تساويتم في المعصية كانت لهم الغلبة عليكم بقوة العدة والعتاد)، فسيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه في يوم حنين رأى أن الغلبة أصبحت لهوازن على المسلمين بقوة العدة والعتاد؛ لأن المسلمين 12000 والمشركين أكثر من 25000 ، ولا ينصر القلة على الكثرة إلا بعون الله عز وجل وإرادته، قال تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:249]. ولى المسلمون وفروا يوم حنين مدبرين في شتى الاتجاهات، ولم يبق القليل كما ذكرنا.

موقف الطلقاء من هزيمة المسلمين في أول غزوة حنين

ماذا كان موقف الطلقاء في هذا الموقف الصعب؟ تباينت مواقف الطلقاء، منهم من صرح بكفره بعد أن كان ظاهره مسلماً مثل: كلدة بن حنبل، لكن بعد ذلك أسلم وله صحبة، فهذا الرجل قال في ذلك الوقت: ألا بطل السحر اليوم أي: يتهم الرسول ﷺ بالسحر مع أنه خارج مع المسلمين على أنه مسلم، ومنهم من لم يكتف بالكفر بل حاول قتل الرسول ﷺ مثل: شيبة بن عثمان وأيضاً هذا أسلم وحسن إسلامه، ومنهم من أظهر الشماتة دون أن يظهر الكفر كـ أبي سفيان زعيم مكة قال: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر) فقد كان مسروراً بهزيمة المسلمين، فهو لم يثبت على الإسلام، لكن الحمد لله حسن إسلامه بعد ذلك ومنهم من تردد في الأمر فلم يدر أين الحقيقة مثل سهيل بن عمرو. ومن الطلقاء الذين لم يكمل إسلامهم أسبوعين ثلاثة من ثبت على الإسلام ولم يتردد لحظة مثل: عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه.

مما يدل على الفهم الراقي الذي كان عند عكرمة رضي الله عنه وفهمه للإسلام وللنصر وللهزيمة أنه حدث لطيف جداً دار بينه وبين سهيل بن عمرو في أثناء فرار المسلمين يوم حنين،

قال عكرمة عندما رأى المسلمين يفرون، قال: (هذا بيد الله ليس إلى محمد ﷺ منه شيء) أي: ليس هو السبب، أي: أن النصر والهزيمة بيد الله عز وجل، وليس معناه عدم صدق محمد ﷺ.

ثم قال كلمة جميلة جداً لا يقولها إلا من عاش سنوات وسنوات في الإسلام قال: (إن أُدِيل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً) أي: لو هزم اليوم فلا شك أن النصر سيكون حليفه غداً أو مستقبلاً، أوهذا مثل قول الله سبحانه وتعالى: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:128] فـعكرمة رضي الله عنه لم يسلم إلا منذ أسبوعين أو ثلاثة، وهذا اليقين منه أدهش سهيل بن عمرو قال: (والله إن عهدك بخلافه لحديث) أي: أنت لا تزال من أسبوعين أو ثلاثة كنت تعبد هبل فكيف توقن هذا اليقين؟ قال عكرمة: (يا أبا يزيد؛ إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع).

تباينت مواقف الناس، فالغالب الأعم من الناس فر من أرض المعركة والقليل هم الذين ثبتوا.

معركة حنين في تقييمي كانت شديدة الشبه بمعركة أحد، فكلاهما كان مصيبة، وكلاهما كان لمرض قلبي، ففي أحد المرض القلبي كان حب الدنيا، وفي حنين المرض القلبي كان العجب، لكن الفارق بين أحد وحنين أن أحداث الموقعتين تمت بصورة معكوسة، ففي أحد بدأت المعركة بنصر للمسلمين ثم حدثت المصيبة، وفي حنين بدأت المعركة بمصيبة للمسلمين ثم تم النصر لهم.

عوامل رجوع المسلمين وثباتهم مع رسول الله ﷺ

كيف تم النصر للمسلمين مع وجود هذه الأزمة الطاحنة؟ كيف خرج المسلمون من هذه الكارثة؟ في مثل هذه الأزمات الهائلة وقد تخلى الجميع أو المعظم عن المسئولية في عمل من الأعمال الهامة للأمة، سواء كان جهاداً أو غيره من الأعمال، ماذا نعمل في مثل هذه المواقف؟

لقد ضرب لنا الرسول ﷺ القدوة في ذلك، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقدم لنا منهجاً عملياً واضحاً للخروج من مثل هذه الأزمات، فماذا عمل الرسول ﷺ؟!

ثبات النبي القائد ﷺ

أول نقطة: ضرب القدوة من نفسه، فلم يفر؛ لأنه إذا فر القائد فلا أمل في ثبات الجنود، وإذا تخلى القائد عن المسئولية فلن يحملها أحد. الرسول ﷺ ثبت في هذه الموقعة ثباتاً عجيباً، بل إنه لم يكتف بالثبات وعدم الفرار، بل كان يركض بدابته ناحية الكفار، حتى أن العباس رضي الله عنه وأرضاه وكان من الثابتين إلى جواره ﷺ كان يمسك بلجام الدابة ليمنعها من التقدم خوفاً على رسول الله ﷺ، لكن الرسول ﷺ استمر في الدخول وسط جيش الكفار، وكان الجيش يمشي عكس اتجاه الرسول ﷺ، كله يفر إلى الوراء والرسول ﷺ متقدم إلى الأمام ويقول وينادي بأعلى صوته: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، هلموا إلي أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله). لن تجد مثل الرسول ﷺ مهما قرأت في التاريخ، ومهما قرأت في السير، ومهما قرأت في المعارك لن تجد مثل ذلك الموقف أبداً، إذا فكر القائد في النجاة بنفسه لا شك أن الجنود سيحبطون إحباطاً يمنعهم من أي مقاومة، أما إذا ثبت القائد وتقدم وجاهد وضحى بنفسه فهذه أعظم الدروس التربوية لجيشه ولأمته؛ ولذلك تجد أن الراية تعطى في المعارك لأفضل الناس وأقوى الناس وأشجع الناس؛ لأن الناس تبع لرايتهم وتبع لقائدهم، فإذا هرب الشجاع الذي يحمل الراية فلا شك أن غيره سيهرب وسينهزم، لذلك تجد أن أشد القتال دائماً يدور حول الراية، ليس لمجرد قتل رجل شجاع؛ ولكن لأن سقوط الراية سيؤثر معنوياً على كامل الجيش؛ فالرسول ﷺ كان يدرك ذلك تمام الإدراك، فلذلك حرص ﷺ كل الحرص على عدم التراجع خطوة واحدة، مع كل الخطورة التي قد يتعرض لها، لكن هذه هي

الفرصة الأخيرة لجيشه ولأمته أن تراه ثابتاً فتثبت بثباته، وفعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، وألف خطة في الثبات والتضحية لا تساوي موقف الرسول ﷺ يوم حنين. هذه رسالة لكل المسئولين عن أعمال جماعية للأمة الإسلامية، ثبات القائد يعني ثبات الجنود وتضحية الرئيس تعني تضحية المرءوسين. هذه كانت أول نقطة عملها الرسول ﷺ: ضرب القدوة من نفسه كقائد.

اعتماده ﷺ على الموثوق بهم من الجنود

النقطة الثانية: الاعتماد على الموثوق فيهم من الجنود، القائد كفرد لا يستطيع أن يفعل شيئاً بلا جنود، حتى لو ثبت لابد أن يكون في جنود؛ فالزعيم لا يأتي بالنصر إلا إذا كانت معه أمة، لكن يتفاوت الناس في إمكانياتهم، يتفاوت الناس في أخلاقهم، في تربيتهم، في تاريخهم، كذلك يتفاوت الناس في درجة الاعتماد عليهم، فهناك من يعتمد عليه في أمور، وهناك من يعتمد عليه في أمور أخرى، وهناك من لا يعتمد عليه أصلاً. فالقائد المحنك والرئيس الذكي هو الذي يدرك بوضوح إمكانيات من حوله، يعرف الأعمال البسيطة السهلة التي يستطيع الجميع القيام بها، ويعرف الأعمال الصعبة التي لا يقوم بها إلا بعض الرجال، كما يعرف الأعمال شديدة الصعوبة التي لا يفلح في أدائها إلا القليل من الرجال، فكلما ازدادت حكمة القائد أدرك المستوى الدقيق لكل من حوله، وبالتالي لا يكلف أحداً من جنوده فوق ما يطيق، حتى ممكن يحقق نسبة نجاح كبيرة.

تعالوا لننظر كيف طبق الرسول ﷺ هذا؟ لقد كان الرسول ﷺ أفضل من يميز الرجال، وأفضل من يقدر إمكانياتهم، فهو الرسول ﷺ لم يناد في هذه المعركة على الإثنى عشر ألف مقاتل الذين كانوا معه؛ لأن فيهم أناساً حديثو عهد بالإسلام، ويصعب عليهم أن يثبتوا في هذه المواقف، بل إنه ﷺ لم يناد على 10000 مقاتل الذين فتح بهم مكة، مع أن الذي دخل

الإسلام قبل الفتح له درجة عالية جداً في ميزان الإسلام، ومع ذلك لم يناد عليهم كلهم؛ لأنه يعرف أن منهم من آمنوا رهباً من الدولة الإسلامية أو رغباً في ثرواتها بعد الانتصارات المتتالية مثل: قبائل غطفان وسليم وتميم وغيرهم.

فماذا عمل ﷺ؟ ركز النداء في أولئك الذين يثق بدينهم، ويطمئن لعقيدتهم، ويعلم تماماً أنهم وإن فروا في أول يوم حنين إلا أنهم سيعودون سريعاً إلى حالتهم الأولى من البذل والعطاء والجهاد بمجرد التذكير؛ لأن معدنهم شديد النقاء.

فمن هؤلاء الذين وثق فيهم الرسول ﷺ؟ إنهم أصحاب الشجرة، أصحاب بيعة الرضوان الذين شهدوا صلح الحديبية، الذين فتحوا خيبر بعد ذلك، الذين قال الله عز وجل في حقهم: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح:18] فهؤلاء بايعوا قبل ذلك على عدم الفرار، ولا شك أنهم لو تذكروا هذه البيعة -بيعة الرضوان- لعادوا فوراً إلى القتال؛ لأنهم يقيناً لم يبايعوا هذه البيعة نفاقاً ولأنه سبحانه وتعالى ذكر في كتابه أنه علم ما في قلوبهم، وهؤلاء نزلت عليهم السكينة قبل ذلك وهم على أبواب مكة في سنة 6 هجرية، وكما تعلمون لم يكن معهم إلا سلاح المسافر، ونزول السكينة عليهم في هذا اللقاء في حنين سيحدث إن شاء الله بشرط أن يعودوا. هؤلاء وإن كانوا 1400 فقط، إلا أن الواحد منهم بمائة والواحد منهم بألف والواحد منهم بأكثر من ألف، فهؤلاء لو ثبتوا فكل الناس بعد ذلك ستثبت لثباتهم، من أجل ذلك ركز الرسول ﷺ عليهم. أمر ﷺ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه وكان من الثابتين إلى جواره، لم يفر العباس ولا لحظة واحدة، أمره أن ينادي على هؤلاء المبايعين على عدم الفرار، فرفع العباس صوته ونادى بكل ما فيه من قوة: (يا أصحاب الشجرة) يا أصحاب السمرة، يا أصحاب الشجرة) هكذا.

ثم إن الرسول ﷺ خص النداء أكثر، فلم يعد ينادي على كل أصحاب الشجرة، فـأمر العبـاس أن ينادي على الأنصار، فخص الأنصار من أصحاب الشجرة، فرفع العباس صوته ونادى: (يا أنصار الله، يا أنصار رسوله ﷺ)، ثم إنه خص أكثر وأكثر فنادى على الخزرج: (يا بني الخزرج، يا بني الخزرج). ثم إنه خص أكثر وأكثر وأكثر، فنادى على بني حارثة مـن الخـزرج وهـم مـن خير دور الأنصار، كما قال في الحديث عن أبي أسيد الساعدي في البخاري ومسلم.

فماذا كان رد فعل أصحاب الشجرة والأنصار والخزرج وبني حارثة؟ نـترك العبـاس رضي الله عنه يصور لنا رد فعل هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين. يقول العباس: (فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها) أي: عادوا مسرعين كـالبقر التـي تـدافع عـن أولاهـا الصغار، وقال الأنصار في لحظة واحدة وبصورة جماعية وبحماس: (يا لبيك، يا لبيك، لبيك يـا رسول الله أبشر نحن معك)، فجاءوا من كـل مكـان في أرض الموقعـة، مـع كـل الأزمـة التـي يعيشها المسلمون إلا أنهم أتوا من كل مكان، حتى إنهم كانوا لا يـرون الرسـول ﷺ مـن شـدة تزاحم الناس، وكان الرجل يجد صعوبة في العودة؛ لأن الدابـة التـي يركـب عليهـا في عكـس الاتجاه، لكن كان يترك الدابة وينزل ويترجل على قدميه حتى يلحق الرسول ﷺ ، وهؤلاء هـم الناس الذين من الممكن أن تقوم على أكتـافهم الأمـة، مـا هـي إلا لحظـات حتـى اجتمـع مـع الرسول ﷺ مائة من الرجال، وأول كان معه في أول الأمر حوالي عشـرة أو اثنـا عشــر والآن مائة، فلما أتى المائة قال ﷺ : (الآن حمي الوطيس) أي حميت الحرب كما في صحيح مسـلم عـن العباس رضي الله عنه وأرضاه.

فلما اشتدت الحرب وحميت الحرب وبدأ المسلمون في قتال ضار، والمسـلمون الـذين اجتمعـوا حول الرسول ﷺ جميعاً ثابتون، والثابتون الأوائل أبو بكر الصديق رضي الله عنـه وعمـر بـن الخطاب وعلي بن أبي طالب والعباس وأبو سفيان بـن الحـارث بـن عبـد المطلـب وربيعـة بـن

الحارث بن عبد المطلب والفضل بن العباس وأيمن بن عبيد الذي هو ابن أم أيمن رضي الله عنهم أجمعين، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، هؤلاء جميعاً هم الذين ثبتوا في البداية ثم جاء الأنصار كما ذكرنا حتى اكتملوا مائة، ثم بدأ المسلمون يتوافدون من كل مكان، وأمسك ﷺ حفنة من التراب وقذفها في وجوه الكفار وقال: (حم لا ينصرون) وفي رواية قال: شاهت الوجوه فدخل التراب في عيون وأنوف جميع الكفار، وكانت نقطة تحول فارقة في موقعة حنين.

كانت البداية ثبات القائد الأعلى النبي ﷺ ، ثم ثبت بثباته مجموعة قليلة جداً من الرجال، ثم عاد إليه من الفارين مجموعة أكبر حتى وصلوا ثم عاد الأنصار جميعاً وأصحاب الشجرة، ثم سرت روح المقاومة والثبات في الجميع فعادوا يقاتلون في سبيل الله. أول الغيث قطرة ثم ينهمر.

أول خطوة: ثبات القائد.

الخطوة الثانية: الاعتماد على الموثوق فيهم من الجنود.

تذكير الصحابة بأن النصر من عند الله عز وجل

الخطوة الثالثة: أنه ﷺ ذكر العائدين بما نسوه، ألم تحدث المصيبة ويحدث الفرار؛ لأنهم أعجبوا بقوتهم وعددهم ولم يذكروا نصر الله عز وجل لهم؟ إذاً: فليتذكر الجميع الآن أن النصر من عند الله عز وجل، فرفع ﷺ صوته يطمئن المسلمين ويقول: (انهزموا ورب محمد، انهزموا ورب الكعبة)، ثم رفع يده إلى السماء وابتهل إلى الله في الدعاء وقال في إلحاح: (اللهم نزِّل نصرك، اللهم إني أنشدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا، اللهم نزِّل نصرك).

في هذه اللحظات العظيمة عولج المرض الخطير الذي أصيب به المسلمون يوم حنين، وأدركوا بما لا يدع مجالاً للشك أن الناصر الحقيقي هو الله عز وجل، واستوعبوا بكل ذرة في كيانهم قول

الله عز وجل: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:10] وانتقلت هذه الآية في لحظات يسيرة وسريعة جداً من المفاهيم النظرية إلى الوقائع العملية. عندما تغير واقع المسلمين بهذه الصورة أذن الله عز وجل للنصر أن ينزل على المسلمين، وكما تعودنا أن ينزل النصر ينزل بصورة لا يتوقعها المسلمون، ليعلم الجميع أن النصر من عند الله عز وجل. كانت وسائل تحقيق النصر في حنين عجيبة، كما كانت عجيبة قبل ذلك في بدر والأحزاب وخيبر ومكة.. وغيرها وغيرها.

لقد أنزل سبحانه وتعالى على المؤمنين السكينة، فقاتلوا بثبات وقوة، قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة:26] ما عادوا يرون 25000 مقاتل قدامهم، فثبتوا في أرض القتال، وأنزل الله عز وجل الرعب في قلوب الكافرين فولوا مدبرين، متنازلين بسهولة شديدة عما حققوه من نصر، وعن كل تقدم وصلوا إليه، وأنزل الله عز وجل الملائكة، كما قال سبحانه: {وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة:26] في لحظات يسيرة يفر الجيش المشرك من الجيش المسلم، فر أكثر من 25000 مقاتل في عدة حسنة وفي مواقع إستراتيجية جيدة وفي حالة معنوية عالية من 12000 مجاهد، وتفرقوا هنا وهناك، لا تسأل عن الأسباب المادية، فقط قل: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ} [الأنفال:10]. يقول أحد الصحابة: (فما ثبتوا لنا حلب شاة) أي: مدة قصيرة جداً، انطلقوا في كل اتجاه يفرون، الرعب يملأ قلوبهم، تركوا وراءهم أموالهم وأنعامهم وأكثر نسائهم وأولادهم.

وصف الله عز وجل موقف المشركين بعد عودة المسلمين إلى ربهم سبحانه وتعالى بقول بليغ مختصر معجز، قال سبحانه وتعالى: {وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [التوبة:26] من العذاب أن تأخذ قرار الفرار.. من العذاب أن تهرب وأنت الأكثر عدداً وعدة.. من العذاب أن تتنازل عن حصاد السنين.. من المال والأنعام في لحظة واحدة هكذا.. من العذاب

أن تتخلى عن زوجتك وأولادك؛ لأن الرعب يملأ قلبك.. من العذاب أن تشعر أن كل شيء يطاردك حتى الجهاد. وهذه حقيقة فهذا عمرو بن سفيان الثقفي كان من المشركين الذين فروا في حنين والحمد لله أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، يقول: (فانهزمنا، فخيل إلينا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا)قال: (فأعجرت -أي: أسرعت- على فرسي حتى دخلت الطائف). هذا هو العذاب بعينه: {وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [التوبة:26] فر الجيش المشرك في ثلاثة اتجاهات، فر جزء إلى أوطاس جانب من وادي حنين، والجزء الثاني فر إلى منطقة نخلة، والجزء الثالث والأساسي فر إلى مدينة الطائف، هرب الجميع بهذه الصورة المخزية المشينة، وهرب معهم قائدهم مالك بن عوف الذي دفعهم إلى هذه المهزلة العسكرية، واندفع المسلمون خلفهم هنا وهناك، وطردوا المشركين في كل مكان، وتوجهت سرية إلى أوطاس، وأخرى إلى نخلة، وتوجه الجيش الرئيسي بقيادة الرسول ﷺ إلى الطائف لحصار هوازن وثقيف في داخل الطائف. أوقف الرسول ﷺ توزيع الغنائم الهائلة التي حصلوها حتى يعود من الطائف، وجعل كل هذه الغنائم في وادي اسمه وادي الجِعرِّانة إلى جوار حنين، وكانت هذه أكبر وأعظم غنائم تحصل في معركة واحدة في تاريخ العرب قاطبة؛ لأن مالك بن عوف أتى بكل صغيرة وكبيرة في قومه ليجعلها بعد ذلك في أيدي المسلمين، كما قال ﷺ (تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله). لقد بلغ السبي من النساء في هذه الموقعة 6000 امرأة، هذا عدد هائل، وتجاوز عدد الإبل 24000، وتجاوز عدد الأغنام 40000، والفضة تزيد على 4000 أوقية؛ حوالي 150 كيلو جرام من الفضة.

هذا نصر هائل،لم يتوقعه ولم يحلم به أحد، فمعركة حنين غريبة جداً، وعجيبة بكل المقاييس، وكان شهداء المسلمين في هذه الموقعة الضروس خمسة شهداء فقط، وقتلى المشركين 70 قتيلاً،

ومن يشاهد الأعداد الهائلة المشتركة في هذه الموقعة 12000 مجاهد يحاربون أكثر من 25000 يظن أن الضحايا سيكونون بالمئات أو بالآلاف، لكن هذا الكلام لم يحصل.

أول المعركة فر المسلمون دون قتال تقريباً، وآخر المعركة فر المشركون دون قتال تقريباً كذلك، وهذه النتائج الهائلة والغنائم العظيمة جاءت دون قتال يذكر، وإنما فر وكر من المسلمين ثم كر وفر من المشركين، هكذا تغيرت الأحداث في دقائق، انقلب النصر للمشركين إلى هزيمة لهم وتحولت الهزيمة للمسلمين إلى نصر لهم، والفارق تَغَيُّر قلبي لا يراه أحد من البشر، لكن الله عز وجل يراه، فانحراف في الفهم ولو للحظات أدى إلى الفرار، وعودة إلى الفهم الصحيح في لحظات أدى إلى النصر؛ لتبقى الحقيقة واضحة في الذهن وراسخة في أعماق المسلمين: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:10].

لا يخفى علينا أن حُنيناً تتكرر كثيراً في حياتنا، ما أكثر توكلنا على الطبيب الماهر المشهور للدرجة التي تمنعنا أحياناً من رفع الأيدي إلى الله عز وجل لطلب الشفاء من الله الشافي، لا أقصد عدم التداوي، التداوي أمر نبوي، لكن الاعتماد على الطبيب ونسيان رب الطبيب هذا لا يقبل. كثيراً ما نثق بمال الأغنياء من البشر، وننسى أن نرفع أيدينا بالدعاء لله الغني الرازق الذي بيده ملكوت السماوات والأرض. كثيراً ما نوقن في توصية من كبير أو واسطة من عظيم ولا نلجأ إلى الكبير العظيم المتعال سبحانه وتعالى. كثيراً ما نطرق كل الأبواب ولا نطرق باب الرحمن سبحانه وتعالى، كثيراً ما نسأل كل البشر ولا نسأل الحنان المنان، كثيراً ما نطمئن لما في أيدينا ولا نطمئن إلى ما في يد الله مالك السماوات والأرض وما بينهما. كثيراً ما تتكرر حنين في حياتنا فنفر ونفشل ونهرب ونخاف ونفزع، ولن نثبت وننجح ونتنصر ونأمن إلا بما فعله الأولون، لن يكون ذلك إلا بأخذ بالأسباب مع الاعتماد الكامل على رب الأسباب سبحانه وتعالى، ولن

يكون ذلك إلا بفقه عميق للتاريخ وقراءة متأنية للسيرة، واتباع دقيق لمنهج سيد البشر وأعظم الخلق وإمام الرسل محمد ﷺ.

41

بين حنين والطائف

تحدثنا في الدرس السابق عن يوم حنين العجيب جداً أنه لم يَدُرْ فيه قتال يذكر، ومع ذلك كان له من الآثار ما لا يحصى من أهم هذه الآثار أن المسلمين فقهوا جيداً حقيقة النصر في الإسلام، وعلموا تمام العلم أن المسلم الذي يعد العدة دون أن يرتبط بالله عز وجل أن نصره بعيد، وثباته محال. فكان هذا الدرس من أبلغ الدروس التي تعلمها المسلمون في كل حياتهم السابقة.

مطاردة جيش هوازن

رأينا فرار جيش هوازن بكل بطونها أمام جيش المسلمين عندما عاد المسلمون إلى ربهم سبحانه وتعالى، وعندما عادوا إلى الفقه السليم، فرت جيوش هوازن حتى واصلوا فرارهم إلى مدينة الطائف، وفر معهم زعيمهم القومي مالك بن عوف النصري. بعد هذا الأمر أخذ الرسول ﷺ معظم الجيش وذهب لحصار مدينة الطائف، وحرب جيش هوازن، واستغلال فرصة انهزام هوازن من أجل مقابلتهم في معركة فاصلة، من أجل ذلك ترك الرسول ﷺ توزيع غنائم حنين الهائلة حتى ينتهي من قضية هوازن وثقيف، وتستقر الأوضاع.

سار الرسول ﷺ بجيشه الضخم متجهاً إلى الطائف، وسبحان الله المقارنة عجيبة جداً بين هذا المسير المهيب للطائف، وبين مسيره ﷺ إليها من إحدى عشرة سنة، أيام العهد المكي، من إحدى عشرة سنة كان ﷺ متجهاً إلى الطائف وهو في أشد حالات الحزن والضيق، وكان ماشياً على قدميه ليس معه إلا غلامه زيد بن حارثة رضي الله عنه، طردته مكة وأخرجته

وتنكرت له، وكانت السيدة خديجة رضي الله عنها قد ماتت، وكـذلك مـات عمـه أبـو طالـب أيضاً، وليس معه في مكة إلا قليل من المؤمنين لا يتجاوزون مائة واحد من الصـحابة، وكـانوا مشردين في الحبشة، وكان الوضع في غاية المأساة، ولم تخفف الطـائف مـن آلامـه، بـل عمقـت الآلام، فرفضت الدعوة الإسلامية بتكبر، وحاربت الرسول ﷺ بشـدة، واسـتقبلته اسـتقبال اللئام لا استقبال الكرام، وطردوه وصاحبه زيداً رضي الله عـنهم، وقـد أمطروهمـا بوابـل مـن الحجارة والتراب والسباب، حتى ألجئوهما إلى حائط عتبة وشيبة ابنـي ربيعـة، وأنـتم تعلمـون الدعاء المشهور الذي دعا به هناك، وهو دعاء يعبر عن درجة الألم والأسـى والحـزن الشـديدة التي وصل إليها ﷺ في ذلك الوقت، وغادر الرسول ﷺ في ذلك اليوم الطائف وعاد متجهـاً إلى مكة مهموماً على وجهه في ظروف لا يتحملها عامة البشر، ومـع كـون حالتـه النفسـية قـد وصلت إلى أقصى درجات الألم إلا أنه رفض تدمير هذه القرية الطائف وغيرها من القرى ممـن كفر بالله عز وجل، مع أن ملك الجبال عرض عليه هذا الأمر، لكن الرسول ﷺ قال في منتهى التجرد: (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده ولا يشرك به شيئاً).

وسبحان الله مرت الأيام، والأيام دول، {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّـاسِ} [آل عمـران:140] وغير الله عز وجل الأحوال، وجاء ﷺ الآن بعد إحدى عشرة سنة بما لم يتصوره أحـد، لا مـن الطائف ولا من مكة، ولا من أهل الجزيرة بكاملها. جاء ﷺ الآن عزيزاً منتصـراً ممكنـاً رافعـاً رأسه، محاطاً بجيش مؤمن جرار يزلـزل الأرض مـن حولـه، يرفـع رايـة لا إلـه إلا الله، محمـد رسول الله، أحد عشر عاماً فقط فرقت بين الموقفين، وتحقـق مـا ذكـره ﷺ لصـاحبه زيـد بـن حارثة رضي الله عنه يوم قال له بيقين بعد عودتهم المحزنة من الطائف: (يا زيد إن الله جاعل لما

ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه) وجاء الفرج والمخرج على صورة أعظم بكثير من تصور الجميع، ونصر الله الدين، وأظهر النبي الكريم ﷺ .

لاشك أن رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى الطائف كانت تجول في خاطره ذكريات لا حصر لها، يخرج بجيش يقطع صمت الصحراء باتجاه الطائف للمرة الثانية في حياته، فماذا كان يفكر به ﷺ ؟ لعله تذكر صاحبه زيد بن حارثة حبه رضي الله عنه، الآن زيد لا يسير معهم قد سبق زيد إلى الجنة رضي الله عنه وأرضاه، استشهد في مؤتة كما ذكرنا قبل ذلك، لعله تذكر أهل الطائف وهم يرفضون دعوته جميعاً بلا استثناء في تعنت أشد من تعنت أهل مكة. لعله تذكر عبد يا ليل بن عمرو بن عمير الثقفي -هذا الذي انتهت إليه الآن زعامة ثقيف- عندما وقف يسخر من النبي ﷺ ، ويقول: إنه يمرط -أي: يمزق- ثياب الكعبة إن كان الله عز وجل قد أرسله، وعبد يا ليل فر فراراً مخزياً من أرض حنين، وذهب ليختبئ في جبن ظاهر في داخل حصون الطائف. لعله تذكر عداس النصراني رضي الله عنه الغلام الصغير الذي آمن، واختفى ذكره من السيرة بعد ذلك، ولا نعلم من حاله شيئاً، لكن الله عز وجل يعلمه. لعله تذكر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة صاحبي الحديقة التي لجأ إليها ﷺ عندما طردوه من الطائف، فالآن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة يرقدان في قليب بدر يعذبان مع قادة الكفر في قبورهم.

لعله تذكر وهو يمر من وادي نخلة مجموعة الجن التي آمنت به في رحلته الأولى للطائف، وهو في طريق عودته إلى مكة المكرمة، لعله يذكر جبريل وملك الجبال والحوار الذي دار معه.

ذكريات كثيرة جداً! بعضها مفرحة وبعضها محزنة، ولكن الأيام على أي حال تمر، وكل شيء يتحول إلى ذكرى، ولا يبقى إلا العمل الذي قدم.

حصار الطائف

وصل الجيش العملاق إلى الطائف، وتوقع الجميع معركة هائلة ستقع بين تجمع هوازن وثقيف في حصون الطائف في عقر دارهم وبين جيش المسلمين الضخم، وكما ذكرنا أن عدد قتلى المشركين في موقعة حنين 70 رجلاً فقط، أي: الجيش بكامله لا زال موجوداً في الطائف 25000 مقاتل أو يزيدون والجيش المسلم 12000 مجاهد، فتوقع الجميع معركة هائلة، لكن رفض المشركون الخروج للحرب، فظلوا في حصونهم دون قتال، وحصون الطائف كانت شديدة المنعة، وإذا قرر أهل ثقيف وهوازن عدم الخروج فسيكون القتال صعباً للغاية.مع أن عددهم وعدتهم أضعاف المسلمين، ومع أنهم يقاتلون في بلادهم التي خبروها، وهم في ظروف اعتادوا عليها، لكن ألقى الله عز وجل الرهبة في قلوبهم، فما استطاعوا أن يأخذوا قرار الحرب مرة ثانية، بل اكتفوا بفضيحة حنين. لاشك أن في هذا خزياً كبيراً جداً وصغاراً شنيعاً؛ لأن نساء وأموال وأنعام هوازن في يد المسلمين الآن، ومع ذلك فضلوا ألا يخرجوا لاستخلاص هذه الأنعام والأموال والنساء والأولاد من أيدي المسلمين، هذا خزي كبير جداً وذل ليس بعده ذل، فالرسول ﷺ عندما رأى أهل الطائف من هوازن وثقيف يرفضون الخروج للقاء الفاصل لم يتنازل ﷺ بسهولة، بل جمع الجيش الإسلامي وقرر ضرب الحصار على حصون الطائف المنيعة، لعلهم يفقدون الأمل ويخرجون، لكن أول ما فرض الحصار بدأ أهل الطائف بإطلاق السهام والرماح على المسلمين، وكانت حصونهم عالية وكبيرة، واشتد رميهم واستشهد من المسلمين اثنا عشر رجلاً، ولم تكن سهام المسلمين تصل إلى داخل الحصون، وأصبحت المشكلة كبيرة على المسلمين، فأشار الحباب بن المنذر رضي الله عنه وأرضاه أن يبتعد المسلمون عن الحصن حتى لا تصيبهم السهام، وبالفعل عسكر الرسول ﷺ في مكان بعيد عن حصون الطائف، لكن أيضاً استمر الحصار على مدينة الطائف.

الوسائل التي استخدمها رسول الله لإخراج المشركين من حصون الطائف

الرسول ﷺ فكر في خطة لإخراج المشركين من الحصون، فأمر سلمان الفارسي رضي الله عنه بصناعة المنجنيق لقذف حصون الطائف بالحجارة، وأمر بصناعة دبابات خشبية لكي يختبئ تحتها الجنود ليصلوا إلى القلاع وإلى الحصون دون أن تصيبهم السهام، وبالفعل بدءوا في قذف أسوار الطائف بالمنجنيق الذي صنعه سلمان رضي الله عنه، وصار المسلمون تحت الدبابات الخشبية، وبالفعل كسروا جزءاً من السور، وكانوا على وشك الدخول داخل أسوار الطائف لولا أن أهل الطائف فاجئوا المسلمين بإلقاء الحسك الشائك المحمى بالنار، والحسك الشائك هو عبارة عن أشواك حديدية ضخمة أوقدت عليها النار حتى احمرت، فألقوها على المسلمين فصارت مأساة كبيرة، أصيب المسلمون إصابات بالغة، مما دفعت المسلمين إلى العودة من جديد إلى معسكرهم، وما قدروا أن يقتحموا حصن الطائف.

لكن الرسول ﷺ لم ييئس فقرر أن تحرق حدائق العنب المحيطة بالطائف، وكانت جنات ضخمة فيها مزروعات كثيرة، وأهم هذه المزروعات العنب، فأخذ رسول ﷺ القرار بحرق هذه الأعناب حتى يدفع أهل الطائف أو يجبرهم على الخروج للقتال، هو لا يحرق هذه الأشجار أو هذه الأعناب بغرض التدمير أبداً، لكن بغرض إجبار أهل الطائف على الخروج للقتال. بدأ المسلمون بحرق كمية ضخمة من العنب، فنادت ثقيف الرسول ﷺ من وراء الأسوار وقالت: (لم تقطع أموالنا إما أن تأخذها إن ظفرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم)، أي: لو غلبتمونا تأخذونها، ولو لم تغلبونا فاتركوها لله وللرحم، فقال ﷺ : (فإني أدعها لله وللرحم التي بيني وبينكم). ذكرنا فيما مضى أن العلاقة بين ثقيف وقريش سيئة جداً، لكن كانت إحدى جدات الرسول ﷺ لأمه من ثقيف، كانت الجدة الخامسة للرسول ﷺ واسمها: هند بنت يربوع الثقفية؛ فلذلك ترك ﷺ حرق الأعناب وقطعها للرحم التي بينه ﷺ وبينهم.

ولم يفعل ﷺ كما تفعل الجيوش الكافرة العلمانية مثل: جيوش فارس والرومان والتتار واليهود، وجيوش العصور الحديثة التي تفسد في الأرض لمجرد الإفساد؛ حتى إن الله سبحانه وتعالى يصفهم في كتابه الكريم بقوله: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة:205] الإفساد عند غرض، أما المسلمون فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا لغاية محددة، فلما لم تحقق وقفوا عن الحرق كما رأينا،

هذه الوسيلة لم تفلح في إخراج أهل الطائف.

الوسيلة الأولى: الضرب بالمنجنيق.

الوسيلة الثانية: حرق الأعناب.

الوسيلة الثالثة: محاولة تفكيك الصف داخل الحصون، فقد نادى ﷺ على العبيد في داخل الحصون وقال: (أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر) وكان العبيد كثيرين في المجتمع العربي القديم، وسياسة الإسلام أتت بتحرير العبيد في كل مناسبة ممكنة، فكانت هذه فرصة طيبة لتحرير بعض العبيد من صفوف المشركين، فهؤلاء العبيد في الغالب سيسلمون، وبذلك يستنقذون من ظلمات الكفر، وسيفقد أهل ثقيف طاقة هؤلاء العبيد، وسوف ينقل هؤلاء العبيد الأخبار من داخل الطائف إلى خارجها، فهناك أكثر من فائدة، فقد كان قراراً سياسياً دعوياً عسكرياً بارعاً من الرسول ﷺ. بالفعل بدأ يخرج بعض العبيد من داخل الحصون، حتى وصل عددهم إلى ثلاثة وعشرين من العبيد، واكتشفت ثقيف الأمر وشددت الحصار على الأسوار، ومنعت خروج بقية العبيد، واستفاد المسلمون من خروج هؤلاء الثلاثة والعشرين عبداً وأهم استفادة كانت أمرين: وأعظم الأمرين: هو إضافة ثلاثة وعشرين رجلاً إلى أمة الإسلام، (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم).

الأمر الثاني: معرفة بعض المعلومات العسكرية الخطيرة، فقد أخبر هؤلاء العبيد الرسول ﷺ أن الطعام والشراب الذي في داخل الطائف يكفي للمطاولة والصبر على الحصار سنة على الأقل أو عدة سنوات. هذه معلومة في غاية الأهمية، فالحصار لن يكون يوماً أو يومين ولا شهراً ولا شهرين، بل عندهم طعام يكفي لسنة أو أكثر، والمسلمون لا يستطيعون أن يبقوا في هذا المكان؛ لأن القوات الإسلامية ليست مجرد فرقة إسلامية من الجيش الإسلامي، وليست مجرد جيش لدولة، بل القوات الإسلامية هي المجتمع المسلم بكامله، والرسول ﷺ لم يترك في المدينة المنورة التي هي عاصمة الدولة الإسلامية إلا القليل من الرجال لحراسة النساء والأطفال والديار، وهناك الكثير من القبائل التي دخلها الإسلام حديثاً، فهي تحتاج إلى متابعة مستمرة خوفاً من انقلابها إلى الكفر، والهجوم على المدينة المنورة، وهناك الكثير من القبائل لم تسلم بعد في الجزيرة العربية، وهناك اليهود في خيبر على مقربة من المدينة، وهم على عهد وقد يخالفون وينقضون كعادتهم، وهناك أهل مكة حديثو عهد بجاهلية، وهناك الغنائم الضخمة المتروكة في وادي الجعرانة؛ هناك أمور ضخمة كثيرة لا يستطيع الرسول ﷺ أن يترك كل هذه الأمور، ويبقى في هذا المكان النائي إلى أجل غير مسمى.

فماذا يعمل الرسول ﷺ ؟ الحصار طال جداً، حتى وصلت في بعض التقديرات كما في رواية مسلم عن أنس رضي الله عنه إلى أربعين يوماً كاملة في حصار الطائف، وليس هناك أي فائدة.

استشارة الرسول ﷺ لأحد أصحابه بعد طول حصار الطائف

استشار الرسول ﷺ أحد أصحابه من أصحاب الخبرة العسكرية والرأي السديد، عندما تسمع اسم هذا الصحابي الذي استشاره الرسول ﷺ سينتابك العجب لا محالة، من هذا الذي استشاره ﷺ ؟ إنه نوفل بن معاوية الديلي رضي الله عنه وأرضاه، هذا نوفل بن معاوية الديلي زعيم بني بكر القبيلة التي كانت متحالفة مع قريش بعد صلح الحديبية، وهو الذي قاد قومه

لقتل خزاعة، والذي كان سبباً في نقض صلح الحديبية، والذي دخل الحرم المكي ليستمر في عملية قتل رجال خزاعة، والذي رد بالرد الكفري على قومه عندما قالوا له: (يا نوفل إلهك إلهك، فقال: يا بني بكر لا إله لكم اليوم)، هذا هو نوفل بن معاوية الذي ارتكب كل هذه الجرائم منذ شهرين أو ثلاثة، والذي كان سبباً في خروج رسول الله ﷺ إلى فتح مكة المكرمة ثم حنين، ثم الطائف، وسبحان مقلب القلوب ومصرفها سبحانه وتعالى. أسلم نوفل بن معاوية بعد هذا التاريخ الأسود مع المسلمين، أسلم وحسن إسلامه، وانضم إلى الجيش المسلم، وأصبح مستشاراً أميناً لرسول الله ﷺ ، وإن كنا نعجب من تحوله من الكفر إلى الإيمان، ومن الغدر إلى الأمانة، ومن حلفه لقريش إلى دخوله في الإسلام، إن كنا نعجب من كل ذلك فالعجب كل العجب والإبهار كل الإبهار في الدروس التي يعطيها لنا معلم البشرية وسيد الخلق محمد ﷺ.

فنحن نرى هذا التوظيف الرائع منه ﷺ لكل الطاقات التي حوله، وهذا الاستغلال المفيد لكل من دخل في صف المؤمنين، وهذه القيادة المبهرة لكل هذه الأنواع المختلفة من البشر، وهذا الأمر لم يكن حدثاً عارضاً في حياته ﷺ ، بل كان أمراً متكرراً وثابتاً في حياته كلها ﷺ، ولعلكم تذكرون توليته عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه إمارة معركة ذات السلاسل ولم يمر على إسلامه إلا شهور قليلة، وكذلك تقريبه خالد بن الوليد في كل أموره، حتى قال خالد: (فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه) فهذا إحساس صادق من خالد بن الوليد، مع أنه من المؤكد أن الرسول ﷺ كان كثيراً ما يستشير أصحابه الآخرين مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير وغيرهم وغيرهم أكثر من استشارته لـ خالد بن الوليد، لكنه كان ﷺ يشعره دائماً بقيمته وأهميته واحتياجه لرأيه. كلنا يذكر توليته عتاب بن أسيد رضي الله عنه على مكة المكرمة، ولم يكن قد

أسلم إلا منذ أيام، هكذا يكون التعامل مع الرجال، وبالذات الذين يتمتعون بملكات قيادية، والقواد إذا همشوا لا تضيع قواتهم فقط، بل قد يكونون وبالاً على الأمة. الرسول ﷺ بلغ قمة الحكمة في التعامل مع الناس، وقمة الحكمة في إنزال الناس منازلهم، وقمة الحكمة في احترام أرائهم واستغلال قدراتهم.

من هذه السياسة الحكيمة نرى نوفل بن معاوية القائد المحنك يدلي برأيه في قضية تنفع الإسلام والمسلمين، لو كان القائد غير رسول الله ﷺ فلعله كان يتتبع قواد الجيش المعادي بالقتل والإبادة والسجن والتعذيب، مثل ما نرى في كل مكان، لكن الرؤية كانت واضحة جداً عند رسول الله ﷺ ، (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)، إنها سياسة نبوية ثابتة مستقرة، فماذا قال نوفل بن معاوية لرسول الله ﷺ ؟ قال: (هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك) أي: هو يشبه أهل ثقيف بالثعالب، وهذا حقيقي ومشتهر عنهم وسط العرب، حتى قال عنهم عيينة بن حصن: (إنهم قوم مناكير) أي: أصحاب دهاء وفطنة، ورأينا من هذه الفطنة وهذا الدهاء في هذا الحصار الصعب، وهذه المقاومة الشرسة.

ثم إنه يؤكد أنهم لا مهرب لهم من هذه الحصون (إن أقمت عليه أخذته) غير أنه يشير إلى شيء في غاية الأهمية، يقول: إن شوكة ثقيف وهوازن قد كسرت ومعنوياتهم هبطت إلى الحضيض، لن تكون لهم قائمة بعد اليوم، فقد طارت فضيحتهم في الآفاق، لذلك قال نوفل في نظرة عميقة وتحليل دقيق: (وإن تركته لم يضرك) أي: لو صبرت على الحصار، فستصل إلى مرادك وستفتح الحصن، لكن تضييع الوقت في حصارهم قد يكون ضاراً بالجيش الإسلامي أكثر من ضرره بثقيف. هنا عقد الرسول صلى الله عليه وسلم موازنة بين الأمرين، فوجد أن بقاءه في هذه البلاد أكثر من ذلك سيوقع الدولة الإسلامية في أضرار أكثر من الفوائد المحصلة، فأخذ الرسول ﷺ القرار الصعب بالانسحاب إلى وادي الجعرانة حيث غنائم المسلمين، وترك

حصار حصون الطائف المنيعة، وكان الرسول ﷺ في منتهى الحسم في هذا القرار، وأرسل إلى عمر بن الخطاب أن ينادي في الناس ويقول: (إنا قافلون غداً إن شاء الله) فكيف كان رد فعل المتحمسين والعاطفيين من أبناء الجيش الإسلامي؟ لم يستريحوا لهذا القرار، فقالوا في استنكار: نذهب ولا نفتح حصون الطائف، فلما رأى الرسول ﷺ كثرتهم احترم رأيهم، وأراد لهم أن يتعلموا الدرس بصورة عملية، فقال لهم: (اغدوا على القتال) أي: ما دمتم تريدون أن نقاتل فلنقاتل، فسمح لهم بالقتال في اليوم الثاني، وخرج المسلمون للقتال، وفي هذا اليوم بالذات أصيب المسلمون بإصابات شديدة الخطورة وإصابات بالغة. الرسول ﷺ لم يعنفهم على القرار الذي رغبوا فيه، ولم يقل لهم: ألم أقل لكم، وإنما قال لهم: (إنا قافلون غداً إن شاء الله) فقبل المسلمون هذه المرة في سرور وامتنعوا عن الجدل، واقتنعوا بعدم جدوى القتال، وبدءوا فعلاً في جمع الرحال، فضحك الرسول ﷺ عند رؤية المسلمين وهم يسارعون إلى جمع رحالهم.

واقعية الرسول ﷺ في المواقف

يعلمنا الرسول ﷺ في هذا الموقف أموراً مهمة جداً، يعلمنا الواقعية في الحياة، ليس عيباً أن نفشل في أمر من الأمور، وليس بالضرورة أن تكون كل معاركنا وكل مشاريعنا ناجحة، لكن المهم لا نغرق في العمل دون إدراك أن الهدف غير قابل للتحقيق، وليس معنى هذا سرعة اليأس، فالرسول ﷺ بذل كل ما في الوسع، فقد استخدم كل وسيلة لفتح الحصن، ولكن لم يقدر، فقبل في واقعية أن ينسحب، وفرق كبير جداً بين المثابرة وبين تضييع الوقت، فالمثابرة على أداء عمل أمر مطلوب، لكن لابد أن تكون هناك مؤشرات للنجاح، لابد أن تكون هناك مقاييس تشير إلى أن هذا العمل ممكن التحقيق، ولابد أن تكون الخسائر أقل من الفوائد، من أجل هذا لابد من المتابعة والملاحظة والتقييم المستمر، أما تضييع الوقت فهو الاستمرار في

عمل يستحيل تحقيقه بالإمكانيات المتاحة، أو يتسبب في خسائر أكبر من الفوائد، فالرسول ﷺ كان يريد أن يحقق الفائدة العظمى حتى وإن حصلت بعض الخسائر.

نلاحظ رد فعل الرسول ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، فقد أذن لهم بالقتال مع علمه أن فتح الحصن صعب جداً، لكن ليعيشوا معه في واقعيته ﷺ ولما أيقن الصحابة بعد بصعوبة المهمة، ووافقوا على الرحيل وهم راضون، قام رسول الله ﷺ ليفك الحصار ويغادر الطائف وهو يضحك. هذه القيادة الهادئة تبث الأمن والراحة في قلوب الجنود، لا يوجد انفعال ولا عصبية، ولا تحميل الآخرين أخطاء لم يعملوها، ولا حالة غضب، ولا حالة يأس وإحباط، ولا حزن، ولا كلمة (لو)، لو فعلنا كذا لكان كذا أو كذا، بل هدوء أعصاب، ورزانة، وثقة، وقدرة على التكيف في ظل كل الظروف.

أنا سعيد بعدم فتح الطائف، قد تستغرب الناس هذا الكلام، لكن الأمر المفرح من وجهين:

الأول: لو فتحت الطائف في هذه الظروف الصعبة والقتال الشرس، والمطاردة لهوازن وثقيف، والقتال في داخل الحصون، لقتل منهم ما لا يتصور، ولفقد الإسلام قوة هؤلاء جميعاً؛ لأن هوازن وثقيف أسلموا بعد ذلك، فلو قتلوا لفقد الإسلام قوتهم، ولكان عاقبتهم النار، وهذا أسوأ ولاشك.

الثاني: أن هذا الانسحاب دون إتمام المهمة فتح لنا باباً أن نفعل المثل إن تعرضنا لنفس الموقف، لكن لو أصر الرسول ﷺ على عدم الانسحاب حتى يفتح الحصن، لكان في هذا إحراج كبير جداً للأمة الإسلامية؛ لأنه سيكون لزاماً علينا أن نفعل مثله، لكن بهذا الفعل منه ﷺ ترك الأمر لقادة المسلمين، ولرأي الشورى، إن رأى المسلمون أن الحصار يجدي صبروا كما حدث

في فتح خيبر، وإن رأوا أنه أمر غير ممكن أو خسائره كبيرة انسحبوا، كما حدث في الطائف، ولهم في كلتا الحالتين أُسوة في رسول الله ﷺ .

من مواقفه ﷺ مع مخالفيه

هنا موقف في منتهى الرقي من مواقفه ﷺ وهو يغادر الطائف، قال له بعض الصحابة: (يا رسول الله، ادع الله على ثقيف) ، فقال في حب وفي أمل: (اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم). روى الترمذي وأحمد وقال الترمذي: حسن صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : (اللهم أهد ثقيفاً وائت بهم) ما غابت عنه أبداً رسالته في الحياة، فرسالته أن يصل بدعوته إلى الناس لا أن يقتلهم، ما على الرسول إلا البلاغ، حتى وإن رفض أهل الطائف الإيمان واستكبروا عنه وقاوموا وقاتلوا، فهو ما زال يرجو إسلامهم، حتى مع مرور السنين تلو السنين ما زال يرجو إسلامهم، حتى مع ذكريات الطائف في المرة الأولى، ومع واقع الطائف في المرة الثانية، ما زال ﷺ يرجو إسلامهم. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجز الناس عن النار، وهم يقتحمون فيها). أهل الطائف يدفعون أنفسهم دفعاً إلى النار ويقتحمون فيها، والرسول ﷺ حريص عليهم أكثر من حرصه على نفسه ﷺ .

كذلك عندما ناداه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين أبى ﷺ أن يهلك الطائف ومكة المكرمة حتى بعد أن عرض عليه ذلك ملك الجبال. كذلك فعل ذلك أيضاً مع قبيلة دوس لما رفضوا الإسلام قال: (اللهم أهد دوساً، وائت بهم)، وفعل ذلك مع قريش بعد أن قتلت 70 من خيار الصحابة في أحد، قال: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) فصدق الله العظيم إذ

يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:107]، ليس رحمة للمسلمين فقط، ولكن رحمة للعالمين لكل البشرية لكل الإنسانية.

قسمة غنائم معركة حنين بالجعرانة

رجع الرسول ﷺ ﷺ من الطائف بعد أربعين يوماً كاملة، ووصل إلى وادي الجعرانة ليبدأ في مهمة أخرى عظيمة، وهي مهمة تقسيم الغنائم المهولة على الجيش المنتصر.

نريد أن نقف وقفة سريعة مع الغنائم، الغنائم خصيصة لهذه الأمة العظيمة الأمة الإسلامية، فهي لم تكن مشروعة للأمم السابقة، روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي)،وذكرها منها: (وأحلت لي الغنائم)، هي نعمة من الله عز وجل وحافز قوي للمجاهد، فهي عوض للمجاهد عن تركه للديار وللأعمال وللأسرة وللوطن، ولاشك أن الجيش الذي توزع عليه الغنائم يقاتل بحمية تختلف عن الجيش الذي لا يتجاوز فيه راتب الجنود دراهم معدودة.

يقول الشرع الإسلامي: إن أربعة أخماس الغنيمة توزع على أفراد الجيش المقاتل، وخمس الغنيمة المتبقية يذهب للدولة تتصرف فيه حسب المصلحة، لكن في هذا الوقت في زماننا يستكثر القادة الكبار والزعماء هذا العطاء الضخم للجنود، ويحتفظون به للدولة أو لهم، فيسلبون بذلك حق الجنود، ولاشك أن ذلك سيكون له انعكاس كبير على قتال الجنود في المعارك، وعلى أداء الجنود في الحروب.

أقوال العلماء في غنائم حنين وبيان الراجح منها

فماذا عمل رسول الله ﷺ في غنائم حنين الهائلة؟ الفقهاء وكتاب السير اختلفوا فيما فعله ﷺ في غنائم حنين خاصة؛ أما المعارك السابقة بدءاً من بدر وحتى هذه اللحظة فقد اتفق الجميع

على أن أربعة أخماس الغنائم توزع على الجيش وخمس للدولة، إلا أن الأمر بالنسبة لحنين كان موضع خلاف بين الفقهاء. فمنهم من قال: إن رسول الله ﷺ وزع الغنائم بكاملها على المؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم: هم الذين أسلموا حديثاً سواءً من أهل مكة الطلقاء، أو من الذين أسلموا من الأعراب قبل فتح مكة مباشرة ومن قال بهذا الرأي: ابن حجر العسقلاني رحمه الله كما في فتح الباري.

ومنهم من قال: إن رسول الله ﷺ وزع أربعة أخماس الغنيمة على الجيش بكامله، ثم أعطى المؤلفة قلوبهم من الخمس المتبقي المملوك للدولة، وممن قال بهذا الرأي: القرطبي، وأبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الأموال، وابن خلدون، والقاضي عياض وغيرهم، وأنا أميل إلى هذا الرأي الأخير؛ لأن هذا الرأي يتفق مع الشرع والعقل والنقل، وعندي أكثر من دليل على ذلك: الأول: هذه الغنائم ليست ملكاً للرسول ﷺ ليوزعها بطريقة تخالف التوزيعة الشرعية، بل هذه الغنائم ملك للجيش، ولا تؤخذ منه إلا باستئذان خاص، وأيضاً هذا ما حصل، ومن قال: إن هذا أمر خاص بالرسول ﷺ يلزمه الدليل على ذلك، وإلا يصبح من حق أي زعيم أن يقول: إن ظرفي يماثل ظرف يوم حنين، فيأخذ الغنائم كلها لينفقها حسب ما يرى.

الدليل الثاني: لو كان هناك تغيير في تقسمة الغنائم لتوقعنا أن يذكر ﷺ أن ذلك أمر خاص بهذه الواقعة، حتى لا يعتقد البعض أن ما فعله في حنين قد نسخ التقسيم السابق للغنائم، خاصة وأن هذه المعركة هي آخر موقعة حربية مع العرب، حتى موقعة تبوك التي لم يحدث فيها قتال، ولم تكن فيها غنائم.

الدليل الثالثة: ما رواه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وكذلك عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال لأعرابي عند توزيع غنائم حنين

بعد أن أمسك وبرة أو شعرة بين إصبعيه قال: (إنه ليس لي من الفيء شيء، ولا هـذه) أي: ولا مقدار هذه الشعرة، (إلا الخمس، والخمس مردود فيكم) فهذا تصريح من الرسول ﷺ ، وقاله بعد توزيع الغنائم، ولا أدري كيف خفي هذا الحديث عمن قال: إن الرسول ﷺ وزع الغنائم بكاملها على المؤلفة قلوبهم، والحديث أيضاً رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت، وأخرجـه كذلك مالك والشافعي، وحسنه ابن حجر في الفتح. الرسول ﷺ يصرح أنه لا يملك في يـوم حنين إلا الخمس فقط من الغنائم.

الدليل الرابع: لو نظرت إلى من وزع عليهم الغنائم لأدركت أنه مـن المسـتحيل أن يكـون قـد قسم كل هذه الغنائم على المؤلفة قلوبهم، فعدد الذين أعطاهم الرسول ﷺ هذا العطاء السخي لا يزيدون في أي كتاب من كتب السيرة على عشرين رجلاً، ولـو جمعـت الأسـماء مـن الكتـب المختلفة قد تصل إلى أربعين أو خمسين رجلاً بالكثير. إذا كان الرسول ﷺ يعطـي النـاس مائـة من الإبل فعطاؤه لأربعين رجلاً سيبلغ أربعة 4000 بعير فقط، مـع أنـه كـان يعطـي بعضـهم خمسين لا مائة، فسيكون أقل من 4000 أو أقل من 5000 بعير، فهذه 4000 بعير فأين ذلـك من 24000 بعير هي غنائم حنين من غير الشياه فقد بلغت 40000 شاة، وغير الفضة 4000 أوقية من الفضة، وغير 6000 من السبي، ولم يرد أنه ﷺ أعطـى أرقامـاً كبـيرة كمائـة بعـير أو خمسين بعيراً إلا لهذه المجموعة من المؤلفة قلوبهم فقط.

الدليل الخامس: هل كان سيرضى أفراد القبائل من الأعراب ومن قريش إعطاء زعمائهم فقط، أم أنهم لا يرضون أبداً إلا إذا أخذوا ولو شيئاً يسيراً؟ أي: لو أنا أعطيت لـزعيم قبيلـة غطفـان مائة من الإبل، هل سيرضى 2000أو 3000 غطفاني دون إعطائهم؟ لاشك أن قلوب الجميع كانت تهفوا إلى الغنيمة، وكل الناس تحتاج إلى تأليف قلوبهم.

أنا أرى أن 99٪ من المسلمين الذين دخلوا في الإسلام بعد صلح الحديبية وبعد فتح خيبر يحتاجون إلى تأليف لقلوبهم، ولن يترفع منهم عن هذه الغنيمة إلا القليل، أمثال: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، والعباس، أمثال هؤلاء الكبار وبعض الأفراد المعدودين، أما الباقي فسيحتاج إلى تأليف، ودليل ذلك أن الرسول عليه السلام عند الهزيمة أول المعركة في حنين لم ينادِ على أولئك الذين أسلموا قبل الفتح؛ لأنه يعلم أن منهم من أسلم إلا رغباً أو رهباً، لكن الرسول ﷺ قصد بالنداء أصحاب الشجرة أهل الحديبية وهؤلاء هم 1400فقط، أي: أنه حتى يرضي المسلمين الجدد عليه أن يعطي 10600 مقاتل ويبقى 1400 وهم أصحاب الشجرة، فإذا كان ينوي إعطاء 10600من الغنيمة أيعجز أن يعطي 1400 الباقين؟ هذا كلام غريب لا يقبل، وخاصة أن هؤلاء هم الذين أدوا ما عليهم، وهم الذين دافعوا وكافحوا وبذلوا الجهد، وردوا كيد المشركين، فإعطاء 1400 لا يؤثر مطلقاً في إعطاء 10600 فليس هناك أي داع لحرمانهم من الغنيمة الرئيسية الشرعية المستحقة وهي أربعة أخماس الغنيمة الكلية.

هذه خمسة أدلة، وهناك دليل سادس سنذكره إن شاء الله في الدرس الآتي مع تقدم الأحداث.

قد يقول قائل: إن هناك ما يعكر صفو هذا التحليل في أمرين:

الأول: رواية البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه وذكر فيها: (أن الرسول ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً).

الأمر الثاني: ما جاء أيضاً في البخاري ومسلم : من أن الأنصار قد وجدوا في أنفسهم. أي: حزنوا بعد توزيع الغنائم، فإذا كانوا قد أخذوا فلماذا حزنوا؟ هذان الدليلان سنرد عليهما إن شاء الله أيضاً في الدرس الآتي.

بعد كل هذا ماذا عمل ﷺ ؟ إن الشرع والمنطق والعقل يقول: إنه قسم أربعة أخماس الغنائم على الجيش بكامله سواءً كانوا من المهاجرين أو الأنصار، أو الأعراب الذين أسلموا قبل الفتح، أي: قسم أربعة أخماس الغنائم على 12000 مقاتل، وبعد ذلك قسم الخمس المتبقي المملوك للدولة، الذي يملكه ﷺ وله حق التصرف فيه كزعيم للدولة وكقائد للأمة الإسلامية، قسم هذا القسم على المؤلفة قلوبهم، على الأربعين أو الخمسين واحداً. الجزء الأول: الذي هو أربعة أخماس قسمه ﷺ بين 12000 بالتساوي؛ لحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في مسند أحمد بن حنبل ، وذكر فيه: (أن الرسول ﷺ كان يقسم الغنائم على السواء). الفارس الذي معه فرس يأخذ ثلاثة أضعاف المترجل في القتال؛ لأنه يتولى رعاية الفرس من ماله الخاص، وبجهده الخاص؛الدولة كانت لا تملك هذه الخيول ولا تنفق عليها والجزء الثاني: الذي هو خمس الغنيمة وزعه الرسول ﷺ على الطريقة التي يريدها، وهذا التوزيع كان على بعض الرجال دون غيرهم.

مقدار غنائم حنين

نتحدث عن غنائم حنين بالأرقام: كانت غنائم 24000 من الإبل، و 40000 شاة، و 4000 أوقية من الفضة، هذا غير 6000 من السبي.

أربعة أخماس الغنيمة = 19200 من الإبل و 32000 شاة، و 3200 أوقية من الفضة و 4800 من السبي، فهذه الغنائم توزع على 12000.

كانوا يقيمون الجمل الواحد بعشر من الشياه، أي: أن كل واحد من أفراد الجيش سيأخذ إما جملين، وإما عشرين من الشياه وجاء في بعض الكتب تقول: أن الواحد من 12000 كان يأخذ أربعة جمال أو أربعين شاة، لكن عندما تحسبها ستجد أن هذا غير صحيح، وأن الصحيح أن

الواحد كان يأخذ جملين أو عشرين من الشياه، إلا أن تكون عدد الغنائم أكثر من ذلك، لكن الثابت والصحيح أن عدد الغنائم مثل ما ذكرناه: 24000 من الإبل و 4000 وأربعة آلاف أوقية من الفضة. فتكون هذه التقسيمات إما جملين أو عشرين من الشياه لكل فرد.

أما تقسيم الفضة فكل واحد سيأخذ ربع أوقية من الفضة.

أما السبي فتقسم بمعرفة الزعيم أو الإمام أو رئيس الدولة، وبما أن السبي 4800 وعدد الجيش 12000 فهناك من سيأخذ وهناك من لا يأخذ، فكان ﷺ يقرع بين الصحابة رضي الله عنهم أحياناً، وكان يعوضهم بالمال أحياناً، وكان يعطي البعض أحياناً، والبعض الآخر يعطى من الغزو اللاحق بعد ذلك.

القاعدة التي ستحكم هو التقسيم بالتساوي بالنسبة لأربعة أخماس الغنائم، أما بالنسبة للخمس المتبقي، فهذا المال هو مال الدولة، والرسول ﷺ كقائد يوجهه في الوجه الأصلح للدولة، قد يشترى به السلاح، قد يفتدى به الأسرى، قد تكون منه الهبات لأهل البأس في الحرب، قد تعطى منه رواتب وأجور، قد يدخل في مشروعات الدولة المختلفة.

المهم أن القائد سينفقه في الوجه الأصلح للدولة، فما هو الأصلح للدولة في ذلك الوقت؟ الرسول ﷺ رجل عمل يعيش أرض الواقع، ويعلم ﷺ أن في جيشه من الرجال من يقف على شفا حفرة، فمنهم من هو متردد جداً في الإسلام، ومنهم من دخل الإسلام رهباً من قوته، أو رغباً في أمواله، ومنهم من كان سيداً مطاعاً في قومه ليس لأحد في العرب أو في العالم كلمة واحدة عليهم، فأصبح الآن تابعاً له ﷺ، ومنهم من لو أمر قبيلته بالردة ومحاربة المسلمين لفعلوا ذلك، فالرسول ﷺ يعلم كل هذه الأمور ويدركها تماماً، فهو ﷺ يعلم أن هناك من لم

يكن مقتنعاً تمام الاقتناع بالإسلام، ولم يكن الإيمان قد تغلغل في قلـوبهم، وأن نـور الإسـلام لم يكن قد محا تماماً ظلمات الكفر التي عاشوا فيها سنوات طويلة.

سبب تأليف الرسول ﷺ زعماء القبائل والمؤلفة قلوبهم بغنائم حنين

كان الرسول ﷺ يعلم أن الدولة الإسلامية تقف الآن على بركان خطير، فلو خطر عـلى ذهـن كل سيد من سادات العرب، وكل زعيم من زعماء القبائل المختلفة أن يثور وينقلب على الدولة الإسلامية، فإن هذا قد يؤدي إلى دمار شامل للدولة الجديـدة؛ الدولـة الجديـدة لم تسـتقر بعـد بصورة جيدة، وخاصة أن أموال وأمـلاك الدولـة الإسـلامية قـد اتسـعت جـداً، وكثـر أتبـاع المسلمين، وليس هناك وقت كاف لتربية كل هؤلاء المسلمين الجدد.

فماذا يعمل الرسول ﷺ ؟ عرف الرسول ﷺ أنه لن يؤمن جانبهم إلا بترضـية سـخية ومجزيـة من الدولة الإسـلامية، فلـو أحسـوا أن حـالتهم المادية اسـتقرت، وأن أمـوالهم كثـرت، وأن وضعهم الاجتماعي تحسن بعد انتمائهم للدولة الإسلامية، فسيحبون هذه الدولة التـي حققـت لهم هذا الرخاء، ويحاولون بكل طاقة أن يدعموا هذه الدولـة؛ ليسـتمر وضـعهم في التحسـن، وهؤلاء أصحاب مادة من البداية إلى أن يحسن إسلامهم بعد ذلك.

نعم، الإيمان الذي يكون سببه حب المال إيمان ضعيف، لكن قد يكون هـذا في البدايـة، ثـم إذا دخل في محاضن التربية الإسلامية يبدأ الإيمان في الرسوخ تـدريجياً حتـى يصـبح الإيـمان أغـلى عنده من المال. الرسول ﷺ يعلم أن النظام القبلي المترسخ في الجزيرة العربية منذ قـرون يجعـل لقائد القبيلة الكلمة العليا المطلقة في قبيلته؛ من أجل ذلـك أراد ﷺ أن يشـتري رضـا هـؤلاء الزعماء واستقرار هؤلاء الزعماء بالمال، فعلاً هؤلاء الزعماء سـوف يـؤثرون تـأثيراً إيجابيـاً عـلى أتباعهم من القبائل المختلفة، ومن ثم هو يشتري استقرار الدولة الإسلامية، لكن هناك معـوق

لهذا الأمر، وهذا المعوق يحتاج إلى دراسة. الذين بذلوا الجهد في معركة حنين، والذين كانوا سبباً مباشراً من أسباب النصر هم قدامى المهاجرين والأنصار، وهؤلاء بفضل الله عز وجل ثابتون في الإسلام دون شك، لا يحتاجون لإغراء بالمال أو بغيره، وتاريخهم معروف جداً، ومواقفهم مشرفة وأياديهم بيضاء عن الإسلام والمسلمين، وكان ﷺ من عادته أن يعطي عطاءً أكبر لأهل البلاء ولمن بذل جهداً زائداً في القتال، وعمل ذلك في أكثر من موقعة قبل حنين. لو أراد أن يكافئهم على جهدهم سيعطيهم من الخمس الذي تمتلكه الدولة، لكن الرسول ﷺ في هذا الموقف المحايد، هل يعطي زعماء القبائل الذين أسلموا حديثاً ولم يبذلوا الجهد المطلوب في حنين، ولم يعودوا إلى الصف إلا بعد رؤية الأمور تتجه لصالح المسلمين؟ هل يعطي هؤلاء ليشتري استقرار الدولة الإسلامية، أم يعطي الأنصار والمهاجرين ليكافئهم على جهدهم؟ لقد عقد الرسول ﷺ مقارنة بين الوضعين، واختار دون تردد الرأي الأول؛ لأن استقرار الدولة الإسلامية هدف تتضاءل إلى جواره الأهداف الأخرى، لو تزعزع هذا الاستقرار فسيدفع الجميع الثمن، سواء من قدامى المسلمين، أو ممن أسلموا حديثاً، الجميع سيعاني من هذا الاضطراب في استقرار الدولة الإسلامية. لا ننكر أن هناك ضرراً نفسياً ومادياً سيقع على الأنصار والمهاجرين، لكن الضرر الأكبر هو اضطراب الدولة الإسلامية وعدم استقرارها، ولتصديق قاعدة: دفع أكبر الضررين، وجلب أكبر المنفعتين رأى الرسول ﷺ أن شراء زعماء القبائل وسادتهم بالمال مقدم على مكافأة الأنصار والمهاجرين، بل وجد ﷺ أنه لا يستطيع أن يعطي جزءاً لسادة القبائل وجزءاً للأنصار والمهاجرين؛ لأن هذا سيؤدي إلى نقص المعطى لسادة القبائل، وقد يستصغرونه أو يستحقرونه فلا يتحقق المطلوب، هذا من ناحية. من ناحية ثانية: هؤلاء الزعماء قد لا يشعرون بشيء من التميز، ومن ثم قد لا يرضون تمام الرضا. أنا أعلم أن كلامي هذا قد لا يرضي عواطف المستمعين، لكن لاشك أنه يقنع عقول المستمعين،

هذا الكلام عليه تطبيقات عملية كثيرة جداً سنراها بعد ذلك في الفتوح وعند مواجهة أحداث الفتنة، وفي مواقف كثيرة، ولاشك أن هذا هو الأفضل والأحكم؛ لأنه في الأساس اختيار نبوي أقره رب العالمين سبحانه وتعالى، ولم ينزل وحي يعارض هذا القرار، نحن رأينا ممن عاصر هذا الموقف بعض الاستغراب وعدم الفهم، وكان ممن استغربه مؤمنون شديدو الإيمان كالأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم، وسنأتي لقصتهم في الدرس القادم إن شاء الله.

كذلك استغربه بعض الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وليسوا من السادة، ووصل استغرابهم إلى درجة غير مقبولة، من هؤلاء أحد الأعراب جاء إلى الرسول ﷺ كما روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث جاء هذا الرجل وقال في غلظة: (والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله عز وجل) فغضب ﷺ وقال: (فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله) فالرسول ﷺ لم ينسب العدل في هذه القسمة له وحده، إنما قال: (فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله) وهذا فيه تأكيداً على أن الأمر مؤيد بالوحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، وهذه الكلمة من هذا الرجل كانت فاجرة، وقد تحمل على الكفر إلا أن الرسول عليه السلام لم يشأ أن يقتله بها، مع أن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد عرضا عليه قتل هذا الرجل، لكن الرسول ﷺ ذكر أنه لا يقتل؛ لعلة واضحة، قال: (معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه). كان هدف استقرار الدولة الإسلامية واضحاً جداً في ذهن الرسول ﷺ، لو قتل هذا الرجل لنفر الناس عن الدولة الإسلامية مخافة القتل عند الخطأ؛ لذلك عامله ﷺ كما يعامل المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فهذه القصة أوضحت طبيعة بعض المسلمين الجدد، وأظهرت ما كان يتوقعه ﷺ ويخشاه أمر واقعي موجود، وخاصة أن هذه القصة ما كانت حدثاً فريداً في قصة حنين، لا، بل تكررت في أكثر من

موقف عند توزيع غنائم حنين، ولاشك أن هذا كله كان يتراكم في ذهن الرسول ﷺ ليصبح سبباً واضحاً في القرار الذي أخذه بخصوص توزيع الخمس على الزعماء والسادة.

أيضاً موقف مشابه لهذا الموقف حدث عند توزيع الغنائم، وهذا الموقف جاء أيضاً في البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يوضح طبيعة ونفسيات الأعراب المشاركين في حنين. يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلال رضي الله عنه، فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني)، كان الرسول ﷺ قد وعد بتقسيم الغنائم عليهم، ولكن تأخر كثيرًا جدًا عن يوم حنين؛ لأنه بقي أربعين يوماً تقريباً محاصراً الطائف هذا غير أيام الذهاب والعودة، فما كان من الرسول ﷺ إلا أن تلطف معه وقال له: (أبشر) أي: سأعطيك أبشر، فرد الأعرابي في غلظة تعبر عن نفسية منحرفة قال: (قد أكثرت علي من أبشر)، وحتى الآن لم أر شيئاً. هذا الكلام أثر جداً في الرسول ﷺ ، وغضب ﷺ وذهب إلى أبي موسى الأشعري وإلى بلال وقال: (رد الأعرابي البشرى قلت له: (أبشر فرفض، فاقبلا أنتما، قالا: قبلنا). الشاهد من القصة: غلظة الأعراب الذين أسلموا حديثاً، فهم لم تروض أخلاقهم بعد في الإسلام.

خلاصة القول شئنا أم أبينا: هذه النوعية من الناس وهذه الفئة من المسلمين ستظل موجودة، إما أن نعترف بالواقع ونتعايش ونتعامل معهم على هذا الأساس، وإما نعيش في مثاليات وهمية ليس لها مكان على أرض الواقع، مع كل ما يحمله هذا النهج الأخير من خطورة على الأفراد والأمم، ونريد أن نلفت الأنظار أيضاً لنقطة مهمة جداً، قبل الخوض في تفصيلات ما حدث عند تقسيم الخمس على الزعماء والسادة، وهي: أنه لولا ثقة الرسول ﷺ التامة بالسابقين من الأنصار والمهاجرين؛ لكان تطبيق هذا القرار مستحيلاً وغير ممكن؛ لأن إيمانهم لو كان ضعيفاً لاحتاجوا هم أيضاً إلى تأليف وإلى إعطاء مال، لكن الرسول ﷺ كان يعلم تماماً أنهم عاشوا

ليعطوا لا ليأخذوا، وعاشوا لدينهم لا لأنفسهم، وطلبوا الجنة ولم يطلبوا الدنيا، من أجل هذا استطاع أن يأخذ القرار الصعب.

إعطاء الرسول ﷺ لأبي سفيان وولديه يزيد ومعاوية من غنائم حنين

تعالوا بنا ننظر ما فعله الرسول ﷺ في هذا الخمس مع زعماء مكة وقادة القبائل، مع العلم أن هذا الخمس يمثل رقماً كبيراً جداً من الغنائم، فالخمس كان 4800 من الإبل و 8000 شاه و800 أوقية من الفضة و 1200من السبي.

كان أول لقاء مع زعماء مكة وأولهم أبو سفيان زعيم مكة الأول، فقد حكم مكة ست سنوات متصلة بعد مقتل أبي جهل، منذ غزوة بدر حتى فتح مكة، وهو من أصحاب رءوس الأموال الضخمة في مكة، وهو قد حصلت له مواقف مهينة في غضون الشهرين السابقين بدءاً من زيارته للمدينة المنورة كما رأينا قبل ذلك لمحاولة إطالة مدة الحديبية، ومروراً بموقفه في الطريق من المدينة إلى مكة، وكان إيمانه في ظروف قاسية جداً جداً على قلب أي زعيم، وكذلك عند دعوته أهل مكة إلى عدم الدفاع عنها وفتحها لرسول الله ﷺ دون قتال، وإنتهاءً بنزع زعامة مكة منه، وإعطاء هذه الزعامة لأحد الأمويين، كان في مثل عمر أولاده وهو عتاب بن أسيد رضي الله عنه. لاشك أن الرسول ﷺ كان يقدر كل هذه المعاناة التي يشعر بها أبو سفيان، كما أنه يعلم أنه لن يرضى بقليل من العطاء؛ لأنه من كبار زعماء مكة؛ من أجل هذا أعطاه الرسول ﷺ عطاء ضخماً.

جاء أبو سفيان إلى الرسول ﷺ وهو في وادي الجعرانة، وحين رأى أبو سفيان الغنائم الهائلة قال: (يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً) أي: صرت أغنى رجل فينا، فقد كان يلمح بوجود المال الكثير، فتبسم ﷺ ولم يتكلم، فلما رأى أبو سفيان أن التلميح غير نافع، قال:

(أعطني يا رسول الله من هذا المال) هكذا تصريحاً. لا تتعجبوا؛ فهذه كميات هائلة من المال، ولعله إن لم يصرح أن توزع على غيره وعندها سيندم حيث لا ينفع الندم، فقال النبي ﷺ : (يا بلال زن لـ أبي سفيان أربعين أوقية من فضة، وأعطه مائة من الإبل) بلال الذي كان يباع ويشترى ويعذب هو الآن المقرب من زعيم الدولة، وهو الذي يعطي هذا وذاك من الزعماء السابقين، فكان أبو سفيان ينظر إلى العطايا وهو لا يصدق نفسه، فكل هذه الأغنام، وكل هذه الإبل، وكل هذه الفضة تصبح ملكه، في لحظة واحدة أصبح أبو سفيان يمتلك أربعين أوقية من الفضة؛ حوالي كيلو ونصف فضة، ومائة من الإبل، وهذا رقم ضخم هائل، فدية القتيل مائة من الإبل، وهذا هو نفس الرقم الذي رصدته قريش لمن يأتي بالرسول ﷺ أو الصديق رضي الله عنه حياً أو ميتاً عند الهجرة إلى المدينة، ومع أن هذا رقم مهول إلا أن أبا سفيان وجد نفسه يطلب المزيد قبل أن يفنى هذا المال الغزير، قال أبو سفيان: (ابني يزيد يا رسول الله)، فقال ﷺ : (زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطه مائة من الإبل)، فقال أبو سفيان: (ابني معاوية يا رسول الله)، وهذان كانا مسلمين من أبنائه، فقال ﷺ : (زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطه مائة من الإبل)، فذهل أبو سفيان وقال في صدق -واسمعوا هذا الكلام الذي سيقوله-: (إنك الكريم فداك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً).

تشعر بالصدق في كل كلمة من كلماته، ما الذي غيره من رجل يشك في نبوة الرسول ﷺ إلى رجل مؤمن مادح لرسول الله ﷺ ؟ ما الذي ثبته بعد تردد؟ ما الذي أسعده بعد حزن؟ أليست الثلاثمائة من الإبل والمائة والعشرين أوقية من الفضة، وما هذه الأموال إلى جوار هداية إنسان؟ وما هذه الأموال إلى جوار استقرار الدولة الإسلامية؟ وما هذه الأموال إلى جوار تأليف قلوب بني أمية، وما هذه الأموال إلى جوار ثبات أهل مكة على الإيمان. صحيح أن المال

حلو خضر، لكن يتصاغر جداً إلى جوار هذه المعاني، فهذه كانت نظرة الرسول ﷺ ، من أجل هذا كان يعطي ﷺ بلا حساب، كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، كان يعطي وكأن المال لا ينتهي، وانتهت قصة أبي سفيان مع الرسول ﷺ ، وجاء غيره وغيره وغيره.

إعطاء الرسول ﷺ لحكيم بن حزام من غنائم حنين مع درس تربوي نبوي

جاء حكيم بن حزام رضي الله عنه وهو أيضاً من مسلمة الفتح، ودار بينه وبين الرسول ﷺ حوار رواه البخاري ومسلم، والذي يروي الحوار هو حكيم بن حزام نفسه، يقول حكيم رضي الله عنه: (سألت رسول الله ﷺ فأعطاني) أعطاه مائة من الإبل، ثم يقول حكيم: (ثم سألته فأعطاني) أعطاه مائة ثانية، (ثم سألته فأعطاني) أعطاه مائة ثالثة، فأراد الرسول ﷺ أن يعطي حكيم بن حزام درساً تربوياً في منتهى العظمة، قال له: (يا حكيم، إن هذا المال حلوة خضرة) ولم يقل: حلو خضر؛ لأن المقصود هنا الدنيا، كما في الحديث: (إن الدنيا حلوة خضرة) ثم يقول ﷺ : (فمن أخذه بسخاوة نفس) بغير شره وبغير إلحاح، (بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس) بطمع وتشوف، (لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى). لما سمع حكيم بن حزام الدرس دخل في قلبه مباشرة، وفقه مراد الرسول ﷺ مباشرة، وأسرع برد المائة الثانية والثالثة وأخذ الأولى فقط، ثم قال في صدق: (يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا) أي: لا آخذ من أحد شيئاً، ولا أنقص أحداً من ماله، فكان صادقاً في قسمه هذا رضي الله عنه، ما كان يأخذ من أحد شيئاً أبداً، حتى إنه كان يرفض العطاء الذي يستحقه من أبي بكر ثم عمر بعد ذلك؛ لأنه أقسم أنه لا يأخذ من أحد شيئاً أبداً. كان هذا درساً نبوياً عظيماً جداً، والمنهج الإسلامي العظيم كيف يبني الناس على صورة أشبه بالملائكة منها بالبشر.

إعطاء الرسول ﷺ لبقية زعماء القبائل من المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين

غدا ﷺ يوزع على بقية زعماء مكة، أعطى من يعتقد أن في قلبه ضغينة للإسلام وحقد على الدولة الجديد، إما لدوافع قبلية، أو أن أقارب بعضهم قتلوا على يد المسلمين، أو أنهم نزعت زعامتهم الشخصية، فأعطى سهيل بن عمرو رضي الله عنه وهو أحد كبار زعماء مكة، والمفاوض القرشي الشهير في صلح الحديبية، والذي أسلم منذ أيام قليلة فقط في فتح مكة. أعطى الحارث بن هشام أخا أبي جهل وذلك ليلين قلبه، ويهون عليه مصابه في أخيه زعيم مكة سابقاً أبي جهل، وليتألف قلوب بني مخزوم. أعطى النضير بن الحارث أخا النضر بن الحارث شيطان قريش المعروف، والذي كان من ألد أعداء الرسول ﷺ، والذي قتل في أعقاب غزوة بدر، أعطاه ليتألف قلبه، ويتألف قلوب بني عبد الدار وأعطى ﷺ كثيراً من زعماء مكة ليضمن استقرار الأوضاع في مكة.

بعد ذلك بدأ يعطي زعماء القبائل من الأعراب من أجل أن يضمن ولاءهم وانتماءهم للدولة الإسلامية، فقد أعطى عيينة بن حصن زعيم قبيلة بني فزارة، أعطاه مائة من الإبل، وهذا الرجل كان غليظاً جداً سيئ الخلق، اشتراه ﷺ بالمال في هذا الموقف، فسكن عن إحداث فتنة، وإن كانت أخلاقه لم تتغير كثيراً، فهذا الرجل ارتد بعد وفاة الرسول ﷺ، لكنه عاد وتاب أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. أعطى كذلك زعيم بني تميم: الأقرع بن حابس وأيضاً كان من غلاظ الطباع، وحديث الإسلام، وقبيلته بنو تميم قوية أعطاه مائة من الإبل ليتألف قلبه وقبيلته.

كذلك أعطى العباس بن مرداس زعيم قبيلة سليم، يبدو أنه قدر قيمة العباس أقل مما قدر قيمة عيينة والأقرع فأعطاه خمسين ناقة فقط، ومع أن خمسين ناقة كثيرة جداً إلا أن ذلك لم يعجب

العباس بن مرداس فطلب من الرسول ﷺ يطلب المزيد والمساواة مع عيينة والأقرع زعيمي فزارة وتميم، وقال العباس بن مرداس شعراً:

فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

العبيد الذي هو: الفرس حقه، أي: يكون نصيبه أصبح هو لين بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع

فـ حصن والد عيينة وحابس والد الأقرع ومرداس والد العباس هذا

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

أي: من تضع قدره يا رسول الله اليوم لن يرفع بعد ذلك، فلما سمع رسول الله ﷺ هذه الكلمات قال: اقطعوا عني لسانه وزيدوه إلى مائة، فزادوا له في العطاء فزادوه إلى المائة، وتعليق الرسول ﷺ يشعر أن هؤلاء ما دخلوا في الإسلام إلا رغباً في هذه الأموال أو رهباً من الدولة الإسلامية. بعد ذلك حسن إسلام العباس بن مرداس وصار من فضلاء الصحابة رضي الله عنه.

نجحت سياسة إعطاء المال لتأليف القلوب بتثبيت هؤلاء المسلمين الجدد على الإسلام، وبالتالي تثبيت أركان الدولة الإسلامية. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها).

إعطاء الرسول ﷺ لصفوان من غنائم حنين مع كونه مشركاً في ذلك الوقت

إن الرسول ﷺ عند توزيع غنائم حنين أعطى من غنائم حنين بعض المشركين، ومن أشهر من أعطاهم أحد زعماء مكة الكبار صفوان بن أمية وكان مشركاً وصفوان هو ابن الزعيم المكي

المشهور أمية بن خلف، وأمية بن خلف قتل كافراً في بدر، وصفوان من زعامات مكة الذين اشتركوا في الحروب المتتالية ضد المسلمين، وممن فر من مكة بعد الفتح صفوان بن أمية، والرسول ﷺ قبل ذلك كان قد أعطاه مدة أربعة شهور ليفكر في أمر الإسلام، ثم استأجر منه ﷺ السلاح في غزوة حنين، وخرج صفوان مع الجيش المسلم إلى حنين؛ ليحمل الأسلحة للمسلمين على جماله، وظهرت منه بعض الكلمات توضح ميلاً إلى الإسلام، لما انهزم المسلمون في أول الأمر وهربوا قال كلدة بن حنبل: (ألا بطل السحر اليوم)، فاعترض صفوان على شماتة كلدة وقال: (اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني -أي: يملكني- رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن) وإن كان قال هذا الكلام من ناحية قبلية بحتة إلا أنه عبر عن اختفاء الضغينة الشديدة للرسول ﷺ من قلبه، ويبدو أن الرسول ﷺ أحس منه فرصة إسلام، فأراد أن يجزل له العطاء بصورة أضخم من كل التصور.

صفوان بن أمية كان واقفاً يشاهد الناس تأخذ الغنائم، ولكونه من المشركين بقي يشاهد متحسراً، فنادى الرسول ﷺ صفوان بن أمية وأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى زعماء المسلمين من أهل مكة، وبعد أن أعطاه الإبل نظر إلى واد في حنين فيه إبل كثيرة وشياه كثيرة، فظهرت عليه علامات الانبهار من كمية الأنعام، فقال له ﷺ : (أبا وهب يعجبك هذا الشِعب)؟ أي: أعجبتك هذه الأغنام وهذه الإبل؟ قال صفوان في صراحة شديدة: (نعم)، فقال ﷺ في سهولة وكأنه يتنازل عن جمل أو جملين: (هو لك وما فيه)، فذهل صفوان بن أمية من هذا التصرف العجيب من الرسول ﷺ ، فلم يملك صفوان بن أمية نفسه أن قال: (ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله) فأسلم صفوان في مكانه. يقول صفوان بن أمية كما روى الإمام مسلم في الصحيح: (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي) ﷺ .

أي خير أصاب صفوان رضي الله عنه وأرضاه؟ أي خير تحقق لقبيلة بني جمح عندما أسلم زعيمها؟ أي خير حقق لمكة؟ أي خير تحقق للمسلمين عندما أضيفت إليهم قوة الزعيم المكي المشهور صفوان بن أمية والذي حسن إسلامه بعد ذلك، وصار من المجاهدين في سبيل الله؟ كل هذا الخير حصل بمجموعة من الإبل والشياه، فأي قيمة لهذه الإبل والشياه؟ هذه الإبل والشياه إما تؤكل أو تموت، بل الدنيا بكاملها ستفنى، لكن الذي لا يزول هو نعيم الجنة، كم من البشر سيذوق نعيم الجنة ويخلد فيه؛ لأنه أعطي مجموعة من الإبل والشياه؟ أليس هذا فهماً راقياً من رسول الله ﷺ لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وحقيقة الغنائم وحقيقة البشر؟! أليس هذا تقديراً صائباً من الرسول الحكيم ﷺ ؟

نتائج تقسيم خمس غنائم حنين على المؤلفة قلوبهم

هذه هي المقارنة التي عقدها المصطفى ﷺ الغنائم مقابل الإسلام، الدنيا مقابل الآخرة، فهو ﷺ هانت عليه الدنيا بكاملها وأعطاها دون تردد؛ لأن الدنيا عنده لا تعدل جناح بعوضة، والدنيا عنده قطرة في يم واسع، والدنيا عنده أهون من جدي أسك ميت. هذا لم يكن كلاماً نظرياً فلسفياً، شاهده الناس جميعاً بعيونهم كان واقعاً في حياته وحياة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وكان هذا الواقع بارزاً في أبهى صوره في قصة غنائم حنين، حيث أعطى ما لم يعط أحد من العالمين، حتى بعدما أعطى هذا العطاء لم يتبق في يده شيء لنفسه ﷺ ، لم يتبق ما يعوض به فقر السنين وتعب العمر، وقد بلغ الستين من عمره، بل تجاوز ﷺ الستين، لم يحتفظ بشيء لنفسه، بل وزع هنا وهناك على الأعراب، وعلى حديثي الإسلام، حتى إنه لم يبق معه شيء أبداً، وحاصره الأعراب الجفاة يطلبون المال والأنعام حتى اضطروه -وهو الزعيم المنتصر والقائد الأعلى والرسول الكريم ﷺ - اضطروه إلى شجرة ونزعوا رداءه، فقال في أدب وفي رفق وفي لين يليق به كنبي، ويجدر به كمعلم ﷺ : (أيها الناس ردوا علي ردائي، فو الذي

نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً)! وصدق رسول الله ﷺ ما كان بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً، كان هذا هو فقه النبي ﷺ يوم حنين، كان هذا هو قراره ﷺ بتوزيع خمس الغنائم بالكامل على المؤلفة قلوبهم، وكانت هذه هي تبعات هذا القرار ونتائجه، وكانت هذه هي الصورة في ذهن الرسول ﷺ ، لكن هل استوعب كل الصحابة هذه الصورة؟ هل فهموا جميعاً هذه الأبعاد، وأدركوا هذه النتائج؟ هل اقتنعوا بهذا القرار حيث أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يعط السابقين شيئاً؟

لا، ليس كل الصحابة اقتنعوا بهذا القرار، نعم هناك من أدرك هذه الأبعاد والنتائج، لكن هناك من لم يستطع أن يدرك هذه الأبعاد النبيلة في فكر الرسول ﷺ ، فكان لابد لهم من الاستفهام والتساؤل، ومن هؤلاء مثلاً: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقد أبدى الاستغراب لهذا الأمر، قال سعد: (يا رسول الله، أعطيت عيينة والأقرع مائة مائة وتركت جُعَيل بن سُراقة الضمري) وجُعيل بن سراقة من أهل الصفة من فقراء المسلمين فأجاب ﷺ الإجابة التي تفسر وتوضح ما فعله، قال: (أما والذي نفس محمد بيده لـ جعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض خير مما يملأ الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه) رضي الله عنه وأرضاه. هذه الكلمة تعدل عند جعيل مال الأرض كله، ليس معنى أنني أعطيت واحداً ومنعت الآخر أن الأول أفضل من الثاني، بل العكس فقيمة جعيل بن سراقة عند الرسول ﷺ أغلى من ملء الأرض من مثل عيينة والأقرع مع أن جعيلاً أقل مالاً وأقل سلطة وأقل شهرة وأقل وضعاً اجتماعياً، لكنه أعلى إيماناً وأرسخ قدماً في الإسلام، وجعيل رضي الله عنه وأرضاه فقه ذلك المعنى، وكانت هذه الشهادة من رسول الله ﷺ عنده أغلى ليس فقط من غنائم حنين، ولكن أغلى من كل مال الأرض.

هذا كان استغراب بعض الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص من إعطاء حديثي الإسـلام وتـرك السابقين من المهاجرين والأنصار، لكن هناك استغراب كـان أكثـر أهميـة وأكثـر خطـورة مـن مجموعة أخرى من المسلمين، هذه المجموعة كانت الأنصار. وجه الأهمية ومكمن الخطـورة أن هذا الاستغراب والإنكار لم يكن فردياً في الأنصار، إنـما كـان جماعيـاً مـن مجموعـة كبـيرة مـن الأنصار، هذا موقف مشهور معروف وفيه دروس لا تحصـــى، ويحتـاج إلى تحليـل كبـير، وإلى استخراج عبر وعظات وتعلم نهج نبـوي راق جـداً في إدارة الأمـور، وكيـف يخـرج ﷺ مـن الأزمات الطاحنة بأفضل النتائج التي لا تخطر على بال إنسان. فقه نبوي حكيم ربـاني في تربيـة البشر وفي قيادة العالمين، هذا يحتاج إلى تفصيل.

42

إسلام هوازن

تحدثنا عن توزيع غنائم حنين، وعن تقسيم أربعة أخماس الغنيمة على الجيش بكامله، ثم توزيع الخمس المتبقي على المؤلفة قلوبهم من طلقاء مكة وزعماء مكة وزعماء القبائل العربية المختلفة، وكان كما رأينا توزيعاً سخياً بلغ مائة من الإبل للبعض، وتجاوز هذا الرقم للبعض الآخر، وذكرنا علة ذلك وأن الرسول ﷺ كان يريد استقرار الدولة الإسلامية، ووازن بين مصلحة هذا الاستقرار، وبين مفسدة حرمان المجاهدين الذين بذلوا الجهد، وكانوا سبباً مباشراً في النصر يوم حنين، فوجد ﷺ بعد هذه الموازنة أن استقرار الدولة الإسلامية أثقل، ولذلك أعطى المؤلفة قلوبهم ومنع السابقين، وتفهم كثير من الصحابة هذا الموقف، لكن هذا التفهم لم يكن من الجميع، بل غضبت مجموعة من الصحابة لهذا الفعل، وشعرت هذه المجموعة أنها حرمت ما تستحقه، بينما أعطي من لا يستحق، فهذه المجموعة من الأصحاب هم الأنصار، غضب كثير من الأنصار؛ لأن الرسول ﷺ لم يعطهم من الخمس المملوك للدولة، مع أنه أعطى بسخاء مجموعة حديثة الإسلام، ما قدمت شيئاً للإسلام، وما خدمت الدولة الإسلامية خدمة تذكر.

قبل أن تأخذوا موقفاً من الأنصار، وقبل أن توجهوا اللوم على الأنصار بأي صورة من صور اللوم، فتعالوا بنا نراجع بعض الحقائق التاريخية الهامة:

أولاً: على أكتاف الأنصار قامت الدولة الإسلامية الأولى، قبل ظهور الأنصار في الصورة كان المسلمون متشتتين في الأرض، ناس في مكة وناس في الحبشة وناس في غيرها من القبائل، فجعل الله عز وجل الأنصار سبباً في جمع شمل المسلمين، وفي إقامة الدولة الإسلامية، وذلك عندما استضافوا الرسول ﷺ والمسلمين في مدينتهم، المدينة المنورة.

ثانياً: أخذ الأنصار منذ الأيام الأولى لإسلامهم القرار بمواجهة الأحمر والأسود من الناس، كانوا يعرفون تماماً أن الإسلام يعني: مفارقة العرب قاطبة، يعني: قطع الحبال التي بينهم وبين اليهود، يعني: مواجهة العالم، هكذا كانوا يعرفون، وهكذا أخذوا القرار بمنتهى التشرف القوة.

ثالثاً: أن قيمة المال في عيون الأنصار قليل جداً، بل لعله منعدم، فأحياناً قد لا يرون لأنفسهم حقاً في أموالهم الشخصية، فتجدهم يعطون هذه الأموال للآخرين بطيب نفس، قل أن يوجد مثلهم في البشر، ورأينا كيف كانوا يقسمون الأموال بينهم وبين المهاجرين رضي الله عنهم، بغض النظر عن الحالة المادية للأنصاري الذي ينفق، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في كتابه الكريم، ووصف الأنصار بصفة الإيثار، قال سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر:9]، حتى الفقير من الأنصار كان ينفق في سبيل الله ويؤثر غيره على نفسه وهو محتاج. هذه هي نفسية الأنصار بشهادة رب العالمين سبحانه وتعالى.

رابعاً: اشترك الأنصار في كل غزوات الرسول ﷺ ، بل كانوا الجانب الأعظم من الجيش في بدء أول مواقع المسلمين، وبدء المسلمين كانوا 313 أو 314 والأنصار كانوا يمثلون ثلثي الجيش تقريباً، 231 من الأنصار، و 83أو 84 من المهاجرين، واستمر الأمر على ذلك في بقية الغزوات إلا الغزوات المتأخرة التي زاد فيها عدد المسلمين جداً، لكن في الغزوات الأولى كان

معظم الجيش من الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم. لديهم من المواقف المشــرفة في التاريخ ما لا يحصـــى، ومن أشهر المواقف موقف أحد، ففي أحد فر بعض المسلمين، وصار إحباط من بعض المســلمين، لكن الثبات كل الثبات كان في جانب الأنصــار رضي الله عنهم وأرضــاهم، فرأينا في غزوة أحد استشـهاد شـباب الأنصـار حول الرسـول ﷺ الواحد تلو الآخر، كانوا واقفين حوله تسعة، سبعة من الأنصار واثنين من المهاجرين: سعد، وطلحة رضي الله عنهما، مـــات السبعة كلهم تحت أقدام الرسـول ﷺ دفاعاً عنه ﷺ ، ورأينا أمثلة سعد بن الربيع وحنظلة وأنس بن النضر وعبد الله بن حرام وخيثمة وعمرو بن الجموح وغيرهم. شهداء أحد كانوا سبعين، وكان فيهم 66 أنصارياً، يعني نسبة 94٪، بذل، تضحية، جهاد في سبيل الله بالمال وبالنفس.

خامساً: أن الأنصار على خلاف ما يتوقع الكثيرون، كانت حالتهم المادية فقيرة، وقد ذكرنا هذا الكلام قبل ذلك عندما تكلمنا عن المجتمع المدني الذي هاجر إليه الرسـول ﷺ في أوائل عهد المدينة المنورة، مع أن القارئ للسـيرة قد يظن الأنصــار أغنياء لكثرة عطاء الأنصــار وكرم الأنصــار، لكن الثابت أن معظم الأنصــار كان فقيراً فعلاً، وأن حالة المدينة الاقتصـادية كانت منخفضـــة جداً، وليس أدل على ذلك من مواقف الجوع الكثيرة جداً التي مرت بها المدينة المنورة، ومن أشهرها حصار الأحزاب في أواخر سنة 5هـــ، كانت المدينة في حالة من الفقر الشديد، وبالكاد يأكلون، وأكلهم غير مستساغ أصلاً كما ذكرنا في دروس الأحزاب.

سادساً: أنه بعدما حدثت الأزمة في حنين وفر معظم الجيش نادى رسول الله ﷺ على أصحاب الشجرة أهل الحديبية، ثم قصر الدعوة بعد ذلك في الأنصار، قال: يا معشـــر الأنصار يا معشر الأنصــار، فالأنصــار هم رجال الأزمات، وهم فرسـان المواقف الصـعبة فعلاً، يا للأنصــار يا للأنصار، قالوا دون تردد: لبيك يا رسول الله أبشـــر نحن معك، يا لبيكاه. ثم عادوا رضي الله

عنهم وأرضاهم، ووقفوا حول الرسول ﷺ ، وقادوا حركة هجوم مضادة على المشـــركين، فغير الله عز وجل من حال إلى حال، سبحان الله انقلبت الهزيمة إلى نصـر، بعد أن جعل الله عز وجل الأنصار سبباً في ذلك.

هذه هي قصة الأنصار، وهذا هو تاريخ الأنصار، منذ إسلام الأنصار وإلى هذه اللحظة إلى يوم حنين، ومكانتهم في الإسـلام لا ينكرها أحد. الرسـول ﷺ نفسـه كان يفتخر جداً بالأنصـار رضي الله عنهم، كان يقول: (الأنصار كَرِشِي وعيبتي) كرش الرجل: أي خاصة الرجل، وعيبة الرجل: أي موضع سر الرجل، ثم قال: (ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار).

هذه مقـــدمة لا بد منها قبل الحديث عن موقف الأنصـار من غنائم حنين، وبعد ذلك لنكن واضحين، ضع نفسك مكان الأنصار، بعد كل هذه الشراكة في النصر تاريخاً وواقعاً إذا بثمرات النصـر الصعب والتضحية المتكررة توزع على الآخرين؛ لذلك حزن الأنصار حزناً شديداً جداً حتى إن بعضـهم قال: (إذا كانت الشـدة فنحن نُدعى وتعطى الغنائم غيرنا؟!) هذا الكلام في البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه. وفي رواية أخرى قال بعضـهم: (يغفر الله لرسـول الله ﷺ ، يعطي قريشـاً ويتركنا، وسـيوفنا تقطر دمائهم). سـبحان الله الموقف فعلاً موقف يلفت الأنظار.

في بعض الروايات أن الأنصـار قالوا: (فإن كان من أمر الله صبرنا، وإن كان من أمر رسـول الله ﷺ استعتبناه) فالأنصـار بهذا القول يلتزمون بالحدود الشرـعية تماماً، هم يقولون: لو كان هذا الأمر من رب العالمين سبحانه وتعالى وحكم الشـــرع، فلا بد من السمع والطاعة، ولو كان اختياراً بشـــرياً من رسول الله ﷺ عاتبناه على هذا الاختيار. قبل أن تلوم الأنصار وتعاتبهم على عتبهم للرسـول ﷺ أضرب لك مثلاً يقرب لك موقف الأنصـار، ويضعك في داخل هذا الموقف: لو كنت تعمل في شركة، وخـــدمت في هذه الشـــركة بكل طاقتك مدة عشـــر سنين،

وقدمت للشـــركة كل ما تستطيع، والشـــركة كانت صغيرة في أولها، وبعد ذلك كبرت على كتفيك، ولم تطلب لنفسك في كل تاريخ الشـركة أي شيء زائد عن الحد، مع كونك كنت دائماً تعمل أكثر مما يطلب منك، وبعد ذلك مرت الأيام، وجاء من يعمل في الشركة إلى جوارك، فإذا بـــه سيئ الخلق غير منضبط في عمله، يحضـــر في أوقات ويغيب في أضعاف هذه الأوقات، ويتحدث بالسوء عن صاحب الشـــركة الذي أنت خدمته بإخلاص طوال السنين العشـــر السابقة، وبعد ذلك في أواخر السنوات العشـر حققت الشـركة نجاحاً كبيراً هائلاً، وربحت صفقة كبيرة جداً كنت أنت السبب فيها، وكان الموظف الجديد معوقاً لهذه الصفقة، وبعد أن تمت الصفقة جاء صاحب الشركة فأعطى كل منكما الراتب الشهري الرسمي له، ثم إذا به يعطي الموظف الجديد غير المنضـبط نصـف مليون جنيه مكافأة، ولم يعطك أنت شـيئاً ماذا ستفعل؟ كن صادقاً مع نفسك، وأجب!! ماذا ستفعل؟ بالمناسبة نصف مليون هذا ليس رقماً عشـوائياً، لا، كذلك الجمل الواحد في زماننا الآن ثمنه خمسـة آلاف جنيه، يعني مائة من الإبل تساوي 500000 جنيه أي: نصف مليون، والأنصاري لم يأخذ سوى راتبه فقط، أخذ جملين، نصيبه الشرعي. وغير ذلك من المؤلفة قلوبهم أخذوا الجملين، فهذه المكـــافأة المائة من الإبل كـــانت زيادة على الراتب الشـــرعي، فماذا تفعل في موقف مثل هذا ؟ حاول أن تجيب، بالتأكيد ستجد نفسك لم تأخذ شيئاً، لم تعترف حتى بالراتب الذي أخذته.

بهـــذا نستطيع أن نفهم عبارة أنس بن مالك رضي الله عنه في صحيح مسلم قال: (ولم يُعط الأنصـار شـيئاً)لأنه بالمقارنة لما أخذه المؤلفة قلوبهم، فكأنهم لم يأخذوا شـيئاً، أو أن الأنصـار لم يعطوا أي شيء من الخمس المتبقي من الغنيمة الذي وزع على المؤلفة قلوبهم. الموقف صـعب جداً، ونعذر فيه الأنصار تماماً، وأنا أقول: إن الأنصار كانوا في غاية الأدب في هذا الحوار الذي

دار بينهم وبين الرسول ﷺ ، والرسول ﷺ نفسه كان يعذر الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم، ويقدر موقفهم، وسنرى هذا الكلام في الحوار الذي سيأتي.

خوف الأنصار من ترك الرسول ﷺ للمدينة والإقامة بمكة

على الرغم من كل ما ذكرناه، وعلى الرغم من المثل الذي وضحنا به هذه الصورة، فهذا الموقف وهذه الكلمات لم تكن من عامة الأنصار، إنما كانت من بعض شباب الأنصار، ودليل ذلك ما جاء في الصحيحين في البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل عن الذي قال هذا الكلام وأعلن بهذا الاعتراض، فقال فقهاء الأنصار وعلماؤهم وسابقوهم: (أما ذووا رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم) أي: أن هذا الكلام كان من بعض الشباب، لكن سعد بن عبادة رضي الله عنه كما سيتبين في الأحداث القادمة كان موافقاً على هذا الكلام لكنه لم يقله، وهذا الكلام واضح في رواية الإمام أحمد رحمه الله: قال سعد بن عبادة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : (يا رسول الله؛ إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال سعد: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي) أي: أنني أشعر بما يشعرون به وإن كنت لم أقل مثل ما قالوا.

لا تنسوا أن الأنصار بشر وليسوا ملائكة، والبشر جُبلوا على حب المال، فإذا كان هذا المال حلالاً صرفاً فما المانع من طلبه، وخاصة إذا كانوا يشعرون أنهم هم السبب في تلك الثروة، فلماذا لا يأخذون جزءاً منها. ثم إن هناك بعداً آخر مهماً جداً وهو أن الأنصار كانوا يخشون أن يتركهم رسول الله ﷺ ويعيش في مكة المكرمة خير بقاع الأرض، وأحب بلاد الله إلى قلب

الرسـول ﷺ ، وفيها الآل والعشـيرة، وفيها الطفولة والشـباب والذكريات، وفيها أعز قبائل العرب قريش، وأهم مركز من مراكز التجارة في الجزيرة العربية، ويأتي لها الناس جميعاً طول السنة من كل مكان، وفيها من المقومات الكثيرة ما يجعل اختيارهـــا كعاصمة جديدة للدولة الإسلامية أمراً مقبولاً جداً ومتوقعاً، فلما حدث توزيع الغنائم بهذه الصورة ثارت الشكوك في قلوب الأنصار، ولا ننسى أن الأنصار قالوا هذا الكلام قبل ذلك منذ أقل من شـهرين عندما فتحت مكة، وطمأنهم ﷺ أنه سيعود معهم إلى المدينة ولن يبقى في مكة المكرمة، وقال: (المحيا محياكم، والممات مماتكم) غير أنهم خـافوا أن يكون الظرف قد تغير، والأحداث الجديدة غيرت من الصـورة، وأن الرسـول ﷺ أصـبح له رأي جديد في هذه القضـية، وأنه سـيعود إلى مكة المكرمة ولن يعود معهم إلى المدينة المنورة، والرسول ﷺ كان يشعر بأن الأنصار يشعرون بهذا المعنى؛ لأن في الحوار الـــذي دار بينهم كما سنرى أكد على أنه سيعود معهم إلى المدينة المنورة، فشـعر أن الأنصـار كانوا خائفين من بقاء الرسـول ﷺ في مكة ويترك المدينة مع كل المشـاكل التي ممكن أن تحصل في المدينة المنورة نتيجة خروج الرسول ﷺ والجيش الإسلامي الأساس من المدينة.

أيضـاً ينبغي أن نذكر عظمة سـعد بن عبادة رضي الله عنه والأنصـار رضي الله عنهم أجمعين، الذين كانوا صرحاء إلى أبعد درجة، وهذه الصراحة هي التي عالجت الموقف، فلو أخذ الأنصار بمثاليات غير واقعية، وأنكروا وجود مشـكلة لتفاقمت هذه المشـكلة، وحينها سـيكون الحل والعلاج صعباً أو مستحيلاً.

كيفية تعامل الرسول ﷺ مع الأنصار في موقفهم من توزيع غنائم حنين

تعالوا بنا ننظر كيف تعامل رسول الله ﷺ مع بوادر هذه الأزمة الخطيرة؟ وإن سريان مثل هذا الشعور في هذه الطائفة المهمة جداً من الجيش قد يؤدي إلى كوارث مستقبلية، هذه الكوارث بكل وضوح قد تعصف بالدولة الإسلامية. ماذا نفعل إذا كانت هناك بوادر انسلاخ مجموعة من الجنود عن الصف العام للمسلمين؟

فهيا بنا لنرى المنهج النبوي الرفيع في علاج مثل هذا الأمر، هذا العلاج يجمع بشكل فريد فعلاً بين إقناع العقل وإرضاء العاطفة:

أولاً: عدم التغافل عن النار التي تحت الرماد، كان الموقف الشرعي والعقلي للرسول ﷺ في قضية الغنائم سليماً تماماً، وهو الأولى بلا جدال، بدليل أن الوحي لم ينزل بخلاف ذلك، ومع ذلك الرسول ﷺ حرص على علاج الموقف من البداية، لم يقل مثل ما يقول الكثير من الناس: ما دام أنني على الصواب لا يهمني كلام الناس، لم يقل: ما دام الله سبحانه وتعالى راضياً وعالماً ليس هناك داع إلى أن أسترضي الناس أو أبين لهم الأمر. لم يقل: إن الأنصار مؤمنون شديدو الإيمان، وهذا كلام عارض لن يؤثر في مستقبل الدولة الإسلامية. لم يقل: إن الأيام كفيلة بحل هذه القضايا، بل إنه لم يقل: أنا رسول الله ﷺ وواجب عليهم الطاعة. لم يقل هذا الكلام ولا غيره من الكلام، بل انتقل إلى حل المشكلة بموضوعية، وأخذ الموضوع بمنتهى الجدية، ولم يؤجل الموضوع يوماً واحداً، ولا حتى ساعة واحدة، كان حاسماً تماماً في قراره، سريعاً في حل الأزمة، قال لـ سعد بن عبادة مباشرة: (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة).

الملمح الأول في حل المشكلة: عدم التغافل عن الأزمة وهي ما زالت في بدايتها.

ثانياً: أن الرسول ﷺ أراد أن لا ينتشر الأمر بين المسلمين، فقصر الحديث فيه مع أهل المشكلة وهم الأنصار، فهو لم يشأ أن يعلم به عامة الناس؛ لئلا يُفتن بعضهم بالشبهة التي أثيرت، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي لا يأخذ الناس موقفاً سلبياً من الأنصار إذا تبين خطأ الأنصار، لكي تظل صورة الأنصار جميلة ومحفوظة عند عامة الناس، ولذلك عندما رأى الرسول ﷺ بعض المهاجرين يدخلون إلى الحظيرة التي سيتم فيها اللقاء في البداية تركهم، لكن عندما رآهم يزيدون منع دخول المهاجرين، وسمح بدخول الأنصار فقط، فهو حصر المشكلة في إطار محدود، بل إنه في رواية في البخاري ومسلم عن أنس سألهم تصريحاً قال: (أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا، فقال ﷺ : ابن أخت القوم منهم). الشاهد أن معظم الذين حضروا أو كلهم من الأنصار.

ثالثاً: أن وسائل حل مثل هذه المشاكل الضخمة من أبلغ الوسائل، فقد حرص الرسول ﷺ على لقاء أصحاب المشكلة بنفسه ﷺ ، ليسمع منهم ويسمعوا منه دون واسطة؛ لأن الواسطة قد لا تحمل الكلمات تماماً كما قيلت، وهذا الكلام ليس طعناً في الواسطة أو تقليلاً من إمكانيات الواسطة، أبداً، لكن شعور الجنود عامة بالقرب من قائدهم يحل الكثير جداً من المشاكل التي ممكن أن تحصل. أحياناً الحوار المباشر بين القائد والجنود يخرج بعض القضايا التي يكتمها الجنود عادة، ويفتح باب التحاور، ويناقش الفرعيات، وكل هذا الكلام يساهم في احتواء الأزمة في أولها.

رابعاً: أن الرسول ﷺ علل بوضوح وصراحة التقسيم الذي قسمه للغنائم، وذكر لهم السبب الذي من ورائه أعطى هؤلاء وترك الأنصار، قال لهم: (فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم) أي: ليس تقديمي لهم؛ لأني أحبهم بصورة أكبر، أو لأني أقدر موقفهم البطولي، أو أداءهم المتميز، بل على العكس أنا وبكل صراحة أعلم أن قلوبهم مترددة، وأن أقدامهم ليست

براسخة بعد في الإسلام، ولذلك أعطيهم. هذه الكلمات جاءت في منتهى الوضوح وبدون تورية حتى تحل المشكلة حلاً جذرياً.

خامساً: أن الرسول ﷺ لفت أنظار الأنصار إلى النظر أيضاً إلى النصف المملوء من الكوب، هذا هو النظر الواقعي، لو كان هناك كوب مملوء إلى النصف، فليس من الصواب أن تنظر إلى نصفه الفارغ، فتكون شديد التشاؤم، وليس من الصواب أيضاً أن تنظر إلى نصفه المملوء فتكون شديد التفاؤل بصورة غير واقعية، لكن الصواب أن تكون متوازناً وترى الأمر على حقيقته، نصف مملوء ونصف فارغ، نعم أنتم لم تأخذوا من هذا المال ومن هذه العطايا السخية، لكن ألم تأخذوا شيئاً؟! هل ألفتم النعمة فنسيتموها؟! ألم يقدم لكم رسول الله ﷺ شيئاً قبل ذلك؟! ألم ينفعكم الإسلام؟! ألم تستفيدوا من انضمامكم إلى هذا الكيان الجديد في الدولة الإسلامية؟! انظروا نظرة متوازنة حتى لا تشعروا بالغُبن أو الظلم، فالرسول ﷺ لم يترك هذا الكلام عائماً دون توثيق، بل ذكر طرفاً مما حصله الأنصار من الإسلام، ولم يذكر كل النعم، ذكر بعض النعم، ذكر بعض النعم، وكان صريحاً وفي منتهى الوضوح، ولم يشعر بالحرج أبداً وهو يعدد النعم على الأنصار، لكنه كان مباشراً تمام المباشرة؛ لكي تفهم الناس بوضوح ما يقصده ﷺ .

قال ﷺ : (ما مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله يبن قلوبهم؟) ها هو يعدد النعم بكل وضوح، هذه نعم ثلاث من نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى.

هل هذه النعم أثقل أم المائة ناقة التي أخذها هذا أو ذاك؟! أحياناً عندما يفقد الإنسان شيئاً يفكر فيه وينسى كل ما لديه من الأشياء الأخرى. الرسول ﷺ بدأ يعدد عليهم هذه النعم، وبدأ بواحدة لا يعدل بها شيء، (ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟) هل نسيتم يوم دعوتكم

للإسلام، وكنتم تسجدون لأصنام صنعتموها بأيديكم؟ نسيتم كيف كانت أحلامكم؟ وكيف كانت حياتكم؟ وكيف كانت نظراتكم للحياة بصفة عامة؟ نسيتم الجاهلية؟! نسيتم التربية الإسلامية لكم يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة؟! نسيتم كيف انتقلتم بالإسلام من الظلمات إلى النور؟! نسيتم كيف صار لكم ذكر وشأن ليس في الجزيرة فقط، بل في العالم أجمع، وليس في زمانكم فقط، بل وإلى يوم القيامة؟! أليست هذه مكاسب واقعية؟! (ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟)

وأنتم لم تربحوا فقط الآخرة، لقد غمرتكم النعم أيضاً في الدنيا. (ألم آتكم عالة فأغناكم الله؟). ها أنتم الآن دولة لها كيان ومركز ومكانة، لكم جيوش هنا وهناك، لكم معاملات مع جميع العرب، لكم انتصارات مع دول العالم، لكم تجارة هنا وهناك، لكم صولات وجولات، وغنائم وانتصارات، أهكذا كان وضعكم قبل الإسلام؟! يثرب قبل الإسلام كانت مدينة عادية بسيطة جداً، ليس لها تأثير على حياة العرب فضلاً على حياة العالم.

ثم قال بعد ذلك: (ألم آتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟) أنسيتم حروبكم الدامية؟ أنسيتم دمـاء الأوس والخزرج التي سالت أعواماً على أرض يثرب؟! أنسيتم يوم بعاث؟! أنسيتم الكراهية والحقد والضغينة التي كانت تملأ قلوبكم قبل الإسلام؟!

من المؤكد أن الجميع لم ينس ذلك الأمر، هذا هو النصف المملوء من الكوب، فلماذا نظرتم إلى النصف الفارغ، وتركتم هذه النعم والإيجابيات؟!

الحقيقة هذه كلمات ثقيلة جداً وقعت كالصخر على أسماع الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم، ردتهم إلى أرض الواقع. لم يجد الأنصار إلا أن يقولوا: (لله ولرسوله المن والفضل). أذهلتهم

الكلمات وأثقلتهم النعم، لكن الرسول الحنون ﷺ نظر إليهم بحب وعطف وإشفاق، مقدراً لموقفهم، لكن كان لا بد أحياناً أن يكون العلاج مؤلماً جداً.

الأنصار ما زالوا في حالة صمت بعد هذه الكلمات، يمنعهم أدبهم من ذكر أفضالهم على الدولة الإسلامية، ويمنعهم كذلك اقتناعهم أن الإسلام نعمة لا يعدلها شيء، لكن الرسول عليه السلام كان مشفقاً عليهم جداً، فقال لهم في حنان ظاهر: (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!) ما ردكم على هذا الكلام. رد الأنصار بأدب جم وبصوت منخفض، قالوا: (بماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل) أي: نعترف بكل ما قلت، وما أخذناه أكثر بكثير مما منع منا.

بعد ذلك خاطبهم بوسيلة أخرى من وسائل علاج مثل هذه الأزمات الكبيرة، وهي وسيلة رفع الروح المعنوية للطرف صاحب الأزمة، وإشعاره بقيمته وإقناعه بأن القائد مقدر قيمته، ومقدر جهده، ولا يجحد فضله. قال ﷺ في تواضع وهو يرفع جداً من قيمة الأنصار: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك) إن كان أدبكم أيها الأنصار يمنعكم من ذكر فضلكم علي، أنا شخصياً لا أنكره ولا أجحده، بل أعترف به وأقدره، بغيركم لم تكن هناك دولة، وبدونكم لم يكن هناك نصرة، صدقتموني ونصرتموني وآويتموني وأغنيتموني، فأحس الأنصار حينها بحرج شديد من هذه الكلمات، ولم ينطقوا بكلمة، فاستغل ﷺ هذا الصمت، ودخل مباشرة في وسيلة ثانية جميلة جداً، وهي تهوين حجم الخسارة في عيون الناس، وهذه الأزمة التي تظنون أنها أزمة ليست أزمة وإنما هي شيء يسير جداً، قال ﷺ في رقة شديدة: (أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعةٍ من الدنيا) (لعاعة) شيء يسير جداً (تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم)، وبعد ذلك دخل في وسيلة أخرى مهمة جداً إنها وسيلة تحريك عواطف الأنصار، ونداء المشاعر المرهفة التي يتميز بها الأنصار. قال: (أفلا ترضون يا معشر

الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم) أي: إن كانوا هم قد كسبوا النوق والشياه فأنتم قد كسبتم رسول الله ﷺ { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم:73]. ثم أقسم ﷺ : (فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار) ثم بدأ ﷺ يدعو قال: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار) فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم) ابتلت لحاهم رضي الله عنهم وأرضاهم بالدموع.

ثم الوسيلة الأخيرة هي التذكير بالآخرة، هناك سيكون التعويض الرئيسي عن كل ألم أو تعب أو خسارة، قال ﷺ : (إنكم ستلقون بعدي أَثَرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)، الجنة ثمنها غال، قد نعطش في حياتنا لنروى من الحوض، قد يؤثرون علينا غيرنا، فنقبل طمعاً فيما عند الله، وقد نبيع الدنيا بكاملها لنشتري الآخرة، (ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة) ولذلك الأنصار بعدما سمعوا هذه الكلمات قالوا بمنتهى الصدق: (رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظًا) وخرج المسلمون من الأزمة، ونجح الرسول عليه السلام في منهجه التربوي، وقبل الأنصار بعد هذه التربية أن كل هذه الغنائم الهائلة إنما هي لُعاعة، وإنها لكذلك.

تعالوا بنا لنراجع المنهج التربوي النبوي البارع للخروج من مثل هذه الأزمات، أزمة خروج مجموعة من الجنود من الصف المسلم، وهي عشر نقاط:

الأولى: حل الأزمة بسرعة، وعدم التغافل عن النار تحت الرماد، وعدم التسويف.

الثانية: الحيلولة دون انتشار الأزمة، وحل الأزمة مع أهلها فقط.

ثالثاً: لقاء أصحاب الأزمة بصورة مباشرة دون وساطة.

الرابعة: الصراحة والوضوح وراء الفعل الذي أغضب أصحاب الأزمة، وذكر السبب الحقيقي للفعل.

الخامسة: النظر بتوازن إلى الموضوع، لفت أنظار أصحاب الأزمة إلى ما حصلوه من إيجابيات.

السادسة: الاعتراف بقيمة أصحاب الأزمة وفضلهم ورفع معنوياتهم.

السابعة: تهوين حجم الخسارة التي خسرها أصحاب الأزمة إن كانت هينة.

الثامنة: تحريك عواطف ومشاعر أصحاب الأزمة، إلى جوار إقناع عقولهم.

التاسعة: الدعاء المخلص لهم أن يرحمهم الله عز وجل وأن يثبت أقدامهم.

العاشرة: التذكير بالآخرة، وأن المرء في الدنيا لا يعدم أن يخسر شيئاً ليكسب الجميع.

فتلك عشرة كاملة.

وهكذا نرى أن السيرة النبوية منهج عملي للخروج من كل أزمة في حياتنا مهما تفاقمت، وصدق الرسول الكريم ﷺ حين قال: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتي) مع العلم أن هذه الوسائل العشر ما كان لها أبداً أن تجدي لولا أن قلوب الأنصار مخلصة، وأن درجة إيمانهم عالية، وأن هدفهم الجنة، وأن حياتهم بكاملها كانت في سبيل الله.

انتهت قصة الغنائم على خير والحمد لله، فألف ﷺ قلوب البعض واسترضى آخرين، وحلت كل الأزمات، وكانت هذه الأيام من أسعد أيام المسلمين في الفترة النبوية.

قدوم وفد هوازن مسلماً

بعد انتهاء توزيع الغنائم بكاملها ورضا كل فريق بما أخذ، سواء من الجزء الرئيسـي من الغنيمة أو من الخمس الذي وهب للبعض، بعد انتهاء هذا التوزيع حدثت مفاجأة ضـخمة غير متوقعـة، جاء وفد من قبيلة هوازن أو بالتحديد من بطون بني نصـر وبني سعد وكل بطون هوازن الأخرى باستثناء قبيلة ثقيف، جاءوا جميعاً إلى وادي الجِعّرانة.

لماذا جـاءوا إلى هذا المكان الآن؟ هـل جاءوا للتهديد والوعيد، أم جاءوا للمفاوضات مع الرسـول ﷺ ، أم جاءوا لتحديد موعد جديد للقتال والثأر؟ لم يأتوا لهذا كله، وإنما جاءوا للإسلام، جاء وفد هوازن يعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ ، وكان الوفد مكوناً من أربعة عشر نفراً، يمثلون بطون هوازن المختلفة باستثناء ثقيف كما قلنا. وجدوا أنفسهم خسـروا كل شيء، خسـروا نساءهم وأبناءهم وأموالهم وأنعامهم، خسـروا حاضرهم وسيخسرون أيضاً مستقبلهم إن هم بقوا على الشـرك، ومثلما ذكرنا قبل ذلك أنهم كانوا قد فروا إلى الطائف مع ثقيف، وما اسـتطاعوا الخروج لحرب المسـلمين، وكان أمامهم بعد فقد كل هذه الممتلكات أن يفقدوا أيضـاً ديارهم، ويعيشـوا عمرهم لاجئين عند ثقيف في الطائف، كان موقفهم صـعباً جداً، ففكروا لو أنهم عادوا إلى رسول الله ﷺ فقد يقبل منهم إسلامهم، وقد يعيد إليهم بعض الممتلكات، وواضـح جداً أنهم لم يأتوا حباً في الإسـلام، لكن معظم الذين يدخلون الإسـلام لأجل شيء دنيوي يحبونه بعد فترة من الزمان تقصـر أو تطول، فهم في النهاية بعد أن يعيشوا الإسلام سيشعرون بقيمته.

جلس وفد هوازن مع الرسـول ﷺ وأعلنوا إسـلامهم، ثم قالوا: (يا رسـول الله إنا أصـل وعشـيرة، وقد أصـابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منّ الله عليك) ثم قام خطيبهم

زهير بن صرد فقال: (يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك) يعني منهم بنو سعد الذين أرضعوا الرسول ﷺ ثم أنشد شعراً كان منه:

امنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر

فماذا يفعل الرسول ﷺ في موقف مثل هذا؟ الموقف في غاية الحرج، ها هي القبيلة الضخمة هوازن تأتي لتعلن إسلامها، وكما ذكرنا أنهم ما أتوا حباً في الإسلام، ولكنهم جاءوا لأنهم خسروا كل شيء، ولم يعد أمامهم من سبيل إلا أن يسلموا، فيستردوا شيئاً من ممتلكاتهم، فماذا يحدث إن لم تعد لهم نساؤهم وأموالهم؟ إن ردتهم محتملة جداً، بل هي الأغلب، وهذا هو المتوقع، في نفس الوقت الرسول ﷺ قسّم كل شيء في الغنائم على الجيش، أربعة أخماس الغنائم تقسمت على أفراد الجيش العام، وقسم كذلك الخمس المتبقي على سادة القبائل والزعماء وطلقاء مكة وغيرهم من المؤلفة قلوبهم، فالرسول ﷺ أعطى هذه العطايا ليتألف قلوب الناس، لو أخذ منهم هذه الأشياء فقد يرتدون عن الإسلام، فماذا يعمل؟ هو يريد إسلام هوازن، وفي نفس الوقت يريد ثبات أهل مكة وزعماء القبائل، كيف الخروج من هذه الأزمة؟

خطوات الرسول ﷺ في استرجاع سبي هوازن من المسلمين

تعالوا لننظر إلى المنهج الإسلامي الذي رأيناه من حبيبنا ﷺ لحل مثل هذه المعضلة، فقد تحرك الرسول ﷺ في ثلاث خطوات رائعة:

الخطوة الأولى: حاول أن يصل مع هوازن إلى حل في منتصف الطريق، ليس من الممكن أن يرجع لهم كل شيء، وحاول أن يصل معهم إلى أكبر تنازل ممكن، بحيث يقبلون به مع ثباتهم على الإسلام، فقال لهم ﷺ في وضوح: (أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟) حتى في

رواية البخاري يقول: (أحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم) أي: أنا أخرت توزيع الغنائم لعلكم تأتون، لكنكم تأخرتم، وهو بهذا يحاول أن يلطف قلوبهم. هنا يتصرف الرسول ﷺ بوضوح وبتعقل وبواقعية، لا يندفع بعاطفته إلى أمر قد لا يقدر عليه، ونحن لا بد أن نلاحظ أن السبي والأموال ليست أموراً مسروقة أو منهوبة من هوازن، وإنما هي حق للمسلمين، وتطلب هوازن أن يتنازل عنها المسلمون كرماً منهم، فالرسول ﷺ خيرهم بين السبي أو المال، فماذا كان رد فعل هوازن؟ كانوا واقعيين، قالوا: (يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، فلترد إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحب إلينا) فاختاروا السبي دون الأموال... نجحت الخطوة الأولى

الخطوة الثانية: إشعار هوازن أن رسول الله ﷺ شخصياً معهم قلباً وقالباً، وأنه متعاطف معهم إلى أقصى درجة، وسوف يضحي هو شخصياً من أجلهم، وسيبذل قصارى جهده لاسترداد السبي من أفراد الجيش الإسلامي، أي: أن الرسول ﷺ وضع نفسه في خندق هوازن، وصار مدافعاً عن قضيتهم، ولا شك أن الرسول ﷺ قد ثبت أقدامهم بهذا العرض، فقد قال لهم في تجرد: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم) أي: أنا متنازل عما كان في نصيبي من السبي، وبصفتي عميد لعائلة عبد المطلب فسوف أطلب منهم رد السبي الذي أخذوه منكم، لكن في نفس الوقت أنا لا أستطيع أن أجبر بقية أفراد الجيش على رد ما معهم، لكني سأحاول. هنا نجد ما نسميه بواقعية العطاء عند رسول الله ﷺ ، هو لم يعد إلا بما يستطيع، وكان كريماً واسع الكرم ﷺ ، تنازل عن نصيبه وأقنع بني عبد المطلب بالتنازل عن حقوقها، لكنه لم يعط ما لا يملك.

الخطوة الثالثة خطوة هائلة مذهلة، لا أعتقد أن لها مثيلاً في تاريخ الأرض: اتفق الرسول ﷺ مع هوازن على القيام بمحاولة لطيفة أمام المسلمين، يقنع فيها أفراد الجيش المسلم بإعادة السبي

إلى هوازن. هذه المحاولة من الرسول ﷺ يبذل فيها هذا الجهد من أجل قبيلة كانت تحاربه منذ شهرين فقط، بل كانت حريصة تمام الحرص على استئصاله وأصحابه. لقنهم الرسول ﷺ ما يقولونه تماماً باللفظ، قال ﷺ : (إذا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا للناس: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم). لاحظ العظمة النبوية، هو لم يتنازل عن حقه في السبي وحق بني عبد المطلب بينه وبينهم فقط، بل أراد أن يكون ذلك الأمر في العلن، ليقتدي به بقية المسلمين فيتنازلون عن السبي الذي ملكوه، ثم إنه يعلم وفد هوازن ألفاظاً ترقق من مشاعر المسلمين: (إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله) وهنا الرسول ﷺ سيقبل شفاعة المسلمين، وليس من المعقول أن المسلمين لن يقبلوا بشفاعة الرسول ﷺ ، ثم إن الرسول ﷺ يؤكد لهم على واقعية الطلب، ينصحهم ألا يطلبوا الأموال والشياة، وإنما يطلبون السبي فقط؛ لكي لا يصعبوا الأمر على المسلمين فتفشل المحاولة، وفوق كل ذلك وعد الرسول ﷺ وفد هوازن أنه سيسأل بنفسه المسلمين أنهم يرجعون السبي إلى هوازن. لاحِظ مدى الرقي والتوازن والتعامل الحضاري من رسول الله ﷺ ، فهو مع كونه زعيم الأمة الإسلامية ورئيس الدولة والرسول المطاع ﷺ ، إلا أنه لا يريد أن يجبر المسلمين على رأي يرى أنه لا يجوز له تأميم ما لا يملك، وأن هذا حق المالكين الآن، وليس له دخل فيه، إنما سيدخل في القضية على صورة شفيع أو وسيط يريد الخير بصدق للطرفين. هل جاء في التاريخ كله شيئاً مثل هذا؟! وعظمة الموقف لم تنته بعد، ما زال هناك فصول في القصة.

موقف المسلمين من طلب الرسول ﷺ منهم إرجاع سبي هوازن

لما صلى الرسول ﷺ الظهر بالمسلمين، ثم كما هو متفق عليه مع هوازن، قام وفد هوازن يخاطب المسلمين جميعاً، وكأنهم لم يجلسوا مع الرسول ﷺ قبل ذلك، وقالوا مثل ما نصحهم

الرســول ﷺ تماماً، قالوا: (إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله، في أبنائنا ونسـائنا) فقام ﷺ قابلاً شـفاعة المسـلمين وقال: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لـــكم) وكأن هذا الكلام لأول مرة يقوله، فالرسول ﷺ قام بما ينبغي عليه تجاه هوازن، وبقي أن يقوم المسـلمون برد سـبيهم كما فعل ﷺ وأن يقبلوا بشـفاعته كما قبل هو بشـفاعتهم، لكن تعالوا لنر رد فعل المســلمين، والحقيقة أن رد المســلمين كان متبايناً، فالبعض وافق والبعض رفض.

قام المهاجرون فقالوا: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، أي: نعطي رسول الله ﷺ مطلق الحرية في التصــرف فيه، وبالتالي سيُرد إلى هوازن سبيهم، وقام الأنصار كذلك وقالوا: ما كان لنا فهو لرســول الله ﷺ ، وفي ذلك دليل على أن المهاجرين والأنصــار أخذوا من الغنائم، وإلا ماذا سـيعيدون؟ فواضـح أنهم أخذوا أربعة أخماس الغنيمة، والآن يعيدون ما أخذوه، فهذا سـبي أعيد من قســم هام من أقســام الجيش من المهاجرين والأنصــار، لكن تبقى أقســام كبيرة من الجيش وخاصــة الأعراب؛ لأنهم غالب الجيش، وهم في الأســاس قبائل تميم وفزارة وسُــليم، فقام الأقرع بن حابس زعيم بني تميم وقال: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقام عيينة بن حصن زعيم بن فزارة وقال: وأما أنا وبنو فزارة فلا.

وقام العباس بن مرداس زعيم بني سليم وقال: وأما أنا وبنو سليم فلا.

هذه ثلاث مشــاكل كبيرة، فقامت بنو ســليم وقالت: ما كان لنا فهو لرســول الله ﷺ أي: بنو سـليم رفضـت كلام زعيمهم العباس بن مرداس وقالت: سـنعيد السـبي مع رسـول الله ﷺ . موقف هذه القبائل الثلاث يحتاج إلى وقفة وتحليل.

قبيلة تميم وفزارة رفضتا إعادة السبي إلى هوازن، بينما قبلت قبيلة سليم، فبقيت مشكلتان أمام الرسول ﷺ : المشكلة الأولى: هي رفض قبيلة فزارة وتميم إعادة السبي، وهذا الموقف قد يؤثر على إسلام هوازن، والمشكلة الثانية: الخلاف الذي ظهر بين رأي العباس بن مرداس زعيم قبيلة سليم وبين أفراد القبيلة.

أما المشكلة الأولى: وهي مشكلة رفض قبيلتي فزارة وتميم إعادة السبي، فالرسول ﷺ لم ييئس من ذلك الأمر، لكن النظرة مادية بحتة عند تميم وفزارة، ولذلك دخل معهم الرسول ﷺ في مساومة مادية تجارية تناسب طبيعتهم في هذه المرحلة، فكان ﷺ واقعياً إلى أبعد درجة، لم يلُمهم على أنهم لم يقبلوا شفاعته؛ لأن هذا حقهم ورفضوا أن يتنازلوا عنه، وليس هذا أمراً مباشراً منه ﷺ ، فقال لهم: (أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان يتنازل عنه من السبي ست فرائض من أول شيء نصيبه).

سبحان الله! هل وقع في التاريخ كله موقف مشابه لهذا الموقف؟! أنا والله لا أجد له مثيلاً إلا موقفه ﷺ من طلقاء مكة. الرسول ﷺ سيدفع لهم قيمة ما عندهم من السبي مضاعفاً ست مرات من أول سبي يحصل عليه المسلمين بعد ذلك، يدافع عن هوازن وكأنها أقرب الأقربين إليه ﷺ ، مع أنها لم تسلم إلا منذ ساعة من الزمان، وقبلها كانت من ألد أعدائه ﷺ ، سيغرم الدولة الإسلامية ستة أضعاف قيمة السبي؛ من أجل الحفاظ على عقيدة هؤلاء القوم الجدد، فهو يتفاوض مع جيشه ليعيدوا السبي لهوازن لا يوجه لهم أمراً؛ لأنه يعلم أن ذلك حقهم. هو ﷺ يفهم طبيعة النفس البشرية، ويفهم حدود العدل، ويفهم أسس القيادة، ويفهم قواعد الإدارة، ويفهم طرق الحكم، ويفهم فنون التعامل مع الناس بصفة عامة. إنه بلا جدال بحر لا ساحل له، وقدوة لا مثيل لها، من المستحيل أن نحيط بعظمته ﷺ ، ولو قضينا الأعمار في تحليل السيرة النبوية.

ماذا فعلت تميم وفزارة إزاء هذا العرض المغري من رسـول الله ﷺ ؟! لقد قبـــلت القبيلتان بالكـــامل إعادة السـبي إلى هوازن، ونجح العرض النبوي في الخروج من الأزمة، وعاد كل السـبي إلى هوازن، إلا عجوزاً كانت في يد عُيينة بن حصـن الفزاري رفض أن يرجعها في أول الأمر كيداً لهوازن، ثم أعادها بعد ذلك، وبذلك حلت المشـكلة الأولى، وعاد جميع السـبي إلى هوازن.

المشكلة الثـانية: أن هناك تعارضـاً بين رأي زعيم القبيلة وبين جمهور الأتباع من القبيلة. هذا السبي حق شخصـي لكل فرد، ليس حقاً عاماً للقبيلة، بمعنى أنه لو اعترض فرد أو اثنان أو أكثر من أفراد القبيلة ما جاز هنا أن نقول: رأي الأغلبية أو الشورى تقضـي بذلك فنأخذ منه السبي، لا، هذا حقه وممكن أن يتمسك به، لذلك لا بد من موافقة شخصية من كل واحد.

في موقف آخر رائع من مواقفه ﷺ -وكل مواقفه ﷺ رائعة- خطب في عموم المسـلمين وقال لهم كما جاء في رواية البخاري عن المسور بن مخرمـة رضي الله عنه قال: (إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرفاؤكم أمركم). سـيقوم بمسـح شـامل دقيق للجيش الإسـلامي؛ لكي يعلم رأي عامة الناس، فعاد إليه العرفاء بعد أن كلموا الناس، وأخبروه ﷺ أن الناس قد طيبوا وأذنوا، أي: طابت نفوسـهم بذلك، وأذنوا في عودة السـبي عن طيب خاطر، وهذا منتهى العدل.

بذلك انتهت مشـكلة هوازن تقريباً، ودخلت الإسـلام بنفس راضـية، وقد تيقنت أنها تتعامل فعلاً مع رسول وليس مع مجرد زعيم أو قائد.

هل وقفت العظمة النبوية عند هذا الحد؟ لا، لم تقف بعد، ليس لها نهاية كما قلنا: إن رسـول الله ﷺ لا ساحل له.

موقف الرسول ﷺ من مالك بن عوف النصري بعد إسلام قبيلته هوازن

بقي في قصة هوازن فصل عجيب جداً يحتاج إلى وقفة وتحليل واستفادة، يحتاج أن نحمله ليس فقط للمسلمين، ولكن إلى أهل الأرض جميعاً لنقول لهم: هذا هو قدوتنا ﷺ ، فأي قدوة تتبعون؟! هذا الفصل العجيب هو أنه ﷺ اكتشف أن مالك بن عوف النصري الزعيم الشاب قائد هوازن الذي جمع الجموع للحرب، والذي كان يريد أن يستأصل المسلمين، اكتشف أنه ليس مع الوفد المفاوض، وهو زعيم الناس ولم يأت معهم، ولم يسمع عنه كلمة، فسأل عنه، فقالوا له: إنه في الطائف في حصون ثقيف يخشى على نفسه من القتل، فقام ﷺ في موقف رائع لا يقل عن المواقف الرائعة السابقة فقال: (أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله) أي: ليس أهله فقط، وإنما أهله وماله، ثم قال: (وأعطيته مائة من الإبل) هل ترون كم هو عظيم ﷺ ؟!

لقد كان الهدف الأسمى في حياة الرسول ﷺ هداية الناس لرب العالمين سبحانه وتعالى، بغض النظر عن تاريخهم وعن عداوتهم السابقة له وللمسلمين، فهو ﷺ لم يغب عن ذهنه هذا الهدف فهو حتى مع مالك بن عوف ما زال يحرص على إسلامه وهدايته. الرسول ﷺ قائد محنك حكيم مجرب، يقدر الأمور بحكمة، ويزن الأشخاص بميزان الذهب أو أدق، فمالك بن عوف النصري لا قوة لا يستهان بها، ولا يمكن أبداً أن تتجاهل، فهو رجل استطاع أن يجمع ويحرك أكثر من 25000 ألف مقاتل، واستطاع أن يقنعهم أن يضحوا بكل ثرواتهم من أجل قضية ما، فوجود هذا الرجل خارج الصف أمر خطير فعلاً، وخاصة أنه في ثقيف، وثقيف لم تُسلم بعد، وخطر ثقيف لم ينقطع عن المسلمين، ووجود شخصية خطيرة مثل هذه في داخل حصون ثقيف أمر لا تُؤمن عواقبه، ثم إن هذا الرجل استطاع تحريك الجموع الكثيرة من أجل قضية قبائلية تافهة بالقياس إلى أهداف القتال في الإسلام، فماذا سيحصل لو انضم هذا القائد

الخطير إلى صفوف الجيش المسلم؟ ماذا سيفعل لو أصبح مقاتلاً في سبيل الله بدلاً من أن يكون مقاتلاً في سبيل هوازن؟! لذلك حرص الرسول ﷺ كل الحرص على إسلامه، وحرص في نفس الوقت على حفظ كرامته، فرفع قيمته فخصه بوضع غير الناس، خصه بإعادة المال له مع الأهل، وليس فقط الأهل، ووعد بإعطائه مائة من الإبل كنوع من تأليف القلب؛ لأن الرسول ﷺ يعلم أن إسلام هوازن ضربة كبيرة جداً لمالك بن عوف ، ومع ذلك لم يُرد أن يكسر معنوياته، ولم يرد أن يذله وأن يعيره بانضمام جنوده إلى جيش المسلمين، وإنما عرض عليه عرضاً مغرياً جداً، وهو يعلم أن وضع مالك الآن أصبح صعباً للغاية، ومن ثم فتح له باب الرجوع إلى الله، والانضمام إلى دولة الإسلام. هذه هي الحكمة، لو تريد أن تعرف ماذا تعني كلمة حكمة ادرس سيرة الرسول ﷺ .

وصل الخبر إلى مالك في الطائف، وكما توقع الرسول ﷺ كان وضع مالك صعباً جداً شديد الصعوبة، كان يتخوف على نفسه من قبيلة ثقيف، فقد أصبح وضعهم في مأزق خطير، كتب عليهم أن يُحصروا في مدينتهم، ومالك هو الذي وضعهم في هذا الموقف الصعب، فأصبح خائفاً منهم، ومالك لم يعد لديه أتباع، فقد أسلمت قبيلته، وأصبح موقفه في غاية الحرج، فجاءت دعوة الرسول ﷺ منقذة له من أزمة خطيرة، جاءت هذه الدعوة لتخرجه من موقف لا يحسد عليه، وبالفعل لم يتردد مالك بن عوف لحظة ولم يفكر كثيراً، بل أسرع من فوره إلى لقاء الرسول ﷺ وأعلن إسلامه بين يديه، هل يوجد أحد في الدنيا كان يتوقع نتيجة مثل هذه بعد شهرين من موقعة حنين؟! أرأيتم المنهج الإسلامي في التعامل مع البشر؟!

أي قائد غير الرسول ﷺ ممن لا ينهج نهجه يكون همه الأول بعد النصر البحث عن قواد عدوه، لكي يحكم عليهم بالحبس، أو بالنفي، أو بالقتل، لكن الرسول ﷺ كان حريصاً على كل البشر بغض النظر عن تاريخهم أو مواقفهم السابقة، فكانت نتيجة موقفه ذلك أن أسلمت

هذه الشخصية القيادية الفذة مالك بن عوف ، فقوة مالك بن عوف التي تكلمنا عليها قبل ذلك، وقدرته على الحشد سيكون في صالح المسلمين. الرسول ﷺ كان يعلم أن مالك بن عوف إنما أسلم في ظروف صعبة، وقد يكون إسلامه رغبة في المال والأهل والإبل، أو رهبة من ثقيف أو من رسول الله ﷺ ، فكيف نثبت أقدامه في الإسلام؟ كيف نستفيد من طاقاته وقدراته؟ هل بمائة من الإبل أم أن هناك وسائل أخرى؟ انظروا إلى فعل النبي الحكيم ﷺ ، قام بخطوتين مبهرتين: الخطوة الأولى: أعاد مالك بن عوف إلى زعامة هوازن.

ومثل مالك لا يمكن أن يقبل بتهميشه، لن يكون الوضع مستقراً إلا إذا رضي ذلك القائد، ولن يرضى من كان في قدرات مالك إلا بتوليته قائداً، والدولة الإسلامية ستستفيد من طاقات مالك بن عوف إن سخرت لصالح المسلمين، وكل هذا يدفع في اتجاه تولية مالك بن عوف لأمر هوازن، بالإضافة إلى أن مالك بن عوف أقدر على قيادة قبيلته، فهو أكثر معرفة بأحوالها وبرجالها، وأدرى بشئونها وشئون المنطقة بكاملها، ولا يقال هنا: كيف ولاه ﷺ هوازن وقد رفض قبل ذلك أن يولي أبا سفيان على مكة؟ نقول: الوضع مختلف بين الاثنين، أبو سفيان له تاريخ طويل جداً من العداء مع المسلمين، وعنده ميراث ضخم من الكراهية للرسول ﷺ ، بينما مالك بن عوف حديث العهد بمثل هذه العداوات، وكل تاريخ العلاقة بينه وبين الرسول ﷺ لا يتعدى هذه الأيام التي تمت فيها حنين. أما أبو سفيان فرجل موتور قتل ابنه حنظلة على يد المسلمين، ومالك بن عوف ليس كذلك. أبو سفيان كبير في السن قد غرق ولسنوات طوال في عبادة هبل واللات والعزى، بينما مالك بن عوف شاب حديث السن لم يفن عمره في حب هذه الأصنام. أبو سفيان يقود عدة قبائل حاربت الرسول ﷺ لسنوات طوال وقد تنقلب عليه في لحظة، بينما مالك بن عوف يقود قبيلة تشعر بالجميل، وتعترف بالفضل لرسول الله ﷺ الذي أعاد لهم السبي بهذا الأسلوب الحضاري الذي رأيناه.

لهذا ولغيره وجد ﷺ أنه من الأسلم والأفضل والأحكم أن يعيد مالك بن عوف على ولاية قومه، فيكسب مالك بن عوف ويكسب القبيلة بكاملها. هذه كانت الخطوة الأولى في تعامله ﷺ مع مالك بن عوف رضي الله عنه.

الخطوة الثانية: أنه كلف مالك بن عوف وقبيلته بمهمة في غاية الأهمية، وهي مهمة حصار قبيلة ثقيف في الطائف.

الرسول ﷺ بهذه الخطوات يضرب أكثر من عصفور بحجر واحد.

أولا: يجعل لمالك بن عوف دوراً إيجابياً، ويحمله تبعات هامة جداً، فهذه كلها أمور تربوية مهمة جداً بالنسبة لهم، كما أنها تشعره بقيمته في الدولة الجديدة، وتشعره كذلك بثقة الرسول ﷺ ، وذلك لا شك أنه يُثبت أقدام مالك بن عوف وقبيلته في الدين الجديد.

كل هذه أمور إيجابية بالنسبة لمالك بن عوف ، وليس فقط مالك بن عوف الذي سيثبت في الإسلام أو قبيلته، بل هناك فوائد ثانية؛ فالرسول ﷺ سيكفى مئونة ثقيف، فيجعل من قبيلة هوازن درعاً للدولة الإسلامية، وسيحجم من قدرات وإمكانيات ثقيف، وسيقلل من خطرها، وفوق كل هذا الكلام يستطيع الرسول ﷺ أن يرجع إلى المدينة المنورة بأمان؛ لكي يدير شئون الدولة الإسلامية الواسعة الآن، وليتابع المهام العظيمة الموكلة إليه هناك، وهو لم يكن بأي حال من الأحوال قادراً على البقاء كثيراً في منطقة الطائف أو حنين أو مكة، بعيداً عن العاصمة المدينة المنورة مسافة 500 كيلو متر، أما الآن فيستطيع أن يعود إلى المدينة المنورة وهو مطمئن إلى وجود من يسد هذه الثغرة من أبناء قبيلة هوازن. قرار في منتهى الحكمة، وبالفعل قام مالك بن عوف رضي الله عنه وأرضاه بالمهمة خير قيام، وحاصر ثقيفاً حصاراً شديداً، وما استطاعوا الخروج من حصونهم، إلا بجهد جهيد، وظل مالك بن عوف رضي الله

عنه قائماً بهذا الحصار ما يقرب من سنة، حتى فكرت ثقيف في أمر الإسلام كما سيأتي بعد ذلك إن شاء الله.

هـــــذه كانت قرارات الرسـول ﷺ ، وهذه كانت سـيرة الرسـول ﷺ ، وهذه كانت غزوات الرسـول ﷺ ، وهذه كانت معاملات الرسـول ﷺ معه الناس. نحن نقف على بعض المواقف من سيرته فقط، ولا نستطيع أبداً أن نحصي فضائله وأعماله وغزواته وما فعله ﷺ في حياته.

43

الطريق إلى تبوك

بعد فتح مكة وانتصار حنين دانت قبائل عربية كثيرة في الجزيرة العربية للمسلمين، ومن أشهر هذه القبائل هوازِن، وأصبحت الجزيرة العربية أشبه بدولة إسلامية، لها وضعها وكيانها وهيبتها، ليس فقط في الجزيرة العربية، ولكن حول الجزيرة العربية أيضاً. لا شك أن ذلك لفت أنظار الدول المحيطة بالدولة الإسلامية الجديدة، ومن أهم هذه الدول: الدولة الرومانية العظمى التي تقبع في شمال الجزيرة العربية في الشام وما فوقها، وبالنظر إلى الوضع في نظر الرومان يظهر لنا التحليل الآتي، مع العلم أن الرومان يراقبون الأحداث المتطورة في الدولة الإسلامية الجديدة.

أولاً: الدولة الإسلامية تتنامى قواتها بشكل لافت للنظر، فقد تحولت من حركة مضطهدة في مكة المكرمة إلى دويلة صغيرة في المدينة المنورة، ثم إلى دولة عظمى تأخذ مساحة ضخمة في الجزيرة العربية بكاملها، وأنتم تعرفون أن اليمن وعمان والبحرين كانت في نطاق الدولة الإسلامية؛ لذا فالدولة الرومانية ستحصر شرقاً بالدولة الفارسية، وجنوباً بالدولة الإسلامية الجديدة، وهذا الشيء خطير بالنسبة للدولة الرومانية.

الأمر الثاني: الرومان يعرفون القوة الذاتية العظيمة في داخل الدولة الإسلامية؛ لأنهم يعرفون أن هذه الدولة تتبع نبياً، ويدينون بدين سماوي صحيح غير مُحرف، وهرقل أدرك ذلك بوضوح في حواره مع أبي سفيان قبل فتح مكة، ولو ترك لهذا الدين العنان فسوف يملك ما تحت أقدام هرقل نفسه، كما قال ذلك في الحوار مع أبي سفيان. كما أن هذا الكلام يفسر لنا رعب الدول الكبرى في العالم الآن وفي كل زمن من أي حركة إسلامية تنمو وإن كانت ضعيفة في بدايتها؛ لأنهم يعرفون أن عندهم القابلية لا لحكم بلاد فقط، ولكن لحكم العالم أجمع، وهذا كان نص كلام هرقل زعيم الدولة الرومانية. كان الرومان يعرفون أن الدين الإسلامي فيه ذاتية تجعل العرب أقوياء، وتجعل كل من اتبع هذا الدين قوياً للدرجة التي يستطيع بها أن يبتلع قوى ضخمة عالمياً مثل الدولة الرومانية أو الدولة الفارسية أو غيرها.

الأمر الثالث: أن الحدود الرومانية المتاخمة للجزيرة العربية هي: الشام من الشمال، ومصر من الغرب، ولو ترك لهذه الدولة الإسلامية أن تقوى من نفسها، فإنه لا يستبعد أبداً أن تَضُم إليها هاتين المستعمرتين، واعلم أن مصر والشام في ذلك الوقت كانتا تتبعان الرومان، وهذا يعد خسارة كبيرة للرومان، خاصة أن مصر والشام في ذلك الوقت كان فيهما من الخيرات ما لا يُعد ولا يحصى، بل كانت تسمى في ذلك الوقت بمخازن الغلال للدولة الرومانية.

الأمر الرابع: منطقة الشام ملأى بعملاء الدولة الرومانية خاصة من نصارى الشام، ولو تركوهم للمسلمين فليس من المستبعد أبداً أن يُسلموا، لا سيما أنهم أهل كتاب، فـ هرقل نفسه كان يفكر في الإسلام؛ لولا أن بِطانة السوء منعته من ذلك، فهؤلاء النصارى في الشام كان من الممكن أن يسلموا -وهذا ما حدث بعد ذلك بالفعل- ومن المؤكد أن هذه خسارة ضخمة أخرى للدولة الرومانية.

الأمر الخامس: ذكريات مؤتة، فمؤتة لم يمض عليها إلا سنة تقريباً، وثبات ثلاثة آلاف مقاتل وانتصارهم على مائتي ألف رومي وعربي في هذه الموقعة الشرسة أمر يستحق النظر، ولابد أن يؤخذ بالاعتبار.

الأمر السادس: كان من الواضح أن الرسول ﷺ جاد في التعامل مع الإمبراطوريات والممالك المحيطة بالدولة الإسلامية، فقد أرسل رسالة دعوة بالإسلام إلى هرقل عظيم الروم، ولم يتردد في مراسلته ودعوته إلى ترك دينه ودين آبائه لاعتناق الدين الإسلامي، والرسالة وإن كانت في لهجتها لطيفة، وأعطت هرقل وضعاً ومكاناً، إلا أنه لا يخفى على أحد التهديد غير المباشر الذي كان فيها، حين قال ﷺ : (فإن عليك إثم الأَريسيين) أي: الأتباع من الفلاحين، فلا يستبعد أبداً أن يسعى الدين الجديد لاكتساب الأتباع الرومانيين المقهورين على طاعة واتباع هرقل وحاشية هرقل.

الأمر السابع: أن من طبيعة أهل الأديان الأخرى: أنهم لا يرضون عن دين الإسلام أبداً، كما قال رب العالمين سبحانه وتعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة:120] بعد أن تبين لهم الحق الذي في الإسلام فهم بين أمرين: إما أن يكيدوا للإسلام، وإما أن يدخلوا فيه. الدولة الرومانية بدون أي مصالح ولا أسباب لن ترضى عن الدولة الإسلامية إلا في حالة واحدة، وذلك عندما تترك الدولة الإسلامية دينها، وتتحول إلى نصرانية، وإذا لم يحدث ذلك فالقتال سيظل وشيكاً، والنزال لن يتوقف أبداً، قال الله عز وجل في كتابه: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217]، حتى في غياب المصالح، فإن القضية تبقى قضية عقائدية: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا }.

الأمر الثامن: غرور القوة، القوي المتكبر لا يقبل بوجود قوي آخر إلى جواره، وعند ذلك تنشأ سنة التدافع والتنافر بين القوى المتشابهة. هرقل لم يكن ليرضى بوجود عظيم إلى جواره، وكما كان يقاتل قبل ذلك عظيم الفرس كسرى، فلا شك أنه سيقاتل الآن عظيم المسلمين رسول الله ﷺ ، لهذه الأسباب مجتمعة -وقد يكون لغيرها- تجمع الرومان ومن شايعهم من قبائل العرب النصرانية أمثال لخم وجذام وعاملة وغسان التي كان بينها وبين الدولة الإسلامية مشاكل كثيرة، وبسبب خيانة قبيلة غسان كانت غزوة مؤتة.

خروج النبي ﷺ وأصحابه إلى تبوك

تجمعت هذه الجيوش في منطقة البلقاء -وهي الأردن الآن- يريدون دولة الإسلام. كل السيناريو الذي نتكلم عليه الآن، وكل التفكير الذي كان في ذهن الرومانيين وغيرهم كان يتوقعه الرسول ﷺ ، وكان يخبر به أصحابه رضوان الله عليهم، وكان يعد العدة لذلك، ودليل ذلك: أن الرسول ﷺ عندما آلى من نسائه جاء أحد الصحابة وطرق الباب بشدة على عمر بن الخطاب فخرج وهو مفزوع، قال: (أجاءت غسان؟!) فكان عمر بن الخطاب يتوقع قدوم غسان لغزو المدينة المنورة، وهذا أمر ممكن وقريب الحدوث، ولا شك أن الرسول عليه والسلام كان يجهز الناس لهذا الاحتمال، من أجل ذلك كان أصحاب المدينة المنورة يتوقعون حرباً قوية مع الدولة الرومانية في الفترة القادمة، ومن أجل ذلك أيضاً كانت العيون الإسلامية تراقب بدقة منطقة شمال الجزيرة العربية، ومنطقة الأردن والشام، وبمجرد أن حدث هذا التجمع على بعد مئات الكيلو مترات من المدينة المنورة عرفه ﷺ ، وبدأ يأخذ القرار في ضوء هذه المعرفة المبكرة.

كان عنده ﷺ اختيار من اثنين: إما أنه ينتظر الرومان في المدينة المنورة، وإما أن يذهب إليهم في شمال الجزيرة العربية، وانتظار الرومان في المدينة المنورة كان أسهل على المسلمين؛ لأنهم لو

انتظروهم ما كانوا ليقطعوا تلك المسافة الضخمة في الصحراء، مع ما تتطلبه من تجهيز المؤن والزاد الذي يكفي مسافة مئات الكيلو مترات، ومن المحتمل أن يهلك الجيش الروماني في الصحراء؛ لأنه غير معتاد على قتال الصحراء؛ فهو يعيش طوال عمره في أماكن خضراء في أوروبا والشام، وفي غيرها من المناطق الباردة، ولم يعايش من قبل أي نوع من التجارب في داخل الصحراء، ومع ذلك قرر الرسول ﷺ أن يخرج بجيشه من المدينة المنورة إلى الشام لأمور:

أولاً: ليأخذ عنصر المبادأة، فيختار بنفسه مكان وزمان الحرب، بدل أن تفرض عليه.

ثانياً: حتى يكون عنده خط دفاع بعد ذلك، فلو أنه غزي في المدينة المنورة فإلى أين يذهب؟ فعقر دار المسلمين المدينة المنورة، ولو سقطت المدينة المنورة سقط الإسلام في الجزيرة العربية، وكلنا يعلم أن معظم العرب لم يدخلوا الإسلام إلا منذ قليل.

ثالثاً: ليظهر عزة الإسلام وقوته، وعدم جبنه أو رهبته من القتال، وهذا الثبات والإقدام له أثر ضخم كبير على نفوس الأعداء، سواء كانوا من الرومان أو الفرس أو غيرهم، عندما يجدون الجيوش الإسلامية لا تهاب الموت، وتأتي إلى بلادهم لتحاربهم في ظروف صعبة؛ فإن هذا -ولاشك- يلقي الرهبة في قلوبهم من المسلمين، والرسول ﷺ نُصر بالرعب مسيرة شهر ﷺ.

رابعاً: أن الرسول ﷺ له شعب في شمال الجزيرة العربية، والرسول ﷺ كزعيم مسئول لا يترك شعبه هكذا دون حماية، ومعلوم أن شمال الجزيرة العربية بعد غزوة مؤتة كان قد دخله الإسلام، وجاءت القبائل تبايع على الإسلام لرسول الله ﷺ ، فالرسول ﷺ لا يريد أن يترك الشعب هكذا بدون حماية، لا يفعل مثلما يفعل كثير من الزعماء بتأمين حدود العاصمة فقط، وترك الشعب بعد ذلك يعاني ويلات العدو، ثم الفرار بعد ذلك من العاصمة إن حوصرت،

بل خرج ﷺ بنفسه على رأس أعظم جيوشه فيه أقرب خاصته ليلقى أعتى قوة في العالم في ذلك الوقت؛ ليحفظ دماء شعبه ﷺ ، ولو كانوا فقراء بسطاء يعيشون في أطراف الصحراء.

مظاهر العسر في غزوة تبوك

إن قرار الخروج إلى تبوك لم يكن سهلاً، بل كان عسيراً بمعنى الكلمة، ولم نأت بهذا اللفظ من عند أنفسنا، بل هذا كلام رب العالمين سبحانه وتعالى لما قال: {فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [التوبة:117] يصف هذه الموقعة بأنها العسرة، لماذا؟ لأكثر من أمر:

أولاً: أن المدينة المنورة في ذلك الوقت كانت تعيش ضائقة اقتصادية، ولم تجُن الثمار منذ فترة، وهذا الوقت الذي سيخرج فيه الجيش يعتبر موسم جني الثمار، ولو انتظر الجيش قليلاً لأمكن أن يكون هناك فرصة لإصلاح الأزمة الاقتصادية، ومع ذلك لو انتظرنا فمن المحتمل أن تهجم جيوش الرومان على الدولة الإسلامية، فلا ينبغي الانتظار. هناك مشاكل اقتصادية، ولا نستطيع الإنتظار لإصلاح هذه المشاكل الاقتصادية مع احتمال الإصلاح إن انتظرنا، ولكن المشاكل ستكون أكبر مع الدولة الرومانية.

ثانياً: الحر الشديد؛ فهذه الغزوة تمت في آخر شهور الصيف، وتخيلوا وضع جيش يخترق الصحراء القاحلة في هذا الجو الشديد الحرارة في الجزيرة العربية، إن الواحد منا يذهب إلى العمرة أو الحج في داخل المدينة، وتكون أموره ميسرة إلى حد كبير، ومع ذلك فإن الحر لا يُحتمل، فما بالك باختراق الصحراء على الجمال أو سيراً على الأقدام؟!

ثالثاً: كانت المسافة من المدينة المنورة إلى تبوك 700 كيلو متر، هذا بالقياسات الحديثة في الطرق المستقيمة، أما طرق الصحراء فمن المؤكد أنها كانت أطول من ذلك، طرق ملتفة وملتوية وصعبة.

ثالثاً: بعد هذه المسافة الطويلة أنا لن أقابل قبيلة من القبائل، أو فرقة من فرق جيش ضعيف، لا، بل كان الخروج لمحاربة جيش أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت، جيش الدولة الرومانية العظمى، وهذا العدو ما كان العرب يتخيلون حتى لقاءه، فهي دولة ضخمة، ولها تاريخ طويل في الحروب.

في هذا الجو الصعب، وفي هذه الظروف الاقتصادية، مع وجود العدو القوي، في كل هذه الظروف يطلب من المسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله، كان فعلاً امتحاناً عسيراً. لماذا يُعسر الله عز وجل الامتحان على المسلمين إلى هذه الدرجة؟ لسبب هام جداً، وهو تمييز المؤمن من المنافق.

الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت وصلت من القوة إلى درجة لم يتخيلها أحد قبل ذلك، فقد كثر أتباعها، واتسعت مساحة الرقعة التي تحكمها، وكثرت الأموال، وأصبحت دولة ذات هيبة وسيادة وتمكين في الجزيرة العربية، كل ذلك جعل الكثير من العرب يسارعون إلى الدخول في الدولة الإسلامية وليسوا منها، يبطنون الكفر، أو الكراهية للدولة الإسلامية، ولكن يظهرون الإسلام، وهذا ما نسميه: بالنفاق، وكلما زاد تمكين الدولة صعب الله عز وجل الامتحان على المسلمين لإظهار المنافقين، أما الدولة الضعيفة فلا ينافق فيها إلا القليل، لكن الدولة الإسلامية الآن وصلت إلى قمة المجد -حتى هذه اللحظة- في السيرة النبوية، وعدد المسلمين سيصل إلى ثلاثين ألفاً أو أكثر في داخل المدينة المنورة، وهذا عدد هائل بالنسبة للعرب، من أجل ذلك اختلط الحابل بالنابل، واختلط الصادق بالكاذب، والمؤمن بالمنافق، فكان لابد من تمييز، فليكن الامتحان في قمة صعوبته لكيلا ينجح فيه إلا الصادق حقيقة.

أهداف النبي ﷺ من الخروج إلى تبوك

كيف كانت الدعوة إلى مثل هذا الامتحان الصعب من الخروج إلى القتال في سبيل الله في تبوك في هذه الظروف الصعبة؟ كان الرسول ﷺ يريد تحقيق هدفين رئيسين من هذا الامتحان:

الهدف الأول: أن المؤمنين الصادقين ينجحون في الامتحان، فهو لا يريد لهم الفشل في هذا الامتحان الصعب، نعم هو امتحان صعب، لكن في نفس الوقت كان عنده أمل كبير أن ينجح أكبر عدد من المؤمنين.

الهدف الثاني: أن يكشف أوراق المنافقين في داخل المدينة ويعرفهم باكامل، وإن كان الرسول ﷺ يستطيع معرفة المنافقين عن طريق الوحي، لكن لابد أن يتعلم المسلمون الطريقة التي يستطيعون بها اكتشاف المنافقين في داخل الصف؛ لأنه بعد وفاة الرسول ﷺ لن يكون هناك وحي. فماذا صنع النبي ﷺ لتحقيق هاتين الغايتين؟

قرر ﷺ القيام بعمل يحقق المصلحتين سوياً، وهو فتح باب الجهاد علنياً، ودعوة الجميع للجهاد في سبيل الله بالمال والنفس على العلن، فكانت دعوة عامة لكل من يستطيع أن يجاهد بماله لتجهيز الجيش الضخم الذي يخرج في تبوك ، وهذا حدث غير متكرر في السيرة النبوية؛ لأن هذه الفترة تميزت بوجود عدد كبير من المنافقين في الدولة الإسلامية على خلاف الفترات السابقة. حدث ما توقعه ﷺ وتمايز الصف تمايزاً واضحاً، وهذا ما يحدث دائماً عند الأزمات الخطيرة التي تمر بالأمة، فعندما يرى المؤمن إخوانه المؤمنين بدءوا بالدفاع سيدفع معهم، ومن ثم يحاول أنه ينجح في الامتحان، وربما يوفق وينجح إن شاء الله، والمنافق لا يستطيع المشاركة علناً مع الناس؛ لأنه منافق وضعيف وإيمانه مهزوز فيعلن صراحة أنه لا يستطيع أن يجاهد في الصف، وبذلك يتمايز الصف.

طبقات عمالقة الإيمان

المسلمون عادة يتكون صفهم من خمس طبقات، هذه الطبقات الخمس تكون متداخلة في أيام الراحة والرخاء، أو في غياب الأزمات، ثم إذا ما حدثت أزمة كبيرة يتمايز الصف وتتميز بداخله الطبقات الخمس بوضوح، وهذا الأمر ليس خاصاً بتبوك، بل هو خاص بكل مراحل التاريخ الإسلامي، وخاص بواقعنا الذي نعيش فيه، وسيظل معنا إلى يوم القيامة، أي مجتمع مسلم في التاريخ كله، خاصة إذا كانت هناك دولة ممكنة فيها خمس طبقات، فما هي هذه الخمس الطبقات؟

الطبقة الأولى: طبقة عمالقة الإيمان، وهي طبقة في غاية الأهمية، الرجل منهم بألف أو يزيد، وعلى أكتاف هؤلاء تقام الأمم، هؤلاء هم الذين يحركون الخير في قلوب العوام، ويقودون حركات التغيير إلى الأصلح والأنفع، ويضحون بأموالهم وأوقاتهم وجهدهم -بل وبأرواحهم- لنفع الآخرين ولنفع الأمة الإسلامية. خُلصت نفوسهم من حظ نفوسهم فعاشوا لله عز وجل بكل ذرة في كيانهم، هؤلاء هم الصفوة الحقيقية في المجتمع، ليست الصفوة في أصحاب المال ولا السلطة ولا الجاه ولا الشهرة، الصفوة هم: دعاة الخير ومصلحوا الأمم. كانت هذه الطبقة العظيمة -طبقة عمالقة الإيمان- في يوم تبوك، ووجد منهم عدد كبير من أصحاب الرسول ﷺ . كان على رأس هؤلاء في ذلك اليوم: عثمان بن عفان، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة، هؤلاء الذين حملوا على أكتافهم هموم الأمة بكاملها، تعالوا لنرى ماذا فعل هؤلاء لكي ندخلهم في طائفة عمالقة الإيمان؟

عثمان بن عفان أنموذجاً

أما عثمان رضي الله عنه وأرضاه فكان هذا اليوم يومه؛ ما إن فتح الرسول ﷺ باب الجهاد بالمال حتى كان أسرع وأسبق الناس إلى الدخول فيه رضي الله عنه، قام في تجرد واضح، وفي تضحية عميقة يقول: علي مائة من الإبل بأحلاسها وأقتابها؛ بكامل عدتها، وكنا قد ذكرنا في الدروس الماضية نماذج ممن كان يطلب مائة من الإبل ليثبت على الإسلام، والآن نتكلم على شخص يدفع مائة من الإبل في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة، هذا هو مقياس الدنيا في عين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، في لحظة يدفع بمائة من الإبل بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فـ عثمان ليس مكلفاً بدفع كل هذا في إعداد الجيش الإسلامي، لكنه يشعر أن القضية فعلاً قضيته، والهم همه، لا يضيره في ذلك أن قعد آخرون، المهم عنده أن يعمل لله عز وجل، لم ينتظر أن يسبقه أحد أو أن يشجعه أحد، ليست النائحة كالثكلى، فهو يعيش القضية، فلما رأى الرسول ﷺ عثمان بن عفان يدفع مائة من الإبل سر سروراً عظيماً ﷺ حتى ظهر ذلك على وجهه، وانبسطت أساريره ﷺ ، ثم فتح باب الجهاد من جديد.

يقوم آخر ليبذل من ماله فيحدث العجب، لقد قام عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه مرة ثانية يزايد على نفسه هو، فقد دفع في الأولى، وكذلك يدفع في الثانية، لا ينتظر أحداً من المسلمين ليساعده في عملية الإنفاق على جيش العسرة رضي الله عنه وأرضاه، قام وقال: علي مائة أخرى من الإبل بأحلاسها وأقتابها! تفشل كثير من الأمم في الخروج من أزماتها لافتقادها إلى رجل مثل عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه. يرقب الرسول ﷺ ذلك بسعادة لا تخفى على أحد، إلى الدرجة التي قال فيها كلمة عجيبة جداً، قال ﷺ: (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم)، أي: أن الحسنات التي حصلها عثمان رضي الله عنه وأرضاه في هذا اليوم لا تضر معها معصية أبداً، وهذا الكلام ليس استنتاجاً، بل هو نص كلام الرسول ﷺ ، فقد ينجو الإنسان

طيلة حياته بموقف واحد وقفه لله عز وجل. (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) ليست هناك سيئة إن فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه أي سيئة بعد ذلك، لن يكون هناك تأثير على ميزانه يوم القيامة، وليست هذه دعوة لفعل السيئات، فالرسول ﷺ يقول الكلمة وهو يعرف في حق من يقولها، يقولها في حق عثمان بن عفان ذي النورين رضي الله عنه وأرضاه. عثمان بن عفان بعد أن سمع هذه الكلمة العجيبة التي علق بها ﷺ على فعله العظيم لم يكتف بهذا العطاء، بل قام للمرة الثالثة في بساطة وهو يقول: عليّ بمائة ثالثة من الإبل بأحلاسها وأقتابها، ماذا نرى؟! إنه إنفاق غير طبيعي، لا يرى للدنيا أي حجم في عينه رضي الله عنه وأرضاه. الرسول ﷺ يسمع هذا الكلام ويقول: (اللهم اغفر لـ عثمان ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن، وما أسر وما أجهر)، بل إن البعض يصل بنفقة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه في ذلك اليوم إلى تسعمائة من الإبل بأحلاسها وأقتابها! ولم يكن عطاؤه من الإبل فقط رضي الله عنه، بل عاد إلى بيته وأتى بألف من الدنانير نثرها في حجر الرسول ﷺ حتى رفع الرسول ﷺ يده إلى السماء وقال: (اللهم ارض عن عثمان؛ فإني عنه راض) سبحان الله! ماذا يساوي هذا؟! إن مال الدنيا بأكمله لا يساوي هذا الدعاء العظيم من الحبيب ﷺ .

لم تكن عظمة عثمان رضي الله عنه وأرضاه فقط في أنه أنفق أو أعطى، لكن العظمة الحقيقية في أنه سبق، لم ينتظر تشجيعاً من أحد، بل هو الذي شجع الآخرين، لم يقل: كل الناس لم يتحركوا، بل هو الذي تقدم وسبق؛ من أجل أن يقلده الناس بعد ذلك. هذا بيت القصيد في بناء الأمم؛ أن يحمل أناس الهم على أكتافهم ويتحركوا به حتى وإن قعدت الأمة بأكملها. كل من أعطى بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه تقليداً لفعله واتباعاً لهديه هو في ميزان حسنات عثمان بن عفان، وهذا أمر يعجز عن حسابه العقل.

روى مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء). لماذا يعمل عثمان بن عفان هذا كله وينفق تسعمائة بعير، ويأتي بألف دينار، ويتحمل كل هذه المسئولية وحده رضي الله عنه وأرضاه؟ إن قلبه وعينيه على الجنة: (ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)، يشتري الجنة فعلاً. بل إن أبا هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال ذلك تصريحاً في حقه رضي الله عنه، قال: (اشترى عثمان بن عفان الجنة مرتين: يوم بئر رومة، وهذا اليوم يوم تبوك) وأكثر من ذلك، حيث وسع البيت الحرام في مكة، ووسع المسجد النبوي في المدينة المنورة، رجل يعيش فعلاً لأمته رضي الله عنه وأرضاه. هذا هو عثمان بن عفان أحد عمالقة الإيمان.

أبو بكر أنموذجاً

كان من عمالقة الإيمان أيضاً في ذلك اليوم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو من عمالقة الإيمان من أول يوم آمن فيه إلى آخر يوم في حياته رضي الله عنه وأرضاه؛ أتى بأربعة آلاف درهم، لكن قد يقول قائل: هذا المبلغ يعتبر بسيطاً بالنسبة لعدد الإبل التي قدمها عثمان بن عفان رضي الله عنه. أقول: انتبه، فنحن نتكلم على أعظم شخصية في تاريخ الأرض بعد الأنبياء، هذه الأربعة آلاف هي كل ما يملك، فهل يستطيع أحد أن يعمل مثل هذا؟ هل يمكن أن تتخيل ذلك مع نفسك ولو مرة واحدة في حياتك؟ صعب جداً، ويكاد يكون مستحيلاً، مع مراعاة أن أبا بكر الصديق فعل ذلك أكثر من مرة في حياته؛ في بداية الدعوة، وفي وسط الدعوة، وفي الهجرة وفي تجهيز الجيوش بصفة مستمرة حتى وصل إلى هذا الأمر في تبوك، وكان خليفة للمسلمين بعد ذلك، ومات وليس في بيته دينار رضي الله عنه وأرضاه. كل حياته إنفاق في سبيل الله، كل الذي عنده أتى به، أتى بكل ثروته لنصرة الإسلام والمسلمين، من أجل ذلك

فـ الصديق درجته مختلفة عن درجة بقية المسلمين، لا لشيء إلا ليقينه العميق فـيما عنـد الله عـز وجل، لا لمنصب ولا لِعرق ولا لنسب؛ بل لدرجة الإيمان والصدق الذي في قلبه.

سأله الرسول ﷺ سؤالاً واضحاً فقال: (هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ فقال -في يقين عجيـب-: أبقيت لهم الله ورسوله)، سبحان الله! هل يضيع الله عز وجل من اسـتودعناه إيـاه؟ هـل يـترك ربنا سبحانه وتعالى من تركناه له؟ هذا مستحيل، وكلنا يؤمن بذلك، لكـن إيـمان بعضـنا إيـمان نظري، ليس له تطبيق في واقع حياتنا، أما أبو بكر فكل معنى آمن به كان له انعكاس مباشر على حياته، وعلى حياة المسلمين، وعلى واقعه وعلى واقع المسلمين. هذا هو الفهم الـذي تصـلح بـه الأمم.

عمر بن الخطاب وابن عوف أنموذجاً

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أيضاً من عمالقة الإيمان في ذلك اليوم، فقد أتى بنصف ماله رضي الله عنه، جاهد في سبيل الله بنصف ثروته. إياك أن تنتقصه بعـد أن رأيـت فعـل أبي بكـر رضي الله عنه، فإن عمر بن الخطاب أتى بما لا يستطيع عامة البشـــر أن يـأتوا بـه، ولـولا أنـك تقارنه بـ الصديق لما شعرت أبداً بقلة عطائه رضي الله عنه، وإلا فقارن عمر بن الخطـاب بغـيره من البشر، فمن يستطيع أن يتنازل في موقف واحد عن نصف ممتلكاته في سبيل الله؟! احسـبها مع نفسك وكن صادقاً، قرار صعب، لو كـان معـك عشرـة آلاف جنيـه، أو مائـة ألـف جنيـه أتستطيع قسمه نصفين: نصف تتبرع به للجيوش الإسلامية، ونصف تبقيه معك؟ هذا صعب، بل لعله مستحيل في حق الكثيرين من أبناء الأمة بدون هـؤلاء العمالقـة الـذين يسـتطيعون أن يأخذوا مثل هذا القرار.

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه فعل نفس الشيء الـذي فعلـه عمـر رضي الله عنـه وأتى بنصف ماله، ونصف ماله كان مائتي أوقية من الفضة، والرسـول ﷺ قـال لـه آنـذاك: (بارك الله لك فيما أنفقت وفيما أبقيت)، وصدق الرسول الكريم ﷺ ، فقد بارك الله عز وجـل في مال عبد الرحمن بن عوف، فما أفقرته الصدقة التي دفع، ما نقص ماله، مـا ضـاع أولاده، مـا شُردت نساؤه، بل قسمت ثروته الذهبية بالفئوس بعد موته، بورك في ماله حياً وميتاً، هذا وعد الله عز وجل، والله عز وجل لا يخلف الميعاد، وهذا الكلام ليس خاصاً بـ عبد الرحمن بن عوف فقط، بل هو لأي إنسان ينفق في سبيل الله. الرسول ﷺ يقسـم في الحـديث ويقـول: (ثـلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، وذكر منها: ما نقص مال عبد من صـدقة)، والله عـز وجل يقول في كتابه الكريم: {وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سـبأ:39]، هـذا وعـد الله عـز وجل، والمسألة في النهاية مرجعها إلى اليقين.

من صفات طبقة عمالقة الإيمان

هكذا قام هؤلاء العمالقة وغيرهم بمعظم أمر الأمة، لم تكن عظمـة هـؤلاء -كـما ذكرنـا- فـيما أنفقوه، ولكن كانت العظمة الحقيقية في بذلهم لكل ما في الوسـع، كانـت عظمـتهم في قيـامهم ليس بدورهم فقط، ولكن بأدوار أولئك الذين لا يستطيعون، أو بأدوار أولئك الـذين تخلفـوا عن نصرة الدين مع قدرتهم على ذلك، لم يقترح هؤلاء أن تقسم الأعمال على أغنياء الأمـة، بـل شعروا أنهم معنيون تماماً بهذا الأمر، ولو تقاعس الجميع فليس هذا مبرراً لتقاعسـهم، الجـيش جيشهم، والنصر أملهم، وعزة الإسلام هدفهم، والله عـز وجـل غـايتهم وهـو مُطَّلـع علـيهم ويرى أعمالهم، وهذا يكفيهم.

قد يقول قائل: ألا يصل إلى درجة عمالقة الإيمان إلا أغنيـاء الأمـة فقـط الـذين يملكـون المـال الوفير فيقدرون على هذه العطايا السخية؟ والإجابة على العكس تماماً، فليس المهـم هـو كميـة

الإنفاق، لكن المهم هو استنفاذ الوسع، وبذل الطاقة، ورُب درهم سبق ألف درهم، وقد ينفق منافق نفقة عظيمة مردودة عليه لفساد نيته، وقد ينفق فقير درهماً واحداً فيصل به إلى أجر الأغنياء الذين بذلوا الألوف؛ من أجل ذلك تسابق عمالقة الإيمان من الفقراء لبذل الوسع في يوم تبوك، والوسع قد يكون مكيالاً من التمر، قد يكون دُريهمات معدودات، هو جزء قليل في عدة وعتاد جيش ضخم، لكن هذا ما يستطيعونه ويقدرون عليه، فبلغوا بهذا القدر اليسير منازل كبار المنفقين في سبيل الله. كل واحد مهما كانت إمكانياته، ومهما كانت قدراته يستطيع أن يكون من هؤلاء العمالقة، ليس هذا فقط، بل إن المسلم قد لا يملك شيئاً أصلاً ويتمنى في داخله أن لو استطاع أن يشارك أو يساهم أو يجاهد فيُعطى أجر الشهداء وأجر المجاهدين وأجر المنفقين في سبيل الله. يريد أن يجاهد بماله، ولكنه معدم لا يملك درهماً ولا ديناراً، يريد أن يجاهد بروحه، ولكنه معتل ومريض ولا يقوى على حمل السلاح، يريد أن يشارك بجسده ولكنه لا يملك راحلة تصل به إلى أرض الجهاد، هؤلاء المعذورون الصادقون في نيتهم لهم من الأجر مثل ما للقادرين المجاهدين بأموالهم وأرواحهم، هذا هو العدل الإلهي فعلاً، يعامل الناس على قدر الوسع، وليس على ما يمتلكون من أموال أعطاها لهم رب العالمين سبحانه وتعالى، أو حرمهم إياها.

اسمع إلى هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل رحمه الله، وسنن ابن ماجه عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر)، ثم ذكر منهم ﷺ : (رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه، وفي ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، قال ﷺ : فهما في الأجر سواء)، يتمنى أن ينفق فيعطي أجر المنفقين في سبيل الله وليس معه شيء، أي رحمة من رب العالمين سبحانه وتعالى!. هؤلاء قال الله عز وجل في حقهم: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى

الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِّ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:91].

البكاءون

إن بعض هؤلاء الفقراء المعدمين بلغوا من الصدق في النية والشوق إلى الجهاد بالنفس والمال أن بكوا تأثراً أن الرسول ﷺ لا يجد راحلة يحملهم عليها إلى تبوك، تخيل شخصاً يحرم من الجهاد فيبكي؛ لأنه لا يستطيع أن يجاهد في سبيل الله لا بمال ولا بنفس، لم يقولوا: الحمد لله الذي عافنا من هذا المجهود، ولكن حزنوا حزناً شديداً وصل إلى حد البكاء لحرمانهم من الجهاد، هؤلاء عرفوا في السيرة بالبكائين، وكانوا سبعة، وفيهم نزل قول الله عز وجل: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [التوبة:92] انظر التصوير: {أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ} [التوبة:92] حزن حقيقي صادق، تدبر بإمعان في مقدار الإخلاص والتجرد والتضحية التي كانت في قلوبهم إلى الدرجة التي تصل إلى تخليد ذكراهم في كتاب رب العالمين بقرآن يُقرأ ويتعبد به إلى يوم القيامة. كل هذا وهم من الفقراء الذين لا يملكون شيئاً مطلقاً، ولا حتى مكيال تمر، بل إن بعضهم بلغ به الشوق إلى الجهاد في سبيل الله، وإلى خدمة الإسلام ونصرة الدين درجة لا نتصورها أصلاً.

هذا هو عُلْبَة بن زيد رضي الله عنه وأرضاه أحد البكائين السبعة رضي الله عنهم وأرضاهم، عاد يوماً إلى بيته، وذلك بعدما رده ﷺ ، وصلى في هذه الليلة ما شاء الله له عز وجل أن يصلي، ثم بكى في آخر صلاته ودعائه، وقال: (اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق -وانتبه فهذه أعجب صدقة في التاريخ- على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو

عرض). هذا يريد أن ينفع الجيش المجاهد والأمة الإسلامية بأي شيء، لكن ليس معه أي شيء، ففكر في شيء عجيب يتصدق به ما تصدق به أحد قبله، وما أحسب أن أحداً فعل ذلك بعده، إنه يتصدق من حسناته، هذه المظالم التي أُرتكبت في حقه يوماً من الأيام تتحول إلى حسنات في ميزانه يوم القيامة، وهو يريد مساعدة المسلمين بأي شيء، وليس معه، فليساعدهم بالعفو عن ظلمهم إياه ورَدّ حسناتهم إليهم، وما أحسب أن أحداً في العالم بلغ هذه الدرجة من السمو في حب العمل لله، وحب الخدمة للناس والمجتمع والأمة.

يا ترى هل كان هناك مردود لأمنية علبة بن زيد رضي الله عنه؟ هذا الرجل ذهب إلى صلاة الصبح مع المسلمين، والتفت الرسول ﷺ بعد الصلاة إلى الناس وسأل: (أين المتصدق هذه الليلة؟ لم يقم أحد، فقال: أين المتصدق مرة ثانية فليقم، فقام إليه علبة وأسر إليه في أذنه وأخبره بما كان من ليلته بالأمس، فقال ﷺ : أبشر؛ فوالذي نفسي بيده كتبت في الزكاة المتقبلة). استحق علبة بن زيد رضي الله عنه برغم فقره الشديد أن يكون من كبار المتصدقين الذين تقبل الله عز وجل منهم صدقاتهم، وأصبح علبة بن زيد رضي الله عنه وأرضاه من عمالقة الإيمان الذين يقودون الأمة إلى كل مجد وعز وشرف رضي الله عنه.

الرسول ﷺ من شدة إعجابه بهذه الطائفة العملاقة من المؤمنين والتي لا تملك شيئاً في يدها، هذه الطائفة الباكية ظلت في فكره ﷺ منذ ذهب إلى تبوك وحتى عاد إلى المدينة المنورة وقال لأصحابه عن أولئك الصادقين الذين ما استطاعوا أن يخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله وهم يتمنونه بصدق، قال: (إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر). هذا الكلام يعطي إشراقة أمل لكل من حِيل بينه وبين الجهاد في سبيل الله لأي سبب، لكن يتمنى بصدق، فيصل فعلاً إلى درجة المجاهدين في سبيل الله، ويصبح الجيش المجاهد كلما خطا خطوة في سبيل الله يُوضع له الأجر وهو في مدينته مثلما يكون للجيش

المجاهد في سبيل الله، بل قد يصل إلى درجة الشهداء في سبيل الله! روى مسلم والنسائي وابن ماجه عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه).

هذا هو الإسلام، الإسلام ليس ديناً للأغنياء فقط، كل إنسان يمكن أن يساهم حتى المُعدم الفقير الذي لا يجد شيئاً، ويصبح كأعظم الناس نفقة في سبيل الله إذا أخلص نيته لله عز وجل: أنه إن كان معه مال فسينفقه في سبيل الله، رحمة من رب العالمين سبحانه وتعالى.

طبقة عمالقة الإيمان هذه لم تكن من الرجال فقط، بل أتت بعض النساء من عمالقة الإيمان بحليهن وبكل ما يملكن لتجهيز الجيش المسلم مع أنهن لسن مكلفات بالجهاد في سبيل الله، ولكن لقوة إيمانهن فهن يعتبرن أنفسهن مسئولات عن قضايا الأمة، ولذلك كن فعلا

طبقة عامة المؤمنين

الطبقة الثانية: طبقة عموم المؤمنين، وإذا كانت الطبقة السابقة هي طبقة القادة في الخير، فهذه طبقة الأتباع في الخير أيضاً، هؤلاء هم أصحاب الفطرة السليمة، والأخلاق الحميدة، والروح الإسلامية النقية، هؤلاء يستجيبون لنداء الجهاد دون تردد، يتحركون دون تكاسل، يرفعون راية الحق ما دام قد طُلب منهم ذلك، هذه هي الطبقة الرئيسية في الأمة المنتصرة الممكنة.

هذه الطبقة وإن كانت تأتي خلف طبقة عمالقة الإيمان إلا أنها عماد الدولة، وكيانها الرئيس، وعموم الناس فيهم خير كثير، وأمل كبير، نعم هم ليسوا قادة الناس ومحركيهم، ولكن ليس كل الناس أبا بكر أو عمر، فقادة الناس ماذا يفعلون بغير شعوبهم وجنودهم؟ أي قيمة لقائد متميز إن كان شعبه فاسداً؟ والعكس كذلك، لا قيمة لشعب متميز إن كان قائده فاسداً، لذلك

من سنة الله عز وجل أن الحكام يكونون على شاكلة شعوبهم، والشعوب تكون على شاكلة حكامها، الشعب الطيب يحكمه قائد طيب، والشعب الفاسد لا يفرز إلا حاكماً فاسداً.

عموم الناس تولد على الفطرة، تولد على حب الله عز وجل وحب الدين، وهذا الحب مزروع تلقائياً في قلوب عامة العباد، لكن تأتي عوامل التربية والبيئة التي تغير من طبائع الناس، كما أن الطفل يولد على الفطرة، ثم يتغير حسب تربيته، كذلك الشعوب: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)، كذلك الشعوب يستطيع الحاكم الصالح أن يحول شعبه بسهولة إلى شعب صالح طيب؛ لأن عامة الناس في فطرتها الخير، وفي نفوسها سياق طبيعي للفضيلة، لكن المؤثرات الخارجية تخرجهم عن جادة الطريق. وظيفة الحاكم هي قمع المؤثرات الخارجية الفاسدة التي تسبب انحراف الناس وتغير الفطرة. القائد الذي لا يستطيع أن يمنع المفاسد والشرور والمعاصي والظلم والبغي هو قائد لا يستحق القيادة، لا ينبغي له أن ينال شرف الإمارة، وعليه أن يترك الأمر لمن يصلح البلاد والعباد، وهناك أمثلة لقادة غيروا شعوبهم في وقت قليل في التاريخ وهي كثيرة جداً، منهم: عمر بن عبد العزيز رحمه الله، صلاح الدين الأيوبي، قطز، ألب أرسلان، محمود الغزنوي، يوسف بن تاشفين، عبد الرحمن الداخل، عبد الرحمن الناصر، محمد الفاتح وغيرهم، وغيرهم، وقبل كل هؤلاء معلمهم ومعلمنا وقدوتهم وقدوتنا رسول الله ﷺ .

الرسول ﷺ حرك بواعث الخير الموجودة في داخل نفوس الناس، فاستجابت لدعوة الحق وآمنت وتحركت وجاهدت وضحت وسعدت بذلك في الدنيا والآخرة. ليس مطلوباً من القائد الصالح أن يجعل شعبه كله من عمالقة الإيمان، ذلك أمر لا يستطيعه، لكن المطلوب منه أن يجعل قلوب العموم من شعبه تميل إلى الحق، وتحب الخير، وتقبله وتتمناه، تطيع الله عز وجل فيما أمر، ومن هؤلاء سيخرج قليل من عمالقة الإيمان، وهؤلاء العمالقة سيحركون

الآخرين ويقودونهم، وبذلك تسير البلاد من وضع سيئ إلى وضع حسن، ومن حسن إلى أحسن منه، وهكذا.

من كلامنا الذي مضى نستطيع أن نستنتج كيف تقوم الأمم وتبنى، فالأمر يبدأ بمُربٍّ مخلص يربي مجموعة مختارة على الإيمان والعمل الصالح، يزرع فيهم الفكرة التي من أجلها ستقوم الأمة، ثم يزداد هذا العدد الذي يربيه قائدهم، ولكن يبقون في تعداد القليل بالنسبة لعامة الناس، وهؤلاء هم طبقة عمالقة الإيمان، ثم يأذن رب العالمين بالتمكين لهذا القليل بعد مراحل متعددة من الابتلاء والاختبار، ويأتي التمكين كما رأينا في دروس السيرة بصورة لا يتخيلها عمالقة الإيمان، ومن طريق لا يتوقعونه، فإذا مكنوا في الأرض، فإنهم حينئذ يستطيعون - بفضل الله عز وجل- أن يغيروا معظم العامة من الشر إلى الخير، ومن الفساد إلى الصلاح، وعادة ما يكون هذا التغيير سريعاً، فالجهد كل الجهد والوقت كل الوقت يكون في تربية طبقة عمالقة الإيمان، أما طبقة عامة الشعب فإنها تربى في وقت سريع، وكما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وهكذا تقوم أمة الإسلام: مرب يربي عمالقة إيمان، ثم ابتلاء، ثم تمكين، ثم تربية سريعة لعموم الناس.

هاتان طبقتان من أهم الطبقات في الأمة الإسلامية: طبقة عمالقة الإيمان، وطبقة عموم المؤمنين الصالحين، وفي كلٍّ خير، وهاتان الطبقتان هما اللتان جاءتا في قول الله عز وجل: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد:10] الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا هم طبقة عمالقة الإيمان، والذين أنفقوا من بعد الفتح والتمكين وقاتلوا هم طبقة عامة المؤمنين. وعلى الرغم من أن كلتا الطبقتين على خير، وعلى الرغم من أن كلتا الطبقتين موعودتان

بالحسنى، إلا أنهما لا يستويان: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:21].

طبقة المؤمنين الصادقين القاعدين عن أمر الله مؤقتاً

الطبقة الثالثة في المجتمع المسلم الصالح: وهي طبقة من المؤمنين الصادقين، ولكن من الذين غلبتهم شهواتهم، وانتصر عليهم شيطانهم في لحظة، فأقعدهم عن أمر الله عز وجل مع إيمانهم به، وهؤلاء أحياناً يكونون من طبقة عمالقة الإيمان، لكن كل إنسان يخطئ، كل إنسان يقعد ويفتر. قال ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)، (كل بني آدم) على الإطلاق هكذا، كل الناس يخطئ ويعصي إلا المعصومين فقط من الأنبياء والمرسلين، هؤلاء المخطئون قد يقعدون عن الجهاد في سبيل الله في وقت تَعَيُّنِه، ليس إنكاراً لأهميته، وليس استهزاءاً بالتشريع، ولكنها لحظة من لحظات الضعف البشري المتوقع، وكلما ارتفع مستوى التربية في المجتمع، وكلما حرصت القيادة على أخلاقيات ومبادئ وقيم الأمة، قلت أعداد هذه الطائفة الثالثة. طائفة المؤمنين القاعدين مؤقتاً، أو طائفة المؤمنين المتخلفين عن الجهاد بدون عذر سائغ، مهما كان مستوى التربية راقياً ومتميزاً، لابد أن توجد هذه الطائفة، ويستحيل أن يوجد مجتمع إسلامي مهما كان بدون هذه الطائفة.

لو كان هناك إمكانية لوجود مثل هذا المجتمع الخالي تماماً من معصية بين صفوف المؤمنين لكان هذا المجتمع هو مجتمع الرسول ﷺ ، ولكن هذا يستحيل فعلاً؛ لأن البشر ليسوا ملائكة، ولا يُطلب منهم أن يكونوا ملائكة، ولكن يطلب منهم أن يتوبوا بسرعة إذا أذنبوا، وأن يشعروا بغصة في حلوقهم، وألم في قلوبهم عند ارتكاب الذنب، وهذا الكلام يمهد بعد ذلك للتوبة؛ لكون التربية كانت متميزة فعلاً في أيام تبوك، بل باهرة، فإن إعداد هذه الطائفة قلت إلى درجة لا يتصورها إنسان.

أتعلمون كم كان عدد المتخلفين من المؤمنين الصادقين؟ تخلف عن الركب ثلاثة فقط، من أصل ثلاثين ألف مجاهد، وهي أقل نسبة تخلف عن الجهاد في العالم كله بين صفوف المؤمنين.

هؤلاء الثلاثة هم أيضاً من طبقة عمالقة الإيمان الذين سبقوا بإيمانهم وجهادهم وعملهم الصالح، لكنها كانت هفوة لن تتكرر، ذنب تابوا منه سريعاً.

هؤلاء الثلاثة كانوا: كعب بن مالك رضي الله عنه، ومرارة بن الربيع رضي الله عنه، وهلال بن أمية رضي الله عنهم، أقعدهم النظر في أموالهم، والتسويف في أمر الخروج للجهاد، ولا يقول أحد: ليتهم خرجوا لكي تكون نسبة الخروج بين الصف المؤمن 100٪؛ لأن هذا مستحيل، لو خرج هؤلاء لقعد غيرهم، وهذه رحمة من رب العالمين بنا، ولماذا أقول: رحمة؟ لكي نرى أحداث السيرة بعد مرور مئات السنين وفي الصف المؤمن قدوة لنا في كل موقف، فيمكن أن يحصل في يوم من الأيام أن واحداً فينا يتخلف عن الجهاد لسبب أو لآخر، فتكون عنده فرصة أخرى للرجوع، عنده فرصة أخرى ليتوب، عنده فرصة أخرى ليخدم الإسلام والمسلمين، فلا تكون كارثة نقف أمامها مكتوفي الأيدي. السيرة النبوية صيغت بعناية، ورسمت بقدرة إلهية عجيبة؛ ليحدث فيها كل ما يحدث في الأرض وإلى يوم القيامة، ومن ثم نرى تصرف الرسول ﷺ في كل المواقف، ونستطيع التأسي به ﷺ ، ولتحقق الآية الكريمة الشاملة الجامعة: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21].

هؤلاء ثلاث طوائف مؤمنة برزت وبوضوح في أزمة تبوك، وهي موجودة بدرجات متفاوتة في أي مجتمع مسلم: طبقة عمالقة الإيمان، وطبقة عموم المؤمنين الصادقين، وطبقة المؤمنين المتخلفين عن أمر الله بصفة مؤقتة، وتقل أو تزيد نسبة كل طبقة حسب طريقة التربية، ومستوى الفهم عند الجيل.

طبقة عامة المنافقين ومردتهم

الطبقات الثلاث السابقة هي طبقات مسلمة مؤمنة، والطبقتان الباقيتان هما طبقتان مسلمتان، ولكن للأسف منافقتان، ولابد من وجودهما، ليس هناك دولة مسلمة في الأرض بغير منافقين، مهما بلغت درجة التربية، ومهما ارتفعت درجة تطبيق الشرع، فقد وجدوا في أيام الرسول ﷺ ، ووجدوا بعد أيامه، وهم معنا في زماننا، وسيبقون إلى يوم القيامة. المنافقون طبقة خطيرة جداً، لعلها أخطر من طبقة الكافرين ظاهري الكفر؛ لأنها طبقة في ظاهرها أنهم مسلمون يتكلمون بكلام المسلمين، ويتوجهون إلى قبلتهم، ولكنهم يبطنون الكفر بالله والكراهية للإسلام، ويخططون ويدبرون ويكيدون لهدم دعائم الدين.

هؤلاء المنافقون ينقسمون إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: طبقة عامة المنافقين، وهم يقابلون درجة عموم المؤمنين الصادقين، فطبقة عموم المنافقين هم الذين يتأثرون بقول غيرهم، ويسمعون أوامر أسيادهم فيصبحون سوطاً في يد الجلاد، وعصاً في يد الظالم، وقلماً في يد المزور، وهذه طبقة خطيرة وكثيرة.

الطبقة الثانية: طبقة مردة المنافقين، وهم الذين يقودون حملات التشكيك في الدين، ويتزعمون فرق المنافقين الضالة التي تُضمر الشر كل الشر للإسلام والمسلمين، هؤلاء أخبث فعلاً من الكفار والشياطين؛ لذلك قال الله عز وجل في حقهم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء:145]. هم أسفل طبقات المجتمع، وفي أسفل طبقات النار، وهذه الفرقة المنحرفة من البشر موجودة في كل زمان، فإن الله عز وجل لم يُشرع لرسوله الكريم ﷺ أن يصرح بأسمائهم لعامة المؤمنين، لماذا؟ لأن الرسول ﷺ سيموت وينقطع الوحي، لابد من وجود وسيلة أخرى نعرف بها المنافقين؛ لذا وضح الله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ

في الكتاب والسنة الصفات والعلامات التي يتصف بها هـؤلاء؛ لكـي يتعـرف المؤمنـون عـلى المنافقين في كل زمان، ولا يعتمدون على الوحي الذي سيغيب بعد وفاة الرسول ﷺ وإلى يوم القيامة.

صفات المنافقين

هذه الصفات تمتلئ بها صفحات القرآن الكريم، وتكثر في أحاديث الرسول الحكيم ﷺ .

من صفاتهم: أنهم يعتادون على الكذب في كل صغيرة وكبيرة.

ومن صفاتهم: أنهم يستأذنون في عدم المشاركة في كل عمل يخدم الإسلام والمسلمين، يعتذرون عن الجهاد والعمل وقول الحق والدعوة والإصلاح وأي شيء فيه مصلحة.

ومن صفاتهم: إثارة الفتن بين صفوف المؤمنين؛ لينشب بينهم الصراع والضغينة.

ومن صفاتهم: أنهم يفرحون إذا أصاب المسلمين مصاب أو أذى، ويحزنون إذا حصّل خير.

من صفاتهم: أنهم يتكاسلون عن الصلوات، فلا يصلون الفجر ولا العشاء في جماعة.

ومن صفاتهم: أنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون، فهم شـديدوا البخـل في الإنفـاق عـلى أمـور الإسلام، مع كونهم كثيري الإنفاق على لهوهم ولعبهم.

ومن صفاتهم: أنهم دائمي السخرية من الملتزمين بالدين.

ومن صفاتهم: أنهم يتحدثون بغير أدب ولا توقير عن رسول الله ﷺ .

ومن صفاتهم: أنهم يكرهون -وأحياناً يسُبون- أصحاب الرسول ﷺ .

ومن صفاتهم: أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وينهون الناس عن كـل معـروف، ويثبطونهم عن فعل كل خير، ويأمرون الناس بفعل المنكر ويشجعونهم على المعاصي.

من صفاتهم: أنهم يخلفون الوعد، وينقضون الميثاق.

من صفاتهم: أنهم يفجرون في الخصام والشقاق.

ومن صفاتهم: أنهم يخونون الأمانة.

ومن صفاتهم أنهم يتحالفون مع أعداء الأمة ضد إخوانهم المسلمين.

من صفاتهم: أنهم يتشبهون بالكفار، ويفخرون بذلك، ويستحيون من الانتماء إلى أمة الإسلام والمسلمين.

ومن صفاتهم: أنهم يكثرون من الخطب الرنانة التي تحمل معاني عظيمة جداً، وأخلاقاً رفيعة، ولكن لا يفعلون منها شيئاً، يتحدثون عن الأمانة والشرف والإصلاح والحرية والعمل والشورى والجهاد، ولكنهم لا يفعلون من ذلك شيئاً أبداً.

ومن صفاتهم: أن ذكر الله عز وجل لا يأتي على ألسنتهم إلا قليلاً.

ومن صفاتهم: أنهم لا يحتكمون إلى كتاب الله عز وجل إلا إذا كان سيحكم لهم، فإن كان سيحكم لغيرهم رفضوا حكمه.

ومن صفاتهم: أنهم يفرون في المعارك وعند الأزمات، ويظهر عليهم الهلع الشديد والرعب الدفين عند أول احتمال للحرب؛ وذلك لشدة جبنهم وضعف يقينهم.

ومن صفاتهم: أنهم يتوقعون دائماً أنهم مقصودون بالحديث عند الحديث عن الأشرار والمنافقين، لعل كلامك عام، ولكنهم يحسبون كل صيحة عليهم.

ومن صفاتهم: أنهم دائماً يتهربون من المسئولية، وينسبون الأخطاء إلى غيرهم.

ومن صفاتهم: أنهم يمدحون دائماً أصحاب السلطان، فإن ترك السلطان منصبه انقلبوا بألسنتهم عليه.

ومن صفاتهم: تضارب الأقوال؛ لأنهم كثيرو الكذب، فلا يعرفون ماذا قالوا قبل ذلك وبماذا وعدوا.

ومن صفاتهم: أنك إذا أعطيتهم صاروا أصدقاءً وأحباباً لك، وإن منعتهم لسبب أو لآخر انقلبوا عليك ونسوا ما فعلته من معروف.

ومن صفاتهم: أنهم يقطعون أرحامهم، ولا يحفظون حقاً لوالد ولا لأخ ولا لابن ولا لعشيرة.

ومن صفاتهم: أنهم يكثرون من الحلف؛ لأنهم يعرفون أن الناس لا يصدقونهم، فيقسمون ببساطة على الكذب، ويحلفون بالله دون اكتراث، هذه ثلاثون كاملة.

أريد منك أن تعود مرة أخرى لتسمعها مرة واثنتين وثلاثاً وتبحث جيداً في نفسك، إياك أن يكون فيك واحدة منهن، إياك أن يكون في قلبك صفة من صفات المنافقين، حتى ولو كانت واحدة من هذه الثلاثين، ويمكن أن تجد أكثر وأكثر عندما تفتح القرآن الكريم، وتغوص بين صفحات السنة المطهرة لرسولنا ﷺ ، فمن الممكن أن تجد كثير جداً من الصفات، وإياك أن تكون فيك صفة واحدة من صفات المنافقين، فالواحدة تجر إلى الثانية، ثم يجد الإنسان نفسه في عداد المنافقين، نعوذ بالله من ذلك!

هاتان الطبقتان من المنافقين كانوا في منتهى الوضوح عند المسلمين، وهذه الصفات الكثيرة الموجودة في الكتاب والسنة وضحت صورة كل منافق عند المسلمين بشكل أكبر، بل إن الرسول ﷺ كان يعرفهم بالوحي، ومع ذلك لم يقم حداً، أو عقوبة على منافق، ليعلمنا أن نعامل الناس على الظاهر، ونترك القلب لله عز وجل، لكن في نفس الوقت عرفنا بصفاتهم؛

لكي نأخذ جانب الحذر في التعامل معهم، لا نثق بوعودهم، لا نبني أحكاماً على آرائهم، ولا نأمن جانبهم، ولا نصدق تحليلاتهم، الأمر كما قال الله عز وجل في إيجاز معجز: {هُمُ الْعَدُوُّ} [المنافقون:4] ماذا نعمل معهم؟ {فَاحْذَرْهُمْ} [المنافقون:4]، جعلهم الله عز وجل (العدو) بالتعريف هكذا بالألف واللام، وكأنه ليس هناك عدو غيرهم، قال: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) ، هذا هو نهجه ﷺ في التعامل مع المنافقين في كل حياته، يحذر المنافقين، ولكن لا يجري الأحكام إلا على الظاهر.

دور المنافقين في غزوة تبوك

ماذا فعل المنافقون في أزمة تبوك؟

أولاً: قرروا جميعاً التخلف عن الجهاد سواء بالمال أو بالنفس: {وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة:86].

ثانياً: لم يترك هذا التخلف أي ألم في قلوبهم، ولا أي حزن في مظهرهم، بل على العكس، كانوا سعداء بهذه المعصية، ملأ السرور بجريمتهم قلوبهم إلى الدرجة التي قال الله عز وجل في حقهم: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} [التوبة:81].

ثالثاً: لم يكتفوا بالتخلف ولا بالفرح بهذا التخلف فقط، ولكن بدءوا يثبطون المؤمنين الصادقين عن الخروج، واستخدموا في ذلك دعايات شتى، ووسائل متعددة، وذلك مثل قولهم: {وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة:81]، ومثل قولهم للصحابة: أتحسبون جِلاد بني الأصفر -الرومان- كقتال العرب بعضهم بعضاً؟! والله لكأنا بكم غداً مُقَرّنين في الحبال.

رابعاً: كان موقفهم من المؤمنين الذين أنفقوا في سبيل الله موقفاً شديد الخبث، وقفوا يطعنون في كل المتمسكين بالدين مهما كان فعلهم، إذا أتى غني من المسلمين بمال قالوا: إنما أنفقه رياء،

وإذا أتى فقير بمال قليل بحسب قدرته سخروا منه، وسخروا من قلة عطائه واستهزءوا به. قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة:79]؛ فمن أنفق كثيراً سخروا منه، ومن أنفق قليلاً سخروا منه.

خامساً: تجاوز فعلهم ذلك، وبدءوا يبحثون عن أدلة شرعية -أو يوهمون الناس أنها شرعية- للتخلف عن الجهاد، ولإثارة الشبهات بين المسلمين، مثلما فعل الجد بن قيس من بني سلمة عندما رفض الخروج إلى تبوك لقتال الروم بزعم أنه يحب النساء، ونساء الروم جميلات، ويخشى أن يفتن بهن، فادعى أنه من ورعه وتقواه وتقويمه للأضرار اختار أخف الضررين، وهو التخلف عن الجهاد؛ ليحمي نفسه من فتنة النساء! وفيه نزل قول الله عز وجل: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة:49] وهذا كلام خطير جداً؛ لأن الكثير من المنافقين يستخدمون (قال الله) و (قال الرسول) في ثني المجاهدين في سبيل الله عن جهادهم، ولابد أن ينتبه المؤمنون لهذا الكلام.

سادساً: أن منهم من قام بخطة أشد خبثاً من ذلك، وهي أنه قرر الخروج مع الجيش لمسافة ما، ثم يرجع من منتصف الطريق، لعله يسحب معه عند الرجوع عدداً من المسلمين الصادقين، مثلما عمل عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة أحد وكرره مرة أخرى في تبوك.

سابعاً: أشد المنافقين شراً قرروا الخروج فعلاً مع المسلمين إلى آخر المطاف لبث الفتنة طوال الرحلة، وللكيد للمسلمين في كل مراحل القتال، والكيد لرسول الله ﷺ قدر المستطاع.

ونلاحظ في الكلام الماضي أن المنافقين كانوا يحاولون الالتزام بالقانون العام في الظاهر، لا يتخلفون عن الجهاد إلا باستئذان؛ لكي يوهموا الجميع أنهم لا يزالون مسلمين منقادين لأمر

الرسول ﷺ، والرسول ﷺ كان يأذن لهم بالقعود؛ لأنه مقتنع تمام الاقتناع أنه لـن يجاهـد إلا من رغب في الجهاد حقيقة، لكن رب العـالمين سـبحانه وتعـالى عاتبـه في ذلـك، قـال سـبحانه وتعالى: {عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة:43] لو أنه ﷺ رفض أن يأذن للمنافقين لقعدوا برغم الرفض، وهنـا كانـت ستكشـف أوراقهـم للمسلمين؛ فيعلم المسلمون أمرهم عن بينة. هذا كان وضع المنافقين في أزمة تبوك.

خطر المنافقين على المجتمع

مع كل الأضرار التي قلناها إلا أنه يبقى أشد خطر لهـم هـو تغيـير قناعـة المسـلمين الصـادقين بكفرهم، قد يصل الأمر إلى أن يطيـع بعـض المـؤمنين كـلام المنـافقين ظنـاً مـنهم أن هـذا هـو الصواب، وفي ذلك يقول الله عز وجل: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة:47]، اضطراباً وضعفاً وخوراً وجبناً، {وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:47].

فبعض المؤمنين لا يستمع فقط إلى كلام المنافقين، بل يكثر السماع، كـما قـال تعـالى: (سـماعون) أتت الكلمة بصيغة المبالغة لتفيد كثرة السماع، وليس ذلك لضعف يقين، أو لشـك في القلـب، ولكن لقوة الشـبهة ومهـارة الصـياغة، وحـلاوة اللسـان، وبلاغـة القـول قـد يقـع المؤمنـون الصادقون بسبب هذه الشبهات في أخطـاء جسـيمة، قـد يقعـون في كبـائر عظيمـة، مـا كـانوا يتخيلون أبداً أن يقعوا فيها في يوم من الأيام، لكن أحياناً للقول فعل السحر في الإنسـان، مـن أجل ذلك يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري عن عبد الله بـن عمـر رضي الله عـنهما: (وإن من البيان لسحراً). قصة المنافقين في الدولة الإسلامية قصة خطيرة فعلاً، فآثارهم جسيمة عـلى المجتمع المسلم، ومع ذلك لا يجب أن يحزن المؤمن إذا شاهد كثرة المنافقين في زمن من الأزمان، إذا شاهد تبجحهم وظهورهم في وسائل الدعاية والإعلان، والكـلام بشـكل فاضـح معلـن،

فمثل هذه المواقف تحمل خيراً عظيماً، فهي تكشف أوراقهم، وتظهر نياتهم المختفية في صدورهم، فيحذرهم المسلمون. من هذا الخير أيضاً: أن ظهورهم بكثافة دليل على قوة الأمة الإسلامية، دليل على صلابة الأمة الإسلامية، الدولة الضعيفة -كما ذكرنا قبل ذلك- لا تُنَافَق، ولكنهم ينافقون الدولة القوية، إذا رأيت هناك كثرة في المنافقين، فاعلم أن الإسلام بخير، واعلم أن قوته قد بلغت حداً يدفع الآخرين إلى نفاق المسلمين.

هكذا كان الوضع في غزوة تبوك؛ تميز الصف بوضوح إلى هذه الطبقات الخمس التي يتألف منها أي مجتمع مسلم في أي زمان وفي أي مكان، ولكن بنسب متفاوتة مثلما قلنا.

طبقة عمالقة الإيمان، وطبقة عموم المؤمنين، وطبقة المؤمنين المتخلفين عن الجهاد بصفة مؤقتة، طبقة عموم المنافقين، وأخيراً: طبقة مردة المنافقين.

برغم كل معوقات المنافقين إلا أن الجيش العملاق بفضل الله تجهز، وكان تعداده ثلاثون ألف مقاتل مسلم، وهو أكبر جيش إسلامي حتى هذه اللحظة، وخرج هذا الجيش بالفعل إلى تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة.

44

مـا بعـد تبوك

تكلمنا عن الأزمة الخطيرة التي مر بها المجتمع المسلم في المدينة المنورة في السنة التاسعة من الهجرة، عندما علم ﷺ بتجمع الرومان في البلقاء في الشام، فقرر الخروج إليهم في ظروف صعبة جداً، من الضائقة الاقتصادية الشديدة، والمسافة البعيدة، والحر الشديد، والعدو الرهيب، في هذه الأزمة الطاحنة برزت بوضوح الطبقات الخمس لأي مجتمع مسلم ممكن في الأرض، وكما ذكرنا في الدرس السابق فهذه الطبقات الخمس موجودة بصفة دائمة في أي دولة إسلامية ممكنة في الأرض، غير أنها تبرز بوضوح عند الأزمات الشديدة كأزمة تبوك مثلاً، هذه الطبقات الخمس: هي طبقة عمالقة الإيمان، وطبقة عموم المؤمنين، وطبقة المتخلفين عن أمر الله بصفة مؤقتة، وطبقة عموم المنافقين، وأخيراً طبقة مردة المنافقين، وأنا أحب أن أؤكد على معنى هام جداً هو أن هذه الطبقات الخمس وإن كانت موجودة دائماً إلا أنها تتفاوت في الحجم بحسب طريقة التربية وقوة التربية، ولأن التربية الإسلامية ما شاء الله كانت على أعلى درجات التربية وأبهى الصور في عهد الرسول ﷺ لم نجد في طبقة المنافقين بشقيها سواء كان عموم المنافقين أو مردة المنافقين، لم نجد في غزوة تبوك أكثر من ثمانين منافق، أو أكثر من ثمانين بقليل، وهذه نتيجة الجهد الطويل والعظيم من المربي الأعظم والرسول الأكرم ﷺ، وذكرنا في الدرس السابق أن الجهد العظيم الذي قام به المؤمنون من طبقة عمالقة الإيمان، وطبقة عموم المؤمنين،

ساعد على تجهيز الجيش الإسلامي الكبير الذي خرج إلى تبوك في رجب سنة 9 هجرية، وكان عدد الجيش الإسلامي ثلاثين ألف مقاتل، وذكرنا أن نسبة التخلف كانت يسيرة جداً لا تتجاوز واحداً من عشرة آلاف، تصور ثلاثة من أصل ثلاثين ألف مقاتل، وبرغم كل المعوقات التي حاول المنافقون أن يضعوها إلا أن الجيش العملاق خرج بالفعل بفضل الله عز وجل.

ترك الرسول ﷺ على إمارة المدينة المنورة محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وترك على أهله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبدأ الجيش المناضل في رحلة طويلة جداً شاقة جداً ولكن في صبر جميل؛ صبر على الجوع، وصبر على التعب، وصبر على الحر، وكان الزاد قليلاً جداً، حتى إن الرجلين والثلاثة كانوا يقسمون التمرة بينهم، وكان يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، وكانوا يدخرون الماء لنُدْرَته، حتى كانوا ينحرون الإبل ليشربوا الماء الذي تدخره الإبل بطونها، إنه ابتلاء كبير جداً، ويبتلى المرء على قدر دينه. وكأن هذا الابتلاء ليس كافياً، فيأتي ابتلاء جديد؛ لاختبار الطاعة لأمر رسول الله ﷺ، لما وصل المسلمون إلى منطقة الحجر، منطقة الحجر هي الآن موجودة في شمال السعودية، وهي المنطقة التي كانت بها ديار ثمود قوم صالح عليه السلام، وقوم صالح كما تعرفون أُهلكوا في هذه المنطقة لما كفروا بربنا سبحانه وتعالى، في هذه المنطقة أبيار للماء، ورأى المسلمون أبيار الماء وأسرعوا إليها قبل استئذان الرسول ﷺ، وملئوا الأوعية بالماء وعجنوا العجين بهذا الماء؛ ليصنعوا خبزاً يشبعهم بعد طول جوع، فلما علم الرسول ﷺ بذلك الأمر أمرهم بأمر شاق جداً على نفوسهم قال لهم: (لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً)؛ لأن هذا الماء غير مبارك، فهو ماء الذين ظلموا، والأمر مباشر وصريح بعدم الشرب منه، وليس على المسلمين إلا الطاعة. قد يأتي من يجادل ويقول: إن هذا الماء ليس له علاقة بشاربه فيشرب منه البر والفاجر، ويشرب منه المؤمن والكافر، ونحن في حاجة للماء

والطريق صعب. قد يأتي مجادل آخر ويقول: كان الرسول ﷺ يشرب من ماء مكة وغيرها ولا يسأل أهو ماء كفار أم ماء مسلمين؟ كل هذه الحجج والشبهات قد تثار، لكن الغرض كان واضحاً؛ وهو الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ.

ليست الأوامر يتضح لنا فيها الحكمة، بل إن بعض الأوامر قد يخفي الله عز وجل حكمتها عنا ليختبر مدى طاعتنا له، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا} [الأحزاب:36] ونجح المسلمون الصادقون في الاختبار ولم يشربوا من ماء ثمود مع شدة حاجتهم له، بل أمرهم ﷺ ألا يدخلوا ديار قوم ثمود، وإن حدث ودخلوها لأي سبب فليدخلوها باكين؛ تأثراً بما حدث لثمود عندما خالفوا أمر الله عز وجل، أما هو ﷺ فقد قنع رأسه بالثوب وغطاه وأسرع بالمسير، ولم يدخل، وقال لهم: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ لا يصيبكم ما أصابهم)، هذا الكلام ينطبق على كل آثار باقية لقوم أهلكوا قبل ذلك؛ لكفرهم، لا يدخلها المسلمون أبداً إلا للاعتبار، وإذا دخلوها لا يدخلوها في فرح وسرور ولكن في بكاء وتأثر وتذكر وتدبر.

حصلت أحداث كثيرة جداً في الطريق لا يتسع المجال لتفصيلها، حصلت بعض المعجزات لرسول الله ﷺ، وحصلت مواقف متعددة خبيثة من المنافقين، ومواقف أخرى كثيرة. في النهاية وصل ﷺ والجيش العملاق إلى أرض تبوك فوجدوا عجباً، لقد تحقق نصر هائل للجيش الإسلامي وللأمة الإسلامية بلا قتال؛ لقد فرت الجيوش الرومانية العملاقة التي تحكم وتسيطر على نصف مساحة المعمورة تقريباً عندما علمت بقدوم الرسول ﷺ.

كيف فرت جيوش الدولة الأولى في العالم من جيش المسلمين مع وفرة جنودهم وقوة عتادهم وعمق تاريخهم ومهارة تدريبهم؟ كيف؟ المعادلة صعبة جداً، لا تُفهم إلا في ضوء الحقيقة

القرآنية العظيمة: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا} [آل عمران:151] حين علمت الرومان بقدوم 30000 مسلم فيهم رسول الله ﷺ، تذكرت الأحداث المؤلمة لغزوة مؤتة، وغزوة مؤتة لم يمر عليها أكثر من سنتين، وارتبكت في مؤتة الجيوش الرومانية أمام 3000 مقاتل مسلم فقط، ولم يكن فيهم الرسول ﷺ، أما الآن في تبوك فإن الرسول ﷺ يتوسط جيشه، فقرر الرومان الفرار من هذا الجيش، واعتبروه غنيمة حتى وإن سقطت هيبة الدولة العملاقة، حتى وإن ظهرت الدولة الرومانية العملاقة بصورة مخزية أمام الدولة الإسلامية الناشئة.

الرسول ﷺ لم يكتف بهذا النجاح المبهر، بل أصر على البقاء في أرض تبوك، بقي عشرين يوماً أو أقل من عشرين يوماً بقليل؛ بقي هذه الفترة الطويلة ليثبت للجميع أنه ليس خائفاً من الرومان وأعوان الرومان، وأعوان الرومان هم القبائل النصرانية العربية الموجودة في منطقة شمال الجزيرة العربية ومنطقة الشام، مع أنه كان من عادة الجيوش في ذلك الزمن أن يمكثوا في أرض الموقعة ثلاثة أيام فقط؛ لكن الرسول ﷺ قعد هذه المدة الطويلة لإثبات القوة وعدم الرهبة من جيوش الرومان، بل إن الرسول ﷺ توج هذا الإنتصار الكبير بإرسال سرية من المسلمين، حوالي 420 فارساً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه إلى دومة الجندل، على بعد حوالي 300 كيلو أو أكثر من تبوك، أرسل هذه السرية أُكَيْدر بن عبد الملك الكندي ، وكان أكيدر بن عبد الملك زعيماً من زعماء النصارى الذين يحكمون منطقة واسعة في شمال الجزيرة، وكان يساعد الرومان في حربهم ضد المسلمين، وأسر أكيدر بن عبد الملك وأتي به إلى رسول الله ﷺ، وبعد حوار دار بينهم أقر أكيدر على الجزية وحُقِن دمه.

لم يقف نجاح الحملة العسكرية عند هذا الحد، بل أتى ملوك وأمراء مدن الشام الذين يجاورون الجزيرة العربية، أتوا يصالحون الرسول ﷺ على الجزية، ومن هؤلاء صاحب أيلة يحنة بن رؤبة،

وكذلك أتاه أهل جرباء وأهل أذرح.. وأكثر من منطقة جاءت لتصالح على الجزية رسول الله ﷺ.فكان نصراً مبيناً وكبيراً، وتم دون أن يرفع سيف، اللهم إلا بعض المناوشات اليسيرة التي تمت عند أسر أكيدر بن عبد الملك .

أظهر لنا ربنا سبحانه وتعالى لنا طرقاً عديدة لتحقيق النصر للمسلمين، فتارة يجري القتال العنيف الشرس بين المسلمين وأعدائهم كما رأينا في بدر، وتارة يصبر المسلمون على حصار عدوهم لهم كما في الأحزاب، وانصرف الأحزاب دون نتيجة كما رأينا، وتارة يحاصر المسلمون أعداءهم فينزل الأعداء على رأي المسلمين دون قتال، كما رأينا في غزوات الرسول ﷺ مع اليهود في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وتارة ينزل الأعداء على حكم المسلمين بعد قتال كما في خيبر، وتارة يحاصر المسلمون حصناً ولا يفتح كما رأينا في الطائف، ثم جاء أهل الطائف بعد ذلك مسلمين، وتارة لا يكون هناك قتال بالمرة كما حدث في تبوك.

خلاصة الأمر ما ذكره سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [التوبة:52] ليس المهم الطريقة لكن لا بد أنه يحصل النصر: {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} [التوبة:52] ليس المهم كيف يتم النصر، ولكن المهم أن يوجد الجيش الذي يستحق النصر، ثم الله عز وجل ينصر من يشاء كيفما يشاء وفي الوقت الذي يشاء؟

كان من نتيجة هذه الغزوة العظيمة غزوة تبوك أن سيطر المسلمون سيطرة كاملة على شمال الجزيرة العربية، وكان من نتيجتها أن سقطت هيبة الرومان وأعوان الرومان، وهذا سيسهل كثيراً بعد ذلك الفتوح الإسلامية في بلاد الشام.

إحباط محاولة المنافقين قتل الرسول ﷺ عند عودته من تبوك

قرر الرسول ﷺ بعد هذه الغزوة قرر العودة إلى المدينة المنورة، وعاد في شهر رمضان في سنة 9هـ، وفي أثناء العودة كانت هناك محاولة لقتل رسول الله ﷺ من قبل المنافقين عند منطقة العقبة، ولكن كان بصحبة الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وعمار بن ياسر رضي الله عنهما، ودافعا عن رسول الله ﷺ دفاعاً شديداً، وهرب المنافقون دون أن يتبين الصحابيان الجليلان ملامح المنافقين؛ وذلك لأن المنافقين كانوا ملثمين، ومع أن الرسول ﷺ عرف بعد ذلك عن طريق الوحي أسماء المنافقين الذين قاموا بمحاولة القتل، إلا أنه ﷺ لم يقم عليهم حداً، ولم يأمر قبائلهم بالإتيان بهم، وذلك لأمور: أولاً: حتى لا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه. ثانياً: أنه لا يملك بينة على أنهم هم الذين حاولوا قتله، والبينة المقصودة هنا هي البينة الشرعية، وليست البينة عن طريق الوحي، كدليل محسوس أو قرينة أو شهادة شهود، كل ذلك ليعلمنا ألا نقيم حداً أو حكماً على أحد إلا ببينة، مع أنه متأكد تمام التأكد من أسمائهم عن طريق الوحي، لكن هذا هو العدل، ولا أعتقد أن هناك مستوىً من العدل في أي دولة من دول العالم أرقى من هذا المستوى الذي رأينا في موقف الرسول ﷺ، ولم نرى في الأرض زعيماً يعلم علماً يقينياً أن هناك مجموعة دبروا محاولة لاغتياله ثم هو يتجاوز عنهم ولا يؤذيهم بأي صورة من صور الإيذاء؛ لأنه لا يملك أدلة قوية تدينهم أو تثبت الجريمة عليهم.

تعامل الرسول ﷺ بعد عودته من تبوك إلى المدينة مع المخلفين

وصل ﷺ إلى المدينة بسلام، ولا بد لنا من وقفة، أين القتال الضروس الذي تخيله المسلمون يوم خرجوا؟ أين الفتنة الرهيبة التي توقعها الخارجون في سبيل الله؟ أين الامتحان الدقيق الذي سيختبر فيه الصادق والكاذب والمؤمن والمنافق؟ ألم نقل قبل ذلك: إن تبوك امتحان

عسير للمسلمين! وتم الامتحان فعلاً، لكن تم في المدينة المنورة على بعد 700 كيلو متر من المكان المتوقع للامتحان، لم يكن الامتحان في تبوك كما توقع الجميع، لكن الامتحان كان في المدينة المنورة قبل الخروج إلى تبوك، الامتحان كان عبارة عن القدرة على أخذ قرار الجهاد. الذي تغلب على نفسه وعلى ظروفه وعلى شهواته وعلى المعوقات التي في حياته، وعلى شياطينه وعلى أقوال المرجفين، من تغلب على كل ذلك وأخذ قرار الجهاد نجح يوم أخذ هذا القرار، حتى وإن لم يحدث بعد ذلك جهاد، والذي فشل في الاختبار فهو الذي هزم داخلياً، فلم يستطع أن يأخذ هذا القرار، ولم يستطع أن يخرج من أزمته النفسية، ولم يستطع أن يتجاوز جُبنه المقعد، قد تكون نجاتك في قرار تأخذه، فإن أخذته كفاك الله عز وجل ما كنت تتوقع من مصائب وإيذاء وألم، قال تعالى: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب:25]، ونسأل الله عز وجل الثبات عند الفتن.

لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، وعرف الناس الآثار الحميدة والنتائج العظيمة لهذه الغزوة المباركة جاء إليه كل من تخلف عن الجهاد بغير عذر ليعتذر منه، وكان المعتذرون فريقين في الأساس: الفريق الأول: فريق المؤمنين الصادقين الذين تخلفوا عن الجهاد بغير عذر، ووقع التخلف منهم كهفوة عابرة أو خطأ غير متكرر، وهؤلاء هم الثلاثة الذين خلفوا ولم يقبل الرسول ﷺ اعتذارهم حتى ينزل فيهم وحي من رب العالمين سبحانه وتعالى، ونزل بعد ذلك الوحي بمقاطعة هؤلاء الثلاثة عقاباً لهم، وتحذيراً لكل المسلمين أن يقعوا في مثل خطئهم وتحدث القرآن الكريم عن هؤلاء الثلاثة، وهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وكانت المقاطعة هذه لمدة خمسين ليلة كاملة، ثم تاب الله عز وجل بعد ذلك عليهم وأوقفت المقاطعة. هذه قصة فيها دروس وعبر كثيرة جداً، وسوف يتم الحديث عنها بالتفصيل بإذن الله في مجموعة الرسول ﷺ وأخطاء المؤمنين.

الفريق الثاني: كان فريق المنافقين سواء من أهل المدينة أو من الأعراب حول المدينة، وهؤلاء جاءوا يحلفون أنهم كانوا معذورين، ويعدون أنهم سيخرجون بعد ذلك مع المسلمين في أي قتال قادم، وهؤلاء قيل منهم ﷺ الاعتذار، وأجرى أمورهم على الظاهر، ولم يقم عليهم أي تعزير من أي نوع؛ لأنه ﷺ كان يرى أنه ليس فيهم أمل، فقلوبهم فاسدة، وأعينهم لا تبصر، لذلك فإن التعزيز لا ولن يأتي بنتيجة معهم، فلا داعي له، وقد يستغرب بعض الناس ويقول: لماذا أقام الرسول ﷺ التعزيز أو العقاب على المؤمنين الصادقين ولم يقمه على المنافقين؟ نقول: المنافقون لم يعترفوا بالذنب، وقالوا: عندنا أعذار، فقبل منهم ذلك ﷺ، أما المؤمنون الصادقون فقد اعترفوا بذنبهم، وقالوا: لقد أخطأنا، فكان لا بد من عقاب، والعقاب لم يكن من عند رسول الله ﷺ، ولكن أنزله رب العالمين سبحانه وتعالى.

حال المنافقين بعد غزوة تبوك

كانت غزوة تبوك ضربة قاصمة للمنافقين، اضطروا جميعاً إلى كشف أوراقهم، وعلم المسلمون كل من كان منافقاً ويخفي ذلك، بل بعد تبوك تلقى المنافقون ضربتين من نوع آخر، وهاتان الضربتان حجمتا إلى حد كبير من قوة المنافقين داخل المدينة المنورة.

أما الضربة الأولى: فكانت هدم مسجد الضرار، ومسجد الضرار هو الذي بناه المنافقون لتشتيت المسلمين؛ ولبث أفكارهم الهدامة وفتنتهم الخطيرة في المدينة، وقد نزل الوحي يأمر الرسول ﷺ بالتعامل في منتهى الحسم مع هذا البناء الفاسد، مع كونه في الظاهر مسجداً، فأمر ﷺ فرقة من الصحابة بهدم المسجد وتحريقه، فكانت ضربة مباشرة للمنافقين.

أما الضربة الثانية القاصمة: فكانت موت زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، والذي تولى كِبْر الفتنة بشتى أنواعها من بعد بدر وإلى غزوة تبوك، مات الرجل على نفاقه،

ورفض الدعوى الكريمة التي وجهها له ﷺ ليحسن إسلامه، بعد هذه الرحلة الطويلة من الصد والإعراض عن سبيل الله عز وجل، وأصر عبد الله بن أبي بن سلول على معتقده الفاسد، ومع ذلك عامله ﷺ بمنتهى الرفق والرحمة؛ وذلك ليتألف قومه، وليخفف عن ابنه الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، وكان من صالحي الصحابة رضي الله عنه، فاستغفر ﷺ لـ عبد الله بن أبي بن سلول بعد موته، وأعطاه قميصه ليكفن فيه، بل وصلى عليه على الرغم من معارضة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لذلك، وقد نزل القرآن بعد ذلك موافقاً لرأي عمر رضي الله عنه، قال الله عز وجل: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة:84]، وبموت عبد الله بن أبي بن سلول انحسرت حركة النفاق جداً في المدينة المنورة، بل وفي الجزيرة العربية، ولم نسمع لهم صوتاً يذكر في العام العاشر من الهجرة.

أثر غزوة تبوك

بعد غزوة تبوك حصل انتصار كبير للمسلمين، وحصل انحسار كبير لحركة النفاق، ولا شك أن العرب في كل الجزيرة العربية كانوا يراقبون الأحداث، وقد علموا أنه لا طاقة لهم أبداً بحرب المسلمين، فها هي قريش قد سلمت وأسلمت وفتحت أبواب مكة لرسول الله ﷺ، وها هي كذلك هوازن قد دخلت في الإسلام، وها هو رسول الله ﷺ يأخذ جيشاً قوامه 30000 مقاتل لمواجهة أعتى قوة في الأرض -وهي الدولة الرومانية- للمرة الثانية في غضون سنة ونصف. هذا ما لا يتصوره العرب في أحلامهم فضلاً عن أن يكون واقعاً يرونه رأي العين؛ من أجل هذا بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك أخذت القبائل العربية قراراً شبه جماعي بالقدوم إلى المدينة المنورة للتواصل مع رسول الله ﷺ، فجاء بعض هذه القبائل ليعلن الإسلام

مقتنعاً به ومحباً له، وجاء بعضهم مسلماً؛ لكونه يرهب الدولة الإسلامية، أو يرجو ودها، ومنهم من جاء ليتفاوض ويطلب لنفسه شيئاً، ومنهم من جاء ليعقد عهداً ويظل على دينه.

جاء الجميع ولم يستطع أحد منهم أن يتجاهل القوة الإسلامية الجديدة، وبدأت الوفود الكثيرة في التوافد على المدينة المنورة في أواخر العام التاسع من الهجرة، وأثناء العام العاشر أيضاً، ولذلك عرف العام التاسع الهجري بعام الوفود؛ لكثرة الوفود التي أتت فيه بعد تبوك. كان عدد هذه الوفود على الأقل ستين وفداً، ووصل في بعض التقديرات إلى أكثر من مائة وفد، ولن نستطيع أن نقف في هذه المجموعة على تفاصيل مقابلة الرسول ﷺ لكل وفد من هذه الوفود، مع أنه فيها من الفوائد والعظات ما لا يقدر بثمن، ونحتاج إلى تفريغ جهد خاص ودراسات متأنية؛ لنقف على الدروس العظيمة التي نستخرجها من حوارات الرسول ﷺ مع هذه الوفود الكثيرة.

وفد ثقيف

لكن في هذه المحاضرة أريد التعليق على ثلاثة وفود في غاية الأهمية: أول هذه الوفود قدوماً بعد تبوك، وأهم هذه الوفود من ناحية الأثر كان وفد ثقيف، فثقيف كانت لها ذكريات سيئة جداً في نفوس المسلمين؛

أولاً: ردت الرسول ﷺ في العام العاشر من البعثة، وكان الرد رداً يخلو من كل أدب أو مروءة أو أخلاق، وفعلت معه ما لم تفعله الكثير من قبائل العرب.

ثانياً: أن ثقيفاً اشتركت مع هوازن في حرب المسلمين في غزوة حنين، وبعد هزيمتها رجعت إلى الحصون في الطائف وفشل المسلمون في فتح الحصون، وعادوا دون نتيجة بعد حصار أكثر من شهر.

ثالثاً: قتلت ثقيف زعيمها عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه بعد إسلامه، في قصة طويلة مؤثرة ليس المجال يسمح بتفصيلاتها، لكنها تركت أثراً سلبياً حزيناً في نفوس المسلمين، ومع كل هذه الصدمات إلا أن ثقيفاً أتت بعد تبوك لتعلن إسلامها في المدينة المنورة.

سبب إسلام ثقيف

لماذا أسلمت ثقيف؟ لم تفكر ثقيف في الإسلام حتى هذه اللحظة اقتناعاً به أو حباً له، لكن فكرت في أحوالها التي وصلت إليها، فكيف كان وضع ثقيف في السنة التاسعة من الهجرة؟
أولاً: أسلمت معظم القبائل العربية الكبرى ومنها فروع قيس عيلان الكبرى مثل: غطفان وسليم وهوازن، ولم يبق من هوازن إلا فرع ثقيف فقط، ولن يكون لثقيف قدرة على حرب العرب كافة.

ثانياً: أن مالك بن عوف النصري كان يقوم بحصار الطائف هو وقبيلته هوازن بعد أن أسلم وأسلمت القبيلة، فضيق ذلك عليهم بشدة.

ثالثاً: بدأ الوضع الاقتصادي في الطائف في التردي نتيجة هذا الحصار، وفقدت الطائف مكانتها التجارية؛ لأنها أصبحت مكاناً غير آمن، ولا يطمئن إليه عامة تجار العرب.

رابعاً: فقدت ثقيف أحد زعمائها المعدودين وهو عروة بن مسعود الثقفي، وليس من المستبعد أن تفقد رجالها واحداً تلو الآخر.

هذه الأسباب دفعت ثقيفاً إلى التفكير الجاد في أمر الإسلام، وقررت ثقيف أن ترسل وفداً إلى الرسول ﷺ مكوناً من ستة أشخاص، على رأسهم عبد ياليل بن مسعود؛ لكي يعلنوا إسلامهم وإسلام ثقيف بين يدي الرسول ﷺ، وذهب الوفد إلى المدينة المنورة والتقوا بالرسول ﷺ.

والأيام دول، فهاهي الأوضاع تتبدل، وهاهم الزعماء الآن يتبادلون الكراسي، قبل اثني عشرة سنة ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، وكان عبد ياليل هذا من أشد الناس على الرسول ﷺ في الطائف، وكان على رأس الطائف، وهاهو الآن يأتي إلى المدينة يطلب من الرسول ﷺ أن يقبل إسلامه وإسلام ثقيف، فاستقبل الرسول ﷺ وفد ثقيف استقبالاً طيباً، يليق بنبي كريم، لم يذكرهم أبداً بما فعلوه قبل ذلك معه في زيارتيه للطائف، وضرب لهم خيمة في المسجد؛ لكي يشاهدوا أحوال المسلمين ويسمعوا خطب الرسول ﷺ، ويتعلموا ما هو الإسلام. كانوا يجلسون في المسجد بضعة أيام ثم يذهبون إلى رحالهم ما بين حين وآخر، فهم تركوا الرحال خارج المدينة المنورة، وكانوا قد تركوا عند رحالهم أصغرهم سناً، واسمه عثمان بن أبي العاص، كان عمره أقل من عشرين سنة، وكانوا إذا ذهبوا إليه لفترة القيلولة تركهم عثمان بن أبي العاص وذهب إلى الرسول ﷺ ليتعلم على يديه بإخلاص، وكان إذا وجد الرسول ﷺ نائماً ذهب إلى الصديق رضي الله عنه فيتعلم منه، حتى أعجب به ﷺ إعجاباً جماً، ورأى فيه خيراً كثيراً.

إسلام وفد ثقيف

بعد عدة أيام استمع وفد ثقيف إلى الإسلام، ورأى أحوال المسلمين، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يسلموا، لكن كان عندهم بعض الشروط يريدونها من الرسول ﷺ، وهذه الشروط توضح أنهم لم يريدوا الإسلام حباً فيه، ولكن جاءوا رهباً منه ورغباً في المصالح من ورائه. قال زعيمهم عبد ياليل بن مسعود: (أفريت الزنا، فإنا قوم نغترب ولا بد لنا منه؟) هم يريدون أن يستحلوا الزنا، مع علمهم أن من تعاليم الإسلام تحريم الزنا، فقال الرسول ﷺ: (هو عليكم حرام؛ فإن الله عز وجل يقول: {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء:32].

هذا حد من حدود الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أبداً أن يتنازل عنه الرسول ﷺ، مع أن إسلام ثقيف إضافة ضخمة جداً للدولة الإسلامية، لكن لا يمكن أبداً أن يفرط الرسول ﷺ في أي أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى، فقال عبد ياليل: (أفريت الربا؛ فإنه أموالنا كلها؟ قال ﷺ: لكم رءوس أموالكم، فإن الله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:278]. أيضاً رفض تحليل الربا.

فقال زعيمهم: (أفريت الخمر؛ فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منه؟) يريدون أن يحلوا أي شيء من المحرمات التي في الإسلام، فهذا يدل على أنهم لم يسلموا رغباً في الإسلام، لكن ظروف الجزيرة العربية في ذلك الوقت دفعتهم إلى هذا الإسلام، قال ﷺ: (إن الله قد حرمها)، وقرأ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:90].

هذه أمور ثلاثة حاولوا أن يحذفوها من الإسلام، لكن الرسول ﷺ كان واضحاً تمام الوضوح، وكان حازماً تمام الحزم، لا مساومة في الدين، ولا التقاء في منتصف الطريق إذا كان الأمر يخص العقيدة والحلال والحرام، ولم يسع إلى تأليف قلوبهم عن طريق حذف أو تبديل في الشريعة.

قام وفد ثقيف للتشاور، سنعمل فقال بعضهم لبعض: ويحكم إنا نخاف -إن خالفناه- يوماً كيوم مكة. لو رفضوا أن يأخذوا الإسلام كاملاً دون حذف ولا تبديل فقد يغزوهم في يوم من الأيام، ويحدث لهم ما حدث لأهل مكة، فأتوا الرسول ﷺ وقالوا: (نعم لك ما سألت)، ثم قالوا: (أرأيت الربة؟) لا زالت هناك محاولات أخرى لحذف بعض الأمور من الدين الإسلامي، قالوا: (أريت الربة ماذا نصنع فيها؟) الربة هي اللات وهي الصنم المعبود في الطائف، وكانت من أعظم أصنام العرب، والجميع كان يقسم بها ويهدي إليها ويذبح عندها ويعتقد فيها، فأجاب الرسول ﷺ إجابة حاسمة لا مجاملة فيها، قال: اهدموها.

ففزع أهل ثقيف وقالوا: (هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلنا)، فكان عمر بن الخطاب حاضراً هذه المفاوضات فقال: (ويحك يا عبد ياليل إن الربة حجر لا يدري من عبده ممن لا يعبده)، فرد عليه عبد ياليل وقال: (إنا لم نأتك يا عمر) أي: ليس هذا من شأنك.

لم يجد أهل ثقيف بداً من هدم اللات، وأصر الرسول ﷺ على هدمها، لكنهم بدءوا يساومون على توقيت هدم اللات، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يدع اللات ثلاث سنين قبل أن يهدمها، فأبى ﷺ، فقالوا: سنتين، فأبى، فقالوا: سنة، فأبى، فقالوا: شهراً واحداً، فأبى ﷺ، فأُسْقِط في أيدهم، وقالوا في يأس: تولى أنت هدمها، أما نحن لا نهدمها أبداً، فقال ﷺ: فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها، وقبل أن يقوموا طلبوا طلباً أخير وهو أن يعفيهم ﷺ من الصلاة . مفهوم الدين عندهم غير واضح، وهذا نتيجة أن الأصنام لا تُشرِع منهجاً ولا تضع قانوناً، فكان عليهم أن يضعوا قوانينهم بأنفسهم، وهو الشيء الذي يسمونه الآن: القوانين الوضعية، لذلك جاءت أسئلة ثقيف مضحكة طفولية؛ لغياب مفهوم الدين الصحيح من أذهانهم، فهم كانوا يفهمون أن الدين مجرد قرابين وذبح ومجرد عبادة للات دون التدخل في حياتهم، لكن الدين الصحيح حقيقة كما أراده الله عز وجل، هو ما جاء في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:162]، فكل دقيقة وصغيرة وكبيرة في الحياة يدخل فيها الدين وله فيها رأي، وهو ما لم تفقهه ثقيف في هذه اللحظة.

بالطبع الرسول ﷺ رفض الإعفاء من الصلاة، وقال لهم: (لا خير في دين لا صلاة فيه)، وبهذا أقر وفد ثقيف بكل ما أمر به ﷺ، وقرروا العودة إلى الطائف على أن يبعث الرسول ﷺ من يهدم صنم اللات المشهور.

تأمير الرسول ﷺ لعثمان بن أبي العاص على الطائف

هذا موقف لا بد أن نعلق عليه لأهميته، وهو أن الرسول ﷺ أَمَّر على هذا الوفد وعلى ثقيف بكاملها عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه مع أنه أصغر القوم؛ وذلك لشدة حرصه على التعلم، وحسن فهمه ودقة نظرته، وكفاءته القيادية. الرسول ﷺ تعامل مع قضية الطائف تماماً كما تعامل مع قضية مكة؛ ولى شاباً لم يتلوث فكره كثيراً بالأفكار الوثنية القديمة، وعزل عبد ياليل صاحب التاريخ الطويل في الصد عن سبيل الله؛ ولأنه قد وضح من خلال الحوار أنه غير مقتنع تمام الاقتناع بتشريعات الإسلام، ومن ثم قد ينحرف بثقيف عن الفهم الصحيح للإسلام؛ من أجل هذا عزله وولى عثمان بن أبي العاص تماماً كما عزل أبا سفيان وولى عتاب بن أسيد رضي الله عنه الشاب الصغير على إمارة مكة. هذا يوضح لنا قيمة الشباب في الإسلام، وإمكانيات الشباب الهائلة التي كان يقدرها ﷺ.

أيضاً تعامل الرسول ﷺ مع ثقيف كما تعامل مع شعب مكة فقد عفا عنهم أجمعين برغم التاريخ السيئ الذي مر به المسلمون مع الطائف، ليثبت لنا وللجميع أن منهج العفو هو منهج أصيل في الإسلام، ولم يكن حدثاً عابراً خاصاً بمكة المكرمة.

هدم صنم اللات بالطائف

عاد وفد ثقيف إلى الطائف، وبعد محاورات وجدال مع ثقيف قبلت ثقيف بالإسلام، وبعدها بقليل جاءت السرية الإسلامية المكلفة بهدم صنم اللات، وكان على رأسها ثلاثة من أبطال المسلمين، كل واحد منهم له دلالة خاصة جداً.

البطل الأول: خالد بن الوليد رضي الله عنه، سيف الله المسلول وأعظم القواد للجيش الإسلامي. المهمة شديدة الخطورة تحتاج إلى رجل كفء لا يهاب الموت، ودخول الطائف

وهدم صنم اللات أمر غير مأمون مطلقاً؛ لذلك لا بد أن يكون هناك أحد صناديد الإسلام على رأس هذه السرية.

البطل الثاني: المغيرة بن شعبة الثقفي وهو من ثقيف، وأهل الطائف أدرى بشعابها، وسيقف البطن الذي ينتمي إليه المغيرة بن شعبة الثقفي من قبيلة ثقيف، وهو بطن بني مُعتب سيقف في حراسة المسلمين وهم يهدمون الصنم؛ لكي لا يتهور أحد ويقتل المغيرة بن شعبة، كما حدث قبل ذلك مع عروة بن مسعود الثقفي؛ أخذ بالأسباب لحماية الوفد قدر المستطاع.

البطل الثالث: أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، وكان قد حسن إسلامه، وأصبح قوة أدبية وسياسية كبيرة جداً في الدولة الإسلامية، وفي هذا إشارة واضحة جداً لكل العرب أن يذهب زعيم الوثنية السابق في الجزيرة العربية أبو سفيان بعد أن أسلم لهدم صنم الطائف، بعد أن هدمت أصنام مكة وغيرها قبل ذلك.

ودخلت السرية الإسلامية الطائف، واجتمع أهل الطائف جميعاً لرؤية ما سيحدث لصنمهم، وهناك أناس كثيرون كانوا يظنون أن الربّة (اللات) ستنتقم لنفسها، فهم ما زالوا إلى الآن في شك من الإسلام واعتقاد في اللات، وما هي إلا لحظات حتى سقطت اللات تحت معاول أبطال المسلمين، وتجلت الحقيقة التي غابت عن عيون وأذهان أهل الطائف عشرات بل مئات السنين، وأدركوا أنه قد آن الأوان للانتقال من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان.

إسلام الطائف كان جائزة كبيرة جداً لرسول الله ﷺ، فقد صبر سنوات طويلة جداً، وأوذي من الطائف أشد الإيذاء، ومع ذلك ظلت رسالته نقية، والعاقبة للمتقين، ومرت الأيام والسنوات وذهب الألم وبقي الأجر إن شاء الله، وأثمر جهدُ السنين إسلامَ مدينة عظيمة ثابتة على الإسلام وهي الطائف. بعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت جزيرة العرب إلا ثلاث مدن فقط

في الجزيرة العربية، كان منها الطائف، لتحقق الأمنية الصادقة لرسول الله ﷺ بأن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ما أعظمها من أمنية، وما أسعده من نصر تحقق ورآه ﷺ بعينيه، وما أجملها من نهاية لقصة إسلام مدينة الطائف مع رسول الله ﷺ. كان هذا هو الوفد الأول الذي جاء إلى المدينة المنورة بعد عودة الرسول ﷺ مباشرة من تبوك.

وفد بني سعد بن بكر من هوازن

الوفد الثاني في غاية الأهمية أيضاً، مع أن الذي جاء فيه رجل واحد فقط، ومع أنه مكون من رجل واحد إلا نفعه كان عظيماً جداً، ويؤكد على هذا المعنى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من هذا الوافد). هذا الوافد كان وافد بني سعد بن بكر من هوازن، ومعظم قبيلة بني سعد أسلمت بعد موقعة حنين، لكن بقيت منها بعض البطون، كان منها هذا البطن الذي جاء منه هذا الوافد، وهذا الوافد كان أعرابياً فيه شيء من الغلظة والجفاء، إلا أنه كان ذكياً جداً، كان عاقلاً، وكان إيجابياً على مستوى عال من الفهم وحسن التصرف.

قصة هذا الوافد جاءت في صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد والحاكم وأبي داود. حاولت أن أجمع لكم قدر المستطاع تفاصيل القصة من هنا وهناك لتكمل الفائدة: جاء هذا الرجل إلى المدينة المنورة والرسول ﷺ جالس وسط أصحابه، فقال: (أيكم محمد؟) هكذا باسمه، يقول أنس بن مالك: وكان النبي ﷺ متكأ بين ظهرانيهم. انظروا إلى رسول الله ﷺ، وهو القائد المهاب والزعيم المنتصر، والذي دانت له كل القبائل، وواجه الرومان، يجلس بين أصحابه في تواضع، بحيث إن الغريب لا يميزه من بين عامة الأصحاب والجنود والأتباع. لا نرى مثل هذه المواقف إلا في أمة الإسلام. نحن لا نعرف من هو هذا الرجل، ولا الصحابة

أنفسهم يعرفونه، قال الرجل: (يا ابن عبد المطلب) قال ﷺ: (قد أجبتك)، قال الرجل: (إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك) -أي: (لا تغضب مني)، فهو يتكلم بحدة وبشدة- فقال ﷺ في تواضع جم: (سل عما بدا لك)، قال الرجل: (يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك)، قال ﷺ: (صدق)، قال الرجل: (فمن خلق السماء؟) قال ﷺ: (الله)، قال الرجل: (فمن خلق الأرض؟) قال ﷺ: (الله)، قال الرجل: (فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟) قال ﷺ: (الله)، قال الرجل: (فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟) قال ﷺ: (نعم)، قال الرجل: (وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟) قال ﷺ: (صدق)، قال الرجل: (فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟) قال ﷺ:(نعم) قال الرجل: (وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا، تؤخذ من أغنيائنا فتقسم في فقرائنا)، قال ﷺ: (صدق)، قال الرجل: (فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟) قال ﷺ: نعم، قال الرجل: (وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا؟) قال ﷺ: (صدقك) قال الرجل: (فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟) قال ﷺ: (نعم)، قال الرجل: (وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)، قال ﷺ: (صدق)، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر) قال أنس: ثم قال: (والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، ثم ولى، فقال ﷺ: لئن صدق ليدخلن الجنة).

هذه الفروض إن قام بها الرجل دون نقص فإنها طريق إلى الجنة، أما النوافل فهي ترفع من درجات العبد في الجنة، أو تجبر كسر الفروض المنقوصة، وهذا هو يسر الإسلام، وهذا هو جمال الإسلام.

ذهب ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه إلى قومه بهذه المعلومات التي يعرفها عامة المسلمين رجالاً ونساءً بل وأطفالاً، فماذا فعل؟ لقد عاد ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه وأرضاه مسرعاً إلى قومه، فاجتمع حوله الناس فكان أول ما تكلم به أن قال: (بئست اللات والعزى)، قالوا: (مه يا ضمام! اتق البرص والجذام، اتق الجنون)، قال: (ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله عز وجل قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه).

فماذا كانت النتيجة؟ يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً). تصوروا بهذه المعلومات اليسيرة القليلة غيّر ضِمام من واقع قبيلة بكاملها، وهدى الله عز وجل به أقواماً، وهم جميعاً في ميزان حسناته، والدال على الخير كفاعله. هذا الذي فعله ضمام يمنع أياً منا من أن يعتذر؛ بأنه غير مؤهل للدعوة، ولا يمتلك العلم الكافي، ولا نقول لك: أفتِ الناس بما لا تعلم، لكن ما تعلمه وتظنه قليلاً هو بالنسبة لغيرك كثير كثير، ولنا في ضمام رضي الله عنه مثل واضح، فقد كان كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (أفضل وافد سمعوا به). كان هذا الوفد الثاني الذي أحببنا أن نقف على قصته.

وفد نصارى نجران

الوفد الثالث: هو وفد نصارى نجران، نجران بلد كبيرة في جنوب الجزيرة العربية، وكان أهل نجران يدينون بالنصرانية، فأرسلوا وفداً إلى الرسول ﷺ، وهذا الوفد كان فيه أربعة عشر وافداً، وتقول بعض الروايات: إن الوفد وصل إلى ستين رجلاً.

وصل هذا الوفد بهيئة منظمة جداً، وفي صورة منمقة وصلت حد المبالغة، فقد لبسوا الثياب الحريرية وتحلوا بالذهب، والرسول ﷺ يحرم هذه الأمور على الرجال، فكره ﷺ أن يتكلم معهم وهم بهذه الصورة، وأجلهم يوماً، فجاءوا في اليوم الثاني وهم يلبسون لبس الرهبان، فبدأ الرسول ﷺ في الحوار معهم، وهذا الوفد لم يكن من نيته ولا من همه أن يسلم أو يفكر في الإسلام، وإنما أتى ليناظر الرسول ﷺ ويجادله من ناحية، وأتى ليبهره ويبهر المسلمين من ناحية أخرى؛ لهذا فالحوار معهم كان على صورة مختلفة كثيراً عن الحوار مع الوفود الأخرى.

فقد عرض الرسول ﷺ عليهم الإسلام، ولكنهم رفضوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، هذه الكلمة صحيحة لو كانوا متبعين لكتبهم الأصيلة دون تبديل ولا تحريف، وفي هذه الكتب غير المحرفة بشارة برسولنا ﷺ، وعلامات واضحة لنبوته، وأدلة دامغة على صدقه، لذلك فعلماء اليهودية والنصرانية يعرفون الرسول ﷺ، ويعرفون علاماته، ويوقنون بصدقه وبوجوب اتباعه، من أجل هذا يقول سبحانه وتعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء:197] لكن منعهم الكبر والمصالح والدنيا والهوى والحسد، وأشياء كثيرة جداً منعتهم من الإسلام.

من أجل هذا أنكر الرسول ﷺ عليهم كلمة (كنا مسلمين قبلكم)، وذكر لهم أنهم يُحرفون دينهم في أمور كثيرة، وهذا التحريف يتنافى مع الإسلام، والإسلام معناه: أن يسلم الإنسان نفسه تماماً لله عز وجل، ويسلم نفسه لتشريعات الله عز وجل وقوانينه، ولا يسلم نفسه لأهوائه الشخصية أو مصالحه الخاصة. قال لهم الرسول ﷺ: (يمنعكم من الإسلام ثلاثة: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً)، هذه أمور ثلاثة حرفتموها في الإنجيل، ولن تسلموا فيها لله رب العالمين، ولا يستقيم أن تطلقوا على أنفسكم مسلمين قبل أن تتركوا هذا الاعتقاد الفاسد، وللأسف هذا اعتقاد جازم عند معظم النصارى، وهو يمنعهم من

التفكير في الإسلام. هناك أمر غريب جداً كنت دائماً استقربه ولم أفهمه إلا بعدما قـرأت حـوار الرسول ﷺ مع وفد نصارى نجران، وهو أنه عند نزول المسيح عليه السلام قبـل يـوم القيامـة يجعل من مهمته أن يصحح هذه الأمور التي ألصقت بدينه ولم تكـن فيـه. انظـروا إلى الحـديث الذي رواه أحمد وابن حبـان عـن أبي هريـرة رضي الله عنـه وأرضـاه، أن رسـول الله ﷺ قـال: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسـطاً، يـكسر الصـليب، ويقتـل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد).

وفد نجران لم يكن يريد الإسلام، من أجل ذلك كثر الجدال بينه وبين الرسول ﷺ، وكثر إلقـاء الشبهات والرد عليها، وكان مما قـالوه: (مـا لـك تشـتم صـاحبنا؟ -يقصـدون عيسـى عليـه السلام- وتقول: إنه عبد لله عز وجل، فقال ﷺ: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمتـه ألقاهـا إلى مريم العذراء البتول). هذا ليس انتقاصاً أبداً من عيسى عليه السلام، بل العبودية لله تشـريف، وهو رسول من أولي العزم من الرسل، وهو كلمة الله ألقاهـا إلى مـريم عليهـا السـلام، والتـي نكرمها ونجلها، وننفي عنها أي شبهة سوء، فنقول: إنها مريم العذراء البتول، لكـن النصـارى يبالغون في تكريم المسيح عليه السلام حتى خرجوا به عن طبيعته إلى طبيعة أخرى، فقالوا: هو الله، وقالوا: هو ابن الله، وقالوا: ثالث ثلاثة، وكلها مبالغات غير مقبولـة، إنهـا عقيـدة فاسـدة دفعهم إليها الحب والتقديس الزائد عن الحد المطلوب، من أجل هذا كان الرسول ﷺ حريصاً عند موته على إبراز هذا المعنى؛ حتى لا يتجاوز المسلمون الحب المفروض لـه إلى الحـب الـذي يقود إلى ضلال وكفر، فيخرجون بطبيعة الرسول إلى غيرها، فقد كان الرسـول ﷺ وهـو عـلى فراش الموت يقول: (لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، رواه البخـاري ومسلم. لكون النصارى في وفد نجران لا يتنازلون عن هذا الاعتقاد الفاسد، فإنهم غضبوا من وصف عيسى عليه السلام بالبشرية والعبودية وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غـير أب، فـإن

كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله عز وجل الحجة الدامغة، حيث ضرب لهم مثلاً يوضح حقيقة عيسى عليه السلام، قال الله عز وجل: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران:59-60]، النصارى لا ينكرون أن آدم عليه السلام خُلق من غير أب ولا أم هذا في كتبهم، فإن كان الله عز وجل قادراً على خلق آدم عليه السلام بدون أب ولا أم أو يعجز سبحانه وتعالى أن يخلق عيسى عليه السلام بأم وبلا أب؟ العقل يقبل ذلك تماماً، لكن الذي لا يقبله العقل أبداً أن يكون الإله بشراً يأكل ويشرب وينام ويُصاب بالألم ويُجرح، بل وفي عرف النصارى يقتل ويصلب، وإن كنا نحن المسلمين نؤمن أنه لم يقتل ولم يصلب عليه السلام، بل رفعه الله إليه: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء:157]. ليس من المعقول أبداً أن يكون الإله بهذه الصورة التي يعتريها الضعف في البشر المعتاد، لكن هذا الكلام المقنع لم يقنع النصارى ، أو قل: لم يعجب النصارى.

لجأ ﷺ إلى طريقة أخيرة وفريدة؛ لإقامة الحجة على النصارى، طلب منهم أن يقوموا بالمباهلة، أي: الملاعنة، قال الله عز وجل: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران:61]، طريقة فريدة فيها ثقة شديدة بالله عز وجل. كل طرف يجمع أهله، ويقف مع الطرف الثاني وجهاً لوجه، ويبتهل كل منهما أن ينزل الله عز وجل لعنته على الذي يكذب وينكر الحق، لو كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أن الحق معهم، أو أن هذا ليس برسول فلا يجب أبداً أن يخافوا من هذه المباهلة أو الملاعنة.

بالفعل بادر الرسول ﷺ إلى هذا الأمر بمنتهى الجدية، وجاء في صباح اليوم التالي ومعه عائلته المكونة من فاطمة رضي الله عنها وأرضاها ابنته، وعلي بن أبي طالب زوجها، والحسن والحسين

رضي الله عنهم أجمعين، ثم قال ﷺ: إذا دعوت فأمنوا، فلما رأى النصارى هذا الموقف خافوا، خافوا من هذه الملاعنة وقالوا: (ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا) فهذا يثبت بها لا يدع مجالاً للشك أنهم يؤمنون بنبوته وصدقه، ولكنهم يجحدون ذلك هوىً في نفوسهم واتباعاً لشهواتهم، فقالوا: (احكم علينا بما أحببت)فصالحهم ﷺ على الجزية. لما قرروا أن يعودوا إلى بلادهم سألوا الرسول ﷺ أن يرسل لهم رجلاً أميناً ليقبض منهم الجزية، فقال ﷺ: (لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف أصحاب الرسول ﷺ لهذه المكانة، فقال ﷺ: قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام، قال ﷺ: هذا أمين هذه الأمة).

نتيجة المفاوضات والمحاورات مع وفد نصارى نجران، كما رأينا أنهم رأوا الحق واتبعوا غيره، وأبى الوفد أن يسلم من فوره، وتحقق فيهم قول الله عز وجل: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل:14]، وهذا يعطي المسلمين ثقة كبيرة جداً، ويؤكد لهم أن الغرب والشرق الذين يحاورونهم يعلمون داخلياً أن الإسلام هو دين الحق، ولكنهم يراوغون ويجادلون، فلا يجب أبداً أن يُحبط المسلم من رؤية كثرة المكذبين، {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام:33].

استقبل الرسول ﷺ وفوداً أخرى كثيرة لا يتسع الوقت والمجال للحديث عنها، منها: وفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد بني عامر، ووفد طي، ووفد أهل اليمن.. وغيرهم وغيرهم كثير جداً، وفود كثيرة هامة جاءت في العام التاسع والعاشر من الهجرة، وكثير من هذه الوفود أعلنت إسلامها سواء عن اقتناع أو رهباً أو رغباً في الدولة الإسلامية، وظل عدد المسلمين في ارتفاع حتى رأيناه قد وصل في أواخر العام العاشر من الهجرة في حجة الوداع –

التي سنتحدث عنها إن شاء الله- إلى مائة ألف أو يزيدون، ووصلت بعض التقديرات إلى 140000 أو أكثر.

حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس

في آخر السنة التاسعة من الهجرة أرسل الرسول ﷺ وفداً من المسلمين للحج، وأمّر على الناس أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، والسبب في أنه ﷺ لم يذهب بنفسه: (أن الحج في تلك السنة كان مفتوحاً للمسلمين والمشركين سوياً)، وأُخبر ﷺ أن المشركين يحضرون ويطوفون بالبيت عراة، فقال ﷺ: (لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك). وخرج وفد الحج إلى مكة المكرمة بقيادة الصديق رضي الله عنه، وبعد خروج الوفد سبحان الله! نزل صدر سورة براءة ببعض التشريعات الهامة جداً في تعامل المسلمين مع المشركين، فيها إعلان مصيري بالنسبة لكل مشرك في الجزيرة العربية؛ من أجل هذا أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يحمل هذه الآيات وينطلق بها إلى مكة المكرمة؛ ليقرأها على أسماع المشركين في الجزيرة العربية، يقول سبحانه:

{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة:1-5]. تستمر الآيات على هذا النسق تحمل تشريعات تلو التشريعات في بيان في غاية

الأهمية. بعد قراءة هذه الآيات كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه ينادي في الناس بأمور أربعة:

كان يقول: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك.

هذه الآيات تحتاج إلى تفصيل كبير وتعليقات كثيرة، لكن بإيجاز: هذا إعلان مباشر للمشركين أنه بعد انقضاء الأجل المضروب في الآيات، فإن الحرب معلنة عليهم بوضوح وقوة، وليس أمامهم إلا خيار من اثنين: إما القتال ومواجهة المسلمين، وإما الإسلام. المقصود بهذه الآيات هم مشركو الجزيرة العربية، فقد كانت الحرب بينهم وبين المسلمين معلنة ومستمرة لأكثر من عشرين سنة متصلة، فقد اجتمعوا جميعاً على حرب المسلمين، قال الله عز وجل: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة:36]، وعلة قتال المشركين كافة أنهم يقاتلون المسلمين كافة، ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يقاتل من لم يقاتله إلا بعلة واضحة، كسلب أو نهب أو اغتصاب لحقوق المسلمين، أو بسبب منعهم للمسلمين من نشر دينهم وإيصاله إلى غيرهم، وبدون هذه الأمور يصبح قتال المشركين غير جائز، ومن ثم فقتال مشركي العالم جميعاً ليس منطقياً، وإنما يقاتل المسلمون بعض مشركي العالم الذين قاموا بما ذكرناه من أمور.

واقع المسلمين بعد نزول هذه الآيات وفي زمن الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ يصدق هذا الأمر. المسلمون في فتوحاتهم لم يقاتلوا كل المشركين الذين قابلوهم، وإنما كانوا يقاتلون من قاتلهم من جيوش البلاد المفتوحة، وكانوا يتركون بقية المشركين على دينهم إلى أن يختاروا هم بإرادتهم الإسلام إن أرادوا ذلك. هذا واقع رأيناه بأنفسنا في كل الفتوحات الإسلامية، وما وجدنا رجلاً واحداً -فيما أعلم- قتل فقط لكونه مشركاً، وعلى هذا يحمل حديث رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله)، يحمل على

قتال مشركي العرب. لا تعارض بين هذه الأحكام الخاصة بمشركي العرب والآية الكريمة: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:256]؛ فقوله: (لا إكراه في الدين) عام في كل البشر إلا هؤلاء المشركين من العرب، ليس لأنهم العرب، ولكن لكونهم محاربين للرسول ﷺ ولدولته، وهذه الحرب كما ذكرنا معلنة منذ قديم، والأصل في الأمور أن الحرب ما زالت مستمرة، وقد أعلن المسلمون أنهم سيستمرون في الحرب مع مشركي العرب، ولن يتم إيقاف الحرب حتى يسلم المشركون، فإن أبوا فالأمور على طبيعتها الأولى، أي: استمرار الحرب. هذا العرض والإعلان من المسلمين عرض كريم لإنقاذ مجموعة من المحاربين للدولة الإسلامية، وهو ليس عرضاً دنيوياً أبداً، بل على العكس سيخسر المسلمون أموال هؤلاء المشركين إن أسلموا؛ لأن هذه الأموال ستصبح غنائم للمسلمين في حالة الحرب، بل قد يُنفق المسلمون على من دخل في الإسلام من المشركين تأليفاً لقلوبهم كما حدث قبل ذلك في حنين، وهذا يعتبر تسامحاً عظيماً جداً من دولة قوية لها سطوة على كل أرجاء الجزيرة تقريباً في ذلك الوقت.

الأمر الثاني: أن هذه الآيات من سورة التوبة أظهرت درجة من الرقي الحضاري لا يعرفها أهل الأرض جميعاً، وهي إعلام الآخرين من أعداء الأمة بأن الدولة الإسلامية ستقوم بقتالهم، هكذا لا غدر ولا خيانة ولا أخذ على حين غرة، إنما التنبيه والتحذير وإعطاء الفرصة كاملة للطرف الآخر؛ لكي يستعد، إنها حرب الكريم النبيل، وليست حرب اللئيم الخسيس. قد رأينا في الحروب العالمية في القديم والحديث أن هذه الحروب تقوم على الخيانة والغدر ونقض العهود والطعن في الظهر، رأينا غدر إيطاليا مع ليبيا وأثيوبيا، ورأينا غدر الإنجليز في مصر والعراق وفلسطين، ورأينا غدر فرنسا في الجزائر وسوريا، ورأينا غدر الصليبيين قبل هذا في الشام، ورأينا غدر التتار، ورأينا غدر الصليبيين في الأندلس، رأينا كثير جداً. أين كل هذا من حضارة الإسلام؟! هل هناك بلد في العالم تقرر الحرب فتعطي الفريق الآخر مهلة للاستعداد،

حتى تكون الفرص متكافئة؟ أي بلد في العالم تريد أن تقطع معاهدة وتقوم بالحرب فلا تفعل ذلك إلا بعد إنذار الفريق الآخر بفترة كافية حتى يتساوى الفريقان في الفرص؟ من يصرف هكذا هذا في العالم؟ ليس هذا إلا في تشريع الإسلام، وأنا أتحدى أن يوجد قانون من قوانين الأرض في القديم أو الحديث في الشرق أو الغرب يقترب من عدالة وأمانة وعظمة القانون الإسلامي. نحتاج إلى دراسة هذه المجموعة من الآيات دراسة وافية في وقت آخر غير هذا الوقت؛ لأن هذه الآيات فيها من الحضارة والرقي والسمو ما لا يحصى.

بهذا الإعلان وضحت الرؤية لعموم سكان الجزيرة العربية، سواء من المسلمين أو من المشركين، وبعدها بقليل كما ذكرنا دخلت أمة العرب جميعاً في الإسلام، ومن ثم تهيأت الجزيرة العربية ومكة المكرمة لاستقبال خير البشر ﷺ في حج العام العاشر من الهجرة، ليحج حجته الوحيدة والمشهورة، والتي عرفت في التاريخ بحجة الوداع، وسط الألوف والألوف من المسلمين دون مشرك واحد لأول مرة في تاريخ مكة منذ مئات السنين، حين ابتليت مكة قبل ذلك بعبادة الأصنام من دون الله عز وجل، ها قد جاء اليوم الذي لا يحج إليها مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

45

حجة الوداع

تعرفنا على النتائج العظيمة لغزوة تبوك ورأينا قدوم الوفـود الكثـيرة إلى المدينـة المنـورة لـتعلن إسلامها بين يدي رسول الله ﷺ ، لكن لكل شيء نهاية، ولكل أجل كتاب، ولكل قصة خاتمة، وكثيراً ما نرى أن عمر الإنسان ينتهي دون أن يـرى حلمـه يتحقـق، أو دون أن يشـاهد خطتـه تنجح، لكن من سعادة الإنسان حقاً أن يطيل الله عز وجـل في عمـره حتـى يـرى ثـمار عملـه، ونتيجة جهده، فيسعد لذلك أيما سعادة، ويشعر أن تعب السنين لم يذهب هباء منثوراً، نعم، لا يشترط للإنسان المخلص أن يرى نتيجة كده وتعبه، ولكن لا شك أنها نعمة من الله عـز وجـل ومِنّة عظيمة لا تقدر بثمن. عاش الرسول ﷺ حتى رأى الجزيرة العربية بكاملها تقريباً تدخل في الإسلام، وتقر به، بعد حرب ضروس، بعد مقاومة عنيفة شديدة، هـا قـد دخـل النـاس في دين الله أفواجاً، ها قد مكن للإسلام وارتفعت راية التوحيد في كل مكان. ها قد عادت الكعبة المشرفة إلى حقيقتها، صارت كما كانت أيام إبراهيم ﷺ يوحد فيها الله عز وجل، ولا يشرك بـه أحد أبداً.

لا أستطيع وصف سعادة الرسول ﷺ الصلاة والسـلام بكـل هـذا الخـير. كـان الرسـول ﷺ يسعد إذا رأى رجلاً واحداً يؤمن، كان يقول: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحـداً خـيرٌ لـك مـن

حمر النعم). فها هو الآن لا يرى رجلاً ولا رجالاً يؤمنون، بل يرى الجموع الغفيرة والقبائل العظيمة والبلاد الكثيرة تدخل في دين الله أفواجاً.

هذا التمكين يحمل معنى آخر لرسول الله ﷺ ولعموم المسلمين وهو أن مهمة الرسول ﷺ قد أشرفت على الإنتهاء، ومهمة الرسول ﷺ كانت البلاغ، وها قد تحققت مهمته على الوجه الأكمل، ووصلت رسالته بيضاء نقية إلى كل الجزيرة العربية، بل وتجاوزت ذلك إلى ممالك العالم القديم، ووصلت الدعوة إلى فارس والروم ومصر واليمن والبحرين وعمان وغيرها، واكتملت كل -أو معظم- بنود الشرع الحكيم. إذا كان قد حدث ذلك فمعناه: أن حياة رسول الله ﷺ قد قاربت هي الأخرى على الانتهاء. مع كل الألم الذي يصاحب النفس عند تصور ذلك، إلا أن الواقع يخبر أن لكل شيء نهاية، ولكل أجل كتاباً، ولكل قصة خاتمة.

في أواخر العام العاشر من الهجرة كان واضحاً لرسول الله ﷺ ولصحابته أن أجل الحبيب ﷺ قد اقترب، ومن رحمة رب العالمين سبحانه وتعالى أنه مهَّد لهذا الموت بأحداث ومواقف وبعبارات كثيرة؛ وذلك ليهون على المسلمين مصابهم الفادح، ففتح مكة وإسلام هوازن وثقيف وقدوم الوفود تلو الوفود على المدينة المنورة كل ذلك علامة من علامات اقتراب الأجل، وأن المهمة قاربت على الانتهاء. كذلك في شهر رمضان من السنة العاشرة من الهجرة اعتكف ﷺ عشرين يوماً بدلاً من عشرة أيام كان معتاداً. كل هذا كان تمهيداً لأمته أنه سيعتزلها ويبتعد عنها مدة أطول من المدة المعتادة، سيأتي وقت يبعد عنها بجسده تماماً، وإن كان سيظل بروحه وسنته وأقواله وأفعاله وتوجيهاته معهم إلى يوم القيامة. في شهر رمضان أيضاً راجعه جبريل عليه السلام القرآن مرتين، بدلاً من مرة واحدة.

في شهر شوال توفي ابنه إبراهيم عليه السلام، ومع أن البعض كان يتمنى أن لو بقي شيء من عقبه ﷺ ليذكرنا به، لكن هذه حكمة ورحمة من رب العالمين سبحانه وتعالى، فنحن رأينا

مغالاة الشيعة في أحفاد الرسول ﷺ من ابنته فاطمة رضي الله عنها وأرضاها، ما بالك لو عاش له ولد، وكان له عقب ينتهي نسبهم إلى محمد ﷺ ، لا شك أنها كانت ستتحول إلى فتنة عصمنا الله منها، ولله الحمد والمنة.

أيضاً في هذه الأيام بعث ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه إلى اليمن، وقال له: (يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري) هذه إشارات في منتهى الوضوح إلى أن أجله ﷺ قد اقترب،

في شهر ذي القعدة من نفس السنة العاشرة بدأ ﷺ في الاستعداد للقيام بالحج، للمرة الأولى والأخيرة في حياته ﷺ ، وهي الحجة التي عرفت في التاريخ بحجة الوداع. دعا إليها القبائل المختلفة من كل أنحاء الجزيرة العربية، وتجاوز المسلمون الذين حضروا هذه الحجة مائة ألف مسلم، وذكر بعض الرواة أن عدد المسلمين في هذه الحجة كان يزيد على 14000 من المسلمين، هذا عدد ضخم وهائل ومهول، وكانوا في غزوة تبوك التي وقعت قبل سنة واحدة فقط، كان المسلمون 30000 مقاتل فقط، وفي هذا الوقت 140000 بعد سنة واحدة من تبوك.

وصايا الرسول ﷺ في خطبه في حجة الوداع

كانت حجة الوداع من أهم المعسكرات الإيمانية التي عاشها الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم مع الرسول ﷺ لعدة أيام. علمهم وأدبهم وأرشدهم ووضح لهم الطريق وبين لهم المعالم فيها، فهذه الحجة لم تكن مجرد أداء لفريضة، بل وُضعت فيها وبوضوح القواعد التي عليها تبنى الأمة الإسلامية، والأمور التي بها تحافظ الأمة الممكنة على تمكينها في الأرض.

خطب الرسول ﷺ في هذه الحجة ثلاث خُطب، في ثلاثة مواضع مختلفة، في هذه الخطب بَّصر ﷺ الأمة التي كتب الله عز وجل لها التمكين بما يحفظ لها هذا التمكين ويقويه، وهذه الحجة العظيمة، تحتاج إلى دراسة خاصة، وإلى تفريغ جهد ووقت، لعل في هذه المحاضرات لا يتسع الوقت لتحليل حجة الوداع، وسنفرد إن شاء الله لها محاضرة خاصة أو محاضرتين، نتحدث فيهما عن الدروس المستفادة والقواعد الهامة المستنبطة من هذه الحجة العظيمة.

لكن سنمر سريعاً على بعض الوصايا التي حرص ﷺ أن يوجهها إلى أمته.

الوصية الأولى: دستور المسلمين هو الكتاب والسنة، والإعتصام بهما يحمي من الضلال ويحفظ الأمة، ويقود إلى الجنة، يقول ﷺ : (وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبداً، أمراً بيّناً؛ كتاب الله وسنتي).

الوصية الثانية: الوحدة بين المسلمين على أساس الدين والعقيدة، لا على أساس العرق والعنصر، يقول ﷺ : (تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم)، ويقول: (إن المسلمون أخوة) ، ويقول: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى).

الوصية الثالثة: العدل، والعدل المطلق، فلا تقوم أمة ولا تستمر وهي ظالمة، مع وصية خاصة بالنساء، فقال ﷺ : (أيها الناس إن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً).

الوصية الرابعة: التحذير من الذنوب، والتحذير من الشيطان والتنبيه على أن ما يحتقره العبد من الذنوب قد يؤدي إلى هلكته، قال ﷺ : (إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوا ذلك فقد رضي به مما تحتقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم).

الوصية الخامسة: أن الاقتصاد الإسلامي ليس فيه مشروعية للربا، يقول ﷺ : (و ربا الجاهلية موضوع) وفي رواية يقول: (قضى الله أنه لا ربا). هكذا وضع ربا الجاهلية جميعها.

الوصية السادسة: البلاغ، مهمة هذه الأمة البلاغ، وأن تحمل رسالة رب العالمين سبحانه وتعالى إلى العالمين، قال ﷺ : (فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع) وأكثر ﷺ من قوله: (ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، ألا هل بلغت اللهم فاشهد) فهذه مهمة الأمة الإسلامية: أن تحمل الرسالة إلى كل العالم.

الوصية السابعة: تأصيل مبدأ التيسير في الدين، وأن الشريعة كلها يسر، فقد أكثر ﷺ في هذه الحجة من قوله: (لا حرج، لا حرج، افعل ولا حرج، افعل ولا حرج) وليت المسلمين يفقهون طبيعة هذا الدين، إن طبيعة هذا الدين هي اليسر: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه).

الوصية الثامنة: السمع والطاعة لأمير المسلمين ما دام يحكم بكتاب الله عز وجل، قال ﷺ : (اسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي، ما أقام فيكم كتاب الله عز وجل).

الوصية التاسعة: أن الشرع يطبق على الحاكم كما يطبق المحكومين، ليس هناك استثناء أمام القانون قال ﷺ (ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب) ابن ابن عم رسول الله ﷺ ، وقال عن الربا: (وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله). تطبيق الشريعة على الرسول ﷺ نفسه، وهو زعيم هذه الأمة، وعلى عموم الشعب بكامله ليس هناك استثناء.

الوصية العاشرة: على الدولة الصالحة أن تأخذ بيد شعبها إلى الجنة، وليس فقط أن توفر لهم سبل المعاش المريح، والحياة الرغيدة، قال ﷺ : (وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم

وقد بلغت). الدولة العلمانية لا تنظر مطلقاً إلى هذه النقطة، فليذهب الشعب إلى الجحيم إن أراد ذلك، المهم عندها قيم في الدنيا، لكن الدولة الإسلامية لا تنظر للشعب هذه النظرة الآنية السطحية التافهة، وإنما وظيفتها الأولى أن تسعى حثيثاً لهداية الناس إلى رب دين العالمين سبحانه وتعالى، ومن أدوارها أن تدعو شعبها بل وتدعو العالم كله إلى دخول الجنة، فتلك عشر كاملة.

لا شك أن كل وصية من هذه الوصايا تحتاج إلى تفصيل، ولا شك أيضاً أن الجوانب الفقهية الهامة في هذه الوصايا، تحتاج أيضاً إلى دراسة وافية. أكثر ﷺ في هذه الحجة من قوله: (خذوا عني مناسككم) لذلك هذا الأمر يحتاج إلى دارسة، ونسأل الله عز وجل أن ييسر لنا وقتاً نستطيع فيه الحديث عن هذه الأمور الهامة.

رجوع الرسول ﷺ من حجة الوداع وتجهيزه جيش أسامة

بعد هذه الحجة رجع الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، ومكث فيها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر من السنة الحادية عشرة للهجرة. في شهر صفر بدأ الرسول ﷺ في إعداد بعث حربي جديد للشام، لقتال الرومان؛ لأن الرومان قتلوا والي مَعَان عندما أسلم، فكان لا بد من رد حاسم، وهذا هو الإعداد الثالث لمجابهة الدولة الرومانية العظمى: الأول: كان في مؤتة، والثاني: كان في تبوك، والثالث: بعث جيش أسامة بن زيد هذا.

أمّر ﷺ على هذا البعث أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، فالرسول ﷺ يلفت أنظارنا بهذا الفعل إلى أمرين مهمين: الأول: ليس من المهم من هو القائد، ولا نسب القائد، ولا عمر القائد، المهم هو كفاءة القائد، وأنه يحتكم في كل أموره إلى كتاب الله عز وجل، وإلى سنة نبيه ﷺ . القائد في هذه المعركة أسامة بن زيد هو ابن مولى كان يباع ويشترى، وهو زيد بن حارثة

رضي الله عنه وأرضاه، وفي نفس الوقت كان عمره ثماني عشرة سنة، أو حتى لم يبلغ الثامنة عشرة سنة، ومع ذلك يتولى قيادة هذا الجيش العظيم.

الأمر الثاني: أن طاقات الشباب هائلة، والرسول ﷺ بأي حال من الأحوال لا يضيع جيشه، ولا يخاطر بمصير أمته بزعامة لا تتصف بكفاءة، وبخاصة أن الصراع القادم سيكون مع أعتى قوة في الأرض في زمانهم، ولو لم يكن ﷺ موقناً تمام اليقين أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أهل لهذه المهمة ما ولاه، لا سيما أنه كان تحت إمرة أسامة مجموعة فذة من القادة العسكريين، ومن السابقين، ويكفي أن من جنود أسامة رضي الله عنهم في هذه المعركة أبا بكر وعمر رضي الله عنهماوهذا الفعل يبين لنا قيمة وإمكانيات الشباب عند رسول الله ﷺ .

وجُهِّز الجيش الهام، وخرج من المدينة المنورة في اتجاه الشام في أواخر شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، لكن بعد خروجه مسافة خمسة أميال من المدينة المنورة سمع الجيش بمرض رسول الله ﷺ فانتظروا في مكانهم، لم يكملوا الطريق؛ حتى يطمئنوا على صحة الحبيب ﷺ .

إلى الرفيق الأعلى

بدأ مرض الرسول ﷺ الذي كان في نهايته الوفاة، ويصعب على النفس أن تتصور موت الرسول ﷺ ، فسبحان الله الذي ثبت أصحاب الرسول ﷺ في هذه الفاجعة. نحن بعد مرور أكثر من 1400 سنة على موت الرسول ﷺ لا نستطيع أن نتمالك أنفسنا عند سماع أو قراءة قصة وفاة الحبيب ﷺ ، فقد كانت بلا مبالغة أكبر مصيبة، وأعظم كارثة في تاريخ الأرض منذ خلقها الله عز وجل وإلى يوم القيامة. مع كون وفاة الأنبياء بصفة عامة مصيبة كبيرة على أقوامهم، إلا أن مصيبة وفاة الرسول ﷺ كانت أعظم وأجل، ليس فقط لكونه ﷺ أعظم الأنبياء أو سيد المرسلين وإن كان كذلك ﷺ . لكن كانت المصيبة الكبرى هي انقطاع الوحي

بعد وفاة الرسول ﷺ انقطاعاً أبدياً إلى يوم القيامة؛ لأنه لا يوجد نبي بعد رسول الله ﷺ ، وعلى مدار ثلاثة وعشرين سنة كاملة تعود الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم على نزول الوحي من السماء في كل لحظة، وفي كل ظرف وفي كل أزمة. رحلة طويلة من الأحداث الساخنة والصاخبة والمعقدة كان الوحي فيها دليلاً للمسلمين وهادياً لهم، ومُبصراً لعقولهم، ومطمئناً لأفئدتهم. ما أعجب الحياة في ظل الوحي! ولا شك أن البشر جميعاً يخطئون، والمؤمن الصادق يعتذر سريعاً عن خطئه ويتوب من قريب، لكن أحياناً تختلط الحقائق مع الأباطيل، فيتوه الصواب بين طرق الخطأ المتشعبة، فتجد الإنسان المسلم يأخذ أحياناً قراراً يحسبه سليماً صحيحاً شرعياً، بينما يكون الحق في خلاف ذلك، يحدث هذا مراراً وتكراراً معنا ومع الناس جميعاً، لا ندري أكنا على حق أم اخترنا الباطل؟ لكن في أيام الوحي كان الوضع مختلفاً عن وضعنا، كان إذا أخطأ الصحابة نزل الوحي يبين لهم الخطأ، ويُبصرهم بالطريق، ويوضح الحق من الباطل، فيعلم الصحابة علماً يقينياً حدود الحق وحدود الباطل، حتى عندما كان ﷺ يختار رأياً خلاف الأولى، كان الوحي ينزل بالتصويب وبترتيب الأوليات، وبتوضيح الفروق الدقيقة جداً بين الصحيح والأصح، وبين الفاضل والمفضول، كانت حياة عجيبة. نعم، ترك الله عز وجل لنا منهجاً قيماً عظيماً نعرف به الحلال من الحرام ونرتب به الأوليات ترتيباً شرعياً سليماً، لكن ليس ذلك كما كان أيام الوحي.

كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يحبون الرسول ﷺ أكثر من حبهم لأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم، بل أكثر من أنفسهم، وكلنا نعلم قصة امرأة بني دينار وذكرناها في غزوة أحد، عندما علمت باستشهاد أبيها وأخيها وزوجها في موقعة أحد، فقالت في لهفة: (ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا: هو بخير كما تحبين، قالت: أرونيه، فلما رأته سالماً قالت: كل مصيبة بعدك

جلل) أي: صغيرة يسيرة؛ لذلك كانت مصيبة موت الرسول ﷺ أعظم من كل المصائب التي حدثت في الأرض منذ خلقت وإلى يوم القيامة.

طلائع التوديع

كيف كانت الأيام الأخيرة في حياته ﷺ ؟ لقد حرص ﷺ في أيامه الأخيرة على توديع الجميع، حتى إنه لم يودع الأحياء فقط، بل ودع الأموات أيضاً، فقد خرج ﷺ في أوائل شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة إلى أحد فصلى على الشهداء هناك وودعهم، ومن ثم رجع إلى المدينة المنورة، وصعد المنبر وأوصى الناس كما روى البخاري عن عقبة بن عامر قال: (إني فرطكم - أي: أنا سابقكم إلى الله عز وجل-، وإني شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها).

وصايا من الرسول ﷺ إلى أمته في آخر حياته.

في أواخر شهر صفر، خرج ﷺ إلى البقيع حيث يدفن الموتى من أهل المدينة المنورة هو وأبو مويهبة وهو مولى للرسول ﷺ ، روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والدارمي في سننه عن أبي مويهبة: (أن الرسول ﷺ بعثه من جوف الليل ذات ليلة فقال: يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن استغفر لأهل البقيع فانطلق معي، يقول أبو مويهبة رضي الله عنه: فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنِ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس) أي: ما أنتم فيه الآن أفضل مما يعيش فيه الناس، ومما هم قادمون عليه. ثم قال: (لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى، يقول أبو مويهبة رضي الله عنه: ثم أقبل علي ﷺ فقال: يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن

الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، وخُيرت بين ذلك وبين لقاء ربي عز وجل والجنة، فقال أبو مويهبة: قلت: بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فقال ﷺ لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت ربي عز وجل، ثم استغفر لأهل البقيع وبشرهم بقوله: إنا بكم للاحقون، ثم انصرف إلى بيته ﷺ).

بداية مرضه ﷺ

في اليوم التاسع والعشرين من صفر شهد الرسول ﷺ جنازة في البقيع، وعند رجوعه من البقيع بدأ المرض الذي مات فيه ﷺ ، وكان يوم الأثني أي قبل أسبوعين تماماً من وفاته ﷺ ، فقد أصابه صداع شديد في رأسه، وارتفعت درجة حرارته جداً، حتى ربط عصابة على رأسه، وكان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يشعرون بالحرارة من فوق العصابة. كان مرض النبي ﷺ في منتهى الشدة، وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تشعر هي الأخرى بصداع في رأسها، فقالت: (وا رأساه، فقال ﷺ : بل أنا وا رأساه)، ولعلها المرة الأولى في حياته ﷺ التي لا يلتفت فيها إلى مرض السيدة عائشة رضي الله عنها؛ لشدة مرضه هو ﷺ ، ومع مرور الوقت اشتد المرض برسول الله ﷺ ، وكان كعادته ينتقل كل يوم من بيت زوجة إلى بيت أخرى، بحسب دورهن، لكنه مع اشتداد المرض عليه أصبح من الصعب عليه فعلاً أن ينتقل بين الحجرات، فأراد ﷺ أن يستقر في بيت إحداهن إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فأراد الرسول ﷺ أن يستقر في بيت أحب زوجاته إلى قلبه، السيدة عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، لكنه استحيا ﷺ أن يطلب ذلك من زوجاته؛ لئلا يكسر نفوسهن، فكان يقول ﷺ : (أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ حتى جاء يوم عائشة فسكن ﷺ) ففهمن أمهات المؤمنين رضي الله عنه، ومن أدبهن وحبهن له أذن له بالبقاء حيث يحب، فبقي ﷺ في بيت السيدة عائشة من يوم خمسة من شهر ربيع الأول إلى آخر حياته ﷺ يعني: بقي: أسبوعاً كاملاً.

الأسبوع الأخير

في هذا الأسبوع كان لا يقوى ﷺ على المسير، فكان يتحامل على الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكانت قدماه تخط في الأرض لا يقوى على المشي، وكان ﷺ عاصباً رأسه، وقضى هذا الأسبوع الأخير كما ذكرنا كله في بيت عائشة رضي الله عنها وأرضاها. كان ﷺ لا يكاد يتكلم في هذا الأسبوع إلا بصعوبة شديدة، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت رجلاً اشتد عليه الوجع من رسول الله ﷺ). روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (أنه دخل على الرسول ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، فيقول عبد الله: فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً؟ فقال ﷺ : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال ﷺ : أجل)، ثم قال ﷺ : (ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئات كما تحط الشجرة ورقها).

قبل الوفاة بخمسة أيام

في يوم الأربعاء سبعة ربيع أول سنة إحدى عشرة هجرية قبل الوفاة بخمسة أيام ارتفعت درجة حرارة الرسول ﷺ جداً، واشتد ألم الرسول ﷺ حتى أغمي عليه أكثر من مرة، فلما أفاق في إحدى المرات أراد أن يخرج إلى المسلمين حتى يوصيهم، فما استطاع أن يتحرك ﷺ.

فقال لأهله: (هريقوا علي سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم) من شدة الحرارة لا يستطيع الحركة فيطلب منهم أن يصبوا عليه الماء فصبوا عليه الماء واستمروا في ذلك حتى طفق يقول ﷺ : حسبكم حسبكم، وشعر عند ذلك ﷺ بخفة، فدخل المسجد وهو معصوب الرأس، وصعد المنبر والناس مجتمعون حوله فقال: لعنة على اليهود والنصارى

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وبالطبع هذه إشارة شديدة الوضوح باقتراب أجله ﷺ ، ثـم إنـه ﷺ عرض نفسه للقصاص، فقال: (من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومـن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه). يقول ذلك ﷺ وهو الذي لم يظلم في حياتـه قط، بل كان دائم التنازل عن حقه، وما غضب لنفسه قط ﷺ . يقـول ذلـك وهـو الـذي كـان يحب الرفق في كل شيء، وهو الذي لم يتلفظ بفحش ولا سوء، ولا طعن حتى في أشـد مواقـف حياته صعوبة ﷺ .

ثم أوصى ﷺ بالأنصار، فقال: (أوصـيكم بالأنصـار؛ فـإنهم كَـرِشِي وعيبتـي) أي: خاصـتي وموضع سري: (وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجـاوزوا عـن مسيئهم).

ثم قال ﷺ بعد ذلك كلاماً مؤثراً غاية التأثير، روى البخاري عن أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه وأرضاه عن النبي ﷺ أنه قال: (إن عبداً خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين مـا عنده، فاختار ما عنده، يقول أبو سعيد رضي الله عنـه: فبكـى أبـو بكـر وقـال: فـديناك بآبائنـا وأمهاتنا، فتعجب الصحابة رضي الله عنهم من بكاء الصـديق رضي الله عنـه، قـال أبـو سـعيد الخدري: فعجبنا له، قال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ –يقصـدون أبـا بكـر الصـديق – يخـبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهـو يقـول: فـديناك بآبائنا وأمهاتنا).

لم يدرك الصحابة في هذه الساعة ولم يتصوروا أن الرسول ﷺ هـو العبـد المقصـود بـالتخيير، ولكن الصديق رضي الله عنه بما له من حس مرهف وعلم واسع أدرك ذلك الأمر فبكـى رضي الله عنه وقال: (فديناك بآبائنا وأمهاتنا)، يقول أبو سـعيد :(فكـان رسـول الله ﷺ هـو المخـير وكان أبو بكر أعلمنا). ثم قال ﷺ : (إن أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكـر، ولـو كنـت

متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، ثم قال: لا يبقين في المسجد باب إلا سُد، إلا باب أبي بكر). فلما انتهى ﷺ من هذه الوصايا المؤثرة في ذلك اليوم دخل بيته.

قبل الوفاة بأربعة أيام

في يوم الخميس الثامن من ربيع أول يعني: قبل الوفاة بأربعة أيام حدث موقف هام، روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أن الرسول ﷺ لما اشتد به الوجع قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده -وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه- فـ عمر رضي الله عنه أشفق على الرسول عليه والسلام، فقال: إن النبي ﷺ غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله)، عمر رضي الله عنه وأرضاه كان يرى أنه لا داعي لإرهاق الرسول ﷺ بالكتابة، وقد حفظ الله عز وجل لهم القرآن، لكن بعض الصحابة اعترضوا على ذلك، وأرادوا أن يكتب لهم الرسول ﷺ الكتاب الذي يريد، فاختلف أهل البيت واختصموا وكثر اللغط، وارتفع الصوت، فلما حدث ذلك قال ﷺ : (قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع). من الواضح أن الرسول ﷺ لم يكن يرى أن كتابة هذا الذي يريد كتابته أمر واجب ضروري، إنما هو أمر اختياري تقديري؛ لأنه ﷺ عاش بعد هذا أربعة أيام ولم يطلب الكتاب مرة أخرى ليكتب، ولو كان ضرورياً لأمر به ﷺ ، لكن على الرغم من أن كتابة الكتاب لم تكن أمراً حتمياً، إلا أنه كان لغرض الإيضاح، وكان فيه خير ما، لكن مُنع المسلمون هذا الخير؛ بسبب اختلافهم وكثرة لغطهم. الاختلاف دوماً يمنع كثيراً من الخير. ضحى الرسول ﷺ بهذا الخير الذي كانوا سيحصلونه في سبيل أن يمنع عنهم التنازع. وحدتهم كانت مقدمة عنده على ما دونها من مصالح.

في نفس هذا اليوم ثمانية ربيع أول سنة إحدى عشرة هجرية أوصى ﷺ بثلاث وصايا: قال ﷺ: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب).

والوصية الثانية: (وأجيزوا الوفد، بنحو ما كنت أجيزهم به) أي: أعطوا الوفد جائزة كما كنت أعطيهم، يعني: أقروهم وأحسنوا ضيافتهم.

أما الوصية الثالثة: فنسيها أحد رواة الحديث، واختلف العلماء في تحديدها، فبعضهم قال: القرآن، وبعضهم قال: تجهيز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وبعضهم قال: الصلاة.

وكان ﷺ حتى ذلك اليوم وبرغم مرضه يصلي بالناس كل الصلوات، فصلى بهم في ذلك اليوم الصبح والظهر والعصر، وبعد ذلك صلى بهم المغرب وقرأ في المغرب بـ (المرسلات عرفاً) ثم عاد إلى بيته ﷺ وقد ثُقل عليه المرض جداً، ما قدر على أي حركة، فسأل وهو شبه غائب عن الوعي كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: (أصلى الناس؟ -يقصد صلاة العشاء- قال الصحابة: لا، هم ينتظرونك، فقال ﷺ ضعوا لي ماء في المِخضب) مكان يغتسل فيه ﷺ، أراد الاغتسال لتخفيف درجة الحرارة حتى يقوم لتأدية صلاة العشاء، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (ففعلنا، فاغتسل فذهب لينوء -أي قام بجهد كبير ليذهب للمسجد- فأغمي عليه ﷺ، ثم أفاق، فقال ﷺ أصلى الناس؟ قلنا: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك، قال: ضعوا لي ماء في المخضب، قالت: فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك، فقال للمرة الثالثة: ضعوا لي ماء في المخضب فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه للمرة الثالثة، ثم أفاق: فقال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله) أرأيتم الحرص على صلاة الجماعة، والحرص على الذهاب إلى المسجد مع هذا المرض الثقيل وهذا الإغماء المتكرر؟! يا حسرتاه على أقوام أصحاء يتخلفون

عن صلاة العشاء وغيرها من صلوات الجماعة، والمساجد على بعد خطوات معدودات من بيوتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله؟!

بعد هذه المحاولات المضنية من رسول الله ﷺ أدرك أنه لن يستطيع الخروج لصلاة الجماعة، وللمرة الأولى في حياته ﷺ -ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها- لم يستطع أن يتحرك، لكنه مع ذلك كان حريصاً على أمته حتى في أشد حالات مرضه ﷺ، فما زال يردد: (أصلى الناس؟ أصلى الناس؟). تقول عائشة رضي الله عنها: (والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة). في هذا الوقت قرر ﷺ أن ينوب عنه واحد من المسلمين لإمامة المسلمين في الصلاة، فقال ﷺ: (مروا أبا بكر فليصل بالناس) فخافت السيدة عائشة أن يتشاءم الناس بأبيها لو وقف مكان الرسول ﷺ فقالت: (إن أبا بكر رجل أسيف -وفي رواية: رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء) فلما أصر ﷺ على اختيار أبي بكر لهذا الأمر فأعادت عليه عائشة رضي الله عنها ومن معها من أمهات المؤمنين الإقتراح بتغيير أبي بكر وأنهن أشرن بإمامة عمر رضي الله عنه، فغضب ﷺ وقال: (إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس) فصلى أبو بكر رضي الله عنه بالناس صلاة العشاء للمرة الأولى في وجود الرسول ﷺ، وكان هذا اليوم يوم الخميس الثامن من ربيع أول سنة إحدى عشرة هجرية.

قبل الوفاة بثلاثة أيام

في يوم الجمعة، صلى أبو بكر جميع الصلوات بالمسلمين وخطب بهم الجمعة في ذلك اليوم أيضاً، ولم يستطع ﷺ الحركة مطلقاً في ذلك اليوم، وكان مما أوصى به في ذلك اليوم ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل).

في يوم السبت أو الأحد العاشر أو الحادي عشر من ربيع أول صلى أبـو بكـر جميـع الصـلوات بالناس، لكن في أثناء صلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس شـعر ﷺ في نفسـه خفـة، فقـرر ألا يضيع الفرصة، فحاول أن يصلي مع الجماعة مرة ثانية، فخرج يهادى بين رجلـين: العبـاس بـن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ورجلاه تخطان في الأرض، حتى وصلا به إلى الصف الأول، فكان أبو بكر يؤم الناس في ذلك الوقت، فلما أحس أبـو بكـر بقـدوم الرسـول عليه والسلام، أراد أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثـم أُتي بـه ﷺ حتـى جلـس إلى جنب أبي بكر الصديق رضي الله عنـه مـن ناحيـة اليسـار، أي: كـان الرسـول ﷺ في موضـع الإمام، فكان النبي ﷺ يصلي جالساً لا يستطيع القيام، وأبو بكر يصلي بصلاته، ويرفع صـوته فيصلي الناس بصلاة أبي بكر. مجهود هائل من رسول الله ﷺ حتى لا يفوت صلاة واحدة مـع الجماعة وهو يستطيع، مع أنه قد وصل إلى هذه الحالة التي وصفنا من التعب والمرض والإغماء.

قبل يوم من وفاته ﷺ

في يوم الأحد الحادي عشر من شهر ربيع أول، يعني: قبل الوفـاة بيـوم واحـد صـلى أبـو بكـر بالمسلمين كل الصلوات، وتخلص ﷺ من كل بقايا الدنيا التـي عنـده عـلى بسـاطتها وقلتهـا، فأعتق ما تبقى من غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسـلمين أسـلحته، ولم يترك في بيته عند موته من الطعام إلا القليل. روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنهـا قالت: (توفي رسول الله ﷺ وما في بيتـي مـن شيء يأكلـه ذو كبـد إلا شـطر شـعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فكلته ففني). يقول أنس رضي الله عنه: (ما أمسى عند آل محمد ﷺ صاع بر ولا صاع حب، وإن عنده لتسع نسوة) أي: كل بيوته ﷺ لم يكـن فيهـا الطعـام الـذي يكفيهم.

آخر يوم من حياته ﷺ

جاء يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول إحدى عشرة هجرية، وهو اليوم الـذي شـهد أعظم مصيبة في تاريخ البشرية.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (ما رأيت يوماً قط كان أحسـن ولا أضـوأ مـن يـوم دخـل علينا فيه ﷺ يوم أن هاجر من مكة إلى المدينة، وما رأيت يوماً كـان أقـبح ولا أظلـم مـن يـوم مات فيه رسول الله ﷺ)، وشتان بين بداية هذا اليوم وبين نهايته، فأول هذا اليوم صلى أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه صلاة الصبح بالناس، وكانت هذه الصـلاة هـي السـابعة عـشرة التـي يصليها أبو بكر بالناس في وجود الرسول ﷺ .

يقول أنس رضي الله عنه: (كان أبو بكر يصلي بنا في وجع النبي ﷺ الذي تـوفي فيـه، حتـى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة، كشف النبي ﷺ ستر حجـرة عائشـة رضي الله عنهـا ينظر إلينا، ونظر إلى الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ثم تبسم يضحك ﷺ) سعيد برؤيتهم وهم يصلون مجتمعين وراء أبي بكر الصديق رضي الله عنه. يقول أنس (فهممنـا أن نفتـتن مـن الفرح برؤية النبي ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبـي ﷺ يريـد أن يخرج إلى الصلاة، فأشار النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر).

لم يستطع ﷺ أن يصلي معهم، ولم يأت عليه في الدنيا صلاة أخرى ﷺ ، لما ارتفع الضحى مـن ذلك اليوم دعا ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها، ثم أسر في أذنها أمراً فبكت بكـاءً شـديداً رضي الله عنها وأرضاها، قال لهـا: (لا أرى الأجـل إلا قـد اقـترب فـاتقي الله واصـبري؛ فـإني نعـم السلف أنا لك، فلما رأى ﷺ بكاءها قال: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المـؤمنين، فضحكت رضي الله عنها وأرضاها)، وفي رواية: (أنه بشرها بأنها أول أهل بيته لحوقـاً بـه ﷺ)

لكن السيدة فاطمة رضي الله عنها كانت تشاهد الألم والمعاناة التي يشعر بها الحبيب ﷺ فدفعها ذلك إلى أن تقول: (وا كرب أباه) فقال ﷺ : (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)، وصدق ﷺ كيف يشعر بالكرب من رأى مقعده من الجنة وهو حي على وجه الأرض؟! فقد كان الرسول ﷺ يقول قبل أن يمرض: (إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير) أي: يخير بين الموت، وبين البقاء في الدنيا.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف) أي: نظر إلى السقف وكأنه يرى مقعده من الجنة، وكأنه يعرض عليه التخيير في هذه اللحظة، ثم قال: (اللهم الرفيق الأعلى) فاختار لقاء الله عز وجل، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (إذاً لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به وهو صحيح) أي: أنه ﷺ كان أخبرهم بالتخيير.

واقتربت اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ وهو يريد أن ينصح أمته حتى آخر أنفاسه ﷺ ، فكانت عامة وصية الرسول ﷺ حين حضره الموت: (الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، حتى جعل ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه). يوصي الرسول ﷺ يوصي بحاجتين في غاية الأهمية، الأولى: الصلاة، ثم كذلك يوصي بالرقيق والعبيد مما ملكت أيمانكم، ويجمع بينهما، لكي يؤكد على وجوب الإحسان إلى الرقيق.

يروي البخاري أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تقول: (إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي، وبين سحري ونحري) السحر هو الصدر أو الرئة، والنحر هو الرقبة. أي: كان الرسول ﷺ يسند رأسه على صدر ورقبة السيدة عائشة رضي الله عنها، ثم تكمل عائشة رضي الله عنها وتقول: (وإن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته) دخل عبد

الرحمن بن أبي بكر وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيته ينظـر إليـه، وعرفـت أنـه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: للرسـول ﷺ ، لم يستطيع من صلابة السواك الجاف أن يحركه بين أسنانه ﷺ فقالت السيدة ألينـه لـك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته. فأمره- وفي رواية-: أنه استن به كأحسن ما كان مستناً، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، يقول: لا إله إلا الله، إن للمـوت سكرات، إن للموت سكرات) حتى على رسول الله ﷺ ، وهو أحب الخلق إلى الله عـز وجـل: (إن للموت سكرات، ولما فرغ رسول ﷺ من السواك رفع يده أو إصـبعه وشـخص ببـصره نحو السقف، وتحركت شفتاه بكلمات يتمتم بهن بصوت منخفض، فأصغت إليه عائشـة رضي الله عنها وهو يقول: مع الذين أنعمت عليهم من النبيـين والصـديقين والشـهداء والصـالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهـم الرفيـق الأعـلى، اللهم الرفيق الأعلى، ثم مالت يده ولحق بالرفيق الأعلى) مات رسول الله ﷺ وإنا لله وإنا إليـه راجعون.

تفاقم الأحزان على الصحابة

أظلمت مدينة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله عليه السلام قد نورها يـوم دخلهـا، فتحولـت من يثرب إلى المدينة المنورة، والآن أظلمت نفس المدينة يوم مات الحبيب ﷺ ، وكان موته فتنـة حقيقة للأمة الإسلامية.

اضطرب المسلمون اضطراباً شديداً حتى ذهل بعضهم ولم يستطع التفكير، وقعـد بعضـهم ولم يستطع القيام، وسكت بعضهم ولم يستطع الكلام، وأنكر بعضهم ولم يستطع التصديق.

موقف عمر من خبر موته ﷺ

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح، فقام عمر رضي الله عنه وأرضاه، يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ) كان يعتقد تماماً بعدم موته، حتى إنه يقول في رواية أخرى: (والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك) أي: أنني كنت لا أعتقد إلا أنه لم يمت فعلاً، ثم قال عمر رضي الله عنه: (وليبعثنه الله عز وجل فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات)، ويقول في رواية: (إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات).

كان هذا موقف عمر رضي الله عنه وأرضاه، وما أدراك من هو عمر. يقول ﷺ وهو يتحدث عن أصحابه ويصف أصحابه قال: (وأشدهم في أمر الله عمر). هذه هو أثر المصيبة على أشد الصحابة في أمر الله عز وجل. انظروا إلى موقف عمر رضي الله عنه وأرضاه؛ لتعلموا عظم أثر المصيبة على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

موقف أبي بكر الصديق من خبر موته ﷺ

ظل المسلمون على هذه الحال يتمنون صدق كلام عمر رضي الله عنه، حتى جاء الصديق رضي الله عنه، ودخل مسرعاً إلى بيت الرسول ﷺ ، بيت ابنته عائشة رضي الله عنها، فوجد رسول الله ﷺ على فراشه قد غطوا وجهه، فكشف عن وجهه، فلما أدرك الحقيقة المرة أن رسول الله ﷺ قد مات، بكى الصديق رضي الله عنه وأرضاه بكاء مراً؛ لأن الرسول ﷺ كان بالنسبة لـ أبي بكر كل شيء، لم يكن رسولاً فقط بالنسبة له، لكن كان صاحباً وموطن سر، ومبشراً ومطمئناً، وزوجاً لابنته، ورئيساً لدولته، وهادياً لطريقه، كان كل شيء، ومع كل ذلك أنزل الله

عز وجل علي الصديق ثباتاً عجيباً، لو لم يكن له من المواقف في الإسلام إلا هذا الموقف لكان كافياً على عظمته رضي الله عنه وأرضاه.

فأكب الصديق رضي الله عنه وأرضاه على حبيبه ﷺ فقبله في جبهته، ثم قال وهو يضع يده على صدغي الرسول ﷺ : (وا نبياه، وا خليلاه، وا صفياه)، ثم تماسك قائلاً (بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله عز وجل الموتتين أبداً، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها)، ثم أسرع رضي الله عنه وأرضاه خارجاً إلى الناس، فوجد عمر يقول ما يقول، ويقسم على أن الرسول ﷺ ما مات، فقال: (أيها الحالف على رسلك)، وفي رواية قال: (اجلس يا عمر)، لكن عمر لم يكن يسمع شيئاً، فتركه أبو بكر الصديق رضي الله عنه واتجه إلى الناس، فأقبل الناس عليه وتركوا عمر، فخطب فيهم خطبته المشهورة الموفقة، التي تعتبر على قصرها من أهم الخطب في تاريخ البشرية. ثبّت الله عز وجل بها أمة كادت أن تضل، وأوشكت أن تفتن.قال رضي الله عنه وأرضاه في حزم بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

يُنبه الصديق بفقه عميق على حقيقة الأمر، ويضعه في حجمه الطبيعي، فبرغم عظم المصيبة إلا أنها لا يجب أبداً أن تخرج المسلمين عن شعورهم وعن حكمتهم وعن إيمانهم، فحقيقة الأمر أن رسول الله ﷺ بشر، وحقيقة الأمر أن البشر جميعاً يموتون، وحقيقة الأمر أننا ما عبدناه لحظة واحدة، ولكننا جميعاً عبدنا معه رب العالمين سبحانه وتعالى، والله حي لا يموت، لا داعي للاختلاط، ولا داعي للفتنة، ولا داعي للاضطراب، وما حدث أمر متوقع، وربنا حي لا يموت، وهو الذي سيجزينا على صبرنا ويعاقبنا على جزعنا.

ثم قرأ الصديق رضي الله عنه وأرضاه في توثيق عجيب آية من سورة آل عمران، تبصر المسلمين بالحقيقة كاملة، وتعرفهم تماماً بما يجب عليهم تجاه هذا الأمر. قرأ الصديق رضي الله

عنه: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:144].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله عز وجل أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها).

في هذه اللحظة أدرك الناس حقيقة أن رسول الله ﷺ قد مات. أخرجت هذه الآية الكريمة المسلمين من أوهام الأحلام إلى حقيقة الموت. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي-أي سقطت على الأرض- وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، وعلمت أن النبي ﷺ قد مات. عمر العملاق رضي الله عنه وأرضاه لم يتحمل المصيبة، فسقط مغشياً عليه، وارتفع البكاء في كل أنحاء المدينة. قال أبو ذؤيب الهذلي رضي الله عنه: (قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء، كضجيج الحجيج أهلوا جميعاً بالإحرام، فقلت: مه؟ ماذا حصل؟ فقالوا: قبض رسول الله ﷺ) .

أثرت المصيبة تأثيراً شديداً على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فكانت تقول: (مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، فوضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم) أي: أضرب صدري ووجهي مع النساء. مصيبة كبيرة أخرجت معظم الحكماء عن حكمتهم، لكن الحمد لله الذي من على هذه الأمة بـ الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فثبت الله عز وجل به الأمة بكاملها، وبدأت الأمة في أخذ خطوات عملية للخروج من الأزمة الهائلة.

ما بعد وفاة رسول الله ﷺ

كان أمام المسلمين أمران في غاية الأهمية، لا بد من حسمهما بسرعة، وهما:

من يلي أمور المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ؟ فهذه دولة كبرى الآن لا بد لها من زعامة، وبرغم فداحة المصاب إلا أن واقعية الصحابة حتمت عليهم أن يختاروا من بينهم من يحكمهم بعد رسول الله ﷺ. اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة وبعد مشاورات ومداولات اختاروا الصديق رضي الله عنه وأرضاه، ثاني اثنين، والصاحب الأول لرسول الله ﷺ ، وأعلم الصحابة وأتقى الصحابة وأفقه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وقد فصلنا كثيراً هذا الأمر عندما تكلمنا عن الصديق رضي الله عنه وأرضاه في مجموعة المحاضرات الخاصة به.

أما الأمر الثاني فهو قضية تغسيل وتكفين ودفن الرسول ﷺ ، فهي قضية حساسة جداً ومحيرة، ومن القضايا الأولى التي سيأخذ فيها الصحابة رضي الله عنهم قراراً في غياب الرسول ﷺ . هناك من الأحكام الفقهية ما قد يكون خاصاً به ﷺ ، وهناك ما قد يكون عاماً على عموم المسلمين.

أما الغسل لجسده الشريف فقد احتار الصحابة في أمره، قالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عز وجل عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ورأسه على صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يرون من هو: (أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه)، فقاموا إلى الرسول ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء من فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم. هذا حديث صحيح رواه أبو داود وأحمد وابن حبان والحاكم وابن ماجة والبيهقي .. وغيرهم.

قام بعملية الغسل مجموعة من الصحابة معظمهم من آل البيت. كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يغسله، وأسامة بن زيد وشُقران مولى الرسول ﷺ يصبان الماء، والعباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وولداه قُثَم والفضل يقلبونه، وأوس بن خولي الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه يسنده على صدره، ثم بعد ذلك كُفن ﷺ في ثلاثة أثواب يمانية من قطن، ليس فيها قميص ولا عمامة. كان هذا الغسل والتكفين في صباح يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأول، وكان الصحابة في هذا اليوم مشغولين بقضية الاستخلاف.

بعد الغسل والتكفين وضعوا الرسول ﷺ على فراشه، ثم بدءوا في الصلاة عليه، ودخل الناس أرسالاً؛ كانوا يدخلون عشرة عشرة، صلى عليه أولاً أهل البيت، أهل بيته ﷺ وعشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم بقية الرجال في المدينة، ثم دخلت النساء فصلت عليه، ثم بعد ذلك الصبيان، حتى صلى عليه جميع من بالمدينة من المؤمنين.

ثم كانت بعد ذلك قضية الدفن، واختلف الصحابة في مكان الدفن وفي كيفيته. أما مكان الدفن فقد قال بعضهم: يدفن في مسجده، وقال آخرون: يدفن مع أصحابه في البقيع فقال الصديق رضي الله عنه وأرضاه إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما قُبض نبي إلا دفن حيث يقبض) فقرروا أن يدفنوه ﷺ في المكان الذي مات فيه في حجرة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

أما في كيفية الدفن فقد اختلفوا أيضاً في الدفن هل يشق له في قبره أم يلحد؟ على أن يلحدوا له، فجاء أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه ورفع فراش الرسول ﷺ وحفر تحت الفراش اللحد الذي سيدفن فيه الرسول ﷺ ، وفي ليلة الأربعاء بدأ الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم في إنزال رسول الله ﷺ في قبره. نزل في قبره علي بن أبي طالب والفضل بن العباس

وقثم بن عباس ، وشقران مولى الرسول ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، وقيل: نزل معهم عبد الله بن عوف وقيل: أوس بن خولي .

بعد أن وضع ﷺ في قبره أهالوا عليه التراب، لتغلق أهم صفحة من صفحات التاريخ البشرية. لم يصدق الصحابة أنفسهم من كونهم يعيشون في الحياة بدون رسول الله ﷺ ، ومن كونهم يمشون على الأرض وهو يرقد تحتها ﷺ . يقول أنس بن مالك : (ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا). القلوب وكأنها ليست القلوب، كان الرسول ﷺ يمدها بنور وهدى وأمان وراحة واطمئنان.الآن فقلوبنا ليست هي القلوب التي كانت يوم كان ﷺ حياً بين أظهرنا.

تقول السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها، كما جاء في البخاري : (يا أنس ! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟). من المؤكد أن نفوسهم لم تطب بذلك، لكن ماذا يفعلون؟ قدر كتبه الله عز وجل على كل عباده، ولا راد لقضائه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لعل الشيء الوحيد الذي كان يصبر الصحابة على فراق الرسول ﷺ أنهم كانوا على موعد معه يوم القيامة، فقد كان ﷺ يقول قبل أن يموت: (موعدكم الحوض) والصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم لم يكن أملهم فقط اللقاء عند الحوض، ولكن كان أملهم مرافقة النبي ﷺ في الجنة، مع الفارق الهائل بين عمله ﷺ وبين أعمالهم، فقد جاء في البخاري ومسلم عن أنس بن مالك: (جاء رجل إلى الرسول ﷺ وسأله عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ فقال ﷺ : وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ : أنت مع من أحببت. يقول أنس : فما

فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ : أنت مع من أحببت، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم) .

كان الصحابة يعيشون على أمل اللقاء مع الحبيب ﷺ في الجنة، وهذا الذي دفعهم بعد ذلك لاستقبال الموت بنفس راضية، حتى رأينا بلالاً رضي الله عنه وهو على فراش الموت سعيداً فرحاً بأنه سيموت؛ لأنه سيقابل حبيبه ﷺ ، يقول بلال رضي الله عنه وأرضاه عند موته: غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه. هذا الذي أسعد فاطمة رضي الله عنها وأرضاها بنت الرسول ﷺ ، حتى ضحكت؛ لأنها أول من سيموت من آل الرسول ﷺ ، ولذلك ستراه قريباً بعد موتها. وهذا الذي جعل أنساً رضي الله عنه وأرضاه دائم التذكر لرسول الله ﷺ ، حتى إنه كان يقول: (قل ليلة تأتي علي إلا وأنا أرى فيها خليلي ﷺ).

خلاصة القول: أن الرسول ﷺ قد فارق بجسده الدنيا، إلا أن الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم كانوا يعيشون معه دائماً بأفكارهم وعواطفهم وفي مواقفهم المختلفة، بل وفي نومهم وأحلامهم، وهذا الذي صبرهم على فراق الحبيب، وإلا فمن يصبر على فراق رسول الله ﷺ .

ونسأل الله عز وجل كما آمنا برسولنا ﷺ ولم نره أن يحشرنا في زمرته، وأن يجمع بيننا وبينه على حوضه فيسقينا بيده الشريفة شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً، اللهم آمين.

46

خاتمة السيرة

لمن الصعب على النفس أن نتحدث عن خاتمة للسيرة، فإن أنفسنا قد تعلقت تعلقاً كبيراً بالحديث عن رسولنا ﷺ ؛ فحديثنا عنه كان أسعد حديث، وتدبرنا لسيرته كان أجمل تدبر، واستفادتنا كانت أقصى استفادة، لكن لا بد من تعليق ختامي على هذه السيرة العظيمة، وعزاؤنا أن هذا لن يكون -إن شاء الله- آخر حديثنا عن حبيبنا ﷺ ، بل ستتوالى بعد ذلك دراسات ودراسات تتناول جوانب شتى من حياته ﷺ .

إن سيرته كانت مثالاً يحتذى به في كل شيء، كانت مثالاً للفرد والجماعة، مثالاً واضح المعالم للمجتمعات الصغيرة والكبيرة لبناء الأمم، فقد استطاع ﷺ بالمنهج الرباني الذي أوحي إليه أن يبني أمة من لا شيء، وأن يجمع العرب والعجم على دين واحد ومبدأ واحد، وأن يقيم حضارة استحال على الزمان أن يجود بمثلها.

بُعث ﷺ في أمة مفرقة مشتتة، فشا فيها الظلم، وتعددت فيها صور الباطل، وكثرت فيها الآثام والشرور، وتمكن فيها المتكبرون والمتجبرون، فبدأ في أناة عجيبة وصبر رائع يغير الأوضاع، يُعدل من المسار، يقوم المعوج، يوضح الطريق، يكمل الأخلاق، ما ترك معروفاً إلا وأمر به، ولا منكراً إلا ونهى عنه. طريقه لم يكن سهلاً، بل كان مليئاً بالصعاب والأشواك، فقد

عارضه الكثيرون، وحاربه القريب والبعيد، حتى حاربته عشيرته وقاومه أهله، ومع هذا ما لانت له قناة، وما فترت له عزيمة ﷺ.

مر ﷺ في بنائه لأمته بمراحل محددة لا بد أن تمر بها كل أمة لكي تبنى، وكان له سنة ثابتة في كل مرحلة.

مرحلة الإعداد

المرحلة الأولى التي مر بها ﷺ اسميها: مرحلة الإعداد، هذه المرحلة بدأت منذ نزول الوحي، واستمرت حوالي خمس عشرة سنة من حياته ﷺ، وهي فترة بقائه في مكة وسنتين من المدينة المنورة إلى قبيل موقعة بدر. في هذه الفترة بدأ ﷺ بانتقاء الأفراد الصالحين لحمل الأمانة الثقيلة، ونجح ﷺ في تربيتهم وإعدادهم لهذه المهمة الضخمة؛ مهمة حمل الدين الإسلامي، ليس فقط إلى أهل مكة أو إلى العرب، بل إلى العالم أجمع.

كان بناءً صعباً شاقاً، كان بناءً للإنسان من جديد حرص فيه ﷺ على توجيه نيات وقلوب الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم إلى ربهم سبحانه وتعالى الواحد الأحد الذي بيده مقاليد السماوات والأرض. خلصت قلوبهم لله عز وجل، عظموا قدره، أحبوا جنته، خافوا من ناره؛ فتحركت كل ذرة في كيانهم له سبحانه وتعالى. أصبح منتهى آمالهم أن يعملوا له سبحانه وتعالى، وأن يرضى عنهم، وأن يقبل منهم، وأن يغفر لهم ويرحمهم، فلما أصبحوا على هذه الصورة هانت عليهم كل المصاعب، وهانت عليهم كل المشكلات. صغُرت في أعينهم جبابرة الأرض ومن ثم حملوا رسالة الإسلام العظيمة، وقاوموا بإصرار كل من حاول أن يثنيهم عن الوصول بهذه الرسالة إلى آفاق الأرض وإلى كل العالمين. بدون جيل كجيل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يستحيل بناء الأمة الإسلامية.

هذه كانت أول خطوة: إعداد الطائفة التي تحمل على أكتافها الأمـة الإسـلامية. لم يتركـه أهـل مكة يفعل هذا دون مقاومة أو صد، بل حاربوه هـو وأصـحابه ﷺ بكـل طريقـة. عـذبوهم، قهروهم، بطشوا بهم، وقتلوا منهم حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة مرة ثـم الثانيـة، ومع ذلك كان المؤمنون في ازدياد في العدد وازدياد في الإيمان. اضُطر المـشركون أن يحـصروهم في شعب أبي طالب ثلاث سنين كاملة فما ضعفوا وما استكانوا، وخرجوا من الشعب أشد قوة وأعظم بأساً.

مات نصيره من أعمامه أبو طالب، وماتت زوجته الوفية خديجة رضي الله عنهـا؛ فاشـتد إيـذاء قومه له أكثر من ذي قبل، حتى خرج إلى الطائف يبحث عن الـنصرة فـما وجـدها، بـل وجـد الصد والإعراض والتكذيب والشقاق وسوء الأخلاق. عاد مرة ثانية إلى مكة ﷺ يكلـم كـل صغير وكبير في الإسلام، يخاطب كل وافد على مكة في حج أو في غيره ليـشرح لـه رسـالة ربـه سبحانه وتعالى، فكذبته عامة القبائل ورفضوا دعوته بكل إصرار، حتى شاء الله عز وجل له أن يقابل ستة من الخزرج من أهل يثرب -المدينة المنورة- فآمنوا به وصـدقوه وعـادوا إلى قـومهم بالدين الجديد يدعون إلى الإسلام في المدينة المنورة، فآمن معهم آخرون وجـاءوا بعـد عـام إلى مكة ليبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى، ثم عادوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير فما تركوا بيتاً ولا شارعاً ولا حديقة ولا مجتمعـاً إلا وعرفـوه بالـدين، فانتشر الإسـلام في المدينـة انتشاراً مبهراً، وجاء منهم بعد عام آخر ثلاثة وسبعين من الرجـال وامرأتـان، جـاءوا ليبـايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية ليصبحوا بذلك أنصار الله ورسوله، وما هي إلا أشهر قليلة بعد تلك البيعة حتى ترك رسول الله ﷺ مكة بكفرها، وهاجر إلى المدينة المؤمنة التي صـارت بعـد ذلك معقل الإسلام، وصارت نواة الدولـة الإسـلامية الأولى، وهـاجر الصـحابة المكيـون إلى

المدينة مع رسولهم ﷺ ، وعرفوا بعد ذلك بالمهاجرين، واجتمع المهاجرون والأنصار بقيادة الرسول ﷺ على بناء الدولة الإسلامية كما ينبغي أن تبنى الدول.

بنى ﷺ دولته بشمول عجيب، بناها بتوازن لافت للنظر، استكمل كل جوانب دولته السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية وقبل ذلك العقائدية، وصارت دولته مضرباً للمثل لأي دولة في العالم في الرقي والحضارة والسمو والأخلاق، ومع صغر حجم دولته وقلة إمكاناتها المادية. لم يتركه أعداؤهم من المشركين من أهل قريش أو من الذين لم يؤمنوا من أهل المدينة، بل تعاونوا مع الأعراب ومع اليهود على حربه والكيد له ﷺ ، لكنه قاومهم بحكمة وحنكة لافتة للنظر، تارة بالمعاهدات، وتارة بالإعراض، وتارة بالسرايا، وظل في كل ذلك محافظاً على نهجه التربوي للمهاجرين والأنصار حتى أذن الله عز وجل للصدام الأول بين الكفر والإيمان، وبين أهل الحق وأهل الباطل.

أذن الله عز وجل أن يحدث هذا الصدام فدخل المسلمون بسببه في مرحلة جديدة. كانت غزوة بدر الكبرى أو يوم الفرقان، وحدث فيها ما لا يتخيله عامة البشر، فقد انتصرت الفئة القليلة المؤمنة على الكثرة المشركة، وتحقق وعد الله عز وجل، وارتفع شأن المسلمين في الجزيرة العربية، وسمع بهم كل العرب، وخضع مشركو المدينة ودخلوا في الإسلام إما اقتناعاً به وإما نفاقاً له، فظهرت بذلك طائفة المنافقين الخطيرة الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وصارت هذه الفئة أخطر الفئات على الأمة الإسلامية مطلقاً؛ لكونهم يدبرون ويكيدون للإسلام، بينما هم في الظاهر عكس ذلك تماماً، وكان لا بد من وسيلة للتفرقة بين المؤمن والمنافق، وبين الصادق والكاذب.

مرحلة وضوح الرؤية

بعد غزوة بدر دخل المسلمون في مرحلة جديدة هامة أسميها: مرحلة زمن وضوح الرؤية، وهي عبارة عن سلسلة مضنية من الأزمات والابتلاءات والمعارك، فقد وقعت غزوة بني قينقاع بعد أقل من شهر من غزوة بدر، وحدثت مفاصلة مع اليهود مع شدة احتياج المسلمين في ذلك الوقت لمال وسلاح اليهود، لكن المؤمن الصادق لم يكترث بهذا، بينما ظهر ولاء المنافقين لليهود، ثم كانت مصيبة أحد ومأساة بئر معونة وحادثة ماء الرجيع، فكان لهذه الأزمات المتتالية أبلغ الأثر في تمييز الصف.

هذه المصائب لم يخترها الرسول ﷺ ، بل هي السنة الإلهية في اختبار المجتمع المسلم، فيثبت الصادقون وينجحون، ويهتز المنافقون ويفشلون، ومع هذه الفترة العصيبة كانت الانتصارات التي تبشر المؤمنين، فقد كان الانتصار المهيب على بني قينقاع وعلى بني النضير وغير ذلك من بعض الانتصارات التي رأيناها في بعض السرايا والغزوات. حتى شاء الله عز وجل أن يحدث التمحيص الكبير والابتلاء العظيم، والتفرقة الواضحة بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الكاذبين، فكان اجتماع المشركين من قريش وغطفان وغيرهما على حرب المسلمين بمساعدة يهود خيبر بما عرف ذلك في السيرة بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق. هذه كانت واحدة من أشد الأزمات التي مرت بالأمة الإسلامية إن لم تكن أشدها على الإطلاق، وبفضل الله ثبت المسلمون وصبروا وتحملوا الجوع والخوف والبرد، وكتب الله لهم في النهاية النصر بعد أن كشفت لهم تماماً أوراق المنافقين.

علا نجم المؤمنين بعد هذه الغزوة، حتى قال ﷺ بعد رحيل الأحزاب كلمته المشهورة التي تعبر عن دخول مرحلة جديدة، قال: (الآن نغزوهم ولا يغزونا)، نحن نسير إليهم. ثم كتب الله عز وجل النصر للمسلمين في غزوة بني قريظة، وهي القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة بعد بني

قينقاع وبني النضير، وبذلك أمنت المدينة من شر يهود في الداخل، ولم يبق من اليهود إلا التجمع الكبير خارج المدينة وهو تجمع خيبر، وكان العام السادس الذي تلا غزوة الأحزاب عاماً عسكرياً بحتاً انتشرت فيه سرايا المسلمين هنا وهناك، ودانت لهم السيطرة على بقاع كثيرة في الجزيرة، وانتهى هذا العام بحدث جليل مهيب سماه رب العالمين سبحانه وتعالى فتحاً مبيناً، ألا وهو صلح الحديبية، والذي اعترفت فيه قريش وللمرة الأولى بدولة المسلمين، وازدادت هيبة المسلمين في الجزيرة بشكل واضح، وأعقب ذلك تحركات سياسية وعسكرية ودعوية من المسلمين على أعلى مستوى، وانتقل المسلمون من المحلية إلى العالمية، ومن الجزيرة العربية إلى كافة الممالك والإمبراطوريات المعاصرة في ذلك الوقت.

راسل ﷺ ملوك وأمراء العالم يدعوهم إلى الإسلام، وأعقب ذلك بانتصار جليل على اليهود في خيبر، ثم انتصار أجلّ على الرومان في مؤتة، وأسلم الكثير من عظماء وفرسان العرب حتى توجت الانتصارات الإسلامية بالفتح العظيم في العام الثامن من الهجرة، حيث فتحت مكة أحب بلاد الله عز وجل إلى الله ورسوله، وآمن أهل مكة بعد رحلة طويلة من الصد عن الإيمان.

وبعدها مباشرة انتصر المسلمون انتصاراً باهراً على قبيلتي هوازن وثقيف في موقعة حنين المشهورة بعد هزة وانكسارة أولى بهجوم ساحق وسيطرة كاملة على مجريات الأمور، وغنم المسلمون في هذه الغزوة ما لا يتخيلونه من الأموال والأنعام، وذاع صيت المسلمين في كل مكان، وجاءت الوفود من كل ناحية إلى المدينة المنورة تبايع على الإسلام، وأشرقت الأرض بنور ربها، وقرت عين الحبيب ﷺ برؤية الإسلام يدخل كل بيت، وبرؤية الناس يسعدون بإيمانهم وينقذون من النار.

تخلل هذا الإقبال على دين الإسلام دعوة جريئة من رسول الله ﷺ إلى جهاد الرومان في تبوك، وكان التجمع الإسلامي الرائع في ثلاثين ألف مقاتل مؤمن يقطعون الصحراء في ظروف صعبة قاسية دون تردد ولا وجل، فأنزل الله عز وجل عليهم نصره دون قتال، وفرت جحافل الرومان من جيوش الإيمان، وارتفعت راية الإسلام في كل ربوع الجزيرة، بل وفي أطرافها وما حولها.

ثم ختم رسول الله ﷺ حياته بحجة الوداع في العام العاشر من الهجرة بمظاهر إيمانية رائعة حضرها ما يزيد على مائة ألف مؤمن، فكانت هذه الحجة تتويجاً لجهود مضنية، ولتضحيات سخية، واطمأن ﷺ على اجتماع أمته وعلى فقهها وعلى دينها، وكمل الدين وتمت النعمة بنزول قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة:3] ومن ثم انتهت مهمة رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة وبناء الأمة، وحان وقت رحيله لينتقل بعد ذلك إلى حياة لا تعب فيها ولا نصب في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

حياة حافلةجداً يظل البشر إلى يوم القيامة ينهلون من خيرها، ويستفيدون من دروسها، ويتعلمون من مواقفها، ويستمتعون بأحداثها. إنها سيرة خير البشر، وسيد المرسلين، وإمام الدعاة، وخاتم النبيين، حبيب الرحمن، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع ﷺ.

السمات العامة للسيرة النبوية

بعد هذا العرض السريع لهذه السيرة العظيمة سيرة الحبيب ﷺ ، لا بد لنا من وقفة أو وقفات معها نستخرج منها بعض السمات العظيمة -لا كل السمات- التي تظهر في عموم البعث النبوي لا في موقف عابر وليس في حدث معين، سمات عامة تصاحب كل مواقف السيرة من أولها إلى آخرها، ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا بها جميعاً.

شخصية النبي ﷺ الباهرة العظيمة

أول سمة نلاحظها في السيرة النبوية هي الشخصية الباهرة لرسول الله ﷺ ، إنها فعلاً شخصية باهرة. هذه الشخصية ظلت محافظة على هذا الإبهار منذ الميلاد وإلى المات، وهذا أمر في منتهى العجب لا يفسر إلا بكون هذا الرجل ﷺ رسولاً من رب العالمين سبحانه وتعالى، معصوماً من الآثام والشرور، لا أثر للشيطان عليه من قريب ولا بعيد. لا سبيل إلى غوايته بصورة من الصور ﷺ ، هذه أعظم شخصية في تاريخ الخلق، ليس فقط في السابقين، ولكن أيضاً إلى يوم القيامة، وليس فقط في عموم البشر بل في الأنبياء والمرسلين.

رسول الله ﷺ مع أنه لم يكن رسولاً فقط، بل كان حاكماً وقائداً وزعيماً، ومع هذا عاش مع أصحابه وأتباعه كواحد منهم، ما تفضل عليهم بطعام ولا بشراب ولا بسكن ولا بمال، تحمل معهم الأذى في كل موضع، وجاع معهم كما يجوعون بل أكثر، وتعب معهم كما يتعبون بل أشد، وحوصر معهم وهاجر وقاتل، بل كان أقربهم للعدو. ما فر يوماً في حياته لا في أحد ولا في حنين ولا في غيرهما، لم يزده كثرة الأذى إلا صبراً، ولم يزده إسراف الجاهلين إلا حلماً، ما غضب لذاته قط ﷺ ، وما انتقم لنفسه أبداً، إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل فينتقم حينئذ لله.

كان كريماً واسع الكرم، جاءت له الدنيا راغمة فأنفقها كلها في سبيل الله، كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، مع كونه في ذلك الوقت كان يرأس دولة تشمل الجزيرة العربية بكاملها، لم يورث درهماً ولا ديناراً، ولا عرف عنه قط أنه خص نفسه بشيء دون أصحابه وأتباعه، كان كثير المخالطة لشعبه، لم ينعزل عنهم أبداً، كان يجالس الفقراء ويرحم المساكين وتسير به الأمة في شوارع المدينة لحاجتها أينما شاءت، وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز، ويخطب الجمع، ويعطي الدروس، ويزور أصحابه في بيوتهم ويزورونه في بيته ﷺ ، وهو في كل ذلك دائم الابتسام، منبسط الأسارير، متهلل الوجه ﷺ .

كان رحيماً بأمته تمام الرحمة، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، كان كثير العفو حتى عمن ظلمه وبالغ في ظلمه، كان واصلاً للرحم حتى لمن قطع رحمه وبالغ في القطع.

لم تكن عظمته ﷺ في معاملاته مع الناس أو في أخلاقه الكريمة فقط، ولكنه كان سياسياً بارعاً، وقائداً حكيماً، وخطيباً مفوهاً لا تفوت عليه صغيرة ولا كبيرة، أوتي جوامع الكلم، يتكلم بالكلمات القليلة فيمكث العلماء والحكماء الأعوام والقرون يستخرجون المعاني الهائلة منها، يحاور كأفضل ما تكون المحاورة، ويفاوض فما يتنازل أو يزل أو يظلم أو يغضب، يستعين بأصحابه ويشاورهم مع رجاحة عقله عنهم، وارتفاع منزلته فوقهم، ما يسفه رأياً ولا ينتقص أحداً، الحكمة ضالته أينما وجدها أخذها ما دامت في حدود الشرع.

كانت حياته كلها على هذه الصورة البهية النقية، حتى انبهر به أعداؤه قبل أصحابه، وحتى عظمه وبجله وقدره من سمع عنه ولم يره، بل الذين لم يعاصروه أصلاً، بل حتى من هم من غير المسلمين.

- يقول بسمارك زعيم ألمانيا المشهور في القرن التاسع عشر: (إني أدعي أن محمداً ﷺ قدوة ممتازة، وليس في الإمكان إيجاد قدوة كمحمد ثانياً) ﷺ .

- برناردشو الأديب البريطاني المشهور كان يقول: (لو كان محمد بن عبد الله – ﷺ – بيننا الآن لحل مشاكل العالم كلها وهو يشرب كوباً من القهوة).

- يقول لامارتين الشاعر الفرنسي المتميز: (من ذا الذي يجرؤ من الناحية البشرية على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟ – ﷺ – ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه عند النظر إلى جميع المقاييس التي تقاس بها عظمة الإنسان).

- يقول تولستوي الأديب الروسي المشهور: (أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد ﷺ الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء).

- يقول جوته الشاعر الألماني الشهير: (بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان فوجدته في النبي العربي محمد ﷺ) .

هذا هو رسولنا ﷺ ، تعرفنا في هذه السلسلة على طرف ضئيل جداً من شخصيته العظيمة، ولن نستطيع بأي حال من الأحوال أن نحيط بعظمته؛ لأن محاولة الإحاطة بعظمته تدخل فعلاً في باب المستحيل، هي هذه السمة الأولى البارزة من خلال دراسة السيرة النبوية.

عظمة جيل الصحابة

السمة الثانية في السيرة النبوية هي روعة وعظمة ورقي الجيل الذي عاصر رسول الله ﷺ من المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم. الصحابة هم خير البشر بعد الأنبياء، يقول ﷺ : (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) إلى آخر الحديث. اختار الله عز وجل

الصحابة لصحبة نبيه ﷺ تماماً كما اختار نبيه ﷺ ، والرسول ﷺ كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، فكان لا بد من وجود جيل صالح ورع حكيم دقيق لينقل بأمانة وبدقة ما قاله أو فعله أو أقره رسول الله ﷺ ، ظهر لنا منذ أول لحظات هذه السيرة وحتى خاتمتها أن هذا الجيل كان جيلاً أميناً مضحياً مجاهداً متجرداً لله عز وجل، حريصاً على كل خير، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، باذلاً الوسع كل الوسع لنصرة الله ورسوله ودين الإسلام.

رأينا في هذه المحاضرات مواقف مشرفة لا تحصى في كل المواقف، في مكة والمدينة، في بدر وأحد والأحزاب والحديبية ومكة وتبوك وغيرها وغيرها، وليس فقط في الغزوات أو المعارك ولكن في كل مواقف السيرة، وليس معنى هذا أنهم جيل بلا أخطاء أو أنهم معصومون من الزلل، ولكن كما يقولون: أخطاؤهم تذوب في بحار حسناتهم، كما أنهم بفضل الله كانوا سريعي التوبة من ذنوبهم، سريعي الأوبة إلى الله عز وجل، وفوق ذلك لم يتهم واحد منهم بالكذب أو الخيانة أو التضليل.

هؤلاء هم صحابة الرسول ﷺ ، والذين وصفهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: (كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

السنة مصدر أساسي للتشريع

السمة الثالثة السنة مصدر أساسي للتشريع: ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن السنة النبوية مصدر رئيس لا غنى عنه أبداً من مصادر التشريع في الإسلام. السنة التي أقصدها هنا هي منهجه ﷺ في الحياة، هي كل قول أو فعل صدر منه، كل تقرير أقره ﷺ ، ليس القرآن وحده هو المصدر

التشريعي الوحيد كما يدعي بعض المنكرين للسنة، بل رأينا بوضوح في السيرة النبوية من خلال هذه الدراسة: أن حياته ﷺ كانت تشريعاً كاملاً للأمة، كانت تفسيراً جلياً لآيات القرآن الكريم، كانت تفصيلاً لما أجمل في القرآن، كانت بسطاً لما اختصر في القرآن، بل كانت أحياناً مشرعة لأحكام لم تأت أصلاً في القرآن، رأينا ذلك في غزوة خيبر عندما حرم الرسول ﷺ الحمر الإنسية. رأينا بوضوح في السيرة النبوية أن قصة الرسول ﷺ لم تكن مجرد قصة لعابد يصلي ويصوم ويقوم ويقرأ القرآن، لكن حياته كانت تشريعاً كاملاً متكاملاً، قام فيها ﷺ بتوضيح موقف الشرع من كل قضية من قضايا الحياة.

هذا ما يجعلنا نقول وبصدق: إن الاستغناء عن السنة يعني الاستغناء عن الدين، والطعن في حجية السنة هو الطعن في الإسلام ذاته، ودراسة السيرة أكبر دليل على الموضوع.

شمولية الإسلام

السمة الرابعة: شمولية الإسلام. الإسلام ليس كما يعتقده الكثيرون صيام وصلاة؛ إذ ليس موطن تطبيق الإسلام المسجد فقط، ولكن الإسلام دين يحكم كل دقائق الحياة، كما يتضح من اسمه، فالإسلام هو إسلام كامل لله رب العالمين، ويظهر معنى الإسلام الذي نقصده في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام:162 - 163] العبادة والحياة والممات كلها لله عز وجل، وليس معنى هذا أن التشريع جمود يمنع من مواكبة تغيرات الزمان، لكن التشريع به مرونة كبيرة جداً تجعله صالحاً لكل ظرف، قابلاً للتطبيق في الجزيرة العربية وفي غيرها من بقاع العالم المختلفة، قابلاً للتطبيق في زمان الرسول ﷺ وفي الأزمان التي لحقته وفي زماننا وإلى يوم القيامة. واجه الرسول ﷺ ظروفاً متباينة تماماً في مراحل حياته المختلفة، ومع ذلك كان هناك قانون لكل فترة حسب الظروف والمتغيرات، وكان هذا القانون من الشمول بحيث إنه غطى كل جوانب

الحياة الإيمانية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية والعسكرية وغير ذلك من الجوانب، استوعب القانون الإسلامي معاملات الرسول ﷺ وأصحابه في فترة مكة، فترة الاضطهاد والتعذيب والتنكيل، كما أنه استوعب معاملات الرسول ﷺ وأصحابه في المدينة المنورة في كل مراحلها، سواء في فترة الإعداد، أو في فترة الصدام مع العدو، أو في فترة التمكين والعلو في الجزيرة، في فترة دعوة العالم، في كل هذه الفترات استوعب القانون الإسلامي كل المتغيرات والظروف.

ما يجعلنا نجزم بوضوح بشمول المنهج الإسلامي، وأنه منهج بلا ثغرات مطلقاً، وكيف يكون به ثغرات وهو منهج رب العالمين سبحانه وتعالى؟! كيف يصل المخلوق إلى ما هو أبدع وأروع مما صنعه الخالق؟! هذا مستحيل، هذا هو منهجنا منهج الإسلام، وكان هذا واضحاً تمام الوضوح في دراسة السيرة النبوية.

الوسطية في منهج النبي ﷺ

السمة الخامسة البارزة في السيرة النبوية هي: الوسطية في منهجه ﷺ : ولا بد أن نتحدث عن الوسطية بعد حديثنا عن الشمول؛ فالذي يدرس السيرة النبوية ويتجول بين صفحاتها يدرك تماماً أن رسول الله ﷺ تعامل مع قضايا حياته المختلفة بتوازن رائع، فليس معنى أنه كان يجد قرة عينه في الصلاة أن يهمل بيته، بل كان يأمر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم الذين يبالغون في العبادة إلى درجة إهمال شئون حياتهم الأخرى، يأمرهم أن يقللوا من العبادة، وأن يأخذوا من وقت الصلاة والصيام ويعطوا زوجاتهم وأولادهم. نعم كان يحب الإنفاق في سبيل الله ويحض عليه، لكنه ما كان يترك أصحابه ينفقون كل أموالهم في سبيل الله دون أن يتركوا شيئاً لأولادهم، بل أمرهم أن يتركوا ورثتهم أغنياء، ولم يقبل منهم ﷺ إنفاق المال كله

في سبيل إلا في ظروف معينة، ومن أفراد بأعيانهم كـ الصـديق رضي الله عنـه في قصـة الهجـرة وتبوك.

ليس معنى أنه كان يحب الموت في سبيل الله ﷺ حتى قال: (لوددت أن أقتـل في سـبيل الله ثـم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل) ليس معنى هذا أن يلقي بنفسه في المهالـك دون اكتراث أبداً، بل رأيناه ﷺ يلبس درعين من حديد، ويضع الخطة المناسـبة للمعركـة، ويرسـل العيون، ويأخذ بجوانب الحيطة والحذر، ويؤمن ظهره، ويحمي جيوشه وشعبه، هكذا رأيناه في دروس السيرة النبوية ﷺ .

حياة متوازنة راقية لا إفراط ولا تفريط، لا تشدد وتطرف، وكـذلك لا تسـيب وتنـازل، حيـاة متوازنة عبر عنها ربنا سبحانه وتعالى بقوله وهو يصف هذه الأمة العظيمة: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:143].

البعد الأخلاقي للتشريعات الإسلامية

السمة السادسة، وقد رأيناهـا واضـحة في السـيرة النبويـة: البعـد الأخلاقـي العظـيم في كـل التشريعات الإسلامية، قال الرسول ﷺ فيما رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه وهو يصف بعثته ﷺ ، ويقصرها ﷺ على إتمام مكـارم الأخـلاق، يقـول: (إنـما بعثـت لأتمـم مكارم الأخلاق). عند النظر إلى كل شعائر الإسلام تجد أنها في المقام الأول تسـمو بـالأخلاق، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، الصوم ينهى عن قول الزور والشقاق والعراك والتشاحن، الصدقة تطهر النفس وتوطد العلاقات الطيبة في المجتمع، وهكذا في كل التشريعات.

في أحداث السيرة النبوية رأينا أن الرسول ﷺ كان حريصاً على هذا الجانب الأخلاقي في كـل مواقفه وفي كل معاملاته ﷺ . يكفي فقط أن نذكر مجالين يتعجـب الكثـير في زماننـا الآن مـن

ارتباط الأخلاق بها: أما المجال الأول فهو المجال السياسي، أَلِف الناس في زماننا الآن وقبل ذلك تصوير السياسة على أنها خبث وكيد وخيانة وغدر ونفاق وعنف، لكن الرسول ﷺ أثبت لنا عكس ذلك تماماً، رأيناه في مكة وفي المدينة يحاور ويفاوض، ولكنه ما كذب ولا غدر ولا خان ﷺ. بل إنه لم تخرج منه كلمة سوء واحدة يندم عليها ﷺ ، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً حتى مع أعتى الأعداء، بل كان واسع الصدر ﷺ ، كان مبتسماً هادئاً حيياً، كان خلوقاً ﷺ في سياسته الداخلية مع شعبه وحكومته وأعوانه وأنصاره بل ومع معارضيه، بل حتى المنافقين معلومي النفاق بالوحي كان يحسن صحبتهم ويعفو عن سبابهم أو قطيعتهم ﷺ . كان خلوقاً كذلك في سياسته الخارجية مع رسل وأمراء وملوك العالم حتى من حاربه منهم فإنه لم يخرج أبداً عن حدود اللياقة والأدب وحسن الخلق ﷺ ، وراجع -إذا أحببت- محاوراته ﷺ مع كفار مكة أمثال عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة ووفود قريش المتتالية.

أيضاً انظر إلى مباحثاته ﷺ مع بني عامر وبني شيبان وغيرهما، وراجع بيعتي العقبة الأولى والثانية، راجع المعاهدات والمحاورات مع اليهود ومع مشركي المدينة، راجع صلح الحديبية، راجع استقباله ﷺ للوفود المختلفة على مدار السنوات المتعاقبة، راجع الرسائل إلى ملوك العالم، والخطب السياسية والمكاتبات إلى العمال والأمراء. لا نبالغ إذا قلنا (إن علينا أن نراجع حياته بكاملها لأنه ما خلت لحظة من لحظات حياته، ولا مرحلة من المراحل التي مر بها في سياسته من أخلاق رفيعة وخلال حميدة في كل المواقف). هذه كانت أخلاقه في الجانب السياسي من حياته ﷺ ، والكلام يستغربه سياسيو العصر الحديث ومحللو العالم ومفكروه، لكن هذا واقع رأيناه في السيرة النبوية.

المجال الآخر وهو صعب أن تجد زعيماً من زعماء العالم إلا من رحم الله عز وجل أن يفلح في التحلي بالأخلاق في الجانب العسكري والواقع أن الضوابط الأخلاقية التي وضعها ﷺ في

حروبه من المستحيل فعلاً الإلمام بها في هذه العجالة، فهي تحتاج إلى بحث مفصل ودراسة متأنية، ويكفي أن نذكر أنه كان دائماً يجعل الحروب آخر الحلول، لم يكن أبداً -كما يشاع عنه في بعض الكتابات أو الرسوم- متعطشاً للدماء كما نرى الكثير الآن من قادة وعسكري العالم. لكن كان كثير العفو ﷺ عن عدوه في حالة تسليم العدو ورضوخه، وراجعوا فتح مكة، راجعوا موقعة حنين وغيرهما، وكان يحرم ﷺ الخيانة في الحرب، أو نقض العهود، أو الهجوم دون إنذار، وكان يُحرم قتل النساء والأطفال وكبار السن ورجال الدين غير المحاربين، وكان يكرم الأسرى ويوصي بهم، وكان يحرم قطع النخيل والأشجار إلا بضرورة عسكرية، وكان لا يهدم الديار ولا يُخرب الأراضي ﷺ ، كان لا يعيث في الأرض فساداً بما اعتدنا أن نراه في الحروب غير الإسلامية سواء في القديم أو الحديث. دعوة الإسلام دعوة أخلاق في المقام الأول، والذي يدرس أحداث السيرة سيجد أن هذه السمة بارزة لا تخفى على أي محلل، ولن يجهلها أي منصف، وصدق الله عز وجل عندما وصف حبيبنا ﷺ بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4]. هذه هي السمة السادسة من السمات البارزة في السيرة النبوية.

أبدية الحرب والصراع بين الكفر والإيمان في الحياة

السمة السابعة: أن الحرب بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر حرب أبدية يستحيل أن تخلو منها فترة من فترات الحياة، فالحق من وظيفته أن يقاوم الباطل، وكذلك الباطل لن يرضى أبداً أن يبقى الحق في الأرض دون مقاومة، والرسول ﷺ كان يدرك ذلك جيداً، وكان يجاهد الكفار بطرق مختلفة حسب المرحلة، فأحياناً يجاهد باللسان والقرآن، وأحياناً بالسلاح والسنان، قد تختلف الوسيلة ولكنه في كل الأحوال يجاهد ﷺ ، أحياناً يختلف العدو حسب المرحلة، لكن دائماً هناك عدو، تارة يكون الأعداء من قريش، وتارة من مشركي المدينة، وتارة من المنافقين، وتارة من الأعراب، وتارة من اليهود، وتارة من النصارى، وتارة من المجوس،

يتنوع أعداء الأمة حسب المكان والزمان، لكن يغلب على صفة كل الحروب أنها حرب عقائدية تدور في محورها الرئيس حول قضية الدين، يدخل فيها أحياناً عوامل أخرى مثل الاقتصاد أو بعض الأمور الاجتماعية أو حب السلطة، لكن يظل العامل الرئيسي في المعركة هو الدين. في هذا المعنى قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [البقرة:217]، وهذا أمر رأيناه في كل مراحل السير، طالما أن المسلمين مستمسكون بدينهم ستظل الحرب دائرة بينهم وبين أعدائهم.

الرسول ﷺ كان يعلم أن هذا الصراع ليس صراعاً شخصياً معه ﷺ ، إنما هو صراع عقائدي سيستمر مع أصحابه وأتباعه إلى يوم القيامة، لذا كان من آخر وصاياه ﷺ إنفاذ بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى حرب الرومان، وأوصى بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وجعل الجهاد ﷺ ذروة سنام الإسلام، ولن يأتي زمان أبداً على الأرض يختفي فيه الشر وينتهي الباطل، أو يرضى فيه أهل الباطل عن أهل الحق فتكون حالة من الحوار فقط دون قتال، والسلام فقط دون حرب، وقد وعد الله عز وجل الشيطان بالبقاء إلى يوم يبعثون، وسيظل للشيطان محاولات ومحاولات لإضلال الخلق، ولن يقبل المؤمن الصادق بهذا الإفساد في الأرض، وستبقى أيضاً محاولات الإصلاح مستمرة إلى يوم القيامة، ومن ثم فالجهاد ماض إلى يوم القيامة.

هذا ما رأيناه في السيرة ورأيناه بعد ذلك بعد أحداث السيرة، ونراه في زماننا هذا، وسيبقى إلى يوم القيامة، سنة من سنن رب العالمين: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:40].

بث الأمل في المسلمين

السمة الثامنة من السمات البارزة في السيرة النبوية هي سمة الأمل الذي كان يبثه ﷺ في المسلمين في كل المواقف وبلا استثناء. المؤمن لا يقنط أبداً من رحمة الله عز وجل، ولا يقنط أبداً من فضله وكرمه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر:56].

لذا فإن المؤمن مع رؤيته للظروف القاسية التي تمر بها الأمة الإسلامية لا يتأثر مطلقاً بذلك، ويعلم دائماً أن ميزان القوى في صالحه ما دام الله عز وجل معه، من هذا المنطلق يمكننا فهم الروح المتفائلة التي كان يتصف بها المجتمع المسلم في كل مراحل السيرة النبوية حتى في أشد هذه المراحل ظلاماً. رأينا ذلك في كل سنوات مكة الصعبة، بل رأينا الرسول ﷺ يبشر سراقة بن مالك بسواري كسرى وهو مطارد في هجرته من مكة إلى المدينة، ورأيناه يبشر بنصر المسلمين في بدر مع كون المشركين ثلاثة أضعاف المسلمين، ورأيناه يطمئن المسلمين بعد مصيبة أحد أن الدولة الأخيرة ستكون للمؤمنين، ورأيناه يبشر المؤمنين ليس بفك الحصار عن المدينة أيام الأحزاب فقط، ولكن أيضاً بفتح فارس والشام واليمن، منهج حياة كامل رأيناه بارزاً في السيرة النبوية في كل المراحل. لم يكن هذا التبشير فقط في المواطن الصعبة أو في مواقف الأزمات، بل كان سياسة عامة انتهجها ﷺ في كل أحاديثه وخطبه وحواراته وتعليقاته ﷺ.

يقول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عن ثوبان رضي الله عنه وأرضاه: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُويَ لي منها)، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة مما يجعل هذه البشرى وهذا الأمل منهجاً واضحاً من مناهج رسول الله ﷺ في بناء أمته.

سعادة المسلمين بالمنهج الإسلامي

السمة التاسعة من السمات البارزة في حياته ﷺ هي سعادة المسلمين بمنهجهم الإسلامي حتى في أشد حالات التعب والمعاناة. لعلنا نفسر سبب السعادة بعد بدر والأحزاب وفتح مكة وغير ذلك من الانتصارات والإنجازات، لكن قد يتساءل أحد ممن يدرسون السيرة فيقول: هل هناك سعادة في تعذيب أهل مكة للمؤمنين؟ هل هناك سعادة في مصيبة أحد؟ هل هناك سعادة في أزمة حنين؟

الحق: أنه ليس هناك فترة من فترات السيرة النبوية إلا وتلحظ فيها لوناً من ألوان السعادة، حتى ولو كان الظاهر حزناً وألماً؛ فالمسلم الصادق يعاني ويتألم وهو يعلم أن العاقبة للمتقين، وأنه سيأتي يوم يمكن الله عز وجل فيه للإسلام ويعز فيه الدين، وهذا الأمل يبعث في نفسه الراحة والسعادة والاطمئنان، إضافة إلى سعادة المؤمن بعدم خصامه مع الكون والأرض والمخلوقات، فالكل يعبد الله عز وجل في تناسق جميل، وانسجام طبيعي. أما الكافر فهو يعيش في تناقض مع نفسه ومع الكون، الكون كله يشهد بكل ذرة فيه بعظمة الخالق ووحدانيته وحكمته، والكافر لا يقر بذلك، فأي تعاسة تكون في نفسه؟ وأي سعادة يعيش فيها المؤمن بتوافقه مع الكون في عبادة رب العالمين سبحانه وتعالى؟! المسلم فوق ذلك ينتظر جنة في الآخرة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويعلم يقيناً أنه سيعوض يوم القيامة عن كل ظلم وقع عليه، وعن كل ألم تحمله، وعن كل هم أو غم عاش فيه، هذا التعويض المنتظر يخفف عليه كثيراً من ألمه ونصبه، حتى رأينا من يفقد حياته، ومع ذلك يقول كلمات تعبر عن منتهى السعادة، مثل حرام بن ملحان رضي الله عنه وأرضاه وهو يطعن بالحربة في ظهره فتخرج من صدره وهو يقول: (فزت ورب الكعبة، فزت ورب الكعبة). سبحان الله! هذه أيضاً سعادة. أمثلة ذلك كثيرة في السيرة النبوية، ولعلنا لا نبالغ إن

قلنا: إن في باطن كل ألم سعادة؛ لأن المسلم يستشعر وقت وقوع الألم أنه قد كفر عنه جانب من خطاياه، ورفع قدره بدرجة معينة في الجنة، فانتظار المؤمن للجنة وحب المؤمن للجنة يجعله يقبل الألم، بل ويرضى به، وهذا نوع من أنواع السعادة لا تجده إلا عند المؤمنين حقيقة.

كانت هذه السمة التاسعة من سمات السيرة النبوية: السعادة في كل مواقف السيرة حتى وإن كانت مواقف مؤلمة.

وضوح مهمة البلاغ في الدعوة

السمة العاشرة والأخيرة هي وضوح مهمة الرسول ﷺ ، ومن ثم مهمة الداعية من بعده، هذه المهمة كانت من أول يوم في البعثة إلى آخر يوم في حياته ﷺ واضحة تماماً، ألا وهي البلاغ، يقول ربنا سبحانه وتعالى: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ} [المائدة:99].

الرسول ﷺ كان يعلم ما يريد من أول أيام الدعوة، وحرص الرسول ﷺ على تبليغ كل من يعرف ومن لا يعرف. اختلفت وسائل البلاغ في كل مرحلة، لكن البلاغ كان سمة عامة في كل مراحل السيرة، في أول أيام الدعوة كان البلاغ سراً وعن طريق الانتقال، واستمر ذلك ثلاث سنوات كاملة، ثم أعلن الرسول ﷺ الأمر على الناس، وبلغ أهل مكة جميعاً، وناداهم قبيلة قبيلة ورهطاً رهطاً، وصدوه عن دعوته وقاوموه، لكنه ما قصر ﷺ في البلاغ أبداً، بل كان يذهب إليهم في اجتماعاتهم وبيوتهم، وكان لا يترك زائراً يدخل مكة إلا وحدثه عن الإسلام وبلغه إياه، وكان لا يترك وفداً ولا فرداً أتى للحج إلا وشرح له الرسالة الإسلامية وبشره وأنذره، وكان يجد إعراضاً كثيراً وسخرية مرة، ومع ذلك ما توانى لحظة عن إيصال رسالته للناس ﷺ . في فترة المدينة المنورة اجتهد في نشر دعوته وتبليغ الناس، ليس فقط في المدينة ولكن في كل أرجاء الجزيرة، ووصل الأمر في السنة السابعة من الهجرة إلى مكاتبة زعماء

وملوك العالم لتبليغهم دعوة الإسلام، كانت المهمة واضحة تمام الوضوح في ذهنه ﷺ، إنه البلاغ مهمة الرسل، ومهمة أتباعهم الذين يسيرون في طريقهم.

الرسول ﷺ كان متفانياً في أداء هذه المهمة النبيلة إلى درجة أنه كان يحزن حزناً شديداً يكاد يهلكه عندما لا يهتدي إنسان بكلمات القرآن، مع أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ فقط وليست الهداية، إلى الدرجة التي رفق الله عز وجل به وأنزل آيات في مواطن عدة من القرآن الكريم تنهاه عن الحزن الشديد، قال تعالى: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل:127] وأمثال ذلك كثير في القرآن الكريم. على المسلم الفاهم الواعي أن يلتقط هذه المهمة النبيلة ليجعلها مهمة حياته، لا يرضى أبداً بأقل منها رسالة، لا يرضى أبداً بأبسط منها قضية، هذه هي قضية المسلم في حياته بكاملها، وهذا ما فهمناه بوضوح من خلال السيرة النبوية.

كانت هذه السمة العاشرة من السمات البارزة في السيرة النبوية، فتلك عشرة كاملة.

سمات أخرى في السيرة النبوية

هل هذا كل شيء أردنا أن نذكره عن رسولنا ﷺ؟ لا، فالبعض يتعجب من الحديث عن السيرة النبوية في ست وأربعين محاضرة متتالية (1200 صفحة في الصورة المقروءة)، شملت الفترة المكية والمدنية، ويظن أن هذا يعتبر كثيراً، ولكني أقول: إن هذه بداية وليست نهاية؛ لأن السيرة النبوية فيها جوانب هائلة من المستحيل أن نحيط بها في مئات المحاضرات، ونحن أتينا على بعض الجوانب في هذه السيرة النبوية من حياته ﷺ فقط.

هناك جوانب أخرى كثيرة من جوانب عظمته ﷺ تحتاج إلى تفريغ وقت، وإلى بذل جهد لكي تُدْرَس وتفهم؛ لذا سنحاول إعداد بعض المحاضرات الخاصة بحبيبنا ﷺ ، فعلى سبيل المثال: سنتكلم عن الرسول ﷺ وأخطاء المؤمنين، وعن الرسول ﷺ والدولة الشاملة، والرسول ﷺ وحل مشكلات العالم، والرسول ﷺ وفقه المعاملات، وأخلاق الرسول ﷺ ، والجانب الأخلاقي في التشريعات الإسلامية المختلفة، والرسول ﷺ وفن امتلاك القلوب، والرسولﷺ وما تميز به عن عموم المسلمين، وخصائص حياة الرسول ﷺ ، ومعجزات الرسول ﷺ سواء كانت القرآن الكريم أو المعجزات الحسية التي رآها معاصروه، أو الإنباء بالغيب، أو الإسراء والمعراج، إلى أشياء كثيرة جداً نحتاج أن نفصل فيها في حياة حبيبنا ﷺ .

بالإضافة إلى جوانب كثيرة متعلقة بخصائص حياته ﷺ ، مثل فن الإدارة، فن القيادة، فن التغيير، فن الخطابة، فن تربية الأطفال، وغير ذلك من فنون مبدعة تحتاج إلى تفصيل ودراسة وتعمق. هذه بعض البحوث التي سنعملها إن شاء الله في الفترات القادمة، وهي مجرد فصول من سفر ضخم كبير يستحيل إتمامه أبداً، وسيظل الدعاة والعلماء ينهلون من هذا النبع الصافي إلى يوم القيامة.

واجباتنا تجاه نبينا ﷺ

هناك وقفة مهمة بعد دراسة هذه السيرة الرائعة: لا بد أن يظهر علينا في سلوكنا وحياتنا -بل وفي اعتقادنا- أثر لهذه الدراسة، لا بد أن هناك أمانة علقت في رقابنا، لا بد أن هناك واجباً حمل علينا.

في إيجاز شديد: يجب على كل مؤمن ومؤمنة بعد قراءة هذه السيرة أن يقوم بالأمور التالية، وهي واجبات في غاية الأهمية:

أولاً: أن يحب رسول الله ﷺ .

فهذه قضية مصيرية فعلاً، وهي علامة من علامات اكتمال الإيمان، فالرسول ﷺ يقول في الحديث الشريف كما في البخاري عن أنس رضي الله عنه: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين). الذي يقرأ السيرة ولا يحب رسول الله ﷺ إنسان مجنون لا عقل له، أو منافق لا إيمان في قلبه، أو عاصٍ غمرت المعاصي قلبه، أو متكبر ينكر الحق وهو يستيقنه، كل مواقف السيرة بلا استثناء تدفع دفعاً إلى حب الرسول ﷺ ، بل وإلى تقديم حبه على أي حب آخر، وهذا من أهم أهداف دراسة السيرة النبوية.

ثانياً: أن تعرفه ﷺ بأن تدرس تفاصيل سيرته بصورة أكبر؛

فنحن تكلمنا في ست وأربعين محاضرة عن لقطات سريعة من حياته ﷺ ، وما أكثر ما كتب عنه وما سيكتب، وسيرته لا تنتهي عجائبها ﷺ ، ما أكثر من تكلم عنه ﷺ من الدعاة والعلماء ومن المسلمين ومن غير المسلمين، نحتاج أن نجعل لأنفسنا يومياً ورداً ثابتاً نعرف فيه شيئاً عن حبيبنا ﷺ ، هذا الواجب الثاني: أن نعرفه ﷺ .

ثالثاً: أن نُعرِّف به الآخرين ممن لا يعرفونه؛

أو يعرفونه بصورة مشوهة مغايرة للحقيقة، وأن نحبب فيه خلق الله عز وجل، وأكثر من أوصيك بهم أولادك وأطفال المسلمين، فهؤلاء إن تربوا على حب رسول الله ﷺ وصلوا إلى كل نجاح في الدنيا والآخرة، ووصلت بهم الأمة إلى أعلى الدرجات.

رابعاً: أن تتبعه وتقلده ﷺ في كل صغيرة وكبيرة في حياتك؛

فنحن استمعنا إلى السيرة، وعرفنا منهجه ﷺ ، واطلعنا على سلوكه وأخلاقه، وأدركنا جهاده وصبره وكفاحه، نريد أن نسقط كل موقف من مواقفه ﷺ على واقع حياتنا، نريد أن نطبق كل سنة من سننه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. اعلم أن علامة الحب الرئيسة هي الاتباع، وأن حباً بلا اتباع يعني غروراً وبطراً وجهلاً وحماقة.

خامساً: أن تصدقه في كل ما قاله أو أخبر عنه ﷺ .

اقبل كل ما قاله ﷺ دون تردد، صدق أحاديثه دون ريب، اعلم أنك قد تُفتن بعقلك فترد حديثاً صحيحاً لرسول الله ﷺ ، وهذا هو طريق الهاوية، ومنحدر الهلاك فلا تلقين أبداً بنفسك فيه.

سادساً: أن تدافع عنه الحملات الشرسة التي تحاول النيل منه ﷺ ، وهي حملات لا تنتهي.

رأينا في السيرة النبوية الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً يدافعون بالغالي والثمين عن رسول الله ﷺ ، رأينا الرجل يتمنى أن يقتل ولا يشاك رسول الله ﷺ شوكة في قدمه. رأينا الأطفال يقاتلون الفرسان، والنساء يحملن السيوف، ورأينا الأموال تُنفق، والجهود تبذل حتى يتم الدفاع عن رسول الله ﷺ ، هذا هو المنهج الذي نريد أن نسير عليه في حياتنا كلها: أن ندافع عن الرسول ﷺ بكل ذرة في حياتنا، بكل أموالنا، بكل جهدنا، بكل فكرنا، بكل حياتنا.

سابعاً: أن نشتاق إليه ﷺ .

والذي هو مشتاق فعلاً لإنسان يتمنى أن يقابله، وهذا في الدنيا يكون في عمرة أو حج إن كنا مستطيعين لذلك نذهب ونزوره في مسجده ﷺ ونسلم عليه في قبره، وسيرد عليك السلام

حتماً كما قال ﷺ في الحديث الشريف، لكن الأهم من ذلك والأعظم: أن نشتاق إلى لقائه عند حوضه ﷺ يوم القيامة، ولا يكون ذلك إلا بإيمان عميق، وبعمل صالح، وباتباع دقيق لسنته ﷺ ، وإلا قال لنا يوم القيامة: سحقاً، سحقاً، ونسأل الله عز وجل أن يسقينا من حوضه شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً.

ثامناً: أن تحب آل بيته ﷺ .

هذا أمر هام جداً وعظيم، وللأسف فالكثير من المسلمين لا يظهر ذلك خوفاً من التشبه بمغالاة الشيعة في أمر أهل البيت، لكن الصواب أن يقف المسلم موقف الاعتدال الذي أراده لنا رسول الله ﷺ ، فهو قد أوصى بآل بيته وبحبهم، وفي نفس الوقت ربط هذه المحبة بطاعتهم لله عز وجل وعدم مخالفتهم له، هذا هو الميزان الأمثل في التعامل.

يقول الرسول ﷺ في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه في صحيح مسلم : (أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي) قالها ثلاثاً ﷺ ، كل هذا لا يتعارض مع وجوب اتباع الرجل أو المرأة من آل البيت للمنهج الإسلامي القويم حتى تقدم محبته، وترفع درجته بدليل قول رسول الله ﷺ في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: (وايم الله! لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها)، وحاشاها أن ترتكب منكراً، ولكن ذكر ذلك ﷺ ليضع ميزان التعامل مع آل البيت جميعاً. يجب أن نحرص جميعاً على حب آل بيت رسول الله ﷺ ما داموا متبعين لمنهجه ﷺ .

تاسعاً: حب صحابته ﷺ ؛

هذا من واجبات المسلم، وخاصة بعد سماعه لدروس السيرة هذه ورؤيته لقدر البذل والتضحية والتجرد والإخلاص الذي تميز به هذا الجيل الراقي من البشر. أوصانا ﷺ أن

نحبهم، وأن نتقي الله عز وجل فيهم، جاء ذلك في رواية الترمذي عن عبد الله بن مُغفـل رضي الله عنه عندما قال ﷺ : (الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحـبهم فبَحُبِّـي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقـد آذى الله، ومـن آذى الله يوشك أن يأخذه) وهذا الحديث قال فيه الترمذي : هذا حديث حسن. وكـذلك رواه الإمام أحمد رحمه الله. هذا تصريح مباشر من رسول الله ﷺ أن حب صـحابته رضي الله عـنهم من حبه ﷺ ، فنسأل الله عز وجل أن يجمعنا وإياهم في الفردوس الأعلى مع حبيبنا ﷺ .

عاشراً: أن ندعو له ﷺ ؛

والبعض قد يستغرب أن نطلب من المؤمنين أن يـدعوا لرسـول الله ﷺ بحجـة أنـه لا يحتـاج لدعائنا ﷺ ، وأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه في المكانة الرفيعـة التـي كتـب الله له، نعم الرسول ﷺ في هذه المكانة الرفيعة لا نشك في ذلك، ولكننا يجب أن نواظب دائماً عـلى الدعاء له ﷺ عرفاناً ووفاءً وبراً وإعترافاً بجهده ﷺ ، المسـلم يجـب أن يواظـب عـلى الـدعاء للرسول ﷺ بأن يجازيه الله عنا وعن كل المسلمين خير الجزاء.

الرسول ﷺ نفسه سألنا سؤالاً مباشراً أن ندعو له، روى مسـلم عـن عبـد الله بـن عمـرو بـن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثـل مـا يقـول، ثـم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عــشراً، ثـم سـلوا الله لي الوسـيلة؛ فإنهـا منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنـا هـو، فمـن سـأل لي الوسـيلة حلت له الشفاعة)، فالرسول ﷺ طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة، ونحن نسأل الله عز وجل له ذلك، وهذا يعود علينا نحن بالنفع، لأن الرسول ﷺ قال: (من صلى عـلي صـلاة صـلى الله عليه بها عشراً) فنحن نستفيد أيضاً من دعائنا لحبيبنا ﷺ .

لا شك أن الأمر يحتاج إلى تفصيل، وإن شاء الله سيكون في بحث مفصل نتكلم فيه على الوسائل المعينة على حبه ﷺ، وعلامات هذا الحب، وثمار هذا الحب.

اعتذار

في النهاية بعد أن عشنا هذه اللحظات السعيدة في ظلال السيرة النبوية أحب أن أختم هذه اللحظات برسالة أوجهها بكل ذرة في كياني إلى حبيبي وحبيبنا رسول الله ﷺ، أقول له:

-عذراً يا رسول الله، عذراً إن كنا نجهل الكثير والكثير عن حياتك وسيرتك فالإحاطة بها أمر مستحيل، لكن عزاؤنا أننا نحاول ونحاول ونقرأ ونبحث ونجمع ونحفظ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

- عذراً -يا رسول الله- إن كنا قد قصرنا في الكثير من سننك، فليس هذا -أبداً- تقليلاً من شأنها أو إهمالاً لقدرها، فإنا -والله- نعلم أن الخير كل الخير فيها، وأن الرحمة كل الرحمة في باطنها، ونعدك أن نأتي منها ما استطعنا كما أمرتنا، وأن ندرب أنفسنا وأزواجنا وأولادنا وإخواننا وكل أهلنا ومن وصلنا إليه من أتباعك وأحبابك، ندرب كل هؤلاء على تطبيقها واتباعها والتحلي بها.

-عذراً -يا رسول الله- إن كانت تمر علينا أيامٌ فلا نذكر طرفاً من سيرتك، ولا موقفاً من مواقفك، ولا حديثاً من أحاديثك، فإنا -ولا حول ولا قوة إلا بالله- قد شغلتنا أموالنا وأهلونا عن تذكر كلماتك العاطرة، وتوجيهاتك الحكيمة، ليس هذا -والله- نفاقاً ولا جحوداً، ولكن تقصير نرجو له تداركاً إن شاء الله، وخطأ نرجو له إصلاحاً، فنحن -والله- نحبك، بل نحب

الثرى الذي مشيت عليه، والديار التي سكنت فيها، والبلاد التي عشت فيهـا، ولا نصـبر عـلى فراقك والبعد عنك، وأملنا أن نلقاك على الحوض إن شاء الله.

-عذراً -يا رسول الله- إن جهـل عليـك بعـض الجـاهلين مـن أبنـاء أمتـك فتطـاولوا عليـك بإعتراض، أو تهجموا عليك بشبهة، فهذا الجهل منهم لا يقلل إلا من شأنهم هم، ولا يحـط إلا من قدرهم هم، وحلمك -كما نعلم- أوسع من جهلهم، وعلمـك أشـمل مـن علمهـم، ومـا جرأهم عليك إلا سوء تربيتهم، وفساد مناهجهم، وجريهم وراء كل غربي، وفتنتهم بشركائهم من الجن والإنس، وسوف يعلمون في يوم قريب من السعيد ومن الشقي، ومن الـذي يرحـب به ويسقى من حوضك، ومن الذي يقال له: سحقاً سحقاً.

-عذراً -يا رسول الله- إن كانت أمتك الآن ليست على الصورة التي تحب، وليست في المكـان الذي تريد؛ فهذه تراكمات سنين وأخطاء أجيال، لكن عزاؤنـا أننـا عـدنا بفضـل الله إلى جـادة الطريق، فقامت الصحوة الإيمانية، وازدهرت الدعوة الإسـلامية، وحـرص الكثـير مـن أبنـاء أمتك على تدارك ما فاتهم واللحاق بركب الصالحين، ولا نشك أبداً أن هذا طريق العـزة لهـذه الأمة، فنحن -إن شاء الله- فيه سائرون صابرون مجاهدون، وبشارتك معنا أنه لا تـزال طائفـة من أمتك ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، نسـأل الله أن نكون منهم.

وختاماً: نسأل الله عز وجل أن يشفعك فينا، وأن ييسر لنا أن نشرب من حوضك يـوم القيامـة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً، وأن يجعلنا ممن يدخلون الجنة معـك، ويرفعـون إلى صـحبتك، فقد بشرتنا بأن المرء يحشر مع من أحب، ونحن -والله- نحبك ونحب أصحابك وإن لم نعمـل بأعمالكم.

نسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا، وأن يستر عيوبنا، وأن يكفر عنا سيئاتنا، وأن يرفع لنـا درجاتنـا، وأن يجعلنا مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنـك حميـد.اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيـد. اللهـم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريتـه كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم صل على محمد عبدك ورسـولك كـما صـليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، اللهم صل على محمـد وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميـد مجيـد. اللهـم اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمـد عبـدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطـه بـه الأولـون والآخرون، اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، اللهم جازه عنا وعن المسلمين وعن العالمين خير الجزاء، وصل اللهم عليه في الأولين، وصل اللهم عليه في الآخرين، وصل اللهم عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين، آمين، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.